

زهر الآداب وثمر الألباب

الحُصري

To PDF: www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصَلَّى الله على محمدٍ خاتمِ النبيين، المرسل بالنور المبين، والكتابِ المستبين، الذي تحدَّى الخلقَ أن يأتوا بمثله فعجزوا عنه، وأقروا بفضله، وعلى آله وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد؛ فهذا كتابٌ احترتُ فيه قطعةً كاملةً من البلاغات؛ في الشعر والخبر، والفصول والفقر، ممَّا حسنَ لفظه ومعناه، واستدِلَّ بِفَحْوَاهُ على مَعْرَاهُ، ولم يكن شاردًا حُوشِيًّا، ولا ساقطًا سُوقِيًّا، بل كان جميع ما فيه، من ألفاظه ومعانيه، كما قال البحتري الخفيف:

لَكَ أَمْرٌ أَنَّهُ نِظَامٌ فَرِيدٌ

فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَ

وَتَجَنَّبَنَ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ

حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ اخْتِيَارًا

نَبَهَ غَايَةَ الْمُرَادِ الْبَعِيدِ

وَرَكِبَنَ اللَّفْظَ الْقَرِيبَ فَأَدْرَكَ

ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار، كأحاديث صَعَصَعَةَ بن صُوحَانَ، وخالد بن صَفْوَانَ، ونظائرها؛ إذ كانت هذه أجملَ لفظًا، وأسهلَ حفظًا.

وهو كتابٌ يتصرف الناظرُ فيه من نثره إلى شعره، ومطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومُنَاقَلَتِهِ إلى مُسَاجَلَتِهِ، وخطابه المبهت إلى جوابه المُسَكَّتِ، وتشبيهاته المُصِيبَةِ إلى اختراعاته الغريبة، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المعجب إلى هَزَلِهِ المُطَرَّبِ، وجَزَلِهِ الرائع إلى رقيقه البارِعِ.

وقد نزعْتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت، وعن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء من مثله؛ فجعلتُ بعضه مُسَلْسَلًا، وتركتُ بعضه مُرْسَلًا؛ ليحصل مُحرَرُ النَّقْدِ، مُقدَّرُ السُّرْدِ؛ وقد أخذ بِطَرَفِي التَّأْلِيفِ، واشتمل على حاشِيَتِي التصنيفِ؛ وقد يَعِزُّ المعنى، فألحقُ الشَّكْلَ بنظائره، وأعلق الأول بآخره، وتبقى منه بقية أفرقها في سائره؛ ليسلَمَ من التطويل الممل، والتقصير المخل، وتظهر في التجميع إفادةُ الاجتماع؛ وفي التفريق لَدَاذَةُ الإمتاع، فيكمل منه ما يُونِقُ القلوبَ والأسماع؛ إذ كان الخروجُ من جدِّ إلى هَزَلٍ، ومن حَزْنٍ إلى سَهْلٍ أنْفَى للكلِّ، وأبعدَ من الملل؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم هو أبو العتاهية: البسيط:

إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَابِرَةً

وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه، وندبني إلى تصنيفه، ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان - أطال الله مدته، وأدام نعمته! - في الأدب، وإنفاق عمره في الطلب وماله في الكتب؛ وأنَّ اجتهاده في ذلك حملة على أن ارتحل إلى المشرق بسببها، وأغمضَ في طلبها، باذلاً في ذلك ماله، مستعذباً فيه تعبهُ، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفة، وغرائب غريبة، وسألني أن أجمع له من مُختارها كتاباً يكتفي به عن جملتها، وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه، وشابهه ومائله؛ فسارعتُ إلى مراده، وأعنته على اجتهاده، وألفتُ له هذا الكتاب، ليستغني به عن جميع كتب الآداب، إذ كان موشحاً من بدائع البديع، ولآلئ الميكالي، وشهية الخوارزمي، وغرائب الصاحب، ونفيس قابوس، وشذور أبي منصور بكلامٍ بمتزج بأجزاء النفس لطافة، وبالهواء رقة، وبالماء عذوبة. وليس لي في تأليفه من الافتخار، أكثرُ من حُسْن الاختيار؛ واختيارُ المرء قطعة من عقله، تدلُّ على تحلُّفه أو فضله؛ ولا شك - إن شاء الله - في استجادة ما استجدت، واستحسان ما أوردت؛ إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفسٌ، ولا اجتمع حسنٌ، ولا مال سرٌّ، ولا جال فكرٌ، في أفضل من معنى لطيف، ظهر في لفظ شريف؛ فكساه من حسن الموقع، قبولاً لا يُدفع، وأبرزه يختال من صفاء السبك ونقاء السلك، وصحة الديباجة، وكثرة الماتية، في أجمل حُلّة، وأجلى حلية الكامل:

يستنبط الروح اللطيف نسيمه أرجأ، ويؤكل بالضمير ويُشرب

وقد رغبتُ في التجافي عن المشهور، في جميع المذكور، من الأسلوب الذي ذهبتُ إليه، والنحو الذي عولتُ عليه؛ لأن أول ما يقرع الأذان، أدعى إلى الاستحسان، مما مجَّته النفوسُ لطول تكراره، ولفظته العقولُ لكثرة استمراره؛ فوجدت ذلك يتعذر ولا يتيسر، ويمتنع ولا يتسع؛ ويوجب ترك ما ندر إذا اشتهر؛ وهذا يوجب في التصنيف دخلاً، ويكسب التأليف خللاً؛ فلم أُعرض إلا عما أهانه الاستعمال، وأذاله الابتذال، والمعنى إذا استدعى القلوب إلى حفظه، ما ظهر من مُستحسن لفظه؛ من بارع عبارة، وناصع استعارة، وعذوبة مورد، وسهولة مقصد، وحسن تفصيل، وإصابة تمثيل؛ وتطابق أنحاء، وتجانس أجزاء، وتمكُّن ترتيب، ولطافة تهذيب، مع صحة طبع وجوده إيضاح، يثقفه تثقيف القداح، ويصوره أفضل تصوير، ويقدره أكمل تقدير؛ فهو مشرق في جوانب السمع، لا يُخلقه عوده على المستعبد: الكامل:

وهو المُشَيِّعُ بالمسامع إن مضى وهو المضاعفُ حسنه إن كرراً

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثيرٍ ممن سبقني إلى مثل ما جرّيتُ إليه، واقتصرت في هذا الكتاب عليه، لِمَلَحْ أَوْرَدْتُهَا كَنَوَافِثِ السَّحْرِ؛ وَفَقَّرَ نَظْمَتَهَا كَالْغَنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، مِنْ أَلْفَاظِ أَهْلِ الْعَصْرِ، فِي مَحَلِّ النُّثْرِ، وَمَعْقُودِ الشَّعْرِ؛ وَفِيهِمْ مَنْ أَدْرَكَتُهُ بَعْمَرِي، أَوْ لَحِقَهُ أَهْلُ دَهْرِي؛ وَلَهُمْ مِنْ لَطَائِفِ الْإِبْتِدَاعِ، وَتَوَلِيدَاتِ الْإِخْتِرَاعِ، أَبْكَارٌ لَمْ تَفْتَرِعْهَا الْأَسْمَاعُ، يَصْبُو إِلَيْهَا الْقَلْبُ وَالطَّرْفُ، وَيَقْطُرُ مِنْهَا مَاءُ الْمَلَاخَةِ وَالطَّرْفِ، وَتَمْتَرُجُ بِأَجْزَاءِ النَّفْسِ، وَتَسْتَرْجِعُ نَافِرَ الْأَنْسِ، تَخَلَّتْ تَضَاعِيفُهُ، وَوَشَّحَتْ تَأْلِيفُهُ، وَطَرَزَتْ دِيبَاجَهُ، وَرَصَّعَتْ تَاجَهُ، وَنَظَّمَتْ عَقُودَهُ، وَرَقَمَتْ بُرُودَهُ؛ فَنُورُهَا يَرِفُ، وَنُورُهَا يَشِفُ، فِي رَوْضٍ مِنَ الْكَلَمِ مُونِقٍ، وَرَوَّاقٍ مِنَ الْحَكَمِ مَشْرِقِ الطَّوِيلِ:

إذا ما استشفّته العيون مُصَعَّدُ

صفا ونفى عنه القذى فكأنه

فهو كما قلت السريع:

يَجْرِي مَعَ الرُّوحِ كَمَا تَجْرِي

بديع نثرٍ رقٍّ حتّى غدا

ديباجةٌ ليست من الشعر

من مذهب الوشي على وجهه

ترُود في روثها النضر

كزهرة الدنيا وقد أقبلت

يختال في أودية الفجر

أو كالنسيم الغضّ غبّ الحيا

ولعل في كثيرٍ مما تركتُ، ما هو أجودُّ من قليلٍ مما أدركتُ؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بعضٍ، ومن فيضٍ على برّضٍ، ولكني اجتهدتُ في اختيار ما وجدتُ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ في شفاعَةِ اللفظَاتِ، ويمرُّ البيتُ في خِلَالِ الأبياتِ، وتعرضُ الحكايةُ في عرضِ الحكاياتِ، يتمُّ بها المعنى المراد، وليست ممَّا يُسْتَحَادُّ، ويبحثُ عليها فَرَطُ الضرورةِ إليها في إصلاحِ خللٍ؛ فمهما ترّه من ذلك في هذا الاختيار، فلا تعرّضُ عنه بطرفِ الإنكار؛ وما أقلُّ ذلك في جميعِ المسالكِ الجارية في هذا الكتاب، الموسوم بزهر الآداب، وثمر الألباب، لكنني أردتُ أن أشارك من يخرج من ضيقِ الاغترار، إلى فسحة الاعتذار الكامل:

يَأْتِيكَ وَهُوَ بِشَعْرِهِ مَفْتُونٌ

ويسبيء بالإحسان ظناً، لا كمن

والله المؤيد والمسدّد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

"إنَّ من البيان لَسَحْرٌ".

روى عن عبد الله بن عباس - رضوان الله عليهما - قال: وَقَدَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ؛ فَقَالَ الزَّبْرِقَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا سَيِّدُ تَمِيمٍ، وَالْمَطَاغُ فِيهِمْ، وَالْحَجَابُ مِنْهُمْ، أَخَذُوا لِمَنْ يَحْقِّقُهُمْ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، وَهَذَا يَعْلَمُ ذَلِكَ - يَعْنِي عَمْرًا. فَقَالَ عَمْرُو: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُ مَانِعٌ لِحَوْزَتِهِ، مُطَاغٌ فِي عَشِيرَتِهِ، شَدِيدُ الْعَارِضَةِ فِيهِمْ.

فقال الزبرقان: أما إنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي! فقال عمرو: أما لئن قال ما قال؛ فوالله ما علمته إلا ضيق العطن زمر المروعة، أحقق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى.
 فرأى الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله، فقال: يا رسول الله، رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة. ويروى لحكما، والأول أصح.

والذي روى أهل الثبت، من هذا الحديث أنه قدم رجلان من أهل المشرق فخطبا؛ فعجب الناس لبيانهما؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً، أو إن من بعض البيان لسحرا.
 وعمرو بن الأهتم هو: عمرو بن سنان بن سمي بن سنان بن خالد ابن منقر ابن عبيد بن الحارث، والحارث هو: مقاعس بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم. وسمي سنان الأهتم، لأن قيس بن عاصم المنقري سيد أهل الوبر ضربه بقوسه فهتم فاه. هذا قول أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. وقال غيره: بل هتم فوه يوم الكلاب الثاني، وهو يوم كان لبني تميم على أهل اليمن. وكان عمرو يلقب المكحل لجماله، وبنو الأهتم أهل بيت بلاغة في الجاهلية والإسلام. وعبد الله بن عمرو بن الأهتم هو جد خالد ابن صفوان وشبيب بن شيبه. وكان يقال: الخطابة في آل عمرو، وكان شعره حلاًلاً منشرة عند الملوك تأخذ منه ما شاءت. وهو القائل الطويل:

لصالح أخلاق الرجال سرور

ذريني فإن البخل يا أم مالك

ولكن أخلاق الرجال تضيق

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

والزبرقان: اسمه حصين بن بدر بن امرئ القيس بن الحارث بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعيد. وسمي الزبرقان لجماله؛ والزبرقان: القمر قبل تمامه وقيل: لأنه كان يُزبرقُ عمامته، أي يصفرها في الحرب. وكانوا يسمون الكلام الغريب السحر الحلال، ويقولون: اللفظ الجميل من إحدى التفثات في العقد. وذكر بعض الرواة أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، قدم عليه وفود أهل كل بلد؛ فتقدم إليه وفد أهل الحجاز، فأشرأب منهم غلامٌ للكلام، فقال عمر: يا غلام، ليتكلم من هو أسن منك! فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد أجاد له الاختيار؛ ولو أن الأمور بالسن لكان هاهنا من هو أحق بمجلسك منك.
 فقال عمر: صدقت، تكلم؛ فهذا السحر الحلال! فقال: يا أمير المؤمنين، نحن وفد التهنة لا وفد المرزئة،

ولم تُقدِّمنا إليك رغبةً ولا رهبةً؛ لأننا قد أُمنا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا! فسأل عمر عن سنِّ الغلام، ف قيل: عشر سنين.

وقد روي أن محمد بن كعب القرظي كان حاضراً، فنظر وجه عمر قد تهلَّل عند ثناء الغلام عليه؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يغلبن جهلُ القوم بك معرفتك بنفسك؛ فإنَّ قوماً خَدَعهم الثناء، وغرهم الشكر، فرلَّت أقدامهم، فهووا في النار. أعاذك الله أن تكون منهم، وألحقك بسالف هذه الأمة؛ فبكى عمر حتى خيفَ عليه، وقال: اللهم لا تُخلِّنا من واعظ! وقد روي أنَّ عمرَ قال للغلام: عِظني، فقال هذا الكلام، وفيه زيادة يسيرة ونقص. وأخذ قولَ عمر: هذا السحر الحلال أبو تمام فقال يعاتب أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي الوافر:

إذا ما الحاجة انبَعَثَتْ يَدَاها جَعَلْتَ الْمَنَعَ مِنْكَ لَهَا عِقَالاً
فأين قصائدُ لي فيكَ تَأبَى وتأنفُ أنْ أهانَ وأنْ أذالا
هي السَّحَرُ الحلالُ لِمُجْتَلِيهِ ولم أرَ قبلها سِحْراً حَلالاً

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب وردَ إليه فأحمده:
وَصَلَّ ما واصلتني به، جعلني الله فداك، من كتابك، بل نعمتك التامة، ومُنتك العامة؛ فقرت عيني بوروده، وشُفيت نفسي بوفوده، ونَشَرْتُهُ فحَكِي نَسِيمَ الرياض غِب المطر، وتنفسَ الأنوار في السَّحَر، وتَأَمَّلْتُ مَفْتَحَهُ، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمِكَ، وبدائع حِكْمِكَ؛ فوجدته قد تحمَّل من فنون البرِّ عنك، وضروب الفضل منك، جِداً وهزلاً، ملاً وعين، وعَمَرَ قلبي، وغلب فِكْري، وبَهَرُ لُبِّي؛ فبقيت لا أدري: أَسْمُوط ذر خصصتني بها، أم عقود جوهر منحتنيها؟ كما لا أدري أبكراً زَفَفْتُها فيه، أم روضةً جهزتها منه؛ ولا أدري أخذوداً ضُرِّجت حياءً ضَمَّنَتْه؛ أم نجوماً طلعت عشاءً أودعته؛ ولا أدري أجْدُك أبلغ وألطف، أم هزلك أرفع وأظرف؛ وأنا أوكلُ بَتَّبِع ما انطوى عليه نَفْساً لا ترى الحَظَّ إلَّا ما اقْتَنَتْه منه، ولا تُعَد الفضل إلَّا فيما أخذته عنه، وأمتَّع بتأمله عيناً لا تَقْرُ إلَّا بِمَثَلِهِ، ممَّا يَصْدُر عن يدك، ويردُّ من عندك، وأعطيته نظراً لا يملُّه، وطرفاً لا يطرفُ دونه، وأجعله مثلاً أرْتَسِمه وأحتذيه، وأمتع خلقي بروثقه، وأغذي نفسي ببَهْجَتِهِ، وأمزج قريحتي برقته، وأشرح صدري بقراءته، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً؛ لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السحر الحلال.

وقال بعض الحداث يمدح كاتباً الكامل:

وإذا جرى قلم له في مُهَرِّقٍ عَجَلانَ في رَفْلانِهِ وَوَحِيهِ
نَظَمَتْ مَرِاشُفُهُ قلائدَ نُظْمَتْ بنَفِيسِ جَوْهَرٍ لَفْظِهِ وَشَرِيفِهِ

عن ذهن مصقول الذكاء مشوفه

بدعاً من السحر الحلال تولدت

جعلت وتحفة قادم لأليفه

مثلاً لضاربه وزاد مسافر

وعلى ذكر قوله وتحفة قادم قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وصف رجل رجلاً فقال: كان والله سمحاً سهلاً، كأنما بينه وبين القلوب نسب، أو بينه وبين الحياة سبب، إنما هو عيادة مريض، وتحفة قادم، وواسطة عقد.

وأخذ بعض بني العباس رجلاً طالبياً، فهم بعقوبته، فقال الطالبي: والله لولا أن أفسد ديني بفساد دنياك لملكنت من لساني أكثر مما ملكنت من سوطك، والله إن كلامي لفوق الشعر، ودون السحر؛ وإن أيسره ليثقب الخردل، ويحط الجندل.

وقال علي بن العباس، يصف حديث امرأة الكامل:

لم يجن قتل المسلم المتحرر

وحديثها السحر الحلال لو أنه

ود المحدث أنها لم توجز

إن طال لم يمل، وإن هي أوجزت

للمطمئن، وعقلة المستوفز

شرك العقول، ونزهة ما مثلها

ألم في بيته الآخر بقول الطائي الطويل:

وليس لها في الحسن شكل ولا تراب

كواعب أتراب لغيداء أصبحت

يروح ويغدو في خفارته الحب

لها منظر قيد النواظر لم يزل

وأول من استشار هذا المعنى امرؤ القيس بن حجر الكندي في قوله الطويل:

بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وقد أغتدي والطير في وكناتها

وكالت علية بنت المهدي مجزوء الكامل:

ل الأغيد الحلو الدلال

اشرب على ذكر الغزا

يا غل؟ ألباب الرجال

اشرب عليه وقل له

وكانت علية لطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجاري الكلام، ولها الحان حسنة، وعلفت بغلام اسمه رشاً وفيه تقول مجزوء الكامل:

صبأ كئيباً متعباً

أضحى الفؤاد بزينا

وكتمت أمراً معجباً

فجعلت زينب ستره

قولها: بزئيب تريد برشاً.

فُئِمِيَ الأمر إلى أخيها الرشيد، فأبعده، وقيل: قَتَلَهُ، وَعَلَقَتْ بعده بغلام اسمه طَلٌّ، فقال لها الرشيد: والله لئن ذَكَرْتَهُ لأَقْتُلَنَّكَ! فدخل عليها يوماً على حين غَفْلَةٍ وهي تقرأ: فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَاِبْلُ فَمَا نَهَى عَنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فضحك، وقال: ولا كُلَّ هذا، وهي القائلة الكامل:

يا عاذلي، قد كنتُ قبْلَكَ عاذلاً
الحب أول ما يكون مَجَانَةً
أَرْضَى فَيَغْضَبُ قَاتِلِي فتعجبوا
و هي القائلة الرمل:

حتى ابتليتُ فصرْتُ صَبّاً ذاهلاً
فإذا تحكَم صار شُغلاً شاغلاً
يَرْضَى القَتِيلُ ولا يُرضِي القاتلاً

وَضَعُ الحبُّ على الجَوْرِ، فلو
وَقَلِيلُ الحبِّ صِرْفاً خالِصاً
ليس يُسْتَحْسَنُ في نَعْتِ الهوى
وكأنها ذهبت في الأول إلى قول العباس بن الأحناف الطويل:

وأحْسَنُ أيامِ الهوى يومُكَ الذي
إذا لم يكن في الحبِّ سَخَطٌ ولا رضا
وقد زاد النميري في هذا فقال الخفيف:

راحتي في مقالة العُدَّالِ
لا يَطِيبُ الهوى ولا يحسُنُ الـ
بسماع الأذى، وعَذْلُ نصيحٍ،
وقال بعض المحدثين الكامل:

لولا اطِّرادُ الصيدِ لم تَكُ لَذَّةٌ
هذا الشرابُ أخو الحياة وماله
وقال آخر الطويل:

دع الصبَّ يَصَلِّى بالأذى من حبيبهِ
غُبَارُ قَطِيعِ الشَّاءِ في عَيْنِ ذَنْبِهَا
وَأَنشَدَ الأصمعي الجميل بن معمر العذري: البسيط:

فإنَّ الأذى مِمَّنْ تُحِبُّ سُرُورُ
إذا ما تلا آثارهُنَّ ذُرُورُ

عواضُ اليأسِ أو يَرْتاحه الطَّمَعُ
لكنْتُ أُمْلِكُ ما آتِي وما أَدْعُ
كادت له شَعْبَةٌ من مُهْجَتِي تَقْعُ

لا خَيْرَ في الحبِّ وقفاً لا تحركهُ
لو كان لي صَبْرُها أو عندها جَزَعِي
إذا دعا باسمِها داعٍ ليحزنني

وهذا البيت كقول علي بن العباس الرومي: الكامل:

فكفاهُم بالوَجْدِ والأشواقِ
فإذا تضاعَفَ كان غير مُطَاقِ
كالريح تُغري النارَ بالإحراقِ

لا تَكْثُرَنَّ ملامَةَ العشاقِ
إن البلاءَ يطاقُ غيرَ مُضاعَفِ
لا تُطْفَنَنَّ جَوَى بَلّومٍ؛ إنهُ

ويشبه يَتَّ عَلِيَّةُ الآخر بيتُ أنشدَ في شعرِ رُؤي لأبي نواس، ورواه قوم لعنان جارية الناطفي، وهو:
الكامل:

لم يَحُلْ إلا بالعتابِ وصالُ
مَنْ كان يصرف وجهه التَغْذالُ
ما لم يكن غَدْرٌ ولا استبدالُ
ولها من البدر المنيرِ مِثالُ
حسناء سار بحسناها الأمثالُ
نوراً فمَاءُ شبابها يَخْتالُ
شمس يُمْدُ بها إليك هلالُ
وتكلّمت بلسانها الجُرَيالُ
أفعالها وجرى بهنَّ الفالُ
حَضَرَ النصيحُ وغابتِ العِذالُ
سِرٌّ لدى أبوابه أَقْفالُ

حلو العتاب يهيجُهُ الإدلالُ
لم يَهُوَ قَطُّ ولم يُسَمَّ بعاشقِ
وجميعُ أسبابِ الغرامِ يسيرةُ
تصف القضييبَ على الكثيبِ قَناتُها
ولرُبِّ لابسَةٍ قَناعَ مَلّاحَةٍ
كَسَتِ الحَدائِثُ ظَرْفَها وجمالُها
وكأنها والكأسُ فوق بَنانِها
حتى إذا ما استأنست بحديثِها
قلنا لها: إن صدّقت أقوالَها
قولي فليس تَرَاكَ عينُ نَميمةٍ
وضميرُ ما اشتملتُ عليه ضلو عُنّا

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي معنى قيد الأوابد، فقال يصف كلباً: الرجز:

وعقلةُ الطّبي وَحَنَفُ التَّنَقُّلِ
عَلَّمَ بِقَرّاطٍ فِصادِ الأَكْحَلِ

نَيْلُ المُنَى وَحَكْمُ نَفْسِ المُرْسِلِ
كَأنَّهُ من علمه بالمَقْتَلِ

وقال في بني حمدان: الكامل:

متصعلكينَ عَلَى كَثَافَةِ مُلْكِهِمْ

متواضعينَ عَلَى عَظِيمِ الشَّأْنِ

يَتَقَلَّبُونَ ظِلَالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ

أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرِبْقَةِ السَّرْحَانِ

وقال أعرابي يصف فرساً: إنه لدرك الطالب، ومنجى الهارب، وقيد الرهان، وزين الفناء.

وقال بعض أهل العصر في وصف غلام: وجهه قيد الأبصار، وأمد الأفكار، ونهاية الاعتبار.

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عباد: الطويل:

وَقَدْ أَغْتَدِي لِلصَّيْدِ غُدْوَةً أَصِيدُ

أُعَاجِلُ فِيهَا الْوَحْشَ وَالْوَحْشُ هُجْدُ

فَعَنَّتْ ظَبَاءٌ خَفَنَ تَحْتِي مَطْلَقَ الْي

دِينٍ بِهِ أَيْدِي الْوَحْشِ تَقِيدُ

فَأَدْرَكْتَهَا وَالسَّيْفُ لَمْعَةٌ بَارِقُ

وَلَمْ يُغْنَهَا إِحْضَارُهَا حِينَ تَجْهَدُ

وَقَدْ رُعْتُهَا إِذْ كَانَ شَعْرِي رَائِعاً

وَطَرَفُ مَشْيِي عِنْدَ عِزِّي أَرْمَدُ

وَمَا بَلَغْتَ حَدَّ الثَّلَاثِينَ مُدَّتِي

وَهَذَا طِرَازُ الشَّيْبِ فِيهِ يُمَدَّدُ

وأبيات ابن الرومي من أجود ما قيل في حسن الحديث، وقد توسع الشعراء في هذا الباب، وكثر

إحسانهم، كما كثر افتنائهم، وسأجري شأواً في مختار ما قيل في ذلك، وأعود إلى ما بدأتُ به.

قال القطامي - واسمه عُمَيْرُ بْنُ شَيْمٍ التَّغْلِي، وسمي القطامي لقوله: الرجز:

يَحْطُئْنَ جَانِباً فَجَانِباً

حَطَّ الْقُطَامِيُّ الْقِطَا الْقَوَارِبَا

وقال أبو عبيدة: ويقال للصقر قُطَامِي وقُطَامِي: البسيط:

وَفِي الْخُدُورِ غَمَامَاتٌ بَرَقْنَ لَنَا

حَتَّى تَصِيدُنَا مِنْ كُلِّ مُصْطَادٍ

يَقْتُلُنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ

مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي

فَهَنَّا يَنْبِدْنَ مِنْ قَوْلِ يُصْبِنُ بِهِ

مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي

وقال أبو حية الثُميري، واسمه الهيثم بن الربيع: الطويل:

وَخَبِرَكَ الْوَاشُونَ أَنْ لَنْ أُحْبَكُمُ

بَلَى وَسُتُورَ اللَّهِ ذَاتِ الْمَحَارِمِ

وَإِنْ دُمَا، لَوْ تَعْلَمِينَ، جَنِيَّتَهُ

عَلَى الْحَيِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ

أَصْدُ وَمَا الصَّدُّ الَّذِي تَعْلَمِينَهُ

عِزَاءً بِكُمْ إِلَّا ابْتِلَاعُ الْعَلَاقِمِ

حَيَاءً وَتُقْيَا أَنْ تَشِيعَ نَمِيمَةُ

بِنَا وَبِكُمْ، أَفْ لِأَهْلِ النَّمَائِمِ

أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكَ أَرْقَلْتُ

إِلَيْهِ الْقَنَا بِالرَّاعِفَاتِ اللَّهَازِمِ

ولكنه والله ما ظل مسلماً
إذا هن ساقطن الأحاديث للفتى
كغر الثنايا واحات الملاغم
سقوط حصى المرجان من كف ناظم
دماء مائراً إلا جوى في الحيازم
رمين فأنفذن القلوب، ولا ترى

وقال أيضاً: الطويل:

حديث إذا لم تخش عينا كأنها إذا ساقطته الشهد أو هو أطيب
لو أنك تستشفي به بعد سكرة
من الموت كادت سكرة الموت تذهب
إلى هذا ينظر قول الآخر وإن لم يكن منه: الطويل:

أقول لأصحابي وهم يعذلونني
بذكر منى نفسي فبلوا، إذا دنا
ودمع جفوني دائم العبرات
خروجي من الدنيا، جفوف لهاتي
وقال سديف مولى بني هاشم يصف نساء: الكامل:

وإذا نطقن تخالهن نواظماً
وإذا ابتسمن فإنهن غمامة
درا يفصل لؤلؤاً مكنوناً
أو أقحوان الرمل بات معينا
وإذا طرقن طرفن عن حدق المها
وكان أجباد الأطباء تمدها
وأصح ما رأيت العيون محاجراً
وكانهن إذا نهضن لحاجة
يَنْهَضْنَ بِالْعَقَدَاتِ مِنْ بَيْرِنَا

وقال الطائي: الكامل:

تُعْطِيكَ مَنْطِقَهَا فَتَعْلَمُ أَنَّهُ
وَأُظُنَّ حَبْلَ وَصَالِهَا لِمُحِبِّهَا
لَجَنَى عَذُوبَتِهِ يَمُرُّ بِثَغْرِهَا
أَوْهَى وَأَضْعَفُ قُوَّةً مِنْ خَصْرِهَا

أخذه أبو القاسم بن هاني، فقال يمدح جعفر بن علي، إلا أنه قلبه فقال: الكامل:

قد طيَّبَ الأفواه طيبُ ثَنَائِهِ
وَكَأَنَّمَا ضَرَبَ السَّمَاءَ سُرَادِقاً
من أجل ذا نجد الثغور عذابا
بالزباب، أو رفع النجوم قبابا
أَرْضاً وَطِئْتُ الدَّرَّ رَضْرَاضاً بِهَا
والمسك ترباً والرياض جنابا

وقال الطائي: الكامل:

تصف الفراق ومقلة ينبوعا
من رقة الشكوى تكون دموعا

بَسَطَتْ إِلَيْكَ بَنَانَةً أُسْرُوعَا
كَادَتْ لِعِرْفَانِ النَّوَى أَلْفَاظُهَا

ومن جيد هذا المعنى وقديمه قول النابغة الذبياني: الكامل:

عَبَدَ الْإِلَهَ، صَرُورَةً مُتَعَبِدٍ
وَلِخَالِهِ رُشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ
نَظَرَ السَّلِيمِ إِلَى وَجْهِ الْعُودِ

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ،
لَرْنَا لِلْهَجْتِهَا وَطِيبَ حَدِيثِهَا
نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا

ومن مشهور الكلام قول الآخر: الطويل:

أَرَى الْأَرْضَ تُطَوِّى لِي وَيَذْنُو بَعِيدُهَا
إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحْدُوثُهُ لَوْ تُعِيدُهَا
وَتُرْمَى بِلَا جُزْمٍ عَلَيَّ حُقُودُهَا

وَكُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ سَعْدَى بِأَرْضِهَا
مِنَ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَ جَلِيسُهَا
تَحَلَّلْتُ أَحْقَادِي، إِذَا مَا لَقِيتُهَا

وقال بشار: مجزوء الكامل:

قَطَعَ الرِّيَاضَ كُسَيْنَ زَهْرًا
كَ سَقَتِكَ بِالْعَيْنِينَ خَمْرًا
وَتَكُونُ لِلْحُكَمَاءِ ذِكْرًا
بِصَفَا وَوَأَفَقَ مِنْكَ فَطْرًا
هَارُوتُ يَنْفُتُ فِيهِ سَحْرًا
هَثِيَابَهَا ذَهَبًا وَعَطْرًا

وَكَأَنَّ رَجَعَ حَدِيثُهَا
حَوْرَاءُ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيَّ
تَنْسِي الْغَوِيَّ مَعَادَهُ
وَكَأَنَّهَا بَرْدُ الشَّرَا
وَكَأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا
وَتَخَالَ مَا جَمَعْتُ عَلَيَّ

وسمع بشار قول كثير بن عبد الرحمن: الطويل:

إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأُكْفِ تَلِينُ

أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْزُرَانَةٍ

فقال: قاتل الله أبا صخر! يزعم أنها عصا ويعتذر بأنها خيزرانة، ولو قال: عصا مخ، أو عصا زبد؛ لكان قد هجتها مع ذكر العصا، هلا قال كما قلت: الوافر:

كَأَنَّ حَدِيثَهَا ثَمَرُ الْجَنَانِ

وَدَعَجَاءُ الْمَحَاجِرِ مِنْ مَعَدٍّ

كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزُرَانَ

إِذَا قَامَتْ لِحَاجَتِهَا تَنْتَنُ

وبعد قول كثير: ألا إنما ليلى عصا خيزرانة: الطويل:

تَمَتَّعَ بِهَا مَا سَاعَفَتْكَ، وَلَا يَكُنْ
عَلَيْكَ شَجَى فِي الصَّدْرِ حِينَ تَبِينُ
وَأِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيَانَ فَإِنَّهَا
لَاخِرَ مَنْ خَلَّانَهَا سَتَلِينُ
وَأِنْ حَلَفْتَ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا
فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ

وقال البحرى: الطويل:

وَلَمَّا التَّقِينَا وَاللَّوَى مَوْعِدَ لَنَا
تَعْجَبَ رَائِي الدُّرَّ حُسْنًا وَلَا قِطْعَةً
فَمَنْ لَوْلُو تَجْنِيهِ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا
وَمَنْ لَوْلُو عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ

وقال المتنبي: الطويل:

أَمْنَعِمَةً بِالْعَوْدَةِ الظَّبِيَّةُ الَّتِي
بَغِيرَ وَلِي كَانَ نَائِلُهَا الْوَسْمِي
تَرَشَفْتُ فَاهَا سُحْرَةً فَكَأَنِّي
تَرَشَفْتُ حَرَّ الْوَجْدِ مِنْ بَارِدِ الظُّلْمِ
فَتَاةُ تَسَاوَى عَقْدُهَا وَكَلَامُهَا
وَمَبْسِمُهَا الدُّرِيُّ فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ

عاد الحديث الأول - قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: حدثنا يوسف بن يعقوب قال: أخبرني جدِّي قراءة عليه، عن أبي داود، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي إسحاق، عن البراء يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنْ مِنْ الشَّعْرِ لِحُكْمًا، وَإِنْ مِنْ الْبَيَانِ لِسِحْرًا" قال أبو القاسم: هكذا روينا الخبر، وراجعت فيه الشيخ، فقال: نعم، هو: "إِنْ مِنْ الشَّعْرِ لِحُكْمًا" - بضم الحاء وتسكين الكاف، قال: ووجهه عندي إذا روي هكذا: إِنْ مِنْ الشَّعْرِ مَا يَلْزِمُ الْمَقُولَ فِيهِ كَلْزُومُ الْحُكْمِ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِ؛ إِصَابَةٌ لِلْمَعْنَى، وَقَصْدًا لِلصَّوَابِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ أَبُو تَمَامٍ: الطويل:

وَلَوْ لَا سَبِيلَ سَنَنِ الشَّعْرِ مَا دَرَى
بُعَاةُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى الْمَكَارِمُ

يُرَى حِكْمَةً مَا فِيهِ وَهُوَ فَكَاهَةٌ
وَيُرْضَى بِمَا يَقْضِي بِهِ وَهُوَ ظَالِمٌ

انتهى كلام أبي القاسم.

وقد وجدنا في الشعر أبياتاً يُجْرَى عَلَى رِسْمِهَا، وَيُمَضَّى عَلَى حِكْمِهَا؛ فَقَدْ كَانَ بَنُو أَنْفِ النَّاقَةِ إِذَا ذَكَرَ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْفَ النَّاقَةِ - فَضلاً عَنْ أَنْ يَنْسِبَهُمْ إِلَيْهِ - اشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَيْهِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَالَ الْحَطِئَةُ يَمْدَحُهُمْ: البسيط:

سِيرِي أَمَامَ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصَى
وَالْأَطْيَبِينَ إِذَا مَا يُنْسَبُونَ أَبَا
قَوْمٍ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لَجَارِهِمْ
شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا

ومن يُسَوِي بَأْنْفِ الناقَةِ الذنْبَا

قوم هم الأنف والأذنبُ غيرهم

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به.

وأنفُ الناقة: هو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم.

وكان بنو العجلان يَفْخَرُونَ بهذا الاسم، ويتشَرَّفُونَ بهذا الوَسْمِ، إذ كان عبدُ الله بن كعب جدُّهم إنما سَمَّى العجلان لتعجيله القَرَى للضيَّفان؛ وذلك أن حياً من طيء نزلوا به، فبعث إليهم بقرأهم عبداً له، وقال له: أعجل عليهم، ففعل العبدُ، فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمَّى إلا العجلان؛ فسمَّى بذلك، فكان شرفاً لهم، حتى قال النجاشي، واسمه قيس بن عمرو بن حرن بن الحارث بن كعب يهجوهم: الطويل:

هَجَيْن ورهطُ الواهِنِ المتذلِّ

أولئك أخوالُ اللعينِ وأسرهُ ال

خذِ القَعْبَ واحلبِ أيها العبدِ واعجلِ

وما سُمِّي العجلانُ إلا لقوله

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال: كعبي، ويكنى عن العجلان.

وزعمت الرواة أنَّ بني العجلان استعدَّوا على النجاشي - لما قال هذا الشعر - عُمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقالوا: هَجَانَا، قال: وما قال فيكم؟ فأنشدوه قوله: الطويل:

فعادَى بني العجلان رهط ابنِ مقبلِ

إذا الله عادَى أهلَ لؤمٍ ورقَّةٍ

فقال: إنَّ الله لا يُعادي مسلماً، قالوا: فقد قال: الطويل:

ولا يظلمون الناس حبة خردلِ

قُبيلة لا يَغْدرون بِذِمَّةٍ

فقال: وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك! قالوا: فقد قال: الطويل:

وتأكلُ من عَوْفِ بن كعبِ بن نهشلِ

تَعَافُ الكِلَابُ الضاريَات لحومَهُم

فقال: كفى ضياعاً مَنْ تأكل الكلابُ لحمه! قالوا: فقد قال: الطويل:

إذا صَدَرَ الوُرَادُ عَن كُلِّ مَنْهَلِ

ولا يَرِدُونَ الماءَ إِلَّا عَشِيَّةً

فقال: ذلك أَصْفَى للماء، وأقلُّ للزَّحَام! قالوا: فقد قال: الطويل:

خذِ القَعْبَ واحلبِ أيها العبدِ واعجلِ

وما سُمِّي العجلانُ إلا لقوله

فقال: سيِّد القوم خَادِمُهُم! وكان عمر، رضي الله عنه، أعلم بما في هذا الشعر، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات.

وهؤلاء بنو نمير بن عامر بن صَعَصعة من القوم، أخذُ جمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن

مضر. وجمرات العرب ثلاثة؛ وإنما سُمُوا بذلك؛ لأنهم مُتَوافرون في أنفسهم، لم يُدْخِلُوا معهم غيرهم؛ والتجمير في كلام العرب: التجميع، وهم: بنو نَمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد. فطَفِئَت جمرتان، وهما بنو ضبة؛ لأنها حالفت الرباب، وبنو الحارث؛ لأنها حالفت مَذْحِج، وبقيت نَمير لم تحالف؛ فهي على كَثَرَتِها وَمَنَعَتِها. وكان الرجل منهم إذا قيل له: مَن أَنْتَ؟ قال: نَميري كما ترى! إدلالاً بِنَسَبِهِ، وافتخاراً بمنصبه، حتى قال جرير بن عطية بن الخطافي لعُبَيْد بن حُصَيْن الراعي أحد بني نَمير بن عامر: الوافر:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلَاباً

كعب و كلاب: ابنا ربيعة بن عامر بن صعصعة؛ فصار الرجل منهم إذا قيل له: مَن أَنْتَ؟ يقول: عامري، ويكنى عن نَمير.

ومرّت امرأة يقوم من بني نَمير، فأَحْدُثُوا النظر إليها، فقال منهم قائل: واللّه إنها لَرَشْحَاء، فقالت: يا بني نَمير، واللّه ما امتثلتم في واحدة من اثنتين، لا قول الله عز وجل: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" ولا قول الشاعر:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ

وساير شريك بن عبد الله النميري يزيد بن عُمر بن هبيرة الفزاري، فَبَرَزَتْ بغلة شريك، فقال له يزيد: غُضٌّ من لجامها، فقال: إنها مكتوبة، أصلح الله الأمير! فضحك، وقال: ما ذهبت حيث أردت، وإنما عَرَّضَ بقوله: غُضٌّ من لجامها بقول جرير:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ

فَعَرَّضَ له شريك بقول ابن دارة: البسيط:

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ على قُلُوصِكَ واكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ

وبنو فزارة يُرْمَوْنَ بِإِثْيَانِ الإبل، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك كما ولي عمر بن هبيرة العراق: الوافر:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَأَنْتَ مَرَّةً أَمِينٌ لَسْتَ بِالطَّبْعِ الْحَرِيسِ

أَوَلَّيْتَ الْعِرَاقَ وَرَأْفِدِيهِ فَزَارِيًّا أَحَذَى الْقَمِيصِ

ولم يكُ قَبْلَهَا رَاعِي مَخَاضِ لِيَأْمَنَهُ عَلَى وَرَكِي قُلُوصِ

تَفِيهَقَ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمُنْتَى وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ الْخَبِيصِ

الرافدان: دجلة والفرات.

وقال بعض النميريين يجيبُ جريراً عن شِعْرِهِ: الوافر:

نميرٌ جمرَةُ العرب التي لم تنزل في الحرب تلتهب التهابا
وإني إذ أسبُّ بها كُليباً فتحت عليهم للخسفِ بابا
ولولا أن يقال هَجَا نميراً ولم يسمَعْ لشاعرهم جَوَابا
رغبنا عن هجاء بني كليب وكيف يُشَاتِمُ الناسُ الكلابا

فما نفع نميراً، ولا ضرَّ جريراً، بل كان كما قال الفرزدق: الكامل:

ما ضرَّ تغلبَ وائلَ أهجوتَهَا أم بُلَّتْ حيثَ تناطَحَ البحرانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بني صبير بن يربوع في هجائه لثقيف: الوافر:

وسوف يزيذكُم ضَعَةً هِجائي كما وضع الهجاءُ بني نميرِ
وسمع الراعي منشداً ينشد: الطويل:

وعاوى عوى من غير شيء رَمِيَتْهُ بقافية أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرى هندوانى إذا هزَّ صمما

فارتاع له، وقال: لمن هذا؟ قيل: لجرير، قال: لعن الله من يلومني أن يغلبني مثل هذا! وقد بنى الشعرُ لقوم
بيوتاً شريفة، وهدم لآخرين أبنية منيفة:

وما هو إلا القول يسري فتغتدي له غرر في أوجه ومواسم

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي: سمعت أبا عمرو بن العلاء ورجل يقول: إنما الشعر كالْمِيسَم. فقال:
وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ويدرس مع طول العهد، والشعرُ يَبْقَى على
الأبناء بعد الآباء، ما بقيت الأرض والسماء! وإلى هذا نحا الطائي في قوله: الطويل:

وأني رأيتُ الوَسْمَ في خُلُقِ الفتى هو الوَسْمُ لا ما كان في الشَّعرِ والجلدِ

وقال عمر، رحمة الله عليه: تعلّموا الشعر؛ فإن فيه محاسنٌ تُبتَغى، ومساوئٌ تُتَّقَى .

وقال أبو تمام: الكامل:

إنَّ القوافيَ والمساعيَ لم تَزَلْ مثلَ النظامِ إذا أصابَ فريدا
هيَ جوهر نثر فإن ألفتَهُ في الشعر كان قلائداً وعقودا
من أجل ذلك كانت العرب الألى يدعونَ هذا سُودداً مجذودا

وَتَتَذُّعْنَهُمُ الْعُلَا إِلَّا إِذَا

جُعِلَتْ لَهَا مِرْرُ الْقَصِيدِ قِيُودَا

وقال علي بن الرومي: الطويل:

أرى الشعر يحيي الناسَ والمجدَ بالذي

تُبْقِيهِ أرواحُ له عَطِرَاتُ

وما المجدُ لولا الشعرُ إلا معاهدُ

وما الناسُ إلا أعظمُ نَخِرَاتُ

بعض ما قاله الرسول الكريم

رجعت إلى ما قطعت، مما هو أحق وأولى، وأجل وأعلى، وهو كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكريم النَجْر، العظيم القَدْر، الذي هو النهاية في البيان، والغاية في البرهان، المشتمل على جوامع الكلم، وبدائع الحكم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب، يَبْدَأُني من قریش، واسترضعت في سعد بن بكر!" وليس بعضُ كلامه بأولى من بعض بالاختيار، ولا أحق بالتقديم والإيثار؛ ولكني أورد ما تيسر منه في أول هذا الكتاب استفتاحاً، وتيمناً بذلك واستنجاحاً. وهذه شذوَرٌ من قوله صلى الله عليه وسلم، الصريح الفصيح، العزيز الوجيز، المتضمن بقليل من المباني كثير المعاني: قوله للأَنْصار: "إنكم لتقلُّون عند الطمع، وتكثرُّون عند الفزع". وقوله عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم". الناس كإبل مائة لا تجدُ فيها راحلة". "إياكم وخَضْرَاءُ الدِّمَنِ". "كل الصَّيْدِ في جَوْفِ الْفَرَا" - قاله لأبي سُفْيَانٍ صخر بن حرب - "الناسُ معادن، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا". "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً". "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". "المتشيع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور". "المرأة كالضلع إن رُمْتَ قوامها كسرَّتْها، وإن دَارَيْتَها استمعت بها". "اليدُ العليا خير من اليد السفلى". "مطل الغني ظلم". "يد الله مع الجماعة". "الحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمان، مثلُ أبي بكر كالقطر، أينما وقع نفع". "لا تجعلوني في أعجاز كتبكم كقدح الراكب". "أربعة من كنوز الجنة: كتمان الصَّدَقَةِ والمرض والمصيبة والفاقة". "جنة الرجل دارُهُ". "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا". "كفى بالسلامة داءً". "إنكم لن تَسْعُوا الناسَ بأموالكم، فَسَعَوْهم بأخلاقكم". "ما قلَّ وكفى خيرٌ ممَّا كثر وألهى". "كلُّ مُيسِرٍ لما خُلِقَ له". "اليَمِينُ حِنْثٌ أو مَنْدَمَةٌ". "دَعُ ما يَرييك إلى ما لا يَرييك". "أُنْصِرْ أَخَاكَ ظالماً كان أو مظلوماً". "احترسوا من الناسِ بِسُوءِ الظَّنِّ". "الندمُ تَوْبَةٌ". "انتظارُ الفرج عبادة". "نعم صَوْمَعَةُ الرجل بيته". "المستشير مُعان والمستشار مؤتمن". "المرءُ كثير بأخيه". "إنَّ للقلوب صدأ كصدإ الحديد وجلاؤها الاستغفار". "اليوم الرهان وغداً السباق، والجنةُ الغاية". "كلُّ مَنْ في الدنيا ضيف، وما

في يديه عارية، والضيف مُرتحل، والعارية مؤداة".

ومن جوامع كلمه، عليه الصلاة والسلام، ما رواه أهل الصحيح عن علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دُنيا يُصيّبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني: سمعتُ أهلَ العلم يقولون: هذا الحديث ثلثُ الإسلام، والثلث الثاني ما رواه النعمان بن بشير أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحلالُ بين، والحرام بين، وبينهما أمورٌ مشتهات، فمن تركها كان أوفى لدينه وعرضه، ومن واقعها كان كالراتع حول الحمى، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه".

قال: والثلث الثالث ما رواه مالك عن ابن شهاب عن علي بن حسين أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الشعرَ وأثابَ عليه، ونَدَبَ حسان بن ثابت إليه، وقال: "إن الله ليؤيده بروح القدس ما نافح عن نبيه".

ولما انتهى شعرُ أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، شقَّ عليه فدعا عبدَ الله بن رَواحة فاستنشدَه فأثَّشَدَه فقال: أنتَ شاعرٌ كريم، ثم دعا كعبَ بن مالك فاستنشدَه فأثَّشَدَه، فقال: أنتَ تُحسِّنُ صِفَةَ الحرب، ثم دعا بحسَّان بن ثابت فقال: أُجِبْ عني، فأخرج لسانه فضرب به أرنَبته؛ ثم قال: والذي بعثك بالحق ما أُحِبُّ أن لي به مَقُولاً في معد؛ ولو أن لساناً فرى الشعرَ لفرَّاه. ثم سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، أن يمسَّ من أبي سفيان، فقال: وكيف، وبينى وبينه الرَّحِم التي قد علمت؟ فقال: أسُِّلَّكَ منه كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من العجين! فقال: اذهب إلى أبي بكر، وكان أعلمَ الناس بأنساب قريش، وسائر العرب، وعنه أخذ جُبَيْر بن مُطْعَم علم النسب، فمضى حسانُ إليه فذكر له معانيه، فقال حسان بن ثابت: الطويل،

بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

كرام، ولم يقرب عجانرك المجد

ولكن لئيم لا يقوم له زند

وسمراء مغموز إذا بلغ الجهد

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وإن سنم المجد من آل هاشم

ومن ولدت أبناء زهرة منهم

ولست كعباس ولا كابن أمه

وإن امرأ كانت سميّة أمه

وأنت زنيم نيط في آل هاشم

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال: هذا كلامٌ لم يَغِبْ عنه ابنُ أبي قُحافة يعني بني بنت مخزوم عبد الله وأبا طالب والزبيرَ بني عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أمهمُ فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وأخواتهم برة وأميمة والبيضاء، وهي أم حكيم، والبيضاء جدة عثمان بن عفان أم أمه. وقوله: ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام يعني أميمة وصفية أم الزبير بن العوام، أمها هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وقوله: ولست كعباس ولا كإبنِ أمه أمّ العباس: نتيلة امرأة من التمر ابن قاسط، وأخوه لأمه ضرار بن عبد المطلب.

وقوله: وإن امرأ كانت سمية أمه سمية أم أبي سفيان، وسمراء أم أبيه، وليس هذا موضع إطناب في رفع الأنساب.

وكان عبدُ الأعلى بن عبد الرحمن الأموي عتبَ على بعض ولد الحارث فقال له مُعرَضاً بما قال حسان: السريع،

مفتخراً بالقَدَحِ الفردِ

فإنها أدعى إلى المجدِ

ولم تقيموا سورةَ الحمدِ

إخالُ بالعمِّ وبالجدِّ

الهَجِّ بحسَّانٍ وأشعاره

لولا سيوفُ الأزْدِ لم تؤمنوا

فتوعَّدوه، فخافهم، فقال: الطويل

وإن كان ثوبي حشَوُ ثنْيَيْهِ مُجرُمٌ

وجَمَعُ وما ضمَّ الحَطيِّمُ وزمزمُ

فأحلامُكم منها أجلُّ وأعظمُ

بني هاشم، عَفَوا عفا الله عنكم

لكم حرَمُ الرحمن والبيتُ والصفا

فإن قلنمُ بادَهَتنا بعظيمة

وأسلم أبو سفيان - رحمه الله! - وشهد مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم حُنين، وكان ممسكاً بَعَلَتَه حين فرَّ الناس، وهو أحد الذين ثبتوا، وهم - على ما ذكره أبو محمد عبد الملك بن هشام - أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان ابن الحارث، وابنه الفضل، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمنُ ابنُ أم أيمن بن عبيدة قتل يومئذ، وبعضُ الناس يعدُّ فيهم قُثمَ بن العباس، ولا يعدُّ أبا سفيان، وكان أبو سفيان من أشعر قريش، وهو القائل: الوافر،

بأنَّا نحنُ أجودُهُم حصاناً

وأَمْضاهم إذا طعنوا سناناً

وأَبْيَنُهُم إذا نطقوا لساناً

لَقَدْ عَلِمْتُ قريشَ غيرَ فخرٍ

وأَكْثَرُهُم دُرُوعاً سابِغاتٍ

وأَدْفَعُهُم عن الضُرِّاءِ عنهم

ويروى أن ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سفره قد شق ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرجل إذ قال: يا كعبُ ابن مالك: أحد بنا! فقال كعب: الوافر،

قَضِينَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ حَقٍّ
وَحَيْبَرٌ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السَّيُوفَا
نَخِيرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ
قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْسًا أَوْ تَقِيفَا

فقال عليه السلام: "والذي نفسي بيده لحي أشدُّ عليهم من رَشَقِ النَّبْلِ!" ويقال: إن دَوْسًا أسلمت فرَقًا من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن يتزل بكم ما نزل بغيركم!. وقتل النبي صلى الله عليه وسلم، النضر بن الحارث، وكان ممن أُسِرَ يوم بدر، وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، صبراً، فعرضت للنبي صلى الله عليه وسلم، أخته قتيلة بنت الحارث - وفي بعض الروايات أن قتيلة أخته فأثدته: الكامل

يَا رَاكِبًا إِنْ الْأَثِيلَ مَظَنَّةٌ
أَبْلَغُ نَجْهًا مَيْتًا بِأَنْ تَحْيَا
مَنِي إِلَيْهِ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتَهُ
ظَلَّتْ سَيْوُفُ بَنِي أَبِيهِ تَتَوَشَّه
قَسْرًا يُقَادُّ إِلَى الْمَنِيَّةِ مُتَعَبًا
أَمَحْمَدُ، هَا أَنْتَ صِنُو كَرِيمَةٍ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ قَتَلْتَ قَرَابَةً
أَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ فَلْيُفْدَيْنِ
مِنْ صُبْحٍ غَادِيَةٍ وَأَنْتَ مَوْفَقٌ
مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تُعْنَقُ
جَادَتْ بِوَاقِفِهَا وَأُخْرَى تَخُنُّقُ
إِنْ كَانَ يَسْمَعُ مَيْتٌ لَا يَنْطِقُ
لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ
رَسَفَ الْمُقَيَّدِ وَهُوَ عَانٍ مَوْثِقُ
فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْنَقُ
وَأَحْقَهُمْ إِنْ كَانَ عَتَقَ يُعْنَقُ
بِأَعَزِّ مَا يُغْلَى بِهِ مَنْ يُنْفَقُ

فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رق لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر: "لو كنت سمعتُ شعرها ما قتلته".

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلْدَةَ بن عبد مناف بن عبد الدار. قال الزبير بن بكار: وسمعت بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول: إنها مصنوعة.

بعض ما قاله أبو بكر الصديق

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو مُسَجَّى بثوبٍ، فكشف عنه الثوب وقال: بأبي أنت وأمي! طُبْتُ حَيًّا وَمَيِّتًا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحدٍ من الأنبياء من النبوة، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء. ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجئنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشؤن. فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإذناف يتحالفان ولا يبرحان. اللهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلقت من السكينة لم نُقِمَ لما خلقت من الوحشة، اللهم أبلغ نبئك عنا وأحفظه فينا، ثم خرج.

قوله رضي الله عنه: لولا أن موتك كان اختياراً منك إنَّما يريد قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لم يُقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخبر" قالت عائشة رضي الله عنها: فسمعتُه وقد شخص بصره وهو يقول: "في الرفيق الأعلى" فعلمت أنه خير، فقلت: لا يختارنا إذن، وقلت: هو الذي كان يحدثنا. وهو صحيح.

وكان أبو بكر، لما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أرضه بالسنع، فتواترت إليه الرسل، فأتى وقد ذهل الناس، فكانوا كالخرس، وتفرقت أحوالهم، واضطربت أمورهم، فكذب بعضهم بموته، وصمت آخرون فما تكلموا إلا بعد التغير،، وخلط آخرون فلائوا، الكلام بغير بيان، وحق لهم ذلك للرزية العظمى، والمصيبة الكبرى، التي هي بيضة العقر، وبيضة الدهر، ومدى المصائب، ومنتهى النوائب، فكل مصيبة بعدها جَلَلٌ عندها، ولذلك قال، صلى الله عليه وسلم: "لَتُعَزَّ المسلمون في مصائبهم المصيبة بي". وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ممن كذب بموته، وقال: ما مات، وليرجعته الله، فليقطعن أيدي المنافقين وأرجلهم، يتمنون لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، الموت؛ وإنما وعده ربه كما وعده موسى، وهو يأتيكم.

وأما عثمان، رضي الله عنه، فكان ممن أخرس، فجعل لا يكلم أحداً، فيؤخذ بيده ويُجاء به فينقاد.

وأما علي، رضي الله عنه، فلبط بالأرض، فقعد ولم يبرح البيت حتى دخل أبو بكر، وهو في ذلك جلد العقل والمقالة، فأكبَّ عليه، وكشف عن وجهه ومسحه، وقبَّل جبينه، وبكى بكاءً شديداً، وقال الكلام الذي قدَّمته. ولما خرج إلى الناس وهم في شديد غمِّهم، وعظيم سكراتهم، قام فخطب خطبة جُلِّها الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، قال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين. في كلام طويل، ثم قال: أيها الناس؛ مَنْ كان يعبد

محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حقٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكما في أمره، فلا تدعوه جزعًا، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وحلَّف فيكم كتابه، وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عَرَفَ، ومن فَرَّقَ بينهما أنكر؛ "يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ"، ولا يَشْغَلْكُمْ الشَّيْطَانُ. مَمُوتِ نَبِيِّكُمْ، وَيَفْتِنَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ؛ فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.

فلما فرغ من خطبته قال: يا عمر، بلغني أنك تقول ما مات نبيُّ الله، أما علمت أنه قال في يوم كذا وكذا، وفي يوم كذا وكذا: قال الله تبارك وتعالى: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"؟ فقال عمر: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قَبْلَ؛ لما نزل بنا، أشهد أن الكتابَ كما نزل، وأن الحديثَ كما حدَّث، وأنَّ الله حيٌّ لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ثم جلس إلى جنب أبي بكر رحمه الله. قالت عائشة، رضوان الله عليها: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، نجم النفاق، وارتدَّت العرب، وكان المسلمون كالغنم الشاردة، في الليلة الماطرة، فحمل أبي ما لو حملته الجبال لهاضها، فوالله إن اختلفوا في معظم إلا ذهب بحظه ورشده، وغناؤه، وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خلقَ للإسلام، فكان والله أحوذياً نسيجَ وحده، قد أعدَّ للأُمور أقرانها. وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن يزيد قال: حدَّثني رجل في مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال: لما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، دُفِنَ ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها؛ فاجتمع إليها نساؤها، فقالت: الكامل:

اغبر آفاق السماء، وكُورَت	شمسُ النهار، وأظلمَ العَصْرانِ
فالأرضُ من بعد النبي كنيبةٌ	أسفاً عليه كثيرةُ الرَجَفانِ
فلَيْبِكِهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُهَا	وليبكه مُضَرٌّ وكل يَمَانِ
وليبكه الطور المعظم جَوْهُ	والبيت ذو الأستار والأركانِ
يا خاتم الرسل المبارك ضوءُهُ	صلى عليك منزلُ الفرقانِ

وكان أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عنه - إذا أُثني عليه يقول: اللهم أنت أعلمُ بي من نفسي، وأنا أعلمُ بنفسي منهم، فاجعلني خيراً مما يُحْسَبُونَ، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون، ولا تَوَاحِدُنِي بما يقولون. وقال رحمه الله في بعض خطبه: إنكم في مَهَلٍ، من ورائه أجل، فبادروا في مَهَلِ آجالكم، قبل أن تنقطع آمالكم، فتردكم إلى سوء أعمالكم.

وذكر أبو بكر الملوكة فقال: إن الملك إذا ملك زَهْدُهُ الله في ماله ورغبه في مال غيره، وأشرب قلبه

الإشفاق؛ فهو يسخط على الكثير، ويحسُد على القليل، جدلُ الظاهر، حزين الباطن، حتى إذا وجبت نفسه، ونضب عمره، وضحا ظله حاسبه فأشدَّ حسابه وأقلَّ عفوه.

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر مالٌ من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: فضَّلنا! فقال أبو بكر: صدقتم، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن صيرتم كان ذلك لله عز وجل! فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا؛ فرقي أبو بكر المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم؛ ثم قال: يا معشر الأنصار، إن شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يُحصيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي: الطويل:

جزى الله عنا جعفراً حينَ أزلقتْ
أبوا أن يملؤنا ولو أن أمانا
بنا نعلنا في الواطنين فزلتْ
تلاقى الذي يلقون منا لملتْ
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأت وأظلتْ

فقر من كلامه رضي الله عنه: صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء. الموت أهون مما بعده، وأشدَّ مما قبله. ليست مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة. ثلاث من كن فيه كنَّ عليه: البغي، والنكث، والمكر. إن الله قرَنَ وعده بوعيد؛ ليكون العبد راغباً وراهباً.

ولما توفي، رضي الله عنه، وقفت عائشة على قبره، فقالت: نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَكَ يا أبت، وشكر لك صالح سعيك، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مُعزاً بإقبالك عليها، ولئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعُدُّ بحسن الصبر عنك حسنَ العوض منك، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالى بالصبر فيك، وأستقضيه بالاستغفار لك، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لما وهى شعبه وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه؛ فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك.

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يسؤمه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمضاء، فيلقي عليه الصخرة العظيمة ليفارق دينَ الإسلام فيعصمه الله من ذلك: الوافر:

هنيئاً زادك الرحمنُ خيراً
فلا نكساً وجِدْتَ ولا جباناً
فقد أدركت، تأرك يا بلالُ
غداة تتوشك الأسل الطوالُ
إذا هاب الرجال ثبت حتى
تخلط أنت ما هاب الرجالُ

بعض ما قاله عمر بن الخطاب

وكتب عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه! - إلى ابنه عبد الله: أما بعد، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه؛ فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له. ودخل عدي بن حاتم على عمر، فسلم وعمر مشغول، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا عدي بن حاتم؛ فقال: ما أعرفني بك! آمنت إذ كفرنا، ووفيت إذ غدرنا، وعرفت إذ أنكرنا، وأقبلت إذ أدبرنا! وقال رجل لعمر: من السيد؟ قال: الجواد حين يسأل، الحليم حين يستجهل، الكريم المجالسة لمن جالسه، الحسن الخلق لمن جاوره. وقال رضي الله عنه: ما كانت الدنيا هم رجل قط إلا لزم قلبه أربع خصال: فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضي مداه، وشغل لا ينفد أولاه، وأمل لا يبلغ مُنتهاه.

فصول قصار من كلامه رضي الله عنه

من كتم سرّه كان الخيار في يده، أشقى الولاة من شقيت به رعيته. أعقل الناس أعذرهم للناس. ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع. لا يكن حُبك كلفاً، ولا بُغضك تلفة، مُر ذوي القربايات أن يتزاوروا، ولا يتجاوروا. قلما أدبر شيء فأقبل، أشكو إلى الله ضعف الأمين، وخيانة القوي، تكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرزقون. لو أن الشكر والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب. من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه.

وقال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر بن الخطاب، فقال: كان عالماً برعيته، عادلاً في قضيته، عارياً من الكبر، قبولاً للعذر، سهلاً للحجاب، مصوناً الباب، متحريراً للصواب، رقيقاً بالضعيف، غير مُحابٍ للقريب، ولا جافٍ للغريب. وروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حج فلمّا كان بضجنان قال: لا إله إلا الله العليّ العظيم، المُعطي مَنْ شاء ما شاء، كنتُ في هذا الوادي في مدرعة صوف أرعى إبل الخطّاب، وكان فظاً يتعبنى إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة ليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثّل: البسيط:

يبقى الإله ويؤدي المال والولد

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُهُ

لم تغن عن هُرْمُز يوماً خزانته
والخُلْدُ قد حاولت عادًة فما خَلَدُوا
ولا سليمان إذ تجري الرياحُ له
والجنُّ والإنسُ فيما بينها تَرْدُ
أين الملوك التي كانت نوافلها
من كل صَوْبٍ إليها وافِدِ يَفْدِ
حوضُ هنالك مورودٌ بلا كدر
لا بدَّ من ورْدِهِ يوماً كما ورَدُوا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح مكة: الطويل:

ألم تر أن الله أظهر دينه
على كل دينٍ قبل ذلك حائدٍ
وأمكنه من أهل مكة بعدما
تَدَاعَوْا إلى أمرٍ من الغي فاسدٍ
غداة أجال الخيلَ في عرصاتِها
مسومةً بين الزبير وخالدٍ
فأمسى رسولُ الله قد عزَّ نصرُهُ
وأُمسى عداؤه من قَتيلٍ وشارِدٍ

يريد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالد ابن الوليد سيف الله تعالى في الأرض.

ولما قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه، قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل زوجته ترضيه: الخفيف:

عينٌ جودي بعبرةٍ ونحيبٍ
لا تملي على الأمين النجيبِ
فجعتني المنونُ بالفارسِ المُعِ
لم يوم الهياج والتثويبِ
عصمةُ الناس والمعينُ على الدَّه
روغيثُ المحروم والمحروبِ
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا
قد سقته المنونُ كأسَ شعوبِ

وقالت أيضاً ترضيه: الطويل:

وفجعتني فيروز لا درَّ دره
بأبيض تالٍ للكتابِ مُنيبِ
رؤوف على الأدنى غليظ على العدا
أخي ثقة في النائبات نجيبِ
متى ما يقل لا يكذب القول فعله
سريع إلى الخيرات غير قطوبِ

وعاتكة هذه، هي أخت سعيد بن زيد، أحد العشرة الذين شهد لهم النبي، صلى الله عليه وسلم، بالجنة، وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر، فأصابه سهمٌ في غزوة الطائف فمات منه، فتزوجها عمر، رضي الله عنه، فقتل عنها، فتزوجها الزبير ابن العوام فقتل عنها، فكان علي، رضي الله عنه يقول: من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوج بعاتكة!

ومن كلام عثمان بن عفان

رضي الله عنه:

ما يَزَعُ اللَّهُ بالسُّلْطَانِ، أَكْثَرُ مما يَزَعُ بالقرآن. سيجعلُ الله بعد عُسْرٍ يسراً، وبعد عِيٍ بياناً، وأنتم إلى إمام فعال، أحوَجُ منكم إلى إمام قَوَّالٍ، قاله في أول خلافته وقد صعد المنبر وأرْتَجَّ عليه. وكتب إلى علي، رضي الله عنه، وهو مَحْصُورٌ: أمّا بعد، فقد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ، وجاوز الحَزَامُ الطَّبِيبِينَ، وطمع في مَنْ كان لا يَدْفَعُ عنه نفسه، ولم يعجزك كلثيم، ولم يَغْلِبْكَ كمَعْلَبٌ؛ فَأَقْبِلْ إليّ، معي كنت أو علي، على أيّ أمرٍيك أحببت الطويل:

فإن كنت مأكولاً فكُنْ أنت آكلي **وإلا فأذركني ولما أُمزق**

وهذا البيت للممزق العبدى، وبه سمي الممزق، واسمه شأس، وإنما تمثّل به عثمان، رضي الله عنه؛ وحدّاق أحل النظر يدفعون هذا، ويستشهدون على فساده بأحاديث تُناقضه ليس هذا موضعها.

قالوا: وكان عثمان، رضي الله عنه، اتقى لله أن يسعى في أمره عليّ، وعليّ اتقى لله أن يسعى في أمر عثمان، وهذا من قوله عليه السلام: أشقى الناس من قتلته نبي أو قتل نبياً. ومن كلام عثمان، رضي الله عنه وأكرم نزل، وقد تنكر له الناس: أمر هؤلاء القوم رعا عير، تطأطأت لهم تطأطأ الدلاء، وتلددت لهم تلدد المضطر، رأيتهم ألحف إخواناً، وأوهمني الباطل لهم شيطاناً. أجرت المرسون رسنّه، وأبلغت الراتع مسعاته، فتفرقوا عليّ فرقاً ثلاثاً، فصامت صمته أنفذ من صول غيره، وشاهد أعطاني شاهده ومنعني غائبه، ومتهافت في فتنة زينت شي قلبه، فأنا منهم بين ألسنٍ لداد، وقلوب شداد، عذيري الله منهم، ألا ينهى عالم جاهلاً، ولا ينذر حلیم سفيهاً؟ والله حسبي وحسبهما يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون. سئل الحكم بن هشام فقال: كان والله خيار الخيرة، أمير البررة، قتيل الفجرة، منصور النصره، مخذول الخذلة، مقتول القتلة. ونظير البيت الذي أنشده قولُ صخر الجعد: الطويل:

فإن كنت مأكولاً فكُنْ أنت آكلي **فإن منايا القوم أكرم من بعض**

قال المتوكل: أتيت بأسارى، فسمعت امرأة منهم تقول: الوافر:

أمير المؤمنين سَمَا إلينا **سمو الليث أخرج العريف**

فإن نسلّم فعون الله نرجو **وإن نقتل فقاتلنا شريف**

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر، وأنشد له بعضهم: الطويل:

غَنَى النَّفْسَ يُغْنِي النَّفْسَ حَتَّى يَكْفَهَا

وَإِنْ عَضَهَا حَتَّى يَضُرَّ بِهَا الْفَقْرُ

وَمَا عُسْرَةُ فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ تَتَابَعْتَ بِبَاقِيَةِ إِلَّا سَيَتَّبِعُهَا يُسْرُ

وقول عثمان، رضي الله عنه فيما روى: ولم يغلبك كمغلب من قول امرئ القيس: الطويل:

ضعيفٍ ولم يغلبك مثل مغلبٍ

فإنك لم يفخر عليك كفاخر

وقال أبو تمام وذكر الخمر: الكامل:

قَتَلْتُ، كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعْفَاءِ

وَضَعِيفَةٌ إِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً

من كلام علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

لَا تَكُنْ مَنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُوَخِّرُ التَّوْبَةَ لَطَوِيلِ الْأَمَلِ، وَيَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِحَ لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجُزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَتَغَيَّرُ الزِّيَادَةُ فِيمَا بَقِيَ، يَنْتَهَى وَلَا يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي، يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ أَعْمَالَهُمْ، وَيَغْضُ الْمُسِيئِينَ وَهُوَ مِنْهُمْ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَكثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيَقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَهُ، إِنْ سَقَمَ ظَلَّ نَادِمًا، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا، يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ، وَلَا يَقْنَطُ مِنَ الرِّزْقِ بِمَا ضَمِنَ لَهُ، وَلَا يَعْمَلُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِ، إِنْ اسْتَغْنَى بَطَرٍ وَفُتِنَ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ وَحَزِنَ، فَهُوَ مِنَ الذَّنْبِ وَالنِّعْمَةِ مَوْقَرٌ، يَتَغَيَّرُ الزِّيَادَةُ وَلَا يَشْكُرُ، وَيَتَكَلَّفُ مِنَ النَّاسِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ، وَيَضِيعُ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَكْثَرُ، وَيُتَالَعُ إِذَا سَأَلَ، وَيَقْصُرُ إِذَا عَمَلَ، يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلَا يَبَادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَكْثِرُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَهُ مِنْ نَفْسِهِ؛ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَسْتَقِلُّهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مِدَاهِنٌ، اللَّعْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ، وَهُوَ يُطَاعُ وَيُعَصَّى، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُؤْفَى.

وسئل، رضي الله عنه، عن مسألة فدخل مبادراً، ثم خرج في حذاء ورداء، وهو يتبسّم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سُئِلْتَ عن مسألة كنت فيها كالسّكة المحمّاة! فقال: إني كنت حاقناً ولا رأيي لحاقن، ثم أنشأ يقول: المتقارب:

كشفتُ حقائقها بالنظرِ

إذا المشكلاتُ تصدّينَ لي

بِ عَمِيَاءٍ لَا تَجْتَلِيهَا الذِّكْرُ

وَإِنْ بَرَقَتْ فِي مَخِيلِ الصَّوَا

وضعت عليها صَحيحَ الفكرِ

مقنعةً بأمور الغيوب

أو كالحسام اليماني الذَّكرِ

لساناً كَشَفَشِقَةَ الأرحبيِّ

أمرَ عليها بواهي الدرر

وقلباً إذا استتطقتَه العيون

أُسائلُ عن ذَا وَذَا ما الخبر

ولستُ بِإمعةٍ في الرِّجالِ

أُبَيِّنُ مَعَ ما مضى ما غبرُ

ولكنني ذَرِبُ الأصغرَيْنِ

وقال معاوية، رضي الله عنه، لضرار الصُّدائي: يا ضرار، صِفْ لي علياً، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنه، فقال: أما إذ أذنت فلا بدَّ من صفته: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما قصُرَ، ومن الطعام ما حشُنَ، وكان فينا كأحدنا، يُحيينا إذا سألناه، ويُنينا إذا استَبأناه، ونحن - مع تقريبه إيانا، وقُربه منا - لا نكاد نكلمه لهيته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين، ويجب المساكين، لا يطعم القوي في باطله، ولا يئأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سُدُوله، وغارت نجومُه، وقد مثلَ في محرابه، قابضاً على لحيته يَتململُ تلملَ السليم، ويكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا، إليك عني! غري غيري، ألي تعرضت، أم إلي تشوّفت؟ هيهات! قد باينتكَ ثلاثاً، لا رجعة لي عليك؛ فعمرُك قصيرٌ، وخطرُك حقيرٌ، وخطبك يسيرٌ؛ آه من قلة الزاد، وبُعْد السفر، ووَخْشة الطريق! فبكي معاوية حتى أخضلت دموعُه لحيته؛ وقال: رَحِمَ الله أبا الحسن! فلقد كان كذلك، فكيف حزنُك عليه يا ضرار؟ قال: حُزنٌ من ذُبِحَ وأحْدَها في حجرِها! وقال علي، رضوان الله عليه: رَحِمَ الله عبداً سمعَ فوعى، ودُعِيَ إلى الرشاد فدنا، وأخذ بجزء هاد فنجا، وراقب ربّه، وخاف ذنبه، وقَدَّم خالصاً، وعمل صالحاً، واكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى غرضاً، وكابر هواه، وكذب مناه، وحذر أجلاً، وذأب عملاً، وجعل الصبرَ رغبةَ حياته، والثقي عُدَّةَ وفاته، يُظهرُ دون ما يكتُمُ، ويكتفي بأقل مما يعلم، لزم الطريقة الغراء، والمحجة البيضاء، واغتنم المهل، وبادر الأجل، وتزوّد من العمل.

ولما رجع، رضي الله عنه، من صِفَيْن، فدخل أوائل الكوفة إذا قَبْرٌ، فقال: قَبْرُ مَنْ هذا؟ فقيل: خباب بن الأرت، فوقف عليه، وقال: رحم الله خَبَّاباً! أسلم رَاغِباً، وهاجرَ طائِعاً، وعاشَ مجاهدًا، وابْتُلِيَ في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجرَ مَنْ أَحسنَ عملاً.

ومضى فإذا هو بقبور، فوقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والحال المقفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم - عما قليل - لاحقون؛ اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم بعفوك؛ طوبى لمن ذكر المآد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف. ثم التفت، رضي الله عنه، إلى أصحابه، فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى.

وذم رجل الدنيا بحضرة علي، رضي الله عنه، فقال: دار صدق لمن صدقها، ودار نجا لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، مهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذوقها، وقد أدنت بيئتها، ونادت بفراقها، وذكرت بسرورها السرور، وبيلائها البلاء، ترغيباً وترهيباً، فيأيتها الدام لها، المعقل نفسه بغرورها، متى خدعتك الدنيا؟ أم بماذا استدمت إليك، أيمصرع آبائك في البلى؟ أم بمضجع أمهاتك في الشرى، كم مرضت بكفيك، وكم عللت يديك، تطلب له الشفاء، وتستوصف الأطباء، غداة لا ينفعه بكاؤك، ولا يغني دواؤك.

فقر من كلامه رضي الله عنه: البشاشة فخ المودة. والصبر قبر المغبون. والغالب بالظلم مغلوب. والحجر المغصوب بالدار رهن بخراجها. وما ظفر من ظفرت به الأيام. فسالم تسلم. رأيي الشيخ خير من مشهد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. بقية عمر المؤمن لا تملن لها، يدرك بها ما أفات ويحيي ما ألمات. نقل هذا الكلام بعض أهل العصر، وهو أبو الفتح علي بن محمد البستي البسيط:

بقية العمر عندي ما لها ثمن وإن غداً وهو محبوب من الثمن

يستدرك المرء فيها ما أفات ويح يي ما ألمات ويمحو السوء بالحسن

الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال. لا تخافن إلا ذنبك، ولا ترجون إلا ربك. وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم. الناس من خوف الذل في الذل. من أيقن بالخلف جاد بالعطية. بقية السيف أنمى عدداً، وأنجب ولداً - وقد تبينت صحة ما قال في بنيه وبني المهلب - إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب. الصبر مطية لا تكبو، وسيف لا يتبو. خير المال ما أغناك، وخير منه ما كفاك، وخير إخوانك من واساك، وخير منه من كفاك شره.

وقال بعض أهل العصر ما يشاكل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لنكك البصري: مجزوء الخفيف:

عديا في زماننا عن حديث المكارم

من كفى الناس شره فهو في جود حاتم

أبو الطيب: البسيط:

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرَكَ الْقَبِيحَ بِهِ

مِن أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَإِجْمَالُ

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه. قيمة كل امرئ ما يحسن.

ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هذه الكلمة في كتاب البيان فقال: فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية، كافية، ومجزية مُعْنِيَةً، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، غير مقصورة عن الغاية، وأفضل الكلام ما كان قليلاً يُغْنِيكَ عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلالة، وغشاه من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى غريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، مترهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف؛ صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصبحها الله، عز وجل، من التوفيق، ومنحها من التأيد، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة. ومن دُعائه، رضي الله عنه في حرابه: اللهم أنت أَرْضَى للرضا، وأسْخَطَ للسُّخْطِ، وأقدر على أن تغير ما كرهت، وأعلم بما تقدر، لا تُغْلَبَ على باطل، ولا تعجز عن حق، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون. وقال علي رضي الله عنه: الطويل:

لِمَنْ رَايَةً سَوْدَاءَ يَخْفِقُ ظِلُّهَا

إِذَا قِيلَ قَدَمُهَا حُضَيْنُ تَقَدَّمَا

فيوردها في الصف حتى تردّها

حياض المنايا تقطر الموت والدمّا

جزى الله قوماً قاتلوا في لقائهم

لدى الروع قوماً ما أعزّ وأكرما

وأطيب أخباراً وأفضل شيمَةً

إذا كان أصوات الرجال تغمغما

حُضَيْنُ الذي ذكره هو: أبو ساسان الحُضَيْنُ بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، وكان صاحب رأيته يوم صفين.

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها: الطويل:

أرى علل الدنيا علي كثيرة

وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة

وإن الذي دون الممات قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد

دليل على ألا يدوم خليل

ولما قتل عمرو بن عبد ود سقط فانكشفت عورته، فتنحى عنه وقال: الكامل"

آلى ابن عبد حين شد أليته وحلفت فاستمعوا من الكذاب

أَلَا بَغْرٌ وَلَا يَمْلَلُ فَالْتَقَى

أَسَدَانِ يَضْطَرِبَانِ كُلَّ ضِرَابِ

اليوم يمنعني الفرارَ حفيظتي

ومصممٌ في الرأسِ ليس بنابٍ

أعرضتُ حينَ رأيتهُ متقطراً

كالجذعِ بين دكادكِ وروابي

وعففتُ عن أثوابه ولو أنني

كنتُ المقطرَ بَرزني أثوابي

نصرَ الحجارة من سفاهة رأيه

ونصرتُ دينَ محمد بصواب

لا تحسبنَّ اللهَ خاذلَ دينه

ونبيه يا معشرَ الأحزاب

في أبيات غير هذه، وبعضُ الرواة يَنْفِيها عن علي رضي الله عنه.

وعمرُو هذا هو: ابن عبد وُد بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وكان قد جَزَعَ المذاد، وهو موضع حُفِر فيه الخندقُ يومَ الأحزاب، وفي ذلك يقول الشاعر: الكامل:

عمرُو بن وُدٍّ كان أولَ فارسٍ

جَزَعَ المذادَ وكان فارسَ يَلِيلِ

ولما صار مع المسلمين في الخندقِ دعا إلى البراز، وقال: مجزوء الكامل:

ولقد بَحِثْتُ من النداءِ

ء بجمعهم هل من مُبارزٍ

ووقفتُ إذ نكلَ الشجاءِ

ع بموقفِ البطلِ المُناجزِ

إني كذلك لم أزلُ

متسرّعا نحو الهزاهزِ

إنَّ السماحة والشجاءِ

عة في الفتى خيرُ الغرائزِ

فبرز علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: يا عمرو، إنك عاهدت الله لقريش ألا يدعوك أحدٌ إلى

خلتين إلا أخذت إحداهما، فقال: أجل! قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا

حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى المبارزة، فقال: يا ابن أخي، ما أحبُّ أن أقتلك! قال علي: لكني

والله أحبُّ أن أقتلك، فحمي عمرو، فاقتحم عن فرسه وعرقبه ثم أقبل إلى علي: الكامل:

فتجاوَلَا كغمامتين تكنفَتُ

متنّيهما ريحاً صَباً وشمالِ

في موقفٍ كادت نفوسُ كُماته

تُبْتَرُ قَبْلَ تَوَرُّدِ الآجالِ

وعلت بينهما غيرة سترتُهما فلم يرع المسلمين إلا التكبيرَ فعلموا أنَّ علياً قتله.

ولما قُتل عمرو جاءت أخته فقالت: مَنْ قَتَله؟ فقيل: علي بن أبي طالب، فقالت: كُفء كريم! ثم انصرفت

وهي تقول: البسيط:

لو كان قاتلُ عمرو غيرَ قاتله
لكن قاتله من لا يُعابُ به
من هاشمٍ في ذراها وهي صاعدة
قومُ أبى الله إلا أن يكونَ لهم
يا أم كلثوم بكّيه ولا تدعي
لكنك أبكي عليه آخرَ الأبدِ
وكان يُدعى قديماً بيضةَ البلدِ
إلى السماء تُميتُ الناسَ بالحسدِ
مكارمُ الدينِ والدنيا بلا أمدِ
بكاءَ مُعولةٍ حرى على ولدِ

أم كلثوم: بنت عمرو بن عبد ود. وبيضة البلد تمدح به العرب وتذم؛ فمن مدح به جعله أصلاً، كما أن البيضة أصل الطائر. ومن ذم به أراد أن لا أصل له. قال الراعي يهجو عدي بن الرقاع العاملي: البسيط:

يا من توعدني جهلاً بكثرتِه
أنت امرؤ نال من عرضي وعزته
لو كنت من أحد يهجي هجوتكم
تأبى قضاة أن ترضى لكم نسباً
متى تهددني بالعز والعَدِ
كعزة العير يرعى تلعة الأسدِ
يا ابن الرقاع ولكن لست من أحدِ
وابنا نزار؛ فأنتم بيضة البلدِ

وقال أبو عبيدة: عاملة بن عدي بن الحارث بن مرة بن أد بن زياد ابن يشجب، يُطعن في نسبه من قحطان، ويقال: هو عاملة بن معاوية بن قاسط ابن أهيب؛ فلذلك قال الراعي هذا. ويقال: إن جندل بن الراعي قالها، وقد قال يحيى بن أبي حفصة الأموي في عاملة الطويل:

ولسنا نبالي نأي عاملة التي
تدافعها الأحياء حتى كأنها
قدفنا بها لمّا نأت قدف حاذف
بسود حصي خفت عليه صغارها
أجد بها من نحو بصرى اندارها
ثياب بدا للمشتري عوارها

ويشبه قول علي رضي الله عنه وعففت عن أثوابه قول عنترة بن شداد العبسي الكامل:

هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يُخبرك من شهد الواقعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وقال حبيب بن أوس الطائي البسيط:

إن الأسود أسود الغاب همئها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلَبِ

قد علقت بذيل ما أوردته، وألحقت بطرف ما جردته، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعة من كلام الخلفاء الراشدين،

قدمتها أمام كلّ كلام، لتقدمهم على الخلق، وأخذهم بقصب السبق، وهم كما قال بعض المتكلمين يصف قوماً من الزهاد الواعظين، جَلَوْا بكلامهم الأبصار العلية، وشحدوا بمواعظهم الأذهان الكلية، ونهبوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عاذتها، فشفّوا من داء القسوة، وغبّوا الغفلة، وداووا من العي الفاضح، ونهّجوا لنا الطريق الواضح. وآثرت أن ألحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، وأدرج في درج كلامهم وأثناء نشرهم ونظمهم، ما التفّ عليه والتفت إليه، وتعلّق بأعصانه، وتشبّث بأفئانه، كما تقدّم، وأخرج إلى صفات البلاغات، وآخذ بعد ذلك في نظم عقود الآداب، ورقم برود الأبواب: البسيط،

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

من كلام الصحابة والتابعين

قال معاوية بن أبي سفيان رحمه الله: أفضّل ما أعطني الرجل العقل والحلم، فإذا ذكّر ذكر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز. وصف معاوية الوليد بن عتبة فقال: إنه لبعيد العور، ساكن الفور، وإن العود من لحائه، والولد من آبائه، والله إنه لبنات أصل لا يخلف، ونجل فحل لا يقرف. ومرض معاوية مرضاً شديداً فأرجف به مصقلة بن هبيرة وساعده قوم على ذلك، ثم تماثل وهم في إرجافهم، فحمل زياد مصقلة إلى معاوية وكتب إليه: إنه يجمع مرقاً من العراق فيرجفون بأمر المؤمنين، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه". فقدم مصقلة وجلس معاوية للناس؛ فلما دخل عليه قال: اذن مني فدنا منه، فأخذه بيده فجذبه فسقط مصقلة، فقال معاوية: مجزوء الكامل

أبقى الحوادث من خلي لك مثل جندلة المراجم
صلباً إذا خار الرجا ل أبل ممتنع الشكائم
قد رامي الأعداء قب لك فامتنت عن المظالم

قال مصقلة: يا أمير المؤمنين، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وحلماً راجحاً وكلاً ومرعى لأولئك، وسماً ناقعاً لأعدائك، كانت الجاهلية فكان أبوك سيّد المشركين، وأصبح الناس مسلمين؛ وأنت أمير المؤمنين، وقام. فوصله معاوية، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة. فقليل له: كيف تركت معاوية؟ فقال: زعمتم أنه لما به،

والله لقد غمزني غمزة كاد يَحْطِمُنِي، وجَذَبَنِي جَذْبَةً كاد يكسر عُضْوًا مِنِّي! ودخل الأحنفُ بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة، ودخل معه النمر بن قُطَيْبَة، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة، وعلى الأحنف مِدْرَعَةً صوف وشَمْلَةً، فلما مثلاً بين يدي معاوية اقْتَحَمَتْهُمَا عَيْنُهُ؛ فقال النمر: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْعِبَاءَةَ لَا تَكَلِّمُكَ، وَإِنَّمَا يَكَلِّمُكَ مَنْ فِيهَا! فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ فَجَلَسَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْأَحْنَفِ فَقَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَدَدُ يَسِيرٍ، وَعَظُمَ كَسِيرٌ، مَعَ تَتَابُعٍ مِنَ الْمُحُولِ، وَاتِّصَالٍ مِنَ الذُّحُولِ فَالْمُكْثَرُ فِيهَا قَدْ أَطْرَقَ، وَالْمَقْلُ قَدْ أَمْلَقَ، وَبَلَغَ مِنْهُ الْمُخْنَقُ؛ فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْعَشَ الْفَقِيرَ، وَيَجْبُرَ الْكَسِيرَ، وَيَسْهَلَ الْعَسِيرَ، وَيَصْفَحَ عَنِ الذُّحُولِ، وَيُدَاوِيَ الْمُحُولَ، وَيَأْمُرَ بِالْعَطَاءِ؛ لِيَكْشِفَ الْبَلَاءَ، وَيُزِيلَ اللَّأْوَاءَ. وَإِنَّ السَّيِّدَ مَنْ يَعْمُ وَلَا يَخْصُ وَمَنْ يَدْعُو الْجَفَلَى، وَلَا يَدْعُو النَّقْرَى، إِنَّ أَحْسَنَ إِلَيْهِ شُكْرٌ، وَإِنْ أَسِيءَ إِلَيْهِ غَفْرٌ، ثُمَّ يَكُونُ وَرَاءَ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِهِ عِمَادًا يَدْفَعُ عَنْهَا الْمَلَمَاتِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الْمَعْضَلَاتِ.

فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: هَا هُنَا يَا أَبَا بَحْرٍ ثُمَّ تَلَا: "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ".

ومن جميل المحاورات ما رواه المدائني، قال: وَقَدْ أَهْلَ الْعِرَاقَ عَلَى مُعَاوِيَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَعَهُمْ زِيَادٌ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ زِيَادٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشَخَّصْتَ إِلَيْكَ أَقْوَاماً الرِّغْبَةُ، وَأَقْعَدَ عَنْكَ آخِرِينَ الْعُذْرُ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَعَةِ فَضْلِكَ مَا يُجْبِرُ بِهِ الْمُتَخَلِّفَ، وَيَكْفَأُ بِهِ الشَّاحِصَ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَرْحَباً بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، أَمَّا وَاللَّهِ لئن فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ، لَقَدْ جَمَعْتُكُمْ الرَّحِمَ؛ إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيَخْتَارَنَا مِنْكُمْ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخَيَّرَ لَكُمْ بِلَاداً تَجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلَ، حَتَّى صَفَاكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا؛ فَصَوْنُوا أَخْلَاقَكُمْ، وَلَا تُدْنِسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقُرْبِكُمْ مِنْهُ، وَالْقَبِيحَ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ.

فَقَالَ الْأَحْنَفُ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا نَعْدَمُ مِنْكُمْ قَائِلاً جَزِيلاً، وَرَأياً أَصِيلاً، وَوَعِداً جَمِيلاً؛ وَإِنْ أَحَاكَ زِيَاداً لِمَتَّبِعِ أَثَارَكَ فِينَا، فَنَسْتَمْتِعُ بِاللَّهِ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ، فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمَدَاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ: الطَّوِيلِ

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرِسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ؟

وهذان البيتان لزهير بن أبي سلمى المزني في قصيدة يقول فيها:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهُهَا وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ

عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمْ

فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

قال بعضُ أهل العلم بالمعاني: أعجِبَ بقوله: ولم يألوا؛ لأنه لما ذكر السعي بعدهم، والتخلف عن بلوغ مساعيهم، جاز أن يتوهم السامع أن ذلك لتقصير الطالبين في طلبهم؛ فأخبر أنهم لم يألوا، وأنهم كانوا غير مقصرين وأنهم - مع الاجتهاد - في المتأخرين؛ ثم لم يرَضَ بأن يجعل مجدهم طارفاً فيهم، ولا جديداً لديهم، حتى جعله إرثاً عن الآباء، يتوارثه سائر الأبناء، ثم لم يرَضَ أن يكون في الآباء حتى جعله موروثاً عن آبائهم، وهذا لو تكلفه متكلف في المنشور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار. وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زهير، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء، وكلامَ ابن أبي سلمى، فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد؛ فجعلوا ابنَ أبي سلمى نهايةً في التجويد، كما ترى. وذكرَ أن عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه قال: إن من أشعر شعرائكم زهيراً، كان لا يُعَاضِلُ بين الكلام، ولا يتبع حُوشِيه، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون في الرجال. وأخذ معنى قول زهير:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم

طَرِيحُ بن إسماعيل الثَّقَفِي، فقال لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي السفاح: المسرح

قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغْتَ وَلَمْ

يَأْلُوا فَمَا قَارَبُوا وَقَدْ جَهَدُوا

فَهُمْ مَلُوكٌ مَا لَمْ يَرَوْكَ، فَإِنْ

لَا حَ لَهُمْ مِنْكَ بَارِقٌ خَمَدُوا

تَعَرَوْهُمْ رِعْدَةً لَدَيْكَ كَمَا

قُرْقِفَ تَحْتَ الدَّجْنَةِ الصَّرْدُ

لَا خَوْفَ ظُلْمٍ وَلَا قَلَى خُلُقٍ

لَكِنْ جَلَالاً كَسَاكَ الصَّمَدُ

مَا يُبْقِكَ اللَّهُ لِلْأَنَامِ فَمَا

يَفْقَدُ مِنَ الْعَالَمِينَ مَفْتَقَدُ

وقال معاوية رحمه الله: المروءة: احتمال الجريرة..، وإصلاحُ أمر العشيرة؛ والنبْلُ: الحلم عند الغضب، والعفو عند المقدرة.

فَقَرَّ مِنْ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ تَبْذِيرًا قَطُّ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ حَقُّ مُضَيِّعٍ. أَتَقَصُّ النَّاسَ عَقْلًا مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُوَ دُونَهُ. أُولَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ. التَّسَلُّطُ عَلَى الْمَالِيكَ مِنْ لُؤْمِ الْمَقْدَرَةِ وَسُوءِ الْمَمْلَكَةِ.

وقال يحيى بن خالد: مَا حَسُنَ أَدَبُ رَجُلٍ إِلَّا سَاءَ أَدَبُ غِلْمَانِهِ.

وقال معاوية: صلاحُ ما في يدك أسلم من طلب ما في أيدي الناس. غَضَبِي عَلَى مَنْ أَمْلِكُ، وما غَضَبِي عَلَى مَنْ لَا أَمْلِكُ؟

ولما تُوفِّي معاوية رحمه الله واستُخلف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن همام السُّلُوي، فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رُزئتَ عظيماً، وأُعطيْتَ جسيماً، فاشكُر الله على ما أُعطيْتَ، واصبرْ له على ما رُزيتَ؛ فقد فقدتَ خليفة الله، ومُنحتَ خلافة الله؛ ففارقتَ جليلاً، ووُهِبتَ جزيلاً؛ إذ قضى معاويةُ نَحْبَه، فغفر الله ذَنْبَه؛ وولَّيتَ الرياسة، فأُعطيْتَ السياسة؛ فأوردك الله مواردَ السرور، ووقفك لصالح الأمور، وأنشده: البسيط

اصْبِرْ، يَزِيدُ، فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ وَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ أَصْفَاكَ
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي الْأَقْوَامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِنْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ
أَصْبَحْتَ وَالْيَ أَمْرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَاكَ
وَفِي مُعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ إِذَا نَعَيْتَ وَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَاكَ

يريد أبا ليلي معاوية بن يزيد، وولِّي بعد أبيه شهوراً، ثم انخلع عن الأمر، فقال لقائل: البسيط:

وَالْمَلِكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لِمَنْ غَلَبَا

وأول مَنْ فَتَحَ الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية عبدُ الله بن همام، فَوَلَّجَه الناس، ومن جيّد ما قيل في ذلك قصيدة أبي تمام الطائي يمدح الواصل ويرثي المعتصم، يقول فيها: الكامل:

إِنْ أَصْبَحَتْ هَضْبَاتُ قُدْسٍ أَزْهَاهَا قَدَرٌ فَمَا زِلْتَ هِضَابُ شَمَامٍ
أَوْ يُفْتَقَدُ ذُو النُّونِ فِي الْهَيْجَا فَقَدْ دَفَعَ الْإِلَهُ لَنَا عَنِ الصَّمَامِ
أَوْ كُنْتَ مَنَا غَارِبَا غَدَا فَقَدْ رُحْنَا بِأَسْمَى غَارِبٍ وَسَنَامِ
تِلْكَ الرِّزْيَةُ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا وَالْقَسْمُ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَقْسَامِ

وهذا المعنى كثير.

وكان معاوية، رحمه الله، قد تركَ قولَ الشعرِ في آخر عمره، فنظر يوماً إلى جاريةٍ في داره ذاتَ خَلْقٍ رائع، فدعاها فوجدها بكرّاً فافترعها، وأنشأ يقول: الوافر:

سَمِئْتُ غَوَايَتِي فَأَرَحْتُ حِلْمِي وَفِيَّ عَلَى تَحْمَلِي اعْتِرَاضُ
عَلَى أَنِّي أَجِيبُ إِذَا دَعَتْنِي ذَوَاتُ الذَّلِّ وَالْحَدَقِ الْمِرَاضُ

فَقَرُّ لَجْمَاعَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

ابن عباس: الرخصة من الله صدقة، فلا تردوا صدقته. لكل داخل هيبة فابدأوه بالتحية، ولكل طاعم حشمة فابدأوه باليمين.

ابن مسعود رحمه الله: الدنيا كلها هموم، فما كان منها في سرور فهو ربح. عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. وقال: أكرموا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم العار والنار. المغيرة بن شعبه: العيش في بقاء الحشمة. في كل شيء سرف إلا في المعروف. هذا كقول الحسن بن سهل - وقد أنفق في دخول ابنته بوران على المأمون أموالاً عظيمة - فقيل له: لا خير في السرف. قال: لا سرف في الخير. فردّ اللفظ واستوفى المعنى. معاذ بن جبل: الدين هدم الدين.

زياد: ارض من أخيك إذا ولي ولاية بعشر ودّه قبلها. مصعب بن الزبير: التواضع من مصايد الشرف. الأحنف بن قيس: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات! وقيل له: من السيد؟ قال: الذي إذا أقبل هابوه، وإذا أدبر عابوه. وله: سرّك من دمك. وله: من تسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون. وله: الكامل من عدت هفواته. وقال يزيد بن محمد المهلب: الطويل:

من ذا الذي ترضى سجايه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه

الحسن البصري: ألا تستحيون من طول ما لا تستحيون؟ ابن آدم راحل إلى الآخرة كل يوم مرحلة. ما أنصفك من كلفك إجلاله، ومنعك ماله. بدن لا يشتكي مثل مال لا يزكي. إن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموتى. قال الطائي: الطويل:

تأمل رويداً هل تعدنّ سالماً إلى آدم أو هل تعدّ ابن سالم؟

وقال أبو نواس: الطويل:

وما الناس إلا هالك وتبن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

وكان المأمون يقول: لو قيل للدنيا: صفي نفسك ما عدت هذا البيت؛ وهو مأخوذ من قول مراحم العقيلي: الطويل:

قضين الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهنّ صديق

عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية ويواليه في السر.

الشعي: إني لأستحيي من الحق إذا عرفته ألا أرجع إليه.

بعض ما قاله أهل البيت

قطعة من كلام لبني علي بن أبي طالب أهل البيت رضي الله عنهم: أهل الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصوام شهر رمضان ولهم كلام يعرض في حلي البيان، ويُنقش في فص الزمان، ويُحفظ على وجه الدهر، ويُفصح قلائد الدر، ويُخجل نور الشمس والبدر، ولم لا يطأون ذيول البلاغة، ويجرون فضول البراعة، وأبوهم الرسول، وأمهم البتول، وكلهم قد غذي بدر الحكم، وربي في حجر العلم: الكامل:

أو مُبَشِّرٌ بِالْأُحُودِيَّةِ مُؤَدِّمٌ

ما منهم إلا مربى بالحجى

آخر: المتقارب:

إلى النسب الأصرح الأوضح

نمته العرائن من هاشم

ومغرسها في ذرى الأبطح

إلى نبعة فرعها في السماء

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدي - وقد قيل له: خطب جعفر بن سليمان خطبة لم ير أحسن منها، فلا يدرى أوجهه أحسن أم خطبته؛ فقال: أولئك قوم بنور الخلافة يُشرقون، وبلسان النبوة ينطقون، وفيهم يقول القائل: الكامل:

لوجدته منهم على أميال

لو كان يوجد عرف مجد قبلهم

كرماً يقيك مواقف التسأل

إن جنتهم أبصرت بين بيوتهم

متوقد في الشيب والأطفال

نور النبوة والمكارم فيهم

وسئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال السائل: إنما أعني من دونه. فقال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له رجل: فأين أنت من علي وابنه، وعباس وابنه؟ فقال: إنما عانيت من تقاربت أشكالهم، وتداونت أحوالهم، وكانوا كسهم الجعبة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام.

فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

في ذكر قريش، وبني هاشم

قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتديبرها، وكيف إيجازها وتخيرها، وكيف راحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في الأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن العذر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق، وصفها عليه، وكيف وصفها له، ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم. وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بُعد غوره؟ وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره؟ وقال عمر: إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنه.

قال أوس بن حجر: المنسرح:

الألمعي الذي يظن لك الظن ن كأن قد رأى وقد سمعا

وقال آخر: المتقارب:

مليح نجيح أخو مازن فصيح يحدث بالغائب

وقال بلعاء بن قيس: الطويل:

وأبغي صواب الرأي أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقاديره

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها، وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سروها ونجابتها، وكيف بيائها وجهارتها، وكيف تفكيرها وبداهتها، فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبني هاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبني هاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصُر شريف، والطينة البيضاء، والمعرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، ونبوع العلم، وثعلان ذو الهضاب في الحلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والقصد عند المعرفة، والعفو بعد المقدرة، وهم الأئف المقدم، والسنام الأكرم، وكالماء الذي لا ينحسه شيء، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان، وكالذهب لا يُعرف بالنقصان، وكالنجم للحيران، والبارد للظمان، ومنهم الثقلان، والشهيدان، والأطيان، والسبطان، وأسد الله، وذو الجناحين، وذو قرنيها، وسيد الوادي، وساقى الحجيج، وحليم البطحاء، والبحر، والخير، والأنصار أنصارهم، والمهاجرون من هاجر إليهم أو معهم، والصدّيق من صدقهم،

والفاروق من فَرَّق بين الحقِّ والباطل فيهم، والحواريُّ حوارِيَّهم، وذو الشهادتين لأنَّ شَهِدَ لهم، ولا خيرَ إلاَّ لهم أو فيهم أو معهم، أو يُضَاف إليهم، وكيف لا يكوُنون كذلك ومنهم رسولُ ربِّ العالمين، إمامُ الأولين والآخرين، ونجيبُ المرسلين، وخاتمُ النبيين، الذي لم يَتَمَّ لَنبي نُبُوَّة إلاَّ بعدَ التصديق به، والبشارة بحجَّته، الذي عمَّ برسالته ما بين الخافقين، وأظهره الله على الدين كلَّه ولو كَرِهَ المُشْرِكُونَ؟.

قال الحسن بن علي، عليهما السلام، لحبيب بن مسلمة الفهري: رُبَّ مَسِيرٍ لك في غيرِ طاعة الله! قال: أَمَّا مَسِيرِي إلى أبيك فليس من ذلك! قال: بلى! أطعت فلاناً على دنيا يسيرة، ولعمري لئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك، فلو أنك إذ فعلتَ شراً قلتَ خيراً كنتَ كمن قال الله عزَّ وجلَّ: "خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ" ولكنك كما قال: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ".

وكان الحسن عليه السلام جواداً، كريماً، لا يردُّ سائلاً؛ ولا يَقْطَع نائلاً، وأعطى شاعراً ما لا كثيراً فقيل له: أَتُعْطِي شاعراً يَعْصِي الرَّحْمَنَ، ويطيع الشيطان، ويقول البُهْتَان؟ فقال: إِنَّ خَيْرَ ما بَدَلْتُ من مالك ما وَقَّيْتُ به عِرْضَكَ، وإنَّ من ابتغاءِ الخيرِ اتقاءَ الشرِّ.

وقد روى مثلُ ذلك عن الحسين، رضي الله عنه، وقيل: إِنَّ شاعراً مدحه فأَجْزَلَ ثوابه، فليَمَ على ذلك، فقال: أَتُرَانِي خِفْتُ أَن يَقُولَ: لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا ابن علي بن أبي طالب! ولكني خِفْتُ أَن يَقُولَ: لست كرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا كعلي، رضي الله عنه؛ فَيُصَدِّقَ، وَيُحْمَلَ عنه، ويبقى مُخَلِّداً في الكتب، محفوظاً على ألسنة الرواة. فقال الشاعر: أنت والله يا بَنَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعرفُ بالمدح والذمِّ مني.

ولما تَوَفَّى الحسن أدخله قَبْرَه الحسينُ ومحمدُ بن الحنفية وعبدُ الله بن عباس رضي الله عنهم، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرُورَقَتْ عَيْنَاه بالدموع، وقال: رَحِمَكَ اللَّهُ أبا محمد! فلئن عَزَتْ حياتك، لقد هَدَتْ وفاتك، ولنعمَ الرُّوحُ، رُوحٌ تَضَمَّنَه بَدْنُكَ؛ ولنعمَ الجَسَدُ، جَسَدٌ تَضَمَّنَه كَفَنُكَ، ولنعمَ الكَفَنُ، كَفَنٌ تَضَمَّنَه لَحْدُكَ، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامسُ أصحابِ الكِساءِ، وخَلَفُ أَهْلِ التقي؟ جَدُّكَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، وأبوك عليُّ المرتضى، وأُمُّكَ فاطمةُ الزهراء، وعَمُّكَ جعفر الطيار في جَنَّةِ المأوى، وغَدَتُكَ أَكْفُ الحَقِّ، ورُبِّيْتُ في حِجْرِ الإسلام، ورضعت ثَدْيَ الإيمان، فطَبَّتَ حَيًّا وميتاً؛ فلئن كانت الأَنفُسُ غيرَ طَيِّبَةٍ لِفراقك؛ لَهَا غيرُ شَاكَّةٍ أَن قَدْ خَيْرَ لَكَ، وإنك وأخاك لَسَيِّدا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فعليك يا أبا محمد منا السلام.

وقام رجلٌ من ولد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قَبْرِه، فقال: إن أقدامكم قد نَقَلْتُ، وإنَّ

أعناقكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر ولياً من أولياء الله يُبَشِّرُ نبيَّ الله بمقدمه، وتُفَتِّحُ أبوابَ السماء لروحه، وتبتهجُ الحورُ العين بلقائه، ويَأْنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أُمَّتِه، ويوحش أهل الحِجَا والدين فَقْدُه، رحمة الله عليه، وعنده تَحْتَسِبُ المصيبةُ به.

ألفاظ لأهل العصر في

ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعيَ سليل من سلالة النبوة، وفَرَعٌ من شجرة الرسالة، وعُضْوٌ من أعضاء الرسول، وجزءٌ من أجزاء الوصيِّ والبَنتُول. كتبت وليتي ما كتبت وأنا ناعي الفضل من أقطاره، وداعي المجد إلى شق ثوبه وصِداره، ومخبر أن شمس الكرم واجبة، والمآثر مودعة، وبقايا النبوة مرتفعة، وآمال الإمامة منقطعة، والدين منخزلٌ واجم، وللتقوى دَمْعَان هَامٍ وساجم. كتابي وقد شَلَّتْ عَيْنُ الدَّهْرِ، وفُقِّتْ عَيْنُ المجد، وقَصُرَ باعُ الفضل، وكُسِفَتْ شمسُ المساعي، وخُسِفَ قمرُ المعالي، وتجددَ في بيت الرسالة رُزءُ جدَدِ المصائب، واستعادَ النوائب؛ كل هذا لفقدٍ من حَطِّ الكرمِ برَبِّه، ثم أدرج في بُرْدِه، وامتزج المجدُ به، فدَفِنَ بدَفْنِه، إنها لمصيبةٌ عمتْ بَيْتَ الرسالة، وغضتْ طَرْفَ الإمامة، وتحيفتْ جانبَ الوحي المتزل، وذكرت بموت النبي المرسل. كتبت والدهرُ ينعي مهجته والجدُّ يندُب بهجته، ومهابط الوحي والرسالة تُحْنِي ظهورها أسفاً، ومآقي الإمامة والوصية والرسالة تُذْري دموعها لهفاً؛ وذلك أن حادثَ قضاء الله استأثر بفرع النبوة، وعنصر الدين والمروءة.

عود إلى بعض ما قاله أهل البيت

ووقع بين الحسن ومحمد بن الحنفية لِحَاء، ومشى الناسُ بينهما بالنِّمَائِم، فكتب إليه محمد بن الحنفية: أمّا بعد، فإن أبي وأباك علي بن أبي طالب؛ لا تفضّلني فيه ولا أفضّلُك، وأمي امرأةٌ من بني حنيفة، وأمّك فاطمة الزَّهراء بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو مُلِئَتِ الأرضُ بمثل أُمِّي لكانت أُمّك خيراً منها؛ فإذا قرأت كتابي هذا فاقدّم حتى تترضاني، فإنك أحق بالفضل مني.

وخطب الحسين بن علي، رضوان الله عليهما، غداة اليوم الذي استشهد فيه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه؛ ثم قال: يا عبادَ الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حَذَرٍ؛ فإنَّ الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياءُ أحق بالبقاء، وأولى بالرضاء، وأرضى بالقضاء؛ غير أنَّ الله تعالى خلَقَ الدنيا للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مُضْمَحِلٌ، وسرورها مُكْفَهَرٌ، منزِلٌ تَلْعَة، ودارٌ قُلْعَة؛ فتزوّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ

التقوى، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

وكان معاوية بن أبي سفيان عَيْنُ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقريش، فكتب إليه: إِنَّ الحسين بن علي أعتقَ جاريةً له وتزوجها؛ فكتب معاويةُ إلى الحسين: مِنْ أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي. أما بعد، فإنه بلغني أنك تزوجتَ جاريَتَكَ، وتركتَ أكفأكَ من قريش، مِمَّنْ تَسْتَنْجِبُهُ للولد، وتمجد به في الصُّهر، فلا لِنَفْسِكَ نَظَرْتُ، ولا لَوَلَدِكَ انتَقَيْتَ.

فكتب إليه الحسين بن علي: أما بعد، فقد بلغني كتابُكَ، وتَعْيِيرُكَ إياي بأني تزوجتُ مولاتي، وتركتُ أكفائي مِنْ قُريش، فليسَ فَوْقَ رسول الله منتهى في شرف، ولا غاية في نسب؛ وإنما كانت ملكَ يميني، خرجتُ عن يدي بأمرِ التمسْتُ فيه ثوابَ الله تعالى، ثم ارتجعتها على سنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وقد رفع الله بالإسلام الحسيصة، ووضع عنا به النقيصة؛ فلا لَوَمَ على امرئ مسلم إلا في أمرٍ مَأْثَم، وإنما اللومُ لَوَمُ الجاهلية.

فلما قرأ معاوية كتابه نبذهُ إلى يزيد فقراه، وقال: لَشَدَّ ما فخرَ عليك الحسين! قال: لا، ولكنها ألسنة بني هاشم الحداد التي تَفْلِقُ الصَّخَر، وتَعْرِفُ من البحر! والحسين - رضي الله عنه! - هو القائل: الوافر:

لَعَمْرُكَ إِنِّي لأُحِبُّ دَاراً
تَحُلُّ بها سُكَيْنَةُ وَالرَّبَابُ
أُحِبُّهُمَا وَأَبْذُلُ كلَّ مَالِي
وليس للائم عِنْدِي عِتَابُ

سكينة: ابنته، والرباب: أمها، وهي بنت امرئ القيس بن الجرول الكلبية.

وفي سُكَيْنَةَ يقول عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي كذباً عليها:

قالت سُكَيْنَةُ والدموعُ ذَوَارِفُ
ليتَ الْمُغِيرِي الذي لَمْ أَجْزِهِ
كانت تردُّ لنا المُنَى أَيْامنا
خُبرتُ ما قالتْ فَبِتْ كَأَنا
أُسْكِينُ، ما ماءُ الْفُرَاتِ وَطِيبُهُ
بألذَّ منك، وإن نَأَيْتُ، وَقَلَمَا
إنْ تَبَذَّلِي لي نائلاً أَشْفِي بِهِ
وعصَيْتُ فَيَكُ أَقَارِبِي وتَقَطَّعتْ
تَجْرِي على الخَدَيْنِ والجَلْبَابِ
فيما أطلَّ تَصَيُّدِي وَطِلَابِي
إِذْ لا نَلَامُ على هَوَى وتَصَابِي
يُرْمِي الحشا بنوافذِ النَّشَابِ
مَنِّي على ظَمًا وفَقْدِ شَرَابِ
ترعى النساءُ أمانةَ الْغُيَابِ
داءَ الْفُؤَادِ فقد أَطَلَّتْ عَذَابِي
بيني وبينهم عُرَى الأسبابِ

منهم، ولا أَسْعَفْتَنِي بِثَوَابِ

في حرٍّ هاجِرَةٍ لِلْمَعِ سَرَابِ

فتركنتي لا بالوصالِ مُمْتَعًا

فقدعتُ كالمُهْرِيْقِ فَضْلَةً مَائِهِ

وكانت سَكِينَةً من أَجْمَلِ نِساءِ زَمَانِهَا وأَعْقَلِهِنَّ، وكان مُصْعَبُ بنُ الزُبَيْرِ قد جَمَعَ بَيْنَها وَبَيْنَ عائِشَةَ بنتِ طُلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ فَلَمَّا قُتِلَ مُصْعَبُ قالَتِ سَكِينَةُ: الطَوِيلُ:

يَرَى المَوْتَ إِلَّا بِالسِّيفِ حَرَامًا

إِلَى القَوْمِ حَتَّى أُوْرِدُوهُ حِمَامًا

فإن تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا المَاجِدَ الَّذِي

وَقَبْلَكَ ما خَاضَ الحَسِينُ مَنِيَّةً

وقال علي بن الحسين رحمه الله: لو كان الناسُ يعرفونَ جُمْلَةَ الحالِ في فَضْلِ الاستِبانَةِ، وَجُمْلَةَ الحالِ في فَضْلِ التَّبَيُّنِ، لأَعْرَبُوا عن كُلِّ ما يَتَلَجَّجُ في صُدُورِهِمْ، وَلَوَجَدُوا من بَرْدِ اليَقِينِ ما يَغْنِيهِمْ عن المِنازَعَةِ إلى كُلِّ حالٍ سِوَى حَالِهِمْ، على أَنَّ إدراكَ ذَلِكَ كان لا يَعمَدُهُمْ في الأَيامِ القَلِيلَةِ العَدَّةِ، وَالفِكرَةِ القَصِيرَةِ المَدَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ من بَيْنِ مَغْمُورٍ بِالْجَهْلِ، وَمَفْتُونٍ بِالْعُجْبِ، وَمَعْدُولٍ بِالهُوَى عن بابِ التَّثَبُّتِ، وَمَصْرُوفٍ بسِوَةِ العادَةِ عن فَضْلِ التَّعَلُّمِ.

وقال رضي الله عنه: المِرْأءُ يُفْسِدُ الصِّداقَةَ القَدِيمَةَ، وَيَحُلُّ العَقْدَةَ الوَثِيقَةَ، وأَقْلَّ ما فِيهِ أن تَكُونَ به المِغالِبَةُ، والمِغالِبَةُ من أَمْتَنِ أسبابِ القُطِيعَةِ.

ومن دُعائِهِ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَوْفَ الوَعِيدِ، وَسُرُورَ رِجاءِ المَوْعُودِ، حَتَّى لا أَرْجُو إِلَّا ما رَجَيْتَ، وَلا أَخافُ إِلَّا ما خَوَّفْتَ.

وَحَجَّ هِشامُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ، أوَ الوَلِيدِ أَخُوهُ، فَطافَ بِالبَيْتِ وأَرادَ اسْتِلامَ الحَجَرِ فلم يَقْدِرْ، فَنُصِبَ لَهُ مِنبَرٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ؛ فَبَيْنما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ بنَ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي إِزارٍ وَرِداءٍ، وَكانَ أَحسَنَ النِّساءِ وَجْهاً، وَأَعطَرَهُم رائِحَةً، وَأَكثَرَهُم خَشُوعاً، وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ سَجادةٌ، كَأَنَّها رُكْبَةُ عَترٍ، وَطافَ بِالبَيْتِ، وَأتى لِيَسْتَلِمَ الحَجَرَ، فَتَنَحَّى لَهُ النِّساءُ هَيْبَةً وإِجلالاً، فِغَاطَ ذَلِكَ هِشاماً؛ فَقالَ رَجُلٌ من أَهْلِ الشَّامِ: مَنْ الَّذِي أَكْرَمَهُ النِّساءُ هَذا الإِكرامَ، وَأَعْظَمُوهُ هَذا الإِعْظامَ؟ فَقالَ هِشامُ: لا أَعْرِفُهُ، لَئِلا يَعْظُمَ في صُدُورِ أَهْلِ الشَّامِ؛ فَقالَ الفِرْزَدِقُ وَكانَ حاضِراً: البَسيطُ:

هَذا النِّقِيُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ

والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحُلُّ والحَرَمُ

إِلَى مِكارِمِ هَذا يَنْتَهِي الكَرَمُ

رُكْنُ الحَطيِّمِ إِذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ

في كَفِّ أَرْوَعٍ في عَرِينِهِ شَمَمُ

هَذا ابنُ خَيرِ عِبادِ اللَّهِ كَلِمُ

هَذا الَّذِي تَعْرِفُ البَطْحاءُ وَطائِهُ

إِذا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قالَ قائِلُها:

يَكادُ يُمسِكُهُ عِرْفانُ راحَتِهِ

في كَفِّ خَيزَرانٍ رِيحُهُ عَبَقُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
مُشْتَقَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ
يُنْمِي إِلَى ذِرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ

فَمَا يُكَلِّمَ إِلَّا حِينَ يَبْتَاسِمُ
طَابَتْ عُنَاصِرُهُ وَالْخِيَمُ وَالشَّيْمُ
عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجَمُ

يَنْجَابُ نُورُ الْهَدْيِ عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ
حَمَالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا اقْتَرَحُوا
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ
اللَّهُ فَضْلُهُ قَدْماً وَشَرْفُهُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ
عَمَ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ
كُلَّتَا يَدَيْهِ غِيَاثَ عَمَ نَفْعُهُمَا
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ
لَا يُخْلَفُ الْوَعْدَ مِيْمُونَ بَغْرَتِهِ
مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُدِهِ
مِنْ مَعَشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وَبِغَضُّهُمْ
يَسْتَدْفَعُ السُّوءَ وَالْبُلُوْى بِحُبِّهِمْ
مَقْدَمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أُنْمَتَهُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بَعْدَ غَايَتِهِمْ
هُمْ الْغُيُوثُ إِذَا مَا أَرْمَتْ أَرْمَتْ
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ
لَا يَنْقُصُ الْعَسْرُ بَسْطاً مِنْ أَكْفَهُمْ
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
مَنْ يَعْرِفُ اللَّهَ يَعْرِفُ أَوْلِيَّتَهُ

كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الْقَتَمُ
حُلُوُ الشَّمَائِلِ تَحُلُوْ عِنْدَهُ نَعَمُ
بَجْدِهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
جَرَى بِذَلِكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُمَمُ
عَنْهَا الْغِيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالظُّلُمُ
تَسْتَوَكِفَانِ وَلَا يَعْرِوهُمَا الْعَدَمُ
تَزِينُهُ الْاِثْنَتَانِ الْحِلْمُ وَالْكَرَمُ
رَحْبُ الْفَنَاءِ أَرِيبُ حِينَ يَعْتَرِمُ
لَوْلَا التَّشَهُدُ كَانَتْ لَاءُهُ نَعَمُ
كُفْرٌ، وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصِمُ
وَيُسْتَرْبُ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنَّعَمُ
فِي كُلِّ بَدَأٍ وَمَخْتَوْمٌ بِهِ الْكَلَمُ
أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ هُمْ
وَلَا يُدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا
الْأَسَدُ أَسَدُ الشَّرِّى وَالْبَاسُ مُحْتَدِمُ
خِيَمٍ كَرِيمٍ وَأَيْدٍ بِالْنَدَى هُضْمُ
سَيِّانَ ذَلِكَ إِنْ أَثَرُوا وَإِنْ عَدِمُوا
لَأَوْلِيَّةٍ هَذَا أَوْ لَهُ نَعَمُ
فَالدِّينُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأُمَمُ

وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

وقد روي أن الحزين الكناي وقد على عبد الله بن عبد الملك بن مروان وهو أمير على مصر فأنشده
قصيدة منها: البسيط:

لما وقفت عليه في الجموع ضحى
حيث به سلام وهو مرتفق
وقد تعرضت الحجاب والخدم
وضجة القوم عند الباب تزدهم

في كفه خيزران... - والبيت الذي يليه.

ويقال: إنها لداود بن سلم في قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو الذي يقول فيه
الأحطل: الكامل:

ولقد غدوت على التجار بمسح
لذ، يقبله النعيم، كأنما
هرت عواذله هريز الأكلب
مُسحت ترائبه بماء مذهب
لباس أروية الملوك، تروقه
من كل مرتقب عيون الزبرب
ينظرون من خلل الستور إذا بدا
نظر الهجان إلى الفنيق المصعب

ويقال: بل قالها في علي بن الحسين اللعين المنقري، وسمي اللعين، لأن عمر سمعه يُنشد شعراً والناس
يُصلون، فقال: من هذا اللعين؟ فعلق به هذا الاسم وليقله من شاء، فقد أحسن ما شاء وأجاد وزاد.
وقال ذو الرمة في بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري: الطويل:

من آل أبي موسى ترى الناس حوله
فما يعرفون الضحك إلا تبسماً
كأنهم الكروان عاين بازيا
ولا ينبسون القول إلا تتاجياً
وما الفحش منه يرهبون، ولا الخنا
فتى السن، كهل الحلم، يسمع قول
عليه، ولكن هيبة هي ماهايا
يوازن أدناه الجبال الرواسيا

ومن أجود ما للمحدثين في ذلك قول أبي عبادة البحرري في الفتح ابن خاقان: الطويل:

ولما حضرنا سدة الإذن أخرجت
فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة
رجال عن الباب الذي أنا داخله
أقابل بدر التم حين أقبله
بدا لي محمود السجية شمرت
كما انتصب الرمح الرديني ثقفت
سراويله عنه وطالت حمائله
أنابييه واهتز للطعن عامله

وكالبدرِ وافتهً لَتَمَّ سُعودُهُ
فَسَلَّمْتُ فاعْتَاقَتْ جَنَانِي هَيْبَةً
إِلَى مُسْرِفٍ فِي الْجُودِ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا
فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلَاقَةَ وانْتَنَى
دَنَوْتُ فُقِبِلْتُ النَّدى مِنْ يَدِ امْرِئٍ
صَفَتْ مِثْلَ مَا تَصْفُو المِدامَ خِلَالَهُ
وَتَمَّ سَنَاءُ واسْتَهَلَّتْ مَنَازِلُهُ
تَنَازَعُنِي القَوْلَ الَّذِي أَنَا قَائِلُهُ
لَدَيْهِ لِأَضْحَى حَاتِمٌ وَهُوَ عَاذِلُهُ
إِلَيَّ بِبِشْرٍ آنَسْتَنِي مَخَايِلُهُ
جَمِيلٌ مُحْيَاهُ سِبَاطٌ أَنَامِلُهُ
وَرَفَتْ كَمَا رَقَّ النَّسِيمُ شَمَائِلُهُ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بني تغلب، فتولى الإصلاح بينهم الفتح بن خاقان فقال البحري فيما تعلق
بعضه بذكر الهيبة: الطويل:

بني تَغْلِبٍ أَعَزُّ عَلَيَّ بَأَنَّ أَرَى
خَلَّتْ دِمْنَةٌ مِنْ سَاكِنِيهَا وَأَوْحَشَتْ
إِذَا مَا التَّقَوَّا يَوْمَ الْهَيَّاجِ تَحَاجَزُوا
كَفَى مِنَ الْأَحْيَاءِ لَأَقَى كَفِيَّةُ
إِذَا مَا أَخْ جَرَ الرِّمَاحَ انْتَهَى لَهُ
تَحَوُّطُهُمُ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ، وَضُمَرُ
بَطْعُنٍ يَكْبُ الذَّارِعِينَ دِرَاكُهُ
تَجَافَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الَّتِي
وَكَانَتْ يَدُ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ عِنْدَكُمْ
وَلَوْلَاهُ طُلَّتْ بِالْعُقُوقِ دِمَاؤُكُمْ
تَلَفَيْتَ يَا فَتْحُ الْأَرَاقِمِ بَعْدَمَا
وَهَبْتَ لَهُمْ بِالسَّلَامِ بَاقِي نَفُوسَهُمْ
أَتَاكَ وَفُودُ الشُّكْرِ يُثْنُونَ بِالَّذِي
فَلَمْ أَرِ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ سُودْدًا
تَرَاعَوْكَ مِنْ أَقْصَى السَّمَاطِ فَقَصَرُوا
وَلَمَّا قَضَوْا صَدَرَ السَّلَامِ تَهَاوَفُوا
دِيَارَكُمْ أُمَسْتُ وَلَيْسَ لَهَا أَهْلُ
مَرَابِعٍ مِنْ سِنْجَارٍ يَهْمِي بِهَا الْوَبْلُ
وَلِلْمَوْتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ قِسْمَةٌ عَدْلُ
وَمِثْلٌ مِنَ الْأَقْوَامِ زَاخِفُهُ مِثْلُ
أَخٍ لَا بَلِيدٌ فِي الطَّعَانِ وَلَا وَغْلُ
عِتَاقٍ، وَأَنْسَابُ بِهَا يُدْرِكُ النَّبْلُ
وَضَرْبٌ كَمَا تَرَعُو الْمُخَزَمَةَ الْبِزْلُ
عَلِمْتُمْ، وَلِلْجَانِينِ فِي مِثْلِهَا الثَّكْلُ
يَدُ الْغَيْثِ عِنْدَ الْأَرْضِ أَجْدَبَهَا الْمَحْلُ
فَلَا قَوْدَ يُعْطَى الْأَذْلُ وَلَا عَقْلُ
سَقَاهُمْ بِأَوْحَى سُمِّهِ الْأَرْقَمُ الصِّلُ
وَقَدْ أَشْرَفُوا أَنْ يَسْتَتِمَّهُمُ الْقَتْلُ
تَقَدَّمَ مِنْ نِعْمَاكَ عِنْدَهُمْ قَبْلُ
مِنْ الْيَوْمِ ضَمَنَهُمْ إِلَى بَابِكَ السَّبْلُ
خُطَاهُمْ، وَقَدْ جَازُوا السُّتُورَ وَهُمْ عَجْلُ
عَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيئَتُهُ الْبَدْلُ

إذا شرعوا في خطبة قطعتهُم
إذا نكسوا أبصارهم من مهابة
نصبت لهم طرفاً حديداً، ومنطقاً
وسلت سخيمات الصدور فعالك ال
بك التأم الشعب الذي كان بينهم
فما برحوا حتى تعاطت أكفهم

جلالة طلق الوجه جانبه سهل
ومالوا بلحظ خلت أنهم قبل
سديداً، ورأياً مثل ما انتضي النصل
كريم، وأبرا غلها قولك الفصل
على حين بُعد منه، واجتمع الشمل
قراك، فلا ضغن لديهم ولا دخل

وجروا ذيول العصب تصفو ذيولها
وما عمهم عمرو بن غنم بنسبة
فمهما رأوا من غبطة في اصطلاحهم

عطاء كريم ما تكاءده بخل
كما عمهم بالأمس نائلك الجزل
فمنك بها النعمى جرت ولك الفضل

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط.

وللطائيين أبي تمام والبحثري في ذلك أشعار كثيرة مختارة، منها قول البحثري يحذر عاقبة الحرب: الوافر:

أما لربيعه الفرس انتهاء
وكانوا رفعوا أيام سلم
إذا ما الجرح رم على فساد
رزية هالك جلبت رزايا
يشق الجيب ثم يجيء أمر
وقبر عن أيامن برقعيد
يسح ترابيه أبداً عليها
فهل لابني عدي من رشيد
أخاف عليهما إمرار مرعى
وأعلم أن حربهما خبال
لعل أبا المعمر يتليها
فكم من سؤدد قد بات يُعطي

عن الزلزال فيها والحروب؟
على تلك الضغائن والندوب
تبين فيه تفريط الطبيب
وخطب بات يكشف عن خطوب
يصغر فيه تشقيق الجيوب
إذا هي ناحرت أفق الجنوب
عهداً من مرق دم صبيب
يرد شريد حلمهما العزيب؟
من الكلا الذي عقباه توبي
على الداعي إليها والمجيب
ببعد الهمة والصدر الرحيب
عطية مكثر فيها مطيب

أَهَيْتُمْ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، دَعَوَى
تَنَاسَ ذُنُوبَ قَوْمِكَ إِنْ حَفِظَ ال
فَلَلَسَهُمُ السَّيِّدُ أَحَبُّ غِيًّا
مَتَى أحرَزْتَ نَصْرَ بَنِي عُبَيْدٍ
فَقَدْ أَصْبَحْتَ أَغْلَبَ تَغْلِبِي
يناسب قوله: الوافر:

إِذَا مَا الْجَرْحُ رَمَ عَلَى فَسَادٍ
قولُ أَبِي الطَّيِّبِ المُنْتَبِي لِعَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّنُوخِيِّ أَحَدِ بَنِي الْقَصِيصِ: الْوَافِرُ:
فَلَا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةُ مَوَالٍ
وَكُنْ كَالْمَوْتِ لَا يَرِثِي لِبَاكِ
فَإِنَّ الْجَرْحَ يَنْغِرُ بَعْدَ حِينٍ
وفي هذه القصيدة:

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عِيُونُ
وَقَدْ صُغْتَ الْأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ
كَأَنَّ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ هَٰذَيْنِ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ: الْكَامِلُ:
وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً
قَوْمٌ إِذَا احْمَرَ الْهَجِيرُ مِنَ الْوَعَى
وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
فَمَا يَخْطُرُنَ إِلَّا فِي فُؤَادٍ
وإنما أخذه أبو الطيب من قول منصور النميري، وذكر سيفاً: الْكَامِلُ:

ذَكَرْتُ، بَرَوْنَقِهِ الدِّمَاءُ، كَأَنَّمَا
وَتَرَى مَسَاقِطَ شَفَرَتَيْهِ كَأَنَّمَا
وَتَرَاهُ مُعْتَمِئًا إِذَا جَرَدَتْهُ
وَكَأَنَّ وَقَعَتُهُ بِجَمْجَمَةِ الْفَتَى
يَعْلُو الرِّجَالُ بِأَرْجُوَانٍ نَاقِعٍ
مِلْحٌ تَبَدَّدَ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِعِ
بَدَمِ الرِّجَالِ عَلَى الْأَدِيمِ النَّاقِعِ
خَدَرُ الْمُدَامَةِ أَوْ نَعَاشِ الْهَاجِعِ
أردت هذا البيت، وقول النميري: الْكَامِلُ:
وَتَرَاهُ مُعْتَمِئًا إِذَا جَرَدَتْهُ

يشير إلى قول أبي الطيب، وذكر سيفاً: الكامل:

يَبْسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ فَهُوَ مُجْرَدٌ
مِنْ غِمْدِهِ وَكَأَنَّمَا هُوَ مُغْمَدٌ

رَيَانُ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَيْنَهُ
لَجَرَى مِنَ الْمُهَجَاتِ بَحْرٌ مُزِيدٌ

وبنو عبيد، وبنو حبيب - اللذان ذكرهما البحري - هم: بنو عبيد ابن الحارث بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وحبيب بن الهجرس ابن تيم بن سعد بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وفيهم حبيب بن حرقه بن تغلب بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، فلا أدري أيهما أراد! وقال البحري: الطويل:

أُسِيتُ لِأَخَوَالِي رَبِيعَةً أَنْ عَفَتْ
بِكُرْهِي أَنْ بَانَتْ خَلَاءَ دِيَارُهَا
إِذَا افْتَرَقُوا مِنْ وَقَعَةٍ جَمَعَتْهُمْ
تَذُمُّ الْفَتَاةُ الرُّودَ شِيمَةً بَعْلَهَا
حَمِيَّةُ شَعْبٍ جَاهِلِيٍّ وَعِزَّةُ
وَفَرَسَانٍ هِجَاءً تَجِيشُ صُدُورَهُمْ
لُقُتْ لُ مِنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفُوسَهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تَقْطَعُ بَيْنَهَا
فَكُنْتُ أَمِينَ اللَّهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا

وقال أبو تمام الطائي: البسيط:

مَهْلًا بَنِي مَالِكٍ لَا تَجْلُبَنَّ إِلَى
لَمْ يَأْلُكُمْ مَالُكَ صَفْحًا وَمَغْفَرَةً
أَخْرَجْتُمُوهُ بِكُرْهِهِ مِنْ سَجِيَّتِهِ
أَوْطَأْتُمُوهُ عَلَى جَمْرِ الْعُقُوقِ، وَلَوْ
لَوْ لَا مَنَاشِدَةُ الْقُرْبَى لَغَادَرَكُمْ
لَا تَجْعَلُوا الْبَغْيَ ظَهْرًا إِنَّهُ جَمَلٌ

حَيِّ الْأَرَاقِمِ دُولُولَ ابْنَةِ الرِّقْمِ
لَوْ كَانَ يَنْفَخُ قَيْنَ الْحَيِّ فِي فَحْمٍ
وَالنَّارِ قَدْ تَنْتَضَى مِنْ نَاصِرِ السَّلَمِ
لَمْ يُخْرِجِ اللَّيْثُ لَمْ يُخْرِجِ مِنَ الْأَجَمِ
حَصَائِدَ الْمَرْهَفَيْنِ السِّيفِ وَالْقَلَمِ
مِنْ الْقَطِيعَةِ يَرْعَى وَادِي النَّقَمِ

وقال أيضاً: الكامل:

مهلاً بني عمرو بن غنم؛ إنكم
ما منكم إلا مردى بالحجى
عمرو بن كلثوم بن مالك بن عت
خلقت ربعة من لدن خلقت يداً
تغزو فتغلب تغلب مثل اسمها
وستذكرون غداً صنائع مالك
ما لي رأيت ثراكماً ببسالة
ما هذه القرى التي لا تصطفى
حسد القرابة للقرابة قرحة
تلکم قريش لم تكن آباؤها
حتى إذا بعث النبي محمد
عزبت عقولهم، وما من معشر
لما أقام الوحي بين ظهورهم
ومن الحزامة لو تكون حزامه

هَدَفُ الْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا تَتَحَطَّمُ
أَوْ مُبَشَّرٌ بِالْأُحُودِيَّةِ مُؤَدَّمُ
ابن سعد سَهمكم لا يُسهم
جُشَمَ بن بكر كفها والمِعْصَمُ
وتسيح غنم في البلاد فتغنم
إن جَلَّ خَطْبٌ أَوْ تُدَوِّعَ مَغْرَمُ
ما لي أرى أطوادكم تنهدم؟
ما هذه الرِّجْمُ التي لا ترحم؟
أُعِيَتْ عَوَائِدُهَا وَجَرَحَ أَقْدَمُ
تَهْفُوْ وَلَا أَحْلَامَهَا تَنْقَسَمُ
فيهم غَدَتْ شَحَنَاؤُهُمْ تَنْتَضِرُ
إِلَّا وَهُمْ مِنْهُ أَلْبَ وَأَحْزَمُ
ورأوا رسول الله أحمداً منهم
أَلَّا تُؤَخَّرَ مَنْ بِهِ تَنْقَدَّمُ

ومالك هو: ابن طوق بن مالك بن عتاب بن زُفَر بن مرة بن شريح ابن عبد الله بن عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جُشَم بن بكر بن وائل بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وفيه يقول دُعْبَل يهجوهُ: البسيط:

الناس كلهم يَعدو لحاجته
ومالك ظلَّ مشغولاً بنسبته
من بين ذي فَرَحٍ منها ومهموم
يرمُّ منها بناءً غيرَ مرْمُوم
بيني بيوتاً خراباً لا أنيس بها
ما بين طوق إلى عمرو ابن كلثوم

والتكثير من المعنى المعترض، يزيح عن ثغرة العَرَض، لكني أجري منه إلى حلبة الإجادة، وأقصدُ قصدَ الإفادة، ثم أعود حيثُ أريد.

وقال ابن الخياط المكي - واسمه عبد الله بن سالم - في باب الهيبة، في مالك بن أنس الفقيه، رحمة الله عليه؛ وقيل: إن هذا من قول ابن المبارك: الكامل:

والسائلون نَوَأكِسُ الأَذْقَانِ
فهو المَهْيَبُ وليس ذا سُلْطَانِ

يَأْبَى الجَوَابَ فما يَرَا جَعُ هَيْبَةً
أَدَبُ الوَقَارِ، وَعِزُّ سُلْطَانِ النَقَى

وقول الفرزدق البسيط:

يكادُ يمسكه عرفان راحته

قد تَجَاذَبَه جماعةٌ من الشعراء؛ قال أشجع بن عمرو السلمي لجعفر اليرمكي:

مَ فَتَخْتَالُ بَيْنَ أَرْحَلِ عَيْرِكَ
عت لسارت إليك من قبل سَيْرِكَ

حَبِذا أَنْتَ قَادِمًا تَرُدُّ الشَا
إِنْ أَرْضًا تَسْرِي إِلَيْهَا لَوْ اسْطَا

وإليه أشار أبو تمام الطائي في قوله: الخفيف:

مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى المَكْرُوبُ
لَسَعَى نَحْوَهَا المَكَانَ الجَدِيبُ

دِيمَةً سَمَحَةَ القِيَادِ سَكُوبُ
لَوْ سَعَتْ بَقْعَةً لِأَعْظَامِ نُعْمَى

وفي هذه القصيدة في وصف الدَّيْمَةِ، ومدح محمد بن عبد الملك الزيات:

طِيعُ قَامَتْ فَعَانَقَتْهَا القُلُوبُ
وَعَزَّالٍ تَنْشَا وَأُخْرَى تَصُوبُ
كُ وَعِنْدَ السَّرَى وَحِينَ تَوُوبُ
هَنٌّ قَدْ يَشْبَهُ النَجِيبَ النَجِيبُ

لَذِ شُوبُوبُهَا وَطَابَ فُلُو تَسْ
فَهُوَ مَاءٌ يَجْرِي وَمَاءٌ يَلِيهِ
أَيُّهَا الْغَيْثُ حَيَّ أَهْلًا بِمَغْدَا
لَأَبِي جَعْفَرٍ خَلَّاتُكَ تَحْكِي

وأنشدها أبا جعفر بن الزيات، فقال: يا أبا تمام؛ والله إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبدائع معانيك، ما يزيد حُسْنًا على بهيِّ الجواهر في أجياد الكواعب؛ وما يُدْخِرُ لك شيء من جزيل المكافأة إلا يَقْصُرُ عن شِعْرِكَ في الموازنة. وكان بحضرته رجل من الفلاسفة، فقال: هذا الفتى يموت شاباً! فقل له: مِنْ أَيْنَ حَكَمْتَ عَلَيْهِ بهذا؟ فقال: رأيت فيه من الحِذَّةِ والذكاء والفطنة مع لطافة الحسِّ ما علمتُ به أن النفسَ الروحانية كل عمره كما يأكلُ السيفُ المهندُ غمده؛ قال الصولي: مات وقد نيف على الثلاثين. وقال في أبي دُلف العجلي القاسم بن محمد بن عيسى: الطويل:

إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بِنِعْمَةِ طَالِبٍ
فَتَرْكَبُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ

تَكَادُ عَطَايَاهُ يُجَنُّ جُنُونُهَا
تَكَادُ مَغَانِيهِ تَهْشُ عِرَاصُهَا

وقال البُحْتَرِيُّ: الكامل:

فِي وَسْئِهِ لَمْ يَشَى إِلَيْكَ الْمَنْبَرُ

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا

وقال أبو الطيب المتنبي لبدر بن عمار: الكامل:

طَرَبْتُ مَرَاكِبَنَا فَخَلْنَا أَنَّهَا
لَوْ تَعَقَلُ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلَتْهَا
لَوْ لَا حَيَاءٌ عَاقَهَا رَقَصَتْ بِنَا
مَدَّتْ مُحِبِّيَّةَ إِلَيْكَ الْأَغْصَنَا

رجع إلى ما انقطع

قال أعرابي لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عَبَدْتُهُ؟ فقال: لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدْ مَنْ لَمْ أَرَهُ، قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصارُ بمشاهدة العيان، ورأته القلوبُ بحقائق الإيمان، لا يُدرك بالحواس، ولا يُشَبَّه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجوزُ في القضايا، ذلك الله الذي لا إله إلا هو. فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعلُ رسالته.

قال الجاحظ: قال محمد بن علي: صلاح شأن الدنيا بجزافها في كلمتين؛ لأنَّ صلاحَ شأن جميع الناس في التعايش والتعاشر وهو ملء مكيال؛ ثلثاه فطنة، وثلثاه تغافل.

قال الحافظ: لم يجعل لغير الفطنة نصيباً من الخير، ولا حظاً من الصلاح؛ لأنَّ الإنسان لا يتغافل عن شيء إلا وقد عرفه وفطن له، قال الطائي: الكامل:

ليس الغبي بسيد في قومِه
لكنَّ سيدَ قومِه المتغابي

وقال ابن الرومي لأبي محمد بن وهب بن عبيد الله بن سليمان: الطويل:

تظلُّ إذا نامت عيونُ ذوي العمى
تغاضي لهم وسنان، بل متواسنا،
وإن حدّوا زرقاً إليك جواحظاً
وتوقظهم يقظان بل متياقظاً

وأبو جعفر هذا هو الباقر، وكان أخوه زيد بن علي، رضي الله عنه، ديناً، شجاعاً، ناسكاً، من أحسن بني هاشم عبارة، وأجملهم شارة.

وكانت ملوك بني أمية تكتب إلى صاحب العراق أن امنع أهل الكوفة من حضور زيد بن علي؛ فإنَّ له لساناً أقطع من ظبة السيف وأحدَّ من شبا الأسيّة، وأبلغ من السحر والكهانة، ومن كل نفث في عقدة. وقيل لزيد بن علي: الصمت خير أم الكلام؟ فقال: قبح الله المساكنة، ما أفسدها للبيان، وأجلبها للعبيّ والحصر والله للمُماراة أسرع في هدم العبيّ من النار في ييس العرفج، ومن السيل إلى الحدود.

وقال له هشام بن عبد الملك: بلغني أنك تروم الخلافة وأنت لا تصلح لها؛ لأنك ابنُ أمة؟ قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابنُ أمة، وإسحاق ابنُ حرة؛ فأخرج الله من صلب إسماعيل خير

ولد آدم! فقال له: قُمْ! فقال: إذا والله لا تراني إلا حيث تُكره! فلما خرج من الدار قال: ما أحبُّ أحدَ الحياة قط إلا ذل، فقال له سالم مولى هشام: لا يسمعن هذا الكلام منك أحدٌ، وكان زيد كثيراً ما ينشد: السريع:

شردّه الخوفُ وأزرى به
كذلك من يكره حرّ الجلاد
منخرق الخفين يشكو الوجى
تتكبّه أطرافُ مروٍ حدادٍ
قد كان في الموت له راحة
والموت حتمٌ في رقاب العباد

وقد رُويت هذه الأبيات لحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وقد رُويت لأخيه موسى. قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد: حدّثني رجل من بني هاشم قال: كنّا عند محمد بن علي بن الحسين، وأخوه زيد جالس، فدخل رجل من أهل الكوفة فقال له محمد بن علي: إنك لتروي طرائفَ من نوادر الشعر، فكيف قال الأنصاري لأخيه؟ فأنشده: المتقارب:

لعمرك ما إن أبو مالك
بوان ولا بضعيف قواه
ولا بالذلّ له نازغ
يُعادي أخاه إذا ما نهّاه
ولكنّه غيرُ مخالفةٍ
كريم الطبائع حلو نثاه
وإن سُدَّتْهُ سُدَّتْ مطواعةً
ومهما وكلّت إليه كفاه

فوضع محمد يده على كتف زيد، فقال: هذه صِفَتُكَ يا أخي، وأُعِيذُكَ اللهُ أن تكون قتيل أهل العراق! وكانت بين جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي وبين زيد، رضوان الله عليهم، منازعة في وصيّة، فكانا إذا تنازعا انشال الناسُ عليهما ليسمعوا محاورتهما؛ فكان الرجلُ يحفظ على صاحبه اللفظة من كلام جعفر، ويحفظ الآخر اللفظة من كلام زيد. فإذا انفصلا وتفرّق الناس عنهما قال هذا لصاحبه: قال في موضع كذا وكذا، وقال الآخر: قال في موضع كذا وكذا؛ فيكتبون ما قالوا، ثم يتعلّمونه كما يتعلّم الواجب من الفرض، والنادر من الشعر، والسائر من المثل! وكانا أعجوبة دهرهما وأحدوثة عصرهما. ولما قُتل زيداً يوسف بن عُمر وصلب جُثته بالكُنَاسة وبعثَ برأسه مع شبة بن عقّال، وكلّف آل أبي طالب البراءة من زيد، وقام خطباؤهم بذلك؛ فكان أول من قام عبدُ الله بن الحسن بن الحسين بن علي، رحمة الله عليه، فأوجز في كلامه ثم جلس، وقام عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فأطنب - وكان شاعراً خطيباً لسنّاً ناسباً - فأنصرف الناس وهم يقولون: ابن الطيار من أخطب الناس، فقليل لعبد الله بن الحسن في ذلك، فقال: لو شئت أن أقول لقلت، ولكن لم يكن مقامُ سرور، وإنما كان مقامُ مصيبة.

وعبدُ الله هذا هو: أبو محمد وإبراهيم الخارَجَيْنِ على أبي جعفر المنصور، وهو القائلُ لابنه محمد أو إبراهيم: أي بُنَيَّ! إني مؤدِّ حقَّ الله في تأديك، فأدَّ إليَّ حقَّ الله في الاستماع مِنِّي؛ أي بُنَيَّ! كُفَّ الأذى، وارْفُضِ البَذَى واستَعِنْ على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تَدْعُوك فيها نفسك إلى الكلام، فإنَّ للقول ساعات يَضُرُّ فيها الخطأُ، ولا يَنْفَعُ فيها الصَّوابُ، واحذَرُ مشورةَ الجاهِلِ، وإن كان ناصِحاً، كما تَحْذَرُ مشورةَ العاقلِ إذا كان غاشّاً؛ لأنَّه يُرْدِيكَ بِمَشُورَتِهِ؛ واعلَمْ يا بُنَيَّ أنَّ رأيكَ إذا احتجَّتْ إليه وجدَّتْه نائماً، ووجدتَ هواك يَقْظان، فإياك أن تستبدَّ برأيكَ؛ فإنه حينئذٍ هواك؛ ولا تَفْعَلْ فِعْلاً إِلَّا وَأَنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَه لا تُرْدِيكَ، وأنَّ نتيجتَه لا تَجْني عليك.

وهو القائل: إياك ومُعَاداة الرجال فإنك لن تعدَمَ مَكْرَ حليم، أو مُعَاداة لئيم.

وكتب إلى صديق له: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنَّ الله تعالى جعل لمن اتَّقاه المخرج من حيث يَكْرَهُ، والرزق من حيث لا يحتسب.

وعبدُ الله هو القائل: الكامل:

كظباء مكة صَيِّدُهُنَّ حرامٌ

أنسُ حرائرُ ما هَمَمْنَ بربِّيَّةٍ

ويصدَّهن عن الخنا الإسلامُ

يُحَسِّنُ من لِينِ الحديثِ دوانيا

قال: وهذا كما روي أن عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، فقال له: قد عَلِمْتَ قريشُ أنَّكَ أطولُها صَبَوةً، وأبعَدُها تَوْبَةً، وَيَحْكُ! أما لك في نساء قريش ما يَكْفِيكَ من نساء بني عبد مناف؟ أَلَسْتَ القائل: الطويل:

ولي نظر، لولا التَحْرُجُ، عارُ

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنى

بَدَتْ لك خلف السَّجْفِ أم أنتَ حالمٌ؟

فقلتُ: أَصْبَحُ أم مصابيحُ راهبٍ

أبوها، وإما عبد شمسٍ، وهاشم

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ، إِمَّا لَنَوْفَلٍ

فقال: يا أمير المؤمنين، فَإِنَّ بَعْدَ هذا:

صَدَرْنَ وهُنَّ المسلمات الكرائم

طَلَبْنَ الهوى حتى إذا ما وجدْنَهُ

فاستحيا منه عبدُ الملك، وقضى حوائجه ووصله.

وقال آخر في هذا المعنى: الطويل:

فهنَّ حَوَالٍ في الصفات عَوَاطِلُ

تَعَطَّلْنَ إِلَّا مِنْ محاسنِ أَوْجِهٍ

بعفَّ الكلام باخِلَاتِ بَوَازِلِ

كَوَّاسٍ عَوَارٍ صامتاتِ نَوَاطِقُ

بَرَزْنَ عَفَافًا وَاحْتَجَبْنَ تَسْتُرًا
وَشَيْبَ بِحَقِّ الْقَوْلِ مِنْهُنَّ بَاطِلُ
فَذُو الْحَلَمِ مَرْتَادٌ وَذُو الْجَهْلِ طَامِعُ
وَهْنٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ حَيْدٌ نَوَاطِلُ

وقال العَدِيلُ بنُ الْفَرَّخِ فيما يتطرف طرفاً من هذا المعنى: الكامل:

لَعَبَ النِّعِيمُ بِهِنَ فِي أَطْلَالِهِ
حَتَّى لَبَسْنَ زَمَانَ عَيْشِ غَافِلِ
يَأْخُذْنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَى
فَإِذَا عَطَلْنَ فَهْنَهُنَّ غَيْرُ عَوَاطِلِ
وَإِذَا خَبَانَ خُدُودَهُنَّ أَرَيْنَنِي
حَدَقَ الْمَهَا وَأَخَذْنَ نَبْلَ الْقَاتِلِ
يَرْمِينَنَا لَا يَسْتَتِرْنَ بِجَنَّةِ
إِلَّا الصَّبَا وَعِلْمُنَ أَيْنَ مِقَاتِلِي
يَلْبَسْنَ أَرْدِيَةَ الشَّبَابِ لِأَهْلِهَا
وَيَجِرُ بَاطِلُهُنَّ ذَيْلَ الْبَاطِلِ

وتعرض لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ، فقال فيما أنشده ثعلب: الطويل:

أُظُنْتُ سَفَاهَا مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهَا
أَنْ أَهْجُوهَا لَمَّا هَجَّتَنِي مُحَارِبُ
فَلَا وَأَبِيهَا إِنِّي بَعَثِيرَتِي
وَنَفْسِي عَنْ ذَاكَ الْمَقَامِ لِرَاغِبِ

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرد لرجل لم يسمه في رجل يُعَرِّفُ بَابِنَ الْبَعِيرِ، وقبلهما:

يَقُولُونَ أَبْنَاءَ الْبَعِيرِ وَمَا لَهُمْ
سَنَامٌ وَلَا فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ غَارِبِ

وسايرَ عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظهر مدينة الأنبار وهو يَنْظُرُ إلى بناءٍ قد بناه أبو العباس ويدور به، فأنشد عبد الله: الوافر:

أَلَمْ تَرَ جَوْشَنًا لَمَّا تَبَنَّى
بِنَاءَ نَفْعِهِ لِبَنِي بَقِيلِهِ
يُؤْمَلُ أَنْ يُعَمَّرَ عُمَرُ نُوحٍ
وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلِهِ

وكان أبو العباس له مُكْرَمًا، ولحقه معظماً؛ فتبسّم مغضباً، وقال: لو عَلِمْنَا لاشتَرَطْنَا حَقَّ الْمَسَايِرَةِ! فقال عبد الله: بَوَادِرُ الْخَوَاطِرِ، وَأَغْفَالُ الْمَسَانِحِ؛ وَاللَّهُ مَا قَلَّتْهَا عَنْ رَوِيَّةٍ، وَلَا عَارَضَنِي فِيهَا فِكْرَةٌ وَأَنْتَ أَجَلُ مَنْ أَقَالَ، وَأَوْلَى مَنْ صَفَحَ، قَالَ: صدقت؛ خُذْ في غير هذا.

ولما قتل المنصورُ ابنه محمداً - وكان عبدُ الله في السجن - بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبه؛ فوضع بين يديه، فقال: رَحِمَكَ اللَّهُ أبا القاسم، فقد كنتَ من "الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ"! ثم تمل: الطويل:

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ مِنَ الذِّلِّ سَيِّقُهُ
وَيَكْفِيهِ سُوءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا

ثم التفت إلى الربيع فقال له: قل لصاحبك قد مضى من بُؤْسنا مدة، ومن نعيمك مثلها؛ والموعِدُ لله تعالى! قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أكثر انكساراً منه حين أبلغته الرسالة.

أخذ العباس بن الأحنف هذا المعنى، وقيل: عُمارة بن عقيل بن بلال بن جرير، فقال: الطويل:

فإن تَلَحَّظِي حالي وحالك مرّةً بنظرة عين عن هوى النفس تُحجَبْ

تَجِدِ كلَّ يومٍ مرّاً مِنْ بؤسٍ عِشْتِي يمرُّ بيومٍ من نعيمك يُحسَبُ

ولما قتل المنصورُ محمد بن عید الله اعترضته امرأة معها صبيان، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا امرأة محمد بن عبد الله، وهذان ابناه، أَيْتَهُمَا سيفك، وأضرَعَهُمَا خوفك، فناشدتك الله، يا أمير المؤمنين، أن تصعّرَ لهما خدك، أو ينأى عنهما رِفْدُك؛ ولتعطفك عليهما شَوَابِكُ النسب، وأواصرِ الرَّحِم، فالتفت إلى الربيع، فقال: أرَدَدُ عليهما ضياع أبيهما، ثم قال: كذا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم.

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد أجمعوا على حرب المنصور، ونصر محمد؛ فلما ظفر المنصور أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الصادق، فقال له: قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي، وقد رأيتُ أن أبعث إليهم من يُغَوِّرَ عيونهم، ويَجْمَرُ نخلهم. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أُعْطِيَ فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف قَدَرَ فَعَفَرَ؛ فاقْتَدِ بِأَيِّهِمْ شئت، وقد جعلك الله من نسل الذين يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، فقال أبو جعفر: إنَّ أحداً لا يُعَلِّمُنَا الحِلْمَ، ولا يَعْرِفُنَا العلم، وإنما قلتُ هَمَمْتُ، ولم تربي فعلت، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم. وعزى جعفر بن محمد رجلاً، فقال: أعْظِمْ بنعمة في مصيبة حَلَبْتُ أجراً وأفطع بمصيبة في نعمة أكسبت كُفْراً.

هذا كقول الطائي: البسيط:

قد يُنْعِمُ الله بالبُلُوَى وإن عظمتُ وَيَبْتَلِي الله بَعْضَ القَوْمِ بالنَّعَمِ

وكان جعفر بن محمد يقول: إني لأُملِقُ أحياناً فأناجر الله بالصدقة فيُرْبِحني. وقال جعفر، رضي الله عنه: من تَخَلَّقَ بالخلق الجميل وله خُلُقٌ سوء أصيل فتخلقه لا محالة زائل، وهو إلى خُلُقِهِ الأوَّلِ آيل، كطَلِّي الذهب على النحاس يَنْسَحِقُ وتظهر صفرته للناس. هذا كقول العرجي: البسيط:

يا أَيُّهَا المتحلِّي غير شيمته ومن خلائقه الإقصارُ والملق

ارجعْ إلى خلقك المعروف وأرضَ إنَّ التخلُّقَ يأتي دونه الخلق

به

وكان يقول: ما توسَّل إليَّ أحد بوسيلة هي أقرب إليَّ من يدٍ سبَّحتَ مني إليه أُتبعها أختَّها لتحسن ربَّها وحفظَها؛ لأنَّ منَعَ الأواخر يقطعُ لسانَ الأوائل.

وقيل لجعفر رحمه الله: إنَّ أبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافة إلا الحشن، ولا يأكل إلا الجشَب. فقال: يا وَيْحَه! مع ما مُكِّنَ له من السلطان، وجُيِيَ إليه من الخراج! قالوا: إنما يفعل ذلك بُخلاً وجمعاً للمال. فقال: الحمد لله الذي حرَّمه من دُنياه ما ترك له من دينه. انتهى.

قال: ومن دعاء جعفر رضي الله عنه: اللهم إنك بما أنت أهلُّ له من العفو أوَّلِي بما أنا أهلُّ له من العقوبة. وكان عبد الله بن معاوية بن عبد الله، بن جعفر عالماً، ناسياً، وكان خطيباً مُفَوِّهاً، وشاعراً مُجيداً، وكتب إلى بعض إخوانه:

أما بعدُ، فقد عاقني الشكُّ في أمرِك عن عزيمة الرأْي فيك، وذلك أنك ابتدأتني بلُطْفٍ عن غير خِبرَةٍ؛ ثم أعقبَتني جفاء عن غير جَريرة؛ فأطمعني أوَّلُك في إichائك، وأياسني آخرُك عن وفائِك؛ فلا أنا في غير الرجاء مجمُّ لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكِّ في أمرِك عن عزيمة الرأْي فيك؛ فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام. وهو القائل: الطويل:

رَأَيْتُ فَضِيلاً كَانَ شَيْئاً مُلْفَعاً	فكشفه التمحيصُ حتى بدَا ليا
فَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً	فإن عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَالِيا
كَلَانَا غِنًى عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ	ونحن إذا مُتْنَا أَشَدُّ تَعَانِيَا
فَلَا زَادَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَمَا	بلوتُكَ في الحاجاتِ إِلَّا تَمَادِيا
فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ	كما أن عين السخطِ تُبْلِي المساويا

والقائل أيضاً: الكامل:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ	يوماً على الأحسابِ نتكلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا	نَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وهذا كقول عامر بن الطفيل، قال أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش: أنشدني محمد الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل: الطويل:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِي: مَا لَكَ بَعْدَ مَا	أراك صَحِيحاً كَالسَّلِيمِ الْمَعَذِبِ
فَقُلْتُ لَهَا: هَمِّي الَّذِي تَعْرِفِينَهُ	من الثَّارِ فِي حَيِّ زُبَيْدٍ وَأَرْحَبِ

مركبهم في الحي خير مركب
شفاء وخير الثار للمتأوب
بأجرد طاو كالعسيب المثوب
وزغف دلاص كالغدير المثوب
وفي السر منها والصريح المهذب
أبى الله أن أسمو بأب ولا أب
أذاها، وأرمي من رماها بمنكب

إن أغز زبيداً أغز قوماً أعزة
وإن أغز حيي خنعم فدماءهم
فما أدرك الأوتار مثل محقق
وأسمَرَ خطي وأبيض باتر
وإني وإن كنت ابن سيد عامر
فما سودنتني عامر عن وراثته
ولكنني أحمي حماها، وأتقي

وقال أيضاً يهنئ بعض الهاشميين بإملاك: زاد الله في نعمته، وبارك في فواضله، وجعل نوافله؛ ونسأل الله - الذي قسم لكم ما تحبون من السرور - أن يجنبكم ما تكرهون من الخذور، ويجعل ما أحدثه لكم زيناً، ومتاعاً حسناً، ورشداً ثابتاً، ويجعل سبيل ما أصبحت عليه، تماماً لصالح ما سموت إليه؛ من اجتماع الشمّل، وحسن موافقة الأهل، ألف الله ذلك بالصلاح، ونممه بالنجاح، ومد لك في ثروة العدد، وطيب الولد، مع الزيادة في المال، وحسن السلامة في الحال، وفرة العين، وصلاح ذات البين. وهجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمي المدني الحسن بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فقال: الوافر:

ومهما قال فالحسن الجميل
عليه لغيره وهو الرسول

له حق وليس عليه حق
وقد كان الرسول يرى حقوقاً

فلما ولي الحسن المدينة أتاه متكرراً في زي الأعراب، فقال: الوافر:

وتشهد لي بصفين القبور
أبو حسن تعاديهما الدهور
يلوذ مجيرها حمي المجير
وأنت برفع من رفعا جدير

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد
قبور لم تزل مذ غاب عنها
قبور لو بأحمد أو علي
هما أبواك من وضعا فضعه

فقال: من أنت؟ قال: أنا الأسلمي. قال: أذن حيّاك الله! وبسط له رداءه، وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وكان الحسن بن زيد قد عود داود بن سلم مولى بني تميم أن يصله، فلما مدح داود جعفر بن سليمان بن

علي - وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ - أغضبه ذاك، وقدم الحسن من حج أو عمرة، فدخل عليه داود بن سلم مهتئاً، فقال: أنتَ القائل في جعفر بن سليمان بن علي: الطويل:

وكنّا حديثاً قبل تأمير جعفر
وكان المنى في جعفر أن يؤمراً
حوى المنبرين الطاهرين كليهما
إذا ما خطا عن منبر أم منبرا
كأن بني حوَاء صفوا أمامه
فخير في أنسابهم فتخيراً

فقال داود: نعم، جعلني الله فداك، فكنتم خيرة اختياره! وأنا القائل: الطويل:

لعمري لئن عاقبت أوجدت مُنْعِماً
بعفو عن الجاني وإن كان مُعْذِراً
لأنت بما قدّمت أولى بمدحة
وأكرم فخراً إن فخرت وعُنْصِراً
هو الغرة الزهراء من فرع هاشم
ويدعو علياً ذا المعالي وجعفر
وزيد الندى والسبط سبط محمد
وعمك بالطفّ الزكي المُطَهِّراً
وما نال منها جعفر غير مجلس
وإذا ما نفاه العزل عنه تأخراً
بحقكم نالوا نراها وأصبحوا
يرون به عزاً عليكم ومظهراً

فعادله الحسن بن زيد إلى ما كان عليه، ولم يزل يصله ويحسنُ إليه إلى أن مات.

وقوله: وإن كان مُعْذِراً؛ لأن جعفرأ أعطاه على أبياته الثلاثة ألفَ دينار.

ولما ولي الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيم بن علي بن هرمة، فقال له الحسن: يا إبراهيم، لستُ كمن باع لك دينه رجاء مدحك، أو خوف ذمك، فقد رزقني الله تعالى بولادة نبيه، صلى الله عليه وسلم، الممدوح، وجنّبي المقابح، وإن من حقّه عليّ ألاّ أغضيّ على تقصير في حقّ وجب؛ وأنا أقسم لئن أتيت بك سكران لأضربنك حدّاً للخمر، وحداً للسكر؛ ولأزيدن لموضع حرمتك بي، فليكن تركك لها لله، عزّ وجلّ، تُعَنّ عليه، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم. فنهض ابن هرمة، وهو يقول: الوافر:

نهاني ابن الرسول عن المُدام
وأدبني بآداب الكرام
وقال لي اصطبر عنها ودعها
لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبري عنها وحيي
لها حُبُّ تمكّن في عظامي
أرى طيف الخيال عليّ خُبناً
وطيب العيش في خبث الحرام

وكان إبراهيم منهوماً في الخمر، وجلده خيثم بن عراك صاحب شرطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثي في ولاية أبي العباس.

ولما وفد على أبي جعفر المنصور ومدحه استحسّن شعره ووصله، وقال له: سَل حاجتك، قال: تكتب لي إلى عامل المدينة ألاَّ يَحْدِي إذا أُتِيَ بي سكران، فقال أبو جعفر: هذا حد من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله، قال: فاحتك لي يا أمير المؤمنين! فكتب إلى عامل المدينة: مَنْ أتاكَ بابن هرمة سكران فاجلده مائة، واجلد ابن هرمة ثمانين.

فكان الشَّرَطُ يَمُرُّون به مطروحاً في سِكَكِ المدينة، فيقولون: مَنْ يشتري مائة بثمانين؟! وقال موسى بن عبد الله بن علي بن أبي طالب: الطويل:

إذا أنا لم أَقْبَلْ من الدهر كل ما	تَكَرَّهْتُ منه طال عَتْبِي على الدَّهْرِ
إلى الله كل الأمر في الخلق كلهم	وليس إلى المخلوق شيء من الأمر
تعودتُ مَسَّ الضر حتى أَلْفَتُهُ	وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر
ووسَّعَ صدري للأذى الأنسُ بالأذى	وإن كنت أحياناً يضيقُ به صدري
وصيَّرني يَأْسِي من الناس راجياً	لِسُرْعَةِ لطف الله من حيث لا أدري
وموسى بن عبد الله هو القائل: مجزوء الوافر:	

تولت بهجة الدنيا	فكلُّ جديدها خَلَقُ
وخان الناس كلُّهم	فما أدري بمن أثق
رأيت معالم الخير	تِ سُدَّتْ دونها الطُّرُقُ
فلا حسَب ولا نسب	ولا دين ولا خُلُقُ
فلست مصدِّقَ الأقوا	م في شيء وإن صدقوا

وكان المنصور حبسه لخروجه عليه مع أخويه، ثم ضربه أَلْفَ سَوْطٍ، فما نطق بِحَرْفٍ واحد؛ فقال الربيع: عَذَرْتُ هؤلاء الفساق في صبرهم؛ فما بَالُ هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدعة؟ فقال: الكامل:

إِنِّي من القوم الذين يَزِيدُهُمْ جَلْدًا وصبراً قسوة السلطان

وولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى، ولها ستون سنة، ولا يعلم امرأة ولدت بنت ستين سنة إلاَّ قرشيّة.

اجتاز علي بن محمد العلوي بالجسر بحدثنان قَتَلَ عمر بن يحيى بن عبد الله ابن الحسين، وقاتله الحسين بن

إسماعيل هناك، قد جرّد رجلاً للقتل، فلما رأت أمّ الرجل عليّاً سألته أن يشفع فيه، فقال عليٌّ إلى الحسين فأنشده: الوافر:

قتلت أبرّ من ركب المطايا
وعز علي أن ألقاك إلاّ
وجئتُك أَسْتَلِينُكَ بالكلام
وفيما بيننا حدّ الحُسام
ولكنّ الجناح إذا أُصِيبَتْ
قَوَادِمُهُ يرفّ على الإكام

فقال له: وما حاجتُك؟ قال: العفو عن ابنِ هذه المرأة! فتركه.

وسئل العباسُ بن الحسين عن رجلٍ، فقال جليسه: أطرب من الإبل على الخدّاء، ومن الثمل على الغنّاء. وذكر العباس رجلاً فقال: ما الحِمَام على الأحرار، وطول السّقم في الأسفار، وعِظَم الدّين على الإقتار، بأشدّ من لقائه.

وقال العباسُ بن الحسين للمأمون: يا أمير المؤمنين، إن لساني يَنْطَلِقُ بِمَدْحِكَ غائباً، وقد أحببتُ أن يَتَرَدّدَ عندك حاضراً، أفتأذن لي يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال له: قل؛ فوالله إنك لتقول فتُحسِن، وتَحْضُر فتزبّن، وتغيب فتؤثّمَن، فقال: ما بعد هذا كلام؟ يا أمير المؤمنين! أفتأذن بالسكوت؟ قال: إذا شئت. وذكر رجلاً بليغاً فقال: ما شَبّهتُ كلامه إلا بشعبان ينهال بين رمال، وماء يتغلغل بين الجبال. وسمع المنتجع بن نبهان كلامَ العباس بن الحسين، فقال: هذا كلامٌ يدلّ سائرهُ على غايِرهِ، وأوّلُهُ على آخرهِ.

وسأل المأمونُ العباسَ بن الحسين عن رجلٍ؟ فقال: رأيتُ له حِلْماً وأناة، ولم أسمعَ لَحْناً ولا إحالة؛ يحدثُكَ الحديثَ على مَطَاوِيهِ، ويُنشِدُكَ الشعرَ على مَدَارِجِهِ. وكان المأمون يقول: مَنْ أراد أن يسمعَ لَهْواً بلا حَرَج فليسمعْ كلامَ العباس، والعباس بن الحسين من أشعَرَ الهاشميين؛ وهو يُعَدُّ في طبقة إبراهيم ابن المهدي، وهو القائل: الوافر:

أتاح لك الهوى بيض حسان
نظرت إلى النحور فكدت تقضي
سببُكَ بالعيون وبالشعور
وأولّى لو نظرت إلى الخصور

وهو القائل أيضاً: مجزوء الكامل:

صادتُك من بعض القصور
حور تحور إلى صبا
بيض نواعم في الخدور
ك بأعينٍ منهنّ حور
وكانما بثغورهنّ
يصبُغْنَ تَفَاحَ الخدو
جنّى الرضاب من الخمر
د بماء رمان الصّدور

وهو: العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأم عبيد الله جدّة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب عمّ محمد بن علي أبي الخلفاء.

وكان الرشيدُ والمأمون يقربان العباسَ غايةَ التقريب؛ لِنَسَبِهِ وأدبه. قال أبو دلف: دخلتُ على الرشيد وهو في طارمة على طَنْفِسةٍ ومعه عليها شيخٌ جميلُ المنظر؛ فقال لي الرشيد: يا قاسم، ما خَيْرُ أَرْضِكَ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، خَرَابُ يَبَابٍ، أَخْرَبَها الأكراد والأعراب. فقال قائل: هذا آفةُ الجبل، وهو أفسده، فقلت: أنا أَصْلَحُه، قال الرشيد: وكيف ذلك؟ قلت: أَفْسَدْتُهُ وأنت علي وَأُصْلِحْتُهُ وأنت معي! قال الشيخ: إن همته لترمي به من وراء سنِّه مَرْمًى بعيداً؛ فسألت عن الشيخ فقليل: العباس بن الحسين، وكان أبو دلفَ ذلك الوقت صغير السنّ.

ولقي موسى بن جعفر، رضي الله عنه، محمد بن الرشيد الأمين بالمدينة وموسى على بَعْلَةٍ، فقال للفضل بن الربيع: عَاتِبْ هذا، فقال له الفضل: كيف لقيتَ أمير المؤمنين على هذه الدابة التي إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِقْ، وإن طلبتَ عليها تلحق، فقال: لست أحتاج أن أَطْلُبَ، ولا إلى أن أُطْلَبَ؛ ولكنها دابةٌ تنحط عن خيلاء الخيل، وترتفع عن ذلة العير، وخيرُ الأمور أوسطُها.

أُصيب علي بن موسى بمصيبة، فصار إليه الحسن بن سهل، فقال: إنا لم نَأْتِكَ مُعَزِّين؛ بل جئناكَ مُقْتَدِينَ؛ فالحمدُ لله الذي جعل حياتكم للناس رَحْمَةً، ومصائبكم لهم قُدُوةً.

وكان علي بن موسى الرضا، رحمه الله، قد ولّاه المأمون عَهْدَهُ، وعقد له الخلافة بعده، ونزع السّود عن بني العباس، وأمرهم بلباس الخضرة، ومات علي بن موسى في حياة المأمون بطُوس، فشق المأمونُ قبر الرشيد ودُفِنَ فيه تبرّكاً به، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هناك؛ ولذلك قال دُعبل بن علي الخزاعي: البسيط:

ارْبَعُ بطوسٍ على قَبْرِ الزَّكِيِّ بها إن كنت تربع من دين علي وطر
ما ينفع الرّجس من قُرْبِ الزَّكِيِّ، ولا على الزَّكِيِّ بقرب الرّجس من ضررٍ
هيهات كل امرئ رَهْنٌ بما كسبت له يداه فخذُ من ذاك أو فذرٍ
قبران في طُوس: خَيْرُ الناس كلهم وقبر شرّهم، هذا من العبرِ

وكان دُعبل مداحاً لأهل البيت، كثير التعصُّب لهم، والغلوّ فيهم. وله المراثية المشهورة، وهي من جيد شعره، وأولها: الطويل:

مَدَارِسُ آياتٍ عَفَّتْ من تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفَرُ العَرَصاتِ

وبالبيت والتعريف والجمرات
وحمزة والسجاد ذي الثقات
متى عهدها بالصوم والصلوات
أفانين في الآفاق مفترقات
وأهجر فيهم أسرتي وتقاتي

لآل رسول الله بالخيف من منى
ديار علي والحسين وجعفر
قفًا نسأل الدار التي خص أهلها
وأين الألى شطت بهم غربة النوى
أحب قصي الدار من أجل حبهم

وهي طويلة.

ولما دخل المأمون بغداد أحضر دعبلاً بعد أن أعطاه الأمان، وكان قد هجاه وهجا أباه، فقال: يا دعبل، من الحضيض الأوهدي! فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عمن هو أشدُّ جرماً مني! أراد المأمون قول دعبل يهجو: الكامل:

قتلت أخاك وشرقتك بمقعد
واستقذوك من الحضيض الأوهدي

إني من القوم الذين سيوفهم
شاذوا بذكرك بعد طول خمولة

يفتخر عليه بقتل طاهر بن الحسين بن مصعب ذي اليمينين أخاه محمداً، وطاهر مولى لخرابة، فاستنشه هذه القصيدة التائية، فاستغفاه، فقال: لا بأس عليك، وقد رويتها، وإنما أحببت أن أسمعها منك، فأنشدها دعبل؛ فلما انتهى إلى قوله: الطويل:

أروح وأغدو دائم الحسرات
وأيدهم من فيئهم صفرات
أكفاً عن الأوتار منقبضات
وآل زياد غلط القصرات
وبنت رسول الله في الفلوات

ألم تر أني مذ ثلاثين حجة
أرى فيئهم في غيرهم منقسماً
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم
وآل رسول الله نحف جسومهم
بنات زياد في القصور مصونة

بكي المأمون، وجدد له الأمان، وأحسن له الصلة.

والشيء يستدعي ما قرع بابه، وجذب أهداً به، قال سليمان بن قتيبة: الطويل:

فلم أرها عهدي بها يوم خلّت
وإن أصبحت من أهلها قد تخلصت
ألا عظمت تلك الرزايا وجلّت
أذل رقاب المسلمين فذلت

مررت على أبيات آل محمد
فلا يبعد الله الديار وأهلها
وكانوا رجاء ثم عادوا رزية
وإن قتل الطف من آل هاشم

ويشبه قوله: وكانوا رجاء ثم عادوا رزية قول امرأة من العرب مرّت بالجسر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي مصلوباً؛ فقالت: لئن أصبحت نهاية في البلاء، لقد كنت غاية في الرجاء.

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف الأشراف

لها في هذا الموضع موقع

فلان من شرفِ العنصر الكريم، ومعدن الشرف الصميم. أصلٌ راسخ، وفرع شامخ، ومجدٌ باذخ، وحسبٌ شادخ.

فلان كريم الطرفين، شريف الجانبين، قد ركبَ الله دوحته في قرارة المجد، وغرسَ تبعته في محلّ الفضل. أصلٌ شريف، وعرقٌ كريم، ومغرسٌ عظيم، ومغرّز صميم. المجد لسانٌ أوصافه، والشرفُ نسبُ أسلافه. نسبٌ فخم، وشرفٌ ضخّم. يستوفي شرفَ الأرومة بكرم الأبوّة والأمومة، وشرفَ الخُولة والعمومة. ما أنته المحاسنُ عن كلاله، ولا ظفر بالهدى عن ضلاله، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر، وأخذ الفخرَ عن أسيرةٍ ومنابر: الكامل:

كالرمح أنبوباً على أنوب

شرفٌ تنفلُ كابراً عن كابر

استقى عرقه من منبع النبوة، ورضعت شجرته من ثدي الرسالة، وتهدّلت أغصانه عن نبتة الإمامة، وتبحّجت أطرافه في عرصة الشرف والسيادة، وتفقّأت بيضته عن سلاله الطهارة، قد جذب القرآن بضبعه، وشقّ الوحي عن بصره وسمعه، مختار من أكرم المناسب، منتخَب من أشرف العناصر، مرتضى من أعلى المحاتد، مؤثّر من أعظم العشائر، قد ورث الشرفَ جامعاً عن جامع، وشهد له نداء الصوامع، هو من مضر في سويداء قلبها، ومن هاشم في سواد طرفها، ومن الرسالة في مهبط وحيها، ومن الإمامة في موقف عزها، يتزع إلى الحامد بنفس وعرق، ويحن إلى المكارم بوراة وخلق؛ يتناسب أصله وفرعه، ويتناصف نخره وطبعه، وهو الطيب أصله وفرعه، الزاكي بذره وزرعه، يجمع إلى عز النصاب، مزية الآداب، لا غزو أن يجري الجواد على عرقه، وتلوح مخايل الليث في شبّله، ويكون النقيب فرعاً مشيداً لأصله. له مع نباهة شرفه، نزاهة سلفه، ومع كرم أرومته وحزمه، مزية أدبه وعلمه، لن تخلف ثمرة غرس ارتيد لها من المنابت أزكاهها، ومن المغارس أطيبها وأغذاها وأنماها، قد جمع شرف الأخلاق، إلى شرف الأعراق، وكرم الآداب، إلى كرم الأنساب؛ له في المجد أول وآخر، وفي الكرم تليد وطارف، وفي الفضل حديثٌ وقديم؛ لا غرو أن يغمر فضله، وهو نجل الصّيد الأكارم، أو يغزر علمه وهو فيض البحور

الخضارم، دَوْحَةٌ رَسَبَ عَرْقُهَا، وَسَمَقَ فَرْعُهَا، وَطَابُ عُوْدُهَا، وَاعْتَدَلَ عَمُوْدُهَا، وَتَفَيَّاتٌ ظِلَالُهَا، وَتَهْدَكْتُ ثَمَارُهَا، وَتَفَرَعَتْ أَغْصَانُهَا، وَبَرَدَ مَقِيلُهَا. مَجْدٌ يَلْحَظُ الْجَوَزَاءَ مِنْ عَالٍ، وَيَطْوِلُ النِّجْمَ كُلَّ مَطَالٍ. شَرَفٌ تَضَعُ لَهُ الْأَفْلَاكُ حَدُودَهَا وَجِبَاهَهَا، وَتَلْتَمِسُ النُّجُومُ أَرْضَهُ بِأَفْوَاهِهَا وَشِفَاهِهَا. نَسَبُ الْمَجْدِ بِهِ عَرِيقٌ، وَرَوْضُ الشَّرَفِ بِهِ أُنَيْقٌ. وَلِسَانُ الثَّنَاءِ بِفَضْلِهِ نَطُوقٌ. فَلَكُ الْمَجْدِ عَلَيْهِ يَدُورُ، وَيَدُ الْعُلَا إِلَيْهِ تُشِيرُ. مَحَلُهُ شَاهِقٌ، وَمَجْدُهُ بَاسِقٌ.

بدء الكتاب

قد تتم ما استفتحت به التأليف، وجعلته مقدمة التصنيف، مع ما اقترن به، وانضاف إليه، والتف به، وانعطف عليه، ورأيت أن أبتدئ مقدمات البلاغات بغير التحاميد وأوصافها، وما يتعلّق بأثنائها وأطرافها.

وقد قال سهل بن هارون في أول كتاب عمله: يجب على كل مبتدئ مقالة أن يبتدئ بحمد الله قبل استفتاحها، كما بُدئ بالنعمة قبل استحقاقها.

ولأهل العصر: أولى ما فَعَرَّ به الناطق فمه، وافتتح به كَلِمُهُ، حمدُ الله جل ثناؤه، وتقَدَّست أسماؤه. حمدُ الله خيرُ ما ابْتَدِئَ به القول وختم، وافتتح به الخطاب وتُتم.

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله: إن الله، جل ثناؤه، لا يُمثَلُ بنظير، ولا يُغَلَّبُ بظهير، جل عن موقع تحصيل أدوات البشر، ولطف عن الحاظ خطرات الفكر، لا يُحمدُ إلا بتوفيق منه يقتضي حمداً، فمتى تُحصي نعمائه وتكافأ آلاؤه؟ عَجَزَ أَقْصَى الشُّكْرِ عَنْ أَدَاءِ نِعْمَتِهِ، وَتَضَاعَلَ مَا خَلَقَ فِي سِعَةِ قُدْرَتِهِ؛ قَدَرُ فَقْدَرٍ، وَحَكْمٌ فَأَحْكَمُ؛ وَجَعَلَ الدِّينَ جَامِعاً لَشُمْلِ عِبَادِهِ، وَالشَّرَائِعَ مَنَاراً عَلَى سَبِيلِ طَاعَتِهِ؛ يَتَّبِعُهَا أَهْلُ الْيَقِينِ بِهِ، وَيَحِيدُ عَنْهَا أَهْلُ الشُّكِّ فِيهِ.

أخذ أبو العباس قوله: ولا يحمد إلا بتوفيق منه يقتضي حمداً من قول محمود بن الحسن الوراق: الطويل:

عليّ له في مثلها يجبُ الشُّكْرُ

وإن طالت الأيام واتصلَ العمرُ

وإن مَسَّ بالضراء أعقبها الأجرُ

تَضِيْقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

إذا كان شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً

فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ

إذا عمَّ بالسَّراء عمَّ سرورها

فما منهما إِلَّا له فيه نِعْمَةٌ

وإنما أخذه محمود بن قول أبي العتاهية: الخفيف:

أحمد اللهَ فهوَ ألهمني الحم

دَ على الحمد والمزيدُ لدَيه

كم زمانُ بَكَيْتُ فيه فلماً

صِرْتُ في غيره بَكَيْتُ عليه

وقد اضطربت الروايةُ في هذين البيتين وقائلهما، وهذا البيت الثاني كثير، قال إبراهيم بن العباس: البسيط:

كذلك أيامنا لا شك نندبها

إذا تقصّصت ونحن اليوم نشكوها

وآخر: الطويل:

وما مرَّ يومٍ أرتجي فيه راحة

فأفقدُهُ إلا بكيتُ على أمسٍ

ومحمود هو القائل أيضاً: الكامل:

تعصي الإله وأنت تُظهرُ حبه

هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

لو كان حبُّكَ صادقاً لأطعته

إنَّ المحبَّ لمن أحبَّ مطيعُ

وكان كثيراً ما ينقل أخبارَ الماضين، وحكمَ المتقدمين، فيحلِّي بها نظامه، ويُزيِّن بها كلامه، وهو القائل: الكامل:

إني وهبتُ لظالمي ظلمي

وشكرتُ ذاكَ له على علمي

ورأيتُه أسدى إليَّ يداً

لَمَّا أبان بجهله حلمي

رجعتُ إساءتهُ عليه، ولي

فضلُ فعادَ مضاعفَ الجرمِ

فكأنما الإحسانُ كان له

وأنا المسيءُ إليه في الزعمِ

ما زال يظلمني وأرحمه

حتى رثيتُ له من الظلمِ

وهو القائل: الطويل:

أراني إذا ما ازددتُ مالاً وثروةً

وخيراً إلى خيرٍ تزيّدتُ في الشرِّ

فكيف بشكرِ الله إن كنتُ إنما

أقومُ مقامَ الشكرِ لله بالكفرِ

بأي اعتذارٍ أوْ بأيةِ حجةٍ

يقولُ الذي يدري من الأمرِ ما أدري

إذا كان وجهُ العذرِ ليس ببينٍ

فإن اطرّاحَ العذرِ خيرٌ من العذرِ

في البلاغة

ولابن المعتز: البيان ترجمانُ القلوب، وصيّقلُ العقول، ومُجَلِّي الشبهة، وموجبُ الحجة، والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرِّق بين الشكِّ واليقين، وهو من سلطان الرُّسل الذي انقاد به المصعب، واستقام

الأصيد، وبهت الكافر، وسلّم الممتنع، حتى أشبّ الحقُّ بأنصاره، وخلاً ربُع الباطل من عُماره، وخيرُ البيان ما كان مصرحاً عن المعنى؛ لئيسرَ إلى الفهم تلقّيه، وموجزاً ليخفّ على اللفظ تعاطيه.

وفَضِل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفي؛ يشهدُ بذلك عَجَز المتعاطين، وَوَهْن المتكلّفين، وتخيّرُ الكذابين، وهو المبلّغ الذي لا يُمل، والجديد الذي لا يخلُق، والحقّ الصادع، والنورُ الساطع، والمأحي لظلم الضلال، ولسانُ الصّدق النافي للكذب، ونذيرُ قدَمته الرحمة قبل الهلاك، وناعي الدنيا المنقولة، وبشيرُ الآخرة المخلّدة، ومفتاح الخير، ودليل الجنة، إن أوجَزَ كان كافياً، وإن أكثر كان مُذكّراً، وإن أومأ كان مُقنعاً، وإن أطال كان مُفهِّماً، وإن أمر فَناصحاً، وإن حكم فَعادِلاً، وإن أخبر فصادقاً، وإن بيّن فشافياً، سهّل على الفهم، صعب على المتعاطي، قريب المأخذ، بعيد المرام، سراج تستضيء به القلوب، خلوّ إذا تدوّقت العقول، بحر العلوم، وديوان الحكم، وجوهر الكلم، ونزّهة المتوسّمين، وروح قلوب المؤمنين، نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبيين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، فخصم الباطل، وصدع بالحق، وتألّف من النفرة، وأنقذ من الهلكة، فوصل الله له النصر، وأضرع به حدّ الكفر.

قال علي بن عيسى الرمانى: البلاغة ما حُطّ التكلف عنه، وبُني على التبيين، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية، بأن جمّع مع ذلك سهولة المخرج، مع قُرب المتناول؛ وعذوبة اللفظ، مع رشاقة المعنى؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْنِ الانتهاء، وحسن الوصل، كحُسْنِ القطع، في المعنى والسمع، وكانت كل كلمة قد وقعت في حقّها، وإلى جنب أختها، حتى لا يقال: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى! وحتى لا يكون فيه لفظٌ مختلف، ولا معنى مُستكره، ثم ألبس بهاء الحكمة، ونور المعرفة، وشرف المعنى، وجزالة اللفظ، وكانت حلاوته في الصدر وجلالته في النفس تفتّق الفهم، وتشر دقائق الحكم، وكان ظاهر النفع، شريف القصد، معتدل الوزن، جميل المذهب، كريم المطلب، فصيحاً في معناه، بيناً في فحواه؛ وكل هذه الشروط قد حواها القرآن، ولذلك عَجَزَ عن معارضة جميع الأنام.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن

القرآن جبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظله العميم، وصراطه المستقيم، وحجّته الكبرى، ومحجّته الوسطى، وهو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي سنّ استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنه ضلّ وهوى؛ فضائل القرآن لا تُستقصى في ألف قرن، حجّة الله وعهده، ووعدّه ووعدده، به يعلم الجاهل، ويعمل العامل، ويتنبّه الساهي، ويتذكّر اللاهي، بشير الثواب، ونذير العقاب، وشفاء الصدور،

وجلاء الأمور؛ من فضائله أنه يُقرأ دائماً، ويُكتب، ويُملَى، ولا يَمَلُّ. ما أهون الدنيا على مَنْ جعل القرآن إمامه، وتصوّر الموت أمامه، طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه، ومفتاح لُبه. من حق القرآن حفظُ ترتيبه، وحسنُ ترتيبه.

قال بعض الحكماء: الحكمة مَوْظَعَةٌ للقلوب من سِنَةِ الغفلة، وَمُنْقَذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحيرة، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها من ضيقِ الضلالة؛ والعلم دواء للقلوب العليلة، ومِسْحَذٌ للأذهان الكليلة، ونورٌ في الظلمة، وأنسٌ في الوحشة، وصاحبٌ في الوحدة، وسَمِيرٌ في الخلوة، ووصلَةٌ في المجلس، ومادَّةٌ للعقل وتَلْقِيحٌ للفهم، ونافٌ للعِيّ المزري بأهلِ الأحساب، المقصّر بدوي الألباب؛ أنطق الله سبحانه أهله بالبيان الذي جعله صفةً لكلامه في ترتيبه، وأيدَ به رُسُلُهُ إيضاحاً للمشكلات، وفصلاً بين الشبهات: شَرَفَ به الوضع، وأعزَّ به الدليل، وسوّدَ به المسود، من تحلّى بغيره فهو معطلٌ، ومن تعطل منه فهو مغفلٌ، لا تُبْلِيهِ الأيام، ولا تَخْتَرِمُهُ الدهور، يتجدد على الابتدال، ويَزْكُو على الإنفاق؛ لله على ما منَّ به على عباده الحمدُ والشُّكْرُ.

رجع إلى البلاغة

قيل لعمر بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلغك الجنة، وعَدَلَك بك عن النار، وبصَرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ، وعَوَاقِبَ غَيِّكَ. قال السائل: ليس هذا أريد، قال: من لم يُحَسِّنْ أن يسكُتَ لم يُحَسِّنْ أن يَسْتَمِعَ، ومن لم يُحَسِّنِ الاستماعَ لم يُحَسِّنِ القول، قال: ليس هذا أريد، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "إنَّا معشَرَ الأنبياء فينا بكٌ" أي قِلَّةٌ كلام؛ وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله، قال السائل: ليس هذا أريد، قال: كانوا يخافون من فِتْنَةِ القول ومن سَقَطَاتِ الكلام ما لا يخافون من فِتْنَةِ السكوت، وسَقَطَاتِ الصمْتِ، قال: ليس هذا أريد، قال عمرو: يا هذا، فكأنك تريدُ تحبير اللفظ في حسن الإفهام، قال: نعم، قال: إنك إن أردتَ تقريرَ حُجَّةِ الله عزَّ وجلَّ في عقول المكلفين، وتخفيفِ المؤونة عن المستمعين، وتزوين تلك المعاني في قلوب المريدن، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة في الأذهان، رغبةً في شرعة إيجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة - كنت قد أوتيت الحكمة وفَصَلَ الخطاب، واستوجبت من الله جزيل الثواب، فقل لعبد الكريم بن روح الغفاري: مَنْ هذا الذي صَبَرَ له عَمَرُو هذا الصبر؟ قال: سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمري، فقال: ومن يَجْتَرِي عليه هذه الجرأة إلا حفص بن سالم.

وعمر بن عبيد بن باب هو رئيس المعتزلة في وقته، وهو أول من تكلم على المخلوق، واعتزل مجلس

الحسن البصري، وهو أول المعتزلة.

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور، فقال: عَظِي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتَرِ نفسك منه ببعضها؛ يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك ما وصل إليك، ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ؟ قال: فبكى المنصور حتى بل ثوبه. ثم قال: حاجتك يا أبا عثمان! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرَحَ عليه طِيلَسَانًا، فقال: يُرْفَعُ هذا الطيلسان عني! فرفع، فقال أبو جعفر: لا تَدْعُ إتياننا؛ قال: نعم، لا يضمُّني وإياك بلد إلا دخلتُ إليك، ولا بدتُ لي حاجة إلا سألتُك، ولكن لا تُعْطِي حتى أسألك، ولا تَدْعُني حتى آتيك، قال: إذا لا تأتينا أبداً. وقد رُوي مثل هذا لابن السماك مع الرشيد.

وقوله: لو كان هذا الأمر باقياً لأحد قبلك ما وصل إليك كقول ابن الرومي: الطويل:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة
إذا زال عن عين البصير غطاؤها
وكيف بقاء الناس فيها وإنما
يُنال بأسباب الفناء بقاءها؟

ووعظ شبيب بن شبة المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تجعل فوق شكره شكراً.

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده المهدي فقال له: هذا ابن أخيك المهدي، ولي عهد المسلمين، فقال: سمَّيته اسماً لم يستحقَّ حمله، ويفضي إليك الأمر وأنت عنه مشغول. وكان عمرو بن عبيد يقول: اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك. وقال له المنصور: يا أبا عثمان، أعني بأصحابك: قال: يا أمير المؤمنين، أظهر الحق يتبعك أهله. وقال عمر الشمري: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، وإن تكلم لم يكذِّ طيل؛ وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن يشهده دون قائله، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف.

قال معمر بن الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكنني لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، ولطيف معانيها. قال ابن الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف

في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا يُنقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً، أو فيلسوفاً عليمًا، ومن قد تعودَ حَذْفَ فُضُولِ الكلام، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة التصفّح والاعتراض، ووجه التظرف والاستظراف.

قال إسحاق بن حسان بن قوهي: لم يفسّر أحد البلاغة تفسيرَ عبد الله ابن المقفع إذ قال: البلاغة اسمٌ لمعانٍ تَجْرِي في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل، فغاية هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارة إلى المعنى؛ والإيجازُ هو البلاغة، فأما الخطب فيمَا بين السَّمَّاطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثارُ في غير خَطَل، والإطالةُ في غير إِمْلال، ولكن لِيَكُن في صَدْرِ كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أَنَّ خيرَ أبياتِ الشعر البيتُ الذي إذا سمعتَ صَدْرَهُ عرفتَ قافيته كأنه يقول فرّق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التَّوَاهُب، حتى يكون لكل فنٍّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجْزِهِ فإنه لا خيرَ في كلام لا يدل على معنائه، ولا يشيرُ إلى مَعْزَاك، وإلى العمود الذي إليه قَصَدْتَ، والغرض الذي إليه نَزَعْتَ.

فقليل له: فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التي ذكرت أهما أحق بذلك الموضع؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة الكلام، وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوقَ ذلك، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنهما لا يَرْضِيَان بشيء؛ فأما الجاهلُ فلستَ منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيءٌ لا يُنال.

الإطالة والإيجاز

وقد مدحوا الإطالة في مكائدها، كما مدحوا الإيجازَ في مكانه. قال أبو داود ابن جرير في خطباء إِيَاد: الكامل:

وَحْيَ الْمَلَاظِ خِيفَةَ الرِّقْبَاءِ

يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطَّوَالَ، وَتَارَةً

قال أبو وَجْزَةَ السعدي يصف كلام رجل: الكامل:

ثَبَتَ، إِذَا طَالَ النَّضَالُ، مُصِيبٌ

يَكْفِي قَلِيلُ كَلَامِهِ، وَكَثِيرُهُ

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسمّ قائله، وهو مولّد ولم ينقصه توليده من حظّ القديم شيئاً:
المتقارب:

طَبِيبٌ بَدَأَ فُنُونُ الْكِلَا
فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ
وَأِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَةٍ
وَقَالَ آخِرُ يَصِفُ خَطِيباً: الْكَامِلُ:

فَإِذَا تَكَلَّمَ خَلَّتْهُ مَتَكَلِّمًا
فَكَأَنَّ آدَمَ كَانَ عِلْمَهُ الَّذِي
بِجَمِيعِ عِدَّةِ أَلْسُنِ الْخُطَبَاءِ
قَدْ كَانَ عِلْمُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ

وكان أبو داود يقول: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشديق في الإعراب نقص،
والنظر في عيون الناس عي، ومسّ اللحية هلك، والخروج عما بُني عليه الكلام إسهاب.
وقال بعضهم يهجو رجلاً بالعي: الطويل:

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ وَتَفَاتٍ وَسَعَةٍ
وَمَسْحَةٍ عَثْنُونِ وَقَتْلِ الْأَصَابِعِ

ووصف العتاي رجلاً بليغاً فقال: كان يُظْهِرُ ما غَمَضَ من الحجة، ويصور الباطل في صورة الحق،
ويُفْهِمُكَ الحاجة من غير إعادة ولا استعانة. قيل له: وما الاستعانة؟ قال: يقول عند مقاطع كلامه يا هناة،
واسمّع، وفهّمت! وما أشبه ذلك. وهذا من أمارات العجز، ودلائل الحصر! وإنما ينقطع عليه كلامه
فيحاول وصله بهذا، فيكون أشدّ لانتقطاعه.

وكان أبو داود يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب،
وبهاؤها تخير اللفظ؛ والحبّة مقرونة بقلة الاستكراه.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: قال بعض جهابذة الألفاظ، ونفاد المعاني: المعاني القائمة في صدور
الناس، المختلجة في نفوسهم، والمتصورة في أذهانهم، المتصلة بخواطيرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة
خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه،
ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا
بغيره، وإنما يحیی تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها.

وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتحليها للعقل، وتجعل الحفيّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً،
والبعيد قريباً. وهي التي تلخص المتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيّد مطلقاً، والجهول

معروفاً، والوَخْشِي مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً؛ وعلى قدرِ وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحُسْن الاختصار، ودقة المدخل، يكون ظهورُ المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أئبن وأنور، كانت أنفع وأنجع في البيان. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه؛ بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

والبيان: اسمٌ لكل شيء كَشَفَ لك عن قناع المعنى، وهَتَكَ لك الحُجُبَ دون الضمير، حتى يُفْضِيَ السامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعْلَمْ - حَفِظَكَ اللَّهُ! - أن حُكْمَ المعاني خلافُ حكم الألفاظ؛ لأنَّ المعاني مبسوبة إلى غير غاية، وأسماء المعاني محصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ أو غيره خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللَّفْظ، ثم الإشارة، ثم العُقْد، ثم الخطُّ، ثم الحال التي تسمى نُصْبَة. والثُّصْبَة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات.

ولكل واحدة من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورةٍ صاحبتهَا، وحِلِيَّةٌ مخالفةٌ لِحِلِيَّةِ أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أَعْيَانِ المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقْدَارِها، وعن خاصَّها وعامَّها، وعن طبقاتها في السار والضارِّ، وعما يكون منها لَعَواً بَهْرَجاً، وساقطاً مُطَرَّحاً. وفي نحو قول أبي عثمان: إنَّ المعاني غير مقصورة ولا محصورة يقول أبو تمام الطائي لأبي ذُلْفَ القاسم بن عيسى العجلي الطويل:

ولو كان يَفْنَى الشعرُ أَفْنَتَهُ ما قَرَّتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
ولكنه فَيَضُ الْعُقُولِ إِذَا انْجَلَتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ

كما أشار إلى قول أَوْس بن حَجَرِ الأَسدي: الطويل:

أَقُولُ بِمَا صَبَّتْ عَلَيَّ غَمَامَتِي وَجَهْدِي فِي حَبْلِ الْعَشِيرَةِ أَحْطَبُ

وقال بعضُ البلغاء: في اللسان عشرُ خصالٍ محمودة، أداةٌ يظهر بها البيان، وشاهدٌ يخبر عن الضمير؛ وحاكمٌ يفصل الخطاب، وواعظٌ يَنْهَى عن القبيح، وناطقٌ يردُّ الجواب، وشافعٌ تُدْرِكُ به الحاجة، وواصفٌ تعرف به الأشياء، ومُعْرِبٌ يُشْكِرُ به الإحسان، ومُعَزِّ تذهب به الأُحْزَان، وحامِدٌ يذهب الضغينة، ومونقٌ

يلهي الأسماع.

وقال أبو العباس بن المعتز: لحظة القلب أسرع خطرةً من لحظة العين، وأبعدُ مجالاً، وهي الغائصة في أعماق أودية الفكر، والمتأمل لوجوه العواقب، والجامعة بين ما غاب وحضر، والميزان الشاهد على ما نفع وضرر، والقلب كالمملي للكلام على اللسان إذا نطق، واليد إذا كتبت، والعقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه، ثم يُديها بألفاظ كَوَّاسٍ في أحسن زينة، والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها، واستكمال محاسنها.

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكي: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويكشف عن معزأك، ويخرجه من الشركة، ولا يُستعان عليه بالفكر، ويكون سليماً من التكلف، بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل.

وذكر سهل بن هارون - وقيل ثُمَامَة بن أشرس - جعفر بن يحيى فقال: قد جمَعَ في كلامه وبلاغته الهدى والتمهل، والجزالة والحلاوة، وكان يُفهم إفهاماً يُغنيه عن الإعادة للكلام. ولو كان يَسْتغني مستغني عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر. كما استغنى عن الإعادة فإنه لا يَتَحَبَّسُ ولا يتوقف في منطقته ولا يتلجلج، ولا يتسعل، ولا يترقب لفظاً قد استدعاه من بُعد، ولا يتلمس معنى قد عصاه بعد طلبه له. وقيل لبشار بن بُرْد: بِمَ فُتَّتْ أَهْلَ عَمْرِكَ، وسبقت أَهْلَ عَمْرِكَ، في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأني لم أقبل كل ما تُورِدُهُ علي قريحتي، ويُناجيني به طبعي، ويعتثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرتُ إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبَرَهَا، وانتقيت حُرَهَا، وكشفتُ عن حقائقها، واحترزتُ من متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي قَطُّ الإعجاب بشيء مما آتَى به.

وكان بشار بن برد خطيباً، شاعراً، راجزاً، سجاعاً، صاحب منشور ومزدوج، ويلقب بالمرعث لقوله: مجزوء الخفيف:

ساحر الطَّرْفِ والنَّظَرِ

قلت أو يغلب القَدْرُ

مَنْ لَطَبِي مُرَعَثٍ

قال لي لن تتالني

وليس هذا موضع استقصاء ذكره، واختيار شعره، وسأستقبل ذلك إن شاء الله.

وقال الوليد بن عبيد البحر: كُنْتُ فِي حَدَاتِي أَرْوُمُ الشَّعْرِ، وَكُنْتُ أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَنْعٍ، وَلَمْ أَكُنْ أَقِفْ عَلَى تَسْهِيلِ مَأْخَذِهِ، وَوَجْهَهُ اقْتَضَاهُ، حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَامٍ، وَانْقَطَعَتْ فِيهِ إِلَيْهِ، وَاتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ؛

فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة؛ تخير الأوقات وأنت قليل الموم، صفر من الغوم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر؛ وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوَجُّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أباد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معامله، وشرّف مقامه؛ ونصّد المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك حيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد. وإذا عارضك الضجر فأرخ نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فأقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة.
وقالوا: البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني.

ولذكر الطائي الليل ذكر بعض أهل العصر - وهو أبو علي محمد بن الحسن ابن المظفر الحاتمي - الليل فقال: فيه تجم الأذهان، وتنقطع الأشغال، ويصحّ النظر، وتؤلف الحكمة، وتدرّ الخواطر، ويتسع مجال القلب، والليل أضواء في مذاهب الفكر، وأخفى لعمل البر، وأعون على صدقة السرّ، وأصحّ لتلاوة الذكر، ومُدبرو الأمور يختارون الليل على النهار، فيما لم تصف فيه الأناة لرياضة التدبير وسياسة التقدير، في دفع الملم، وإمضاء المهم، وإنشاء الكتب، وتصحيح المعاني، وتقويم المباني، وإظهار الحجج، وإيضاح المنهج، وإصابة نظم الكلام، وتقريبه من الأفهام.

وقال بعض رؤساء الكتاب: ليس الكتاب في كل وقت على غير نسخة لم تُحرر بصواب؛ لأنه ليس أحد أولى بالأناة وبالروية من كاتب يعرض عقله، وينشر بلاغته؛ فينبغي له أن يعمل النسخ ويرويها، ويقبل عفو القريحة ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميع الناس أعداء له، عارفون بكتابته، منتقدون عليه، متفرغون إليه.

وقال آخر: إن لا ابتداء الكلام فتنة تروق، وجدة تعجب، فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس، فليعد النظر، وليكن فرح إحسانه، مساوياً لغمه بإساءته؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسي: نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك، فقال: دعوا الرأي حتى يبلغ أناته، فإنه لا خير في الرأي الفطير، والكلام القضيبي.

وقال معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، لعبد الله بن جعفر: ما عندك في كذا وكذا. فقال: أريد أن أصقل

عقلي بَنَوَمة القائلة، ثم أروح فأقول بعدُ ما عندي.
قال الشاعر: البسيط:

إن الحديث تَغَرَّ القومَ جَلَوْتُهُ حتى يَغْيِرَهُ بالوَزْنِ مضمارُ
فعند ذلك تستكفي بلاغتهُ أو يستمرَّ به عِيٍّ وإكْثَارُ

وقالوا: كلُّ مُجَرٍّ بالخلاءِ يُسَرُّ، وقال أبو الطيب المتنبي: الخفيف:

وإذا ما خلا الجبانُ بأَرْضِ طَلَبَ الطعنَ وَحَدَه والنزلاً

وكان قلم بن المقفع يَقِفُ كثيراً، فقليل له في ذلك، فقال: إن الكلام يَزْدَحِمُ في صدري، فيقف قلمي ليتخير.

وقالوا: الكتابُ يُتصفح أكثر مما يتصفح الخطاب؛ لأنَّ الكاتبَ متخير، والمخاطبَ مضطرب، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أَسْرَعَتْ فيه أم أبْطأت؛ وإنما ينظر أأخطأت أم أصبت؛ فإبطاؤك غير قاذح في إصابتك، كما إن إسراعك غير مُعْطٍ على غَلَطِكَ.

ووصف بعضُ الكتابِ النسخ فقال: ينبغي أن يصحبها الفكر إلى استقرارها، ثم تُستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختيارها، ويوسَّع بين سُطُورِها، ثم تحرر على ثقةٍ بصحتها، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حرفاً إلى آخرها.

فقد كتب المأمون مُصْحَفاً اجتمع عليه؛ فكان أوله: بسم الله الرحيم، فأغفلوا الرحمن؛ لأن العينَ لا تُعتبرُ ذلك؛ ثقة أنه لا يُغلَطُ فيه، حتى فَطِنَ المأمون له.

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بن وهب: حرر هذه النسخة وبكر بها، فتصبح الحسن فقال له: لم تصبحت؟ قال: حتى تصفحت! وقال أحمد بن إسماعيل بطاحه: كان بعض العلماء الأغبياء ينظر في نسخه بعد نفوذ كُتبه، فقال بعض الكتاب: السريع:

مُسْتَلَبُ اللَّبِّ غَوِيُّ الشَّبابِ عَذْبُهُ الْهَجْرُ أَشَدُّ الْعَذَابِ يؤمل الصبر وأنى لَهُ
به وقد مُكِّنَ منه النَّصَابُ كناظرٍ في نسخه يبتغي
إصلاحها بعد نفوذِ الكتابِ

أوصاف بليغة في البلاغات

على السنة أقوام من أهل الصناعات

قال بعضٌ من ولد عقائل هذا المنشور، وألف فواصل هذه الشذور: تجمّع قوم من أهل الصناعات، فوصفوا بلاغاتهم، من طريق صناعاتهم: فقال الجوهرى: أحسنُ الكلامِ نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة، ونظمته الفطنة، ووصل جَوْهَرُ معانيه في سُمُوط ألفاظه، فاحتملته نحوَرُ الرواة.

وقال العطار: أطيّبُ الكلامِ ما عُجِنَ عَنَبَرُ ألفاظه بمسكِ معانيه، ففاح نسيماً نَشَقَه، وسطعت رائحة عبّقه، فتعلّقت به الرواة، وتعطّرت به السّراة.

وقال الصائغ: خيرُ الكلامِ ما أحميتَه بكبيرِ الفكر، وسبكتَه بمشاعِلِ النَّظر، وحلّصته من خَبَثِ الإطناب، فبرز بروزَ الإبريز، في معنى وجيز.

وقال الصيرفي: خيرُ الكلامِ ما نَقَدَتْهُ يدُ البصيرة، وجلّته عين الروية، ووزنته بمِيعارِ الفصاحة، فلا نظر يُزيّفه، ولا سماع يُيهرّجه.

وقال الحداد: أحسنُ الكلامِ ما نصبت عليه مِنْفَخة القريحة، وأشعلت عليه نارَ البصيرة، ثم أخرجته من فحم الإفحام، ورقّفته بفطيس الإفهام.

وقال النجار: خيرُ الكلامِ ما أحكمت نَجَرَ معناه بقُدُوم التقدير، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير، فصار باباً لبيت البيان، وعارضة لسقف اللسان.

وقال النجاد: أحسنُ الكلامِ ما لطفت رَفَارِف ألفاظه، وحسنت مطارح معانيه، فتزّهت في زَرَايِي محاسنه عيونُ الناظرين، وأصاحت لنمارق بَهَجَتِه آذان السامعين.

وقال الماتح: أثبتتُ الكلامِ ما علقتُ وَدَمُ ألفاظه ببكرة معانيه، ثم أرسلته في قَلِيبِ الفطن فمتحت به سقاء يكشفُ الشبهات، واستنبطت به معنى يروي من ظمأ المشكلات.

وقال الخياط: البلاغة قميص؛ فجربانه البيان، وجيئه المعرفة، وكفاه الوجازة، ودخارِ يصه الإفهام، ودُرُوزُه الحلاوة، ولابس جَسَدُه اللفظ، وروحُه المعنى.

وقال الصباغ: أحسنُ الكلامِ ما لم تنضَ بِهَجَة إيجازه، ولم تكشف صبغة إعجازه، قد صَقَلْتَه يدُ الروية من كُمُود الإشكال، فَرَاغَ كواعِبَ الآداب، وألف عَذَارَى الألباب.

وقال الحائك: أحسنُ الكلامِ ما اتّصلت لُحمة ألفاظه بسدى معانيه، فخرج مُفَوَّفاً مُنيراً، وموشى محبراً.

وقال البزار: أحسنُ الكلامِ ما صدقَ رَقَمُ ألفاظه، وحسنَ نَشْرُ معانيه فلم يستعجم عنك نشر، ولم يستبهم عليك طي.

وقال الرائض: خيرُ الكلامِ ما لم يخرج عن حَدِّ التخلّيع، إلى منزلة التّقريب إلا بعد الرياضة، وكان كالمُهرّ الذي أطمع أول رياضته في تمام ثقافته.

وقال الجمال: البليغ من أخذ بخطام كلامه، فأناخه في مبرك المعنى، ثم جعل الاختصار له عقلاً، والإيجاز له مجالاً، فلم يند عن الآذان، ولم يشد عن الأذهان.

وقال المخنث: خير الكلام ما تكسرت أطرافه، وتشت أعطافه، وكان لفظه حُلَّةً، ومعناه حلية.

وقال الخمار: أبلغ الكلام ما طبخته مَراجِلُ العلم، وصفاه رَأُوقُ الفَهم، وضمته دَنان الحكمة، فتمشت في المفاصل عُذُوبَتُهُ، وفي الأفكار رِقته، وفي العقول حدته.

وقال الفقاعي: خير الكلام ما رَوَّحت ألفاظه غباوة الشك، ورفعت رِقته فظاظة الجهل، فطاب حساء فطنته، وعذب مصُّ جرعه.

وقال الطيب: خير الكلام ما إذا باشر دواءً بيانه سقم الشبهة استطلقت طبيعة الغباوة؛ فشفي من سوء التفهم، وأورث صحة التوهم.

وقال الكحال: كما أن الرمد قذى الأبصار، فكذا الشبهة قذى البصائر، فأكحل عين اللكنة بميل البلاغة، واجل رمص الغفلة بمرود اليقظة.

ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شمسُه، انكشف لَبْسُه، وإذا صدقت أنوَاهُ اخضرَّت أحمأُوهُ.

فقر في وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابي: البلاغة التقرب من البعيد، والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل على كثير.

قال عبد الحميد بن يحيى: البلاغة تقرير المعنى في الأفهام، من أقرب وجوه الكلام.

ابن المعتز: البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سقر الكلام.

سهل بن هارون: البيان ترجمان العقول، وروض القلوب، وقال: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

إبراهيم بن الإمام: يكفي من البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.

العتابي: البلاغة مدُّ الكلام بمعانيه إذا قصر، وحسن التأليف إذا طال.

أعرابي: البلاغة إيجاز في غير عجز، وإطناب في غير خطل.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى كاتب له ورآه يتبع وحشي الكلام: إياك وتتبع الوحشي طمعاً في نيل البلاغة؛ فإن ذلك العي الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل.

وقال الصولي: وصف يحيى بن خالد رجلاً فقال: أخذ بزمام الكلام، فقاده أسهل مقاد، وساقه أجهل

مَسَاقٍ؛ فاسترجع به القلوبَ النافرة، واستصرف به الأبصار الطامحة.
وسمع أعرابي كلامَ الحسن البصري رحمه الله، فقال: والله إنه لفصيح إذا نطق، نصيح إذا وعظ.

قال الجاحظ: ينبغي للكاتب أن يكون رقيقَ حَوَاشِي الكلام، عَذْبَ يَنَابِيع اللسان؛ إذا حاور سَدَدَ سَهْمِ الصواب إلى غرض المعنى، لا يكلم الخاصة بكلام العامة، ولا العامة بكلام الخاصة.
وقال أبو العباس المبرد: قال الحسن بن سهل لسالم الحراري: ما المثلثة التي إذا نزل بها الكاتب كان كاتباً في قوله وفعله واستحقاقه؟ قال: أن يكون مطبوعاً على المعرفة، مُحْتَنَكاً بالتجربة، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه، وبالدهور في تصرفها وأحكامها، وبالملوك في سَيْرِها وأيامها، وأجناس الخط، وبادية الأقلام، مع تشاكل اللفظ وقرب المأخذ. قال الحسن: فليس في الدنيا إذاً كاتب.
وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.
وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسنُ الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يومَ الإطالة.
وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحُسن الإشارة.
وقيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: مَعْرِفَةُ الفَصْلِ من الوصل.
وقال علي بن عيسى الرُّمَاني: البلاغةُ إيصال المعنى إلى القلبِ في أحسن صورة من اللفظ.

ومن كلام أهل العصر

في صفة البلاغة والبلغاء

قال علي بن عيسى الرماني: أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازه، وقلَّ مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبتْ صدورُه وأعجازه.

أبلغ الكلام ما يُؤنِسُ مُسَمِّعَه، ويؤنِسُ مَضِيْعَه.

البليغ من يجتني من الألفاظ أنوارها، ومن المعاني ثمارها.

ليست البلاغة أن يُطالَ عِنانُ القلم أو سِنَانُه، أو يُسَيَّرَ رِهانُ القول ومِيدَانُه، بل هي أن يبلغ أمد المراد بألفاظ أعْيَان، ومعانٍ أَفْرَاد، من حيث لا تَزِيدُ على الحاجة، ولا إِخْلَالُ يُفْضِي إلى الفاقة.

البلاغة ميدان لا يُقْطَعُ إلا بسوابق الأذهان، ولا يُسَلَّكُ إلا ببصائر البيان.

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألین زمام، حتى كأنَّ الألفاظ تتحاسدُ في التسابق إلى خواطره، والمعاني

تتغايّر في الانثيال على أنامله.

هذا كقول أبي تمام الطائي: البسيط:

تَغَايَرَ الشَّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهَرَتْ لَهُ
حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

فلان مشرفي المشرق، وصيّري المنطق. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عفو خطراته. كأنما أوحى بالتوفيق إلى صدره، وحسن الصواب بين طبعه وفكره.

فلان يحزّ مفاصِلَ الكلام، ويسبق فيها إلى درك المرام، كأنما جمع الكلام حوله حتى انتقى منه وانتخب، وتناول منه ما طَلَب، وترك بعد ذلك أذناً لا رؤوساً، وأجساداً لا نفوساً. فلان يَرْضَى بعفو الطبع، ويقنع بما خفَّ على السمع، ويوجز فلا يخلُّ، ويطنب فلا يملِّ، لله فلان أخذ بأزمة القول يقودها كيف أراد، ويجذبها أنى شاء؟ فلا تعصيه بين الصَّعب والذُّلُول، ولا تسلمه عند الحزونة والسهول، كلامه يشتدّ مرّة حتى تقول الصخر الأملس، ويلين تارةً حتى تقول الماء أو أسلس، يقول فيصُول، ويُجيب فيصيب، ويكتب فيطبّق المَفْصِل، أو يُنَسِّق الدرّ المَفْصَل، ويردّ مِشَارِعَ الكلام وهي صَافِيَةٌ لم تُطْرَق، وحامة لم تُرْتَق، خاطره البرق أو أسرع لمعاً، والسيّف أو أحدّ قطعاً، والماء أو أسلس جرياً، والفلك أو أقوم هدّياً؛ هو من يسهلُ الكلام على لفظه، وتزاحم المعاني على طبعه، فيتناول المرمى البعيد بقریب سعيه، ويستنبط المشرع العميق بيسير جريه، لسائه يفلق الصّخور، ويغيض البحور، ويُسمع الصم، ويستزلّ العُصم، خطيب لا تناله حُبسة، ولا ترقنه لُكنة، ولا تتمشّي في خطابه رنة، ولا تنحيف بيانه عُجمة، ولا تعترض لسانه عُقدة.

فلان رقيق الأسئلة، عذب العذبة لو وُضع لسائه على الشَّعر حلّقه، أو على الصّخر فلّقه، أو على الجمر أحرّقه، أو على الصفا حرقه، قد أحسن السّفارة، واستوفى العبارة، وأدى الألفاظ، واستغرق الأغراض، وأصاب شواكل المراد، وطبّق مفاصِلَ الشّداد، وبسط لسان الخطاب، ومدّ أطناب الإطناب، وطلب الأمد في الإسهاب، قال حتى قال الكلام: لو أعفيت! وكتب حتى قالت الأقلام: قد أحفيت، قد اتسع له مَشْرَعُ الإطناب، وانفرج له مَسَلَكُ الإسهاب، أرسل لسائه في ميدانه، وأرعى له من عنانه، قال وأطال، وجال في بسط الكلام كلّ مجال، إذا استحقّر في الكلام طَفَحَ آذيه، وسال أثيه، وانتال عليه الكلام كاثيال الغمام، واستجاب له الخطاب كصوب الرّباب. ألفاظ كغمزات الألحاظ، ومعان كأنها فكّ عان! ألفاظ كما نورّت الأشجار، ومعان كما تنفّست الأسحار، ألفاظ قد استعارت حلاوة العتاب بين الأحباب، واستلانت كتشكي العشاق يوم الفراق. كلام قريب شاسع ومطمع مانع، كالشمس تقرب

ضياءً، وتبعد علاءً، أو كالماء يَرُخَصُ موجوداً، ويغلو مفقوداً. كلامٌ لا تمجّه الأذان، ولا تُبليه الأزمان، كالْبَشْرَى مسموعة، أو أزاهير الرياض مجموعته، ومعان كأَنْفَاسِ الرياح، تَعَبُقُ بِالرَّيْحَانِ والراح. كلام سَهْلٌ متسلسل، كالمدام بماء الغمام، يقرب إذنه على الأفهام. كلام كَبَرْدُ الشَّرَابِ على الأكبادِ الحَرَارِ، وُبُرْدُ الشَّبَابِ في خلجِ العِذار. كلام كثيرُ العيونِ، سَلَسُ المتونِ، رَقِيقُ الحواشي، سَهْلُ النواحي. كلام هو السَّخَرُ الحلالُ، والماءُ الزُّلالُ، والبُرودُ والحَبَرُ، والأمثالُ والعِبَرُ، والنعيمُ الحاضرُ، والشبابُ النَّاضِرُ.

نظرت منه إلى صورة الطرف بَحْتًا، وصورة البلاغة سَبَكًا ونحْتًا، ألفاظ هي خُدَعُ الدهر، وعُقَدُ السحر. كلام يسرّ الحزون، ويُسهّل الحُزُون، ويعطل الدرّ المخزون. كلامٌ بعيد من الكُلف، نقيّ من الكُلف. كلام كما تنفّس السَّحَرُ عن نسيمه، وتبسّم الذُّرُّ عن نظيمه، ألفاظ تأتّق الخاطر في تَذْهِيبِها، ومعانٍ غنيّ الفهم تهذيبها. ألفاظ حسبتها من رِقَّتِها منسوخة في صحيفة الصِّبَا، وظننتها من سلاستها مكتوبةً في نَحْرِ الهوى.

كلام كالْبَشْرَى بالولد الكريم، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العقيم. كلام قُرْب حتى أطمع، وبعُد حتى امتنع، وقُرْب حتى صار قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، ثم سما وعلا حتى صار بالمتزل الأعلى. رقيق المزاج، حُلُو السماع، نقيّ الشبّك، مقبول اللَّفْظ. قرأت لفظاً جلياً، حَوَى معنًى خفياً، وكلاماً قريباً، رَمَى غرضاً بعيداً. لو أنّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْرٌ، أو أُطْفِئَ به جَمْرٌ، أو عُوفِيَ به مريضٌ، أو جُبِرَ به مَهِيضٌ لكان كلامه الذي يقودُ سامعيه إلى السجود، ويجري في القلوب كجرّي الماء في العُود. ألفاظه أنوار، ومعانيه ثمار. كلامه أنسُ المقيم الحاضر، وزادُ الراحل المسافر. كلامه يُصغي إليه المقبور، وينتفض له العُصفور، كلامٌ يقضي حق البيان، ويملك رِقَّ الحُسْنِ والإحسان، كلامٌ منه يجتني الدرّ، وبه يُعَقَّدُ السَّحَرُ، وعنده يُعْتَبُ الدهر، وله يَنْشَرُ الصدر.

ومن ألفاظهم

في وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نثر كثر الورد، نَظْمٌ كنظمِ العقد. نثر كالسحر أو أدقُّ، ونظْمٌ كالماء أو أرقُّ. رسالة كالرَوْضَةِ الأنيقة، وقصيدة كالمخدرة الرشيقة. رسالة تَقْطُرُ ظَرْفًا، وقصيدة تمزجُ بماء الرّاح لطفًا. نثره سِخْرُ البيان، ونَظْمُه

قَطَعَ الْجُمَانُ. نثرٌ كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السحر. نثر ترقُّ نواحيه وحواسيه، ونظم تروقُ ألفاظه ومعانيه. نثر كالحديقة تفتحت أهداق وردِّها، ونظم كالخريدة توردت أسرارُ خدِّها. رسالة تضحك عن غرر وزهر، وقصيدة تنطوي على حبر ودرر. لم ترضَ في برك، بأخوات النثرة من نثر، حتى وصلتها بنات الشعرى من شعرك. كلام كما هب نسيم السحر، على صفحات الزهر، ولدَ طعم الكرى بعد برح السهر. وشعر في نفسه شاعر، تُوسم به المواسم والمشاعر. كلام أنسى حلاوة الأولاد بحلاوته، وطلاوة الربيع بطلاوته، وشعر من حلة الشباب مسروق، ومن طينة الوصال مخلوق. قصيدة، في فيها فريدة، هي عروس كسوتها القوافي، وحليتها المعاني. شعرٌ يترفرق في ماء الطبع، ويرتفع له حجاب القلب والسمع. شعر لا مزية الإعجاز أخطأته؛ ولا فضيلة الإيجاز تخطته شعرٌ رويته لما رأيته، وحفظته لما لحظته. أبياتٌ لو جعلت خلعا على الزمان لتحلى بها مكائرا، وتحلى فيها مفاخرًا. شعرٌ راقني، حتى شاقني، فإنه مع قرب لفظه بعيد المرام، مُمر النظام، قوي الأسر، صافي البحر. نظم قد أليس من البداوة فصاحتها، وغشي من الحضارة سجاحتها فإن شئت قلت عبید ولبيد، وإن شئت حبيب والوليد قصيدته روضة تجتنى بالأفكار، ونقل يتناول بالأسماع والأبصار، ونقل العلم والأدب، ألد من نقل المأكول والمشرب، وفاكهة الكلام، أطيّب من فاكهة الطعام. نظم كنظم الجمان، وروض كالجنان، وأمن الفؤاد، وطيب الرقاد. قصيدة لم أر غيرها بكرا، استوفت أقسام الحنكة، واستكملت أحكام الدربة؛ فعليها روتق الشباب، ولها قوة المذكيات الصلاب، روح الشعر، وتاج الدهر، ومقدمة عساكر السحر. كل بيت شعر خيرٌ من بيت تبر. شعر يُحكم له بالإعجاز والتبريز، ويشبه في صفاء سبكه بالذهب الإبريز. شعر تأتلف القلوب على دُرره اثتلافاً، وتصير الأذان له أصدافاً. لله دره ما أحلى شعره! وأنقى دُرّه، وأعلى قدره، وأعجب أمره! قد أخذ برقاب القوافي، ومَلَكَ رِقَّ المعاني، فضله برهان حق، وشعره لسان صدق. فلان يُغرب بما يجلب، ويُبدع فيما يصنع، حسن السبك، مُحكم الرصف، بديع الوصف، مرغوب في شعره، مُتنافس في سحره. هو ضارب في قداح الشعر بأعلى السهام، أخذ في عيون الفضل بأوفى الأقسام، شعاره أشعاره، ودأبه آدابه، هو ممن يبتدع فيبتدع، طبعه يُملئ عليه، ما لا يمل الاستماع إليه. قريحة غير قريحة، وطبع غير طبع، وخيم غير وخيم، لبید عنده بليد، وعبيد لديه من العبيد، والفرزدق عنده أقل من فرزدقة خمير، وجريز يُقاد إليه بجريز، قد نسج خللاً لا يُبلى جدتها الجديدان، ولا تزداد إلا حسناً على تردّد الأزمان. نظمُه قد نظم حاشيتي البر والبحر، وأدرك ناحيتي الشرق والغرب. أشعار قد وردت المياه، وركبت الأفواه، وسارت في البلاد، ولم تسر بزاد، وطارَت في الآفاق، ولم تمش على ساق. شعره أسير من الأمثال، وأسرى من الخيال، سار مسير الرياح، وطار بغير جناح. أشعاره سارت مسير الشمس، وهبت هبوب الريح، وطبقت تحوم الأرض، وانتظمت الشرق إلى الغرب. قد كادت الأيام تنشدها،

والليالي تحفظها، والجن تدرسها، والطير تتغنى بها. أبيات أسفر عنها طبع المجذ، فعلمت كيف يتكسر الزهر على صفحات الحقائق، وكيف يغرس الدرّ في رياض المهارق. شعر قد أحسن خدمته بكمال فكره، ووقف كيف شاء عند عالي أمره. شعر يعلّق في كعبة المجد، ويتوج به مفرق الدهر. جاءت القصيدة ومعها عزّة الملك، وعليها رواء الصدق، وفيها سيماء العلم، وعندها لسان المجد، ولها صيال الحق، لا غرو إذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين وقعت على مثله ولا أذن سمعت بشبهه. شعر يكتب في غرة الدهر، ويشرح في جبهة الشمس والبدن.

وهذه جملة من فصول أهل العصر

تليق بهذا الموضع

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي محمد خلاد الرامهرمزي القاضي.
وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك، وضروب برك وتعهّدك؛ فارتخت لكل ما أوليت، وابتهجت بجميع ما أهديت، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكرى، ووقفت عليها شكرى، وتأمّلت النظم فملكني العجب به، وبهرني التعجب منه، وقد رمت أن أجري على العادة في تشبيهه بمستحسن من زهر جنّ، وحلّ وحلي، وشذور الفرائد، في نحور الخرائد: الخفيف:

والعذارى غدوّن في الحلّ البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلاً، ولا أرضى ما عددته له مثلاً؛ واللّه يزيدك من فضله، ولا يُخليك من إحسانه، ويلهمك من بر إخوانك ما تتمم به صنيعك لديهم، ويُربّ معه إحسانك إليهم.
وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبي سعيد الشيباني: قد رأى شيخ الدولتين كيف الكلفُ بسادتي من أهل ميكال - أيدهم الله! - بين ود أضمره على البعد، وإيثار أظهره على تراخي المزار، وتقريظ يمليه علي الملوّان، ومدح أنطق فيه بلسان الزمان، حتى إن ذكرهم إذا جرى على لساني اهتزت له نفسي، وفضلهم إذا جرى على سمعي انفرج له صدري، فتلّك عصبه خير فضلها باهر، وشرّفها على شرف النماء زاهر، وشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ناظر، واللّه يتمم أعدادها، ولا يعدمني ودادها، وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثير لديّ، كثير في يديّ. وطراً عليّ فلان منتسباً إلى جملتهم، وحبذا الجملة، ومعتزياً إلى خدمتهم، ونعمت الخدمة، ففررنا عن طبع سَمَح، ولَفْظ عَذَب، وصلّة نثر بنظم؛ فإن شاء قال: أنا الوليد، وإن شاء قال: أنا عبد الحميد؛ ولم أعظم بمن خرّجته تلك النعمة ونتجته تلك السدة أن يأخذ من كلّ حسنة بعروة، ويقدح في كل نار بجذوة؛ وأنسنا

بالمقام مُدَّة، أَكَدَّهَا شَوَافِعَ عِدَّة، إِلَى أَنْ تَذَكَّرَ مَعَاهِدَ رَأَى فِيهَا الدَّهْرَ طَلَقًا، وَالزَّمَانَ غُلَامًا، وَالْفَضْلَ رَهْنًا، وَالْإِفْضَالَ لِزَامًا؛ فَحَنَّ حَيْنَ الرَّكَّابِ، وَرَكَّبَ عَزِيمَ الْإِيَابِ.

فصل من كتاب كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي إلى أبي القاسم الداودي جواباً عن كتاب له ورد عليه، وأبو الفضل رئيس نيسابور وأعمالها في وقتنا هذا، وسيمرُّ من كلامه ونثره ونظامه ما يغني عن التنويه، وَيَكْفِي عن التنبيه، ويجل عن التشبيه، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش علي بن سليمان: استهدى إبراهيم بن المدبر أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يَجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بآيناسه؛ فندبني لذلك، وكتب إليه معي: قد أنفذت إليك - أعزك الله - فلاناً، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر: الوافر:

شَفِيعاً عَنْدهُمْ أَنْ يَخْبُرُونِي

إِذَا زُرْتُ الْمُلُوكَ فَإِنْ حَسْبِي

وفصل أبي الفضل: وقفتُ على ما أتحفني به الشيخ: من نَظْمِهِ الرائق البديع، وخاله المُرِّي بزهر الربيع، مُوشِحاً بَغَرِّ أَلْفَاظِهِ، الَّتِي لَوْ أُعِيرَتْ حَلِيَّتُهَا لَعَطَّلَتْ قَلَائِدَ النُّحُورِ، وَأَبْكَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي لَوْ قُسِمَتْ حَلَاوَتُهَا لَأَعْدَبَتْ مَوَارِدَ الْبُحُورِ، فَسَرَحْتُ طَرْفِي مِنْهَا فِي رِيَاضِ جَادَتِهَا سَحَابُ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ، وَهَبَّ عَلَيْهَا نَسِيمُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، وَابْتَسَمَتْ عَنْهَا ثَغُورُ الْمَعَالِي وَالْهَمَمِ، وَلَمْ أَدْرِ - وَقَدْ حِيرْتَنِي أَصْنَافُهَا، وَبَهْرَتَنِي ثَغُورُهَا وَأَوْصَافُهَا، حَتَّى كَسْتَنِي اهْتِزَازًا وَإِعْجَابًا، وَأَنْشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ التَّمَاثُكِ سِتْرًا وَحِجَابًا، وَلَمْ أَدْرِ أَذْهَبْتَنِي لَهَا نَشْوَةَ رَاحٍ، أَمْ أَزْدَهَبْتَنِي نَغْمَةَ ارْتِيَاكِ، وَانْتَظَمْتُ عِنْدِي مِنْهَا عَقْدَ ثَنَاءٍ وَقَرِيضٍ، أَمْ قَرَعْتُ سَمْعِي مِنْهَا غِنَاءَ مَعْبَدٍ وَغَرِيضٍ، وَكَيْفَمَا كَانَ فَقَدْ حَوَى رَتْبَةَ الْإِعْجَازِ وَالْإِبْدَاعِ، وَأَصْبَحَ نَزْهَةُ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، فَمَا مِنْ جَارِحَةٍ إِلَّا وَهِيَ تَوَدُّ لَوْ كَانَتْ أَذْنًا فَتَلْتَقِطَ دَرَرَهُ وَجَوَاهِرَهُ، أَوْ عَيْنًا تَجْتَلِي مَطَالَعَهُ وَمَنَاظِرَهُ، أَوْ لِسَانًا يَدْرُسُ مُحَاسِنَهُ وَمَفَاحِرَهُ.

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي: وصل كتابُ مولاي وسيدي، أَبْدَعَ الْكُتُبِ هَوَادِي وَأَعْجَازًا، وَأَبْرَعَهَا بِلَاغَةً وَإِعْجَازًا، فَحَسِبْتُ أَلْفَاظَهُ دَرَ السَّحَابِ، أَوْ أَصْفَى قَطْرًا وَدِيمَةً، وَمَعَانِيهِ دُرَّ السَّخَابِ، بَلْ أَوْفَى قَدْرًا وَقِيَمَةً. وَتَأَمَّلْتُ الْأَبْيَاتَ فَوَجَدْتُهَا فَائِقَةَ النَّظْمِ وَالرِّصْفِ، عِبَقَةَ النَّسِيمِ وَالْعَرَفِ، فَائِزَةً بِقَدَاحِ الْحُسْنِ وَالطَّرْفِ، مَالِكَةً لِزِمَامِ الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ؛ وَلَا غَرَوْ أَنْ يَصْدُرَ مِثْلُهَا عَنْ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، وَهُوَ هَدَفُ الْفَقْرِ وَالنُّوَادِرِ، وَصَدَفُ الدَّرَرِ وَالْجَوَاهِرِ، وَاللَّهُ يُمَتِّعُهُ بِمَا مَنَحَهُ مِنْ هَذِهِ الْغُرَرِ وَالْأَوْضَاحِ، كَمَا أَطْلَقَ فِيهِ أَلْسِنَةُ الثَّنَاءِ وَالِامْتِدَاحِ.

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين وهو فريدُ دهره، وقريع

عصره، ونسيجُ وَحْدَه، وله مصنفات في العلم والأدب، تشهدُ له بأعلى الرتب، وقد فرَّقَت ما اخترته منها في هذا الكتاب، مع ما تعلق بشاكلته من الخطاب؛ منها كتاب سماه سحر البلاغة قال في صدر هذا الكتاب: "أخرجتُ بعضه من غُررِ نجوم الأرض، ونكتُ أعيان الفضل، من بُلغاء العصر، في النثر، وحللت بعضه من نظم أمراء الشعر، الذين أوردت مُلحَ أشعارهم في كتابي المترجم بيتيمة الدهر، فلفقتُ جميع ذلك وحرَّرتَه، وسقته ونسقتَه، وأنفقت عليه ما رُزقته، وعملتُه بكد الناظر، وجهد الخاطر، وتعبَ اليمين، وعرق الجبين، وتعمدتُ فيه لذة الجدة، ورَوِّقُ الحداثة، وحلاوة الطراوة، ولم أشبهُ بشيء من كلام غير أهل العصر، إلا في قلائل وقلائد من ألفاظ الجاحظ وابن المعتز، تخلَّلتُ أثناءه، وتوشحت تضاعيفه، ولم أُخلُ كلماته - التي هي وسائل الآداب، وصياقل الألباب، وما تستمتُّه أنفسُ الأدباء، وتلذُّ أعين الكتاب - من لفظ صحيح، أو معنًى صريح، أو تجنيس أنيس، أو تشبيه بلا شبيهة، أو تمثيل بلا مثيل ولا عدل، أو استعارة مُختارة، أو طباق، في رَوِّقِ باق؛ فمن رَافَقَ هذا الكتاب قُرْبَ تناوُلِه من الكتاب، إذا وشَّوا ديباجة كلامهم بما يقتبسونه من نُوره، وسماحة قياده لأفراد الشعراء إذا رصعوا عقود نظامهم بما يلتقطونه من شذُوره، فأما المخاطبات والمحاورات، فلها تتبرج بغرَّة من غُرره، وتتوج بدرة من درره. وقد ذكر جملة من أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم، وهم: الصايبان، والخالديان، وبديع الزمان، وأبو نصر بن المرزبان وعلي بن عبد العزيز القاضي، وأبو محمد القاضي، وأبو القاسم الزعفراني، وأبو فراس الحمداني، وابن أبي العلاء الأصبهاني، وأبو الطيب المتنبي، وأبو الفتح البُستي، وأبو الفضل الميكالي، وشمس المعالي، والصاحب بن عباد، وجماعة يكثر بهم التعداد، قد ذكرهم في كتابه، فكل ما مرَّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نقلتُ، وعليه عَوَّلتُ.

وفي أبي منصور يقول أبو الفتح علي بن محمد البُستي: البسيط:

قلبي رهين بنيسابور عند أخ
ما مثله حين تستقرى البلاد أخ
له صحائف أخلاق مهذبة
من الحجا والعلا والطرف تتنسخ

وأما الذين ذكر أسماءهم في كتابه فسأظهر من سرائر شعرهم الرصين، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين، ما أخذ من البلاغة باليمين.

فصل لأبي الفضل: وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التي هي غرَّة الزمان البهيم، وعذر الدهر المليم، بما أشرقت له آفاقُ الفضل والكرم، وتمت به نفائسُ الآلاء والنعم، فسرحتُ طرْفِي من محاسن ألفاظه، في أنوار تروق أزاهرها، وقلائد تروغ دُرُرُها وجواهرها، ومبار يسترق الرقاب باطنها وظاهرها. وله إلى أبي سعيد بن خلف الحمداني: وصل كتابك متحملاً من أخبار سلامتك، وآثار نعم الله بساحتك،

ما أدى روح البرّ ونسيمه، وجمع فنون الفضل وتقاسيمه، ومجدداً عندي من عمر مواصلته، ومعمول كلامه ومحاورته، ما ترك غصن المقة غضاً تروق أوراقه، ووجه الثقة طلقاً يتهلّل إشراقه، فكم جنيت عنه من ثمر مسرة كانت عوائق الأيام تُحاذِيهِ، وحويت به من علق مَضَنَّة فلما يجود الدهر بمثله لبنيه.

وله فصل إلى بعض الحكام بِجُوءٍ:

وصل كتابُ الحاكم وقد وشّحه بمحاسن فقره، ونتائج فكره، من لفظ شهّي أعطته القلوب فضلَ المقادة، ومعنى سنيّ جاده صوبُ الإصابة والإجادة، وبرّ هنيّ اتَّفَقَتْ على الاعتراف بفضله السنةُ الشاء والشهادة، فسَرَّحْتُ طَرْفي فيما حواه من بدائع وطُرف، قد جمعت في الحسن والإحسان بين واسطة وطُرف، حتى لم تبقَ في البلاغة يتيمة إلا جبرتها وتممتها.

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم.

كتبت وأنا بمترلة من ارتدّ إليه شبابه بعد المشيب، وارتدى برداء من العمر قَشِيب، والحمد لله رب العالمين، وصل كتابُ مولاي مبشراً من خبر عوده إلى مقرّ عزّه وشرفه، محروساً في حفظ الله وكفّه، بما لم تزل الآمال تتنسم روائحه، وتترقب غاديّ صنّع الله فيه ورائحه، واثقة بأنّ عادة الله الكريمة عنده تُسَايرُهُ وتُرافقه، وتلزم جنباه فلا تُفَارِقُهُ، حتى تُخرجه من غمرة الغماء خروجَ السيف من الغمد، والبدر بعد السّرار إلى الانجلاء، فعددتُ يوم وُروده عيداً، أعاد عهد السُرور جديداً، وردّ طُرفَ الحسود كليلاً وقد كان حديداً، ولم أُشَبِّههُ في إهداء الرّوح والشفاء، وتلافي الرّوح بعد أن أشفى على المكروه كل الإشفاء إلا بقميص يوسف حين تلقاه يعقوب عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعين البصير، فكم أوسعته لثماً واستلاماً، والتقطت منه برداً وسلاماً، حتى لم تبق غلّة في الصدر إلا بردتها، ولا غمّة في النفس إلا طردتها، ولا شريعة من الأنس إلا وردتها.

وله فصل من رسالة: وكان فرطُ التعجب مرّةً وعظمُ الإعجاب تارة يقفُ بي عند أول فصل من فصوله، ويثبطني عن استيفاء غرره وحجوله، ويوهمني أنّ المحاسن ما حوته قلائده، ونظمته فرائده؛ فليس في قوس إحسان وراءها منزع، ولا لاقتراح جنان فوقها مُتَطَلِّع، حتى إذا جاوزته إلى لفه وتزيينه، وأجلتُ فكري في نكته وعيونه، رأيتُ ما يُحَيِّرُ الطُرف، ويُعْجِزُ الوصف، ويعلو على الأول محلاً ومكاناً، ويفوقه حسناً وإحساناً، فرتعتُ كيف شئتُ في رياضه وحدائقه، واقتبستُ نورَ الحكم من مطالعه ومشارقه، وسلّمت لمعانيه وألفاظه فضيلةَ السبق والبراعة، وتلقيتها بواجبها من النشر والإذاعة؛ فإنها جمعت إلى حسن الإيجاز درجة الإعجاز، وإلى فضيلة الإبداع جلاله الموقع في القلوب والأسماع.

وله من فصل: وصل كتاب الشيخ فنشّر عندي من حُلل إفضاله وإكرامه، ومحاسن خطابه وكلامه، ما لم أشبّهه إلا بأنوار النُّجُود، وحبر البرود، وقلائد العُفُود.

وذكر أبو منصور الثعالبي الأمير أبا الفضل في كتاب ألفه، فقال في بعض فصوله: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ سِرَّ
النظم، وسِحْرَ الشعر، ورُقِيَّةَ الدهر، ويرى صَوْبَ العقل، وذَوْبَ الظرف، ونتيجة الفضل؛ فليستشدد ما
أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالي فكره، من مُلحٍ تترجُّ بالنفوس لنفاستها، وتشرب بالقلوب لسلاستها:
المتقارب:

قوافٍ إذا ما رَوَّاهَا المشو ق هزّت لها الغانيات القُدودا

كَسَوْنَ عَيْدًا ثِيَابَ الْعَيْدِ وأضحى ليبدٍ لديها بليدا

وأيُّمُ الله ما مرَّ يوم أسعفني فيه الزمانُ بمواجهة وجهه، وأسعدني بالاقْتِباس من نُوره والاعتراف من بحرِه،
فشاهدت ثمارَ المجدِ والسُّود تنثُرُ من شمائله، ورأيت فضائلَ الدهرِ عيالاً على فضائله، وقرأتُ نسخة
الفضلِ والكرم من ألحاظه، وانتهتُ فضائل الفوائد من ألفاظه، إلّا تذكّرت ما أنشدنيهِ، أدام الله تأييده
لابن الرُّومي: البسيط:

لولا عجائب صنْع الله ما ثبتت تلك الفضائلُ في لحمٍ ولا عَصَبٍ

وقول الطائي: الوافر:

فلو صورتُ نفسك لم تَزِدْها على ما فيكَ من كَرَمِ الطَّبَّاعِ

وقول كُشاجم: الكامل:

ما كان أحوجَ ذا الكمالِ إلى عَيْبٍ يُوفِيهِ مِنَ الْعَيْنِ

وربعت بقول أبي الطيب: الوافر:

فإن تَفَقَّ الأنامَ وأنتَ مِنْهُمْ فإن المسكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

ثم استعرت فيه بيانَ أبي إسحاق الصابي حيث يقول للصاحب ورثه الله أعمارها، كما بلغه في البلاغة
أنوارها: السريع:

الله حسبي فيكَ من كلِّ ما تعود العبدُ على المولى

فلا تَرَلْ تَرُقُلْ في نعمةٍ أنتَ بها من غَيْرِكَ الأوَلَى

وقال في فصل منه: وما أنسَ لا أنسَ أيامي عنده بفيروزآباد، إحدى قرَاه برستاق جوين، سقاها الله ما
يحكي أخلاقَ صاحبها من سَيْلِ القطرِ، فإنها كانت - بطُلْعَتِهِ الْبَدْرِيَّةِ، وعِشْرَتِهِ الْعِطْرِيَّةِ، وآدابه العلوية،
وألفاظه اللؤلؤية، مع جلائلِ نِعَمِهِ المذكورة، ودقائقِ كرمه المشكورة، وفوائدِ مجالسه المعمورة، ومحاسنِ

أقواله وأفعاله التي يَغيا بها الواصفون - أنموذجات من الجنة، التي وُعد المتقون، وإذا تذكرتها في المربع التي هي مَرَاتِع النَوَاطِر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوي لها الديباج الخُسْرُوَانِي، ونُفي معها الوَشْي الصَّنْعَانِي، فلم تُشَبَّه إلاَّ بِشَيْمِهِ، وآثار قَلَمِهِ، وأزهار كَلَمِهِ، تذكرت سِحراً وسيماً، وخيراً عميماً، وارتياحاً مُقيماً، وروحاً وريحاناً ونعيماً.

وكثيراً ما أَحْكِي للإخوان أني استغرقت أربعة أشهر بحضرته، وتوفرت على خِدْمَتِهِ، ولازمتُ في أكثر أوقاتي عالي مَجْلِسِهِ، وتعطّرت عند ركوبه بُعْبَار مَوْكِهِ؛ فبالله يمينا كنت غنياً عنها لو خفت حنثاً فيها إني ما أنكرت طَرَفاً من أخلاقه؛ ولم أشاهد إلاَّ مَجْداً وشرفاً من أحواله. وما رأيته اغْتَابَ غائباً، أو سَبَّ حاضراً، أو حَرَمَ سائلاً، أو خَيَّبَ آملاً، أو أطاع سلطان الغَضَبِ في الحضر، أو تسلى بنار الضَّجَرِ في السَّفَر، أو بطش بطش المتجبر؛ ولا وجدت المآثر إلاَّ ما يتعاطاه، والمآثم إلاَّ ما يتخطاه. وقال في فصل منه يصفه: وأما فنون الأدب فهو ابن بَجْدَتِهَا، وأخو جَمَلَتِهَا، وأبو عُذْرَتِهَا، ومالك أَرَمَتِهَا، وكأنما يُوحى إليه في الاستثثار بمحاسنها، والتفرد ببدايعها، والله هو إذا غرس الدرّ في أرض القراطيس، وطَرَزَ بالظلام رِداءَ النهار، وألقت بحارُ خواطره جواهرِ البلاغة على أنامله، فهناك الحُسْنُ برُمْتِهِ، والحُسْنُ بكلّيته.

وذكر عمر بن علي المَطْوَعِي في كتاب ألفه في شعر أبي الفضل ومثوره والشعراء، فقال: رأيتُ أهل هذه الصناعة قد تشعّبوا على طُرُق، وانقسموا على ثلاث فرق، فمنهم من اكتسى كلامه شرف الاكتساب دون شرف الانتساب كالمكتسبين من الشعراء بالمدايح، المترشحين بها لأخذِ الجوائز والمنايح، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة؛ ومنهم من شَرُفت بناتُ فكره عند أهل العقول، وجلبت لديهم فضائل القبول، لِشَرَفِ قائلِها، لا لِكثَرَةِ عقائلِها، وكرم واشيها، لا لِرَفَةِ حواشيها، كالعدد الكثير، والجم الغفير، من الخلفاء والأمراء والجلّة والوزراء؛ ومنهم من أخذ بحبل الجُودَةِ من طَرَفِيهِ، وجمع رداءَ الحُسْنِ من حاشِيَتِيهِ، كامرئ القيس ابن حُجَر الكندي في المتقدمين، وهو أميرُ الشعراء غير مُنازع، وسيدهم غير مجاذب ولا مدافع، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين في المولدين، وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشمية، وأبرع أنشاء الدولة العباسية، ومن جَلَّ كلامه في التشبيه، عن أن يُمثّل بنظير أو شبيه، وعَلَت أشعاره في الأوصاف، عن أن تتعاطاه ألسنة الوُصَّاف؛ والأمير أبي فراس بن حَمْدان فارس البلاغة، ورجل الفصاحة، ومن حكمت له شعراءُ العصر قاطبةً بالسيادة، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب: بُدئ الشعرُ بملك وختم بملك، يعني أمراً القيس وأبا فراس؛ وهذه الطائفة أشهر الثلاثة تقدماً، وأثبتها في مواطن الفَخْرِ ومواطن الشرف قَدَماً، وأسبق الشعراء في ميّدان

البلاغة، وأرجحهم في ميدان البراعة؛ فإنَّ الكلام الصادر عن الأعيان والصدور، أقرُّ للعيون وأشفى للصدور، فشرف القلائد بمن قُلدها، كما أن شرف العقائل بمن وَلدَها: الوافر:

وخيّرُ الشعرِ أكرمُهُ رجَالاً وشرُّ الشعرِ ما قالَ العبيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن، كان خليقاً بأن تُخلد في صحائف القلوب أشعاره، وتُدوّن في ضمائر النفوس آثاره، وتكتب على الأحداق والعيون أخباره، وجديراً بأن يختصن بسرعة المجال في المجالس، وخفة المدار في المدارس، كالأمير الجليل السيد مولانا: الطويل:

أبى الفضل من نال السماء بفضله ومن وعدته نفسه بمزيد
تودُّ عقود الدرّ لو كان لفظه فينظمها من توأم وفريد

وهذه مقطعات لأهل العصر

في وصف البلاغة

قال أبو الفتح البستي: الطويل:

مدحتك فالتامت قلائد لم يفز بأمثالها الصيّد الكرام الأعظم
لأنك بحرٌ والمعاني لآلي وفكري غوّاصٌ وشعري ناظم

وقال أيضاً: البسيط:

ما إن سمعتُ بنوارٍ له ثمرٌ في الوقت يُمتع سمع المرء والبصرا
حتى أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كل لفظٍ ومعنى يشبه الدرّ را
فكان لفظك في لألائه زهراً وكان معناه في أثناؤه ثمرا
تسابقاً فأصابا القصدَ في طلقٍ لله من ثمرٍ قد سبق الزهرا

وقال أيضاً: البسيط:

لما أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كل برٍ ولفظٍ غيرٍ محدود
حكّت معانيه في أثناء أسطره أثارك البيض في أحوالي السود

كأنه ألم بقول الطائي: الطويل:

يرى أقبح الأشياء أوبة أمل
وأحسن من نور تفتحه الصبا
كستها يد المأمول حلة خائب
بياض العطايا في سواد المطالب

وقال أبو الفتح البستي في أبي نصر أحمد بن علي الميكالي: الخفيف:

جمع الله في الأمير أبي نص
راحة برة وصدرًا فضاء
ر خصالاً تعلو بها الأقدار
وذكاء تبدو له الأسرار
خطه روضة وألفاظه الأز
هار يضحك، والمعاني ثمار

وقال عمر بن علي المطوعي يمدح أبا الفضل الميكالي من قصيدة: الكامل:

وإلى الأمير ابن الأمير المعتلي
وطئت بي الوجناء وجنة مهمه
بكمال سؤدده على الأمراء
متقاذف الأكناف والأرجاء
كيما ألاحظ منه في أفق العلا
كالبدر غير دوامه متكاملًا
بالفضل يكنى وهو فيه كامن
يا من إذا خط الكتاب يمينه
لم تجر كفك في البياض موقعاً
قرم يدها وقلبه ما منهما
في النظم والإعطاء إلا الطائي

وقال فيه أيضاً: الطويل:

كلام الأمير الندب في ثني نظمه
فنروى متى نروى بدائع نظمه
ينوب عن الماء الزلال لمن يظما
ونظماً إذا لم نرو يوماً له نظماً

وكتب إليه أيضاً: الطويل:

أقول وقد جادت جفوني بأدمع
وقد علقت بي للنزاع نوازع
كأنني قد استمليتُهُن من السحب
كتبن معاناة العناء على قلبي
إلى سيد أوفى على الشمس قدره
أبي الفضل من راحت فواضل كفه
سقى الله أرضاً حل فيها سحائباً
وزادت معاليه ضياء على الشهب
وراحته تُربي على عدد التراب
كنائله الفياض أو لفظه العذب

سحائبَ يَحْدُوها نسيمٌ كخُلُقهِ
ولا زالَ أَفلاكُ السَّعودِ مُطِيفَةً

وقال أبو منصور الثعالبي للأمير أبي الفضل: الكامل:

لك في الفضائل معجزات جمة
بحران بحرٍ في البلاغة شابه
كالنور أو كالسحر أو كالدُّر أو
شكراً فكم من فقرَةٍ لك كالغنى
وإذا تفتق نورُ شعركِ ناضراً
أرجلتَ فرسان الكلام ورُضتِ أف
ونقشت في فصّ الزمان بدائعاً

وقال في وصف فرس أهدها إليه ممدوحه: الكامل:

يا مُهْدِي الطَّرْفِ الجوادِ كأنما
لا شيء أسرع منه إلا خاطري
ولو أنني أنصفتُ في إكرامه
أنظمتَه حَبّ القلوب لحبه
وخلعت ثم قطعت غير مضيق

وكتب إليه في جواب كتاب ورد عليه: الخفيف:

أنسيمُ الرياض حَوْلَ الغدير
أم ورود البشير بالنجح من ف
في ملاء من الشباب جديد
أم كتاب الأمير سيدنا الفرّ
وثمار الصدور ما أجتنيه
نمقّتها أنامل تَقْتَقُ الآن
كالمنى قد جُمِعْنَ في النعم الغ

ويقدمها بَرَق كصارمه العَضْبِ
بحضرته تتابها وهو كالقُطْبِ

أبدأً لغيرك في الورى لم تُجمَع
شِعْرُ الوليد وحسن لفظ الأصمعي
كالوشى في بُردٍ عليه موشع
وافى الكريم بُعَيْدَ فقرٍ مُدَقَّع
فالحسن بين مُرَصَّع ومُصرَع
راس البديع وأنت أمجدُ مُبدِع
تُزْرِى بآثارِ الربيع المُمرَع

قد أنعلوه بالرياح الأربع
في شكر نائلك اللطيف الموقَّع
لجلال مُهْدِيهِ الكريم الأروع
وجعلت مربوطه سواد المدَمَع
بُردُ الشباب لجله والبرقع

مازجته رِيا الحبيب الأثير
ك أسيرٍ أو يُسرٍ أمرٍ عسير
تحت أيك من التصابي نصير
د؛ فيا حبذا كتاب الأمير
من سطورٍ فيها شفاء الصدور
وار والزهر في رياض السطور
ر مع الأمن من صروف الدهور

يا أبا الفضل وابنه وأخاه
شيمٌ يرتضعنَ درَّ المعالي
وسجايا كأنهنَّ لدى النش
ومحيا لدى الملوك محيا
جل باريك من لطيف خبير
ويُعبرنَ عن نسيم العبير
رِضابُ الحيا بأري مشور
صادق البشر مُجبل للبدور

فأجابه أبو الفضل بأبيات يقول فيها في صفة أبياته: الخفيف:

وهدي زفت إلى السمع بكر
عجب الناس أن بدت من سواد
نظمت في بلاغة ومعان
كم تذكرت عندها من عهود
فدممت الزمان إذ ضن عنا
ولئن راعنا الزمان ببين
فعسى الله أن يعيد اجتماعاً
إنه قادر على رد ما فا
تتهادى في حلية وشذور
في بياض كالمسك في الكافور
مثل نظم العقود فوق النحور
للتلاقي في ظل عيش نصير
باجتماع يضم شمل السرور
ألبس الأنس ذلة المهجور
في أمان من حادثات الدهور
ت وتيسير كل أمر عسير

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في الوزير المهلي: الكامل:

قل للوزير أبي محمد الذي
لك في المجالس منطق يشفي الجوى
وكان لفظك جوهر متخل
قد أعجزت كل الورى أوصافه
ويسوغ في أذن الأديب سلافه
وكأنما آذاننا أصدافه

والمهلي هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وزر لأحمد بن بويه الديلمي، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، وكان أبو محمد من سروات الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعفائهم؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابي: الخفيف:

نعم الله كالوحوش فما تأ
نفرتها آثام قوم وصير
لف إلا الأخير النساء
ن لها البر والتقى أشراكا

البلاد، على طريق الفقر والتصوف، قال أبو علي الصوفي: كنت معه في بعض أوقاته، أمشيته في إحدى طرقاته، فضجر لضيق الحال، فقال:

ثم تصرّف بما يُرضيه الدهر، وبلغ المهلي مبلّغه. قال أبو علي: دخلت البصرة فاجترت بسرّ من رأى، وإذا أنا بناشيطيات وحراقات وزيارب وطيارات في عُدّة وعُدّد، فسألت: لمن هذا؟ ف قيل: للوزير المهلي، ونعتوا لي صاحبي؛ فوصلت إليه حتى رأيته، فكتبْتُ إليه رقعة، وتوصّلت حتى دخلتُ فسلمت، وجلستُ حتى خلا مجلسه، فدفعْتُ إليه الرقعة وفيها: الوافر:

مقال مُذَكَّرٍ ما قد نسيه

ألا قلّ للوزير بلا احتشام

ألا موت يُباع فأشتريه

أتذكر إذ تقول لضيق عيشي

فنظر إلي وقال: نعم، ثم نهض وأهضني معه إلى مجلس الأُنس، وجعل يُذاكرني ما مَضَى، ويذكرُ لي كيف ترقّت حاله، وقُدّم الطعام فَطَعَمْنَا، وأقبل ثلاثة من الغلمان على رأسِ أحدهم ثلاثُ بدر، ومع الآخر تخوتٌ وثياب، ومع الآخر طيبٌ وبخور، وأقبلتُ بَعْلَةٌ رائعة بسرّجٍ ثقيل؛ فقال: يا أبا علي، تفضّل بقبول هذا، ولا تتخلّف عن حاجة تُعرضُ لك، فشكرته وانصرفت، فلما هممتُ بالخروج من الباب استردّني وأنشدني بديها: مجزوء الكامل:

ورثي لطول تحرّفي

رقّ الزمان لفاقتي

وأجار ممّا أنقي

وأنا لني ما أرتجي

ر من الذنوب السبّقي

فلأغفرن له الكثي

فعل المشيب بمفرقي

إلا جنائيته التي

قال بعضُ العلماء: العقول لها صُورٌ مثلُ صورِ الأجسام، فإذا أنْتَ لم تسلكِ بها سبيلَ الأدبِ حارَتْ وضلّت، وإن بعثتها في أوْديتها كلت ومَلّت، فاسلكِ بعقلك شِعَابَ المعاني والفهم، واستبقيهِ بالجِمام للعلم، وارْتدّ لعقلك أَفْضَلَ طبقاتِ الأدب، وتوقّ عليه آفةَ العَطَب؛ فإنَّ العقلَ شاهدُك على الفضل، وحارسُك من الجهل.

واعلم أن مغارسَ العقول كمغارسِ الأشجار؛ فإذا طابت بِقاعِ الأرض للشجر زكا ثمرُها، وإذا كُرِمتْ النفوسُ للعقول طاب خَيْرُها، فاغمرْ نفسك بالكرم، تسلمْ من الآفةِ والسقم.

واعلم أنَّ العقلَ الحسن في النفسِ اللّيمة، بمنزلةِ الشجرةِ الكرّيمة في الأرضِ الذميمة، ينتفع بثمرها على حَبْثِ المغرْس؛ فاجتنِ ثمرَ العقول وإن أتاك من لئامِ الأنفس. وقال النبي عليه السلام: "رب حاملٍ فقهٍ إلى مَنْ هو أوعى له". وقيل: رب حاملٍ فقهٍ غير فقيه، ورب رَمِيَةٍ من غير رام.

وقيل: الحكمةُ ضالةُ المؤمن، أينما وجدها أخذها. وسمع الشّعبيُّ الحجاجَ ابن يوسف وهو على المنبر يقول:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ، فَلَا فَنَاءَ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءُ، وَلَا بَقَاءَ لِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ، فَلَا يَغْنَرُكُمْ شَاهِدُ الدُّنْيَا عَنْ غَائِبِ الْآخِرَةِ، وَأَقْصِرُوا مِنَ الْأَمَلِ، لِقِصَرِ الْأَجَلِ. فَقَالَ: كَلَامُ حِكْمَةٍ خَرَجَ مِنْ قَلْبِ خَرَّابٍ! وَأَخْرَجَ الْوَاهِدَ فَكَتَبَ.

وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ.

وَقَدْ سَمِعَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ هِشَامٍ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنِيرِ وَيَقُولُ: إِنَّ يَوْمًا أَشَابَ الصَّغِيرَ، وَأَسْكَرَ الْكَبِيرَ، لِيَوْمٍ شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ!

وصف الكتب

قَالَ الْجَاهِظُ: الْكِتَابُ وَعَاءٌ مُلِئَ عِلْمًا، وَظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفًا، وَبُسْتَانٌ يُحْمَلُ فِي رُذْنٍ، وَرَوْضَةٌ تَقْلَبُ فِي حِجْرٍ، يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيُتَرَجِّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ.

وَقَالَ: مَنْ صَنَفَ كِتَابًا فَقَدْ اسْتَهْدَفَ؛ فَإِنْ أَحْسَنَ فَقَدْ اسْتَعْطَفَ، وَإِنْ أَسَاءَ فَقَدْ اسْتَقْذَفَ.

وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ جَارًا أَبَرَّ، وَلَا خَلِيطًا أَنْصَفَ، وَلَا رَفِيقًا أَطْوَعَ، وَلَا مُعَلِّمًا أَخْضَعَ، وَلَا صَاحِبًا أَظْهَرَ كِفَايَةً، وَأَقْلَ جَنَاحَةً، وَلَا أَقْلَ إِمْلَالًا وَإِبْرَامًا، وَلَا أَقْلَ خِلَافًا وَإِجْرَامًا، وَلَا أَقْلَ غِيَةً، وَلَا أَبْعَدَ مِنْ عَضِيهَةٍ، وَلَا أَكْثَرَ أَعْجُوبَةً وَتَصَرُّفًا، وَلَا أَقْلَ صِلَفًا وَتَكَلُّفًا، وَلَا أَبْعَدَ مِنْ مِرَاءٍ، وَلَا أَتَرَكَ لَشِعْبٍ، وَلَا أَزْهَدَ فِي جِدَالٍ، وَلَا أَكْفَ عَنْ قِتَالٍ، مِنْ كِتَابٍ. وَلَا أَعْلَمُ قَرِينًا أَحْسَنَ مُوَاتَاةً، وَلَا أَعْجَلَ مَكَافَاةً، وَلَا أَحْضَرَ مَعُونَةً، وَلَا أَقْلَ مَوْوَنَةً، وَلَا شَجَرَةً أَطْوَلَ عَمْرًا، وَلَا أَجْمَعَ أَمْرًا، وَلَا أَطْيَبَ ثَمَرَةً، وَلَا أَقْرَبَ مُجْتَنًى، وَلَا أَسْرَعَ إِدْرَاكًا فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَلَا أَوْجَدَ فِي غَيْرِ أَبَانٍ، مِنْ كِتَابٍ. وَلَا أَعْلَمُ نَتَاجًا فِي حَدَاثَةِ سَنَةٍ، وَقَرَبَ مِيلَادِهِ، وَرَخِصَ ثَمَنَهُ، وَإِمَكَانَ وَجُودِهِ، يَجْمَعُ مِنَ التَّدَابِيرِ الْحَسَنَةِ، وَالْعُلُومِ الْغَرِيبَةِ، وَمِنْ آثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ، وَمَحْمُودِ الْأَخْبَارِ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَالْبِلَادِ الْمُتَرَاخِيَةِ، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ، وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ مَا يَجْمَعُ الْكِتَابُ.

وَدَخَلَ الرَّشِيدُ عَلَى الْمَأْمُونِ، وَهُوَ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: كِتَابٌ يَشْحَذُ الْفِكْرَةَ، وَيُحَسِّنُ الْعِشْرَةَ. فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مَنْ يَرَى بَعَيْنَ قَلْبِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَرَى بَعَيْنَ جَسَمِهِ.

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ: مَا بَلَغَ مِنْ سُرُورِكَ بِأَدَبِكَ وَكُتُبِكَ؟ فَقَالَ: هِيَ إِنْ خَلَوَتْ لَدُنِّي، وَإِنْ اهْتَمَمْتُ سَلَوَتِي، وَإِنْ قَلَّتْ: إِنَّ زَهَرَ الْبُسْتَانِ، وَنُورَ الْجَنَانِ، يَجْلُوَانِ الْأَبْصَارَ، وَيَمْتَعَانِ بِحُسْنِهِمَا الْأَلْحَاطَ؛ فَإِنْ بَسْتَانِ الْكُتُبَ يَجْلُو الْعَقْلَ، وَيَشْحَذُ الذِّهْنَ، وَيُحْيِي الْقَلْبَ، وَيَقْوِي الْقَرِيحَةَ، وَيُعِينُ الطَّبِيعَةَ، وَيَنْتِجُ نَتَائِجَ الْعُقُولِ، وَيَسْتَشِيرُ دِفَائِنَ الْقُلُوبِ، وَيُمْتَنِعُ فِي الْخُلُوعِ، وَيُؤْنَسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَيُضْحِكُ بِنَوَادِرِهِ، وَيُسِرُّ بِغَرَائِبِهِ،

ويفيد ولا يستفيد، ويُعطي ولا يأخذ، وتصل لذته إلى القلب، من غير سامة تدركك، ولا مشقة تعرض لك.

وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

وللسرمني موضع لا يناله	نديم، ولا يفضي إليه شراب
وللخود مني ساعة، ثم بيننا	فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا غرة وطماعة	يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية	وغير بناني للرخاخ ركاب
تركنا لأطراف القنا كل لذة	فليس لنا إلا بهن لعب
نصرفه للطعن فوق سوابح	قد انقصت فيهن منه كعاب
أعز مكان في الدنيا سرج سابح	وخير جليس في الزمان كتاب

فقر في الكتب

إنفاق الفضّة على كتب الآداب، يُخلفك عليه ذهب الألباب. إن هذه الآداب شوارد، فاجعلوا الكتب لها أزيمة. كتاب الرجل عنوان عقله، ولسان فضله. ابن المعتز: من قرأ سطرًا من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتبه؛ لأن الخط يُحرز ما تحته. بزرجمهر: الكتب أصداف الحكم، تنشق عن جواهر الكلم. بعض الكتاب: إعجام الخط يمنع من استعجابه، وشكله يؤمن من إشكاله. كأن هذا الكاتب نحّا إلى قول أبي تمام: الطويل:

تري الحادث المستعجم الخطب معجماً	لديه، ومشكولاً إذا كان مُشكلاً
ما كتب قر، وما حُفظ فر. الخطوط المعجمة، كالبرود المعلمة.	
وقال ابن المعتز يصف كتاباً: الوافر:	
وذي نكت موشى نمقته	وحاكته الأنامل أي حوكت
بشكل يرفع الإشكال عنه	كأن سطورَه أغصانُ شوك

جملة من ألفاظ أهل العصر في صفة الكتب

وتهاديهها، وما يتعلّق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاي تَجَلُّ عن أن يُهدى إليها غيرُ الكتب، التي لا يترفع عنها كبير، ولا يمتنع منها خطير، وقد فكّرت فيما أنفذت به مقيماً للرّسم في جملة الخدم، وحافظاً للاسم في غمار الحشم، فلم أجد إلا الرّق الذي سبق ملكه له، والمال الذي منحه وحوّله، فعدلتُ إلى الأدب الذي تنفقُ سوقه بباب سيّدنا ولا تكسّد، وتهب ريحه بجانبه ولا تركد، وأنفذت كتابي هذا راجياً أن أشرف بقبوله، ويوقع إليّ بحصوله؛ ولما وجب على ذوي الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادة بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد في إهدائه، وجب العدولُ في إقامة رسم الخدمة إلى اتباع ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهّل كلفته، وتجلّ عند ذوي الألباب قيمته، وتحلو ثمّنه: وهو علمٌ يُقتنى، وأدبٌ يُجتنى.

قال أبو الحسن ابن طباطبا العلوي: الكامل:

منك استقدنا حسنة ونظامه

لا تتكرن إهداءنا لك منطفاً

يتلو عليه وحيه وكلامه

فالله عز وجل يشكر فعل من

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون في يوم مهرجانٍ هديةً قيمتها ألف درهم، وكتب: الطويل:

وإن عظم المولى وجلت فضائله

على العبد حق فهو لا بدّ فاعله

وإن كان عنه ذا غنى وهو قابله

ألم ترنا نهدي إلى الله ما له

وقال أبو الفتح البستي: البسيط:

علومك الغر أو آدابك النقا

لا تتكرن إذا أهديت نحوك من

برسم خدمته من باغه التحفا

فقيم الباغ قد يهدي لمالكه

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى عضد الدولة في هذا المعنى: العبيد تُلَاطِف ولا تكاثر الموالى في هداياها، والموالى تُقبل الميسور منها قبولاً هو محسوبٌ في عطاياها. ولما كان - أدام الله تعالى عزّه -! مبرزاً على ملوك الأرض في الخطر الذي قصّروا عنه شديداً، والسعي الذي وقفوا منه بعيداً، والآداب التي عجزوا عن استعلامها فضلاً عن علمها، والأدوات التي نكلوا عن استفهامها فضلاً عن فهمها، وجب أن يُعدّل عن اختيارهم ما تحظى به الجسومُ البهيمية، إلى اختياره فيما تحظى به النفوسُ العلية، وعما ينفق في سوقهم العامة، إلى ما ينفق في سوقه الخاصة، أفراداً لرُبّتته العُليا، وغاياته القصوى، وتمييزاً له عمن لا يجري معه في هذا المضمار، ولا يتعلقُ منه بالعُبار: وقد حملت إلى خزانة - عمرها الله! - شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم، فإن رأى مولانا أن يتطوّل على عبده بالإذن في عرض ذلك عليه مُشرفاً له وزائداً في إحسانه إليه فعَلْ إن شاء الله تعالى.

وأهدى أبو الطيب المتنبي إلى أبي الفضل بن العميد في يوم نوروز قصيدة مدحه فيها، يقول في آخرها:
الخفيف:

كثُرَ الْفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِي كَمَا تَه
وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ وَالْخِي
فَبِعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مَهَارًا
فَارْتَبَطُهَا فَإِنْ قَلْبًا نَمَاهَا
دي إلى ربها الرئيس عبادُه
لَ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهُ
كُلُّ مُهْرٍ مِيدَانُهُ إِنْشَادُهُ
مَرَبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهُ

وفي هذه الكلمة يقول وقد احتفل فيها، واجتهد في تجويد ألفاظها ومعانيها، فعقّب عليه أبو الفضل في
مواضع وقف عليها فقال: الخفيف:

هَلْ لُعْذِرِي إِلَى الْهُمَامِ أَبِي الْفَض
أَنَا مِنْ شِدَّةِ الْحَيَاءِ عَلِيلٌ
مَا كَفَانِي تَقْصِيرُ مَا قُلْتُ فِيهِ
مَا تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَى كَأَبِي الْفَض
عَمَرْتَنِي فَوَائِدَ شَاءَ مِنْهَا
مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ الْعَطَايَا
وقد كان مدحه بقصيدته التي أولها: الكامل:
بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتُ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا
وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
لَ قَبُولٌ سَوَادٌ عَيْنِي مَدَادُهُ؟
مَكْرُمَاتُ الْمُعْلَةِ عَوَادُهُ
عَنْ عَلَاهُ حَتَّى ثَنَاهُ انْتِقَادُهُ
لَ، وَهَذَا الَّذِي آتَاهُ اعْتِيَادُهُ
أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مِمَّا أَفَادُهُ
فَاشْتَهَى أَنْ يَكُونَ مِنْهَا فَوَادُهُ

وفيها معانٍ مخترعة، وأبيات مبتدعة، يقول فيها: الكامل:

مَنْ مُبْلَغُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا
وَمَلَلْتُ نَحَرَ عِشَارِهَا فَأُضَافَنِي
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كُتُبِهِ
وَرَأَيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا
جَالَسْتُ رَسْطَالِيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا
مَنْ يَنْحَرُ الْبَدْرَ النَّضَارَ لَمَنْ قَرَى
مُتَمَلِّكًا مُتَبَدِّيًا مُتَحَضِّرَا
رَدَّ الْإِلَهِ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا
وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتُ مُؤَخَّرَا
نُسِقُوا لَنَا نَسِيقَ الْحِسَابِ مَقْدَمًا
وَفِيهَا يَقُولُ:

فَدَعَاكَ حُسْدَكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا
وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَا

خَلَفَتْ صِفَاتُكَ فِي الْعَيُونِ كَلَامَهُ

كَالْخَطِّ يَمْلَأُ مِسْمَعِي مِنْ أَبْصَرَا

أخذه من قول الطائي يصف قصائده: الطويل:

بِقُرْبٍ يَرَاهَا مَنْ يَرَاهَا بِسَمْعِهِ

وَيَذْنُو إِلَيْهَا ذُو الْحَجَا وَهُوَ شَاسِعُ

نموذج في وصف الكتب

كتاب كَتَبَ لي أماناً من الدَّهر، وهَنائي في أيام العمر. كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد. كتاب النظر فيه نعيم مقيم، والظفرُ به فتح عظيم. كتاب ارتحت لعيانه، واهتزت لعُنوانه. كتاب هو من الكتب الميامين، التي تأتي من قبل اليمين. كتاب عدده من حجول العُمرِ وغُرره، واعتدته من فُرص العيش وغُرره. كتاب هو أنفُس طالع، وأكرم متطلع، وأحسن واقع، وأجلُّ متوقع. كتاب لو قُرئ على الحجارَةِ لَانْفَجَرَتْ، أو على الكواكب لانتشرت. كتاب كِدْتُ أُبْلِيه طَيِّباً ونشراً، وقبْلَتُهُ أَلْفاً، وَيَدَ حامله عشراً. كتاب نسيْتُ لحسنه الرَوْضَ والزَّهر؛ وغفرتُ للزمان ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. كتاب أُمْلِيَتِهِ هِزَّةُ المجدِ على بنانك، ونطقَ به لسانُ الفضلِ عن لسانك. أنا أَلْتَقِطُ من كلِّ حَرْفٍ تُدِيرُهُ أناملُك تُحفة، وأخذ من كل سطرٍ تتجشَّمُ تخطيطَه نزهة. إذا قرأت من خطك حَرْفاً، وجدتُ على قلبي خِفّاً، وإذا تأملت من كلامك لفظاً، ازددت من أنسي حظاً. كتاب كَتَبَ لي أماناً من الزمان، وتوقيعٌ وقعَ مِنِّي مَوْقِعَ الماءِ من العطشان. كتاب هو تَعَلُّهُ المسافر، وأنسَةُ المستوحش، وزبدة الوصال، وعُقْلُهُ المستوفز. كتاب هو رُقِيَةُ القلبِ السليم، وغرة العيش البهيم، كتاب هو سَمَرٌ بلا سَهَر، وصَفْوٌ بلا كَدَر. كتاب تمتعت منه بالنعيم الأبيض، والعيش الأخضر، واستلمته استلام الحجر الأسود، ووكلتُ طرفي من سَطُورِهِ بوشني مُهلَّل، وتاج مُكَلَّل، وأودَعْتُ سمعي من محاسنه من أنساني سماعَ الأغاني من مطربات الغواني. نشأت سَحَابَةً من لفظك، غِيَمُهَا نِعْمَةٌ سَابِغَةٌ، وَغِيْثُهَا حِكْمَةٌ بِالْغَةِ، سَقَتْ رَوْضَةَ القلب، وقد أجهدتها يَدُ الجَدْبِ؛ فاهتزت وَرَبَّتْ، واكتست ما اكتسبت. كتاب حسبته ساقطاً إليّ من السماء، اهتزأزاً لمطلعه، وابتهاجاً بحسن موقعه، تناولته كما يُتناول الكتابُ المرقوم، وفضضته كما يَفْضُ الرَّحِيقُ المختوم. كتاب كالمشتري شَرُفَ به المسير، وقميص يوسف جاء به البشير. كتاب هو من الحسن، رَوْضَةُ حَزَنٍ، بل جَنَّةُ عَدْنٍ، وفي شرح النفس وَبَسَطَ الأَنسُ برد الأكباد والقلوب، وقميص يوسف في أجفان يعقوب. قد أهديت إليّ محاسن الدنيا مجموعة في ورقه، ومباهج الحلَى والحلل محصورة في طبقه. كتاب أَلْصَقْتُهُ بِالْقَلْبِ والكبد، وشممته شَمَّ الولد. وَرَدَ منك المسكُ ذكياً، والزهرُ جَنِيّاً، والماءُ مَرِيّاً،

والعيش هنيئاً، والسحر بابلئاً. كتاب مَطْلَعُهُ أَهْلَةُ الأعياد، وموقعه موقع نَيْلِ المراد. كتاب وجدته قصيراً العمر، كليالي الوصال بعد الهجر، لم أبدأ به حتى استكمل، وقاربَ الآخرِ منه الأول. كتاب منتقض الأطراف، منقطع الأكتاف، أبتَرُ الجوارح، مضطرب الجوانح، كتاب كأنه توقيع متحرز، أو تعريض مُتبرز. كاد يلتقي طَرَفُهُ، ويتقارب مُفْتَتِحُهُ ومُنْتَهَاهُ. كتاب التَقَّتْ طرفاه صِغَرًا، واجتمعت حاشيتاه قِصْرًا. ما أظنني ابتدأته حتى ختمته، ولا استفتحتته حتى أتممتها، ولا لمحتة حتى استوفيتها، ولا نشرته حتى طويته، وأحسبني لو لم أجود ضبطه، ولم أُلْزِمَ يَدَيَّ حفظه، لطار حتى يختلط بالجو، فلا أرى منه إلا هباءً منثوراً، وهواءً منشوراً. كتاب حسبته يطيرُ من يدي لحفّته، ويلطف عن حسبي لقلّته، وعجبتُ كيف لم تحمله الرياحُ قبل وصوله إليّ، وكيف لم يختلط بالهواء عند وصوله لديّ. كتاب قصّ الاقتصارُ أجنحته، فلم يدع له قوادم ولا خوافي، وأخذ الاختصار جثته، فلم يبق ألفاظاً ولا معاني. طلع كتابك كيمااء بطرف، أو وحي بكفّ.

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز: استعرت من علي بن يحيى المنجم جزءاً فيه أخبار مَعْبُدٍ بخط حماد بن إسحاق الموصلي، وكان وعدني به، فبعث إليّ بستَ ورقاتٍ لطاف، فرددتها وكتبت إليه: إن كنت أردت بقولك جزءاً الجزء الذي لا يتجزأ فقد أصبت، وإن كنت أردت جزءاً فيه فائدة للقارئ، ومُتَعَةٌ للسامع، فقد أحلت: وقد ردّدتك عليك بعد أن طار اللَّحْظُ عَلَيْهِ طيرة. فأجابني: إذا كان السّفر عنْدَكَ منجاةً فما أصنع؟

في محادثة الجليس

وقال أبو العباس: دخل رجلٌ على الحسن بن سهل بعد أن تأخّر عنه أياماً، فقال: ما يَنْقُضِي يوم من عُمْرِي لا أراك فيه إلاّ علمت أنه مبتورُ القدر، منحوس الحظ، مَعْبُون الأيام. فقال الحسن: هذا لأنك توصل إليّ بحضورك سُروراً لا أجده عند غيرك، وأتَسَمُّ من أرواح عِشْرَتِكَ ما تجدُ الحواسُّ به بُعْيَتِهَا، وتستوفي منه لَذَّتِهَا، فنفسُك تألف مني مثل ما ألفه منك. وكان يقال: محادثة الرّجال تُلْقِيحُ الألباب. وقال ابن الرومي: مجزوء الكامل:

فكَأَنَّ أَطْيَبَهَا خَبِيثُ
مِثْلُ اسْمِهِ أَبَدًا حَدِيثُ

ولقد سَمِئْتُ مَآرِبِي
إِلَّا الْحَدِيثَ؛ فَإِنَّهُ

قال مخارق: لقيني أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم قبل نسكه، فقال: أنا والله صَبَّ بك، وكُوع إليك، مغمور القلب بشكرك، واللسان بذكرك، متشوّف إلى رؤيتك ومفاوضتك، وقد طالت الأيام على ما أعدت به نفسي من الاجتماع معك، ومن قضاء الوطر منك؟ فما عندك؟ أنا الفداء لك! وتزورني أم أزورك؟ قلت: جعلني الله فداك! ما يكون عند مَنْ هو منك بهذا الموضع وفي هذا المحل إلا الانقياد إلى أمرك، والسمع والطاعة لك، ولولا أن أسيء الأدب في أمر بدأت فيه بالفضل لقلت: إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل فيما عندي من الشوق إليك، والشغف بك، دون ما حرك هذا القول مني، فوجبت لك به المنة عليّ، وأنا بين يديك، فأثني عني إلى ما أردت، وقُدني كيف شئت، تجدني كما قال القائل: البسيط:

ما تشتهيهِ فإني اليوم فاعلهُ والقلب صَبَّ فما جشَّمته جشما

وذكر سهل بن هارون رجلاً، فقال: لم أر أحسن منه فهماً لجليل، ولا تفهماً لدقيق، أشار إليه أبو تمام فقال: الوافر:

وكنْتَ أعزَّ عزّاً من قنوع تعرَّضه صفوح من ملول
فصرت أدلَّ من معنى دقيقٍ به فقرَّ إلى ذهن جليل

وقال سعيد بن مسلم للمأمون: لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين من قصده إليّ بحديثه، وإشارته إليّ بطرفه؛ لقد كان في ذلك أعظم الرفعة، وأرفع ما تُوجبه الحرمة. فقال: يفعل أمير المؤمنين ذلك؛ لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت وحسن الفهم إذا حدثت ما لا يجده عند أحد ممن مضى، ولا يظن أنه يجده عند أحد ممن بقي، فإنك لتستقصي حديثي، وتقف عند مقاطع كلامي، وتُخبر بما كنت أغفلته منه.

وقال المتوكل لأبي العيناء: ما تحسن؟ قال: أفهم وأفهم.

وقال بعض الحكماء لتلميذه، وقد ضرب الموسيقى: أفهمت؟ قال: نعم، قال: بل لم تفهم، لأنني لا أرى عليك سرور الفهم! وقد قيل: مَنْ نظر إلى الربيع وأنواره، والروض وأصباغه، ولم يبتهج كان عديم حسٍّ، أو سقيم نفس.

ومرَّ أبو تمام بأيرشهر من أرض فارس، فسمع جارية تغني بالفارسية، فشأقه شجي الصوت، فقال: الوافر:

ومُسَمِّعةُ تروقُ السمعَ حسناً ولم تصممه، لا يصم صداها !
لوت أوتارها فشجت وشاقت فلو يستطيع حاسداً فداها
ولم أفهم معانيها، ولكن ورَّت كبدي فلم أجهل شداها
فكنت كأنني أعمى معنى يُحب الغانيات ولا يراها

قال أبو الفضلى أحمد بن أبي طاهر: قلت لأبي تمام: أخذت هذا المعنى من أحد؟ قال: نعم، أخذته من قول
بشار بن برد: البسيط:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم:
الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
وقال بشار أيضاً في هذا المعنى: البسيط:

قالت عليل بن كعب إذ تعلقها
قلبي فأضحى به من حبها أثر:
أنى ولم ترها تهذي! فقلت لهم:
إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر
وقال: الطويل:

يزهدني في حب عبدة معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت: دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وقد قال أبو يعقوب الخريمي في هذا المعنى، وكان قد أعور ثم عمي، وقيل: إنما للخليل بن أحمد: الكامل.

قالت أتهزأ بي غداة لقيتها؟
يا للرجال لصبوة العميان
فأجبتها: نفسي فداؤك إنما
أذني وعيني في الهوى سيان

وقريب من هذا قول الحكم بن قنبر إن لم يكن منه: البسيط:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي
يرعاك قلبي وإن غيبت عن بصري
العين تبصر من تهوى وتفقد
وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال آخر: الطويل:

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى
لئن غبت عن عيني فما غبت عن قلبي
ترينيك عين الوهم حتى كأنني
أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم: الطويل:

لئن كان عن عيني أحمد غائباً
لله صورة في القلب لم يقصها النوى
فما هو عن عين الضمير بغائب
ولم تتخطفها أكف النوائب
إذا ساءني منه شحوط مزاره
وضاقت بقلبي في نواه مذاهبي

مَحَلَّتُهُ بَيْنَ الْحَشَا وَالتَّرَائِبِ

عَطَفْتُ عَلَى شَخْصٍ لَهُ غَيْرُ نَازِحٍ

وذكر أبو عبيدة كيسان مستمليه في بعض الأمر، فقال: ما فهِمَ، ولو فهم لَوهِمَ. وكان كيسان يوصف بالبلادة والغفلة.

قال الجاحظ: كان يكتبُ غيرَ ما يسمع، ويستقني غيرَ ما يكتب، ويقرأ غيرَ ما يستقني، ويُملِي غيرَ ما يقرأ، أملت عليه يوماً: مجزوء الوافر:

بمعتمر أبا عمرٍ

عجبتُ لمعشرٍ عدلوا

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستقني أبا زيد.

قال أبو عباد: للمحدث على جلسه، السامع لحديثه، أن يَجْمَعَ له باله، ويُصْغِي إلى حديثه، ويحكم عليه سرِّه، ويسيطر له عذره.

وقال: ينبغي للمحدث إذا أنكر عين السامع أن يستفهمه عن معنى حديثه، فإن وجده قد أخْلَصَ له الاستماع أتمَّ له الحديث، وإن كان لاهياً عنه حرمه حُسْنُ الإقبال عليه، ونَفَعَ الموانسة له، وعرفه بسوء الاستماع والتقصير في حق المحدث.

وقال: نَشَاطُ المحدث على قَدْرِ فهم المستمع.

وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه! - يقول: حَدَّثَ النَّاسَ ما حَدَّثُوكَ بِأَسْمَاعِهِمْ، ولَحْظُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، فإذا رأيت منهم فتوراً فأمسك.

وقال أبو الفتح البستي: الوافر:

وحفظي والبلاغة والبيان

إذا أَحْسَسْتَ فِي لَفْظِي فَتَوَرَّأ

على مقدار إيقاع الزَّمانِ

فلا تَرْتَبْ بِفَهْمِي إِنَّ رَفْصِي

وقال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجَاوِزِ الآذان.

وقال الحسن - وقد سمع متكلماً يَعِظُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَتُهُ من قَلْبِهِ ولم يرق لها - : يا هذا، إن بقلبك لشرًّا، أو بقلبي! وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريته: - كيف ترين ما أعْظُ الناس به؟ قالت: هو حَسَنٌ، إلَّا أنك تكررُه، قال: إنما أكرره ليفهمه مَنْ لم يكن فَهْمُهُ، قالت: إلى أن يفهمه البطيء يَثْقُلُ على سَمْعِ الذكي.

وأستعيد ابنُ عباس حديثاً فقال: لولا أي أخافُ أن أغْضَ من بهائِه، وأُريق من مائه، وأُخْلِقَ من جدِّه،

لأعدته.

وقال أبو تمام الطائي يصف قصائده: الوافر:

مُنْزَهَةٌ عَنِ السَّرْقِ الْمُؤَدَّى

مَكْرَمَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الْمَعَادِ

أخذه البحري فقال: مجزوء الكامل:

لَا يُعْمَلُ اللَّفْظُ الْمَكْ

رَرَ فِيهِ وَاللَّفْظُ الْمُرَدَّدُ

والإطالة مملولة كما يملُّ التكرير.

وقد قال الحسن بن سهل: الآداب عشرة؛ فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربتٌ عليهن؛ فأما الشهرجانية فضربُ العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصَّوَالج. وأما الأنوشروانية فالطب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشعر، والنَّسب، وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربتُ عليهنَّ، فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناسُ بينهم في المجالس. وكان يُقال: خُذْ مِنَ الْعُلُومِ نَتْفَهَا، وَمِنَ الْآدَابِ طَرْفَهَا.

وكان يقال: مقطعات الأدب، قراضات الذهب.

وحضر بشار بن بُرْدٍ مجلساً فقال: لا تجعلوا مجلسنا غناء كله، ولا شعراً كله، ولا سَمَراً كله، ولكن انتهوه انتهاباً.

وقال الحسن رحمه الله: حادثوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدُّبُورِ، وأقْدَعُوا هذه الأنفسَ فإنها طُلُعة؛ وإنكم إلا تَزْعُوهَا تترعَ بكم إلى شرِّ غاية.

وقال أزدشير بن بابك: إن للأذهان كَلالاً، وللقلوب ملالاً، ففرّقوا بين الحكمتين يكن ذلك استحماماً. ويروى في حكمة آل داود: لا ينبغي للعاقل أن يُخْلِي نفسه من أربع؛ عدّة لِمَعَادِهِ، وصَلاحٌ لِمَعَاشِهِ، وَفِكْرٌ يَقِفُ بِهِ عَلَى مَا يُصْلِحُهُ من فساده، ولذة في غير مُحَرَّم يستعينُ به على الحالات الثلاث. وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم: الرمل:

عَجَبِي مِمَّنْ تَنَاهَتْ حَالُهُ

وَكَفَاهُ اللَّهُ ذِلَاتِ الطَّلَبِ

كَيْفَ لَا يَقْسِمُ شَطْرِي عَمْرِهِ

بَيْنَ حَالَيْنِ نَعِيمٍ وَأَدَبٍ؟

سَاعَةً يُمْتَعُ فِيهَا نَفْسُهُ

مِنْ غِذَاءٍ وَشَرَابٍ مُنْتَخَبِ

وَدُنُو مِنْ دُمَى هُنَّ لَهُ

حِينَ يَشْتَاقُ إِلَى اللَّعْبِ لُعْبِ

فَإِذَا مَا نَالَ مِنْ ذَا حَظِّهِ

فَحَدِيثٍ وَنَشِيدٍ وَكُتُبِ

فإذا ما غسقَ الليل انتصب

وقضى لله ليلاً ما وجب

دَهْرُهُ يَسْعَدُ وَيَرْشُدُ وَيُصِبُ

مرة جد، وأخرى راحة

فقضى الدنيا نهاراً حقها

تلك أقسامٌ متى يَعْمَلُ بها

وقال أبو العباس محمد بن يزيد: قَسَمَ كسرى أيامه فقال: يَصْلُحُ يَوْمُ الرِّيحِ للنوم، ويوم الغَيْمِ للصيد، ويومُ المَطَرِ للشرب واللَّهُو، ويوم الشمس لقضاء الحوائج.

قال الحسين ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهُمْ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون، ولكن نبينا، صلى الله عليه وسلم، قد جَزَأَ نهاره ثلاثة أجزاء: جُزْءٌ لله، وجُزْءٌ لأهله، وجُزْءٌ لنفسه، ثم جُزْءٌ جزأه بينه وبينَ الناس؛ فكان يستعين بالخاصة على العامة، وكان يقول: أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي؛ فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها آمنه الله تعالى يَوْمَ الفَزَعِ الأكبر.

رجع إلى البلاغة

وقال شبيب بن شيبه: إن ابْتُليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة فقدم إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخَطَلِ، قبل التقدّم من إحكام البلوغ في شَرَفِ التَّجْوِيدِ؛ ثم إياك أن تُعَدِلَ بالسلامة شيئاً، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف.

وكان جعفر بن يحيى يقول لكتابه: إن اسْتَطَعْتُمْ أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا.

وقال ثمامة بن أشرس: لم أَرَقَطْ أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد، وكان صاحبَ إيجازٍ.

وكان أبو وائلة إياس بن معاوية - على تقدمه في البلاغة، وفضل عقله وعلمه - بالإكثار مَعِيّاً، وإلى

التطويل مَنسوباً، وقال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا

أشتهي أن أسمع. وقيل له: ما فيك عيبٌ إلا كثرة كلامك. قال: أفتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل

صواباً، قال: فالزيادة في الخير خير.

قال الجاحظ: وليس كما قال، بل للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضَّلَ عن مقدار الاحتمال،

ودعا إلى الاستتقال والكَلال؛ فذلك هو الفضل والمُحَدَّرُ والخَطَلُ والإسهاب الذي سَمِعْتُ الخطباء يعيرونه.

وذكر الأصمعي أن ابن هبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إني والله لا أصلح له، قال: وكيف ذلك؟

قال: لأنني دميم حديد، ولأني عبيّ، قال ابن هبيرة: أما الحدة فإن السوط يُقَوِّمُك؛ وأما العبيّ فقد عَبَّرَتْ

عما تريد؛ وأما الله الدِّمَامَةُ فإني لا أريد أن أحاس بك.

و لم يصفه أحد بالعيّ، وإنما كان يُعَابُ بالإكثار، ولكنه أراد المدافعة عن نفسه والحديث ذو شجون.
قال أبو العيّن، ذُكِرْتُ لبعض القِيَانِ فعشّقني على السماع، فلمّا رأيْتني استقبحتني، فقلت: الطويل:

وقالت: قبيحٌ أحولُ ما له جسمٌ

وشاطرةٌ لما رأيْتني تتكرّرتُ

أديبٌ أريبٌ لا عيّي ولا فدمٌ

فإن تتكرري مني احولاً لا فإنني

فاتصل بها الشعر، فكتبتُ إلي: إنّنا لم نرد أن نُؤليكَ ديوانَ الزمام! وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدي بن أرطاة: إن قبلك رجُلَيْن من مزينة - يعني بكر بن عبد الله، وإياس بن معاوية - فَوَلِّ أَحَدَهُمَا قِضَاءَ البَصْرَةِ؛ فأحضرهما، فقال بكر: والله ما أحسن القضاء؛ فإن كنتُ صادقاً فما تحلّ تؤليتي، وإن كنتُ كاذباً فذلك أوجبُ لتركّي، فقال إياس: إنكم وقفتُموه على شفير جهنّم، فافتدى منها بيمينٍ يكفرها، ويستغفرُ الله تعالى منها، فقال له عدي: أما إذ اهتديت لها فأنت أحقُّ بها، فولّاه. ودخل إياس الشام وهو غلام صغير، فقدم خصماً له إلى بعض القضاة، وكان الخصمُ شيخاً، فصال عليه إياس بالكلام، فقال له القاضي: خفّض عليك، فإنه شيخ كبير، قال: الحقُّ أكبرُ منه، قال: اسكت! قال: فمن ينطقُ بحجتي؟ قال: ما أراك تقولُ حقاً، قال: لا إله إلا الله! فدخل القاضي على عبد الملك فأخبره؛ فقال: أفضِ حاجته الساعةَ وأخرجه من الشام لا يُفسدِ أهلها! وقال أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندي: كنتُ يوماً عند العباس بن خالد، وكان ممن حبّب الله إليه أن يتحدث، فأخذ يحدثني، ويتنقلُ من حديث إلى حديث، وكنا في صحنٍ له، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر، حتى صار الظلُّ فيئاً؛ فلما أكثر وأضجر، ومللتُ حسنَ الأدبِ في حسنِ الاستماع، وذكرت قول الأوزاعي: إن حسنَ الاستماع قوة للمحدث، قلت له: إذا كنتُ وأنا أسمع قد عيّتُ ممّا لا كلفةَ عليّ فيه، فكيف أراك وأنت المتكلم؟ فقال: إنّ الكلامَ يحلُّ الفضولَ اللزجة الغليظة التي تعرض في اللّهوات وأصل اللسان ومنابت الأسنان، فوثبتُ وقلت: لا أراي معك اليوم إلا إيارج الفيقرا، فأنت تتعرّغ بي! فاجتهد في أن أجلسَ فلم أفعل.

قال أحمد بن الطيب: كنا مرةً عند بعض إخواننا، فتكلّم وأعجبه من نفسه البيان، ومنا حسنُ الاستماع، حتى أفرط، فعرض لبعض من حضر ملل، فقال: إذا بارك الله في الشيء لم يقن، وقد جعل الله تعالى في حديث أخينا البركة! ولعبد الله بن سالم الخياط في رجل كثير الكلام: المنسرح:

يزيدُ عند السكون والحركة

لي صاحبٌ في حديثه البركة

لردها بالحروف مُشتبكة

لو قال لا في قليل أحرفها

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع، وسيمر من كلامه ما هو آتق من زهر الربيع.

في الظرف والملح والمزاح

قال الأصمعي: بالعلم وصلنا، وبالمَلَح نلنا، وقال الأصمعي أيضاً: أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة، وكان أعقل من رأيته: السريع:

يا أيُّها السائلُ عن مَنْزِلِي نزلتُ في الخانِ على نَفْسِي
يغدو عليّ الخُبْزُ من خابِزٍ لا يقبل الرّهْن ولا ينسِي
أَكُلُ مِنْ كَيْسِي وَمِنْ كَسْرَتِي حتّى لقد أوجعني ضِرْسِي

فقال: اكتب لي هذه الأبيات، فقلت: أصلحك الله! هذا لا يُشْبِهُ مثلك، وإنما يروى مثل هذا الأحداث؛ فقال: اكتبها فالأشراف تُعْجِبُهُم المَلَح.

وقد قال أبو الدرداء رحمه الله تعالى: إني لأستجِمُ نفسي ببعض الباطل، ليكون أقوى لها على الحق. وقال ابن مسعود رحمه الله: القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاطلبوا لها طرائف الحكمة. وقال ابن الماجشون: لقد كنّا بالمدينة وإن الرجل ليحدّثني بالحديث من الفقه فيمليه عليّ، ويذكر الخبر من المَلَح فاستعيده فلا يفعل، ويقول: لا أعطيك مُلَحِي، وأهْبِك ظَرْفِي وأدي. وقال ابن الماجشون: إني لأسمع بالكلمة المليحة وما لي إلا قميصٌ واحدة فأدفعه إلى صاحبها، وأستكسي الله عز وجلّ.

وقال الزبير بن بكار؛ روي الغاصري يُنازع أشعَبَ الطمَع عند بعض الوُلاة، ويقول: أصلح الله الأمير! إنّ هذا يَدْخُلُ عليّ في صناعتي، ويطلبُ مشاركتي في بضاعتي، وهيأته هِياةً قاض، والأمير يضحك، وكانا جميعاً فرسيّ رهان ورضيعيّ لبان في يَياهما؛ إلّا أنّ الغاصري كان لا يتخلّق بالطمَع بتخلّق أشعَب.

وأتى الغاصري يوماً الحسن بن زيد فقال: جُعِلَتْ فِدَاكَ! إني عصيت الله ورسوله، قال: بئس ما صنعت! وكيف ذلك. قال: لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يُفْلِحُ قومٌ وَلُوا أمرهم امرأة"، وأنا أطعتُ امرأتي، فاشتريتُ غلاماً فهرب.

قال الحسن: فاختَرْتُ واحدةً من ثلاث: إن شئتَ فتمنُ الغلام، قال: بأيّ أنت! قِفْ عند هذه ولا تتجاوزها! قال: أعرضُ عليك الخصلتين، قال: لا، حَسْبِي هذه. وقد روي نحو هذا عن أشعَب، أنه قال له بعض إخوانه: لو صرتَ إليّ العشيّة نتفرج؟ قال: أخاف أن

يحيىء ثقيل، قلت: ليس معنا ثالث، فمضى معي، فلما صلينا الظهر ودعوت بالطعام، فإذا بداق يدق الباب، قال: ترى أن قد صرنا إلى ما نكره، قلت له: إنه صديق، وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهم لم آذن له، قال: هات، قلت: أولها أنه لا يأكل ولا يشرب، فقال: التسع لك! قل له يدخل! ورأى سفيان الثوري الغاضري وهو يضحك الناس؛ فقال: يا شيخ، أو ما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ فوجم الغاضري، وما زال ذاك يُعرف فيه حتى لقي الله عز وجل.

وأشعب الطمع هو أشعب بن جبير، مولى عبد الله بن الزبير، وكان أحلى الناس، قال الزبير بن أبي بكر: كان أهل المدينة يقولون: تغير كل شيء إلا ملح أشعب، وخبز أبي الغيث، ومشية برّة؛ وكان أبو الغيث يعالج الخبز بالمدينة، وبرّة بنت سعيد بن الأسود كانت من أحمل النساء وأحسنهن مشيةً، وأشعب يضرب به المثل في الطمع، وكان أشعب قد نشأ في حجر عائشة بنت عثمان - رحمه الله! - مع أبي الزناد قال أشعب: فلم يزل يعلو وأنخط حتى بلغنا الغاية.

وقال أشعب: أسلمتني أُمي إلى برّاز، فسألتني بعد سنة، أين بلغت؟ فقلت: في نصف العمل، قالت: وكيف؟ قلت: تعلمت النثر وبقي الطي، قالت: أنت لا تفلح. وسألته صديقة له خاتماً، فقالت: أذكرك به، قال: أذكرك أنك سألتني ومنعتك! وقيل له: كم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر؟ قال: ثلاثمائة عشر درهماً! ثم تنسك في آخر عمره، وغزاً ومات على خير، رحمه الله تعالى! وقيل لأشعب: أرايت أطمع منك؟ قال: نعم، كلبه آل فلان، رأيت رجلين يَمْضُغان علكاً، فتبعتهما فرسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً. وأهدى رجل من ولد عامر بن لؤي إلى إسماعيل الأعرج قالودجة وأشعب حاضر، فقال: كُل يا أشعب، فأكل منها؛ فقال: كيف تراها. فقال: عليه الطلاق إن لم تكن عُمِلت قبل أن يُوحى ريك إلى النحل أي: ليس فيها حلاوة.

وروى أبو هفان قال: دخل أبو نواس الحسن بن هانئ على يحيى بن خالد فقال: أنشدني بعض ما قلت، فأنشده: الكامل

ويزيد في علمي حكاية من حكى

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه

كيما أحدث من أحب فيضحكا

أنتبغ الطرفاء أكتب عنهم

فقال له يحيى بن خالد: إن أول زندك ليوري بأول قدحة، فقال ارتجالاً في معنى قول يحيى: الكامل

إنه زند إذا استوريت سهل قدحكا

أما وزند أبي علي

قد صاغ جدك للسماح ومنحكا

إن الإله لعلمه بعباده

تَأبَى الصَّنَاعَ هَمَّتِي وَقَرِيحَتِي

مِنْ أَهْلِهَا وَتَعَاَفُ إِلَّا مَدْحَكَا

ووصف أبو عبد الله الجمار أبا نواس فقال: كان أطرفَ النَّاسِ منطقاً، وأغزَرهم أدباً، وأقدرهم على الكلام، وأسرعهم جواباً، وأكثرهم حياءً، وكان أبيضَ اللونِ، جميلَ الوجهِ، مليحَ النعمة والإشارة، ملتفَّ الأعضاء، بين الطويلِ والقصير، مَسْنُونُ الوجهِ، قائمُ الأنفِ، حسنُ العينين والمَضْحَكِ، حُلُو الصورة، لطيفَ الكَفِّ والأطرافِ؛ وكان فصيحَ اللسان، جيِّدَ البيان، عَذْبُ الألفاظ، حُلُو الشمائل، كثيرُ النوادر، وأَعْلَمَ الناس كيف تكلمت العربُ، رَأَوِيَةً للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعرٌ موزون. وأقبل أبو شراعة العبسي، والجمازُ في حديثه، وكان أقبحَ الناسِ وجهاً، وكانت يدُ أبي شراعة كأنها كَرَبَةٌ نَخْل؛ فقال الجمار: فلو كانت أطرافه على أبي شراعة لَتَمَّ حُسْنُهُ؛ فَعَضِبَ أبو شراعة وانصرفَ يَشْتُمُهُ.

والجماز هو: أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر، وكانوا يَزْعُمُونَ أنهم من حِمِيرٍ، نَالَهُمْ سِبَاءٌ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، رضي الله عنه، وهم مَوَالِيهِ، وَسَلَّم الخاسر عمُّه، وكان الجمار من أَحْلَى الناسِ حكاية، وأكثرهم نادرة.

قال بعض جلساء المتوكل: كُنَّا نَكْثِرُ عِنْدَ المتوكل ذِكْرَ الجمار حتى اشتاقه، فكتبَ في حَمَلِهِ إليه، فلما دخل أُفْحِمَ، فقال له المتوكل: تكلمْ فَإِنِّي أريدُ أن أَسْتَبْرِئَكَ، فقال: بِحِيْضَةٍ أو بِحِيْضَتَيْنِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال له الفتح: قد كَلَّمْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُؤَلِّيكَ على القروود والكلاب! قال: أَفَلَسْتَ سَامِعاً مطيعاً؟ فضحك المتوكل وأمر له بِعَشْرَةِ آلاف درهم.

وكان لا يُدْخِلُ بَيْتَهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ لَضِيقِهِ؛ فدعا ثلاثةً، فجاءه سِتَّةٌ، وَقَرَعُوا الباب، ووقفوا على رِجْلِ رَجُلٍ فَعَدَّ أَرْجُلَهُمْ مِنْ خَلْفِ الباب، فَلَمَّا حَصَلُوا عنده، قال: اخرجُوا عني، فَإِنَّمَا دَعَوْتُ نَاساً وَلَمْ أَدْعُ كَرَائِي.

وقال الطائي في عمرو بن طوق التغلبي: الكامل

الْجَدُّ شَيْمَتُهُ، وَفِيهِ فَكَاهَةٌ

سَجَحٌ وَلَا جِدٌّ لِمَنْ لَمْ يَلْعَبِ

شَرِسٌ، وَيَتَّبِعُ ذَاكَ لَيْنُ خَلِيقَةٍ

لَا خَيْرَ فِي الصَّهْبَاءِ مَا لَمْ تَقْطَبِ

وقال في الحسن بن وهب: الكامل:

لِلَّهِ أَيَّامٌ خَطَبْنَا لِيْنَهَا

فِي ظِلِّهِ بِالْخَنْدَرِيسِ السَّلْسَلِ

بِمَدَامَةٍ نَغَمَ السَّمَاعُ خَفِيرُهَا

لَا خَيْرَ فِي الْمَعْلُولِ غَيْرَ مَعْلَلِ

يَخْشَى عَلَيْهَا وَهُوَ يَجْلُو مُقَلَّتِي

بَازٍ، وَيَغْفُلُ وَهُوَ غَيْرُ مُغْفَلِ

لا طائشٌ تهفُّو خلائقه، ولا

خَشِنُ الوقارِ كأنه في محفلٍ

فكه يجمُ الجدُّ أحياناً، وقد

يُنْضَى ويُهْزَلُ عَيْشٌ مَنْ لم يهْزَلِ

وقال فيه: الكامل:

ولقد رأيتك والكلامُ لآلئُ

تُومُ فَبَكَرَ في النَّظَامِ وثِيبُ

وكان قسّاً في عكاظٍ يخطُبُ

وابن المقفع في اليتيمة يُسْهَبُ

وكان ليلَى الأخيلية تتدبُّ

وكثيرَ عِزَّةٍ يَوْمَ بَيْنِ يَنْسَبُ

يَكْسُو الوقارَ ويستخف موقراً

طَوْرًا فَيُنْكِي سامعيه ويُطْرَبُ

وقال أبو الفتح البستي: الطويل:

أَفَدِ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالهم رَاحَةً

بِرَاحٍ، وعلَّله بشيءٍ مِنَ المَرْحِ

لَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ المَرْحُ فَلْيَكُنْ

بمقدارٍ ما نُعْطِي الطعامَ مِنَ المِلْحِ

وما زال الأشراف يمزحون ويسمحون بما لا يَقْدَحُ في أديانهم، ولا يغضُّ في مُرُوءَاتِهِمْ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بالحنيفية السمحة".

وقال: "إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً".

وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً من أهل العراق لا يروْنَ إنشادَ الشعر، فقال: لقد نَسَكُوا نُسْكَاً أعْجَمِيّاً.

وقيل لابن سيرين: إن قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء، فأنشد: الطويل

لقد أَصْبَحَتْ عِرْسُ الفرزدقِ نَاشِراً

ولو رَضِيت رَشَحَ آسَتِهِ لاسْتَقَرَّتْ

وقام يصلي! وقيل: بل أنشد: البسيط

أُنْبِئْتُ أَنَّ عَجُوزاً جِئْتُ أُخْطِبُهَا

عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ

ما قيل في النسيب والغزل

وقيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحداً لا يَشْتَهِي النسيب؟. فقال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا.

وروى مصعب بن عبد الله الزبيري عن عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيري قال: كان عروة بن أذينة

نازلاً في دار أبي بالعقيق، فسمعه يُنْشِدُ لنفسه: الكامل

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادَكَ مَلَّهَا

خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا

فيك الذي زَعَمْتَ بها، وَكِلَاكُمَا

أَبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا

وَلَعَمْرُهَا لو كان حُبُّكَ فَوْقَهَا
فإذا وَجَدْتُ لها وَسْوَيسَ سَلْوَةٍ
يَوْماً وَقَدْ ضَحَيْتُ إِذَنْ لَأُظْلَمَهَا
شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّمَهَا
بِإِيقَةِ فَادِقَّتِهَا وَأَجَلَهَا

لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّماً، لِي حَاجَةٌ
مَنْعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي:
أَخْشَى صُعُوبَتَهَا، وَأَرْجُو ذُلَّهَا
مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَمَهَا
فَدَنَا وَقَالَ: لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ
فِي بَعْضِ رِقَبَتِهَا، فَقُلْتُ: لَعَلَّهَا

قال: فأتاني أبو السائب المخزومي فقلت له بَعْدَ التَّرحيب به: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فقال: نعم، أبياتٌ لَعُروَةٍ بلغني أنك سَمِعْتَهُ يُنْشِدُهَا، فَأَنْشَدْتَهُ الأبيات، فَلَمَّا بَلَغْتَ قَوْلَهُ:

فَدَنَا وَقَالَ لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ.. البيت

طرب، وقال: هذا والله الدائمُ الصَّبابة، الصادقُ العَهْد، لا الذي يقول: الكامل:

إِنْ كَانَ أَهْلُكَ يَمْنَعُونَكَ رَغْبَةً
عَنِي فَأَهْلِي بِي أَضْنُ وَأَرْغَبُ

لقد عدا هذا الأعرابي طَوْرَهُ، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبيات حُسْنَ الظنِّ بها، وطلب العذر لها، قال: فعرضت عليه الطعام فقال: لا والله ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل، وانصرف.

وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب، كثير الطَّرَب، وله فكاهاتٌ مذكورة، وأخبار مشهورة، وكان جدُّه يكنى أبا السائب أيضاً، وكان خليطاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم، إذا ذكره قال: نَعَمْ الخليط! كان أبو السائب لا يشاري ولا يماري.

واسمُ أبي السائب عبدُ الله، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه ويقدمونه لشرفِ منصبه، وحلاوة ظرفه.

وكان عروة بن أذينة - على زُهدِهِ، وورَعِهِ، وكثرةِ علمِهِ وفهمِهِ - رقيقَ الغزل كثيره، وهو القائل:

إذا وَجَدْتُ أَوَارَ الحُبِّ في كَبْدي
هَبْنِي بَرْدَتْ بِبَرْدِ الماءِ ظَاهِرُهُ
أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ القومِ أَبْتَرِدُ
فَمَنْ لِنَارٍ على الأحشاءِ تَتَقَدُّ؟

وقد رُوِيَ هذان البيتان لغيره.

ومرّت به سَكِينَةُ بنتُ الحسين بن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهم! - فقالت له: أئتَ الذي تزعم أنّك غيرُ عاشق، وأنت تقول: البسيط:

قالتْ وأَبَثَّتْهَا سِرِّي فَبَحْتُ بِهِ قد كنتَ عِنْدِي تُحِبُّ السُّتْرَ فَاسْتَتِرِ
أَلَسْتُ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِي؟ فَقُلْتَ لَهَا غَطِّيْ هَوَاكَ وَمَا أَلْقَى عَلَى بَصَرِي

والله ما خرج هذا من قلب سليم.

وروى الزبير عن رجل لم يسمّه، قال: قال لي أبو السائب: أنشدني للأخوص فأُشَدُّته: الكامل:

قالت وقلت: تَحَرَّجِي وَصَلِحِي بَلْ أَمْرِي بِوَصَالِكُمْ صَب :

صَاحِبُ إِذْنٍ بَعَلِّي؟ فَقُلْتَ لَهَا: الغدرُ شيءٌ ليس من ضَرْبِي
شَيْئَانِ لَا أَذْنُو لَوْصَلِيهِمَا عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجَارَةُ الْجَنْبِ
أَمَّا الْخَلِيلُ فَلَسْتُ فَاجِعُهُ والجَارُ أَوْصَانِي بِهِ رَبِّي
عُوجًا كَذَا نَذَكَّرُ لَغَانِيَةٍ بعضَ الْحَدِيثِ مَطِيكُم صَحْبِي
وَنَقُلْ لَهَا: فِيمَ الصَّدُودُ وَلَمْ نَذْنِبْ، بَكَ أَنْتِ بَدَأْتَ بِالذَّنْبِ؟
إِنْ تُقْبَلِي نُقْبَلِ وَنُنْزِلُكُمْ مِنَا بِدَارِ السَّهْلِ وَالرُّحْبِ
أَوْ تَهْجُرِي تَكْدِرُ مَعِيشَتَنَا وَتُصَدَّعِي مُتَلَائِمَ الشَّعْبِ

فقال: هذا والله المحب حقاً، لا الذي يَقُول: الوافر:

وكنْتَ إِذَا حَبِيبٌ رَامَ هَجْرِي وجدتَ وَرَأْيَ مُنْفَسِحاً عَرِيضاً

ثم قال: اذْهَبْ، فَلَا صَحْبِكَ اللَّهُ، وَلَا وَسَعِ عَلَيْكَ! وخرج أبو حازم يوماً يرمي الجمار، فإذا هو بامرأة حَاسِرٍ قد فَتَنَتِ النَّاسَ بِحُسْنِ وَجْهِهَا، وَأَلْهَتَهُمْ بِجَمَالِهَا، فَقَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ، إِنَّكَ تَمَشَعُ حَرَامَ، وَقَدْ فَتَنَتِ النَّاسَ وَشَغَلَتْهُمْ عَنْ مَنَاسِكِهِمْ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاسْتَتِرِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: "وَلْيَضْرِبَنَّ بِحُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوهِنَّ"؛ فَقَالَتْ: إِنِّي مِنَ اللَّاتِي قِيلَ فِيهِنَّ: الطويل:

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْخَزْرِ عَنْ حُرِّ وَجْهِهَا وَأَرُخَتْ عَلَى الْمُتَتِينَ بُرْدًا مَهْلَهَا
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجِجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لَيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُغَفَّلَا

الشعر للحارث بن خالد المخزومي، فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا نَدْعُ اللَّهَ لهذه الصورة الحسنة ألاَّ

يعذبها الله تعالى بالنار! فجعل أبو حازم يدْعُو وأصحابه يُؤْمِنُونَ، فبلغ ذلك الشعبي، فقال: ما أَرَقَّكم يا أهل الحجاز وأظرفكم! أما والله لو كان من قُرَى العراق لقال اعزني عليك لَعْنَةُ اللَّهِ! وكان أبو حازم من فضلاء التابعين، وله مقامات جميلة من الملوك، وكلامٌ محفوظ يدلُّ على فضله وعقله، وهو القائل: كل عمل تَكَرَّرَ من أجله الموت فتركه، ولا يضرك متى مت. وكان يقول: ما أَحْبَبْتَ أن يكون معك غداً فقدمه اليوم. وكان يقول: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم من غدٍ على وَجَلٍ؛ وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم. وقال أبو العتاهية: البسيط:

حتى متى نحن في الأيام نحسبها وإنما نحن فيها بين يومين
يومٌ تولى، ويومٌ نحن نأمله لعله أجلبُ اليومين للحين

وروى الزبير بن أبي بكر قال: قدمت امرأة من هُذَيْل المدينة، وكانت جميلةً، ومعها ابن لها صغير، وهي أيم، فخطبها الناسُ وأكثرُوا، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود: الطويل:

أحبُّكِ حباً لا يحبُّكِ مثله قريبٌ ولا في العالمين بعيدٌ
أحبُّكِ حباً لو علمت ببعضه لجُدْتُ ولم يصعبُ عليك شديدٌ
وحبُّكِ يا أمَّ العلاء مُتِمِّي شهيدِي أبو بكر فذاك شهيدٌ
ويعلم وجدي القاسمُ بن محمدٍ وعروة ما ألقى بكم وسعيدٌ
ويعلم ما أخفي سليمانُ كله وخارجةٌ يُبْدي لنا ويُعيدُ
متى تسألي عما أقول فتخبري فللحبِّ عندي طارفٌ وتليدُ

فقال له سعيد بن المسيَّب: قد أَمِنَ أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور. وكان عبيد الله أحدَ الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة، وقد ذكرهم عبيد الله في هذه الأبيات؛ وهم: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ابن المغيرة المخزومي. والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير ابن العوام، وسعيد بن المسيَّب بن حزن، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصاري.

وقيل لعبيد الله: أتقول الشعر على شَرَفِكَ؟ فقال: لا بُدَّ للمصدر أن يَنْفُثَ؛ وعبيد الله هو القائل: الوافر:

شَقَقْتُ القلبَ ثم ذَرَرْتُ فيه هَوَاكَ فَلَيْمَ والتأمَ الفُطُورُ

تَغْلَغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي

تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابٌ

أخذه سَلَمٌ بن عمرو الخاسر فقال: الطويل:

سَقَتْنِي بَعِينِيهَا الْهُوَى وَسَقَيْتُهَا

وقال أبو نُؤَاسٍ: الوافر:

أَحِبِ اللُّومَ فِيهَا لَيْسَ إِلَّا

وَيَدْخُلُ حُبُّهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ

ومنه قول المتنبي: الطويل:

وَلِلسَّرِّ مَنِّي مَوْضِعٌ لَا يَنَالُهُ

وقال بعض المحدثين: الكامل:

مَا زِلْتُ تَغْوِينِي وَتَطْلُبُ خُلَّتِي

ثُمَّ انصرفت بغيرِ جِزْمٍ كَانَ لِي

أخذ أبو نُؤَاسٍ، قوله: أَحِبِ اللُّومَ فِيهَا... البيتَ من قول أبي محمد ابن أبي أمية: الطويل:

وَحَدَّثَنِي عَنْ مَجْلِسٍ كُنْتُ زِينَهُ

فَقُلْتُ لَهُ رُدِّ الْحَدِيثَ الَّذِي مَضَى

أَنَاشِدُهُ بِاللَّهِ إِلَّا أَعَدَّتْهُ

وقول أبي نواس في البيت الأول كقوله: الوافر:

إِذَا غَادَيْتَنِي بِصَبُوحِ لَوْمٍ

فَإِنِّي لَا أُعِدُّ اللُّومَ فِيهَا

فممزوجاً بتسمية الحبيب

عليك، إِذَا فَعَلْتُ، من الذنوب

وَإِنْ ضَنْتُ بِمَبْحُوسِ النَّصِيبِ

بغير تكلفٍ ثَمَرَ الْقُلُوبِ

وَلَا أَنَا إِنْ عَمَدْتُ أَرَى جَنَانَا

مَقْنَعَةً بَثْوَبِ الْحُسْنِ تَرَعَى

وفي جنان هذه يقول أبو نواس: البسيط:

يَا ذَا الَّذِي عَنْ جَنَانٍ ظَلَّ يُخْبِرُنَا

بِاللَّهِ قُلْ وَأَعِدْ يَا طَيْبَ الْخَبْرِ

قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليتُ به
أراه من حيث ما أقبلتُ في أثري
ويرفع الطرفَ نحوي إن مررتُ به
حتى ليُخجلني من شدةِ النظر
وإن وقفتُ له كيما يُكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعلُ بي هذا ويُدمنه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

وفي جنان أيضاً يقول أبو نواس، وكان بها صبا، ولها محبا: الوافر:

جنانُ تسبني ذُكرتُ بخير
وتزعم أنني رجل خبيثُ
وأن مودتي كذب ومين
وأني للذي تطوى بثوث
وليس كذا، ولا ردّ عليها،
ولكن الملول هو النكوثُ
ولي قلبٌ يُنازعني إليها
وشوقٌ بين أضلاعي حثيثُ
رأتُ كلفي بها وقديمَ وجدي
فملّنتي، كذا كان الحديثُ

وكانت جنان مولاة لبعض الثقفين.

وفي معنى قول ابن أبي أمية يقول العباسُ بن الأحنف: الطويل:

وحدّثتني يا سعدُ عنها فزِدْتَنِي
جنونا فزِدْنِي من حديثك يا سعدُ

وأهل المدينة أكثر الناس ظرفاً، وأكثرهم طيباً، وأحلامهم مزاجاً، وأشدّهم اهتزازاً للسماع، وحسن أدب عند الاستماع. وقال عبد الله بن جعفر: إن لي عند السماع هزة لو سُئلت عندها لأعطيتُ، ولو قاتلت لأبليت.

وروى أبو العيناء قال: قال الأصمعي: مررت بدار الزبير بالبصرة، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ربحانة جالس بالباب عليه شملة تسترُه، فسلمتُ عليه، وجلستُ إليه؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سويداء تحمل قرّبة، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها، فقال لها: بالله غني صوتاً. فقالت: إن موالي أعجلوني، فقال: لا بدّ من ذلك، قالت: أما والقرّبة على كتفي فلا، قال: فأنا أحملها، فأخذ القرّبة منها، فاندفعت تُغني: الطويل:

فؤادي أسيرٌ لا يُفكُ، ومُهْجَتِي
تفيضُ، وأحزّاني عليك تطولُ
ولي مُقلّةٌ قرّحى لطول اشتياقها
إليك، وأجفّاني عليك هُمُولُ
فديتك، أعدائي كثيرٌ، وشقتي
بعيدٌ، وأشياعي لديك قليل

فطرب وصرخ صرخةً، وضرب بالقربة إلى الأرض فشققها؛ فقامت الجارية تبكي، وقالت: ما هذا بجزائي منك؛ أسعفتك بحاجتك فعرضتني لما أكره من موالي. قال: لا تغتمي فإن المصيبة عليّ حصلت، ونزع الشملة ووضع يداً من خلف ويدا من قدام، وباع الشملة وابتاع لها قربةً جديدة، وقعد بتلك الحال؛ فاجتاز به رجل من ولد علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه! - فعرف حاله، فقال: يا أبا ریحانة، أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم: "فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ". قال: لا يا ابن رسول الله، ولكني من الذين قال الله تعالى فيهم: "فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ"، فضحك، وأمر له بألف درهم.

ومر بالأوقص المخزومي، وهو قاضي المدينة، سكران وهو يتغنى بليل، فأشرف عليه، وقال: يا هذا، شربت حرماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ، خذ عني، وأصلح له الغناء. وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد: الطويل:

فلم ترَ عيني مثلَ سربٍ رأيتُهُ
مَرَرْنَ بَفَخَ ثَم رُحْنٌ عَشِيَّةً
ولما رأت رُكْبَ النَمِيرِي أَعْرَضَتْ
دَعَتْ نِسْوَةَ شَمِّ الْعِرَانِينِ بُزْلاً
خَرَجْنَ مِنَ التَّنْعِيمِ مُعْتَمِرَاتٍ
يَلْبِينُ لِلرَّحْمَنِ مُؤْتَجِرَاتٍ
وَكُنْ مِنْ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتٍ
نَوَاعِمٍ، لَا شَعْتًا وَلَا غَبَرَاتٍ

فأبرزن لما قمن يحجبن دونها
تَضَوَّعَ طَيْباً بَطْنُ نَعْمَانٍ إِذْ مَشَتْ
يُخَبِّنُ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ النَّقَى
حَجَاباً مِنَ الْقَسَى وَالْحَبِرَاتِ
به زينب في نسوة عطرَاتِ
وَيَخْرُجْنَ شَطْرَ اللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتِ

فقال سعيد: هذا والله مما يلذ استماعه، ثم قال: الطويل:

وليست كأخرى وسعت جيبَ درعها
وَعَالَتْ بَيَانَ الْمَسْكِ وَحَفَا مُرْجَلاً
وَقَامَتْ تَرَأَى بَيْنَ جَمْعٍ فَأَفْتَنَتْ
وَأَبَدَتْ بَنَانَ الْكَفِّ لِلْجَمَرَاتِ
على مثلِ بَدْرِ لَاحٍ فِي الظُّلُمَاتِ
بِرُؤْيَيْهَا مَنْ رَاحَ مِنْ عَرَافَاتِ

قال: فكانوا يرون أن الشعر الثاني له، والأولى لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفي يقوله في زينب بنت يوسف أخت الحجاج؛ وطلبه الحجاج حتى ظفر به فقال: أنت القائل ما قلت؟ قال: وهل قلت أصلح الله الأمير إلا:

يخبّئن أطرافَ البنان من التقى

ويخرجن شطرَ الليل مُعجّراتٍ

قال له: كم كُنتُم إذ تقول:

ولما رأت ركبَ النميري أعرّضت

قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لي على حمّارٍ هزيل! فضحك وعفا عنه. وهو القائل: الوافر:

أهَاجَتَكَ الظَّعَائِنُ يَوْمَ بَاتُوا

بني الزَّيِّ الجميل من الأثاثِ

ظَعَائِنُ أَسْلَكْتَ فِي بَطْنِ قَوْ

تَحُتْ إِذَا رَنْتَ أَيَّ احْتِثَاتِ

كَأَنَّ عَلَى الْهَوَاجِ يَوْمَ بَانُوا

نِعَاجاً تَرْتَعِي بَقْلَ الْبِرَاثِ

يَهَيِّجُكَ الْحَمَامُ إِذَا تَغْنَى

كما سجع النّوَادِبِ بِالْمَرَاثِ

وقال ابن المعتز: وعُدُّ الدنيا إلى خَلْفٍ، وبقاؤها إلى تَلَفٍ، وَبَعْدَ عَطَائِهَا الْمَنَعِ، وبعد أمانها الفَجْعِ، طَوَاحِةٍ طَرَّاحِةٍ، آسِيَّةٍ جَرَّاحِةٍ، كم راقِدٍ في ظِلِّهَا قد أَيْقَظَتْهُ، ووافق بها قد خَاتَمَتْهُ، حتى يَلْفَظَ نَفْسَهُ، ويودِعَ دُنْيَاهُ، وَيَسْكُنُ رَمْسَهُ، وينقطع عن أَمَلِهِ، وَيُشْرِفُ على عمله، وقد رَجَحَ الموتُ بِحَيَاتِهِ، ونقضَ قُوَى حَرَكَاتِهِ، وَطَمَسَ الْبَلَى جَمَالَ بَهْجَتِهِ، وقطع نظامَ صُورَتِهِ، وصار كَخُطٍّ من رَمَادٍ تحت صفائحِ أنْضَادٍ؛ وقد أسلمه الأحبابُ، وافترش الثُّرَابُ، في بيتٍ نجِثَتْهُ المَعَاوِلُ، وفُرِشَتْ فِيهِ الْجَنَادِلُ، ما زال مضطرباً في أَمَلِهِ، حتى استقرَّ في أَجَلِهِ، ومحت الأيامُ ذِكْرَهُ، واعتادتِ الْأَلْحَاطُ فَقْدَهُ.

وكتب وهو معتقل إلى أستاذه أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب يتشوّفه: الرجز:

ما وَجَدُ صَادٍ بِالْحَبَالِ مُوثِقِ

بماء مَزْنٍ بَارِدٍ مُصَفَّقِ

بِالرَّيْحِ لَمْ يَكْدُرْ وَلَمْ يُرْتَقِ

جَادَتْ بِهِ أَخْلَافُ دَجَنٍ مَطْبِقِ

بَصْخَرَةٍ إِنْ تَرَ شَمْساً تَبْرِقِ

مَادَ عَلَيْهَا كَالزَّجَاجِ الْأَزْرَقِ

صَرِيحُ غَيْثٍ خَالِصٍ لَمْ يُمَذَّقِ

إِلَّا كَوَجْدِي بِكَ، لَكِنْ أَتَّقِي

يَا فَاتِحاً لِكُلِّ بَابٍ مُغْلَقِ

وَصَيْرَافِيّاً نَاقِداً لِلْمَنْطِقِ

إِنْ قَالَ هَذَا بَهْرَجَ لَمْ يَنْفَقِ

إِنَّا عَلَى الْبُعَادِ وَالتَّفَرُّقِ

لِنَلْتَقِيَ بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ

فأجابه: أخذت، أطل الله بقاءك، أود هذه الأبيات مما أُمليته عليك من قول جميل: الطويل:

وما صَادِيَّاتٌ حُمْنَ يَوْمًا وَلَيْلَةً

على الماء، يَخْشِينِ الْعَصِيَّ حَوَانِي

كَوَاعِبُ لَمْ يَصْدُرْنَ عَنْهُ لَوْجَهَةٌ

وَلَا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الْحِيَاضِ دَوَانِي

فَهِنَّ لِأَصْوَاتِ السَّقَاةِ رَوَانِي
إِلَيْكَ، وَلَكِنَّ الْعَدُوَّ عِرَانِي

يَرَيْنَ حَبَابَ الْمَاءِ وَالْمَوْتَ دُونَهُ
بِأَكْثَرِ مَنِي غُلَّةٍ وَصَبَابَةٍ

وَأَخَذَتْ آخِرَهَا مِنْ قَوْلِ رُؤُوبَةَ بْنِ الْعِجَاجِ: الرَّجْزُ:

أَخُوكَ وَالرَّاعِي إِذَا اسْتَرَعَ عَيْنَتِي

إِنِّي وَإِنْ لَمْ تَرَنِي فَأِنَّنِي

أَرَاكَ بِالْوُدِّ وَإِنْ لَمْ تَرَنِي

قَالَ: فَاسْتَخْفَنِي فِي ذَلِكَ وَنَسَبَ إِلَيَّ سُوءَ الْأَدَبِ.

وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز في المنصب العالي من الشعر والنثر، وفي النهاية في إشراق ديباجة البيان، والغاية من رقة حاشية اللسان. وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيق النثر أتى بحلال السحر، وليس بعد ذي الرمة أكثر افتناناً وأكبر تصرفاً وإحساناً في التشبيه منه. وإنما فرقت جملة ما اخترت من شعره ونثره في جملة هذا الكتاب؛ لئلا أخرج عما تقدم به الشرط في البسط، وآتي ههنا ببعض ما اختاره له، قال: الوافر:

وَضُوءُ الصَّبْحِ مَتَهُمُ الطَّلُوعِ
عَلَى أَكْتَافِهِمْ صَدَا الدُّرُوعِ

وَفِتْيَانٍ سَرَوْا وَاللَّيْلُ دَاجٍ
كَأَنَّ بُرَاتِهِمْ أُمَرَاءُ جَيْشٍ

وَقَالَ أَيْضاً: الْكَامِلُ:

حَتَّى تَبْلَى مِثْلَ وَقْفِ الْعَاجِ
عُرْيَانٍ يَمْشِي فِي الدُّجَا بِسَرَّاجِ

فِي لَيْلَةٍ أَكَلَ الْمَحَاقُ هِلَالَهَا
وَالصَّبْحُ يَتَلَوُّ الْمَشْتَرِي فَكَأَنَّهُ

وَقَالَ أَيْضاً يَصِفُ فَرَساً: الْكَامِلُ:

عَقَدَتْ سَنَابِكُهُ عَجَاجَةً قَسَطَلِ
لَوْلَا الْفَتَاةُ مَسَاوِكاً مِنْ إِسْجَلِ
مَتَبَخَّرَ يَمْشِي بِكُمْ مُسْبَلِ

وَلَقَدْ غَدَوْتُ عَلَى طَمْرِ سَابِحِ
مِثْلُكُمْ لُجْمَ الْحَدِيدِ يُلُوكُهَا
وَمَحْجَلٌ غَيْرُ الْيَمِينِ كَأَنَّهُ

وَقَالَ: مَجْزُوءُ الرَّمْلِ أَوْ الرَّجْزُ:

مُسَوِّمٌ يَعْبُوبِ

قَدْ أَغْتَدِي بِقَارِحِ

كَالْقَدَحِ الْمَكْبُوبِ

يَنْفِي الْحَصَى بِحَافِرِ

فِي مَوْضِعِ التَّقْطِيبِ

قَدْ ضَحَكَتْ غُرَّتُهُ

وقال أيضاً: الكامل:

طَرَفٌ كُلُّونِ الصَّبْحِ حِينَ وَفَدُ
أُخْرَى عَلَيْهِ إِذَا جَرَى بِأَشَدِّ
صَدَفِ الْمَعشَقِ ذُو الدَّلَالِ وَصَدُ
أُطْلِقَتْهُ فَإِذَا حَبِسَتْ جَمْدُ

وَلَقَدْ وَطِئْتُ الْغَيْثَ يَحْمِلُنِي
خَمَاعَ أَطْرَافِ الصَّوَارِ فَمَا أَلْ
يَمْشِي فَيَعْرِضُ فِي الْعِنَانِ كَمَا
فَكَأَنَّهُ مَوْجٌ يَذُوبُ إِذَا

وقال أيضاً يصف سيفاً: الطويل:

فَمَا يُنْتَضَى إِلَّا لِسْفِكَ دِمَاءِ
بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَ دُونَ سَمَاءِ

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفَرْنَدُ كَأَنَّهُ

وقال يصف ناراً: الطويل:

كَأَنَّ سَيُوفاً بَيْنَ عِيدَانِهَا تُجَلَى
كَمَا شَقَّتْ الشَّقَرَاءُ عَنْ مَتْنِهَا جُلَا

مُشْهَرَةٌ لَا يَحْجُبُ النَّخْلُ ضَوْءَهَا
يَفْرَجُ أَغْصَانُ الْوَقُودِ اضْطِرَامُّهَا

وقال بعض أهل العصر، وهو السري الموصلي: المنسرح:

يَضْحَكُ فِيهِ السَّرُورُ مِنْ كَثْبِ
عَلَى شَمُوسِ الْبِهَاءِ وَالْحَسْبِ
فِي حُلِيِّهَا أَوْ هَمَمِنَ بِالْخَبَبِ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ
عَلَى ذَرَاهَا مَطَارِدُ اللَّهَبِ
تَطِيرُ عَنْهَا قَرَاظَةُ الذَّهَبِ
فِيهِ رِيَاضُ الْجَمَالِ وَالْأَدَبِ

يَوْمَ رَذَاذِ مُمَسِّكَ الْحُجُبِ
وَمَجْلِسِ أُسْبَلِتِ سَتَائِرُهُ
وَقَدْ جَرَتْ خَيْلُ رَاخِنَا خَبَبًا
وَالْتَهَبَتْ نَارُنَا فَمَنْظَرُهَا
إِذَا ارْتَمَتْ بِالْشَّرَارِ فَاطْرَدَتْ
رَأَيْتَ يَاقُوتَةَ مَشْبَكَةٍ
فَانْهَضَ إِلَى الْمَجْلِسِ الَّذِي ابْتَسَمَتْ

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الفرج البغيا: الخفيف:

فِي كَوَانِينِهِ حَيَاةَ النُّفُوسِ
فَغَدَا وَهُوَ مُذْهَبُ الْآبَنُوسِ
فَكَسَّتُهُ مُصَبَّغَاتِ عَرُوسِ

فَحَمًّا قَدَّمَ الْغَلَامُ فَأَهْدَى
كَانَ كَالْآبَنُوسِ غَيْرَ مَحْلَى
لَقِيَ النَّارَ فِي ثِيَابِ حَدَادِ

وقال أبو الفضل الميكالي: المتقارب:

وقد راقَ مَنْظَرُهَا كُلَّ عَيْنٍ
فإِذَا هَوَى فُتَاتِ اللَّجِينِ

تَهَادَى فَوْقَ أَعْنَاقِ الرِّيَّاحِ
وَهَطَّلاً مِثْلَ أَفْوَاهِ الْجِرَاحِ
خِلَالَ نَجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ
تَقْتَحِ بَيْنَهُ نَوْرُ الْأَقَاحِ

بصارم ذكرِ صَمَّامَةٍ خَذِمَ
بشُهْبَةٍ كاختلاطِ الصَّبْحِ بِالظَّلمِ

بأزرقَ لَمَاعٍ وَأَبْيَضَ صَارِمِ
تصافحُ رَضَارِضَ الحَصَى بِمَنَاسِمِ

لوقدَّهَا السِّيفُ لَمْ يَعلُقْ بِهِ بَلَلُ
كَأَنَّهَا كَمَّ دِرْعِ قَدَّهَ بَطَلُ

يُفْلُ شَبَابًا حَظِيًّا، وَقَلْبًا مَشِيْعًا
سِرَائِرَ غَيْبِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ مَا سَعَى

أخذه من قول المنصور لابنه المهدي: لا تُبْرِمنَّ أَمراً حتى تفكّر فيه؛ فإن فكره العاقل مرآته، تريه قبحه وحسنه.

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَغَفِرْ لَكَ! فَقَدْ كَانَ لَكَ حِمَى مِنْ الْعَقْلِ لَا يَطِيرُ بِهِ الْجَهْلُ، وَكُنْتَ تَرَى بَاطِنَ الْأَمْرِ بِمِرْآةٍ مِنَ الرَّأْيِ، كَمَا تَرَى ظَاهِرَهُ. ثُمَّ التَفَتَ إِلَى يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدٍ أَخِي الْمَنْصُورِ فَقَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ الْجَمْحِيُّ: الْكَامِلُ:

إِنْ النِّسَاءُ بِمِثْلِهِ عَقُمُ

كَأَنَّ الشَّرَارَ عَلَى نَارِنَا
سُحَالَةٌ تَبْرُ إِذَا مَا عَلَا

وقال ابن المعتز يصف سحابة: الوافر:

وَمُوقِرَةٌ بِثِقَلِ الْمَاءِ جَاءَتْ
فَبَاتَتْ لَيْلَهَا سَحَاءً وَوَبَلًا
كَأَنَّ سَمَاءَهَا لَمَّا تَجَلَّتْ
رِيَاضُ بَنَفَسَجٍ خَضِلِ ثَرَاهُ

وقال: البسيط:

وَلُجَّةٌ لِلْمَنَابِيَا خُضَّتْ غَمَرَتَهَا
وَقَارِحَ صَبَغَ الْخِيَلَانُ دُهْمَتَهُ

وقال: الطويل:

وَلَيْلٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ خُضَّتْ ظِلَامَهُ
وَمَضْبُورَةُ الْأَعْضَادِ حَرْفٍ كَأَنَّهَا

وقال يصف حية: البسيط:

نَعَتْ رِقْطَاءَ لَا تَحْيَا لَدِيغَتَهَا
تَلْقَى إِذَا انْسَلَخَتْ فِي الْأَرْضِ جِلْدَتَهَا

وقال أيضاً: الطويل:

وَأَسْأَرَ مَنِّي الدَّهْرُ عَضْبًا مُهَنْدًا
وَرَأَى كَمِرَاةَ الصَّنَاعِ أَرَى بِهِ

عَقَمَ النِّسَاءُ فَمَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ

وبعده:

متَهَلِّ بنَعَمَ، بِلَا مُتَبَاعِدٍ
نَزَرُ الكَلَامَ مِنَ الحَيَاءِ تَخَالَهُ
أَخَذَ البَيْتَ الأَخِيرَ مِنْ قَوْلِ لَيْلَى الأَخِيلِيَّةِ: الكَامِلُ:

لَا تَقْرَبِينَ الدَّهْرَ آلَ مُطَرَفٍ
قَوْمَ رِبَاطِ الخَيْلِ حَوْلَ بِيوتِهِمْ
وَمَمَزَقَ عَنْهُ القَمِيصَ تَخَالَهُ
حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللِّوَاءُ رَأَيْتُهُ
إِنْ ظَالِمًا يَوْمًا وَإِنْ مَظْلُومًا
وَأَسَنَةَ زَرْقٍ يُخْلَنُ نُجُومًا
وَسَطَ البُيُوتِ مِنَ الحَيَاءِ سَقِيمًا
يَوْمَ الهَيَاجِ عَلَى الخَمِيسِ زَعِيمًا

وقال: البسيط:

يُشْتَهُونَ مَلُوكًا فِي تَجَلَّتِهِمْ
إِذَا بَدَأَ المَسْكُ يُجْرِي فِي مَفَارِقِهِمْ
وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الحَاقِمِيُّ: وَمَا أَحْسَنَ أَيْبَاتَا أَنْشِدَهَا أَبُو عَمْرِو المَطَرُزِيُّ غَلَامٌ ثَعْلَبٌ يَعْتَرِضُ فِي أَثْنَائِهَا هَذَا المَعْنَى:

الطويل:

تَخَالَهُمُ لِلحَلَمِ صُمًّا عَنِ الخَنَا
وَمَرَضَى إِذَا لَاقَوْا حَيَاءً وَعِفَّةً
لَهُمْ عِزٌّ إِنصَافٍ وَذَلُّ تَوَاضَعٍ
كَأَنَّ بِهِمْ وَصْمًا يَخَافُونَ عَارَهُ
وَحُرُسًا عَنِ الفَحْشَاءِ عِنْدَ التَّهَاتُرِ
وَعِنْدَ الحُرُوبِ كَاللِّيُوثِ الخَوَادِرِ
بِهِمْ وَلَهُمْ ذَلْتُ رِقَابِ العِشَائِرِ
وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا اتِّقَاءُ المَعَايِرِ

وأنشد: الطويل:

أَحْلَامٌ عَادٍ لَا يَخَافُ جَلِيسَهُمْ وَإِنْ نَطَقَ العُورَاءُ عَيْبَ لِسَانٍ
إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يُخْشَ سَوْءُ اسْتِمَاعِهِمْ
وَقَالَ ابْنُ المَعْتِزِّ: الطويل:

وَعَاقِدِ زُنَارٍ عَلَى غُصْنِ الآسِ
سَقَانِي عُقَارًا صَبَّ فِيهَا مِرَاجُهَا
دَقِيقِ المَعَانِي مُخْطَفِ الخَصْرِ مَيَاسٍ
فَأَضْحَكَ عَنْ ثَغْرِ الحَبَابِ فَمَ الكَاسِ

وقال: الكامل:

يَا لَيْلَةً نَسِيَ الزَّمَانُ بِهَا
أَحْدَاثَهُ، كُؤِنِي بِلَا فَجْرِ

فاح المساء ببدرها، وَوَشَّتْ

فيها الصبَا بمواقع القَطَرِ

ثم انقضت والقلب يَتَّبِعُهَا

في حيث ما سقطت من الدَّهْرِ

وقال: الكامل:

يا رُبَّ إِخْوَانٍ صَحْبَتُهُمْ

لا يملكون لِسُلُوةٍ قَلْبًا

لو تستطيع قلوبُهم نَفَرَتْ

أجسامهم فتعانقت حُبًّا

هذا كقول ابن الرومي: الطويل:

أعانقه والنفسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ

إليه، وهل بَعْدَ العِناقِ تَدَانِي؟

والنَّثمُ فاه كي تَزُولَ حَرَارَتِي

فيشتد ما ألقى من الهَيْمانِ

ولم يكِ مِقْدَارُ الذي بي مِنَ الهَوَى

ليروية ما ترشُفُ الشِّفَتانِ

كأن فؤادي ليس يشفي غليله

سوى أن يُرى الروحانِ يمتزجانِ

ومن منشوره: لا يزالُ الإخْوانُ يُسافرون في المودَّة، حتى يبلغوا الشُّقَّة، فإذا بلغوها ألقوا عصا التَّسيار، واطمأنَّتْ بهما الدار، وأقبلت وفودُ النصائح، وأمنت خبايا الضمائر، فحلُّوا عُقدَ التحفُّظ، ونزعوا ملابس التَّخلُّق.

وله: سار فلان في جيوش عليهم أَرْدِيَّة السيوف، وأَقْمَصَةُ الحديد، وكأنَّ رِمَاحَهُم قرونُ الوُغُول، وكأنَّ دروعَهُم زَبْدُ السيول، على خيل تأكل الأرض بجوافرها، وتمدُّ بالنَّقع سُرادِقُها، قد نُشرت في وجوهها غُررُ كأنها صحائف الرق، وأمسكها تحجِيلُ كأنه أسورة اللِّجين، وفُرَّطت عذراً كأنها الشَّنْف، تتلقَّف الأعداء أوائله ولم تَنْهَضْ أواخره، قد ضُبَّ عليهم وقار الصبر، وهبَّت معهم ريح النَّصر.

وله في عليل: أذنَ اللَّهُ في شِفائِكَ، وتَلَقَّى داءَكَ بدوائِكَ، ومسحَ بيدِ العافية عليك، ووجهَ وَفَدَ السلامة إليك، وجعلَ عِلَّتَكَ ماحيةً لذنوبِكَ، مضاعفةً لثوابِكَ.

وكتب إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد: أَخَرَّتْنِي الْعِلَّةُ عن الوزير أعزه الله، فحضرت بالدعاء في كتاب لينوب عني، ويعمر ما أخَلَّتْهُ العوائقُ مني، وأنا أسأَلُ الله تعالى أن يجعلَ هذا العيدَ أعْظَمَ الأعيادِ السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعيادِ المُستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحِبُّ له، ويقبل ما توَسَّلَ به إلى مَرْضَاتِهِ، وبِضَاعِفِ الإحسانِ إليه، على الإحسانِ منه، ويمتَّعهُ بصحبة النعمة ولباسِ العافية، ولا يُرِيه في مسرَّةٍ نقصاً، ولا يقطع عنه مَزِيداً، ويجعلني من كلِّ سوءٍ فِدَاءً، ويصرف عيونَ الغيْرِ عنه، وعن حظِّي منه. وله إلى بعض الرؤساء: لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَرِ بِقُبْحِ الانتقامِ، وتجاوز عن كلِّ مُذْنِبٍ لم يَسْلُكْ من الإعذار

طريقاً حتى آتخذ من رجاء عَفْوِكَ رفيقاً.

وله اعتذار إلى القاسم بن عُبَيْدِ اللَّهِ: تَرَفَّعَ عَنْ ظُلْمِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئاً، وتفضل بالعفو إِنْ كُنْتُ مُسِيئاً، فواللَّهِ إِنِّي لأُطَلِّبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لَمْ أَجْنِهِ، وَأَلْتَمِسُ الْإِقَالَۀَ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ؛ لِتَزْدَادَ تَطَوُّلاً، وَأَزْدَادَ تَذَلُّلاً؛ وَأَنَا أُعِيدُ حَالِي عِنْدَكَ بِكَرَمِكَ مِنْ وَاشٍ يَكِيدُهَا، وَأَحْرُسُهَا بِوَفَائِكَ مِنْ بَاغٍ يَحَاوِلُ إِفْسَادَهَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ حَظِّي مِنْكَ، بِقَدْرِ وَدِّي لَكَ، وَمَحَلِّي مِنْ رَجَائِكَ، بِحَيْثُ أَسْتَحِقُّ مِنْكَ.

وله إليه: لو كان في الصَّمْتِ مَوْضِعٌ يَسُوعُ حَالِي لَخَفَفْتُ عَنْ سَمْعِ الْوَزِيرِ وَنَظَرِهِ، وَلَمْ أَشْغَلْ وَجْهَهُ مِنْ فِكْرِهِ، وَمَا زَالَتِ الشَّكْوَى، تُغْرِبُ عَنْ لِسَانِ الْبَلْوَى، وَمِنْ اخْتَلَّتْ حَالَتُهُ، كَانَ فِي الصَّمْتِ هَلَكَتُهُ، وَقَدْ كَانَ الصَّبْرُ يَنْصُرُنِي عَلَى سِتْرِ أَمْرِي حَتَّى خَذَلَنِي.

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل: فصاحة الشكوى، على قَدْرِ البلوى، إلا أن يكون بالشاكي انقباض، وبالمشكوك إليه إعراض.

في باب الوصف

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز في صفة الماء في أرجوزته التي أنشدتها آنفاً، وقد قال في قصيدة له وذكر إبلاً: الخفيف:

فَتَبَدَّى لَهُنَّ بِالنَّجْفِ الْمُدُّ	بِرِّ مَاءٍ صَافِي الْجِمَامِ عَرِيُّ
يَتَمَشَّى عَلَى حَصَى يَسْلُبُ الْمَا	ءَ قَذَاهُ فَمَتْنُهُ مَجْلِيُّ
وَإِذَا دَاخَلْتَهُ دُرَّةُ شَمْسٍ	خِلْتَهُ كُسْرَتٍ عَلَيْهِ الْحُلِيُّ

وقال: الكامل:

لَا مَثْلَ مَنْزِلَةِ الدُّوَيْرَةِ مَنْزِلُ	يَا دَارُ، جَادِكَ وَابِلُ وَسَقَاكِ
بُؤْساً لَدَهْرٍ غَيَّرَتْكَ صُرُوفُهُ	لَمْ يَمُحْ مِنْ قَلْبِي الْهُوَى وَمَحَاكِ
لَمْ يَحِلْ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ مَنْظَرُ	ذُمَ الْمَنَازِلِ كُلِّهِنَّ سِوَاكِ
أَيُّ الْمَعَاهِدِ مِنْكَ أَنْدَبُ طَيْبُهُ	مُمَسَّاكِ بِالْأَصَالِ أَمْ مَعْدَاكِ
أَمْ بَرْدِ ظِلِّكَ ذِي الْغُصُونِ وَذِي الْجَنَى	أَمْ أَرْضُكَ الْمِيثَاءِ أَمْ رِيَّاكِ
وَكَأَنَّمَا سَطَعَتْ مَجَامِرُ عَنَبٍ	أَوْ فُتَّ فَاَرُ الْمَسْكِ فَوْقَ ثَرَاكِ
وَكَأَنَّمَا حَصَبَاءُ أَرْضِكَ جَوْهَرُ	وَكَأَنَّ مَاءَ الْوَرْدِ دَمْعُ نَدَاكِ

وكانما أيدي الربيع ضحية
وكان درعاً مفرغاً من فضة
نشرت ثياب الوشي فوق رباك
ماء الغدير جرت عليه صباك

وعشقت عاتكة المرية ابن عم لها فراودها عن نفسها فقالت: الطويل:

فما طعم ماء أي ماء تقوله
بمنعرج من بطن واد تقابلت
تحدّر عن غر طوال الذوائب
عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه
تقى الله واستحياء بعض العواقب

وأنشد الأصمعي قال: أنشدني أبو عمرو بن العلاء لجابر بن الأرق، وقال: هو أحسن ما قيل في معناه:
الطويل:

أيا وبّح نفسي كلما التحت لوحة
بقايا نطاف أودع الغيم صفوها
على شربة من ماء أخواض مارب
مصقلة الأرجاء زرق المشارب
ترقرق دمع المزن فيهن والتوت
عليهن أنفاس الرياح الغرائب

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأبيرد اليربوعي، ورويت لمضر بن ربيعي الأسدي: الطويل:

فألقت عصا التسيار عنها، وخيمت
أزال القذى عن مائه وأفد الصبا
بأرجاء عذب الماء زرق محافره
يروح عليه ناسماً ويباكره

وأول من أتى بهذا زهير بن أبي سلمى في قوله: الطويل:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه
وضعن عصي الحاضر المتخيم

وقال ابن الرومي: الطويل:

وماء جلت عن حر صفحته القذى
به عبق مما تسحب فوقه
من الريح معطار الأصائل والبكر
نسيم الصبا يجري على النور والزهر

وصف الدور والقصور

ويتعلق بهذا الباب قول البحري يصف بركة الجعفري وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى: البسيط:

يا من رأى البركة الحسناء ورونقها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها
والآنسات إذا لاحت مغانيها
في الحسن طوراً وأطواراً تباهاها !

إذا علّتها الصبا أبَدَتْ لها حُبْكَاً
فحاجبُ الشمس أحياناً يُعَاذِلُهَا
إذا النجومُ تراءَتْ في جوانبها
كأنما الفضةُ البيضاء سائلة
تتصبُّ فيها وفودُ الماء مُعَجَّلةً
كأن جن سليمان الذين ولّوا
فلو تمرُّ بها بلقيسُ عن عُرْضِ
لا يبلُغُ السمكُ المقصورُ غايتها
يَعْمُنُ فيها بأوساطٍ مُجَنِّحةٍ

ولم يُنْفِقِ أحدٌ من خلفاء بني العباس في البناء ما أنفقَه المتوكل؛ وذلك أنه أنفق في أبنيته ثلاثمائة ألف ألف،
وفي أبنيته يقول علي بن الجهم: المتقارب:

وما زِلْتُ أَسْمَعُ أَنَّ الملو
وأعلمُ أَنَّ عقولَ الرجا
صُحُونٌ تسافر فيها العيون
وقبّةٌ ملكُ كأنَّ النجو
إذا أوقِدَتْ نارُها بالعراق
لها شُرُفات كأنَّ الربيع
فهنَّ كمصطحاتٍ خرَجْنَ

مثلَ الجواشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيهَا
وريقُ الغَيْثِ أحياناً يُبَاكِهَا
ليلاً حَسِبْتَ سماءَ رُكْبَتِ فِيهَا
من السبائك تجرِي في مجاريها
كالخيل خارجةً من حَبْلٍ مُجْرِيهَا
إبداعُهَا فأدقُّوا في معانيها
قالت: هي الصرْحُ تمثيلاً وتشبيها
لبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها
كالطير تنشر في جوِّ حَوَافِيهَا

لَكَ تَبَنِّي على قَدَرٍ أخطارِها
لِ يُقْضَى عليها بآثارِها
فَتَحْسِرُ من بُعدِ أَقْطَارِها
م تُقْضِي إليها بأسرارِها
أضاءَ الحِجَازَ سَنًا نارِها
كساها الرِّياضَ بأنوارِها
لِفَصْحِ النصارى وإِطَارِها

بعُونِ النساءِ وأبكارِها
ومُصلحةٌ عَقْدُ زُنَّارِها

مصانِعُهَا وأكملتِ التماما
يَكْدُنُ يُضِئْنَ للِساري الظلاما

نظمن القسي كنظم الحلى
فمن بين عاقصةٍ شَعَرِها
وللبحتري فيها شعر كثير منه: الوافر:
أرى المتوكِّلِيَّةَ قد تعالتْ
قُصورٌ كالكوكب لامِعَاتُ

وروضٌ مِثْلُ بُرْدِ الوَشْيِ فِيهِ
غرائبٌ من فنونِ النورِ فِيهَا
تُضَاحِكُهَا الضُّحَى طَوْرًا وَطَوْرًا
ولو لم يستهل لها غَمَامٌ

وقال أيضاً: الكامل:

قد تمَّ حُسْنُ الجعفريِّ ولم يكن
ملكٌ تَبَوَّأَ خَيْرَ دارٍ أُنشِئتْ
أُفَى رَأْسِ مُشْرِفَةٍ حَصَاها لَوْلُؤُ
مُخْضِرَةٌ والغَيْثُ ليس بِسَاكِبٍ
رَفَعَتْ بِمُنْخَرِقِ الرِّيحِ، وَجَاوَرَتْ

وبعده:

ورَفَعَتْ بُنْيَانًا كَأَنَّ زُهَاءَهُ
عَالٍ عَلَى لَحْظِ العِيونِ كَأَنَّمَا
مَلَأَتْ جَوَانِبُهُ الفُضاءَ، وَعَانَقَتْ
وَتَسِيلُ دَجَلَةً تَحْتَهُ فُفْنَاؤُهُ
شَجَرٌ تُلَاعِبُهُ الرِّيحُ فَتَنْتَنِي

جَنَى الحَوْدَانِ يُنْشَرُ والخَزَامَى
جَنَى الزَّهْرِ الفُرَادَى والتَّوَامَا
عَلَيْهِ الغَيْمُ يَنْسَجُمُ انْسِجَامَا
بَرِيقَهُ لَكُنْتَ لَهَا غَمَامَا

لَيْتَمَ إِلَّا لِلْخَلِيفَةِ جَعْفَرٍ
فِي خَيْرِ مَبْدَى لِلْأَنَامِ وَمَحْضَرٍ
وَتَرَابُهَا مِسْكٌ يُشَابُّ بِعَنْبَرٍ
وَمُضِيئَةٌ وَاللَّيْلُ لَيْسَ بِمُقَمَّرٍ
ظِلُّ الغَمَامِ الصَّيْبِ الْمُسْتَعْبِرِ

أَعْلَامُ رَضْوَى أَوْ شَوَاهِقُ ضَيَّيرِ
يَنْظُرُنَ مِنْهُ إِلَى بَيَاضِ الْمُشْتَرِي
شُرْفَاتُهُ قِطْعَ السَّحَابِ الْمُطْمَرِ
مِنْ لُجَّةِ فُرْشَتِ وَرَوْضِ أَخْضَرِ
أَعْطَافُهُ فِي سَائِحِ مُتَقَجَّرِ

أخذ أبو بكر الصنبوري قولَ البحترى في صفة البركة فقال يصف موضعاً: المتقارب:

سَقَى حَلْبًا سَافَكَ دَمْعُهُ
مِيَادِينَهُ بِسَطْهُنِ الرِّياضِ
تَرَى الرِّيحَ تَنْسَجُ مِنْ مَائِهِ
كَأَنَّ الزَّجَاجَ عَلَيْهَا أُذِيبُ
هِيَ الْجَوْ مِنْ رَقَّةٍ غَيْرِ أَنْ
وَقَدْ نَظَّمَ الزَّهْرَ نَظْمَ النُّجُومِ
كَمَا دَرَجَ الْمَاءَ مَرَّ الصَّبَا

بَطِيءُ الرُّقُوعِ إِذَا مَا سَفَكَ
وَسَاحَاتُهُ بَيْنَهُنَّ الْبَرَكَ
دُرُوعًا مُضَاعَفَةً أَوْ شَبَكَ
وَمَاءَ اللَّجَيْنِ بِهَا فَدِ سَبَكَ
مَكَانَ الطَّيُورِ يَطِيرُ السَّمَكُ
فَمَفْتَرِقُ النَّظْمِ أَوْ مُشْتَبِكُ
وَدَبَجَ وَجْهَ السَّمَاءِ الْحُبُّكَ

يُبَاهِينَ أَعْلَامَ قُمْصِ الْقِيَانِ

وَنَقْشَ عَصَائِبِهَا وَالتَّكَافِ

وأخذ قوله:

إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا

فقال: الطويل:

ولما تعالى البدرُ وامتدَّ ضوؤه

بدجله في تشرين في الطول والعرض

وقد قابل الماء المفضّض نورُه

وبعضُ نجوم الليل يَقْفُو سَنَا بَعْضِ

تَوَهَّم ذُو الْعَيْنِ الْبَصِيرَةُ أَنَّهُ

يرى باطن الأفلاك مِنْ ظَاهِرِ الْأَرْضِ

ولأهل العصر في هذا النجوم كلام كثير: قال الأمير أبو الفضل الميكالي، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْوٍ مَطْلٍ عليها يقول: البسيط:

أَمَا تَرَى الْبِرْكَهَ الْغَرَاءَ قَدْ لَبَسَتْ

نُوراً مِنْ الشَّمْسِ فِي حَافَاتِهَا سَطَعَا

وَالْمَهْوُ مِنْ فَوْقِهَا يُلْهِيكُ مَنْظَرُهُ

كَأَنَّهُ مَلَكٌ فِي دَسْتِهِ ارْتَفَعَا

وَالْمَاءُ مِنْ تَحْتِهِ أَلْقَى الشَّعَاعَ عَلَى

أَعْلَى سَمَاوَاتِهِ فَارْتَجَّ مُلْتَمِعَا

كَأَنَّهُ السِّيفُ مُصْقِوْلًا تُقْلِبُهُ

كَفُّ الْكَمِيِّ إِلَى ضَرْبِ الْكَمِيِّ سَعَى

وقال علي بن محمد الإيادي يمدح المعز ويصف دار البحر بالمنصورية: الطويل:

ولما استطال المجدُّ واستولت البُني

على النجم واشتدَّ الرواق المروِّقُ

بَنَى قِبَةً لِلْمَلِكِ فِي وَسْطِ جَنَّةٍ

لَهَا مَنْظَرٌ يُرْهِى بِهِ الطَّرْفُ مُونِقُ

بمعشوقة الساحات، أَمَا عِراصُهَا

فَخُضْرٌ، وَأَمَّا طِيرُهَا فَهِيَ نَطِقُ

تَحْفَ بِقَصْرِ ذِي قُصُورٍ كَأَنَّمَا

تَرَى الْبَحْرَ فِي أَرْجَائِهِ وَهُوَ مُتَأَقُّ

لَهُ بَرَكَةٌ لِلْمَاءِ مِلْءَ فَضَائِهِ

تَخْبُ بِقَصْرِهَا الْعَيُونَ وَتُعْنِقُ

لَهَا جَدُولٌ يَنْصَبُ فِيهَا كَأَنَّهُ

حُسَامٌ جَلَّاهُ الْقَيْنُ بِالْأَرْضِ مُلْصَقُ

لَهَا مَجْلِسٌ قَدْ قَامَ فِي وَسْطِ مَائِهَا

كَمَا قَامَ فِي فَيْضِ الْفِرَاتِ الْخَوَرَنَقُ

كَأَنَّ صَفَاءَ الْمَاءِ فِيهَا وَحُسْنُهُ

زَجَاجٌ صَفَتْ أَرْجَاؤُهُ فَهُوَ أَزْرَقُ

إِذَا بَثَّ فِيهَا اللَّيْلُ أَشْخَاصَ نَجْمِهِ

رَأَيْتَ وَجْهَ الزَّنْجِ بِالنَّارِ تُحَرِّقُ

وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها

كأن شرافات المقاصر حولها

يذوب الجفاء الجعد عن وجه مائها

وقال عبد الكريم بن إبراهيم: البسيط:

يارب فتیان صدق رُحْتُ بينهم

مرضى أصائلها حسرى شمائلها

معاطياً شمس إبريق إذا مزجت

عن ماحل طافح بالماء معتلج

تضمه الريح أحياناً، وتفرقه

من أخضر ناضر والطل يلحقه

تهزه الريح أحياناً فيمنحها

كأن حافاته نطقن من زبد

كأن قبتة من سندس نمط

إذا تبلج فجر فوق زرقته

أو لازورداً جرى في منته ذهب

عشية كملت حسناً وساعدها

تجلى بغرة وضاح الجبين له

فرند على تاج المعز وروثق

عذارى عليهن الملاء الممنطق

كما ذاب آل الصحصحان المرقق

والشمس كالذئف المعشوق في الأفق

تروح الغصن الممطور في الورق

تقلدت عقد مرجان من النزق

كأنما نفسه صيغت من الحدق

فالماء ما بين محبوس ومُنطلق

وأبيض تحت قنطي الضحى يقق

للزجر خفق فواد العاشق القلق

مناطقاً رصعت من لؤلؤ نسق

حسناً مجلوة اللبات والعنق

حسبته فرساً دهاء في بلق

فلاح في شارق من مائه شرق

ليل يمدد أطناباً على الأفق

ما شئت من كرم واف ومن خلق

ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء

وما يتصل به

ماء كالزجاج الأزرق، غدير كعين الشمس، موارد كالمبارد، وماء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة، يسبح في الرضراض، سبح النضناض، ماء أزرق كعين السور، صاف كقضيبي البلور، ماء إذا مسته يدُ النسيم حكى سلاسل الفضة، ماء إذا صافحته راحة الريح، لبس الدرع كالمسيح، كأن الغدير بتراب الماء رداء مُصنل، بركة كأنها مرآة السماء، بركة مفروزة بالخضرة، كأنها مرآة مجلوة، على ديباجة خضراء،

بركة ماء كأنها مِرْآة الصَّنَاعِ، غدير ترقرت فيه دموعُ السحابِ، وتواترت عليه أنفاسُ الرياحِ الغرائب
ماء زرق حمامه، طامية أرجاؤه، يُيُوحُ بأسراره صفاؤه، وتلوحُ في قراره حَصْبَاؤه، ماء كأنما يفقده مَنْ
يَشْهده، يتسلسلُ كالزرافين، ويرضع أولاد الرياحين، انحلَّ عقدُ السماء، ووهى عقد الأتواء، انحلَّ سلكُ
القطر عن دُرِّ البحر، أسعد السحابُ جفونَ العُشاق، وأكفَّ الأجواد، وانحلَّ خيطُ السماء، وانقطع
شِرْيَانُ الغمام، سحابة يتجلَّى عليها ماءُ البحر، وتفضُّ علينا عقودَ الدَّر، سحابٌ حكى الحبُّ في انسكاب
دموعه، والتهاب النار بين ضُلُوعه، سحابة تحدو من الغيوم جمالاً، وتمدُّ من الأمطار حبالاً، سحابة ترسلُ
الأمطارَ أمواجاً، والأمواجَ أفواجاً، تحللت عقد السماء بالدَّيْمَةِ المَطْلَاءِ، غيث أجشُّ يروي الهضابَ
والأكام، ويحيي النبات والسَّوَامَ، غيث كغزارة فضلك، وسلاسة طبعك، وسلامة عقدك، وصفاء ودِّك،
وبل كالنبل، سحابة يضحكُ من بُكائها الرُّوض، وتخصُّر من سَوَادِها الأرض، سحابة لا تحف جفونُها
ولا يخف أنينها، ديمة رَوَّت أدبمَ الثرى، ونهت عيونَ النور من الكرى، سحابة ركبت أعناق الرياح،
وسحت كأفواه الجراح، مطر كأفواه القرب، ووحل إلى الركب، أنديّة مَنْ الله معها على البيوت
بالثبوت، وعلى السقوف بالوقوف، أقبل السَّيْلُ يَنحَدِرُ انحداراً، ويحمل أحجاراً وأشجاراً، كأن به جنة،
أو في أحشائه أجنّة.

وبعض ما مرّ من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدّم إنشاده.

ولهم في مقدمات المطر

لبست السماءُ جلبابها، وسحبت السحابُ أذيالها، قد احتجبت الشمسُ في سُرادقِ الغيم، ولبس الجوُّ
مُطَرِّفه الأدكن، باحت الريحُ بأسرارِ الندى، وضربت خيمة الغمام، ورشَّ جيش النسيم، وابتلَّ جناحُ
الهواء، واغرورقت مُقَلّة السماء، وبشَّرَ النسيم بالندى، واستعدت الأرضُ للقطر، هبَّت شمائل الجنائب،
لتأليف شمل السحاب. تألفت أشتاتُ الغيوم، وأسبلت السُّتُور على النجوم.

وفي الرعد والبرق

قام خطيبُ الرِّعد، ونبض عِرْقُ البرق، سحابة ارتجزت رَوَاعِدها، وأذهبت ببروقها مطاردها، نطقَ لسانُ
الرعد، وخفق قلبُ البرق، فالرعدُ ذو صَخَبٍ، والبرقُ ذو لَهَبٍ، ابتسم البرقُ عن قهقهة الرعد، زارت
أسد الرعد، ولمعت سيوف البرق، رعدت سيوفُ الغمام، وبرقت، وانحلَّت عزالي السماء فطبقت،
هدرت رَوَاعِدها، وقربت أباعدها، وصدقت مَوَاعِدها، كأن البرق قلب مشوق، بين التهاب وخُفُوق.

ويتصل بهذه الأتحاء

ما حكاه عمر بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد - أدام الله عزّه! - أيام مُقامِهِ بُجُوبَيْنَ أن يطالع قريةً من قرى ضياعه تدعى نجاب على سبيل التزّه والتفرُّج، فكنت في جملة مَنْ استصحبه إليها من أصحابه، واتفق أنا وصلنا والسماء مُصْحِيّة، والجو صاف لم يطرز ثوبه بعلم الغمام، والأفق فيروزج لم يعقب به كافور السحاب؛ فوقع الاختيار على ظل شجرة باسقة الفروع، متسقة الأوراق والغصون، قد سترت ما حوالَيْهَا من الأرض طولاً وعرضاً، فترلنا تحتها مستظّلين بَسْمَاوَةٍ أَفْنَانِهَا، مُسْتَرِينَ من وَهَجِ الشمس بستارة أغصانها، وأخذنا نتجاذب أذيال المذاكرة، وتتسالب أهْدَابُ المُنَاشِدَةِ والمحاورَةِ؛ فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرعدت وأبرقت، وأظلمت بعد ما أشرقت، ثم جادت بمَطَرٍ كَأَفْوَاهِ القَرَبِ فَأَجَادَت، وحكت أنامل الأجواد ومدامع العشاق، بل أوفت عليها وزادت، حتى كاد غيثها يعود عَيْثُهَا، وَهَمَّ وَبَلَهَا أن يستحيل ويلاً، فصبرنا على أذاها، وقلنا: سَحَابَةٌ صَيْفٍ عما قليل تَقْشَعُ، فإذا نحن بها قد أمطرتنا برداً كالثُغُورِ، لكنها من ثغور العذاب، لا من الثغور العذاب، فأيقننا بالبلاء، وسلمنا لأسباب القضاء؛ فما مرت إلا ساعة من النهار، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار، ورأينا السيل قد بلغ الرُّبَى، والماء قد غَمَرَ القيعان والرُّبَى؛ فبادرنا إلى حصن القرية لائذين من السيل بأفنيتهما، وعائذين من القطر بأبنيتهما، وأثوابنا قد صندل كافوريتها ماء الوبل، وغلف طرازيتها طين الوحل، ونحن نحمدُ الله تعالى على سلامة الأبدان، وإن فقدنا بياض الأكمام والأردان، ونشكره على سلامة الأنفس والأرواح، شكرَ التاجر على بقاء رأس المال إذا فجع بالأرباح؛ فبئنا تلك الليلة في سماء تكف ولا تكف، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوام، وأربعة سحاج؛ فلما سُئِلَ الصبح من غمد الظلام، وصُرِفَ بَوَالِي الصحو غامِلُ الغمام، رأينا صواب الرأي أن نوسع الإقامة بها رَفُضاً، وتتخذ الارتحال عنها فَرُضاً؛ فما زلنا نطوي الصحارى أرضاً فأرضاً، إلى أن وافينا المستقر ركضاً؛ فلما نَفَضْنَا غُبَارَ ذلك المسير، الذي جمعنا في رِبْقَةِ الأسير، وأفضيناً إلى ساحة التيسير، بعد ما أصبنا بالأمر العسير، وتذاكرنا ما لقينا من التعب والمشقة، في قطع ذلك الطريق وطَي تلك الشقة، أخذ الأمير السيد - أطال الله بقاءه! - القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً: المتقارب

بغيثٍ على أفقهٍ مُسْبِلٍ

كَرَنَةٍ تَكْلِي ولم تتكل

فعاد وبَآلاً على المُمَحِّلِ

على خطرٍ هائلٍ مُعْضِلِ

دهتنا السماء غداة السحاب

فَجَاءَ بَرَعْدٌ لَهُ رَنَةٌ

وثنى بوبلٍ عدا طوره

وأشرف أصحابنا من أذاه

فَمِنْ لَائِذٍ بِفِنَاءِ الْجِدَارِ
وَمِنْ مُسْتَجِيرٍ يُنَادِي: الْغَرِيقَ
وَجَادَتْ عَلَيْنَا سَمَاءُ السَّقُوفِ
كَأَنَّ حَرَامًا لَهَا أَنْ تَرَى
وَأَقْبَلَ سَيْلٌ لَهُ رَوْعَةٌ
يُقْلَعُ مَا شَاءَ مِنْ دَوْحَةٍ
كَأَنَّ بِأَحْشَانِهِ إِذْ بَدَا
فَمِنْ عَامِرٍ رَدَّةٍ غَامِرًا
كَفَانَا بَلِيَّتَهُ رَبَّنَا
فَقُلْ لِلسَّمَاءِ ارْعُدِي وَابْرُقِي
أَخَذَ الْمُطَوَّعِيُّ قَوْلَهُ: فَلَمَّا سُئِلَ سَيْفُ الصَّبْحِ مِنْ غَمْدِ الظَّلَامِ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِي: الرَّمْلُ:
رُبَّ لَيْلٍ أَغْمَدَ الْأَنْوَارَ إِلَّا
قَدْ نَعْمَنَا بِدِيَاجِيهِ إِلَى أَنْ
سُئِلَ سَيْفُ الصَّبْحِ مِنْ غَمْدِ الظَّلَامِ

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو العباس الناشئ الطويل:

خَلِيلِيَّ، هَلْ لِلْمُزْنِ مُقْلَةٌ عَاشِقُ
أَشَارَتْ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ فَأَصْبَحْتُ
سَحَابَ حَكَتْ تَكَلَّى أُصِيبَتْ بِوَاحِدٍ
تَسْرَبِلَ وَشَيْئًا مِنْ حُزُونٍ تَطْرَزْتُ
فَوْشِي بِلَا رَقْمٍ، وَرَقْمٌ بِلَا يَدٍ
أَمِ النَّارِ فِي أَحْشَائِهَا وَهِيَ لَا تَدْرِي؟
وَكَاللُّؤْلُؤِ الْمُنْتَوِرِ أَدْمَعُهَا تَجْرِي
فَعَاجَبَتْ لَهُ نَحْوَ الرِّيَاضِ عَلَى قَبْرِ
مَطَارِفُهَا طَرَزًا مِنَ الْبَرَقِ كَالْتَبْرِ
وَدَمْعٌ بِلَا عَيْنٍ، وَضِحْكٌ بِلَا تَغْرِ

وقال آخر: المتقارب:

أَرَقْتُ لِبَرَقٍ شَدِيدِ الْوَمِيزِ
كَأَنَّ تَأَلَّفَهُ فِي السَّمَاءِ
تَرَامَى غَوَارِبُهُ بِالشُّهُبِ
سُطُورُ كُنُتَيْنِ بِمَاءِ الذَّهَبِ

وقال ابن المعتز: الطويل:

كَأَنَّ الرَّبَّابَ الْجَوْنَ دُونَ سَحَابِهِ
إِذَا لَحَقَّتْهُ خَيْفَةٌ مِنْ رَعُودِهِ
وَقَدْ قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ: الْمُتَقَارِبُ:

كَأَنَّ الرَّبَّابَ دُوَيْنَ السَّحَابِ
وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: الرَّجْزُ:

خَلِيعٌ مِنَ الْفَتَيَانِ يَسْحَبُ مِئْزَرًا
تَلَفَّتَ وَاسْتَلَّ الْحُسَامُ الْمَذْكَرَا
نَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ

مَوْصِلَةٌ بِالْأَرْضِ مُرْخَاةُ الطُّنْبِ
كَمِثْلُ طَرْفِ الْعَيْنِ أَوْ قَلْبٍ يَجِبُ
مِنْهَا لِيَ الْبَرْقُ كَأَمْثَالِ الشَّهْبِ
أَحْشَاؤُهَا عَنْهُ شَجَاعًا يَضْطَرِبُ
أَبْلَقُ مَالٍ جُلَّةُ حَيْنٍ وَثَبُ
سَلْسَلُ مَفْصُولَةٍ مِنَ الذَّهَبِ

صَارَ عَلَى رَغَمِ الدُّجَى نَهَارًا

وَالنَّارُ تَلْفَحُ عِيدَانًا فَتَحْتَرِقُ

عَبَّرَ وَالشَّرْبُ تَحْتَهَا فِي خَرَابٍ
وَجِدَارٍ مَلْقَى وَتَلُّ تُرَابٍ
نَ وَإِقَاعُهُ بِغَيْرِ صَوَابٍ
هَ سَمَاءٌ مَصْقُولَةُ الْجَلْبَابِ
فَوْقَ رَوْضٍ نَدٍ جَدِيدِ الشَّبَابِ
رُ جَلَّتْهُ حَدَائِدُ الضَّرَابِ
طَلَعَتْ فِي مَلَأَةٍ مِنْ شَرَابِ

بَاكِيَةٌ يَضْحَكُ فِيهَا بَرْقُهَا
رَأَيْتُ فِيهَا بَرْقُهَا مِنْذُ بَدَا
جَرَتْ بِهَا رِيحُ الصَّبَا حَتَّى بَدَا
تَحْسِبُهُ طَوْرًا إِذَا مَا انْصَدَعَتْ
وَتَارَةً تَحْسِبُهُ كَأَنَّهُ
وَتَارَةً تَحْسِبُهُ كَأَنَّهُ

وَقَالَ الطَّائِي: الرَّجْزُ:

يَا سَهْمُ لِلْبَرْقِ الَّذِي اسْتَطَارَا
أَضْ لَنَا مَاءٌ وَكَانَ نَارَا

وَيَنْشُدُ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: الْبَسِيطُ:

نَارٌ تَجْدُدُ لِلْعَيْنَيْنِ نَضْرَتُهَا

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ يَمْدَحُ الشَّرْبَ فِي الصَّحْوِ، وَيَذَمُّهُ فِي الْمَطَرِ: الْخَفِيفُ:

أَنَا لَا أَشْتَهِي سَمَاءً كَبِطْنِ الْ
بَيْنَ سَقْفٍ قَدْ صَارَ مُنْخَلٌ مَاءٍ
وَبُيُوتٍ يَوْعُ الْوَكْفُ فِيهِ
إِنَّمَا أَشْتَهِي الصَّبَّوحَ عَلَى وَجْ
وَنَسِيمٍ مِنَ الصَّبَا يَتَمَشَّى
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ الْمَضِيئَةَ دِينَا
فِي غَدَاةٍ وَكَأَنَّهَا مِثْلُ شَمْسٍ

أو عروس قد ضُمَّخَتْ بخلُوقٍ

فَهِيَ صَفراءُ في قميصِ حَبابٍ

وغناء لا عُدْرَ للعودِ فيه

بَتَدَدِي الأوتارِ والمضرابِ

ونقاء البساطِ من وَضَرِ الطيِّ

ن وَمَسَحِ الأقدامِ في كلِّ بابٍ

ونشاط الغلمانِ إن عَرْضَتْ حا

جائتنا في مجيئهم والذهابِ

وجفاف الرياحِ والنرجسِ الغ

ضْ بأيدي الخلَّانِ والأصحابِ

لا تَدَدَى أنوفُهم كلما حُي

وا بضغت ندى أنوفِ الكلابِ

ذاكَ يومٌ أراه غنماً وحظاً

من عطاءِ المُهيِّمينِ الوهابِ

وقال الصَّنَوْبَرِي: المتقارب:

أنيسَ ظباءٍ بوحشِ الظبا

وصبغَ حياً مثلَ صبغِ الحيا

ويومَ تكلله الشمسِ من

صفاءِ الهوى وصفاءِ الهوا

بشمسِ الدنانِ وشمسِ القيانِ

وشمسِ الجنانِ وشمسِ السما

وشبيهةً بالأبيات التي كتبها ثعلب إلى أبي العباس بن المعتز لجميل قول الآخر: الطويل:

وما وَجَدُ ملُواحٍ من الهيمِ خُلِيتْ

عن الوردِ حتى جَوَّفُها يتصلَّصلْ

تحومُ وتغشاها العِصِيُّ وحولها

أقاطيعُ أنعامِ تَعَلَّ وتَهَلُّ

بأكثرَ مِنِّي لوعةً وصبابةً

إلى الوردِ إلّا أنني أَتَجَمَّلُ

وقال أبو حيَّه النَمِيرِي: الطويل:

كفى حَزْناً أَنِّي أَرى الماءَ مُعْرَضاً

لعيني ولكنْ لا سبيلَ إلى الوردِ

وما كنتُ أَخشى أن تكونَ مِنِّيَّتِي

بكفٍّ أعزَّ الناسِ كلَّهمَ عِنْدِي

قال ابنُ المقفَّع: كان لي أخ أعظمُ الناسِ في عيني، وكان رأسُ ما عظمه في عيني صغرُ الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطانِ بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثِرُ إذا وجد، وكان خارجاً من سلطانِ فرجه، فلا تدعوه إليه مؤنة، ولا يتسَخَفُ له رأياً ولا بدنأً، وكان لا يتأثر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطانِ لسانه، فلا يتكلمُ بما لا يعلم، ولا يُماري فيما علم، وكان خارجاً من سلطانِ الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثرَ دهره صامتاً، فإذا قالَ بَرَّ القائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدَّ الجدُّ، فهو الليثُ عادياً. وكان لا يدخل في دَعْوَى، ولا يُشارك في مراءٍ، ولا

يُدلي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَرَى قَاضِيًا فَهَمًا، وَشَهِودًا عُدُولًا. وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا فِيمَا يَكُونُ الْعُدْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا عُدْرُهُ.

وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجْعَهُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرءَ، وَلَا يَسْتَشِيرُ صَاحِبًا إِلَّا أَنْ يَرْجُوَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ. وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا يَتَسَخَطُ، وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَشَهَّى، وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَلَا يَعْفُلُ عَنِ الْوَلِيِّ، وَلَا يَخْصُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ دُونَ إِخْوَانِهِ مِنْ اِهْتِمَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ. فَعَلَيْكَ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقْتَهَا، وَلَنْ تَطِيقَ، وَلَكِنْ أَخِذِ الْقَلِيلَ خَيْرَ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ.

وَعَلَى ذِكْرِ قَوْلِهِ: وَإِنْ قَالَ بَرٌّ الْقَائِلِينَ قَالَ ابْنُ كَنَاسَةَ - وَاسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَيَكْنَى أَبُو يَحْيَى - فِي إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمٍ الزَّاهِدِ: الطَّوِيلُ:

رَأَيْتُكَ لَا تَرْضَى بِمَا دُونَهُ الرِّضَا	وَقَدْ كَانَ يَرْضَى دُونَ ذَلِكَ ابْنَ أَذْهَمَا
وَكَانَ يَرَى الدُّنْيَا صَغِيرًا عَظِيمُهَا	وَكَانَ لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا مُعْظَمًا
وَأَكْثَرُ مَا تَلَقَّاهُ فِي النَّاسِ صَامِتًا	وَإِنْ قَالَ بَرٌّ الْقَائِلِينَ فَأَفْحَمًا
يُشِيعُ الْغِنَى فِي النَّاسِ إِنْ مَسَّهُ الْغِنَى	وَتَلَقَّى بِهِ الْبَأْسَاءُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَا
أَهَانَ الْهَوَى حَتَّى تَجَنَّبَهُ الْهَوَى	كَمَا اجْتَنَبَ الْجَانِي الدَّمَ الطَّالِبَ الدِّمَا

أَلْفَاظُ لِأَهْلِ الْعَصْرِ فِي ذِكْرِ التَّقَى وَالزَّهْدِ

فَلَانَ عَذْبُ الْمَشْرَبِ، عَفَّ الْمَطْلَبُ، نَقِيَ السَّاحَةُ مِنَ الْمَآثِمِ، بَرِيءَ الذِّمَّةُ مِنَ الْجَرَائِمِ، إِذَا رَضِيَ لَمْ يَقُلْ غَيْرَ الصَّدَقِ، وَإِذَا سَخِطَ لَمْ يَتَجَاوَزْ جَانِبَ الْحَقِّ، يَرْجِعُ إِلَى نَفْسٍ أَمَّارَةٍ بِالْخَيْرِ، بَعِيدَةٍ مِنَ الشَّرِّ، مَدْلُولَةٌ عَلَى سَبِيلِ الْبِرِّ؛ اعْرَضَ عَنْ زِبْرِجِ الدُّنْيَا وَخُدَّعَهَا، وَأَقْبَلَ عَلَى اكْتِسَابِ نِعَمِ الْآخِرَةِ وَمُنْعِهَا. كَفَّ كَفَّهُ عَنْ زُخْرَفِ الدُّنْيَا وَنَضْرَكَهَا، وَغَضَّ طَرْفَهُ عَنْ مَتَاعِهَا وَزَهْرَتِهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَقَدْ تَعَرَّضَتْ لَهُ بِزِينَتِهَا، وَصَدَّ عَنْهَا وَقَدْ تَصَدَّدَتْ لَهُ فِي حَلِيَّتِهَا.

فَلَانَ لَيْسَ مَنْ يَقِفُ فِي ظِلِّ الطَّمَعِ، فَيُسِفُ إِلَى حَضِيضِ الطَّبْعِ، نَقِيَ الصَّحِيفَةَ، عَلِيَ عَنِ الْفُضِيحَةِ، عَفَّ الْإِزَارَ، طَاهَرَ مِنَ الْأَوْزَارِ، قَدْ عَادَ لِإِصْلَاحِ الْمَعَادِ، وَإِعْدَادِ الزَّادِ.

وَكَانَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ مِنْ أَشْرَافِ فَارَسَ، وَهُوَ مِنْ حُكَمَاءِ زَمَانِهِ، وَلَهُ مَصْنُفَاتٌ كَثِيرَةٌ، وَرِسَالٌ مُخْتَارَةٌ، وَكَانَ مُحْجَمًا عَنِ قَوْلِ الشَّعْرِ، وَقِيلَ لَهُ: لَمْ لَا تَقُولُ الشَّعْرَ؟ فَقَالَ: الَّذِي أَرْضَاهُ لَا يَجِئُنِي، وَالَّذِي يَجِيءُ لَا أَرْضَاهُ.

أَخَذَ هَذَا بَعْضُهُمْ فَقَالَ: الطَّوِيلُ:

إِلَيَّ، وَيَأْبَى مِنْهُ مَا كَانَ مُحْكَمًا
وَلَمْ أَكُ مِنْ فِرْسَانِهِ كُنْتُ مُفْحَمًا

أَبَى الشَّعْرُ إِلَّا أَنْ يَفِيءَ رَدِيَهُ
فِيَا لَيْتَنِي إِذْ لَمْ أَجِدْ حَوْكَ وَشِيَهُ

وكان ظريفاً في دينه، وذكر أنه مرَّ بيت النار فقال: الكامل:

حَذَرَ الْعَدَا وَبِهِ الْفَوَادُ مُوَكَّلُ
فَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لِأُمَيْلُ

يَا بَيْتَ عَاتِكَةِ الَّذِي أُتْعَزَلُ
أَصْبَحْتَ أَمْنُكَ الصَّدُودَ، وَإِنِّي

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، أخي بني عمرو بن عوف. وعاصم بن ثابت حميُّ الدَّبَرِ، قتله بنو لحيان من هُذَيْل يوم الرَّجِيعِ، فأرادوا أَنْ يَنْعَثُوا بِرَأْسِهِ إِلَى مَكَّةَ، وكانت سلافة بنتُ سعد نذرت لِتَشْرِينَ فِي رَأْسِهِ الْحَمْرَ، وكانَ قَتْلَ بَعْضَ وَلَدِهَا مِنْ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَحَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَخْذَ رَأْسِهِ حَمَتَهُ الدَّبَرُ - وَهِيَ النَحْلُ - فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وجعلوا يقولون: إِنَّ الدَّبَرَ لَوْ قَدْ أَمْسَى صِرْنَا إِلَى حَشْوِ اسْتِهِ، فَلَمَّا أَمْسُوا بَعَثَ اللَّهُ أَتِيَا فَوَارَاهُ مِنْهُمْ. وعاتكة التي ذكرها هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية.

ولما دخل أبو جعفر المنصورُ المدينة قال للربيع: ابغني رجلاً عاقلاً عالماً بالمدينة لِيَقْفَنِي عَلَى دُورِهَا؛ فَقَدْ بَعُدَ عَهْدِي بِدِيَارِ قَوْمِي؛ فَالْتَمَسَ لَهُ الرَّبِيعُ فَتًى مِنْ أَعْقَلِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ، فَكَانَ لَا يَبْتَدِي بِإِخْبَارٍ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمَنْصُورُ فَيُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ، وَأَجُودِ بَيَانٍ، وَأَوْفَى مَعْنَى، فَأَعْجَبَ الْمَنْصُورُ بِهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ، فَتَأَخَّرَ عَنْهُ، وَدَعَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى اسْتِنْجَازِهِ، فَاجْتَازَ بَيْتَ عَاتِكَةِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا بَيْتُ عَاتِكَةِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الْأَحْوَصُ: يَا بَيْتَ عَاتِكَةِ الَّذِي أُتْعَزَلُ... الْبَيْتَ، فَفَكَرَ الْمَنْصُورُ فِي قَوْلِهِ، وَقَالَ: لَمْ يُخَالَفْ عَادَتَهُ بِابْتِدَاءِ الْإِخْبَارِ دُونَ الاسْتِخْبَارِ إِلَّا لِأَمْرٍ، وَأَقْبَلَ يَرُدُّ الْقَصِيدَةَ وَيَتَصَفَّحُهَا بَيْتًا بَيْتًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ فِيهَا:

مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

فقال: يا ربيع، هل أوصَلْتَ إِلَى الرَّجُلِ مَا أَمَرْنَا لَهُ بِهِ؟ فقال: أَخْرَجْتَهُ عَنْهُ - لَعَلَّ ذِكْرَهَا الرَّبِيعَ - فَقَالَ: عَجَلَهُ لَهُ مُضَاعَفًا، وَهَذَا أَلْطَفُ تَعْرِيزٍ مِنَ الرَّجُلِ، وَحُسْنُ فَهْمٍ مِنَ الْمَنْصُورِ.

في الحسد

ومن كلام ابن المقفع: الحاسدُ لَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ وَلَا يَجِدُهَا مَزَالًا، وَمَكْدَرًا عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا تَجِدُهَا طَعْمًا، وَلَا يَزَالُ سَاحِطًا عَلَى مَنْ لَا يَرْضَاهُ، وَتَسْخَطُ لَمَّا لَا يَنَالُ، فَهُوَ كَظُلُومٍ هَلُوعٍ جَزُوعٍ، ظَالِمٌ أَشْبَهَ شَيْءٍ مَظْلُومٍ، مُحْرَمٌ الطَّلِبَةِ، مَنْعَصُ الْعَيْشَةِ، دَائِمُ التَّسَخُّطِ، لَا بِمَا قُسِمَ لَهُ يَقْنَعُ،

ولا على ما لم يُقسَم له يغلب، والمحسودُ يتقلب في فضلِ نعم الله مباشراً المسرور، ممهلاً فيه إلى مُدة لا يقدر الناسُ لها على قطعٍ ولا انتقاص، ولو صير الحاسدُ على ما به لكان خيراً له؛ لأنه كلما أراد أن يُطفئ نورَ الله أعلاه، ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون.
قال الطائي:

لولا التخوفُ للعواقبِ لم تزلْ
وإذا أراد الله نشرَ فضيلة
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ
أخذه البحرى فقال: الطويل:

ولنْ تَسْتَبِينَ الدهرَ موضعَ نعمةٍ
ولقد أحسنَ القائل: والبسيط:

إن يحسدوني فإني غيرُ لائمهمُ
فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ
أنا الذي يجدوني في صدورهمُ
وقال ابن الرومي لصاعد بن مَخْلَد: الطويل:

وَضَدَّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدَهُ
يَرَى زَبْرَجَ الدُّنْيَا يُزْفَ إِلَيْكُمْ
ولو قاس باستحقاقكم ما مُنَحْتُمْ
وَأَنْقُ مِنْ عَقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيدَهَا
وقال معن بن زائدة: البسيط:

إني حُسِدْتُ فزادَ الله في حَسْدي
ما يُحْسَدُ المرءُ إِلَّا مِنْ فُضائله
لا عاشَ مَنْ عاشَ يوماً غيرَ محسودٍ
بالعلم والظرف، أو بالبأس والجودِ

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد

دَبَّتْ عَقَارِبُ الحَسَدَةِ، وكمُنت أفاعيهم بكل مرصدٍ. فلان معجون من طينة الحسد والمتافسة، مضروبٌ

في قالب الضيق والمناقشة. قد وكل بي لحظاً ينتضل بأسهم الحسد. فلان جسدك كله حسد، وعقد كله حقد. الحاسد يعمى عن محاسن الصبح، بعين تُدرك حقائق القبح.
كتب محمد بن حماد يُعرض في حاجة له يبيتي شعر إلى الواثق يقول: الطويل:

جذبت دواعي النفس عن طلب المنى وقلت لها كفي عن الطلب المُرّي

فإن أمير المؤمنين بكفه مدار رحي بالرزق دائبة تجري

فوقع تحتها: جذبك نفسك عن امتهاها بالمسألة دعاني إلى صونك بسعة فضلي عليك، فخذ ما طلبت هنيئاً.

قال علي بن عبيدة: أتيت الحسن بن سهل بقم الصلح؛ فأقمتُ ببابه ثلاثة أشهر لا أحظى منه بطائل، فكتبت إليه: الطويل:

مدحت ابن سهل ذا الأيادي وما له بذاك يدٌ عندي ولا قدمٌ بعدُ

وما ذنبه، والناس إلا أقلهم عيال له، إن كان لم يك لي جدٌ

سأحمده للناس حتى إذا بدا له في رأيٍ عاد لي ذلك الحمد

فكتب إلي: باب السلطان يحتاج إلى ثلاث خلال: عقل وصبر ومال، فقلت للواسطة: تؤدّي عني؟ قال: نعم. قلت: تقول له: لو كان لي مال لأغني عن الطلب إليك، أو صبرٌ لصبرت عن الذل ببابك، أو عقلٌ لاستدللت به على التزاهة عن رُفدك! فأمر لي بثلاثين ألف درهم.

وقال علي بن عبيدة الرياحي يوماً، وقد رأى جارية يهواها: لولا البُقيةا على الضمائر لُبَحْنَا بما تُجِنه السرائر، لكن نيران الحب تتدارك بالإخفاء، ولا تُعاجل بالإبداء؛ فإن دوامها مع إغلاق أبواب الكتمان، وزوالها في فتح مصارع الإعلان. وقد قال محمد بن يزيد الأموي: مجزوء الخفيف:

لا وحبيك لا أصاً فحُ بالدمع مدمعاً

من بكى حبه استراً ح وإن كان موجعاً

ومن كلام علي بن عبيدة: اجعل أنسك آخر ما تبذل من وُدك، وصن الاسترسال منك، حتى تجد له مستحقاً، فإن الأنس لباس العرض، وتُخفّ الثقة، وحباء الأكفاء، وشعار الخاصة، فلا تُخلق جدته إلا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك.

وقال: لولا حركات من الابتهاج أجد حسها عند رؤيتك في نفسي لا أعرف لها مثيراً من مظاهها إلا مؤانستك لي، لأبقيت عليك من العناء، وخففت عنك مؤونة اللقاء، لكني أجد من الزيادة بك عندي أكثر من قدر راحتك في تأخرك عني، فأضيق عن احتمال الخسران بالوحدة منك.

وقال: لوجلي من طُلوعِ المِلاّلة بَكَرَ اللقاءَ أَستَحِفَّ التَّجَافِي مع شِدَّةِ الشَّوْقِ، لَتَبَقَى جِدَّةُ الحَالِ عند من أُحِبَّ دوامه لي؛ ورد طَرَفِ الشَّوْقِ باطناً أَيْسَرَ من مُعَانَاةِ الجَفَاءِ مع الود ظاهراً.
وقال بعضُ المحدثين: البسيط:

كم استراحَ إلي صبر فلم يُرَحِ صَبَّ إِلَيْكُم مِنَ الْأَشْوَاقِ فِي تَرَحٍ
تركتُم قَلْبَهُ من حُزْنٍ فُرَقْتُم لو يُرْزَقُ الوصل لم يَقْدِرْ على الفَرَحِ
وقال أعرابي: الطويل:

أَلَا قُلْ لِدَارٍ بَيْنَ أَكْثَبَةِ الْحِمَى وذات الغَضَى: جَادَتْ عَلَيْكَ الْهَوَاضِبُ
أَجِدْكَ لَا آتِيكَ إِلَّا تَتَابَعْتُ دموع، أَضَاعَتْ مَا حَفِظْتُ، سَوَاكِبُ
ديار تَتَسَمَّتُ الْمُنَى نَحْوَ أَرْضِهَا وطَاوَعَنِي فِيهَا الْهَوَى وَالْحَبَائِبُ
ليالي لَا الهِجْرَانُ مُحْتَكِمٌ بِهَا على وَصَلٍ مَنْ أَهْوَى وَلَا الظَّنْ كَاذِبُ

آداب الجلوس

تنازع إبراهيمُ بن المهدي وابنُ بختيشوع الطيبُ بينَ يدي أحمد بن أبي دُواد في مجلس الحكم في عقار بناحية السَّوَاد، فأرَبَى عليه إبراهيمُ وأَغْلَظَ له، فأحفظ ذلك ابنُ أبي دُواد، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعتَ في مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمَنَّ أنك رفعتَ عليه صَوْتًا، ولا أَشَرْتَ بيد، وليكن قَصْدُكَ أَمَمًا، وريئُك ساكنة، وكلامُك معتدلاً، مع وفاء مجالس الخليفة حَقَّوقها من التَّعْظِيم، والتَّوْقِير، والاستِكانة، والتَّوَجُّه إلى الواجب؛ فإن ذلك أَشْكَلُ بك، وأَشْمَلُ لمذهبك في مُحْتَدِك، وعَظِيمُ خَطْرِكَ، ولا تَعَجَلَنَّ، فَرُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيثًا، واللَّهُ يَعصمك من خَطَلِ القول والعمل، وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ كما أَتَمَّهَا على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم.

فقال إبراهيم: أَصْلَحَكَ اللَّهُ تعالى: أَمَرْتُ بِسَدَاد، وخَضَضْتَ على رشاد؛ ولستُ عائدًا لما يَنْلِمُ مُرُوعِي عندك، وَيُسْقِطُنِي من عينك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهذا أنا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذارًا مُقَرَّرَ بذنبه، مُعْتَرِفٌ بِجُرْمِهِ، ولا يزال الغضبُ يَسْتَفْزِنِي بمواده، فيردني مثلكَ بحلمه، وتلك عادةُ اللَّهِ عندك وعندنا منك؛ وقد جعلتُ حَقِّي من هذا العقار لابن بختيشوع، فليتَ ذلك يكون وأُفِيًّا بِأَرَشِ الجناية عليه؛ ولم يَتَلَفْ مال أفادَ موعظةً؛ و"حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ".

لِفا استوثق أَمْرُ أَرْدَشِير بن بابك وَجَمَعَ ملوك الطوائف، وتم له مُلْكُهُ، جمع الناسَ فخطبهم خطبة حَضٍّ

فيها على الألفة والطاعة، وحذرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصف الناس أربعة صفوف؛ فحزبوا له سجداً، وتكلم متكلمهم فقال: لا زلت أيها الملك محبوباً من الله تعالى بعزّ النصر، ودرك الأمل، ودوام العافية، وتمام النعمة، وحسن المزيد، ولا زلت تتابع لديك المكرمات، وتشفع إليك الذمّامات حتى تبلغ الغاية التي يؤمن زوالها، وتصل إلى دار القرار التي أعدّها الله تعالى لنظرائك من أهل الزلّفى عنده والمكانة منه، ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر، زائدين زيادة النجوم والأنهار، حتى تستوي أقطار الأرض كلّها في علو قدرك عليها، ونفاذ أمرك فيها، فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الصبح، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم؛ فأصبحت قد جمع الله بك الأيدي بعد افتراقها، وألف القلوب بعد توقد نيرانها، ففضلك الذي لا يدرك بوصف، ولا يحدّ بنعت. فقال أردشير: طوبى للممدوح إذا كان للمدح مستحقاً، وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً.

وقيل لأردشير: أيها الملك الرفيع الذي حلّب العصور، وجرب الدهور، أي الكنوز أعظم قدرًا؟ قال: العلم الذي خفّ محمله، فثقلت مفارقتة، وكثرت مرافقته، وخفي مكانه، فأمن من السرّق عليه؛ فهو في الملاء جمال، وفي الوحدة أنيس، يرأس به الخسيس، ولا يمكن حاسدك عليه انتقاله عنك. قيل له: فالمال؟ قال: ليس كذلك. محمله ثقیل، والهّم به طويل؛ إن كنت في ملاء شغلك الفكر فيه، وإن كنت في خلوة أتعبتك حراسته.

سير الملوك وأخبارهم

قال الجاحظ: حدّثني الفضل بن سهل قال: كانت رسل الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجعل اختلافهم إلى، فتكون المؤامرات فيما معهم من ديواني، فكنت أسأل رجلاً رجلاً منهم عن سير ملوكهم، وأخبار عظمائهم، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم، فقال: بذل عرفه، وجرّد سيفه، فاجتمعت عليه القلوب ركة ورهبة، لا ينظر جنده، ولا يُخرج رعيته؛ سهّل النوال، حزن النكال، الرجاء والخوف معقودان في يده.

قلت: فكيف حكمه؟ فقال: يردّ الظلم، ويردّع الظالم، ويعطي كل ذي حق حقه؛ فالرعية اثنان: راضٍ، ومغبط.

قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: يتصور في القلوب، فتغضي له العيون.

قال: فنظر رسول ملك الحبشة إلى إصغائي إليه، وإقبالي عليه، فسأل الترجمان: ما الذي يقوله الرومي؟ قال: يذكّر ملوكهم، ويصف سيرته؛ فتكلم مع الترجمان بشيء، فقال لي الترجمان: إنه يقول: إن ملكهم

ذو أناة عند القدرة، وذو حلم عند الغضب، وذو سَطَوَة عند المغالبة، وذو عقوبة عند الاجترام، قد كسا رعيته جميلَ نعمته، وخوفهم عسفَ نِقْمَتِهِ؛ فهم يتراءونه رأيَ الهلال خيالاً، ويخافونه مخافة الموت نكالاً، وسِعَهم عدْلُهُ، وردعتهم سَطَوَتُهُ، فلا تَمْتِنُهُ مَزْحَةً، ولا تَوَمِّنُهُ غَفْلَةً؛ إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع؛ فالناس اثنان: راج وخائف، فلا الراجي خائبُ الأمل، ولا الخائف بعيد الأجل. قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: لا ترفعُ إليه العيون أجفانها، ولا تتبعهُ الأبصارُ إنسانها، كأن رعيته قطعاً رفرت عليها صقور صوائد.

فحدثُ المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتُهما عندك؟ قلت: ألفا درهم. قال: يا فضل؛ إن قيمتهما عندي أكثرُ من الخلافة، أما عرفت قول علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما يحسن. أفتعرفُ أحداً من الخطباء البُلغاء يُحسِنُ أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصفة؟ قلت: لا. قال: فقد أمرتُ لهما بعشرين ألف دينار، واجعل العذرُ مادة بيني وبينهما في الجائزة على المعوز؛ فلو لا حقوقُ الإسلام وأهله لرأيتُ إعطاءهما ما في بيت مال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه. وقال الجاحظ: حدثني حميد بن عطاء قال: كنتُ عند الفضل بن سهل، وعنده رسولُ ملك الخزَر، وهو يحدثنا عن أُخْتٍ للملكهم، قال: أصابتنا سنةٌ احتدم شَوَاطُها علينا بحر المصائب، وصنوف الآفات؛ ففرع الناسُ إلى الملك، فلم يدر ما يُجيبهم به، فقالت أخته: أيها الملك، إن الخوفَ لله خلق لا يخلقُ جديده، وسبب لا يمتن عزيزه، وهو دالُّ الملك على استِصلاح رعيته، وزاجرُهُ عن استفسادها، وقد فزعتُ إليك رعيتهُك بفضل العجزِ عن الالتجاء إلى مَنْ لا تزيدهُ الإساءة إلى خلقه عزاً، ولا ينقصه العودُ بالإحسان إليهم مُلكاً، وما أحدٌ أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا يركوب الدلالة من الدال، ولا يحسن الرعاية من الراعي. ولم تزل في نعمة لم تغبرها نِقْمَةٌ، وفي رِضا لم يكدره سُخْطٌ، إلى أن جرى القدرُ بما عمي عنه البصر، وذُهل عنه الحذر، فسلب الموهوب، والواهب هو السالب؛ فعُدَّ إليه بشكرِ النعم، وعُدَّ به من فظيع النقم، فمتى تَنَسَّه يَنَسْكَ، ولا تجعل الحياء من التذلل للمعز سترًا بينك وبين رعيته، فتستحق مذمومَ العقابة؛ ولكن مُرْهم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنته القدرة، وتذلل الألسن في الدعاء بِمَحْضِ الشُّكْرِ له؛ فإن الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيئ فعل إلى صالح عمل، أو ليبيته على دائب شُكْرٍ يُحَرِّز به فَضْلَ أجر.

فأمرها الملك أن تقومَ فيهم فتندرهم بهذا الكلام، ففعلت، فرجع القومُ وقد علم الله منهم قبول الوَعْظِ في الأمر والنهي؛ فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمةٍ كان سُلْبُها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع؛ فاعترف لها الملك بالفضل، فقلدها المُلْكُ؛ فاجتمعت الرعية لها على الطاعة في المكروه والمحجوب. قال: وهذا وهم أعداء الله تعالى، وضرائر نعمته، ومستوجبو نِقْمَتِهِ، أعادَ لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم

بالإقرار له بكنه قدرته ما تمنوا، فكيف بمن يجمعه على الشكر نوران اثنان: قرآن متزل، ونبي مرسل، لو صدقت النيات، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات؛ لكنهم أنكروا ما عرفوا، وجهلوا ما علموا، فأنقلب جدهم هزلاً، وسكوئهم خبلاً.

قطعة صادرة من أقوال الملوك

دالة على فضل كرمهم وبعد همهم

غضب كسرى أنو شروان على بعض مرازبته، فقال: يُحط عن مرتبته، ولا ينقص من صلته؛ فإن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان. واصطنع أنو شروان رجلاً فقيل له: إنه لا قدم له. قال: اصطنعنا إياه شرفه.

قال معاوية، رضي الله عنه: نحن الزمان، من رفَعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع. وكان يقول: إني لأنف من أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يسعها جودي. عبد الملك بن مروان - أفضل الناس من تواضع عن رفعة، وعفا عن قذرة؛ وأنصف عن قوة. زياد - استشفعوا لمن وراءكم؛ فليس كل أحد يصل إلى السلطان، ولا كل من وصل إليه يقدر على كلامه.

المهلب - عَجِبْتُ لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه! وقد روى هذا لابن المبارك. وقال لبيته: يا بني، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم. قال أبو تمام الطائي يستهدي فرواً، وعرض بقول المهلب: الطويل:

فهل أنت مهديه بمثل شكيره من الشكر يعلو مُصعداً ويصوب؟

فأنت العليم الطب أي وصية بها كان أوصى في الثياب المهلب

يزيد بن المهلب - استكثروا من الحمد؛ فإن الذم قل من ينجو منه. السفاح - ما أقبح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالون من أثرها. المأمون - إنما تُطلب الدنيا لثملك، فإذا ملكت فلتوهب. وقال: إنما يتكثر بالذهب والفضة من يقلان عنده.

الحسن بن سهل - الأطراف منازل الأشراف؛ يتناولون ما يزيدون بالقدر، ويتناهم من يريدهم بالحاجة. وتعرض له رجل فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إلي يوم كذا وكذا. فقال: مرحباً بمن توسل

إلينا بنا.

ولما أراد المعتصم أن يشرف أشناس التركي بعقب فَتَح الخزمية أمر أصحاب المراتب بالترجّل إليه، فترحل إليه الحسن بن سهل، فنظر إليه حاجبه يمشي ويتعثّر في مشيه، فبكى، فقال: ما يبكيك؟ إن الملوك شرفتنا وشرفت بنا.

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالي قابوس بن وَشْمَكِير - مَنْ أَعْدَتُهُ نكايه الأيام أقامته إغاثة الكرام؛ ومن ألبسه الليل ثوب ظلماته نزعته النهار عنه بضياؤه.
وله: ابتناء المناقب باحتمال المتاعب، وإحراز الذكر الجميل بالسَّعي في الخطب الجليل.
الصاحب بن عباد: المتقارب:

وقائلة: لِمَ عَرَّتْكَ الهُمُومُ وَأَمْرُكَ مُمْتَلِئٌ فِي الْأُمَمِ؟

فقلت: ذَرَيْتَنِي لَمَّا أَشْتَكِي فَإِنَّ الْهَمُومَ بِقَدْرِ الْهَمِّ

أبو الطيب المتنبّي: البسيط:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفُطَنِ

أبو الفتح البستي: الرمل:

صاحبُ السلطان لا بُدَّ لَهُ مِنْ هُمُومٍ تَعْتَرِيهِ وَغَمٍّ

وَالَّذِي يَرْكَبُ بَحْرًا سَيَرَى قَحَمَ الْأَهْوَالِ مِنْ بَعْدِ قَحَمِ

ومن كلام الملوك الجاري مجرى الأمثال

أردشير - إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيةُ عن الطاعة.
أفريدون - الأيام صحائفُ آجالِكُم، فخلدوها أحسنَ أعمالِكُم.
وقيلَ للإسكندر: ما بال تعظيمك لمؤدّبك أكثر من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأنّ أبي سببُ حياتي الفانية ومؤدّبي سببُ حياتي الباقية.
ودخل محمد بن زياد مؤدّب الوثائق على الوثائق، فأظهر إكرامه، وأكثر إعظامه، فقيل له: مَنْ هذا أيا أمير المؤمنين؟ قال هذا أولُ من فَتَقَ لِسَانِي بِذِكْرِ اللَّهِ، وَأَذْنَانِي مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.
وأشير على الإسكندر بتببیت الفرس، فقال: لا أجعل غلبتي سِرْفَةً. وقيل له: لو تزوّجت بنت دارا؟ فقال:

لا تغلبي امرأة غلبت أباهـا.

أنوشروان - الملك إذا كثر ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلعه من قواعد بُنيانه.
أبرويز - أطع مَنْ فوقك يطعك مَنْ دونك.

السفاح - إن من أدنى الناس ووضعاثهم من عدّ البخل حَزْماً، والعفو ذُلّاً. وكان يقول: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة، والصبر حسن إلا على ما أوقع بالدين، وأوهى السلطان؛ والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

وقد قال ابن المعتز: الكامل:

كم فرصة ذهبت فعادت غصةً تشجي بطول تلّهِفٍ وتندّم

ولما عزم المنصور على الفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب إليه: الطويل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبرٍ فإن فساد الرأي أن تتعجلاً

فأجابه المنصور: الطويل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تترددا

ولا تمهل الأعداء يوماً بغدوة وبادرهم أن يملكوا مثلها غداً

وهذا في موضعه كقول الإمام علي، كرم الله وجهه: من فكر في العواقب لم يشجع.

وقال سعد بن ناشب فأفرط: الطويل:

عليكم بداري فاهدموها؛ فإنها تراث كريم لا يخاف العواقبا

إذا هم ألقى بين عينيهِ عزمه وكبّ عن ذكرِ العواقب جانبا

ولم يستشِرْ في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيفِ صاحبا

سأغسل عني العار بالسيف جالبا علي قضاء الله ما كان جالبا

ويصغرُ في عيني تلادي إذا انتنت يميني بإدراك الذي كنت طالبا

وكان سعد من مرَدّة العرب وشياطين الإنس، وفيه يقول الشاعر: الطويل:

وكيف يُفِيقُ الدهرَ سعدُ بن ناشبٍ وشيطانُهُ عند الأهلهِ يُصرَعُ؟

كتب مروان بن محمد الجعدي إلى عبد الله بن علي يسأله حفظَ حرمة، فقال له: الحق لنا في دمك، وعلينا في حرمك.

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح: إياك والدالة فإنها تفسد حرمة، ومنها أتى البرامكة.
 وقال المأمون: الملوك تَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا ثَلَاثًا: إِفْشَاءَ السِّرِّ، والقَدَحِ فِي الْمَلِكِ، والتَّعَرُّضَ لِلْحَرَمِ.
 المعتصم: إذا نُصِرَ الهوى بطل الرَّأْيُ.
 المنتصر - لَذَّةُ الْعَفْوِ أَطْيَبُ مِنْ لَذَّةِ التَّشْفِي؛ وذلك أن لَذَّةَ الْعَفْوِ يَلْحَقُهَا حَمْدُ الْعَاقِبَةِ، وَلَذَّةُ التَّشْفِي يَلْحَقُهَا ذَمُّ النَّدَمِ.

والمنتصر يقول عن تجربة، لأنه قتل أباه المتوكل، والأمر في ذلك أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُذَكَّرَ، ولكي أُلْمِعَ مِنْهُ بالسَّيْرِ: كَانَ الْمُتَوَكِّلُ قَدْ عَقَدَ لَوْلَدِهِ الْمُنْتَصِرِ وَالْمُعْتَزِّ وَالْمُؤَيَّدِ وَلَايَةَ الْعَهْدِ، ثُمَّ تَغَيَّرَ عَلَى الْمُنْتَصِرِ دُونَ أَخَوَيْهِ، وَكَانَ يُسَمِّيهِ الْمُتَنْظِرَ، وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ تَتَمَنَّى مَوْتِي، وَتَتَنْظَرُ وَقْتِي! وَيَأْمُرُ النَّدَمَاءَ أَنْ يَعْبَثُوا بِهِ، إِلَى أَنْ أَوْغَرَ صَدْرَهُ، وَأَقْلَّ صَبْرَهُ؛ فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْأَرْبَعَاءِ ثَلَاثِ خَلَوْنَ مِنْ شَوَالٍ سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ يَشْرَبُ مَعَ الْفَتْحِ فِي قَصْرِهِ الْمَعْرُوفِ بِالْجَعْفَرِيِّ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّدَمَاءِ وَالْمَغْنِيِّينَ، وَكَانَ الْمُنْتَصِرُ مَعَهُمْ، فَلَمَّا انْصَرَمَتْ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ لَزُرَّافَةَ التُّرْكِيِّ: أَلَا تَسْعُنِي سَاعَةٌ حَتَّى أَشْكُو إِلَيْكَ مَا يَمُرُّ بِي؟ قَالَ: بَلَى، وَجَعَلَ يَمَاطِلُهُ وَيَطَاوِلُهُ، وَغَلَّقَ بُغَا الشَّرَايِبِ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا إِلَّا بَابَ الْمَاءِ، وَمِنْهُ دَخَلَ الَّذِينَ قَتَلُوهُ، فَأَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهُ بَاغِرُ التُّرْكِيِّ ضَرْبَةً قَطَعَ بِهَا حَبْلَ عَاتِقِهِ، وَتَلَقَّاهُ الْفَتْحُ بِنَفْسِهِ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ، فَقَتَلَا جَمِيعًا، وَبَوَّعَ الْمُنْتَصِرُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَكَانَتْ مَدَّةُ الْمُنْتَصِرِ فِي الْخِلَافَةِ مَدَّةَ شِيرَوِيهِ ابْنِ كَسْرَى - حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ - سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدي يرثي المتوكل: الخفيف:

هكذا فَلَتَكُنْ مَنَايَا الْكِرَامِ بَيْنَ نَائِي وَمِزْهَرٍ وَمُدَامِ
 بَيْنَ كَاسِينَ أَرْوَتَاهُ جَمِيعًا كَاسُ لَذَاتِهِ وَكَاسُ الْحِمَامِ
 يَقِظُ فِي السَّرُورِ حَتَّى أَتَاهُ قَدْرُ اللَّهِ حَقَّقَهُ فِي الْمَنَامِ
 وَالمَنَايَا مَرَاتِبٌ يَتَفَاضَلُ نَ وَبِالْمُرْهَفَاتِ مَوْتُ الْكِرَامِ
 لَمْ يَزِرْ نَفْسَهُ رَسُولُ الْمَنَايَا بِصُنُوفِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ
 هَابَهُ مُعَلَّنًا قَدَبٌ إِلَيْهِ فِي سُتُورِ الدُّجَى بَحْدُ الْحَسَامِ

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التيمي، فقال يرثي عيسى بن خلف، صاحب خراج المغرب، وكان قد تناول دواءً فمات بسببه: الطويل:

مَنَايَا سَدَدَتْ الطَّرِيقَ عَنْهَا وَلَمْ تَدْعِ لَهَا مِنْ ثَنَائِي شَاهِقٍ مُتَطَلِّعَا
 فَلَمَّا رَأَتْ سُورَ الْمَهَابَةِ دُونَهَا عَلَيْكَ وَلَمَّا لَمْ تَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

ترقّت بأسبابٍ لطافٍ ولم تكد
فجاءتك في سرِّ الدواء خفيّةً
فلم أر ما لا يَبْقَى مثل سَهْمها
تواجه موفور الجلالة أروعا
على حينٍ لم تحذر لداء توقُّعا
ولا مثلها لم تخش كيدا فترجعا

وقد رثاه البحري ويزيد المهلي. بمرثيتين من أجود ما قيل في معنهما، وكانا حاضرين ليلة قتله. فاختمني أحدهما في طيّ الباب، والآخر في قناة الشاذروان؛ فمن قصيدة البحري: الطويل:

تَغَيَّرَ حَسَنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأُنْسَهُ
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً
ولم أرَ مثلَ القَصْرِ إِذْ ربيعَ سِرْبُهُ
وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَنَّتْ
إِذَا نحنَ زُرْنَاهُ أَجَدَ لَنَا الْأَسَى
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ
تَخَفَى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ
صَرِيحُ تَقَاضَاهُ السِّیُوفُ حُشَّاشَةً
حَرَامَ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طَالِبٌ
فَلَا مَلِيَّ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى
وَقُوْضَ بِأَدِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ
فَاضَتْ سِوَاءَ دُورِهِ وَمَقَابِرُهُ
وَإِذْ دُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَازِرُهُ
عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهُ
وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يُبْهِجُ زَائِرُهُ
تَتُوبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَأَمْرُهُ
وَأُولَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يَجَاهِرُهُ
يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ حُمْرُ أَظْفَرُهُ
دَمًا بَدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالْدمِ وَاتِرُهُ
وَلَا حَمَلْتُ ذَاكَ الدَّعَاءَ مَنَابِرُهُ

وهي طويلة، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها: ما قيلت هاشمية أحسن منها، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب.

وقد كان البحري يرتاح في كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفتح بن خاقان، فمن ذلك قوله لبعض من يمدحه: الطويل:

تَدَارَكْنِي الْإِحْسَانُ مِنْكَ، وَنَالَنِي
وَدَافَعْتَ عَنِّي حِينَ لَا الْفَتْحُ يُرْتَجَى
على فاقةٍ ذاك النَّدى وَالتَّطَوُّلُ
لِدَفْعِ الْأَذَى عَنِّي وَلَا الْمَتَوَكَّلُ

وقال: الطويل:

مَضَى جَعْفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوسَدٍ
وبين قَتِيلٍ فِي الدَّمَاءِ مُضَرَجٍ

أَطْلُبُ أَنْصَاراً عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَمَا ثَوَىٰ مِنْهُمَا فِي التُّرْبِ أَوْسَىٰ وَخَزَرَجِي؟
وقال في غلام له: الطويل:

عسى آيسٌ من رَجْعَةِ الوصلِ يوصلُ ودَهْرٌ تَوَلَّى بِالْأَحْبَةِ يُقْبِلُ
أَيَّا سَكناً فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ وَحَالَ التَّعَادِي دُونَهُ وَالتَّزِيلُ
أَتَعْجَبُ لَمَّا يَغْلُ جِسْمِي الضَّنَا وَلَمْ يَخْتَرْمْ نَفْسِي الْحِمَامُ الْمُعْجَلُ؟
فَقَبَّلَكَ بَانَ الْفَتْحُ مِنِّي مَوْدَعاً وَفَارَقَنِي شَفْعاً لَهُ الْمُتَوَكِّلُ
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِي كُنْتُ أُرْتَجِي وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِي خِلْتُ يَفْعَلُ

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلب في قصيدة أولها: البسيط:

لَا وَجْدَ إِلَّا أَرَاهُ دُونَ مَا أَجْدُ وَلَا كَمَنْ فَقَدْتُ عَيْنَايَ مُفْتَقِدُ
يقول فيها:

لَا يَبْعَدُنْ هَالِكُ كَانَتْ مَنِيَّتُهُ كَمَا هَوَىٰ مِنْ عَضَاهِ الزُّبْيَةُ الْأَسَدُ
جَاءَتْ مَنِيَّتُهُ وَالْعَيْنُ هَادِيَةٌ هَلَا أَتَتْهُ الْمَنَايَا وَالْقَنَا قُصْدُ؟
فَخَرَّ فَوْقَ سَرِيرِ الْمَلِكِ مُنْجَدِلاً لَمْ يَحِمِهِ مُلْكُهُ لَمَّا انْقَضَى الْأَمْدُ
لَا يَدْفَعُ النَّاسُ ضَيْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِمْ إِذْ لَا يَهْزُ إِلَى الْجَانِي عَلَيْكَ يَدُ
عَلَّتْكَ أَسْيَافُ مَنْ لَا دُونَهُ أَحَدُ وَلَيْسَ فَوْقَكَ إِلَّا الْوَاحِدُ الصَّمْدُ
إِذَا بَكَيْتُ فَإِنَّ الدَّمْعَ مُنْهَمِلُ وَإِنْ رَثَيْتُ فَإِنَّ الشَّعْرَ مُطْرَدُ
إِنَّا فَقَدْنَاكَ حَتَّى لَا اصْطَبَارَ لَنَا وَمَاتَ قَبْلَكَ أَقْوَامٌ فَمَا فُقدُوا
قَدْ كُنْتُ أَشْرَفُ فِي مَالِي فَتُخْلِفُهُ فَعَلِمْتَنِي اللَّيَالِي كَيْفَ أَقْتَصِدُ

وقال فيها يذكر الأتراك، ويحض على اصطناع العرب:

لَمَّا اعْتَقَدْتُمْ أَنَا سَاءَ لَا حِفَاطَ لَهُمْ ضَعِغْتُمْ وَضِيعْتُمْ مَنْ كَانَ يُعْتَقَدُ
وَلَوْ جَعَلْتُمْ عَلَى الْأَحْرَارِ نَعْمَتَكُمْ حَمَتَكُمْ الذَّادَةُ الْمُنْسُوبَةُ الْحُشْدُ

قَوْمُ هُمُ الْأَصْلُ وَالْأَسْمَاءُ تَجْمَعُكُمْ وَالِدَيْنُ وَالْمَجْدُ وَالْأَرْحَامُ وَالْبَلَدُ
إِنَّ الْعَبِيدَ إِذَا أَذَلَّتْهُمْ صَلَحُوا عَلَى الْهَوَانِ وَإِنْ أَكْرَمَتْهُمْ فَسَدُوا

وقال أبو حية النميري: الطويل:

رَمَتْهُ فَتَاةٌ مِنْ رِبِيعَةٍ عَامِرٍ
فَقُلْنَ لَهَا فِي السَّرِّ: نَفْدِيكَ لَا يَرْحُ
فَأَلْقَتْ قِنَاعاً دُونَهُ الشَّمْسُ وَأَتَقَتْ
وَقَالَتْ فَلَمَّا أَفْرَعَتْ فِي فُؤَادِهِ
فَأَصْبَحَ لَا يَذَرِي أَفِي طَلْعَةِ الضُّحَى
نَوْومَ الضُّحَى فِي مَأْتَمٍ أَيْ مَأْتَمٍ
صَحِيحاً وَإِلَّا تَقْتُلِيهِ فَأَلْمَمِي
بِأَحْسَنَ مَوْصُولَيْنِ كَفَّ وَمَعَصَمٍ
وَعَيْنِيهِ مِنْهَا السَّحَرُ قَالَتْ لَهُ نَمِ
تَرَوْحَ أَمْ دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمٍ

أخذ قوله: فألقت قناعاً دونه الشمس من قول النابغة الذبياني: الكامل:

قَامَتْ تَرَاءَى بَيْنَ سَجْفَيِ كَلَةٍ
سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ
كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ
فَتَتَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وقال أبو حية يرثي سلمة بن عياش: الطويل:

كَأَنَّ أَبَا حَفْصٍ فَتَى الْبَاسِ لَمْ يُجَبْ
إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى، وَلَمْ تَهْدِ فَتْيَةً
وَيُعْمَلُ عِتَاقَ الْعَيْسِ حَتَّى كَانَهَا
بَعِيدَ مِثْلَانِي الْهَمُّ يُمَسِّي وَمَالُهُ
يَرُومُ جَسِيمَاتِ الْعُلَا فِينَالِهَا
فَإِنْ يَمَسِ وَحْشاً بَابُهُ فَلَرُبَّمَا
يَحْيُونَ بِسَامِماً كَأَنَّ جَبِينَهُ
وَمَا غَائِبٌ مَنْ غَابَ يُرْجَى إِيَابُهُ
بِهِ اللَّيْلِ وَالْبَيْضِ الْقِلَاصِ النَجَائِبُ
كَرَاماً وَتَخْطُوهُ الْخُطُوبُ النَوَائِبُ
إِذَا وَضِعَتْ عَنْهَا الْعَلَايَا الْمَشَاجِبُ
سِوَى اللَّهِ وَالْعَضْبِ السَّرِيجِي صَاحِبِ
فَتَى فِي جَسِيمَاتِ الْمَكَارِمِ رَاغِبُ
تَوَاتَرُ أَفْوَاجاً إِلَيْهِ الْمَوَاكِبِ
هَلَالٌ بَدَا وَانْجَابَ عَنْهُ السَّحَائِبُ
وَلَكِنَّهُ مِنْ ضَمْنِ اللَّحْدِ غَائِبُ

وزعم الصولي أن أبا حية إنما قالها في محمد بن سليمان بن علي بن عبيد الله بن العباس. وكان أبو حية جدي الطبع، مألوف الكلام، رقيق حواشي الشعر.

وسئل الأصمعي عن قيس بن الملوح المجنون، فقال: لم يكن مجنوناً، وإنما كانت به لؤثة كلوثة أبي حية، وهو القائل: الطويل:

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
رَمِيمُ الَّتِي قَالَتْ لَجَارَاتِ بَيْتِهَا:
أَلَا رَبُّ يَوْمَ رَمَتْنِي رَمِيَّتَهَا
عَشِيَّةَ أَحْجَارِ الْكِنَاسِ رَمِيمُ
ضَمَنْتُ لَكُمْ أَلَا يَزَالُ يَهِيمُ
وَلَكِنْ عَهْدِي بِالنَّضَارِ قَدِيمُ

فيا عجباً من قاتلٍ لي أودُّهُ
يرى الناسُ أني قد سلَّوتُ، وإنني
وأُنشدني إسحاق بن إبراهيم الموصلي في مثله، ولم يسمَّ قائله: الطويل:

هل الأدم كالآرام والزهر كالدمى
زمانٍ سِلَاحيَ بينهنَّ شبيبتي
فأقسمن لا يسقينني قطراً مُزَنَةً
وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم: مجزوء الكامل:

الغانيات عهدُهُ
مَنْ شابَّ شَيْنَ له المودَّ
فأنعمَ بهنَّ وزندُ سنٍ
ما دُمتَ في روق الصبَا
فأفخرَ بأيام الصبَا
وَأعطِ الشبابَ نصيبهُ
وقال أشجع بن عمرو السلمي: الطويل:

وما لي لا أعطي الشبابَ نصيبهُ
رأيتُ الليالي ينتهبن شبيبتي
وغصناه يهتزَّان في عُوده الرطبِ
فأسرعتُ باللذات في ذلك النهبِ

فإنَّ بنات الدهر يخلصنَ لذتي
وقد حوَّلت حالي الليالي وأسرجت
وموتَ الفتى خيراً له من حياته
وقال آخر: مجزوء الكامل:

ما العيش إلا أن
تحب وأن يحبك من تحبه

فقرّ تتصل بهذه الأبيات، وفي وصف الشباب

أطاع الشبابَ وغرَّته، وأجاب الصباَ وشرَّته، جرَّ إزارَ الصبا، وأذالَ ذيولَ الهوى، ورَكَضَ في ميدانِ التصابي، وجنى ثمراتِ الملاهي. هو في إقبالِ شبابه، وحادثةِ أترابه، ورِيَّعَانِ عمره، وعُنفوانِ أمره. هو في إبانِ شبابه واعتداله وريعانِ إقباله وأقباله. بعثه على ذلك أشرُّ الصبا، ولينَ الغصنِ، وشرُّخُ الشبيبة، وسكرِ الحداثة، فتي السن، رطيبِ الغصنِ، عمره في إقباله، ونشاطه في استقباله، وشبابه في اقتباله، وماؤه بحاله. فلانٌ في حكمِ الأطفال، الذين لم يعضُّوا على نواجذِ الرجال. هو في عنفوانِ شبيبةٍ تُخافُ سقطاتها وهفواتها، ولا يؤمن جِحاحها ونزواتها. هو في سكرِ الشباب والشراب، وبين نزواتِ الشبان، ونزغاتِ الشيطان. شبابه أعمى عن الرشد، أصمُّ عن العذل، قد لبَّى دَاعِيَ هَواه، وانغمس في لُجَّةِ صِبَاه. قد هَجَمَ بسكرِ الحداثة على سكراتِ الحوادث، يَجْري إلى الصِّبا جَرِيَّ الصِّبا. فلانٌ غُفْلٌ من سِمةِ التَّجربة، جامحٌ في عِذارِ الغفلة، صَعْبُ المراس على لجامِ العظة. هو من سلطانِ الصِّبا في التَّوبةِ الأولى. قد خلع عِذاره ومِقودَه، وألقَى إلى البطالة باعَه ويَدَه. هو بين خُمَارِ الغداة وسكرِ العشي لا يعرف الصُّحو، ولا يفارق اللهو. فلان لا يفيق، ولا يذكر التوفيق. هو بين غررِ الشباب، وغررِ الأحباب.

ويتعلّق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم

في نجابة الشباب وترشحهم للمعالي

قد جمع نَضارةُ الشباب إلى أبهة المشيب، وهو على حدوث ميلاده وقُربِ إسناده شيخٌ قَدَرٌ وَهِيبةٌ، وإن لم يكن شيخَ سنٍّ وشيئةً. هو بين شبابٍ مُقتبل، وعقلٍ مُكتمل، قد لبس بُردَ شبابه على عَقْلٍ كهل، ورَأْيٍ جزل، وَمَنْطِقٍ فصل. للدهر فيه مقاصد، وللأيام فيه مَواعِد، أرى له عي فصلِ ضمانِ الأيام ودائعِ الحظوظ والأقسام، تَبَاشِيرَ نَجح، ومَخَايِلَ نَضْرٍ وفتح. قد استكمل قوَّةَ الفضل، ولم يتكامل له سنُّ الكهل. ما زالت مَخَايِلُهُ وليدًا وناشئًا، وشَمَائِلُهُ صَغِيرًا ويافعًا، نواطِقُ بالحسن عنه وضوامينِ النجح فيه! قد سما إلى مراتبِ أَعْيَانِ الرجال، التي لا تدرك إلا مع الكمال والاكتهال. حمِدَتِ عزائمه، قبل أن حُلَّتِ ثَمائمه؛ وشهدت مكرماته، قبل أن تدرجَ لِدَاته. وقال البحرّي: البسيط:

في السن وانظر إلى المجد الذي شادَا

لا تنتظرن إلى العباس من صغر

في العين أذهبها في الجورِ إصعادَا

إن النجوم نجومَ الأفقِ أصغرها

وقال آخر: الوافر:

ولم يقسم على قدرِ السنينَا

رأيت العقل لم يكن انتهابَا

حوى الآباء أنصبه البنينا

فلو أن السنين تقسمته

وقال الفضل بن جعفر الكاتب: الطويل:

به رتبة الكهل المؤهل للمجد

فإن خلفته السن فالعقل بالغ

صبياً وعيسى كلم الناس في المهدي

فقد كان يحيى أوتي الحكم قبله

وكان أبو حية كثير الرواية عن الفرزدق، وعمر حتى التقى بابن مناذر فاستنشد شعره، فأنشد أبو حية: الطويل:

لبسن البلى مما لبسن الليالي

ألا حي من أجل الحبيب المغانيا

تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة

سوي العصا لو كن يبقين باقيا

حنتك الليالي بعدما كنت مرة

فقال ابن مناذر: أو شعر هذا؟ فقال أبو حية: ما في شعري عيب، غير أنك تسمعه.

وفي هذه القصيدة يقول أبو حية: الطويل:

وتكديرها الشرب الذي كان صافيا

ولما أبت إلا التواء بوذها

وكيف يعاف الرنق من كان صاديا؟

شربت برنق من هواها مكدّر

وقد قال عمرو بن قميئة في معنى قول أبي حية: الكامل:

فألانها الإصباح والإمساء

كانت قناتي لا تلين لغامر

ليُصِحني فإذا السلامة داء

ودعوت ربي في السلامة جاهداً

وقال النمر بن تولب: الطويل:

فكيف يرى طول السلامة يفعل؟

يود الفتى طول السلامة والبقا

ينوء إذا رام القيام ويحمل

يعود الفتى من بعد حسن وصحة

وقد روي في الحديث الشريف: "كفى بالسلامة داء".

وقد أحسن حميد بن ثور في قوله: الطويل:

وحسبك داء أن تصح وتسلما

أرى بصري قد رابني بعد صحة

إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ولن يلبث العصران يوم وليلة

وهذان البيتان من قصيدة طويلة، وهي أجود شعر حميد، ومن أجود ما فيها: الطويل:

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةً
تَرُوحُ عَلَيْهِ وَالْهَاءُ تَمُتْ
تُؤْمَلُ مِنْهُ مُؤْنِسًا لَانْفِرَادِهَا
كَأَنَّ عَلَى إِشْرَاقِهِ نَوْرَ خَمْرَةٍ
فَلَمَّا اكْتَسَى الرِّيشَ السُّحَامَ وَلَمْ تَجِدْ
تَحْتَ قَرِيبًا فَوْقَ غُصْنٍ تَذَعَّبَتْ
فَأَهْوَى لَهَا صَقْرٌ مُسِفٌ فَلَمْ يَدَعْ
فَأَوْفَتْ عَلَى غُصْنٍ ضَحِيًّا وَلَمْ تَدَعْ
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غَنَاؤُهَا
فَلَمْ أَرِ مِثْلِي شَاقَّةً صَوْتُ مِثْلِهَا

ومن حيث الهجاء قوله في هذه القصيدة يخاطب رجلين بعثهما: الطويل:

وقولا إذا جاوزتما أرضَ عامرٍ
تريعان من جرمِ زيانٍ أنهم
وجاوزتما الحيينَ نهذاً وخنعما
أبوا أن يريقوا في الهزاهزِ محجماً

وما هُجيت جرم بأشد من هذا، يريد أنهم لذتهم لم يترروا أحداً فيطالبهم بدخل.
وقال الأصمعي: قيل لبعض الصالحين: كيف حالك؟ قال: كيف حال من يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته،
ويؤتى من مأمته.

وقال محمود الوراق: الطويل:

يُحِبُّ الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ كَأَنَّهُ
إِذَا مَا طَوَى يَوْمًا طَوَى الْيَوْمُ بَعْضَهُوَيَطْوِيهِ إِنَّ جَنَ الْمَسَاءِ مَسَاءُ
زِيَادَتِهِ فِي الْجِسْمِ نَقْصُ حَيَاتِهِ
جَدِيدَانِ لَا يَبْقَى الْجَمِيعُ عَلَيْهِمَا
وَأُنَى عَلَى نَقْصِ الْحَيَاةِ نَمَاءُ؟
وَلَا لِهَمَا بَعْدَ الْجَمِيعِ بَقَاءُ

وقال المتنبي: الطويل:

زِيَادَةُ شَيْبٍ وَهِيَ نَقْصُ زِيَادَتِي
وَقُوَّةُ عِشْقٍ وَهِيَ مِنْ قُوَّتِي ضَعْفُ

وبيت محمود الأخير كقول البحري: الوافر :

أَنَا أَيْهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ
أَنْهَبُ مَا تُصَرِّفُ أَمْ جُبَارُ؟

سَتَفْنَى مِثْلَ مَا تَفْنَى وَتَبْلَى
تُتَابُ النَّائِبَاتُ إِذَا تَنَاهَتْ
وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ
ويقول فيها:

لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالٌ
أَمَّا وَأَبِي بَنِي حَارِ بْنِ كَعْبٍ
أَصَابَ الدَّهْرُ دَوْلَةَ آلِ وَهْبٍ
أَعَارَهُمْ رَدَاءَ الْعِزِّ حَتَّى
نَرَجِيهَا وَأَعْمَارٌ قِصَارُ
لَقَدْ طَرَدَ الزَّمَانُ بِهِمْ فَسَارُوا
وَنَالَ اللَّيْلُ مِنْهُمْ وَالنَّهَارُ
تَقَاضَاهُمْ فَزَدُوا مَا اسْتَعَارُوا

وقد كانوا وَأَوْجُهُهُمْ بُدُورٌ
أخذ قوله: سَتَفْنَى مِثْلَ مَا تَفْنَى أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ هَانِيٍّ فَقَالَ: الْكَامِلُ:

تَفْنَى النُّجُومُ الزَّهْرُ طَالِعَةٌ
وَلَنْ تَبْدَتْ فِي مَطَالِعِهَا
وَلَنْ سَعَى الْفَلَكَ الْمَدَارُ بِهَا
وَالنَّيِّرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
مَنْظُومَةٌ فَلَسَوْفَ تَنْتَثِرُ
فَلَسَوْفَ يُسَلِّمُهَا وَيَنْفَطِرُ

وقد استقصى علي بن العباس الرومي المعنى الأول فقال: البسيط:

وَالدَّهْرُ يُبْلَى الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُنْشِئُهُ
يَغْذُوهُ فِي كُلِّ آنٍ وَهُوَ يَأْكُلُهُ
يُودِي بِحَالٍ فَحَالٍ مِنْ شَبِيبَتِهِ
حَسْبُ امْرِئٍ مِنْ خَنَى دَهْرٍ تَطَاوَلُهُ
حَتَّى تَكُرَّ عَلَيْهِ لَيْلَةُ الْقَرَبِ
وَيَحْتَسِي نَغْبًا مِنْهُ عَلَى نَغْبِ
تَسْرَبِ الْمَاءِ فِي مُسْتَأْنَفِ الْكُتُبِ
وَإِنْ أَجْمَ فَلَمْ يُنْكَبْ وَلَمْ يُنَبِّ
فِي هُدْنَةِ الدَّهْرِ كَافٍ مِنْ وَقَائِعِهِ
وَالْعَمْرُ أَقْدَحُ مِبرَاةٍ مِنَ الْوَصَبِ

وقال أيضاً: البسيط:

يَا بَانِي الْحِصْنِ أَرْسَاهُ وَشَيْدُهُ
انْظُرْ إِلَى الدَّهْرِ هَلْ فَاتَتْهُ بَغِيَّتُهُ
وَمَنْ تَحْصَنَ مَخُوبًا عَلَى وَجَلٍ
حِرْزاً لَشِلُو مِنْ الْأَعْدَاءِ مَشْجُونِ
فِي مَطْمَحِ النِّسْرِ أَوْ فِي مَسْبَحِ النُّونِ
فَإِنَّمَا حِصْنُهُ سِجْنٌ لِمَسْجُونِ

بل ليس جهلاً ولكن عِلْمُ مفتونٍ

أشكو إلى الله جهلاً قد أضَرَ بنا

وقال الطائي: الطويل:

أولئك عُقالاتُهُ لا مَعَاقلُهُ

وإن تُبْنَ حيطان عليه فإنما

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغير، فأخبر أنه مشغول، فرجع، فبعث إليه الرشيد: خُتِنِي فَاهْمَتَنِي، فقال: إذا انْقَضَتِ المدة كان الْحَتْفُ في الحيلة، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفاً. أخذه ابن الرومي فقال وقد فصدته بعضُ الأطباء، فزعم أن الفصدَ زاد في علته: الكامل:

عجزت محالته عن الإصدار

غلط الطبيبُ عليَ غَلْطَةِ مُوردٍ

غلطُ الطبيبِ إصابَةُ المقدارِ

والناسُ يَلْحَوْنَ الطبيبَ، وإنما

ما قيل في الثغر

وقال أبو حية النميري: الطويل:

رِقَاقُ الثَنَائِيَا عَذْبَةُ المِترَقِ

سَقَتْنِي بِكَاسِ الحَبِّ صِرْفاً مَرَوَقاً

كَنُورِ الأَقَاخِي طِيبِ المِنتَوَقِ

وَحُمُصَانَةٍ تَقْتَرُ عَنْ مِنتَشِقِ

أَنَابِيْبَ مِنْ عُوْدِ الأَرَاكِ المَخْلَقِ

إِذَا امْتَضَغْتَ بَعْدَ امْتِنَاعِ مِنَ الضَحَى

فَضِيضاً بِخَرْطُومِ الرِّحِيْقِ المَرَوَقِ

سَقَتَ شُعْبَ المِسْوَاكِ مَاءَ غَمَامَةٍ

وأنشد الثوري: الطويل:

وكالدر منظوماً إذا لم تكلم

تري الدر منشوراً إذا ما تكلمت

وتملأ عين الناظر المتوسم

تعبد أحرار القلوب بدلها

والبيت الأول من هذين كقول البحري: الطويل:

ومن لؤلؤ عند الحديث تُسَاقِطُهُ

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

وقد تقدم.

قال أبو الفرج الرياشي: سمعت الأصمعي يقول: أحسن ما قيل في وصف الثغر قول ذي الرمة: الطويل:

من العَنَبَرِ الهِنْدِيِّ والمِسْكُ يُصْبَحُ

وَتَجْلُو بِفَرْعٍ مِنْ أَرَاكِ كَأَنَّهُ

إِلَيْهِ النَّدَى مِنْ رَامَةِ المِترَوَحِ

ذُرَى أَقْحُوَانٍ وَاجِهَ اللّيلِ وَارْتَقَى

لَأَخْرَسَ عَنْهُ كَادَ بِالقَوْلِ يُفْصِحُ

هَجَانِ الثَنَائِيَا مُعْرِبَ لَوْ تَبَسَّمتُ

ومن قدم هذا المعنى وجيده قولُ النابغة الذبياني في صفة المتجرّدة امرأة النعمان بن المنذر: الكامل:

تَجَلَوْ بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْكَةً
كَالْأَفْحُوَانِ غَدَاةَ غَبٍّ سَمَائِهِ
بَرْدًا أَسْفَلَ لِنَاتِهِ بِالْإِثْمِ
جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِي
زَعَمَ الْهُمَامُ بَأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ
عَذَبٌ مَقْبَلُهُ شَهِي الْمَوْرِدِ

زَعَمَ الْهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ أَنَّهُ
وَمِنْ قَوْلِهِ - وَلَمْ أَذُقْهُ أَخَذَ كُلٌّ مِنْ أَتَى بِهَذَا الْمَعْنَى، فَفَتَقَهُ النَّاسُ بَعْدَهُ، قَالَ الْمُتَوَكِّلُ اللَّيْثِيُّ: الْوَافِرُ:
كَأَنَّ مَدَامَةً صُهْبَاءَ صَرِيفًا
تُعَلُّ بِهَا التَّنَائِيَا مِنْ سُلَيْمَى
يَشْفِي بَرِيًّا رِيْقَهَا الْعَطِشُ الصَّدْيُ
تَرَقَّرَقُ بَيْنَ رَاوُوقٍ وَدَنٍ
فِرَاسَةُ مُقْلَتِي وَصَحِيحُ ظَنِّي
وَقَالَ بَشَّارٌ: الْبَسِيطُ:

يَا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيْقًا غَيْرَ مُخْتَبَرٍ
قَدْ زُرْتِنَا مَرَّةً فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةً
إِلَّا شَهَادَةَ أَطْرَافِ الْمَسَاوِيكِ
تَنِّي وَلَا تَجْعَلِيهَا بَيِّضَةً الدَّيْكِ
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ حُلِّي فِي مَنَازِلِنَا
حَسْبِي بِرَائِحَةِ الْفَرْدَوْسِ مِنْ فَيْكِ

وقيل لبشار: يا أبا معاذ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات. وبين أن تقول: الرمل:

إِنَّمَا عَظُمَ سُلَيْمَى خُلَّتِي
وَإِذَا قُرْبَ مِنْهَا بَصَلٌ
قَصَبُ السُّكَّرِ لَا عَظُمَ الْجَمَلِ
غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

فقال: إنما الشاعر المطبوع كالبحر؛ مرةً يَقْذِفُ صَدْفُهُ، ومرةً يَقْذِفُ جَيْفَهُ.

وقد تناول هذا المعنى أبو الحسن عليّ بن العباس الرومي من أَقْرَبِ مُتَنَاولِ فَقَالَ: وَكَشَفَهُ بِأَوْضَحِ عِبَارَةٍ -
فِي صِفَتِهِ لِحَارِيَةِ أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ السُّودَاءِ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَى جَمِيعَ صِفَاتِهَا وَكَانَ قَدْ اقْتَرَحَ عَلَيْهِ
وَصَفَّهَا: الْمُنْسَرَحُ:

وَصَفَّتْ فِيهَا الَّذِي هَوَيْتَ عَلَى الْ
إِلَّا بِأَخْبَارِكَ الَّتِي رُفِعَتْ
وَهُمْ وَلَمْ نَخْتَبِرْ وَلَمْ نَذُقْ
مَنْكَ إِلَيْنَا عَنْ ظَبِيَةِ الْبُرْقِ
حَاشَا لِسُودَاءِ مَنْظَرٍ سَكَنْتَ
ذِرَاكَ إِلَّا عَنْ مَخْبَرٍ يَقَقِ

وهذه الأبيات من قصيدة له وصف فيها السواد، واحتجّ بتفضيله على البياض، حتى أغلق فيه الباب بعده،
ومنع أن يقصد فيه أحد قصده، إلا كان مقصّر السهم عن غرض الإحسان. وقد نبّه علي بن عبد الله بن

العباس المسيب على فضائلها، وأجاد التشبيه، وكشف عن وجوه الإبداع، وضروب الاختراع. وقد مدح الناسُ السَّودَ والسَّودَ فأكثرُوا؛ فمن جيد ما قالوا فيه قول أبي حفص الشَّطرنجي: السريع:

أشْبَهَكَ الْمِسْكُ وَأَشْبَهَتْهُ
قَائِمَةٌ فِي لَوْنِهِ قَاعِدَةٌ
لَا شَكَّ إِذَا لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ
أَنْكُمَا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ

فأخذ ابنُ الرومي هذا المعنى، وأضاف إليه أشياءً آخر توسعاً واقتداراً، فقال:

يَذْكُرُكَ الْمِسْكُ وَالْغَوَالِي وَالسَّكَّ
ذَوَاتِ النَّسِيمِ وَالْعَبَقِ

وهذه الأشياء وإن كانت ناقصةً عن المسك، فهي ممدوحة بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها في التشبيه، فأما زيادته على جميع مَنْ تعاطى مدح السَّود فقوله: المنسرح:

سُودَاءَ لَمْ تَنْتَسِبْ إِلَى بَرَصِ الشَّ
قَرِّ وَلَا كُفَّةٍ وَلَا بَهَقِ

والأبيض الشديد البياض مَعِيبٌ، وقد دل عليه قوله: المنسرح:

وَبَعْضُ مَا فَضَّلَ السُّودَ بِهِ
وَالْحَقُّ ذُو سَلَمٍ وَذُو نَفَقِ
أَلَا يَعْيبُ السُّودَ حَلَكَتُهُ
وَقَدْ يُعَابُ الْبَيَاضُ بِالْبَهَقِ

قوله: الحق ذو سَلَمٍ وذو نَفَقٍ أراد أن الحقَّ يتصرَّفُ في جهات، وضرب الصعود والتزول لذلك مثلاً؛ ثم قصد لوصف هذه السَّوداء بالكمال في الصفة؛ ومن عيب السُّودان أن أكفَّهم عابسة متشققة، وأطرافهم ليست بناعمة ليّنة، وكذلك لا يزال الفلحُ في شفاههم، وهي الشقوق المذمومة الموجودة في أكثر السُّودان في أوساط الشفاه، وأيضاً فإن الأسود مهجو ببحث العرق، فنفى هذه الصفات المذمومة الموجودة في أكثر السُّودان عنها، فقال: المنسرح:

لَيْسَتْ مِنَ الْعُبْسِ الْأَكْفُ وَلَا الِ
فُلْحِ الشَّفَاهِ الْخَبَائِثِ الْعَرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السَّوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة، فقال: المنسرح:

فِي لَيْنٍ سَمُورَةٍ تَخِيرُهَا الِ
فِرَاءٍ أَوْ لَيْنٍ جِيدِ الدَّلَقِ

ومن بديع مدح السَّوداء قوله: المنسرح:

أَكْسَبَهَا الْحَبُّ أَنَّهَا صُبِغَتْ
صَبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ
فَانْصَرَفَتْ نَحْوَهَا الضَّمَائِرُ وَالِ
أَبْصَارُ يَعْشَقْنَ أَيْمًا عَشَقِ

فأخبر أن القلوب إنما أحببتها بالجانسة التي بينها وبين حب القلوب من السواد، وكذلك الحدق.
ومن جيد تشبيهات أبي نواس وقد نبه نديماً للصباح فأخبر عن حاله وقال: البسيط:

جَلَّ التَّبَسُّمُ عَنْ غُرِّ الثَّيَّاتِ

فَقَامَ وَاللَّيْلُ يَجْلُوهُ الصَّبَاحُ كَمَا

ولعلي بن العباس عليه التقدم بقوله: المنسرح:

مِنْ ثَغْرِهَا كَاللَّائِي النَّسِقِ

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقِّقِ

لَيْلٌ تَعَرَّى دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ

كَأَنَّهَا وَالْمَزَاحُ يُضْحِكُهَا

وفضل هذا الكلام على ذاك أن هذا قدّم لمعناه في التشبيه مقدمة أيّدته، ووطأت له الأذان، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان، وهي قوله:

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقِّقِ

وفي هذه السوداء يقول، وقد سأله أبو الفضل الهاشمي أن يستغرق صفات محاسنها الظاهرة والباطنة، فقال: المنسرح:

مِنْ قَلْبٍ صَبٌّ وَصَدْرٍ ذِي حَنْقِ

لَهَا حَرٌّ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ

مَا أَلْهَبَتْ فِي حَشَاهُ مِنْ حُرْقِ

كَأَنَّهَا حَرُّهُ لَخَابِرِهِ

تَزْدَادُ ضَيْقًا أَنْشُوطَةُ الْوَهَقِ

يَزْدَادُ ضَيْقًا عَلَى الْمِرَاسِ كَمَا

ثم فكر فيما فكر فيه النابغة، وقد أمره النعمان بوصف المتجرّدة، فوصف ما يجوز ذكره من ظاهر محاسنها، ثم كره أن يذكر من فضائلها ما لا يسوغ بمثله أن يذكر منها، فرد الإخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها، وهو الملك، فقال: الكامل:

عَذْبُ إِذَا قَبَّلْتَهُ قَلْتَ أَرْدَدِ

زَعَمَ الْهُمَامُ بَأْنَ فَاهَا بَارِدُ

فاحتذى عليّ بن العباس هذا، فقال بعد ما سأله أن يستغرق في وصف فضائلها الظاهرة والباطنة: المنسرح:

خُذْهَا أَبَا الْفَضْلِ كَسُوءَ لَكَ مِنْ

خُذْهَا أَبَا الْفَضْلِ كَسُوءَ لَكَ مِنْ

هُمْ وَلَمْ نَخْتَبِرْ وَلَمْ نَذُقِ

وَصَفْتُ فِيهَا الَّتِي هَوَيْتَ عَلَى الْوُ

مِنْكَ إِلَيْنَا عَنْ ظَنِّيَةِ الْبُرْقِ

إِلَّا بِأَخْبَارِكَ الَّتِي وَقَعَتْ

ذُرَاكَ إِلَّا عَنْ مَخْبِرِ يَقِّقِ

حَاشَا لِسُودَاءِ مَنْظَرٍ سَكَنَتْ

وهذا المعنى أوماً إليه النابغة إيماءً خفياً تذهبُ معرفته عن أكثرِ الناس، ولو آثرَ النابغة تركَ الاختصار، وهم بكشفِ المعنى وإيضاحه، ما زادَ على هذا الكشف الذي كشفه ابن الرومي. وأصحابه المعاني ينشدون للفرزدق: الطويل:

وَجِفْنَ سِلَاحٍ قَدْ رُزْتُ فَلَمْ أَنْحِ
وَفِي بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَقِيقَةٍ
عَلَيْهِ وَلَمْ أُبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِيا
لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لِيَالِيَا

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفيت حاملاً، فقال علي بن العباس وقد وصف هذه المرأة السوداء: المنسرح:

أَخْلَقَ بِهَا أَنْ تَقُومَ عَنْ ذَكَرٍ
إِنَّ جَفُونَ السِّيُوفِ أَكْثَرُهَا
كَالسَيْفِ يَفْرِي مُضَاعَفَ الْحَلَقِ
أَسْوَدُ وَالْحَقِّ غَيْرِ مُخْتَلَقٍ

فهذه زيادةٌ بيّنة، وعبرة واضحة، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعاني، وقال مما لم ينشده المتنبي: المنسرح:

غُصْنٌ مِنَ الْآبَنُوسِ رُكِبَ فِي
يَهْتَزُّ مِنْ نَاهِدِيهِ فِي ثَمَرٍ
مُؤْتَزَّرٍ مُعْجَبٍ وَمُنْتَطَقٍ
وَمِنْ دَوَاجِي ذُرَاهِ فِي وَرَقٍ

وهذا معنى قد بلغ قائله من الإجادة، فوق الإرادة، وامثل أبو الفضل الهاشمي ما أشار به ابن الرومي، فأولدها، فأنجبت.

وفي معنى قول الفرزدق قال الطائي وأحسن وذكر وَلَدَيْنِ تَوَآمَيْنِ مَا تَا لَعَبْدَ اللَّهِ ابْنِ طَاهِرٍ: الكامل:

إِنْ تَرَزَّ فِي طَرْفِي نَهَارٍ وَاحِدٍ
فَالْتَقَلُ لَيْسَ مُضَاعَفًا لِمَطِيَّةٍ
رُزَأَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلَا
لَوْ أُمَهَلْتُ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا
إِلَّا إِذَا مَا كَانَ وَهْمًا بَازِلَا
لَغَدَا سَكُونُهُمَا حَجَّى، وَصَبَاهُمَا
حُكْمًا، وَتِلْكَ الْأَرِيحِيَّةُ نَائِلَا
إِنْ الْهَلَالُ إِذَا رَأَيْتَ نَمَاءَهُ
أَيَقْنَتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظ

لأهل العصر في التهنة بتوأمين

تيسرت منحتان في وطن، وانتظمت موهبتان في قرن، طلع في أفق الكمال نجمًا سعد، وشهابًا عزّ،

وَكَوَّكَبَا مَجْدًا، فَتَاهَلَّتْ بِمَا رُبُوعَ الْحَاسِنِ، وَوُطِّتْ لَهَا أَكْنَافُ الْمَكَارِمِ، وَاسْتَشْرَقَتْ إِلَيْهِمَا صُدُورُ
الْأَسْرَةِ وَالْمَنَابِرِ. بَلَغَنِي خَبْرُ الْمُوهَبَةِ الْمَشْفُوعَةِ بِمَثَلِهَا، وَالنَّعْمَةُ الْمَقْرُونَةُ بِعِدْلِهَا فِي الْفَارَسِينَ الْمُقْبِلِينَ، رَضِيعِي
الْعِزِّ وَالرَّفْعَةِ، وَقَرِينِي الْجَدِّ وَالْمُنْعَةِ، فَشَمَلَنِي مِنَ الْإِغْتِبَاطِ مَا يُوجِبُهُ اِزْدِوَاجُ الْبُشْرَى، وَاقْتِرَانُ غَادِيَةٍ بِأُخْرَى.
وَالشَّيْءُ يُذَكِّرُ بِمَا قَارَبَ نَاحِيَةً مِنْ أَنْحَائِهِ، وَجَادِبَ حَاشِيَةٍ مِنْ رِدَائِهِ.

في الهجاء

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلاً وضمّن قول النابغة: الكامل:

كَالْأَقْحَوَانِ غَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ

وَأَزَاحَهُ عَنْ بَابِهِ؛ فَجَاءَ مَلِيحاً فِي الطَّبْعِ، مَقْبُولاً فِي السَّمْعِ: الكامل:

رَطَّبَ الْعِجَانِ وَكَفَّهُ كَالْجَلْمَدِ

يَا سَائِلِي عَنْ جَعْفَرٍ، عَهْدِي بِهِ

جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِي

كَالْأَقْحَوَانِ غَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ

ومن مستحسن ما روي في هذا التضمين قول الآخر وضمّن بيتاً لمهلهل ابن ربيعة: الوافر:

وَعَمَّا فِيهِ مِنْ كَرَمٍ وَخَيْرِ

وَسَائِلَةٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ وَهَبٍ

أَرَاهُ كَثِيرَ إِرْخَاءِ السُّتُورِ

فَقُلْتُ هُوَ الْمَهْدَبُ، غَيْرَ أَنِّي

حُسَيْنٌ حِينَ يَخْلُو بِالسُّرُورِ

وَأَكْثَرَ مَا يَغْنِيهِ فَتَاهُ

صَلِيلَ الْبَيْضِ تُقَرِّعُ بِالذُّكُورِ

فَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمَعُ مَنْ بِحُجْرٍ

وهذا البيت لمهلهل ممّا يعدّونه من أول كذب العرب، وكانت قبل ذلك لا تكذب في أشعارها، وكان بين
الموضع الذي كانت فيه هذه الواقعة وهي بالجزيرة وبين حُجْرٍ وهي قَصْبَةٌ باليمامة مسافةً بعيدةً، فأخرجَه
هذا الشاعر بقوة مُتَتِّهِ، ونفاذِ فِطْنَتِهِ، إلى معنى آخر مستظرف في بابهِ. وهذا المذهب أحسن مَذهب
التضمين. ومن مَلِيح ما في هذا الباب تضمينات الحمدوني في طيلسان أحمد بن حرب المهلي، وسيأتي ما
أختارَه من ذلك في غير هذا الموضع.

رجع إلى ما قيل في الثغر

وقد جاء في صفة الثغور والأفواه والريق شعرٌ كثير. قال جميل: الطويل:

تُرِيكَ نَقِيًّا وَاضِحَ الثَّغْرِ أَشْنَبَا

تَمَنَيْتُ مِنْهَا نَظْرَةً وَهِيَ وَاقِفٌ

هَزِيمُ الذَّرَى تَمْرِي لَهُ الرِّيحُ هَيْدَبَا

كَأَنْ عَرِيضاً مِنْ فَضِيضِ غَمَامَةٍ

يُصَفَّقُ بِالمِسْكِ الذَّكِيِّ رُضَابُهُ

إِذَا النَّجْمُ مِنْ بَعْدِ الْهَدَوِ تَصَوَّبَا

وقال: الكامل:

وَكَأَنَّ طَارِقَهَا عَلَى عِلَلِ الْكُرَى

وَالنَّجْمُ وَهْنًا قَدْ بَدَأَ لِتَغَوُّرِ

يَسْتَنَافُ رِيحَ مُدَامَةٍ مَعْلُولَةٍ

بِرُضَابِ مِسْكٍ فِي ذِكْيِ الْعَنْبَرِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي: الطويل:

يَمُجُّ ذَكْيَ الْمِسْكِ مِنْهَا مُفْلَجٌ

نَقْيَ الثَّنَائِيَا ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرُ

يَرِفُ إِذَا تَقَتَّرَ عَنْهُ كَأَنَّهُ

حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَقْحَوَانَ مُنَوَّرُ

وقال الهذلي: الوافر:

وَمَا صَهْبَاءُ صَافِيَةٍ لَضَبٍّ

كُلُّونِ الصَّرِيفِ مُنْجَابٍ قَذَاهَا

تُشَخُّ بِنُطْفَةٍ مِنْ مَاءِ مُزْنٍ

أَحْلَتَهُ بِرَضْرَاضٍ عُرَاهَا

بِأَطْيَبِ مَشْرَعًا مِنْ طَعْمٍ فِيهَا

إِذَا مَا طَارَ عَنْ سِنَةِ كَرَاهَا

وقال آخر: البسيط:

وَشَقَّ عَنْهَا قِنَاعَ الْخَزِّ عَنْ بَرْدٍ

كَالدَّرِّ لَا كَسَسَ فِيهِ وَلَا ثَعْلُ

كَأَنَّهُ أَقْحَوَانٌ بَاتَ يَضْرِبُهُ

طَلَّ مِنَ الدَّجَنِ سَقَاطُ النَّدَى هَطِلُ

كَأَنَّ صَرِيفًا كَمِيتَ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ

شَجَّتْ بِمَاءِ سَمَاءٍ شَنَّةً جَبِلُ

فَوُهَا إِذَا مَا قَضَتْ مِنْ نَوْمِهَا سِنَةً

أَوْ اعْتَرَاهَا سُبَاتُ النَّوْمِ وَالْكَسَلُ

وقال الآخر: الوافر:

هَجَانُ اللَّوْنِ وَاضِحَةُ الْمَحْيَا

قَطِيعِ الصَّوْتِ آنِسَةً كَسُولُ

تَبَسُّمٌ عَنْ أَغْرَ لَهُ غُرُوبٌ

فُرَاتِ الرِّيقِ لَيْسَ بِهِ فُلُولُ

كَأَنَّ صَبِيبَ غَادِيَةٍ لَصَبٍّ

تُشَجُّ بِهِ شَامِيَةٌ شَمُولُ

عَلَى فِيهَا إِذَا الْجَوَزَاءُ عَالَتْ

مُحَلَّقَةً وَأَرْدَفَهَا رَعِيلُ

وقال ابن المعتز: المديد:

يَا نَدِيمِي أَشْرَبَا وَاسْقِيَانَا

قَدْ بَدَأَ الصَّبْحُ لَنَا وَاسْتَبَانَا

واقْتِلا هَمِّي بِصَرْفِ عَقَارٍ
 إِنَ لِلْمَكْرُوهِ لَذْعَةٌ شَرٌّ
 وامزجا كأسِي بَرِيقَةِ أَلْمَى
 من فَمٍ قَدْ غُرِسَ الدُّرُّ فِيهِ
 وقال ابن الرومي: السريع:

يَا رَبَّ رَيْقٍ بَاتَ بَذْرُ الدُّجَى
 يَروِي وَلَا يَنْهَاكَ عَنْ شَرْبِهِ
 وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الكامل:

وَإِذَا سَأَلْتُكَ رَشْفَ رَيْقِكَ قُلْتَ لِي:
 مَاذَا عَلَيْكَ؟ جُعِلْتَ قَبْلَكَ فِي الثَّرَى!
 أَخْشَى عُقُوبَةَ مَالِكِ الْأَمْلاكِ
 مِنْ أَنْ أَكُونَ خَلِيفَةَ الْمَسْوَكَ
 أَيجوزُ عِنْدَكَ أَنْ يَكُونَ مُنَيَّمٌ
 صَبَّ بِحَبِّكَ دُونَ عُودٍ أَرَاكَ؟

وهذا المعنى يجاوز الإحصاء، ويفوت الاستقصاء؛ وكله مأخوذ من قول امرئ القيس: المتقارب:
 كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ الْغَمَامَ
 يُعَلِّ بِه بَرْدُ أَنْيَابِهَا
 فجمع ما فرَّقوه، وأخذَه الجعفري فقصر عنه: المتقارب:

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ الْغَمَامَ
 يُعَلِّ بِه بَرْدُ أَنْيَابِهَا
 وَرِيحَ الْخُزَامَى وَذَوْبَ الْعَسَلِ
 إِذَا النَّجْمُ وَسَطَ السَّمَاءِ اعْتَدَلَ
 ويلحق بهذه المعاني من شعر أهل العصر قولُ أبي علي محمد بن الحسين بن المظفر الحائمي - وذكر خمرًا:
 الكامل:

مِنْ كَفِّ سَاقٍ أَهْيَفَ حَرَكَاتِهِ
 نَاولَتْهُ كَاسِي وَكَسْرُ جُفُونِهِ
 فَتَنَى لَهَا أَقْلَامَ دُرٍّ رَخْصَةٍ
 فَتَحَدَّرَتْ مِنْ كَاسِهِ فِي ثَغْرِهِ
 فَتَنَ تَقَنَّنَ بِالْمَلَاخَةِ وَاعْتَجَرَ
 يُوحِي إِلَيَّ أَنْ ارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ
 تَهْوِي إِلَى أَفْرَادِ دُرٍّ ذِي أَشْرٍ
 كَالشَّمْسِ تَغْرُبُ فِي هِلَالٍ مِنْ قَمَرٍ

وأهدى أبو الفتح كشاحم لبعض القيان مسواكاً وكتب إليها: الرمل:

قد بعثناه لكي تجلّو به
واضحاً كاللؤلؤ الرطب أغرّ
طاب منه العرف حتى خلته
كان من ريقك يسقى في السحر
وأما والله لو يعلم ما
حظه منك لأنتى وشكر
ليبتى المهدي فيروي عطشي
برد أنيابك في كل سحر

أملح الشعر وأرقه

وكان ذكر بحضرة ابن أبي عتيق شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين، فقال رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة: صاحبنا الحارث أشعر، فقال ابن أبي عتيق: دغ قولك يا بن أخي، فليشعر ابن أبي ربيعة لوطه بالقلب، وعلق بالنفس، ودرك للحاجة ليس لشعر الحارث، وما عصى الله بشعر قط أكثر مما عصى بشعر ابن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعر قریش من رف معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، وتعطف حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن صاحبه، فقال الذي من ولد خالد بن العاص: صاحبنا الذي يقول: الكامل:

إني وما نحرؤا غداة منى
عند الجمار تؤودها العفل
لو بدلت أعلى منازلها
سُقلاً وأصبح سُفلها يعفل
فيكاد يعرفها الخبير بها
فيرده الإقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت
مني الضلوغ لأهلها قبل

فقال ابن أبي عتيق: يا ابن أخي، استر على صاحبك، ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا، أما تطير الحارث عليها حين قلب ربّعها فجعل عاليه سافله؟ ما بقي إلا أن يسأل الله حجارة من سجيل وعذاباً أليماً. ابن أبي ربيعة كان أحسن الناس للربّع مخاطبةً وأجمل مصاحبةً إذ يقول: الخفيف:

سائلا الربّع بالبلّي وقولا
هجت شوقاً لي الغداة طويلاً
أين أهل حلوك إذ أنت مسرو
ر بهم أهل أراك جميلاً؟
قال: ساروا وأمعنوا، واستقلوا
وبكرهي لو استطعت سبيلاً
ستموناً ما ستمنا مقاماً
واستحبوا دماً وسهولاً

وها هنا حكاية تأخذ بطرف الحديث، دخل مزيد المدني على مولى لبعض أهل المدينة، وهو جالس على سرير ممهد، ورجل من ولد أبي بكر الصديق وآخر من ولد عمر - رضي الله عنهما! - جالسان بين يديه

على الأرض، فلما رأى المولى مريداً تجهمه، وقال: يا مزيد، ما أكثر سؤالك! وأشد إحافك! جئت
تسألني شيئاً؟ قال: لا والله، ولكني أردت أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد: الكامل:

إني وما نحرُوا غداة مني عند الجِمار تَوودها العُقل
لو بُدلتْ أعلَى منازلها سُفلاً وَأَصْبَحَ سُفْلاً يَعْلُو

فلما رأيتك ورأيت هذين بين يديك عرفتُ معنى الذي قال. فقال: أعزُب في غير حفظِ الله! وضحك
أهل المجلس.

وأخذ الحارث قوله: الكامل:

لعرفت مَغناها بما احتَمَلت مني الضلوعُ لأهلها قَبْلُ

من قول امرئ القيس؛ قال علي بن الصباح وَرَاقُ بن مُحَلَم: قال لي أبو محلم: أتعرفُ لامرئ القيس أبياتاً
سينية قالها عند موته في قُرُوحه والحلة المسمومة، غير قصيدته التي أولها: الطويل:

ألمّا على الرّبع القديم بعَسَعَسَا

فقلت: لا أعرف غيرها، فقال: أنشدني جماعةٌ من الرُّواة: المتقارب:

لِمَنْ طَلَّ دَرَسَتْ آيُهُ وغيره سالفُ الأحرُسِ
تَتَكَرَّرُ الْعَيْنُ مِنْ حَادِثٍ ويعرفه شَغَفُ الأنفُسِ

وفد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفي، فقال: الكامل:

تَسْتَخْبِرُ الدَّمَنَ الْقِفَارَ وَلَمْ تَكُنْ لترد أخباراً على مُسْتَخْبِرِ
فَظَلَلْتَ تَحْكُمَ بَيْنَ قَلْبٍ عَارِفٍ مَغْنَى أَحْبَبْتَهُ وَطَرَفٍ مُنْكَرِ

وقال الحسن بن وهب، إشارة إلى هذا المعنى: المنسرح:

أَبْلَيْتَ جِسْمِي مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ فما تكادُ العيونُ تُبْصِرُهُ
كَأَنَّهُ رَسْمُ مَنْزِلٍ خُلِقَ تَعْرِفُهُ الْعَيْنُ ثُمَّ تَتَكَرَّرُهُ

وقال يحيى بن منصور الذهلي: الطويل:

أَمَّا يَسْتَفِيقُ الْقَلْبُ إِلَّا أَنْبَرَى لَهُ تَذَكُرُ طَيْفٍ مِنْ سُعَادٍ وَمَرْبَعِ
أُخَادِعٍ مِنْ عِرْفَانِهِ الْعَيْنُ؛ إِنَّهُ متى تعرف الأطلالَ عيني تَدْمَعُ

وقال آخر: مجزوء الوافر:

هي الدارُ التي تعرِّ ف لِمَ لا تعرف الدارَ

كَ أَعْلَامًا وَآثَارًا

تَرَى مِنْهَا لِأَحْبَابِ

وَتَبْدِي الْعَيْنُ إِنكَارًا

فَيَبْدِي الْقَلْبُ عِرْفَانًا

وقال أبو نُوَّاسٍ، وتعلّق أولُ قوله بهذا المعنى، وأنا أنشد الأبيات كلّها لِمَلاَحَتِهَا؛ إذ كان الغرض في هذا التصرف هو إرادة الإفادة: الطويل:

تَغْضُ بِهَ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهْمِي

أَلَا لَا أَرَى مِثْلِي امْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسَمِ

فَظَنِي كَلَّا ظَنٍّ وَعِلْمِي كَلَّا عِلْمِ

أَنْتَ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنِهِ

وَسَاقِيَّةُ بَيْنِ الْمَرَاهِقِ وَالْحُلُمِ

فَطَبُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَبِيبٍ مُسَاعِدِ

قَرِيبَةٍ عَهْدٍ بِالْإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

ضَعِيفَةٍ كَرَّ الطَّرْفِ تَحْسَبُ أَنَّهَا

تَفُوقِي الصُّهْبَاءَ مِنْ حَلَبِ الْكَرَمِ

يَفُوقُ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ

وَتَعْلَمُ قَوْسِي حِينَ أَنْزَعَ مَنْ أَرْمِي

وَإِنِّي لَأَتِي الْوَصْلَ مِنْ حَيْثُ يُبْتَغَى

وَرَوَى أَبُو هَفَانٍ قَالَ: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ الْأَعْرَابِيُّ يَطْعَنُ عَلَى أَبِي نُوَّاسٍ، وَيَعِيبُ شَعْرَهُ، وَيُضَعِّفُهُ، وَيَسْتَلِينُهُ، فَجَمَعَهُ مَعَ بَعْضِ رُؤَاةِ شَعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ مَجْلِسُ وَالشَّيْخُ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ أَبِي نُوَّاسٍ: أَتَعْرِفُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ! - أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ وَأَنْشَدَهُ: ضَعِيفَةُ كَرَّ الطَّرْفِ... الْأَبْيَاتِ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، فَلِمَنْ هُوَ؟ قَالَ: لِلَّذِي يَقُولُ: الْكَامِلُ:

عَفَى عَلَيْهِ بَكَاءُ عَلَيْكَ طَوِيلُ

رَسْمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجَفُونِ مُحِيلُ

حَتَّى تَشْحَطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ

يَا نَاضِرًا مَا أَقْلَعْتَ لِحَظَاتِهِ

فَطَرَبَ الشَّيْخُ، وَقَالَ: وَيَحْكُ! لِمَنْ هَذَا؟ فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَجْوَدَ مِنْهُ لِقَدِيمٍ وَلَا لِحَدَثٍ! فَقَالَ: لَا أَخْبِرُكَ أَوْ تَكْتَبُهُ؛ فَكَتَبَهُ، وَكَتَبَ الْأَوَّلَ، فَقَالَ: لِلَّذِي يَقُولُ: الْبَسِيطُ:

كَأْسُ الْكَرَى فَانْتَشَى الْمَسْقِيُّ وَالسَّاقِي

رَكِبَ تَسَاقَوْا عَلَى الْأَكْوَارِ بَيْنَهُمُ

عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ تُخْلَقْ بِأَعْنَاقِ

كَأَنَّ، أَرْؤُسَهُمُ وَالنُّوْمُ وَاضِعُهَا

حَتَّى أَنَاخُوا إِلَيْكُمْ قَبْلَ إِشْرَاقِي

سَارُوا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْدًا لِرَاحِلَةٍ

مُشْتَاقَةٍ حَمَلَتْ أَوْصَالَ مُشْتَاقِ

مِنْ كُلِّ جَائِلَةٍ الطَّرْفَيْنِ نَاجِيَةٍ

فقال: لمن هذا؟ وكتبه. فقال: للذي تَدُمُّهُ، وتَعِيبُ شعره، أبي علي الحكمي! قال: اكُتُم عليّ، فوالله لا أعود لذلك أبداً.

أخذ قوله: كَأَنَّ أَرْؤُسَهُم والنوم واضعها أبو العباس بن المعتز، فقال يصف شرباً: الطويل:

كَأَنَّ أَبَارِيقَ اللَّجَيْنِ لَدِيهِمْ ظِبَاءٌ بِأَعْلَى الرِّقْمَتَيْنِ قِيَامُ
وَقَدْ شَرَبُوا حَتَّى كَأَنَّ رُؤُوسَهُمْ مِنْ اللَّيْنِ لَمْ يُخْلَقْ لَهُنَّ عِظَامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة: والبسيط:

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَانِ مَلْثُومُ

أراد بسبائب، فحذف. وقد أحسن مسلم بن الوليد في قوله: الكامل:

إِبْرِيْقُنَا سَلَبَ الْغَزَالَةِ جِيْدَهَا وَحَى الْمَدِيرُ بِمُقَلَّتَيْهِ غَزَالَا
يَسْقِيكَ بِالْأَلْحَازِ كَأَنَّ صَبَابَةَ وَيُدِيرُهَا مِنْ كَفِّهِ جَرِيَالَا

وأنشد الحارث بن خالد أبياتهُ: الكامل:

إِنِّي وَمَا نَحَرُوا غَدَاةَ مِنِّي

لعبد الله بن عمر، فلما بلغ إلى قوله: الكامل:

لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بِمَا احْتَمَلْتُ مِنِّي الضَّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

قال له ابن عمر: قل إن شاء الله، قال: إذا تفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن، فقال: لا خَيْرَ في شيءٍ يُفْسده إن شاء الله.

وكان الحارث بن خالد أحد المجيدين في التشبيب، ولم يكن يعتقد شيئاً من ذلك، وإنما يقوله تظرفاً وتخلعاً، وكان أكثر شعره في عائشة بنت طلحة، فلما قُتِلَ عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل له: لو خطبتُها! قال: إني لأكره أن يتوهم الناسُ عليّ أني كنت معتقداً لما أقول فيها، وهو القائل: البسيط:

يَا أُمَّ عِمْرَانَ مَا زَالَتْ وَمَا بَرِحَتْ بَنَا الصَّبَابَةُ حَتَّى مَسَّنَا الشَّفَقُ

القلبُ تَاقَ إِلَيْكُمْ كَيْ يَلَاقِيَكُمْ كَمَا يَتَوَقُّ إِلَى مَنْجَاتِهِ الْغَرَقُ

تُوفِيكَ شَيْئاً قَلِيلاً وَهِيَ خَائِفَةٌ كَمَا يَمْسُ بِظَهْرِ الْحَيَةِ الْفَرَقُ

أخذ هذا الطائي فحسَّنه فقال: الكامل:

تَأْبَى عَلَى التَّصْرِيدِ إِلَّا نَائِلًا إِلَّا يَكُنْ مَاءٌ قَرَا حَا يُمَذَّقُ

نَزَرًا كَمَا اسْتَكْرَهْتَ عَابِرَ نَفْحَةٍ مِنْ قَارَةِ الْمِسْكِ الَّتِي لَمْ تُفْتَقُ

وَحَجَّتْ عائشةُ بنتُ طلحة، فوجه إليها يستأذنها في الزيارة، فقالت: نحن حَرَام، فأخَّر ذلك حتى نَحَلَّ، فلَمَّا أَحَلَّتْ أَذْلَجَتْ ولم يعلم، فكتب إليها: الكامل:

ما ضركم لو قُلْتُمْ سَدَدًا	إِنَّ المنيَةَ عاجِلٌ غَدَا
ولها علينا نِعْمَةٌ سَلَفَتْ	لسنا على الأيام نَجَحْدُهَا
لو تَمَمَّتْ أسبابَ نِعْمَتِهَا	تَمَّتْ بِذلك عندنا يَدُهَا
إني وإياها كَمَفْتَتَيْنِ	بالنار تَحْرِقُهُ وَيَعْبُدُهَا

وابنُ أبي عتيق هذا هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه! وكان من أفاضل زَمَانِهِ عِلْمًا وَعِفَافًا، وكان أَحَلَّى الناس فَكَاهَةً، وأظرفهم مَزَاحًا، وله أخبار مستظرفة سيمرُّ منها ما يُسْتَحْسَن إن شاء الله.

روى الزبير بن أبي بكر أنه دخل على عائشة - يعني بنت طلحة، رضي الله عنهما! - وهي لما بها؛ فقال: كيف أنت، جُعِلْتُ فداك؟ قالت: في الموت، قال: فلا إذاً، إنما ظننت في الأمر فُسْحَةً، فضحكت، وقالت: ما تَدْعُ مَزْحَكٍ بِحَالٍ. وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة القرشي: المديد:

لَيْتَ شعري هل أقولن لركب	بفلاة هُمَ لديها خُشوعُ
طالما عرَّسْتُم فاستقلوا	حان من نجم الثريا طلوعُ
إِنَّ هَمِّي قد نفى النوم عني	وحديث النفس مني يرُوعُ
قال لي فيها عتيقٌ مقالاً	فجرت ممّا يقولُ الدموعُ
قال لي: ودع سليمي ودعها	فأجاب القلب: لا أستطيع
لا تلمني في اشتياقي إليها	وابك لي ممّا تُجنُّ الضلوعُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد: قوله: حان من نجم الثريا طلوع كناية، وإنما يريد الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت موصوفةً بالجمال، وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر، وفي ذلك يقول عمر، وضرب لهما المثل بالنجمين: الخفيف:

أيها المنكحُ الثريا سُهَيْلاً	عَمَرَكَ الله، كيف يَلْتَقِيَانِ؟
هي شامية إذا ما استقلت	وسهيل إذا استقلَّ يَمَانِي

فمات سُهيل عنها، أو طَلَقَهَا، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تَطْلُبُ في دَيْنِ عليها،
 فبينما هي عند أمّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال: مَنْ هَذِهِ عِنْدَكَ؟ قالت: الثريا، جاءتكَ تَطْلُبُ
 في دَيْنٍ ارتكبتها، فأقبل الوليد عليها، فقال: أتروين من شعرِ عُمر بن أبي ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم، أما إنه
 رحمه الله كان عفيفاً، عفيف الشعر، أروي له قوله: الخفيف:

ما عَلَى الرَّسَمِ بِالْبُلْبُلَيْنِ لَوْ بِي
 فإِلَى قَصْرِ ذِي الْعُشَيْرَةِ بِالصَّا
 وبما قد أَرَى بِهِ حَيَّ صِدْقٍ
 وحِساناً، جَوَارِيًا، خَفَرَاتٍ،
 لا يُكْتَرَنُ بِالْحَدِيثِ وَلَا يَتِ
 ن رَجَعَ السَّلامُ أَوْ لَوْ أَجَابًا
 نَفْ أَمْسَى مِنَ الْأَنْبِيسِ يَبَابًا
 ظَاهِرِي الْعَيْشِ نِعْمَةً وَشَبَابًا
 حَافِظَاتٍ عِنْدَ الْهَوَى الْأَحْسَابًا
 بَعْنُ، يَنْعَقُنَ بِالْبِهَامِ، الظَّرَابَا

فلما خلا الوليد بأمّ البنين قال: لله درُّ الثريا؛ أتدريين ما أرادتُ بإنشادها ما أنشدتُ من شعر عمر؟
 قالت: لا، قال: فإني لما عَرَضْتُ لها بعمر عَرَضْتُ بأن أُمِّي أعرايية؛ وأمّ الوليد وَلَادَةُ ابنة العباس بن جزء
 بن الحارث بن زُهَيْر العبسي، وهي أمّ سليمان، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفَتين في الإسلام غيرها، وغير
 الخيزُرَان، وهي سَيِّبَةُ من خَرَشَنَةَ، ولدت موسى الهادي وهارون الرشيد ابني محمد المهدي، وشاهسفرم
 بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار بن كِسْرَى أبروير؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد
 الناقص وإبراهيم بن الوليد المخلوع؛ جلس في الخلافة بَعْدَ أخيه يزيد مدة يسيرة، ثم جاء مروان بن محمد
 بن مروان آخر ملوك بني أمية فخلعه ووُلِّي بعده.
 وشَبَّيه بقول الثريا في باب التعريض أنه دخلت عَزَّةً على عبد الملك بن مروان، فقال لها: أَنْتِ عَزَّةٌ كَثِيرٌ؟
 قالت: أنا أمّ بكر الضميرية، قال لها: يا عَزَّةُ؟ هل تروين من شعر كثيرٍ شيئاً؟ قالت: ما أعرفه، ولكن
 سمعت الرواة ينشدون له: الطويل:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْفَى غَرِيمَهُ
 وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مَعْنَى غَرِيمُهَا

قال: فتروين قوله: الطويل:

وقد زعمتُ أَنِّي تَغَيَّرْتُ بَعْدَهَا
 تَغَيَّرَ حَالِي وَالْخَلِيقَةُ كَالَّذِي
 وَمَنْ ذَا الَّذِي يَا عَزَّ لَا يَتَغَيَّرُ؟
 عَهْدَتْ وَلَمْ يُخْبَرْ بِسَرِّكَ مُخْبَرٌ

قالت: ما سمعت هذا، ولكن سمعتهم ينشدون: الطويل:

كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضْتُ
 مِنْ الصَّمِّ لَوْ تَمَشَّيَ بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتْ

غَضُوبًا فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ

فَمَنْ مَلَ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ

قال: وكُلُّ ما ذَكَرَ ابنُ أبي ربيعة في شعره من عتيق، أو أبي عتيق، فإنما هو ابنُ أبي عتيق، وكان عمرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة، واسمُ أبي ربيعة حذيفة، ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ويكنى أبا الخطاب، أمُّه أم ولد سبيّة من حضرموت، ويقال من حمير، ومن ثم أتاه العَزَل؛ لأنه يقال: عَشِقُ يَمَانِي، ودَل حجازي. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: الخفيف:

إِنْ قَلْبِي بِالنَّلِّ نَلَّ عَزَاذِ

مَعَ ظَبْيٍ مِنَ الظَّبَّاءِ الْجَوَاذِي

شَادِنٍ لَمْ يَرِ الْعِرَاقَ وَفِيهِ

مَعَ ظَرْفٍ الْعِرَاقِ دَلُّ الْحِجَازِ

وقال الطائي وذكر نفسه: الكامل:

قَدْ تَقَقَّتْ مِنْهُ الْحِجَازُ، وَسَهَّلَتْ

مِنْهُ الْعِرَاقُ، وَرَفَقَتْهُ الْمَشْرِقُ

وهجرت الشريا غمر، فقال: الخفيف:

قَالَ لِي صَاحِبِي لِيَعْلَمَ مَا بِي:

أَتُحِبُّ الْقَتُولَ أَخْتَ الرَّبَّابِ؟

قُلْتُ: وَجَدِي بِهَا كَوَجْدِكَ بِالْمَا

ءِ إِذَا مَا فَقَدْتَ بَرْدَ الشَّرَابِ

أَزْهَقْتُ أَمْ نَوَقَلُ إِذْ دَعَتْهَا

مُهِجَّتِي؟ مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ

أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى

بَيْنَ خَمْسِي كَوَاعِبِ أَتْرَابِ

وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْدَرُ مِنْهَا

فِي أَدِيمِ الْخَدَيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟ فُلْتُ: بَهْرًا

عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ

ولما بلغ ابن أبي عتيق قوله:

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا؟ فَإِنِّي

ضِيقْتُ ذُرْعًا بِهَجْرَهَا وَالْكِتَابِ

قال: إياي أراد، وبِي هَتَفَ وَنَوَّه، لَا جَرَمَ لَا ذُقْتُ طَعَامًا أَوْ أَشْخَصَ إِلَيْهَا، وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمَا؛ قَالَ مَوْلَى لِبْنِي تَمِيمٍ: فَنَهَضَ وَنَهَضْتُ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى السُّوقِ إِلَى الضَّمْرَتَيْنِ، فَأَتَى قَوْمًا مِنْ بَنِي الدَّبِيلِ بَنَ بَكْرٍ يَكْرُونَ النِّجَابِ، فَقَالَ: بِكُمْ نَكْرُونَنِي رَاكِحَتَيْنِ إِلَى مَكَّةَ؟ قَالُوا: بَكْذَا وَكَذَا دَرَهْمًا، فَقُلْتُ لِبَعْضِ التَّجَارِ: اسْتَوْضِعُوا شَيْئًا، فَقَالَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ: وَيْحَكَ! إِنَّ الْمَكَّاسَ لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ. ثُمَّ رَكِبَ وَاحِدَةً وَرَكِبْتُ أُخْرَى، وَأَجَدْتُ السَّيْرَ، فَقُلْتُ: أَرْفُقْ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَبَادِرْ حَبْلَ الْوَصْلِ أَنْ يَتَقَضَّبَا. وَمَا أَمْلَحَ الدُّنْيَا إِذَا تَمَّ الْوَصْلُ بَيْنَ عَمْرِ وَالثَّرِيَا! فَقَدِمْنَا مَكَّةَ وَأَتَى بَابَ الثَّرِيَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لَنَا زَوَّارًا، فَقَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنْ جِئْتُ بِرِسَالَةٍ، يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ عَمْرٌ: ضِيقْتُ ذُرْعًا بِهَجْرَهَا وَالْكِتَابِ. فَلَامَهُ عَمْرٌ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي

عتيق: إنما رأيتك مبادراً تَلْتَمِسُ رسولاً، فحَفَفْتُ في حاجتك، فلَئِذَا كان ثوابي أن أُشْكِرَ.
ووصف ابن أبي عتيق لعمر امرأة من قومه، وذكر جمالاً رائعاً، وعقلاً فائقاً، فرآها عمر، فشَبَّ بها،
فغَضِبَ ابنُ أبي عتيق وقال: تشَبَّبَ بامرأة من قومي؟ فقال عمر: الخفيف:

لا تَلْمَنِي عتيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي
إِنْ بِي مُضْمَرًا مِنَ الْحَبِّ قَدْ أَبْ
إِنَّ بِي يَا عتيقُ ما قد كَفَّانِي
لِي عِظَامِي مَكُونُهُ وَبِرَانِي
لا تَلْمَنِي فَأَنْتَ زَيْنَتُهَا لِي.

فقال ابن أبي عتيق:

أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

فقال عمر: هكذا ورَبَّ الكعبة قلت.

فقال ابن أبي عتيق: إِنْ شَيْطَانُكَ وَرَبُّ الْقَبْرِ رُبَّمَا أَلَمَّ بِي! وَحَجَّتْ رَمْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُلْفٍ أخت
طلحة الطلحات، فقال عمر فيها: الخفيف:

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحَبَالِ رَهِينًا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا
مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَ
قَبْلَ وَشْكِ مِنْ بَيْنِكُمْ: نَوَلِينَا
أَنْتَ أَهْوَى الْعِبَادِ قُرْبًا وَبُعْدًا
لَوْ تَوَاتَيْنِ عَاشِقًا مُحْزُونًا
قَادَهُ الْحَيْنُ يَوْمَ سَرْنَا إِلَى الْحِجْ
جَ جَهَارًا وَلَمْ يَخَفْ أَنْ يَحِينَا
فَإِذَا نَعْجَةٌ تَرَاعِي نِعَاجًا
وَمَهَانُجَلِ النَّوَاطِرِ عَيْنًا
فَسَبَّتَنِي بِمَقْلَةٍ وَبِجِيدٍ
وَبُوجْهِ يَضِيءُ لِلنَّاطِرِينَ
قُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ؟ فَصَدَّتْ وَقَالَتْ
أَمْبِدِ سَوَالِكَ الْعَالَمِينَ؟

قلت بالله في الجلالة لما
أَيُّ مَنْ تَجْمَعُ الْمَوَاسِمُ أَنْتُمْ
أَنْ تَبْلُتِ الْفُؤَادُ أَنْ تَصْدُقِينَا
فَأُبَيِّنِي لَنَا وَلَا تَكْذِبِينَا
فَرَأَتْ حِرْصِي الْفَتَاةُ، فَقَالَتْ
أَخْبِرِيهِ بَعْلُ مَا تَكْتُمِينَا
نَحْنُ مِنْ سَاكِنِي الْعِرَاقِ، وَكُنَّا
قَدْ صَدَقْنَاكَ إِذْ سَأَلْتَ فَمَنْ أَنْ
قَبْلُهَا قَاطِنِينَ مَكَّةَ حِينَا
ت؟ عَسَى أَنْ يَجْرَ شَأْنُ شُؤُونَا
وَتَرَى أَنَا عَرَفْنَاكَ بِالنَّعْ
تَ ظَنُونَا وَمَا قَتَلْنَا يَقِينَا

بسوادِ الثَّيْتَيْنِ ونَعْتِ

قد نراه لناظرِ مُسْتَبِينَا

قولها: وكنا قبلها قاطنين مكة حيناً أرادت إذ كانت مكة لخزاعة. وكان آخرَ من نَبَذَ مفتاح الكعبة من خَزَاعَةَ أَبُو غُبْشَانَ، فباعه من قُصَيِّ بَرْقِ حَمْرٍ؛ فَقِيلَ فِي المَثَلِ: أَحْسَرُ صَفْقَةً مِنْ أَبِي غُبْشَانَ. وكان أَبُو غُبْشَانَ إِذْ بَاعَ المِفْتَاحَ قُصَيًّا مَرِيضًا قَدْ يَمُوتُ مِنْ نَفْسِهِ، فَلَمَّا أَبْلَى مِنْ مَرَضِهِ لَامَهُ قَوْمُهُ، وَسَأَلُوهُ اسْتِرْجَاعَهُ، وَذَلِكَ الَّذِي هَاجَ الحَرْبَ بَيْنَ خَزَاعَةَ وَقُرَيْشٍ، فَظَفَرَ قُصَيٌّ وَاسْتَوَلَى عَلَى مَكَّةَ، وَجَمَعَ قُرَيْشًا بِهَا؛ وَلِذَلِكَ سَمِيَ مَجْمَعًا، قَالَ مَطَرُفُ الخَزَاعِيِّ: الطَّوِيلُ:

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعًا

به جمع الله القبائلَ من فِهْرٍ

وقال الطائي: الطويل:

ولمّا نَصَا ثَوْبَ الحَيَاةِ وَأَوْقَعَتْ

به نائباتُ الدهرِ ما يُتَوَقَّعُ

غدا ليس يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ مُعْدَمُ

نَرَى دَمْعُهُ فِي خَدِّهِ كَيْفَ يَصْنَعُ

ولم أنسَ سَعْيَ الجودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ

بَأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وتكبيرُهُ خَمْسًا عَلَيْهِ مَعَا لَنَا

وإن كان تكبيرَ المُصَلِّينَ أَرْبَعَ

وما كنتُ أدري يَعْلَمُ اللَّهُ قَبْلَهَا

بَأَنَّ النَّدَى فِي أَهْلِهِ يَتَشَيَّعُ

غَدَوَا فِي زَوَايَا نَعْشِهِ وَكَأَنَّمَا

قُرَيْشٌ قُرَيْشٌ يَوْمَ مَاتَ مُجْمَعُ

وقال الشاعر في أمر قُصَيٍّ وَأَبِي غُبْشَانَ: الوافر:

أَبُو غُبْشَانَ أَظْلَمُ مِنْ قُصَيٍّ

وأظْلَمُ مِنْ بَنِي فِهْرٍ خَزَاعَةُ

فَلَا تَلَحُّوا قُصَيًّا فِي شِرَاهُ

ولوموا شَيْخَكُمْ إِذْ كَانَ بَاعَهُ

وكان عمر أسود الثنيتين.

قال مولى ابن أبي عتيق بلال: أتيتُ الثريّا مسلماً عليها، فقالت: أنشدني لعمر، فأنشدتها: الخفيف:

أَصْبَحَ القَلْبُ فِي الحَبَالِ رَهِينًا

فقالت الثريّا: إي والله، لئن سلّمت له لأردن من شأوه، ولأثنين من عَنَانِهِ، ولأعرفنّه نفسه! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله: الخفيف:

قُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ فَصَدَّتْ وَقَالَتْ

أُمِّدْ سؤَالَكَ العَالَمِينَا؟

فقالت: أو قد أجابته بهذا؟ أي وقت؟ فلما انتهيت إلى قوله: الخفيف:

وترى أننا عرفناكَ بالنعْتِ

قالت: جاءت النَّوْكَاءُ بِأَخْر ما عندها من مَوْقِف واحد.

وسأله أخوه الحارث - وهو المعروف بالقُبَاع، وكان من أفاضل أهل دهره - أن يترك الشعر، ورغب إليه في ذلك، ووعظه، فقال: أمّا ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ، ولكني أخرج إلى اليمن، فخرج؛ فلما سار إلى هناك لم تدعُه نفسه وترك الشعر، فقال: البسيط:

هيهات من أمة الوهاب منزلنا
واحتلّ أهلك أجياداً، وليس لنا
بل ما نسيت غداة الخيف موقفها
وقولها للثريا وهي مطرقة
بالله قولي له في غير معتبة
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها
إذا نزلنا بسيف البحر من عدن
إلا التذكر أو حظ من الحزن
وموقفي، وكلانا ثم ذو شجن
والدمع منها على الخدين ذو سنن
ماذا أردت بطول المكث في اليمن
فما أخذت بترك الحج من ثمن

فلما بلغ الشعر الحارث قال: قد علمنا أنه لا يفي.

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال: لزمني دين مرّة فضاقتُ ساحتي وبلادي بي، فتوجهت إلى معن بن زائدة باليمن، فقال: ما أقدمك هذه البلدة: قلت: دين طردني عن وطني، قال: يُقضى دينك، وتُردّ إلى وطنك محبوباً محبوباً، قال: فأقمت عنده، ثم رأيتُ الناس يرحلون إلى الحجّ، فحننت إلى مكة، وذكرت قول ابن أبي ربيعة، وذكر الأبيات... فأتيتُ باب معن، فقلت للحاجب: استأذن لي على الأمير، فلما دخلت عليه قال: إنّ لك لحادثَ خبر! قلت: استودعُ الله الأمير وأستحفظه عليه. قال: وما حاج هذا منك؟ فقلت: رأيتُ خروجَ الناس إلى الحجّ، وذكرت قولَ عمر، فحننت إلى مكة، فقال: أنتَ وحنينك، وإن كنتُ بفراقك ضنينا، وسيبُعك ما تحتاجُ إليه؛ فسرّ مُصاحباً، قال: فسرتُ إلى رَحلي، فأتبعني بمالٍ وثياب ومطايا ودوابّ، وسرت إلى مكة من فوري.

وكان عمر - على غزله، وما يذكره في شعره - عفيفاً. حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: دخلت مع أبي مكة، فجاءه عمر، فسلم عليه، وأنا غلام شابّ وعليّ جبة، فجعل يأخذُ بخصلة من شعري فتمتدّ في يده، يُرسلها فترجع، فيقول: واشباباه! فمال لي: يا ابن أخي، قد سمعتَ قولِي: قلتُ لها وقالت لي؛ وكل مملوك لي حرّ إن كنت قط كشفت عن فرج حرام! قال: ففقت وفي نفسي من يمينه شيء؛ فسألتُ عن رقيقه، فقيل لي: أما في هذا الحول فسبعون.

ويستحسن قول عمر في المساعدة: الوافر:

وخلّ كنتُ عَيْنَ النَّصْحِ مِنْهُ

أَطَافَ بَغِيَّةٍ فَتَهَيَّتُ عَنْهَا

أَرَدْتُ رِشَادَهُ جُهْدِي، فَلَمَّا

إِذَا نَظَرْتُ وَمَسْتَمِعًا مُطِيعًا

وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْرًا شَنِيعًا

أَبَى وَعَصَى أَتَيْنَاهَا جَمِيعًا

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصّمة الجُشَمي: الطويل:

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى

فَقُلْتُ لَهُمْ؛ ظُنُّوا بِالْفَيِّ مُدْجِجِ

فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ

فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَا الْغَدِ

سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمَسْرَدِ

غَوَايَتُهُمْ وَأَنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدِي

غَوَيْتُ، وَإِنْ تَرَشَّدُ غَزِيَّةُ أَرَشْدِ

ومن جيد شعره: الطويل:

يَقُولُونَ إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُ فِي الْهَوَى

فَمَا بَالُ طَرْفِي عَفَ عَمَّا تَسَاقَطَتْ

عَشِيَّةً لَا يَسْتَكْرُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا

وَلَا فَتْنَةً مِنْ نَاسِكَ أَوْ مَضَتْ لَهُ

تَرْوَحَ يَرْجُو أَنْ تُحَطَّ ذُنُوبُهُ

وَمَا النَّسْكَ أَسْلَانِي، وَلَكِنْ لِلْهَوَى

وَإِنِّي لَا أَرَعَاكَ حِينَ أَغِيبُ

لَهُ أَنْفُسٌ مِنْ مَعَشَرٍ وَقُلُوبُ

سَفَاهَ حَجَّى مِمَّنْ يُقَالُ لِبَيْبِ

بَعَيْنِ الصَّبَا كَسَلَى الْقِيَامِ لَعُوبُ

فَآبَ وَقَدْ زِيدَتْ عَلَيْهِ ذُنُوبُ

عَلَى الْعَيْنِ مَنِيَّ وَالْفَوَادِ رَقِيبُ

ونظر عمرُ بن أبي ربيعة إلى فتى من قريش يكلم امرأة في الطواف، فعاب ذلك عليه، فذكر أنها ابنة عمه،

فقال: ذلك أشنع لأمرِك، فقال: إني خطبْتُها إلى عمي، وإنه زعم أنه لا يزوجني حتى أصدقها أربعمائة

دينار، وأنا غيرُ قادر على ذلك، وذكر من حاله وحبّه لها؛ فأتى عمرُ عمه، فكلّمه في أمرها، فقال: إنه

مُملَقٌ، فزوَّجه، وساق عمرُ عنه المهر.

وكان عمر حين أسنَّ حلف ألا يقول بيتاً إلا أعتق رقبة، فانصرف إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت جاريته

تكلّمه ولا يجيبها؛ فقالت: إن لك لشأناً، وأراك تريد أن تقول شعراً، فقال: الوافر:

تَقُولُ وَلِيَدَتِي لَمَّا رَأَتْنِي

أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ أَمْرًا

وَكُنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذُو عَزَاءٍ

لِعَمْرِكَ هَلْ رَأَيْتَ لَهَا سَمِيًّا

طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا

وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءً دَفِينَا

إِذَا مَا شَنْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا

فَشَاقَّكَ أَمْ لَقِيتَ لَهَا خَدِينَا؟

كَبَعْضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا
فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا

فَقُلْتُ: شَكَا إِلَى أَخٍ مُحِبٍ
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بِهِدٍ

مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَ
لَغِيرِ قَلْبِي، وَكُنْتُ بِهَا ضَنِينَا
وَإِنْ جُنَّ الْفَوَادُ بِهَا جُنُونَا

وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعزَى
فَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضْتُ عَنْهَا
أَرَدْتُ بِعَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم .

قال عثمان بن إبراهيم: حججت أنا وأصحابي لنا، فلما رجعنا من مكة مررنا بالمدينة، فرأينا عمر بن أبي ربيعة، وقد نَسَكَ وتَرَكَ قول الشعر، فقال بعضنا لبعض: هل لكم فيه؟ فمِلْنَا إِلَيْهِ، وسَلَمْنَا عَلَيْهِ، وَجَلَسْنَا وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَكَلِمُنَا. فقال له بعضنا: أيعجبك قول الفرزدق: البسيط:

فَبِتْ مُسْتَلْهِياً مِنْ بَعْدِ مَسَرَّاهَا
إِنْ كُنْتَ تَمْنَالَهَا أَوْ كُنْتَ إِيَّاهَا
حَتَّى نَقُولَ: دَنْتُ مِنْهَا بَرِيَاهَا
هِيَاهُتْ مُصْبَحَهَا مِنْ بَعْدِ مُمَسَاهَا
مِنْ نَحْوِ بِلَدَتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا
وَتَضْمِيرُ النَّفْسِ يَأْساً ثُمَّ تَسْلَاهَا
يَا بؤْسَ لِلدَّهْرِ لَيْتَ الدَّهْرَ أَبْقَاهَا

سَرَتْ لَعِينُكَ سَلَمَى بَعْدَ مَغْفَاهَا
فَقُلْتُ: أَهْلاً وَسَهْلاً! مَنْ هَذَاكَ لَنَا؟
تَأْتِي الرِّيحُ الَّتِي مِنْ نَحْوِ بِلَدَتِكُمْ
وَقَدْ تَرَاخَتْ بِهِمْ عَنَّا نَوَى قَذْفٍ
مِنْ أَجْلِهَا أَتَمْنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي
كَيْمَا أَقُولَ: افْتِرَاقٌ لَا اجْتِمَاعَ لَهُ،
وَلَوْ تَمَوْتُ لِرَاعَتِي وَقُلْتُ لَهَا:

فلم يهش لذلك! فقال الآخر: أيعجبك قول العذري: البسيط:

لَمَرَّ يَهُوِي سَرِيحاً نَحْوَهَا رَاسِي
لَكُنْتُ أَبْلَى وَمَا قَلْبِي لَكُمْ نَاسِي
رُوحاً أَعِيشُ بِهِ مَا عَشْتُ فِي النَّاسِ
لَكُنْتُ مُحْتَرَقاً مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

لَوْ حَزَّ بِالسَّيْفِ رَاسِي فِي مَوَدَّتِهَا
وَلَوْ بَلَى تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدِي
أَوْ يَقْبِضُ اللَّهُ رُوحِي صَارَ ذِكْرُكُمْ
لَوْ لَا نَسِيمٌ لَذَكَرَكُمْ يُرَوِّحُنِي

فَتَحَرَّكَ ثُمَّ قَالَ: يَا وَجْهَ! أَبْعِدْ مَا يَحْزِرُ رَأْسَهُ يَمِيلُ إِلَيْهِ؟ ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْدِثُنَا، فَقَالَ: أَتَانِي خَالِدُ الدَّلِيلِ، فَقَالَ: إِنْ هَذَا وَأَثَرَاهَا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا مِنَ الصَّحَرَاءِ أَيَّامَ الرَّبِيعِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟ فَقَالَ: تَتَلَثَّمُ وَتَكْتَفِلُ كَأَنَّكَ طَالِبٌ ضَالَّةً، فَفَعَلْتُ، فَدُفِعَتْ إِلَيْهِنَّ، فَقُلْنَا: يَا أَعْرَابِي، مَا تَطْلُبُ؟ قُلْتُ: ضَالَّةٌ لِي، فَقُلْنَا: قَدْ كَلَلْتَ يَا

أعرابي، فلو جلست فأصبت من حديثنا وأصبنا من حديثك، ولعلك تروح إلى وجود ضالتك، فترت؛ فلما امتد الحديث بنا حسرت هند لثامي، وقالت: أثراك خدعتنا؟ نحن والله خدعناك، وبغشنا إليك خالداً، رأينا خلاءً ومنظراً فأردناك، ونظرت في درعي فأعجيني ما رأيت، فقلت: يا أبا الخطاب، قال عمر: فقلت: لييك، وفي ذلك أقول: الطويل:

ألم تسأل الأطلالَ والمُترَبعا
إلى السرح من وادي المغمس بُدلت
فبيخلن أو يُخيرن بالعلم بعدما
لهند وأتراب لهند إذ الهوى
وإذ لا نطيع العاذلين ولا نرى
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه
تتوَعَتَنَ حتى عاود القلب خبله
فقلت لمُطريهنّ بالحسن: إنما
وأشريت فاستشري وقد كان قد صحا
لئن كان ما حُدثتُ حقاً فما أرى
فقال: فقم فانظر، فقلت: وكيف لي؟
فقال: اكنفل ثم التثم فأت باغيا
فأقبلتُ أهوي مثل ما قال صاحبي

ببطنِ حُلَيَّاتٍ، دوارِسَ بلقعا؟
معالمه وبلاً وكباء زعزعا
نكأن فؤاداً كان قدماً موجعاً
جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا
لواش لدينا يطلبُ الهجرَ مطمعا
كما صفق الساقى الرحيقَ المُشعّشعا
وحتى تذكرت الحبيبَ المودعا
ضررت، فهل تستطيع نفعاً فتتفعأ؟
فؤاد بأمثال المَهَا كان مولعا
كمثل الألى أطريت في الناس أربعا
أخاف حديثاً أن يشاع فيشنعأ
فسلم ولا تكثر بأن تتورعا
لموعده أبغي قلو صاً موقعا

فلما توافقنا وسلمتُ أقبلت
تبالهن بالعرفان لما رأييني
وقرّبن أسباب الهوى لمتميم
فلما تنازعن الأحاديث قلن لي
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
فما جئتنا إلا على وفق موعِد
رأينا خلاءً من عيونٍ ومنظراً

وجوه زهاها الحسن أن نتقنعا
وقلن: امرؤ باغ أكل وأوضعا
بقيس ذراعا كلما قسن إصبعا
أخفت علينا أن نغر ونخدعا؟
إليك، وبيننا له الأمر أجمعا
على ملأ منا خرَجنا له معا
دميث الربى سهل المحلة مُمِرعأ

وَقَلْنَ: كَرِيمٌ نَالٌ وَصَلَّ كَرَائِمٍ فَحَقَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ أَنْ يَتَمَتَّعَا

وقوله: وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا يقول: هذه الوجوه مُدَلَّةٌ بجمالها فلا تختمر، فتستر شيئاً عن الناظرين إليها. وقد أشار إلى هذا المعنى الشماخ بن ضِرَارٍ يصف ناقته: الطويل:

كَأَنَّ ذِرَاعَيْهَا ذِرَاعُ مُدَلَّةٍ بُعِيدَ الشَّبَابِ حَاوَلْتُ أَنْ تُعَذَّرَا
مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافَا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بَنِ غَنَمٍ أَوْ لَقِيطَ بَنِ يَعْمُرَا
بِهَا شَرَقَ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبَرٍ أَطَارَتْ مِنَ الْحَسَنِ الرَّدَاءَ الْمَحْبَرَا

في معان أخرى

قال: وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله لا تستر وجهها، فلما دخلت على مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ قال لها في ذلك، فقالت: إن الله تعالى وسَمَنِي بِمِيسَمِ جَمَالٍ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ، وَاللَّهِ مَا بِي وَصَمَةٌ أُسْتَرُ لَهَا. وقال علي بن العباس الرومي يصف قينة: المنسرح:

لَمْ يَعْتَصِمْ عَوْدُهَا بِزَامِرَةٍ وَلَا انْضَوَى وَجْهُهَا إِلَى السِّتْرِ

وقد ردّد معنى قوله: لم يعتصم عودها بزامرة فقال: يصف برعة الكبيرة: السريع:

غَنَّتْ فَلَمْ تَحُوجْ إِلَى زَامِرٍ هَلْ تَحُوجُ الشَّمْسُ إِلَى شَمْعَةٍ؟
كَأَنَّمَا غَنَّتْ لَشَمْسِ الضُّحَى فَأَلْبَسَتْهَا حُسْنَهَا خِلْعَةً
كَأَنَّمَا رَنَّةٌ مَسْمُوعُهَا رَقَّةٌ شَكَوَى سَبَقَتْ دَمْعَةً
تُهْدِي إِلَى قَلْبِكَ مَا يَشْتَهِي كَأَنَّمَا قَدْ أَطْلَعَتْ طَلْعَةً
يَجْتَمِعُ الظَّرْفُ لَجَلَّاسِهَا وَالْحَسَنُ وَالْإِحْسَانُ فِي بُقْعَةٍ
طَفَلَ عَلَى مَنْ حَصَلَتْ عِنْدَهُ فَبَعْضُ تَطْفِيلِ الْفَتَى رَفْعَةً
رَبِيعٌ غَيْثٌ فَاَنْتَجَعَ رَوْضَهُ فَلَنْ يُعَابَ الْحَرَّ بِالنُّجَعَةِ

وكان ابن الرومي لا يزال معتماً، وكان يغضب إذا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، وسأله بعضُ الرؤساء: لِمَ تَعْتَمُ؟ فقال بديها: المنسرح:

يَا أَيُّهَا السَّائِلِي لِأَخْبَرِهِ عَنِّي لَمْ لَا أَرَاكَ مُعْتَجِرَا
أُسْتَرُ شَيْئاً لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِي تَعْرِيفُهُ السَّائِلِينَ مَا سُنَّيَا

وقد بيّن العلة التي أوجبت اهتمامه في قوله: الطويل:

تعممت إحصاناً لرأسي برهةً
فلما دهى طولُ التعممِ لمتى
عزمت على لبسِ العمامة حيلةً
فيا لك من جانٍ عليّ جنايةً
وأعجب شيء كان دائي جعلته
وَأَعَجِبَ شَيْءٌ كَانَ دَائِي جَعَلْتَهُ

وهذا كقوله، وإن لم يكن في معناه، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم: الوافر:

طربتُ إلى المِراةِ فَرَوَعْتَنِي
فأما شَيْبَةٌ فَفَزَعَتْ مِنْهَا
وأما شَيْبَةٌ فَصَفَحَتْ عَنْهَا
فأعجبٌ بالدليلِ على مَشِيبِي
وهو القائل في صفة رجل أصلع: السريع:
يجذب من نفرته طُرَّةً
إلى مَدَى يَقْصُرُ عَنْ مِيلِهِ

فوجهه يأخذُ من رأسِهِ
وقال أعرابي: الرجز:

قد ترك الدهرُ صفاتي صفصفاً
فصار رأسي جبهةً إلى القفا
كأنه قد كان ربَّعاً فعفاً

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك: إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه، قال: هاته يا أعرابي، فنحن نجوّد بسعة الاحتمال على مَنْ لا نأمن غيبتة، ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون غيباً، الناصح جيّاباً. قال: فإني سأطلقُ لساني بما خرست عنه الألسن، تأديةً لحقّ الله تعالى؛ إنه قد اكتنفك رجالُ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم؛ وابتاعوا دُنْيَاكَ بدينهم، ورضاك بسخطِ ربّهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة، وسلّم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه؛ فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وحسفاً، وأنت مسؤول عما احترموا، وليسوا مسؤولين عما احترمت؛ فلا تُصلِحْ دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس عند الله غبناً مَنْ باع آخرته بدنياً غيره.

فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفُك، قال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا

عليك.

وروى العتي عن أبيه عن مولى لعمر بن حريث قال: شخّصت إلى سليمان بن عبد الملك، فقيل لي: إنك تُردُّ على أفصح العرب، وسيسألك عن المطر، فأنظر ما تجيبه، فقلت: ما عندي من الجواب إلا ما عند العامة، فقيل لي: ما ذلك. ثمّ قنع عنده، فلقيني أعرابي فقلت: هل لك في درهمين. فقال: إني والله محتاج إليهما، حريصٌ عليهما، فما شأنك؟ فقلت: لو سألك سائل عن هذا المطر بم كنت تُجيبه؟ قال: أو يعيًا بهذا أحد؟ قلت: نعم، سأئلك! قال: أتعيًا أن تقول: أصابتنا سماءٌ، عمد لها الثرى، واتصل بها العرى، وقامت منها العُدر، وأتتك في مثل وجار الضَّبْع؟ فكتبتُ الكلام، وأعطيتُه درهمين: فكان هِجْرَائي على الراحلة، فإذا نزلت أقبلت عليه وأمثل نفسي كأني واقفٌ بين يديه، وقد سلّمت عليه بالخلافة وهو يسألني عن المطر! فلما انتهيتُ إليه سألتني فاقْتَصَصْتُ الكلام، فكسّر إحدى عينيه، وقال: إني لأسمع كلاماً ما أنت بأبي عُذْرته. قلت: صدقت! وحياتك يا أمير المؤمنين اشتريته بدرهمين! فاستغرب ضحكاً، ثم أحسن صليتي.

وقال أعرابي يمدح رجلاً: الطويل:

حَلِيمٌ مَعَ النَقْوَى، شُجَاعٌ مَعَ الْجَدَا	نَدَّ حِينَ لَا يَنْدَى السَّحَابُ سَكُوبُ
وَيَجْلُو أُمُوراً لَوْ تَصَيَّقْنَ غَيْرُهُ	لَمَاتَ خُفَاتاً أَوْ لَكَادَ يَذُوبُ
شَدِيدَ مَنَاطِ الْقَلْبِ فِي الْمَوْقِفِ الَّذِي	بِهِ لِقُلُوبِ الْعَالَمِينَ وَجِيبُ
فَتَى هُوَ مِنْ غَيْرِ التَّخَلُّقِ مَا جِدُّ	وَمِنْ غَيْرِ تَأْدِيبِ الرِّجَالِ أَدِيبُ

وقال بعض المحدثين يمدح: الطويل:

فَتَى يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ قَبْلَ سُؤَالِهِ	وَيَجْعَلُ دُونَ الْعُذْرِ فَضْلَ التَّكْرُمِ
أَغْرُمْتُ تَقْصِدَ بِهِ فَضْلَ حَظِهِ	تُصَبُّ وَمَتَى تَطْلُبُ بِهِ الْغَنَمُ تَغْنَمُ
عَلَى رَأْيِهِ يَنْضُمُ مُنْصَدِغُ الصَّفَا	وَيَنْحَلُّ مِنْ عَقْدِ الْعُرَى كُلِّ مُبْرَمِ
لَهُ عَزْمَةٌ أَغْنَى مِنَ الْجَيْشِ فِي الْوَعَى	وَخَطَرَةٌ رَامَ كَالْحُسَامِ الْمَصْمَمِ

جملة من كلام بديع الزمان الهمداني

أبي الفضل أحمد بن الحسين

وهذا اسمٌ وافق مُسمَّاه، ولفظ طابق مَعْنَاه، وكلام غَضُّ المكاسر، أنيق الجواهر، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفاً،
والهوى يَعشَقَه ظَرْفاً.

ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض أعجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حُجُبها الأسماغ، وتوسع فيها؛ إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروس متصرفة، عارضها لأربعمئة مقامة في الكُدَيَّة، تذوب ظَرْفاً، وتقطر حُسناً، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مُساجلتها، ووقف مناقلتها، بين رجلين سَمَى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدّر، ويتنافثان السحر، في معانٍ تُضْحِكُ الحزين، وتحرك الرّصين، يتطلع منها كل طريفة، ويُوقِفُ منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخصّ أحدهما بالرواية؛ وسأذكر منها ما لا يُخل طولُه بالشرط المعقود، ولا ينافي حصولُه الغرض المقصود.

كتب إلى أبي نصر أحمد بن علي الميكالي: كتابي - أعزَّ الله الأمير! - وبودي أن أكونه، فأُسعد به دُونَه، ولكن الحريص محروم، لو بلغ الرزق فاه، لولاه قفاه. فرق الله بين الأيام، تفريقها بين الكرام، وألهمها أن تورِد بعقل، وتُصدر بتمييز، وما ذلك على الله بعزیز، وأنا في مفاتحة الأمير، بين ثقة تعد، ويد تَرْتعد، ولم لا يكون ذلك. والبحر وإن لم أره، فقد سمعتُ خبره، ومن رأى من السيف أثره، فقد عاين أكثره، والليث وإن لم ألقه، فلم أجهل خلقه، وما وراء ذلك من تالد أصل وحسب، وطارف فضل وأدب، ويُعد همة وصيت، فمعلوم تشهد به الدفاتر، والخبر المتواتر، وتنطق به الأشعار، كما تصدق به الآثار، والعين أقل الحواس إدراكاً، والأذن أكثرها استمساكاً، وإن بعدت الدار فلا ضير؛ إنَّ أيسر البعدين بُعد الدارين، وخير القرين قُرب القلبين.

وكتب إليه في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة: الأمير الفاضل، والشيخ الرئيس، رفيع مناطِ المهمة، بعيد منال الحرمة، وفسيح مجال الفضل، رَحِيبٌ مُنْخَرَقُ الجود، رطيب مكسِرِ العود: المحتث:

والشعرين قريضا

وشعب رضوى عروضا

وللهواء نقيضا

سود النوائب بيضا

فلو نظمتُ الثريا

وكاهل الأرض ضربا

وصُغتُ للدر ضدا

بل لو جلوتُ عليه

أَوْ ادَّعَيْتِ الثَّرِيَا

وَالْبَحْرَ عِنْدَ لَهَا

لَأَخْمِصِيهِ حَضِيضًا

يَوْمَ الْعَطَاءِ مَغِيضًا

لما كنت إلا في ذمة القصور، وجانب التقصير، فكيف وأنا قاعدُ الحالة في المدح، قاصرُ الآلة عن الشرح؟ ولكني أقول: الشاء مُنَجَّحٌ أنى سلك، والسخي جوده بما ملك، وإن لم تكن غُرَّةً لائحة فَلَْمَحَةً دالَّةً، وإن لم يكن صداء فماء، وإن لم يكن خمر فخل، وإن لم يُصِبْها وابل فطلّ، وبذلُ الموجود غاية الجود، وبعض الجهد آخر المجهود، وماش خير من لا ش، ووجود ما قلّ خيرٌ من عدم ما جلّ. وقليل في الجيب خير من كثير في العيب، وجهد المقلّ خيرٌ من عذر المخل، وحمار أيس خيرٌ من فرس ليس، وكوخ في العيان خيرٌ من قصر في الوهم. وذيت خير من ليت، وما كان أجود من لو كان، وقد قيل: عصفور في الكف أجودٌ من كُرْكِي في الجو، ولأنّ تقطف خيرٌ من أن تقف، ومن لم يجد الجميم رعى الهشيم، ومن لم يحسن صهيلًا نهق، ومن لم يجد ماء تيمّم؛ والأمير الرئيس - أدام الله نعماه! - لا ينظر في قوافي صنيعته إلى ركاكة ألفاظها، ويُعَدِّ أغراضها، ولكن إلى كثرة جذرها، وثقل مهرها، وقلة كفتها، وإنني منذ فارقت قصبّة جرجان، ووطئت عتبة خراسان، ما زففتها إلا إليه، ولا وففتها إلا عليه، هذا على تمرغي في أعطاف الحن، وضرورتي إلى أبناء الزمن، وإن كان الأمير الرئيس يرفع لكل لفظ حجاب سمعه، ويُفَسِّحُ لكلّ شعر فناء طبعه، فهناك من النثر ما ترى، ومن النظم ما يترى: مجزوء الرمل:

أَذْهِقِ الْكَاسَ فَعَرِّفِ الْ

فَهُوَ لِلنَّاسِ صَبَاحٌ

وَالَّذِي يَمْرَحُ بِي فِي

فَجَرٍ قَدْ كَادَ يَلُوحُ

وَلِذِي الرَّأْيِ صَبَّوحُ

حَلْبَةُ اللَّهِو جَمُوحُ

فَاسْقِنِيهَا وَالْأَمَانِيَّ

إِنَّ لِلْأَيَّامِ أُسْرَا

لَا يَغْرُنْكَ جِسْمٌ

إِنَّمَا نَحْنُ إِلَى الْآ

وَيْكَ هَذَا الْعَمْرُ تَبْرِي

بَيْنَمَا أَنْتَ صَحِيحُ الْ

فَاسْقِنِيهَا مِثْلَ مَا يَلِ

لَهَا عَرَفٌ يَفُوحُ

رَأً بِهَا سَوْفَ تَبُوحُ

صَادِقُ الْحَسِّ وَرُوحُ

جَالُ نَغْدُو وَنُروُحُ

ح وَهَذَا الرُّوحُ رِيحُ

جِسْمٍ إِذْ أَنْتَ طَرِيحُ

فَظْهُ الدَّيْكَ الذَّبِيحُ

رَبِّي الْقَدْحُ السَّيِّحُ	قبل أن يضرب في الده
ولمنْ أَصْغَى نصيحُ	إنما الدهرُ غرورُ
ظِلِّ لَوَاعِيهِ فَصِيحُ	ولسان الدهر بالوَع
م منّا تَسْتَبِيحُ	نستبيح الدهرَ والأيا
لُ المنايا لا تريح	نحن لاهون وآجا
سُ من الناس مُريحُ	يا غلامُ الكأسِ فاليأ
فسنا وهُوَ مبيح	ضاع ما نحمله من أن
ل بالمرء قبيح	وقنوعاً فمقام الذَّ
نك شِقُّ وسَطِيحُ	أنا يا دهر بأبنا
لا على كُفٍّ شَحِيحُ	وبأبكار القوافي
دُ لِعَلَّاتي مُريح	يا بني ميكال والجو
فضل فيكم لفسيحُ	شرفاً إن مجال الُ
دوح يَأْتِيكَ المديح	وعلى قدر سَنَّا المم
فع والطَّرْفُ الطُمُوح	فهناك الشرف الأُر
هر والخلْقُ الصَّبِيحُ	والندى والخلْقُ الطا
رف فيه ويطيح	مرتقى مجدٍ يحار الط
نل والخلْقُ السَّجِيحُ	أيهذا الكرم الما
عادَه منك المسيح	كان هذا الجود ميتاً

هذه - أطل الله بقاء الأمير! - هدية الوقت، وعَفْو الساعة، وفَيْضُ البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليدِ للفم، وجمرات الحدة، وثمرات المدّة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطَّبْعِ للسمَّع، ومجادبة الجنان للبيان، والشعر إذا لم تقدّمه رويّة، ولم تنضجه نيّة، لم يفتح له السمع بابه، ولم يرفع له القلب حجابَه، وإذا لبس الأمير هذه على علاّمها رجوت أن يكون بعدها ما هو أفن وأحسن وأرصن، فأريه أيّده الله في الوقوف عليها موقفاً إن شاء الله.

وله إليه معاتبه: الطويل:

لَنْ سَاعَنِي أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ	لقد سرّني أنّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ
--	-----------------------------------

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس، أطل الله بقاءه إلى آخر الدعاء، في حال برّه وجفائه مُتَفَضِّل، وفي يومي إبعاده وإدْنائِهِ مُتَطَوِّل. وهنيئاً له من حِمَانَا ما يُحِلُّه، ومن عُرَانَا ما يَحُلُّه، ومن أَعْرَاضِنَا ما يَسْتَحِلُّه، بلغني أنه - أدام الله عزه! - استزاد صنيعته، وكنت أظنني مجنياً عليه، مُسَاءً إليه، فإذا أنا في قرارة الذئب، وبمِثَابَةِ العُتْبِ، وليت شعري أيّ محذور في العشرة حَضَرْتَهُ، أو مفروض من الخِدْمَةِ رَفَضْتَهُ، أو واجب في الزيارة أَهْمَلْتُهُ. وهل كنتُ إِلَّا ضيفاً أَهْدَاهُ بَلَدٌ شَاسِع، وأَدَّاهُ أَمَلٌ وَاسِع، وَحَدَّاهُ فَضْلٌ وَإِنْ قَلَّ، وَهَدَّاهُ رَأْيٌ وَإِنْ ضَلَّ، ثُمَّ لَمْ يُلْقَ إِلَّا فِي آلِ مِيكَالَ رَحْلَهُ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَّا بِهَمِّ حَبْلِهِ، وَلَمْ يَنْظَمْ إِلَّا فِيهِمْ شِعْرَهُ، وَلَمْ يَقِفْ إِلَّا عَلَيْهِمْ شُكْرَهُ، ثُمَّ مَا بَعُدَتْ صَحْبَةٌ إِلَّا دَنَتْ مَهَانَةٌ، وَلَا زَادَتْ حُرْمَةٌ إِلَّا نَقَصَتْ صَيَانَةٌ، وَلَا تَضَاعَفَتْ مَنَّةٌ إِلَّا تَرَاوَعَتْ مَنَزَلَةٌ، وَلَمْ تَزَلِ الضَّعْفَةُ بِنَا حَتَّى صَارَ وَابِلُ الْإِعْظَامِ قَطْرَةً، وَعَادَ قَمِيصُ الْقِيَامِ صُدْرَةً، وَذَلِكَ التَّقَرُّبُ أَزْوَاراً، وَطَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصَاراً، وَالْاهْتِرَازُ إِيمَاءٌ، وَالْعِبَارَةُ إِشَارَةٌ؛ وَحِينَ عَاتَبْتَهُ أَمَلُ إِعْتَابِهِ، وَكَاتَبْتَهُ أَنْتَظِرْ جَوَابِهِ، وَسَأَلْتَهُ أَرْجُو إِيجَابِهِ، أَجَابَ بِالسَّكُوتِ، وَأَعْتَبَ بِالْقُنُوتِ، فَمَا أَزِدَدْتُ إِلَّا لَهُ وَلَاءً، وَعَلَيْهِ ثَنَاءٌ؛ لَا جَرَمَ لِي الْيَوْمَ أَبْيَضُ وَجْهَ الْعَهْدِ، وَاضِحَ مَحَجَّةِ الْوُدِّ، طَوِيلُ عِنَانِ الْقَوْلِ، رَفِيعَ حِكْمَةِ الْعُدْرِ؛ وَقَدْ حَمَلْتُ فَلَاناً مِنَ الرِّسَالَةِ مَا تَجَافَى عَنْهُ الْقَلَمُ؛ وَالْأَمِيرُ الرَّئِيسُ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ يُنْعِمُ بِالْإِصْغَاءِ لِمَا يُوْرِدُهُ مَوْفَقاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وله إليه في هذا الباب: أنا في خدمة الأمير الرئيس - أطل الله بقاءه! - مترجح بين أن أشركها رنقة ولا أسيعها، وألجج منها مضغعة ولا أجزها، وبين أن أطويها على عرها، ولا أرتضع أخلاف درها: الوافر:

فلا نفسي تطاو عني لرفض ولا همي توطني لخفض

وبقي أن أقرضه بأنامل العتب، وأحشمه بألحاظ العذل، وأعرفه أبي ما أطوي مسافة مزار إلا متجشماً، ولا أطأ عتبة دار إلا متبرماً؛ ولست كمن يسط يده مستجدياً، أو ينقل قدمه مستعدياً؛ فإن كان الأمير الرئيس - أيده الله! - يسرخ طرفه مني في طامح أو طامع، فليعد للفراسة نظراً: الطويل:

فما الفقر من أرض العشيرة ساقني إليك، ولكننا بقرباك ننجح

وأجدي كلما استفزني الشوق إلى تلك المحاسن، أطيّر إليها بجناحين عَجَلَا، وأرجع بعرجاوين خَجَلَا، ولولا أن الرضا بذلك ضرب من سقوط المهمة، وأن العتاب نوع من أنواع الخدمة، لصنّت مجلسه عن قلبي، كما أصونه عن قدمي، ولملت إلى أرض الدعاء فهو أنجع، وإلى جانب الشاء فهو أوسع، وسأفعل لتخف مؤنّي، ولا تنقل وطأتي: المتقارب:

إذا ما عتبت فلم تعتب وهنت عليك فلم تعن بي

سَلَوْتُ، وَلَوْ كَانَ مَاءَ الْحَيَاةِ

لَعَفْتُ الْوَرُودَ وَلَمْ أَشْرَبِ

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر

في معان شتى تجري مجرى الأمثال

أبو فراس الحمداني: الطويل:

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عُدَّةَ

أَتَتْهُ الرِّزَايَا مِنْ وَجْهِهِ الْمَكَاسِبِ

وله: الطويل:

عَفَاكَ عِي، إِنَّمَا عِفَةُ الْفَتَى

إِذَا عَفَ عَنْ لَذَاتِهِ وَهُوَ قَادِرٌ

وقال المتنبي: الخفيف:

كُلْ حِلْمٌ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ

حُجَّةٌ لَاجِئٍ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

وله: الخفيف:

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَاراً

تَعَبَتْ فِي مَرَادِهَا الْأَجْسَامُ

وله: الكامل:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ

فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وله: البسيط:

لَا يُعْجِبُنَّ مَضِيماً حُسْنَ بَزَّتِهِ

وَهَلْ تَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الْكَفَنِ؟

وله: الخفيف:

مِنْ أَطَاقِ التِّمَاسِ شَيْءٌ غَلَاباً

وَاعْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاً

وله: الكامل:

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النُّفُوسِ، فَإِنْ تَجَدَّ

ذَا عِفَةٍ فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلُمُ

وله: البسيط:

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبُهُ

أَنِّي بِمَا أَنَا بِكَ مِنْهُ مَحْسُودٌ

وله: البسيط:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرَهُ الثَّانِي، وَحَاجَتُهُ

مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

والمتنبي أكثرُ المحدثين اقتناناً وإحساناً في الإغراب بهذا الباب؛ والاستقصاء يخرج عن شرط الكتاب.
وقال السري الموصلي: البسيط:

خُذُوا مِنَ الْعَيْشِ فَأَلْأَعْمَارُ فَائِئَةً وَالدهرُ مُنْصَرِّمٌ وَالْعَيْشُ مُنْقَرِضٌ

وله: الوافر:

فَإِنَّكَ كُلَّمَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا أَنْتَ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ

وقال أبو إسحاق الصابي: البسيط:

الضَّبُّ وَالنَّوْنُ قَدْ يُرْجَى التَّقَاؤُهُمَا وَلَيْسَ يُرْجَى التَّقَاءُ اللَّبِّ وَالْذَهَبِ

وقال ابن نباتة: الكامل:

مَثَلُ خَلَعْتُ عَلَى الزَّمَانِ رِدَاءَهُ عَوَزُ الدَّرَاهِمِ آفَةُ الْأَجْوَادِ

وله: الكامل:

يَهْوَى النَّشَاءَ مَبْرَزٌ وَمُقَصِّرٌ حُبُّ النَّشَاءِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

وقال أبو الحسن السَّلَامِي: الوافر:

تَبَسَّطْنَا عَلَى اللَّذَاتِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنُوبِ

وقال ابن لنكك البصري: الطويل:

وَمَاذَا أُرْجَى مِنْ حَيَاةٍ تَكَدَّرَتْ وَلَوْ قَدْ صَفَتْ كَانَتْ كَأَحْلَامِ نَائِمٍ

وقال أبو طالب المأموني: الكامل:

لِي فِي ضَمِيرِ الدَّهْرِ سِرٌّ كَامِنٌ لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَلَّهُ الْأَقْدَارُ

وقال أبو الفضل بن العميد: الكامل:

الرَّأْيُ يَصْدَأُ كَالْحُسَامِ لِعَارِضٍ يَطْرَأُ عَلَيْهِ وَصْقَلُهُ التَّذْكِيرُ

وقال أبو الفتح: الطويل:

بَطَرْتُمْ فَطَرْتُمْ وَالْعَصَا زَجْرُ مَنْ عَصَى وَتَقْوِيمُ عَبْدِ الْهُونِ بِالْهُونِ رَادِعُ

وله: المتقارب:

إِذَا بَلَغَ الْمَرْءُ آمَالَهُ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَهَا مُقْتَرَحُ

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد: مجزوء الرمل:

دِ لَمَقْلَاةً نَزُورُ

إِنْ أُمَّ الصَّقْرَ فِي الْوَدِّ

وله: مخلع البسيط:

إِنْ مَاتَ لَمْ نَشْهَدْ الْجَنَازَةَ

مَنْ لَمْ يَعِدُنَا إِذَا مَرِضْنَا

وله: الرجز:

فاحْفَظْهُ حِفْظَ الشُّكْرِ لِلْإِحْسَانِ

حِفْظُ اللِّسَانِ رَاحَةُ الْإِنْسَانِ

وقال إسماعيل الناشئ: الطويل:

فَخَانَتْ ثِقَاتُ النَّاسِ حَتَّى التَّجَارِبِ

وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ التَّجَارِبَ عُدَّةٌ

وقال أبو الفتح البستي: السريع:

فَالْغَيْثُ لَا يَخْلُو مِنَ الْعَيْثِ

لَا تَرْجُ شَيْئاً خَالِصاً نَفْعُهُ

وله: الطويل:

وَلَا مِثْلَ حُسْنِ الصَّبْرِ جُبَّةٌ لِابْسٍ

وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الشُّكْرِ جَنَّةٌ غَارِسٍ

وله: الطويل:

يُغَيِّرُهُ رِيحاً وَلَوْناً وَمَطْعِماً

وَطُولَ مَقَامِ الْمَاءِ فِي مَسْتَقَرِّهِ

وله: الخفيف:

بَعْدَمَا عَوَجَ الْمَشِيبُ قَنَاتِي

مَا اسْتَقَامَتْ قَنَاءُ رَأْيِي إِلَّا

وقال أبو الفضل الميكالي: الطويل:

يَدَ الدَّهْرِ إِلَّا حِينَ تَضْرِبُهُ جَلْدًا

هُوَ الشُّوْكَ لَا يُعْطِيكَ وَافِرَ مَنَةٍ

وله: السريع:

وَإِنْ غَدَا أَقْوَمَ مِنْ قَدَحٍ

ذُو الْفَضْلِ لَا يَسْلَمُ مِنْ قَدَحٍ

وقال شمس المعالي: البسيط:

وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وَفِي السَّمَاءِ نَجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ

هذا مأخوذ من قول الطائي: البسيط:

عِيدَانِ نَجْدٍ فَلَمْ يَعْبَأَنَّ بِالرَّثَمِ

إِنَّ الرِّيحَ إِذَا مَا اسْتَعْصَفَتْ قَصَفَتْ

وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْهَا الدَّهْرُ فِي الرَّقْمِ

بَنَاتُ نَعَشٍ وَنَعَشٍ لَا كُسُوفَ لَهَا

وقال أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي: البسيط:

الهجر أَرْوَحُ من وَصَلْ على حَذَرٍ والموتُ أَطْيَبُ من عَيْشٍ على غَرَرٍ

وقال أبو بكر الخوارزمي: الخفيف:

لا تَغْرَنَكَ هَذِهِ الأَوْجُهَةُ الغُرُّ فَيَا رَبُّ حَيَّةٍ فِي رِيَاضٍ

قال أبو العيْناء: كان عيسى بن فرحان شاه يَتِيه عليّ في ولايته الوِزَارَةَ، فلَمَّا صُرِفَ رَهْبَتِي، فَلَقيني فسَلِمَ عليّ فأخْفَى، فقلتُ لِعَلامِي: مَنْ هَذَا؟ قال: أبو موسى؛ فدنوتُ منه وقلت: أعزَّكَ اللهُ، واللهُ لقد كنتُ أَقْنَعُ بِإِيمانِكَ دونَ بَيانِكَ، وبَلَحْظِكَ دُونَ لَفْظِكَ، فالحمدُ لله عليّ ما أَلَتَ إليهِ حَالُكَ، فلئن كانت أخطأتُ فيكَ النعمة، فلقد أصابت فيكَ النِّقْمَةُ، ولئن كانت الدنيا أَبَدَتْ مُقابِلَها بالإقبالِ عليكَ، لقد أَظْهَرَتْ مُحاسِنَها بالانصرافِ عنكَ، واللهُ المَنَّةُ إِذْ أَغْنانا عن الكَذِبِ عليكَ، ونَزَّهَنا عن قول الزورِ فيكَ، فقد واللهُ أَسَّاتَ حَمْلَ النعم، وما شَكَرْتَ حَقَّ المُنْعَمِ، فقيلَ لهُ: يا أبا عبد الله، لقد بالغت في السبِّ، فما كان الذنب؟ قال: سألته حاجةً أَقلَّ من قيمته، فردَّ عنها بأقْبَحَ من خِلَقَتِهِ.

وقال عليّ بنُ العباسِ الرومي لأبي الصقرِ إِسماعيل بن بليّ لَمَّا نكبه الموفق بن أحمد وألَمَ في بعضِ قولهِ بقول أبي العيْناء: الكامل:

لا زالَ يَوْمُكَ عِبْرَةً لِغَدِكَ وَبَكَتْ بِشَجْوِ عَيْنِ ذِي حَسَدِكَ
فلئن نَكِبْتَ لَطالَما نَكِبْتَ بِكَ هِمَّةٌ لَجأتُ إِلى سَدِّكَ
لو تسجدُ الأَيامُ ما سجدتُ إِلاَّ لِيَوْمِ فَتٍ في عَضْدِكَ
يا نِعْمَةً وَلَّتْ غَضارُها ما كان أَقْبَحَ حَسَنَها بِيَدِكَ
فلقد غَدَتُ بَرْدًا على كَبْدي لَمَّا غَدَتُ حَرًّا على كَبْدِكَ
ورأيتُ نِعْمى الله زائِدةً لما اسْتَبانَ النقصُ في عَدْدِكَ
ولقد تَمَنَّتْ كُلُّ صاعِقةٍ لو أَنها صُبَّتْ على كَتْدِكَ
لَم يَبْقَ لي مِمَّا بَرَى جَسْدي إِلاَّ بقاءُ الرّوحِ في جَسَدِكَ

وله فيه أَهْجٌ كثيرةٌ لما نكَب، منها قولهُ: السريع:

خَفَضَ أبا الصَّقَرِ فَكَمَ طائِرٍ خَرَّ صَرِيحاً بَعْدَ تَحْلِيْقٍ

رُوجَّتْ نِعْمى لَم تَكُنْ كُفْأَها فَصانَها المَحْه بِتَطْلِيْقٍ
لا قُدِّسَتْ نِعْمى تَسَرُّبُلُها كَم حَجَّةٍ فيها لِزِنْدِيْقٍ

وكان أبو الصقر لما ولي الوزارة مدحه ابن الرومي بقصيدته النونية التي أولها: البسيط:

أَجْنَيْنَكَ الْوَرْدَ أَغْصَانُ وَكُثْبَانُ
فِيهِنَّ نَوَّاعِنُ تَفَاحُ وَرْمَانُ
وَفَوْقَ ذَيْنِكَ أَغْنَابُ مُهَدَّلَةٌ
سُودَ لَهْنٍ مِنَ الظُّلْمَاءِ أَلْوَانُ
وَتَحْتَ هَاتِيكَ عُغَابُ تَلُوحُ بِهِ
أَطْرَافُهُنَّ قُلُوبُ الْقَوْمِ قِنْوَانُ
غُصُونُ بَانٍ عَلَيْهَا الزَّهْرُ فَاكِهَةٌ
وَمَا الْفَوَاكِهُ مِمَّا يَحْمِلُ الْبَانُ
وَنَرَجِسُ بَاتِ سَارِي الطَّلِّ يَضْرِبُهُ
وَأَقْحَوَانُ مَنِيرُ اللَّوْنِ رِيَانُ
أَلْفَنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ حَسَنُ
فَهِنَّ فَاكِهَةٌ شَتَّى وَرِيحَانُ
ثَمَارُ صِدْقٍ إِذَا عَايَنْتَ ظَاهِرَهَا
لَكِنَّهَا حِينَ تَبْلُو الطَّعْمَ خُطْبَانُ
وَلَا يَدْمُنُ عَلَى عَهْدٍ لِمَعْتَقِدٍ
وَالْغَانِيَاتُ كَمَا شُبُهْنَ بَسْتَانُ
يَمِيلُ طَوْرًا بِحَمَلٍ ثُمَّ يَعْدُمُهُ
وَيَكْتَسِي ثُمَّ يُلْفَى وَهُوَ عُريَانُ

وهي أكثر من مائتي بيت، مر له فيها إحسان كثير، فأنشدها أبا الصقر، فلما سمع قوله:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم

قال: هجاني، قيل له: إن هذا من أحسن المدح؛ ألا تسمع ما بعده:

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بَابِنَ ذُرَى شَرَفٍ
كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ

قال: أنا بشيبان لا شيبان بي. ف قيل له فقد قال:

وَلَمْ أَقْصِرْ بِشِيْبَانِ الَّتِي بَلَغَتْ

لِلَّهِ شِيْبَانِ قَوْمٍ لَا يَشُوْبُهُمْ

فقال: لا والله لا أثيبه على هذا الشعر، وقد هجاني.

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وقد ذكروا قصيدة ابن الرومي هذه النونية، فقال: هذه دارُ البطيخ، فاقرأوا تشبيهاً تعلموا ذلك! فضحك جميع من حضر. وفي هذه القصيدة يقول من المختار في النسب:

يَا رَبُّ حُسَانَةٍ مِنْهِنَّ قَدْ فَعَلْتَ

سَوْءًا، وَقَدْ يَفْعَلُ الْأَسْوَاءُ إِحْسَانُ

تُشْكِي الْمُحِبَّ وَتُلْفَى الدَّهْرَ شَاكِيَةً

كَالْقَوْسِ تُصْنِي الرَّمَايَا وَهِيَ مَرْنَانُ

وهذا كقوله في قصيدة يصف فيها قوس البندق: الطويل:

لَهَا رَنَّةٌ أَوْلَى بِهَا مِنْ تَصْيِيهِ

وَأَجْدَرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ مُوجِعًا

يقول فيها:

لا تَلْحِيَانِي وَإِيَّاهَا عَلَى ضَرَعِي
إِنِّي مَلَكْتُ فِيهِ لِلرَّقِّ مَسْكَنَةً
لِي مَذْنَاتٌ وَجَنَّةٌ رِيًّا بِمَشْرِبِهَا

وفيها في مدح بني شيبان:

قوم سماحتهم غِيثٌ، وَنَجَدَتْهُمْ
تَلْقَاهُمْ وَرِمَاحُ الْخَطِّ حَوْلَهُمْ
صَانُوا النُّفُوسَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَابْتَذَلُوا
الْمَنْعُمُونَ وَمَا مَنُوا عَلَى أَحَدٍ

يقول فيها في أبي الصقر:

يَفْدِيهِ مَنْ فِيهِ عَن مِقْدَارِ فِدْيَتِهِ
قوم كأنهم مَوْتَى إِذَا مُدِحُوا
صَاحِي الطَّبَاعِ إِذَا سَالَتْ هَوَاجِسُهُ
يُصْنِيهِ ذِهْنٌ وَيَأْبَى صَحْوَهُ كَرَمٌ
فَرْدٌ جَمِيعٌ يَرَاهُ كُلُّ ذِي بَصَرٍ

وهذا كقول أبي الطيب: الكامل:

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا

وَزَهْوَاهَا، لِحْجٍ مَقْتُونٌ وَفُتَانٌ
وَمُلَّكْتُ فَلَهَا بِالْمُلْكِ طُغْيَانٌ
مَنْ عَبَّرْتَنِي وَفَمَّ مَا عَشْتُ ظَمَانٌ

غَوَّثٌ، وَآرَأَوْهُمْ فِي الْخَطْبِ شُهْبَانٌ
كَالْأَسَدِ أَلْبَسَهَا الْآجَامَ خَفَانٌ
مِنْهُمْ فِي سُبُلِ الْعِلْيَاءِ مَا صَانُوا
يَوْمًا بِنُعْمَى، وَلَوْ مَنُوا لَمَا مَانُوا

عَنِ الْمَفَادَةِ تَقْصِيرٌ وَنُقْصَانٌ
وما لهم من حَبِيرِ الشَّعْرِ أَكْفَانٌ
وَإِنْ سَأَلْتَ يَدَيْهِ فَهُوَ نَشْوَانٌ
مُسْتَحْكِمٌ فَهُوَ صَاحٍ وَهُوَ سَكْرَانٌ
كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرًّا وَهُوَ إِنْسَانٌ

رَدَّ الْإِلَهَ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَ

وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا

نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا

وقد تقدّم.

وقال: الطويل:

فَإِنْ يَكُ سَيَّارُ بَنٍ مَكْرَمٍ انْقَضَى
مَضَى وَبَنُوهُ وَأَنْفَرَدَتْ بِفَضْلِهِمْ

وقال البحتري: الطويل:

وَلَمْ أَرِ أُمْتَالِ الرِّجَالِ تَفَاوُتًا

لَدَى الْمَجْدِ، حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدٍ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت، فمن ذلك قوله في قصيدة طويلة يمدحه: البسيط:

مي وَجَّهَ رَوْضَةً لِلْحَسَنِ مَوْثِقَةً	ما رَادَ فِي مِثْلِهَا طَرْفٌ وَلَا سَرَحًا
طَلُّ الْحَيَاءِ عَلَيْهَا سَاقِطٌ أَبَدًا	كَاللُّؤْلُؤِ الرُّطْبِ لَوْ رَفَّرَقْتَهُ سَفَحًا
أَنَا الزَّعِيمُ لِمَكْحُولٍ بَغْرَتِهِ	أَلَا يَرَى بَعْدَهَا بُؤْسًا وَلَا تَرَحًا
مَهْمَا أَتَى النَّاسُ مِنْ طَوَّلٍ وَمِنْ كَرَمٍ	فَإِنَّمَا دَخَلُوا الْبَابَ الَّذِي فَتَحَا
يُعْطِي الْمَزَاحَ وَيُعْطِي الْجَدَّ حَقَّهُمَا	فَالْمَوْتُ إِنْ جَدَّ، وَالْمَعْرُوفُ إِنْ مَزَحَا
وَإِنِّي عُطَارِدٌ وَالْمَرِيخُ مَوْلَاهُ	فَأَعْطِيَاهُ مِنَ الْحَظِّينِ مَا اقْتَرَحَا
إِنْ قَالَ: لَا، قَالَهَا لِلْأَمْرِ بِهِ	وَلَمْ يَقُلْهَا لِمَنْ يَسْتَمْنَحُ الْمِنَحَا
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ نَاهِيكَ مِنْ قَلَمٍ	نُبْلًا، وَنَاهِيكَ مِنْ كَفِّ بِمَا اتَّشَحَا
يَمْحُو وَيُثَبِّتُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ بِهِ	فَمَا الْمَقَادِيرُ إِلَّا مَا مَحَا وَوَحَى
كَأَنَّمَا الْقَلَمُ الْعُلُويُّ فِي يَدِهِ	يُجْرِيهِ فِي أَيِّ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ نَحَا
لَمَّا تَبَسَّمَ عَنْكَ الْمَجْدُ قُلْتَ لَهُ	قَهْقَهه فَلَا نَغْلًا تُبْدِي وَلَا قَلَحَا
أُنْتِي عَلَيْكَ بِنِعْمَاكَ الَّتِي عَظُمَتْ	وَقَدْ وَجَدْتَ بِهَا فِي الْقَوْلِ مُنْفَسَحَا
أَمْطَرُ بِذَلِكَ جَنَانِي تَكْسُهُ زَهْرًا	أَنْتَ الْمَحْيَا بِرِيَاهِ إِذَا نَفَحَا

أنشدتها على متوالي الاختيار، وكذلك أجري في كثير من الأشعار.

وقال يعاتبه ويستبطنه: الطويل:

عَقِيدَ النَّدَى، أَطْلِقِ مَدَائِحَ جَمَّةً	حَبَائِسَ حَسْرَى قَدْ أَبَتَ أَنْ تَسْرَحَا
وَكُنْتُ مَتَى تَنْتَشِدُ مَدِيحًا ظَلَمْتَهُ	يُرَى لَكَ أَهْجَى مَا يُرَى لَكَ أَمْدَحَا
عَذْرَتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقْشَعَتْ	سَحَابُهَا أَوْ كَانَ رَوْضٌ تَصَوَّحَا
وَلَكِنَّا سَقِيَا حُرْمَتَ رَوِيهَا	وَعَارِضُهَا مُلْقٌ كَلَاكِلَ جُنَحَا
وَأَكْلَاءَ مَعْرُوفٍ حَرَمْتَ مَرِيْعَهَا	وَقَدْ عَادَ مِنْهَا السَّهْلُ وَالْحَزَنُ مَسْرَحَا
عَرَضْتُ لِأُورَادِي وَبَحْرُكَ زَاخِرٌ	فَلَمَّا أَرْدَنَ الْوَرْدَ أَلْفَيْنَ ضَحَضَحَا
فَلَوْ لَمْ تَرِدْ أُنُودَ غَيْرِي غِمَارَهُ	لَقُلْتُ: سَرَابٌ بِالْمَتَانِ تَوْضَحَا
فِيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَبًا	وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا

مديحي عصا موسى، وذلك أنني
صَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ النَّدَى فَتَضَحَضَا
سَأْمُدَحَ بَعْضَ الْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ
إِذَا اطَّرَدَ الْمَقْيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ الصَّفَا
أَيَّبَعْتُ لِي مِنْهُ جِدَاوِلَ سُبُحَا؟
كَتَلَكِ الَّتِي أَبْدَتْ ثَرَى الْأَرْضِ يَابِسًا
وَشَقَّتْ عَيُونًا فِي الْحَجَارَةِ سَفَحَا
مَلَكَتْ فَأَسْجَحُ يَا أَبَا الصَّقْرِ إِنَّهُ
إِذَا مَلَكَ الْأَحْرَارَ مِثْلُكَ أَسْجَحَا

وما ضرر إلى أحد هذه الضراعة، ولا في طوقه هذا الاحتمال؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما وُلد أكثرها من قول أبي تمام الطائي لحمد بن عبد الملك الزيات: الطويل:

فلو حَارَدَتْ شَوْلَ عَذْرَتُ لَقَاحَهَا
وَلَكِنْ حَرَمْتُ الدَّرَ وَالضَّرْعُ حَافِلُ
أَكَابِرْنَا عَطْفًا عَلَيْنَا؛ فَإِنَّا
لَنَا ظِمًا بَرِّحْ وَأَنْتُمْ مَنَاهَلُ
وفيه يقول: السريع:

هذا مقامي يا بني وائل
أَنْشَبَ فِيهِ الدَّهْرُ أَظْفَارَهُ
فَأَنْصِفُوا مِنْهُ أَخَا حُرْمَةٍ
مَاتَ مُسْتَجِيرٌ بِكُمْ عَائِدُ
وَعَضَهُ بِالنَّابِ وَالنَّاجِدُ
لَاذَ بَكُمُ مِنْهُ مَعَ اللَّائِدِ
فَمَا أَرَى الدَّهْرَ عَلَى جَوْرِهِ
يَخْرُجُ مِنْ حَكْمِكُمُ النَّافِدِ
وقال أيضاً: المنسرح:

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي وَهَنْتُ
فَأَصْبَحْتَ فِي يَدِ الضَّعِيفِ وَذِي الْإِل
غَيْرِي عَلَى أَنِّي مُؤَمِّلُكَ الْأَقْدَمُ سَائِلُ بَذَاكَ وَامْتَحِنِ
مَادِحَ عَشْرِينَ حِجَّةً كَمَلًا
أَنْصَارُ أَمْوَالِهِ وَلَمْ يَهِنْ
فَأَصْبَحْتَ فِي يَدِ الضَّعِيفِ وَذِي الْإِل
مَحْرُومَهَا عَنْكَ غَيْرَ مُضْطَغِنِ
قُوَّةَ وَالْبَاقِلِيَّ وَاللَّسِنِ
هَ عَلَيْهِ أَجَلٌ مُؤْتَمِنُ
فَلْتَعْطِنِي حَقَّ حَصِّهِ الْفَطْنِ
إِنْ كُنْتُ فِي الشَّعْرِ نَاقِدًا فَطْنَا
وَلْتَعْطِنِي حَقَّ حَصِّهِ الزَّمَنِ
وَإِنْ أَكُنْ فِيهِ سَاقِطًا زَمْنَا
جَدَّوَاهُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّمَنِ
سَمِ بِي دِيَوَانِكَ الَّذِي عَدَلْتُ
أَسْ فَإِنْ لَمْ أَرْنُكَ لَمْ أَشِنْ
كَثَرَ بِشَخْصِي مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنَ النَّ

ما حق من لان صدره لك بال

ود لقاء بجانب خشن

وقال أبو العباس الرومي لرجل مدحه في كلمة: الوافر:

أبعد لقاى دونك كل قفر

يدق الشخص فيه أن يلاقى

وإعمالي إليك به المطايا

وقد ضرب الظلم له رواقا

ورفضي النوم إلا أن تراني

أعانق واسط الكور اعتاقا

تسوق بنا الحداة فليس تدري

أشوقا كان ذلك أم سياقا

أصادف درة المعروف شكرى

لديك ولا أدوق لها ذواقا

يقول فيها:

غدا يعلو الجياد وكان يعلو إذا ما استقره السبت الرقاقا

أعنتها الشسوع فإن عراها

حفاء الكد أنعلها طراقا

فزوج بعد قفر منه نعى

أراني الله صبحتها الطلاقا

أبو العيناء

قال أبو القاسم علي بن حمزة بن شمردل: حدثني أبي قال: سألت أبا العيناء عن نسبه، فقال: أنا محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، وأصل قومي من بني حنيفة من أهل اليمامة، ولحقهم سبأ في أيام المنصور؛ فلما صار ياسر في قيده اعتقه، فولأنا لبني هاشم؛ وكان أبو العيناء ضيرير البصر؛ ويقال: إن جدّه الأكبر لقي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه! - فأساء مخاطبته؛ فدعا عليه وعلى ولده بالعمى، فكل من عمي منهم صحيح النسب! قال الصولي: حدثني أبو العيناء، قال: لما أذحلت على المتوكل فدعوت له وكلمته استحسن كلامي، وقال لي: بلغني أن فيك شرًا! فقلت: يا أمير المؤمنين، إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فقد زكى الله تعالى وذنم، فقال في التزكية: "نعم العبد إنّه أواب"، وقال في الذم: "هَمَازٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ، مَنَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ". وقال الشاعر: الطويل:

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله

ولم أذمم الجبس اللئيم المذمما

ففيهم عرفت الخير والشر باسمه

وشق لي الله المسامع والفما؟

وإن كان الشر كفعل العقرّب التي تلسع السني والدي بطبع لا بتميز، فقد صان الله عبدك عن ذلك!

فقال لي: بلغني أنك رافضي، فقلت: يا أمير المؤمنين، وكيف أكون رافضيًا وبلدي البصرة ومنشئي في

مَسْجِدَ جَامِعِهَا، وَأَسْتَاذِي الْأَصْمَعِي، وَلَيْسَ يَخْلُو الْقَوْمُ أَنْ يَكُونُوا أَرَادُوا الدِّينَ أَوِ الدُّنْيَا؛ فَإِنْ كَانُوا أَرَادُوا الدِّينَ فَقَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ مَنْ أَخْرَا، وَتَأْخِيرِ مَنْ قَدِمَا، وَإِنْ كَانُوا أَرَادُوا الدُّنْيَا فَأَنْتَ وَآبَاؤُكَ أَمْرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، لَا دِينَ إِلَّا بِكَ، وَلَا دُنْيَا إِلَّا مَعَكَ.

قال: كيف ترى داري هذه؟ قال: قلت: رأيت الناس بنوا دُورهم في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك.

فقال لي: ما تقول في عبيد الله بن يحيى؟ قلت: نعم العبد لله ولك، مقسم بين طاعته وخدمتك، يؤثر رضاك على كل فائدة، وما عاد بصلاح ملكك على كل لذة.

قال: فما تقول في صاحب البريد ميمون بن إبراهيم؟ - وكان قد علم أني واحد عليه بتقصير وقَعَ منه في أمرٍ - فقلت: يا أمير المؤمنين، يدُ تسرق واستُ تضطرب؛ وهو مثل اليهودي سرق نصف جزيته، فله، إقدامٌ بما أدى، وإحجامٌ بما أبقى، إساءته طبيعة، وإحسانه تكلف! قال: قد أردتُك لمجالستي، قلت: لا أطيق ذاك، وما أقول ذلك جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكني محجوب، والمحجوب تختلف عليه الإشارة، ويخفى عليه الإيحاء، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان ووجهك راضٍ أو بكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أميز بين هذين هلكت، قال: صدقت، ولكن تلزمننا، قلت: لزوم الفرص الواجب اللازم، فوصلني بعشرة آلاف درهم.

ولأبي العيناء مع المتوكل مجالس أَدْخَلَ الرواة بعضها في بعض، وسأورد مستظرفها إن شاء الله: قال له المتوكل يوماً: يا أبا العيناء، لا تُكثِرِ الوقعة في الناس، قال: إن لي في بصري لشُعلاً عن الوقعة فيهم، قال: ذلك أشد حيفك في أهل العافية! وقال له يوماً: هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا؟ قال: لم تكن ضريراً فيما تقدّم، وإنما سألتك عما سلف، قال: نعم، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه، قال المتوكل: تجده كان مؤجراً، وتجدك كنت قواداً عليه! فقال أبو العيناء: وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتراني أدع موالي على كثرتهم، وأقوّد على الغرباء؟ قال: اسكت يا مأبون؟ قال: مولى قوم منهم! قال المتوكل: أردت أن أشتفي به منهم فاشتفى لهم مني.

وكان أبو العيناء أحد الناس خاطراً، وأحضرهم نادرة، وأسرعهم جواباً، وأبلغهم خطاباً.

والمتوكل أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته، وكان أصحابه يتسخفون ويستخفون بحضرته، وكان يهاتر الجلساء، ويفاخر الرؤساء، وهو مع ذلك من قلوب الناس محبوب، وإليهم مقرب؛ إذ أمات ما أحياه الوائق من إظهار الاعتزال، وإقامة سوق الجدال.

قال محمد بن مكرم الكاتب: من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحس بكرم، أو شرع في

طمع، فَقَدْ ظَلَم.

كتب إلى أبي عبيد الله بن سليمان وقد نكبه وأباهُ المعتمدُ، وهما يُطالبان بمال يبيعان له ما يملكانه من عقار وأثاث وعبيد وأمة، وقد أعطي بخادم أسود لعبيد الله خمسون ديناراً: قد علمت - أصلحك الله! - أن الكريم المنكوب أجراً على الأحرار من اللئيم الموفور؛ لأن اللئيم يزيد مع التَّعَمَّةِ لُؤْماً، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرمًا، هذا متَّكِلٌ على رازقه، وهذا يُسيء الظنَّ بخالقه، وعبدك إلى ملك كافور فقيرٌ، وثمانه على ما أتصل بي يسير؛ لأنه بخدمته السلطان يعرفني الرؤساء والإخوان؛ ولست بواجد ذلك في غيره من الغلمان؛ فإن سمحت به فتلك عادتك، وإن أمرت بأخذ ثمنه فمالك مادتي، أدام الله دولتك، واستقبل بالنعمة نكبتك. فأمر له به.

وسمع ابن مكرم رجلاً يقول: من ذهب بصره قلت حيلته، قال: ما أغفلك عن أبي العيْناء! وكتب أبو العيْناء إلى عبيد الله بن سليمان: أنا - أعزك الله تعالى! - وولدي ويلي زرع من زرعك، إن سقيته راع وزكا، وإن جفوته ذبل وذوى؛ وقد مسني منك جفاء بعد بر، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدو، وشمت حاسدٌ، ولعبت بي ظنون رجال كنتُ بهم لاعباً، ولهم مجرساً، ولله در أبي الأسود في قوله: الرمل:

لا تهني بعد إذ كرمتني

وشديد عادة منتزعة

فوقع في رقعة: أنا - أسعدك الله! - على الحال التي عهدت، وميلي إليك كما علمت، وليس من أنسأناه أهملناه، ولا من أخرناه تركناه، مع اقتطاع الشغل لنا، واقتسام زماننا، وكان من حقك علينا أن تذكرنا بنفسك، وتعلمنا أمرك؛ وقد وقعت لك برزق شهرين؛ لتريح غلتك، وتعرفني مبلغ استحقاقك، لأطلق لك باقي أرزاقك، إن شاء الله، والسلام.

وكان إذا خرج من داره يقول: اللهم إني أعوذ بك من الركب والركب، والآجر والخشب، والزوايا والقرب.

قطعة من خطابه وجوابه: دخل على أبي الصقر بعدما تأخر عنه، فقال: ما أحرَكَ عنا؟ قال: سُرِق حماري، قال: وكيف سُرِق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك! قال: فلم لم تأتني على غيره؟ قال: قعدت بي عن الشراء قلة يساري، وكرهت ذلة المكاربي، ومنة العواري.

وزحمه رجل بالجسر على حماره، فضرب بيديه على أذني الحمار، وقال: يا فتى، قل للحمار الذي فوقك يقول: الطريق! ودخل على إبراهيم بن المدبر، وعنده الفضل بن اليزيدي، وهو يلقي على ابنه مسائل من

النحو، فقال: في أي باب هذا؟ قال: في باب الفاعل والمفعول به، قال: هذا بابي وباب الوالدة حفظها الله! فغضب الفضل وانصرف؛ وكان البحري حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدير التي أولها: الخفيف:

أَوْقَدْتُ لَوْعَتِي وَهَاجَتِ غَلِيلِي

ءَ وَظِلَّ لِلْعَيْشِ فِيهَا ظَلِيلِ

ذَكَرْتُ نَبِيَّكَ رَوْحَةَ لِلشَّمُولِ

أَيَّ شَيْءٍ أَلهَاكَ عَنْ سِرٍّ مِنْ رَا

وفيها يقول:

وَهُوَ مُسْتَكْرَهُ كَثِيرِ الْفُضُولِ

لِ مُعَادَ الْمَخْرَاقِ نَزَرِ الْقَبُولِ

بِ الْغَوَانِي وَمَنْ تَعَفَّى الطُّلُولِ

حِ ادْلَاجاً لِلشَّحْذِ وَالتَّطْفِيلِ

لِ قَلِيلِ التَّمْيِيزِ ضَعْفَى الْعُقُولِ

مِنْ مَتْنِ الْأَشْعَارِ وَالْمَجْهُولِ

غَيْبَهُ لِلسُّؤَالِ وَالْمَسْئُولِ

مَرُّ أَمْ أَلْقَحُوا بِأَيْرِ الْخَلِيلِ

عَلِ مِنْ وَالدِيهِ وَالْمَفْعُولِ

اِقْتِصَاراً عَلَى أَحَادِيثِ فَضْلٍ

فَعَلَامَ اصْطَفَيْتَ مُنْكَسَفِ الْبَا

إِنْ تَزَرُّهُ تَجِدْهُ أَخْلَقَ مِنْ شَيْ

مُسْرِجاً مُلْجِماً وَمَا مَتَعَ الصُّبِّ

غَيْرَ أَنْ الْمَعْلَمِينَ عَلَى حَا

فَإِذَا مَا تَذَاكُرُهُ النَّاسُ مَعْنَى

قَالَ: هَذَا لَنَا وَنَحْنُ كَشَفْنَا

ضَرْبَ الْأَصْمَعِيِّ فِيهِمْ أَمْ الْأَح

جُلُّ مَا عِنْدَهُ التَّرَدُّدُ فِي الْفَا

وَعَزَّى بَعْضَ الْأَمْرَاءِ، فقال: أيها الأمير، كان العزاء لك لا بك، والفناء لنا لا لك، وإذا كنت البقية فالرزئة عطية، والتعزية تهنية.

وسئل أبو العيناء عر مالک بن طوق، فقال: لو كان في زمن بني إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره! قيل: فأخوه عمر؟ قال: كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال نجاح بن سلمة في شراب شربه عنده، فقال المتوكل بعد ذلك لأبي

العيناء: ما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: ما قال الله تعالى: فوكره موسى فقضى عليه! فأنصل ذلك

بموسى، فلقي الوزير عبيد الله بن يحيى ابن خاقان، فقال: أيها الوزير، أردت قتلي فلم تجد إلى ذلك

سبيلاً إلا بإدخال أبي العيناء إلى أمير المؤمنين مع عداوته لي؛ فعاتب عبيد الله أبا العيناء في ذلك، فقال:

والله ما استعذبت الواقعة فيه حتى ذممت سريره لك؛ فأمسك عنه.

ثم دخل بعد ذلك أبو العيناء على المتوكل فقال: كيف كنت بعد؟ قال: في أحوال مختلفة، خيرها رؤيتك

وشرُّها عَيْثُكَ، فقال: قد والله اشتَقْتُكَ! قال: إنما يَشْتَأُقُ الْعَبْدُ؛ لأنه يتعذَّرُ عليه لقاء مولاه، وأما السيِّدُ فمَنِّي أراد عبده دعاه.

وقال له المتوكل: مَنْ أَسْخَى مَنْ رَأَيْتَ؟ قال: ابنُ أَبِي دُوَادٍ، قال المتوكل: تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء؟ قال: إِنَّ الصَّدَقَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ليس في موضعٍ من المواضع أَثْفَقَ منه في مجلسك؛ وإنَّ الناسَ يغلطون فيمن يَنْسُبُونَهُ إلى الجود؛ لأنَّ سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون، وجودُ ابن أبي دُوَادٍ منسوبٌ إلى المعتصم؛ فإذا نَسَبَ الناسُ الْفَتْحَ وعبيد الله ابني يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قال: صدقت؛ فمن أبخلُ من رأيتَ؟ قال: موسى بن عبد الملك، قال: وما رأيتَ من بُخله؟ قال: رأيته يخدم القريب كما يخدم البعيد، وَيَعْتَذِرُ من الإحسان كما يعتذرُ من الإساءة، فقال له: قد وَقَعْتَ فيه عندي مرتين، وما أحبُّ لك ذلك؛ فَأَلْقَهُ واعتذر إليه، ولا يعلم أَنِّي وجهت بك، قال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، من يستكتمني بحضرة ألف؟ قال: لن تخاف، قال: على الاحتراس من الخوف.

فصار إلى موسى فاعتذر كلُّ واحد منهما إلى صاحبه، وافترقا عن صلح؛ فلقيه بعد ذلك بالجعفري، فقال: يا أبا عبد الله، قد اصطلحنا، فما لك لا تأتينا؟ قال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس؟ فقال موسى: ما أرانا إلا كما كُنَّا.

وقال له المتوكل: إبراهيم بن نوح النصراني وَاجِدٌ عليك، قال: ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصراني حتى تتبع ملَّتَهُم! قال: إن جماعة من الكتاب يلومونك! فقال: الطويل:

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِئَامِهَا

قال المتوكل له: أكان أبوك في البلاغة مثلك؟ قال: لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عبداً له لا يَرْضَانِي عبداً له.

وقيل لأبي العيناء: إن المتوكل قال: لولا أنه ضرير البصر لَنَادَمْتُهُ، فقال: إن أعفاني من رُؤْيَا الأهلَّة، وقراءة نَقَشِ الفصوص، فأنا أَصْلَحُ للمنادمة.

ولقيه رجل من إخوانه في السَّحَرِ، فجعل يُعْجَبُ من بُكُورِهِ، فقال: أراك تشاركني في الفعل وتُفَرِّدُنِي بالتعجب! ووقف به رجل من العامة فأحسَّ به، فقال: مَنْ هذا؟ قال: رجل من بني آدم! قال: مرحباً بك، أطل الله بقاءك! وبقيت في الدنيا، ما ظننتُ هذا النَّسْلَ إلا قد انقطع! ودخل على عبيد الله بن سليمان فقال: أَقْرَبُ مِنِّي يا أبا عبد الله، فقال: أعزَّ الله الوزير، تقربُ الأولياء، وحِرْمَانُ الأعداء، قال:

تقريبك غنم، وحرمانك ظلم؛ وأنا ناظرٌ في أمرِك نظراً يُصلِحُ مِنْ حالِك إن شاء الله.
وقال له يوماً: اعذرني فيأتي مشغول، فقال له: إذا فرغت من شغلك لم نَحْتَجْ إليك، وأنشده: الطويل:

فلا تَعْتَذِرْ بِالشُّغْلِ عَنَّا؛ فَإِنَّمَا تَتَنَاطَرُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ

ثم قال: يا سيدي، قد عذرتك، فإنه لا يَصْلُحُ لشُكْرِكَ مَنْ لا يَصْلُحُ لِعُذْرِكَ.
وأقبل إليه يوماً فقال: من أين يا أبا عبد الله؟ قال: من مطارح الجفَاء! وقال له مرة: نحن في العطلة
مَرَحُومُونَ، وفي الوزارة محرومون، وفي القيامة كل نفس بما كسبت رهينة.
وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد، فقيل: هو مشغول يُصَلِّي، قال: لكل جديد لذة! وكان صاعداً
نصرانياً قَبْلَ الوزارة.

ودخل إلى عميد الله بن سليمان، فشكا إليه حاله، فقال: أليسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر؟ فقال:
كتبتَ إلى رجل قد قصَرَ من همته طولُ الفقر، وذُلُّ الأسر، ومعاناةُ مَحَنِ الدَّهْرِ، فأخففته في طَلَبِي! قال:
أنتَ اخترته؟ قال: وما علي - أعزَّ الله الوزير! - في ذلك: قد اختار موسى قومه سَبْعِينَ رجلاً، فما كان
منهم رَشِيدٌ، واختار النبي، صلى الله عليه وسلم ابنَ أَبِي سَرَحٍ كاتباً، فرجع إلى المشركين مرتداً، واختار
علي بن أبي طالب أبا موسى حاكماً فحكَّم عليه!

هروب إبراهيم بن المدبر من السجن

وكان إبراهيم بن المدبر أسره صاحبُ الزنج بالبصرة وحَبَسَه؛ فاحتال حتى نَقَبَ السجنَ وهَرَبَ، فلذلك
ذكر أبو العيْناء ذُلَّ الأسر، وكان قد ضُرِبَ في وجهه ضَرْبَةً بَقِيَ أثرها إلى أن مات؛ ولذلك قال
البحري: الكامل:

ومبينةٌ شَهَرَ المَنَازِلَ وَسَمَّهَا والخيلُ تَكْبُو فِي العَجَاجِ الكَابِي

كانت بوجهك دون عرضك إذ رأوا	أنَّ الوجوه تُصَانُ بالأحساب
ولئن أُسِرْتَ فما الإِسَارُ على امرئ	نَصَرَ الإِسَارَ على الفرار بِعَابِ
نام المضلل عن سراك ولم تخف	عَيْنَ الرَقِيبِ وَقَسْوَةَ البَوَابِ
فرَكِبَتْهَا هَوَلاً مَتَى تُخْبِرُ بها	يَقُلُ الجَبَانُ: أَتَيْتَ غَيْرَ صَوَابِ
ما راعهم إلا استراقك مُصَلَّتاً	فِي مِثْلِ بُرْدِ الأَرْقَمِ المُنْسَابِ
تَحْمِي أُغْلِمَةً وطائشةً الخُطَى	تَصْلِي التَلَفَّتْ خَشْيَةَ الطُّلَابِ

قد كان يوم ندى بطولك باهراً
 حتى أضفت إليه يوم ضراب
 ذكر من البأس استعذت إلى الذي
 أعطيت في الأخلاق والآداب
 ووحيدة أنت أنفردت بفضلها
 لولاك ما كتبت على الكتاب

أخبار صاحب الزنج

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن أبي الأزهر، وقد ذاكركه خبر علي صاحب الزنج، قال: ادّعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، فنظرت مولده ومولد محمد ابن أحمد الذي ادعاه فكان بينهما ثلاث سنين؛ وكان لمحمد بن أحمد ولد اسمه علي، مات بعد هذا المدعي اسمه ونسبه بزمان. ثم رجع عن هذا النسب فادّعى أنه علي بن محمد بن عبد الرحيم بن رحيب بن يحيى المقتول بخراسان ابن زيد بن علي.

قال أبو عبيدة محمد بن علي بن حمزة: ولم يكن ليحيى ولد يقال له رحيب ولا غيره؛ لأنه قتل ابن ثمان عشرة سنة ولا ولد له.

قال بشر بن محمد بن السري بن عبد الرحمن بن رحيب: هو ابن عم أبي لحا علي بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب، ورحيب رجل من العجم من أهل ورتين من ضياع الري، وهو القائل لبني العباس: الطويل:

بني عمنا إنا وأنتم أنامل
 تضمناها من راحتها عؤودها
 بني عمنا وليتم الترك أمرنا
 ونحن قديماً أصلها وعمودها
 فما بال عجم الترك تقسم فيتنا
 ونحن لديها في البلاد شهودها
 فأقسم لا ذقت القراح وإن أذق
 فبلغه عيش أو يباد عميها

وقال أيضاً: الخفيف:

لَهْفَ نفسي على قصور ببغدا
 د وما قد حوتته من كل عاص
 وخمور هناك تشرب جَهراً
 ورجال على المعاصي حِراس
 لست بأبن الفواطم الزهر إن لم
 أقحم الخيل بين تلك العِراس

وله في هذا المعنى شعر كثير قد ناقضه البغداديون، وكانت مدته حين نجم إلى أن قتل أربع عشرة سنة، وجملة من قتل ألف ألف وخمسمائة ألف.

رجع إلى أخبار أبي العيناء

وذكر أبو العيْناء رجلاً، فقال: ضَحِكُ كالبكاء، وتودّد كالعزاء، ونوادر كندب الموتى! وكان يُهاتر ابن مكرم كثيراً، وكتب إليه ابنُ مكرم يوماً: قد ابْتَعْتُ لك غلاماً من بني ناشر، ثم من بني نَاعِظ، ثم من بني نهد. فكتب إليه: فأَتْنَا بما تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ.

وولد لأبي العيْناء ولد، فأَتَى ابنُ مكرم فسلمَ عليه، ووضع حجراً بين يديه وانصرف، فأحس به، فقال: مَنْ وضع هذا؟ فقليل: ابن مكرم؟ قال: لعنه الله! إنما عَرَضَ بقول النبي صلى الله عليه وسلم: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وقال لابن مكرم، وقد قدم من سفر: ما لك لم تُهدِ إلينا هدية؟ قال: لم آتِ بشيء، وإنما قدمت في خُف. قال: لو قدمت في خُفٍ لَخَلَفْتَ رُوحَكَ! وأتى إلى باب إبراهيم بن رياح، فحجب، فقال: إذا شغل بكأس يَمْنَاه وبجر يسراه، وانتسب إلى أب لا يعرف أباه، ولا يَحْفَلُ بحجاب مَنْ أتاه. وقدم إليه أبو عيسى بن المتوكل سِكْبَاحَةً، فجعل لا تَقَعُ يده إلّا على عظم؛ فقال: جعلت فِدَاكَ! هذه قِدر أو قِبر؟ ودعا ضريراً ليعشيه، فلما يَدَعُ شيئاً إلّا أكله، فقال: يا هذا، دعوتك رحمةً فتركتني رحمة.

ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام

ومقدّماته، وموائده، وآلاته

أفرش طعامك اسمَ الله، وألحفه حمداً لله. لا يَطِيبُ حضور الخوان، إلّا مع الإخوان. البخلُ بالطعام، من أخلاق الطّعام. الكريم لا يَحْظُر، تقدّم ما يَحْضُر. قد قامت خطباءُ القدور. قدورٌ أبكار، بخواتم النَّار. قَدَّر طار عَرْفُها، وطاب عَرْفُها. دَهْمَاءٌ تَهْدِرُ كالْفَنِيْق، وتَفُوحُ كالمِسْكِ الْفَتِيْق. مائدة كدّارة البدر، تباعد بين أنفاس الجلاس. مائدة مثل عروس. مائدة لطيفة، مخفوفة بكل طريفة. مائدة تشتمل على بدائع المأكولات، وغرائب الطّيّبات. مائدة كأنما عملها صنّاع صنعاء، تجمع بين أنوار الربيع، وثمر الخريف. وقال الجماز: جاءنا فلان بمائدة كأنّها زَمَنُ البرامكة على العُفّاة! وذمّ آخر رجلاً فقال: لا يَحْضُرُ مائدته إلّا أكرمُ الخلق والأهمهم - يريد الملائكة والذُّباب. وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخر الطعام: السريع.

فاقرأ عليهم سورة المائدة

قد جُنَّ أصحابك من جوعهم

ولبعض أهل العصر يذم رجلاً: الوافر:

وعرض مثل منديل الخوان

خوان لا يلم به ضيوف

رَغْفَانٌ كَالْبَدُورِ الْمُنْطَقَةِ بِالتَّجُومِ. حَمَلٌ ذَهَبِي الدَّثَارِ، فَضِيُّ الشُّعَارِ. أَطْيَبُ مَا يَكُونُ الْحَمْلُ، إِذَا حَلَّتْ
 الشَّمْسُ الْحَمْلَ. جَدِّي كَأَمَّا تُدْفِ عَلَى جَبِينِهِ الْقَزْ. زَيْرَبَاجَةٌ، هِيَ لِلْمَائِدَةِ دِيَابِجَةٌ، تَشْفِي السَّقَامَ، وَلَوْهَا
 لَوْنُ السَّقِيمِ. سِكْبَاجَةٌ تَفْتَقُ الشَّهْوَةَ، وَاسْفِيزَبَاجَةٌ تُغْذِي الْقَرَمَ، وَطَبَاهِجَةٌ يَتَفَكَّهُ بِهَا، وَحَبِيبُصٌ يَخْتَمُ بِخَيْرِ.
 طَبَاهِجَةٌ مِنْ شَرَطِ الْمُلُوكِ، كَأَعْرَافِ الدِّيُوكِ، وَقَلِيَّةٌ كَالْعُودِ الْمُطَرَى. مَغْمُومَةٌ تَفْرَجُ غَمَّ الْجَائِعِ. هَرِيسَةٌ
 نَفِيسَةٌ، كَأَنَّهَا خِيُوطُ قَزٍّ مُشْتَبِكَةٌ، كَأَنَّ الْمُرِّيَّ عَلَيْهَا عُصَارَةٌ الْمَسْكِ عَلَى سِيكَةِ الْفِضَّةِ. أَرْزَةٌ مَلْبُونَةٌ، فِي
 السَّكْرِ مَدْفُونَةٌ. شِوَاءٌ رَشْرَاشٌ، وَفَالُودِجٌ رَجْرَاجٌ. طَبَاهِجَةٌ تَغْذِي، وَفَالُودِجَةٌ تَعْزِي، وَاسْفِيزَبَاجَةٌ تَصْفَعُ
 قَفَا الْجُوعِ. وَلَا فِرَاشٌ لِلنَّبِيدِ، كَالْحَمْلِ الْحَنِيدِ. دِجَاجَةٌ سَمِيطَةٌ، لَهَا مِنَ الْفِضَّةِ جِسْمٌ، وَمِنْ الذَّهَبِ قَشْرَةٌ.
 دِجَاجَةٌ دِينَارِيَّةٌ ثَمَنًا وَلَوْنًا.

وهذا محلول من قول علي بن العباس الرومي يصف طعاماً أكله عند أبي بكر الباقلاني: الكامل:

وَسَمِيطَةٌ صَفْرَاءُ دِينَارِيَّةٌ	ثَمَنًا وَلَوْنًا زَفَهَا لَكَ حَزُورُ
عَظُمْتَ فَكَادَتْ أَنْ تَكُونَ إِوْرَةً	وَعَلْتَ فَكَادَ إِهَابُهَا يَتَقَطَّرُ
طَفَقَتْ تَجُودُ بِذُوبِهَا جَوْدَابَةً	فَأَتَى لِبَابِ اللَّوْزِ فِيهَا السَّكْرُ
ظَلَلْنَا نَقْشَرُ جِلْدَهَا عَنْ لَحْمِهَا	فَكَأَنَّ تَبْرًا عَنْ لَجِينٍ يُقْشَرُ
وَتَقَدَّمَتْهَا قَبْلَ ذَلِكَ تَرَائِدٌ	مِثْلَ الرِّيَاضِ بِمِثْلِ ذَلِكَ تُصَدَّرُ
وَمَرَقَاتُ كُلِّهِنَّ مَزْخَرَفٌ	بِالْبَيْضِ مِنْهَا مُلْبَسٌ وَمُدْتَرُ
وَأَنْتَ قَطَائِفُ بَعْدَ ذَلِكَ لَطَائِفُ	تَرْضَى اللَّهُاءُ بِهَا وَيَرْضَى الْحَنْجَرُ
ضَحْكُ الْوُجُوهِ مِنَ الطَّبَرِزْدِ فَوْقَهَا	دَمْعُ الْعِيَانِ مِنَ الذَّهَانِ يُعَصَّرُ

قال البديع: حدثني عيسى بن هشام قال: اشْتَهَيْتُ الْأَزَادَ، وَأَنَا بَعْدَازَ، وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ، عَلَى نَقْدٍ،
 فَخَرَجْتُ أَنْتَهَزُ مُحَالَةً، حَتَّى أَحْلِيَ الْكَرْخَ؛ فَإِذَا أَنَا بِسَوَادِيَّ يَحْدُو بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ، وَيُطَرِّفُ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ؛
 فَقُلْتُ: ظَفَرْنَا وَاللَّهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ! مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتُ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتُ؟ وَمَتَى وَافَيْتُ، فَهَلُمَّ إِلَى
 الْبَيْتِ. فَقَالَ السَّوَادِي: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَإِنَّمَا أَبُو عُبَيْدٍ! فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ، وَأَبْعَدَ النَّسِيَانَ،
 أَنْسَانِي طُولَ الْعَهْدِ بِكَ، كَيْفَ أَبُوكَ، أَشَابَ كَعَهْدِي، أَمْ شَابَ بَعْدِي. قَالَ: قَدْ نَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنَتِهِ،
 وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَمَدَدَتْ يَدَ الْبِدَارِ، إِلَى الصِّدَارِ أُرِيدُ
 تَمْزِيْقَهُ، وَأُحَاوِلُ تَخْرِيقَهُ، فَقَبِضِ السَّوَادِيَّ عَلَى خَصْرِي بِجُمْعِهِ. وَقَالَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ لَا مَرْقَتَهُ، فَقُلْتُ: فَهَلُمَّ
 إِلَى الْبَيْتِ نُصَبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِي شِوَاءً؛ وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَفْرَزْتُهُ حُمَةً

الْقَرَم، وَعَطَفَتْهُ عَطْفَةُ النَّهْم، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْتُ شَوَاءً يَتَقَاطَرُ شَوَاؤُهُ عِرْقًا، وَيَتَسَايَلُ جُودَاهُ مِرْقًا فَقُلْتُ: أُبْرَزُ لِأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشَّوَاءِ، ثُمَّ زِنَ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَلَوَاءِ، وَاخْتَرْتُ مِنْ تِلْكَ الْأَطْبَاقِ وَنَضَدْتُ عَلَيَّ أَوْرَاقَ الرِّقَاقِ، وَشَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَاقِ، لِأَيَّكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا. فَأَنْحَى الشَّوَاءَ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنْوَرِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكُحْلِ سَحَقًا، وَكَالطَّيْنِ دَقًّا، ثُمَّ جَلَسْتُ وَجَلَسْتُ، وَلَا نَبَسَ وَلَا نَبَسَتْ، حَتَّى اسْتَوْفِينَاهُ، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْحَلَوَاءِ: زِنَ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِ يَنْجُ رَطْلِينَ، فَإِنَّهُ أَجْرَى فِي الْحُلُوقِ، وَأَسْرَى فِي الْعُرُوقِ، وَلِيَكُنْ لَيْلِي الْعُمَرُ، يَوْمِي النَّشْرُ، رَقِيقُ الْقَشْرِ، كَثِيفُ الْحَشْوِ، لَوْلُؤِي الدَّهْنُ كَوَكْبِي اللَّوْنُ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ الْمَضْغِ، لِأَيَّكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا. فَوَزَنَهُ، ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَدَ وَجَرَدْتُ، وَاسْتَوْفِينَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ، مَا أَحْوَجُنَا إِلَى مَاءٍ يَشْعَشَعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَفْتَأَ هَذِهِ اللَّقْمَ الْحَارَةَ؛ أَجْلِسْ أَبَا زَيْدٍ حَتَّى آتِيكَ بِسَقَاءٍ، يَحْيِينَا بِشَرِبَةٍ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ، وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي، أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ بِهِ. فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَاءَ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ ثَمَنُ مَا أَكَلْتُ؟ قَالَ: مَا أَكَلْتَهُ إِلَّا ضَيْفًا! قَالَ الشَّوَاءُ: هَاكَ وَآكَ مَتَى دَعُونَاكَ؟ زِنَ يَا أَخَا الْقَحْبَةِ عَشْرِينَ، وَإِلَّا أَكَلْتُ ثَلَاثًا وَتَسْعِينَ! فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَمْسَحُ دُمُوعَهُ بِأَرْدَانِهِ، وَيُحْلِلُ عَقْدَةَ بَأْسِنَانِهِ، وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِلذَلِكَ الْقَرِيدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ؟! فَأَنْشَدْتُ: بِمَجْزُوءِ الْكَامِلِ:

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَةٍ لَا تَقْعَدَنَّ بِذَلِكَ حَالَهُ

وَانْهَضْ بِكُلِّ عَزِيمَةٍ فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا الْمَحَالَةَ

وَمِنْ مَلِيحٍ مَا قِيلَ فِي الْقَطَائِفِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ الْمُنَجِّمِ: الرَّجْزُ:

قَطَائِفٌ قَدْ حُشِيَتْ بِاللُّوزِ وَالسُّكَّرِ الْمَادِي حَشْوَ الْمَوْزِ

يَسْبَحُ فِي آذِي دَهْنِ الْجَوْرِ سَرِيرَتٌ لَمَّا وَقَعَتْ فِي حَوَازِي

سُرُورِ عَبَّاسٍ بِقَرَبِ فَوْزِ

وَمِنْ أَلْفَاظِ أَهْلِ الْعَصْرِ فِي الْحَلَوَاءِ: فَالْوُذْجُ بَلْبَابُ الْبُرِّ، وَلِعَابُ التَّخْلِ، كَأَنَّ اللَّوْزَ فِيهِ كَوَاكِبُ دُرٍّ، فِي سَمَاءِ عَقِيقٍ.

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ فِي صِفَةِ اللَّوْزِ يَنْجُ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ: السَّرِيعُ:

لَا يُخْطِئَنِي مِنْكَ لَوْزِيْنَجٌ إِذَا بَدَأَ أَعْجَبَ أَوْ عَجَبَا

لَوْ شَاءَ أَنْ يَذْهَبَ فِي صَخْرَةٍ لَسَهَّلَ الطَّيِّبُ لَهُ مَذْهَبَا

لَمْ تَغْلِقِ الشَّهْوَةَ أَبْوَابَهَا إِلَّا أَبَتَ زَلْفَاهُ أَنْ يَحْجَبَا

يَدُورُ بِالنَّفْحَةِ فِي جَامِهِ دَوْرًا تَرَى الذَّهْنَ لَهُ لَوْلَبَا

عَاوَنَ فِيهِ مَنَظَرَ مَخْبَرًا
مَسْتَكْتَفٍ الْحَشْوِ وَلَكِنَّه
كَأَنَّمَا قَدَّتْ جَلَابِيه
يَخَالُ مِنْ رِقَّةٍ خَرَشَائِهِ
لَوْ أَنَّهُ صُورَ مَنْ خَبَرِهِ
مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ يَوَدُّ الْفَتَى

مَسْتَحْسَنٍ سَاعَدَ مُسْتَعْذِبًا
أَرْقُ جِلْدًا عَنْ نَسِيمِ الصَّبَا
مِنْ نَقْطَةِ الْقَطْرِ إِذَا حَبَّيَا
شَارَكَ فِي الْأَجْنَحَةِ الْجُنْدِيَا
تَغَرَّ لَكَانَ الْوَاضِحَ الْأَشْنَبَا
أَنْ يَجْعَلَ الْكَفَّ لَهَا مَرْكَبَا

مَدَهْوَنَةً زَرْقَاءَ مَدْقُوقَةٍ
قِرَّةَ عَيْنٍ وَفَمٍ حُسْنَتٍ
دِيفَ لَهُ اللَّوْزُ؛ فَمَا مَرَّةً
وَانْتَقَدَ السُّكَّرَ نُقَادَهُ
فَلَا إِذَا الْعَيْنُ رَأَتْهُ نَبَتْ
لَا تَتَكْرَرُوا الْإِدْلَالَ مِنْ وَامِقٍ

صَهْبَاءٍ تَحْكِي الْأَزْرَقَ الْأَشْهَبَا
وَطُيِّبَتْ حَتَّى صَبَا مِنْ صَبَا
مَرَّتْ عَلَى الذَائِقِ إِلَّا أَبَى
وَشَاوَرُوا فِي نَقْدِهِ الْمَذْهَبَا
وَلَا إِذَا الضَّرْسُ عُلَاهُ نَبَا
وَجَهَ تَلْقَاءُكُمْ الْمُطَلَّبَا

هذه الأبيات يقولها في قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد ابن عبد الله بن بشر المرتدي، ويهنيه بآبن ولده، وأولها:

شَمْسٌ وَبَدْرٌ وَلَدَا كَوْكَبَا

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَنْجَبَا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم: دخلت على أبي الحسن وهو يعمل هذه القصيدة، فقلت: لو تَفَاعَلَتْ فيها لأبي العباس بسبعة من الولد؛ لأن أبا العباس منكوساً سابغ، لجاء المعنى ظريفاً، فقال: السريع:

وَقَدْ تَفَاعَلْتُ لَهُ زَاكِراً

كُنْيَتُهُ، لَا زَاكِراً تَعْلَبَا

إِنِّي تَأَمَّلْتُ لَهُ كُنْيَةً

إِذَا بَدَا مَقْلُوبُهَا أُعْجَبَا

يَصُوغُهَا الْعَكْسُ أَبَا سَابِعٍ

لَا كَذَّبَ اللَّهُ وَلَا، خِيَبَا

بَلْ ذَاكَ فَالْ ضَامِنُ سَبْعَةٍ

مِثْلَ الصَّقُورِ اسْتَشْرِفَتْ مَرْقَبَا

يَأْتُونَ مِنْ صُلْبِ فَتَى مَاجِدٍ

وَذَاكَ فَالْ لَمْ يَعُدْ مَعْطَبَا

وَقَدْ أَتَانَا مِنْهُمْ وَاحِدٍ

فَلَنَنْتَظِرُهُمْ سِتَّةَ غِيَبَا

في مُدَّةٍ تَغْمُرُهَا نِعْمَةٌ
يجعلها الله له تُرْتَبَا
حتى نراه جالساَ بينهم
أجلٌ من رَضْوَى ومن كَبْكَبَا
كالبدْرِ وأفى الأرض من نُورِهِ
بين نجومٍ سبعةٍ فاحتَبَى
وليُشْكِرِ النَّاجِمُ عن هذه
فإنها من بَعْضِ ما بَوَّيَا
سَدَى وألَحَمْتُ أخ لم أزلْ
أشكرُ ما أسدَى وما سبَّيَا

وكان ابنُ الرومي منهُوماً في المأكَل، وهي التي قَتَلَتْهُ، وكان مُعْجَباً بالسَّمَك، فوعده أبو العباس المَرثدي أن يبعثَ إليه كل يوم بوظيفة لا تَنْقَطِع، فبعثَ إليه يومَ سَبْتٍ، ثم قطعهُ، فقال: الخفيف:

ما لِحِيتَانِنَا جَفَتَا وأنى
أخلفَ الزائرونَ منتظريهمْ
جاء في السبتِ زورُهُمُ فأتينا
من حِفاظٍ عليه ما يكفيهمْ
وجعلناه يومَ عيدٍ عظيمٍ
فكأنَّا اليهودُ أو نحكيهمْ
وأراهمْ مُصَمِّمينَ على الهَجِ
رِ فلمْ يُسْخِطُونِ مَنْ يُرضيهمْ
قد سَبَّتْنَا وما أُنْتْنَا وكانوا
يومَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهمْ

فاتصل ذلك بالناجم، فكتب إلى الرومي: المتقارب:

أبا حسن، أنتَ مَنْ لا تزا
لُ نَحْمَدُ في الفضلِ رُجْجَانَهُ
فكم تُحَسِّنُ الظنَّ بالمرثدي
وقد قلَّ اللهُ إحسانَهُ
ألم تَدْرِ أن الفتى كالسَرَابِ
إذا وَعَدَ الوَعْدَ إخوانَهُ
فبحرُ السرابِ يَفُوتُ الطُلوْبَ
فقلْ في طِلابك حيتانَهُ

وخرج ابنُ الرومي إلى بعض المتزهات وقصدوا كَرَمًا رازِقِيًّا، فشرَبوا هناك عامَّة يومهم، وكانوا يَتَهَمُونَهُ في شِعْرِهِ، فقالوا: إن كان ما تُنْشِدُنَا لَكَ فَقُلْ في هذا شيئاً، فقال: لا تَرِيْمُوا حتى أقول فيه، وأنشدهم لوقته: الرجز:

ورازقي مُخْطَفِ الخُصُورِ
كأنه مَخازِنُ البُلُورِ
قد ضُمَّنْتَ مِسْكَاً إلى الشُّطورِ
وفي الأعالي ماء ورْدٍ خوري
بلا فَرِيدٍ وبلا شُدُورِ
له مذاقُ العسلِ المَشُورِ
وبرْدٌ مَمَّنِ الخَصِرِ المَقْرُورِ
ورقة الماء على الصدورِ
ونكهةُ المِسْكِ مع الكافورِ
باكِرْتُهُ والطيرُ في الوُكُورِ

بِفَنِيَّةٍ مِنْ وَلَدِ الْمَنْصُورِ

أَمَلًا لِلْعَيْنِ مِنَ الْبُذُورِ

حَتَّى أَثْنَيْنَا خَيْمَةَ الْنَاطُورِ

قَبْلَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ لِلذَّرُورِ

فَانْحَطَّ كَالطَّائِرِ مِنَ الصَّقُورِ

بِطَاعَةِ الرَّاعِبِ لَا الْمَقْهُورِ

وَالْحَرُّ عَبْدُ الْحَلَبِ الْمَشْطُورِ

حَتَّى أَتَانَا بِضُرُوعِ حُورِ

مَمْلُوءَةٍ مِنْ عَسَلِ مَحْصُورِ

وَالطَّلُّ مِثْلُ اللَّوْلُؤِ الْمَنْثُورِ

ثُمَّ جَلَسْنَا جِلْسَةَ الْمَحْبُورِ

بَيْنَ حِفَافِي جَدُولِ مَسْجُورِ

أَبْيَضٌ مِثْلُ الْمُهْرَقِ الْمَنْشُورِ

أَوْ مِثْلُ مَتْنِ الْمُنْصَلِ الْمَشْهُورِ

يَنْسَابُ مِثْلَ الْحَيَّةِ الْمَذْعُورِ

بَيْنَ سِمَاطِي شَجَرِ مَسْطُورِ

نَاهِيكَ لِلْعُقُودِ مِنْ ظُهُورِ

فَنِيلَتِ الْأُوطَارُ فِي سُرُورِ

وَكُلُّ مَا يَقْضَى مِنَ الْأُمُورِ

تَعَلَّةٌ مِنْ يَوْمِنَا الْمَنْظُورِ

وَمُنْعَةٌ مِنْ مُتَعِ الْغُرُورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر

في صفات الفواكه والثمار

كَرْمٌ تُسْلِفُهُ الْمَاءُ الْقَرَّاحُ، وَيَقْضِينَا أُمَهَاتِ الرَّاحِ. عَنْقُودٌ كَالثَرِيَّاءِ، وَعِنَبٌ كَمَخَازِنِ الْبَلُّورِ، وَضُرُوبُ النُّورِ، وَأَوْعِيَةُ السَّرُورِ. أُمَهَاتُ الرِّحِيقِ، فِي مَخَازِنِ الْعَقِيقِ. نَخْلٌ تُسْلِفُهُ الْمَاءُ، وَيَقْضِينَا الْعَسَلِ. رُطَبٌ كَأَنَّهَا شُهْدَةٌ بِالْعَقِيقِ مَقْتَنَةٌ، بِالْعَقِيَّانِ مُقَمَّعَةٌ. رُْمَانٌ كَأَنَّهُ ضُرَّرَ الْيَاقُوتُ الْأَحْمَرُ. سَفَرَجَلٌ يَجْمَعُ طَيِّبًا، وَمَنْظَرًا حَسَنًا عَجِيبًا، كَأَنَّهُ زَيْتَرُ الْحَزِّ الْأَغْبَرِ، عَلَى الدِّيَابِجِ الْأَصْفَرِ. تَفَّاحٌ نَفَّاحٌ، يَجْمَعُ وَصْفَ الْعَاشِقِ الْوَجِلِ، وَالْمَعْشُوقِ الْخَجِلِ، لَهُ نَسِيمُ الْعَبِيرِ، وَطَعْمُ الْكَرِّ، رَسُولُ الْحُبِّ، وَشَبِيهِ الْحَبِيبِ. تِينٌ كَأَنَّهُ سُفْرٌ مَضْمُومَةٌ عَلَى عَسَلِ. مَشْمَشٌ كَأَنَّهُ الشَّهَدُ فِي بَيَادِقِ الذَّهَبِ.

ما قيل في وصف الليل والصيد واللهو

قال بعضُ الرواة: أنشدت أعرابياً قولَ جرير بن عطية بن الخطّفي:

أَمْ طَالَ حَتَّى حَسِبْتَ النَّجْمَ حَيْرَانَا؟

أَبْدَلَ اللَّيْلُ لَا تَسْرِي كَوَاكِبُهُ

فقال: هذا حسنٌ في معناه، وأعوذ بالله من مثله؛ ولكني أنشدك في ضده من قولي، وأنشدني: الوافر:

وليل ثم يُقصره رُقَادٌ	وقصر طوله وصلّ الحبيب
نعيم الحبّ أ ورق فيه حتّى	تناولنا جناء من قريب
بمجلس لذة لم نقو فيه	على شكوى ولا عدّ الذنوب
بخنا أن نقطعه بلفظ	فترجمت العيون عن القلوب

فقلت له: زدي فما رأيت أظرف منك شعراً؛ فقال: أمّا هذا الباب فحسبك، ولكن أنشدك من غيره: الوافر:

وكنت إذا علقت حبال قوم	صحبتهم وشيمتي الوفاء
فأحسن حين يحسن محسنوهم	وأجتنب الإساءة إن أساءوا
أشاء سوى مشيئتهم فأتي	مشيئتهم وأترك ما أشاء

قال الأصمعي: قرأت على أبي مُحذّر خلف بن حيّان الأحمر شعرَ جرير، فلمّا بلغت إلى قوله: الطويل:

ويوم كابهام القطاة محبّب	إليّ صباه غالب لي باطله
رُزقنا به الصيّد العزيز ولم نكن	كمن نبّله محرومةً وحبائله
فيا لك يوم خيرُه قبل شرّه	تغيّب واشيه وأقصر عادله

فقال خلف: ويحّه! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرٍّ؟ فقلت له: كذا قرأته على أبي عمرو بن العلاء، فقال لي: وكذا قال جرير، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلّا ما سمع، قلت: فكيف كان يحبُّ أن يكون؟ قال: الأجود أن يقول: خيرُه دون شرّه، فارّوه كذلك، فقد كانت الرواة قديماً تُصلحُ أشعار الأوائل، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلّا كذا.

ومن أجود ما قيل في قصر الليل قول إبراهيم بن العباس: الرجز:

وليلة من الليالي الغرّ	قابلت فيها بدرها ببدري
لم تك غير شفق وفجر	حتى تقصّت وهي بكر الدهر

وقال محمد بن أحمد الأصبهاني فيما يتعلّق بهذا المعنى وإن كان في ذكر النهار: الخفيف:

كيف يُرجى لمقلتي هُدو	ورقادي لطرف عيني عدو؟
-----------------------	-----------------------

بأبي من نعمت منه بيوم	لم يزل للسرور فيه نمو
-----------------------	-----------------------

فكأن العشي فيه غدو
ولبدر السماء مني دنو

يوم لهو قد التقى طرفاه
إذ لشخص الرقيب فيه ثناء

وقال ابن المعتز: السريع:

مفتضح البدر عليل النسيم
فيه فنهديه لحر الهوم
في ضوئه إلا بسكر النديم
ولذة الراح ثياب النعيم

يارب ليل سحر كله
تلتقط الأنفاس برد الندى
لا أعرف الإصباح لما بدا
لبست فيه بالتذاذ الهوى

وصف منبج

أخذ قوله: سحر كله من قول عبد الملك بن صالح بن علي، وقد قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين، قال: كيف بناؤه؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس، قال: وكيف ذلك وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأخذوا حذوه، قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، قليلة الأدواء، قال: فكيف ليّلها؟ قال: سحر كله؟ وأخذ هذا الطائي فقال: الكامل:

بك، والليالي كلها أسحار

أيامنا مصقولة أطرافها

ولأهل العصر، قال أبو علي محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمي: البسيط:

كعارض البرق في أفق الدجا برقا

يارب ليل سرور خلته قصراً

وكاد يسبق منه فجره الشفقا

قد كاد يعثر أولاه بآخره

جفنان منه على الإطباق وافترقا

كأنما طرفاه طرف اتفق الـ

ألفاظ في هذا المعنى لأهل العصر

ليلة من حسنات الدهر، هواؤها صحيح، ونسيمها عليل، ليلة كبرد الشباب، وبرد الشراب. ليلة من ليالي الشباب، فضية الأديم، مسكية النسيم. ليلة لمعة العمر، وغرة الدهر. ليلة مسكية الأديم، كافورية النجوم. ليلة رقد الدهر عنها، وطلعت سعودها، وغابت عذالها. ليلة كالمسك منظرها ومخبرها. ليلة هي باكورة العمر، وبكر الدهر: ليلة ظلماتها أنوار، وطوال أوقاتها قصار.

الفضل بن سهل

كان سبب اتصال سعيد بن هُرَيم بذي الرياستين الفضل - وسمي ذا الرياستين؛ لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون - أنه دخل عليه يوماً، فقال: الأجل آفة الأمل، والمعروف ذخِرُ الأبد، والبر غنيمة الحازم، والتفريط مصيبة أخي القدرة، وإنا لم نُصنْ وجوهنا عن سؤالك، فصُنْ وجهك عن ردِّنا، وضَعْنَا من إحسانك بحيث وضَعْنَا أنفُسَنَا من تأميلك.

فأمر أن يُكْتَبَ كلامه، وسماه سعيداً الناطق، ووصله المأمون فخص به. فلحقته في بعض الأوقات جَفْوَةٌ من الفضل، فكتب إليه: يا حافظَ مَنْ يَضَعُ نفسه عنده، ويا ذاكَ مَنْ نَسِيَ نصيبه منه، ليس كتابي إذا كتبتُ استبطاءً، وما إمساكي إذا أمسكتُ استغناءً، فكتبتُ مذكراً لا مستقصراً فَعَلَّكَ. فوصله وأحسَنَ إليه.

وقد رُوِيَ بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبي حفص الكرماني مع ذي الرياستين. ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التميمي: الطويل:

لَعَمْرُكَ مَا الْأَشْرَافُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَإِنْ عَظُمُوا لِلْفَضْلِ إِلَّا صَنَائِعُ
تَرَى عُظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشْعًا إِذَا مَا بَدَأَ، وَالْفَضْلُ لِلَّهِ خَاشِعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلَّ جَلِيلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

وقال إبراهيم بن العباس: مجزوء المتقارب:

لَفَضْلٍ بِنِ سَهْلٍ يَدُ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلُ
فِبَاطِنِهَا لِلنَّدَى وَظَاهِرُهَا لِلْقَبْلِ
وَبَسْطُتْهَا لِلْغِنَى وَسَطَوْتُهَا لِلْأَجْلِ

أخذه ابنُ الرومي فقال لإبراهيم بن المدبر: الكامل:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ ضَرَّاعَةٍ وَتَجْمَلٍ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلًا
فَامدِدْ إِلَيَّ يَدًا تَعُودَ بَطْنُهَا بَذَلَ النِّوَالِ وَظَهَرُهَا التَّقْبِيلَا

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وزاد في هذا المعنى تشبيهاً ظريفاً: الطويل:

مَقْبَلُ ظَهْرِ الْكَفِّ وَهَابَ بَطْنُهَا لَهَا رَاحَةٌ فِيهَا الْحَطِيمُ وَزَمَزَمُ
فَظَاهِرُهَا لِلنَّاسِ رُكْنٌ مَقْبَلٌ وَبَاطِنُهَا عَيْنٌ مِنَ الْعُرْفِ عَيْلُمُ

وكان ذو الرياستين يُقْبَلُ صَوَابَ القائلين بما في قوته من صفاء الغريزة، وجودة التحيزة، فهو كما قال أبو الطيب: الخفيف:

مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ يَضَعُ الثَّوبَ فِي يَدَيِّ بَزَّازٍ

وكانت مخايل فضله، ودلائل عقله، ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دين المجوسية، فقال له: أَسْلِمَ أجد السبيلَ إلى اصْطِنَاعِكَ، قال: فأسلم على يد المأمون، ولم يزل في جَنَبَتِهِ، إلى أن رُقِّيَ إلى رُتَبَتِهِ. وذكره يحيى عند الرشيد فأجمل الثناء، فأمر بإحضاره، فلما رآه أُفْحِمَ؛ فَنَظَرَ الرشيد إلى يحيى كالمستفهم؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أدل دليل على فَرَاهَةِ المملوك أن تملك هَيبَةً مولاه لسانه وقلبه، فقال الرشيد: لئن كنت سكتَ لكي تقولَ هذا فقد أَحْسَنْتَ، ولئن كان هذا شيئاً اعتراك عند الحَصَرِ لقد أجدتَ؛ وزاد في إكرامه وتقريبه، وجعل لا يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بأفصح لسان، وأجود بيان.

قال سهل بن هارون: ومما حُفِظَ من كلام ذي الرياستين مما رأينا تَخْلِيدَهُ في الكتب، لِيُؤْتَمَ به، وَيُنْتَفَعَ بمَقُولِ حكيمته، قوله: مَنْ تَرَكَ حَقًّا فَقَدْ غَبَنَ حَظًّا، وَمَنْ قَضَى حَقًّا فَقَدْ أحرَزَ غُنْمًا، وَمَنْ أَتَى فَضْلًا فَقَدْ أَوْجَبَ شُكْرًا، وَمَنْ أَحْسَنَ تَوَكُّلاً لم يعدم مِنَ الله صُنْعًا، وَمَنْ تَرَكَ الله شيئاً لم يجدْ لِمَا تَرَكَ فَقْدًا، وَمَنْ التمسَ بمعصية الله حَمْدًا عادَ ذلك على مُلْتَمِسِهِ دَمًّا، ومن طلب بخلاف الحقِّ له دَرَكًا عاد ما أدرك من ذلك له مُوبِقًا؛ وذلك أَوْجَبُ الفلاح للمحسنين، وجعل سوء العاقبة للمسيئين المقصرين. ووقع في رَقْعَةٍ ساعٍ: نحن نرى قبول السعاية شَرًّا منها، لأنَّ السَّعَايةَ دلالةٌ، والقبول إجازةٌ، وليس من دَلَّ على شيءٍ وأخبر به كمن قبله وأجازهُ؛ فَاتَّقُوا السَّاعِي، فإنه لو كان في سَعَايَتِهِ صَادِقًا لكان في صدقه آثَمًا؛ إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة.

والشيء يُقَرَّنُ مع جنسه: كتب محمد بن علي إلى محمد بن يحيى بن خالد، وكان والياً على أرمينية للرشيد: إن قوماً صاروا إلى سبيل النَّصح فذكروا ضياعاً بأرمينية قد عَفَتْ ودرست، يرجع منها إلى السلطان مال عظيم، وإني وقفتُ عن المطالبة حتى أعرف رأيك. فكتب إليه: قرأتُ هذه الرقعة المذمومة، وفهمْتُها، وشوقُ السعاية بِحَمْدِ الله في أيامنا كاسِدةٌ، وألْسِنَةُ السُّعَاةِ في أيامنا كَلِيلَةٌ خاسئةٌ؛ فإذا قرأتَ كتابي هذا فاحمل الناسَ على قانونك، وخُذْهم بما في ديوانك؛ فإننا لم نولِّك الناحية، لتتبع الرسوم العافية، ولا لإحياء الأعلام الدائرة، وجنِّبني وتجنب بيتَ جريرٍ يخاطبُ الفرزدق: الوافر:

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وأجرِ أمورك على ما يكسب الدُّعاء لنا لا علينا، واعلم أنها مدّة تنتهي، وأيامٌ تُنْقضي، فإِذَا ذَكَرَ جَمِيلٌ،
وإِذَا خَزِيَ طَوِيلٌ.

وقال رجلٌ للمهدي: عندي نصيحةٌ يا أمير المؤمنين، فقال: لِمَنْ نَصِيحَتِكَ هذه؟ لنا، أم لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ،
أم لِنَفْسِكَ؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال: ليس الساعي بأعظم عورةً ولا أَقْبَحَ حالاً مِمَّنْ قَبْلَ سَعَايَتِهِ، ولا
تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة، فلا نَشْفِي غَيْظَكَ، أَوْ عَدُوًّا فلا نعاقب لك عدوك؛ ثم أقبل على الناس
فقال: لا يَنْصَحْ لَنَا نَاصِحٌ إِلَّا بِمَا فِيهِ لِلَّهِ رِضًا، وللمسلمين صَلاَحٌ، فَإِنَّمَا لَنَا الْأَبْدَانُ وليس لنا القلوب؛ ومن
اسْتَرَّ عَنَّا لم نكشفه، ومن بادأنا طلبنا تَوْبَتَهُ، ومن أخطأ أَلْقَيْنَا عَثْرَتَهُ؛ فَإِنِّي أَرَى التَّادِيبَ بِالْصَّفْحِ أُبْلَغَ مِنْهُ
بِالْعُقُوبَةِ، وَالسَّلَامَةُ مَعَ الْعَفْوِ أَكْثَرَ مِنْهَا مَعَ الْمُعَاجَلَةِ، وَالْقُلُوبُ لَا تَبْقَى لِوَالٍ لَا يَنْعَطِفُ إِذَا اسْتَعْطَفَ، وَلَا
يَعْفُو إِذَا قَدَّرَ، وَلَا يَغْفِرُ إِذَا ظَفَرَ، وَلَا يَرْحَمُ إِذَا اسْتُرْحِمَ.

ووقع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة: الأمور بتمامها، والأعمال بخواتمها، والصنائع باستدامتها، وإلى
الغاية يَجْرِي الجواد؛ فهناك كَشَفَتِ الْخَبْرَةُ قِنَاعَ الشُّكِّ؛ فحمد السابق، وذم الساقط.
وذو الرياستين هو القائل: البسيط:

أَنْصَبْتُ أَحْرَفَ لَا مِمَّا لَفَظْتُ بِهَا فَحَوْلِي رَحَلَهَا عَنَّا إِلَى نَعَمٍ
أَوْ صَيَّرِيهَا إِلَيْهَا مِنْكَ مَنَعَةً إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ فِيهَا خِفَةَ الْكَلَمِ
قَسِئْتُ عَلَيْنَا فَعَارَضْنَا قِيَاسَكُمْ يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مِنْ قَرْنٍ إِلَى قَدَمٍ

ولما قتل ذو الرياستين دخل المأمون على أمه فقال: لَا تَجْزَعِي فَإِنِّي ابْنُكَ بَعْدَ ابْنِكَ. فقالت: أَفَلَا أَبْكِي
عَلَى ابْنِ أَكْسَبَنِي ابْنًا مِثْلَكَ؟

في وصف الخيل

ووصف ابن القرية فرساً أهَّده الحجاجُ إلى عبد الملك بن مروان فقال: حَسَنُ الْقَدِّ، أَسِيلُ الْخَدِّ، يسبق
الطَّرْفَ، وَيَسْتَعْرِقُ الْوَصْفَ.
وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب في
الصَّعْدَاءِ، وَيَجَاوِزُ الظُّبَاءَ فِي الْإِسْتَوَاءِ، وَيَسْبِقُ فِي الْحَدُورِ جَرِيَّ الْمَاءِ، فَهُوَ كَمَا قَالَ تَابُطٌ شَرًّا: الطويل:
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدَةِ الْمُتْدَارِكِ

وقال رجل لبعض النخاسين: اشتر لي فرساً جيداً القميص، حسنَ الفصوص، وثيقَ القصب، نقيَ العصب، يُشيرُ بأذنيه، ويندسُ برجليه، كأنه موجٌ في لجة، أو سيلٌ في حدور. جمع محمد بن الحسين، هذين الكلامين وزاد فقال يصف فرساً: هو حسنُ القميص، جيدُ الفصوص، وثيقُ القصب، نقيُ العصب، يُصِرُّ بأذنيه، ويتنوعُ يديه؛ ويدخلُ برجليه، كأنه موجٌ في لجة، أو سيلٌ في حدور، يناهبُ المشي قبل أن يُبعث، ويلحق الأرناب في الصعداء، ويجاوزُ جوارِي الظباء في الاستواء، ويسيقُ في الحدور جرِيَّ الماء، إنْ عُطِفَ جَارَ، وإنْ أُرْسِلَ طَارَ، وإنْ كَلَّفَ السيرَ أَمْعَنَ وسارَ، وإنْ حُبِسَ صَفَنَ، وإنْ استوقفَ فطنَ، وإنْ رَعَى أبنَ، فهو كما قال تأبط شرّاً، وذكر البيت.

وأول هذه الأبيات: الطويل:

وإني لمَهْدٍ من ثنائي فَقَاصِدٍ	به لابن عمِّ الصّدقِ شمس بن مالك
أهزُّ به في ندوةِ الحيِّ عِطْفُهُ	كما هز عِطْفِي بالهجانِ الأوارِكِ
قليل التشكّي لِلْمَلَمِ يُصِيبُهُ	كثيرُ الهوى شتَ النوى والمسالكِ
يظلُّ بمومةٍ ويُمسي بِغيرِها	جَحِيشاً ويعروري ظُهورَ المهالكِ
ويسبقُ وقد الرّيح من حيث ينتحي	بمُنْخَرِقٍ من شدّة المتدارِكِ
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل	له كالىُّ من قلب شِيحانِ فاتِكِ
إذا طلعتْ أولى العدوِّ فنفرُهُ	إلى سلّةٍ من صارمِ الغربِ باتِكِ
ويجعل عينيه ربيّة قلبه	إلى ضربةٍ من حدٍّ أخلق صائِكِ
إذا هزّه في عظمِ قرنٍ تهلّلت	نواجذُ أفواهِ المنايا الضوّاحِكِ
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي	بحيث اهتَدَتْ أمّ النجومِ الشوابِكِ

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر، فعرضت عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي، فقال له معاوية: كيف ترى هدايانا يا أبا سعيد؟ فإن أخاك عمراً قد أطنبَ في وصفها، فقال: أراها يا أمير المؤمنين على ما وصف، وإنما لمُخَيِّلَةٌ بكل خير؛ إنها لساميةُ العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، قباء الأسنان، ضخام الركبات، مشرفات الحجابات، رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وقعها تحليل، ورفعها تعليل، فهذه إن طلبت سبقت، وإن طلبت لحقت. قال له معاوية: اصرفها إلى رحلك؛ فإن بنا عنها غنى، وبفتيانك إليها حاجة.

وقال النابغة الجعدي: الطويل:

وإنا أناسٌ لا نُعوذُ خيَلنا

إذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوانَ خيَلنا

من الطعن حتى نحسب الجونَ أشقرا

فليس بمعروفٍ لنا أن نردّها

صِحاحاً، ولا مُستَكراً أن تعقرا

وقال بعض العرب: الكامل:

ولقد شهدتُ الخيلَ يوم طرادها

بسليم أوظفهِ القوائِمَ هيكل

فدعوا: نزال! فكنت أولَ نازلٍ

وعَلَّامَ أركبه إذا لم أنزل؟

ووصف أعرابي فرساً فقال: لما أرسلت الخيل جأءوا بشيطان في أَشْطَان، فأرسلوه، فلمع لَمَعُ البرقِ، واستهل استهلالَ الودقِ، فكان أَقْرَبَهُم إليه الذي يقعُ عينه من بُعدٍ عليه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: عنده فرسٌ طويل العِذار، أمينُ العِثار؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بازياً على مَرَباً، عليه رُمحٌ طويل يقصرُ به الآجال.

وقال بعض المحدثين في هذا التطابق: الوافر:

لَقِينَاهُمْ بِأَرْمَاحِ طَوَالٍ

تُبَشِّرُهُمْ بِأَعْمَارٍ قِصَارٍ

ووصف أعرابي خيلاً لبني يربوع فقال: خرجتُ علينا خيل من مستطير نَقَعٍ، كأن هَوَادِيهَا أعلام؟ وأذَانُهَا أَقلام، وفرسَانُهَا أسود أجام.

ولما أنشد العُماني الرشيد يصف فرساً: الرجز:

كَأَنَّ أذُنَيْهِ إِذَا تَشَوَّفَا

قَادِمَةً أَوْ قَلَمًا مُحَرَفَا

ولحن، ففهم ذلك أَكْثَرَ من حضر؛ فقال الرشيد: اجعل مكان كأن يَخَال، فعجبوا لسُرْعَةِ تَهْدِيهِ.

وللطائيين في هذا النوع أشعار كثيرة معني من اختبارها كثرةُ اشتهاها، وسأُنشد بعض ذلك، قال أبو تمام: الكامل:

ما مُقَرَّبٌ يَخْتَالُ فِي أَشْطَانِهِ

مَلَانٌ مِنْ صَلَفٍ بِهِ وَتَلَهُوقِ

بِحَوَافِرِ حُفَرٍ وَصَلَّتِ أَصْلَتِ

وَأَشَاعِرِ شُعُرٍ وَخَلَقِ أَخْلَقِ

ذو أولقٍ تَحْتَ العِجَاجِ، وإِنَّمَا

من صِحَّةِ إِفْرَاطِ ذَاكَ الْأَوَّلِقِ

صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلْبَسَتْهُ

من سُنْدُسٍ بُرْدًا وَمِنْ إِسْتَبْرَقِ

إِمْلِيسَةً إِمْلِيدَةً لَوْ غُلِّقَتْ

فِي صَهَوْتِيهِ الْعَيْنُ لَمْ تَتَعَلَّقِ

مُسَوْدُ شَطْرٍ مِثْلَ مَا اسْوَدَ الدَّجَى
وقال أبو عبادَةَ: الكامل:

وَأَغْرَفَ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ
وَإِذَا الضَّلُوعُ يَشُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ
يَهْوِي كَمَا هَوَتْ الْعُقَابُ إِذَا رَأَتْ
مَتَوَحَّشٌ بِدَقِيقَتَيْنِ كَأَنَّمَا
كَالرَّائِحِ النَّشْوَانُ أَكْثَرُ مَشْيِهِ
وَيُظِنُ رِيْعَانَ الشَّبَابِ يَرُوعُهُ
هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَبْرَاتِهِ
تَتَوَهَّمُ الْجَوَازَاءُ فِي أَرْسَاعِهِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُنِيَتْ لَهُ
وَكَأَنَّمَا كُسِيَ الْخُدُودَ نَوَاعِمًا
وَكَأَنَّمَا نَفَضَتْ عَلَيْهِ صَبْغَهَا
مَلَكُ الْعَيُونِ؛ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيْنَهُ

مَبِيضُ شَطْرٍ كَابْيِضَاضِ الْمُهْرَقِ

قَدْ رُحْتُ عَنْهُ عَلَى أَغْرَ مُحَجَّلٍ
يَوْمَ اللَّقَاءِ عَلَى مُعَمِّ مُخُولٍ
صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
تُرَيَّانِ مِنْ وَرَقٍ عَلَيْهِ مُوَصَّلِ
عَرَضَ عَلَى السَّنَنِ الْبَعِيدِ الْأَطُولِ
مِنْ نَشْوَةٍ أَوْ جِنَةٍ أَوْ أَفْكَلِ
نَعِمَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
وَالْبَدْرِ غُرَّةٌ وَجْهَهُ الْمَتَهَلِّلِ
بِصَفَاءِ نَقَبَتِهِ مَدَاوِكُ صَيْقَلِ
مَهْمَا تَلَاخِظُهَا بَلَحْظٌ يَخْجَلِ
صَهْبَاءُ لِلْبَرْدَانِ أَوْ قُطْرُبُلِ
نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبَلِ

وقال إِسْحَاقُ بْنُ خَلْفِ النَّهْرَوَانِيِّ لِأَبِي دُلْفٍ، وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ أَذْهَمُ يَسْمِيهِ غَرَابًا: الكامل:

كَمْ كَمْ تَجَرَّعَهُ الْمَنُونُ وَيَسْلُمُ
مِنْ كُلِّ مَنْبِتِ شَعْرَةٍ مِنْ جِلْدِهِ
مَا تُدْرِكُ الْأَرْوَاحُ أَذْنَى جَرِيهِ
رَجَعَتْهُ أَطْرَافُ الْأَسْنَةِ أَشْقَرًا
وَكَأَنَّمَا عَقْدُ النُّجُومِ بِطَرَفِهِ
لَوْ يَسْتَطِيعُ شَكَا إِلَيْكَ لَهُ الْفَمُ
خَطَّ يَنْمَقُهُ الْحُسَامُ الْمِخْذَمُ
حَتَّى يَفُوتَ الرِّيحَ وَهُوَ مَقْدَمُ
وَاللَّوْنُ أَذْهَمُ حِينَ ضَرَجَهُ الدَّمُ
وَكَأَنَّهُ بَعْرَى الْمَجْرَةِ مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب: الطويل:

وَأَطْعَنَهُمُ وَالشُّهْبُ فِي صُورِ الدُّهْمِ

جَفَنَّتِي كَأَنِّي لَسْتُ أَنْطِقَ قَوْمَهَا

وقال أبو الفتح كشاجم: الرجز:

قد راح تحت الصُّبحِ ليلَ مظلم

ديباجُ ألوانِ الجيادِ، ولم يكن

ضحكُ اللجينِ على سوادِ أديمه

فكأنه ببنات نعشٍ ملتبس

قلت: هذا من قول ابن المعتز: الطويل:

ألا فاسقياني والظلامُ مقوَّضٌ

كأنَّ الثريا في أواخرِ ليلِها

وقال أبو الفتح: الكامل:

مَنْ شَكَّ في فضلِ الكُمَيْتِ فبينه

في منظرٍ مستحسنٍ محمود

ماء تدفَّق طاعةً وسلاسةً

وإذا عطفت به على ناورده

وصف الخلق أديمه فكأنما

قصرت قِلادةُ نحره وعذاره

وكأنما هاديه جذعٌ مشرفٌ

يردُّ الضاحضَ غير ثاني سُنْبُكٍ

لو لم تكن للخيل نسبة خلقه

وقال ابن المعتز: الطويل:

وخيل طواها القودُ حتى كأنها

صبينا عليها ظالمين سيَّاطنا فطارت بها أيدٍ سراعٍ وأرجلُ

قوله: ظالمين من أبدع حشو جرى في بيت، وكان ابن المعتز أشار إلى قول أعرابي مولد: الطويل:

وعود قليل الذنب عاودتُ ضربه

إذا هاج شوقي من معاهدها ذكر

فقلت له: ذلفاء ويحك! سيبتلك الضرب، فاصبر إنَّ عادتك الصبرُ

قال ابن المعتز: الوافر:

إذ لاح في السرج المحلَّى الأدهمُ

ليُخص بالديباج إلا الأكرمُ

وكذا الظلامُ تنيرُ فيه الأنجمُ

وكأنما هو بالثريا ملجمُ

ونجم الدجى تحت المغارب يركضُ

تفتح نورٍ أو لجامٍ مفضضُ

فيه وبين يقينه المضمارُ

أخباره إذ تبتلى الأخبارُ

فإذا استدرَّ الحضرُ فيه فنارُ

لتديره فكأنه بركارُ

أهدى الخلق لجلده عطارُ

والرُسخ، وهي من العتاق قصارُ

وكأنما للضبع فيه وِجارُ

ويروُدُ طرفك خلفه فتحارُ

حَاكَّتْهُ من أشكالها الأطيَّارُ

أنابيبُ سمرٌ من قنا الخطُّ ذُبُلُ

كقَدْحِ النَّبْعِ فِي الرِّيشِ اللُّؤَامِ
بَغُرَّتِهِ دِيَا جِيرِ الظَّلَامِ
صُعُودَ الْبَرْقِ فِي جَوِّ الْغَمَامِ

أَرَجَعْتِي فِدَاكَ بِأَعْوَجِيٍّ
بَادِهِمَ كَالظَّلَامِ أَغْرَى يَجْلُو
تَرَى أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ

وقال أيضاً: الرجز:

فِي أَفْقٍ مِثْلِ مَدَاكِ الطَّيِّبِ
ذِي أُذُنٍ كَخُوصَةِ الْعَسِيبِ
يَسْبِقُ شَأْوَ النَّظَرِ الرَّحِيبِ
وَمِنْ رُجُوعِ لَحْظَةِ الْمُرِيبِ

قَدْ أَغْتَدَيْ وَالصُّبْحُ كَالْمَشِيبِ
بِقَارِحِ مَسَوِّمٍ يَعْبُوبِ
أَوْ أَسَةِ أَوْفَتْ عَلَى قَضِيبِ
أَسْرَعَ مِنْ مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبِ

وقال: المديد:

نَحْوِ إِسْرَاجٍ وَشَدَّ رِحَالِ
تَأْكُلُ الْأَرْضُ بِأَيْدٍ عِجَالِ
كَبُورٍ فِي وُجُوهِ لِيَالِ

رُبَّ رَكْبٍ عَرَّسُوا ثُمَّ هَبُّوا
وَعَدَوْنَا بِأَعْنَةِ خَيْلِ
زَيْنَتِهَا غَرَّرَ ضَا حِكَا تْ

وقال علي بن محمد الإيادي: الكامل:

وَمَشَى فَقَبَّلَ وَجْهَهُ الْبَدْرُ

مَسَحَ الظَّلَامَ بِعَرَفِهِ يَدُهُ

وقال الناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد: الكامل:

شَهَبَ تَسِيلَ عَلَى نَوَاشِرِ سَاقِهِ
أَتَنَّاؤُهَا مَشْدُودَةٌ بِنِطَاقِهِ
وَبَيَاضِهِ كَالصُّبْحِ فِي إِشْرَاقِهِ
أَخْلَاقَهُ عَيْنٌ عَلَى أَعْرَاقِهِ

أَحْوَى عَلَيْهِ مَسَائِحُ مِنْ لَيْطَةٍ
فَكَأَنَّهُ مُتَلَفَعٌ قَبْطِيَّةِ
فَسَوَادُهُ كَاللَّيْلِ فِي إِظْلَامِهِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَرِيمَةً أَنْسَابُهُ

كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي إلى الأمير أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال، وقد زاره الأمير في داره: الكامل:

وَعَلَوْ جَدَّكَ بِالْخُلُودِ كَفِيلَا
أَهْلُ الْعُلَا لَزَمَانِهِمْ تَحْجِيلَا
ظِلًّا عَلَيَّ مِنَ الْجَمَالِ ظَلِيلَا

لَا زَالَ مَجْدُكَ لِلْسَّمَائِكَ رَسِيلَا
يَا غَرَّةَ الزَّمَنِ الْبَهِيمِ إِذَا غَدَا
يَا زَائِرًا مَدَّتْ سَحَائِبُ طَوْلِهِ

وَأَتَتْ بِصَوَّبٍ جَوَاهِرٍ مِنْ لَفْظِهِ
بَأَبِي وَغَيْرِ أَبِي هِلَالٍ نُورُهُ
نَقَشَتْ حَوَافِرُ طَرَفِهِ فِي عَرَصَتِي
وَلَوْ اسْتَطَعْتَ فَرَشْتَ مَسْقَطَ خَطْوِهِ
وَنَثَرْتَ رُوحِي بَعْدَمَا مَلَكَتْ يَدِي

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل المعز: الطويل:

لَهُ الْمُقَرَّبَاتِ الْجُرْدُ يُنْعِلُهَا دِمَاءٌ
يُرِيقُ عَلَيْهَا اللَّوْلُو الرُّطْبُ مَاءُهُ
صَقِيلَاتِ أَجْسَامِ الْبَرُوقِ كَأَنَّمَا

وقال يصف فرساً لجعفر بن علي بن حمدون: الطويل:

تَهْلَلُ مَصْقُولَ النَوَاحِي كَأَنَّهُ
مِنْ الْبُهِمِ وَرَدُّ اللَّوْنِ شَيْبَ بِكُمْتَةٍ
فَلَوْ مِيزَ مِنْهُ كَبْنٌ لَوْنُ بَذَاتِهِ

وقال في قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيباني: الكامل:

فَتَقَّتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْبَرٍ
وَجَنَيْتُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانَعًا
أَبْنَى الْعَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ وَالسِّيَوِ
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمَطَاعُ كَأَنَّهُ
الْقَائِدُ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ شَوَازِبًا
شُعْتُ النَوَاصِي حَسْرَةً آذَانِهَا
تَتَبَوَّ سَنَابِكُهَا عَنْ عَفْرِ الثَّرَى
فِي فِتْيَةٍ صَدَأَ الْحَدِيدِ عِيْبَرُهُمْ
لَا يَأْكُلُ السَّرْحَانُ شِلْوَ عَقِيرِهِمْ

وقال في قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن علي: الكامل:

حَتَّى انْتَضَمْنَ لِمَفْرَقِي إِكْلِيلًا
يَسْتَعْجِلُ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَا
نَقَشَا مَحَوْتُ رِسُومَهُ تَقْبِيلَا
بَعْيُونَ عَيْنٍ لَا تَرَى التَّكْحِيلَا
وَحَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيَّ هَوَاهُ قَتِيلَا

إِذَا فَرَعَتْ هَامَ الْكُمَاةِ السَّنَابِكُ
وَيَسْبِكُ فِيهَا ذَائِبَ النَّبْرِ سَابِكُ
أُمِرْتُ عَلَيْهَا بِالشَّمُوسِ الْمَدَاوِكُ

إِذَا جَالَ مَاءُ الْحُسْنِ فِيهِ غَرِيقُ
كَمَا شَيْبَ بِالْمَسْكِ الْفَتِيقُ خَلُوقُ
جَرَى سَبَجٌ مِنْهُ وَذَابَ عَقِيقُ

وَأَمْدَكُمُ فَلَقُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ
فِ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الْأَكْثَرِ
تَحْتَ السَّوَابِغِ تَبَعٌ فِي حَمِيرِ
خُزْرًا إِلَى لِحْظِ السَّنَانِ الْأَخْزَرِ
قُبُ الْأَيَاطِلِ دَامِيَاتِ الْأَنْسَرِ
فَيْطَانُ فِي خَدِ الْعَزِيزِ الْأَصْعَرِ
وَخُلُوقُهُمْ عَلَقُ النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ
مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَنَا الْمَتَكْسَرِ

فخرٌ لَطَرْفٍ أَعْجَى أَنْتَ فِي
يُبْدِي لِعِزِّكَ نَخْوَةً، فَكَأَنَّهُ
هَادٍ عَلَى الْخَيْلِ الْعِتَاقِ، كَأَنَّهُ
سَامِي الْقَذَالِ بِمِسْمَعِيهِ عِيَاةً
أُذُنٌ مُؤَلَّلَةٌ، وَقَلْبٌ أَصْمَعُ
فَالطَّوْدُ مِنْ صَهَوَاتِهِ مُتَزَلِّزٌ
خَرَقَ الْعَيُونَ فَضَلَ عَنْهَا لَوْنُهُ
فَكَأَنَّمَا جَمَدَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةٌ
وَكَأَنَّمَا نُحِرَتْ عَلَيْهِ بَوَارِقُ
وَكَأَنَّكَ ابْنُ الْمَنْذَرِ النِّعْمَانُ فَوْ

صَهَوَاتِهِ وَالْحَسَنُ وَالتَّطْهِيمُ
مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ عَظِيمُ
بَيْنَ الدُّجَنَةِ وَالصَّبَاحِ صَرِيمُ
تَحْتَ الدُّجَى وَلَطَرْفُهُ تَتَجِيمُ
وَحَشَا أَقْبَ، وَكَلَّكَ مَلُومُ
وَالْجَيْشُ مِنْ أَنْفَاسِهِ مَهْزُومُ
وَصَفَا فَقُلْنَا مَا عَلَيْهِ أَدِيمُ
وَأَنْجَابَ عَنْهُ عَارِضٌ مَرْكُومُ
وَكَأَنَّمَا كُسِفَتْ عَلَيْهِ نُجُومُ
قِ سَرَاتِهِ، وَكَأَنَّهُ الْيَحْمُومُ

وقال علي بن محمد الإيادي يصف فرس أبي عبد الله جعفر بن أبي القاسم القائم: الكامل:

وَأَقْبَ مِنْ لَحَقِ الْجِيَادِ، كَأَنَّهُ
لَبِسَتْ قَوَائِمُهُ عَصَائِبَ فِضَّةٍ

قَصْرٌ تَبَاعَدَ رُكْنُهُ مِنْ رُكْنِهِ
وَعَدَتْ بِسُمْرٍ صَفَا الْمَسِيلِ وَدُكْنِهِ

وَكَأَنَّمَا انفَجَرَ الصَّبَاحُ بِوَجْهِهِ
قَيْدُ الْعَيُونَ إِذَا بَصُرْنَ بِشَخْصِهِ
مُنْسَيِّطٍ بِالرَّاكِبِينَ، كَأَنَّهُ
يَسْتَوْقِفُ اللَّحْظَاتِ فِي خَطَرَاتِهِ
حُلُوُ الصَّهِيلِ تَخَالُ فِي لَهَوَاتِهِ
مَتَجَبَّرٌ يُنْبِي بِعِتْقِ نِجَارِهِ
ذُو نَخْوَةٍ شَمَخَتْ بِهِ عَنْ نَدِهِ
وَكَأَنَّهُ فَلَكَ إِذَا حَرَكْتَهُ

حُسْنًا، أَوْ احْتَبَسَ الظَّلَامُ بِمَتْنِهِ
وَرِضَا الْقُلُوبِ إِذَا اصْطَلَيْنَ بِضِغْنِهِ
بَازٍ تَرُوحُ بِهِ الْجَنُوبُ لَوْكْنِهِ
بِكَمَالٍ خَلَقْتَهُ وَدِقَّةَ حُسْنِهِ
حَادٍ يَصُوغُ بِدَائِعًا مِنْ لَحْنِهِ
إِشْرَافٌ كَاهِلُهُ وَدِقَّةُ أَذْنِهِ
وَشَهَامَةٌ طَمَحَتْ بِهِ عَنْ قِرْنِهِ
جَارٍ عَلَى سَهْلِ الْبِلَادِ وَحَزْنِهِ
حَمَلٌ النِّسِيمِ لَوَابِلُ مِنْ مُزْنِهِ

قَدْ رَاحَ يَحْمِلُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ

وما أحسن ما قال أبو الطيب المتنبّي: الطويل:

ويوم كلون العاشقين كَمَنَّتْهُ
وَعَيْنِي إِلَى أَذْنِي أَغْرَ كَأَنَّهُ
له فَضْلَةٌ عن جسمه في إهابه
شَقَقْتُ به الظلماء، أَذْنِي عَنَانَهُ
وأَصْرَعُ أي الوحش قَفَيْتُهُ به
وما الخيلُ إِلَّا كالصديقِ قليلة
إذا لم تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا
أُرَاقِبُ فيه الشَّمْسَ أَيْانَ تَغْرُبُ
مِنَ اللَّيْلِ باقٍ بينَ عَيْنِيهِ كَوَكَبٍ
تَجِيءُ على صدرٍ رحيبٍ وتَذْهَبُ
فِيَطْغَى، وأَرْخِيهِ مِرَارًا فَيَلْعَبُ
وَأَنْزِلُ عنه مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
وإنْ كَثُرَتْ في عَيْنٍ مَنْ لَا يُجَرِّبُ
وأَعْضَائُهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبُ

وينخرط في سلك هذا المعنى مقامة من مقامات الإسكندري في الكُدَيَّة، ممَّا أنشأه بديع الزمان وأملاه في شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. قال البديع: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: حضرنا مجلس سيف الدولة يوماً وقد عُرضَ عليه فرسٌ: الطويل:

متى ما تَرَقَّ العين فيه تَسَهَّلَ

فلَحَظْتُه الجماعة؛ فقال سيف الدولة: أيكم أَحَسَنَ صفته، جعلته صَلَته؛ فكلُّ جَهدٍ جَهدَه، وبذل ما عِنْدَه؛ فقال أحد خَدَمِهِ: أَصْلَحَ اللَّهُ الأمير! رَأَيْتُ بِالْأُمْسِ رجلاً يَطُأُ الفَصَاحَةَ بِنَعْلَيْهِ، وَتَقِفُ الأَبْصَارُ عليه، يُسَلِّي الناسَ، ويشفي اليباسَ، ولو أمر الأميرُ بإحضاره، لَفَضَّلَهُمْ بِحَضَارِهِ.

فقال سيف الدولة: علي به في هيئته، فصار الخدمُ في طلبه، فجاءوا للوقت به، ولم يُعْلِمُوهُ لَأَيِّ حَالٍ دُعِيَ به، ثُمَّ قُرَّبَ واستُدِّي، وهو في طِمْرَيْنٍ قد أكل الدهرُ عليهما وشرَب، وحين حضر السَّمَاط، لثَمَ البساطُ، ووقف. فقال سيف الدولة: بَلَعْنَا عَنْكَ عَارِضَةً، فَأَعْرِضْهَا في هذا الفرس وصفه. فقال: أَصْلَحَ اللَّهُ الأمير! كيف به قَبْلَ رُكُوبِهِ ووُثُوبِهِ، وكَشَفَ عيوبه وغُيوبه؟ فقال: اركبه، فركبه وأَجْرَاه، ثم قال: أَصْلَحَ اللَّهُ

الأمير! هو طويل الأذنين، قليل الاثنين، واسع المَراثِ، لين الثلاث، غليظ الأكرُع، غامض الأربع، شديد النَّفس، لطيف الخَمْس، ضيق القلب، رقيق الست، حديد السَّمْع، غليظ السَّبْع، رقيق اللسان، عريض الثمان، شديد الضِّلْع، قصير التَّسْع، واسع السَّحَر، بعيد العَشْر، يأخذ بالسَّابح، ويُطْلَقُ بالرَّامح، ويُطْلَعُ بلائِح، وَيَضْحَكُ عن قَارح، يحز وَجْهَ الكديد، بمداقِّ الحديد، يُحْضِرُ كالبَحْر إذا مَاجَ، والسيْل إذا هَاج. فقال سيف الدولة: لك الفرس مُباركاً فيه. فقال: لَا زِلْتُ تأخذُ الأنفاسَ، وَتَمْنَحُ الأفراسَ، ثم انصرف، وتبعته، وقلت: لك علي ما يليقُ بهذا الفرس من خِلعةٍ إن فسرتَ ما وصفتَ، فقال: سَلْ عما أَحْببت.

فقلت: ما معنى قولك: بَعِيدُ العَشْرِ؟ فقال: بَعِيدُ النظر، وَالْخَطْوُ، وَأَعَالِي الجَبَّيْنِ، وما بين الوَقْبَيْنِ والجَاعِرَيْنِ، وما بين العُرَابَيْنِ، والمنخرين، وما بين الرُّجْلَيْنِ، وما بين النقرة والصفاق، وبعيد القامة في

فقلت: لا فُضَّ فُوكُ! فما معنى قولك: قصير التسع؟ قال: هاك: قصير الشعرة، قصير الأطرة، قصير العسيب، قصير القضيبي، قصير العضدين، قصير الرُسْعَيْن، قصير النساء، قصير الطهر، قصير الوظيف. فقلت: لله أنت! فما معنى قولك: عريض الثمان؟ قال: عريض الجبهة، عريض الصهوة، عريض الكتف، عريض الجنب، عريض الورك، عريض العصب، عريض البلدة، عريض صفحة العنق. فقلت: أحسنت، فما معنى قولك: غليظ السبع؟ قال: غليظ الذراع، غليظ الحزم، غليظ العكوة، غليظ الشوى، غليظ الرُسْع، غليظ الفخذين، غليظ الحبال. فقلت: لله درك! فما معنى قولك: رقيق الست؟ فقال: رقيق الجفن، رقيق السالفة، رقيق الجحفلة، رقيق الأديم، رقيق أعلى الأذنين، رقيق العرضين. فقلت: أجدت، فما معنى قولك: لطيف الخمس؟ قال: لطيف الزور، لطيف النسر، لطيف الجبّة، لطيف العجاية، لطيف الركبة. فقلت: حياك الله! فما معنى قولك: غامض الأربع؟ قال: غامض أعالي الكتفين، غامض المرفقين، غامض الحجاجين، غامض الشطّى. قلت: فما معنى قولك: لين الثلاث؟ قال: لين المردعتين، لين العرف، لين العنان. قلت: فما معنى قولك: قليل الاثنين؟ قال: قليل لحم الوجه، قليل لحم المنتين. قلت: فمن أين نبات هذا العلم؟ قال: من الثغور الأموية، وبلاد الإسكندرية. فقلت له: أنت مع هذا الفضل، تُعرض وجهك لهذا البذل؟! فأنشأ يقول: المجتث:

فالدهر جدّ سَخيفٍ

ساخفُ زمانك جدًّا

وعشْ بخيرٍ وريفٍ

دع الحمية نسيًّا

يجئ لنا برغيفٍ

وقلْ لعبدك هذا

سقط عنا تفسيره في لين الثلاث، وأكثر هذا التفسير يحتاج إلى تفسير، ولم يُرد بما أورد إفهام العوام، والبلاغة لحة دالة، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر؛ وقد قال البحري: المنسرح:

وليس بالهذر طُولتْ خطبُهُ

والشعرُ لمَح يخفي إشارتُهُ

وسأقول في شرحه بكلام وحيز زيادة في الإفادة: الوُقبان: نُقِرَتان فوق العينين. والجاعتان من الفرس: موضع الرّقمتين من الحمار، وهما منتهى ضربه بذنبه إذا حركه. والغرابان: النّاتان من أعلى الوركين،

وفكر النقرة هنا، وهو الذي يُعرف بالمتقَب، وهو من السُرَّة حيث ينقب البيطار. والصفاق: الخاصرة، وقد قيل: جلد البطن كفه صفاق، والذي أراده الخاصرة. وأراد بُعْد القامة في السباق امتدادُهُ إذا جرى مع الأرض. والأطرة هنا: طرف الأَبهر، وهي طِفْطُفة غليظة. والأبهر: عِرْق يستبطن الظهر، فيتصل بالقلب، وقيل: هو الأكحل. والعسيب: عظم الذنب. والرُسْغ من الفرس: موضع القيد. والنَّسَا: عرق مستبطن الفخذين، وقصره محمود في جري الفرس، ولكنه لا يسمح بالمشي. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرُسْغ إلى الساق. والصهوة: الظهر. والبَلْدَة: ما بين عينيه. والعُكُوة: مغرز الذنب. والشوى: الأطراف. والحبال: حبلا العاتق والظهر. والجَحْفَلَة من ذوات الحافر: كالشفة من الإنسان. والغُرْضَان من الفرس: ما انحدر من قَصْبَة الأنف من جانبيها. والزور: الصدر. والنَّسْر في الحافر: لحمية يابسة أسفلها يشبهها الشعراء بالتَّوى. والجبَّة: التي فيها الحوشب، والحَوْشَب: حشو الحافر. والعُجَاية: عَصَب في قوائم الفرس والبعير مركب فيه فصوص من عظام كأمثال الكِعَاب تكون عند الرُسْغ. والحِجَّاجان: العظامان المُطِيفان بالعين. والشَّطَى: عظم لاصق بالذراع. والمتنان: جانبا الظهر؛ وسقط عَنَّا تفسير الثلاث من نفس المقامة.

ما قيل في المواعيد

قال الجاحظ: قال أبو القاسم بن معن المسعودي لعيسى بن موسى: أيها الأمير، ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفْتُكَ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُكَ، فقال: ولم؟ ألم أكلَمْ لك أمير المؤمنين في كذا وكذا؟ قال: بلى! فهل استنجزتَ ما وعدت، وعادوت ما ابتدأت؟ فقال: حالتُ دون ذلك أمورٌ قاطعة، وأحوال عاذرة. قال: أيها الأمير، فما زدني على أن نبهتَ الهمَّ من رَقْدَتِهِ، وأثرتَ الحُزنَ من رُبُضَتِهِ، إن الوعدَ إذا لم يصحبه إنجازٌ يحقِّقه كان كلفظٍ لا معنى له، وجسمٍ لا روح فيه.

وكَلَّمَ منصورُ بن زيادٍ يحيى بن خالدٍ في حاجةٍ لرجل، فقال: عدّه قَضَاءَها. قال: فقلت: أصلحك الله! وما يدعوك إلى العِدَّة مع وجود القدرة؟ فقال: هذا قولٌ من لا يعرفُ موضعَ الصَّنائع من القلوب، إنَّ الحاجة إذا لم يتقدمها مَوْعدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذب الأنفس سرورها؛ إن الوعدَ تطعمُ والإنجازَ طعامٌ؛ وليس من فاجأه طعامٌ كمن وجدَ رائحته؛ وتمطَّق به، وتطعمه ثم طعمه؛ فدع الحاجة تُختم بالوعد؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع، ولُطْفُ مَحَلٍّ.

ووعده المهديُّ عيسى بن دأب جاريةً، ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مُصعب الزبيري معرَضاً بقول مضر الأسدي: الطويل:

فلا تَيَأْسَنْ مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ

وإن كَانَ قَدِمًا بَيْنَ أَيْدٍ تَبَادَرُهُ

فضحك المهدي، وقال: ادفعوا إلى عبد الله فلانة، لجارية أخرى؛ فقال عبد الله بن مصعب: الرجز:

أَنْجَزْ خَيْرُ النَّاسِ قَبْلَ وَعْدِهِ

أَرَاكِ مِنْ مَطْلٍ وَطُولٍ كَدَّهُ

فقال ابن داب: ما قلت شيئاً، هلا قلت: الرجز:

حَلَاوَةُ الْفَضْلِ بُوْعْدٍ يُنْجَزُ

لَا خَيْرَ فِي الْعُرْفِ كَنَهَبٍ يُنْهَزُ

فقال المهدي: مجزوء الكامل:

الْوَعْدُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ

نُ إِذَا تَقَدَّمَ ضَمَانُ

وقد قال أبو قابوس النصاراني يمدح يحيى بن خالد: البسيط:

رَأَيْتُ يُحْيِي، أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ

عليه، يَأْتِي الَّذِي لَمْ يَأْتِهِ أَحَدُ

يَنْسَى الَّذِي كَانَ مِنْ مَعْرُوفِهِ أَبَدًا

إِلَى الرِّجَالِ، وَلَا يَنْسَى الَّذِي يَعُدُّ

وقال أبي الطيب المتنبي: المنسرح:

قَوْمٌ بُلُوغُ الْغُلَامِ عِنْدَهُمْ

طَعْنُ نُحُورِ الْكُمَاةِ لَا الْحُلُمُ

كَأَنَّمَا يُوَلَّدُ النَّدَى مَعَهُمْ

لَا صِغَرٌ عَازِرٌ وَلَا هَرَمٌ

إِذَا تَوَالَوْا عِدَاوَةً كَشَفُوا

وَإِنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا

تَظُنُّ مَنْ فَقَدَكَ اعْتَدَادَهُمْ

أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا

ودخل أبو عليّ البصير على الفضل بن يحيى، فأنشده: الرمل:

وُصِفَ الصَّدُّ لِمَنْ أَهْوَى فَصْدُ

وَبَدَا يَمَزَحُ بِالْهَجْرِ فَجَدُ

مَا لَهُ يَعْدِلُ عَنِّي وَجْهَهُ

وَهُوَ لَا يَعْدِلُهُ عِنْدِي أَحَدُ؟

لَا تُرِيدُوا غِرَّةَ الْفَضْلِ، وَمَنْ

يَطْلُبُ الْغُرَّةَ فِي خَيْسِ الْأَسَدِ

مَلِكٌ نَدَفَعُ مَا نَخَشَى بِهِ

وَبِهِ نَصْلَحُ مَنْ مَا فَسَدُ

يُنْجَزُ النَّاسُ إِذَا مَا وَعَدُوا

وَإِذَا مَا أَنْجَزَ الْفَضْلُ وَعَدُ

وقال ابن الرومي في هذا المعنى: البسيط:

لَهُ مَوَاعِدُ بِالْخَيْرَاتِ بَادِرَةٌ

لَكِنِهَا تَسْبِقُ الْمِيعَادَ بِالصَّدِّ

يُعْطِيكَ فِي الْيَوْمِ حَقَّ الْيَوْمِ مَبْتَدَأً

وَلَا يُضَيِّعُ بَعْدَ الْيَوْمِ حَقَّ غَدٍ

في البرّ والإنعام

خطب سليمان بن عبد الملك فقال: أيها الناس، مَنْ لم يعلم أَبْوَابَ مَدْخَلِهِ في الكرامة، وَجَهْلَ طَرِيقَتِهِ الَّتِي وَقَعَتْ بِهِ عَلَى النِّعْمَةِ كَانَ بَعْضُ رُجُوعٍ إِلَى دَارِ هَوَانٍ، وَانْقِلَابٌ بِفَادِحِ خُسْرَانٍ. فقام إليه أَبُو وَائِلَةَ السَّدُوسِي، وَهُوَ حَاجِبُهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنَّا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى. "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً"، ثُمَّ صَرَّنا كَمَا قَالَ زُهَيْرُ: الْوَافِرُ:

بِإِحْسَانٍ فَلَيْسَ لَهَا مُزِيلٌ

يَدُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ تَنَاوَلَتْهُمْ

وَرَبِّي بِالْجَزَاءِ لَهُ كَفِيلٌ

لَأَنَّ الْخَيْرَ أَجْمَعَ فِي يَدَيْهِ

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: هَذِهِ وَاللَّهِ الْمَعْرِفَةُ بِقَدْرِ النِّعْمَةِ، وَالْعِلْمُ بِمَا يَجِبُ لِلْمُنْعَمِ.

وَرَوَى يُونُسُ بْنُ الْمُخْتَارِ فِي دَارِ الْمَأْمُونِ، وَمَرَّتَبَتُهُ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ بَنِي الْعَبَّاسِ، قَاعِداً عَلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ الْحَاجِبُ: ارْتَفِعْ يَا أَبَا الْمُعَلَّى إِلَى مَرْتَبَتِكَ، قَالَ: قَدْ رَفَعَنِي اللَّهُ إِلَيْهَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ لِي عَمَلٌ يَنْفِي بِهَا، فَلِمَ لَا أَكْرِمُهَا عَنِ الْقُعُودِ عَنْهَا إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ لِي الشُّكْرُ عَلَيْهَا؟ فَبَلَغَ الْكَلَامُ الْمَأْمُونَ؛ فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ غَايَةُ الشُّكْرِ، وَبِمَثَلِهِ تَدْرُ النِّعَمَ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْمُعَلَّى بْنِ أَيُّوبَ، وَقَدْ رَفَعَهُ الْمُعْتَصِمُ إِلَى مَرْتَبَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ: مَا يَزِيدُكَ التَّقَرُّيبُ إِلَّا تَبَاعُداً. فَقَالَ: يَا هَذَا، إِنِّي أَصُونُ تَقْرِيبَهُ إِيَّايَ بِتَبَاعُدِي مِنْهُ؛ لِثَلَا تَفْسُدَ حُرْمَتِي عِنْدَهُ بِقَلَّةِ الشُّكْرِ عَلَى نِعْمَتِهِ. وَلَمَّا اسْتَعَانَ الْمَنْصُورُ بِالْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ قَالَ لَهُ: يَا حَارِثُ، إِنِّي قَدْ مَكَّنْتُكَ مِنْ حُسْنِ رَأْيِي فِيكَ، فَاحْفَظْهُ بِتَرْكِ إِغْفَالٍ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ! قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ أَغْفَلَ سَبَبَ حُلُولِ النِّعْمَةِ، وَلَهَا عَنِ الْحَالِ الَّتِي أَصَارَتْهُ إِلَيْهَا، اسْتَصْحَبَ الْيَأْسَ مِنْ تَبَلُّلِ مِثْلِهَا، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ فِيهَا، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ دَامَتْ النِّعْمَةُ لَهُ، وَبَقِيَ الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ.

وَلَمَّا قَالَ الْمَأْمُونُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ عِنْدَ قُدُومِهِ مِنْ مِصْرَ: مَا سَرَّنِي اللَّهُ مِنْذُ وَلَّيْتُ الْخِلَافَةَ بِشَيْءٍ عَظُمَ مَوْقِعُهُ عِنْدِي، بَعْدَ جَمِيلِ عَافِيَةِ اللَّهِ، هُوَ أَكْثَرُ مِنْ سُرُورِي بِقُدُومِكَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِذْنًا لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي تَفْرِيقِ أَمْوَالِي مِنْ طَارِفٍ وَتَالِدٍ. قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: شُكْرًا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ وَإِلَّا قَصَّرَ بِي الْحَيَاءُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ لَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَقَوَادِهِ: مَا شَيْءٌ مِنَ الْخِلَافَةِ يَنْفِي لِعَبْدِ اللَّهِ بَعْضَ شُكْرِهِ.

وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ: الْكَامِلُ:

عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرَفَا

قَدْ قَلْتُ لِلْعَبَّاسِ مُعْتَذِراً

أَنْتَ أَمْرٌ جَلَلْتَنِي نِعَمًا
فَالْيَكْ مِنْي الْيَوْمَ تَقْدِمَةً
لَا تُسَدِّينَ إِلَيَّ عَارِفَةً
أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفًا
تَلْقَاكَ بِالتَّصْرِيحِ مِنْكَشِفًا
حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفًا

عارضه الناشئ واعترض معناه، فقال: الكامل:

إِنْ أَنْتَ لَمْ تُحَدِّثْ إِلَيَّ يَدًا
لَمْ أَحْظَ مِنْكَ بِنَائِلٍ أَبَدًا
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: الْخَفِيفُ:

عَاقَنَا أَنْ نَعُودَ أَنْكَ أَوْلَى
غَمَرْتَنَا مِنْكَ الْأَيْدِي اللَّوَاتِي
فَنَهَانَا عَنْكَ الْحَيَاءُ طَوِيلًا
وَلَمَّا حَقَّ إِنَّ قَرَبْتَ التَّنَائِي
غَيْرَ أَنَا أَنْضَاءُ شُكْرٍ أُرِيحَتْ
تَ أُمُورًا يَضِيقُ عَنْهَا الْجَزَاءُ
مَا لِمِعْشَارِهَا لَدَيْنَا كِفَاءُ
ثُمَّ قَدْ رَدَّنَا إِلَيْكَ الْحَيَاءُ
وَلَمَّا حَقَّ إِنَّ بَرَزْتَ الْجَفَاءُ
وَقَدِيمًا أُرِيحَتْ الْأَنْضَاءُ

ألفاظ لأهل العصر

في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عندي من بره ما ملك الاعتذار بأزمته، وقبض ألسنة أمراء الكلام وأثمته. عندي له مبار أعجزني شكرها، كما أعوزني حصرها. شكره شأؤ بعيد لا تبلغه أشواط، ولا أتلافى التفريط في حقه بإفراط. إحسانه يُعيد العرب عجمًا، والفصحاء بكما. قد زحمني من مكارمه ما يُحصِرُ عنه المبين، ويصحبه العي وبئس القرين.

وقال أعرابي: الطويل:

رَهْنَتْ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ
وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ
وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ
وَلَكِنْ مَا لَا يَسْتَطَاعُ شَدِيدُ

وقال يحيى بن أكنم: كنتُ عند المأمون، فأتى برجل تُرْعِدُ فرائضه؛ فلمَّا مثل بين يديه قال المأمون: كَفَرْتَ نِعْمَتِي، ولم تشكر معروفي، فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقعُ شُكْرِي فِي جَنِّبِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَلَيَّ، فنظر إليَّ المأمون، وقال متمثلًا: الطويل:

ولو كان يَسْتَغْنِي عن الشكر مَاجِدٌ
لرفعة قَدْرٍ أو علوِّ مَكَانٍ
لما أمر الله العبادَ بشكره
فقال: اشكروا لي أيها الثقلان

ثم التفت إلى الرجل فقال: هلا قلت كما قال أصرم بن حميد: البسيط:

ملكت حمدي حتى إنني رَجُلٌ
كُلِّي بكلِّ ثناءٍ فيك مشغَلٌ
خُولْتُ شكري لما خُولْتُ من نِعَمٍ
فحُرُّ شكري، لما خُولْتُني، خَوْلٌ
وقال أبو الفتح البستي: الطويل:

لئن عَجَزْتُ عن شُكْرِ بَرِّكَ قَوَّتِي
وأقوى الورى عن شُكْرِ بَرِّكَ عاجِزُ
فإنَّ ثنائي واعتقادي وطاقتي
لأفلاكٍ ما أوليتَنيها مَراكِزُ

وقال أبو القاسم الزعفراني: الخفيف:

لي لسانٌ كأنه لي مُعَادِي
ليس يُنْبِي عن كُنْهِ ما في فؤادي
حكم الله لي عليه فلو أن
صف قلبي عَرَفْتُ قَدْرَ ودادي

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، يمدحُ عُمر بن العلاء: الكامل:

إني أَمِنْتُ من الزمان ورِيَّه
لما عَلِقْتُ من الأمير حَبَالاً
لو يستطيعُ الناسُ من إجلاله
لحدَّوا له حُرَّ الوجوه نِعَالاً
ما كان هذا الجودُ حتى كنت يا
عمر، ولو يوماً تَزُولُ لزالاً
إنَّ المطايا تشتكيكَ لأنَّها
قطعتُ إليك سَبَاسِياً ورمالاً
فإذا وَرَدَنَ بنا وَرَدَنَ مُخَفَّةً
وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقَالاً

وهي قصيدة سهلة الطبع، سلسلة النظام، قريية المتناول.

وروي أنَّ عمر بن العلاء وصلَّه عليها بسبعين ألف درهم، فحسدته الشعراء، وقالوا: لنا بباب الأمير أعوامٌ نَخْدُمُ الآمالَ، ما وصلنا إلى بعض هذا ا فاتصل ذلك به، فأمر بإحضارهم، فقال: بلغني الذي قُلْتُمْ؛ وإنَّ أحدكم يأتي فيمدحني بالقصيدة يشبِّب فيها فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لذَّةُ حلاوته، ورائقُ طلاوته؛ وإنَّ أبا العتاهية أتى فشبِّبَ بأبيات يسيرة، ثم قال: إنَّ المطايا تشتكيكَ؛ لأنَّها... وأنشد الأبيات. وكان أبو العتاهية لما مدحه بهذا الشعر تأخر عنه برَّه قليلاً، فكتب إليه يستبطئه: الطويل:

أصابت علينا جودك العينُ يا عُمَرُ
فنحن لها نَبْغِي التمانمَ والنُشْرَ

أصابتك عَيْنٌ في سخائك صُلْبَةٌ ويا ربَّ عَيْنِ صُلْبَةٍ تَقْلِقُ الْحَجَرَ
سَنَرَقِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى تَمْلَأَ فَإِنْ لَمْ تُقِ مِنْهَا رَقِيْنَاكَ بِالسُّورِ

وقال: البسيط:

يا ابنَ العلاءِ ويا ابنَ القَرَمِ مرداس إني مَدَحْتُكَ في صَحْبِي وجُلَاسِي
أُنْثِي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تُكَذِّبُنِي فيما أَقُولُ فَأَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
حَتَّى إِذَا قِيلَ: مَا أَوْلَاكَ مِنْ صَفَدٍ طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال، وقال: لا تُدْخِلْهُ عَلَيَّ، فإني أَسْتَحْيِي منه.
وذكر بعضُ الرواة أنَّ المهدي خرج متصيِّداً، فَسَمِعَ رجلاً يتغنَّى من القصيدة التي مرَّت منها الأبيات في
عمر بن العلاء آنفاً: الكامل:

يا مَنْ تَقَرَّدَ بِالْجَمَالِ فما تَرَى عيني على أَحَدٍ سِوَاهُ جَمَلا
أَكْثَرْتُ في قَوْلِي عَلَيْكَ مِنَ الرُّقَى وَضَرَبْتُ في شِعْرِي لَكَ الْأَمْثَلا
فَأَبَيْتَ إِلَّا جَفْوَةً وَقَطِيعَةً وَأَبَيْتَ إِلَّا نَخْوَةً وَدَلَالاً
بِاللَّهِ قَوْلِي إِنْ سَأَلْتُكَ وَاصْدُقْني أَوْجَدْتُ قَتْلِي في الْكِتَابِ حَلَالاً؟
أَمْ لَا، فَفِيمَ جَفَوْتَنِي وَظَلَمْتَنِي وَجَعَلْتَنِي لِلْعَالَمِينَ نَكَالاً؟
كَمْ لَائِمٌ لَوْ كُنْتُ أَسْمَعُ قَوْلَهُ قَدْ لَامَنِي وَنَهَى وَعَدَ وَقَالَ

فقال المهدي: عَلَيَّ به، فجاءه، فقال: لِمَنْ هذا الشعر؟ قال: لِإِسْمَاعِيلِ ابْنِ الْقَاسِمِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ، قال: لمن
يقوله؟ قال: لِعُتْبَةَ جَارِيَةِ الْمَهْدِيِّ، قال: كَذَبْتَ، لو كَانَتْ جَارِيَتِي لَوَهَّبْتُهَا لَهُ، وَكَانَتْ عُتْبَةُ لِرَيْطَةِ بِنْتِ أَبِي
الْعَبَّاسِ السَّفَاحِ، وَكَانَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ قد بلغ من أمرها كل مبلغ، وكل ذلك فيما زعم الرواةُ تصنع، وتخلق،
لِيُذَكَّرَ بِذَلِكَ.

أبو العتاهية

قال يزيد بن حوراء المغني: كلمني أبو العتاهية أن أكلَمَ المهدي في عتبة؛ فقلت: إن الكلام لا يمكنني،
ولكن قل شعراً أغنيه إياه، فقال: البسيط:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعْلَقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا
إِنِّي لِأَيَّاسُ مِنْهَا ثُمَّ يَطْمَعُنِي فِيهَا احْتِقَارُكَ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

فعملت فيه لَحْنًا وَغَنِيَّةً المهدي؛ فقال: لِمَنْ هذا؟ فأخبرته خَبَرَ أَبِي العتاهية، فقال: ننظرُ في أمره، فأخبرت بذلك أبا العتاهية؛ فمكث أشهرًا، ثم أتاني فقال: هل حَدَثَ خبر؟ فقلت: لا، فقال: غَنَ بهذا الشعر: الخفيف:

ليت شعري ما عندكم ليت شعري
ليت شعري ما عندكم ليت شعري
ما جواب أولى بكل جميل
من جواب يُردُّ من بعد شهرٍ

قال يزيد: فغَنَيْتُ به المهدي، فقال: علي بَعْتَبَة، فأحضرت، فقال: إن أبا العتاهية كلمني فيك، وعندي لك وله ما تحبان؛ فقالت له: قد علم مولاي أمير المؤمنين ما أوجبه من حق مولاتي، فأريد أن أذكرُ لها ذلك؛ قال: فافعلي؛ فأعلَمتُ أبا العتاهية بما جرى، ومضت الأيام؛ فسألني معاودة المهدي، فقلت له: قد عرفت الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه، فقال: الكامل:

أَشْرَبْتُ قَلْبِي مِنْ رَجَائِكَ مَالَهُ
عَنَقَ إِلَيْكَ يَخْبُ بِي وَرَسِيمُ
وَأَمَلْتُ نَحْوَ سَمَاءٍ صَوْبِكَ نَاطِرِي
أَرَعَى مَخَايِلَ بَرَقِهَا وَأَشِيمُ
وَلَقَدْ تَنَسَّمْتُ الرِّيحَ لِحَاجَتِي
وَإِذَا لَهَا مِنْ رَاحَتَيْكَ نَسِيمُ
وَلَرُبَّمَا اسْتَيْأَسْتُ ثُمَّ أَقُولُ: لَا
إِنَّ الَّذِي ضَمِنَ النِّجَاحَ كَرِيمُ

فغَنِيته بالشعر، فقال: عَلَيَّ بَعْتَبَة، فأتت؛ فقال: ما صنعت؟ قالت: ذكرت ذلك لمولاتي فأبته وكرهته، فليفعَلْ أمير المؤمنين ما يريد، فقال: ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه، فأعلَمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال: الكامل:

قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ
وَأَرَحْتُ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ تَرَحَالِ
مَا كَانَ أَشْأَمَ إِذْ رَجَاؤُكَ قَادَنِي
وَبَنَاتُ وَعْدِكَ يَعْتَلِجْنَ بِبَالِي
وَلئن طَمِعْتُ لَرُبِّ بَرَقٍ خَلْبِ
مَالَتْ بِذِي طَمَعٍ وَلُئِمَّةِ آلِ

وقد نُقِلَت هذه الحكاية على غير هذا الوجه، والله أعلم بالحق في ذلك. وضرب المهدي أبا العتاهية مائة سوط لقوله: الطويل:

أَلَا إِنَّ ظَنِيًّا لِلْخَلِيفَةِ صَادَنِي
وَمَالِي عَلَى ظَنِّي الْخَلِيفَةِ مِنْ عَدَوِي

وقال: أبي يَتَمَرَسُ، ولحرمي يَتَعَرَّضُ، وَبِنِسَائِي يَعْثُ؟ وَنَفَاهُ إِلَى الْكَوْفَةِ. وفي ضربه يقول أبو دهمان: المنسرح:

لَوْلَا الَّذِي أَحَدَثَ الْخَلِيفَةُ لِلْ
عُشَاقِ مَنْ ضَرَبَهُمْ إِذَا عَشَقُوا

كُنِيْ امْرُؤٌ قَدْ ثَنَانِي الْفَرَقُ

لُبَحْتُ بِاسْمِ الَّذِي أَحِبُّ وَل

وكان أبو العتاهية بالكوفة، لما نفى، يَذْكُرُ عُتْبَةَ، ويكْنِي بِاسْمِهَا، فمن ذلك قوله: مجزوء الرمل:

بَأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي

قُلْ لِمَنْ لَسْتُ أَسْمِي

بَحْتُ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي

بَأَبِي أَنْتَ لَقَدْ أَص

إِذْ أَذَابَ الْحَبَّ لَحْمِي

وَلَقَدْ قُلْتُ لِأَهْلِي

فَاكْتَفُوا مِنِّي بِعَلْمِي:

وَأَرَادُوا لِي طَبِيباً

قِي فَإِنَّ الْحَبَّ سَقَمِي

مَنْ يَكُنْ يَجْهَلُ مَا أَلْ

دَ، وَفِي الْكُوفَةِ جِسْمِي

إِنْ رُوحِي لِبِغْدَا

وقوله: البسيط:

إِلَّا بَكَيْتُ إِذَا مَا ذَكَرُهُ خَطَرَا

أَمْسَى بِبِغْدَادَ ظَنِّي لَسْتُ أَذْكُرُهُ

عَنْ الْحَبِيبِ بَكَى أَوْ حَنَ أَوْ ذَكَرَا

إِنْ الْمَحَبِّ إِذَا شَطَّتْ مَنَازِلُهُ

حَتَّى أَضَاءَ عَمُودُ الصُّبْحِ فَاَنْفَجَرَا

يَا رَبِّ لَيْلَى طَوِيلَ بَتٌ أَرْقُبُهُ

أَنْ الْمَضَاجِعَ مِمَّا تَنْتَبِتُ الْإِبْرَا

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ إِلَّا مَذً عَرَفْتَكُمْ

وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الْحِسَابِ عَلَى عَيْنِ الشَّجِيِّ إِذَا مَا نَوْمُهُ نَفَرَا

ولما قدمت عُتْبَةُ بِبِغْدَادَ قَدِمَ مَعَهَا أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى اتَّصَلَ بِالرَّشِيدِ فِي خِلَافَةِ أَبِيهِ الْمَهْدِيِّ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ، وَبَلَغَ الْمَهْدِيُّ خَبْرَهُ، فَأَحْضَرَهُ؛ فَقَالَ: يَا بَائِسَ، أَنْتَ مُسْتَقْتَلٌ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ؛ فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: مجزوء الكامل:

بِرِّ فِي الْمُنَاسِبِ وَالْعَدِيدِ

أَنْتَ الْمُقَابِلُ وَالْمَدَا

لَةِ وَالْأَبُوَّةِ وَالْجُدُودِ

بَيْنَ الْعُمُومَةِ وَالْخُؤُ

كَ فَأَنْتَ فِي الْمَجْدِ الْمَشِيدِ

فَإِذَا انْتَمَيْتَ إِلَى أَبِي

خَالَ بِأَكْرَمَ مَنْ يَزِيدِ

وَإِذَا انْتَمَى خَالَ فَمَا

يريد يزيد بن منصور الحميري، وأنشده: المديد:

سَامِعَاتٌ لَكَ فِيمَنْ عَصَاكَ

عَلِمَ الْعَالَمُ أَنَّ الْمَنَايَا

رَجَعَتْ تَرْغُفُ مِنْهُ قَنَاكََا

فَإِذَا وَجَّهَتْهَا نَحْوَ طَاغِ

وَلَوْ أَنَّ الرِّيحَ بَارَتْكَ يَوْمًا

فِي سَمَاحٍ قَصَرَتْ عَنْ نَدَاكَ

وأنشده: المتقارب:

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً

إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ

وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا

وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ

لَزُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالُهَا

وَلَوْ لَمْ تُطْعَمْ بَنَاتُ الْقُلُوبِ

لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالُهَا

فقال له المهدي: إن شئت أدبناك بضربٍ وجيع؛ لإقدامك على ما نُهيته عنه، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مدحك لنا. وإن شئت عَفَوْنَا عَنْكَ فقط.

فقال: بل يضيف أمير المؤمنين إلى كريم عفوهِ جميلٌ معروفه؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة، وأمير المؤمنين أولى من شَفَعَ نعمته وأتمَّ كرمه. فأمر له بثلاثين ألف درهم وعفا عنه.

ولما قدم الرشيد الرقة أظهر أبو العتاهية الزهد والتصوف وترك الغزل، فأمره الرشيد أن يتغزل، فأبى، فحبسه، فغنى بقوله: الطويل:

خَلِيلِي مَا لِي لَا تَزَالُ مَضْرَتِي

تَكُونُ عَلَى الْأَقْدَارِ حَتْمًا مِنَ الْحَتَمِ

كَفَاكَ بِحَقِّ اللَّهِ مَا قَدْ ظَلَمْتَنِي

فَهَذَا مَقَامُ الْمُسْتَجِيرِ مِنَ الظُّلْمِ

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جِسْمِي وَقُوتِي

أَلَا مُسْعِدٌ حَتَّى أَنْوَحَ عَلَى جِسْمِي

فأمر بإحضاره وقال: بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدي عن الغزل فتأبى إلا لجأجأً ومَحْكَاً؛ واليوم أمرك بالقول فتأبى جرأةً عليّ وإقداماً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحسنات يُذهبن السيئات، كنت أقول الغزل ولي شبابٌ وجِدَّةٌ، وبى حراك وقوة، وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلي تصاب؛ فردّه إلى حبسه؛ فكتب إليه: الطويل:

أَنَا الْيَوْمَ لِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أَشْهَرُ

يَرُوحُ عَلَيَّ الْغَمُّ مِنْكَ وَيَبْكُرُ

تَذَكَّرَ، أَمِينَ اللَّهِ، حَقِّي وَحُرْمَتِي

وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي، لَعَلَّكَ تَذَكَّرُ

لِيَالِي تُدْنِي مِنْكَ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي

وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتَ مَرَّةً

إِلَيَّ بِهَا مِنْ سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ؟

فبعث إليه: لا بأس عليك: فقال: الوافر:

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَبَ فِيهِ رُوحُ

لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَأْسُ

أَمِينُ اللَّهِ إِنَّ الْحَبْسَ بِأَسٍّ

وَقَدْ وَقَعْتَ: لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ

فَأُخْرِجْهُ.

أَخَذَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذَيْنِ عَلِيٍّ بْنِ جَبَلَةَ وَزَادَ فِيهِ، فَقَالَ لِأَبِي غَانِمِ الطُّوسِيِّ: السَّرِيعُ:

دَجَلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ

يُطْعِمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ

وَالْخَلْقُ جِسْمٌ، وَإِمَامُ الْهَدْيِ

رَأْسٌ، وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ

عمر بن العلاء

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْعَلَاءِ مَمْدَحًا، وَفِيهِ يَقُولُ بَشَارُ بْنُ بَرْدٍ: الْمُتَقَارِبُ:

إِذَا أُيْقِظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَى

فَنَبَّهَ لَهَا عُمْرًا ثُمَّ نَمَ

دَعَانِي إِلَى عُمْرٍ جَوْدُهُ

وَقَوْلُ الْعَشِيرَةِ بَحْرٌ خِضَمٌ

وَلَوْلَا الَّذِي ذَكَرُوا لَمْ أَكُنْ

لَأَمْدَحَ رِيحَانَةً قَبْلَ شَمٍ

فَتَى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ

وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بِدَمٍ

أَخَذَ هَذَا الْبَيْتَ أَبُو سَعِيدٍ الْمَخْزُومِيُّ، فَقَالَ: الْبَسِيطُ:

وَمَا يُرِيدُونَ، لَوْلَا الْجَبْنُ، مِنْ رَجُلٍ

بِاللَّيْلِ مُشْتَمِلٍ بِالْجَمْرِ مُكْتَحِلٍ

لَا يَضْرِبُ الْمَاءَ إِلَّا مِنْ قَلِيبِ دَمٍ

وَلَا يَبِيتُ لَهُ جَارٌ عَلَى وَجَلٍ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: الطَّوِيلُ:

تَعَوَّدَ إِلَّا تَقَضَّمَ الْحَبَّ خَيْلُهُ

إِذَا الْهَامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ الْعَلَائِقِ

وَلَا تَرْدِ الْغُدْرَانَ إِلَّا وَمَاؤُهَا

مِنْ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ هَانِيٍّ: الْكَامِلُ:

مَنْ لَمْ يَرَ الْمَيْدَانَ لَمْ يَرَ مَعْرَكًا

أَشْبَاءَ، وَيَوْمًا بِالْأَسْنَةِ أَكْهَبَا

وَكِتَابًا تُرْدِي غَوَارِبُهَا الْعِدَى

وَفَوَارِسًا تَعْدُو صَوَالِجَهَا الظُّبَا

لَا يَوْرِدُونَ الْمَاءَ سُنْبُكَ سَابِحٍ

أَوْ يَكْتَسِي بِدَمِ الْفَوَارِسِ طُحْلُبَا

قَالَ: وَبَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْعَلَاءِ أَنْ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ عَاتَبَهُ عَلَيْهِ فِي هَنَاتٍ نَالَهَا مِنْهُ فِي مَجْلَسٍ، وَكَانَ كَثِيرَ الْانْقِطَاعِ إِلَيْهِ، فَتَخَلَّفَ عَنْهُ، فَسَاءَ ذَلِكَ عُمَرُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: قَدْ بَلَغَنِي الَّذِي كَانَ مِنْ تَجَنُّبِكَ فِيمَا اسْتَخَفَّكَ بِهِ سَوْءُ

الأدب عن عِلْمِ حَقِيقَةٍ مَني، فَصَرَتْ مُتَرَدِّدًا. من العَمَى في يَلَامِيعِ الشَّبْهَةِ؛ وَلَوْ كَانَ مَعَكَ مِنْ عِلْمِكَ دَاعٍ إِلَى لِقَائِي لَكَشَفْتَ لَكَ مَوْرِدَ الْأَمْرِ وَمَصْدَرَهُ، لَتَرَجَعَ إِلَى الصَّلَةِ، فَتَقَالَ أَوْ تَأْتِي إِلَّا الصَّرِيحَةَ فَتَصْرِمُ؛ وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ: الطَّوِيلُ:

وَمُسْتَعْتَبٌ أَبْدَى عَلَى الظَّنِّ عَتَبُهُ
وَأَخْرَجَ مِنْهُ الْمُحْفَظَاتِ غَلِيلُ
كَشَفْتُ لَهُ عُذْرًا فَأَبْصَرَ وَجْهَهُ
فَعَادَ إِلَى الْإِنْصَافِ وَهُوَ ذَلِيلُ

فَأَجَابَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ: لَمْ أَجْزُ بَعْتِي الْحَقِيقَةَ إِلَى الشَّبْهَةِ، وَلَمْ أَجِدْ سَعَةً مَعَ عَظِيمِ قُدْرَتِكَ إِلَى حَمْلِ اللَّائِمَةِ، فَقَصَّرَ بِي الْخَوْفُ مِنْ سُخْطِكَ، عَلَى تَرْكِ مَعَاتِبَتِكَ، لِأَنَّ الْمَعَاتِبَةَ لَا تَجْنِي إِلَّا مِنَ الْمَسَاوِي، وَلَوْ رَغِبْتَ عَنِ الصَّلَةِ إِلَى الْقَطِيعَةِ لَتَقَاضَيْتَكَ ذَلِكَ عَنْ طَوْلِ الصُّحْبَةِ، وَسَالَفِ الْمَدَّةِ، وَأَنَا أَقُولُ: الطَّوِيلُ:

رَضِيْتُ بِبَعْضِ الذَّلِّ خَوْفَ جَمِيعِهِ
وَلَيْسَ لِمِثْلِي بِالْمُلُوكِ يَدَانِ
وَكُنْتُ أَمْرًا أَخْشَى الْعِقَابَ وَأَتَقِي
مَغَبَةً مَا تَجْنِي يَدِي وَلِسَانِي
فَهَلْ مِنْ شَفِيعٍ مِنْكَ يَضْمَنُ تَوْبَتِي
فَإِنِّي أَمْرٌ أَوْفِي بِكُلِّ ضَمَانٍ؟

فَتَرَا جَعَا إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَا عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا أَلَمَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ... وَمَا يَلِيهِ بِقَوْلِ أَبِي الْحَجَنَاءِ نُصِيبُ الْأَكْبَرِ: الطَّوِيلُ:

فَعَاجُوا فَأَنْتَوُا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
وَلَوْ سَكَنُوا أَتَيْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي أَبِي الْعَشَائِرِ الْحَمْدَانِي: الْمُنْسَرَحُ:

تَنْشُدُ أَثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ
بِالْأُسْنِ مَا لَهْنِ أَفْوَاهُ
إِذَا مَرَرْنَا عَلَى الْأَصْمِ بِهَا
أَغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعِيهِ عَيْنَاهُ

وَهَذَا الْمَعْنَى مِنَ النَّصْبَةِ الدَّالَّةِ بِذَاتِهَا الَّتِي ذَكَرْتُهَا عَنْ الْجَاهِظِ فِي أَقْسَامِ الْبَيَانِ.

سُبْحَانَ الْخَالِقِ الْكَرِيمِ

وَقَالَ بَعْضُ الْخُطَبَاءِ: أَشْهَدُ أَنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ وَدَلَالَاتٍ، وَشَوَاهِدَ قَائِمَاتٍ، كُلُّ يُوْدِي عَنْكَ الْحُجَّةَ، وَيَشْهَدُ لَكَ بِالرَّبُوبِيَّةِ.

وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ، وَرَوَى أَنَّهُ جَلَسَ فِي دُكَّانٍ وَرَاقٍ، وَأَخَذَ كِتَابًا فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِهِ: الْمُتَقَارِبُ:

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْمَلِي
كُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ؟
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ
وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدُ

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

وانصرف، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبيات، فقال: لمن هذا؟ فلوددتها لي بجميع شعري، فقيل: لإسماعيل بن القاسم، فوقع تحتها: المحتث:

سبحان من خلق الخَل

ق من ضعيف مهين

فصاغه من قرار

إلى قرار مكين

يحول شيئاً فشيئاً

في الحجب دون العيون

حتى بدت حركات

مخلوقة من سكون

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي: سل الأرض من غرس أشجارك، وشق أنهارك، وجنى ثمارك، فإن لم تُجبك حوَّاراً، أجابتك اعتباراً.

وهذا شبيهه بقول عدي بن زيد، وقد نزل النعمان بن المنذر تحت سرحه، فقال: أتدري ما تقول هذه السرحة أيها الملك؟ قال: وما تقول؟ قال: تقول: الرمل:

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا

يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحووا لعب الدهر بهم

وكذاك الدهر حالاً بعد حال

ويروى عكف الدهر بهم فتووا. فتكدر حال النعمان وما كان فيه من لذة.

ألفاظ لأهل العصر في الشكر بدلالة الحال

لو سكت الشاكر لنطقت المائثر. لو صمت المخاطب لأنتت الحقايب، ولشهدت شواهد حاله، على صدق مقال. إن جحدت ما أولانيه، كفرت ما أعطانيه، نطقت آثار أيديه علي، ولمعت أعلام عوارفه لدي.

ولأبي الفضل الميكالي من رسالة: ورد فلان فتعاطى من شكره على نعمه التي ألبسه جمالها، وأسحبه أفيالها، ما لو لم يتحدث به ناشراً ومُثنيّاً، ومعيداً ومُبدياً، لأنتت به حاله، وشهدت به رحاله، حتى لقد امتلأت بذكره المحافل، وسارت بحيره الركبان والقوافل، وصارت الألسنة على الشكر والثناء لساناً، والجماعة على النشر والدعاء أنصاراً وأعواناً، على أنه وإن بالغ في هذا الباب، وجاوز حد الإكثار والإسهاب، فهايته القصور دون واجبه، والسقوط عن أدنى درجاته ومراتبه.

ومما يقتزن لهم بهذا المعنى من ذكر الشكر: قال أبو الفتح البستي: الحر نحل الشكر، إن أجتاه المرء من

خيرهُ شُكراً أَجْنَاهُ مِنْ بَرِّهِ شَهْداً.

غيره: الشكر ترجمانُ النِّيةِ، ولسانُ الطَّوَيَّةِ، وشاهدُ الإخلاصِ، وعنوانُ الاختصاصِ. الشكرُ نسيْمُ النِّعمِ، وهو السببُ إلى الزيادةِ، والطريقُ إلى السعادةِ. الشكرُ قَيْدُ النِّعمَةِ، ومفتاحُ المزيدٍ، وثَمَنُ الجَنَةِ. مَنْ شَكَرَ قليلاً، استحقَّ جزيلاً. شُكْرُ المَوْلَى، هو الأولى. الشكرُ قَيْدُ النِّعمِ وشِكالُها، وعِقالُها، وهو شبيه بالوَحْشِ التي لا تقيم مع الإيجاش، ولا تريم مع الإيناس. مَوْقِعُ الشكرِ من النعمة مَوْقِعُ القَرَى من الضيفِ، إنَّ وجده لم يَرمِ، وإن فَقَدَهُ لم يُقيم. الشكرُ غرسٌ إذا أُودِعَ سَمْعُ الكَريمِ أَثْمَرُ الزيادةِ، وحفظُ العادةِ. الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ، والنِّعمِ السَّوابغِ. شُكْرُهُ شُكْرُ الأسيرِ لمن أطلقَه، والمملوكِ لمن أعتَقَه. أَثْنَى عليه ثناء الروضِ المُحمَّلِ، على الغَيْثِ المُسبِّلِ. أَثْنَى عليه ثناء لسان الزهرِ، على راحة المطرِ. أَثْنَى عليه ثناء العطشانِ الواردِ، على الزُّلالِ الباردِ. شُكْرُهُ شكرُ الأرضِ للهِمِّ، وزُهيرُ لَهْرِمِ. بَسَطَ لسانَ الثناء والدعاء، وبلغ عنانَ الشكرِ عَنانَ السماءِ. شُكْرُهُ شُكْرًا ترتاحُ له المكارمُ، وتهتزُّ له المواسمُ. لأشكرَنه شُكْرًا تُشيعُ أنواعُه، وتنبسطُ أبوابُه، ويلدُ ذكره وسماعُه. شُكْرُ مَلَأَ القلبَ واللسانَ، كشكرِ حَسَّانَ لآلِ غَسَّانَ. أَطالَ عِنانَ الشكرِ، وفسحَ مجاله، ورفعَ أعمِدَتَه، ومدَّ أروقتَه. شُكْرُ كَأَنفاسِ الأَحبابِ، أو أنفاسِ الأسحارِ، أو أنفاسِ الرِّياضِ غِبَ القِطارِ.

من أخبار نُصيب وشعره

رجع إلى ما انقطع: كان سببُ قولِ نصيب: الطويل:

فَعَا جُوا فَأَتْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ

أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال سليمان بن عبد الملك: يا فرزدق، مَنْ أشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين، قال: لماذا؟ قال: بقولي: الطويل:

وَرَكْبٌ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ	لَهَا تِرَّةٌ مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ
سَرَوْا وَسَرَّتْ نَكْبَاءٌ وَهِيَ تَلْفَهُمْ	إِلَى شُعْبِ الْأَكْوَارِ ذَاتِ الْحَقَائِبِ
إِذَا آنَسُوا نَارًا يَقُولُونَ: لَيْتَهَا،	وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيَهُمْ نَارُ غَالِبِ

يريد أباه - وهو غالب بن صَعَصَعَةَ بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان ابن مجاشع - فأعرض عنه سليمان كالمغضب؛ لأنه إنما أراد أن يُنشد مدحاً فيه؛ ففهم نُصيب مراده، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قلتُ أبياتاً على هذا الروي ليست بدونها، فقال: هَاتِهَا؛ فَأَنْشَأَ نُصيبُ يقول: الطويل:

أَقُولُ لِرَكْبٍ قَافِلِينَ لَقِيَتْهُمْ	قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبُ
--	---

فقد أخبروني عن سليمان أنني
 فعاجوا فأثنوا بالذي أنتَ أهلهُ
 فقالوا: تركناه وفي كل ليلةٍ
 ولو كان فوقَ الناسِ حيَ فعاله
 لقلنا: له شبهُ، ولكنْ تعذرتْ
 لمعروفه من آل ودان طالبُ
 ولو سكتوا أثنتُ عليكِ الحقائقُ
 يُطيفُ به من طالبي العُرفِ ركبُ
 كفعلك أو للفعل منك يقاربُ
 سواك عن المستشفعين المطالبُ

هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حوَّله
 فقل سليمان: أحسنتَ، والتفتَ إلى الفرزدق فقال: كيف تسمعُ يا أبا فراس؟ قال: هو أشعرُ أهل
 جلدته، قال: وأهل جلدتك؛ فخرج الفرزدق وهو يقول: الوافر:
 وخيرُ الشعرِ أكرمُه رجالاً
 وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ

في باب المدائح

قال أبو العباس محمد بن يزيد: وهذا بابٌ في المدح حسن متجاوز مُبتدع لم يُسبق إليه.
 قول نصيب: من أهل ودان. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ذكر محمد ابن كناسة والزبيدي أن نصيباً
 من أهل ودان، وكان عبداً لرجل من بني كنانة هو وأهل بيته، وزعم أبو هفان أنه عبد لعبد العزيز بن
 مروان، وكان نصيبٌ شديد السواد، وهو القائل: الطويل:
 كُسيْتُ ولم أملكِ سواداً، وتحتَه قَميصٌ من القُوهي بيضٌ بنائِقُه
 فما ضرَّ أثوابي سَوادي، وإنني
 وقال سَحيم عبد بني الحسحاس: البسيط:

أشعارُ عبد بني الحسحاس قُمنَ له
 إن كنتُ عبداً فنفسِي حرَّةٌ كَرَمًا
 وقال أبو الطيب المتنبي لكافور الإخشيدي: الخفيف:
 إنما الجِلْدُ ملبَسٌ وَاَبْيَضُ ال
 عند الفَخار مَقامَ الأَصْل والوَرَقِ
 أو أَسودَ اللَّونِ إني أبيضُ الخُلُقِ
 خلق خَيْرٌ من أبيضاضِ القَباءِ

وقال نصيب لبعض ملوك بني أمية: إن لي بنات نفضت عليهن من سوادِي، فقال: ما أحسن ما تلطّفت
لهن! وأمر له بصلة.

وكان أبو تمام حبيب بن أوس، لما مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التي أولها: الطويل:

لَهَانِ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ وَتَفْضَلَا

وهي من أحسن شعره، وفج له على ظهرها: الطويل:

رَأَيْتُكَ سَمَحَ الْبَيْعَ سَهْلًا، وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَا ضَنَّ بِالشَّيْءِ بِائِعُهُ

فَأَمَّا إِذَا هَانَتْ بَضَائِعُ بَيْعِهِ فَيُوشِكُ أَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ

هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيُفْسِدُ مِنْهُ أَنْ تُبَاحَ مَشَارِعُهُ

فأجابه بقصيدة طويلة، واحتجّ عليه واعتذر إليه في مدحه لغيره؛ فقال في بعض ذلك: البسيط:

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَّنَتْ غُرَّتَهَا فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلْبُ

مَنْعَتْ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ

وَلَوْ عَضَلْتَ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي إِظْهَارِهَا أَرْبُ

كَانَتْ بَنَاتِ نَصِيبٍ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلْ بِهَا الْعَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله: الطويل:

أَبَا جَعْفَرٍ، إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِرًا أُسَامِحُ فِي بَيْعِي لَهُ مِنْ أَبَائِعُهُ

فَقَدْ كُنْتُ قَبْلِي شَاعِرًا تَاجِرًا بِهِ تَسَاهَلُ مِنْ عَادَتِ عَلَيْكَ مَنَافِعُهُ

فَصِرْتُ وَزِيرًا وَالْوَزَارَةُ مَكْرَعُ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ اللَّذَازَةِ كَارِعُهُ

وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا فَعَادَ وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ

وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تَقْلُ مَقَاطِعُهُ

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: ويقال إن هذه الأبيات متحولة لحبيب. وليس مثل أبي جعفر في جلالة
قَدْرِهِ واصطناعه لحبيب يُعَامَلُ بمثل هذا الجواب، ولا يَنْتَهِي جَهْلُ حَبِيبٍ أَنْ يَقَابِلَ مَأْمُولَهُ وَمَنْ يَرْتَجِي
جَلِيلَ الْفَائِدَةِ مِنْهُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ.

وقد قيل: بل قالها، ولم ينشدها أحداً؛ وإنما ظهرت بعد موته.

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً، ومدح الحسن بن سهل في وزارته للمأمون؛ وأعطاه عشرة آلاف
درهم، فقال: البسيط:

لَكِنْ لَتُلْبِسَنِي التَّحْجِيلَ وَالْغُرَا
لَا أَقْرَبُ الْوَرْدَ حَتَّى أَعْرِفَ الصَّدْرَا

لَمْ أُمْتَدِّحْكَ رَجَاءَ الْمَالِ أَطْلُبُهُ
مَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّنِي رَجُلٌ

قال الصولي: وكان السبب الذي أوجد أبا جعفر على أبي تمام حتى قال: لقد رأيتك سهلاً البيع - الأبيات
قول أبي تمام قصيدته المشهورة في ابن أبي دؤاد التي أولها: الوافر:

وَرُؤْيِي حَاضِرٌ مِنْهُ وَبَادٍ
رَأَيْتُ الدَّمْعَ عَنْ خَيْرِ الْعَتَادِ

سَقَى عَهْدَ الْحَمَى سَبْلَ الْعِهَادِ
نَزَحْتُ بِهِ رُكْيَ الدَّمْعِ لَمَّا

يقول فيها في مدحه:

وَأَهْلُ الْهَضْبِ مِنْهَا وَالنَّجَادِ
وَمَنْبِتُ كُلِّ مَكْرَمَةٍ وَآدِ
فَإِنَّهُمْ بَنُو الْمَجْدِ التَّلَادِ
جِلَادٌ تَحْتَ قَسْطَلَةِ الْجِلَادِ
مَعَاقِلُ مِطْرَدٍ وَبَنُو طِرَادِ
تَمَشَّتْ فِي الْوَعَى وَخُلُومُ عَادِ
مَحَاسِنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُؤَادِ
رَضِيْعًا لِلسَّوَارِي وَالْغَوَادِ
هَذَاكَ لِقَبْلَةٍ الْمَعْرُوفِ هَادِ
وَمِنْ جَدِّوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي
وَإِنْ قَلَقْتُ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ

هُمْ عِظَمُ الْأَثَافِي مِنْ نَزَارِ
مُعْرَسُ كُلِّ مَعْضَلَةٍ وَخَطْبِ
إِذَا حَدَّثَ الْقَبَائِلُ سَاجِلُوهُمْ
تُفْرِجُ عَنْهُمْ الْغَمَرَاتِ بَيْضُ
وَحَشَوُ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ مِنْهُمْ
لَهُمْ جَهْلُ السَّبَاعِ إِذَا الْمَنَايَا
لَقَدْ أَنْسَتْ سُلُوكِي كُلَّ دَهْرٍ
مَتَى تَحَلَّلْ بِهِ تَحَلَّلْ جَنَابَا
وَمَا اشْتَبَهَتْ سَبِيلُ الْمَجْدِ إِلَّا
وَمَا سَافَرْتُ فِي الْأَفَاقِ إِلَّا
مَقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي

وهذه النكت التي أحققت أبا جعفر، وأعتبته على أبي تمام، وفي هذه القصيدة يقول معتذراً إليه في الذي
قُرفَ به عنده من هجاء مضر:

عَقَارِبُهُ بِدَاهِيَةٍ نَادٍ
يُجَرِّبُهُ عَلَى شَوْكِ الْقِتَادِ
إِلَيْكَ شَكَيْتِي خَبَبَ الْجَوَادِ
وَلَا نَادَى الْأَذَى مِنِّي بِنَادِ

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي
نَثًّا خَبَرًا كَأَنَّ الْقَلْبَ مِنْهُ
بَأْنِي نَلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبْتُ
وَمَا رَبَعَ الْقَطِيعَةَ لِي بِرَبْعِ

وَقَلْبِي رَائِحٌ بِرِضَاكَ غَادٍ؟
لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفُؤَادِ
وَمَادُومَ الْمَعَانِي بِالسَّدَادِ

وَأَيْنَ يَجُوزُ عَنْ قَصْدِ لِسَانِي
وَمِمَّا كَانَتْ الْحُكَمَاءُ قَالَتْ:
وَقَدْ مَا كُنْتُ مَعْسُولَ الْقَوَافِي

ابن أبي دُوَادٍ

وكان ابن أبي دُوَادٍ غالباً في التعصُّب لإياد وإلحاقها بترار، على مذهب نُسَابِ العَدَنَانِيِّين. قال: وكل من بالعراق من إياد دخلوا في النَّخَع، وإليهم يُنْسَبُونَ؛ وَمَنْ كَانَ بِالشَّامِ فَهَمَّ عَلَى نَسْبِهِمْ فِي نَزَارٍ، وَابْنُ أَبِي دُوَادٍ يَرْمِي بِالْدَعْوَةِ؛ وَالتَّكْثِيرُ مِنْ أَخْبَارِهِ يُخْرِجُ إِلَى مَا أَخَافَهُ مِنْ تَطْوِيلِ التَّصْرِيفِ، فِي مَمْلُولِ التَّكْلُفِ. وكان ابن أبي داود عالماً بضروب العلم والأدب، متصرفاً في صناعة الجِدَالِ، على مذهب أهل الاعتزال، وكانت العداوة بينه وبين ابن الزيات بينة، والنفاسة في الرياسة بينهما متمكنة، وقال له بعض الشعراء: الوافر:

فَكَلَّ أَبِي ذُوَيْبٍ مِنْ هُذَيْلٍ

أَكَلَ أَبِي دُوَادٍ مِنْ إِيَادٍ

قال مسلم: ما تاه إلا وضيع، ولا فاجر إلا سقيط، ولا تعصب إلا دَخِيل. وقال مدني لرجل: ممن أنت؟ فقال: من قريش، والحمد لله، قال: بأبي أنت! التحميد هاهنا ريبة! واسم أبي دُوَادٍ دُعْمِي، قال أبو اليقظان: وهم من قبيلة يقال لها بنو زهرة أخوة بني جَدَانٍ، وقد ذكره الطائي في قوله: الكامل:

وَالرَّكْنُ مِنْ شَيْبَانَ طَوْدُ حَدِيدٍ

وَالْغَيْثُ مِنْ زَهْرٍ سَحَابَةٌ رَأْفَةٌ

ذكر شيبان؛ لأنَّ خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ الشَّيْبَانِي شَفَعَ لَهُ عِنْدَ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ فِيمَا يَنْسَاقُ الْحَدِيثُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِ.

قال محمود الوراق: كُنْتُ جَالِسًا بِطَرَفِ الْجِسْرِ مَعَ أَصْحَابِ لِي، فَمَرَّ بِنَا أَبُو تَمَامٍ، فَجَلَسَ إِلَيْنَا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مَنَّا: يَا أَبَا تَمَامٍ، أَيُّ رَجُلٍ أَنْتَ لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْيَمَنِ؟ قَالَ: مَا أَحَبُّ أُنِي بَغِيرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِي، فَمَنْ تَحِبُّ أَنْ أَكُونَ؟ قَالَ: مِنْ مُضَرَ، قَالَ: إِنَّمَا شَرَفْتُ مُضَرَ بِالنَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا قَيْسُوا بَعْلُوكُنَا وَأَذَوَانَنَا، وَفِينَا كَذَا، وَمَنَا كَذَا - يَفْخَرُ؛ وَذَكَرَ أَشْيَاءَ عَابَ بِهَا مُضَرَ، وَنَمِي الْخَيْرُ إِلَى ابْنِ أَبِي دُوَادٍ وَزَيْدٍ فِيهِ، فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ، فَقَالَ يَعْتَزِرُ إِلَيْهِ بِقَصِيدَةٍ أَوْهَا: الْخَفِيفُ:

فِي طُلُوعِ الْإِتْهَامِ وَالْإِنْجَادِ

سَعِدَتْ غُرْبَةُ النَّوَى بِسَعَادِ

يقول فيها:

بعد أن أصَلَّتْ الوُشَاةُ سَيُوفاً قَطَعَتْ فِي وَهْيٍ غَيْرِ حَدَادِ
فَنَفَى عَنْكَ زُخْرَفَ الْقَوْلِ سَمْعُ لم يكن فرضه لغير السدادِ
ضَرْبَ الْحِلْمِ وَالْوَقَارُ عَلَيْهِ دونَ عَوْرِ الكَلَامِ بِالْأَسْدَادِ
مَلَأْتُكَ الْأَحْسَابُ أَيَّ حَيَاةٍ وحيَا أَرْزَمَةَ وَحْيَةٍ وَادِ
عَاتِقٌ مُعْتَقٌ مِنَ الرِّقِّ إِلَّا من مَقَاسَاةٍ مَغْرَمٍ أَوْ نَجَادِ
لِلْحَمَالَاتِ وَالْحَمَائِلِ فِيهِ كُلُّ حُوبِ الْمَوَارِدِ الْأَعْدَادِ

فما رَضِيَ عنه حتى تشفع إليه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، فقال في قصيدة: الكامل:

أَسْرَى طَرِيداً لِلْحَيَاءِ مِنَ الَّتِي زَعَمُوا، وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ بِطَرِيدِ
كَنْتُ الرَّبِيعَ، أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ قَمَرُ الْقَبَائِلِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدِ
وَعْدًا تَبَيَّنَ مَا بَرَاءةٍ سَاحَتِي لو قَدْ نَفَضْتَ تَهَانِمِي وَنَجُودِي
للهِ دَرْكُ أَيُّ بَابٍ مُلِمَةٍ لم يُرَمَ فِيهِ إِلَيْكَ بِالْإِقْلِيدِ
لَمَا أَظْلَلْتَنِي غَمَامُكَ أَصْبَحَتْ تلكَ الشُّهُودُ عَلَيَّ وَهِيَ شُهُودِي
من بعد ما ظَنُّوا بَأَنِّ سَيَكُونُ لِي يَوْمٌ بَزَعَمَهُمْ كَيَوْمِ عَبِيدِ

يريد عبيد بن الأبرص الأسدي، وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بُؤْسِه فقتله.

وكان ابن أبي ذؤاد كريماً فصيحاً جَزْلاً. قال أبو العيْناء: كنا عند ابن أبي ذؤاد ومعنا محمود الوراق وجماعة من أهل الأدب والعلم؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال: إن الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضي السلام، ويقول: القاضي يَتَعَنَّى وَيَجِيءُ فِي الْأَوْقَاتِ؛ وقد تفاقم الأمرُ بينه وبين كاتب أمير المؤمنين، يريد ابن الزيات، فصار يضربنا عند قَصْدِهِ القاضي، وما أَحَبُّ أَنْ يَتَعَنَّى إِلَيَّ لِهَذَا السَّبَبِ؛ إذ كنت لا أصل إلى مكافأته. فقال: أجيبوه عن رسالته، فلم ندر ما نقول، ونظر بعضنا إلى بعض فقال: أما عندكم جواب؟ قلنا: القاضي - أعزّه الله، أعلمُ بجوابه منّا، فقال للرسول: اقرأ عليه السلام، وقلْ له: ما أتيتك متكثرًا بك من قلة، ولا متعززا بك من ذلة، ولا طالباً منك رُتْبة، ولا شاكياً إليك كُرتبة، ولكنك رجلٌ ساعدك زَمَانٌ، وحركك سلطان، ولا علم يُؤلف، ولا أصل يُعرَف؛ فإن جئتكَ فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك! فَعَجَبْنَا مِنْ جَوَابِهِ.

خالد بن عبد الله القسري

صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر يوم الجمعة، فخطب وهو إذ ذاك أميراً على مكة، فذكر الحجاج فأحمد طاعته، وأثنى عليه خيراً، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه، وإظهار البراءة منه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له بذلك فضلاً، وكان الله تعالى قد علم من غشّه ما خفي عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم فلعنوه؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له بذلك فضلاً، وكان الله عز وجل، أطلع أمير المؤمنين من غلّه وخبثه على ما خفي عنا، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فآلَعْنُوهُ، لعنه الله. ثم نزل.

أبو تمام والأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركي، واسمه خيزر بن كاوس، وكان من أجل قواد المعتصم، وأبلى في أمر بابك الخرمي بلاءً حمده له؛ فلما سخط المعتصم عليه لما تُسب إليه من سوء السيرة، وقُبِح السريرة، وأنه يُخطب درجة بابك، ويريد التحصن بموضع يخلع فيه يده عن الطاعة، وأظهر القاضي أحمد بن أبي دُواد عليه أنه على غير الإسلام، قال أبو تمام معتذراً للمعتصم من تقديمه واجتباؤه، ولنفسه من مدحه وإطرائه: الكامل:

ما كان لولا فحشُ غدره حيدر	ليكونَ في الإسلامَ عامُ فجَارِ
هذا الرسول وكان صفوة ربّه	من خيرِ بادٍ في الأنام وقارِ
قد خص من أهل النفاق عصابةً	وهم أشدُّ أذى من الكفارِ
واختار من سعدٍ لعين بني أبي	سرحَ لعمر الله غيرَ خيارِ
حتى استضاءَ بشعلةِ السورِ التي	رفعت له سترًا من الأستارِ

ثم ذكر في هذه القصيدة أنّ قتل الأفشين لبابك لم يكن بصدق بصيرة، ولا لصحة سريرة، فقال:

والهاشمون المستقلة طعنهم	عن كربلاءَ بأثقل الأوزارِ
فشفاهم المختارُ منه ولم يكن	في دينه المختارُ بالمختارِ

أهل النفاق

أما من ذُكر من أهل النفاق، فقد كانوا يظهرون غَيْرَ ما يُسرُّون، حتى أطلع الله نبيّه عليه السلام على أخبارهم، ونَشَرَ له مَطْوِي أسرارهم.

وأما ابنُ أبي سَرَح فهو عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرَح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك بن حِسل بن عامر بن لؤي، أسلم قبل الفَتْح، واستكتبه النبيّ عليه السلام؛ فكان يكتبُ موضعَ الغفورِ الرحيمِ العزيزِ الحكيمِ، وأشبه ذلك؛ فأطلعَ الله عليه النبيّ عليه السلام، فهرب إلى مكة مرتدًّا؛ وأنزل فيه: "وَمَنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ". فأهدرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يومَ الفتح دَمَهُ، فهرب من مكة، فاستأمن له عثمانُ رضي الله عنه؛ فأمنه رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، وهو أخو عثمان من الرضاة، وأسلم فحسُنَ إسلامه، ووَلَّى مصر سنة أربع وعشرين، فأقام عليها إلى أن حُصِرَ عثمان، ومات بقيسارية الشام، ولم يدخل في شيء من الفتن الحجازية في ذلك الوقت.

وأما المختارُ الذي ذكره فهو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير ابن عوف بن عَفْدة بن عروة بن عَوْف بن قَسِي وهو ثقيف؛ وكانت لأبيه في الإسلام آثارٌ جميلة، وأختُ المختار صفية بنت أبي عبيد زوج ابن عمر، والمختار هو كذاب ثقيف الذي جاء فيه الحديث، وكان يزعم أنه يُوحى إليه في قَتْلَةِ الحسين؛ فقتلهم بكل موضع، وقتل عبيد الله بن زياد، وله أسجاع يصنعها، وألفاظ يبتدعها، ويزعم أنها تنزل عليه، وتُوحى إليه.

وقيل للأحنف بن قيس: إنَّ المختارَ يزعم أنه يُوحى إليه! فقال: صدق، وتلا: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ". وأخباره كثيرة ليس هذا موضعها.

لما هُزم أمية بن خالد بن أُسَيْدٍ لم يَدْرِ الناس كيف يقولون له، فدخل عبدُ الله بن الأَهمم عليه، فقال: الحمد لله الذي نظر لنا أيها الأمير عليك، ولم ينظرْ لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة بجَهْدِكَ، إلا أن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلان مَنْ معك. فصدر الناسُ عن كلامه.

ويتعلّق بهذه المقامة

فصل في غرائب التكتاب

كتب حمدون بن نَهْران إلى عامل عَزَل عن عَمَلِهِ: بلغني، أعزّك الله، أنصرفك عن عملك، ورجوعك إلى منزلك؛ فسُررت بذلك، ولم أستفْظِعْهُ وأجزع له؛ لعلمي بأنَّ قدرك أجلُّ وأعلى من أن يرفعك عملٌ تتولاه، أو يضعك عزْلٌ عنه؛ والله لو لم تحتر الانصراف وتُرد الاعترالَ لكان في لُطفٍ تدبيرك، وثقوب رويتك، وحسن تأتيك، ما تُزِيل به السببَ الداعي إلى عزْلِكَ، والباعثَ على صرْفِكَ؛ ونحن إلى أن نهنئك

هذه الحال أولى بنا من أن نعزيك؛ إذ أردت الانصراف فأوتيته، وأحببت الاعتزال فأعطيته، فبارك الله لك في مُنْقَلَبِكَ، وهنَّاك النعم بدوامها، ورزقك الشُّكْرَ الموجِب لها الزائد فيها.

وكتب ابن مكرم إلى نصراني أسلم:

أما بعد، فالحمدُ لله الذي وفقك لشكره، وعرفك هدايته، وطهر من الارتياب قلبك، وما زالت مَخَايِلُكَ مثلةً لنا حقيقةً ما وهب الله فيك، حتى كأنك لم تنزل بالإسلام مَوْسُوماً، وإن كنت على غيره مُقِيماً، وكنا مؤمِلين لما صرَّتْ إليه، مُشْفِقِينَ مما كنتَ عليه، حتى إذا كاد إشفاقنا أن يَسْتَعْلِي رجاءنا أتت السعادة بما لم تَزَلْ الأنفُسُ تعدُّ منك؛ فأسأل الله الذي أضاع لك سبيلَ رُشدِكَ أن يوفِّقَكَ لصالح العمل، وأن يؤتِكَ في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وَيَقِيكَ عذابَ النار.

قال بعضُ الكتاب: من الحق ما يُسْتَحْسَن تَرْكُهُ، ويستُهْجَنُ عمله، وقد يقع من ذلك فيما يحلُّه الشرع، ويكرهه الأدباء؛ وكثير ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموً نفس، وعلوً همة، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته، ويولِّي أمرها غير نفسه، ورأينا من يُجَاوِزُ ذلك إلى ألا يُنكِحَ مستنكحاً، وزاد به العلوُّ إلى تَرْكِ ما ذكره أولى، وكنا عرفنا حال إنسان تزوجت أمه، فعظمَ لذلك همُّه، وانفرد عن أودائه، وتوارى عن أصفياه؛ حياءً من لقائهم، وكُرْهاً لتهنئتهم له أو عزائهم، واضطرته الوحشة إلى قَصْدٍ من ظنٍّ به منهم المسكَّة في تحامي خطابه فيما اجتنب لأجله خُلانته، وفارق بسببه إخوانه، وتخيَّل ذلك المقصود أنه إنما لجأ إليه ليسلِّيه؛ فأفاض معه فيما قدَّر أنه قصد له من المعنى الذي جعله وحيداً خوف المفاوضة.

ثم مضت الأيام واختلف الحال، ورجع إلى العشرة وأبناء المودة؛ فكان عنده من لم يخاطبه أحطى، وفي نفسه أوفى، وعلى قلبه أخفّ، وفي نفسه أشفت، ونَقَمَ على ذلك الصديق وعَتَبَ؛ إذ لكل من الناس - إلا من طاب مَحْتَدُهُ وطال سؤدده - حالٌ من الإلف والرغبة تحسن المساوي، ثم حال من الملل والزهادة تقبح المحاسن؛ واعتذر المتكلِّف من التسلية بما لم يلزمه، ولم يُرِدْهُ صفيه، فإنه فعل ما أوجبه الأخوة، وحقوق الخلطة، وأسبابُ العشرة، وانبساط المفاوضة؛ ودبَّت عقارب الظنون والوشاية، إلى أن خرجا بالملاحة إلى المعادة؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاودة الحسن، ومراجعة الأولى؛ جاهر هذا الماقتُ بفرع سِنِ الأسفِ على تخيل النهي والوقار من الممقوت، وظاهر الممقوت بتقريع الماقت، بتزويج أمه، الذي تجشَّم من كلامه فيه فضلاً، وتكلَّف من خطابه عليه ما من حسرة خلا؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأوتار، وطلب الثأر.

فإن اضطر إلى القول في هذا المعنى أحدٌ بأمر قاهر من السلطان، أو حوادث الأزمان، أو تطارح الإخوان، فليقل وليكتب ما مثلاً إن لم يجد عنه بداً: أنت - بفضلِ الله عليك وإحسان تبصيره إياك - حق أهل الدين، وخلوص اليقين، فكما لا تتبع الشهوة في محظور تبويحه، فكذا لا تتبع الأنفة في مباح تحظره؛ وقد

اتَّصَلَ بنا ما اختاره اللَّهُ والقضاء لذات الحق عليك، المنسوبة - بعد نسبك إليها - إليك، ممَّا كرهه إباؤك الدنيوي لك ولها، ورَضِيَهُ الحلالُ الديني له ولها، فنحن نعزيك عن فائت محبوبك، ونهنتك في الخيرة في اختيارِ القَدَرِ لك، ونسألُ الله أن يجعلها أبداً معك فيما رضيت وكرهت، وأُيتت. فهذا، ونحوه أصوبُ وأسلم، إن اضطررت إليه، وتركه أحسن وأحزم، إن ملكت رأيك فيه؛ والتلطف للكتابة عما يُستهجن ولا يستحسن التواجه به من أحسن الأشياء وأسدها.

وكتب أبو الفضل بن العميد في بابه: الحمد لله الذي كشف عنا سِتْرَ الحَيِّرة، وهدانا لِسِتْرِ العَوْرَةِ، وجَدَعَ بما شرع من الحلال أنفَ الغَيْرَةِ، ومنَعَ من عَضْلِ الأمهات، كما منع من وأدِ البنات، استِترالاً للنفوس الأبيَّة، عن حَمِيَّةِ الجاهلية. ثم عرَّض للجزيل من الأحر من استسلم لمواقع قضائه؛ وعوض جزيل الثواب لمن صبر على نازلٍ بلائه؛ وهناك الله، الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيته، ووفَّقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومن عظم حقه عليك؛ وجعل الله تعالى حدَّه ما تجرَّعته من أنفٍ، وكظمتَه من أسفٍ، معدوداً يعظم الله عليه أجرك، ويجزل به ذُخْرَكَ؛ وقرَنَ بالحاضر من امتعاضك لفعلها المنتظر من ارتماضك لدَفْنِها، وعوضك من أسِرَةِ فرشها أعواد نَعَشِها؛ وجعل ما يُنعمُ به عليك من بعدها من نعمة مُعرَّى من نعمة، وما يوليكَ بعد قَبْضِها من منحة مبرراً من محنة.

ألفاظ لأهل العصر في التهاني بالبنات

هنا الله سيدي ورَدَ الكريمة عليه، وثمر بها أعداد النسل الطيب لديه؛ وجعلها مُؤدَّةً بأخوة بررة، يعمرون أندية الفضل، ويعبرون بقيَّة الدَّهر. اتصل بي خبر المولودة، كرم الله غُرَّتَها وأنبتَها نباتاً حسناً، وما كان من تَعْيِيرِكَ بعد اتِّضاحِ الخبر، وإنكارك ما اختاره الله لك في سابقِ القَدَرِ، وقد علمتَ أنهن أقربُ من القلوب، وأنَّ الله تعالى بدأ بهن في الترتيب، فقال جلي من قائل: "يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ". وما سَمَاهُ هبة فهو بالشكر أولى، ومُجَسِّنُ التقبل أحرى. أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأُمُّ الأبناء، وجالبة الأَصْهار، وأولاد الأطهار، والمبشرة بأخوة يتناسقون، ونُجَبَاء يتلاحقون: الوافر:

لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وَلَا التَّنْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ

فَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَثَلِ هَذِي

فَمَا التَّائِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ

والله يعرفك البركة في مَطْلَعِها، والسعادة في موقعها، فأدرع اغتباطاً، واستأنف نشاطاً. الدنيا مؤنثة، والرجال يخدمونها. والنار مؤنثة، والذكور يعبدونها. والأرض مؤنثة، ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية. والسماء مؤنثة، وقد حُلّيت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب. والنفس مؤنثة، وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياة مؤنثة، ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عُرف الأنام. والجنة مؤنثة، وبها وعِد المتقون، وفيها ينعم المرسلون؛ فهناك الله ما أوليت، وأوزعك شكر ما أُعطيت، وأطال الله بقاءك ما عُرف النسل والولد، وما بقي العصر والأبد؛ إنه فعّال لما يشاء.

مدح النساء

والتصرف في النساء ضيق النطاق، شديد الحناق، وأكثر ما يمدح به الرجال ذمّهن، ووصمّ عليهن، قال ابن الرومي: البسيط:

ما للحسان مسيئات بنا، ولنا
إلى المسيئات طول الدهر تحنان
فإن يبحن بعهد قلن: معذرة
إنا نسينا، وفي النسوان نسيان
لا نلزم الذكر، إنا لم نسّم به
ولا منحناه، بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم
جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن منهم وفاء لا نقوم له
وهل يكون مع النقصان رجحان؟

وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

بنفسي الخيال الزائري بعد هجعة
وقولته لي: بعدنا الغمض تطعم
سلام فلول البخل والخوف عنده
لقلنا أبو حفص علينا المسلم

ألا ترى أن الجود، والوفاء بالعهود، والشجاعة والفطن، وما جرى في هذا السنن، من فضائل الرجال، لو مدح النساء به لكان نقصاً عليهن، وذمّاً لهن؟ ولمدح النساء أبواب تفرقت في الكتاب: أنشد رجل زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور: مجزوء الكامل:

أزبيدة ابنة جعفر
طوبى لرائك المثاب

تُعطين من رجلك ما
تُعطي الأكف من الرغاب

فوئب إليه الخدم يضربونه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيراً وأخطأ، وهو أحب إلينا ممن أراد شراً فأصاب، سمّ قولهم شمالك أُنْدَى من يمين غيرك ففته أنه إذا قال هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه

ما جهل.

وقال كثير: الطويل:

ولمّا قضينا من منى كل حاجة
وشدّت على حذب المطايا رحالنا
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
نقّنا قلوباً بالأحاديث واشتقت
ولم نخش ريب الدهر في كلّ حالة
ومسح بالأركان من هو مسح
ولا يعلم الغادي الذي هو رائح
وسالت بأعناق المطي الأباطح
بذاك صدور منضجات قرائح
ولا راعنا منه سنيح وبارح

وقال: الطويل:

تفرّق ألف الحبيج على منى
فريقان منهم سالك بطن نخلة
فلم أر داراً مثلها دار غبطة
أقلّ مقيماً راضياً بمكانه
فأصبح لا تلقى خباء عهدته
فشاقوك لما وجّهوا كل وجهة
وشتتهم شحط النوى مشي أربع
وآخر منهم جازع ظهر تضرع
ولهو إذا التف الحبيج بمجمع
وأكثر جاراً طاعناً لم يؤدع
بمضربه أوتاده لم تنزع
فبانوا وخلوا عن منازل بلقع

ودخل كثير على عزة يوماً، فقالت: ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس، فقال: ولم ذلك؟ قالت: لأي رأيت الأحوص ألين جانباً عند الغواني منك في شعره، وأضرع خدّاً للنساء، وأنه الذي يقول: البسيط:

يا أيها اللاتمي فيها لأصرمها
أكثر فلسن مطاعاً إذ وشيت بها
أكثرت لو كان يُغني عنك إكثار
لا القلب سأل ولا في حبها عار

ويعجبي قوله: الطويل:

أدور ولو لا أن أرى أم جعفر
وما كنت زوّاراً، ولكن ذا الهوى
لقد منعت معروفها أم جعفر
بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدور
إذا لم يُزر لا بد أن سيزور
وإني إلى معروفها لفقر

ويعجبي قوله: البسيط:

كم من دني لها قد كنت أتبعه
لا أستطيع نزوعاً عن محبتها
ولو صحا القلب عنها كان لي تبعا
أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا

أَدْعُو إِلَى هَجْرِهَا قَلْبِي فَيَتْبَعَنِي
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحَبِّ أَنْ مَنَعْتُ،
حَتَّى إِذَا قُلْتُ هَذَا صَادِقٌ نَزَعَا
أَشْهَى إِلَى الْمَرْءِ مِنْ دُنْيَاهُ مَا مُنَعَا

وقوله: الطويل:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهُوَى
وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَدُّ وَتَشْتَهِي
وَإِنِّي لِأَهْوَاهَا وَأَهْوَى لِقَاءِهَا
عِلَاقَةُ حَبٍّ لِحَجٍّ فِي سِنَنِ الصَّبَا
فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلَمَدَا
وَإِنْ لَمْ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَدَا
كَمَا يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرَابَ الْمَبْرَدَا
فَأَبْلَى، وَمَا يَزِدَادُ إِلَّا تَجَدُّدَا

هذان البيتان ألحقهما العُتبي وغيره بشعر الأَحوص، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأعرابي، فقال كثير: قد والله أجادَ فما استقبحت من قولي؟ قالت: قولك: الطويل:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَجْلَلَنَ مَجْلِسِي
يُحَازِرُنْ مِنِّي غَيْرَةً قَدْ عَرَفْنَهَا
تَرَاهُنَّ إِلَّا أَنْ يَخَالِسْنَ نَظْرَةً
كَوَاطِمَ لَا يَنْطِقْنَ إِلَّا مَحْوَرَةً
وَأُظْهِرَنَ مِنِّي هَيْبَةً لَا تَجْهُمَا
قَدِيمًا، فَلَا يَضْحَكُنَّ إِلَّا تَبْسُمَا
بِمُؤَخَّرِ عَيْنٍ أَوْ يَقْلِبْنَ مِعْصَمَا
رَجَبِيَّةَ قَوْلٍ بَعْدَ أَنْ يَتَقَفُمَا
وَكُنْ إِذَا مَا قُلْنَ شَيْئًا يَسْرُهُ
أَسْرَ الرِّضَا فِي نَفْسِهِ وَتَحَرَّمَا

وقولك: الطويل:

وَدِدْتُ وَبَيَّتُ اللَّهَ أَنْكَ بَكْرَةٌ
هَجَانٌ، وَأَنِّي مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ

كَأَلَا نَا بِهِ عُرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ
نَكُونُ لَدَيْ مَالٍ كَثِيرٍ مَغْفَلْ
عَلَيْنَا فَمَا نَنفَكُ نُؤْذَى وَنُضْرَبُ
إِذَا مَا وَرَدْنَا مِنْهَا صَاحَ أَهْلُهُ

وَيَحْكُ! لقد أردت بي الشقاء، أفما وجدت أمانة أوطأ من هذه؟ فخرج خجلاً.

وقد تمنى. يمثل هذه الأمانة الفرزدق. وأغرب من هذا قول أبي صخر الهذلي: الطويل:

تَمَنَيْتُ مِنْ حُبِّي عُلْيَةَ أَنَّنَا
عَلَى دَائِمٍ لَا يَعْبُرُ الْفَلَكَ مَوْجَهُ
عَلَى رَمَتْ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ لَنَا وَفَرُ
وَمِنْ دُونِنَا الْأَهْوَالُ وَاللُّجَجُ الْخُضْرُ
فَنَقْضِي هَمَّ النَفْسِ فِي غَيْرِ رِقْبَةٍ
وَيُغْرِقُ مَنْ نَخْشَى نَمِيمَتَهُ الْبَحْرُ

وقيل: الأمل رفيق مؤنس؛ إن لم يُبلغك فقد أهلك.

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وأكثرُ أفعال الليالي إساءةً وأكثرُ ما تلقَى الأمانى كَوادِباً

وقال آخر: الطويل:

مُنَى إن تَكُنْ حقّاً تَكُنْ أحسنَ المُنَى وإلا فقد عشنا بها زمناً رَغداً

أمانى من لَيْلَى حَسَنٌ كأنما سقتني بها لَيْلَى على ظمأٍ بَرْداً

وقال آخر: الطويل:

رَفَعْتُ عن الدنيا المُنَى غيرَ حبِّها فلا أسأل الدنيا ولا أستزِيدُها

وقيل لأعرابي: ما أمتع لذات الدنيا؟ فقال: ممازحة الحب، ومحادثه الصديق، وأمانى تقطع بها أيامك،

وأنشد: مجزوء الخفيف:

علّيني بموعدٍ وامطلي ما حَبِيتَ بهِ

ودعيني أفوزُ من لك بنجوى تطلُّبهِ

فحسى يعثر الزمّاً ن بخطي فينتبهِ

كثير عزة

وكان كثير بن عبد الرحمن بن أبي جُمعة الخزاعي - ويعرف بعزة، على حدة خاطره، وجودة شعره - أحقق الناس.

دخل عليه نفرٌ من قريش وهو عليل يهزأون به، قال بعضهم: فقلت له: كيف تجدك؟ قال: بخير، هل سمعتم الناس يقولون شيئاً. فقلت: نعم، سمعتمهم يقولون: إنك الدجال. فقال: والله لئن قلت ذلك إني لأجد في عيني اليمنى ضعفاً منذ أيام.

وكان رافضياً يدين بالرجعة، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية، والروافض يزعمون أنه دخل في شعب باليمن في أربعين من أصحابه، ولا بد من ظهوره، وفي ذلك يقول: الوافر:

ألا إن الأئمة من قريش ولأه الحق أربعة سَوَاءُ

علي والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط لئس بهم خفاءُ

فسبَّط سبَّط إيمانٍ وبر وسبَّط غيبته كربلاءُ

وَسَبِطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى

يُقَوِّدَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءَ

تَغَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا

بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ

وكان خلفاء بني أمية يعلمون ذلك منه، ويلبسونه عليه.

دخل يوماً على عبد الملك بن مروان فقال: نشدتك بحق علي بن أبي طالب، هل رأيت أعشق منك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو سألتني بحقك لأخبرتك، نعم، بينما أنا أسيرُ في بعض الفلوات إذا أنا برجل قد نَصَبَ حَبَائِلَهُ، فقلت له: ما أَجَلَسَكَ هاهنا؟ قال: أهلكني وأهلي الجوع، فنصبت حَبَائِلِي لأصِيبَ لهم ولنفسي ما يكفيني سحابة يَوْمًا، قلت: أَرَأَيْتَ إِنْ أَقَمْتُ مَعَكَ فَأَصَبْنَا صَيْدًا، أَتَجْعَلُ لِي مِنْهُ جِزَاءً؟ قال: نعم، فبينما نحن كذلك إِذْ وَقَعَتْ طَبِيبَةٌ، فخرجنا مُبْتَدِرِينَ، فَاسْرِعْ إِلَيْهَا فَحَلِّهَا وَأَطْلِقْهَا؛ فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: دخلتني لها رَقَّةٌ لَشَبَّهَهَا بِلَيْلَى، وَأَنْشَأُ يَقُولُ: الطويل:

أَيَا شَبَّهَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي فَإِنِّي

لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصْدِيقُ

أَقُولُ وَقَدْ أَطْلَقْتُهَا مِنْ وَثَاقِهَا أَنْتَ لِلَّيْلِ مَا حَيَّيْتَ طَلِيقُ

وروى الكلبي وابن دَاب أنه لما حَلَّهَا قال: الخفيف:

أَذْهَبِي فِي كِلَاءَةِ الرَّحْمَنِ

أَنْتِ مِنِّي فِي ذِمَّةٍ وَأَمَانٍ

لَا تَخَافِي بَأْنَ تَهَاجِي بِسَوْءٍ

مَا تَغْنَى الْحَمَامُ فِي الْأَغْصَانِ

ترهيبني والجيدُ منك لِلَّيْلِ

وَالْحَشَا وَالْبُغَامُ وَالْعَيْنَانِ؟

وقال قيس بن الملوِّح: الكامل:

رَاحُوا يَصِيدُونَ الظُّبَاءَ وَإِنِّي

لَأَرَى تَصِيدُهَا عَلَيَّ حَرَامًا

أَشْبَهْنَ مِنْكَ مُحَاجِرًا وَسَوَافَاً

فَأَرَى عَلَيَّ لَهَا بِذَاكَ ذِمَامًا

أَعَزُّ عَلَيَّ بَأْنَ أُرُوعُ شَبِيبَهَا

أَوْ أَنْ يَذُقَنَّ عَلَيَّ يَدَيَّ حِمَامًا

ومن جيد شعر كثير: الطويل:

وَكَاثَتْ لِقَطْعِ الْحَبْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

كَنَا ذَرَّةً نَذَرًا فَأَوْقَتَ وَحَلَّتْ

فَقُلْتُ لَهَا: يَا عَزُّ، كُلْ مُصِيبَةً

إِذَا وَطُنْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

وَلَمْ يَلْقَ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ مِيعَةً

تَعْمُ وَلَا غَمَاءَ إِلَّا تَجَلَّتْ

أَبَاحَتْ حِمَى لَمْ يَرَعْهُ النَّاسُ قَبْلَهَا

وَحَلَّتْ تَلَاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حَلَّتْ

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامر
أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة
ووالله ما قاربْتُ إلا تباعدتُ
وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
وإني وتهيامي بعزّة بعدما
لكالمرتجي ظلّ الغمامة، كلما

وكان كثير قصيراً دميماً، ولذلك قال: الطويل:

فإنّك معروق العظام فإنني
إذا ما وزنتُ القوم بالقوم وازنُ

ودخل كثير على عبد الملك بن مروان في أول خلافته، فقال: أنت كثير؟ فقال: نعم، فاقتحمه، وقال: تسمع بالمعيدي لا أن تراه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، كلّ إنسان عند محله رحبُ الفناء، شامخُ البناء، عالي السناء، وأنشد يقول: الوافر:

ترى الرجل النحيف فتزدرّيه
ويُعجبك الطيرُ إذا تراه
بُغاتُ الطير أطولها رقاباً
خشاشُ الطير أكثرها فراخاً
ضعافُ الأسد أكثرها زئيراً
وقد عظم البعيرُ بغير لب
يُنوّخ ثم يُضربُ بالهراوى
يقوّده الصبي بكل أرضٍ
فما عظم الرجال لهم بزئير

فقال: قاتله الله! ما أطول لسانه، وأمدّ عنانه، وأوسع جنانه؛ إني لأحسبه كما وصف نفسه.

في الطول والقصر

وأنشد أحمد بن عبيد الله الشاعر قديم: الطويل:

وعاذلة هبتٌ لبيل تلومني

تقول: انتدٌ لا يدعك الناس مُمَلِّقاً

فقلتُ: أبْتَ نفس عليّ كريمةٌ

ألم تعلمي يا عمركِ الله أنني

وأني لا أخزى إذا قيل مُمَلِّق

فلا تتبَّعي النفس الغويةَ وانظري

ولا تذهبن عيناك في كل شرمحٍ

عسى أن تمنى عرسه أنني لها

ولم يغتمرني قبلَ ذاك عذولٌ

وتُزري بمن يا ابنَ الكرام تقولُ؟

وطارق ليل عند ذاك يقولُ

كريمٌ على حين الكرام قليلُ

سَخِي، وأخزى أن يُقالَ بخيلُ

إلى عُصْرِ الأحساب كيف يؤولُ

له قَصَبٌ جوفُ العظام أسيلُ

به، حين يشتدُّ الزمانُ، بديلُ

إذا كنتُ في القوم الطوال فطلُّتهمُ

ولا خيرَ في حُسْنِ الجسوم وطولها

فكائنُ رأينا من فروع طويلة

فإلا يكنُ جسمي طويلاً فإنني

ولم أرَ كالمعروف: أمّا مذاقه

وقال ابن الرومي: الخفيف:

ونصيفٍ من الرجال نحيفٍ

في أناسٍ أوتوا حلومَ العَصافي

راجح الوزن عند وزنِ الرجال

ر فلم تُغنهم جسوم البِغالِ

أخذه من قول حسان بن ثابت؟ وقال له بنو الديان الحارثيون: قد كنّا نحن نطول بأجسامنا على العرب

حتى قلت: البسيط:

دَعُوا التَّخَايُورَ وَاَمْشُوا مَشْيَةَ سَجَاً

لَا بِأَسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ

فتركتنا لا نرى أجسامنا شيئاً.

والعربُ تمدح الطول، وتثني عليه، وقال عنتره بن شداد: الكامل:

بَطْلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرَحَةٍ

يُحْدِى نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ

قوله: ليس بتوأم يريد ليس ممن زوحم في الرَّحْم فضعف، كما قال الشعبي، وقد دخل على عبد الملك بن مروان، فجعل ينظرُ إليه، وكان الشعبي قد وُلد توأماً مع أخيه، فكان خيفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إني زوحت في الرحم، وقال: الطويل:

ولمّا التقى الصّفانِ واختلف القنّا
نُهالاً، وأسبابُ المنايا نهالها
تبين لي أنّ القماءَ ذلّةٌ
وأنّ أعزاء الرجال طوالها

وقال أبو نواس: الطويل:

وكنا إذا ما الحائنُ الجدَّ غرّه
سنّى برّقٍ غادٍ أو ضجيجُ رِعادٍ
تردّى له الفضلُ بن يحيى بن خالدٍ
بماضي الظبى يزّهاه طولُ نجادٍ
أمام خميس أرجوانٍ كأنه
قميص محوِّك من قنّا وجيادٍ

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله: المتقارب:

وملمومة زرد توبها
ولكنه بالقنا مخمل

رجع إلى كثير عزة

ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان وهو عليل، وأهله يتمنون أن يتبسّم، فقال: لولا أن سرورك لا يتمّ بأن تسلم وأسقم لدعوت الله أن يصرف ما بك إلي، ولكني أسأل الله أيها الأمير العافية لك ولي في كنفك؛ فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول: الكامل:

ونعودُ سيدنا وسيّد غيرنا
ليت التشكّي كان بالعوادِ
لو كان تقبلُ فديةً لفديتهُ
بالمصطفى من طارفي وتلاذي

قال محمد بن سلام الجمحي: قال أبي: ذاكرت مروان بن أبي حفصة شعر جرير والفرزدق وكثير، فذهب إلى تقديم كثير، وجعل يُطريه ويقول: هو أمدحهم للخلفاء، فقلت: أمّن جودة مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان: الطويل:

ترى ابن أبي العاصي وقد صُفّ دونهُ
ثمانون ألفاً قد توافّت كمولها
يقلّب عيني حية بمفازةٍ
إذا أمكنته شدّة لا يُقلّها؟

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً، وجعله يقلّب عيني حية.

وقوله: الطويل:

غَزَا كَامِنَاتِ الْوَدِّ مِنِّي فَنَالَهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي

زَعَمَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَعْطَفَهُ حَتَّى غَزَا كَامِنَاتِ صَدْرِهِ.

وَقَوْلُهُ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ: الْوَافِرُ:

وَتَخْرُجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابِي

وَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسْلُ ضِغْنِي

أَجَابَكَ حَيَّةٌ تَحْتَ الْحِجَابِ

وَيَرْقِينِي لَكَ الْحَاوُونَ حَتَّى

زَعَمَ أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ تَرَضَّاهُ، وَاحْتَالَ لَهُ وَرْقَاهُ، حَتَّى أَجَابَهُ؛ أَكْذَابُ تُمْدَحِ الْمُلُوكِ؟ فَأَسْكَنَتْهُ.

فصول قصار

مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْظُ، كَانَ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ حَافِظٌ. الْعَبْدُ حَرٌّ إِذَا قَنَعَ، وَالْحُرُّ عَبْدٌ إِذَا طَمَعَ. الْأَمَانِيُّ تَخْدَعُكَ، وَعِنْدَ الْحَقَائِقِ تَدْعُكَ. إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَالِكًا، كَانَ الْيَأْسُ إِدْرَاكًا. لَيْسَ يُعَدُّ حَكِيمًا، مَنْ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ خَصِيمًا. تَعَزَّ عَنْ الشَّيْءِ إِذَا مُنِعْتَهُ، بِقَلَّةٍ مَا يَصْحَبُكَ إِذَا مُنِحْتَهُ. تَجَرَّعَ مَضَضُ الصَّبْرِ تَطْفِئُ نَارَ الضَّرِّ. الْحِكْمَةُ حِفْظُ مَا كَلَفْتَ، وَتَرْكُ مَا كَفَيْتَ. الصَّبْرُ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ، أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ.

شذور لأهل الصرِّ في معانٍ شتَّى

قِطْعَةٌ مِنْ كَلَامِ الْأَمِيرِ قَابُوسِ بْنِ وَشْمَكِيرِ شَمْسِ الْمَعَالِي فِي أَثْنَاءِ رَسَائِلِهِ: بَزَنَدُ الشَّفِيعِ ثُورِي نَارِ النِّجَاحِ، وَمَنْ كَفَّ الْمَفِيزُ يُنْتَظَرُ فَوْزُ الْقِدَاحِ، الْوَسَائِلُ أَقْدَامُ ذَوِي الْحَاجَاتِ، وَالشَّفَاعَاتُ مِفَاتِيحُ الطَّلِبَاتِ. الْعَفْوُ عَنِ الْمَجْرَمِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْكَرَمِ، وَقَبُولُ الْمَعْذَرَةِ مِنْ مُحَاسِنِ الشَّيْمِ. وَبِالْقَوَادِمِ وَالْخَوَافِي قُوَّةُ النِّجَاحِ، وَبِالْأَسَنَةِ وَالْعَوَالِي عَمَلُ الرِّمَاحِ. الدُّنْيَا دَارُ تَغْيِيرٍ وَخِدَاعٍ، وَمِلْتَقَى سَاعَةِ لُودَاعٍ، وَالنَّاسُ مُتَصَرِّفُونَ بَيْنَ كُلِّ وَرْدٍ وَصَدْرٍ، وَصَائِرُونَ خَبْرًا بَعْدَ أَثَرٍ. غَايَةُ كُلِّ مُتَحَرِّكِ إِلَى سَكُونٍ، وَنَهَايَةُ كُلِّ مُتَكَوِّنٍ إِلَّا يَكُونُ، وَآخِرُ الْأَحْيَاءِ فَنَاءٌ وَالْجَزَعُ عَلَى الْأَمْوَاتِ عَنَاءٌ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلِمَ التَّهَالُكُ عَلَى الْهَالِكِ؟ حَشْوُ الدَّهْرِ أَحْزَانٌ وَهَمُومٌ، وَصَفْوُهُ مِنْ غَيْرِ كَدَرٍ مَعْدُومٌ. إِذَا سَمَحَ الدَّهْرُ بِالْحَيَاءِ، فَأَبْشُرْ بِوَشْكَ الْإِنْقِضَاءِ، وَإِذَا أَعَارَ، فَاحْسِبْهُ قَدْ أَغَارَ. الدَّهْرُ طَعْمَانٌ؛ حَلْوٌ وَمَرٌّ، وَالْأَيَّامُ ضَرْبَانٌ؛ عُسْرٌ وَيَسْرٌ. لِكُلِّ شَيْءٍ غَايَةٌ وَمُنْتَهَى، وَانْقِطَاعٌ وَإِنْ بَلَغَ الْمَدَى. تَرَكُّ الْجَوَابِ، دَاعِيَةُ الْإِرْتِيَابِ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الْإِقْتِضَاءِ، كَسُوفٌ فِي وَجْهِ الرَّجَاءِ. هُمْ الْمُنْتَظَرُ لِلْجَوَابِ ثَقِيلٌ، وَالْمَدَى فِيهِ وَإِنْ كَانَ قَصِيرًا طَوِيلٌ. النَّجِيبُ إِذَا جَرَى لَمْ يَشَقْ غِبَارُهُ، وَإِذَا سَرَى

لم تلحق آثاره. ومن أين للضباب صوب السحاب، وللغراب هويّ العقاب، وهيهات أن يكتسب الأرض لطافة الهواء، ويصير البدر كالشمس في الضياء.

شمس المعالي ابن وشمكير

وقد ترجم عن شمس المعالي أبو منصور الثعالبي في كتاب ألفه له؛ قال في أوله: أما على أثر حمد الله الذي هو أول كتابه، وآخر دعوى ساكني دار نوابه، والصلاة على خيرته من بريته، وعلى الصفة من ذريته، فإن خير الكلام ما شغل بخدمة من جمع الله له عزّة الملوك إلى بسطة العلم، ونور الحكمة إلى نفوذ الحكم، وجعله مميّزاً على ملوك العصر، ومدبري الأرض وولاة الأمر، بخصائص من العدل، وجلائل من الفضل، ودقائق من الكرم المحض، لا يدخل أيسرها تحت العادات، ولا يدرك أفلها بالعبارات؛ ومحاسن سير الأنام، تحرسها أسنة الأقلام، وتدرسها السنة الليالي والأيام، وهذه صفة تُغني عن تشبيه الموصوف باختصاصه بمعناها، واستحقاقه إياها، واستثنائه على جميع الملوك بها، ولعلم سامعها ببديهة السمع أنها للأمير، شمس المعالي، خالصة وعليه مقصورة، وبه لائقة، وعن غيره نافرة؛ إذ هو - بمعاينة الآثار، وشهادة الأخيار، وإجماع الأولياء، واتفاق الأعداء - كافلُ المجد، وكافي الخلق، وواحد الدهر، وغرّة الدنيا، ومفرع الورى، وحسنة العالم، ونكتة الفلك الدائر؛ فبلغه الله أقصى نهاية العمر، كما بلغه أقصى غاية الفخر؛ وملكه أزمة الأمر، كلّمه ملكه أعنة الفضل؛ وأدام حُسن النظر للعباد والبلاد، بإدامة أيامه التي هي أعياد الدهر، ومواسم الثمن والأمن، ومطالع الخير والسعد، وزاد دولته شباباً ونموّاً، كما زاده في الشرف علوّاً، حتى تكون السعادات وقدّ بابها، والبشائر قرى سمعه، والمسار غداء نفسه، ويترامى به الإقبال إلى حيث لا يبلغه أمل، ولا يقطعُه أجل.

نحا في قوله: وهذه صفة تُغني عن الموصوف إلى قول أبي الطيب يرثي أخت سيف الدولة: البسيط:

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
كنايةً بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك أن تُسمي مؤنثة
ومن دعاك فقد سمالك للعرب

ومن شمس المعالي يقول الأمير أبو الفضل الميكالي: الرجز:

لا تعصين شمس العلأ قابوساً
فمن عصى قابوس لاقي بوساً

وله يقول بديع الزمان في قصيدة نظمها في تضاعيف رسالة موشحة: الخفيف:

إن من كنت من مناه بمرأى
وتعداك سيء الاقتراح

بين بشرٍ يرُدُّ غائضَ جاهي
وبساطٍ وردتْ مشرعة الآن
فاقضْ أوطاراً التقتْ والمعالي
ملك دونه تقطع أبصا
ملك لو يشاء مد على النج
تارة في خسونة الدهر تلقا
ملك كلما بدا نقف الأف
هكذا هكذا تكون المعالي

وقبولٍ يُعيد ريشَ جناحي
س به وادرتْ بُرد النجاح
في نظام من النهى وتصاح
ر الليالي يوماً ندى وكفاح
م رواقاً وردَّ وفد الرياح
ه وطوراً في حُسن ذات الوشاح
لاك عجباً به وفرط ارتياح
طرق الجدِّ غير طرق المزاح

وهي طويلة، كتبتها على طريق الاختيار.

رقة لبديع الزمان إلى شمس المعالي، وقد ورد حضرته: لم تزل الآمال - أطال الله بقاء الأمير السيد شمس المعالي، وأدام سلطانه - تعدني هذا اليوم، والأيام تطلني بالسنه صروفها، على اختلاف صنوفها، بين حلوٍ استرقني، ومرٍّ استخفني، وشرٍّ صار إليّ، وخيرٍ صرتُ إليه، وأنا في خلال هذه الأحوال أذرع الآفاق فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأقصى، وطوراً مغرباً للمغرب، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة، وسدته المريعة، ولا وسيلة إلا المترع الشاسع، والأمل الواسع؛ وقد صرت - أطال الله بقاء الأمير مولانا - بين أنياب النوائب، وتجشمت هول الموارد، وركبت أكتاف المكاره، ورضعت أخلاف العوائق، ومسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحضرة البهية أو كدت، وبلغت الأمنية أو زدت، وللأمير السيد في الإصغاء إلى المجد، والبسط من عنان الفضل، بتمكين خادمه من المجلس يلقاه بقدمه، والبساط يلثمه بفمه، تفضله، فله الرأي العالي إن شاء الله.

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أن يزف إليه ما أنشأه، فبعث به وكتب إليه: مرحباً بسلام الشيخ سيدي ومولاي أطال الله بقاءه، ولا كالمرحب بطلعته؛ وقد وصلت تحيته فشكرتها، وعدته الجميلة بالحضور غدا فانتظرتها؛ ودعوت الله أن يطوي ساعات النهار، ويزج الشمس في المغار، ويُقرب مسافة الفلك الدوار، ويرفع البركة من سيره، ويجهز الحركة إلى دوره؛ ويسرني بوفد الظلام وقد نزل، ثم لم يلبث إلا ريثما رحل؛ وقد بعث بما طلب سمعاً لأمره وطاعة، والنسخة أسقم من أجفان الغضبان، والشيخ سيدي - أدام الله عزه - يركض قلمه في إصلاحها، وحبذا هو في غد، وقد طلع كالصبح إذا سطع، والبرق إذا لمع: الكامل:

يا مرحباً بغدٍ ويا أهلاً به
إن كان إمام الأجابة في غدٍ

وله إلى أبي الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد: لو كان للكرم عن جناب الشيخ مُنْصَرَفٌ لَانْصَرَفْتُ، أو للأمل مُنْحَرَفٌ إلى سواه نُحَرَفْتُ، أو للنجح بابٌ سواه لَوَلَجْتُ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوجت، ولكن أبي الله أن يعقدَ إلا عليه الخنصر، أو يتحلى إلا بفواضله الدهر، ولا يزال كذا يتسم المجدُ بِسِمَتِهِ، ويجذب العلأَ بِهَمَّتِهِ، ويُسعدُ الدينَ بِنَظَرِهِ، والدنيا بِجَمَالِهِ، وغلَامُهُ أنا لو استعار الدهر لسانا، واتخذ الريحَ تَرْجُمانا، لِيُشِيعَ إِنْعامَهُ حقَّ الإشاعة، لَقَصُرَتْ به يدُ الاستطاعة، فليس إلا أن يلبس مكارمه صافيةً سابغة، ويردَّ مشارعَه صافيةً سائغة، ويحيل الجراء على يد قصور، والشكر على لسان قصير؛ ثم إن حاجاتي، إذا لم يغرَ من قلائدِ المجدِ نحرُها، ولم يعطلَ من حلِّي المجدَ صدرُها، كبر مهرُها، وعزَّ كفُّها، ولم أجد لها إلا واحداً أخضرَ الجلدِ في بيت العرب، أو ماجداً يملأُ الدلو إلى عقد الكرب. وهذه حاجة أنا أرفها إلى الشيخ الإمام حرصَ الله مُهْجَتَهُ، وأسوقها منظومة من الصدرِ إلى العجز، كما يساقُ الماءُ إلى الأرضِ الجُرُز؛ وأنا من مفتتح اليوم إلى مختتمه، ومن قرنِ النهار إلى قَدَمِهِ، قاعد كالكركي، أو الديك الهندي، في هذا الأذحي، يمرُّ بي أولو الحلَى والحلل، ويحتاز ذوو الخيل والخول، وما أنا والنظر إلى ما لا يليني، والسؤال عما لا يعنيني، واليوم، لما افتضنا عُذرة الصباح، ملأتُ جفوني من منظرٍ ما أحوَجَه إلى عيبٍ يصرفُ عَيْنَ كماله، عن جماله، فقلت لمن حضر: مَنْ هذا؟ فأخذوا يحركون الرؤوسَ استظرافاً لحالي، ويتغامزون تعجباً من سؤالي، وقالوا: هذا الشيخُ الفاضلُ أبو إبراهيم إسماعيلُ بن أحمد، فقلت: حَرَسَ اللهُ مُهْجَتَهُ، وأدام غِبْطَتَهُ؛ فكيف الوصولُ إلى خِدْمَتِهِ، وأنى مَأْتَى معرفته؟ قالوا: إن الشيخَ الإمام - أدام اللهُ تَأْيِيدَهُ - يضربُ في مَوَدَّتِهِ بِالْقَدَحِ المُعْلَى، ويأخذُ في معرفته بالحظ الأعلى، فإن رأى الشيخ - أطل الله بقاه - أن تُجْعَلَ عِنايَتُهُ حَرْفَ الصلة، وتفَضُّلُهُ لَأَمَ المَعْرِفَةِ، فَعَلَّ، إن شاء الله.

البرامكة

قال الرشيد ليحيى بن خالد: يا أبت، إني أردتُ أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل إلى جعفر، وقد احتشمت منه فاكفنيه. فكتب إليه يحيى: قد أمر أمير المؤمنين - أعلَى اللهُ أَمْرَهُ - أن يحول الخاتم من يمينك إلى شمالك. فأجاب الفضل: قد سَمِعْتُ ما قاله أمير المؤمنين في أخي، وقد اطلعت على أمره، وما انقلبتُ عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه. فقال جعفر: لله أخي! ما أُنْفَسَ نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى مُنَّةَ العَقْلِ فيه، وأوسع في البلاغة ذرْعَهُ، وأَرْحَبَ بها جناحه. يُوجب على نفسه ما يجب له، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته.

وذكر جعفر بن يحيى في مجلس ثمامة بن أشرس فقال: ما رأيت أحداً من خلق الله كان أبسط لساناً، ولا ألحن بحجة، ولا أقدر على كلام، ينظم حسن، وألفاظ عذبة، ومنطق فصيح، من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقف، ولا يتحبس، ولا يصل كلامه بحشو من الكلام، ولا يعيد لفظاً ولا معنى، ولا يخرج من فن إلى غيره، حتى يبلغ آخر ما فيه؛ وكان لا يرى شيئاً إلا حكاها، ولا يحكي شيئاً إلا كان أكثر منه، ولا يمر بذهنه شيء إلا حفظه، وكان إذا شاء أضحك الثكلى، وأذهل الزاهد، وخشن قلب العابد.

قلت: فكيف كانت معرفته؟ قال: كان من أعلم الناس بالخبر الباهر، والشعر النادر، والمثل السائر، والفصاحة التامة، واللسان البسيط.

قال سهل بن هارون، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفر، فقال: لو كان الكلام متصوراً ذرّاً، ويُلقبه المنطق جوهرّاً، لكان كلامهما، والمنتقى من ألفاظهما. ولقد غبرت معهما، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهما، وهم يرون البلاغة لم تستكمل إلا فيهما، ولم تكن مقصورة إلا عليهما، ولا انقادت إلا لهما. وإنيهما للباب الكرم، عتق منظر، وجودة مخبر، وسهولة لفظ، وجزالة منطق، ونزاهة نفس، وكمال خصال؛ حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهما، والمأثور من خصائصها جميع أيام من سواهما من لدن آدم إلى أن يُنفخ في الصور، ويبعث أهل القبور - حاشا أنبياء الله الكرام، وسلف عباده الصالحين - لما باهت إلا بهما، ولا عولت في الفخر إلا عليهما، ولقد كنا - مع تهذيب أخلاقهما، ومَعسُول مدّاقهما، وسنا إشراقهما، وكمال الخير فيهما - في محاسن المأمون كالنقطة في البحر، والخرذل في القفر.

ووقع جعفر بن يحيى لرجو اعتذر عنده من ذنب: قد قدمت طاعتك، وظهرت نصيحتك، ولا تغلب سيئة حسنتين.

ووقع - وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه - الخطُ خيطة الحكمة، يُنظم فيه منشورها، ويفصل فيه شذورها. واختصم رجلان بحضرته، فقال لأحدهما: أنت خلي، وهذا شجي؛ فكلامك يجري على برد العافية، وجوابه يجري على حرّ المصيبة.

ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده: الطويل:

أبرُ فما ترَجُّو الجياد لحاقه أبو الفضل سباق الأضاميم جعفر

وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدّر

فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة، فأنشدته: الوافر:

أقمنا باليمامة أو نسينا مقاماً ما نريد به زوالا

وَقُلْنَا: أَيْنَ نَذْهَبُ بَعْدَ مَعْنٍ

وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا؟

وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالًا

حتى فرغ من القصيدة، وجعفر يُرْسِلُ دموعه على خديّه، فقال: هل أثابك على هذه المراثية أحدٌ من أهل بيته وولده؟ قال: لا، قال: فلو كان معن حيًّا، ثم سمعها منك، كم كان يُشنيك عليها؟ قال: أربعمئة دينار، قال: فإنما كنّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك، وقد أمرنا لك عن معن - رحمه الله - بالضعف مما ظننته، وزدناك مثل ذلك؛ فاقْبُضْ من الخازن ألفاً وستمئة دينار قبل أن تخرج، فقال مروان - يذكر جعفرًا وما سمح به عن معن - : الوافر:

لَنَا فِيمَا تَجَوَّدُ بِهِ سَجَالًا

لِنَادِيهِ وَلَمْ تُرِدِ الْمِطَالًا

بَأَجْوَدِ رَاحَةٍ بَدَلْتُ نَوَالًا

بِنَاءٍ فِي الْمَكَارِمِ لَنْ يُنَالَا

تَجَوَّدُ بِهِ يَدَاهُ يُفِيدُ مَالًا

نَفَحْتُ مُكَافِئًا عَنْ جُودِ مَعْنٍ

فَعَجَلْتُ الْعَطِيَّةَ يَا ابْنَ يَحْيَى

فَكَافَأَ عَنْ صَدَى مَعْنٍ جَوَادُ

بَنَى لَكَ خَالِدٌ وَأَبُوكَ يَحْيَى

كَانَ الْبَرْمَكِيُّ لِكُلِّ مَالٍ

أَخَذَ هَذَا مِنْ قَوْلِ زَهِيرٍ: الطويل:

كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَحَصَمَ يَكَادُ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ

إِذَا مَا أَضَلَّ الْقَائِلِينَ مَفَاصِلُهُ

مُصِيبٌ فَمَا يُلَمِّمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ

وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ

عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ نَوَافِلُهُ

قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ

وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِيْنَ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ

جَمُوحٌ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ

تَرَاهُ إِذَا مَا جِنَّتْهُ مُتَهَلِّلًا

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها:

وَذِي نِعْمَةٍ تَمَّتَتْهَا وَشَكَرْتَهَا

دَفَعْتُ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْحَقِّ صَائِبٍ

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ

عَبَّأْتُ لَهُ حِلْمًا، وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ

وَأَبْيَضَ فَيَاضَ يَدَاهُ غَمَامَةٌ

غَدَوْتُ عَلَيْهِ غَدَوَةً فَرَأَيْتُهُ

يُفَدِّينُهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا يَلْمُنُهُ

فَأَعْرَضَنْ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَّرًا

وَلَكِنَّهُ قَدْ يُذْهَبُ الْمَالُ نَائِلُهُ

أَخِي ثِقَةٌ لَا يُذْهَبُ الْخَمْرُ مَالُهُ

قال أبو الفرج قدامة بن جعفر، في معنى أبيات زهير الأولى: لما كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس، لا من طريقِ ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهلُ الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقلُ والعفةُ والعدلُ والشجاعة، كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مُصَيِّباً، وبما سواها مخطئاً؛ وقد قال زهير:

أخي ثقةٌ لا يُتَلَفُ الخمرُ مالهٌ ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائلُهُ

فوصفه بالعفة لقلّة إمعانه في اللذات، وأنه لا يُتَنَفَّذُ فيها ماله، وبالسخاء لإهلاك ماله في النوال، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات، وذلك هو العدل، ثم قال:

تراه إذا ما جئته مُتَهَلِّلاً كأنك تُعْطِيهِ الذي أنتَ سائلُهُ

فزاد في وَصْفِ السخاء بأنه يَهْشَ ولا يلحقه مضض ولا تَكْرُهُ لِفَعْلِهِ ثم قال:

فَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لِنَكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل؛ فاستوفى ضرورَ المدح الأربعة، التي هي فضائلُ الإنسان على الحقيقة، وزاد الوفاء، وإن كان داخلاً في الأربعة؛ فكثير من الناس لا يعلم وَجَهَ دخوله فيها حيث قال: أخي ثقة فوصفه بالوفاء؛ والوفاء داخل في هذه الفضائل التي قدّمناها. وقد يتفنن الشعراء فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها، وكلّ ذلك داخل في جملتها؛ مثل أن يذكروا ثِقَابَةَ المعرفة، والحَيَاءَ، والبيّانَ، والسياسةَ، والصّدقَ بالحجة، والعلمَ، والحلمَ عن سفاهة الجَهْلَةِ؛ وغير ذلك ممّا يَجْرِي هذا الجرى، وهو من أقسام العقل. وكذكّرهم القناعة، وقلة الشّرة، وطهارة الإزار؛ وغير ذلك أيضاً من أقسام العفة. وكذكّرهم الحماية، والأخذ بالثّار، والدفاع، والنكاية، والمهابة، وقَتْلُ الأقران، والسير في المهامه والقفار؛ وما يشاكل ذلك، وهو من أقسام الشجاعة؛ وكذكّرهم السماحة، والتغابن، والانظلام، والتبرّع بالنائل، وإجابة السائل وقِرَى الأضياف؛ وما جانس هذه الأشياء، وهو من أقسام العدل.

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام: يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة: الصبرُ على الملمات، ونوازل الخطوب، والوفاء بالوعود. وعن تركيب العقل مع السخاء: إنجاز الوعد، وما أشبه ذلك. وعن تركيب العقل مع العفة: التزّه والرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع السخاء: الإخلاص، والإتلاف، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع العفة: إنكارُ الفواحش، والغيرةُ على الحُرْم. ومن السخاء مع العفة: الإسعاف بالقوت،

والإيثارُ على النفس، وما شاكَلَ ذلك. وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين.
وقد قال أبو جعفر محمد بن منذر لما حَجَّ الرشيد مع البرامكة: الطويل:

أتانا بنو الأملاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ	فيا طيِّبَ أخبارٍ، ويا حُسْنَ مَنْظَرٍ
لهم رِحْلَةٌ في كلِّ عامٍ إلى العِدا	وأُخْرَى إلى البيتِ العتيقِ المُشَهَّرِ
فَتُظْلَمُ بغداد، وَيَجْلُو لنا الدُّجَى	بمكةَ ما حَجَّوا ثلاثةَ أَقْمَرِ
إذا نزلوا بطحاءَ مكةَ أَشْرَقَتْ	بِيحْيَى وبالفِضْلِ بنِ يَحْيَى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلا لَجُودٍ أَكْفُهُم	وأَقْدَامُهُم إلا لأَعْوَادِ مَنْبَرِ
إذا راضَ يَحْيَى الأمرُ ذَلَّتْ صِعبُهُ	وحَسْبُكَ مِنْ راعٍ له ومدبرِ
تري الناسَ إجلالاً له وكأنهم	غَرانيقُ ماءٍ تحتَ بازٍ مُصَرِّصِ

مذهب التجنيس في الغزل

قطعة من شعر الأمير أبي الفضل الميكالي في طَرَفٍ أخذ بطرف من التجنيس مستطرف في ضروب من الغزل، قال: الطويل:

لقد راعني بَحْرُ الدُّجَى بِصُدُودِهِ	ووكَّلَ أَجفاني بِرَعي كواكِبهُ
فيا جَزَعي، مَهْلاً عَساهُ يَعُودُ لي	ويا كَبِدي، صَبْراً على ما كَوَّك بهُ

وقال: الطويل:

مواعيده في الفَضْلِ أحلامُ نائمٍ	أشَبَّهَها بالقَفْرِ أو بِسَرَّابِهِ
----------------------------------	--------------------------------------

فَمَنْ لي بوجهِ لو تَحَيَّرَ في الدُّجَى	أخو سَفَرٍ في ليلٍ غَيِّمٍ سَرَى بهُ
--	--------------------------------------

وقال: الخفيف:

صِلْ محبًّا أعياءَ وَصَفْ هواهُ	فضنَّاه يَنْوِبُ عن ترْجُمَانِهِ
كلِّما راقَهُ سِوَاكَ تَصَدَّتْ	مُقْلَتَاهُ بدمعةٍ ترْجُمَانِهِ

وقال: السريع:

يا ذا الذي أُرسلَ مِنْ طَرَفِهِ	عليَّ سَيِّقاً قَدْنِي لو فَرَا
شفاءُ نفسي مِنْكَ تخميشَةٌ	تَغْرِسُ في خَدِّكَ نِيلَوْفَرَا

وقال: الكامل:

يا مُبْتَلَىٰ بضناه يَرْجُو رحمةً
أوصاك سحرُ جفونه بتسهدُ
اصْبِرْ على مَضَضِ الهوى فلربما
من مالك يشفيه من أوصابه
وتبَلَّد، فقبلت ما أوصى به
تحلُّو مرارة صبره أوصابه

وقال: الوافر:

كُتِبْتُ إليه أَسْتَهْدِي وَصَالاً
أَلَا لَيْتَ الجوابَ يكون خيراً
فعللني بوعدٍ في الجوابِ
فيطفئ ما أحاط من الجوى بي

وقال: الكامل:

إِنْ كُنْتَ تَأْنَسُ بالحبيبِ وقُربِهِ
إِنْ الرقيبَ إِذَا صَبِرْتَ لحكمه
فاصْبِرْ على حُكْمِ الرقيبِ ودَارِهِ
بَوَاكٍ فِي مَثْوَى الحبيبِ ودَارِهِ

وقال: الطويل:

شَكَوْتُ إِلَيْهِ مَا أَلَاقِي فَقَالَ لِي:
فَلَوْ كَانَ حَقًّا مَا ادَّعَيْتَ مِنَ الْهَوَى
رُؤِيداً، ففِي حُكْمِ الْهَوَى أَنْتَ مُؤْتَلِي
لَقُلْ بِمَا تَلْقَى إِذَا أَنْ تَمُوتَ لِي

وقال: الوافر:

نَوَى لِي بَعْدَ إِكْثَارِ السُّؤَالِ
فَلَمَّا رُمْتُ إِنْجَازاً لَوْ عَدِي
وَكَانَ الْقُرْبُ مِنْهُ شِفَاءَ نَفْسِي
حَبِيبٌ أَنْ يُسَامِحَ بِالنَّوَالِ
عَلَيْهِ أَبَى الْوَفَاءَ بِمَا نَوَى لِي
فَقَدْ قَضَتْ النِّوَانُ بِالنَّوَى لِي

وقال: البسيط:

سَقِيّاً لِدَهْرِ مَضَى وَالْوَصْلُ يَجْمَعُنَا
فَصَرْتُ إِذْ عَلِقْتُ كَفِّي حَبَائِلُكُمْ
وَنَحْنُ نَحْكِي عِنَاقاً شَكْلَ تَتْوِينِ
فَسَهْمُ هَجْرِكَ تَرْمِي ثُمَّ تَتْوِينِي

وقال: مجزوء الكامل:

صَدَفَ الْحَبِيبُ بِوَصْلِهِ
وَنَثَرْتُ لَوْلُو أَدْمُعُ
فَجَفَا رُقَادِي إِذْ صَدَفُ
أَضْحَى لَهَا جَفَنِي صَدَفُ

وقال: الكامل:

يَا مَنْ يَقُولُ الشَّعْرَ غَيْرَ مَهْذَبٍ
لَوْ أَنَّ كُلَّ النَّاسِ فِيكَ مُسَاعِدِي

وقال: السريع:

وَيَسُومُنِي التَّعْذِيبَ فِي تَهْذِيبِهِ
لَعَجَزْتَ عَنِ تَهْذِيبِ مَا تَهْذِي بِهِ

أَرَادَ أَنْ يُخْفِيَ هَوَاهُ وَقَدْ
وَكَيْفَ يُخْفِي دَاءَهُ مُدْنَفٌ

وقال: مجزوء الكامل:

نَمْ بِمَا تُخْفِي أُسَارِيرُهُ
قَدْ ذَابَ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى رِيرُهُ

وَمَهْفَهْفُ تَهْفُو بِلِ
فَالرَّدْفُ دِعْصٌ هَائِلٌ
وَالْخَذُّ نَوْرُ شَقَائِقِ
وَالْعَرْفُ نَشْرُ حَدَائِقِ
وَالطَّرْفُ سَيْفٌ مَا لَهُ

بِ الْمَرْءِ مِنْهُ شَمَائِلُ
وَالْقَدْ غُصْنٌ مَائِلُ
تَتَشَقُّ عَنْهُ خَمَائِلُ
تَمَّتْ بِهِنَ شَمَائِلُ
إِلَّا الْعِذَارَ حَمَائِلُ

ولأبي الفتح البستي في هذا المذهب: الخفيف:

إِنْ لِي فِي الْهَوَى لِسَانًا كَتُومًا
غَيْرَ أَنِّي أَخَافُ دَمْعِي عَلَيْهِ

وَجَنَانًا يُخْفِي حَرِيقَ جَوَاهُ
سَتَرَاهُ يُفْشِي الَّذِي سَتَرَاهُ

ولأبي الفتح البستي في مذهب هذا البيت الأخير: الخفيف:

نَاطِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاطِرَاهُ

أَوْدَعَانِي أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي

وله: المتقارب:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعَرَفٍ كَمَا
وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ

أُمِرْتُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لَيْنٌ

وله: مجزوء الوافر:

إِلَى حَنْتِي سَعَى قَدَمِي
فَمَا أَنْفَكُ مِنْ نَدَمِي

أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي
وَلَيْسَ بِنَافِعِي نَدَمِي

وله: البسيط:

إِنْ هَذَا أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْمَلْهَا

أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَذَا عَامِلُهُ

وإن أقرَّ على رَق أنامله
وقال لمن استدعاه إلى مودَّته: المتقارب:

فَدَيْتُكَ قَلَّ الصَّدِيقُ الصَّدُوقُ
ولي راغب فيك إمَّا وفيت

وللأمير أبي الفضل: مخلع البسيط:

أهلاً بظبي حواءَ قَصْرُ
طَرَقْتُهُ لَا أَهَابُ سَوْءًا

كجَنَّةٍ قد حَوَتْ نَعِيمًا
فجاد مَنْ فيه لي بَرَّاحٍ

أَبَاحَنِي حَبَّةُ الْحَرِيمَا
أُفْدِي حَرِيقًا أَبَاحَ رِيْقَا

تَنَفِّي حَرِيقًا بِهِ قَدِيمَا
وله: البسيط:

لَا بَلَّ حَرِيمًا أَبَاحَ رِيْمَا

مَنْ لِي بِشَمَلِ الْمُنَى وَالْأُنْسِ أَجْمَعُهُ
ما زال يُعْرِضُ عَنْ وَصْلِي وَأَخْذَعُهُ

بشادنٍ حلَّ فيه الحسنُ أَجْمَعُهُ
وقال: الكامل:

فَالآنَ قَدْ لَانَ بَعْدَ الصَّدِّ أَخْذَعُهُ

بأبي غزال نام عَنْ وَصْبِي بِهِ
يا لَيْتَهُ يَرِثُنِي عَلَى وَلَهِي بِهِ

ومُراقٍ دَمْعِي لِلنَّوَى وَصَبِيهِ
وله في هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخموراً خمَش وجهه: الكامل:

لِغَرَامِ قَلْبِي فِي الْهَوَى وَلَهْيِهِ

هَبَّةٌ تُغَيِّرُ حَائِلًا عَنْ عَهْدِهِ
ورمى فؤادي بالصدود فأزْعَجَا

ما بالُ نَرْجِسِهِ تحوَّلَ وَرْدَةً
والوردُ في خديه عادَ بِنَفْسِجَا

وله في هذا المعنى: المتقارب:

وريمٍ على السُّكْرِ خَمَشْتُهُ
فأصبح نَرْجِسُهُ وَرْدَةً

بقرصٍ بعارضه أثرا
وقال في وصف العذار: الكامل:

ووردةٌ خَدْيُهُ نِيلَوْفَرَا

ظَبْيٍ كَسَا رَأْسَ الشَّبَابِ بَعَارِضٍ
فكأنما أَهْدَى لِعَارِضٍ خَدَّهُ

نَمَ الْعِذَارُ بِحَافَتَيْهِ فَلَاحَا
شعري ظلاماً واستعاضَ صَبَاحَا

وقال في غلام افتصد: مجزوء الكامل:

لُ بخده رَوْضاً مَرِيحاً	وَمُهْفَهْفٍ غرس الجما
فجرى له دَمْعِي ذريعاً	فَصَدَّ الطَّيِّبُ ذِرَاعَهُ
د بَعْرِقَةٍ أَلَمًا وَجِيحاً	وَأَمْسَنِي وَقَعُ الحدي
ما سال من دَمِهِ نجيحاً	فَأَرَيْتَهُ مِنْ عَبْرَتِي

فَقَرُّ فِي ذِكْرِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ

العلماء ورثة الأنبياء. والعلماء أعلام الإسلام. العلماء في الأرض كالنجوم في السماء.
ابن المعتز - العلماء غرباء، لكثرة الجهل. وله: العلم جمال لا يخفى، ونسب لا يُجفَى. وله: زَلَّةُ العالم
كانكسار سفينة تُغرق وَيُغرق معها خلقٌ كثير.
غيره - إذا زَلَّ العالم، زَلَّ بزلته عالم. غيره: الملوك حُكَّامٌ على الناس، والعلماء حكام على الملوك. من لم
يحتمل ذلَّ التعلُّم ساعة، بقي في ذلَّ الجهل أبداً. مَا صِينَ العلم بمثل بَذْلِهِ لأهله. من كنتم علماً فكأنه
جاهله: مجزوء الكامل:

العلمُ يَمْنَعُ أَهْلَهُ أن يَمْنَعُوهُ أَهْلُهُ

أبو الفتح كشاجم: مجزوء الكامل:

وَالْعِلْمُ يَمْنَعُ جَانِبَهُ	لَا تَمْنَعُ الْعِلْمُ أَمْرًا
هَمُّ لُطْفَةٍ وَغَرَائِبَةٍ	أَمَّا الْغَيْبِيُّ فَلَيْسَ يَفُ
نَدُّ عِنْدَهُ كَالْغَائِبَةِ	وَتَكُونُ حَاضِرَةُ الْفَوَا
أَنْ يَنَالَ مَطَالِبَهُ	وَأَخُو الْحَصَافَةِ مُسْتَحِقُّ

فَبِحَقِّهِ أُعْطِيَتْهُ مِنْ فَضْلِ عِلْمِكَ وَاجِبُهُ

ومن رق وجهه عند السؤال، رقَّ عِلْمُهُ عند الرجال. عِلْمٌ بلا عمل، كشجرة بلا ثمر. كما لَا يُنْبِتُ المطرُ
الكثيرُ الصَّخْرَ، كذلك لَا يَنْفَعُ الْبَلِيدَ كثرةُ التعلُّم. من تَرَفَّعَ بعلمه وَضَعَهُ اللَّهُ بِعَمَلِهِ. الجاهلُ صَغِيرٌ وَإِنْ
كَانَ كَبِيرًا، وَالْعَالَمُ كَبِيرٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا. من أَكْثَرَ مَذَاكِرَةَ الْعُلَمَاءِ، لَمْ يَنْسَ مَا عِلْمَ، وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.
ابن المعتز: المتواضعُ فِي طُلَّابِ الْعِلْمِ أَكْثَرُهُمْ عِلْمًا، كَمَا أَنَّ الْمَكَانَ الْمُنْخَفِضَ أَكْثَرُ الْبِقَاعِ مَاءً. إِذَا عَلِمْتَ
فَلَا تَذْكُرْ مَنْ دُونَكَ مِنَ الْجَهَالِ، وَادْكُرْ مَنْ فَوْقَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ. النَّارُ لَا يُنْقِصُهَا مَا أَخَذَ مِنْهَا، وَلَكِنْ

يُنْقَصُهَا أَلَّا تَجِدَ حَطْبًا، كذلك العلمُ لا يُفْنِيهِ الاقْتِبَاسُ منه، وفَقْدُ الحَامِلِينَ له سببٌ عَدَمُهُ. مات خَزَنَةُ
الأموالِ وهم أحياء، وعاش خُزَانُ العلمِ وهم أموات. مِثْلُ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ كَكَثَرِ لا يَنْفَقُ مِنْهُ. أَزْهَدُ النَّاسِ فِي
عَالَمِ جِيرَانِهِ.

وقِيلَ لِلصَّلْتِ بنِ عَطَاءٍ، وَكَانَ مُقَدِّمًا عِنْدَ الْبِرَامِكَةِ: كَيْفَ غَلَبْتَ عَلَيْهِمْ وَعِنْدَهُمْ مَنْ هُوَ آدَبُ مِنْكَ؟
قَالَ: لَيْسَ لِلْقُرَبَاءِ طَرَاةُ الْغُرَبَاءِ، وَكُنْتُ أَمْرًا بَعِيدَ الدَّارِ، نَائِي الْمَزَارِ، غَرِيبَ الْأَسْمِ، قَلِيلَ الْجَرَمِ، كَثِيرَ
الْأَلْتَوَاءِ، شَحِيحًا بِالْإِمْلَاءِ؛ فَرَغَبَهُمْ فِي رَغْبَتِي عَنْهُمْ، وَزَهَّدَنِي فِيهِمْ رَغْبَتُهُمْ فِي.
عِلْمٍ لَا يَغْبِرُ مَعَكَ الْوَادِي، لَا يَعْمُرُ بَكَ الْنَادِي. لَوْ سَكَتَ مَنْ لَا يَعْلَمُ لَسَقَطَ الْاِخْتِلَافُ. إِذَا اِزْدَحَمَ
الْجَوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ. الْغُلَطُ تَحْتَ اللَّغَطِ. خَرَقَ الْإِجْمَاعُ خُرْقًا. الْمَحْجُوجُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْطِقُ.

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دَخَلَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي عَلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ فِي مَجْلِسِ حُكْمِهِ، وَأَنْشَدَهُ أَيْبَاتًا يَسْتَمْطِرُ نَائِلَهُ، وَيَنْشُرُ فُضَائِلَهُ،
فَقَالَ: سَيِّئَتِكَ ثَوَابُهَا يَا أَبَا تَمَامٍ، ثُمَّ اشْتَغَلَ بِتَوَقُّعَاتٍ فِي يَدَيْهِ؛ فَأَحْفَظَ ذَلِكَ أَبَا تَمَامٍ، فَقَالَ: احْضُرْ، أَيْدُكَ
اللَّهُ، فَإِنَّكَ غَائِبٌ، وَاجْتَمَعَ فَإِنَّكَ مُفْتَرَقٌ، ثُمَّ أَنْشَدَهُ: الْمُنْسَرَحُ:

وَتَرَكْ مَا نَرْتَجِي مِنَ الصَّدَقِ

إِنَّ حَرَامًا قَبُولُ مِدْحَتِنَا

صَرَّفَ حَرَامَ إِلَّا يَدًا بِيَدِ

كَمَا الدَّنَانِيرُ وَالْدِرَاهِمُ فِي الْإِل

فَأَمَرَ بِتَوْفِيرِ حَبَائِهِ، وَتَعْجِيلِ عَطَائِهِ.

وَلَمَّا وَلِيَ طَاهِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ خُرَاسَانَ دَخَلَ الشُّعْرَاءُ يَهْنِئُونَهُ، وَفِيهِمْ تَمَامُ بْنُ أَبِي تَمَامٍ فَأَنْشَدَهُ:
السَّرِيعُ:

مَا مِنْ جَزِيلِ الْمَلِكِ أَعْطَاكَ

هَنَّاكَ رَبُّ النَّاسِ هَنَّاكَ

وَالْبَاسُ وَالْإِنْعَامُ عَيْنَاكَ

قَرَّتْ بِمَا أُعْطِيتَ يَا ذَا الْحِجَى

وَأُورِقَ الْعُودُ بِجَذْوَاكَ

أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِمَا نَلَّتْهُ

فَاسْتَضَعَفَ الْجَمَاعَةُ شَعْرَهُ، وَقَالُوا: يَا بُعْدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ! فَقَالَ طَاهِرُ لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ: أَجِبْهُ، فَقَالَ:

إِنَّ الَّذِي أَمَلْتَ أَخْطَاكَ

حَيَّاكَ رَبُّ النَّاسِ حَيَّاكَ

وَلَوْ رَأَى مَدْحًا لِأَسَاكَ

فَقُلْتَ قَوْلًا فِيهِ مَا زَانَهُ

مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَعْطَاكَ

فَهَاكَ إِنْ شُنَّتْ بِهَا مَدْحَةٌ

فقال تمام: أعز الله الأمير، وإن الشَّعْرَ بالشعر رِبًّا، فاجعل بينهما صنجا من الدراهم، حتى يحلَّ لي ولك! فضحك وقال: إلا يكن معه شعْرُ أبيه، فمعه ظرف أبيه؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم! فقال عبد الله بن إسحاق: لو لم يعط إلا لقول أبيه في الأمير أبي العباس - رحمه الله - يريد عبد الله بن طاهر: البسيط:

يقولُ في قومسٍ صحبني وقد أخذتُ
منا السُّرى وخطأ المَهْريَّة القُودِ
أطلع الشمس تبغي أن تؤمَّ بنا؟
فقلتُ: كلا، ولكن مطلع الجودِ

فقال: ويعطى بهذا ثلاثة آلاف.

ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيْناء قال: كنّا عند أحمد بن أبي دواد، فجاء الخبر أنّ الكتبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبد الله بن طاهر، وأن الواثق يُعزّي عنه، وأنه قد ولى مكانه خراسان إسحاق ابن إبراهيم، وكان عدوّاً له لانخراطه في سِلْكِ ابن الزيات؛ فلبس ثيابه ومضى، وقال: لا تبرحوا حتى أعود إليكم، فلبث قليلاً، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبد الله وجلس، قال: فقال لي الواثق: قد ولىنا إسحاق خراسان، فما عندك؟ قلت: وفق الله أمير المؤمنين ولا نذمه. قال: قل ما عندك في هذا. قلت: أمر قد أمضي، فما عسيت أن أقول فيه. قال: لتفعلن. فقلت: يا أمير المؤمنين، خراسان منذ ثلاثين سنة في يد طاهر وابنه، وكل من بها صنائعهم، وقد خلّف عبد الله عشرَ بنين أكثرهم رجال، وجميعُ جيش خراسان لهم عبيد أو موالٍ أو صنائع، وسيقولون: أما كان فينا مُصْطَنع؟ وكان يجب أن يجربنا أمير المؤمنين، فإن وفينا بما كان يفى به أبونا وجدنا، وإلاّ استبدل منا بعد عُذْر فينا؛ ويقدم خراسان إسحاق وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء، ويتعصب أهلها لهم؛ فينتقض ما أُبرِم، ويفسد ما أُصلح.

قال: صدقت يا أبا عبد الله، والرأي ما قلت، اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان. فكتبت كتب طاهر، وحرّقت كتب إسحاق، فخرجت الزنج تطيرُ بها، ثم لقيني إسحاق داخلاً، فقلت: يا أبا الحسن، لا عدمت عداوة رجل أزال عنك ولاية خراسان بكلمة.

ومدح ابن الرومي أبا العباس بن ثوابه، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها، فقال ابن الرومي: المتقارب:

أليس القوافي بناتِ الفتى
إذا صورة الحق لم تمسَخ

فَلَا تَقْبَلَنَّ أَمَادِيَهُ

حَرَامٌ نِكَاحُ بَنَاتِ الْأَخِ

ولما أنشد أبو تمام قصيدته في المعتصم:

السيف أصدق أنباء من الكتب

قال له: لقد جَلَوْتَ عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها. قال: يا أمير المؤمنين، والله لو كانت من الحور العين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أَوْفَى مُهُورِها.
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الوافر:

أَقُولُ لَشَادِنٍ فِي الْحُسْنِ أَضْحَى

يَصِيدُ بِلَحْظِهِ قَلْبَ الْكَمِيِّ

ملككت الحسن أجمع في قوام

فأد زكاة منظرِكَ البهيِّ

وذلك أن تجودَ لمُسْتَهَام

بريق من مُقْبَلِكَ الشَّهِي

فقال: أبو حنيفة لي إمامٌ

فعندي لا زكاةَ على الصَّبِيِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال: الوافر:

أَقُولُ لَشَادِنٍ فِي الْحَسَنِ فَرْدٌ

يَصِيدُ بِلَحْظِهِ قَلْبَ الْجَلِيدِ

ملككت الحسن أجمع في قوام

فلا تَمْنَعْ وجوباً عن وجودِ

وذلك أن تجودَ لمُسْتَهَام

برشَفِ رُضَابِكَ الْعَذْبِ الْبَرودِ

فقال: أبو حنيفة لي إمامٌ

فعندي لا زكاةَ على الوليدِ

وقال: الطويل:

بِنَفْسِي غَزَالٌ صَارَ لِلْحُسْنِ قِبْلَةً

يُحَاجُّ مِنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَيُقَصِّدُ

دعاني الهوى فيه فلبَّيتُ طائِعاً

وَأَحْرَمْتُ بِالْإِخْلَاصِ وَالسَّعْيِ يَشْهَدُ

فطرفي بالتسبيدِ وَالدَّمْعِ قَارِنٌ

وقلبي عليه بالصباغة مُفْرِدُ

وقال أبو الفتح كشاجم: البسيط:

فَدَيْتُ زَائِرَةً فِي الْعِيدِ وَاصِلَةً

وَالْهَجْرُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْخَبِرِ

فلم يزل خذها رُكْنًا أَطُوفُ بِهِ

وَالْخَالُ فِي خَدِّهَا يُغْنِي عَنِ الْحَجَرِ

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان: كتابي، أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم، والحمد لله رب العالمين، كيف تقلبُ الشيخ في درع العافية، وأحواله بتلك الناحية؛ فإني ببعده مُنْغَصٌ شِرْعَةُ الْعَيْشِ، مقصوص أجنحة الأنس. ورد كتابه المشتملُ من خير سلامته،

على ما أرغب إلى الله في إدامته، وسكنتُ إليه بعد انزعاجي لتأخره؛ وقد كان رَسَمَ أن أعرفه سببَ خروجي من جرجان، ووقوعي بجُرَّاسان، وسببَ غضبِ السلطان؟ وقد كانت القصةُ أي لما وردتُ من ذلك السلطان حضرته، التي هي كَعَبَةُ المحتاج، لا كعبة الحجاج، ومستقرُّ الكرم، لا مشعرُ الحرم، وقبلة الصلَّات، لا قبلة الصلاة، ومُنَى الضَّيِّف، لا مَنَى الخَيْف، وجدتُ بها نُدْماء من نَبَات العام، اجتمعوا قِيضَةَ كلب على تلفيق خطب، أزعجني عن ذلك الفَنَاء، وأشرف بي على الفَنَاء، لولا ما تدارك الله بجميل صنَّعه، وحسن دفعه؛ ولا أعلم كيف احتالوا، ولا ما الذي قالوا؛ وبالجملة غَيَّرُوا رأيَ السلطان، وأشار علي إخواني، بمفارقة مكاني، وبقيت لا أعلم أئِنَّةً أضرب أم شامة، ونَجْدًا أقصد أم تامة: الطويل:

ولو كنت في سلمى أجد وشعابها لكان لحجاج علي دليل

وقد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء إذا تغيم لم يُرْجع صَحْوُهُ، وماء إذا تَغَيَّرَ لم يُشرب صَفْوُهُ، ومملك إذا سَخِطَ لم يُنتظر عفوهُ، وليس بين رضاه والسخط عَوَاجِة، كما ليس بين غَضَبِهِ والسيف فَرَجَة، وليس من وراء سُخْطِهِ مجاز، كما ليس بين الحياة والموت معه حِجَاز؛ فهو سيدٌ يُغْضِبُه الجُرمُ الخَفِيّ، ولا يُرْضِيه العذر الجلي؛ وتكفيه الجناية وهي إرجاف، ثم لا تشفيه العقوبة وهي إححاف، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيّق من ظلِّ الرمح، ويَعْمَى عن العذر وهو أبين من عمود الصُّبح؛ وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان، ويحجب عن هذه العذر وله برهان؛ وذو يدين ييسط إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح؛ وذو عينين يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم، فمزحه بين القَدِّ والقَطْع، وجدّه بين السيف والنَّطْع، ومراده بين الظهور والكمون، وأمره بين الكاف والنون؛ ثم لا يعرف من العقاب، غير ضرب الرقاب، ولا يهتدي من التأنيب إلا لإزالة النعم، ولا يعلم من التأديب غير إراقة الدم، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرة، ودقة الشعرة، ولا يحلم عن الهفوة، كوزن الهبوة، ولا يُعْضِي عن السقطة، كجرم النقطة؛ ثم إن النقم بين لفظه وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، لا يلقاه الولي إلا بفمه، ولا العدو إلا بدمه؛ والأرواح بين حبسه وإطلاقه، كما أن الأجسام بين حله ووثاقه؛ فنظرتُ فإذا أنا بين جُودَيْن؛ إما أن أجودَ بئاسي، وإما أن أجودَ برأسي، وبين رُكُوبَيْن؛ إما المفازة، وإما الجِنَازة، وبين طريقَيْن؛ إما العُرْبَة، وإما التربة، وبين فَرَاقَيْن؛ إمّا أن أفارق أرضي، أو أفارق عرضي، وبين راحلتين؛ إمّا ظهور الجمال، وإمّا أعناق الرجال، فاخترتُ السماح بالوْطَن، على السماح بالبدن؛ وأنشدت: الطويل:

إذا لم يكن إلا المنية مَرَكَبٌ فلا رأي للمحمول إلا ركوبها

وَلَدَ ما ذكر من كعبة المحتاج، لا كعبة الحجاج، من قول أبي تمام: الكامل:

بيتان حجّهما الأنام؛ فهذه

حجّ الغني، وتلكم للمُعْدِم

أبو عليّ البصير

وشتم بعضُ الطالبين أبا عليّ الفضلَ بن جعفر البصير، فقال أبو عليّ: والله ما نَعِيََا عن جوابك، ولا نَعْجِزُ عن مَسَابِكْ؛ ولكنّا نكونُ خيراً لِنَسَبِكَ منك، ونحفظُ منه ما أَضَعْتَ؛ فاشْكُرْ توفيرَنَا ما وفّرْنَا منك، ولا يُعْرَنُكَ بالجهل علينا حِلْمُنَا عنك.

وسأل أبو عليّ البصير بعض الرؤساء حاجةً ولقيه؛ فاعتذر إليه من تأخرها؛ فقال أبو عليّ: في شُكْرِ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخر منه.

وأبو عليّ أَحَدُ مَنْ جُمِعَ له حظُّ البلاغة في الموزون والمنثور، وهو القائل: الطويل:

ألمت بنا يومَ الرحيل اختلاصةً	فأضرمَ نيرانَ الهوى النَّظْرُ الخَلْسُ
تأبّت قليلاً وهي تُرَعْدُ خيفةً	كما تتأتّى حينَ تَعْتَدِلُ الشمسُ
فخاطبها صمّتي بما أنا مُضْمِرٌ	وأنبستُ حتى ليس يُسْمَعَ لي حِسُ
وولّت كما ولّى الشباب لطيّة	طوتَ دونها كَشْحاً على يأسها النفسُ

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره: الطويل:

سَمِعْنَا بأشعار الملوك؛ فكلّها	إذا عَضَ مَتْنِيهِ الثَقَافُ تَأَوَّدَا
سوى ما رأينا لأمرئ القيس؛ إننا نراه متى لم يَشْعُرْ الفَتْحُ أَوْحَدَا	
أقام زماناً يَسْمَعُ القولَ صامتاً	ونحسبه إن رام أَكْدَى وأصلداً
فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه	وسار فأضحى قد أغار وأنجداً

والفتح بن خاقان يقول: الطويل:

وإني وإياها لكالْخَمَرِ، والفتى	متى يَسْتَطِيعُ منها الزيادةَ يَزْدَدِ
إذا ازدَدْتُ منها زادَ وَجْدِي بِقُرْبِهَا	فكيف احتراسي مِنْ هَوَى متجددٍ؟

وكتب إلى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى: وإن أمير المؤمنين لما استَخَلَصَكَ لنفسه، واثمنك على رعيته؛ فنطق بلسانك، وأخذَ وأعطى بيدك، وأوردَ وأصدرَ عن رأيك، وكان تفويضُهُ إليك بعد امتحانه إياك، وتَسْلِيطُهُ الحقَّ على الهوى فيك، وبعد أن مثل بينك وبين الذين سَمَوْا لمرتبك، وجروا إلى غايتك،

فأسقطهم مضاًؤك، وخفوا في ميزانك، ولم يزدك - أكرمك الله - رفعة وتشريفاً إلا ازددت له هيبَةً وتعظيماً، ولا تسليطاً وتمكيناً، إلا زدت نفسك عن الدنيا عزوفاً وتزهيهاً، ولا تقريباً واختصاصاً، إلا ازددت بالعامّة رافَةً وعليها حدباً، لا يخرجك فرط النصح له عن النظر لرعيته، ولا إثثار حقه عن الأخذ بحقّها عنده، ولا القيام بما هو له عن تضمين ما هو عليه، ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها، ولا الجد في صلاح ما يصلح منها عن النظر في عواقبها، ثمضي ما كان الرشد في إمضائه، وترجيئ ما كان الحزم في إرجائه، وتبدل ما كان الفضل في بدله، وتمنع ما كانت المصلحة في منعه، وتلين في غير تكبر، وتخص في خير ميل، وتعم في غير تصنع، لا يشقى بك الحق وإن كان عدواً، ولا يسعد بك المبتل وإن كان ولياً؛ فالسلطان يعتد لك من الغناء والكفاية، والذبّ والحيطة، والنصح والأمانة، والعفة والزاهة، والنصب فيما أدى إلى الراحة، بما يراك معه - حيث انتهى إحسانه إليك - مستوجباً للزيادة، وكافّة الرعية - إلا من غمط منهم النعمة - مثنون عليك بحسن السيرة، ويؤمن النقيية، ويعدون من مآثرك أنك لم تضحض لأحد حجة؛ ولم تدفع حقاً لشبهة؛ وهذا يسيرٌ من كثير، لو قصدنا لتفصيله، لأنفدنا الزمان قبل تحصيله، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه.

وله إلى عبيد الله بن يحيى: يقطعني عن الأخذ بحظي من لقائك، وتعريفك ما أنا عليه عن شكر إنعامك، وإفرادي إياك بالتأميل دون غيرك، تخلفي عن منزلة الخاصة، ورغبتني عن الحلول محل العامة، وأني لست معتاداً للخدمة ولا الملازمة، ولا قوياً على المغادرة والمراوحة؛ فلا يمنحك ارتفاع قدرك، وعلو أمرك، وما تعانيه من جلائل الأحوال الشاغلة، من أن تتطول بتجديد ذكري، والإصغاء إلى من يحضك على وصلي وبري، ويرغبك في إسداء حسن الصنيعة عندي.

وله إليه آخر فصل من كتاب: وأنا أسأل الله الذي رحم العباد بك، على حين افتقار منهم إليك، أن يعيدهم من فقدك، ولا يعيدهم إلى المكاره التي استنقذهم منها بيدك.

السفر

ولقي رجلٌ رجلاً خارجاً من مصر يريد المغرب، فقال: يا أخي، أتبع القطر، وتدع مجرى السيول؟ فقال: أخرجني من مصر حق مضاع، وشكى مطاع، وإقتار الكريم، وحركة اللقيم، وتغير الصديق، بين السعة والضيق، والهرب إلى التز بالعرز، خير من طلب الوفّر بذل العجز. وأوصى بعض الحكماء صديقاً له، وقد أراد سفراً، فقال: إنك تدخل بلداً لا يعرفك أهله، فتمسك بوصيّي تنفق بها فيه؛ عليك بحسن الشمائل فإنها تدك على الحرية، ونقاء - الأطراف فإنها تشهد بالملوكية؛ ونظافة البرة فإنها تنبئ عن النشء في النعمة؛ وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة، والأدب الجميل فإنه

يكسب المحبة، وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرك، والزم الحياء والأنفه؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت عن الغلبة، لم يتقدمك نظير في مرتبة. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يوصي آخر أراد سفراً، فقال: أثر بعملك معادك، ولا تدع لشهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك إلى الهدى، ويحبك من الردى، واحبس هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم؛ فإنك تبرّ بذلك سلفك، وتشيد به شرفك. وأوصت أعرابية ابنها في سفر، فقالت: يا بني، إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء؛ فخالط الناس بحمِل البشر، وأثق الله في العلانية والسر. وقال بعض الملوك لحكيم وقد أراد سفراً: قفني على أشياء من حكمتك أعمل بها في سفري، فقال: اجعل تأنيك أمام عجلتك، وحلمك رسول شدتك، وعفوك مالك قدرتك، وأنا ضامن لك قلوب رعيك، ما لم تُخرجهم بالشدّة عليهم، أو تُبترهم بالإحسان إليهم. وقال أبان بن تغلب: شهدت أعرابية لوصي ولد لها أراد سفراً وهي تقول: أي بني، اجلس أمحك وصيتي، وبالله توفيقك، قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها، مستحسناً لوصيتها، فإذا هي تقول: أي بني، إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً، وخليقاً ألا يثبت الغرض على كثرة السهام؛ وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته، حتى يهي ما اشتد من قوته؛ وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك؛ وإذا هزرت فاهرز كرباً يلن لمهزتك؛ ولا تهزز اللثيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها، ومثل بنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه؛ ومن كانت مودته بشره، وخالف منه ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح من تصرفها.

ثم أمسكت، فدنوت منها، فقلت لها: بالله يا أعرابية، إلا ما زدته في الوصية؛ قالت: أو قد أعجبك كلام العرب يا حضري؟ قلت: نعم! قالت: العدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها.

فقر في مدح السفر

أبو القاسم بن عباد الصاحب: الخبر المنقول أن المقبوض غريباً شهيد. وفي الحديث: سافروا تغموا. السفر أحد أسباب العيش التي بها قوامه، وعليها نظامه. إن الله لم يجمع منافع الدنيا في الأرض؛ بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض. المسافر يسمع العجائب، ويكسب التجارب، ويجلب المكاسب. الأسفار مما تزيدك علماً بقدره الله وحكمته، وتدعوك إلى شكر نعمته. ليس بينك وبين بلد نسب؛ فخير البلاد ما حملك.

السفرُ يُسفرُ عن أخلاق الرجال. أوحشُ أهْلَكَ إذا كان في إيحاشهم أنْسُكَ، واهْجُرْ وطنَكَ إذا نَبَتَ عنه نفسك. ربما أسفر السفر عن الظفر، وتعذر في الوطن قضاء الوطر، وأنشد: البسيط

ليس ارتحالُكَ تَرْتَادُ الغنى سفرًا بلِ المَقَامُ على خَسَفٍ هو السفرُ

وهذا كقول الطائي: الطويل

وما القفرُ بالبيدِ الفضاء، بكِ التي نَبَتَ بي وفيها ساكنوها هي القفرُ

أخذه المتنبي فقال: البسيط

إذا تَرَحَّلْتَ عن قوم وقد قَدَرُوا ألا تفارقَهُم فالرَّاحِلونَ همُ

نقيض ذلك في ذم السفر والغربة

في الحديث إن المسافرَ وماله لَعَلَى، قلت: إلا ما وَقَى الله؛ أي على هلاك. شيْثان لا يعرفهما إلا من ابْتُلِيَ بهما: السفرُ الشاسع، والبناءُ الواسع. السفرُ والسقمُ والقتال ثلاث متقاربة؛ فالسفرُ سفينة الأذى، والسقمُ حريقُ الجسد، والقتالُ منبتُ المنايا. إذا كنتَ في غير بلدك فلا تَنَسَ نصيبك من الذل. الغربةُ كربة. التَّغْلَةُ مثله. الغريب كالغرس الذي زایل أرضه، وفقدَ شِربَه؛ فهو ذَاوٍ لا يُثْمِر، وذابلٌ لا ينضِر. الغريب كالوَحشِ النَّائِي عن وطنه؛ فهو لكل سَبُعٍ فَرِيسَة، ولكل رام رَمِيَة؛ وأنشد: الوافر

لَقَرَبُ الدارِ في الإِقْتَارِ خَيْرٌ من العيشِ الموسعِ في اغْتِرَابِ

وقال أبو الفتح البُستِي: البسيط

لا يعدم المرء شيئاً يستعينُ به ومن نأى عنهم قَلَّتْ مهابتُهُ
ومنعه بين أهليه وأصحابه كاللَّيْثِ يحقرُ لما غاب عن غابِهِ

العزل بعد الموانسة

كتب أبو عبيد الله إلى المهدي بعد عَزَلِهِ إِيَّاه عن الدواوين: لم يُنْكِرِ أميرُ المؤمنين حالي في قُرْبِ الموانسة وخصوص الخلطة، وحالي عنده قَبْلَ ذلك في قيامي بواجب خدمته، التي أدتني من نعمته، فلم أبدل - أعز الله أمير المؤمنين - حال التباعد، ويقرب في محل الإقصاء، وما يعلم الله مني فيما قلت إلا ما علمه أمير المؤمنين، فإن رأى أكرمه الله أن يُعَارِضَ قولي بعلمه بدءاً وعاقبةً فعل إن شاء الله. فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبه، فقال: ظلمنا أبا عبيد الله، فإردَّ إلى حاله، ويُعَلِّم ما تجدد له من حُسْنِ رأيي فيه.

ولما أمر المأمون أن يُحجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسبب تألَم قلبه منه كتب إليه: يا أمير المؤمنين، لم يُنسني التقريبُ حالي أيامَ التباعد، ولا أغفلتني المؤانسة عن شكر الابتداء، فعلى أيِّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين، ويلحُني ذمُّ التقصيرِ في واجب خدمته؟ وأميرُ المؤمنين أعَدَلُ شهودي على الصدق فيما وصفت؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألا يكتُم شهادتي فعَل إن شاء الله.

وقال أبو جعفر المنصور لأيي مسلم حين أزمع قتله: هل كنتَ قبل قيامك بدولتنا جائزَ الأمرِ على عبدين؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. قال: فلمَ لمَ تُعرِضْ حالي عُسرتك ومَهانتك على أيامنا، وتعرِف لنا ما يَعْرِفُ غيرُك من إجلالنا وإعظامنا، حتى لا ينازعك الحين عَنان الطمأنينة؟ قال: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، ولكن الزمانَ وإساءته قلبًا ما كان من حُسنِ صنيعتي، قال: فلا مرغوبَ فيك، ولا مأسوفَ عليك، وفي الله خَلَفٌ منك! وأمر بقتله.

جملة من شعر أبي الفتح

كشاجم في الأوصاف

قال يصف أجزاء من القرآن: الخفيف

تُبْتُ أَنَسًا بِهِذِهِ الْأَجْزَاءُ	مَنْ يَتَّبُ خَشِيَّةَ الْعِقَابِ فَإِنِّي
لَكَ وَمَا خِلْتَنِي مِنَ الْقُرَاءِ	بَعَثْتَنِي عَلَى الْقِرَاءَةِ وَالنُّسْ
مِنْ قُدُودٍ وَصِيغَةٍ وَاسْتَوَاءِ	حِينَ جَاءَتْ تَرُوقُنِي بِاعْتِدَالِ
جَمِذَاتِ الْأَنْوَارِ وَالْأَضْوَاءِ	سَبْعَةَ أَشْبَهَتْ لِي السَّبْعَةَ الْأَنْ
نَ غِشَاءٍ أَحَبَّ بِهِ مِنْ غِشَاءِ	كُسَيْتٍ مِنْ أَدِيمِهَا الْحَالِكِ اللَّوْ
تِ الْعَذَارَى وَلِبْسَةِ الْخُطْبَاءِ	مُشَبَّهًا صَبْغَةَ الشَّبَابِ وَلَمَّا
فَتَاهَتْ بِحُلِيَّةٍ بِيضَاءِ	وَرَأَتْ أَنَّهَا تَحْسُنُ بِالضَّدِّ
نُورُ حَقٍّ يَجْلُو دُجَى الظُّلَمَاءِ	فَهِيَ مَسْوَدَّةُ الظُّهْرِ، وَفِيهَا
طَخِيرٌ مِنْ مُسُوكِ الظُّبَاءِ	مُطَبَّقَاتٍ عَلَى صَحَائِفِ كَالرِّي
شَاكِراتٍ صَنِيعَةِ الْأَنْوَاءِ	وَكَأَنَّ الْخُطُوطَ فِيهَا رِيَاضَ
دَعِيرٍ رَشَشْتُهُ فِي مُلَاءِ	وَكَأَنَّ الْبَيَاضَ وَالنَّقْطَ السُّوْ

وكان العُشورَ والذهب السا
وهي مشكولةٌ بعدةً أشكا
فإذا شئتَ كان حمزةً فيها
خُضرةً في خلالِ حُمْرٍ وصفٍ
مثل ما أثر الدَّيِّبُ من الذرِّ
ضمُنت مُحكمَ الكتابِ كتاب الل
فحقيقٌ عليَّ أنْ أتلوَ القر

وقال يصفُ التخت الذي يُضربُ عليه حساب الهند: الرجز

طع فيها كواكب في سماءٍ
لٍ ومقروءةٌ على أنحاءٍ
وإذا شئتَ كان فيها الكِسائي
بين تلك الأضعافِ والأثناء
على جلدِ بَصَّةٍ عذراء
ه ذي المكرُمات والآلاء
آنَ فيهنَّ مُصَبَّحي ومَسائي

وقلمٍ مدادُهُ ترابُ
يكثرُ فيها المَحْوُ والإضرابُ
حتى يبينَ الحقُّ والصوابُ
فيه ولا شكَّ ولا ارتيابُ

وقال يصف بركاراً استهداه: المنسرح:

جُدْ لي ببركارك الذي صنَّعتْ
ملتئمُ الشعبَتَيْنِ معتدلُ
شخصان في شكلٍ واحدٍ قُدرَا
أشبه شيئين في اشتكالهما
أوثقَ مسمارُهُ وغُيبَ عن
فعينُ مَنْ يجتليهِ يحسبُهُ
قد ضمَّ قُطْرِيَهُ مُحْكَمًا لهما
يزداد حِرْصاً عليه مُبْصِرُهُ
ذو مُقْلَةٍ بصرتُهُ مذهبهُ
ينظرُ فيها إلى الصوابِ فما

في صُحُفٍ سَطُورها حسابُ
من غير أن يُسَوِّدَ الكتابُ
وليس إعجامٌ ولا إعرابُ

فيه يَدًا قَيْنَةً الأعاجيبا
ماشينَ من جانبٍ ولا عيبا
ورُكبا بالعقولِ تركيبا
بصاحبٍ لا يزالُ مصحوبا
نواظرِ الناقدينَ تَغْييبا
في قالبِ الاعتدالِ مَصْبُوبا
ضمَّ مُحِبٍ إليه محبوبا
ما زادَه بالبَنانِ تَقْلِيبا
لم تَأْلُهُ رِقَّةً وتهديبا
بها يزالُ الصوابُ مطلوبا

ولا وَجَدْنَا الحسابَ محسوبا
سواه كان الحسابُ تقريبا
خرَلَهُ بالسجودِ مكبوبا
تُلَفِ الهوى بالثناءِ مَجْنُوبا

لولاه ما صحَّ خطُّ دائرة
الحقَّ فيه فإن عدلت إلى
لَوْ عَيْنُ إقليدسٍ به بصُرَت
فابعثهُ واجنبه لي بمسطرة

وقال يصف بيكاتا: البسيط:

مولد بلطيف الحسِّ والنظرِ
ولم يَبْتَ من ذَوِي ضِغْنٍ على حَذَرِ
ومُقَلَّة دَمْعُهَا جَارٍ على قَدَرِ
كأنها حركاتُ الماءِ في الشجرِ
لِلناظرين بلا ذهنٍ ولا فِكْرِ
خافي المسيرِ وإن لم يَبْكِ لم يَذُرِ
بها فيوجدُ فيها صادقُ الخبرِ
نُقِضَى به الخمسُ في وَقْتِ الوجوبِ وإن غطى على الشمسِ سِتْرُ الغَيْمِ والمَطَرِ
عرفتُ مقدارَ ما ألقى من السَّهَرِ
ذَوو التَّخِيرِ لِلأسفارِ والحَضَرِ
من النهارِ وقوسُ الليلِ والسَّحَرِ
يا حبذا أبدع الأفكارِ في الصورِ

روح من الماءِ في جِسْمٍ من الصُّفْرِ
مستعبر لم يَغِبْ عن طَرَفِهِ سَكَنِ
له على الظهرِ أجفانٌ محجرةٌ
تَنشَأُ له حركاتٌ من أسافله
وفي أعاليه حُسبانٌ يُفَصِّلُهُ
إذا بكى دارَ في أحشائه فَلَكَ
مُتَرْجَمٍ عن مَوَاقِيتٍ يخبرُنا
نُقِضَى به الخمسُ في وَقْتِ الوجوبِ وإن غطى على الشمسِ سِتْرُ الغَيْمِ والمَطَرِ
عرفتُ مقدارَ ما ألقى من السَّهَرِ
ذَوو التَّخِيرِ لِلأسفارِ والحَضَرِ
من النهارِ وقوسُ الليلِ والسَّحَرِ
يا حبذا أبدع الأفكارِ في الصورِ

وقال يصف أسطرلاباً: البسيط

عن كلِّ رافعةِ الأشكالِ مَصْفُوحِ
تمثالُ طرفٍ بشكرِ الحَذَقِ مَكْبُوحِ
على الأقاليمِ من أَقطارِها الفِيحِ
بالماءِ والنارِ والأَرْضِينِ والريحِ
بالشمسِ طَوَراً، وطَوَراً بالمصابيحِ
عرفتُ ذاكَ بعلمٍ فيه مَشْرُوحِ

ومستديرِ كَجِرْمِ البدرِ مَسْطُوحِ
صُلْبٌ يُدَارُ على قُطْبٍ يثبته
ملءُ البنانِ وقد أوفت صفائحه
تُفَى به السبعةُ الأفلاكُ مُحَدِّقَةٌ
تُنْبِيكَ عن طائِحِ الأبراجِ هيئته
وإن مضت ساعة أو بعضُ ثانية

وإنْ تعرَّضَ في وقتٍ يُقدِّره
 ممیز في قیاساتِ الضلوع بهِ
 لك التشكُّكُ جَلَّاهُ بتصحيح
 بین المشائم منها والمناجیح
 یَحْوِي الضیاء وتُجِیه من اللوح
 تنقح العقلُ فیها أي تنقیح
 إلا الخصیف اللطیفُ الحسَّ والروح
 لا یستقل لما فیهِ بمعرفة
 حتی ترى الغیب فیهِ وهو منغلق ال
 نتیجة الذهن والتفكير صوره
 ذُو العقولِ الصحیحاتِ المرَاجیح

وكان أبو شجاع فَنَاحَسَرُو عَضُدُ الدولة قد نكب أبا إسحاق الصابي، على تقدمه في الكتابة، ومكانه في
 البلاغة، واستصفى أمواله من غير إيقاع به في نفسه، فأهدى إليه في يوم مهرجان أسطراباً في دور
 الدرهم، وكتب إليه: البسيط

أهدى إليك بنو الحاجاتِ واحتشدوا
 لكن عبدك إبراهيم حين رأى
 في مَهْرَجَانٍ عظیم أنت تُعليه
 سُمُو قَدْرِكَ عن شيء يُساميه
 لم يرض بالأرض يُهديها إليك، فقد
 أفدى لك الفلكَ الأعلى بما فيه

وصف المرأة

وقول أبي الفتح: ملء البنان..... البيت نظير قول علي ابن العباس الرومي يصف هن امرأة: الخفيف:

يسعُ السبعة الأقاليم طراً
 كضميرِ الفؤادِ يَلْتَهُمُ الدن
 وهو في أصبعين من إقليم
 يا وتحويه دَفْناً حَيْرُوم

وإنما أخذه ابن الرومي من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً: السريع

في كفِّه أخرس ذو منطق
 شبر إذا قيس، ولكنه
 بقافه واللام والميم
 في فعله مثل الأقاليم
 محذف الرأسِ ومُسَوَّدُه
 كإبرةِ الرَوقِ من الرِّيم

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدي بن الرقاع العاملي، وقد وصف قُرْنَ ريم، وشبَّهه بقلم عليه
 مداد، وذكر ظبية: الكامل

تُرْجِي أغنَ كَأَنَ إبرَةَ رَوْقِهِ
 قَلَمٌ أَصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَادَهَا

وقلب المعنى إذا تمكن الشاعرُ من إخفائه لا يَجْرِي مَجْرَى السرقةِ.
وقد ترى تكثيرَ الشعراء من تشبيه أوراك النسوان بالرملِ والكُثبان، قال الشاعر: الطويل

س نضيراتِ الوجوه كأنما
الشوى لا تحتشي غير خلقها
مُرُوط الخزّ ملأى كأنها
تأزرن دُون الأزرِ رملاتِ
إذا الرُسخُ لم يصبرن دُون الم
قصار وإن طالَت بأيدي النوا

المعنى متداول متناقل في الجاهلية والإسلام، فأغرب ذو الرمة في قلبه وأحسن، فقال يصف رملا: الطويل
ل كأوراك العذارى قطعته

وكذلك مدحهم ضُمُورَ الكَشْح، وجولان الوُشْح، وصُمُوت القلب والخلخال، وامتناع الخِدام من
المَجَال؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية، وذكر رملة بنت الزبير بن العوام: الطويل:

تجولُ خلاخيلُ النساءِ، ولا أرى
أحب بني العوام طراً لحبها
لرِملَة خلخالاً يجولُ ولا قلباً
ومن أجلها أحببتُ أخوالها كلباً
وقال النابغة: الطويل:

على أن حِجْلَيْهَا وإن قلت أوسعا
صمُوتانِ من ملء وقلّة منطقِ
وقال الطائي: الطويل:

مَهَا الوحشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أوانِسْ
من الهيف لو أن الخلاخيلَ صيَّرت
قَنَا الخطِ إِلَّا أَنْ تَلِك ذَوَابِلُ
لها وُشْحاً جالت عليها الخلاخِلُ
وقال ابن زرعة الدمشقي: الكامل:

اسْتَكْتَمَتْ خَلخالها وَمَشَتْ
حتى إذا ريحُ الصَّبَا نَسَمَتْ
تحت الظلام به فما نطقا
ملأ العبيرُ بسيرها الطُرُقَا
وقال المتنبي: الوافر:

وخصرٌ تثبَّتُ الأبصارُ فيه
قلْبَ هذا كلّه أبو عثمان الناجم، فقال يهجو قَيْنة، مخلع البسيط:

مسلولة الكلِّ غيرَ بَطْنٍ
حُجولها الدهرُ في اصْطِخابٍ
متقل فهي عنكبوتُ
ووشحها كظم صُمُوتُ
وقال أبو عثمان يمدح قَيْنة: السريع

محسنة في كل ألحانها

لا كالتّي تحسن في النذرة

ثم قلبه في هجاء، فقال: السريع:

عجبتُ منها ويَحَهَا كيف لا

تُخطئُ بالإحسان في النذرة

وهذا مأخوذ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق، وكان قد تقلد قضاء البصرة: السريع:

يا عجباً من خالدٍ كيف لا

يخطئُ فينا مرةً بالصواب

كان قضاة الناس فيما مضى

من رحمة الله، وهذا عذاب

وهذا أيضاً من قلب الهجاء مديحاً، والمديح هجاء؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوماً: الكامل:

قَبَحَتْ مَنَاطِرُهُمْ فحين خَبَرْتُهُمْ

حَسَنْتَ مَنَاطِرُهُمْ بقبح المخبر

قلبه أبو الطيب المتنبّي فقال: الطويل:

وَأَسْتَكْثِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ

فَلَمَّا التَّقَيْنَا صَغَرَ الْخَبَرُ الْخَبْرُ

وقال أبو تمام: الكامل:

عَبَأَ الْكَمِينَ لَهُ فَضْلٌ لَحِينِهِ

وَكَمِينُهُ الْمَخْفِيُّ عَلَيْهِ كَمِينُ

قلبه البحترى فقال: المنسرح:

لَا يَبْأَسُ الْمَرْءُ أَنْ يُنْجِيَهُ

مَا يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّهُ عَطْبُهُ

وقال أبو تمام: الكامل:

وَحَشِيَّةُ تَرْمِي الْقُلُوبَ إِذَا غَدَتْ

وَسَنَى فَمَا تَصْطَادُ غَيْرَ الصَّيْدِ

قلبه البحترى فقال: الطويل

عَلَى أَنَّنِي أَخْشَى عَلَى دَارِ أَمْنِهَا

فَوَارِسَ يَصْطَادُ الْفَوَارِسَ صَيْدُهَا

وقال أبو تمام: الخفيف:

يُشْنَأُ الْغَيْثُ وَهُوَ جَدُّ حَبِيبِ

رَبِّ حَرَامِ بَغْضَةِ الْمُومِقِ

قلبه البحترى فقال: المنسرح:

يَسْرُنِي الشَّيْءُ قَدْ يَسُوءُكُمْ

نَوَهَ يَوْمًا بِخَامِلٍ لِقَبِّهِ

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: المعنى في المصراع الأول أَيْبُنُ منه في الثاني؛ ألا ترى أنه لو قال: إنه

ليسوءك الشيء قد يسر، كان مثل ذلك المعنى مستوياً، إلا أنه قلبه لحاجته.

قال ابن الرومي يهجو مغنية: الرمل:

قينة ملعونة من أجلها رَفَضَ اللّهُ مَعاً مَنْ رَفَضَهُ
 فإذا غنت ترى في حلقها كل عِرْقٍ مثل بيتِ الأرضة
 فقلبه ابن المعتز فقال يصف أرضة أكلت له كتاباً: الرجز
 تنثني أنابيب لها فيها سبل مثل العروق لا ترى فيها خلل
 وهذا كثير يُكتفى منه باليسير.

ما لا ينقلب من المعاني

ومن المعاني ما لا ينقلب: ألا تَرَى أنك تقول: نام القوم حتى كأنهم موتى، ولا يحسن أن تقول: ماتوا حتى كأنهم نيام؛ وقد أخذ على أبي نواس قوله يصف داراً وقف بها: السريع:
 كأنها إذ خرست جارم بين يدي تقنيده مطرق
 قالوا: إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عدلوه فسكت وانقطعت حجته بالدار الخالية التي لا تُجيب.
 وأخذوا عليه قوله: البسيط:

كأن نيراننا في جنب حصنهم معصفرات على أرسان قصار
 وقد تبعه أبو تمام الطائي فقال في الأفسين لما أحرق: الكامل:
 ما زال سرُّ الكُفر بين ضلُوعه حتى اصطلَى سرَّ الزنادِ الواري
 نارٌ يساورُ جسمه من حرها لَهَبٌ كما عصفت شِقْ إزار
 طارت له شُعْلٌ يهدم لفحها أركانهُ هَدَمًا بغيرِ غبار
 فصلَّن منه كلَّ مجمع مفصل وفعلنَ فاقرةً بكلِّ فقار
 صلَّى لها حيًّا، وكان وقودها مَيِّتًا، ويدخلها مع الكفار
 وكذاك أهلُ النارِ في الدنيا هم يومَ القيامةِ جلُّ أهلِ النارِ

أردت البيت الثاني، قالوا: وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار؛ فهذا وما أشبهه لا يتوازن انعكاسه، وتتضادّ قضاياه؛ وإنما يصح القلب فيما يتحقّق تضادّه أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر في ذكر النجوم

قال أبو الفتح البستي: البسيط:

قد غَضَّ مِنْ أَمَلِي أَنِّي أَرَى عَمَلِي
وَأُنْثِي رَاحِلَ عَمَّا أَحَاوِلُهُ

وقال: البسيط

أَقْوَى مِنَ الْمَشْتَرِي فِي أَوَّلِ الْحَمَلِ
كَأَنَّنِي أَسْتَدْرُ الْحِظَّ مِنْ زُحَلٍ

إِذَا غَدَا مَلَكٌ بِاللَّهْوِ مُشْتَغَلًا
أَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ فِي الْمِيزَانِ هَابِطَةً

وقال: الوافر

فَاحْكَمْ عَلَى مُلْكِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ
لَمَّا غَدَا بَرَجُ نَجْمِ اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ؟

وَقَدْ تَدْنِي الْمُلُوكُ لَدَى رِضَايَا
كَمَا الْمَرِيخُ فِي التَّنْثِيلِثِ يُعْطَى
وقال: المتقارب

وَتُبْعِدُ حِينَ تَحْتَقِدُ احْتِقَادَا
وَفِي التَّرْبِيعِ يَسْلُبُ مَا أَفَادَا

أَلَا فَتَقُوا بِي فَإِنِّي كَمَا
فَمَا كَوَكْبِي رَاجِعًا فِي الْوَفَاءِ

وقال: المتقارب

تَمَدَّحْتُ فَلَيْمَتَحْنُ مِنْ يُحِبُّ
وَلَا بُرْجُ قَلْبِي بِالْمَنْقَلَبِ

لئن كَسَفُونَا بِلَا عِلَّةٍ
فَقَدْ يَكْسِفُ الْمَرْءُ مَنْ دُونَهُ

وقال: الرمل:

وَفَازَتْ قِدَاحُهُمْ بِالظَّفَرِ
كَمَا يَكْسِفُ الشَّمْسُ جِرْمُ الْقَمَرِ

شَرَفُ الْوَعْدِ بُوْغْدٍ مِثْلِهِ
وَدَلِيلُ الصَّدَقِ فِيمَا قُلْتُهُ

وقال: الكامل:

مَا فِيهِ بَزِيغٍ وَخَلَلٍ
شَرَفُ الْمَرِيخِ فِي بَيْتِ زُحَلٍ

قُلْ لِلَّذِي غَرَّتْهُ عِزَّةُ مُلْكِهِ
شَرَفُ الْمُلُوكِ بَعْلَمُهُمْ وَبِرَأْيِهِمْ

وقال: المتقارب:

حَتَّى أَخْلَ بَطَاعَةَ النِّصْحَاءِ
وَكَذَلِكَ أَوْجُ الشَّمْسِ فِي الْجُوزَاءِ

وَقَدْ يَفْسُدُ الْمَرْءُ بَعْدَ الصَّلَاحِ
كَمَا السَّعْدُ يَقْبَلُ طَبْعَ النُّحُوسِ

وقال: الرجز:

فَسَادَ الْأَمَاكِنُ، وَالشَّرُّ يُعْدِي
إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ سَعْدٍ

ما أنسُ ظمآنٍ بماءٍ باردٍ

إلا كأنسي بكتابٍ واردٍ

كأنما استملاه من عطارٍ

وقال: الكامل:

يا معشرَ الكتاب لا تتعرضوا

إن الكواكب كن في أشرافها

وقال: المتقارب:

دعاني إلى بيته سيّدٌ

فلازمتُ بيتي ولاطفتهُ

عطارٌ نجمي، ولا شك أن

وقال: البسيط:

لئن تنقلتُ من دارٍ إلى دارٍ

فالحر حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثوى

وقال: الطويل:

لئن صدع الدهرُ المشتتُ شملنا

فللنجم من بعد الرجوع استقامةٌ

وقال لخبوس: الطويل:

حُبِسْتُ ومن بعد الكسوف تلبّج

فلا تعتقدُ للحبس غمًا ووحشةً

وقال أيضاً: الكامل:

يا من تولى المشتري تدبيره

وقال: الكامل:

لا تفرعن من كل شيء مُفرعٍ

وقال يرثي أبا القاسم صاحب: الطويل:

من بعد طول العهد بالمواردِ

من سيدٍ محض النجار ماجدٍ

لرياسةٍ، وتصاغروا وتخاذموا

إلا عطارٍ حين صور آدمُ

له الخلق الأشرف الأظرفُ

بعذر هو الأظرف الأظرفُ

عطارٍ في بيته أشرفُ

وصرتُ بعد ثواء رهن أسفارٍ

والشمسُ في كل بُرج ذات أنوارٍ

وللدهر حكم للجميع صدوغُ

وللشمس من بعد الغروب طلوع

تضيءُ به الأفاقُ للبدر والشمسِ

فأول كون المرء في أضيق الحبسِ

حاشاك أن تنقاد للمريخِ

ما كل تدبير البروج بضائرٍ

فَقَدْنَاهُ لَمَّا تَمَّ وَاعْتَمَ بِالْعُلَا
كَذَاكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست لأبي الفضل الميكالي: الوافر:

إِذَا مَا غَابَ وَجْهُ الْبَدْرِ عَنَا
فَوَجَّهْكَ عِنْدَنَا الْبَدْرُ الْمُقِيمُ
فَإِنْ رَجَعْتَ نَجُومُ السَّعْدِ يَوْمًا
فَوَجَّهْكَ نَجْمُ سَعْدٍ مُسْتَقِيمُ

وقال مسكويه الخالدي: البسيط:

لَا يَعْجِبُكَ حَسَنُ الْقَصْرِ تَنْزِلُهُ
لَوْ زِيدَتْ الشَّمْسُ فِي أَبْرَاجِهَا مَائَةً
فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا
مَا زَادَ ذَلِكَ شَيْئًا فِي فُضَائِلِهَا

وقال أبو بكر الخوارزمي: الطويل:

رَأَيْتُكَ إِنْ أُيْسِرْتَ خِيَمْتَ عِنْدَنَا
لِزَامًا، وَإِنْ أُعْسِرْتَ زُرْتَ لَمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ: إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ
أَغْبَى، وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات: الرمل:

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَانَعَتْهُ
وَأَبٌّ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدُ إِنْ أَثَرَى، وَلَا
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

وقال ابن المعتز: الطويل:

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ انْهْدَامَهُ
بِنَاهُ إِلَهٍ غَالِبُ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرٍ
تَزِينُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَمَأْثَرُهُ؟
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لِفَتْقَارِهِمْ
وَلَا تَهْتَدِي يَوْمًا إِلَيْهِمْ مَقَافِرُهُ
وَكَانُوا كَرَامَ كَوْكَبَا بِبِصَاقِهِ
فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَبَلَّهَ وَمَوَاطِرُهُ

وهذا البيت كما قال بعض العرب في إحدى الروايات: الطويل:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي
بَرِيًّا وَمِنْ جَالِ الطُّوِيِّ رَمَانِي

الجُولُ والجَالُ: الناحية، والطوي: البئر؛ يريد رماني بما عاد عليه، والرواية المشهورة: من أجل الطُّوي، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز.

من أخبار الأصمعي

قال بعضُ الرواة: كنّا مع أبي نصر رَاوية الأصمعي في رياضٍ من المذاكرة نَحْتِي ثمارها، وَنَحْتَلِي أنوارها، إلى أن أَفْضَنّا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قَرِيب الأصمعي؛ فقال: رحم الله الأصمعي! إنه لمعدنٌ حَكَم، وَبَحْرٌ عِلْم، غيرَ أنه لم نر قط مثلَ أعراي وقف بنا فسلم، فقال: أيكم الأصمعي؟ فقال: أنا ذاك، فقال: أتأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حُسن أدبه مع جفاء أدب الأعراب.

قال: يا أصمعي، أنتَ الذي يزعمُ هؤلاء النَّفر أنك أثقُبُهُم معرفة بالشعر والعريية، وحكايات الأعراب؟ قال الأصمعي: فيهم مَنْ هو أعلم مِنِّي، وَمَنْ هوَ دُوني، قال: تنشِدونني من بعض شعر أهل الحضرة حتى أقيسه على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك: الطويل:

أَمْسَلَمَ، أَنْتَ الْبَحْرُ إِنْ جَاءَ وَارِدٌ	وليث إذا ما الحربُ طارَ عِقَابُهَا
وَأَنْتَ كَسِيفُ الْهِنْدُؤَانِي إِنْ غَدَتْ	حوادثٌ من حربٍ يعبُ عُبَابُهَا
وَمَا خُلِقْتَ أَكْرَوْمَةً فِي امْرئٍ لَهُ	ولا غايةَ إِلَّا إِلَيْكَ مَأْبُهَا
كَأَنَّكَ دِيَّانٌ عَلَيْهَا مُوَكَّلٌ	بها، وعلى كفيكَ يَجْرِي حِسَابُهَا
إِلَيْكَ رَحَلْنَا الْعَيْسَ إِذْ لَمْ نَجِدْ لَهَا	أخا ثقةً يَرْجَى لَدِيهِ ثَوَابُهَا

قال: فتبسّم الأعراي، وهزَّ رأسه، فظننا أن ذلك لاستحسانه الشعر، ثم قال: يا أصمعي، هذا شعرٌ مهلهل خَلَقَ النسيج، خطؤه أكثر من صوابه، يغطي عيوبه حسن الرويِّ، ورواية المنشد؛ يشبهون الملك إذا امتدح بالأسد، والأسد أبخر شتيم المنظر، وربما طرده شَرْدِمَةً من إِمَائِنَا، وتلاعَبَ به صبياننا، ويشبهونه بالبحر، والبحرُ صَعْبٌ على مَنْ رَكِبَهُ، مُرٌّ على من شربه، وبالسيف وربما خان في الحقيقة، ونَبَا عند الضَّرِيَّة! ألا أنشدتني كما قال صبيٌّ من حِينَا! قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده: البسيط:

إِذَا سَأَلْتَ الْوَرَى عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ	لَمْ يُعْزَرَ إِكْرَامُهَا إِلَّا إِلَى الْهَوْلِ
فَتَنَى جَوَادُ أَذَابِ الْمَالِ نَائِلُهُ	فَالنَّيْلُ يَشْكُرُ مِنْهُ كَثْرَةَ النَّيْلِ
الْمَوْتُ يُكْرِهُ أَنْ يَلْقَى مَنِيَّتَهُ	فِي كَرِّهِ عِنْدَ لَفِّ الْخَيْلِ بِالْخَيْلِ
وَزَا حَمِ الشَّمْسِ أَبْقَى الشَّمْسِ كَاسِفَةٍ	أَوْ زَا حَمِ الصُّمِّ أَلْجَأَهَا إِلَى الْمَيْلِ
أَمْضَى مِنَ النِّجْمِ إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ	وَعِنْدَ أَعْدَائِهِ أَجْرَى مِنَ السَّيْلِ
لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا	وَلَا تَرَاهُ إِلَيْهَا سَاحِبَ الذَّيْلِ
يَقْصُرُ الْمَجْدُ عَنْهُ فِي مَكَارِمِهِ	كَمَا يَقْصُرُ عَنْ أَفْعَالِهِ قَوْلِي!

قال أبو نصر: فأبْهَتَنَا والله ما سمعنا من قوله، قال: فتأتى الأعرابي، ثم قال للأصمعي: ألا تنشدين شعراً ترتاحُ إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فأنشده لابن الرِّقاع العاملي: الطويل:

وناعمة تجلُّو بعود أراكِ
مؤشِّرة يسبي المعانق طيِّبها
كأنَّ بها خمراً بماءِ غمامةٍ
إذا ارتشفتْ بعد الرِّقاد غروبها
أراكِ إلى نجدٍ تحنُّ، وإنما
منى كلِّ نفس حيثُ كان حبيبها

فتبسَّم الأعرابي وقال: يا أصمعي، ما هذا بدون الأول، ولا فوقه، ألا أنشدتني كما قلت؟ قال الأصمعي: وما قلت؟ جعلت فداك! فأنشده: الطويل:

تعلَّقْتُها بكراً، وعُلِّقْتُ حبَّها
فقلبي عن كلِّ الورى فارغٌ بكرُ
إذا احتجبتْ لم يكفكِ البدرُ ضوءَها
وتكفيك ضوءَ البدرِ إن حُجبَ البدرُ
وما الصبرُ عنها، إن صبرتَ، وجدتهُ
جميلاً، وهل في مثلها يحسنُ الصبرُ؟
وحسبكُ من خمر يفوتُك ريقُها
ووالله ما من ريقها حسبكُ الخمرُ
ولو أن جلد الذرِ لامَسَ جلدَها
لكان لمسَ الذرِ في جلدِها أثرُ
ولو لم يكنْ للبدرِ ضدًّا جمالُها
وتفضله في حسنها لصفا البدرُ

قال أبو نصر: قال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطرافِ المدى في رِقاق الأكبَاد! قال: وأقامَ عندنا شهراً، فجمَعَ له الأصمعيُّ خمسَ مائة دينار، وكان يتعاهدنا في الحين بعد الحين، حتى مات الأصمعي وتفرَّق أصحابنا!

فِقْرٌ من كلام الأعراب

في ضروب مختلفة

قال الجاحظ: ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع، ولا أنفع، ولا أنق، ولا ألذَّ في الأسماع، ولا أشدَّ اتِّصالاً بالعقول السليمة، ولا أفْتَقُّ للسان، ولا أجود تقويماً للبيان، من طولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء.

قال ابنُ المقفع، وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته: أي حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدوي لم ير ريفاً، ولم يشيع من طعام؛ يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي

إلى القفر والبراييع والظباء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان؛ فإذا قال الشعر وصف ما لم يره، ولم يغذ به، ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساوئها، ويمدح ويهجو، ويذم ويعاتب، ويشيب ويقول ما يُكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه.
وقال بعض الأعراب: الطويل:

وإني لأهدى بالأوانس كالدمى
وإني بأطراف القنا للعوب
وإني على ما كان من عنجهيتي
ولؤثة أعرابيتي لأديب

كأن الأدب غريب من الأعراب، فافتخر بما عنده منه.

وقال الطائي في فطنتهم، يستعطف مالك بن طوق على قومه بني تغلب: الكامل:

لا رقة الخصر اللطيف غدتهم
وتباعدوا عن فطنة الأعراب
فإذا كشفنهم وجدت لديهم
كرم النفوس وقلة الآداب

ووصف أعرابي رجلاً فقال: هو أطهر من الماء، وأرق طباعاً من الهواء، وأمضى من السيل، وأهدى من النجم.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله من ينفع سلمه، ويتوآصف حلمه، ولا يستمرأ ظلمه.

وقال أعرابي: جلست إلى قوم من أهل بغداد فما رأيت أرحح من أحلامهم، ولا أطيئ من أقلامهم.
وذكر أعرابي من بني كلاب رجلاً فقال: كان والله الفهم منه ذا أذنين، والجواب ذا لسانين، ولم أر أحداً ارتق لخلل رأي، ولا أبعد مسافة روية، ومَرَاد طَرَف منه؛ إنما كان يرمي بهمة حيث أشار إليه الكرم، وما زال يتحسى مرارة أخلاق الإخوان، ويسقيهم عذوبة أخلاقه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: والله لكأن القلوب والألسن رِيضت له، فما تُعَقَّد إلا على وُده، ولا تنطق إلا بحمده.

وقال أعرابي: أقبح أعمال المقتدرين الانتقام، وما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبير.

قال الأصمعي: وخطبنا أعرابي بالبادية، فقال: أيها الناس، إن الدنيا دارٌ مفر، والآخرة دار مقر؛ فخذوا من مفركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تحفى عليه أسراركم.

قال المعافر بن نعيم: وقفت أنا ومعبد بن طوق العنبري على مجلس لبني العنبري، وأنا على ناقة وهو على حمار، فقاموا فبدأوني فسلموا علي؛ ثم انكفأوا على معبد، فقبض يده عنهم؛ وقال: لا، ولا كرامة! بدأتم بالصغير قبل الكبير، وبالمولى قبل العربي، وبالمفحم قبل الشاعر، فأسكت القوم، فانبرى إليه غلام، فقال:

بدأنا بالكاتب قبل الأُمي، وبالمهاجر قبل الأعْرابي، وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار.
 ووصف أعْرابي قومه فقال: ليوثُ حَرْبٍ، وغُيُوثُ جَدْبٍ، إن قاتلوا أبلُوا، وإن بذلوا أَعْنُوا.
 ووصف أعْرابي قوماً فقال: إذا اصطَفُوا سَفَرَتْ بينهم السهام، وإذا تصافَحُوا بالسيوف فَعَرَفَمَه الحِمَامُ.
 وسئل أعْرابي عن صديق له، فقال: صَفِرَتْ عِيَابُ الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفَهَرَتْ وجوهُ كانت بمائها.

وقال الأصمعي: وسمعت أعْرابياً يقول: إن الآمالَ قَطَعَتْ أعناقَ الرجال، كالسرّاب غَرَمَنْ رآه، وأخلف من رَجاه، ومَنْ كان الليلُ والنهارُ مَطِيئته أسرعَا السير والبلوغ به: البسيط:

والمرءُ يفرح بالأيام يقطعُها وكلُّ يومٍ مضى يُدْني من الأجلِ

وذكر أعْرابي مصيبةً نالته، فقال: إنها، والله، مصيبةٌ جعلت سُودَ الرؤوس بيضاً، وبيضَ الوجوه سوداً، وهونت المصائب، وشيّبت الذوائب.
 وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدي: الوافر:

رَمَى الحَدِثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بمقدارٍ سَمَدَنْ لَهُ سُمُودَا

فرد شعورهن السُّودَ بيضاً ورد وجوههن البيضَ سُودَا

وإنك لو رأيت بكاءً هِنْدٍ ورَمَلَةً إذ تَصُكَّانِ الخُدُودَا

بَكَيْتَ بَكَاءً مُعُولَةٍ حَزِينٍ أَصَابَ الدهرُ واحداًها الفقيدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبيض، وإن لم يكن من هذا المعنى، قولُ ابن الرومي: الخفيف:

يا بياضَ المَشِيبِ سَوَدَّتْ وَجْهِي عند بياضِ الوجوه سُودِ القرونِ

فلعمري لأخفينك جَهْدِي عن عياني وعن عيانِ العيونِ

ولعمري لأمنعك أن تَضَ حَكْ في رَأْسِ آسَفٍ محزونِ

بسوادٍ فيه ابيضاضٌ لوجهي وسوادٌ لوجهك المَلْعُونِ

سأل أعْرابيان رجلاً، فحرمهما، فقال أحدهما لصاحبه: نزلتَ والله بوادٍ غير مَمْطور، وأتيتَ رجلاً بك غير مسرور، فلم تدرك ما سألت، ولا نلتَ ما أملتُ؛ فارتحلَ بندم، أو أقمَ على عَدَم.
 قال الأصمعي: وسمعتُ أعْرابياً يقول: غَفَلْنَا ولم يَعْمَلِ الدهرُ عَمّاً، فلم نَعِظْ بغيرنا حتى وُعِظَ غيرُنَا بنا، فقد أدركتِ السعادةُ من تَنَبّه، وأدركتِ الشقاوةُ من غَفَل، وكَفَى بالتجربة واعظاً.

وقال أعرابي لرجل: أشكر للمنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك، تستوجب من ربك زيادته، ومن أخيك مناصحته.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذلك والله فسيح الأدب، مُستَحْكِم السبب، من أيّ أقطاره أتيتهُ تُثني عليه بكرم فعال، وحُسن مقال.

وذمّ أعرابي رجلاً فقال: أفسد آخرته بصلاح دُنياه، ففارق ما أصلح غير راجع إليه، وقدم على ما أفسد غيرَ منتقل عنه، ولو صدق رجلُ نفسه ما كذبتّه، ولو ألقى زمامه أوطأه راحلته.

وقال أعرابي: خرجت حين انحدرت أيدي النجوم، وشالت أرجلها، فما زلتُ أصدع الليل حتى انصدع الفجر.

وقال أعرابي: الرجز:

وقد تعاللتُ ذمِيلَ العنَسِ
بالسَّوْطِ فِي دَيْمُومَةٍ كالتَّرْسِ

إِذْ عَرَجَ اللَّيْلُ بُرُوجَ الشَّمْسِ

ومن مليح الاستعارة في نحو هذا قولُ الحسن بن وهب: شربت البارحة على وَجْهِ الجوزاء؛ فلما انتبه الفجرُ نمتُ، فما عقلت حتى لَحَفَنِي قَمِيصُ الشَّمْسِ.

وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره: قل إن شاء الله، فإنها تُرضي الربَّ، وتُسَخِّطُ الشَّيْطَانَ، وتُذهِبُ الحِنْتَ، وتَقْضِي الحاجة.

وروى العتيبي عن أبيه قال: سمعت أعرابياً يقول لأخيه في معاتبة جرّت بينهما: أما والله لرُبَّ يومٍ كَتَنُورِ الطاهي، رَقَّاصٍ بالحمامة، قد رميتُ نَفْسِي فِي أَجِيجِ سَمُومِهِ، أَحْتَمِلُ مِنْهُ مَا أَكْرَهُ لِمَا أَحَبُّ.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: وأحسب العتيبي صنع هذا الكلام، وأخذه من قول بشار: الطويل:

ويوم كَتَنُورِ الإِماءِ سَجَرَنَهُ
وَأوقَدَنَ فِيهِ الْجَزَلَ حَتَّى تَضُرَّ مَا

رَمِيتُ بِنَفْسِي فِي أَجِيجِ سَمُومِهِ
وبالعيسِ حَتَّى بَضَّ مَنَخرَها دَمًا

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبي العباس ثعلب فقال يهجو المبرد: الطويل:

ويوم كَتَنُورِ الطَّهاةِ سَجَرَتُهُ
على أَنَّهُ مِنْهُ أَحَرٌّ وَأوقَدُ

ظَلَلْتُ بِهِ عِنْدَ الْمَبْرَدِ جالِسا
فما زَلْتُ فِي أَلْفاظِهِ أَتَبَرَدُ

قال الأصمعي: حجت أعرابيةٌ ومعهما ابنُ لها، فأصيبت به، فلمّا دُفِنَ قامت على قبره، وهي مُوجَعَةٌ فقالت: واللّهِ يا بنيّ لقد غَدَوْتُكَ رَضِيعاً، وفقدْتُكَ سَرِيعاً، وكأنّه لم يكن بين الحالين مدّةً ألتذُّ بعيشك فيها، فأصبحت بعد النَّصَارَةِ والعَصَاةِ ورونق الحياة والتنسّم في طيب روائحها، تحت أطباق الثرى جَسداً

هامداً، ورُفَاتاً سحيقاً، وصعيداً جُرُزاً؛ أي بني! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيالَ الفناء، وأَسَكَّتِكَ دارَ
الْبَلَى، ورمَنتي بعدك نَكْبَةً الرَّدَى، أي بني، لقد أُسْفِر لي وجهُ الدنيا عن صباحٍ دَاجٍ ظلامُهُ.
ثم قالت: أي ربّ ومنك العدل، ومن خَلَقِكَ الجَوْر، وهَبَّتْه لي قُرّةَ عين فلم تُمَتِّعني به كثيراً، بل سَلَبْتَنِيهِ
وَشَيْكاً؛ ثم أمرتني بالصبر، ووَعَدْتَنِي عليه الأجر، فصَدَقْتَ وَعْدَكَ، ورضيت قضاءك، فرحم الله من ترحّم
على من استودَعْتَهُ الرِّدْمَ، ووَسَدْتُهُ الثَّرَى؛ اللهم ارحم غربته، وآنس وحشته، وأستر عَوْرَتَه، يوم تُكْشَفُ
الْهَنَاتِ والسَّوْءَاتِ.

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره، فقالت! أي بني، إني قد تزوَّدْتُ لسفري، فليت شعري
ما زادكَ لُبْعِدَ طريقك، ويوم مَعَادِكَ؟ اللهم إني أسألك له الرضا برضائي عنه. ثم قالت: استودَعْتُكَ مَنْ
استودَعَنِيكَ في أَحْشَائِي جَنِيناً؛ وأثكلَ الوالدات! ما أَمْضَ حرارةَ قلوبهنّ، وأَقْلَقَ مضاجِعهنّ، وأطولَ
ليلهنّ، وأَقْصَرَ نهارهنّ، وأَقْلَ أنسهنّ، وأشدَّ وحشتهنّ، وأبعدهنّ من السرور، وأقربهنّ من الأحزان.

لم تزل تقولُ هذا ونحوه حتى أبكت كل مَنْ سَمِعَهَا. وحمدت الله عزَّ وجلَّ واسترجعتْ وصلت ركعات
عند قبره وانطلقت.

وأنشد المفضلُ الضبيُّ لامرأةٍ من العربِ ترثي ابناً لها: الكامل:

يا عمرو مالي عنك من صبرٍ	يا عمرو يا أسفي على عمرو
لله يا عمرو، وأي فتى	كفنت يوم وضعت في القبر؟
أحتوا الترابَ على مفارقة	وعلى غصارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشبابُ به	وبدا مُنِيرَ الوجه كالبدر
ورجا أقاربه منافعة	ورأوا شمائل سيّد غمر
وأهمه همي فساورة	وغداً مع الغادين في السفر
تغدو به شقراء سامية	مرطى الجراء شديدة الأسر
ثبت الجنان به، ويقدمها	فلح يقلب مقتلتي صقر
ربيته دهرًا أفتقه	في اليسر أغذوه وفي العسر
حتى إذا التأميلُ أمكنني	فيه قبيل تلاحق الثغر
وجعلت من شغفي أنقله	في الأرض بين تتائف غبر

أَدْعَ الْمَزَارِعَ وَالْحَصُونَ بِهِ
مَا زِلْتُ أُصْعِدُهُ وَأُحْدِرُهُ
هَرَبًا بِهِ وَالْمَوْتُ يُطْلِبُهُ
حَتَّى دَفَعْتُ بِهِ لِمَصْرَعِهِ
مَا كَانَ إِلَّا أَنْ هَجَعْتُ لَهُ
وَرَمَى الْكَرَى رَأْسِي وَمَالَ بِهِ
إِذْ رَاعَنِي صَوْتُ هَبِيبَتِ بِهِ
وَإِذَا مَنِيَّتُهُ تَسَاوَرُهُ
وَإِذَا لَهُ عَلَقٌ وَحَشْرَجَةٌ
وَالْمَوْتُ يَقْبِضُهُ وَيَبْسُطُهُ
فَدَعَا لِأَنْصُرَهُ وَكُنْتُ لَهُ
فَعَجَزْتُ عَنْهُ وَهِيَ زَاهِقَةٌ
فَمَضَى وَأَيُّ فَتَى فُجِعْتُ بِهِ
لَوْ قِيلَ تَقْدِيرُهُ بِذَلِكَ لَهُ
أَوْ كُنْتُ مُقْتَدِرًا عَلَى عُمْرِي
قَدْ كُنْتُ ذَا فَقْرٍ لَهُ، فَعَدَا
لَوْ شَاءَ رَبِّي كَانَ مُتَعْنِي
بُنَيْتٌ عَلَيْكَ بُنْيَ، أَحُوجُ مَا
لَا يَبْعِدُنكَ اللَّهُ يَا عُمْرِي
هَذَا سَبِيلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ
أَوْ لَا تَرَاهُمْ فِي دِيَارِهِمْ
وَالْمَوْتُ يُورِدُهُمْ مَوَارِدَهُمْ
وَقَالَ أَغْرَابِي يَمْدَحُ رَجُلًا الطَّوِيلَ:
يَمْدُ نَجَادَ السَّيْفِ كَأَنَّهُ

وَأَحْلُهُ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ
مَنْ قُتِرَ مَوْمَاةً إِلَى قُتْرِ
حَيْثُ انْتَوَيْتُ بِهِ وَلَا أُدْرِي
سَوَقَ الْمُعِيزِ تُسَاقٍ لِلْعَتْرِ
وَرَمَى فَأَغْفَى مَطْلَعَ الْفَجْرِ
رَمْسٌ يُسَاوِرُ مِنْهُ كَالسُّكْرِ
وَذُعِرْتُ مِنْهُ أَيَّمَا ذُعْرِ
قَدْ كَذَحْتُ فِي الْوَجْهِ وَالنَّحْرِ
مِمَّا يَجِيئُ بِهِ مِنَ الصَّدْرِ
كَالْثَوْبِ عِنْدَ الطِّيِّ وَالنَّشْرِ
مَنْ قَبْلَ ذَلِكَ حَاضِرَ النَّصْرِ
بَيْنَ الْوَرِيدِ وَمَدْفَعِ السَّحْرِ
جَلَّتْ مَصِيبَتُهُ عَنِ الْقَدْرِ
مَالِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ وَفْرِ
آثَرْتُهُ بِالشَّطْرِ مِنْ عُمْرِي
وَرَمَى عَلَيَّ وَقَدْ رَأَى فَقْرِي
بَابْنِي وَشَدَّ بِأَزْرِهِ أَزْرِي
كُنَّا إِلَيْكَ، صَفَائِحُ الصَّخْرِ
إِمَّا مَضَيْتُ فَنَحْنُ بِالْإِثْرِ
لَا بَدَّ سَالِكَهَا عَلَى سَفْرِ
يَتَوَقَّعُونَ وَهُمْ عَلَى ذُعْرِ
قَسْرًا؛ فَقَدْ ذَلُّوا عَلَى الْقَسْرِ
بِأَعْلَى سَنَامِي فَالَجَ يَتَطَوَّحُ

وَيُدْلِجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ
إِذَا اعْتَمَّ بِالْبُرْدِ الْيَمَانِي حَسْبَتَهُ
يَزِيدُ عَلَى فَضْلِ الرِّجَالِ فَضِيلَةً
وَأَنْشَدَ ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ لِأَعْرَابِيٍّ: الطويل:

وَقَبْلِي أَبْكَى كُلِّ مَنْ كَانَ ذَا هَوًى
وَهُنَّ عَلَى الْأَطْلَالِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
هَتُوفُ الْبَوَاكِي وَالْدِيَارِ الْبَلَاغُ
نَوَاحٍ مَا تَخْضَلُ مِنْهَا الْمَدَامُ

مُزَبَّرَجَةُ الْأَعْنَاقِ نَمْرٌ ظَهُورُهَا
تَرَى طَرْزاً بَيْنَ الْخَوَافِي كَأَنَّهَا
وَمِنْ قِطْعِ الْيَاقُوتِ صَيَغَتْ عِيُونُهَا
وَمَنْ جِيدَ مَا قِيلَ فِي الْحَمَامِ قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ: الطويل:

وَقَفْتُ بِمِطْرَابِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
حَلِيفَةُ شَجْوٍ هَاجَ مَا بِي وَمَا بِهَا
فَبَاحَ بِهِ فُؤَاهَا وَأَخْفَنَتْهُ عَيْنُهَا
فَظَلْتُ أُسْحُ الدَّمْعَ مِنْي وَأُسْجِمُ
تَبَارِيحَ شَوْقٍ يَشْتَكِيهَا الْمَتْنِيمُ
وَبَاحَتْ بِهِ عَيْنِي وَكَتَمَهُ الْفَمُ

وَدَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى الرَّشِيدِ، فَأَنْشَدَهُ أَرْجُوزَةً مَدَحَهُ بِهَا، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَكْتُبُ كِتَاباً بَيْنَ يَدَيْهِ - وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خَطَّاءً، وَأَسْرَعَهُمْ يَدًا - فَقَالَ الرَّشِيدُ لِلْأَعْرَابِيِّ: صَفِّ الْكَاتِبَ فَقَالَ: الطويل:

رَقِيقُ حَوَاشِي الْعِلْمِ حِينَ تَبَوَّرَهُ
لَهُ قَلَمًا بِؤْسَى وَنُعْمَى كِلَاهُمَا
يُنَاجِيكَ عَمَّا فِي ضَمِيرِكَ خَطُّهُ
يُرِيكَ الْهُوَيْنَا وَالْأُمُورُ تَطِيرُ
سَحَابَتُهُ فِي الْحَالَتَيْنِ ذُرُورُ
وَيَفْتَحُ بَابَ النُّجْحِ وَهُوَ عَسِيرُ

فَقَالَ الرَّشِيدُ: قَدْ وَجِبَ لَكَ يَا أَعْرَابِيٌّ عَلَيْهِ حَقٌّ، كَمَا وَجِبَ لَكَ عَلَيْنَا يَا غَلَامُ؛ ادْفَعْ لَهُ دِيَةَ الْحُرِّ، فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ: وَعَلَى عَبْدِكَ دِيَةُ الْعَبْدِ.

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي عَقِيلٍ: الطويل:

أَحْنُ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ، وَحَاجَتِي
وَمَا نَظَرِي نَحْوَ الْحِجَازِ بِنَافِعِي
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةً ثُمَّ عَبْرَةً
خِيَامٌ بَنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ
فَتِيلاً، وَلَكِنِّي عَلَى ذَاكَ أَنْظُرُ
لِعَيْنَيْكَ يَجْرِي مَأْوَاهَا يَتَحَدَّرُ

متى يستريح القلب إِمّا مجاورٌ

حزينٌ وإِمّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابي: الطويل:

وإني لأغضي مقلتي على القَذَى

وألبسُ ثوبَ الصبرِ أبيضَ أبلجَا

وإني لأدعو اللهَ والأمرُ ضيقٌ

عليّ، فما ينفك أن يتفرجَا

وكم من فتى ضاقت عليه وجوههُ

أصاب لها من دَعْوَةِ اللهِ مخرَجَا

وقال آخر: الطويل:

ذكرتُكِ ذِكْرِي هائمٌ بك تنتهي

إليك أمانيه وإن لم يكن وصلٌ

وليسَتْ بِذِكْرِي ساعةٌ بعد ساعةٍ

ولكنها موصولةٌ ما لها فصلٌ

وقال آخر: الطويل:

أريتُكِ إن شطت بك العام نية

وعالَكَ مُصْطَافُ الحِمَى ومرابِعةٌ

أترعين ما استودعت أم أنت كالذي

إذا ما نأى هانت عليك ودائِعةٌ

ألا إن حسيّاً دونه قُلةُ الحِمَى

مُنَى النفس لو كانت تُتالُ شَرَّائِعةٌ

أخذت أزدُ العتيك شاعراً من قيس بن ثعلبة اسمه المعدل في دم، فأثاه البيهس بن ربيعة فحمله، وأمره أن ينجو بنفسه، وأسلم نفسه مكانه، فقال له المعدل: أخيرك بين أن أمدحك أو أمدح قومك؛ فاختار مدح قومه فقال: الطويل:

جزى الله فتیانَ العتيك، وإن نأت

بي الدارُ عنهم، خيرَ ما كان جازياً

هُمُ خَلَطُونِي بالنفوس وأحسنوا الصّح

ابة لما حُم ما كان آتياً

متاعُهُم فَوْضَى فُضاً في رحالِهِم

ولا يحسنون الشرَّ إلا تبادياً

كأنّ دنائيراً على قَسَمَاتِهِم

إذا الموتُ في الأبطال كان تحامياً

وذكرت الرواة أن المهلب بن أبي صفرة عرض جُنده بخراسان، فعرض جيش بكر بن وائل، فمرّ به المعدل فقال: هذا المعدل القيسي الذي يقول، وأنشد الأبيات، فقالوا: أيها الأمير، أحسبه علينا، فانطلق مائة منهم، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا: أعطه هذا وليعذرنا. قوله: كأن دنائيراً على قسماهم نظير قول أبي العباس الأعمى: الخفيف:

ليت شعري من أين رائحة المس

ك وما إن إخال بالخيف إنسي؟

حين غابت بنو أمية عنه

والبهاليل من بني عبد شمس

خطباء على المنابر، فُرساً

نُ عليها، وَقَالَ غَيْرُ خُرسٍ

في حلوم إذا الحلوم استُفْزَتْ

ووجوه مثل الدنانير مُلْسِ

من أخبار أبي نواس

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد بن زُبَيْدَهِ ووجهَ بطاهر بن الحسين لمحاربتَه، كان يعملُ كتباً بعيوبِ أخيه تُقرأُ على المنابر بخراسان؛ فكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً، يقال له الحسن بن هانئ، واستخلصه ليشربَ معه الخمر، ويرتكبَ المآثم، ويَهْتِكَ المحارم، وهو الذي يقول: الطويل:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكنَ الجهرُ

وُبِحْ باسم مَنْ تهوى ودعني عن الكنى فلا خيرَ في اللذاتِ من دونها سنُرُ

ويذكر أهلُ العراق فيقول: أهل فسوق وخمور، وماخُور وفجور؛ ويقوم رجلٌ بين يديه فيُنشِدُ أشعارَ أبي نواس في الجون؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة؛ فنهى الحسنَ عن الخمر، وحبسه ابنُ أبي الفضل بن الربيع؛ ثم كلمه فيه الفضل، فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألا يشربَ خمرًا، ولا يقول فيها شعراً، فقال: الكامل:

ما من يدٍ في الناسِ واحدةٍ كيدِ أبو العباسِ مولاها

نامَ الثقاتُ على مضاجعهم وسرى إلى نفسي فأحياها

قد كنتُ خفتُكَ، ثم آمنني من أن أخافَكَ، خوْفَكَ الله

فَعفوتُ عني عفوً مُقتدرٍ وجبتُ لَهُ نِقَمٌ فألغاها

ومن قوله في ترك الشراب: الخفيف:

أيها الرائحان باللوم، لوما لا أذوقُ المُدامَ إلا شَمِما

نألني بالملام فيها إمام لا أرى لي خلافةً مُستقيما

فاصرِفاها إلى سواي؛ فإني لست إلا على الحديثِ نديما

جل حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشمَ النسيما

فكأنني وما أزينُ منها قَعدي يُزِينُ التحكيما

كلَ عَنْ حَمَلِهِ السلاحَ إلى الحر ب فأوصى المُطِيقَ ألا يُقيما

القَعْدِيَّة: فرقة من الخوارج، يأمرون بالخروج ولا يخرجون؛ وزعم المبرد أنه لم يُسبق إلى هذا المعنى.
وقال: الكامل:

عَيْنَ الْخَلِيفَةِ بِي مُوَكَّلَةٍ	عَقَدَ الْحِذَارُ بِطَرْفِهَا طَرْفِي
صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ، وَأَرَى	دِينَ الضَّمِيرِ لَهُ عَلَى حَرْفِ
وَلئن وَعَدْتُكَ تَرْكَهَا عِدَّةً	إِنِّي عَلَيْكَ لَخَائِفٌ خُلْفِي
سَلَبُوا قِنَاعَ الدَّنِ عَنْ رَمَقِ	حَيِّ الْحَيَاةِ مُشَارِفِ الْحَتَفِ
فَتَنَفَسْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ	كَتَنَفُسُ الرِّيحَانِ فِي الْأَنْفِ

أخذ قوله: ولئن وعدتك تركها عدة الحسن بن علي بن وكيع فقال: البسيط:

مَتَى وَعَدْتُكَ فِي تَرْكِ الصَّبَا عِدَّةً	فَاشْهَدْ عَلَى عِدَّتِي بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ
أَمَّا تَرَى اللَّيْلَ قَدْ وَلَّتْ عَسَاكِرُهُ	وَأَقْبَلَ الصَّبْحُ فِي جَيْشٍ لَهُ لَجِبِ
وَجَدَ فِي أَثَرِ الْجُوزَاءِ يَطْلُبُهَا	فِي الْجَوِّ رَكْضاً هَلَالٌ دَائِمُ الْطَلَبِ
كَصَوْلَجَانٍ لُجَيْنٍ فِي يَدَيِّ مَلِكِ	أَدْنَاهُ مِنْ كُرَّةٍ صَيَّغَتْ مِنَ الذَّهَبِ
فَقُمْنَا نَصْطَبِخُ صَفَرَاءَ صَافِيَةً	كَالنَّارِ لَكِنَهَا نَارٌ بِلَا لَهَبِ
عُرُوسُ كَرَمٍ تَخْتَالُ فِي حُلِّ	صُفْرِ عَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ مِنَ الْحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالي في اقتران الهلال بالزهرة: الرجز:

أَمَّا تَرَى الزُّهْرَةَ قَدْ لَاحَتْ لَنَا	تَحْتَ هَلَالٍ لَوْنُهُ يَحْكِي اللَّهَبُ
كُكْرَةٌ مِنْ فِضَّةٍ مَجْلُودَةٌ	وَافَى عَلَيْهَا صَوْلَجَانٌ مِنْ ذَهَبٍ

وعلى قول أبي نواس: الكامل:

صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ، وَأَرَى	دِينَ الضَّمِيرِ لَهُ عَلَى حَرْفِ
------------------------------------	------------------------------------

كتب أبو العباس بن المعتز إلى أبي الطيب القاسم بن محمد النميري: السريع:

يَا أَيُّهَا الْجَافِي وَيَسْتَجْفِي	لَيْسَ تَجْنِيكَ مِنَ الظَّرْفِ
إِنَّكَ فِي الشُّوقِ إِلَيْنَا كَمَنْ	يُؤْمِنُ بِاللَّهِ عَلَى حَرْفِ
مَحَوْتَ أَثَارَكَ مِنْ وَدْنَا	غَيْرِ أَسَاطِيرِكَ فِي الصُّخْفِ

فإن تحاملت لنا زورة

يوماً تحاملت على ضعف

وحدث أبو عمر الزاهد قال: ذلك بعض الزهاد المرائين جَبَهَتْهُ بُتُومٌ وعصبها، ونام ليصبح بها كأثر السجود، فانخرفت العصابة إلى صُدْغِهِ، فأخذ الأثر هناك، فقال له ابنه: ما هذا يا أبت؟ فقال: أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف! وقال أبو نواس في الباب الأول: الخفيف:

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلَيْنَا

وَاسْقِنَا نُعْطِكَ الثَّنَاءَ الثَمِينَا

مَنْ سَلَّافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ

يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا

أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا

وَتَبَقَّى لُبَابُهَا الْمَكُونَا

فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءَ

يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبِيحُ الْعِيُونَا

ثُمَّ شُجِبَتْ فَاسْتَضَحَكَتْ عَنْ لَالٍ

لَوْ تَجَمَّعْنَ فِي يَدٍ لَأَقْتِنَا

فِي كَوْوَسٍ كَأَنَّهُنَّ نَجُومٌ

دَائِرَاتُ بُرُوجِهَا أُيُودِنَا

طَالَعَاتُ مَعَ السَّقَاةِ عَلَيْنَا

فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرِبْنَ فِينَا

لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ

قُلْتُ قَوْمًا مِنْ قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا

وَعَزَالَ يُدِيرُهَا بَيْنَانٍ

نَاعِمَاتُ يَزِيدُهَا الْغَمَزُ لِينَا

كَلِمَا شِنْتُ عَلَيَّ بِرُضَابٍ

يَنْرُكُ الْقَلْبَ لِلْسُرُورِ قَرِينَا

ذَاكَ عَيْشٌ، لَوْ دَامَ لِي غَيْرَ أَنِّي

عَفْتُهُ مُكْرَهَا وَخَفْتُ الْأَمِينَا

وقال: الطويل:

أَعَاذَلْ، أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ، وَأَعْتَبَا

وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا

وَقُلْتُ لِسَاقِيهَا: أَجْزَاهَا فَلَمْ أَكُنْ

لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا

فَجَوَّزَهَا عَنِّي سُلَافًا تَرَى لَهَا

لَدَى الشَّرَفِ الْأَعْلَى شُعَاعَا مُطْنَبَا

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلْتَهُ

يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

تَرَى حَيْثُمَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا

وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبَا

يَدُورُ بِهَا رَطْبُ الْبَنَانِ تَرَى لَهُ

عَلَى مُسْتَدَارِ الْخَدِّ صُدْغًا مُعْقَرَبَا

سَقَاهُمْ وَمَنَانِي بَعِينِيهِ مُنِيَّةً

فَكَانَتْ إِلَى قَلْبِي أَلَذَّ وَأَطْيَبَا

قال الحسين بن الضحاك الخليل: أنشدت أبا نواس قولي: المنسرح:

وشاطريَ اللسانِ مختلقِ التَّ

كُريه شابَ المُجُونِ بالنُّسكِ

فلما بلغتُ فيه:

كأنما نُصِبَ كَأسُه قَمَر

يَكْرَعُ في بعضِ أنْجُمِ الفَلَكِ

نَعَرَ نَعْرَةً منكراً، فقلت: ما لك، فقد رعتني؟ قال: هذا المعنى أنا أحقُّ به منك؛ ولكن سترى لمن يُروى! ثم أنشد بعد أيام:

إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خِلَّتْهُ

يُقْبَلُ في داجٍ من الليلِ كوكبا

فقلت: هذه مطالبة يا أبا علي! فقال: أتظنُّ أنه يُروى لك معنى مليح وأنا في الحياة؟ وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما: الكامل:

ومَهْفَهفٍ كَمَلْتُ مَحَاسِنُهُ

حتى تجاوزَ مَنِيةَ النَّفْسِ

تَصْنُبُو الكُؤُوسَ إلى مَرَأِشِفِهِ

وتَضِجُ في يده من الحَبَسِ

أَبْصَرْتُهَا وَالكَأْسُ بَيْنَ فَمٍ

منه وبين أناملِ خَمْسِ

فكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ شَارِبَهَا

قَمَرٌ يَقْتُلُ عَارِضَ الشَّمْسِ

وقال أبو الفتح كشاجم: الخفيف:

وسحابٍ يجرُّ في الأرضِ ذَيْلِي

مُطَرَفٍ زَرَهُ على الأرضِ زَرَا

بَرَقَهُ لَمَحَةً، ولكن له رَع

د بطيء يكسو المسامعَ وَقَرَا

كخَلِي منافقٍ لِلَّذِي يَه

وَاهُ يَبْكِي جَهْرًا وَيَضْحَكُ سِرًا

قد سَفَتَنِي المُدَامُ فيها فَتَاةٌ

سَحَرَتَنِي وليس تُحَسِّنُ سِحْرَا

فإِذَا ما رَأَيْتُهَا تشربُ الرا

ح أُرَتَنِي شَمْسًا تُقْبَلُ بَدْرَا

بشار بن برد

وإنما احتذى أبو نواس في هذه الأشعار التي وصف فيها ترك الشراب وطاعته لأمر الأمين مثال بشار بن برد، وصبَّ على قلبه؛ وذاك أن بشاراً لما قال: الكامل:

لا يُؤَيِّسُنكَ من مَخْبَاةٍ

قَوْلُ تَغْلُظُهُ وإن جَرَحَا

عُسْرُ النِّسَاءِ إلى مُيَاسِرَةِ

والصَّعْبُ يُمَكِّنُ بعدما جَمَحَا

بلغ ذلك المهدي فغاضه؛ وقال: يحرض النساء على الفجور، ويسهل السبيل إليه! فقال له خاله يريد بن منصور الحميري: يا أمير المؤمنين، قد فتن النساء بشعره، وأي امرأة لا تصبُو إلى مثل قوله: الرمل:

عَجِبْتُ فَطْمَةً مِنْ نَعْتِي لَهَا	هَلْ يُجِيدُ النَعْتَ مَكْفُوفُ النَّظَرِ؟
بِنْتُ عَشْرِ وَثَلَاثَ قَسَمْتُ	بَيْنَ غُصْنٍ وَكُثِيبٍ وَقَمَرٍ
دُرَّةً بَحْرِيَّةً مَكْنُونَةً	مَازَهَا التَّاجِرُ مِنْ بَيْنِ الدُّرَرِ
أَذْرَتِ الدَّمْعَ وَقَالَتْ: وَيَلَّتِي	مِنْ وَلُوعِ الْكَفِّ رِكَابِ الْخَطَرِ
أُمْتِي بَدَدَ هَذَا لُجْبِي	وَوِشَاحِي حُلِّهِ حَتَّى انْتَثَرَ
فَدَعَيْتَنِي مَعَهُ يَا أُمْتِي	عَلْنَا فِي خَلْوَةٍ نَقْضِي الْوَطَرَ
أَقْبَلْتُ فِي خَلْوَةٍ تَضْرِبُهَا	وَاعْتَرَاهَا كَجَنُونَ مُسْتَعِرٍ
بِأَبِي وَاللَّهِ مَا أَحْسَنَهُ	دَمْعُ عَيْنٍ غَسَلَ الْكُحْلَ قَطْرَ
أَيُّهَا النَّوَامُ هَبُوا وَيَحْكُمُ	وَسَلُّونِي الْيَوْمَ مَا طَعُمُ السَّهَرِ

فأمره المهدي ألا يتغزل، فقال أشعاراً في ذلك، منها: مجزوء الكامل:

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ	مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
لَمَعْتُ إِلَيَّ تَسْؤَمُنِي	ثَوْبَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ	مَا إِنْ غَمَزْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمْسَكْتُ عَنْكَ، وَرَبِّمَا	عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا ابْتِغَيْتُهُ
إِنْ الْخَلِيفَةُ قَدْ أَبَى	وَإِذَا أَبَى شَيْئًا أَبَيْتُهُ
وَيَشُوقُنِي بَيْتُ الْحَبِي	بَ إِذَا غَدَوْتُ، وَأَيْنَ بَيْتُهُ
قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ	فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَا	مُ عَنْ النِّسَاءِ فَمَا عَصَيْتُهُ
بَلْ قَدْ وَفَيْتُ وَلَمْ أُضِغْ	عَهْدًا، وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ

وقال أيضاً: المنسرح:

وَاللَّهِ لَوْلَا رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا	أَعْطَيْتُ ضَيْمًا عَلَيَّ فِي شَجَنِ
قَدْ عَشْتُ بَيْنَ النَّدْمَانِ وَالرَّاحِ وَال	مِزْهَرٍ فِي ظِلِّ مَجْلَسٍ حَسَنِ

ثم نهاني المهدي فأنصرفتُ

وقال: السريع:

أفْنيتُ عمري وتَقضى الشبابُ

فالآن شفعتُ إمام الهدى

لهوتُ حتى راعني دأعياً

لبيك لبيك! هَجرتُ الصِّبا

أبصرتُ رُشدي وتركتُ المُنَى

في كلمة طويلة يقول فيها:

يا حامد القول، ولم يبله

الفعلُ أُولَى بثناء الفتى

دع قولَ واءٍ وانتظر فعله

إذا غدا المهديُّ في جُنْدِه

بدأ لك المعروف في وجهه

ومن شعر بشار في الغزل: الخفيف:

أيها الساقيان صُبَّا شَرابي

إن دائي الصدى، وإنَّ شفائي

عندها الصبرُ عن لقائي، وعندِي

ولها مَبْسَمٌ كغُرِّ الأفاحي

نزَلتُ في السواد من حبة القل

ثم قالت: نَلَقاك بعد لَيالٍ

لا أُبالي مَنْ ضَنَّ عني بوَصَل

وقال: البسيط:

تُلَقَى بتسبيحةٍ من حسن ما خُلِقَتْ

نَفسي، صُنْعُ الموفِّق اللِّقن

بين الحميا والجَواري العذابُ

وربما طَبْتُ لِحَب وطَابُ

صوتُ أمير المؤمنين المُجَابُ

ونامُ عُذالي وماتَ العِتَابُ

وربما ذَلَّتْ لهن الرِّقابُ

سَبَقْتُ بالسَّيْلِ مَساك السَّحابُ

ما جاءه من خطإٍ أو صَوَابُ

يُثْنِي على اللِّفحةِ ما في الحِلَابُ

وراحَ في آلِ الرسولِ الغِصَابُ

كالظِّلِّمِ يَجْري في الثنايا العِذابُ

واسقياني من ريقِ بيضاءِ رُودِ

شَرِبَةٌ من رُضابِ ثَغْرِ بَرُودِ

زَفَراتُ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الجَلِيدِ

وحديثُ كالوشِي وشي البرُودِ

ب ونالت زيادة المستزيد

والليالي يُبْلينَ كلَّ جَدِيدِ

إنَّ قَضَى الله منك لي يَوْمَ جودِ

وتستقِرُّ حَشَا الرَّائي بِإِرْعادِ

كَأَنَّمَا صُوِّرَتْ مِنْ مَاءٍ لَوْلُؤَةٌ

وقال: الوافر:

فَكَلَّ جَارِحَةً وَجَّةً بِمِرْصَادٍ

فَطَابَ لَهُ بِطِيبِ ثَنِيَّتَيْكَ

أَقْبَلَ فِيهِ فَالِكَ وَمُقَلَّتَيْكَ

وَهَبْتَ لَهُ عَلَى الْمَسَاكِ رِيْقًا

أَقْبَلَهُ عَلَى الذِّكْرِى كَأَنِّي

وقال: المنسرح:

قَلْبِي ضَعِيفٌ وَقَلْبُهَا حَجَرٌ

فِي الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَالْحَشَا سَكْرٌ

لَا أُسْتَطِيعُ الْهُوَى وَهَجَرْتَهَا

كَأَنَّ وَجْدِي بِهَا وَقَدْ حَجَبَتْ

وَأَنشُدْ لَهُ أَبُو تَمَامٍ، وَكَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ شَعْرًا أَغْزَلَ مِنْهُ: الْخَفِيفُ:

بِتَلَّاقٍ، وَكَيْفَ لِي بِالتَّلَّاقِ؟

كُ وَأَخْشَى مِصَارَعَ الْعِشَّاقِ

مَوْضِعَ السَّلَكِ فِي طَلَا الْأَعْنَاقِ

زَوْدِينَا يَا عَبْدَ قَبْلِ الْفِرَاقِ

أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنِي

أُمَّتِي مِنْ بَنِي عُقَيْلِ بْنِ كَعْبٍ

وقال: الطويل:

رَخِيْمًا، وَقَلْبِي لِلْمَلِيحَةِ أُعْشَقُ

كَرِيْمًا سَقَاهُ الْخَمْرَ بَذْرُ مُحَلَّقٍ

بِأَذْنِي وَإِنْ عَنِيتْ قُرْطٌ مُعَلَّقٌ

لَقَدْ عَشِقْتُ أَذْنِي كَلَامًا سَمِعْتُهُ

وَلَوْ عَايَنُوهَا لَمْ يَلُومُوا عَلَى الْبُكَاءِ

وَكَيْفَ تَتَنَاسَى مَنْ كَانَ حَدِيثُهُ

وقال: الطويل:

أَزَارُ وَيَدْعُونِي الْهُوَى فَأَزُورُ

يُدِيرُ حَيَاتِي فِي يَدَيْهِ مُدِيرُ

تَمُورُ بِسِحْرِ عَيْنِهَا وَتَدُورُ

وَكَادَتْ قُلُوبُ الْعَالَمِينَ تَطِيرُ

إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورُ

وَقَدْ كُنْتُ فِي ذَاكَ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى

فَإِنْ فَاتَتْنِي إِلْفٌ ظَلَلْتُ كَأَنَّمَا

وَمُرْتَجَةُ الْأَرْدَافِ مَهْضُومَةُ الْحَشَا

إِذَا نَظَرْتُ صَبَّتْ عَلَيْكَ صَبَابَةٌ

خَلَوْتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا

وَمِنْ هَذَا أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ قَوْلَهُ: الطَّوِيلُ:

وَلَا تَهْجُرِي أَفْدِيكَ بِالْأُمِّ وَالْأَبِ

وَأَذْنِي فُؤَادًا مِنْ فُؤَادِ مُعَذِّبِ

صَلِينِي وَحَبْلُ الْوَصْلِ لَمْ يَتَشَعَّبِ

رَعَى اللَّهُ دَهْرًا ضَمَنَّا بَعْدَ فُرْقَةٍ

عناقاً وضمّاً والتزاماً كأنما
فَبِتْنَا وإنا لو تُرَاق زجاجة

يرى جَسَدَنَا جسم روح مركب
من الخَمَرِ فيما بيننا لم تَسْرَبِ

وشعره في هذا المعنى كثير.

وروى أنه قال: أنا أشعرُ الناس؛ لأن لي اثني عشر ألفَ قصيدة، فلو اختير من كل قصيدة بيت لاستندر، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعرُ الناس؛ وقد نثرتُ نَظْمَه في أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارئ وكراهة في إملاله.

وكان بشار أرقَّ المحدثين ديباجةً كلام، وسُمي أبا المحدثين؛ لأنه فَتَقَ لهم أكمام المعاني، ونَهَجَ لهم سبيل البديع، فاتبعوه؛ وكان ابن الرومي يُقَدِّمه، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدَّم وتأخر.

وهو يتعلَّق في شعره بولاء عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ويفتخرُ بالمضرية. قال له المهدي: فيمن تَعْتَزِي؟ قال: أما اللسان فعربي، أما الأصل فكما قلت في شعري! قال: وما قلت؟ فأنشدته: المتقارب:

ونبئتُ قوماً لهم إحنة
ألا أيها السائل جَاهلاً
نمتُ في المكارم بي عامر
وإني لأغني مقامَ الفتى
يقولون مَنْ ذا وَكَنْتُ العَلَمَ
لِيَعْرِفَنِي أنا إلفُ الكَرَمِ
فُرُوعِي وأصلي قُرَيْشُ العَجَمِ
وأصْبي الفتاة فلا تَعْتَصِمِ

البيت الأول من هذه الأبيات ينظرُ إلى قول جميل: الطويل:

إذا ما رأوني طالعاً من ثنيةٍ
وفي هذه القصيدة يقول بشار: المتقارب:

وبيضاء يضحكُ ماءُ الشبا
دُوارُ العذارى إذا زُرْنِها
ب في وجهها لك إذ تبتسم
أطْفَنَ بَحُورَاءَ مِثْلِ الصَنْمِ

يَرُحْنَ فَيَمْسَحْنَ أركانها
أصفراء ليس الفتى صخرةً
صَبَبَتْ هَوَاكَ على قلبه
كما يَمْسَحُ الحَجَرَ المستلِمِ
ولكنه نُصِبُ هَمٍّ وَغَمٍّ
فضاق وأعلنَ ما قد كَتَمَ

ويقال: إنه مولى لأم الظباء السدوسية، ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال رئيس المعتزلة لما هجاه بشار: أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكتني بأبي معاذ مَنْ يَقْتُلُهُ؟ والله لولا أن الغيلة من سجايا الغالية، لبعثت إليه من ينعج بطنه في جوف منزله، ولا يكون إلا سدوسياً، أو عُقَيْلياً.

وكان واصل بن عطاء أحد أعاجيب الدنيا؛ لأنه كان ألثغ في الرءاء، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه؛ إذ كان إماماً مذهباً، وداعياً نحلة، وكان محتاجاً إلى جودّة البيان، وفصاحة اللسان. قال الجاحظ: فانظر كثرة ترداد الرءاء في هذا الكلام وكيف أسقطها؟ قال: الأعمى، ولم يقل الضرير، وقال: الملحد ولم يقل الكافر، وقال: المشنف، ولم يقل المرعث، وقال: المكتني: بأبي معاذ، ولم يقل بشاراً ولا ابن برد، وقال: الغالية، ولم يقل المغيرية، ولا المنصورية، وهم الذين أراد، وقال: لبعثت، ولم يقل لأرسلت، وقال: ينعج، ولم يقل ينفّر، وقال: في جوف منزله، ولم يقل في داره، وأراد بذكر عُقَيْل وسدوس ما ذكر من اعتزائه إليهم.

وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يدين بالرجعة، ويكفر جميع الأمة؛ وأنشد له أشعاراً صوب بها رأي إبليس في تقديم النار على الطين، منها قوله: البسيط

الأرض مُظْلَمَةٌ ، والنار مُشْرِقَةٌ والنارُ معبودةٌ مذُ كانتِ النارُ

وقال داود بن رزين: أتينا بشاراً، فأذن لنا والمائدة بين يديه، فلم يدعنا إلى الطعام، ثم جلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصل، ودعا بطست فبال بحضرتنا، فقلنا له: أنت أستاذنا، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها، قال: ما هي؟ قلنا: دخلنا والطعام بين يديك فلم تدعنا، قال: إنما أذنت لتأكلوا، ولو لم تُرد ذلك لم نأذن لكم، قلنا له: ودعوت بالطست ونحن حضور، قال: أنا مكفوف، وأنتم مأمورون بغض الأبصار دوني، قلنا: وحضرت الصلاة فلم تصل! قال: الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة! هذا وهو القائل: الخفيف:

كيف يبكي لمحبس في طلول من سيفضي لحبس يوم طويل

إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دار محيل

وقال: الطويل:

ذكرتُ بها عيشاً فقلت لصاحبي: كأن لم يكن ما كان حين يزول

وما حاجتي لو ساعد الدهرُ بالمنى كعابٍ عليها لؤلؤٌ وشكول

بدالي أن الدهرَ يقدح في الصفا وأن بقائي إن حبيت قليل

فعش خائفاً للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليل

خَلِيلُكَ مَا قَدَمْتَ مِنْ عَمَلِ النُّقَى

وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الْمُنُونِ خَلِيلُ

وكان بشارٌ حاضرَ الجواب، سَجَّاعاً، خطيباً، صاحبَ منشور ومُزْدَوِج ورجز ورسائل مختارة على كثير من الكلام، ودخل على عُقْبَةَ بن مسلم بن قتيبة، فأنشده مديحاً وعنده عقبة بن رُؤْبَة، فأنشده أرجوزة، ثم أقبل على بشار فقال: هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ فقال: والله لأنا أرجز منك ومن أيك؛ ثم غدا على عقبة من الغد، فأنشده أرجوزته: رجز:

يَا طَلَّ الْحَيِّ بِذَاتِ الصَّمَدِ

بِاللَّهِ خَبَرَ كَيْفَ كُنْتُ بَعْدِي

يقول فيها:

صَدَّتْ بِخَدٍّ وَجَلَّتْ عَنْ خَدِّ

ثُمَّ انْتَنَتْ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ

وَصَاحِبِ كَالِدَمَلِ الْمُمَدِّ

حَمَلَتْهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي

حَتَّى اغْتَدَى غَيْرَ فَقِيدِ الْفَقْدِ

وَمَا دَرَى مَا رَغَبْتِي مِنْ زَهْدِي

وهذا كقول الآخر: الطويل

يُودُونَ لَوْ خَاطُوا عَلَيْكَ جُلُودَهُمْ

وَلَا يَدْفَعُ الْمَوْتَ النَّفْسُ الشَّحَائِحُ

وفيها يقول:

الْحَرَّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ

وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ

اسْلَمْ وَحِيَّتَ أبا المَلَدِ

مِفْتَاحَ بَابِ الْحَدِّثِ الْمُنْسَدِّ

وَالْبَسَ طِرَازِي غَيْرَ مُسْتَرَدِّ

لِلَّهِ أَيَّامُكَ فِي مَعَدِّ

هي طويلة، فأجزلَ صلته، فلما سمع ابن رُؤْبَة ما فيها من الغريب قال: أنا وأبي وجدي فتحنا الغريب للناس؛ وإني لخليق أن أسدّه عليهم، فقال بشار: ارحمهم، رحمك الله! قال: تستخفّ بي وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر؟ قال: إذا أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً! فضحك كلٌّ مَنْ حضر.

ودخل على المهدي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري، فأنشده قصيدة، فلما أتمها قال له يزيد: ما صناعتك يا شيخ. قال: أثقُبُ اللؤلؤ، فقال له المهدي: أتهزأ بخلّي؟. فقال: يا أمير المؤمنين، فما يكون جَوَابِي لمن يرى شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صِنَاعَتِهِ؟ وقال جَوَارِي المهدي للمهدي: لو أذنت لبشار يدخل إلينا يؤانسنا ويُنْشِدُنَا فهو محبوب البَصَرِ، لا غيره عليك منه، وأكمره فدخل إليهن

واستظرفته، وقلن له: وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارقك، قال: ونحن على دين كسرى!
فأمر المهدي ألا يدخل عليهن.

وكان المتنبى نظر إلى هذا فقال: الكامل:

يا أختَ مُعْتَنِقِ الفوارسِ في الوَعَى لأخوكِ ثمَّ أرقِ منكِ وأرحمِ
يرئوُ إليك مع العَفافِ وعِندَه أنَ المجوسِ تصيبُ فيما تحكُمُ

في المودة والعتاب والصدق والكذب

قال علي بن عبيدة الريحاني: المودةُ تَعَاطُفُ القلوب، وائتلافُ الأرواح، وحنينُ النفوس إلى مثابة السرائر، والاسترواحُ بالمستكنات في الغرائز، ووحشةُ الأشخاص عند تَبَايُنِ اللقاء، وظاهرُ السرور بكثرة التزوار، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخصال.
وقال: العتابُ حدائقُ المتحايين، وثمارُ الأوداء، ودليلُ الظنِّ، وحركاتُ الشوق، وراحةُ الواجد، ولسانُ المُشَفِّق.

قال بعض الكتاب: العتابُ علامةُ الوفاء، وحاصةُ الجفاء، وسلاحُ الأكفاء.

وقال علي بن عبيدة: التجنيُّ رسولُ القطيعة، وداعي القلَى، وسببُ السلو، وأولُ التجافي، ومثزلُ التهاجر.

وقال: الصدقُ ربيعُ القلب، وزكاةُ الخلق، وثمرَةُ المروءة، وشُعاعُ الضمير، وعن جلالَةِ القدر عبارته، وإلى اعتدالِ وزنِ العقلِ يُنسَبُ صاحبه، وشهادتهُ قاطعةٌ في الاختلاف، وإليه ترجعُ الحكومات.
وقال: الكذبُ شعارُ الخيانة، وتخريفُ العلم، وخواطرُ الزور، وتسويلُ أضغاثِ النفس، واعوجاجُ التركيب، واختلافُ البنية، وعن حمولِ الذكر ما يكون صاحبه.
وعلي بن عبيدة كثيرُ الإغارة، على ما كان غيرُه قد استثاره.

فقر في الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة: الكذاب والميتُ سواء؛ لأن فضيلة الحي التُّطق، فإذا لم يُوثَّق بكلامه فقد بطلت حياته.
الحسن بن سهل: الكذاب لصٌّ؛ لأن اللص يسرقُ مالك، والكذاب يسرقُ عقلك؛ ولا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب غيرك عندك فلا تأمن أن يغتابك عند غيرك.
قال إبراهيم بن العباس في هذا النحو: مجزوء الكامل:

إني متى أحقّد بحق
وإني متى أطعنك في أخي
حتى أرى متقسماً
حسب الكاذب بعقله سقماً وبقلبه خصماً .

دك لا أضرب به سواك
ك أطعتُ فيك غداً أخاك
يومي لذا، وغداً لذاك

ابن المعتز: علامة الكذاب جوده باليمين لغير مستحلف، وقال: البسيط

وفي اليمين على ما أنت فاعله
ما دل أنك في الميعاد متهم

وقال: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليه فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذبه، فينتقل عن وده، ولا ينتقل عن طبعه. يعتري حديث الكذاب من الاختلاف ما لا يعتري الجبان من الارتعاد عند الحرب. لا تصح للكذاب رؤيا، لأنه يخبر عن نفسه في اليقظة بما لم ير، فتريه في النوم ما لا يكون، وأنشد:

البسيط:

لا يكذب المرء إلا من مهانتة
أو عادة السوء، أو من قلة الأدب

ولأهل العصر: فلان منعمس في عيبه، يكذب لذيله على جيبه، يقول بهتاً، وزوراً بحثاً، قد ملأ قلبه ريناً، وقوله ميناً؛ يدين بالكذب مذهباً، ويستشير الزور مركباً.

أقاول يتمشى الزور في مناكبها، ويبرز البهتان في مذهبها.

وقال أعرابي لابنه وسمعه يكذب: يا بني، عجب من الكذاب المشيد بكذبه، وإنما يدك على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه؛ فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادة، إن قال حقاً لم يصدق، وإن أراد خيراً لم يوفق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله. فما صح من صدقه نسب إلى غيره، وما صح من كذب غيره نسب إليه، فهو كما قال الشاعر: مجزوء الكامل:

حسب الكذوب من المها
نة بعض ما يحكى عليه

ما إن سمعت بكذبة
من غيره نسبت إليه

ما قيل في الزفاف

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون، بعد أن زفت إليه بوران وتوهم القواد أن هذا التزويج قد أنسى الحسن حاله قبل ذلك؛ قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في قبول أمته شيئاً لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة أمير المؤمنين، أدام الله عزه، في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة، بما يراه فيه صواباً إن شاء

الله.

فخرج التوقيع: الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة، وكنف أسباب العامة، وأحاط بالنفقات، ونفذ بالولادة، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة، جزاء بمعرفته بالحال التي قربته منا، وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا.

قال يحيى بن أكنم: أراد المأمون أن يزوج ابنته من الرضا فقال: يا يحيى تكلم، فأجلته أن أقول: أنكحت، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأنت أولى بالكلام، فقال: الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته، وصلى الله على محمد عند ذكره.

أما بعد، فإن الله قد جعل النكاح ديناً، ورصيه حكماً، وأنزله وحياً؛ ليكون سبب المناسبة؛ ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى، وأمهرتها أربع مائة درهم، اقتداءً بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف، والحمد لله رب العالمين.

قال الأصمعي: كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حُرْمته الإطالة، لتدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز، ليدل على الإجابة.

وخطب رجل من بني أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فأطال؛ فقال عمر: الحمد لله في الكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء؛ أما بعد، فإن الرغبة منك دعتك إلينا، والرغبة منا فيك أجابت، وقد زوجناك على كتاب الله: إمساكاً بمعروف، أو تسريحاً بإحسان.

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن تخطب له، فاستفتح بحمد الله وأطال، وصلى على النبي عليه السلام وأطال، ثم ذكر البدء وخلق السماوات والأرض، واقتصر ذكر القرون حتى ضجر من حضر، والتفت إلى الخاطب، فقال: ما اسمك أعزك الله؟ فقال: والله قد أنسي اسمي من طول خطبتك، وهي طالق إن لزوجتها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم، وعقدوا في مجلس آخر.

فقر في الكتاب والقلم والسيف والخط

وقال ابن المعتز: الكتاب والرج الأبواب، جريء على الحجاب، مُفهم لا يفهم، وناطق لا يتكلم، به يشخص المشتاق، إذا أقعده الفراق، والقلم مجهز لجيوش الكلام، يخدم الإرادة، لا يمل الاستزادة، ويسكت واقفاً، وينطق سائراً، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يقبل بساط سلطان أو يفتح ثوار بستان.

وهذا كقوله في القاسم بن عبيد الله، قال الصولي: لما عرض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه: قال ابن المعتز: الخفيف:

قلم ما أراه أم فلك يج
ري بما شاء قاسم ويسير
خاشع في يديه يلثم قرطاً
سأ كما قتل البساط شكور
ولطيف المعنى جليل نحيف
وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حت
ف وعيش تضم تلك السطور
نقشت بالدجا نهراً فما أد
ري أخط فيهن أم تصوير
هكذا من أبوه مثل عبيد ال
له ينمى إلى العلاء ويصير

عظمت منه الإله عليه
فهناك الوزير وهو الوزير
وقال بعض البلغاء: صورة الخط في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض.
وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

دعاني إليك العلم والحلم والحجى
وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وما قلت من شعر تكادُ بيوته
إذا كتبت يبيض من نورها الحبر
وقال ابن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب: الطويل:

عليم بأعقاب الأمور، كأنه
بمختلصات الظن يسمع أو يرى
إذا أخذ القرطاس خلّت يمينه
يُفتح نوراً أو ينظم جوهر
فاخر صاحب سيف صاحب قلم، فقال صاحب القلم: أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل على خطر. فقال
صاحب السيف: القلم خادم السيف، إن تم مراده وإلا فيل إلى السيف معاده؛ أما سمعت قول أبي تمام:
البسيط:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصفائح في
مُنونهن جلاء الشك والريب
وقال أبو الطيب: البسيط:

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت
إلى من احتضنت أخفافها بدم
أسيرها بين اصنام أشاهدها
ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به
فإنما نحن للأسياف كالخدم

هذا مقلوبٌ من قول علي بن العباس النوبختي، وقد رواه أبو القاسم الزجاجي لابن الرومي، وإنما وهم لاتّفاق الاسمين: البسيط:

إن يَخْدُمُ القلمُ السيفَ الذي خضعتْ
له الرقابُ ودانتْ خوفه الأممُ
فالموتُ والموت لا شيء يُغَالِبُه ما زال يَتَّبِعُ ما يَجْرِي به القلمُ
بذا قضَى الله للأقلامِ مذُ بُرِيتَانِ السيوفَ لها مذُ أرهفت خدَمَ
وقال ابن الرومي: المتقارب:

لَعَمْرُكَ ما السيفُ سيفُ الكمي
لَهُ شاهد إن تأملتَهُ
أداةُ المنيةِ في جانبيه
سنانُ المنيةِ في جانبِ
ألم ترَ في صدرِهِ كالسنانِ
وفي الرِّدْفِ كالمرْهَفِ القاضِبِ؟
وقال أبو الفتح البستي: الطويل:

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهم
كفى قلمُ الكتابِ مجداً ورفعةً
وقد قيل: صريرُ الأقلامِ، أشدُّ من صليلِ الحُسامِ.
قال الصولي: أنشدني طلحة بن عبيد: الكامل:

وإذا أمرَ على المهارِقِ كَفَّهُ
متقاصراً مُتَطاوِلاً ومفصلاً
ترك العُدَّةَ رَواجفاً أحشاؤها
كالحيَّةِ الرَقْشَاءِ إلاَّ أنه
يرمي به قلماً يمجُّ لُعبه
وقال محمود بن أحمد الأصبهاني: السريع:

أُخْرَسُ يُنْبِيكَ بِإِطْرَاقِهِ
يُذْري على قِرْطاسِهِ دَمْعَةً
كَعاشِقٍ أَخْفَى هَوَاهُ وَقَدْ
عن كل ما شئتَ من الأمرِ
يُؤدِّي بها السرَّ وما يَذْري
نفتَ عليه عَبرةٌ تجْري

تُبْصِرُهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ
يُرَى أَسِيرًا فِي دَوَاةٍ وَقَدْ
أُخْرِقَ لَوْ لَمْ تَبْرِهِ لَمْ يَكُنْ
عُرْيَانٌ يَكْسُو النَّاسُ أَوْ يُعْرِِي
أُطْلِقَ أَقْوَامًا مِنَ الْأَسْرِ
يَرْتَشِقُ أَقْوَامًا وَمَا يَبْرِي

كَالْبَحْرِ إِذْ يَجْرِي، وَكَاللَّيْلِ إِذْ
وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ جَرَّارٍ: السَّرِيعُ:

أَهْيَفُ مَمْشُوقٌ بِتَحْرِيكِهِ
لَهُ لِسَانٌ مُرْهَفٌ حَدُّهُ
تَرَى بَسِيطَ الْفِكْرِ فِي نَظْمِهِ
كَأَنَّمَا يَسْحَبُ فِي إِثْرِهِ
لَوْلَاهُ مَا قَامَ مَنَارُ الْهَدْيِ
يَحِلُّ عَقْدَ السَّرِّ إِعْلَانُ
مِنْ رِيقَةِ الْكُرْسُفِ رِيَانُ
شَخْصًا لَهُ حَدٌّ وَجُثْمَانُ
ذِيلاً مِنَ الْحِكْمَةِ سَحْبَانُ
لَا سَمًا لِلْمَلِكِ دِيْوَانُ

وَمِنْ أَجُودِ مَا قِيلَ فِي صِفَةِ الْقَلَمِ قَوْلُ تَمَامٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ: الْكَامِلُ:

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَاتِهِ
لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنْ وَقَعَهَا
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
لَهُ الْخُلُوتُ الْوَلَاءُ لَوْلَا نَجِيَّتُهَا
تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِيِّ وَالْمَفَاصِلِ
بِأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَأَبْلُ
وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ
لَمَّا اخْتَلَفَتْ لِلْمَلِكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ

وَقَالَ الْأَمِيرُ تَمِيمُ بْنُ الْمَعْزِ: الطَّوِيلُ:

وَذِي عَجَبٍ مِنْ طَوْلِ صَبْرِي عَلَى الَّذِي
يَقُولُونَ: مَا تَشْكُو؟ فَقُلْتُ: مَتَى شَكَا
وَإِنْ أَمْرًا يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ
عَذَابِي أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي
وَيَمْنَعُنِي الشُّكْوَى إِلَى اللَّهِ عِلْمُهُ
سَأَسْكُتُ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا فَإِنَّنِي
أُلَاقِي مِنَ الْأَرْزَاءِ وَهُوَ جَلِيلُ
شَبَابِ السَّيْفِ عَضْبُ الشُّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ؟
وَيَسْخُو بِمَا فِي نَفْسِهِ لَجْهُولُ
عَلِيلُ وَمَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلُ
بِجَمْلَةٍ مَا أَلْقَاهُ قَبْلَ أَقُولُ
أَرَى الصَّبْرَ سَيْفًا لَيْسَ فِيهِ فُلُولُ

وَقَالَ: الْكَامِلُ:

يا دهرُ، ما أفساك من مُتلون
أتروح للنكس الجهول ممهداً
وإذا صفوت كدُرت، شيمةً باخل،
لا أرتضيك، وإن كرمت؛ لأنني
زمنٌ إذا أعطى استرد عطاءهُ
ما قام خيرك يا زمانُ بشره
في حالتك، وما أقلُّك مُنصفاً
وعلى اللبيب الحرُّ سيفاً مرهفاً؟
وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
أدري بأنك لا تدوم على الصفا
وإذا استقام بداً له فتحرفاً
أولَى بنا ما قل منك وما كفى

من أخبار الكاتب أحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف منصرفاً عن غسان بن عباد، وجرّت بينهما هتات بحضرة المأمون، فقال يوماً بحضرة خاصة أصحابه: أخبروني عن غسان بن عباد؛ فإني أريده لأمرٍ حسيم؛ وكان قد عزم على تقليده السند مكان بشر بن داود؛ فتكلم كل فريق بما عنده في مدحه؛ فقال أحمد بن يوسف: هو، يا أمير المؤمنين، رجلٌ محاسنه أكثر من مساويه، لا يتطرف به أمرٌ إلاّ تقدّم فيه، ومهما تخوف عليه فإنه لن يأتي أمراً يعتذر منه؛ لأنه قسم أيامه بين أفعال الفضل؛ فجعل لكل خلق نوبة، إذا نظرت في أمره لم تدّر أيّ حالاته أعجب؛ أما هداهُ إليه عقله أم ما اكتسبه بأدبه؟ فقال له المأمون: لقد مدحته على سوء رأيك فيه! قال: لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر: الوافر:

كفى ثمنا لما أسديت أني
نصحتك في الصديق وفي عدائي
وأنى حين تنذّبني لأمرٍ
يكون هوأك أغلب من هوائي

قال الصولي: وقد روي هذا لغير أحمد، ولعل أحمد استعاره؛ فأعجب المأمون ذلك منه، وشكره غسان بن عبّاد له، وتأكدت الحال بينهما.

وكان أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، مولى عجل بن لجيم، عالي الطبقة في البلاغة، ولم يكن في زمانه أكتب منه، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب، ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبي خالد، وكان أول ما ارتفع به أحمد أن المخلوع محمد بن الرشيد لما قتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون؛ فأطالوا، فقال طاهر: أريد أخصر من هذا، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة، فأحضره لذلك، فكتب: أما بعد، فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة، بمفارقتة عصمة الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين؛

لقول الله عزّ وجلّ فيما اقتص علينا من نبي نوح وابنه: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"، ولا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله؛ وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابقٍ وغده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه، الكائد له فيمن ختر عهده، ونقض عهده، حتى ردّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع به الأمة بعد شتاتها، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها؛ وقد بعثت إليك بالدنيا وهي رأس المخلوع، وبالأخرة وهي البردة والقضيب؛ والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه، الراجع إليه ثراث آباءه الراشدين.

وكان أحمد بن أبي خالد كثيراً ما يصف أحمد للمأمون ويحثه عليه، فأمره المأمون بإحضاره، فلما وقف بين يديه قال: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي استخصك فيما استحفطك من دينه، وقلدك من خلافته، بسوايغ نعمه، وفضائل قيسمه، وعرفك من تيسير كل عسير حاولك عليه متمرد، حتى ذل لك ما جعله تكملة لما حبأك به من موارد أموره بنجح مصادرها، حمداً نامياً زائداً لا ينقطع أولاه، ولا ينقضي آخره، وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك، ومنه عليك، وكفايته ما ولاك واسترعاك، وتحصين ما حاز لك، والتمكين من بلاد عدوك، مما يمنع به بيضة الإسلام، ويعز بك أهله، ويبيح بك حمى الشرك، ويجمع لك مئين الألفة، ويُنجز بك في أهل العناد والضلالة وعده؛ إنه سميع الدعاء، فعّال لما يشاء. فقال المأمون: أحسنت، بورك عليك ناطقاً وساكناً! ثم قال بعد أن بلّاه واختبره: يا عجباً لأحمد بن يوسف! كيف استطاع أن يكتُم نفسه؟ وكتب إلى المأمون يستجدي لزوار على بابه: إن داعي نذاك، ومُنادي جدواك، جمعاً ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد، فمنهم من يمتُ بحُرمة، ومنهم من يُدلي بسالفِ خدمة، وقد أجحفَ بهم المقام؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يتعشهم بسبيبه، ويحقق ظنهم بطوله، فعَل.

فوقع المأمون في عرض كتابه: الخير متبع، وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات؛ فاكْتُب أسماءهم، ويُنَّ مرتبة كل واحد منهم، ليصير إليه على قدر استحقاقه؛ ولا تكدرن معروفنا بالمطل والحجاب؛ فقد قال الشاعر: الوافر:

كإلصاق به طرف الهوانِ

بمثل الودّ أو بذل اللسانِ

فإنك لن ترى طرداً لحراً

ولم تجلب مودة ذي وقاءٍ

قال أحمد بن يوسف: أمرني المأمون أن كتب في زيادة قناديل شهر رمضان؛ فأعيا علي، ولم أجد مثلاً أحتذي عليه؛ فبت مغموماً، فأتاني آت في النوم فقال: اكتب: فإن فيها إضاءة للمتجهدين، ونفياً لمكان الريب، وأنساً للسابلة، وتزيهاً لبيوت الله من وحشة الظلم، فأخبرت بذلك المأمون، فاستظرفه، وأمر أن

تمضي الكُتُب عليه.

وأهدى إلى المأمون في يوم نوروز طبقَ جَزَعٍ عليه ميلٌ من ذهب، فيه اسمه منقوش، وكتب إليه: هذا يوم جَرَّت فيه العادة، بإلطاف العبيد السادة، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبقَ جَزَعٍ فيه ميل.
فلما قرأ المأمون الرقعة قال: أ جاءت هديةُ أحمد بن يوسف؟ قالوا: نعم، قال: هي في داري أم داري فيها؟
فلما رفع المنديل استظرف الهدية واسترجح مُهديها.

وأهدى إلى إبراهيم بن المهدي هدية وكتب إليه: الثقة بك قد سهلت السبيلَ إليك، فأهديتُ هديةً من لا يَحْتَشِم إلى من لا يَغْتَنِم.

وكتب إلى بني سعيد بن سلم: لولا أن الله، عز وجل، ختم نبوته بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وكتبه بالقرآن، لتزل فيكم نبيّ نَقَمَة، وأنزل فيكم قرآنَ غَدْر؛ وما عَسَيْت أن أقولَ في قومٍ محاسنهم مساوي السُّفُل، ومساويهم فضائحُ الأُمم، وألسنتهم معقولة بالعِي، وأيديهم معقودة بالبخل، وهم كما قال الشاعر: البسيط:

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازيهم وإن بادوا

وغنى مُعَن بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحسناً، فلم يُنصِتوا له، وتحدثوا مع غِنائه، فغضب المغني، فقال أحمد بن يوسف: أنت، عافاك الله، تحمل الأسماع ثقلاً، والقلوب مَللاً، والأعين قَبَاحَة، والأنف نَتَانَة، ثم تقول: اسمعوا مني، وأنصِتوا إلي! هذا إذا كانت أفهامنا مُقْفَلَة، وآذاننا صَدِئَة، فيما رضيت بالعَفْو منا، وإلا قمت مذموماً عتاً.

ألفاظ لأهل العصر في ذم المغنين

يترنم فُتَيْعِب ولا يُطْرِب. إذا غنى عني، وإذا أدَى أدَى. يميت الطرب، ويحيي الكرب. ضربه يُوجب ضربه. من عجائب غِنائه أنه يُورِد الشتاء في الصيف. ما رُوي قطّ في دارٍ مرتين، وحضر لحظة مجلساً فيه علي بن بسام، فتفرق القومُ المخادّ، فقال لحظة: فما لي لم تعطوني مخدّة؟ فقال علي بن بسام: غنّ فالمخاد كلّها إليك تصير! وفيه يقول ابن بسام: السريع:

يا مَنْ هَجَوْنَاهُ فَعَنَّا أَنْتَ، وَبَيْتَ اللَّهِ، أَهْجَانَا

سَيَانِ إِنْ غَنَى لَنَا حِظَّةً أَوْ مَرَّ مَجْنُونٌ فزنانا

وكان خالد يُستَبَد، فبعث بعضُ الظرفاء غلامه يشتري له خمسة أرطال ثلج، فأتاه بخالد وقال: يا مولاي، طلبت خمسة أرطال، وهذا حِمْل! وتغنى بِحَضْرَةِ محموم، فقال: وبجك! دَعْنَا نَعْرِق! وقال بعض الحديثين في قريس المغني: المتقارب:

أَلَا فَاسْقِنِي قَدْحاً وَافِراً
يُعِينُ عَلَى الْبَلْغَمِ الْهَائِجِ
أَكَلْنَا قَرِيصاً وَغَنَى قَرِيص
فَنَحْنُ عَلَى شَرَفِ الْفَالِجِ

ولقي أبو العباس المبرد بردَ الخيار المغني في يوم ثَلَج بالجسر، فقال: أنت المبرد وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى، اعْبُر بنا لا يهلك الناس بالفالج بسبينا. وقال ابن عباد الصاحب في مغن يعرف بابن عذاب: مخلع البسيط:

أَقُولُ قَوْلًا بَلَا احْتِشَامَ
يَعْقِلُهُ كُلُّ مَنْ يَعِيهِ
ابن عذاب إِذَا تَغَنَّى
فإِنْنِي مِنْهُ فِي أَبْيِهِ

رجع إلى أحمد بن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف: مخلع البسيط:

ضَمِيرٌ وَجَدَ بِقَلْبٍ صَبَّ
تَرَجَمَ دَمْعِي بِهِ فَشَاعَا
فَصَارَ دَمْعِي لِسَانَ وَخْدِي
ضَيِّعَ سِرِّي بِهِ فَذَاعا
لَوْلَا دَمُوعِي وَفَرَطُ حُبِّي
مَا كَانَ سِرِّي كَذَا مَضَاعَا

وقال: المنسرح:

وَعَامِلٌ بِالْفَجْوَرِ يَأْمُرُ بِالِ
بِرِّ كَهَادٍ يَخُوضُ فِي الظَّلَمِ
أَوْ كَطِيبٍ قَدْ شَفَّهَ سَقَمَ
وَهُوَ يُدَاوِي مِنْ ذَلِكَ السَّقَمِ
يَا وَاعِظَ النَّاسِ غَيْرَ مُتَعَظٍ
ثَوْبَكَ طَهَّرَ أَوْ لَا فَلَا تَلُمُ

وقال: الطويل:

إِذَا مَا التَّقِينَا وَالْعِيُونَ نَوَاطِرُ
فَأَلْسُنُنَا حَرَبٌ وَأَبْصَارُنَا سَلْمُ
وقال في الحزن: الطويل:

كَثِيرٌ هَمُومٍ الْقَلْبِ حَتَّى كَأَنَّمَا
عَلَيْهِ سُرُورُ الْعَالَمِينَ حَرَامُ
إِذَا قِيلَ مَا أَضْنَاكَ! أَسْبَلَ دَمْعُهُ
فَأَخْبَرَ مَا يَلْقَى وَلَيْسَ كَلَامُ

وقال: الطويل:

ليردَع عَنْ سُلْطَانِهِ سُنَنَ الْكِبَرِ

كريم له نفس يَلِينُ بَلِينِهَا

دعاه إلى تسكينها عظم القَدْرِ

إذا ذَكَرَتْهُ نَفْسُهُ عَظَمَ قَدْرُهَا

ووقع في كتاب رجل يحثه على استتمام صنائعه عنده: مستتم الصنعة من عدل زيعها، وأقام أودها، صيانةً لمعروفه، ونصرةً لرأيه؛ فإن أول المعروف مستخف، وآخره مستثقل، يكاد أول الصنعة يكون للهوى، وآخرها للرأي، ولذلك قيل: رب الصنعة أشد من ابتدائها.

وكان أبو العتاهية له صديقاً قبل ارتفاع حاله، فأحس منه في حين وزارته تغيراً، فكتب إليه: الطويل:

فصرت ترى الإخوان بالنظر الشرر

أمنت إذا استغنييت من سورة الفقر

تتأيهه دون الأخلاء بالوفر

أبا جعفر إن الشريف يهينه

فإن عنائي بالتجمل والصبر

فإن تهت يوماً بالذي نلت من غنى

وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال: حجب أحمد بن يوسف أبا العتاهية، ثم عاد، فقيل: هو نائم، فكتب إليه: الطويل:

سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم

لئن عدت بعد اليوم إنني لظالم

ونصقك محجوب ونصقك نائم

متى يظفر الغادي إليك بحاجة

وقال: الخفيف:

يا أبو جعفر أخي وخليلي

في عداد الموتى وفي ساكني الدن

ش مقيماً في ظل عيش ظليل

ميت مات وهو في ورق العي

مات عن كل صالح وجميل

لم يميت ميتة الوفاة، ولكن

وخاصم أحمد بن يوسف رجلاً بين يدي المأمون، وكان صغاً المأمون إليه على أحمد، ففطن لذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه يستملي من عينيك ما يلقاني به، ويستبين بحركته ما تُجته له، وبلوغ إرادتك أحب إليّ من بلوغ أمني، ولذة إجابتك أمتع عندي من لذة ظفري؛ وقد تركتُ له ما نازعني فيه، وسلمتُ له ما طالبي به، فاستحسن ذلك المأمون.

ومن كلام أحمد بن يوسف: محالسة البغضاء تُثيرُ الهموم، وتَجلبُ الغموم، وتؤلم القلب، وتقذح في النشاط، وتطوي الانبساط.

ألفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء

فلان ثقیل الطَّلعة، بَغِضُ التفصیل والجُملة، باردُ السكونِ والحركة؛ قد خرج عن حد الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال. يحكي ثقل الحديث المعاد، ويمشي في القلوب والأكباد، ولا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرضَ حَمَلَتُهُ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أَقْلَتُهُ؟ كأن وجهه أيام المصائب، وليالي النوائب، وكأنما قرَّبَه فَقَدُ الحَبائب، وسوء العواقب. وكأنما وصله عدمُ الحياة، وموتُ الفجأة، وكأنما هجره قوة المنة، وريحُ الجنة. يا عجي من جِسْمٍ كالخيال، وروحٍ كالجبال، كأنه ثقل الدين، على وَجَعِ العين. هو ثقیلُ السكون، بَغِضُ الحركة، كثيرُ الشؤم، قليلُ البركة. هو بين الجَفْن والعين قَذاة، وبين الأخص والتعل حصاة. ما هو إلا غداةُ الفراق، وكتابُ الطلاق، وموتُ الحبيب، وطلوعُ الرقيب. ما هو إلا أربعاء لا تدور في صفر، والكابوسُ في وقتِ السحر، وأثقلُ من خراجِ بلا غلة، ودواء بلا علة، وأبغضُ من مثل غير سائر، وأجمعُ للعيوب من بغلة أبي دلامة، وحمار طيار، وطيلسان ابن حرب، وأير أبي حكيمة، وأنشد: الطويل:

مشى فدعا من ثقله الحوتُ ربَّه وقال: إلهي زِيدتِ الأرضُ ثانيه

وأنشد: الخفيف:

مشتَمِلٌ بالبُغْضِ لا تَنْتَنِي إليه لَحْظاً مَقْلَةً الرامِقِ
يظل في مجلسنا قاعداً أثقلُ من وَّاشٍ على عاشِقِ

وقال الحمدوني: المتقارب:

سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ
أتبغضُ نفسك من ثقلها وإلا فأنت إذا أحمقُ

وكتب أبو عبد الرحمن العطوي إلى بعض إخوانه: الطويل:

إذا أنت لم ترسلِ وجئتَ فلم أصل ملأت بعذرٍ منك سمعَ لبيبِ
أتيتك مشتاقاً فلم أرَ حاجباً ولا صاحباً إلا بوجهٍ قطوبِ
كأني غريمٌ مُقْتَضٍ، أو كأني طلوعُ رقيبٍ أو نهوضُ حبيبِ

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جلساً اسمه زنباع، فقال له رجل يوماً: ما الزنبعة في كلام العرب؟ قال: التثاقل، ولذلك سُمِّيَ جلسنا زنباعاً.

وقد كثر الناس في الثقلاء، وأنا أستحسن قول جحظة، وإن كان غيره قد تقدمه في مثله: السريع:

يا لَفْظَةَ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ

يا وَقْفَةَ التَّوَدِّيعِ بَيْنَ الْحُمُولِ

يا شَرِبَةَ الْيَارَجِ يا أُجْرَةَ

الْمَنْزَلِ يا وَجْهَ الْعَذُولِ الثَّقِيلِ

يا طَلْعَةَ النَّعْشِ ويا مَنْزِلًا

أَفْقَرَ مِنْ بَعْدِ الْأَنْبَاسِ الْحُلُولِ

يا نَهْضَةَ الْمَحْبُوبِ عَنْ غَضَبِهِ

يا نِعْمَةً قَدْ آذَنْتَ بِالرَّحِيلِ

يا كِتَابًا جَاءَ مِنْ مُخْلَفٍ

لِلوَعْدِ مَمْلُوءًا بِعَذْرِ طَوِيلِ

يا بُكْرَةَ التَّكَلَّى إِلَى حُفْرَةِ

مُسْتَوْدَعٍ فِيهَا عَزِيزُ التَّكُولِ

يا وَثْبَةَ الْحَافِظِ مُسْتَعْجَلًا

بِصَرْفِهِ الْقَيْنَاتِ عِنْدَ الْأَصِيلِ

ويا طَبِيبًا قَدْ أَتَى بِأَكْرَأَ

عَلَى أَخِي سَقَمٍ بِمَاءِ الْبَقُولِ

يا شَوْكَةً فِي قَدَمِ رِخْصَةٍ

لَيْسَ إِلَى إِخْرَاجِهَا مِنْ سَبِيلِ

يا عِشْرَةَ الْمَجْذُومِ فِي رَحْلِهِ

ويا صُعُودَ السَّعْرِ عِنْدَ الْمُعِيلِ

يَارِدَةَ الْحَاجِبِ عَنْ قَسْوَةِ

وَنَكْسَةِ مَنْ بَعْدَ بُرْءِ الْعَلِيلِ

وَجَحْظَةُ هَذَا هُوَ أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُوسَى بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ، وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مُقْلَةَ الْوَزِيرُ: سَأَلْتُ جَحْظَةَ مَنْ لَقِبَهُ بِهَذَا اللَّقَبِ؟ فَقَالَ: ابْنُ الْمُعْتَزِّ، لَقِيتِي يَوْمًا، فَقَالَ لِي: مَا حَيَوَانٌ إِنْ نَكَّسُوهُ أَتَانَا آلَةٌ لِلْمَرَكَابِ الْبَحْرِيَّةِ، فَقُلْتُ: عَلَقٌ، إِذَا نَكَّسَ صَارَ قَلْعًا، قَالَ: أَحْسَنْتَ يَا جَحْظَةُ؛ فَلَزِمَنِي هَذَا اللَّقَبُ، وَكَانَ نَاتِي الْعَيْنِينَ جَدًّا، قَبِيحَ الْوَجْهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: الْكَامِلُ:

نَبِئْتُ جَحْظَةَ يَسْتَعِيرُ جُحُوظُهُ

مِنْ فِيلٍ شِطْرَنْجٍ وَمِنْ سِرْطَانٍ

يَا رَحْمَتِي لِمُنَادِمِيهِتَحْمَلُوا أَلَمَ الْعَيُونِ لِلذَّةِ الْأَذَانِ

وَكَانَ طَيِّبَ الْغِنَاءِ، مَمْتَدَّ النَّفْسِ، حَسَنَ الْمَسْمُوعِ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ ثَقِيلَ الْيَدِ فِي الضَّرْبِ؛ وَكَانَ حُلُوَ النَّادِرَةِ، كَثِيرَ الْحِكَايَةِ، صَالِحَ الشَّعْرِ، وَلَا تَزَالُ تَنْدُرُ لَهُ الْأَبْيَاتُ الْجَيِّدَةُ، وَهُوَ الْقَائِلُ: الْكَامِلُ:

جَانِبْتُ أَطْيَبَ لَذْتِي وَشَرَابِي

وَهَجَرْتُ بَعْدَكَ عَامِدًا أَصْحَابِي

فَإِذَا كَتَبْتُ لَكَ أَنْزَرَهُ نَاضِرِي

فِي حُسْنِ لَفْظِكَ لَمْ تَجِدْ بِجَوَابِ

إِنْ كُنْتُ تَتَكَرَّرُ ذِلَّتِي وَتَذَلِّلِي

وَنُحُولَ جِسْمِي وَامْتِدَادَ عَذَابِي

فَانْظُرْ إِلَى بَدَنِي الَّذِي مَوَّهَتْهُ

لِلنَّاضِرِينَ بِكَثْرَةِ الْأَثْوَابِ

وقال: مجزوء الكامل:

وإذا جفاني صاحبٌ
لم أَسْتَجِرْ ما عِشْتُ قَطْعَهُ
وتركته مثلَ القُبُورِ
رِأْزورها في كُلِّ جُمُعَةٍ

وقال: البسيط:

ضاقَت عليَّ وجوهُ الرأْيِ في نَفَرٍ
يَلْقَوْنَ بِالْجَدِّ وَالْكَفَرِ إِنْسانِي
أَقْلَبَ الطَّرْفَ تَصْعِيداً وَمَنْحِدرًا
فما أَقْبَلُ إنساناً بِإنسانِي

وقال: المتقارب:

لقد مات إخواني الصالحون
فما لي صديقٌ وما لي عمادُ
إذا أَقْبَلَ الصَبْحُ وَلَى السرور
وإن أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَلَى الرقاد
وقال يهجو رجلاً: الكامل:

لا تعذلوني إن هَجَرْتُ طعامه
خوفاً على نفسي مِنَ المأكولِ
فمتى أَكَلْتُ قَتَلْتُهُ مِنْ بُخلِهِ
ومتى قَتَلْتُ قَتَلْتُ بِالْمَقْتُولِ
ومن حكاياته ما حدَّثني خالد الكاتبُ قال: جاءني يوماً رسولُ إبراهيم ابن المهدي، فصرت إليه، فرأيتُ رجلاً أسودَ على فُرْش فد غاص فيها، فاستجلسني وقال: أنشدني من شعرك، فأنشدته: الطويل:
رَأَتْ مِنْهُ عَيْنِي مَنْظَرَيْنِ كَمَا رَأَتْ
مِنَ الشَّمْسِ وَالبَدْرِ المَنِيرِ على الأَرْضِ
عَشِيَّةً حَيَّانِي بَوْرَدَ كَأَنَّهُ
خَدَوْدُ أَضِيْفَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضِ
وَنَازَعَنِي كَأَسَا كَأَنَّ حَبَابَهَا
دُمُوعِي لَمَّا صَدَّ عَنْ مَقْلَتِي غَمُضِي
وَرَاحَ وَفِعْلُ الرَاحِ فِي حَرَكَاتِهِ
كَفَعْلُ نَسِيمِ الرِّيحِ بِالْغَصْنِ الغَضِّ
فزحف حتى صار في ثلثي الفراش، وقال: يا فتى، شبهوا الحدودَ بالوَرْدِ، وأنتَ شبهتَ الوردَ بالحدود، زِدْنِي فأنشدته: مجزوء الكامل:

عائِبْتُ نَفْسِي فِي هَوا
كُ فَلَـم أَجِدْهَا تَقْبَلُ
وَأَطَعْتُ دَاعِيَهَا إِلَيَّ
كُ فَلَـم أَطْعَ مِنْ يَعْذُلُ
لَا وَالَّذِي جَعَلَ الوُجُو
هَ لِحُسْنِ وَجْهِكَ تَمَثَّلُ
لَا قَلْتُ إِنَّ الصَّبْرَ عَنْ
كُ مِنْ التَّصَابِي أَجْمَلُ

فزحف حتى انحدر عن الفرش ثم قال لي: زِدْنِي، فأنشدته: الرمل:

عَشْ فَحُبِّبْكَ سَرِيعاً قَاتِلِي
وَالضَّنَى إِنْ لَمْ تَصَلْنِي وَاصِلِي
ظَفَرَ الْحَبِّ بِقَلْبٍ دَنَفٍ
فِيكَ وَالسَّقْمُ بِجَسْمٍ نَاحِلٍ
فَهُمَا بَيْنَ اكْتِنَابٍ وَضُنَى
تَرَكَانِي كَالْقَضِيبِ الذَّابِلِ
وَبَكَى الْعَاذِلُ لِي مِنْ رَحْمَةٍ
فَبَكَائِي لِبِكَاءِ الْعَاذِلِ

فَنَعَرَ طَرَباً وَقَالَ: يَلْبَقُ؛ كَمْ مَعَكَ لِنَفَقَتِنَا؟ قَالَ: ثَمَانِمِائَةٌ وَخَمْسُونَ دِينَاراً. قَالَ: أَقْسَمُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ خَالِدٍ،
فَدَفَعَ إِلَيَّ نَصْفَهَا.

وَأَنْشَدَ حَضْرَةً أَوْ غَيْرَهُ وَلَمْ يَسْمَعْ قَائِلَهُ: الْبَسِيطُ:

لَا يَبْعِدُ اللَّهُ إِخْوَانَنَا لَنَا سَلَفُوا
أَفْنَاهُمْ حَدَّثَانِ الدَّهْرِ وَالْأَبْدُ
نَمْدُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ بَقِيَّتِنَا
وَلَا يَوُؤُوبُ إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدُ

ما قيل في السكّين

وكان أحمد بن يوسف جالساً بين يدي المأمون، فسأل المأمون عن السكّين فناولته أحمد السكّين، وقد
أَمْسَكَ بِنَصَابِهَا، وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِالْحَدِّ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْمَأْمُونُ نَظْرَ مُنْكَرٍ؛ فَقَالَ: لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْكَرَ عَلَيَّ أَخَذِي
النَّصَابَ؛ وَإِشَارَتِي إِلَيْهِ بِالْحَدِّ؛ وَإِنَّمَا تَفَاعَلْتَ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَدُّ عَلَى أَعْدَائِهِ، فَعَجِبَ الْمَأْمُونُ مِنْ سُرْعَةِ
فَطْنَتِهِ، وَلَطِيفِ جَوَابِهِ.

وقال بعض الكتاب: السكّين مسُّ الأَقْلَامِ يشحذها إذا كَلَّتْ، وَيَصْقُلُهَا إِذَا نَبَتَتْ، وَيَطْلُقُهَا إِذَا وَقَفَتْ،
وَيَلْمُهَا إِذَا شَعِثَتْ، وَأَحْسَنُهَا مَا عَرُضَ صَدْرُهُ، وَأَرْهَفُ حَدُّهُ، وَلَمْ يَفْصَلْ عَلَى الْقَبْضَةِ نَصَابُهُ.
وقال أبو الفتح كشاجم يرثي سكيناً سُرقت له: الْبَسِيطُ:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ كِتَابَ الدَّوَاوِينِ
لَقَدْ دَهَانِي لَطِيفٌ مِنْهُمْ خَتَلٌ
فَأَقْفَرْتُ بَعْدَ عُمُرَانٍ بِمَوْقِعِهَا
تَبْكِي عَلَى مُدِيَّةٍ أَوْدَى الزَّمَانَ بِهَا
كَانَتْ تَقْدِّمُ أَقْلَامِي وَتَتَحْتُّهَا
كَانَتْ عَلَى جَائِرِ الْأَقْلَامِ تُعْذِرُنِي
وَأَضْحَكَ الطَّرْسَ وَالْقَرَطَاسَ عَنْ حَلِّ
نَحْتًا وَتَسْخِطُهَا بَرِيًّا فَتُرْضِينِي
فَإِنْ قَشَرْتَ بِهَا سُودَاءَ مِنْ صُحْفِي
مِنْهَا دَوَاةُ فَتَى بِالْكِتَابِ مَقْتُونِ
يَنْوِبُ لِلْعَيْنِ مِنْ نَوْرِ الْبَسَاتِينِ
عَادَتْ كِبْعُضُ خُدُودِ الْخُرْدِ الْعَيْنِ

جزعُ النصاب لطيفات شَعَائِرُهَا
هيفاء مُرْهَفَةٌ بِيضَاءُ مُذْهَبَةٌ
لكن مقطِيَّ أَمْسَى شَامِتًا جَذَلًا
فَصِينَ حَتَّى يُضَاهِيَ فِي صَيَانْتِهِ
ولستُ عنها بِسَالٍ مَا حَبِيبْتُ، وَلَا
ولو يَرُدُّ فِدَاءً مَا فَجِعْتُ بِهِ
محسّنات بأصناف التّحاسين
قال الإله لها سبحانه: كوني
وكان في ذلّةٍ منها وفي هُونٍ
جَاهِي لَصَوْنِيهِ عَمَّنْ لَا يُدَانِينِي
بواجِدٍ عَوْضًا منها يُسْلِينِي
منها فديناه بالدنيا وبالدين

ألفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين

سكّين كأنَّ القدرَ سائقها، أو الأجلَ سابقها، مُرْهَفَةُ الصَّدْرِ، مُخْطَفَةُ الخَصْرِ، يَجُولُ عليها فِرند العِثْقِ، ويموج فيها ماء الجَوْهر؛ كأنَّ المنيّة تَبْرُقُ من حدها، والأجلُ يَلْمَعُ من متنها، رَكِبْتُ فِي نِصَابِ آبَنُوسَ، كأنَّ الحَدَقَ نَفَضَتْ عليه صَبْعَهَا، وَحَبَّ القلوب كسْتَه لباسها. أخذ لها حديدَها الناصح بخط من الروم، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج، فكأنها ليل من تحت نهار، أو مجمر أبْدَى سَنَا نَارَ، ذات غرار ماضٍ، وذباب قاض. سكّين ذات مَنَسَرٍ بازِيٍّ، وجَوْهر هوائي، ونِصَابُ زنجي، إن أَرْضِيتْ أُولَتْ مَتْنًا كالدهان؛ وإن أُسْخِطَتْ أَتَقَتْ بِنَابِ الأفعوان. سكّين أَحْسَنُ من التَّلَاقِ، وَأَقْطَعُ من الفِرَاقِ، تَفْعَلُ فِعْلًا الأعداء، وتَنْفَعُ نَفْعَ الأصدقاء. هي أَمْضَى من الْقَضَاءِ، وَأَنْفَذُ من الْقَدَرِ الْمَتَّاحِ، وَأَقْطَعُ من طَبَةِ السيف الحُسامِ، وأَلْعُ من الْبَرَقِ في الْعَمَامِ. جمعت حُسْنَ المنظر، وَكَرَمَ المَخْبَرِ، وَتَمَلَّكَتْ عِنان القلب والبصر، ولم يُخَوِّجْهَا عِثْقُ الجَوْهرِ إلى إِمْهَاءِ الحجر.

الاستدعاء إلى الموائسة والمنادمة

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح: ما زِلْنَا فِي سَمَرٍ نَصِلُ فصولَه بِتَشْوِيقِكَ، فَيَذْهَبُ ذِكْرُكَ مَلَلُ السامرِ، وَنَعْسَةُ الساهرِ. فقال القاسم: مثلك ذكر صديقه فأطراه، واعتذر إليه فأرضاه، ولو كنتم آذَنْتُمُونِي كُنْتُ أَحَدَكُمْ، مَسْرُورًا بِمَا بِهِ سُرُورَتِي، مَفِيزًا فِيهِ أَفْضَتُكُمْ. قال بعض الظرفاء: شَرَطُ الْمُنَادِمَةِ قِلَّةُ الْخِلَافِ، وَالْمُعَامَلَةُ بِالْإِنْصَافِ، وَالْمَسَاحَةُ فِي الشَّرَابِ، وَالتَّغَافُلُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ، وَإِدْمَانُ الرِّضَا، وَاطِّرَاحُ مَا مَضَى، وَإِسْقَاطُ التَّحِيَّاتِ، وَاجْتِنَابُ اقْتِرَاحِ الْأَصْوَاتِ، وَأَكْلُ مَا

حضر، وإحضار ما تيسر، وسُتِرَ العَيْبُ، وحفظ الغيب.
وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوي في قوله: الوافر:

حقوقُ الكأسِ والنَّدَمَانِ خمسُ	فأولُّها التزِينُ بالوَقَارِ
وثانيها مَسَامَحَةُ النَّدَامَى	فكَمْ حَمَتِ السَّمَاحَةَ مِنْ ذِمَارِ
وثالثها، وإن كنتَ ابنَ خَيْرِ الـ	بريةَ مَحْتَدًا، تَرُكُ الْفَخَارِ
ورابعها وللنَّدَمَانِ حق	سوى حقِّ القَرَابَةِ والجَوَارِ
إذا حَدَّثْتَهُ فَأكْسُ الحديثِ الـ	ذي حَدَّثْتَهُ ثَوْبَ اختصارِ
فما حُتَّ النبيذُ بمثلِ حسنِ الأـ	غَانِي والأَحَادِيثِ الْقِصَارِ
وخامسةٌ يدُكُ بها أخوها	على كرمِ الطَّبِيعَةِ والنَّجَارِ
حديثُ الأَمْسِ ننسَاهُ جميعاً	فإنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْعُقَارِ
ومن حَكَمْتَ كَاسَكَ فِيهِ فَاحْكَمْ	له بِإِقَالَةٍ عِنْدَ الْعِثَارِ

وقال حسان بن ثابت: الوافر:

نُوكِيَهَا الْمَلَامَةَ إِنِّ أَلْمَنَّا

إذا ما كان مَغْتًى أَوْ لِحَاءَ

وشرب اليزيدي عند المأمون فلما أخذت منه الكأس أقبل يعتز عليه بتعليمه إياه، وأساء مخاطبته، فلما أفاق من سُكْرِهِ عُرِفَ ما جرى، فليس أكفاهه، ووقف بين يدي المأمون فأنشده: الطويل:

أنا المذنبُ الخطَاءُ والعَفْوُ واسعٌ	ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العَفْوُ
ثَمَلْتُ فَأُبْدَتُ مَنِّي الكَاسُ بَعْضَ مَا	كَرِهْتُ وَمَا إِن يَسْتَوِي السُّكْرُ وَالصَّحْوُ
ولا سيما إِن كنتُ عندَ خليفةٍ	وفي مجلسٍ ما إِن يجوزُ به اللَّغْوُ
فإن تَعَفُّ عَنِي أُلْفِ خَطْوِي وَاسِعاً	وإلا يكن عَفْوٌ فَقَدْ قَصُرَ الْخَطْوُ

فقال المأمون: لا تثريبَ عليك، فالنبيذ بساط يطوى بما عليه.

وشرب كوران المغني عند الشريف الرضي، فافتقد رداءه، وزعم أنه سرق. فقال له الشريف: ويحك! مَنْ تتهم منا؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه؟ قال: انشروا هذا البساط حتى أخذ رداي واطووه إلى يوم القيامة.

وكان أبو جعفر أحمد بن جدار، كاتب العباس بن أحمد بن طولون، ينقل أخبار أبي حفص عمر بن أيوب، كاتب أحمد بن طولون، على الشراب إلى العباس، فصار إليه أبو حفص فقال: يا أبا جعفر، إنما

مجلس المدام مجلس حرمة، وداعية أنس، ومسرح لبانة، ومَذَاد هَمّ، ومرتع لهُو، ومعهد سرور، وإنما
توسطته عند من لا يتهم غيبه، ولا يخشى عتبه، وقد أتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل أعز الله أمره،
من أخبار مجالستي، فلا تفعل، وأنشده: الخفيف:

ولقد قلت للأخلاء يوماً
إنما مجلس المدام بساط
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا
وهم أحرىاء، إن كان منهم
قول ساع بالنصح لو سمعوه
للمودات بينهم وضعوه
من نعيم ولذة رفعوه
حافظ، ما أتوه أن يمنعوه

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل، وقام من مجلسه.
وأنشد أبو حفص: الكامل:

كم من أخ أوجست منه سجية
لم أحمد الأيام منه خليقة
فأنست بعد دأده بفراقه
فتركته مستمتعاً بخلاقه

عول أبو حفص في أكثر كلامه على نقل كلام أبي العباس الناشئ في الشراب، والأبيات التي أنشد أولاً
له.

أبو القاسم الصاحب: قدماً حُمِلَتْ أَوْزَارُ السُّكْرِ، على ظهور الخمر، وطوي بساط الشراب، على ما فيه
من خطأ أو صواب. متابعة العُقَار، تعذر في خَلْعِ العِدَار، وتُعْنِي عن الاعتذار. متابعة الأبطال، تبطل سورة
الأبطال، وتَدْعُ الشيوخ كالأطفال.

كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلِي إلى بعض الجِلَّةِ يستدعيه: يؤمنا يوم لَيْنِ الحواشي، وطيء النواحي؛
وسماؤنا قد أقبلت، ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قُطْبُ السرور، ونظام الأمور؛ فلا تفرِّدنا فنقل، ولا
تنفرد عنا فنذل.

وكتب بعض أهل العصر - وهو السَّرِي الموصلِي - إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته: الطويل:

خلالك، ما اختل الصديق، سحائب
وأنت شقيق الروح تؤثر وصلها
وبشرك ما هبت رياح، مَوَاهِب
وأنشده: الخفيف: ونحن خلال القصف ولعزف نجتني
وإزاراعها بالهجر خل وصاحب
ثمار ملاء كلهن أطايب
وعندي لك الريحان زين بساطه
بزهر كما زانت سماء كواكب

وَجَيْشٌ كَمَا انْجَرَتْ ذِيولُ غَلَائِلِ
 وَقَدْ أَطْلَقَتْ فِيهِ الشَّمَائِلُ، وَانْتَنَتْ
 وَحَافِظَةُ مَاءِ الْحَيَاةِ لِفَتْنَةٍ
 نُسِرْبِلُهَا أَخْفَى اللَّبَاسِ، وَإِنَّمَا
 عَلَى جَسَدٍ مِثْلِ الزَّبْرِجَدِ لَمْ تَزَلْ
 إِذَا اسْتَوْدَعْتَ حُرَّ اللَّجَيْنِ سِبَائِكًا
 وَشَوْقَ رُؤُوسِ الْقَوْمِ غَيْمٍ مَعْلَقٍ
 بَوَارِقُهُ خَمَرُ الْكُؤُوسِ وَرَعْدُهُ
 وَلَا عَائِقُ يَنْتَنِي عِنَانُكَ عَنْ هَوَى
 فَبَادِرٍ؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ صَافٍ مِنَ الْقَذَى
 وقال ابن المعتز: المنسرح:

مُصْنَدَلَةٌ تَخْتَالُ فِيهَا الْكَوَاعِبُ
 مُفَنَّدَةٌ عَنْ جَانِبَيْهَا الْجَنَائِبُ
 حَيَاتُهُمْ أَنْ تَسْتَلْذَ الْمَشَارِبُ
 يَلْفُ بِهَا أَفْوَاهُهُ وَالسَّبَائِبُ
 تَشَاكُلُهُ فِي لَوْنِهِ وَتُنَاسِبُ
 تَصَوُّبُهُ فِي أَحْسَائِهَا وَهُوَ ذَائِبُ
 مِنَ النَّدِّ لَا يَجْرِي وَلَا هُوَ ذَاهِبُ
 أَنَامِلُ بَيْضٍ لِلطُّبُولِ تَلَاعِبُ
 رَغَى جَانِبٍ مِنْهُ وَأَوْمَضَ جَانِبُ
 وَيَا رَبِّ يَوْمٍ بَادَرْتُهُ النُّوَابِ

لَا شَيْءَ يَسْلِي هَمِّي سِوَى قَدَحٍ
 فِي غَيْمٍ نَدٍّ يُزْجِي سَحَابَهُ

تَدْمَى عَلَيْهِ أَوْدَاجُ إِبْرِيْقٍ
 بَرَقُ ابْتِسَامٍ وَرَعْدُ تَصْفِيْقٍ

وقال الحسن بن محمد الكاتب يصف طبلاً: البسيط:

يَا حَبَّذَا يَوْمَنَا نَلْهُو بِمُلْهِيَةٍ
 قَدْ شَدَّ هَذَا إِلَى هَذَا كَأَنَّهُمَا
 نَظَّلَ نَلْطَمُ خَدَّيْهِ إِذَا ضَرَبَتْ
 فَتَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْهُ حِينَ تَضْرِبُهُ

تُلْهَى بِشَيْءٍ لَهُ رَأْسَانُ فِي جَسَدٍ
 مِنْ شِدَّةِ الشَّدِّ مَقْرُونَانِ فِي صَفَدٍ
 بِكُلِّ طَاقَتِهَا لَطْمًا بَلَا حَرَدٍ
 كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ مَاضِغِي أَسَدٍ

ومن ألفاظهم في الاستدعاء

نحن في مجلسٍ قد أبت راحه أن تصفو لنا أو تتناولها يُمنَّاك، وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذنَّاك، فأما
 حدودُ نارنجِه فقد احمرَّت خَجَلًا لِإِبْطَائِكَ، وعيونُ نَرْجِسِه قد حدقتُ تَأْمِيلاً لِلْقَائِكَ، فبِحِيَاكِ عَلَيْكَ إِلَّا
 تعجلت، وما تمهل.

نحن بغيبَتِكَ كَعَقْدِ تَغْيِيْتِ وَاسِطَتِهِ، وشبابٍ قد أَحْلَقْتَ جِدَّتُهُ، وإذ قد غابت شمسُ السَّمَاءِ عَنَّا، فلا بد أن
 تدنُو الأرضُ مِنَّا. أنت من ينتظم به شَمْلُ الطَّرَبِ، وبلقائه يبلغُ كلَّ أَرَبٍ. طِرِ إلينا طَيْرَانُ السَّهْمِ، واطلع

علينا طلوع النجم. ثَبَّ إلينا وثوب الغزال، واطلُع علينا طلوعَ الهلال، في غرة شوال. كن إلينا أسرع من السهم إلى ممره، والماء إلى مقره. جشم إلينا قدمك، واخلع علينا كرمك، وإن رأيت أن تحضرنا لتتصل الوسطة بالعقد، ونحصل بقربك في جنة الخلد، وتُسهم لنا في قِربك الذي هو قوت النفس، ومادة الأُنس.

ولهم في استدعاء الشراب

قد تألف لي شمل إخوانٍ كان يفترق لعوز المشروب، واعتدنا فضلك المعهود، ووردنا بحرك المورد، وأنا ومن ساعحي الدهرُ بزيارته من إخواني وأوليائك وقوفُ بحيث يقفُ بنا اختيارك من النشاط والفتور، ويرتضيه لنا إيثارك من الهم والسرور، والأمرُ في ذلك إليك، والاعتمادُ في جمع شمل السمرّة عليك، فإن رأيت أن تكليني إلى أولى الظنين بك فعلت. أطف المنّ موقعا، وأجلها في النفوس موضعا، ما عمّر أوطان المسرّة، وطرّد عوارض الهم والفكرة، وجمع شمل المودة والألفة. قد انتظمت في رفقة لي في سبط الثريا، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المدام غدنا كبنات نَعش، والسلام. فرأيك في إرواء غلتنا بما ينقعها، والطول على جماعتنا بما يجمعها.

ولهم في الكتابة عن الشراب

قد نشط لتناول ما يستمد البشر، ويشرح الصدر، قد استمطر سحابة الأُنس، واستدرّ حلوبة السرور، وقدح زند اللهو، فهو يمرّ دماء العناقيد، ويفصد عروق الدنان، وينظم عقد الندمان. كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبج في يوم دجن لم يمطر: أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده، كأنه قول كثير: الطويل:

تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتْ

وَإِنِّي وَتَهَيَّأْتُ بِعِزَّةٍ بَعْدَمَا

تَبَوَّأْتُ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اِضْمَحَلَّتْ

لِكَالْمَرْتَجِي ظِلَّ الْغَمَامَةِ، كُلَّمَا

وما أصبحت أمنيّتي إلا في لقائك، فليت حجاب النأي هتك بيني وبينك! رقعتي هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تنحيه، وبعثت نشاطاً حركني للكتاب؛ فرأيك في إمطاري سروراً بشار خبرك؛ إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موقفاً إن شاء الله.

وكتب الحسن بن وهب: وصل كتاب الأمير أيده الله وفمي طاعم ويدي عاملة، ولذلك تأخر الجواب

قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحصان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذنباً استحقَّ به دماً؛ لأنه إذا أشمس
حكى حُسْنُكَ وضياءُكَ، وإن أمطر حكى جودك وسخاءك، وإن غام أشبه ظِلُّكَ وفناءك، وسؤالُ الأمير
عني نعمة من نعم الله، عز وجل، أُعْفِيَ بها آثارَ الزمان السيئِ عندي! وأنا كما يحب الأمير صرف الله
الحوادث عنه، وعن حظي منه.

وذم رجل رجلاً فقال: دعواته ولائم، وأقداحه محاجم، وكؤوسه محابر، ونوادره بوادر.
وقال أبو الفتح كشاجم: كان عندي بعض الجَّانِ من النبيذيين، فسمعتني وأنا أحمدُ الله جلَّ ذِكْرُه في وسط
الطعامِ لشيءٍ خطر ببالي من نعم الله التي لا تُحصى، فنهض وقال: أُعْطِيَ الله عهداً إن عاودتُ! وما معنى
التحميد هنا؟ كأنك تُعلمنا أنا قد شبعنا. ثم مال إلى الدواة والقرطاس، وكتب ارتجالاً: الوافر:

وَحَمَدُ اللَّهِ يَحْسُنُ كُلَّ وَقْتٍ
لَأَنَّكَ تُحْسِنُ الْأُضْيَافَ فِيهِ
وَتُؤَدِّنُهُمْ، وَمَا شَبِعُوا بِشَبْعٍ
وَلَكِنْ لَيْسَ فِي أَوَّلَى الطَّعَامِ
وتأمرهم بإسراع القيام
وذلك ليس من خلق الكرام

وكتب المَرِيَمِي إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ: البسيط:

إِنْ كُنْتَ تَبْتَ عَنْ الصَّبَاءِ تَشْرَبُهَا
تُبْ رَاشِداً، وَاسْقِنَا مِنْهَا، وَإِنْ عَذَلُوا
نُسْكَاً فَمَا تَبْتَ عَنْ بَرٍّ وَإِحْسَانٍ
فِي مَا فَعَلْتَ فَقُلْ مَا تَابَ إِخْوَانِي
وقال بعض النبيذيين، وقد ترك الشرب: الوافر:

تَحَامُونِي لَتَرَكِي شُرْبَ رَاحٍ
وَمَا انْفَرَدُوا بِهَا دُونِي لِفَضْلِ
وَأَرْفَعُهُمْ عَلَى وَتَرٍ وَصَنْجٍ
إِذَا شَقُّوا الْجِيُوبَ شَقَّقْتَ جَيْبِي
أَقَمْتُ مَكَانَهَا الْمَاءَ الْقَرَّاحَا
إِذَا مَا كُنْتُ أَكْثَرَهُمْ مِرَاحَا
وَأَطْرَفُهُمْ وَأَطْرَفَهُمْ، مَزَاحَا
وَإِنْ صَاحُوا عَلَوْتُهُمْ صِيَاحَا

فقر للنبيذيين

ما جُمِشت الدنيا بأطرف من النبيذ، ما للعقار والوقار. إنما العيش في الطيش، الراح ترياق سمِّ الهمِّ. النبيذ
ستر فانظر مع مَنْ تهتكه. اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا استطبته فدعه. لولا أنَّ المخمور يعلم قصته لقدم
وصيته. الصاحي بين السكارى كالحي بين الموتى؛ يضحك من عقْلهم، ويأكل من نَقْلهم. أحق ما يكون
السكران إذا تعاقل. التبذل على النبيذ ظرف، والوقار عليه سخف، حد السكران أن تغرب الهموم،

ويظهر السرّ المكتوم.

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب: ما أنصفتها، تضحك في وجهك، وتعبس في وجهها.

وقال الطائي: الطويل:

إذا ذاقها، وهي الحياة، رأيتَه
يُعبّس تعبيسَ المقدّم للقتل

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال: البسيط:

وأن أقطب وجهي حين تبسم لي
فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وترك رجلً النبيذ، فقيل له: لم تركته، وهو رسول السرور إلى القلب؟ قال: ولكنه رسول بأسٍ يُبعثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس.

وقيل لبعضهم: ما أصيبك بالخمّر! فقال: إنها تُسرج في يدي بنورها، وفي قلبي بسرورها، كأنّ الناشئ نظر إلى هذا الكلام فقال: الكامل:

راح إذا علت الأكفّ كؤوسها
فكأنها من دونها في الرّاح

وكأنما الكاسات ممّا حولها
من نورها يسبحن في ضحضاح

لو بُثّ في غسق الظلام ضياؤها
طلّع المساء بغرة الإصباح

نفضت على الأجسام ناصع لونها
وسرت بلذتها إلى الأرواح

البيت الأول كقول البحرّي: الكامل:

يخفي الزجاجة ضوءها، فكأنها
في الكف قائمة بغير إناء

وللناشئ في هذا المعنى: الكامل:

ومدامة يخفي النهار لنورها
ونذل أكناف الدجا لضياؤها

صببت فأحرق نورها بزجاجها
فكأنها جعلت إناء إنائها

وترى إذا صببت بدت في كأسها
متقاصر الأرجاء عن أرجائها

وتكاد إن مزجت لرقّة لونها
تمتاز عند مزاجها من مائها

صفراء تضحّي الشمس، إن قيسّت بها
في ضوئها، كالليل، في أضوائها

وإذا تصفحت الهواء رأيتَه
كدر الأديمة عند حسن صفائها

تزداد من كرم الطباع بقدر ما
تودي به الأيام من أجزائها

لا شيء أعجب من تولد بُرئها

من سقمها، ودوائها من دائها

وقال: الكامل:

إن رمت وصف الراج فأت بما

فيها من الأوصاف من قُرب

هي ماء ياقوت، وإن مُزجت

في كأسها بالبارد العذب

فكأنها وحبائبها ذهب

كللتها باللؤلؤ الرطب

ولأهل العصر: الدنيا معشوقة ريقها الراح. أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في صاعد بن مخلد:
الطويل:

فتى هاجر الدنيا وحرَم ريقها

وهل ريقها إلا الرحيق المورّد؟

ولو طمعت في عطفه ووصاله

أباحته منها مرشفاً لا يُصرّد

الخمّر أشبه شيء بالدنيا؛ لاجتماع اللذات والمرارة فيها. الخمر مصباح السرور، ولكنها مفتاح الشرور.
لكل شيء سر، وسر الراح السرور. لا يطيب المدام الصافي، إلا مع الندم الصافي.

ومن ألفاظهم في صفات

مجالس الأُنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِس رَاحُهُ ياقوت، وتَوْرهُ ورد، وتَارَنجُهُ ذهبٌ، ونَرْجِسُهُ دينار ودرهم، يحملهما زبرجد. عندنا أترج
كأنه من خَلْقِكَ خُلِقَ، ومن شَمَائِلِكَ سُقِرَ، وتَارَنج ككَرَاتٍ من سفن ذهبٍ، أو ثدي أبكار خلقت.
مجلس أَخَذَتْ فيه الأوتار تتجاوب، والأقداح تتناوب. أعلام الأُنس خافقة، وألسن الملاهي ناطقة. ونحن
بين بدور، وكاسات تدور، وبروق راح، وشموس أقداح. قد نشأت غمامة الندى، على بساط الورْد. مجلس
قد تفتحت فيه عيون النرجس، وفاحت مجامير الأترج، وفتقت فارات التارنج، ونطقت ألسن العيدان،
وقامت خطباء الأوتار، وهبت رياح الأقداح، وطلعت كواكب الندمان، وامتدت سماء الندى. مجلس من
رآه حسب الجنان قد اصطفّت عيونها، فجعلت في قدر من الأرض، وتخيّرت فصوصها، فنقلت إلى مجلس
الأُنس واللّهو. قد فضّ اللّهو ختامه، ونشر الأُنس أعلامه. قد هبت للأُنس ريح برقها الراح، وسحابتها
الأقداح، وعودها الأوتار، ورياضها الأقمار. قد فرغنا للهو والدهر عتاً في شغل.
جل هذا من قول بعض أهل العصر: الرمل:

كم جوى مثله رسم مثَل
ولال كلال الخد بها
حبذا عيش الليالي باللوى
إذ فرغنا فيه للهو وقد
وَأَدْرَنَّا ذَهَبًا فِي لَهَبٍ
كَلَّمَا أُخْمِدَ بِالماءِ اشْتَعَلَ
ودم قد طل أثناء طَلَلْ
لعب البين برباتِ الكَلَلْ
لو تجافى الدهرُ عنا وغَلْ
باتتِ الأقدارُ عنا في شُغْلْ

قد اقتعدنا غاربَ الأُتُسِ، وجرينا في مَيِّدَانِ اللهو. عمدنا إلى أقداحِ اللهو فأجلناها، ولمراكبِ السرور فامتطيناها. قد امتطينا غواربَ السرور بالأقداح. مُدَامَةُ ثُورِدِ رِيحِ الوَرْدِ، وَتَحْكِي نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي اللَّوْنِ والبرْدِ، ولستُ أدري أشقيق أم عقيق، أم رحيق أم حريق. راحُ كَأَنَّ الدُّيُوكَ صَبَتْ أَحْدَاقَهَا فِيهَا. راح كأنما اشتقت من الروح والراحة.

قال ابن الرومي: الكامل:

والله ما نَدْرِي لِأَيَّةِ عِلَّةٍ
أَلْرِيحَهَا أَمْ رُوحَهَا تَحْتَ الْحَشَى
يَدْعُونَهَا فِي الرَّاحِ بِاسْمِ الرَّاحِ
أَمْ لَارْتِيَا حَ نَدِيمَهَا الْمُرْتَا حَ؟

راحُ كالنار والنور والنور، أَصْفَى مِنَ الْبَلُورِ، وَمِنْ دَمْعِ الْمَهْجُورِ. روح نور لها من الكأسِ جسم، كأنها شمس في غلالة سَرَابٍ. شراب أكادُ أقولُ: هو أَصْفَى مِنْ مَوَدِّي لَكَ، وَمِنْ نَعَمِ اللَّهِ عِنْدِي فِيكَ، وَأَطْيَبُ مِنْ إِسْعَافِ الزَّمَانِ بِلِقَائِكَ. مُدَامَةُ قَدْ سَبَكَ الدَّهْرُ تَبَرُّهَا فَصَفَا. كأسُ كأنها نورٌ ضميرُهُ نَارٌ. راح كِيَاقُوتَةُ فِي دُرَّةٍ، أَصْفَى مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ، وَدَمْعُ الْعَاشِقَةِ الْمَرْهَاءِ، أَحْسَنُ مِنَ الدُّنْيَا الْمُقْبِلَةِ، وَالنَّعْمِ الْمَكْمَلَةِ. أَحْسَنُ مِنَ الْعَافِيَةِ فِي الْبَدَنِ، وَأَطْيَبُ مِنَ الْحَيَاةِ فِي السَّرُورِ. أَرْقَ مِنْ نَسِيمِ الصَّبَا، وَعَهْدِ الصَّبَا. أَرْقَ مِنْ دَفْعِ مَحَبٍّ، وَشَكْوَى صَبٍّ. أَرْقَ مِنْ دَمُوعِ الْعِشَاقِ، مَرَّتَهَا لَوَعَةُ الْفِرَاقِ. مُزِجَ نَارِ الرَّاحِ بِنُورِ الْمَاءِ. راح كأنها مَعْصُورَةٌ مِنْ وَجَنَةِ الشَّمْسِ، فِي كَأْسٍ كَأَنَّهَا مَخْرُوطَةٌ مِنْ فَلَقَةِ الْبَدْرِ. كأسها مِلءُ الْيَدِ، وَرِيحُهَا مِلءُ الْبَلَدِ، تَصُبُّ عَلَى اللَّيْلِ ثَوْبَ النَّهَارِ، كَأَنَّهَا فِي الْكَأْسِ مَعْنَى دَقِيقٍ فِي ذَهْنٍ لَطِيفٍ. كَأَنَّ الرَّاحَ مِنْ خَدِّهِ مَعْصُورَةٌ، وَمِلَاحَةُ الصُّورَةِ عَلَيْهَا مَقْصُورَةٌ. وهذا من قول الطائي كأنها مِنْ خَدِّهِ تُعْصَرُ وَقَالَ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ رَغْبَانَ الْمَلَقَبُ بِدِيكَ الْجَنِّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ: الطويل:

معتقه من كف ظبي كأنما
تناولها من خده فأدارها

تمشت الصهباء في عظامهم، وترقت إلى هامهم، وماست في أعطافهم، ومالت بأطرافهم. سارت فيهم الكؤوس، ونالت عنهم سَوْرَةُ الْخَنْدَرِيسِ. شربت عقولهم، وملكت قلوبهم.
وقال أبو نُوَاسٍ، وهو أستاذ الناس في هذا الشأن: الكامل:

صِفَةُ الطُّلُولِ بِلَاغَةُ الْفَدَمِ
تَصِفُ الطُّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتَّبِعًا

وقال: الكامل:

فاجعل صفاتك لابنة الكرم
أفدو العيان كتابت العلم؟
لم تخل من غلط ومن وهم

الكأس أهواها وإن رزأت
صفراء مجدها مرابها
ذخرت لأدم قبل خلقته
فاعذر أخاك فإنه رجل

وقال: المديد:

بلغ المعاش وقللت فضلي
جلت عن النظراء والمثل
فتقدمته بخطوة القبل
مرنت مسامعه على العذل

فتسلت بشرب عقار
فتناساها الجديدان حتى
وافترعنا مرة الطعم بها
واحتسنا من رحيق عتيق
لم يجفها مبرل القوم حتى
أو كعرق السام تنشق منه

وقال: الكامل:

نشأت في حجر أم الزمان
هي أنصاف شطور الدنان
نزق البكر ولين العوان
وشديد كامل في ليان
نجمت مثل نجوم السنان
شعب مثل انفراج البنان

وخدين لذات معل صاحب
قال: ابغني المصباح، قلت له: انتد
فسكبت منها في الزجاج شربة

وهذا كقوله: الوافر:

يقتات منه فكاها ومزاحا
حسبي وحسبك ضوؤها مصباحا
كانت له حتى الصباح صباحا

وخمار أنخت عليه ليلاً
فترجم والكرى في مقلتيه
أبن لي كيف صرت إلى حريمي
فقلت له: ترفق بي، فإني

قلائن قد تعين من السفار
كمخمور شكا ألم الخمار
وجفن الليل مكتحل بقار
رأيت الصبح من خلل الديار

فكان جوابه أن قال: كلاّ

وقام إلى الدنانِ فسَدَ فَاها

وقال بعض المحدثين: الكامل:

ما زال يشربها وتشرب عقله

حتى انتنى متوسداً بيمينه

وقال الصنوبري وذكر شرباً: الكامل:

نازعتهم كأساً تخال نسيمها

شقت قناع الفجر لما غادرت

صبغت سواد دجاء حمرة لونها

وقال أبو الشيص: الطويل:

وكأس كسا الساقى لنا بعد هجعة

كأن اطراد الماء في جنباتها

سقاني بها، والليل قد شاب رأسه

وقال أبو عدي الكاتب: الطويل:

وليس لها حد تحيط بوصفه

ولكنه كالبرق أو مضى ماضياً

وقال ابن المعتز: الطويل:

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجى

فناولني كأساً أضاعت بنانه

ولما أريناها المزاج تسعرت

يطوف بها ظبي من الإنس شادن

عليم بأسرار المحبين حاذق

فظل يُناجيني يُقلب طرفه

وقال: الطويل:

وما صبح سوى ضوء العُقار

فعاد الليلُ مسدول الأزار

خبلاً، وتؤذن رُوحه برَواح

سكرأ، وأسلم رُوحه للراح

مِسْكَاً تَضَوَّعَ في الإناء عتيقاً

كف النديم قناعها مشقوقاً

فكأنه سبج أعيد عقيقاً

حواشيها ما مج من ريقة العنب

تربع ماء الدرّ في سبك الذهب

غزال بحناء الزجاجة مختضب

لغات، ولا جسم يبشره لمس

فلم يبق منه غير ما تذكر النفس

عُقاراً كمثل النارِ حمراء قرّفا

تدقق ياقوتاً ودرّاً مجوّفا

وخلت سناها بارقا قد تكشفا

يقلب طرفاً فاسق اللحظ مدنفاً

بتسليم عينيه إذا ما تخوفا

بأطيب من نجوى الأماني وأطفا

أَلَا عُجْ عَلَى دَارِ السُّرُورِ فَسَلِّمْ وَقُلْ: أَيْنَ لَذَاتِي وَأَيْنَ تَكَلِّمِي؟
 وَقُلْ: نَمَا حَلَّتْ بِالْعَيْنِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ سِوَاكَ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمِي ذَاكَ فَاعْلَمِي
 وَصَفْرَاءَ مَنْ صَبَغَ الْمِزَاجَ بِرَأْسِهَا، إِذَا مُزِجْتَ، إِكْلِيلُ دُرٍّ مَنْظَمٍ

قَطَعْتُ بِهَا عُمَرَ الدُّجَى وَشَرِبْتُهَا ظَلَامِيَةِ الْأَحْشَاءِ نُورِيَّةَ الدَّمِ

من إنشاء بديع الزمان الهمذاني

كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبي عدنان بن محمد الضبي يعزيه عن بعض أقاربه: الوافر:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْاسٍ حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بآخِرِينَا
 فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلَّقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

أَحْسَنُ مَا فِي الدَّهْرِ عَمُومُهُ بِالنَوَائِبِ، وَخُصُوصُهُ بِالرَّغَائِبِ، فَهُوَ يَدْعُو الْجَفَلَى إِذَا سَاءَ، وَيَخْصُصُ بِالنِّعْمَةِ إِذَا سَاءَ، فَلْيَفَكِّرِ الشَّامِتُ؛ فَإِنْ كَانَ أَفْلَتَ، فَلَهُ أَنْ يَشْتُمَ، وَلِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ فِي الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ، وَالْمَوْتِ وَصُنُوفِهِ، مِنْ فَاتِحَةِ أَمْرِهِ، إِلَى خَاتَمَةِ عُمَرِهِ؛ هَلْ يَجِدُ لِنَفْسِهِ، أَثَرًا فِي نَفْسِهِ؟ أَمْ لَتَدْبِيرِهِ، عَوْنًا عَلَى تَصْوِيرِهِ، أَمْ لِعَمَلِهِ، تَقْدِيمًا لِأَمَلِهِ، أَمْ لِحِيلِهِ، تَأْخِيرًا لِأَجَلِهِ؟ كَلَّا، بَلْ هُوَ الْعَبْدُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، خُلِقَ مَقْهُورًا، وَرُزِقَ مَقْدُورًا، فَهُوَ يَحْيَا جَبْرًا، وَيَهْلِكُ صَبْرًا، وَلِيَتَأَمَّلَ الْمَرْءُ كَيْفَ كَانَ قَبْلًا، فَإِنْ كَانَ الْعَدَمُ أَصْلًا، وَالْوُجُودُ فَضْلًا، فَلْيَعْلَمْ الْمَوْتُ عَدْلًا؛ فَالْعَاقِلُ مَنْ رَفَعَ مِنْ جَوَانِبِ الدَّهْرِ مَا سَاءَ بِمَا سَتَرَ، لِيَذْهَبَ مَا نَفَعَ بِمَا ضَرَّ؛ فَإِنْ أَحَبَّ أَلَّا يَحْزَنَ فَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً، هَلْ يَرَى إِلَّا مِحْنَةً، ثُمَّ لِيَعْطِفَ يَسْرَةً، هَلْ يَرَى إِلَّا حَسْرَةً؟ وَمِثْلُ الشَّيْخِ الرَّئِيسِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ! - مِنْ فَطْنٍ لِهَذِهِ الْأَشْرَارِ، وَعَرَفَ هَذِهِ الدِّيَارِ، فَأَعَدَّ لِنَعِيمِهَا صَدْرًا لَا يَمْلَأُهُ فَرْحًا، وَلِبُؤْسِهَا قَلْبًا لَا يَطِيرُهُ تَرْحًا، وَصَحَّتِ الْبَرِّيَّةُ بِرَأْيٍ مِنْ يَعْلَمُ أَنَّ لِلْمَتَاعِ حَدًّا، وَلِلْعَارِيَةِ رَدًّا، وَلَقَدْ نُعِيَ إِلَيَّ أَبُو قَبِيصَةَ، قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ، وَبَرَّدَ ضَرْيَحَهُ، فَعَرِضْتُ عَلَيَّ آمَالِي قُعُودًا، وَأَمَانِي سُودًا، وَبَكَيْتُ، وَالسَّخِيُّ جُودُهُ بِمَا يَمْلِكُ؛ وَضَحَكْتُ، وَشَرُّ الشَّدَائِدِ مَا يُضْحِكُ، وَعَضَضْتُ الْأَصْبِعَ حَتَّى أَدْمَيْتُهُ، وَذَمَمْتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَمْنَيْتُهُ؛ وَالْمَوْتُ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الشَّيْخِ الرَّئِيسِ خَطْبُ قَدْ عَظُمَ حَتَّى هَانَ، وَأَمْرٌ قَدْ خَشِنَ حَتَّى لَانَ، وَنَكْرٌ قَدْ عَمَّ حَتَّى عَادَ عَرَفَا؛ وَالدُّنْيَا قَدْ تَنَكَّرَتْ حَتَّى صَارَ الْمَوْتُ أَخْفَى خَطُوبِهَا، وَقَدْ خَبِثَتْ حَتَّى صَارَ أَقْلُ عِيُوبِهَا، وَلَعَلَّ هَذَا السَّهْمُ قَدْ صَابَ آخَرَ مَا فِي كِنَانَتِهَا، وَأَنْكَأَ مَا فِي خَزَانَتِهَا، وَنَحْنُ مُعَاشِرُ التَّبَعِ نَتَعَلَّمُ الْأَدَبَ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَالْجَمِيلَ مِنْ أَعْمَالِهِ، فَلَا نَحْتَنِي عَلَى الْجَمِيلِ وَهُوَ الصَّبْرُ، وَلَا نَرْغَبُ فِي الْجَزِيلِ وَهُوَ الْأَجْرُ؛ فَلْيَرَّ فِيهِمَا رَأْيَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنّيه بمرض أبي بكر الخوارزمي وكانت بينهما مُقارعة، ومنازعة، ومنافرة، ومهاترة؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديع فيها وبهره، وبكنه حتى أسكته، ليس هذا موضعها، لكنني أذكر بعد هذه الرسالة بعض مكاتبات جرتَ بينهما؛ إذ كان ما لهما من الابتداء، والجواب آخذاً بوصل الحكمة وفصل الخطاب: الحر أطل الله بقاءك - لا سيما إذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي - إذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمان، وإن وجدت فهي عواري، وأن محن الأيام وإن طالست فستنفد، وإن تُصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه، ولا يعدّهما في جنسه، والشامت إن أقلتَ فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت؛ وما أفحش الشماتة، بمن أمن الإماتة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة، والدهر غرثان طعمه الخيار، وظمآن شرّبه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسرّ العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلاً، فقد باطنأه ودأً جميلاً، والحرُّ عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم يتفاد، وعند الشدائد تذهب الأحقاد، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحرُّن لمرضته، وقاه والله المكروه، ووقاني سماع المحذور فيه، بمنّه وحوله، ولطفه وطوله.

قال البديع في سياقة أخباره مع أبي بكر الخوارزمي:

أولها أنا وطمنا خراسان، فما اخترنا إلا نيسابور داراً، وإلا جوار السادة جواراً، لا جرم أنا حططنا بها الرّحل، ومددنا عليها الطنب، وقدبماً كنا نسمعُ بحديث هذا الفاضل فتشوقه، وبخبره على العيب فتعشقه، ونقدّر أنا إذا وطمنا أرضه، ووردنا بلده، يخرج لنا في العشرة عن القشرة، وفي المودة عن الجلدة، فقد كانت كلمة العربة جمعتنا، ولحمة الأدب نظممتنا، وقد قال شاعر القوم غير مدافع: الطويل:

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَا هُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، واختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وكان قد اتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق، لم يوجبه استحقاق، من بزة بزّوها، وفِضة فضّوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة، أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزى أوحش من طلعة المعلم، بل اطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطمنا إلا عتبة داره؛ وهذا بعد رُقعة قدّمناها، وأحوال أنس نظمناها.

ونسخة الرقعة: أنا بقرب الأستاذ أطل الله بقاه كما طرب التّشوّان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتراج بولائه كما التقت الصّهباء والبارد العذب، ومن الإبتهاج

لمزّاره كما اهتزّ تحت البارج الغُصْنُ الرطبُ، فكيف نشأ الأستاذ سيدي لصديق طراً إليه مما بين قصبي العراق وخراسان، بل عتبي نيسابور وجرجان؟ وكيف اهتزّاه لضيف: الكامل:

رث الشّماثل مُخلّق الأثواب بَكَرَتْ عَلَيْهِ مُغِيرَةُ الأعرابِ

وهو - أيده الله! - وليّ إنعامه، بإنفاذ غلامه، إلى مستقري، لأفضي إليه بما عندي - إن شاء الله - .
فلما أخذتنا عينه سقانا الدُرديّ من أوّل دته، وأجئنا سوء العشرة من باكورة فنّه، من طَرفٍ نظَر
بشطره، وقيام دَفَع في صدره، وصديق استهان بقدره، وضيف استخفّ بأمره؛ لكنّا أقطعناه جانب
أخلاقه، وولينا خطّة نفاقه؛ فواصلناه إذ جأب، وقاربناه إذ جاذب، وشربناه على كُدُورته، ولَبَسناه على
خُشُونته، ورَدَدنا الأمر في ذلك إلى زيّ استعته، ولباس استرته، وكاتبناه نستمدُّ وداده، ونستلين قياده،
ونُقيمُ منادّه، بما هذه نسخته.

الأستاذ أبو بكر، واللّه يطيل بقاءه، أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلّة، في أطمار العُربة،
فأعمل في رُتبته أعمال المصارفة، وفي الاهتزاز إليه أصناف المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة
بشطر الكفّ، ودَفَع في صدر القيام عن التمام، ومَضَغ للكلام، وتكلّف لردّ السلام؛ وقد قبلت ترتيبه
صعراً، واحتملته وزراً، واحتضنته نكراً، وتأبطته شرّاً، ولم آله عُذراً؛ فإن المرء بالمال وثياب الجمال،
ولست مع هذه الحال وفي الأسمال، أتقرّز من صفّ النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت:
إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رَوّاح، وناساً يجرّون المطّارف، ولا يمنعون المعارف: الطويل:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية يتناهبها القولُ والفعلُ

فلو طوّحت بأبي بكر - أيده الله - إليهم مطارحُ العُربة، لوجد منزل البشرِ رحيباً، ومحطّ الرّحل قريباً،
ووجه المضيف خصيباً؛ فرأى الأستاذ أبي بكر، أيده الله، في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود،
والمر الذي يتلوه شهّد، موفق إن شاء الله.

فأجاب بما نسخته: وصلت رُقعة سيدي ورئيسي أطل الله بقاه إلى آخر السكّاج، وعرفت ما تضمّنه من
خَشِن خطابه، وموّل عتابه، وصرفت ذلك منه إلى الضجّرة التي لا يخلو منها من مسّه عُسر أو نَبأ به دهر؛
والحمد لله الذي جعلني موضع أُنسه، ومظنّة مشتكى ما في نفسه، أما ما شكاه سيدي ورئيسي من
مضايقتي إياه في القيام، فقد وفّيته حقّه - أيده الله - سلاماً وقياماً، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت
إليه، ولم أرفع عليه إلّا السيد أبا البركات العلوي أدام الله عزّه، وما كنت لأرفع أحداً على من أبوه
الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والإنجيل، وناصراه التأويل والتزويل، والبشير به جبريل ميكائيل؛

فأما القوم الذين صدر عنهم سيدي فكما وصف: حسن عشرة، وسداد طريقة، جمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فأحمدت المراد، ونلت المراد: الطويل:

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله **فما عهد نجدٍ عندنا بذميم**

والله يعلم نيتي للأحرار كافة، ولسيدي من بينهم خاصة؛ فإن أعاني الدهرُ على ما في نفسي بلغتُ له ما في النية، وجاوزتُ به مسافةَ القدرِ والأمنية، وإن قطع علي طريقَ عزمي بالمعارضة، وسوء المناقضة، صرفتُ عَنائي عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار: الطويل:

فما النفسُ إلا نطفة بقرارة **إذا لم تذكر كان صفواً غديرها**

وبعد، فحبذا عتابُ سيدي إذا استوجبتنا عتاباً، واقتربنا ذنباً؛ فأما أن يسلفنا العريضة فنحن نَصُونُهُ عن ذلك، ونَصُونُ أنفسنا عن احتمالها، ولست أسومه أن يقول: "أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ"، ولكن أسأله أن يقول: "لا تُتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ".

فحين وَرَدَ الجواب وعينُ العذرِ رَمِدَةً تركناه بُعْرَهُ، وطويْنَاهُ عَلَى غَرِهِ، وعمدنا إلى ذكره فسحَوْنَاهُ، ومن صحيفتنا مَحَوْنَاهُ، وصَرْنَا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه، وتنكبنا خطته، وتجنبتنا حطته، فلا طرنا إليه، ولا صرنا به، ومضى على ذلك الأسبوع، ودبَّت الأيام، ودرجت الليالي، وتطاوَلَتِ المدة، وتصرم الشهرُ، وصَرْنَا لا نُعِيرُ الْأَسْمَاعَ ذِكْرَهُ، ولا نودعُ الصدورَ حديثه؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد، ويستعيد، بألفاظ تقطعها الْأَسْمَاعُ من لسانه، وتؤديها إليّ، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه، وتُعِيدُهَا عَلَيَّ؛ فكاتبناه بما هذه نسخته: أنا أَرِدُ من الأستاذ سيدي - أطل الله بقاءه - شِرْعَةً وَدَهُ وإن لم تصفُ، وألبسُ خلعة بره وإن لم تَضِفُ، وقصاراي أن أكيله صاعاً عن مد؛ فإني وإن كنتُ في الأدب دَعِي النسب، ضيق المضطرب، سيئ المنقلب، أمتُ إلى عشرة أهله بَنِيَّةً، وأنزع إلى خدمة أصحابه بطريقة، ولكن بقي أن يكون الخليطُ مُنْصِفاً في الوداد، إذا زرتُ زاراً، وإن عُذْتُ عاد، وسيدي - أبقاه الله - ناقشني في القبول أولاً، وصارمَني في الإقبال آخراً؛ فأما حديثُ الاستقبال، وأمرُ الإنزال والآنزال، فنطاقُ الطمع ضيق عنه، غير متسع لتوقعه منه، وبعد فكلفة الفضل بينة، وفروض الودِّ متعينة، وأرضُ العشرة لينة، وطرقها هينة، فلم اختار قعود التعالي مركباً، وصعودَ التغالي مذهباً؛ وهلا زاد الطير عن شجر العِشْرَةِ، وذاق الحُلُوَّ من ثمرها؛ فقد علم الله أن شوقي إليه قد قَدَّ الفؤادَ بَرَحاً إلى برح، ونكاه قَرَحاً إلى قرح، ولكنها مِرَّةٌ مِرَّةً، ونَفْسٌ حرَّةً، لم تُقَدِّ إلا بالإعظام، ولم تُلقَ إلا بالاجلال والإكرام، وإذا استعفاني من معاتبته، فأعفى نفسه من كُلفِ الفضلِ يتجشَّمُها، فليس إلا غصص الشوق أُنَجَّرُها، وحُلل الصبر أُنَدَرُها، ولم أعره من نفسي، وأنا لو أُعِرْتُ جناحي طائر لما طَرْتُ إلا إليه، ولا وقعت إلا عليه: الطويل:

أحبك يا شمسَ النهار وبدرَه
وإنْ لامني فيك السها والفراقُ
وذاك لأنَّ الفضلَ عندك باهر
وليس لأنَّ العيشَ عندك باردُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حشد تلاميذه وخدمه، وجشَم للإيجاب قدمه، وطلَّع علينا مع الفجر طلوعه، ونظمنا حاشيتا دار الأمير أبي الطيب؛ فقلنا: الآن تُشرق الحشمةُ وتنور، ونجدُ في العشرة ونُغور، وقصدناه شاكرين لما أتاه، وانتظرنا عادةً بره، وتوقعنا مادةً فضله؛ فكان خُلباً شُمنًا، وآلا وردَّناه، وصرفنا في تأخره وتأخَّرنا عنه إلى ما قاله ابن المعتز: الرجز:

إنا على البعاد والتفرُّقِ
لنلتقي بالذكرِ إنْ لم نلتقِ

وأنشدنا قول ابن عسرينا: الوافر:

أحبك في البتول وفي أبيها
ولكني أُحبُّك من بعيدِ

وبقينا نلتقي خيالاً، ونقنع بالذكر وصلاً، حتى جعلت عواصفه تُهب، وعقاربه تدب. والمجلس طويل جداً.

قلت: إن كنتُ خرجتُ لطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط، فلعلي أسامح فيه لفضله، وعدم مثله، وهو وإن كان في باب الاتصال، فهو بتقدير الانفصال، لقيام كل رسالة بذاتها، وانفرادها بصفاتها. وكتب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد يصف ما جرى بينه وبين الخوارزمي: ما ألوم هذا الفاضل على بساط شرطواه، وموقد حرب اجتواه، ولكني ألومه على ما نواه؛ ثم لم يتبع هواه، ورامه، ثم لم يبلغ آثامه، وأقول: قد ضرب فأين الإيجاع؟ وأنذر فأين الإيقاع؟ وهذه بوارقه، فأين صواقعه؟ وذلك وعيده، فأين عديده؟ وتلك بنوده، فأين جنوده؟ وأنشد: الكامل:

هذي معاهده فأين عهدُه؟

وما أهول رَعْدَه، لو أمطر بعده! اللهم لا كُفران، ولعن الله الشيطان، فإنه أشفق لغريب أن يُظهر عوارَه، وإن طارَ طواره، وإن كان قصد هذا القصْد فقد أساء إلى نفسه من حيث أحسن إليّ، وأجحفَ بفضله من حيث أبقي عليّ، وأوهم الناس أنه هاب البحر أن يخوضه، والأسد أن يروضه، وشجّعني على لقائه، بعدما برعني بإيمائه، فبينما كنت أنشد: الخفيف:

إن جنبي على الفراش لناب

إذ أنشدت: الخفيف:

طاب ليلى وطاب فيه شرابي

وبينما أنا أقول: الخفيف:

ما لقلبي كأنه ليس مني

إذ قلت: الخفيف:

أين من كان موعداً لي بأني

فلو أن هذا الفاضل قضى حقنا بالزيارة عند قدومنا أو الاستزارة، لكان في الضرب أحسن، وفي طريق المعاشرة أذهب، لا، ولكنه وعد بالمباراة أولاً، وهددنا بالمسائل ثانياً، وأخلف بالتخلف ثالثاً؛ فأبلغ وجددي إليه، واعرض شوقي عليه، وقل له إن كنت ندمت على النضال، فلا تندم على الإفضال، فإن طويتنا حيث الجهاد، فانشرونا حيث الوداد، وإن لم تلقنا في باب المكاشرة، فأتنا من باب المعاشرة. وله إلى الإمام أبي الطيب سهل بن محمد: قد كان الشيخ يعدني عن هذه الحضرة عدات أشم لها الأنف، لا ذهاباً بتلك الفواضل عنها، لكن استحالة من هذا الزمان أن يجود بها؛ فحين أسرفت على الحضرة ما حث إلي أمواج الشرف منها، وخلص إلي نسيم الكرم عنها، وأثحفتني على رسم الإجلال. بمركوب شامخ، ومركب ذهب سايع، وجنيب شرف زائد؛ وسرت بحمد الله محفوفاً بأعيان الكتاب، وعيون الرجال، حتى شافهت بساط العز، مستقبلاً ملك الشرق أدام الله علوه، فجذب بضبعي عن أرض الخدمة، إلى جوار ولي النعمة، حرس الله مكانه، فاهتز اهتزازاً فات سمة الإكرام، وتجاوز اسم الإعظام إلى القيام، فقبلت من يمينه مفتاح الأرزاق، وفتاح الآفاق، ولحقت منه بقاب العقاب، وخاطبني بمخاطبات نشدت بها ضالة الكرام، وهلم جراً إلى ما تبعها من جميل الإنزال، وسني الأجزال.

وطرأت من الشيخ العميد على شخص يسعه الخاتم، ولا يسعه العالم، ويهتز عند المكارم كالغصن، ويثبت عند الشدائد كالركن، وسلطان يلهم حلم حليم السيف مُعمداً، ويغضب مجرداً، فهو عند الكرم لين كصفحته، وعند السياسة حشن كشفرته، وملك يأتي الكرم نية، والفضل سجية، ويفعل الشر كلفة أو خطية، فهو ضرور بالآلة، نفوع بذاته، عطارد قلمه ودوائه، والمريخ سيفه وفنائه، عيبه أن لا عيب فيه، فيصرف عين الكمال عن معاليه.

وصادفت من الشيخ الموفق، أيده الله، ملكاً يشاهد عياناً، وجبلاً قد سمي إنساناً، وحسناً قد ملئ إحساناً، وأسدأ قد لقب سلطاناً، وبحراً قد أمسك عناناً، وحططت رحلي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عزه، فوجدت حكمي في ماله أنفذ من حكمه، وقسمي من غناه أوفر من قسمه، واسمي في ذات يده مقدماً على اسمه، ويدي إلى خزانته أسرع من يده، وإن قصدت أن أفرد لكل مدحاً، وأعبر

الجملة شرحاً، أطلت، فهلم جرّاً إلى ما افتتحت الكتاب لأجله.
ورد للخوارزمي كتاب يتقلب فيه على جنبِ الحرْدِ، ويتقلّى على جَمَرِ الضَجَرِ، ويتأوه من خُمار الخجل،
ويتعثّر في أذْيَالِ الكَلَلِ، ويذكر أنّ الخاصة قد علمت لأينا كان الفلج، فقلت: است البائن أعلم،
والخوارزمي أعرف، والأخبار المتظاهرة أعدل، والآثار الظاهرة، أصدق، وحلّة السباق أحكم، وما مضى
بيننا أشهد، والعودُ إن نشط أحمد، ومتى استزاد زدنا، وإن عادت العقرب عُدنا، وله عندي إذا ما شاء،
كل ما شاء! وهي طويلة فيها هنات صُنّت الكتاب عنها، وقد أعادَ البديع معنى قوله في صدر حكايته مع
الخوارزمي، فقال في رقعة كتبها إلى سعيد الإسماعيلي، وقد وقفت به الضرورة على تلك الصورة من
سلب العرب ماله: كتابي، بل رُفّعني، أطال الله بقاء الشيخ، وقد بكرت عليّ مُغَيَّرَةُ الأعراب، كمهلهل،
وربيعة بن مُكْدَم، وعتيبة بن الحارث بن هشام، وأنا أحمد الله، إلى الشيخ الفاضل، وأذم الدهر؛ فما ترك
لي من فِضَّةٍ إلّا فضها، ولا ذهبٍ إلّا ذهب به، ولا علقٍ إلّا علقه، ولا عقارٍ إلّا عقّره، ولا ضيعةٍ إلّا
أضاعها، ولا مالٍ إلّا مال إليه، ولا سبَدٍ إلّا استبدّ به، ولا كبدٍ إلّا كبد فيه، ولا بزةٍ إلّا بزّها، ولا عاريةٍ إلّا
ارتجعها، ولا ودِيعَةٍ إلّا انتزعها، ولا خلعةٍ إلّا خلعها، وأنا داخل نيسابور ولا حليةٍ إلّا الجلدة، ولا بُردٍ إلّا
القشرة، والله وليُّ الخلف يعجّله، والفرج يسهّله، وهو حسبي ونعم الوكيل.
وليس البديع بأبي عذرة هذا الخطاب، وسترى نظير هذا المعنى في هذا الكتاب.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح الإسكندري

قال: حدّثني عيسى بن هشام قال: كنتُ في بعض بلاد بني فزارة مرتحلاً نَجِيبةً، وقائداً جَنِيبةً، يَسْبَحانِ
سَبَحا، وأنا أهيم بالوطن، فلا الليل يثني بوعيده، ولا البُعد يُدْني بيده، وظلّلتُ أخبطُ ورقَ النَّهارِ،
بعضا التسيار، وأخوضُ بطنَ الليل، بجوافر الخيل، فبينما أنا في ليلةٍ يضلُّ بها العَطَاطُ، ولا يُنْصِرُ بها
الوَطَاطُ، أَسْبَحُ ولا سانح إلّا السبع، ولا بارح إلّا الضبع، إذ عنَّ لي راكب تامّ الآلات، يطوي منشور
الفلوات، فأخذني منه ما يأخذُ الأعزَلُ من شاكي السلاح، لكني تجلّدت فقلت: أرضك لا أم لك!
فدونك شَرطُ الحِداد، وخرطُ القِتَاد، وخَصْمُ ضخم، وحمية أزدية، وأنا سلّم إن شئت، وحرَبُ إن أردت،
من أنت؟ قال: سلماً أصبت، قلت: خيراً أجب، قلت: فمن أنت؟ قال: نصيح إن شاورت، فصيح إن
حاورت، ودون اسمي لثام، لا تُميّطه الأعلام. قلت: فما الطُعمة؟ قال: أجوت جُيوبِ البلاد، حتى أقع
على حَفْنَةِ حَوَاد، ولي فؤاد يخدمه لسان، وبيان يرقمه بَنان، وقصاراي كريمٌ ينفذ إليّ حقيته، ويخفف
لي جَنِيته، كابن حُرّة طلع إليّ بالأمس، طلوع الشمس، وغرب عني بغروبها؛ لكنه غاب ولم يغب
تذكّاره، وودّع وشيعتني آثاره، ولا ينبئك عنها أقربُ منها، وأوماً إلى ما كان يلبسه، فقلت: شحاذ

وربَّ الكعبة أخاذ، له في الصنعة نفاذ، بل هو فيها أستاذ، ولا بدَّ أن ترشَّح له وتسحَّ عليه، وقلت له: يا فتى، قد أحليت عبارتك، فأين شعرك من كلامك؟ فقال: وأين كلامي من شعري! ثم استمدَّ غريزته، ورفع عقيرته، بصوت ملاً الوادي، وأنشأ يقول: الطويل:

وَأَرَوَعَ أَهْدَاهُ لِي اللَّيْلُ وَالْفَلَا
وَحَمَسُ تَمَسُّ الْأَرْضُ لَكِنْ كَلَا وَلَا
عَرَضْتُ عَلَى نَارِ الْمَكَارِمِ عُوْدَهُ
فَكَانَ مُعَمًّا فِي السَّوَابِقِ مُخُولَا
وَوَاحِدَتُهُ عَنْ مَالِهِ فَخَذَعَتْهُ
وَسَاهَلَتْهُ فِي بَرِّهِ فَتَسَهَّلَا

ولما تجالينا وأحمدَ منطقي
بَلَانِي فِي نَظْمِ الْقَرِيضِ بِمَا بَلَا
فَمَا هَزَّ إِلَّا صَارِمًا حِينَ هَزَّنِي
وَلَمْ يَلْقَنِي إِلَّا إِلَى السَّبْقِ أَوَّلَا
فَلَمْ أَرَهُ إِلَّا أَغْرَ مُحَجَّبًا
وَمَا تَحْتَهُ إِلَّا أَغْرَ مُحَجَّلَا

فقلت: على رسلك يا فتى، ولك مما يصحبي حكمك. فقال: الجنيبة، قلت: إن وما عليها. ثم قبضت بجمعي عليه، وقلت: لا والله الذي ألهمها لَمَسًا، وشقَّها من واحدة خَمْسًا، لا تُزايِلنا أو نَعْلَمَ عِلْمَكَ، فحدر لثامه عن وجهه، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فما لبثت أن قلت: الهزج:

توشحت أبا الفتح
بِهَذَا السِّيفِ مُخْتَالَا
وَمَا تَصْنَعُ بِالسِّيفِ
إِذَا لَمْ تَكُ قِتَالَا؟
فصنُ ما أنت حليت
بِهِ سِيفَكَ خَلَا لَا

وعلى ذكر قوله: إن وما عليها، قال أبو عبيدة: وقد عبدُ الله بن الزبير الأسدي على عبد الله بن الزبير بن العوام فقال: يا أمير المؤمنين، إن بيني وبينك رَحِمًا من قِبَلِ فُلانة الكاهلية؛ هي أختنا، وقد ولدتكم، وأن ابنُ فلان؛ فُلانة عَمِّي. فقال ابنُ الزبير: هذا كما ذكرت، وإن فكَّرت في هذا أصبت، الناسُ كلُّهم يرجعون إلى أبٍ واحد، وأم واحدة.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ نَفَقَتِي قد ذَهَبَتْ. قال: ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم. قال: يا أمير المؤمنين، إن ناقتي قد نَقِبَتْ ودَبَّرَتْ. فقال له: أنجدَ بها يَرُدُّ حَفَّهَا، وارفعها بسِيت، واخصفها بملب، وسرَّ عليها البريدين. قال: يا أمير المؤمنين، إنما جئتكَ مستَحِمًّا، ولم آتِكَ مستوصفًا، لعن الله ناقةً حملتني إليك. قال ابنُ الزبير: إن وراكبها! فخرج وهو يقول: الوافر:

أَرَى الْحَاجَاتِ عِنْدَ أَبِي خُبَيْبٍ
نَكِدْنَ، وَلَا أُمِيَّةَ فِي الْبِلَادِ

من الأعياص أو من آل حربٍ

أغرَّ كُغْرَةَ الفرس الجوادِ

ومالي حين أقطع ذات عرقٍ

إلى ابن الكاهلية من معاد

وقلت لصحبتني أدنوا ركابي

أفارق بطن مكة في سوادِ

فبلغ شعره هذا عبد الله بن الزبير، فقال: لو علم أن لي أمًّا أحسن من عمته الكاهلية لنسبني إليها، وكان ابنُ الزبير يكنى أبا بكر وأبا حبيب.

قال الصولي: أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أشهب أحمر، كان عنده مكيناً، وكان به ضنيناً، فقال يرثيه: الكامل:

قالوا: جزعت، فقلت: إن مصيبةً

جلّت رزيتّها، وضاق المذهبُ

قال أبو بكر: هكذا أنشدني ابن المعتز على أن إن بمعنى نعم، وأنشد النحويون: الكامل:

قالوا: كبرت، فقلت: إن، وربما

ذكرَ الكبيرُ شبابه فتطرباً

الكامل:

كيف العزاء وقد مضى لسبيله

عنا فودّعنا الأحمر الأشهبُ

دب الوشاة فباعده، وربما

بعد الفتى وهو الحبيب الأقربُ

لله يوم غدوت فيه طاعناً

وسلّبتُ قربك، أي علق أسلب؟

نفسى مقسمة أقام فريقها

ومضى لطيفته فريق يُجنّبُ

الآن إذ كملت أداتك كلّها

ودعا العيون إليك حُسن مُعجبُ

وغدوت طنان اللجام كأنما

في كل عضو منك صنّج يُضربُ

وكان سرجك، إذ علاك، غمامةٌ

وكأنما تحت الغمامة كوكبُ

أنساك؟ لا زالت إذا منسيةً

نفسى، ولا برحت بمتلك تنكب

أضمرتُ منك اليأس حين رأيتني

وقوى حبالى من حبالك تُقضبُ

يا صاحبي لمثل ذا من أمره

صحب الفتى في دهره من يصحبُ

إن تسعدا فصنيعة مشكورةٌ

أو تخذلا فصنيعة لا تذهبُ

عوجاً فقولا: مرحبا، وتزوّدا

نظراً، وقل لمن تحب المرحبُ

منع الرقاد جوى تضمّنه الحشاً

مما أكابده وهم مُنصب

ما قيل في المزاح

قال الحجاج بن يوسف لابن القرية: ما زالت الحكماء تكرر المزاح، وتنتهي عنه، فقال: المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب: المزاح أوله فرح، وآخره ترح. المزاح نقائص السفهاء، كالشعر نقائص الشعراء. والمزاح يؤغر صدر الصديق، وينفر الرفيق. والمزاح يُبدي السرائر؛ لأنه يظهر المعايير. والمزاح يُسقط المروءة، ويُبدي الخنى. لم يُجر المزاح خيراً، وكثيراً ما جرّ شراً. الغالب بالمزاح وائر، والمغلوب به نائر. والمزاح يجلب الشتم صغيره والحرب كبيره، وليس بعد الحرب إلا عفوّ بعد قدرة. فقال الحجاج: حسبك، الموت خير من عفوّ معه قدرة.

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال: يُنشق أحدكم أخاه مثل الخردل، ويُفرغ عليه مثل المرجل، ويرميه بمثل الجندل. ثم يقول: إنما كنت أمزح! أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال: الكامل:

تلقى الفتى يلقي أخاه وخدنه
في لحن منطقه بما لا يغفر
ويقول: كنت ممازحاً وملاعباً
هيهات نارك في الحشا تتسعر!
أو ما علمت وكان جهلك غالباً
أنّ المزاح هو السباب الأصغر؟

فقر في هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المزاح تذهب بالمهابة، وتورث الضعينة. الإفراط في المزاح مُجون، والاقتصاد فيه ظرف، والتقصير عنه ندامة. أوكد أسباب القطيعة المراء والمزاح.

ابن المعتز - من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه.

قال أيوب بن القرية: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأي الحسن سجيته؛ إن سئل أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع العلم وعى، وإن حدث روى. وأما الأحمق فإن تكلم عجل، وإن حدث وهل، وإن استنزل عن رأيه نزل، فإن حُمِل على القبيح حمل. وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك، وإن حدثته شاك، وإن وثقت به لم يرعك، وإن استكتم لم يكتّم، وإن علم لم يعلم، وإن حدث لم يفهم، وإن فقه لم يفقه.

الطيرة والزجر

قال أبو حية النميري: الطويل:

جَرَى يَوْمَ رُحْنَا عامدين لأرضنا

فهابَ رجال منهم فتخيفوا

عُقَابٌ بِأَعْقَابٍ من الدار بعدما

وقالوا: حمامات، فحَمَّ لِقَاؤُهَا

وقال صحابي: هُدُّهُدٌ فوق بَانَةٍ،

وقالوا: بَدَمٌ، دَامَتْ مَوَاتِيقُ بَيْنِنَا

لَعَيْنَاكَ يَوْمَ البين أَسْرَعُ وَاكْفًا

ونسوة شَحْشَاحٍ غَيُورٍ يَخْفَنَهُ

يَقْلَنَ، وما يَدْرِين أَنِّي سَمِعْتُهُ

أَهَذَا الَّذِي غَنَّى بِسَمَرَاءَ مَوْهِنًا

إِذَا مَا تَغَنَّى أَن مِّنْ بَعْدَ زَفْرَةٍ

وقائلة: يَا دَهْمٌ وَيَحْكُ! إِنَّهُ

فلو أَن قَوْلًا يَجْرَحُ الجِلْدَ قَدْ بَدَا

وهذا من غريب الزَّجْرِ مليحُ التَّفَاوُلِ.

سَنِيحٌ، فقال القومُ: مَرَّ سَنِيحُ

فقلت لهم: جاري إلي ربيعُ

نَأَتْ نَأْيَةً بالطاعنين طَرِيحُ

وطلَحَ فَنِيلَتُ والمطي طَلِيحُ

هُدَى وبيانٌ بالنجاح يُلُوحُ

ودامَ لَنَا حُلُوُ الصفاء صَرِيحُ

من الفَنِّ المَمْطُورُ وهو مَرُوحُ

أخي ثقة يَلْهُونَ وهو مُشِيحُ

وهنَ بِأَبْوَابِ الخِيَامِ جُنُوحُ:

أَتَاحَ لَهُ حُسْنَ الغِنَاءِ مُتِيحُ؟

كما أَن من حَرِّ السَّلاحِ جَرِيحُ

على ما به من عُنَّةٍ لَمْلِيحُ

بجلدي من قول الوُشاة قَرُوحُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد: أنشدني أعرابي في قصيدة ذي الرمة التي أولها: الطويل:

ولا زَالَ مُنْهَلًا بجز عَائِكَ الْقَطْرُ

أَلَا يَا اسْلَمَى يَا دَارِمِي عَلَى الْبَلَى

بيتين لم يروهما الرواة في ديوانه، وهما:

من الْقَضْبِ لم يَنْبُتْ لَهَا وَرَقٌ خُضْرُ

رَأَيْتُ غَرَابًا سَاقِطًا فَوْفَ قَضْبَةٍ

لِقَضْبِ النُّوَى هَذَا الْعِيَاةُ وَالزَّجْرُ

فقلت: غَرَابٌ لا غَرَابَ، وَقَضْبَةٌ

وقال آخر: الطويل:

وصاح بذات البين منها غُرَابُهَا

دعا صُرْدًا يَوْمًا عَلَى غُصْنٍ بَانَةٍ

فهذا لعمرى نَأْيُهَا واغْتَرَابُهَا

فقلت: أَنْصَرِيذٌ وَشَحْطٌ وَغُرْبَةٌ؟

وقد أكثر العرب من ذكر الطَّيْرَةِ، والزَّجْرِ، وكانت تقتدي بذلك وتجري على حكمه، حتى ورد النَّهْيُ

في سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: لا عَدَوَى ولا طَيْرَةَ، وقد قال الأول: الطويل:

ولا زاجرات الطير ما لله صانع

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي

وقال ضابئ بن الحارث البرجمي: الطويل:

نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب

وما عاجلات الطير، تُدني من الفتى

على نائبات الدهر حين تتوب

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه

وللقلب من مخشاتهم وجيب

ورب أمور لا تضيرك ضيرة

وقال الكميت بن زيد الأسدي: الطويل:

أصاح غراباً أم تعرّض ثعلب

ولا أنا ممن يزجر الطير همّه

أمر سليم القرن أم مر أعضب

ولا السانحات البارحات عشية

وقال شاعر قديم: مجزوء الكامل:

ء الخير تعقأ التمام

لا يمنعك من بعا

س ولا التيامن بالمقاسم

ولا التشاؤم بالعطا

أغدو على واق وحاتم

فلقد غدوت وكنت لا

من والأيامن كالأشائم

فإذا الأشائم كالأيا

شر على أحد بدائم

وكذاك لا خير ولا

ر الأوليات القدائم

قد خط ذلك في الزبؤ

ولقد أحسن ابن كناسة في رثاء ولده يحيى، أنشده أبو العباس ثعلب: الطويل:

ولم أدر أن الفال فيه يقل

تيممت فيه الفال حتى رزئتة

إلى رد أمر الله فيه سبيل

فسميته يحيى ليحيا؛ فلم يكن

وروى المدائني قال: خرج كثير من الحجاز يريد مصر، فلما قرب منها نزل بمثل، فإذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب؛ فأسرع الرحيل، ومضى لوجهه؛ فلقى رجلاً من بني نهد، فقال: يا أبا الحجاز، ما لي أراك كاسف اللون؟ قال: ما علمت إلا خيراً، قال: فهل رأيت في طريقك شيئاً أنكرته؟ قال: لا والله إلا في منزلي هذا، فإني رأيت غراباً ينتف ريشه على بانه وينعب. قال: أما إنك تطلب حاجة لا تدركها.

فقدم مصر والناس منصرفون من جنازة عزة، فقال: الطويل:

ينتف أعلى ريشه ويطايره

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه

فقلت ولو أني أشاء زَجَرْتُهْ نَفْسِي لِلنَّهْدِيِّ: هل أنت زاجره؟

فقال: غراب لا غتراب من النوى

فما أعيفَ النهديّ، لا درَّ درّة!

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل، وهو يقول: الطويل:

عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ وَالْعَيْنُ تَسْفَحُ

بِلاَدِكَ فَتَلاءُ الذَّراعينَ صَيِّدُحُ

وَأنتَ لِعَمري اليَوْمَ أَنأى وَأُنزَحُ

أَقولُ وَنِضْويَ واقِفَ عِندَ رَأْسِها

فَهذا فِراقُ الحَقِّ لا أنْ تُزِيرَني

وَقَد كُنتَ أبْكي مَن فِراقِكَ حِيةَ

وقال جرير: الكامل:

أَوْ كُلِّمًا نَعْبُوا لِبَيْنِ تَجَزَعُ

فِي دارِ زَيْنَبَ وَالْحَمامُ الوُقْعُ

يَلْحَوْنَ كُلُّهُمُ غِراباً يَنْعَقُ

مِمَّا يُشْتَبِ جميعَهُمْ وَيَفْرَقُ

وَتُشْتَتَّ الشَّمْلَ الجَميعَ الأَيْنُقُ

بَانَ الخَلِيطُ بِرامَتَيْنِ فودَّعُوا

إِنَّ السَّوانِحَ بالضَّحَى هِيجَنَني

وقال عوف الراهب خلاف هذا: الكامل:

غَلَطَ الذِّينَ رَأَيْتَهُمُ بِجِهاَلَةٍ

ما الذَّنْبُ إِلَّا لِلأَباعِرِ؛ إِنَّها

إِنَّ الغِرابَ بِيُمْنِهِ تَدْنُو النَوَى

وقد تبعه في هذا المذهب أبو الشيص فقال: مجزوء الرجز:

دَ اللَّهِ إِلَّا الإِبِلُ

بَ البَيْنِ لَمَّا جَهلُوا

ما فَرَقَ الأَحبابَ بَع

والناسَ يَلْحَوْنَ غُرا

بَ البَيْنِ تُطَوِي الرُّحُلُ

بَ في الدِّيارِ احْتَمَلُوا

لَا نَاقَةً أَوْ جَمَلُ

وما عَلى ظَهِرِ غُرا

ولا إِذا صَاحَ غُرا

وما غِرابُ البَيْنِ إل

وما أَمَلَحَ ما قال القائل: الكامل:

والمُؤذِناتُ بِفُرْقَةٍ الأَحبابِ

ولِها بِهِم سَبَبٌ مِنَ الأسبابِ

زَعَمُوا بأنَّ مَطِيَّهُمُ عَوْنُ النَوَى

وَلَوَ أَنَّها حَقَّي لَمَّا أَبْغَضْتُها

وكان علي بن العباس الرومي مُفْرِطَ الطَّيْرَةِ، شديد الغلوّ فيها. قال علي بن عبد الله بن المسيب: وكان يحتجُّ لها، ويقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يُحِبُّ الفأل، ويكره الطيرة؛ أفتراه كان يتفألُ بالشيء، ولا يتطيّر من ضده؟ ويقول: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، مرّ برجل وهو يرحل ناقهً ويقول: يا ملعونة، فقال: لا يصحّبنا ملعون، وإن علياً، رضي الله عنه، كان لا يغرّو غزاة والقمر في العقر، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها، وأن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه، قال: على وجه من أصبحت اليوم؟ فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدي إلي عدة من جوارى القيان، وكانت فيهنّ صبيةً حوّلاء، وعجوزٌ في إحدى عينيها نكتة، فتطير من ذلك، ولم يُظهِر لي أمره، وأقام باقي يومه؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه لقاسم بن عبيد الله، فجعل سبب ذلك المعنيين المغنيتين، وكتب إليّ:

الخفيف:

أيها المُتَحَفِّي بحُولٍ وعُورٍ	أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لَعَمْرِي رَكِبْتَ أَمراً مهيناً	سأعني فيك أيها الخُلصَانُ
فَتَحُكَّ المهرجان بالحوّل والعُور	رِ أَرانا ما أعقَبَ المهرجانُ
كان من ذاك فقدك ابنتك الحُ	رة مصبوغة بها الأكفانُ
وتجافي مؤمّل لي جليل	لج فيه الجفاء والهجرانُ
وعزيز عليّ تفرّيع خل	لا يُدانيه عندي الخُلانُ
غير أنني رأيت إذكارة الحز	م وإشعاره شعاراً يُصانُ
لا تَهَاوَنَ بطيرة أيّها النظ	ار واعلم بأنها عُنوانُ
قف إذا طيرة تلقّتكَ وانظُرْ	واستمع ثم ما يقول الزمانُ
قلما غاب من أمورك عنوا	ن مبين وللزمان لسانُ
لا تكن بالهوى تكذب بالأخ	بار حتى تهين ما لا يُهان
لا يَقْدُك الهوى إلى نصره الأخ	بار حتى يَقْدَم البرهانُ
إن عُقْبَى الهوى هُوِيٌّ، وعُقْبَى	طول تلك المهونات هوان
لا تصدق عن النبيين إلا	بحديث يلوح فيه البيان
خبر الله أن مشامّة كا	نت لقوم وخبر القرآن

أَفَرُّورَ الْحَدِيثِ تَقْبِلُ أَمْ مَا قَالَهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْفُرْقَانُ؟

أَتَرَى مِنْ يَرَى الْبَشِيرُ بِشِيرًا يَمْتَرِي فِي النَّذِيرِ يَا وَسَّانُ

فَدَعِ الْهَزْلَ وَالتَّضاحَكَ بِالطِّي رةً وَالنَّصْحَ مُثْنِ مَجَانُ

وقد فرَّق حُذاق أهل النظر في المقال، بين الطيرة والفال، فقالوا: الطيرة كانت العرب ترجعُ إلى ما تمضيها، وتجري على تقضيها، وكان الذي يهْمُ بهم إذا ما رأى ما يتطير منه رجع عنه؛ وفي ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير الجارية بيد مُمضيها، النازلة على حكم قاضيها، والفال لا يردُّ المرید عمَّا يريد إنما يُقَوِّي مُنته، ويسرُّ مهجته؛ وليس هذا موضع تطويل، في إيراد الدليل. وفي جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً: الطويل:

أَلَمْ تَرْنِي أَقْرَضْتُكَ الْوَدَّ طَائِعاً وَلَمْ تَرِ قَبْلِي مُعْسِراً قَطْ أَقْرَضَا

لِعَمْرِي لَقَدْ صَوَّرْتَ أَبْيَضَ مَشْرِقاً فَلَمْ لَا تُرِينِي وَجْهَ نِعْمَاكَ أَبْيَضَا؟

فِيَا وَيْحَ مَوْلَاكَ اسْتَغَاثَ بِمَشْرَبٍ فَأَشْرَقَ فَاسْتَشْفَى شِفَاءً فَأَقْرَضَا

وَلَوْلَا اعتِقَادِي أَنَّكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ لِأَزْمَعْتُ تَوْدِيْعاً، قَضَى اللَّهُ مَا قَضَى

وَإِنِّي وَإِنْ دَارَتْ عَلَيَّ دَوَائِرُ لِأَعْرِضَ عَنْ صَدِّ عَنِي وَأَعْرِضَا

وَمَا زِلْتُ عَرَاًفَاً إِذَا الزَادَ رَأْنِي بَخْبَثٍ وَعِيَاًفَاً إِذَا الْمَاءُ عَرَمَضَا

وهذا البيت كقول الآخر: الطويل:

وَإِنِّي لِلْمَاءِ الْمَخَالِطِ لِلْقَدَى إِذَا كَثُرَتْ وَرَادُهُ لَعِيُوفُ

وفي ابنة المسيبي يقول ابن الرومي يعزيه: الطويل:

أَخَا ثَقْنِي أَعَزُّ عَلَيَّ بَنَكْبَةٍ مَنَّاكَ بِهَا صَرَفُ الْقَضَاءِ الْمَقْدَرُ

صَبِيتُ، وَمَا لِلْمَرْءِ مِنْ حُكْمٍ رَبِّهِ مَحِيدٌ، وَأَمْرُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَقْهَرُ

وَقَدْ مَاتَ مَنْ لَا يَخْلِفُ الدَّهْرُ مِثْلَهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسْلَافِ وَالْحَقُّ يَبْهَرُ

تَعَزَّيْتُ عَنْ أَثْمَرَتِكَ حَيَاتِهِ وَوَشَكَ التَّعْزِي عَنْ ثَمَارِكَ أَجْدَرُ

لَأَنْ اخْتِيَالَ الدَّهْرُ فِي ابْنٍ وَفِي ابْنَةٍ يَسِيرُ وَكَرُّ الدَّهْرِ شَيْخِيكَ أَعْسَرُ

تَعْذِرْ أَنْ نَعْتَاضَ مِنْ أَمَهَاتِنَا وَآبَائِنَا، وَالنَّسْلُ لَا يَتَعَذَّرُ

فَلَا تَهْلِكُنْ حُزْناً عَلَى ابْنَةٍ جَنَةٍ مَضَتْ وَهِيَ عِنْدَ اللَّهِ تَحِيَاً وَتُحْبَرُ

لعل الذي أعطاك ستر حياتها
فكم من أخي حرية قد رأيتُه
فلا تنتهم لله فيها ولايةً
وأنت وإن أبصرت رشداً مرةً
كساها من اللحد الذي هو استرُّ
بنارِ ذوي الأصهار يَكوى ويُصنهرُ
ولا نظراً فالله للعبد أنظر
فدو النظر الأعلى برشدك أبصر

ومن مليح تعازيه عن ابنةٍ قوله لعلني بن يحيى: الكامل:

لا تبعدنَّ كريمةً أودعتها
إني لأرجو أن يكونَ صداقها
لا تياسنَّ لها فقد زوجتها
صِفراً من الأصهار لا يخزيكا
من جنَّة الفردوس ما يرضيكا
كفوا وضمَّنتَ الصَّدَاقَ مليكا

في موت البنت

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الطويل:

لكل أبي بنت يرجي بقاؤها
فبيت يغطيها، وبعل يصونها
وقال عقيل بن علفة وكان أغير الرب: الرجز:

وإني وإن سيق إليَّ المهرُ
أحبُّ أصهاري إليَّ القبرُ
ألف وعُبدانٌ وذود عشرُ
ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهر
وقبر يُوارِيها، وخيرهما القبرُ

ومنه أخذ عبيد الله، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: دخل علينا ابن خلف البهراني فأنشدنا: البسيط:

لولا أُميمةٌ لم أجزع من العدم
وزادني رغبةً في العيش معرفتي
أحاذرُ الفقر يوماً أن يُلَمَّ بها
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً
ولم أجب في الليالي حنْدَسَ الظلم
أنَّ اليتيمة يحفوها ذوو الرِّحم
فيهلك الستر عن لحمٍ على وضمٍ
والموتُ أكرمُ نزالٍ على الحرِّم

وكانت أُميمة بنت أختها، وكان قد تبناها، ثم غابت غيبة، فسألناه عنها، فأنشد: البسيط:

أُمسَتْ أُميمةٌ مغموراً بها الرِّجَمُ
يا شقَّةَ النفس، إن النفسَ والهةً
قد كنت أخشى عليها أن يؤخرها
لدى صعيدٍ عليه التُّربُ مُرتكُمُ
حرى عليك، ودَمْعُ العين مُنْسَجَمُ
عني الحِمَامُ فيبْدي وجهها العُدمُ

فالآن نمت فلا همَّ يُورِقُنِي تهَذَا العيونُ إذا ما أودَّت الحُرْمُ
فالآن نمت، فلا همَّ يُورِقُنِي بعد الهدوء، ولا وَجْدٌ ولا حُلْمُ
للموت عندي أيادٍ لست أنكرها أحيا سروراً وبى ممّا أتى ألم

من أخبار ابن الرومي

عادَ ذكر ابن الرومي - وكانَ أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس الميرد في عصر ابن الرومي شاباً مترفاً، ومليحاً مستظرفاً، وكان يعث به، فيأتيه بسحر؛ فيقرع الباب، فيقال له: مَنْ؟ فيقول: قولوا لأبي الحسن مُرَّة بن حنظلة، فيتطير لقوله، ويقيم الأيام لا يخرج من داره، وذلك كان سبب هجائه إياه، فمن أول ما عاتبه به: المنسرح:

قولوا لنحوينا أبي حسن إن حسامي متى ضربت مَضَى
وإن نبلي إذا هممت بأن أرمي نضلتها بجمر غضا
لا تحسبن الهجاء يحفل بال رفع ولا خفض خافض خفضا
ولا تخل عودتي كباديتي سأسعط السم من أسبى الحضضا
أعرف في الأشقياء بي رجلاً لا ينتهي أو يصير لي غرضاً
يليح لي صفحة السلامة وال سلم ويخفي في قلبه مرصاً
أضحى مغيطاً علي أن غضب ال له عليه، ونلت منه رضا
وليس تجدي عليه موعظتي إن قدر الله حينه وقضى
كأنني بالشقيّ معتذراً إن القوافي أدقنه المضضاً
ينشدني العهد يوم ذلك وال عهد خضاب إذا له قبضاً
لا يأمنن السفية بادرتي فإنني عارض لمن عرضاً
عندي له السوط إن تلوم في ال سير وعندي اللجام إن ركضاً
أسمعت إنباضتي أبا حسن والصفح لا شك نصح من محضاً
وهو معافى من السهاد فلا يحمل فيمسي فراشه قضضاً
أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضاً

فاعتذر إليه، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد - وكان الأخفش أكثر الناس إخواناً - فقبل عذره، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها: الخفيف:

ذَكَرَ الْأَخْفَشُ الْقَدِيمُ فَقُلْنَا: إِنَّ لِلْأَخْفَشِ الْحَدِيثَ لَفَضْلاً

وَإِذَا مَا حَكَمْتَ وَالرُّومُ قَوْمِي فِي كَلَامٍ مُعَرَّبٍ كُنْتُ عَدَلاً

أَنَا بَيْنَ الْخُصُومِ فِيهِ غَرِيبٌ لَا أَرَى الزَّوْرَ لِلْمُحَابَاةِ أَهْلاً

وَمَتَى قُلْتَ بَاطِلاً لَمْ أَلْقُبْ فِيلَسُوفاً وَلَمْ أَسْمَ هَرَقِلاً

الأخفش القديم هو أبو الخطاب، وكان أستاذ سيبويه، وهو من المتقدمين في النحو، ويُعرف بالأخفش الكبير، وكان في عصر سيبويه أيضاً أبو الحسن سعيد بن مسعدة، وهو الأخفش الصغير، وهو الذي قال: كان سيبويه يعرض ما وضع من النحو عليّ، ويرى أيّ أعلم منه، وكان في وقته ذلك أعلم مني. ثم عاد علي بن سليمان إلى أذاه، واتصل به أن رجلاً عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها، فقال قصيدته التي يقول فيها: المنسرح:

أَعْتَقْتُ عَبْدِي فِي الْقَرِيضِ مَعَا عَبْدَةً وَالْفَحْلَ مِنْ بَنِي عَبْدِة

إِن أَنَا لَمْ أَرْمِ بِالْإِسَاءَةِ مَنْ زَاغَ عَنِ الْقَصْدِ أَوْ أَبَى سَدَدَةَ

قُلْتُ لِمَنْ قَالَ لِي عَرَضْتَ عَلَى الْ أَخْفَشَ مَا قُلْتَهُ فَمَا حَمَدَةَ

قَصَرْتُ بِالشَّعْرِ حِينَ تَعْرُضُهُ عَلَى مَبِينِ الْعَمَى إِذَا انْتَقَدَةَ

أَنْشَدْتَهُ مَنْطِقِي لِيَشْهَدَهُ فَغَابَ عَنْهُ عَمَى وَمَا شَهِدَهُ

مَا بَلَغْتُ بِي الْخُطُوبَ رَتْبَةً مَنْ تَقَهَّمُ عَنْهُ الْكَلَابُ وَالْقِرْدَةُ

وَلَا أَنَا الْمَفْهَمُ الْبِهَائِمِ وَال طَيْرِ سُلَيْمَانٍ قَاهِرِ الْمَرْدَةِ

فَإِنْ يَقُلْ إِنَّنِي حَفِظْتُ فَكَالِد فَتَرِ جَهْلاً بِكُلِّ مَا اعْتَقَدَةَ

سَأُسَمِعُ النَّاسَ ذِمَّةً أَبَداً مَا سَمِعَ اللَّهُ حَمْدَ مَنْ حَمَدَهُ

عبد بن الطيب، وعلقمة بن عبد الفحل، وكانا شاعرين مجيدين، وقال علقمة ابن عبد لرجل ورأى آخر يعتذر إليه وهو معبس في وجهه: إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقه بوجه مُشرق، وبشر مطلق؛ لينبسط المتذلل، ويؤمن المتصل.

ولابن الرومي في الأخفش إفحاش صنّت الكتاب عنه.

قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي: كنت بداري جالساً فإذا حجارة سقطت بالقرب مني،

فبادرتُ هارباً، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السطح، والنظر إلى كل ناحية؛ من أين تأتينا الحجارة، فقال:
امرأة من دار ابن الرومي الشاعر! قد تشوّقت وقالت: اتّقوا الله فينا، واسقونا جرّة من ماء، وإلاّ هلكنا،
فقد مات من عندنا عطشاً.

فتقدّمتُ إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعدَ إليها وتخطبها، ففعلتُ وبادرتُ بالجرة، وأتبعَتها
شيئاً من المأكول؛ ثم عادت إليّ فقالت: ذكرت المرأة أن الباب عليها مُقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن
الرومي، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم، ويتعوّذ ثم يصيرُ إلى الباب، والمفتاحُ معه، فيضعُ عينه على ثقب في
خشب الباب، فتقعُ عينه على جارٍ له كان نازلاً بازائه، وكان أحدب يُقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر
إليه رجع وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح أحدُ الباب.

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادم كان يعرفه، فأمرته بأن يجلس بازائه - وكانت العينُ تميلُ إليه - وتقدّمت
إلى بعض أعواني أن يدعُوَ الجار الأحدب؛ فلما حضر عندي أرسلتُ وراء غلامي؛ لينهض إلى ابن
الرومي، ويستدعيه الحضور؛ فإني لجالس ومعي الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه بردعة
الموسوس صاحب المعتضد، ودخل ابن الرومي، فلما تخطى عتبة باب الصحن عثرَ فانقطع شسعُ نعلهِ،
فدخل مذعوراً؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيير حال؛ فدخل وهو لا يرى جاره
المتطير منه، فقلت له: يا أبا الحسن، أيكون شيءٌ في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلى
وجهه الجميل؟ فقال: وقد لحقني ما رأيت من العثرة؛ لأني فكرت أن به عاهة! وهي قطع انثيئه، قال
بردعة: وشيخنا يتطير؟ قلت: نعم ويُفِرط، قال: ومن هو؟ قلت: علي بن العباس، قال: الشاعر؟ قلت:
نعم، فأقبل عليه وأنشده: الطويل:

ولما رأيت الدهر يؤذنُ صرفه	بتقريب ما بيني وبين الحباب
رجعتُ إلى نفسي فوطنتها على	ركوبِ جميلِ الصبرِ عند النوائبِ
ومن صَحِب الدنيا على جور حُكمها	فأيامُه محفوفة بالمصائبِ
فخذُ خُلسةً من كل يوم تعيشه	وكن حذراً من كامناتِ العواقبِ
ودعْ عنك ذِكْرَ الفأل والزجرِ واطرح	تطيرَ جارٍ أو تفاوُل صاحبِ

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظرُ إليه ولم أدرِ أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبردعة معه،
فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره، وأوماً إلى جاره، فقلت: وهذا الفكر أيضاً من
التطير، فأمسك، وعجب من جودة الشعر ومعناه، وحسن مآتاه، فقلت له: ليتنا كتبناه؟ قال: اكتبه فقد

حفظته، وأملاه علي.

ومن شدة حذره، وعظيم تطيره، قوله لأبي العباس بن ثوبة، وقد ندّبه إلى الخروج إليه وركوب دجلة:
الطويل:

حضضتَ على حطبي لناري فلا تدع
ومن يلق ما لاقيت في كل مجتني
أذاقتني الأسفار ما كره الغنى
ومن نكبة لاقيتها يعد نكبة
فصبري على الإفتار أيسر مطلباً
لقيت من البرّ التباريح بعدما
سقيت على ري به ألف مطرة
ولم أبغها، بل ساقها لمكيدتي
أبى أن يغيث الأرض حتى إذا رمت
سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلة
فملت إلى خان مرث بناؤه
فما زلت في جوع وخوف ووحشة
يؤرّقني سقف كائي تحته

يظل إذا ما الطين أثقل منتنه
وكم خان سقر خان فانقض فوقهم
وما زال ضاحي البرّ يضرب أهله
فإن فاته قطر وتلج فإنه
فذاك بلاء البرّ عندي شاتياً
ألا ربّ نار بالفضاء اصطليتها
فدع عنك ذكر البرّ إنني رأيته
تصر نواحيه صرير الجنادب
كما انقض صقر الدجن فوق الأرناب
بسوطي عذاب جامد بعد ذائب
رهين بساف تارة وبحاصب
وكم لي من صيف به ذي مثالب
من الضح يودي لفحها بالحوارب
لمن خاف هول البحر شر المهارب

وما زال يَبْغِينِي الْحُنُوفَ مُوَارِباً
يَحُومُ عَلَى قَتْلِي وَغَيْرَ مُوَارِبِ
فَطَوَّراً يُغَادِينِي بِلِصِّ مُصَلَّتٍ
وَطَوَّراً يُمَسِّينِي بِوَرْدِ الشَّوَارِبِ
وَأَمَّا بَلَاءُ الْبَحْرِ عِنْدِي فَإِنَّهُ
طَوَّانِي عَلَى رَوْعٍ مَعَ الرُّوحِ وَاقِبِ
وَلَوْ ثَابَ عَقْلِي لَمْ أَدَعْ ذِكْرَ بَعْضِهِ
وَلَكِنَّهُ مِنْ هَوْلِهِ غَيْرُ ثَائِبِ
وَلَمْ لَا وَلَوْ أُلْقِيتُ فِيهِ وَصَخْرَةً
لَوَاقَيْتُ مِنْهُ الْقَعْرَ أَوَّلَ رَاسِبِ
وَلَمْ أَتَعْلَمْ قَطُّ مِنْ ذِي سِبَاحَةٍ
سِوَى الْغَوْصِ وَالْمَضْعُوفِ غَيْرِ مُغَالِبِ
وَأَيْسَرُ إِشْفَاقِي مِنَ الْمَاءِ أَنْنِي
أَمْرُ بِهِ فِي الْكُوزِ مَرَّ الْمُجَانِبِ
وَأَخْشَى الرَّدَى مِنْهُ عَلَى كُلِّ شَارِبِ
فَكَيْفَ بِأَمْتِيهِ عَلَى نَفْسٍ رَاكِبِ؟
أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ وَقَدْ رَأَى التَّمْسَاحَ بِمَصْرَ أَخَذَ رَجُلًا: الْبَسِيطَ:

أَضْمَرْتُ لِلنَّيْلِ هِجْرَانًا وَمَقْلِيَّةً
مُذْ قِيلَ لِي إِنَّمَا التَّمْسَاحُ فِي النَّيْلِ
فَمَنْ رَأَى النَّيْلَ رَأَى الْعَيْنَ عَنْ كَثَبِ
فَمَا أَرَى النَّيْلَ إِلَّا فِي الْبَرَاقِبِ

رجع

الطويل:

أَظَلَّ إِذَا هَزَّتْهُ رِيحٌ وَلَاأَتَتْ
لَهُ الشَّمْسُ أَمْوَاجاً طَوَالَ الْغَوَارِبِ
كَأَنِّي أَرَى فِيهِنَّ فُرْسَانَ بُهْمَةٍ
يُلِيحُونَ نَحْوِي بِالسِّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
فَإِنْ قُلْتُ لِي قَدْ يُرَكَبُ الْيَمُّ طَامِيًا
وَدِجْلَةٌ عِنْدَ الْيَمِّ بَعْضُ الْمَذَانِبِ
فَلَا عُذْرَ فِيهَا لِأَمْرِي هَابَ مِثْلُهَا
وَفِي اللَّجَّةِ الْخَضِرَاءِ عُذْرٌ لِهَائِبِ
لَدِجْلَةٍ خَبٍ لَيْسَ لِلْيَمِّ؛ إِنَّهَا
تَرَأَى بِحُلِيمٍ تَحْتَهُ جَهْلٌ وَائِبِ
تَطَامَنُ حَتَّى تَطْمَنَ قُلُوبُنَا
وَتَغْضَبُ مِنْ مَرْحِ الرِّيَّاحِ اللَّوَاعِبِ
وَلِلْيَمِّ إِنْذَارٌ بِغَوْصِ مُتُونِهِ
وما فيه من آذيه المتراكِبِ

وهي طويلة، وفيما مرَّ كفاية تنبئ عنه وتدل عليه، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره
لخرجتُ عن غَرَضِ الْكِتَابِ.

في العيافة والزجر

ومن مליح العيافة والزجر ما رواه الصُّولي، قال: كان لأبي نواس إخوانٌ لا يفارقُهم، فاجتمعوا يوماً في موضعٍ أخفوه عنه، ووجهوا إليه برسولٍ معه ظهرٌ قرطاس أبيض، لم يكتبوا فيه شيئاً، فحزموه بزير، وختموه بقرار، وتقدموا إلى رسولهم ليرمي كتاب من وراء الباب؛ فلما رآه استعلم خبرهم، وعلم أنه من فعلهم، فتعرف موضعهم وآثارهم، فأتاهم فأنشدهم: الوافر:

وجدتُ كتابكم لما أتاني
يمرُّ بسانح الطير الجوّاري
نظرتُ إليه مخزوماً بزيرٍ
على ظهرٍ، ومختوماً بقرارٍ
فقلت: الزير مُلهية وَلَهُوَ
وخلتُ الظهرَ أهيفَ قرطقيّاً
فهمتُ إليكم طرباً وشوقاً
فكيف ترونني وترون وجدي

وقال الطائي: الكامل:

أتضعضتُ عبراتُ عينك أن دعتُ
ورقاً حين تضعض الإظلام؟
لا تتشجن لها؛ فإن بكاءها
ضحك، وإن بكاءك استغرام
هن الحماّم وإن كسرت عيافة
من حائهن فإنهن حمائم

وروى يموت ابن المزرع قال: كان أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يرض شعره لغلामه: أمض به إلى المسجد الجامع فلا تفارقهُ حتى يُصلي مائة ركعة، ثم خلّه؛ فتحاماه الشعراء، إلا الأفراد المجيدين؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجميل، فاستأذنه في النشيد، فقال: قد عرفت الشرط؟ قال: نعم، وأنشده: الوافر:

أردنا في أبي حسن مديحاً
كما بالمَدَح يُنتجعُ الوُلاةُ
فقلنا: أكرمُ الثقلين طراً
ومن كفاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا: يقبل المدحات لكن
جوائزهُ عليهن الصلّاةُ
فقلت لهم: وما تُغني صلاتي
عيالي! إنما الشأنُ الزكاةُ
فأما إذ أبي إلا صلاتي
وعاقتني الهموم الشاغلَاتُ
فيأمر لي بكسرِ الصادِ منها
فتصبح لي الصلّاةُ هي الصلاتُ

فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام الطائي: الكامل:

هُنَ الحِمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً

مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

فأحسن صلته.

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي لقوم من أهل مرو انخلعوا عن طاعته: الكامل:

ليؤم مروَ على الطريق المهيع

يا راكباً أضْحَى يَخْبُ بِعَنَسِهِ

ظلت لها الأكبادُ رَهْنَ تَقْطَعُ

أبلغُ بها قَوْماً أَثَارُوا فَنَتَّةً

بالْغَدْرِ وَالْخَلْعِ الذَمِيمِ الْمَفْطَعِ

إِذْ أَقْدَمُوا ظُلْماً عَلَى سُلْطَانِهِمْ

لِجَنَابِهِ وَحَرِيمِهِ الْمَتَمَنَعِ

وَبَحْلٍ عَقْدٍ لَوَائِهِ وَإِبَاحَةٍ

فَأُلاً، لَهُ فِي الْقَوْمِ أَسْوَاً مَوْقِعِ

أَبْلَغُهُمْ أَنِّي اتَّخَذْتُ لِفَعْلِهِمْ

عَنْ حَلِّ عَقْدٍ بَيْنَهُمْ مُسْتَجِمِعِ

أَمَّا اللِّوَاءُ وَحَلُّهُ فَمَخْبِرِ

أَرْوَاحُ بِالْقَتْلِ الْأَشَدِّ الْأَشْنَعِ

وَالْخَلْعُ يَخْبِرُ أَنْ سَتُخْلَعُ عَنْهُمْ أَلِ

أَشْلَاؤُهُمْ لِنُسُورِهِ وَالْأَضْبَعِ

وَالْغَدْرُ يُبْنَى أَنْ تُغَادَرَ فِي الْوَعَى

بِتَفْرِقٍ لْجَمِيعِهِمْ وَتَصَدُّعِ

وَالْفَرَقَتَانِ فَشَاهِدٌ مَعْنَاهُمَا

بِذَمِيمِ بَغْيِكُمْ لَشَرِّ الْمَصْرَعِ

فَتَسْمَعُوا لِمَقَالَتِي وَتَأْهَبُوا

حَتَّى تَحُلَّ بِكُمْ عَقُوبَةُ مُوجِعِ

فَاللَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ أَمْرِكُمْ

قال أبو عثمان الجاحظ: سمعت النظام، وذكر عبد الوهاب الثقفي، قال: هو أحلى من آمن بعد خوف، وُبرء بعد سقم، ومن حصَّب بعد جدب، وغنى بعد فقر، ومن طاعة المحبوب، وفرج المكروب، ومن الوصال الدائم، والشباب الناعم.

من أخبار الجاحظ

وكان الجاحظ مائلاً عن ابن أبي دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات، فلما نكب محمد بن عبد الملك أُدْخِلَ الجاحظُ على ابن أبي دُواد مقيداً، فقال له أحمد: والله ما علمك إلا مُتناسياً للنعمة، كفوراً للصَّيعة، معدداً للمساوي، وما فتني باستصلاحي لك، ولكنَّ الأيام لا تُصلِحُ منك؛ لفساد طويِّتك، ورداءة دَخيلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طباعك.

فقال الجاحظ: خفّض عليك، أصلحك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خير من أن يكون لي عليك،

ولأنَّ أَسِيءَ وتحسنَ أحسنُ في الأُخْدُوثة من أن أحسنَ فتسيءَ، ولأنَّ تعفوَ عني على حالٍ قدرتك عليَّ أجملُ بك من الانتقام مِنِّي، فعفَا عنه.

من أخبار عتبة بن أبي سفيان

قال سعد مولى عُتْبَةَ بن أبي سفيان: خطب عُتْبَةُ الناسَ في الموسم سنة إحدى وأربعين، والناسُ إذ ذاك حديثو عهدٍ بالفتنة؛ فقال: قد ولينا هذا المقام الذي يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجرُ، وللمسيء الوزرُ؛ ونحن على سبيل قَصْدٍ، فلا تَمُدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تُقَطَّعُ دوننا؛ فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتَفُهُ في أمنيته؛ فاقبلوا مِنَّا العافية ما قبلناها منكم؛ وأنا أسأل الله أن يُعينَ كلا على كل.

فناداه أعرابي من ناحية المسجد: أيها الخليفة، فقال: لستُ به ولم تُبْعِدْ، قال: يا أخاه، قال: سمعتُ فقل، فقال: والله لأنَّ تحسنوا وقد أسأنا خيرٌ من أن تسيئوا وقد أحسنَّا، فإن كان الإحسان منكم فما أولاكم بإتمامه، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا عليه، وأنا رجلٌ من بني عامر بن صعصعة يمتُّ بالعمومة ويختصُّ بالخؤولة، كَثُرَ عِيَالُهُ، وَوَطِنُهُ زَمَانُهُ، وبه فقر وفيه أجر، وعنده شُكْرُ.

فقال له عتبة: أَسْتَغْفِرُ اللهَ منك، وأستعين به عليك، وقد أَمَرْتُ لك بغناك، فليت إسراعي إليك يقوم بإبطائي عنك!

عود إلى الجاحظ

قال الجاحظ: تشاغلَت مع الحسن بن وهب أخِي سليمان بن وهب بشُرْبِ النبيذ أياماً، فطلبني محمد بن عبد الملك لمؤانسته، فأخبر باتصالِ شُعْلِي مع الحسن ابن وهب، فتَنَكَّرَ لي، وتلوَّنَ عليَّ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها: أعاذك الله من سوء العُضْبِ، وعَصَمَكَ من سَرَفِ الهوى، وصَرَفَ ما أعاركَ من القوة إلى حث الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد خِفْتُ - أيديكَ اللهُ! - أن أكون عندك من المنسوين إلى نزق السفهاء، ومُجَانِبَةِ سُبُلِ الحكماء، وبعدُ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: الطويل:

من الناس إلا ما جَنَى لَسَعِيدُ

وإن أمراً أَمْسَى وأصبح سالماً

وقال الآخر: السريع:

نموهُ بالحقِّ وبالباطلِ

ومن دعا الناس إلى ذمِّهِ

فإن كنتُ اجترأتُ عليك - أصلحك الله - فلم أجتريّ إلاّ لأنّ دوامَ تغافلِكَ عني شبيهه بالإهمال، الذي يُورِثُ الإغفال، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المكافأة، ولذلك قال عُيَيْنَةُ بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيراً لي منك، أرهَبني فأثقتاني، وأعطاني فأغناي، فإن كنت لا تَهَبُ عقابي - أيدِكَ الله! - لخدمَةِ فِهْبه لأَياديكَ عندي؛ فإن النعمة تشفع في النعمة، وإلاّ تفعلُ ذلك لذلك فعُدْ إلى حُسْن العادة، وإلاّ فافعلْ ذلك لحُسْن الأُحدوثِ؛ وإلاّ فأت ما أتتْ أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان مَنْ جعلكَ تَعْفُو عن المتعمّد، وتُتَجافى عن عقاب المُصر، حتى إذا صرت إلى مَنْ هَفَوْتَهُ ذِكْرًا، وذَنَبَهُ نسيانًا، ومن لا يعرف الشكرَ إلاّ لك، والإنعامَ إلاّ منك هجمتَ عليه بالعقوبة. وأعلم - أيدِكَ الله! - أن شَيْنَ غَضَبِكَ علي كَزَيْنِ صَفْحِكَ عني، وأن موتَ ذِكْرِي مع انقطاع سبي منك كحياة ذِكْرِكَ مع اتصال سبي بك، واعلم أنّ لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام.

من حكم علي بن أبي طالب

عليه الصلاة والسلام

قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: أعجَبُ ما في الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة، وأضداد من خِلافها؛ فإن سَحَّ له الرجاء أذله الطمع، وإن هاجه الطمعُ أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأسُ قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعد بالرضا نسي التحفظ، وإن أتاه الخوفُ شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته العزة، وإن أصابته مصيبة فضّحه الجزع، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظته البُطنة، فكل تقصيرٍ مضرٍّ، وكل إفراطٍ له قاتل.

البيت الذي أنشده الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان في أبيات يقول فيها: الطويل:

متى ما يرى الناس الغني وجاره	فقيرٌ يقولوا: عاجزٌ وجليدٌ
وليس الغنى والفقرُ من حيلة الفتى	ولكن أحاط قسمتٌ وجُدودٌ
وإن امرأ يمسي ويُصبحُ سالماً	من الناس إلا ما جنّى لسعيدٌ

والبيت الذي أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلي في أبياتٍ يقول فيها: السريع:

إن كنت لا ترهبُ دمي لما	تعلم من صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي آذناً مُنصتاً	فيك لمسموع خنى القائل
فسامعُ الشر شريك له	ومُطعمُ المأكول كالآكل

مقالة السوء إلى أهلها
ومَن دعا الناسَ إلى ذمه
فلا تهيج، إن كُنْتَ ذا إربةٍ
فإن ذا العقل إذا هجته
تُبصرُ في عاجلِ شدَّاته
أسرعُ من مُنحدرِ سائل
ذمُّه بالحق وبالباطل
حربَ أخي التجربة الغافل
هجت به ذا خبل خابل
عليك غب الضررِ الآجل

وفي ابن الزيات يقول الجاحظ: المتقارب:

بدأ حين أُنرى لإخوانه
وأبصر كيف انتقالُ الزمانِ
ففلل منهم شَبَاةُ العَدَمِ
فبادرَ بالعرفِ قبل النَّدَمِ

الجاحظ ورجل من البرامكة في مرضه

قال بعضُ البرامكة: كنتُ أتقلدُ السندَ، فاتصل بي أني صُرِفْتُ عنها، وكنتُ كسبتُ ثلاثين ألفَ دينار، فَخُفْتُ أن يَفْجَأني الصارف، ويُسَعَى إليه بالمال، فصُعْتُه عشرة آلاف إهليلجة في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل، وجعلتها في رَحلي، ولم أبعُد أن جاء الصارف؛ فركبْتُ البحرَ، وانحدَرْتُ إلى البصرة؛ فخبِرْتُ أنَّ بها الجاحظ، وأنه عليل؛ فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصِرْتُ إليه، فأفضيتُ إلى بابِ دار لطيف، فقرَعْتُه، فخرجتُ إليَّ خادمٌ صفراء، فقالت: مَنْ أنت؟ فقلت: رجل غريب أحب أن يدخل إلى الشيخ فيُسَرَّ بالنظر إليه، فأدت ما قلت، وكانت المسافة قريية لصغر الدهليز والحجرة، فسمعتُه يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون حائل؟ فأخبرتني، فقلت: لا بدَّ من الوصال إليه، فقال: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة، فسمع بي وبعلي، فقال: أراه قبل موته؛ لأقول: قد رأيت الجاحظ. فدخلت فسلمت فردَّ رداً جميلاً واستدنانني، وقال: مَنْ تكون؟ أعزك الله! فانتسبتُ له، فقال: رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد، الكرام الأمجاد، لقد كانت أيامهم رَوْضَ الأزمنة، ولقد انجبر بهم خلق، فسقياً لهم ورعياً؛ فدعوت له، وقلت: أنا أسألُ الشيخ أن يُنشدني شيئاً من الشعر أذكره به، فأنشدني: الطويل:

لئن قَدَمْتُ قبلي رجال فطالما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه
مَشَيْتُ على رِسْلي فكنت المقدما
فتنبرم منقوضاً، وتنقض مُبرما

ثم نهضت، فلما قاربت الدهليز صاح بي فقال: يا فتى، أرايت مفلوجاً ينفعه الإهليلج؟ فقلت: لا، قال: فأنا ينفعني الإهليلج الذي معك، فأثفدت إلي منه، فقلت: السمع والطاعة، وخرجت مفرط التعجب من وقوعه على خبري، حتى كأن بعض أحبابي كاتبه بخبري حين صُعُته، فأثفدت إليه مائة إهليلجة.

المقامة الجاحظية

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ

قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: جمعتني مع رقيقة وليمه، وأجبت إليها للحديث المأثور فيها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدي إلي ذراع لقبلت"، فأفضى بنا المسير إلى دار قد فرش بساطها، وبُسِطت أنماطها، ومُد سِمَاطُها، وقوم قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود، وورْدٍ منضود، ودَن مَفْضود، ونَأيٍ وعود؛ محصرنا إليهم وصاروا إلينا، ثم عكفنا على خِوانٍ قد مُلئت حياضه، ونورَت رياضه، واصطفَّت جفائه، واختلفت ألوانه؛ فمن حالك بازائه ناصع، ومن قانٍ في تلقائه فاقع، معنا على الطعام رجلٌ تُسَافِرُ يده على الخِوان، وتُسَفِرُ بين الألوان، وتأخذُ وجوه الرُغفان، وتَقْقأ عيون الجفان، وترعى أرضَ الجيران؛ يَزَحِمُ اللقمة باللقمة، ويَهْزِمُ المضغعة بالمضغعة، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَبْسُ، ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخطابته، ووصف ابن المقفع وذرايته، ووافق أول الحديث آخرَ الخِوان، وزُلنا عن ذلك المكان، فقال الرجل: أين أنتم من الحديث الذي فيه كنتم، فأخذنا في وصف الجاحظ ولسنه، وحُسن سنه في الفصاحة وسُننه فيما عرفناه؛ فقال: يا قوم، لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولكل دار سُكَّان، ولكل زمان جاحظ، ولو انتقدتم، لبطل ما اعتقدتم، فكل كشر له عن ناب الإنكار، وشَمَ بأئف الإكبار، وضَحِكْتُ إليه، لأجلب ما لديّه، وقلت: أفدنا وزدنا، فقال: إنَّ الجاحظَ في أحدِ شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبلغُ من لم يَقْصِرْ نظمُه عن نثره، ولم يُزِرْ كلامُه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا: لا، قال: فهلّموا إلى كلامه؛ فهو بعيدُ الإشارات، قريبُ العبارات، قليل الاستعارات، منقادٌ لعريان الكلام يستعمله، نفورٌ من مُعتاصه يهمله، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة، أو لفظة غير مصنوعة؟ فقلت: لا، فقال: هل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك، وينمُّ على ما في يدك؟ فقلت: إي والله، قال: فأطلق لي عن خنصرِكَ ما يعين على شكرِكَ، فأنلت ردائي، فقال: الطويل:

لقد كسبت تلك الثيابُ به مجداً

لعمرك الذي ألقى إلي ثيابه

وقد قَمَرَتُهُ راحة الجود بِزَّةً
فما ضَرَبْتَ قَدْحاً ولا نَصَبْتَ نَرْدَا
أَعِدْ نَظْراً يا مَنْ كَسَانِي ثِيَابَهُ
ولا تَدَعِ الأَيَّامَ تَهْدِمُنِي هَذَا
وقلْ لِلأُلَى إِنَّ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا ضَحَى
وإن طَلَعُوا فِي غُمة طَلَعُوا وَرْدَا
صَلُّوا رَحِمَ العَلِيَّاءِ وِبلُوا لَهَا تَهَا
فَخَيْرُ النَّدَى ما سَحَّ وَاِبلُهُ نَقْدَا

قال عيسى بن هشام: فارتاحت الجماعة إليه، واثالت الصَّلَاتُ عليه، وقلت لما تآنسنا: من أين مطلع هذا البدر؟ فقال: المجتث:

إِسْكَندَرِيَّةُ دَارِي
لو قرَّ فِيهَا قَرَارِي
لَكِنْ لَيْلِي بِنَجْدٍ
وبالحجازِ نَهَارِي

ما قالته الملوك

تظلمت رعية أردشير بن بابك إليه في سنة مُجْدِبَةٍ لِعَجْزِهِم عن الخراج، وسألته أن يخففه عنهم؛ فكتب لهم ما نسخته: من أردشير المزيّد بالبهاء، ابن الملوك العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حَفَظَةُ البِيضَةِ، والكتاب الذين هم سَاسَةُ المَمْلَكَةِ، وذوي الحرث الذين هم عَمَرَةُ البلاد، أما بَعْدُ، فإننا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين، وقد وضعنا عن رعيّتنا بَفَضْلٍ رَأَيْنَا إِتَاوَتَنَا المَوْظِفَةَ عليهم سنّتنا هذه، ونحن كاتبون مع ذلك نُملِيهم بوصية تنفعُ الكل: لا تستشعروا الحَقْدَ لئلا يَغْلِبَ عليكم العدو، ولا تحتوا الاحتكار لئلا يشملكم الفَحْطُ، وكونوا للغرباء مُؤَوِّين، لتؤووا غداً في المعاد، وتزوَّجُوا في القِرابَةِ فإنه أَحْسَنُ للرحم، وأُثْبِتْ للنَّسَبِ، ولا تعدُّوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تُبْقِي على أحد، ولا تَرْفُضُها مع ذلك؛ فإن الآخرة لا تُنَالُ إِلَّا بِهَا.

وقيل لبزر جمهر: أيُّ الاكتساب أفضل؟ قال: العلم والأدب كَنْزَانِ لا يَنْفَدَان، وسِرَاجَانِ لا يُطْفَأَان، وحُفَّتَانِ لا تَبْلَيَان؛ مَنْ نالهما نالَ أسبابَ الرِّشَادِ وَعَرَفَ طريقَ المَعَادِ، وعاشَ رَفِيعاً بين العِبَادِ.

وقال أنوشروان لبزر جمهر لما ظفر به: الحمد لله الذي أَظْفَرَنِي بِكَ، قال له: فكافئه بما يجبُ كما أعطاك ما تحب. قال: وبم أَكافئه يا فاسق؟ قال: بالعفو عَمَّنْ أَظْفَرَكَ به اليوم كما تحبُّ أَنْ يعفوَ عنكَ غداً. ونظيرُ هذا الكلام قد تقدم لعلِّي، رضي الله عنه.

وقيل لكسرى؛ أيُّ الملوك أفضل؟ قال: الذي إذا جاورته وَجَدْتَهُ عَليماً، وإذا خبرته وَجَدْتَهُ حَكِيماً، وإذا

أغضب كان حليماً، وإذا ظفر كان كريماً، وإذا استمنح منح جسيماً، وإذا وعد وفى، وإن كان الوعد عظيماً، وإذا شكى إليه وُجد رحيماً.

من إنشاء الميكالي

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي إلى أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي؛ كتابي وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعراي لما صَبَا إلى رَمْلٍ عاجل، أو كابدَه الخَلْيُ لانتَنَى على كِبَدِ ذاتِ حُرْقٍ وَلَوَاعِجٍ؛ وأدُمُ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً، ويخرِّقُ فلا ينوي رَقْعاً، ويوجعُ القلبَ بتفريقِ شَمْلِ ذوي الوداد، ثم يخلُّ عليهم بما يَشْفِي الصدور والأكباد؛ قاسي القلبِ فلا يلينُ لاستعطاف، جائر الحُكْمِ فلا يميلُ إلى إنصاف، وكم أَسْتَعِدِّي على صَرْفِهِ وأَسْتَنجِد، وأَتَلَطَّى غيظاً عليه وأنشد: الطويل:

بعثرة حال والزمان عثور

متى وعسى يثني الزمان عنانه

وتحدث من بعد الأمور أمور

فتترك آمال وتُقضى مآرب

وكلاً، فما على الدهر عَثْب، ولا له على أهله ذَنْب؛ وإنما هي أقدار تَجْري كما شاء مُجْريها، وتنفذ كالسهم إلى مراميها؛ فهي تدورُ بالمكروه والمحبوب، على الحُكْمِ المقدور والمكتوب، لا على شهوات النفوس وإرادات القلوب؛ وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصَّعب الجامح، فيعود الأنسُ بلقائِك الإخوان كأتم ما لم يزل معهوداً، ويجدد للمذاكرة والموانسة رسوماً وعهوداً، إنه الملبى به، والقادرُ عليه.

وله إلى أبيه: ولو مَلَكَتُ عنان اختياري، وأسعفني ببعض ما أقترحه القَدَرُ الجاري، لما غَبَّتْ عن حضرته - انسها الله! - ساعة من دهري، كما لا أعد ساعات بُعْدِي عنها وإخلائي لبأها من أيام عمري؛ ولقنت أبداً ماثلاً بها في زمرة الخدم والعبيد، جامعاً بها بين حاشيتي العزِّ المديد، والشرف العتيد؛ لا سيما في هذا الوقت وقد أشرقت البلاد بنور طلعتة التي هي في ظلمة الدهر صباح، وعزَّ مطالعته التي فيها لصدور ذوي الشَّنْأِ شجاً ولزَّندِ الآمال اقتداح، ومعاودة ظلِّه التي أضحت الشمسُ من حساده، والزمان من عدد ساكنيه وعتاده، إلا أن الحريص - كما علمه مولانا - مُخْلِى عن أعذب موارده، وممنوع بالعوائق عن أكرم مطالعه ومقاصده.

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه: أنا وإن لم تتقدَّم بيني وبينه المكاتبة، وعادة المساجلة والمفاوضة، من فرط حرصي على افتتاحها وتعاطيها، واعتراض العوائق دون المراد والغرض فيها، فإن قلبي بوَدَّه مَعْمُور، وضميري على مُصَافاته مقصور، فاعتداده لفضائله التي أصبح فيها أوْحَدِي العنان، وزاحم فيها مَنَكِب

العَنَان، واستأثر فيها بالعُرَر والأوضحاح، ما أوفى بها على غُرّة الصباح، حتى تشاهدتَ بها ضمائرُ القلوب،
وتهادتَ أنباءها ألسنةَ البعيد والقريب، اعتدادَ من يَجْمَعُ بالاعتداد لها بين شهادة قلبه ولسانه، ومن ينظم
في إجلالِ قَدْرِها صفةَ إسراره وإعلانه، فهو يتنسمُ الريحَ إذا هبَّتْ من ناحيته شوقاً ونزاعاً، ويستَملي
الوارد والصادرَ خبرَ سلامته انصباعاً بالود إليه وانقطاعاً.

شذور من كلامه في أثناء رسائل شتى: أياديه التي غمرتني سجالها، واتسع عندي مجالها، وأعيًا شكري
عَفْوُها وانثيالها، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف، واجتليت أنوار العيش مأمونة الكسوف، ليس يكاد يبرد
غليلُ شوقي وحنيني، أو ترجع نافرة أنسي وسكوني، أو تَخْلُو من الاهتمام والفكرة فيه خواطري
وظنوني، إلّا بالتقاء يدنو أمدّه، ويَقْرُب مَوْعِدُهُ، وتعلو على الفراق يدّه، فنعاود العيشَ طَلْقاً غزيراً، ونحتي
ثمرَ المُنَى غَضّاً نضيراً، ونَجْتلي وجهَ الزمان مُشْرِقاً منيراً. فوائده لها عندي أثرُ العَمام أو أنفع، ومحلُّ
السَّمَكِ أو أرفع. حالي في مفارقة حَضْرَتِهِ حالُ بنات الماء قد نَضَبَ عنها الغدير، ونبات الأرض أخطأها
النوءُ المطير. هُفي على دهر الحداثة إذ غُصْنُ شباي غض وريق، ونَقْلُ شراي عض وريق. كلامٌ أحلى من
ريق النحل، وأصفى من ريق الوبل. من تسود قبل وقته وآلته، فقد تعرّضَ لِمَقْتِهِ وإذالته. نظمه له: مجزوء
الرمل:

رَبِّلا وَقْتِ وَآلَةٍ

إِنْ مَنْ يَلْتَمِسُ الصَّد

كُلْ مَقْتٍ وَإِذَالَةٍ

لِحَقِيقِ أَنْ يُلْقَى

الشكل للكتاب، كالحلي للكعب. لو كان الشبابُ فِضةً لكان الشيبُ له خبثاً. النعمة عروسٌ مهرها
الشكر، وثوبٌ صَوْنُهُ النشر. الخضاب تذكرة الشباب. لا تقاسُ المَهاوي بالمراقِي، ولا الأقدام بالتراقي،
ولا البحورُ بالسواقي. كم أبلاني من عُرْفٍ جزيل لا يُبلي الدهرُ جدّةَ ردائه، وقضائي من دَيْنٍ تأميل لا
يَقْضِي الشكرُ حقَّ نعمائه. الشكر للنعمة نتاج، والكُفْران لها رِتاَج، وكلما زدت النعمة شكراً، زادت
طيباً ونَشْراً.

قطعة من شعره في تجنيس القوافي

قال في أبيه: الخفيف:

ما اهتَدَيْنَا لأَخْذِهِ واقتباسِهِ

مبدعاً في شمائل المجدِ خِيماً

وجواد بالعفو في وقت باسه

فهو فظ بالمال وقت نDAH

وقال فيه: الوافر:

ولم تدركه في الجود الندامه
لريب حوادث قال الندى مه

إذا ما جادَ بالأموال ثنى
وإن هَجَسَتْ خَواطِرُهُ بجمع

وقال فيه: المتقارب:

فزِعْنَا إلى سيدِ نابه
كشَفْنَا الحوادثَ عَنَّا به

ولما تنازع صَرَفُ الزمان
إذا كَشَرَ الدهرُ عَنْ نابه

وقيل فيه: السريع:

تغني عن الجيش وتسريبه
للرَّكَبِ نَجْمًا فهو يسري به

إن نابنا خَطَبُ فآراؤه
وإن دَجَا ليلٌ بَدَا نوره

وقال يفتخر: المتقارب:

لِعَضَّةِ نَفْسٍ شجاها شجاها
وما بَثَّ مَالًا وَلَا رَأْسَ جَاها

وكم حاسد لي أنبرى فأنثنى
ومن أين يَسْمُو لَنَيْلِ العُلا

ومنها قوله: الوافر:

وعَمَّا حازَ في الدنيا جَمالي
وفي سُبُلِ المكارم لِحَّ مَالِي
فما لي تاركًا ذَا النَهْجِ مَا لي
فَعَالِي والنَّجَارُ فَأَلْجَمَا لي

وسائلةٌ تُسألُ عن فعالي
فقلت: إلى المعالي حَنَ قلبي
وللعلياء نَهْجٌ مستقيمٌ
إذا أُسْرِجْتُ في فخرٍ سَمَا بي

وقال في نوع من هذا الجنس: الطويل:

من المجد يسري فوق جُمُجْمَةِ النَّسْرِ
فإنَّا من العلياء نَجْرِي على نَجْرِ
فبالمال نَشْرِي رابحَ الحمدِ والنَّشْرِ

ومن يَسْرِ فوقَ الأرضِ يطلبُ غَايَةً
ومن يَخْتَلِفُ في العالمينِ نِجارُهُ
ومن يَتَجَرَّ في المالِ يَكْسِبُ رُبْحَهُ

وعلى نحو هذا الخذو يقول أبو الفتح البستي: الوافر:

لشيء من حُلَى الأشعار عار
زُلَالٌ من ذُرَا الأحجارِ جَارِي

أبا العباس، لا تحسب بأني
ولي طَبَعٌ كَسَلَسَالِ المجاري

إذا ما أَكْبَتِ الأَدْوَارَ زَنْدًا

فلي زَنْدٌ على الأَدْوَارِ وَارِي

وقال أبو الفتح البستي أيضاً: الوافر:

بَسَيْفِ الدَّوْلَةِ اتَّسَقَتْ أُمُورٌ

رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدةَ النَّظَامِ

سَمًا وَحَمَى بَنِي سَامٍ وَحَامٍ

فليس كَمَثَلِهِ سَامٍ وَحَامٍ

ما قيل في الحاجب

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه: إنك عيني التي أنظرُ بها، وجُنيتي التي أستنيم إليها؛ وقد وليتكَ بأبي، فما تراك صانعاً برعيتي؟ قال: أنظر إليهم بعينك، وأحملهم على قَدَرِ منازلهم عندك، وأضعهم لك في إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمَتِكَ مواضع استحقاقهم، وأرتبهم حيث جعلهم ترتيبك، وأحسنُ إبلاغك عنهم، وإبلاغهما عنك.

قال: قَدْ وَفَيْتَ بما عليك قولاً، إن وَفَيْتَ به فعلاً؛ واللَّهِ وليَّ كفايتك ومعونتك.

قال المهدي للفضل بن الربيع: إني قد وليتكَ سَتَرَ وجهي وكَشَفَهُ، فلا تجعل الستر بيني وبين خواصِّي سبباً لضغنهم بِقُبْحِ رَدِّكَ، وَغُبُوسِ وَجْهِكَ، وقدم أبناء الدعوة، فإنهم أوَّلَى بالتقديم، وثَن بالأولياء، واجعل للعامَّة وقتاً إذا دخلوا أعجلهم ضيقه عن التلبُّث، وصرفهم عن التمكنُّث.

وقال الحسنُ بن سهل: إذا كان الملك محتججاً عن الرعيَّة، ولم يترل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسهم واستحقاقهم دون الشفاعات والحرَمات، حتى يختصَّ الفاضلُ دون المفضول، ويرتَّب الناسُ

على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم، امتزج التدبير، واختلَّت الأمور، ولم يميِّز بين الصدور والأعجاز، والنواصي والأذنان، وكان الناسُ فَوْضَى، وَوَهَتْ أسبابُ المُلْك، وانتقضتْ مَرَاتِرُهُ، وشاعت سرائره، وإنَّ

أَقْرَبَ ما أرجو به صلاح ما أتولاه استماعي من المتنسمين بأنفسهم، المتوسِّلين بأفهامهم، المتوصِّلين بكفايتهم، وابتدالُ نفسي لهم، وصبري عليهم، وتصفحي ما توسلوا به وانتحلوه من العقول والآداب، والحماية والكفاية. فَمَنْ ثَبَتَ له دَعْوَاهُ أَنْزَلَتْهُ تلك المَنْزِلَةُ، ولم أَتَحَيِّفْهُ حقَّه، ولا نَقْصُتْهُ حظَّه، ومن قَصَرَ عما ادَّعى كانت منزلته منزلةً المقصِّرين، ولم أحيبِ أَمَلَهُ من مقدار ما يستحقُّه.

وقاد بعضُ البلغاء: إذا أسدل الوالي على نفسه سِتْرَ الحِجَاب، وَهِيَ عَمُودُ تَدْيِيرِهِ؛ واسترخت عليه حمائلُ الحِزَم، وازدلفتُ إليه وفودُ الذمِّ، وتولى عنه رشد الرَّاجِي، ونال أُمُورَهُ خَلَلُ الانتشار، وآفةُ الإهمال، وَتَسَرَّعَ إليه العائبون بلواذع ألسنتهم وذيبيب قوارضهم.

وحُجِبَ سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه: سَرْتُ إلى بابك - أعزك الله - عندما حدث من أمرك، فلم يُقْضَ لِقَاؤُكَ، وعلمت أن ثِقَتَكَ بما عندي، قد مُثِّلَتْ لك حالي من السرور بنعمة

اللّه عندك، وأرثك موضعي من الاعتداد بكل ما خَصَّكَ ووصل إليك، فوكلت العُذْر إلى ذلك. ثم إنا نأتيك مَتمَنِّين بطلعتك، مشتاقين إلى رؤيتك، فيحجبنا عنك مُلاحظ. وهو كما علمت زَنيَم الصنِيعَة، لثِيم الطِبيعة، يَحْجُبُ عنك الكرام، ويأذَنُ عليك للثام، كلما نَحَمْتُ له يدٌ بيضاء، أثْبَعَهَا يدًا سوداء؛ فإن رأيت - أعزك الله - أن تصرِّفه عن باب مكارمك فعلت، إن شاء الله.

وقال أبو السمط بن أبي حفصة: الطويل:

فتى لا يُبالي المذلجون بنوره
إلى بابه ألا تُضيء الكواكبُ
له حاجب في كل خيرٍ يُعينه
وليس له عن طالب العرفِ حاجِبُ
أخذ البيت الأول من قول جده مروان بن أبي حفصة الأكبر: الطويل:

إلى المصطفى المهدي خاضت
دجى الليل يخبطن السريح المُخدما
ركابنا
يكون لها نور الإمام محمد
وقال إدريس بن أبي حفصة، وذكر إبلاً: البسيط:

لها أمامك نور تستضيء به
ومِنْ رجائك في أعناقها حادي
لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الرُتُوع وتلهيها عن الزادِ
وأصله قول عمرو بن شأس الأسدي: الطويل:

إذا نحنُ أدلجنا وأنتَ أماننا
كفى لمطايانا بوجهك هاديا
أليس يزيد العيس خِفةً أذرع
وإن كُن حَسْرَى، أن تكونَ أماميا
وقال بعض أهل العصر: الطويل:

وليل وصلنا بين قُطْرِيهِ بالسرى
وقد جدَّ شوق مُطْمَعٍ في وصالِكِ
أرَبَّتْ علينا من دُجَاهِ حَنادِسِ
أعدن الطريقَ النهجَ وعَرَ المسالكِ

فناديتُ يا أسماء، باسمك، فأنجَلت
وأسْفَر منها كل أسودَ حَالِكِ
بنا أنت من هادِ نَجُونَا بذكره
وقد نَشِبَتْ فينا أكف المِهالكِ
منحتك إخلاصي وأصقَيْتُك الهوى
وإن كنتَ لَمَّا تُخْطِرُني بِبالِكِ
وقال القطامي: الطويل:

ذَكَرْتُكُمْ لَيْلًا فَنورَ ذِكْرُكُمْ
فَوَ اللهُ مَا أَدرِي أَضْوَاءَ مُسَجَّرٍ
وَقَالَ الْقَيِّنِي: الطويل:

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
نَجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبُ
أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
وَقَالَ الْحَطِيبَةُ: البسيط:

نَمْشِي عَلَى ضَوْءٍ أَحْسَابٍ أَضْأَنَ لَنَا
وَقَدْ رَدَدَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ: الْوَافِرُ:
هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ إِذَا أَلَمْتُ
وَكَلَامُ الْقَاسِمِ بْنِ حَنْبَلٍ الْمَدَنِيِّ مِنْ هَذَا، حَيْثُ يَقُولُ: الْوَافِرُ:

لَوْ أَنَّكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاءُوا
مِنَ الْبَيْضِ الْوُجُوهُ بَنِي سِنَانٍ
وَمَكْرُمَةٌ دَنَتْ لَهُمُ السَّمَاءُ
فَلَوْ أَنَّ السَّمَاءَ دَنَتْ لَمَجْدُ
وَمِنْ كَرَمِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا
هُمْ حَازُوا مِنَ الشَّرَفِ الْمَعْلَى
وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ: الطويل:

كَفَوْا خَاطِبَ الظُّلَمَاءِ فَقَدَّ الْمَصَابِحُ
إِذَا أَشْرَقَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ وَوُجُوهُهُمْ
فَكَمْ تَمَّ مِنْ آسِي جِرَاحٍ وَجَارِحٍ
وَإِنْ نَابَ خَطْبُ أَوْ أَلَمَتْ مُلَمَّةٌ
وَقَالَ أَبُو بَدِيلٍ الْوَضَّاحُ بْنُ مُحَمَّدٍ التَّيْمِيُّ فِي الْمُسْتَعِينَ: الطويل:

وَقَائِلَةٌ وَاللَّيْلُ قَدْ نَشَرَ الدُّجَى
أَرَى بَارِقًا يَبْدُو مِنَ الْجَوْسَقِ الَّذِي
رَأَيْنَا بِنَصْفِ اللَّيْلِ نُورَ ضَحَى غَدٍ
أَضَاءَتْ لَهُ الْآفَاقُ حَتَّى كَأَنَّمَا
سُلُوكًا مِنَ الْجَزَعِ الَّذِي لَمْ يَسْرَدِ
فَظِلَّ عَدَارَى الْحَيِّ يَنْظُمْنَ تَحْتَهُ
وَالْإِلَّا يَكُنْ فَالنُّورُ مِنْ وَجْهِ أَحْمَدٍ
فَقُلْتُ: هُوَ الْبَدْرُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ

ما قيل في الاشتقاق

وقال عُمَرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة في معنى قول عمرو بن شأس في حث الاشتياق: الطويل:

خليلي، ما بال المطايا كأنما
فقد أتعب الحادي سُرَاهُنَّ، وانحذى بهنَ فما بالوا عجل مقلصُ
تَراها على الأعقابِ بالقومِ تَنكُصُ
وقد قُطعتْ أعناقهن صَبَابَةً
فأعْيُنُهَا مِمَّا تَكَلَّفُ تَشْخَصُ
يَزِدْنَ بنا قُرْباً فيزدادُ شَوْقُنَا
وقال بعض الرجاز، وذكر إبلاً: الرجز:

إن لها لسائقاً خدلجا
لم يُدلج الليلةَ فيمن أدلجا
يريد امرأةً يحبُّها فيحثه ما يجده من الشوق على إجهاد مطاياها بالسوق. كما أنشد إسحاق الموصلي:
البسيط:

صبّ يحث مطاياهُ بذكرِكُم
لو يستطيع طوى الأيام نحوكُم
وليس ينسأكم إن حل أو ساراً
حتى يبيع بعمرِ القُربِ أعماراً
يرجو النجاة من البلوى بقربكُم
والقرب يُلهبُ في أحشائه ناراً

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبي ربيعة. يقول: كلما دنا ازداد حرصاً على اللقاء.
وشخص إسحاق الموصلي إلى الواصل بسر من رأى، وأهله ببغداد، فتصيد الواصل وهو معه إلى نواحي
عُكْبَرَاء، فلما قرب من بغداد قال: الوافر:

طربت إلى الأصيبية الصغار
وكل مسافر يزداد شوقاً
وهاجك منهم قُرب المزار
إذا دنت الديار من الديار

ولحنه وغناه الواصل، فاستحسنه وأطربه، فصرفه إلى بغداد على ما أحبّ وكان إسحاق قال أولاً: الوافر:

وكل مسافر يشتاق يوماً
إذا دنت الديار من الديار
فعابوا قوله يوماً، وقالوا: هي لفظة قلقة في هذا الموضع، لم تحل بمركزها، ولا لها هنا موقع. قال: فضعوا
مكانها مثلها لا خيراً منها. فما استطاعوا ذلك، فغيّرها إلى ما أنشدت أولاً.
وقال أبو نواس: الكامل:

أما الديار فقلما لبثوا بها
وضعوا سياط الشوق فوق رقابها
بين اشتياق العيس والركبان
حتى طلّعن بها على الأوطان

وقال مَخْلَدُ بن بكار الموصلي: الطويل:

أَقُولُ لِنِصْوٍ أَنْفَدَ السَّيْرَ نِيهَاً
خَدِي بِي ابْتِلَاكَ اللَّهِ بِالشَّوْقِ وَالْهَوَى
فَمَرْتُ سَرِيعاً خَوْفَ دَعْوَةِ عَاشِقٍ
فَلَمَّا وَنْتُ فِي السَّيْرِ ثَنَيْتُ دَعْوَتِي
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرَ عَظْمٍ مَجْدٍ
وَشَاقَكَ تَحَنُّنُ الْحَمَامِ الْمَغْرَدِ
تَشْقَى بِي الْمَوْمَاةُ فِي كُلِّ فَدَقْدٍ
فَكَانَتْ لَهَا سَوَطاً إِلَى ضَحْوَةِ الْغَدِ

وكان مَخْلَدُ حُلُو الطبع، وهو القائل يمدح رجلاً: الرمل:

يَطْلُعُ النَّجْمُ عَلَى صَعْدَتِهِ
مَعَشَرٌ إِنْ ظَمِنْتُ أَرْمَاحَهُمْ
تَحْسُنُ الْأَلْوَانُ مِنْهُمْ فِي الْوَعَى
سُخِطَ عَبْدُ اللَّهِ يُدْنِي الْأَجَلَا
فَإِذَا وَاجَهُ نَحْرًا أَفْلَا
أُورِدُهُنَّ مُجَاجَاتِ الطَّلَى
حِينَ تَسْتَتَكِرُ لِلرُّعْبِ الْحُلَى
وَرِضَاهُ يَتَعَدَّى الْأَمَلَا
وَإِذَا حَارَبَ رَوْضًا أَمَحَلَا
وَأَيَادِيهِ عَلَى اللَّيْلِ انْجَلَى
طَالَ حَتَّى قَصُرَتْ فِيهِ الْعُلَا
وَتَمَشَى فِي نَدَاهُ الْخَيْرَلَى
يُعْتَشِبُ الصَّلْدَ إِذَا سَالَمَهُ
مَلِكٌ لَوْ نُشِرَتْ آلاؤُهُ
حَلَّ بِالْبَاسِ ابْنُ عَمْرٍو مَنْزِلًا
حَطَّ رَحْلِي فِي ذَرَاهِ جُودِهِ

في الخط

سئل بعضُ الكتاب عن الخط: متى يستحق أن يوصفَ بالجودة؟ فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولأمه، واستقامت سطورُه، وضاهى صعوده حُدُورُه، وتفتحت عيونه، ولم تشبهه رَأُوهُ ونُونُه، وأشرقَ قِرطاسه، وأظلمت أنفاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه، وإلى العقول تَثْمُرُه، وقُدِّرَت فصوله، واندَمَجَتْ وُصُولُه، وتناسب دقيقُه وجليله، وخرج من نَمَطِ الورَّاقين، وبعُدَ عن تصنعِ المحررين، وقام لصاحبه مقام النسبة والحلية، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف في صفة خط: المتقارب:

إِذَا مَا تَجَلَّى قِرطَاسُهُ
تَضَمَّنَ مِنْ خَطِّهِ حُلَّةٌ
وَسَاوَرَهُ الْقَلَمُ الْأَرْقَشُ
كَنَقَشِ الدَّنَانِيرِ، بَلْ أَنْقَشُ
نَشَاطًا وَيَقْرُؤُهَا الْأَخْفَشُ
حُرُوفٌ تُعِيدُ لَعِينِ الْكَلِيلِ

قال أبو هفان: سألت وراقاً عن حاله فقال: عيشي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من مسطرة، وجاهي أرق من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سواداً من الخبز بالزجاج، وحظي أخفى من شق القلم، ويداي أضعف من قصبته، وطعامي أمر من العفص؛ وشرابي أحر من الخبز، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ؛ فقلت له: عبرت عن بلاء بلاء!.

وقال الحمدوني: البسيط:

تنتان من أدوات العلم قد تئنا	عنان شأوي عما رمت من هممي
أما الدواة فأدمي جرئها جسدي	وقلم الحظ تحريف من القلم
وحبرت لي صحف الحرف محبرة	تذود عني سوام المال والنعم
والعلم يعلم أنني حين أخذه	لعصمتي نافر خلو من العصم

وللحمدوني في الحرفة أشعار مستظرفة؛ وكان مليح الافتنان، حلو التصرف؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، وحمدويه جدّه، وهو صاحب الزنادقة في أيام الرشيد، والحمدوني القائل: السريع:

مَنْ كان في الدنيا له شارة	فنحن من نظارة الدنيا
----------------------------	----------------------

نرمقها من كتب حسرة	كأننا لفظ بلا معنى
--------------------	--------------------

وقال: الكامل:

قد قلت إذ خرجوا لكي يستمطروا:	لا تقنطوا واستمطروا بئياي
لو في حيران هممت بغسلها	عطى ضياء الشمس جو سحاب
فكانها العباس يستسقي به	عمر فيرويه دُعاء مُجاب

صناعة الأدب

وقال آخر في المعنى الأول: البسيط:

لما أجدت حروف الخط حرفني	عن كل حظ وجاءت حرفة الأدب
أقوت منازل مالي حين وطنها	مخيماً سقط الأعلام والكُتب

وقال يعقوب الخريمي: البسيط:

ما ازددت في أدبي حرفاً أسر به	إلا تزيدت حرفاً تحته شوم
-------------------------------	--------------------------

كذلك من يدّعي حُذَقاً بصنْعته

أنّي توجهَ فيها فهوَ محرومٌ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز، وزعم أنه مات حَتَفَ أنفه، قال عليّ بن محمد بن بسام: البسيط:

لله دركٌ من مَيّتٍ بمَضِيعةٍ

ناهيكَ في العلم والأدب والحسبِ

ما فيه لوّ ولا لَيْتٌ فينقصُهُ

وإنما أدركته حرفة الأدب

قال ابن الرومي: الكامل:

يا ليت أهل البيتِ إذ حُرِموا

عُصِمُوا من الشهوات والفتنِ

لكنهم حُرِموا وما عُصِموا

فقلوبهم مَرَضَى الحزنِ

وهم أطبُّ على بليّتهم

من غيرهم بمضاضة الشجنِ

وقال جعفر بن محمد: إن الله وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء، ويعلموا أن الدنيا لا يُنالُ ما فيها بعقل ولا حيلة، ألا إن كسب المال بالخطّ، وحفظه بالعقل.

قال إبراهيم بن سيار النظام: الذهب لئيم؛ لأنّ الشكل يصير إلى شكّله، وهو عند اللئام أكثر منه عند الكرام. قال المتنبي - وأخذ هذا المعنى: الوافر:

وشبهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه

وأشبهنا بدنيانا الطغام

وكان النظام له نظر بوجوه التصرف، وكان السلطان يصفه بالكثير، وكان محظوظاً؛ فإذا اجتمع له مال حبسَ لنفسه بُلغة، وفرّق الباقي في أبواب المعروف؛ فقليل له في ذلك، فقال: من حقّ المال عليّ أن أطلبه من معدنه، وأصيب به للفرصة عند أهله؛ ومن حقّي عليه أن يقيني سوء نفسه، ويصون عرّضي بابتداله، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به؛ ألا ترى ذا الغنى؛ ما أدوم نَصبه، وأقلّ راحته، وآخر من ماله خطّه، وأشد من الأيام حذرّه، وأغرى الدهر بثلّيه ونقصه، ثم هو بين سلطان يرعاه، وذوي حقوق يسبّونه وأكفاء ينافسونه، وولد يريدون فرّاقه، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذمّ، ومن الولد الملال، وذو البلغة قنّع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم من المخدور، ورضي بالكفاف فتكتّبه الحقوق.

أدوات الوراق

قال الصولي: أنشدني محمد بن أحمد بن إسحاق: السريع:

أدْمَى البُكا جَفَنِيَّ والمآقي

فظَلَّتْ ذا همٍّ وذا اختِرَاقٍ

ما إن أرى في الأرض والآفاقِ

أدْنَى ولا أشقى من الوراقِ

إذا أتى في القميص الأخلاق

رأيته مطيرة العشاق

يفرح بالأقلام والأوراق

كفرحة الجندي بالأرزاق

وقال بعض الوراقين: المتقارب:

إذا كنت بالليل لا أكتب

وطول النهار أنا ألعب

فطوراً يبطنني مأكلاً

وطوراً يبطنني مشرباً

فإن دام هذا على ما أرى

فبيتي أول ما يخرب

وقيل لورّاق: ما تشتهي؟ فقال: قلماً مشاقاً، وحبراً برّاقاً، وجلوداً رقاقاً. وكل امرئ فأمّنيته على ما يطابق غريزته، ويوافق نحيزته.

الذات

قال عليّ بن جبلة العكوك: قال الأصمعي: سئل امرؤ القيس: ما أطيب لذات الدنيا؟ قال: بيضاء رغوبة، بالحسن مكبوبة، وبالشحم مكروبة، بالمسك مشبوبة.

وسئل الأعشى عن ذلك، فقال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية.

وسئل طرفة عن ذلك، فقال: مركب وطّي، وثوب بهي، ومطعم شهّي.

قال العكوك: فحدثت بهذا أبا دلف، فقال: الخفيف:

أطيب الطيبات قتل الأعادي

واختيال على متون الجياد

ورسول يأبى بوعد حبيب

وحبيب يأتي بلا ميعاد

وحدثت بذلك حميداً الطوسي، فقال: الطويل:

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى

وجدك، لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبق العاذلات بشربة

كُميت، متى ما تعلّ بالماء تزبد

وكرّى إذا نادى المضاف مُحنباً

كسيد الغضا ذي السورة المتورد

وتقصير يوم الدجن مُعجب

ببهكنة تحت الخباء المعمد

الشعر لطرفة بن العبد.

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله، فقال: ما أدري ما قالوا، ولكني أقول: المنسرح:

فَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ

مَنْ قَرَّ عَيْنَا بِعَيْشِهِ نَفْعُهُ

فكان أسدهم.

والبيت للأضبط بن قريع، أنشده أبو العباس ثعلب، قال: وبلغني أن هذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدهرٍ طويل: المنسرح:

لكل ضيق من الأمور سَعَةٌ

والصبحُ والمُسَيُّ لا فلاحَ مَعَهُ

ما بالُ مَنْ سره مصائبُك لا

يَمْلِكُ شيئاً من أمرِهِ وَرَعَةٌ

أُدودٌ عن حَوْضِهِ وَيَذْفَعُنِي

يا قوم، مَنْ عاذِرِي من الخَدَعَةِ؟

حتى إذا ما انجلتْ عَمَائِتُهُ

أَقْبَلَ يَلْحَى وَغِيهَ فَجَعَهُ

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ

ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهُ

ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ

ويلبسُ الثوبَ غيرُ من قَطَعَهُ

فَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ

مَنْ قَرَّ عَيْنَا بِعَيْشِهِ نَفْعُهُ

وصلِ حبالَ البعيدِ إِنْ وَصَلَ الـ

حَبْلٌ، وَأَقْصِ القريبَ إِنْ قَطَعَهُ

ولا تُعَادِ الفقيرَ عَلكَ أَنْ

تَرَكَعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهُ

هذا البيت شبيه بما روي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كثيراً ما يستنشدني قول اليهودي: الكامل:

ارفعُ ضعيفَكَ لا يَحْرُ بكَ ضعِفُهُ

يوماً فتُدْرِكُهُ العواقبُ قد نما

يجزِيكَ، أو يُثْنِي عَلَيْكَ، وإِنْ مَنْ

أُثْنَى عَلَيْكَ بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فأنشده، فيقول: إني فطن لها.

وكان الأضبط سيد بني سعد، وكانوا يشتمونه ويؤذونه، فانتقل إلى حي من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم، فقال: حيثما أوجّه ألق سعداً! فذهبت مثلاً. قال الطائي: الطويل:

فلا تَحْسِبَنَّ هَذَا لَهَا الْغَدْرُ وَحَدَهَا

سَجِيَّةُ نَفْسٍ، كل غَانِيَةٍ هِنْدُ

وصف المحبرة والقلم

قال بعضُ الكتاب يصف محبرة: الكامل:

ولقد مَضِيَّتْ إِلَى المَحْدَثِ أَنْفَاءً

وإذا بحضْرَتِهِ ظَبَاءٌ رُتِعُ

وإذا ظَبَاءُ الْإِنْسِ تَكْتَبُ كل ما
يتجاذبون الحَبْرَ من ملمومةٍ
من خالص البَلُورِ غَيْرَ لَوْنِهَا
إِنْ نَكَّسُوهَا لم تَسِلْ، ومليكها
ومتى أَمَالُوهَا لِرَشْفِ رُضَابِهَا
وكأنها قَلْبِي يَضِنُ بِسِرِّهِ
يَمْتَاخُهَا ماضِي الشَّبَاةِ مُذَلِّقُ
رِجْلَاهُ رَأْسٌ عِنْدَهُ لَكِنَّهُ
وكأنه والحَبْرُ يَخْضِبُ رَأْسَهُ
لَمْ لَا أُلَاحِظْهُ بَعَيْنِ جَلَالَةٍ

يُمَلَّى، وتحفظ ما يقول وتَسْمَعُ
بيضاءَ تَحْمِلُهَا عَلَاتِقُ أَرْبَعُ
فكأنها سَبَجٌ يَلُوحُ وَيَلْمَعُ
فيما حَوْتُهُ عاجلاً، لا يَطْمَعُ
أداه فُوهَا وهي لا تَتَمَنَعُ
أبدًا، ويكْتُمُ كل ما يُسْتَوْدَعُ
يجري بِمِيزَانِ الطَّرُوسِ فَيُسْرِعُ
يلقاه برد حَفَاةِ سَاعَةٍ يَقْطَعُ
شيخٌ تَوَصَّلَ خَرِيدَةٍ يَتَصَنَّعُ
وبه إلى الله الصَّحَائِفُ تَرْفَعُ؟

وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:

مِحْبَرَةٌ جَادَ لِي بِهَا قَمَرٌ
جوهرة خَصَنِي بجوهرةٍ
بيضاء والحَبْرُ فِي قَرَارَاتِهَا
مثل بياضِ العيون زَيْنُهُ
كأنما حَبْرُهَا إِذَا نَثَرَتْ
كحلُّ مَرَّتِهِ الْعُيُونُ مِنْ مُقَلِّ
خَرَسَاءَ لَكِنَّهَا تَكُونُ لَنَا

مُسْتَحْسَنُ الْخَلْقِ مَرْتَضَى الْخَلْقِ
ناطَتْ لَهُ الْمَكْرَمَاتُ فِي عُنْقِي
أَسْوَدٌ كَالْمِسْكِ جِدٍ مُنْفَتِقِ
مُسَوَّدٌ مَا شَابَهُ مِنَ الْحَدَقِ
أَقْلَامُنَا ظَلَّهُ عَلَى الْوَرَقِ
نُجْلٌ فَأَوْفَتْ بِهِ عَلَى يَفَقِّ
عَوْنًا عَلَى عِلْمِ أَفْصَحِ النُّطْقِ

وقال عبد الله بن أحمد: القلم أمره، ما لم يَكْتَحِلْ بِإِثْمِ الدَّوَاةِ.

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحُوَ حرف فلم يجد منديلاً، فمحاها بِكُمِّهِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فقال:
المالُ فَرَعٌ، والعلمُ أَصْلٌ، وإنما بَلَّغْنَا هذه الحال، واعتقدنا هذه الأموال بهذا القلم والمداد، ثم قال: الوافر:

إِذَا مَا الْفِكْرُ أَضْمَرَ حُسْنَ لَفْظٍ
وَوَشَّاهُ وَنَمَنَّمَهُ مَسَدًّ
رَأَيْتُ حُلَى الْبَيَانِ مَنْوَرَاتٍ

وَأَدَّاهُ الضَّمِيرُ إِلَى الْعَيَانِ
فَصِيحٌ بِالْمَقَالِ وَبِاللِّسَانِ
تَضَاكُكُ بَيْنَهَا صَوَرِ الْمَعَانِي

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف آلات الكتابة والدوي والأقلام.

الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد، وللخاطر زناد، غدير لا يرده غير الأفهام، ولا يمتح بغير أرشبة الأقلام، دواة أنيقة الصنعة، رشيقة الصبغة، مسكية الجلد، كأفورية الحلية. غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سحبُ البلاغة من قراره. دواة تداوي مرض عفاتك، وتدوي قلوب عداتك، على مرفع يؤذن بدوام رفعتك، وارتفاع النوائب عن ساحتك، ومداد كسواد العين، وسويداء القلب، وجناح الغراب، ولعاب الليل، وألوان دهم الخيل. وهذا من قول ابن الرومي: الرجز:

حبر أبي حفص لعاب الليل كأنه ألوان دهم الخيل

قال العاصر: مداد ناسب خافية الغراب، واستعار لونه من شرخ الشباب، وأقلام جمّة الحاسن، بعيدة من المطاعن، تعاصي الكاسي، وتمانع الغامر القاسي. أنابيب ناسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحديد في لمعائها؛ كأنها الأميال استواءً، والآجال مضاءً، بطيئة الحفى، قوية القوى، لا يشظيها القط، ولا يتشعب بها الخط. أقلام بحرية موشية الليط، رائقة التخطيط. قلم معتدل الكعوب، طويل الأنبوب، باسق الفروع، رويّ ينبوع، هو أولى باليد من البنان، وأخفى للسّر من اللسان. هو للأنامل مطية، وعلى الكتابة معونة مرضية. نعم العدة القلم: يقلم أظافر الدهر، ويملك الأقاليم بالنهي والأمر، إن أردت كان مسجوناً لا يملّ الإسار، وإن شئت كان جواداً جارياً لا يعرف العثار، لا ينبو إذا نبت الصفاح، ولا يحجم إذا أحجمت الرماح.

قال أبو الفتح كشاجم، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً: الرجز:

جسمي من اللهو وآلات الطرب ومن عتاد وثرأ ونشب
ومن مدام ومثان تصطحب وهمّة طمّاحة إلى الرتب
مجالس مصونة من الريب معمورة من كل علم وأدب
تكاد من حرّ الحديث تلتهب شعراً وأخباراً ونحواً يقتضب
ولغة تجمع ألفاظ العرب وفقراً كالوعد في قلب المحب
أو كتاتي الرزق من غير طلب أجل، وحسبي من ذوي تنتخب
محليات بلجين وذهب محبرة يزهي بها الحبر الألب
مثقوبة آذانها، وفي الثقب مثل شنوف الخرد البيض العرب
تضمن قطراً للكتب عشب أسود يجري بمعان كالشهب

لا تَتَضَبُّ الحكمةُ إِلَّا إنْ نَضَبَ
كالقُرْطِ في الجيدِ تَدَلَّى فاضطَرَبَ
كأنه يودع نَبلاً من قَصَبِ
لا تَضْحَكُ الأوراقُ حَتَّى يَنْتَحِبَ
رمياً متى أَقْصِدَ به السَّمْتُ أَصِبَ
غَضَبِي على الأَقْلَامِ من غيرِ سَبَبِ
وإنما تَرْضِيكَ في ذاك الغَضَبِ
والظَّرْفُ في الآلاتِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ
نِيطَتْ إلى يُسْرَى يَدِي بِسَبَبِ
تصحبها، والأخواتُ تُصْطَحَبُ
لم يَعْلُها ريشٌ ولم تَحْمِلْ عَقَبُ
تَرْمِي بها يميناي أَعْرَاضَ الكُتُبِ
ومُدِّية كالعَضْبِ ما مَسَّ القَصَبُ
تَسْطُو بها في كل حينٍ وتَنْثَبُ
فتلك آلاتي، وآلاتي تُحَبُّ
لا سيما ما كان مِنْهَا لِلأَدَبِ

من أخبار الخليفة المأمون

تظلم رجلٌ إلى المأمون من عامل له، فقال: يا أمير المؤمنين، ما ترك لي فِضةً إِلَّا فضَّها، ولا ذهباً إِلَّا ذهب به، ولا غَلَّةً إِلَّا غَلَّها، ولا ضَيْعَةً إِلَّا أضاعها، ولا عِلْقاً إِلَّا عَلَقَّه، ولا عَرَضاً إِلَّا عَرَضَ له، ولا ماشيةً إِلَّا امْتَشَّها، ولا جليلاً إِلَّا أَجْلَاه، ولا دقيقاً إِلَّا أَدَقَّه، فعجب من فصاحته وقضى حاجته.
قال عمرو بن سعد بن سلم: كانت علي نوبة أنوبها في حرس المأمون، فكنتُ في نوبتي ليلةً فخرج متفقداً مَنْ حَضَرَ، فعرفته ولم يعرفني، فقال: من أنت؟ قلت: عَمْرُو، عمرك الله، ابن سعيد، أسعدك الله، ابن سلم، سلمك الله. فقال: تَكَلُّؤُنَا منذ الليلة. قلت: الله يَكَلُّوكُ قَبْلِي، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.
فقال المأمون: الرجز:

إِنْ أَخَاكَ الْحَقُّ مِنْ يَسْعَى مَعَكَ
وَمَنْ إِذَا صَرَفَ زَمَانَ صَدَعَكَ
وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
بَدَدَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ

وصف الروض والزهور

وقال علي بن العباس الرومي: الكامل:

خَجَلْتُ خُدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَقْضِيلِهِ
لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمُرْدُ لَوْنِهِ
إِلَّا وَنَاحِلُهُ الْفَضِيلَةُ عَانِدُ
بَيْنَ الرِّيَاضِ طَرِيفُهُ وَالتَّلَادُ
خَجَلْتُ خُدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَقْضِيلِهِ
لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمُرْدُ لَوْنِهِ
إِلَّا وَنَاحِلُهُ الْفَضِيلَةُ عَانِدُ
بَيْنَ الرِّيَاضِ طَرِيفُهُ وَالتَّلَادُ

وكان ابنُ الرومي متعصباً للنجس، كثير الذمّ للورد، وكتب إلى أبي الحسن ابن المسيب: الكامل:

أَدْرِكْ ثِقَاتَكَ إِنَّهُمْ وَقَعُوا
فَهُمْ بِحَالٍ لَوْ بَصُرْتَ بِهَا
رِيحَانُهُمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرٍّ
فِي رَوْضَةٍ شَتَوِيَةٍ رَضَعَتْ
وَالْيَوْمُ مَدْجُونٌ فَحَرَّتُهُ
ظَلَّتْ تَسَامِرُنَا وَقَدْ بَعَثَتْ
فِي نَرْجِسٍ مَعَهُ ابْنَةُ الْعِنَبِ
سَبَحَتْ مِنْ عُجْبٍ وَمِنْ عَجَبِ
وَشَرَابُهُمْ دُرٌّ عَلَى ذَهَبِ
دَرَّ الْحَيَا حَلْبًا عَلَى حَلَبِ
فِيهِ بِمُطْلَعٍ وَمُحْتَجَبِ
ضَوْءًا يَلَاحِظُنَا بِلَا لَهَبِ

وكان كِسْرَى أنو شروان مُسْتَهْتَرًا بالنجس، وكان يقول: هو ياقوت أصفر، بين در أبيض، على زمرّد أخضر، نقله بعض المحدثين فقال: الطويل:

وَيَاقُوتَةُ صَفَرَاءَ فِي رَأْسِ دُرَّةٍ
كَمَثَلِ بَهِي الدَّرِّ عَقْدَ نِظَامِهَا
كَأَنَّ بَقَايَا الطَّلِّ فِي جَنَابَتِهَا
مَرْكَبَةٌ فِي قَائِمٍ مِنْ زَبَرْجَدِ
نَثِيرُ فَرْنَدٍ قَدْ أَطَافَ بِعَسْجَدِ
بَقِيَّةُ دَمْعٍ فَوْقَ خَدِّ مُورَدِ

رجع إلى ابن الرومي: الكامل:

فَصَلُّ الْقَضِيَّةِ أَنْ هَذَا قَائِدُ
شَتَانٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ: هَذَا مُوعِدُ
فَإِذَا احْتَفَظْتَ بِهِ فَأَمْتَعُ صَاحِبِ
يُنْهِى النَّدِيمَ عَنِ الْقُبِيحِ بِلَحْظِهِ
اطْلُبْ بِعَقْلِكَ فِي الْمَلَاكِ سَمِيهِ
وَالْوَرْدُ إِنْ فَتَشْتَ فَرْدٌ فِي اسْمِهِ
هَذِي النُّجُومُ هِيَ الَّتِي رَبَّيْنَاهَا
زَهَرَ الرَّبِيعُ وَأَنْ هَذَا طَارِدُ
بِتَصَرُّمِ الدُّنْيَا، وَهَذَا وَاعِدُ
بِحَيَاتِهِ، لَوْ أَنَّ حَيَا خَالِدُ
وَعَلَى الْمُدَامَةِ وَالسَّمَاعِ يُسَاعِدُ
أَبْدًا؛ فَإِنَّكَ لَا مُحَالَةَ وَاجِدُ
مَا فِي الْمَلَاكِ لَهُ سَمِي وَاحِدُ
بَحْيَا السَّحَابِ كَمَا يَرْبِي الْوَالِدُ

فَانْظُرْ إِلَى الْوَلَدَيْنِ، مَنْ أَدْنَاهُمَا
أَيْنَ الْخُدُودُ مِنَ الْعَيُونِ نَفَاسَةً
شَبَهًا بَوَالِدِهِ فَذَلِكَ الْمَاجِدُ
وَرِيَاسَةً، لَوْلَا الْقِيَاسُ الْفَاسِدُ؟

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم في هذا المذهب، وذهبوا إلى تفضيل الورد؛ فما دائره وما استطاعوه.

قال أحمد بن يونس الكاتب راداً عليه: الكامل:

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجِساً بنواظِرِ	دُعِجْ، تَنْبِهْ إِنَّ فَهْمَكَ راقِدِ
إِنَّ الْقِيَّاسَ لَمَنْ يَصْحُ قِيَّاسُهُ،	بين العيون وبينه متباعد
والوردُ أصدقُ للحدودِ حكايةً	فعلامَ تَجَدَّدَ فَضْلُهُ يا جاحد؟
ملكٍ قصيرٍ عُمْرُهُ مُسْتَأْهِلِ	تخليده، لو أَنَّ حياً خالد
إِنْ قُلْتَ إِنَّ الوردَ فَردٌ في اسمه	ما في الملاح له سميَّ واحد
فالشمسُ تُفَرِّدُ بِاسْمِها والمشتري	والبدر يُشْرِكُ في اسمه وعطارد
أو قُلْتَ إِنَّ كواكبا ربينها	بحياً السحابِ كما يُرَبِّي الوالد
قلنا أحقهما بِطَبْعِ أبيه في الـ	جَدَّوَي هو الزَّاكِي النجيبُ الرَّاشِدُ
زُهرُ النجومِ تَرُوقُنا بِضِيائِها	ولها منافعُ جمَّةٌ وعَوائِدُ
وكذلك الوردُ الْأَنْيَقُ يَرُوقُنا	وله فضائلُ جَمَّةٌ وفَوائِدُ
وخليفه إِنْ غاب نابٌ بِنَفْعِهِ	وبنفحه أبداً مقيمٌ راكِدُ
إِنْ كُنْتَ تُتَكَرَّرُ ما ذَكَرْنَا بعدما	وضَحَّتْ عليه دلائلُ وشواهِدُ
انظُرْ إلى المصنَّفِ لوناَ منهما	وافطنْ فما يَصْفَرُ إِلَّا الحاسِدُ

نَبذ من النظم والنثر

في صفات النَّورِ والزَّهرِ

قال علي بن الجهم: البسيط:

لم يضحك الوردُ إِلَّا حينَ أعجَبَهُ	حُسْنُ الرِّياضِ وصوتِ الطائرِ الغَرِدِ
بدا فأبَدَتْ لنا الدنيا محاسنَها	وراحتِ الرَّاحُ في أثوابِها الجُدِّ
وقابلته يدُ المُشْتاقِ تَسْنِدُهُ	إلى الترائبِ والأحشاءِ والكَبْدِ
كَأَنَّ فيه شفاءً من صَبَابَتِهِ	أو مانعاً جَفَنَ عَيْنِيهِ مِنَ السُّهْدِ

بين النديمين والخلين مَصْرَعُهُ
وسيره من يد موصولة بيد
ما قابلت طلعة الرياح طلعتة
إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة
تشفي القلوب من الأوصاب والكمد
لا عذب الله إلا من يعذبه
بمسمع بارد أو صاحب نكد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد ويقول: هو درّ أبيض، وياقوت أحمر، على كراسي زبرجد أخضر،
توسطه شذور من ذهب أصفر، له رقة الخمر، ونفحات العطر، أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال:
البسيط:

كأنهن يواقيت يطيف بها
زُمُرد وسطه شذر من الذهب
فأشرب على منظر مستظرف حسن
من خمرة مزة كالجمر في اللهب

وقال يزيد المهلي: أحب المتوكل أن ينادمه الحسين بن الضحاك، الخليع البصري، وأن يرى ما بقي من
ظرفه وشهوته لما كان عليه، فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى سكر، وقال لخدمته شفيع: اسقه؛
فسقاه وحيّاه بوردة، وكانت على شفيع أثواب، فمدّ الحسين يده إلى درع شفيع، فقال المتوكل: أتخمش
غلامي بحضرتي؟ كيف لو خلّوت به! ما أحوجك يا حسين إلى أدب! وكان المتوكل غمز شفيعاً على
العبث به، فقال حسين: سيدي، أريد دواة وقرطاساً؛ فأمر له بهما، فكتب: الطويل:

وكالوردة البيضاء حيا بأحمر
من الورد يسعى قي قراطق كالورد
له عبّات عند كل تحية
بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة
تذكرني ما قد نسيت من العهد

سقى الله عيشاً لم أنم فيه ليلة
من الدهر إلا من حبيب على وعد

ثم دفع الرقعة إلى شفيع، وقال: ادفعها إلى مولاك؛ فلما قرأها استملحها، وقال: لو كان شفيع ممن تجوز
هبتّه لو هبّته لك، ولكن بجياي يا شفيع إلا كنت ساقية بقيّة يومه! وأمر له بمال كثير حمل معه لما انصرف.
قال يزيد المهلي: فصرت إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام، فقلت: ويحك! أتدري ما
صنعت؟ قال: لا أدع عادي بشيء، وقد قلت بعدك: مجزوء الخفيف:

لا رأى عطفة الأحب
بّة من لا يصرح
أصغر الساقيين أش
كل عندي وأملح

نَحْ طَوْرًا وَيَبْرَحْ

بِ بَنُورٍ يُوشِحُ

لَوْ تَرَاهُ كَالظَّبِيِّ يَسْ

خَلَّتْ غُصْنًا عَلَى كَثَبِ

قال الصولي: وكأن الأول من أبيات الحسن من قول العباس بن الأحنف: الكامل:

بِيضَاءَ بَيْنَ شَقَائِقِ النِّعْمَانِ

مِثْلَ اهْتِرَازِ نَوَاعِمِ الْأَغْصَانِ

بِيضَاءَ فِي حُمْرِ الثِّيَابِ كَوَرْدَةٍ

تَهْتَرُّ فِي غَيْدِ الشَّبَابِ إِذَا مَشَتْ

قال أبو بكر الصولي: كان عند الخصي الوزير ظي داجن ربيب في داره، فعمد إلى نيلوفر فأكله، فاستملح

الغزال وأنسه، وقال: لو عمل في أنس هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمل العمل على معنى مليح! فبلغ

الخبر أبا عبد الله إبراهيم ابن محمد بن عرفة نفطويه، فبادر لئلا يُسبَق، وعمل أبياتاً أولها: الطويل:

تَتَوَشُّ لَدَى أَفْنَانِهَا وَرَقًا خَضْرًا

جَرَتْ ظَبْيَةٌ غَنَاءَ تَرَعَى بِرَوْضَةٍ

في أبيات غير طائلة، فاستبرد ما أتى، قال الصولي: فقلت: الطويل:

تَرَاهُ عَلَى اللَّذَاتِ أَفْضَلَ مُسْعِدِ

تَرُوقُ كُثُوبِ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ

عَلَى قُضْبٍ مَخْضَرَةٍ كَالزَّبْرِجَدِ

كَمَا عَبَّثَتْ عَيْنٌ بِخَدِّ مَوْرَدِ

تَرُوحُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْتَدِي

فَفَضَّلَ عَنْهُ الْحَسَنُ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

كَيَاقُوتَةٍ زَرْقَاءَ فِي رَأْسِ عَسْجَدِ

حَكَى طَرْفٌ مِنْ أَهْوَى وَحُسْنِ الْمُقَلَّدِ

وَلَمْ يَسْتَعِنْ فِي أَخْذِهِ الْكَاسَ بِالْيَدِ

وَنَيْلُوفَرٍ يَحْكِي لَنَا الْمِسْكَ طَيْبُهُ

قَدْ اجْتَنَى خَوْفَ الْحَادِثَاتِ بَجْنَةٍ

تُرَكَّبُ كَالْكَاسَاتِ فِي ذَهَبِيَّةٍ

وَالْبَسَ ثَوْبًا يَفْضُلُ اللَّحْظَ حُسْنُهُ

غَذَتْهُ أَهَاضِيبُ السَّمَاءِ بِدَرِّهَا

تَلْبَسُ لِلْأَنْوَارِ ثَوْبَ سَمَائِهِ

وَفِي وَسْطِهِ مِنْهُ أَصْفَرَارٌ يَزِينُهُ

أَطَافَ بِهِ أَحْوَى الْمَدَامِعِ شَادِنِ

كَمَا أَخَذَ الظَّمَانُ بِالْفَمِ كَاسَهُ

وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع: الكامل:

نَاهِيكَ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَ مُحْجَلِ

خَلَعًا فَنَيْنَ مُمَسِّكٍ وَمُصْنَدِلِ

بِمُورِدٍ وَمُعْصِفِرٍ وَمُكْحَلِ

مِنْ شُرْبِ كَاسَاتِ الْعَيُونِ الْهَطَلِ

فَهَدَّتْ لِعَيْنِ النَّاضِرِ الْمُتَأَمِّلِ

يَوْمَ أَتَاكَ بَوَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ

خَلَعَ الْغَمَامُ عَلَى اخْضِرَارِ سَمَائِهِ

وَكَسَا الرَّبِّي حُلًّا تَخَالَفَ شَكْلَهَا

وَتَمَايَلَتْ فِيهِ قَدُودُ غُصُونِهِ

وَعَلَا عَلَى الْأَشْجَارِ قَطْرُ سَمَائِهَا

يَحْكِي قَبَابُ زُمُرِدٍ قَدْ كُلَّتْ
وَأَتَاكَ نَوْرُ الْبَاقِلَاءِ كَأَنَّمَا
الْوَرْدُ يُخْجَلُ كُلُّ نَوْرٍ طَالَعِ
وَحَكَى بِيَاضُ الطَّلَعِ فِي كَافُورِهِ
فكَأَنَّمَا الدُّنْيَا عَرُوسٌ أَقْبَلَتْ
فَاشْرَبَ مُعَصَّرَةَ الْقَمِيصِ سُلَافَةً
وقال أبو الفتح البستي: الكامل:

بِمَنْظَمٍ مِنْ لَوْلُوٍّ وَمُفْصَلٍ
يَرْتَوِ إِلَيْكَ بَعِينَ أَكْحَلِ أَقْبَلِ
وَتَرَاهُ مُنْتَقِباً بِحُمْرَةِ مُخْجَلِ
وَجْهَ الْخَرِيدَةِ فِي الْخَمَارِ الصَّنْدَلِي
فِي كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَلَابِسِ تَجْتَلِي
مِنْ صَنْعَةِ الْبَرْدَانِ أَوْ قُطْرَبَلِ

يَوْمٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الْأَيَّامِ
فَالْبَرْقُ يُخْفِقُ مِثْلَ قَلْبٍ هَائِمٍ

مَزَجَ السَّحَابُ ضِيَاءَهُ بِظِلَامِ
وَالْغَيْمُ يَبْكِي مِثْلَ طَرْفٍ هَامٍ

وَكَأَنَّ وَجْهَ الْأَرْضِ خَدٌّ مَتِيمٍ
فَاطْلُبْ لِيَوْمِكَ أَرْبَعًا: هُنَّ الْمُنَى
وَجْهَ الْحَبِيبِ، وَمَنْظَرًا مُسْتَشْرِقًا،
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الكامل:

وُصِّلَتْ سِجَامُ دُمُوعِهِ بِسِجَامِ
وَبَهَنَ تَصْفُو لَذَّةَ الْأَيَّامِ
وَمَغْنِيَا غَرْدًا، وَكَأْسَ مُدَامِ
تَرَكَتْهُ مَجْرُوحًا بِلَا إِغْمَادِ
ضَحِكَتْ لِسَاجِمِهَا رَبَّى الْأَنْجَادِ
تُرْهِى بِثَوْبِي حُمْرَةَ وَسَوَادِ
لِمُصَابِهِ كَشْفِيقَةِ الْأَوْلَادِ
وَسَوَادُ كُسُوتِهَا لِبَاسُ حَدَادِ

سَلَّ الرَّبِيعُ عَلَى الشِّتَاءِ صَوَارِمًا
وَبَكَتْ لَهُ عَيْنُ السَّمَاءِ بِأَدْمُعِ
وَبَدَتْ شَقَائِقُهَا خِلَالَ رِيَاضِهَا
فَكَأَنَّمَا بَنَتْ الشِّتَاءَ تَوَجَّعَتْ
فَقَنُوءُ حُفْرَتِهَا خِضَابُ نَجِيعِهِ

وقال: الطويل:

كَعَقْدِ عَتَبٍ بَيْنَ سِمَطٍ لَّالِي
خُدُودَ عِذَارِي نَقَطَتْ بِغَوَالِي

تَصَوَّغْنَا لَنَا كَفُّ الرَّبِيعِ حَدَائِقًا
وَفِيهِنَّ أَنْوَارُ الشَّقَائِقِ قَدْ حَكَتْ

وقال: المتقارب

غِلَالَةَ دَادٍ وَثَوْبًا أَحَمَّ

كَأَنَّ الشَّقَائِقَ إِذْ أَبْرَزَتْ

قطاع من الجمر مشبوبة

فأطرافها لمع من حمم

وقال في حديقة ريجان: الكامل:

أعددت مُحْتَقلاً ليوم فَرَاعِي

روضاً غداً إنسانَ عَيْنِ الباعِي

روض يروضُ هموم قلبي حُسْنُهُ

فيه لكأس الأُنسِ أيّ مَسَاغٍ

فإذ بدتْ قَضْبَانُ رِيحَانٍ به

حيث بمثلِ سلاسلِ الأَصْدَاغِ

وقال في النرجس: المجتث:

أهلاً بنرجس رَوْضٍ

يُزْهِى بحسنٍ وطِيبٍ

يَرْنُو بعَيْنِي غزال

على قَضِيبٍ رَطِيبٍ

وفيه مَغْنَى خَفِيٍّ

يرينه للقلوبِ

تَصْحِيفُهُ إِنَّ نَسَقَتَ الـ

حُرُوفَ بَرٍّ حَبِيبِ

وقال: الطويل:

وما ضمَّ شَمَلَ الأُنسِ يوماً كَنَرَجِسٍ

يقومُ بعُذْرِ اللّهُوِ عن خَالِعِ العُذْرِ

فأحداقه أحداق تَبَرٍّ، وساقه

كقائمة ساقٍ في غَلَاثِلِهِ الخُضْرِ

وقال البحتري: الطويل:

سَقَى الغَيْثُ أَكْنَافَ اللّوى من محلّةٍ

إلى الحِقْفِ من رَمَلِ اللّوى المتقاودِ

ولا زال مخضر من الروض يانع

عليه بِمَحْمَرٍّ من النورِ جاسِدِ

شقائِقُ يَحْمِلُنَ النَّدَى فكأنه

دموع التصابي في خدودِ الخرائدِ

ومن لؤلؤ في الأقحوان منظمٍ

ومن نَكَتِ مُصْفَرّة كالفَرَائِدِ

كأن جَنَى الحوذانِ في رَوْنَقِ الضحى

دنائيرُ تَبَرٍّ من تُوَامِ وفارِدِ

إذا راوحتها مُزَنّة بَكَرَتِ لها

شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصِدِ

رباع تردّت بالرياض مَجُودّةٌ

بكل جديد الماء عَذْبِ المِوَارِدِ

كأن يد الفتح بن خاقانَ أَقْبَلَتْ

تَلْيِها بتلك البارقاتِ الرّوَاعِدِ

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَوِيه: قال لي البحتري وقد اجتمعنا على حلوة عند المبرد وسَلَكُنَا

مسلكاً من المذاكرة: أشعرت أبي سبقت الناس كلّهم إلى قولي: الطويل:

شقائقُ يَحْمِلْنَ النَّدىَ فكأنَّهُ

دموعُ التصابي في خُدودِ الخرائدِ

كَأَنَّ يَدَ الْفَتْحِ بنِ خاقانٍ أَقْبَلَتْ

تَلْيِها بِتلكِ الْبارِقَاتِ الرَّوَاعِدِ

هكذا أنشد، فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه، وقال: ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرطبة، والعبارة العذبة، لأحدٍ تقدّمك ولا تأخّر عنك. فاعتزّته أريحيةً جرّهما رداء العُجب؛ فكأنه أعجبي ما يُعجب الناس من مراجعة القول؛ فقلت: يا أبا عبادة، لم تسبق إلى هذا، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله: الكامل:

عَذَبَ الْفِرَاقُ لَنَا قُبَيْلَ وَدَاعِنَا

ثم اجترعناه كسمّ نافع

وَكأنما أَثَرُ الدَّموعِ بِخَدِّها

طَلَّ تَساقُطَ فوق وَرْدٍ يانِعٍ

وشركك فيه صديقنا أبو العباس الناشئ بما أنشدنيه آنفاً: المتقارب:

بَكَتْ لِلْفِرَاقِ وَقَدْ راعَنِي

بِكاءُ الحبيبِ لِبُعْدِ الدِّيارِ

كَأَنَّ الدَّموعَ على خَدِّها

بَقِيَّةُ طَلٍّ على جُلنارِ

وما أساء علي بن جريح، بل أحسن في زيادته عليك بقوله: المنسرح:

لو كُنْتُ يَوْمَ الْوداعِ شاهِدًا

وَهنَّ يُطْفِئْنَ غَلَّةَ الْوَجْدِ

لَمْ تَرَ إِلَّا دَموعَ باكِيةٍ

تَسْفَحُ مِنْ مُقْلَةٍ على خَدٍّ

كَأَنَّ تلكَ الدَّموعِ قَطْرُ نَدَى

يَقْطُرُ مِنْ نَرَجِسٍ على وَرْدٍ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله: الكامل:

مِنْ كُلِّ زَاهِرَةٍ تَرْقِرُقُ بِالنَّدَى

فكَأَنَّها عَيْنٌ إِلَيْهِ تَحْدَرُ

تَبْدُو وَيَحْجِبُها الْجَمِيمُ كَأَنَّها

عَذراءُ تَبْدُو تارةً وَتَخْفَرُ

خَلَقَ أَطْلَ مِنْ الرِّبيعِ كَأَنَّه

خَلَقَ الْإِمَامَ وَهَدِيَهُ الْمَتَنَشِّرُ

فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدَلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ

وَمِنْ الرِّبيعِ الْغَضِ سَرَحَ فِي يَزْهَرِ

يُنْسِي الرِّبيعَ وما يَروِضُ جودَهُ

أَبداً على مَرِّ اللَّيالي يُذَكِّرُ

قال: فشق ذلك عليه، وحلّ حبّوته ونهض، فكان آخر عهدي بمؤانسته وغلظ ذلك على محمد بن يزيد، وقدح ذلك في حالي عنده.

وقال البحرري يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي: الطويل:

أَلَسْتَ تَرَى مَدَّ الْفُرَاتِ كَأَنَّهُ
وما ذاك من عاداته غير أنه
وقد نبه النوروزُ في غَبَشِ الدُّجَى
يُفْتَحُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ
ومن شجرٍ رَدَّ الرَّبِيعَ لِبَاسُهُ
أَحْلَ فَأَبْدَى لِلْعَيُونِ بَشَاشَةً
فما يمنع الراح التي أنتَ خِلُها
وما زلتَ خِلاً لِلنَّدَامَى إِذَا اغْتَدَوْا
تَكَرَّمْتَ مِنْ قَبْلِ الْكُؤُوسِ عَلَيْهِمْ

وقال آخر: البسيط:

جبال شَرَوْرَى جِنْنَ فِي الْبَحْرِ عُمَا
رَأَى شِيمَةً مِنْ جَارِهِ فَتَعَلَّمَا
أَوَائِلَ وَرَدَ كُنْ بِالْأَمْسِ نُومَا
يَبِثُ حَدِيثًا بَيْنَهُنَّ مُكْتَمَا
عليه كما نَشَرْتَ بُرْدًا مُنْمَمَا
وكان قَذَى لِلْعَيْنِ مَذْ كان مُحَرَّمَا
وما يَمْنَعُ الْأُوتَارَ أَنْ تَتَرَنَّمَا
وراحوا بُدُورًا يَسْتَحِثُّونَ أَنْجُمَا
فما اسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثَنَّ فِيكَ تَكْرَمَا

حَيْثُكَ عَنَا شَمَالَ طَافَ طَائِفُهَا
هَبْتَ سَحِيرًا فَنَاجَى الْغُصْنَ صَاحِبَهُ
وَرُقٌّ تَغْنَى عَلَى خُضِرٍ مُهْدَلَةٍ
تَخَالُ طَائِرُهَا نَشْوَانَ مِنْ طَرَبٍ

بَجَنَّةٍ فَجَرَتْ رَاحًا وَرِيحَانَا
سِرًّا بِهَا وَتَدَاعَى الطَّيْرُ إِعْلَانَا
تَسْمُو بِهَا وَتَمْسُ الْأَرْضُ أَحْيَانَا
وَالْغُصْنَ مِنْ هَزَّةٍ عِطْفِيهِ نَشْوَانَا

ولابن المعتز في أرجوزته البستانية التي ذم فيها الصَّبَّوحَ صفة جامعة، إذا قال رجز:

أَمَا تَرَى الْبُسْتَانَ كَيْفَ نَوَّرَا
وَضَحَكَ الْوَرْدَ إِلَى الشَّقَائِقِ
فِي رَوْضَةٍ كَحَلِيَةِ الْعُرُوسِ
وَيَاسْمِينَ فِي ذُرَى الْأَغْصَانِ
وَالسَّرُومِ مِثْلَ قَصَبِ الزَّبَرَجَدِ
عَلَى رِيَاضٍ وَثْرَى نَدِيٍّ
وَفَرَجِ الْخَشْخَاشِ جَبِيًّا وَفَتَقِ
أَوْ مِثْلَ أَقْدَاحِ مِنَ الْبُلُورِ
وَبَعْضُهُ عُرْيَانٌ مِنْ أَثْوَابِهِ

وَنَشَرَ الْمَنْشُورَ بُرْدًا أَصْفَرَا
وَاعْتَقَ الْوَرْدَ اعْتِنَاقَ الْوَامِقِ
وَوَحْدَمَ كَهَامَةِ الطَّاوُوسِ
مَنْظَمَ كَقِطْعِ الْعَفْيَانِ
قَدْ اسْتَمَدَ الْمَاءَ مِنْ تُرْبٍ نَدِ
وَجَدُولِ كَالْبَرْدِ الْحَلِيِّ
كَأَنَّهُ مَصَاحِفُ بَيْضِ الْوَرَقِ
تَخَالُهَا تَجَسَّمَتْ مِنْ نُورِ
قَدْ خَجَلَ الْيَابِسُ مِنْ أَصْحَابِهِ

تُبَصِّرُهُ عِنْدَ انْتِشَارِ الْوَرْدِ
وَالسَّوْسَنِ الْأَزَارَ مَنشُورِ الْحُلِّ
نُورَ فِي حَاشِيَتِي بُسْتَانِهِ

مِثْلَ الدَّبَابِيْسِ بِأَيْدِي الْجِنْدِ
كَقَطَنِ قَدْ مَسَّهُ بَعْضُ بَلَلٍ
وَدَخَلَ الْمِيْدَانَ فِي ضَمَانِهِ

وَقَدْ بَدَتْ فِيهِ ثَمَارُ الْكَنْكَرِ
وَحَلَّقَ الْبَهَارُ بَيْنَ الْأَسِ
خِلَالَ شَيْخٍ مِثْلَ شَيْبِ النَّصْفِ
وَجَلَنَارٍ كَاخْمِرَارِ الْوَرْدِ
وَالْأَقْحَوَانَ كَالثَنَائِيَا الْغُرِّ

كَأَنَّهَا جَمَاجِمٌ مِنْ عَنَبٍ
جَمِجَمَةٌ كَهَامَةِ الشَّمْسِ
وَجَوْهَرٍ مِنْ زَهْرٍ مُخْتَلَفٍ
أَوْ مِثْلَ أَعْرَافِ دِيوَكِ الْهِنْدِ
قَدْ صُقِّلَتْ أَنْوَارُهُ بِالْقَطْرِ

وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ كَشَاجِمُ: الْوَافِرُ:

وَرَوْضٍ عَنْ صَنِيعِ الْغَيْثِ رَاضٍ
إِذَا مَا الْقَطَرُ أَسْعَدَهُ صَبُوحاً
يُعِيرُ الرِّيحَ بِالنَّفَاحَاتِ رِيحاً
كَأَنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِراً عَلَيْهِ
كَأَنَّ غَصُونَهُ سَقِيَتْ رَحِيْقاً
كَأَنَّ شَقَائِقَ النِّعْمَانِ فِيهِ
يُذَكِّرُنِي بِنَفْسِجِهِ بَقَايَا

كَمَا رَضِيَ الصَّدِيقُ عَنِ الصَّدِيقِ
أَتَمَّ نَهَ الصَّنِيعَةِ فِي الْغُبُوقِ
كَأَنَّ ثَرَاهِ مِنْ مِسْكِ فَتِيقِ
بَقَايَا الدَّمْعِ فِي خَدِّ مَشُوقِ
فَمَالَتْ مِثْلَ شُرَابِ الرَّحِيقِ
مُحَضَّرَةً شَقَائِقُ مِنْ عَقِيقِ
صَنِيعِ اللَّطَمِ فِي الْخَدِّ الرَّقِيقِ

وَقَالَ: الرَّحْزُ:

غَيْثٌ أَتَانَا مُؤْذِنًا بِالْخَفْضِ
دَنَا فَاخْلَنَاهُ دُورَيْنِ الْأَرْضِ
إِلْفًا إِلَى إِلْفٍ بِسِرٍّ يُفْضِي
فَالْأَرْضُ تُجَلَّى بِالنَّبَاتِ الْغَضِّ
مِنْ سَوْسَنِ أَحْوَى وَوَرْدِ غَضِّ
وَأَقْحَوَانٍ كَاللَّجَيْنِ الْمَحْضِ

مُتَّصِلِ الْوَبْلِ سَرِيعِ الرِّكْضِ
مُتَّصِلًا بِطَوْلِهِ وَالْعَرَضِ
ثُمَّ سَمَا كَاللُّوْلُو الْمَرْفُضِ
فِي حَلِيْهَا الْمُحْمَرِّ وَالْمَبْيِضِ
مِثْلَ الْخُدُودِ نُقِشَتْ بِالْعَضِّ
وَنَرَجِسٍ ذَاكِي النَّسِيمِ بَضِّ

ترنو فيغشاها الكرى فتغضي

مثل العيون رنقت للغمض

جملة من هذا النوع لأهل العصر

قال أبو فراس الحمداني: مجزوء الرجز أو مجزوء السريع:

على أعالي شجرة

وجلنار مشرق

أحمره وأصفره

كان في رؤوسه

في خرقة معصفرة

قراصة من ذهب

وقال: الطويل:

بأنواع حلي فوق أثوابه الخضري

ويوم جلا فيه الربيع رياضه

فضول ذيول الغانيات من الأزري

كان ذيول الجلنار مطلة

وقال أبو القاسم بن هاني، يصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها: الرجز:

كانها بين الغصون الخضري

وبنت أيك كالشباب النضري

قد خففته لقوة بوكر

جنان باز أو جنان صقري

أو نبئت في تربة من جمر

كأنما سحت دما من نحري

لو كف عنها الدهر صرف الدهر

أو سقيت بجذول من خمري

تفتت عن مثل اللثا الحمر

جاءت كمثل النهدي فوق الصدر

في مثل طعم الوصل بعد الهجري

ولهم في هذا المعنى

روضة رفعت حواشيها، وتأنق واشيها. روضة كالعقود المنظمة، على البرود المنممة. روضة قد راضتها كف المطر، ودبجت أیدی الندى. أخرجت الأرض أسرارها، وأظهرت يد الغيث آثارها، وأبدت الرياض أزهارها. الرياض كالعرائس في حليها وزخارفها، والقيان في وشيها ومطارفها، بأسطة زرايتها وأنماطها، ناشرة حبراتها ورياطها، زاهية بحمرائها وصفرائها، تائهة بعيداتها وغدراها، كأنما احتفلت لوفد، أو هي من حبيب على وعد. روضة قد تضيوعت بالأرج الطيب أرجاؤها، وتبرجت في ظلل الغمام صحراؤها،

وتَنافَحَتْ بِنَوَافِحِ الْمِسْكِ أَنْوَارُهَا، وَتَعَارَضَتْ بِغَرَائِبِ النُّطْقِ أَطْيَارُهَا. بَسْتَانُ رَقٍّ نَوْرُهُ النُّضِيدُ، وَرَاقُ عَوْدُهُ
النُّضِيرُ. بَسْتَانُ عَوْدُهُ خَضِرٌ، وَنَوْرُهُ نَضِيرٌ، وَيُنْعَهُ خَضِيبُكَ، وَمَاؤُهُ خَصِيرٌ. بَسْتَانُ أَرْضُهُ لِلْبَقْلِ وَالرِّيحَانِ،
وَسَمَاؤُهُ لِلنَّخْلِ وَالرِّمَانِ. بَسْتَانُ أَهْمَارُهُ مَفْرُوزَةٌ بِالْأَزْهَارِ، وَأَشْجَارُهُ مُوقَرَّةٌ بِالشَّامِرِ. أَشْجَارُ كَأَنَّ الْحَوْرَ
أَعَارَتْهَا قُدُودُهَا، وَكَسَتْهَا بُرُودُهَا، وَحَلَّتْهَا عَقُودُهَا. الرِّبْعُ شَبَابُ الزَّمَانِ، وَمَقْدَمَةُ الْوَرْدِ وَالرِّيحَانِ. زَمَنُ
الْوَرْدِ مَرْمُوقٌ، كَأَنَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ مَسْرُوقٌ. قَدْ وَرَدَ كِتَابُ الْوَرْدِ، بِإِقْبَالِهِ إِلَى أَهْلِ الْوَدْدِ، إِذَا وَرَدَ الْوَرْدُ، صَدَرَ
الْبَرْدُ. مَرْحَبًا بِإِشْرَافِ الزَّهْرِ، فِي أَطْرَافِ الدَّهْرِ، وَأَنْشِدِ: الطَّوِيلُ:

سَقَى اللَّهُ وَرْدًا صَارَ خَدًّا رَبِيعِنَا فَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ لَيْسَ لَهُ خَدٌّ

كَأَنَّ عَيْنَ النَّرْجِسِ عَيْنٌ، وَوَرَقَهُ وَرَقٌ، النَّرْجِسُ نَزْهَةُ الطَّرْفِ، وَطَرَفُ الطَّرْفِ، وَغَدَاءُ الرُّوحِ، شَقَائِقُ
كَتِيجَانِ الْعَقِيقِ عَلَى رُؤُوسِ الزَّنُوجِ، كَأَنَّهُمَا أَصْدَاغُ الْمِسْكِ عَلَى الْوَجَنَاتِ الْمُرْدَّةِ. شَقَائِقُ كَالزَّنُوجِ
تَجَارَحَتْ وَسَالَتْ دِمَاؤُهَا، وَضَعُفَتْ فَسَالَتْ دِمَاؤُهَا. كَانَ الشَّقِيقُ جَائِمًا مِنْ عَقِيقٍ أَحْمَرَ، مُلِئَتْ قَرَارُتُهُ بِمِسْكِ
أَذْفَرِ. الْأَرْضُ زَمْرَدَةٌ، وَالْأَشْجَارُ وَشْيٌ، وَالْمَاءُ سَيُوفٌ، وَالطُّيُورُ قِيَمَانٌ. قَدْ غَرَدَتْ خُطْبَاءُ الْأَطْيَارِ، عَلَى
مَنَابِرِ الْأَنْوَارِ وَالْأَزْهَارِ. إِذَا صَدَحَ الْحَمَامُ، صَدَعَ الْحِمَامُ قَلْبَ الْمُسْتَهَامِ. انْظُرْ إِلَى طَرَبِ الْأَشْجَارِ لَغْنَاءِ
الْأَطْيَارِ. لَيْسَ لِلْبَلَابِلِ كَغْنَاءِ الْبَلَابِلِ، وَخَمَرُ بَابِلِ.

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو

في وصف أيام الربيع

يَوْمُ سَمَاؤُهُ فَاحِشِيَّةٌ، وَأَرْضُهُ طَاوُسِيَّةٌ. يَوْمٌ جَلَالِيْبُ غَيُومِهِ رَوَاقٌ، وَأَرْدِيَّةُ نَسِيمِهِ رِقَاقٌ. يَوْمٌ مُمَسِّكُ السَّمَاءِ،
مُعَصْفَرُ الْهَوَاءِ، مُعْتَبِرُ الرُّوْضِ، مُصَنَّدَلُ الْمَاءِ. يَوْمٌ زَرٌّ عَلَيْهِ حَيْبُ الضُّبَابِ، وَانْسَحَبَ فِيهِ ذَيْلُ السَّحَابِ.
يَوْمُ سَمَاؤُهُ كَالْخَزْرِ الْأَذْكَنِ، وَأَرْضُهُ كَالِدِيَاكِ الْأَخْضَرِ: الْخَفِيفُ:

شَادَنُ يَرْتَعِي الْقُلُوبَ بِبَغْدَا دَوْلَا يَرْتَعِي الْكَلَا بِالنَّبَاكِ

أَقْبَلْتُ وَالرَّبِيعُ يَخْتَالُ فِي الرُّوْ ضُ وَفِي الْمَزْنِ ذِي الْحَيَا التَّجَاكِ

ذُو سَمَاءٍ كَأَذْكَنِ الْخَزْرِ قَدْ غِي مَتَّ وَأَرْضٍ كَأَخْضَرَ الدِّيَاكِ

فَتَجَلَّى عَنْ كُلِّ مَا يَتَمَنَّى مَوْعِدُ الْكَدْخَدَاةِ وَالْهِيَلَاكِ

فَظَلَلْنَا فِي نَزْهَتَيْنِ وَفِي حُسْنٍ نَيْنَ بَيْنَ الْأَرْمَالِ وَالْأَهْزَاكِ

بِفَتَاةٍ تَسْرُنَا فِي الْمَثَانِي وَعَجُوزٍ تَسْرُنَا فِي الزُّجَاكِ

أخذت من رؤوس قوم كرام

نارها عند أرجل الأعلاج

يوم حسن الشمائل، مُمتع المخايل، سَجَسَجُ الهواء، مونق الأرجاء. يوم تَبَسَمَ عنه الربيع، وتبرَّجَ عنه
الروض المريع. يوم كأنَّ سماءه مَأْتَمٌ تتباكى، وأرضه عُرُوسٌ تتجلَّى. يوم مشهَّر الأوصاف، أغرَّ الأطراف.
يوم يُعْفِي فيه النُّور وَيَنْتَبِه، وتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب، وتَعْتَنِقُ الغصون وتَفْتَرِق، ويوشى الغيم وينسكب.
يوم غاب نَحْسُهُ وهَوَى، وطلع سَعْدُهُ واعتلى، والزمان ساقطة جماره، مُفْعَمَةٌ أنهاره، مُونِقَةٌ أشجاره،
مغرَّدة أطياره. نحن في غبَّ سماء، قد أفلعت بعد الارتواء، وأقشعت عند الاستغناء، فالنبت خَضِلٌ ممطر،
والنَّعْجُ ساكن محصور. يوم جُوه طاروِيٍّ، وأرضه طاوِسيٍّ. يوم دَجَّنَه عاكف، وقَطَرُهُ وَاكِف. يومٌ من
أعياد العُمر، وأعيانِ الدَّهرِ.

ولهم في تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة:
غَيْثٌ مشبَّه بكَفِّكَ، واعتداله مُضَاهٍ لخلقك، وزَهْرُهُ مُوازٍ لنَشْرِكَ، كأنما استعار حلَّه من شيمتك، وحَلِيَّه
من سَجِيَّتِكَ، واقتبس أنواره من محاسن أيامك، وأمطاره من جُودِكَ وإنعامِكَ. قدم الربيع مُتَسَبِّباً إلى
خلقك، مُكْتَسِباً محاسنَه من طَبْعِكَ، متوشِّحاً بأنوار لَفْظِكَ، متوضِّحاً بآثار لسانِكَ وَيَدِكَ. أنا في بُسْتان
أذْكَرَنِي ورْدُهُ المفتوح بخلقك، وجذوله السابح بطَبْعِكَ، وزَهْرُهُ الحَنِيُّ بقربك. أنا في بستان كأنه من
شمائلك سرق، ومن خُلُقِكَ خلق، وقد قابلتني أشجارٌ تَمَّامِل فتذكُرني تَبْرِيح الأحاب، إذا تداولتهم أيدي
الشراب، وأنهار كأنها من يدك تَسِيل، ومن راحتك تَفِيض. أنا على حافة حَوْضٍ أزرق كصفاء مودتي
لك، ورقَّةٌ قولِي في عَتَبِكَ.
وقال ابن عون الكاتب: الخفيف:

جاءنا الصوم في الربيع فهلا اخ

تار ربعا من سائر الأرباع

وكان الربيع في الصوم عقد

فوق نخر غطاءه فضل قناع

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته في يوم شك: مجزوء الكامل:

هو يوم شك يا عل

ي وبشرة مذ كان يحذر

والجو خلَّته ممس

كة ومطرَقه معنبر

والماء فضيَّ القمي

يص وطيلسان الأرض أخضر

نبت يصعد زهرة

في الروض قطر ندى تحدر

ولنا فضيلات تكو

ن ليوما قوتا مقدر

ومدامة صفراء أد

رك عمرها كسرى وقيصر

فَانشَطْ لَنَا لِنَحْتَ مِنْ

كَاسَاتِنَا مَا كَانَ أَكْبَرَ

أَوْ لَا فَإِنَّكَ جَاهِلٌ

إِنْ قُلْتَ إِنَّكَ سَوْفَ تَعْذُرُ

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل همدان: كتابي - أطال الله بقاءك - عن شهر رمضان، عرفنا الله بركة مقدّمه، ويمنّ مُختتمه، وخصك بتقصير أيامه، وإتمام صيامه وقيامه؛ فهو - وإن عظمت بركته - ثقیلاً حركته، وإن جل قدره بعيد قعره، وإن عمت رأفته، طويل مسافته، وإن حسنت قريته، شديد صحبته، وإن كبرت حرمة كثير حشمته. وإن سرنا مُبتداه فلن يسوءنا منتهاه فإن حسن وجهه فليس يقبح قفاه، وما أحسنه في القدال، وأشبه إدباره بالإقبال، جعل الله قدومه سبب ترحاله، وبذره فداء هلاله، وأمدّ فلكه تحريكاً، بتقضي مدته وشيكاً، وأظهر هلاله نحيفاً، ليزف إلى اللذات زفيفاً، وعفا الله عن مزح يكرهه، ومُجونٍ يُسخطه.

عول البديع في هذا الكلام على قول أبي الفضل بن العميد في رسالة له في مثل ذلك: أسأل الله أن يعرفني بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته؛ وأرغب إليه في أن يقرب على الفلك دوره، ويقصره سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرتة، ويزيل بركة الطول عن ساعاته، ويرد عليّ غرة شوال، فهي أسنى الغرّ عندي، وأقرأها لعيني؛ ويطلع بدره، ويريني الأيدي متطلبة هلاله ببشر، ويسمعني النعي لشهر رمضان، ويعرض عليّ هلاله أخفى من السحر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأبلى من أسير المهجر، وأستغفر الله جل وجهه مما قلت إن كرهه، وأستغفیه من توفيقی لما يذمه، وأسأله صفحاً يُفيضه، وعفواً يوسعّه، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

من أخبار المأمون والأمين

قال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي أخلاق المخلوع. قال: كان واسع الصدر، ضيق الأدب، يبيح من نفسه ما تأنفه همم الأحرار، ولا يُصغي إلى نصيحة، ولا يقبل مشورة، يستبد برأيه، ويصبر سوء عاقبته، فلا يردعه ذلك عما يهيم به. قال: فكيف كانت حروبُه؟ قال: كان يجمعُ الكتاب بالتبذير، ويفرقها بسوء التدبير. فقال المأمون: لذلك حلّ ما حل به؛ أما والله لو ذاق لذات النصائح، واختار مشورات الرجال، وملك نفسه عن شهواتها، لما ظفر به.

ولما عقد الرشيد البيعة للأمين وهو أصغر من المأمون لأجل أمه زبيدة، وكلام أحيها عيسى بن جعفر، وقدمه على المأمون، جعل يرى فضل عقله فيندم على ذلك، فقال: الطويل:

غُلِبْتُ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا

لَقَدْ بَانَ وَجْهُ الرَّأْيِ لِي غَيْرَ أَنَّنِي

تَوَزَّعَ حَتَّى صَارَ نَهَبًا مَقْسَمًا

فَكَيْفَ يُرَدُّ الدَّرَ فِي الضَّرَعِ بَعْدَمَا

وَأَنْ يُنْقَضَ الْحَبْلُ الَّذِي كَانَ أَبْرِمًا

أَخَافُ التَّوَاءَ الْأَمْرَ بَعْدَ اسْتَوَائِهِ

قال أسد بن يزيد بن مزيد: بعث إليَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنباري، قال: فأَتَيْتُهُ وهو في صَحْنِ داره، وفي يده رُقْعَةٌ قد غَضِبَ لما نظرَ فيها، وهو يقول: ينامُ نَوْمَ الظَّرْبَانِ، وينتبه انتباهَ الذئبِ، هَمَّتْهُ بَطْنُهُ، ولذته فَرَجُهُ، لا يفكر في زوالِ نعمة، ولا يتروى في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد شمر له عبدُ اللَّهِ عن ساقه، وفوَّقَ له أسدُ سهامه، يرميه على بعدِ الدار بالحثفِ النافذ والموت القاصد، قد عى له المنايا على متونِ الخيل، وناطَ له البلاءُ في أسنةِ الرماح وشِفَارِ السيوف، ثم تمثَّلَ بشعرِ البعِث: الطويل:

إِلَى أَنْ يَرَى الْإِصْبَاحَ لَا يَتَلَعَثُ

يَقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنَ خَاقَانَ لَيْلَهُ

نَحِيلُ، وَأُضْحِي فِي النَّعِيمِ أَصْمَمُ

فَيَصْبَحُ فِي طَوْلِ الطَّرَادِ وَجِسْمِهِ

أُمِيَّةٌ فِي الرِّزْقِ الَّذِي اللَّهُ يَقْسِمُ

فَشَتَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ خَالِدٍ

ثم قال: يا أبا الحارث، أنا وأنت نجري إلى غاية إن قصرنا عنها ذمنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعبة من أصل، إن قَوِيَ قوينا، وإن ضَعُفَ ضعفنا؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأمة الوَكْفَاء: يشاور النساء، ويعتمد على الرؤيا، وقد أمكن أهل اللهو والخسارة من سَمْعِهِ؛ فهم يُمَثُّونَهُ الظَّفَر، وَيَعْدُونَهُ عَوَاقِبَ الْأَيَّامِ؛ والهلاك إليه أسرع من السيل إلى قِيَعَانِ الرَّمْلِ؛ وقد خَشِيتُ أَنْ نَهْلِكَ بِهَلَاكِهِ، وَنَعْطَبَ بَعْطِيهِ، وَأَنْتَ فَارَسُ الْعَرَبِ وَابْنُ فَارِسِهَا، وَقَدْ فَزَعَ إِلَيْكَ فِي لِقَاءِ طَاهِرٍ لِأَمْرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا صِدْقُ طَاعَتِكَ، وَفَضْلُ نَصِيحَتِكَ؛ والثاني يُمَنِّ نَفْسِيكَ، وَشِدَّةُ بَأْسِكَ؛ وقد أمرني أن أبسطَ يدك، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة، ومفتاح البركة؛ فبادر ما تريد، وعجل النهضة، فإني أرجو أن يوليَّيك الله شرف هذا الفتح، ويلم بك شَعَثَ الخلافة.

فقلت له: أنا لطاعتك وطاعة أمير المؤمنين مقدم، ولما وهنَ عدو كما مؤثر؛ غير أن المحارب لا يفتتح أمره بتقصير، وإنما ملاك أمره الجنود، والجنود لا تكون بلا مال، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائب إلى قوم لم يجدوا عليه، ومتى سمت من أقدر به الانتفاع له بالرضا بدون ما أخذ غيره ممن لم يكن عنده غناء ولا معونة، لم ينتظم بذلك التدبير، وأحتاج لأصحابي رزق سنة قَبْضًا، وحملاً إلى ألف فرس لحمل من لا أرْتَضِي فرسه، وإلى مال أستظهر به، لا أَلَامَ على وَضْعِهِ حيث رَأَيْت. فقال: شاوِرَ أمير المؤمنين؛ فأدخلني عليه، فلم تدرُ بيبي وبينه كلمتان حتى أمر بحبسي. ويروى أن الأمين لما أَعْيَتْهُ مكاييدُ طاهر قال: الوافر:

تَزُولُ الرَّاسِيَّاتُ وَمَا يَزُولُ

بُلَيْتٌ بِأَشْجَعِ الثَّقَلَيْنِ نَفْسًا

له مع كل ذي بدن رقيبٌ
فليس بمغفلٍ أمراً عناهُ
يشاهده ويَعْلَمُ ما يقول
إذا ما الأمرُ ضيَّعه الجهولُ

وفي الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء: البسيط:

كم من مقيم ببغداد على طَمَعٍ
البدْر إن نفروا، والبحر إن رَغِبوا
لولا رجاء أبي العباس لم يَقم
والحصن إن رهبوا، والسيف ذو النقم

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع: ما مدحنا شاعر بشعر أحب إلينا من قول أبي نواس:
الكامل:

ساد الملوك ثلاثة ما منهمُ
عباس عباسٌ إذا احتدم الوَغَى
إن حصلوا إلا أعز قريع
وعلت بعبّاس الكريم فروع
ساد الربيع وساد فضل بعده
والفضل فضلٌ والربيع ربيع

وقيل للعتابي: أمدحت أحداً؟ قال: لا، وليس لي على ذلك قدرة، ف قيل له: فقد مدحت الربيع، فقال:
ذلك ليوم يستحق فيه المدح، فقلت: الطويل:

ومعضلة قام الربيع إزاءها
بمكة والمنصور رهن كما أتى
ليَعْمِد ركن الدين لما تهَدَّما
أخا الوحي داعي ربّه فتقدّما

غداة عداة الدين شاحذة المدى
إليه وغولُ الحربِ فاعرةُ فما

مبايعة المهدي

وكان المنصور قد توفي بمكة وهو حاجٌ في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، فأخذ الربيع للمهدي البيعة على الناس، وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حي، وأدخل إليه قوماً فرأوه من بعيد وقد جلّله بثوب، وأقعد إلى جنبه من يحرك يده وكأنه يومئ بها إليهم، فلم يشكوا في حياته؛ فما خالف أحد؛ فشكره المهدي لذلك، وفي ذلك يقول أبو نواس في مدحه الفضل بن الربيع: مجزوء الرجز:

أبوك جلى عن مضرٍ
والحرب تقري وتذرٍ
يوم الرواقِ المحتضرٍ
لما رأى الأمر اقمطرٍ
قام كريما فانتصرٍ
كهزة العصب الذكرٍ

وأنت تَقْتَأَف الأثر

ما مس من شيء هَبَر

من ذي خجولٍ وغرر

وقال أيضاً: مجزوء الكامل:

فضل الخميس على العشرِ

آلَ الربيع فضلتُم

قاس النّمد إلى البحور

من قاس غيركم بكم

ل من الكثير بني الكثير

أين القليل بنو القلي

ت من الأهلة والبدورِ

أين النجوم التالية

ة نازل الخطب الكبير

قوم كفّوا أيام مك

فة وهي شاسعه النصير

وتداركوا نصر الخلا

هوت الرواسي من ثبير

لولا مقامهم بها

ومن قول أبي نواس: من قاصر غيركم بكم... البيت، أخذ أبو الطيب المتنبي: الطويل:

ومن قصد البحر استقل السواقياً

قواصد كافر توارك غيره

إلى عصره إلا نرجي التلاقياً

فتى ما سرينا في ظهور خدودنا

أفضل الأوقات لمخاطبة الملوك

وقال الفضل بن الربيع: من كلم الملوك في الحاجات في غير وقت الكلام لم يظفر بحاجته، وضاع كلامه، وما أشبههم في ذلك إلا بأوقات الصلوات لا تُقبل الصلاة إلا فيها، ومن أراد خطاب الملوك في شيء فليُرصد الوقت الذي يصلح في مثله ذكر ما أراد، ويسبب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذكره بعقبه. وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به: يا فضل، أكان في حقي عليك، وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك، أن تثلبني وتسبني، وتخرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا حفته العيوب، وقبّحت الذنوب؛ فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك، فأنت كما قال الشاعر فيك: الطويل:

من العافر لم يعرف من الناس مجرماً

صفوح عن الأجرام حتى كأنه

إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماً

وليس يبالي أن يكون به الأذى

والشعر للحسن بن رجاء بن أبي الضحاك.

من أخبار المنصور

قال سعيد بن مسلم بن قتيبة: دعا المنصور بالربيع، فقال: سلمي ما تريد، فقد سكتَ حتى نطق، وخففت حتى ثقلت، وأقللت حتى أكثرت.

فقال: والله - أمير المؤمنين ما أرهب بخلك؛ ولا أستقصِر عُمرُك، ولا أستصغر فضلك، ولا أغتَنِم مالك؛ وإن يومي بفضلِكَ عَلَيَّ أحسن من أمسي، وغَدُك في تأميلي أحسن من يومي؛ ولو جاز أن يشكرَكَ مثلي بغير الخِدْمَةِ والمُنَاصَحَةِ لما سَبَقَنِي لذلك أحد.

قال: صدقت، علمي بهذا منك أحلكَ هذا المحل؛ فسَلَنِي ما شِئت، قال: أسألك أن تقرَّب عبدك الفضل، وتؤثره وتحبّه.

قال: يا ربيع، إنَّ الحب ليس بمال يُوهَب، ولا رُبَّة تُبَدَل، وإنما تؤكِّدُه الأسباب.

قال: فاجعل لي طريقاً إليه، بالتفضل عليه.

قال: صدقت، وقد وصلَّته بألف ألف درهم، ولم أصل بها أحداً غير عمومي، لتعلم ماله عندي، فيكون منه ما يَسْتَدْعِي به محبتي، ثم قال: فكيف سألت له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مفتاحُ كل خير، ومِغلاقُ كل شرٍّ، تُسْتَرُّ بها عندك عيوبُهُ، وتَصِيرُ حَسَنَاتِ ذنوبه.

قال: صدقت وأتيت بما أردت في بابه.

أخذ قوله: خففت حتى ثقلت أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات: الطويل:

على أن إفراط الحياء استمالني إليك، ولم أعدل بعرضي معدلاً
فتقلَّت بالتخفيف عنك، وبعضهم يخفف في الحاجات حتى يُثَقِّلَا

من أخبار الرشيد

ودخل سهل بن هارون على الرشيد، وهو يُضَاحِكُ المأمون، فقال: اللهم زدّه من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكونَ في كل يوم من أيامه مُرَبِّياً على أمسه، مقصراً عن غده.

فقال له الرشيد: يا سهل، من رَوَى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضحه، إذا رام أن يقولَ لم يُعْجزه القول.

فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحداً تقدّمني إلى هذا المعنى.

قال: بل أعشى همدانَ حيث يقول: الوافر:

رايتك أمس خيرَ بني لؤيٍّ وأنتَ اليوم خيرُ منك أمسٍ

وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضَعْفًا

كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدٍ شَمْسٍ

من نظم الفضل بن الربيع

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولي: مجزوء الكامل:

بِفَنَاءٍ مَعْمُورِ النَّوَاحِي	إِنِّي أَمْرٌ مِنْ هَاشِمٍ
وَأُولَى الْبَسَالَةِ وَالسَّمَاحِ	أَهْلُ الْهَدَى وَذَوِي التَّقَى
رِمَ فِي الْمَسَاءِ وَفِي الصَّبَاحِ	أَهْلُ الْمَعَالِمِ وَالْمَكَاتِ
فَةِ وَالْكَامِلِ بَرَعُمْ لَاحِي	أَهْلُ النَّبُوَّةِ وَالْخَلَائِقِ
دِ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْجِرَاحِ	يَتَأَلَّمُونَ مِنَ الصَّدُوءِ

من أخبار أبي العيناء

حَمَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَاقَانَ أَبَا الْعَيْنَاءِ عَلَى دَابَّةٍ زَعِمَ أَنَّهَا غَيْرُ فَارِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَعْلَمَ الْوَزِيرَ، أَعَزَّهُ اللَّهُ، أَنْ أَبَا عَلِيٍّ مُحَمَّدًا أَرَادَ أَنْ يَبْرِنِي فَعَقَنِي، وَأَنْ يُرَكِبَنِي فَأَرْجَلَنِي، أَمْرٌ لِي بِدَابَّةٍ تَقِفُ لِلتَّبَرَةِ، وَتَعُثُّ بِالْبَعْرَةِ، كَالْقَضِيبِ الْيَابِسِ عَجَفًا؛ وَكَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ دَنَفًا، قَدْ أَذْكَرَتِ الرِّوَاةُ عَذْرَةَ الْعَذْرِيِّ، وَالْمَجْنُونِ الْعَامِرِي، مُسَاعِدَ أَعْلَاهُ لِأَسْفَلِهِ، حُبَّاقَهُ مَقْرُونٍ بِسُئَالِهِ، فَلَوْ أَمْسَكَ لَتَرْجَيْتَ، وَلَوْ أَفْرَدَ لَتَعَزَّيْتُ، وَلَكِنَّهُ يَجْمَعُهُمَا فِي الطَّرِيقِ الْمَعْمُورِ، وَالْمَجْلِسِ الْمَشْهُورِ، كَأَنَّهُ خَطِيبٌ مُرْشِدٌ، أَوْ شَاعِرٌ مُنْشِدٌ، تَضَحَّكُ مِنْ فِعْلِهِ النِّسْوَانُ، وَتَتَنَاقَى مِنْ أَجْلِهِ الصَّبِيَّانُ؛ فَمَنْ صَائِحٌ يَصِيحُ: دَاوَهُ بِالطَّبَاشِيرِ، وَمَنْ قَائِلٌ يَقُولُ: نَوَّلَهُ الشَّعِيرِ، قَدْ حَفِظَ الْأَشْعَارَ، وَرَوَى الْأَخْبَارَ، وَلَحَقَ الْعُلَمَاءَ فِي الْأُمُصَارِ، فَلَوْ أَعِينَ بِنَطْقٍ؛ لَرَوَى بِحَقِّ وَصْدَقٍ، عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ، وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ؛ وَإِنَّمَا أَتَيْتُ مِنْ كَاتِبِهِ الْأَعْوَرِ، الَّذِي إِذَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَطَابَ وَأَكْثَرَ، وَإِنْ اخْتَارَ لغيرِهِ أَخْبَثَ وَأَنْزَرَ؛ فَإِنْ رَأَى الْوَزِيرَ أَنْ يُبَدِّلَنِي بِهِ، وَيُرِيحَنِي مِنْهُ بِمَرْكُوبٍ يُضْحِكُنِي كَمَا ضَحَكْتُ مِنْهُ، يَمْحُو بِحُسْنِهِ وَفَرَاهَتِهِ، مَا سَطَرَهُ الْعَيْبُ بِقُبْحِهِ وَدِمَامَتِهِ؛ وَلَسْتُ أَذْكَرُ أَمْرَ سَرَجِهِ وَلِجَامِهِ؛ فَإِنْ الْوَزِيرَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَسْلُبَ مَا يَهْدِيهِ، أَوْ يَنْقُضَ مَا يُمَضِّيهِ.

فَوَجَّهَ عبيد الله إليه برذونا من براذينه بِسَرَجِهِ وَلِجَامِهِ، ثُمَّ اجْتَمَعَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عبيد الله عِنْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ عبيد الله: شَكُوتُ دَابَّةِ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي الْآنَ أَنَّهُ يَشْتَرِيهِ مِنْكَ بِمِائَةِ دِينَارٍ، وَمَا هَذَا ثَمَنُهُ لَا يُشْتَكَى. فَقَالَ: أَعَزَّ اللَّهُ الْوَزِيرَ، لَوْ لَمْ كُذِّبْ مُسْتَزِيدًا، لَمْ أَنْصَرَفْ مُسْتَفِيدًا، وَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَكَمَا قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ.

"الآن حَصَّصَ الحق، أنا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَادِقِينَ". فضحك عبيدُ الله، وقال: حججتك الداحضة. تَمَلَّاحْتُكَ وَظَرَفْتُكَ أَبْلَغُ مِنْ حِجَّةِ غَيْرِكَ الْبَالِغَةِ.

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابي عن أبي العباس بن سابور إلى الحسين بن صبرة عن رقعة وردت منه في صفة حمل أهداه

وصلت رُقْعَتُكَ، فَفَضَضْتُهَا عَنْ خَطِّ مُشْرِقٍ، وَلَفْظِ مُونِقٍ، وَعِبَارَةِ مُصِيبَةٍ، وَمَعَانِي غَرِيبَةٍ، وَاتِّسَاعِ فِي الْبَلَاغَةِ يَعْجِزُ عَنْهُ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي كِتَابَتِهِ، وَقُسُ وَسَحْبَانِ فِي خُطَابَتِهِ؛ وَتَصَرَّفَ بَيْنَ جَدِّ أَمْضَى مِنَ الْقَدَرِ، وَهَزَلِ أَرْقَ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ، وَتَقَلَّبَ فِي وَجْهِ الْخُطَابِ، الْجَامِعِ لِلصَّوَابِ؛ إِلَّا أَنَّ الْفِعْلَ قَصَّرَ عَنِ الْقَوْلِ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ حَمَلًا، جَعَلْتَهُ بِصِفَتِكَ حَمَلًا، فَكَانَ الْمُعِيدِيَّ الَّذِي تَسْمَعُ بِهِ وَلَا أَنَّ تَرَاهُ. وَحَضَرَ فَرَأَيْتُ كَبْشًا مُتَقَادِمَ الْمِيلَادِ، مِنْ نِتَاجِ قَوْمٍ عَادَ، قَدْ أَفْنَتْهُ الدَّهَوْرُ، وَتَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ الْعَصُورُ، فَظَنَنْتُهُ أَحَدَ الزَّوْجِينَ اللَّذِينَ جَعَلَهُمَا نَوْعَ فِي سَفِينَتِهِ، وَحَفَظَ بَيْنَهُمَا جِنْسَ الْغَنَمِ لَذَرِيَّتِهِ؛ صَغَرَ عَنِ الْكِبَرِ، وَلَطُفَ عَنِ الْقَدَمِ، فَبَانَتْ دِمَامَتُهُ، وَتَقَاصَرَتْ قَامَتُهُ، وَعَادَ نَاحِلًا ضَيْلًا، بَالِيًا هَزِيلًا، بَادِيَ السَّقَامِ، عَارِي الْعِظَامِ، جَامِعًا لِلْمَعَايِبِ، مُشْتَمَلًا عَلَى الْمَثَالِبِ، يَعْجَبُ الْعَاقِلُ مِنْ حُلُولِ الْحَيَاةِ بِهِ، وَتَأْتِي الْحَرَكَةُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ عَظُمَ مَجْلَدُ وَصُوفِ مُلْبَدٍ، لَا تَجِدُ فَوْقَ عِظَامِهِ سَلْبًا، وَلَا تَلْقَى يَدَكَ مِنْهُ إِلَّا خَشْبًا، لَوْ أَلْقَيْتَ إِلَى السَّبْعِ لِأَبَاهُ، وَلَوْ طَرَحَ لِلذَّبِّ لِعَافَهُ وَقَلَاهُ، قَدْ طَالَ لِلْكَلا فَقْدُهُ، وَبَعْدَ الْمَرْعَى عَهْدُهُ، لَمْ يَرِ الْقَتْلَ إِلَّا نَائِمًا، وَلَا عَرَفَ الشَّعِيرَ إِلَّا حَالِمًا، وَقَدْ خَيْرْتَنِي بَيْنَ أَنْ أَقْتَنِيهِ فَيَكُونَ فِيهِ غِنَى الدَّهْرِ، أَوْ أَذْبَحَهُ فَيَكُونَ فِيهِ خِصْبُ الرَّحْلِ؛ فَمِلْتُ إِلَى اسْتِبْقَائِهِ لِمَا تَعْرِفُ مِنْ مَحَبَّتِي مِنَ التَّوْفِيرِ، وَرَغْبَتِي لِلتَّشْمِيرِ، وَجَمْعِي لِلْوَلَدِ، وَادِّخَارِي لَعَدِّ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مَسْتَمْتَعًا لِلْبَقَاءِ، وَلَا مَدْفَعًا لِلْفَنَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَنْثَى فَتَحْمِلَ، وَلَا بَقِيَّةً فَيَنْسُلَ، وَلَا بِصَحِيحٍ فَيَرْعَى، وَلَا بِسَلِيمٍ فَيَنْقَى؛ فَمِلْتُ إِلَى الثَّانِي مِنْ رَأْيَيْكَ، وَعَوَلْتُ عَلَى الْآخَرِ مِنْ قَوْلَيْكَ، وَقُلْتُ: أَذْبَحَهُ فَيَكُونَ وَظِيفَةً لِلْعِيَالِ، وَأَقِيمَهُ رَطْبًا مَقَامَ قَدِيدِ الْغَزَالِ، فَأَنْشِدُنِي وَقَدْ أَضْرِمْتَ النَّارَ، وَحُدَّتِ الشَّفَارُ، وَشَمَّرَ الْجَزَارُ:

الْبَسِيطُ:

أَعِذْهَا نَظَرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمَنَ شَحْمُهُ وَرَمَ

وقال: مَا الْفَائِدَةُ لَكَ فِي ذَبْحِي؟ وَأَنَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي إِلَّا نَفْسٌ خَافَتْ، وَمُقَلَّةٌ إِنْسَانَهَا بَاهَتْ: لَسْتُ بِذِي لَحْمٍ، فَأَصْلَحَ لِلْأَكْلِ؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ قَدْ أَكَلَ لَحْمِي، وَلَا جِلْدِي يَصْلَحُ لِلدَّبَاغِ، لِأَنَّ الْأَيَّامَ قَدْ مَزَقَتْ أَدْبَمِي، وَلَا لِي صَوْفٌ يَصْلَحُ لِلْغَزْلِ؛ لِأَنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ حَصَّتْ وَبَرِي، فَإِنْ أَرَدْتَنِي لِلْوَقُودِ فَكُفُّ بَعْرَ أَبْقَى مِنْ نَارِي، وَلَنْ تَنْفِي حَرَارَةَ جَهْرِي بِرِيحِ قَتَارِي، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَطْلُبْنِي بِذَحْلِ أَوْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ دَمٌ، فَوَجَدْتَهُ صَادِقًا فِي مَقَالَتِهِ،

ناصحاً في مشورته، ولم أعلم من أي أمرٍه أعجب؛ أمٍن مماطلته للدهر بالبقاء، أمٍ من صبره على الضرّ والأواء، أمٍ من قدرتك عليه جمع إعوازٍ مثله، أمٍ من تأهيلك الصديق به مع خسارة قدره؟ ويا ليت شعري إذ كنت - وإليك سوق الغنم، وأمرُك ينفذ في الضأن والمعز، وكلُّ كبشٍ سمينٍ وحملٍ بطينٍ مجلوبٍ إليك، مقصورٌ عليك - تقول فيه قولاً فله تُردّ، وتريده فلا تُصد، وكانت هديتك هذا الذي كأنه نَاشِر من القبور، أو قائم عند النفخ في الصور، فما كنت مُهدياً لو أنك رجل من عُرض الكتاب، كأبي وأبي الخطاب، ما كنت تهدي إلا كلباً أجرب، أو قرداً أحذب.

من نظم الحمدوني

وقال الحمدوني في شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذا: الكامل:

أُسعيدُ، قد أعطيتني أضحيةً	مكثتُ زماناً عندكم ما تطعم
نضوا تعاقرت الكلابُ بها وقد	شدوا عليها كي تموت فيؤلموا
فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم:	لا تهزؤوا بي وارحموني ترحموا
مرت على علفٍ فقامت لم ترم	عنه، وغنت والمدامع تسجم
وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي	متأخر عنه ولا مُتقدم

وقال أيضاً: البسيط:

أبا سعيد، لنا في شاتك العبرُ	جاءت وما إن لها بول ولا بحرُ
وكيف تبعرُ شاة عندكم مكثتُ	طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ
لو أنها أبصرت في نومها علفاً	غنت له ودموغ العين تتحدرُ:
يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها	إني ليفتني من وجهك النظرُ

وقال أيضاً: المنسرح:

شاة سعيد في أمرها عبرُ	لما أتتنا قد مسها الضرُ
وهي تغني من سوء حالتها	حسبي بما قد لقيت يا عمرُ
مرت بقطف خضر ينشرها	قومٌ فظنت بأنها خضرُ
فأقبلت نحوها لتأكلها	حتى إذا ما تبين الخبرُ
وأبدلتها الظنون من طمع	يأسا تغنت والدمع مُنحدرُ

كانوا بعيداً وكنت آملهم

حتى إذا ما تقربوا هجروا

وقال: مجزوء الخفيف:

لسعيد شؤيَّهة

سلها الضُر والعَجَفُ

قد تغنّت وأبصرت

رجلاً حاملاً عَلف:

بأبي مَنْ بكَّفه

برء ما بي من الدَنَفُ

فأتاها مطعماً

وأنته لتعتَلَفُ

فتولّى فأقبلت

تتغنى من الأسَف:

ليته لم يكن وقَفُ

عذب القلب وأنصرفُ

قال: وإذا قد جرت بعض تضمينات الحمدوني في هذا الموضع فأنا أذكر هنا قطعة من شعره في الطيلسان، وأنعطف في غير هذا الموضع إليها وأكرّ عليها؛ وكان أحمد بن حرب المهلبي من المتعمين عليه، والحسين إليه، وله فيه مدائح كثيرة، فوهب له طيلساناً أخضر لم يرّضه، قال أبو العباس المبرد: فأنشدنا فيه عشر مقطعات، فاستحلينا مذهبه فيها، فجعلها فوق الخمسين؛ فطارت كل مطّار، وسارت كل مسّار، فمنها: الخفيف:

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً

ملّ من صُحبة الزمان وصداً

فحسبنا نسج العناكب قد حا

ل إلى ضعف طيلسانك سداً

طال تردّاده إلى الرقو حتى

لو بعثناه وحده لتهدّى

وقال فيه أيضاً: البسيط:

يا طيلسان ابن حرب قد هممت بأن

تودي بجسمي كما أوّلَى بك الزمّن

ما فيك من ملبس يغني ولا ثمن

قد أوهنت حيلتي أركانك الوهن

فلو ترّاني لدى الرقاء مُرتبطاً

كأنني في يديهِ الدهر مُرتَهَن

أقول حين رآني الناس ألزّمه

كأنما لي في حانوته وطن

من كان يسأل عنا أين منزلنا

فالأقحوانة من منزل قمن

وقال: مجزوء الكامل:

قل لابن حرب طيلسا

نك قوم نوع منه أحدث

أفنى القرون ولم يزل

عمن مضى من قبل يُورث

وَإِذَا الْعَيُونُ لَحَظْنَه
يُودِي إِذَا لَمْ أَرْفُهُ
كَالْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيَّ

وقال: الكامل:

فَكَأَنَّهُ بِاللَّحْظِ يُحْرَثُ
فَإِذَا رَفَوْتُ فَلَيْسَ يَلْبَثُ
هَ الدَّهْرَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ

قُلْ لَابِنِ حَرْبِ طَيْلَسَانُكَ قَدْ
مُنْبِينٌ فِيهِ لِمُبْصِرِهِ
وَكَأَنَّهُ الْخَمْرُ الَّتِي وَصَفْتُ
فَإِذَا رَمَمْنَاهُ فَقِيلَ لَنَا:
مِثْلُ السَّقِيمِ بَرًّا فَرَاغَهُ

أَرْهَى قَوَايَ بِكَثْرَةِ الْغُرْمِ
آثَارُ رَفَوٍ أَوَائِلِ الْأُمَمِ
فِي يَا شَقِيقَ الرُّوحِ مِنْ حَكَمٍ
قَدْ صَحَّ، قَالَ لَهُ الْبَلَى: انْهَدِمِ
نَكْسَ فَأَسْلَمَهُ إِلَى سَقَمٍ
وَمِنْ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ

أَنشَدْتُ حِينَ طَغَى فَأَعْجَزَنِي
الْخَمْرُ الَّتِي وَصَفْتُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ: الْمَدِيدُ:

نِمْتُ عَنْ لَيْلَى وَلَمْ أَنْمِ
بِخِمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحِمِ
بَعْدَ أَنْ جَازَتْ مَدَى الْهَرَمِ
وَهِيَ تَلَوُ الدَّهْرَ فِي الْقَدَمِ
بَسْلَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ
ثُمَّ قَصْتُ قِصَّةَ الْأُمَمِ

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ
فَاسْقِنِي الْبَحْرَ الَّتِي اعْتَجَرَتْ
ثُمَّتَ انْصَاتِ الشَّبَابَ لَهَا
فَهِيَ لِلْيَوْمِ الَّذِي بُرِلَتْ
عُنُقْتُ حَتَّى لَوْ اتَّصَلْتُ
لَا حَتَبْتُ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةً

خُلِقْتُ لِلْكَاسِ وَالْقَلَمِ

فَرَعَتْهَا بِالْمَزَاجِ يَدُ

وقال الحميدوني: الرمل:

خُلَعَةً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ
تَرَكْتُهُ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظَرِ
طَيَّرْتُهُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ
مَا رَأَاهُ قَالَ: ذَا شَيْءٍ نَكَرُ

طَيْلَسَانُ لَابِنِ حَرْبٍ جَاعِنِي
فَإِذَا مَا صَحْتُ فِيهِ صَيْحَةً
وَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَتْ نَحْوَهُ
مُهْطِعُ الدَّاعِي إِلَى الرَّافِي إِذَا

وإذا رفاؤه حاولَ أن

يتلافاه تَعَاطَى فَعَقَرُ

وقال: المتقارب:

أيا طيلسانِي أَعَيَّتَ طَبِّي

أَسْأَلُ بِجِسْمِكَ أَمْ دَاءُ حَبٍّ؟

ويا رِيحُ صَيَّرْتَنِي أَتَقِيكَ

وقد كُنْتُ لَا أَتَقِي أَنْ تَهْبِي

ومستخبرٍ خَبَرَ الطيلسان

فقلتُ له الروحُ من أَمْرِ رَبِّي

وقال فيه: الرمل:

طَيْلَسَانُ لابنِ حربٍ جاعني

قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهُ

أنا من خَوْفٍ عليه أَبَدًا

سامري ليس يَأْلُوهُ حَذَرَهُ

يا ابنَ حربِ خذه أَوْ فابَعثْ بما

نشتري عِجْلاً بِصَفَرٍ عَشْرَهُ

فلعلَّ اللهَ يُحْيِيهِ لَنَا

إنْ ضَرَبْنَاهُ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ

فهو قد أدركَ نوحاً، فعسى

عنده من عِلْمِ نوحِ خَبَرَهُ

أبدًا يَقْرَأُ مِنْ أَبْصَرِهِ

أإذا كنا عِظَاماً نَخِرَهُ

وقال فيه: الخفيف:

يا ابنَ حربِ أَطَلْتَ فَقَرِيَّ بَرَفَوِي

طيلساناً قد كُنْتُ عَنْهُ غَنِيًّا

فهوَ في الرِفْوِ آلَ فَرْعَوْنَ في العَرِ

ضِ على النارِ غُدْرَةً وَعَشِيًّا

زُرْتُ فيه معاشراً فازْدَرَوْنِي

فتغنيتُ إذا رَأَوْنِي زَرِيًّا:

جئتُ في زِي سائلٍ كي أراكم

وعلى البابِ قد وَقَفْتُ مَلِيًّا

وقال فيه: الوافر:

وهبتَ لَنَا ابنَ حربٍ طَيْلَسَاناً

يَزِيدُ المرءَ ذا الضَعَةِ اتِّضَاعاً

يُسَلِّمُ صاحبي فيعيدُ شَتْمِي

لأنَّ الروحَ يَكْسِبُهُ انْصِدَاعاً

أَجِيلَ الطَّرْفِ في طَرَفِيهِ طُوْلاً

وعَرَضاً ما أرى إِلَّا رِقَاعاً

فلمستُ أَشْكَ أَنْ قد كانَ قَدْماً

لنُوحٍ في سفينته شِرَاعاً

فقد غَنَيْتُ إذْ أَبْصَرْتُ مِنْهُ

جوانبه على بَدَنِي تَدَاعَى:

قفِّي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يا ضُبَاعاً

ولا يَكُ مَوْقِفٍ مِنْكَ الْوَدَاعَا

من أخبار المأمون

دخل المأمون بعضَ الدواوين، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشئُ في دولتك، المتقلب في نعمتك، المؤمل لخدمتك، خادمك وابنُ خادمك الحسن بن رجاء. فقال: أحسنت يا غلام، وبالإحسان في البديهة تَفَاضَلْتَ العقول. فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان. قال أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج: قال لي أبو العباس المبرد: ما رأيتُ في أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلاً كأنما خُلِقَ لذروة منبر، أو صدر مجلس، يتكلم وكأنه يتنفس، يُسهبُ ويُطنب، ويعربُ ويعرب، ولا يعجب ويعجب. أراد القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، والحسن ابن رجاء بن أبي الضحاك.

من أخبار المبرد

وكان أبو العباس يُعد في البلغاء، وقال: لما دخلت على المتوكل اختار لي الفتح بن خاقان وقتَ شربه، وكافي الشراب قد أخذ منه، فسألني وقال: يا بصري، رأيت أحسنَ وجهاً مني؟ فقلت: لا والله ولا أسمع راحة، ثم تجاسرت فقلت: الوافر:

جَهَرْتُ بِحَلْفَةٍ لَا أَتَّقِيهَا بِشَكِّ فِي الْيَمِينِ وَلَا ارْتِيَابِ
بَأْنِكَ أَحْسَنُ الْخُلَفَاءِ وَجْهًا وَأَسْمَحُ رَاحَتَيْنِ، وَلَا أَحَابِي
وَأَنْ مَطِيعَكَ الْأَعْلَى مَحَلًّا وَمَنْ عَاصَاكَ يَهْوَى فِي تَبَابِ

فقال: أحسنت وأجملت في حُسن طبعك وبديهتك، فقلت: ما ظننتُني أبلغُ هذا الشرف، ولا أنال هذه الرتبة؛ فلا زال أمير المؤمنين يسمو بخدمه إلى أعلى المراتب، ويُصَرِّفهم في المذاهب.

وكان ابن المعتز قد غضبَ على بعض وكلائه، فصار إلى أبي العباس المبرد يسأله أن يكلمه له؛ فكتب إليه المبرد: أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي جَدِّكَ الرَّشِيدِ: الْكَامِلُ:

بَأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ مَا أَنْدَى يَدًا وَأَبْرَ مِيثَاقًا، وَمَا أَزْكَكَ
يَغْدُو عَدُوُّكَ خَائِفًا، فَإِذَا رَأَى أَنْ قَدِ قَدَّرْتَ عَلَى الْعِقَابِ رَجَاكَ

وهذا معني كثير.

في المدح

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابي: الطويل:

ويذئو وأطرافُ الرماحِ دَوَانِي
وحدّاهِ إنْ خاشنَتْهُ خَشَنَانِ

كريم يغض الطرفَ فضلَ حيائه
وكالسيفِ إن لم ينْتَه لَانْ مَتْنَه

وهذا يناسب قول ابن المعتز في بعض جهاته:

كما لان متن السيفِ والحدُّ قاطِعُ

ويَجْرَحُ أحشائي بعَيْنِ مريضة

وقال الأخطل في بني مروان: البسيط:

إذا ألمّتْ بهم مكروهة صَبَرُوا
وأعْظَمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

صُمٌّ عن الجَهْل، عن قيل الخنا أنْف
شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لَهُمْ

وفال إبراهيم بن عليّ بن هرمة يمدح أبا جعفر المنصور: الطويل:

طليقٌ، وَوَجْهٌ في الكريهةِ باسِلِ
ويَعْقُو إذا ما أَمَكَنْتَهُ المَقَاتِلُ
إذا كَرَهَا فيها عِقَابٌ وَنَائِلُ
وَأَمَ الذي حاولتِ بالتكُلِ ثَاكِلُ

كريم له وَجْهَان، وَجْهٌ لدى الرضا
وليس بمُعْطِي الحقِّ من غَيْرِ قَدْرَةٍ
له لحظات من حِفَافِي سريره
فَأَمَ الذي أَمَنْتَ أَمْنَةً الرَدَى

وقال الطائي في أبي سعيد محمد بن يوسف: الطويل:

وتقتادُهُ من جَانِبِيهِ فيتَبَعُ

هو السيلُ إنْ واجَهَتْهُ انْقَدَتْ طَوْعَهُ

وكان عصابة الجرجاني، واسمه إسماعيل بن محمد، منقطعاً إلى الحسن بن رجاء متصلاً به، وهو القائل فيه:
الكامل:

إلا بما تَأْتِي به الأنبياءُ

ومحجَّبٍ بالنور ليس بمدرَكِ

ويُطِيعُهُ فتطِيعُهُ الأشياءُ

ملكٌ يُحِبُّ الله فهو يُحِبُّهُ

وإذا مشى للحَرْبِ فالخِيَلُ

يمشي الهَوَيْنَا للصلاةِ يُقِيمُهَا

يشوي الزمان وما لَهُ إِشْوَاءُ

الله درك أَيْما ابنِ عزيمة

ثم عتب عليه في بغض الأمر، فهجاه هجاءً قبيحاً؛ فهرب إلى عمان، ثم اعتذر إليه بقصيدته التي أولها:
الكامل:

إلا من العَلَقِ النجيعِ الآنِ

لا تخضِبَن عَوَالِي المُرَانِ

وهي أجود شعر قيل في معناه، وهي التي يقول فيها:

أَقْرِ السَّلامَ على الأمير، وقل له:
ما إنْ أتى حَشَمِي بأنك سَاخِطٌ
وغَدَت علي مطاعمي ومَشَاربي
فكتب إليه الحسن: الكامل:

إنَّ المَنادمةَ الرضاغُ الثَّاني
حتى استخف بمَوْضِعي غِلْماني
وملابسي من أعونِ الأعوانِ

أَبْلَغُ أبا إسحاقَ أنَّ محلَّه
لا تبعدن بك الديارُ لِنَزْغَةِ
فَلْيَفْرَحِ الرَّوْعُ الذي رُوِّعَتْهُ
مني بحيثُ الرأسُ والعينانِ
ولتُبْعِدَنَّ نوازغَ الشَّيطانِ
إنَّ المحلَّ محلُّ كلِّ أمانِ

بين جميل وعمر بن أبي ربيعة

اجتمع جميل بن معمر العذري بعمر بن أبي ربيعة المخزومي، فأنشده جميل قصيدته التي أولها: الطويل:

لَقَدْ فَرِحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي
يَقُولُونَ: مَهْلًا يَا جَمِيلُ، وَإِنِّي
خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا
نقله أبو العتاهية، فقال: السريع:

يا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا
بكى من شِدَّةِ الْوَجْدِ على الْقَاتِلِ
فلَمَّا أَتَمَّهَا قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشده: الطويل:

جَرَى ناصِح بالودِّ بيني وبينها
فعرضني يومَ الحِصَابِ إلى قَتْلِي

فما أنْسَمَ الأشياءَ لا أنْسَ قولها
فلَمَّا تَوَافَقْنَا عَرَفْتُ الذي بها
فَسَلَمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أَنْ يَرَى
وأقبلَ أمثالُ الدُّمَى يكتنفُنها
فَقَالَتْ وأرختُ جانبَ السِّتْرِ: إنما
فَقُلْتُ لها: ما بي لهم من تَرْقُبٍ
ومَوَقَّفُها يوماً بَقَارِعَةَ النخلِ
كَمَثَلِ الذي بي حَدَوَكَ النَّعْلُ بالنعلِ
عدو مكاني أو يرى حاسدٍ فعلي
وكل يُفْدي بالمودةِ والأهلِ
معي فتكلمَ غَيْرَ ذِي رِقَبَةٍ أهلي
ولكنَّ سِرِّي ليس يَحْمِلُهُ مِثْلِي

فاستخدى، جميل وصاح: هذا والله الذي طلبت الشعراء فأخطأته، فتعللوا بوصف الديار، ونعت الأطلال.

ولما مات عمر بن أبي ربيعة نُعي لامرأة من مولدات مكة، وكانت بالشام، فبكت وقالت: مَنْ لأباطح مكة؟ ومن يمدح نساءها، ويصف محاسنها، ويكي طاعتهن؟! فقيل لها: قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته، فقالت: أنشدوني له، فأنشدوها: الطويل:

وقد أرسلت في السر ليلَى بأن أقم
لعلّ العيون الرامقات لوصلنا
أناس أمناهم فبثوا حديثنا
فما حفظوا العهد الذي كان بيننا
ولا تقرّبنا فالتجنب أجمل
تكذب عنا أو تنام فتغفل
فلما كتمنا السر عنهم تقولوا
ولا حين هموا بالقطيعة أجملوا

فتسلّت وقالت: هذا أجل عَوْضٍ، وأفضل خَلَفٍ، فالحمد لله الذي خلف على حرمه وأمه مثل هذا. وقال عروة بن أذينة: أنشدت ابن أبي عتيق للعرجي: الطويل:

فما ليلةٌ عندي وإن قيل ليلةٌ
بعادلة الاثنين، عندي وبالحرّ
وما أنسَ م الأشياء لا أنس قولها
فجاءت تقول الناس في ست عشرة
ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
يكونُ سواء مثلها ليلة القدر
لجارتها: قومي سلي لي عن الوتر
ولا تعجلي عنه فإنك في أجر

فقال ابن أبي عتيق: هذه أفقه من ابن أبي شهاب؛ أشهدكم أنها حرة من مالي إن أجاز أهلها ذلك. والعرجي هو عبد الله بن عمرو بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان يتزل بعرج الطائف فنسب إليه، وهو القائل: المنسرح:

هل في ادكاري الحبيب من حرّج
أم كيف أنسى مسيرنا حرما
يوم يقول الرسول قد أذنت
أقبلت أهوي إلى رجالهم
أم هل لهم الفؤاد من فرج
يوم حللنا بالنخل من أمج
فأت على غير رقبة فلج
أهدى إليها بريحها الأرج

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم والياً على مكة - وهو خال هشام بن عبد الملك - بلغه أن العرجي هجاه، فضربه ضرباً مبرحاً، وأقامه على أعين الناس، فجعل يقول: الوافر:

سيغضب لي الخليفة بعد رقي
ويسأل أهل مكة عن مساقبي

من البَلَوِ تُجَاوِزُ نِصْفَ سَاقِي

وَلَاةُ الشَّعْبِ وَالطَّرِيقِ الْعَمَاقِ

عَلِي عِبَاءَةً بَرِّقَاءَ لَيْسَتْ

وَتَغْضَبُ لِي بِأَسْرَتِهَا قُصَيِّ

فحلف محمد بن هشام ألا يخرج له ما دامت له ولاية؛ فأقام في السجن سبع سنين حتى مات، وهو القائل في سجنه: الوافر:

لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ ثَغَرِ

وَقَدْ شَرُعتُ أَسْنَتَهُمْ لَنَحْرِي

وَلَمْ تَكْ نَسْبَتِي فِي آلِ عَمْرُو

أَلَا اللَّهُ مَظْلَمَتِي وَهَضْرِي

سَيُنْجِينِي فَيَعْلَمُ كَيْفَ شُكْرِي

وَأُنْجِزِي بِالضَّغَائِنِ أَقْلَ ضُرِّي

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا

وَحَلَوْنِي وَمَعْتَرَكِ الْمَنَآيَا

كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ وَسِيطاً

أَجَرَرُ فِي الْجَوَامِعِ كُلِّ يَوْمِ

عَسَى الْمَلِكُ الْمَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ

فَأَنْجِزِي بِالْكَرَامَةِ أَهْلَ وَدِي

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دال على السخاء كما يدلُّ النور على الثمر. إذا اضطرت إلى الكذاب فلا تصدقه، ولا تُعلمه أنك تكذبه، فينتقل عن وده، ولا ينتقل عن طبعه. كما أن الشمس لا يخفى ضوءها وإن كانت تحت السحاب كذلك الصبي لا تخفى غريزة عقله وإن كان مغموراً بأخلاق الحداثة. كرم الله، عز وجل، لا ينقض حكمته، ولذلك لا يجعل الإجابة في كل دعوة. كما أن جلاء السيف أهون من صنعه، كذلك استصلاح الصديق أهون من اكتساب غيره. إذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهب الآخرة. لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب. الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جزيلة؛ من صواب مدخر، وتطهير من ذئب، وتنبية من غفلة، وتعريف بقدر النعمة، ومروان على مقارعة الدهر. ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذي الرياستين، قاله بعقب علة فأغار عليه ابن المعتز.

وكتب إلى أحمد بن محمد جواباً عن كتاب استزاده فيه: قَيْدُ نِعْمَتِي عِنْدَكَ. بما كنت استدعيتها به، وذلت عنها أسباب سوء الظن، واستدتم ما تُحبُّ مني بما أُحبُّ منك.

وكتب إليه: واللَّهِ لَا قَابِلَ إِحْسَانِكَ مِنِّي كَفَرْتُ، وَلَا تَبِعَ إِحْسَانِي إِلَيْكَ مَنْ، وَلَكَ عِنْدِي يَدٌ لَا أَقْبِضُهَا عَنْ نَفْعِكَ، وَأُخْرَى لَا أَبْسُطُهَا إِلَى ظُلْمِكَ، فَتَجْنِبُ مَا يُسْخِطُنِي، فَإِنِّي أَصُونُ وَجْهَكَ عَنْ ذُلِّ الْإِعْتَذَرِ.

وكان أحمد بن سعيد يؤدبه فتحمل البلاذري على قبيحة أم ابن المعتز يقوم سألوا أن تأذن له أن يدخل إلى

ابن المعتز وقتاً من النهار، فأجابت أو كادت تجيب، قال ابن سعيد: فلما اتصل الخبر بي جلست في مترلي غَضْبَاناً لما بلغني عنها، فكتب إلي ابن المعتز وله ثلاث عشرة سنة: البسيط:

أصبحت يا ابن سعيد خذن مكرمة
سرّبلتني حكمة قد هدبت شيمي
أكون إن شئت قساً في خطابته
وإن أشأ فكر زيد في فرائضه
أو الخليل عروضياً أخا فطن
تعلو بداهة ذهني في مراكبها
وفي فمي صارم ما سلّه أحد
عقبك شكر طويل لا نفاذ له
عنها يقصر من يخفى ويتعل
وأجبت نار ذهني فهي تشتعل
أو حارثاً وهو يوم الحفل مرتجل
أو مثل نعمان لما ضاقت الحيل
أو الكسائي نحوياً له عل
كمثل ما عرفت آبائي الأول
من غمده فدرى ما العيش والجذل
يبقى بجديته ما أظن الإبل

وقس الذي ذكر: هو قس بن ساعدة الإيادي، وقد سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، شعره، وعجب منه.

وحارث: هو الحارث بن حلزة اليشكري، وصف ارتجاله يوم فخره بقصيدته التي أنشدها بحضرة عمرو بن هند التي أولها: الخفيف:

أذنتنا ببينها أسماء
رُب ثاوٍ يمل منه النواء

وزيد: هو زيد بن ثابت الأنصاري، وإليه انتهى علم الفرائض. ونعمان: هو أبو حنيفة النعمان - رضي الله عنه - بن ثابت، سبق أهل العراق في الفقه. والخليل بن أحمد الفرهودي، ويقال: الفراهيدي، منسوب إلى حيّ في الأزد، الأحمر. والكسائي: علي بن حمزة الكوفي.

من إنشاء ابن العميد

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه:
أنا أشكو إليك - جعلني الله فداك - دهرًا خؤونًا غدورًا، وزمانًا خدوعًا غرورًا، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيرُه لمعًا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعًا ثم يمتنع. وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يُبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انتقاض، وكنا نلبسه على ما شرط، وإن خان وقسط؛ ونرضى على الرغم بحكمه، ونستتم بقصده وظلمه، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذورُه مصمتًا بلا انفراج، ولا يأتي مكروهُه صرْفًا بلا مزاج،

ونتعَلَل بما نختلِسه من غَفَلَاتِهِ، ونستَرْقُه من ساعاتِهِ. وقد استحدثت غيرَ ما عرفناه سُنَّةً مبتدعةً، وشرِيعَةً مُتَّبَعَةً، وأعدَّ لكلِّ صالحَةٍ من الفسادِ حالاً، وقَرَنَ بكلِّ خَلَّةٍ من المكروهِ خِلَلاً. وبيان ذلك - جعلني الله فداك - أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بتفريق ذاتِ البَيْنِ، فقد أثني مَمْنُوءاً فيك بجميع ما أوغرَه، وما أطويه من البلوى منك أَكْثَرُ مما أنشرَه، وأحسبني قد ظَلَمْتُ الدهرَ بسوءِ الشناءِ عليه، وألزمته جُرْماً لم يكن قدره بما يحيط به، وقدرته تَرْتَقِي إليه، ولو أنك أعنته وظاهرته، وقصدت صرفه وأزرتَه، وبِعْتني بيع الخلق وليس فيمن زَادَ ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني إعراضَ غيرِ مراجع، وأطرحني أطراح غيرِ مُجامل؛ فهلاً وجدت نفسك أهلاً للجميل حين لم تجِدني هناك، وأنفَذْتَ من جلٍّ ما عقدت من غيرِ جريمة، ونكثت ما عهدت من غيرِ جريرة، فأجِبني عن واحدةٍ منهما؛ ما هذا التَّعَالِي بنفسك، والتَّعَالِي على صديقك؟ ولمَ نَبَذْني نَبَذَ النواة، وطرحَني طَرَحَ القَذَاة؟ ولمَ تَلْفَظني من فيك، وتمجُّني من حلقك؟ وأنا الحلالُ الحُلُو، والباردُ العذب، كيف لا تُخْطِرني ببالكِ خَطَرَةً، وتُصِيرني من أشغالك مرة؛ فترسل سلاماً إن لم تتجشَّم مكاتبة، وتذكرني فيمَن تَذْكُرُ إن لم تكن مخاطبة؟ وأحسب كتابي سِرِّدُك عليك فتكره حتى تثبَّت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتَصَوِّر شخصه حتى تتذكَّر؛ فقد صرت عندك ممن مَحَا النسيانُ صورته من صدرك، واسمه من صحيفةِ حِفْظك، ولعلَّك أيضاً تتعجب من طمعي فيك وقد توليت، واستمالي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخرُ بالماء الزلال، ويلين مَنْ هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال، وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك، وحَبَسْ في سبيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضاً طرياً، فجرَّبه في المعاودة فإنه في العود أحمَدُ.

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار.

حلَّ قوله فقد يتفجر الصخرُ بالماء الزلال من قول ابن الرومي: مجزوء الرمل:

ن وفي بُعْدِ المَنَالِ

يا شبيهه البدر في الحس

رة بالماء الزلالِ

جُدْ فقد تتفجر الصَّخْرُ

وفي هذه الرسالة في ذكر فَتْحٍ وإن لم يستبق منه المعنى: وقد حصَّنا الله تعالى معاشرَ عُبدِ الأميرِ عضد الدولة بنعمة يَعْلُو مراتبَ النعمِ مَوْقِعُهَا، ويفوتُ مقدارُ المواهبِ موضعها، فباسمِهِ - أبقاه الله - فَتَحَ الفَتْحَ، وبشعاره استَئْزَلَ النَجْعَ، ويُمْنُ نَقِيَّتِهِ فُرجُ الكَرْبِ، وبسعادةِ جَدِّهِ كُشِفَ الحَطْبُ، وباهتزازهِ للدولة وحمايته عاد إليها ماؤُها، وراجعها بماؤُها، فعز الملكُ ونُصِرَ، وذللَّ العدوُّ وقُهرَ، وحُمِيت أطرافُ الدولة، وحُفِظَتْ أكنافُ المِلَّةِ، واستجد نظامُ النعمة، وسُدِّلتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة؛ ولو جعل المولى - تقُدس اسمه - لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غَيْرَ الإخلاص في شكره، وقَبِلَ ما في مقابلةِ المَوْهبةِ

التي يستجدها عند خَلْقِهِ غَيْرَ الإِغْرَاقِ فِي حَمْدِهِ، لَرَأَيْتُ أَلَا أَقْتَصِرُ فِي قِضَاءِ حَقِّهِ عَلَى بَعْضِ الْمَلِكِ دُونَ بَعْضٍ، وَلَجَعَلْتُ فِي صَدْرٍ مَا أَبْذُلُ عَنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْأَعْزَى؛ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ، وَالْأَنْصَرِينَ؛ السَّاعِدَ وَالْعَصْدُ، بِلِ الْعَمِيدِينَ؛ الْقَلْبَ وَالْكَبِدَ؛ بِلِ النَّفْسِ كُلِّهَا، وَالْمُهْجَةِ بِأَسْرَهَا.

ما قيل في العتاب

وقال سعيد بن حميد يعاتبُ بعض إخوانه: الكامل:

أَقْلُ عِتَابِكَ فَالْبِقَاءُ قَلِيلٌ
وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنِ ذَمَّتْ صُرُوفُهُ
إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمْتُ مُدَّةً
وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةً
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَةِ وَالرَّدَى
يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ
فَلَنْ سَبَقْتُ لَتَبِكِينَ بِحَسْرَةٍ
وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقُ
وَلَنْ سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لِمِضِيِّنَمَنْ لَا يُشْكَا لَهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلِيَذْهَبَنَّ بِهَاءٍ كُلِّ مَرْوَةٍ
وَأُرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُنَا
وَدَّ بَدَا لَذَوِي الْإِخَاءِ جَمَالُهُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَلِيلَةٌ
وَلِيُفْقَدَنَّ جَمَالَهَا الْمَاهُولُ
ضَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ
فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ؟

وقال أيضاً: الطويل:

لَقَدْ سَاعَنِي أَنْ لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبُ
أَفْكَرَ فِي وَدِّ تَقَادُمِ بَيْنَنَا
وَأَنْتَ سَقِيمُ الْوَدِّ رَثَّ حِبَالُهُ
تُسَيِّئُ وَتَأْبَى أَنْ تَعْقَبَ بَعْدَهُ
وَلَا لَكَ عَنْ سُوءِ الْخَلِيقَةِ مَرْغَبُ
وَفِي دُونِهِ قُرْبَى لِمَنْ يَتَقَرَّبُ
وَخَيْرٌ مِنَ الْوَدِّ السَّقِيمِ التَّجَنُّبُ
بِحُسْنِي، وَتَلْقَانِي كَأَنِّي مُذْنِبُ
وَأُحْذَرُ إِنْ جَازَيْتَ بِالسُّوءِ وَالْقَلَى
مَقَالَةَ أَقْوَامٍ هُمْ مِنْكَ أَنْجَبُ

أساء اختياراً أو عرته ملالة
فخبت من الود الذي كان بيننا
وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الطويل:
إلى كم يكون الصد في كل ساعة
رويدك !إن الدهر فيه بقية
آخر: الكامل:

ولقد علمت فلا تكن متجنباً
حسب الأجابة أن يفرق بينهم
آخر: الطويل:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً: الخفيف:
زودينا من حسن وجهك ما ذا
وصلينا نصلك في هذه الدن

ما يتعلق بالأعراب

وقف أعرابي يسأل، فعث به فتى، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني عامر ابن صعصعة، فقال: من أيهم؟ فقال: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة، فليس مقامي بمقام مُجادلة ولا مفاخرة، وأنا أقول: فإن لم أكن من هاماتهم فلست من أعجازهم. فقال الفتى: ما رويت عن فضيلتك إلاّ النقص في حسبك، فامتعض الأعرابي لذلك؛ فجعل الفتى يعتذر، ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره، وأطال الكلام، فقال له الأعرابي: يا هذا، إنك منذ اليوم آذيتني بمزحك، وقطعتني عن مسألي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يسثره من أمرك، ويحك! إن الجاهل إن مزح أسخط، وإن اعتذر أفرط، وإن حدث أسقط، وإن قدر تسلط، وإن عزم على أمر تورط، وإن جلس مجلس الوقار تبسط، أعود منك ومن حال اضطررتني إلى احتمال مثلك! وقال إسحاق الموصلي: قال أعرابي لرجل كان يعتمد به بالعطية: اسأل الذي رحمني بك أن يرحمك بي. وسأل أعرابي رجلاً، فأعطاه، فقال: الحمد لله الذي ساقني إلى الرزق وسألك إلى الأجر.

من إنشاء بديع الزمان الهمذاني

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندري:

قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: أفضت بي إلى بلخ تجارة البز، فوردتها وأنا بفروة الشباب وبال الفراغ، وحلية الثروة، لا يهمني إلا نزهة فكر أستفيدها، وشريدة من الكلام أصيدها، فما استأذن على سمعي مسافة مقامي، أفصح من كلامي. ولما حنى التفرق بنا قوسه أو كاد، دخل إلي شاب في زي ملء العين، وحلية تشوك الأخدعين، وطرف قد شرب بماء الرافدين، ولقيني من البر في السناء، بما زدته من الشكر والثناء؛ ثم قال: أظعننا تريد؟ قلت: إي والله، فقال: أحصب الله رائدك، ولا أضل قائدك، فمتى عزمتم؟ فقلت: غداة غد، فقال: الوافر:

وطير الوصل لا طير الفراق

صباح الله لا صبح انطلاق

قال: أين تريد؟ قلت: الوطن، قال: بلغت الوطن، وقضيت الوطر، فمتى العود؟ قلت: القابل؟ قال: طويت الريط، وثبتت الحيط، فأين أنت من الكرم؟ قلت: بحيث أردت؟ قال: إذا رجعت الله من هذه الطريق، فاستصحب لي عدواً في بردة صديق، من نجار الصفر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الظفر، كدارة العين، يحط ثقل الدين، وينافق بوجهين! فعلمت أنه يلتمس ديناراً، قلت: لك ذلك نقداً، ومثله وغداً، فأنشأ يقول: مخلع البسيط:

لا زلت للمكرّمات أهلاً

رأيتك ممّا خطبت أعلى

وطئت فرعاً وطبت أصلاً

صلبت عوداً وفقت جوداً

ولا أطيق السؤال ثقلاً

لا أستطيع العطاء حملاً

وطلت عما ظننت فعلاً

قصرت عن منتهاك ظناً

لا لقي الدهر منك ثكلاً

يا رحمة الله والمعالي

قال عيسى بن هشام: فئلته الدينار، وقلت: من أين نبت هذا الفضل؟ قال: نمتني قريش، ومهد لي الشرف في بطحاءها. فقال بعض من حضر: ألسنت أبا الفتح السكندري؟ ألم أرك بالعراق، تطوف بالأسواق، مكدياً بالأوراق؟ فأنشأ يقول: مجزوء الرمل:

أخذوا العمر خليطاً

إن لله عبيداً

با ويضحون نبيطاً

فهم يمسون أعرا

وله إلى أبي نصر الميكالي يشكو إليه خليفته بمرارة: كتابي، أطال الله بقاء الشيخ الجليل، والماء إذا طال مُكثته، ظَهَرَ حُبُّهُ، وإذا سكن مَثْنُهُ، تحرك نَتْنُهُ، كذلك الضيفُ يَسْمُجُ لقاؤه، إذا طال ثَوَاؤُهُ، ويثقل ظِلُّهُ، إذا انتهى مَحَلُّهُ، وقد حَلَبْتُ أَشْطَرَ خَمْسَةِ أَشْهُرَ بَمَرَّةٍ وإن لم تكن دار مثلي لولا مُقامُهُ، وما كانت تسعني لولا ذِمَامُهُ، ولي في بَيْتِي قَيْسٌ مِثْلُ صَدُقٍ، وإن صَدَرًا مَصْدَرٌ عَشَقٌ: الطويل:

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بقول يُحِلُّ الْعَصَمَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ

تَجَافَيْتَ عَنِّي حَيْثُ لَا لِي حِيلَةٌ وَخَلَفْتَ مَا خَلَفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

نعم. قنصتني نَعْمُ الشيخ الجليل، فلما عَلِقَ الجناح، وَقَلِقَ البرّاح، طرت مطارَ الرّيح، بل مطارَ الرّوح، وتركتني بين قوم ينقض مسُهم الطهارة، وثوهم أكفهم الحجارة، وحدثت عن هذا الخليفة، بل الجيفة، أنه قال: قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد هذا البلد، وليس يَقْنَعُ، فما أصنع؟ فقلت: يا أحمق، إن استطعت أن تراني محتاجاً، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك. أفأقولك ولفعلك، ولدهر أخوج إلى مثلك! وأنا أسأل الشيخ الجليل أن يبيض وجهي بكتاب يُسَوِّد وجهه، ويعرفه قَدْرُهُ، وبمأ رعباً صدره، إلى أن تَبَيّنَ على صفحات جَنِبِهِ، آثَارُ ذَنْبِهِ.

وله إليه يعاتبه:

قد عرف الشيخ الجليل اتسامي بعبوديته، ولو عرفتُ وراءَ العبودية مكاناً لبلغته معه، وأراني كلما قدمت صُحْبَةً، رجعت رُثْبَةً، وكلّما طالت خِدْمَةٌ، قصُرت حِشْمَةٌ، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أن يرفع عبداً حبشياً، وَيَضَعُ قُرْشِيّاً، ولكن أحب أن أقف من مكاني على رُثْبَةٍ كوكبها لا يغور، ومترلة لوكبها لا يدور، فإذا عرفت قَدْرِي وخطه، لم أتخطه، ثم إن رأيت محلي وحده، لم أتعدّه، إن قدّمني يوماً عليها علمت أن عناية قدمتي، وإن أخرتني عنها علمت أن جناية أخرتني. رُفِعَ عليّ اليوم فلانٌ ولست أنكر سنه وفضله، ولا أجد بيته وأصله، ولكن لم تجرِ العادة بتقدّمه، لا في الأيام الخالية، ولا في هذه الأيام العالية؛ وشديداً على الإنسان ما لم يُعوّد؛ فإن كان حاسداً قد هم، أو كاشح قد نم، أو خَطْبٌ قد ألم، أو أمرٌ قد رقع وتم، فالشيخُ الجليلُ أولى من يعرفه ويعرفنيه، وإلا فما الرأي الذي أوجب اصطناعي، ثم ضياعي، والسبب الذي اقتضى بَيْعِي بعد ابتياعي؟

عود إلى المأمون

ولما رضي المأمون عن إبراهيم بن المهدي أمر به فأدخل عليه، فلما وقف بين يديه قال: وليّ الثأر محكم في القصاص، ومن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله

تعالى فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذتَ فبحقك، وإن عفوت فبفضلك.
ثم قال: المجتث:

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَغْمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ، أَوْ لَا
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنْ الْكَرَامِ فَكُنْهُ
فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ

فقال لي: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلِكَ، فأشارا به، قال: فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين؟ قال: قلتَ لهما: بدأناه بإحسان، ونحن نستأمره فيه، فإن غير فالله يغير ما به، قال: أما أن يكونا قد نصحا في عظيم ما جرّت عليه السياسة فقد فعلا وبلغا ما يبلغك، وهو الرأيُ السديد، ولكنك أبيت ألا تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله. ثم استعبر باكيًا، فقال له المأمون: ما ييكيك؟ قال: جدلاً! إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جرّمي استحلال دمي، فعلمُ أمير المؤمنين وفضله بلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعاة الإقرار بالذنب، وحق الأبوة بعد الأب. فقال: يا إبراهيم، لقد حُبب إليّ العفو حتى خفتُ ألا أوجرَ عليه، أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات، لا تثرّيب عليك يغفر الله لك، ولو لم يكن في حقّ نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلغك ما أملت حسنُ تنصّلِكَ ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله، فقال: البسيط:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي
فَلَوْ بَذَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَّةٍ سَلَفَتْ
وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتَ دَمِي
مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَهَمٍ
وَالْمَالُ حَتَّى أَسْلَ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
لَوْ لَمْ تَهْبِئْهَا لَكُنْتَ الْيَوْمَ لَمْ تُلَمْ

أخذ معنى قول المأمون: لقد حُبب إليّ العفو حتى خفتُ ألا أوجرَ عليه أبو تمام الطائي فقال: الكامل:

لَوْ يَعْلَمُ الْعَافُونَ كَمْ لَكَ فِي النَّدَى
مِنْ لَذَةٍ وَقَرِيحَةٍ لَمْ تَخْمُدِ

فكان أبو تمام في هذا كما قال أبو العباس المعتز في القاسم بن عبيد الله:

إِذَا مَا مَدَحْنَاهُ اسْتَعْنَا بِفِعْلِهِ
فَنَأْخُذُ مَعْنَى قَوْلِنَا مِنْ فِعَالِهِ

وكان تصويبُ إبراهيم لرأي أبي إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون أَلطفَ في طلب الرضا ودفع المكره واستماتتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما في رأيهما، وكان إبراهيم يقول: والله ما عفا عني لرحم ولا لحبة؛ ولكن قامت له سوقٌ في العفو كره أن يفسدها بي.

وكان المأمون شاور في قتل إبراهيم أحمد بن أبي خالد الأحول، فقال: إن قتلته فلك نظير؛ وإن عفوت عنه فلا نظير لك؛ فأختار لك العفو.

بين المأمون وإسحاق بن العباس

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له، وإيقادك لناره.

قال: واللّه يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعظم من جرّمي إليك؛ ولرحمي أمسّ بك من أرحامهم؛ وقد قال لهم كما قال يوسف؛ على نبينا وعليه الصلاة والسلام لأخوته: "لا تثرِبَ عليكم اليومَ يغفرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين". وأنت يا أمير المؤمنين، أحقُّ وارث لهذه الأمة في الطُّول، وممثل للخال العفو والفضل.

قال: هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجرّمك جرّم في إسلامك، وفي دار خلافتك. قال: يا أمير المؤمنين، فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول: "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين". والناس يا أمير المؤمنين، نسبة دخل فيها المسلم والكافر، والشريف والمشروف. قال: صدقت، ورئت بك زنادي، ولا برحت أرى من أهلك أمثالك.

في الاستعطاف

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه: أسألك بالذي أنت بين يديه غداً أدلّ مني بين يديك اليوم، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلّا ما نظرت في أمري نظراً من برئي أحبّ إليه من سقمي، وبراعتي أحبّ إليه من بليتي.

وأراد معاوية عقوبة روح بن زباع فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله تعالى ألا تضع مني خسيصة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريّة أنت أبرمتها، أو تشمت بي عدوّاً أنت كبتته، وحاسداً بك وقمته؛ وأسألك بالله إلّا أربى حلمك على خطئي وصفحك على جهلي. فقال معاوية رضي الله عنه: إذا الله ثني عقد شيء تيسرا. أشار إلى هذا أبو الطيب المتنبي إذ قال: الطويل:

فأنت الذي صيرتَهُم لي حُسداً

أزلّ حسد الحُسادِ عني بكبتِهِم

إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِي يَدِي

ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدًا

عفو الملوك

وَعَتَبَ الْمَأْمُونُ عَلَى بَعْضِ خَاصَّتِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ قَدِمَ الْحَرَمَةَ وَحْدَيْهِ التَّوْبَةُ يَمْحُوَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِسَاءَةِ. قَالَ: صَدَقْتَ، وَعَفَا عَنْهُ.

وَكَانَ فِي مَلُوكِ فَارَسٍ مَلِكٍ عَظِيمٍ الْمَمْلَكَةِ، شَدِيدُ النِّقْمَةِ، فَقَرَّبَ لَهُ صَاحِبُ الْمَطْبَخِ طَعَامَهُ، فَنَقَطَتْ نُقْطَةً مِنَ الطَّعَامِ عَلَى الْمَائِدَةِ، فَزَوَّى لَهُ الْمَلِكُ وَجْهَهُ، وَعَلِمَ صَاحِبُ الْمَطْبَخِ أَنَّهُ قَاتَلَهُ، فَعَمِدَ إِلَى الصَّحْفَةِ فَكَفَّأَهَا عَلَى الْمَائِدَةِ ثُمَّ وَلَّى، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ سَقُوطَ النُّقْطَةِ أَخْطَأَتْ بِهَا يَدُكَ وَلَمْ يَجْرِ بِهَا تَعْمُدُكَ، فَمَا عِنْدَكَ فِي الثَّانِيَةِ؟ قَالَ: اسْتَحَيْتُ لِلْمَلِكِ أَنْ يُوجِبَ قَتْلِي، وَيُيَسِّحَ دَمَ مِثْلِي، فِي سَنَى وَحُرْمَتِي، وَقَدِمَ اخْتِصَاصِي وَخِدْمَتِي، فِي نُقْطَةِ أَخْطَأَتْ بِهَا يَدِي، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْظُمَ ذَنْبِي لِيَحْسُنَ بِالْمَلِكِ قَتْلِي.

قَالَ: لَئِنْ كَانَ اعْتِزَارُكَ يُنَجِّيكَ مِنَ الْقَتْلِ، فَلَيْسَ يُنَجِّيكَ مِنَ التَّأْدِيبِ، اجْلِدُوهُ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَاخْلَعُوا عَلَيْهِ خَلْعَ الرِّضَا.

وَخَرَجَ بِهَرَامٍ جَوْرٍ مُتَصَيِّدًا فَعَنَّ لَهُ حِمَارٌ وَخَشٍ، فَاتَّبَعَهُ حَتَّى صَرَعه، وَقَدْ انْقَطَعَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَتَرَلَ عَنْ فَرَسِهِ يَرِيدُ ذُبْحَهُ، وَبَصُرَ بِرَاعٍ فَقَالَ: أَمْسِكْ عَلَيَّ فَرَسِي، وَتَشَاغَلَ بِذُبْحِ الْحِمَارِ، وَحَاطَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ، فَنَظَرَ إِلَى الرَّاعِي يَقْطَعُ جَوْهَرَ عِذَارِ فَرَسِهِ، فَحَوَلَ بِهَرَامٍ جَوْرٍ وَجْهَهُ وَقَالَ: تَأْمَلُ الْعَيْبَ عَيْبٌ، وَعَقُوبَةُ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ سَفَهٌ، وَالْعَفْوُ مِنْ أَفْعَالِ الْمُلُوكِ، وَسُرْعَةُ الْعُقُوبَةِ مِنْ أَفْعَالِ الْعَامَةِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا غَلَامُ، مَا بِالْشَرِّيَانِكَ يَضْطَرُّ لِعَقْقِ آذَانِكَ تَكْسِيرُنَا أَرْضَكَ بِجَوَافِرِ خَيْلِنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَنْقَلِعَ مِائَةَ فَرَسٍ، فَقَالَ بِهَرَامٍ: لَا تُرْعَ؛ فَهَذَا الْمَوْضِعُ وَمَا فِيهِ لَكَ، وَكَانَ الرَّاعِي خَبِيثًا، فَقَالَ: إِنْ الْمُلُوكُ إِذَا قَالَتْ قَوْلًا تَمَّتْ عَلَى قَوْلِهَا، فَارْجِعْ بِهَرَامٍ إِلَى عَسْكَرِهِ وَقَالَ: اتَّبِعْنِي لِأُوثِقَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَاتَّبَعَهُ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ الْوَزِيرُ قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ، إِنِّي لَأَرَى جَوْهَرَ عِذَارِ فَرَسِكَ مُقْلَعًا، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: أَخْذِهِ مِنْ لَا يَرُدُّهُ، وَرَأَاهُ مِنْ لَا يَنْمُ بِهِ، فَمَنْ أَخْذَهُ صَاحِبُنَا وَلَا تُطَالِبْ بِهِ.

نَقَلَ ابْنُ الرُّومِيِّ قَوْلَ بِهَرَامٍ: تَأْمَلُ الْعَيْبَ عَيْبٌ كَمَا اتَّفَقَ مُوزُونًا فَقَالَ: الْمُحْتَثُ:

تَأْمَلُ الْعَيْبَ عَيْبٌ

مَا فِي الَّذِي قُلْتُ رَيْبٌ

وَكُلُّ خَيْرٍ وَشَرٍ

دُونَ الْعَوَاقِبِ غَيْبٌ

وَرَبِّ جَلْبَابٍ هَمٌ

فِيهِ مِنَ الصَّنْعِ جَيْبٌ

لا تحقرن سيباً

كم قاد خيراً سيب

أخذ البيت الأخير من قول الطائي: خلع البسيط:

رب قليل غدا كثيراً

كم مطر بدؤه مطير

وقوله: الخفيف:

لا تزيلن صغير همك وانظر

كم بذى الأثل دوحة من قضيب

وقد أعاد ابن الرومي قوله: المحدث:

وكل خير وشر

دون العواقب غيب

في قصيدته التي مدح بها أحمد بن محمد بن ثوبة حين ساوره، وقال: لو أتى لبید لتعجب منه، فاستجزله وقال: الطويل:

ولما دعاني للمثوبة سيد

يرى المدح عاراً قبل بذل المثاوب

تنازعني رغب ورهب كلاهما

قوي، وأعياني طلوع المعايب

فقدمت رجلاً رغبة في رغبة

وأخرت رجلاً رغبة للمعاطب

أخاف على نفسي وأرجو مفازها

وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي

ومن أين والغايات بعد المذاهب

رجع إلى إنشاء بديع الزمان

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبي علي إسماعيل يعتذر إليه: سوء الأدب من سكر التدب، وسكر الغضب من الكبائر التي تنالها المغفرة، وتسعها المغفرة، وقد جرى بحضرة الشيخ ما جرى، وقد أفنيت يدي عضاً، وأساني رضاء، وإن لم أوف ما جرى فالعذر أمد خطأ، فإن كان بساطاً يطوى، وحديثاً لا يروى، فأولى من عذر اللاعب، وأحرى من غفر الصاحب؛ وإن كان ميتاً يُنشر، وسبياً يُذكر، فليكن العقاب ما كان، إن لم يكن الهجران، على أي قد أخذت قسطي من العقاب، واستفدت من رد الجواب، ما كفى وأوجع القفا؛ فكان من موجب أدب الخدمة، إبقاء الحشمة لولي النعمة، باحتمال الشتم، والإغضاء عن الخصم، لكنني أخذت بي ثلاثة أحوال لا يسلم صاحبها؛ اللعب وسكره، والخصم وهجره، والإدلال والثقة، وهن اللواتي حملني على ماء الوجه فهرقته، وحجاب الحشمة فخرقته، وقد منعي الآن فرط الحياء من شك اللقاء، وعهدي بوجهي وهو أصفق من العدم الذي حملني على جهله، وأوقع من

الدهر الذي أحوجني إلى أهله؛ لكن النعم إذا تَوَالَتْ على وَجْهِ رَفَقَتْ قِشْرَتَهُ، وَأَلَانَتْ بَشَرَتَهُ؛ وأنا منتظر من الجواب ما يريش جَنَاحِي إلى خِدْمَتِهِ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يَكْتُبَ فَعَلْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وله رقعة إلى أبي علي بن مشكويه أولها: الطويل:

ويا عزّ إن وَاشٍ وَشَى بي عندكم فلا تُمَهِّلِيهِ أَنْ تَقُولِي له: مَهْلا
كما لو وَشَى وَاشٍ بعزّة عندنا لقلنا: تَزَحَّزَحْ لا قريبا ولا أهلا

بلغني، أطال الله بقاء الشيخ أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يُعْرِها الحقُّ نورَه، ولا الصدقُ ظهورَه، وأنه - أدام الله عزه - أذن لها على مَجَالِ أذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولها، وأستجيز معقولها؛ بل قد كان بيني وبين الشيخ عِتَابٌ لا يتزل كَنَفُهُ ولا يجدف، وحديث لا يتعدى النفسَ وضميرها، ولا يعرف الشفةَ وسميرها، وعَرَبِدَة كَعَرَبِدَة أهل الفضل، لا تتجاوزُ الدلال والإدلال، ووحشة لا يكشفها عتابٌ لحظة، كعتاب جَحْظَة، فسبحان مَنْ رَبِّي هذا الأمرَ حتى صار أمراً، وتأبط شراً، وأوجبَ عُذْراً، وأوحش حُراً. وسبحان مَنْ جعلني في حَيِّزِ العدو أشيمَ بَارِقَتِهِ، وأتخوف صَاعِقَتِهِ، وأنا المساء إليه، والمجني عليه، ولكن من بُلي من الأعداء بمثل ما بُليت، ورُمي من الحسد بما رُميت، ووقف من التوحد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت، اعتذر مظلوماً، وضحك مشتوماً، ولو علم الشيخ عددَ أولاد الجدد، وأبناء العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همٌّ إلا في سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية، لضمنَ، بعِشْرَة غريب إذا بدر، وبعيد إذا حضر، ولصانَ مجلسه عمن لا يَصُونُهُ عما رقى إليه، وهَبْنِي قد قلت ما حكى، أليس الشَّاتِمُ مَنْ أَسْمَعَ، والجاني مَنْ أبلغ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الأستاذ نفساً لا تُستفز، وجبلاً لا يهزّ، وشَوْاً إلى خدمه بما أرثوا نارهم، وورد عليّ ما قالوه فما لبثت أن قلت: الطويل:

فإن تَكُ حرب بين قومي وقومها فأني لها في كل نائبة سلمٌ

وليعلم الأستاذ أن في كبد الأعداء مِني جَمْرَة، وأن في أولاد الزنا عندنا كَثْرَة، وقصاراه نارٌ يَشْبُوها، وعقرب يُدْبِيها، ومَكِيدَة يَطْلُبونها، ولولا أن العذرَ إقرار بما قيل، وأكره أن أستقيل، لبسطتُ في الاعتذار شاذروناً، ودخلت في الاستقالة مَيْداناً، لكنه أمرٌ لم أضعُ أوله، فلم أتداركُ آخره. وقد أبى الشيخ أبو محمد - أيده الله - إلا أن يوصلَ هذا النثر الفاتر بنظم مثله فهأكه يَلْعَنُ بعضه بعضاً: السريع:

مولاي إن عدتُ ولم ترضَ لي أنْ أشرب البارد لم أشربِ

إِمْتَطِ خَدِي وَانْتَعِلِ نَاطِرِي
وَصِدِّ بِكَفِّي حُمَةَ الْعَقْرِبِ
تَاللَّهِ مَا أَنْطِقُ عَنْ كَاذِبٍ
فِيكَ، وَلَا أُبْرِقُ عَنْ خُلْبِ
فَالصَّفْوُ بَعْدَ الْكَذْبِ الْمَفْتَرَى
كَالصَّحْوِ عَقَبَ الْمَطَرِ الصَّيِّبِ
إِنْ أَجَبَنِي الْغَلْظَةُ مِنْ سَيِّدِي
فَالشَّوْكُ عِنْدَ الثَّمَرِ الطَّيِّبِ
أَوْ يَفْسِدُ الزُّورُ عَلَى نَاقِدِ
فَالْخَمْرُ قَدْ يَعْصِبُ بِالنَّيِّبِ

ولعلَّ الشيخَ أبا محمد - أيده الله - يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو، والسلام.

فَقَرُّ مِنْ كَلَامِ سَهْلِ بْنِ هَرُونَ لِلْمَأْمُونِ

كان المأمون استثقل سَهْلَ بن هرون، فدخل عليه يوماً، والناسُ على مراتبهم، فتكلَّم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هرون على الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تعون، وتشاهدون ولا تفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تُنصفون؟ والله إنه ليقول ويفعلُ في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عَرَبُكُمْ كعجمكم، وعَجَمُكُمْ كعبيدكم، ولكن كيف يَعْرِفُ الدواء من لا يشعر بالداء؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأي الأول.

من ترجمة سهل بن هرون، وأخباره

وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل ميسان، نزل البصرة فنُسِبَ إليها، وهو القائل: الكامل:

يَا أَهْلَ مَيْسَانَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ
الطَّيِّبُونَ الْفَرَعُ وَالْجِدْمُ
أَمَّا الْوَجُوهُ فَفَضَّةٌ مُرْجَتِ
ذَهَباً وَأَيْدٍ سَحَاةٌ هُضْمُ
أَتُرِيدُ كَلْبَ أَنْاسِبِهَا
قَدْ قَلَّ مِنْ كَلْبِ بَيْ الْعِلْمِ
أَجَعَلْتَ بَيْتاً فَوْقَ رَابِيَةٍ
فَرَعُ النُّجُومِ كَأَنَّهُ نَجْمُ
كَبَيْتِ شَعِيرٍ وَسَطِ مَجْهَلَةٍ
بِفَنَائِهِ الْجِعْلَانُ وَالْبَهْمُ

وكان سهل شعوبياً، والشعوبية فرقةٌ تتعصب على العرب وتتقصُّها، وكان أبو عبيدة يُرمى بذلك.

وسهل ظريفٌ عالمٌ حسنُ البيان، وله كتبٌ ظريفةٌ صَنَفَهَا معارضاً للأوائل في كتبهم. بما لا يستصوبه منهم، حتى قيل له: بزر جمهر الإسلام وقال يمدح رجلاً: الطويل:

مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْزَمًا

عَدُوُّ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ

مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَغْنَمًا

مَذَلَّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى

وهذا نظير قوله في كتاب ثَغْلَةٍ وَعُفْرَةٍ الذي عارض به كليله ودمنة: اجعلوا أداء ما يَجِبُ عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم؛ فإنَّ تَقْدِيمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظَاهِرٌ عَلَى وَهْنِ الْعَقِيدَةِ، وتقصير الروية، ومُضِرٌّ بالتدبير، مخل بالاختيار، وليس في نفع محمديَّهِ عَوْضٌ من فساد المروءة ولروم النقيصة. وكتابه هذا مملوء حكماً وعلماً. وسهل القائل: الطويل:

وَقَدْ تَرَكَ قَلْبِي مُحَلَّةً بَلْبَالٍ

تَقْسَمَنِي هَمَانٍ قَدْ كَسَفَا بِأَلِي

رَهِينَةُ خَذَرٍ ذَاتِ سِمَطٍ وَخُلْخَالٍ

هَمَا أَذْرِيَا دَمْعِي، وَلَمْ تَذَرِ عِبْرَتِي

سَوَى أَنْ تَحَاكِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذِيَالٍ

وَلَا قَهْوَةَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى الْمَدَى

لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ الْخَالِي

تَحَلَّلَ مِنْهَا جَرْمُهَا وَتَمَاسَكَتْ

عَلَى حَدَثٍ تَبْكِي لَهُ عَيْنٌ أَمْثَالِي

وَلَكَمَا أَبْكِي بَعَيْنٍ سَخِينَةٍ

وَخَفَّةَ حُرٍّ لَا يَقُومُ لَهَا مَالِي

فِرَاقِ خَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْأَسَى

لَفَقْدِ خَلِيلٍ أَوْ تَعَذُّرِ إِفْضَالٍ؟

فَوَاحَسَرْتِي حَتَّى مَتَى الْقَلْبُ مُوجَعٌ

وَإِلَّا لِقَاءَ الْخَلِّ ذِي الْخُلُقِ الْعَالِي

وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِنَائِلٍ

وهو القائل: البسيط:

مَنْ أَنْ يَرَانِي غَنِيًّا عَنْهُ بِالْيَاسِ

إِذَا امْرُؤٌ ضَاقَ عَنِّي لَمْ يَضِقْ خُلُقِي

مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا إِلَى النَّاسِ

لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أَغْنَى بِفَضْلَتِهِ

وَأَنشُدْ لَهُ الْجَاهِظُ يَهْجُو رَجُلًا: البسيط:

فَأَنْتَ تَعْمُرُ مَا شَادُوا وَمَا سَمَكُوا

مَنْ كَانَ يَعْمُرُ مَا شَادَتْ أَوَائِلُهُ

وَأَنْتَ تَحْوِي مِنَ الْمِيرَاثِ مَا تَرَكُوا

مَا كَانَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَحْوِيَ فَعَالَهُمْ

وقال محمد بن زياد الزياتي: وَجَدْتُ عَلَى سَهْلِ بْنِ هُرُونٍ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، فَهَجَوْتَهُ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ؛ أَمَّا بَعْدُ، فَالْسَّلَامُ عَلَى عَهْدِكَ وَدَاعِ ذِي ضَنْ بَكَ، فِي غَيْرِ مَقْلَبَةٍ لَكَ، وَلَا سَلْوَةٍ عَنْكَ، بَلِ اسْتِسْلَامٌ لِلْبَلْوَى فِي أَمْرِكَ، وَإِقْرَارٌ بِالْمَعْجِزَةِ فِي اسْتِعْطَافِكَ، إِلَى أَوَانِ فَيْئِكَ، أَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَنَا دَوْلَةً مِنْ رَجْعَتِكَ، وَالسَّلَامُ. وَكَتَبَ فِي أَسْفَلِ الْكِتَابِ: الْمُنْسَرَحُ:

عَفْوِكَ مَأْوَى لِلْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ

إِنْ تَعَفُّ عَنْ عَبْدِكَ الْمُسِيءِ فَفِي

أَتَيْتُ مَا اسْتَحَقُّ مِنْ خَطِيٍّ

فَجَدْتُ بِمَا اسْتَحَقُّ مِنْ حَسَنِ

من عِظَاتِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ

وقال الحسن البصري، رحمه الله في يوم فطر وقد رأى الناسَ وهَيَاتِهِمْ: إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضمراً لخلقِهِ، يَسْتَبِقُونَ فيه بطاعته إلى مَرْضَاتِهِ، فسبقَ قومٌ ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسيء بإساءته.

ونظر إلى قومٍ منصرفين من صلاة الفِطْرِ يتدافعون ويتضاحكون، فقال: الله المستعان! إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تُقبَل فما هذا محل الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبَل فما هذا محل الخائبين. وكان الحسن من الخطباء التَّسَاكُ الفقهاء الأجواد، ويقال: إنه لم يكن تابعيٍّ أفضل منه. هذا قول أهل العراق جميعاً، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه، وكان سعيدٌ أَحْسَنَ من الحسن وَرَعاً، وَأَشَدَّ الناسَ حَذَرًا، وَأَقْلَهُمَ كَلَامًا. وكان الحسن لا يدع أن يتكلَّم بما هَجَسَ في نفسه، وَجَاشَ في صدره.

وعلى ذكر الحسن شهرَ رمضان نقول:

ألفاظ لأهل العصر

في التهنئة بإقبال شهر رمضان

مع ما يتَّصل بها من الأدعية

ساق الله تعالى إليك سعادة إلهاله، وعَرَّفَكَ بركة كماله. قسم الله لك من فَضْلِهِ، ووفَّقَكَ لفرْضِهِ ونَقَلَهِ. لَقَّاكَ الله ما ترجو، ورقاك إلى ما تحته فيما تَتَلَوُهُ. جعل الله ما أَظْلَكَ من هذا الصوم مقرونًا بأفضلِ القبول، مُؤَدِّنًا بِدَرْكِ البُعْيَةِ ونُجْحِ المأمول، ولا أَخْلَاكَ من برِّ مرفوع، ودعاء مسموع. قَابَلَ الله تعالى بالقبول صيامك، وبعظيمِ المثوبة تهجدك وقيامك. عَرَّفَكَ الله من بركاته ما يُرَبِّي على عدد الصائمين والقائمين، ووفَّقَكَ الله لتحصيل أجرِ المتجهدين. أسأل الله تعالى أن يضاعِفَه بمنه لك، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مَرْضَاتِهِ عنك. أعاد الله إلى مولاي أمثاله، وتقبل فيه أعماله، وأصلح في الدين والدنيا أحواله، وبلَّغه منها آماله. أسعده الله بهذا الشهر، ووفاه فيه أجزلِ المثوبة والأجر، ووفر حظه من كل ما يرتفع من

دُعَاء الدَّاعِينَ، وَيَتَزَلُّ مِنْ ثَوَابِ الْعَامِلِينَ، وَقَبْلَ مَسَاعِيهِ وَزَكَاهَا، وَرَفَعَ دَرَجَاتِهِ وَأَعْلَاهَا، وَبَلَغَهُ مِنَ الْآمَالِ مُنْتَهَاهَا، وَظَفَرَ بِأَبْعَدِهَا وَأَقْصَاهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ: مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ قُوَّةٌ فِي دِينٍ، وَحَزْمٌ فِي لِينٍ، وَحِرْصٌ عَلَى الْعِلْمِ، وَقَنَاعَةٌ فِي فَقْرٍ، وَرَحْمَةٌ لِلْمَجْهُودِ، وَإِعْطَاءٌ فِي حَقٍّ، وَبِرٌّ فِي اسْتِقَامَةٍ، وَفَقَهُ فِي يَقِينٍ، وَكَسَبٌ فِي حَلَالٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ لِأَبِي السَّمَاكِ: بَلِّغْنِي عَنْكَ شَيْءً، قَالَ: لَا أَبَالِيهِ، قَالَ: وَلَمْ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ حَقًّا غُفِرَتْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا كَذِبَتْ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ صُبَيْحٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ السَّمَاكِ، خَيْرُ الْإِخْوَانِ أَقْلَهُمْ مَصَانِعَةً فِي النَّصِيحَةِ، وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ أَحْلَاهَا عَاقِبَةً، وَخَيْرُ الثَّنَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَخْيَارِ، وَأَشْرَفُ السُّلْطَانِ مَا لَمْ يَخَالِطْهُ الْبَطَرُ، وَأَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِرْصِ أَسِيرًا، وَخَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ لَمْ يَخَاصِمِ، وَخَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَعْوَفُهَا عَلَى الْوَرَعِ، وَإِنَّمَا يَخْتَبِرُ وُدُّ الرِّجَالِ عِنْدَ الْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ.

وَوَصَفَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ رَجُلًا فَقَالَ: إِنَّهُ بَسِيطُ الْكَفِّ، رَحْبُ الصَّدْرِ، مُوْطَأُ الْأَكْنَافِ، سَهْلُ الْخَلْقِ، كَرِيمُ الطَّبَاعِ، غَيْثٌ مُغِيثٌ، وَبَحْرٌ زَخُورٌ، ضَحُوكُ السِّنِّ، بَشِيرُ الْوَجْهِ، بَادِي الْقَبُولِ، غَيْرُ عُبُوسٍ، يَسْتَقْبِلُكَ بِطَلَاقَةٍ، وَيَحْيِيكَ بِبَشَرٍ، وَيَسْتَدِيرُكَ بِكَرَمِ غَيْبٍ، وَجَمِيلُ سِرٍّ، تَبْهَجُكَ طَلَاقَتُهُ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ، عَبْدٌ لَضِيْفَانِهِ، غَيْرٌ مَلَا حِظَ لِأَكِيلِهِ، بَطِينٌ مِنَ الْعَقْلِ، خَمِيصٌ مِنَ الْجَهْلِ، رَاحِحُ الْحِلْمِ، ثَاقِبُ الرَّأْيِ، طَيِّبُ الْخَلْقِ، مُحَصَّنُ الضَّرِييَةِ، مِعْطَاءٌ غَيْرُ سَائِلٍ، كَاسٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ، عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلَامَةٍ، إِنْ سُئِلَ بِذَلِكَ، وَإِنْ قَالَ فَعَلَ.

قَالَ أَبُو الْفَتْحِ كَشَاجِمُ: الطَّوِيلُ:

مَزَاجُكَ لِلْمُنَى مِنَ الْعُودِ وَالصَّبَا	مِنْ الرِّيحِ وَالصَّافِي الرِّقِيقِ مِنَ الْخَمْرِ
فَلَوْ كُنْتَ وَرْدًا كُنْتَ وَرْدًا مُضَاعَفًا	وَلَوْ كُنْتَ طَيِّبًا كُنْتَ مِنْ عَنَبِ الشَّحْرِ
وَلَوْ كُنْتَ لَحْنًا كُنْتَ تَأْلِيفَ مَعْبَدٍ	وَلَوْ كُنْتَ عُودًا مَا افْتَقَرْتَ إِلَى زَمَرٍ

وَقَالَ أَعْرَابِي: الطَّوِيلُ:

أَلَا حَبْدَا الْبُرْدُ الَّذِي تَلْبَسِينَهُ	وَيَا حَبْدَا مَنْ بَاعَكَ الْبُرْدُ مِنْ تَجَرٍ
فَلَوْ كُنْتَ مَاءً كُنْتَ مَاءَ غَمَامَةٍ	وَلَوْ كُنْتَ دُرًّا كُنْتَ مِنْ دُرَّةِ بَكْرِ
وَلَوْ كُنْتَ لَهْوًا كُنْتَ تَعْلِيلَ سَاعَةٍ	وَلَوْ كُنْتَ نَوْمًا كُنْتَ إِغْفَاءَةَ الْفَجْرِ
وَلَوْ كُنْتَ لَيْلًا كُنْتَ قَمَرَاءَ جُنُبَتِ	نُحُوسَ لَيْلَالِي الشَّهْرِ أَوْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

/بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر

تجري في المدح مجرى الأمثال، لحسن استعارتها، وبراعة تشبيهاتها:

فلان مسترضعٌ تُذَيّ الجحد، مُفْتَرَشٌ حِجْرَ الفضل، له صَدْرٌ تَضِيقُ به الدهناء، وتَفْزَعُ إليه الدهماء، له في كل مكرمة غُزَاهُ الإصباح، وفي كل فضيلة قَادِمَةُ الْجَنَاح، له صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح، ويترقرق فيها ماء الكرم، وتقرأ فيها صحيفة حُسْنِ البشر، تحيا القلوب بلقائه، قبل أن يُمِيتَ الفقرَ بعطائه، له خُلُقٌ لو مُزِجَ به البحرُ لنفى مُلُوحَتَه، وكفى كدورته. هو غذاء الحياة، ونسيم العشق، ومادة الفضل، آراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب، له هِمَّةٌ تعزل السماك الأعزل، وتجرّ ذيلها على الجُرَّة، هو راجحٌ في موازين العقل، سابقٌ في ميادين الفضل، يَفْتَرَعُ أبكارَ المكارم، ويرْفَعُ مَنَارَ المحاسن، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وريبع السماء يَضْحَكُ من فَوَاضِلِهِ. هو بيتُ القصيدة، وأول الحرّيدة، وعَيْنُ الكتيبة، وواسطة القلادة، وإنسانُ الحديقة، ودُرَّةُ التاج، ونقشُ الفص! وهو ملح الأرض، ودِرْعُ الملة، ولسانُ الشريعة، وحِصْنُ الأمة. هو غُرَّةُ الدهر والزمان، وناظر الإيمان. له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفضل، وشيَمَ نُشَامُ منها بَوَارِقُ المجد، أراج الزمانُ بفضله، وعَقَمَ النساءُ عن الإتيان. بمثلِه. الجميلُ لديه مُعْتَاد، والفضلُ منه مبدوءٌ ومُعَاد، مَالُهُ لِلْعَفَاةِ، مُبَاحٌ، وفعاله في ظلمة الدهر مِصْبَاحٌ، كأن قلبه عَيْنٌ، وكأن جسمه سَمْعٌ، يرى بأول رأيه آخر الأمر، جوهر من جواهر الشرف لا من جواهر الصّدْف، ويقاوتة من يواقيت الأحرار، لا يواقيت الأحجار، طلعتُه للبشاشة عليها ديباجة خُسْرَوَانِيَّة، وفيها للطلاقة روضة رَيْعِيَّة. وَجْهٌ كأنَّ بَشَرَتَه نشر البشر، ومواجهته أمانٌ من الدهر. يصل بيشره، قبل أن يصل ببرّه، قد لحظت من وجهه الأنوار، ومن بَنَانِه النّوَار. أنا من كرم عشرته، وطلاقة أسرته، في روضة وغدير، وجنةٍ وحرير، وهو بحرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر، ويومُه من يوم الأدب كعمر سبعة أنُسُر. العلم حَشْوُ ثيابه، والأدب ملء إهابه. هو شَخْصُ الأدب مائلاً، ولسانُ العلم قائلاً. شَجَرَةُ فَضْلٍ عودها أدب، وأغصانها علم، وثمرتها عقل، وعروقها سِرْوٌ، تسقيها سماء الحرية، وتغذيها أرضُ المروءة. هم ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الأرض إذا خربت، ومعرض الأيام إذا احتشدت؛ وهم جمالُ الأيام، وخواصُّ الأنام، وفرسان الكلام، وفلاسفة الإسلام. فلان غُصْنُ طَبْعِهِ نَضِير، ليس له في مَجْدِهِ نظير، قد جمع الحِفْظُ الغزير، والفَهْمُ الصحيح، والأدب القويّ القويم، وما يُؤْنِسُهُ من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر، ولا يَصْحَبُهُ في الوَحْدَةِ إلا الخابر. فلان يحل دقائق الأشكال، ويُزِيلُ معترض الإشكال. له خلقٌ كنسيم الأسحار، على صفحات الأنوار. كالماء صفاءً، والمسك ذكاءً. أخلاقٌ قد جمعت المروءة أطرافها، وحرست الحرية أكنافها. أخلاقٌ تجمع الأهواء المتفرقة على محبته، وتؤلف الآراء المتشعبة على مودته. أخلاقٌ أعذبُ من ماء العمام، وأحلى من ريق التحل،

وأطيب من زمان الورد. أخلاق أحسن من الدرّ والعقيان، في خور الحسان، وأذكى من حركات الروح والرياح. فلان يستحطّ القمر بطرفه، ويستترّل التّجم بلطفه. هو حُلُو المذاق، سهل المسّاغ. أجمل الناس في جدّ، وأحلاهم في هزل. يتصرف مع القلوب، كتصرف السحاب مع الجُنب. ذو جذ كعلو الجدّ، وهزل كحديثه الورد. له عشرة ماؤها يقطر، وصحوها من العصاره يطر. هو ريحانة على القدح، وذريعة إلى الفرّاح. عشرته ألطف من نسيم الشمال، على أديم الزلال، وألصق بالقلب، من علائق الحب. إذا أردت فهو سُبْحَة ناسك، أو أحببت فهو ثَفّاحة فاتك، أو اقترحت فهو مدرعة راهب، أو آثرت فهو نخبة شارب. أخباره زكية، وآثاره ذكية. أخباره تأتيها كما وشى بالمسك ريّاه، ونمّ على الصباح مَحْيَاه. قد انتشر من طيب أخباره ما زاد على المسك الفتيق، وأوفى على الزهر الأنيق. مناقب تشدّخ في جبينها غُزّة الصباح، وتتهادى أنباءها وفود الرياح. فلان أخباره آثاره، وعينه فراره، قد حصل له من حميد الذكر، وجميل النّشر، ما لا تزال الرواة تدرسه، والتواريخ تحرسه. سألت عن أخباره فكأنني حرّكت المسك فتيقاً، أو صبّحت الروض أنيقاً. أخباره متضوعة كتضوّع المسك الأذقر، ومشرقة إشراق الفجر الأنور. أحبّته بالخبر، قبل الأثر، وبالوصف قبل الكشف. هو ممن يثقل ميزان ودّه، ويخصف ميثاق عهده. هو كريم العهد، صحيح العقد، سليم الصدر في الود، حميد الورد فيه والصدّر. هو لإخوانه عدّة تشدّهم وتقويهم، ونور يسعى بين أيديهم. هو ركن الإخاء، صافي شرّب الوفاء، حافظ على الغيب ما يحفظه على اللقاء. هو ممن لا تدوم المداهنة في عرصات قلبه، ولا تحوم المواربة على جنبات صدره. هو يسري إلى كرم العهد، في ضياء من الرّشد. عهده نقش في صخر، وودّه نسب ملآن من فخر. يقبل من إخوانه العفو، كما يوليهم من إحسانه الصّفو. في ودّه غنى للطالب، وكفاية للراغب، ومرآة للصّحب، وزاد للركب. هو في حيل الوفاء حاطب، وعلى فرض الإخاء مواظب. النجح معقود في نواصي آرائه، واليمن معتاد في مذاهب أنحائه. له الرأى الثاقب الذي تخفى مكائده، وتظهر عوائده، والتدبير النافذ الذي تنجّع مبادئه، وتبهج تواليه. رأى كالسهم أصاب غرّة الهدف، ودهاء كالبحر في بُعد الغور وقرب المغترف، لا يضع رأيه إلا مواضع الأصالة، ولا يصرف تدبيره إلا على مواقع السداد والإصابة. يعرف من مبادئ الأقوال خواتم الأفعال، ومن صدور الأمور أعجاز ما في الصدور. رؤيته رأى صليت، وبديته قدر مصيب. يسافر رأيه وهو دأن لم يبرح، ويسير تدبيره وهو ثاو لم يترح. له رأى لا يخطئ شاكلة الصواب، ولا يخشى بادرة العثار. فلان يخمر الرأى ويحيله، ويجيد الفكر ويحيله، حتى يحصل على لب الصواب، ومحض الرأى. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر، هو قطب صواب تدور به الأمور، ومستنبط صلاح يرد إليه التدبير. يرى العواقب في مرآة عقله، وبصيرة ذكائه وفضله. وله رأى يرد الخطب مصلماً، والرمح مقلماً. آراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب، كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر

رقيق، ويطلعه بعين السداد والتوفيق. يستنبط حقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب. قد سرينا من مشورته في ضياء ساطع، ومن رأيه الصائب في حكم قاطع.

نبذ من مفردات الأبيات

في فرائد المدح

أبو نواس: البسيط:

وَكَلَّتْ بِالدهر عيناً غَيْرَ نائِمةٍ من جُودِ كَفِيكَ تَأْسُو كَلِّما جَرَحاً

الطائي: الوافر:

فلو صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْها على ما فيكَ من كَرَمِ الطَباعِ

البحري: الطويل:

ولو لَمْ يَكُنْ في كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بها فَلْيَنقِ اللهُ سائِلُهُ

وله: الطويل:

ولم أَرِ أَمْثالَ الرِّجالِ تَفاوَتوا لدى المجد حتى عُدَّ أَلْفٌ بواحدٍ

كشاجم: الخفيف:

عرفَ الفاضِلونَ فَضْلَكَ بالعل م وقالَ الجُهَّالُ بالتقلِيدِ

المتني: الكامل:

شَخَصَ الأَنامُ إلى كَمالِكَ فَاسْتَعَدَّ من شرٍّ أَعينَهُمُ بَعيبٍ واحدٍ

وله: الطويل:

ولَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ ناقِدُ

وله أيضاً: البسيط:

إنْ خوطَبوا أَوْ لُقُوا أَوْ كُوتِبوا وَجِدُوا في اللَّفْظِ وَالْهِيْجاءِ فُرْسانا

وله أيضاً: الكامل:

ذُكِرَ الأَنامُ لَنا فَكانَ قَصيدَةً كُنْتَ البَدیعَ الفَرْدَ في أَبياتِها

أبو العباس الناشي: الوافر:

خَلَقْتَ كَمَا أَرَادْتَكَ الْمُعَالِي

فَأَنْتَ لِمَنْ رَجَاكَ كَمَا يُرِيدُ

المأموني: الكامل:

وخلائق كالخمر دُونَ فعَالِه

حَبَبٌ لِهِنَّ وَمَا لِهِنَّ خُمَارُ

مجالس أهل الحكم

وقال إبراهيم الموصلي لموسى الهادي، وهو نديمه، وقد غناه صوتاً فأعجبه: إِنَّ مَنْ كَانَ مُحَلِّه مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَلِّي فِي الْإِنْبِسَاطِ وَتَقْدُمِ النَّدَامِ جِرَاءُ الْبَسْطِ عَلَى الْطَلْبِ، وَبَعَثَتْهُ الْمُنَادِمَةُ عَلَى الرَّجَاءِ، وَقَدْ نَصَبَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِقُرْبِي مِنْهُ مَشَارِعَ الرِّغْبَةِ إِلَيْهِ، وَحَثَنِي مُحَلِّي عِنْدَهُ عَلَى الْكُرُوعِ فِي الْمَنْهَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ: سَلْ شِفَاهَا، فَإِنِّي جَاعِلٌ فِعْلِي عَنْ إِجَابَتِكَ إِلَيْهِ حَاضِرًا؛ فَسَأَلَهُ مَا قِيَمَتُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

ولما ظفر الإسكندرُ بدارا بن دارا قال له: بِمَ اجْتَرَأَ عَلَيْكَ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ؟ قَالَ: بِتَرْكِي تَرْهِيئَهُ وَقَتَ إِسَاءَتِهِ وَتَفْرِيطِهِ، وَإِعْطَائِهِ وَقَتَ الْإِحْسَانِ الْيَسِيرِ مِنْ فَعْلِهِ نَهَايَةَ رَغْبَتِهِ. فَقَالَ الْإِسْكَنْدَرُ: نَعَمْ الْعَوْنُ عَلَى اسْتِصْلَاحِ الْقُلُوبِ الْمُوغَرَّةِ التَّرْغِيبُ بِالْأَمْوَالِ، وَأَصْلَحَ مِنْهُ عَاجِلًا التَّرْهِيْبُ وَقَتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ: خَرَجَ بَعْضُ مُلُوكِ الْفَرَسِ مَتَرَهًا، فَلَقِيَ بَعْضَ الْحُكَمَاءِ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَحْزَمِ الْمُلُوكِ، فَقَالَ: مِنْ مُلْكِ جَدِّهِ هَزْلُهُ، وَقَهْرُ لَبِّهِ هَوَاهُ، وَأَعْرَبُ لِسَانِهِ عَنْ ضَمِيرِهِ، وَلَمْ يَخْدَعْهُ رِضَاهُ عَنْ سَخَطِهِ، وَلَا غَضْبُهُ عَنْ صَدَقِهِ. فَقَالَ الْمَلِكُ: لَا، بَلْ أَحْزَمُ الْمُلُوكِ مَنْ إِذَا جَاعَ أَكَلَ، وَإِذَا عَطَشَ شَرِبَ، وَإِذَا تَعَبَ اسْتَرَاحَ. فَقَالَ الْحَكِيمُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَجَدْتَ الْفُطْنَةَ. هَذَا الْعِلْمُ مُسْتَفَادٌ أَمْ غَرِيزِي؟ قَالَ: كَانَ عِنْدَنَا مُعَلِّمٌ مِنْ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ، وَكَانَ هَذَا نَقْشَ خَاتَمِهِ. قَالَ: فَهَلْ عَلِمَكَ غَيْرَ هَذَا؟ قَالَ: وَمِنْ أَيْنَ يُؤْخَذُ مِثْلُ هَذَا عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: عَلِّمْنِي مِنْ حِكْمَتِكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ. قَالَ: نَعَمْ، احْفَظْ عَنِّي ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ. قَالَ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: صَقْلُكَ السِّيفَ لَيْسَ لَهُ جَوْهَرٌ مِنْ سِنْخِهِ خَطَأً، وَصَبَّكَ الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ السَّبِيخَةَ تَرَخُّو نَبَاتُهُ جَهْلٌ، وَحَمَلُكَ الْمَسْنَ عَلَى الرِّيَاضَةِ عَنَاءٌ. قَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِي: الْكَامِلُ:

وَالسِّيفَ مَا لَمْ يَلْفَ فِيهِ صَيِّقَلٌ

مِنْ سِنْخِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالٍ

وقيل لبعض الحكماء: مَا الدَّلِيلُ النَّاصِحُ؟ قَالَ: غَرِيزَةُ الطَّبْعِ. قِيلَ: مَا الْقَائِدُ الْمَشْفِقُ؟ قَالَ: حَسَنُ الْمَنْطِقِ. قِيلَ: فَمَا الْعِنَاءُ الْمُعْنَى؟ قَالَ: تَطْبِيعُكَ مَا لَا طَبْعَ لَهُ.

وكان أنوشروان يقول: النَّاسُ ثَلَاثُ طَبَقَاتٍ تَسُوسُهُمْ ثَلَاثُ سِيَاسَاتٍ: طَبَقَةٌ مِنْ خَاصَّةِ الْأَحْرَارِ تَسُوسُهُمْ

بالعطف واللين والإحسان، وطبقة من خاصة الأشرار تسوسهم بالغلظة والعنف والشدة، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة، لئلا تُخرجهم الشدة، ولا يطرهم اللين. وقال واصل بن عطاء: ألا قاتل الله هذه السفلة! ثَوادُ مَنْ حَدَّ الله ونبِيه، وتَحَادُّ مِنْ وَادِّ الله ونبِيه؟ وتَدَمُّ من مدحه الله، وتمدح من ذمه الله؛ على أنه بهم عُلِمَ الفضلُ لأهل الطبقة العالية، وبهم أُعْطِيَتِ الأوساطُ حظًّا من التَّبَلُّ.

وقيل لبعض الملوك، وقد بلغ في القدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه: ما الذي بلغ بك هذه المترلة؟ قال: عَفْوِي عند قدرتي، وليني عند شدتي، وبذلي الإنصاف ولو من نفسي، وإبقائي في الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال.

وقال الإسكندر لأحد الحكماء، وأراد سفراً: أَرشِدْنِي لأَحْزَمِ أَمْرِي. قال: لا تَمْلَأَنَّ قلبك من مَحَبَّةِ الشَّيْءِ، ولا يَسْتَوِلِينَ عليك بغضه، واجعلهما قَصْداً؛ فإن القلبَ كاسمُه يترع ويرجع، واجعل وزيرك التَّيْبَتَ، وَسَمِيرَكَ التَّيْقِظَ، ولا تُقَدِّمِ إلا بعد المشورة؛ فإنها نَعَمُ الدليل، فإذا فعلتَ ذلك ملكت قلوب رعيّتك. وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: سوء الظن. قيل: فما الصواب؟ قال: المشورة. قيل: فما الرأي الذي يجمع القلوب على المودّة؟ قال: كَفُّ بَذُولٍ، وبشر جميل. قيل: فما الاحتياط؟ قال: الاقتصاد في الحبِّ والبغض.

وسئل برزجمهر: ما المروءة؟ قال: تَرْكُ ما لا يعني. قيل: فما الحزم؟ قال: انتهازُ الفُرْصَةِ. قيل: فما الحلم؟ قال: العفو عند المقدرة. قيل: فما الشدة؟ قال: ملك الغضب. قيل: فما الخرق؟ قال: حب مُعْرِقٍ؛ وبغض مُفْرِطٍ.

قال معاوية، رضي الله عنه، لزياد حين ولّاه العراق: يا زياد، ليكن حُبُّك وبغضُك قَصْداً؛ فإن العثرة فيهما كامنة، واجعل للتروع والرجوع بقية من قلبك، واحذرْ صَوْلَةَ الانهماك، فإنها تؤدي إلى الهلاك.

ومن كلام بلغاء أهل العصر

في ذكر السلطان

أبو القاسم صاحب: مَرْضاة السلطان، لا تغلو بشيء من الأثمان، ولا يَبْذُلِ الروح والجَنان. تهب السلطانَ فَرَضٌ وَكِيدٌ، وَحَتَمٌ عَلَى مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد. أبو إسحاق الصابِي: الْمَلِكُ أَحَقُّ بِاصْطِفَاءِ رجاله منه بِاصْطِفَاءِ أمواله؛ لأنه مع اتساع الأمر وجلالة القدر

لا يَكْفِي بِالْوَحْدَةِ، ولا يستغني عن الكثرة؛ ومثله في ذلك مثل المسافر في الطريق البعيد الذي يجب أن تكون عنايته بفرسه المَجْنُوبِ، كعنايته بفرسه المَرْكُوبِ.

فصل للصابي: الملك بمن غلط من أَتْبَاعِهِ فَاتَّعَظَ أَشَدَّ انتفاعاً منه بمن لم يغلط ولم يَتَّعَظْ؛ فالأول كالقارح الذي أدَبَتْهُ العُرَّةُ، وأصلحَتْهُ الفَدَامَةُ، والثاني كالجَذَعِ الْمُتَهَوِّكِ الذي هو راكب للغرَّةِ وراكن إلى السلامة. وقيل: إن العظم إذا جبر من كَسَرِهِ عاد صاحبه أَشَدَّ بطشاً وأقوى أيداً.

أبو بكر الخوارزمي: لا صغير مع الولاية والعمالة، كما لا كبير مع العُطْلَة والبَطَالَة؛ وإنما الولاية أُنْثَى تصغر وتكبر بواليتها، ومطية تحسن وتقبح بمُمتطيها، والصَّدر لمن يليه، والدَّست لمن جلس فيه، والأعمال بالعمال، كما أن النساء بالرجال.

فصل له: إن ولاية المرء ثوبه؛ فإن قصر عَرِي منه، وإن طال عَثَر فيه. قليلُ السلطان كثير، ومُدارأته حَزْمٌ وتديبر، ومكاشفته غرور وتغرير.

أبو الفتح البستي: أجهلُ الناس مَنْ كان على السلطان مُدَلِّلاً، ولالأخوان مُدَلِّلاً.

أبو الفضل ابن العميد: الإبقاء على حَشَمِ السلطان وعُمَّاله عدلُ الإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه.

وله من رسالة طويلة، جواب لأبي شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صدرَ كتاب الله أبو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة:

أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جدُّه، على ما وهب لنا معاشرَ عبيده وخدمه خاصة، بل لرعاياه عامَّة، بل لأهل الأرض كافة، من عظيم النعمة بمكانه، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارنا في زمانه، حتى شاركناه في أسباب السعادة التي لم تزل مَذْخُورَةً عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه في مواد الفضيلة التي لم تزل محفوظة له حتى اتَّصَلَتْ به؛ فإنَّ المرءَ أَشَبَّ شيءٍ بزمانه، وصفات كل زمانٍ منتسخة من سجايا سُلْطَانِهِ؛ فإن فَضْلَ شاعِ الفضل في الزمان وأهله، وتحلَّى الدهرُ بأفضلِ حَلِيَّتِهِ، وتحلَّى للعيون والقلوب بأحسن زينته، وكسا بنيهِ والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِهِ، وأورثهم نَيْلَ فضلِهِ، وعزَّ العلم وأهله، وعرف لمقتبسه قَدْرَهُ، وتوجَّهت الأذهانُ نحوه، وتعلَّقت الخواطرُ به، وصرفت الفكر فيه، ونشدت ضوَّاهُ، ونظم أشْجَاتُهُ، وجمعت أفرادهُ، ووثقت نفوسُ الساعين في استفادته بِجُسْنِ عائِدته، فحرصت عليه، وصرفت نظرَها إليه، وأيقنت في بضاعتها بالنفاق، وفي تجارتها بالإِرْفاق، فصار ذلك إلى نماء العلوم وزيادتها داعية، ولتكنيز قليلها وإيضاح مجهولها سبباً وعلةً، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلاً، وإلى تقييد شواردها بعُقْلِ التآليف طريقاً. وإن رذل السلطان أثبتت الرذيلة اتباعاً، وذَهَبَت الفضائلُ ضياعاً، وبطلت الأقدارُ والقيم، وسلبت الأخطار والهمم، وزال العلم والتعلم، ودَرسَ الفهمُ والتفهم، وضربَ الجهلُ

بِجِرَانِهِ، وَوُطْئِ مَنْسَمِهِ، وَاسْتَعْلَى الْخُمُولُ عَلَى النَّبَاهَةِ، وَاسْتَوْلَى الْبَاطِلُ عَلَى الْحَقِّ، وَصَارَ الْأَدَبُ وَبَالاً عَلَى صَاحِبِهِ، وَالْعِلْمُ نَكَالاً عَلَى حَامِلِهِ. وَبِحَسَبِ عَظِيمِ الْحَنَةِ بِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَبِالْوَيْ مَعَ مَنْ هَذِهِ صَوْرَتُهُ، تَعْظُمُ النِّعْمَةُ تَمْلِكُ سُلْطَانِ عَالِمٍ، كَالْأَمِيرِ الْجَلِيلِ عِضْدِ الدَّوْلَةِ، أَطَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَقَاءَهُ، وَأَدَامَ قُدْرَتَهُ، الَّذِي أَحْلَاهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍّ مِنَ الْفَضَائِلِ. لَمَلَّتْ قِي طُرُقُهَا وَجُمِعَ فِرْقُهَا، فَهِيَ نَوَازِدُ مَنْ لَاقَتْ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهِ، وَشَوَارِدُ نَوَازِعٍ حَيْثُ حَلَّتْ حَتَّى تَقَعَ عَلَيْهِ، تَتَلَفَتِ الرَّامِقُ، وَتَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ تَشَوَّفَ الصَّبِّ الْعَاشِقِ، قَدْ مَلَكَهَا أُنَى تَوَجَّهَتْ وَحِشَةُ الْمَضَاعِ وَحَيْرَةُ الْمِرْتَاعِ: الطَّوِيلُ:

فَإِنْ تَغَشَّ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ تَزَرَّهُمْ فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحَلِّ

حتى إذا قابلته أسرعته إليه إسراع السيل ينصب في الحدور، والطير يتقض إلى الوكور.
وقال أبو الطيب المتنبى: المنسرح:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهَمِّ
وَأِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ، وَمَا
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِنُهَا أُمٌّ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَرَ حِينَ يَلْمُسُهُ
أَحَدْتُ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقَدَمُ
تَقْلُحُ عُرْبٌ مَلُوكُهَا عَجَمٌ
وَلَا عُهْدٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ
تُرْعَى بَعْدَ كَأَنَّهَا غَنَمٌ
وَكَانَ يُبْرِى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ

وقال الزبير بن بكار: قَدِمَ ابْنُ مِيَادَةَ، وَاسْمُهُ الرَّمَّاحُ بْنُ أَبَرْدٍ، زَائِرًا لِعَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ عِنْدَهُ لَيْلَةً فِي سُمَارِهِ؛ فَقَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي لَأَهَمُّ أَنْ أَتَزَوَّجَ فَابْعُونِي أَيْمًا، قَالَ ابْنُ مِيَادَةَ: أَنَا - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - أَذْلُكُ، قَالَ: عَلَى مَنْ، يَا أَبَا بَشَرٍ، نَمِيلُ؟ قَالَ: قَدِمْتَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، فَلَمَّا قَدِمْتَ أَلْفَيْتُ الْمَسْجِدَ وَإِذَا أَشْبَهَ شَيْءٌ بِهِ وَبِمَنْ فِيهِ الْجَنَّةُ وَمَنْ فِيهَا، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ قَادَتْنِي رَائِحَةُ رَجُلٍ عَطِرٍ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصْرِي عَلَيْهِ اسْتَلْهَى حُسْنَهُ نَاضِرِي، فَمَا أَقْلَعْتُ نَاضِرِي حَتَّى تَكَلَّمَ فَمَا زَالَ يَتَكَلَّمُ كَأَنَّمَا يَنْثَرُ دُرًّا، وَيَتَلَوُّ زَبُورًا، وَيَدْرُسُ إِنْجِيلًا، وَيَقْرَأُ فُرْقَانًا، حَتَّى سَكَتَ، فَلَوْلَا مَعْرِفَتِي بِالْأَمِيرِ مَا شَكَّكَتُ أَنَّهُ هُوَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مُصَلَّاهُ إِلَى دَارِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ مِنَ الْحَسَنِ بِمَكَانَةٍ، وَأَنَّهُ لِلْخَلِيفَتَيْنِ، وَأَنَّهُ قَدْ نَالَتهُ وَلَادَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهَا سَاطِعٌ مِنْ غُرَّتِهِ؛ فَإِنْ اجْتَمَعَتْ أَنْتَ وَهُوَ عَلَى وَلَدٍ سَادَ الْعِبَادَ، وَجَابَ ذِكْرُهُ الْبِلَادَ.

فلما قضى ابنُ مِيَادَةَ كَلَامَهُ قَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ وَمَنْ حَضَرَ: ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، لِفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقال ابن ميادة: الطويل:

لهم سيرة لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم وكل قضاء اللهُ فهو مُقَسَّمٌ

هذا في تقابل نسبه، وكمال منصبه، كقول عُويْفِ القوافي في طلحة بن عبد الله الزهري: الطويل:

يُصَمُّ رِجَالٌ حِينَ يُدْعَوْنَ لِلنَّدَى وَيُدْعَى ابْنُ عَوْفٍ لِلنَّدَى فَيَجِيبُ
وَذَاكَ امْرُؤٌ مِنْ أَيْ عِطْفِيهِ يَلْتَفِتُ إِلَى الْمَجْدِ يَحْوِي الْمَجْدَ وَهُوَ قَرِيبُ

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامي: البسيط:

أَقُولُ لِلْحَرْفِ لَمَّا أَنْ شَكْتُ أَصْلًا طَوَلَ السَّفَارَ وَأَفْنَى نِيَّهَا الرَّحْلُ
إِنْ تَرْجِعِي مِنْ أَبِي عَثْمَانَ مَنْجَحَةً فَقَدْ يَهُونُ عَلَى الْمُسْتَجِحِ الْعَمَلُ
أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَا يَحْزَنُكَ شَأْنُهُمْ إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدُ الْوَاحِدِ الْأَجَلَ

ومن قول القطامي: إن ترجعي من أبي عثمان منجحة أخذ الآخر قوله: الطويل:

إِذَا مَا تَعَنَّى الْمَرْءُ فِي إِثْرِ حَاجَةٍ فَأَنْجَحَ لَمْ يَنْتَقِلْ عَلَيْهِ عَنَاؤُهُ

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، قال الكلبي: هو عبد الواحد ابن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والأول قول ابن السكيت.

والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجود قوله، وفيها يقول مما يتمثل به: البسيط:

وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرَّرَ بِهِ عَيْنٌ وَلَا حَالٌ إِلَّا سَوْفَ يَنْتَقِلُ
وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِي وَلَأُمُّ الْمَخْطِئِ الْهَبْلُ
قَدْ يُدْرِكُ الْمَتَانِي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

قوله: والناس من يلقى خيراً قائلون له مأخوذ من قول المرقش: الطويل:

وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَى لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لَانْمَا

وقال عمرو بن سعيد للأخطل: أيسرك أن لك بشعرك شعراً؟ قال: لا، ما يسرني أن لي بقولي مقولاً من مَقَاوِيلِ الْعَرَبِ، غير أن رجلاً من قومي قال أبياتاً حسدته عليها، وإيم الله، إنه لمُعْدِفُ الْقَنَاعِ، ضَيِّقُ الذَّرَاعِ، قَلِيلُ السَّمَاعِ، قال: وَمَنْ هُوَ؟ قال: الْقُطَامِي، قال: وما هذه الأبيات؟ فأنشد له يَصِفُ إِبْلًا مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ: البسيط:

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلَّمُ
فَهِنْ مَعْتَرِضَاتٍ وَالْحَصَا رَمِضٌ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ وَالظِّلُّ مَعْتَدِلُ
يَتْبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْنَيْنِ تَحْسِبُهَا مَجْنُونَةً أَوْ تَرَى مَا لَا تَرَى الْإِبِلُ

بين اللفظ والحن

قال أبو العتاهية لمخارق: أنت بنعم ألفاظك دون نَعَم الحانك، تُطربُ إذا تكلمت، فكيف إذا ترنّمت!. وقال له يوماً: يا حكيم هذه الأقاليم، أصبُّ في هذه الآذان من جيد تلك الألحان، فأقسِّم لو كان الكلام طعاماً، لكان غناؤك له إداماً.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: دخلتُ على المعتصم يوماً وقد خلا، وعنده جارية تُعني، وكان معجباً بها، فلما جلست قال لي: يا أبا إسحاق، كيف تراها؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أراها تقهره بحذق، وتختله برفق، ولا تخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، وفي حلقها شذور نَعَم أحسن من دوام النعم، قال: يا إسحاق، هي غايات الأمل، ومُنسيات الأجل، والسقم الداخل، والشغل الشاغل، وإن صِفَتِكَ هذه لو سمعها مَنْ لم يرها لفقد لُبّه، وقضى نَحْبَه.

وسئل إسحاق عن المجيد من المغنين، فقال: مَنْ لُطِفَ في اختلاسه، وتمكّن من أنفاسه، وتفرّع في أجناسه، يكادُ يَعْرِفُ ضمائرَ مُجَالِسِيه، وشهواتِ مُعَاشِرِيه، يَقْرَعُ مسمع كلِّ واحد منهم بالنحو الذي يُوافقُ هواه، ويُطابقُ معناه.

وكان إسحاق بن إبراهيم قد جمع إلى حذقه بصناعته حُسْنَ التصرف في العلوم، وجوْدَةَ الصنعة للشعر، وحَدَّثَ عن نفسه فقال: كنت أيام الرشيد أبكر إلى هُشَيْم ووكيع فأسمعُ منهما، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شهيد؛ فطُطِرَ حُني صوتين، ثم أَصِيرُ إلى زلزل الضارب فأخذُ منه طريقين، ثم أسيرُ إلى متري فأبعثُ إلى أبي عبيدة والأصمعي، فلا يَزَالانِ عندي إلى الظهر، ثم أذهبُ إلى الخليفة.

ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فُنسِبَ إليها، وهو مولى خزيمه بن خازم التميمي، وفي ذلك يقول إسحاق: الطويل:

وقام بِنَصْرِي خَازِمٌ وابنُ خَازِمِ
بَنَانِي الثَّرِيَّا قاعداً غَيْرَ قائِمِ

إذا مضى الحمراء كانت أرومتي
عَطَسْتُ بِأَنْفِي شامخاً وتناوَلْتُ

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجاني يرثيه: الطويل:

ببغداد لما صدَّ عنه عوائدهُ
بك الموتُ مرْمَى ليس يصدر وارِدُهُ
من الدين والدنيا فإنك واجِدُهُ
ورفَّتْ حَوَاشِيه وطابت مشاهدُهُ

على الجدثِ الشرقي عوجاً فسلما
أِسْحاقُ، لا تبعد، وإن كان قد رَمَى
متى تأتِه يوماً تحاولُ مُنْفساً
إذا هزل اخضرَّتْ فروعُ حديثه

وإنَّ جَدَّ كَانَ الْقَوْلُ جِدًّا وَأَقْسَمْتُ

مخارجه أَلَّا تَلِينَ شَدَائِدُهُ

ومن جيد شعر إسحاق قصيدته في إسحاق بن إبراهيم المصعبي بعد إيقاعه بالخرمية: الطويل:

تَقَضَّتْ لِبَانَاتٌ وَجَدَّ رَحِيلُ

وَلَمْ يُشَفِّ مِنْ أَهْلِ الصَّفَاءِ غَلِيلُ

وَمُدَّتْ أَكْفٌ لِلوداعِ فِصَافَحَتُ

وَفَاضَتْ عَيُونٌ لِلْفِرَاقِ تَسِيلُ

وَلَا بَدَّ لِلْأَلْفِ مِنْ فَيْضِ عَبْرَةٍ

إِذَا مَا خَلِيلٌ بَانَ عَنْهُ خَلِيلُ

فَكَمْ مِنْ دَمٍ طُلَّ يَوْمَ تَحَمَّلَتْ

أَوَّانِسُ لَا يُودَى لِهَنْ قَتِيلُ

غَدَاةً جَعَلْتُ الصَّبْرَ شَيْئًا نَسِيْتُهُ

وَأَعُولْتُ لَوْ أَجْدَى عَلَيَّ عَوِيلُ

وَلَمْ أُنْسَ مِنْهَا نَظْرَةً هَاجَ لِي بِهَا

هَوَى مِنْهُ بَادٍ ظَاهِرٌ وَدَخِيلُ

كَمَا نَظَرْتُ حَوْرَاءُ فِي ظِلِّ سِدْرَةٍ

دَعَاهَا إِلَى ظِلِّ الْكِنَاسِ مَقِيلُ

فَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ تَلَفَاهُ أَيْنُقُ

عَتَاقَ نَمَاهَا شَدَقَمٌ وَجَدِيلُ

إِذَا قَلْبَتْ أَجْفَانُهَا بَتْنُوفَةٌ

طَوَى الْبَعْدَ مِنْهَا هَزَّةٌ وَذَمِيلُ

تَفَرَّدَ إِسْحَاقُ بِنُصْحِ أَمِيرِهِ

فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ عَدِيلُ

يَفْرَجُ عَنْهُ الشُّكُّ صَدَقَ عَزِيمَةُ

وَلُبَّ بِهِ يَغْلُو الرِّجَالُ أَصِيلُ

أَغْرَ نَجِيبُ الْوَالِدِينَ كَأَنَّهُ

حَسَامٌ جَلَّتْ عَنْهُ الْعَيُونُ صَقِيلُ

بَنِي مُصْعَبٍ، لِلْمَجْدِ فَيْكُمُ إِذَا بَدَتْ

وَجُوهُكُمْ لِلنَّاضِرِينَ دَلِيلُ

كَرُمْتُمْ فَمَا فَيْكُمُ جَبَانٌ لَدَى الْوَعَى

وَلَا مِنْكُمْ عِنْدَ الْعَطَاءِ بَخِيلُ

غَلَبْتُمْ عَلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ فَرَأَقَكُمْ

ثَنَاءُ بِأَفْوَاهِ الرِّجَالِ جَمِيلُ

إِذَا اسْتَكْثَرَ الْأَعْدَاءُ مَا قَلْتُ فَيْكُمْ

فَإِنَّ الَّذِي يَسْتَكْثِرُونَ قَلِيلُ

وهذا نمط الخذاق الفحول، وقال: الطويل:

وَمَدْرَجَةٌ لِلرَّيْحِ غَبْرَاءُ لَمْ يَكُنْ

لِيَجْشَمَهَا زَمِيلَةٌ غَيْرُ صَارِمِ

يَصِلُ بِهَا السَّارِي وَإِنْ كَانَ هَادِيًا

وَتَقَطَّعُ أَنْفَاسَ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ

تَعَسَّفْتُ أَبْرِي جَوْزَهَا بِشَمْلَةٍ

بَعِيدَةٍ مَا بَيْنَ الْعُرَى وَالْمَحَازِمِ

كَأَنَّ شَرَارَ الْمَرَوْ مِنْ نَبْذِهَا بِهِ

نَجُومٌ هَوَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي الْعَوَاتِمِ

إِذَا ضَمَّهَا وَالسَّفَرُ لَيْلٌ فَغِيِبَتْ

دِيَاجِيرُهُ عَنْهُمْ رُؤُوسُ الْمَعَالِمِ

تَنَادَوْا فَصَارُوا تَحْتَ أَكْنَافِ رَحْلِهَا

لِيَهْدِيَهُمْ قَدْحُ الْحَصَى بِالْمَنَاسِمِ

وقال: الطويل:

وَلَمَّا رَأَيْنَ الْبَيْنَ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَبِينَ الرِّكَّائِبُ

دَنَوْنَا فَسَلَمْنَا سَلَامًا مُخَالَسًا

فَرَدَّتْ عَلَيْنَا أَعْيُنٌ وَحَوَاجِبُ

تَصَدُّ بِلَا بُغْضٍ وَنَخْلُسُ لِمَحَّةٍ

إِذَا غَفَلَتْ عَنَا الْعَيُونُ الرُّوَاقِبُ

نَذَادُ إِذَا حُمْنَا لِنَشْفِي غَلَّةً

كَمَا ذِيدَ عَنْ وَرْدِ الْحِيَاضِ الْغَرَائِبُ

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشئ في هذا المعنى: الطويل:

وَلَمَّا رَأَيْنَ الْبَيْنَ زُمَّتْ رِكَابُهُ

وَأَيَقَنَ مَنْ بَانَقَطَاعِ الْمَطَالِبِ

طَلَبِنَ عَلَى الرِّكْبِ الْمَجْدِينَ عِلَّةً

فَعُجِّنَ عَلَيْنَا مِنْ صُدُورِ الرِّكَّائِبِ

فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا كَتَبْنَ بِأَعْيُنٍ

لَنَا كُتُبًا أَعْجَمَنَهَا بِالْحَوَاجِبِ

فَلَمَّا قَرَأْنَاهُنَّ سِرًّا طَوَيْنَهَا

حِذَارِ الْأَعَادِي بَازُورَارِ الْمَنَاقِبِ

وقال إسحاق: الطويل:

أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يَزَالُ رَمِيَّةً

لِلْمَحَّةِ طَرْفٍ أَوْ لِكِسْرَةِ حَاجِبٍ

وَلِلْخُمْرِ اللَّاتِي تَسَاقُطُ لَوْثُهَا

فَتُورِ الْخَطَا عَنْ وَارِدَاتِ الذَّوَائِبِ

وصف الذوائب

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز: الطويل :

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهَ شَعْرِهَا

شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ

فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ وَالذَّجَى

وَحَمْرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَخَدِّ حَبِيبِ

وقال بكر بن النطاح: الكامل:

بِيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ شَعْرِهَا

وَتَغِيبُ فِيهِ وَهُوَ جَبَلٌ أَسْحَمُ

فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مَبْصَرٌ

وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مَظْلَمٌ

وقال المتنبي: الكامل:

نَشَرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا

فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتُ لِيَالِي أَرْبَعَا

وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا

فَأَرَتْنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعَا

وقال ابن الرومي: المنسرح:

وفاحمٍ واردٍ يُقْبَلُ مَمَّ
شاه إذا اختال مُسْبِلًا غُدْرَةَ
أَقْبَلَ كاللَّيْلِ فِي مَفَارِقِهِ
منحدرًا لا يُرام مُنْحَدَرَةَ
حتى تناهى إلى موطنه
يلثم من كل موطن عَفْرَةَ
كأنه عاشقٌ دنا شغفًا
حتى قضى من حبيبهِ وَطْرَةَ
يُغْشِي غَوَاشِي قُرُونِهِ قَدَمًا
بيضاء للنَّاظِرِينَ مُقْتَدَرَةَ
مثل الثريا إذا بدت سحرًا
بعد غَمَامٍ وحاسرٍ حَسْرَةَ

أخذه بعض أهل العصر - وهو محمد بن مطران - فقال: الطويل:

ظَبَاءٌ أَعَارَتْهَا الظَّبَّاءُ حُسْنَ مَشْيِهَا
كما قد أعارَتْهَا العيونَ الجَاذِرُ
فَمِنْ حُسْنِ ذَاكَ المَشْيِ قَامَتْ فَقَبَّلَتْ
مواطئ من أقدامهن الغَاثِرُ

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

أَجْدَكَ هَلْ تَدْرِينَ أَنْ رَبَّ لَيْلَةٍ
كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُنْشَرُ
نَصَبَتْ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ
كغُرَّةٍ يَحْيَى حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

القصيدة والإنسان

قال الحاتمي: مثل القصيدة مثل الإنسان في اتِّصَالِ بعض أعضائه ببعض؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وبَايَنُهُ في صحَّةِ التركيب، غادر الجسمَ ذا عَاهَةٍ تَتَخَوَّنُ محاسنه، وتُعْفِي معالِمَه؟ وقد وجدتُ حُذَاقَ المتقدمين وأربابَ الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يَجَنِّبُهُمْ شَوَائِبَ النقصان، ويقفُ بهم على مَحَجَّةِ الإحسان، حتى يقعَ الاتِّصَالُ، ويؤمِّنَ الانفصال، وتأتي القصيدة في تَنَاسُبِ صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمدحها كالرسالة البليغة، والخُطْبَةُ الموجزة، لا ينفصلُ جزءٌ منها عن جزء، وهذا مذهبٌ اختصَّ به المحدثون؛ لتوقُّدِ خواطرهم، ولُطْفِ أفكارهم، واعتمادهم البديع وأفانيه في أشعارهم، وكأنه مذهبٌ سهَّلوا حَزَنَهُ، ونَجَّوا رَسْمَهُ؛ فأَمَّا الفحول الأوائِل، ومنَ تَلاَهُمْ منَ المخضرمين والإسلاميين فمذهبُهم المتعالم عدو عن كذا إلى كذا وقُصَّارَه كل واحدٍ منهم وَصَفُ ناقته بالعِتق، والتَّجَابَةِ والنجاء، وأنه امتطَّاها؛ فادَّرعَ عليها جِلْبَابَ اللَّيْلِ؛ وربما اتَّفَقَ لأحدهم معنى لطيف يتخلَّص به

إلى غرضٍ لم يتعمّده إلا أن طبعه السليم، وصرّاطه في الشعر المستقيم، نصباً منارَه وأوقداً باليفاع نارَه؛
فمن أحسن تخلص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبياني: الطويل:

فَكَفَّكَتْ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا على النَّحْرِ، مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعُ
على حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وقلتُ: أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ

وقد حالَ هَمٌّ، دُونَ ذَلِكَ، شَاغِلٌ مكانَ الشَّغَافِ، تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ
وعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوْاجِعُ

وهذا كلام متناسخ، تقضي أوائله أوآخره، ولا يتميِّز منه شيء عن شيء: الطويل:

أَتَانِي، أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أَنْكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مقالة أن قد قلتَ سوف أناله وذلك من تَلَقَّاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

ولو توصل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني، وفتحوا أبواب البديع، واجتنوا ثمرَ
الآداب، وفتحوا زهرَ الكلام لكان معجزاً عجباً، فكيف بجاهلٍ بدويٍ إنما يغترفُ من قليب قَلْبِهِ، ويستمدُّ
عفوً هاجسه.

وقال عليّ بن هارون المنجم عن أبيه: لم يتوصل أحدٌ إلى مدح يمثل قول ابن وهيب: الكامل:

ما زال يُلْثِمُنِي مَرَاشِفُهُ وَيُعْلِنِي الْإِبْرِيْقُ وَالْقَدْحُ
حتى استرد الليل خلعتُهُ وَبَدَا خِلَالَ سَوَادِهِ وَضَحُ
وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَن غُرَّتُهُ وَجَهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

وقال علي بن الجهم: البسيط:

وليلة كَحَلَّتْ بِالنَّفْسِ مُقْلَتَهَا أَلَقْتُ قِنَاعَ الدُّجَى فِي كُلِّ أُخْدُودِ
قد كاد يُغْرِقُنِي أَمْوَاجُ ظُلْمَتِهَا لَوْلَا اقْتِنَاسُ سَنَاءِ وَجْهِ ابْنِ دَاوُدَ

قوله: كَحَلَّتْ بِالنَّفْسِ مُقْلَتَهَا مأخوذ من قول أعرابي: والليل. قد صَبَغَ الْحَصَى بِمِدَادِ.

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال: الوافر:

أَبْنِ لِي كَيْفَ صَرِثَ إِلَى حَرِيمِي وَجَفَنُ اللَّيْلِ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال: الطويل:

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلِ كَأَنَّهُ قَدْ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وقد أخذ لفظ الأعرابي المتقدم أبو نواس فقال: الرجز:

والصُبْحُ يَنْفِيهِ عَنِ الْبِلَادِ

وقد أَعْتَدِي وَاللَّيْلُ كَالْمَدَادِ

طرد المشيب حالك السَّوَادِ

وإنما نظرَ في هذا إلى قول الأعرابي: البسيط:

إلى الغروب: تأمل نظرة حارِ

أقول والليلُ قد مالتْ أواخرُهُ

أم وجهُ نَعْمِ بَدَا لي أم سَنَا نَارِ؟

ألمحه من سَنَا بَرَقَ رأى بصري

فلاحَ ما بين حُجَابٍ وَأَسْتَارِ

بل وجهُ نَعْمِ بَدَا والليلُ مُعْتَكِرِ

ومن بديع الخروج قول علي بن الجهم وذكر سحابة: الطويل:

شَغَلَتْ بِهَا عَيْنًا طَوِيلًا هَجْوَهَا

وسارية تَزْدَارُ أرضاً بِجَوْدِهَا

فتاة تُرَجِّيها عَجُوزٌ تقودها

أَتَتْنَا بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَكَأَنَّا

بأودية ما تستفيق مُدْوُودَهَا

فما بَرِحَتْ بِغَدَادَ حَتَّى تَفْجُرَتْ

أَتَاهَا مِنَ الرِّيحِ الشَّمَالِ بَرِيدَهَا

ولما قُضِيَ حَقُّ الْعِرَاقِ وَأَهْلُهُ

كَأَنَّهَا جَنُودُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَلَتْ بُنُودَهَا

فَمَرَّتْ تَقَوْتُ الطَّيْرِ سَبَقًا

يريد انصراف أصحاب عبيد الله بن خاقان عن الجعفري إلى سُرٍّ من رأى عند قتل المتوكل. وقد أخذ هذا

التشبيه معكوساً من قول أبي العتاهية: الوافر:

تَمَرُّ كَأَنَّهَا قَطَعَ السَّحَابِ

ورايات يَحُلُّ النَصْرُ فِيهَا

وقال ديك الجن: الخفيف:

ح بجور، وفي الهوى بمحالِ

وغير يقضي بحكمين: في الرا

حُمْلَ لَيْنًا، وَجِيْدُهُ لِلْغَزَالِ

لِلنَّاقَا رِدْفُهُ، وَلِلْخُوطِ مَا

عَلْ جَدْوَى يَدَيْكَ بِالْأَمْوَالِ

فَعَلَّتْ مُقْلَتَاهُ بِالصَّبِّ مَا تَفْ

ومن بارع الخروج قول المتنبي: البسيط:

من أين جَانَسَ هَذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تَرْبِيَّتِهَا فَقُلْتُ لَهَا

لَيْتَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عَجَلٍ إِذَا انْتَسَبَا

فَاسْتَضَحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمَغِيثِ يُرَى

واشتهار شعره، يمنعني من ذكره.

افتتاح القصائد بالغزل

قال ابن قتيبة: سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدَّمن والآثار؛ فبكى وشكا، وخاطبَ الربع، واستوقف الرفيق؛ ليَجعلَ ذلك سبباً لذكر أهله الطاعنين، إذ كانت نازلةُ العمد في الحلول والطعن على خلاف ما عليه نازلة، المَدَر؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكَلأ، وتتبعهم مساقطُ الغيث حيثُ كان؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فبكى شدة الوجد، وألم الصبابة والشوق؛ لِيُميلَ نحوه القلوب، ويَصْرِفَ إليه الوجوه، ويستدعي إصغاءَ الأسماع، لأن النسيب قريبٌ من النفوس، لائط بالقلوب، لما جعل الله تعالى في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس أحداً يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّبَ بإيجاب الحقوق؛ فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسهر، وسُرَى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمام التأميل، وقرَّرَ عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وفَضَّلَه على الأشباه، وصعَّرَ في قدره الجزيل، وهزَّه لفعل الجميل؛ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر، ولم يطل فيميل السامعين، ولم يقطع وفي النفوس ظمأ إلى المزيد.

بين أبي تمام والبحري

ويتعلَّق بهذه القطعة ما حدَّث به الخاتمي عن نفسه، وإن كانت الحكاية طويلة فهي غيرُ مملولة؛ لما لبسَتْه من حُلل الآداب، وتزيّنت به من حُلَى الألباب، قال: جمعي ورجلاً من مشايخ البصرة ممن يُوماً إليه في علم الشعر مجلسُ بعض الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليَّ في عصبِيته للبحري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحبَ المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأتُ قولاً أنحيتُ فيه على البحري إنحاءً أسرفتُ فيه، واقتدحتُ زنادَ الرجل، فتكلَّم وتكلَّمْتُ، وخُضْنَا في أفانين من التفضل والمماثلة، غلوتُ في جميعها غلواً شهدته جميع من حضر المجلس، وكانوا جُمَّة الوقت، وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام بيتي، ولا يخرج، ولا يختم، ولو لم يكن للبحري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءاته، ولطفُ خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يَقَعَ التسليم له، فكيف بأوابده التي تزدادُ على التكرار غَضارةً وجدةً، ثم أقبل عليّ، فقال: أين يُذهب بك عن ابتداءه: الكامل:

حتى أضاء الأَقحوان الأَشنبُ

عارضنا أصلاً فقلنا الرَّبُّ

منهنّ ديباجُ الخدودِ المذهبُ

واخضرَ مَوْشِيُ البرودِ وقد بدَا

وَأَنَّ لَأبي تمام مثل خروجه حيث يقول: الطويل:

سقاكَ الحيا رَوحاته وبواكرُهُ

أدارَهُمُ الأولى بدارة جُلجل

فروتكَ رِيّاهُ وجادَكَ ماطرُهُ

وجاءكَ يحكي يوسف بن محمد

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال: البسيط:

لو جُدْتَ جودَ بني يَزْدانَ لم تَزِدْ

تتصَّبُ البرقُ مختالاً فقلت له

ومن ذا الذي لَطَفَ لأن يخرج من وصف روض إلى مدح، فقال أحسن من أقوله: الطويل:

تبُلُجُ عيسى حين يَلْفُظُ بالوعْدِ

كَأنَّ سناها بالعشيِّ لصَحْبها

وَأَنَّي لَأبي تمام مثلُ حسن انتهائه حيث يقول: الطويل:

يُسَيِّرُ ضاحيَ وشيها ويُنَمُّ

إليك القوافي نازعاتٍ شوارداً

بهاءً وحسناً أنها لك تنظّم

ومشرقةً في النظم غراً يزيدها

وقوله في هذا المعنى: الطويل:

هي الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمًا

ألست الموالِي فيكَ نَظْمَ قصائدٍ

ضحى، وتخالُ الوَشْيُ فيه مُنَمّما

ثناء تَخالُ الروضَ فيه منوراً

ولقد تقدم البحري الناسَ كلهم في قوله: الكامل:

في وَسْعِهِ لسعى إليك المنبرُ

لو أنَّ مشتاقاً تكَلَّفَ فوق ما

قال أبو علي: وكنت ساكناً إلى أن استتمّ كلامه، فكأن الجماعة أعجبهم ذلك، عصبيةً عليّ لا على أبي تمام؛ لأني كنت كالشجى معترضاً في هواهم، وأسّرَ كلَّ واحدٍ منهم إلى صاحبه سرّاً يومئ به إلى استيلاء الرجل عليّ؛ فلما استتمّ كلامه وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعِّعُ له بالشَّان، ولا يُقَرِّعُ له بالعصا، لا إله إلا الله! استتت الفصالُ حتى القرعى! هل هذه المعاني إلا عُون مُفْتَرَعَة، قد تقدم أبو تمام إلى سبكِ نُضارها، وافتضاض أبكارها، وجرى البحري على وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها، فأما قوله: عارضنّا أصلاً فقلنا الربوب، فمن قول أبي جُوَيْرِيَة العبدى: الكامل:

فكأنما نظرت إلينا الربرب

سلمن نحوي للوداع بمقلة

كادت تكلمنا وإن لم تُعرب

وقرأن بالحدقِ المِراض تحية

وأما قوله في صفة الغيث مخاطباً للدار: وجاءك يحكي يوسف بن محمد، وقوله في هذا المعنى: لوجدت
جود بني يزدان لم تزد فمن قول أبي تمام: الكامل:

ولنؤيها في القلب نُؤي شفه

وكأنما استسقى لهن محمد

ومن قوله الذي تقدم فيه كلّ أحد لفظاً رقيقاً ومعنى رقيقاً: الوافر:

ديمة سَمَحَة القياد سَكُوبُ

لو سَعَتْ بقعة لإعْظَام نُعمى

ومن هنا أخذ البحترى: لسعى إليك المنبر: الوافر:

أيها الغيثُ، حيّ أهلاً بمغداً

لأبي جعفرٍ خلّاقُ تحكي

أنت فينا في ذا الأوان غريبٌ

وأما قوله: الطويل:

كأن سناها بالعشي لصحبها

فإنما نظر فيه إلى قول دَعْبِل بن علي: المتقارب:

وميثاء خضراء زُرْبِيَّة

ضحوكاً إذا لاعتبته الرياح

فشبهه صحبي سنا نورها

فقلت: بَعْدْتُمْ، ولكنني

فتى لا يرى المال إلا العطاء

وأما قوله في صفة الغواني: يسير ضاحي وشيها وينمنم وقوله في وصفها: وتخال الوشي فيه منمنماً فمن
قول أبي تمام: الكامل:

حلوا بها عَقْدَ النسيب، ونَمَمُوا

ومن قوله الذي أبدع فيه: الطويل:

ووالله لا أنفك أهدي شوارداً

تخال به بُرداً عليك محبّراً

إليك تحمّلن الثناء المنخلاً

وتحسبه عقداً عليك مفصّلاً

أَلَذَّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً

من المسك مفتوقاً وأيسرَ مَحْمَلاً

أخف على قلبي وأثقلَ قِيَمَةً

وأقصرَ في قلبِ الجليس وأطولاً

وقول البحري: هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عنه كل تقصير عن
استيفاء إحسانه حيث يقول: الطويل:

أَصِخْ تَسْتَمِعْ حُرَّ الْقَوَافِي؛ فَإِنَّهَا

كواكبُ إلا أَنهِنَّ سَعُودُ

ولا تمكن الإخلاقَ منها فإنما

يلدُ لباسُ البُرْدِ وهو جديـدُ

فهذه خصال صاحبك فيما عددته من محاسنه التي هتكت بها ستور عَوَارِهِ، ونَشَرَتْ مطوي أسرارِهِ، حتى
استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة، ووديعه منتزعة، فاسمع ما قال أبو تمام في نحو أبياتك
التي أوجبت الفضل لصاحبك حين قال مبتدئاً: الكامل:

لا أَنْتَ أَنْتَ، ولا الديارُ ديارُ

خف الهوى، وتفضت الأوطارُ

كانت مجاورةً الطلولِ وأهلها

زمناً عذابَ الوردِ فهي بحرُ

وقوله: الكامل:

رَفَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرْمَرُ

وغدا الثرى في حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ

وقوله: الكامل:

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودٍ

عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللَّوَى وَزَرُودٍ

وهل يستطيع أحد أن يتدبّر مثل ابتدائه: الكامل:

طَلَّ الْجَمِيعُ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيداً

وكفى على رُزْئِي بذاك شهيداً

دِمْنٌ كَأَنَّ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِباً

دمناً لدى آرامِها وحقوقها

أو مثل قوله مبتدئاً: الكامل:

يَا دَارُ، دَرَّ عَلَيْكَ إِرْهَامُ النَّدَى

واهتزَّ رَوْضُكَ لِلثَّرَى فَتَرَّءَدَا

وكسبت من خلع الحيا مستأسداً

أنفاً يغادرُ وحشهُ مستأسداً

أو مثل قوله مبتدئاً: الطويل:

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمَاعَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ

وعاد قَتَاداً عندها كلُّ مَرَقَدٍ

فأذرى لها الإشفاقُ دمعاً مورداً

من الدم يجري فوق خدِّ مورِدٍ

ولقد أحسن حين ابتداء فقال: الوافر:

نوارٌ في صواحبها نوارٌ

كما فاجاك سرِّبٌ أو صوارٌ

تكذَّبَ حاسدٌ فنأتَ قلوبٌ

أطاعتْ وأشيأَ ونأتَ ديارٌ

وحيث يقول: الكامل:

ما في وقوفك ساعةً منَّ بأسٍ

تَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبَعِ الأُدْرَاسِ

فلعلَّ عينك أنْ تجودَ بدمعِها

والدمعُ منه خاذلٌ ومواسي

وحيث يقول: الخفيف:

ما عَهَدْنَا كذا نَحِيبَ المشوقِ

كيف والدمعُ آيةُ المعشوقِ

وحيث يقول: الكامل:

دِمْنُ أَلَمٍ بها فقال: سلامٌ،

كم حلَّ عقدةَ صَبْرِهِ الإمامُ؟

نحرت ركابُ الركبِ حتى يعبرُوا

رجلاً، وقد عنفوا عليَّ ولأموا

وحيث يقول: البسيط:

أما الرسوم فقد أَذْكَرَنَ ما سلفا

فلا تكفَنَّ عن شانيك أو يكفَا

لا عذرَ للصبِّ أنْ يَقْنَى السِّلْوَ ولا

للدمع بعد مضيِّ الحيِّ أنْ يَقِفَا

ومن اقتضاباته البعيدة قوله: الطويل:

لهانَ علينا أنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا

ونذكرَ بعضَ الفضلِ منك فَتُفَضِّلَا

وقوله أيضاً مقتضياً الكامل:

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَواري

فحذارٍ من أَسَدِ العَرِينِ حَدَارِ

ومما تقدَّم فيه كلُّ واحدةٍ في حسنِ التخلصِ إلى المدحِ قوله: البسيط:

إِسَاءَةُ الحَادِثَاتِ اسْتَنْبِطِي نَفَقاً

فقد أَظْلَكَ إِحْسَانُ ابنِ حَسَّانِ

وقوله: الطويل:

إذا العيسُ لَأَقَتَ بي أبا دُلْفٍ فقد

تَقَطَّعَ ما بيني وبينِ النوائِبِ

وقوله: البسيط:

لم يجتمعَ قطُّ في مصرٍ ولا طرفٍ

محمدُ بنُ أبي مروانَ والنُّوبُ

وقوله المنقطع دونه كل قول في هذا المعنى: الكامل:

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا
فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا
الْقَوْمَ ظَلَّ اللَّهُ أَسْكَنَ دِينَهُ

وقوله: الكامل:

أَقْوَاتَهَا لَتَصْرِفُ الْأَحْرَاسَ
وَبَنُو الرِّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ
فِيهِمْ، وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي

عَامِي وَعَامُ الْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ
حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا
هِيَهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ
بِمَعْرِسِ الْعَرَبِ الَّذِي وَجَدَتْ بِهِ

ومن أبدع ابتدائه قوله: الكامل:

وَعَدْتُ عَلَيْهِمْ نَضْرَةً وَنَعِيمَ
مَا عَهْدُهَا عِنْدَ الدِّيَارِ ذَمِيمِ

سَقَى دِيَارَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمِ
جَادَتْ مَعَاهِدَهُمْ عَهْدًا سَحَابِيَّةً
ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى الْمَدْحِ فَقَالَ وَأَحْسَنُ كُلِّ إِحْسَانٍ:

مُرٌّ وَأَنْ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمِ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومِ

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوُدَادِ وَلَا غَدْتُ

ثم عاد إلى المدح، فقال:

مَجْدٌ إِلَى حَيْثُ السَّمَاءِ مَقِيمِ
طَرَفِيهِ فَهُوَ أَخٌ لَهُ وَحَمِيمِ

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةِ
مَلِكٌ إِذَا نُسِبَ النَّدَى مِنْ مِلْتَقِي

وأبو تمام الذي وصف القوافي بما لم يستطع وصفها به أحد فقال: الطويل:

عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ
وَتَتَقَادُ فِي الْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ قَائِدٍ
إِلَى كُلِّ أَفَقٍ وَاحِدًا غَيْرَ وَافِدٍ
فَتَصْدُرُ إِلَّا عَنْ يَمِينٍ وَشَاهِدٍ

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَحْمَدَكَ عَنِّي صَاغِرًا
بَسِيحَةً تَتَسَاقُ مِنْ غَيْرِ سَائِقٍ
مَحَبَّةً مَا إِنَّ تَزَالَ تَرَى لَهَا
مَخْلَقَةً لَمَّا تَرَدُّ أَذْنَ سَامِعٍ

والذي قال أيضاً في صفتها: الكامل:

سِمْطَانٍ فِيهَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ

جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ

إنسية وحشية كثرت بها
حذيت حذاء الحضرميه أرهفت
حركات أهل الأرض وهي سكون
ينبوعها خضل، وحلي قريضها
وأجادها التخصير والتلسين
أخذاكها صنع الضمير يمدّه
حلي الهدى، ونسجها مؤنون
أما المعاني فهي أكار إذا
حسب إذا نضب الكلام معين
نصت، ولكن القوافي عون
وقد أبدع في وصفها فقال: الكامل:

لم أبق حلية منطق إلا وقد
سبقت سوابقها إليك جيادي
أبقين في أعناق جودك جوهرأ
أبقى من الأطواق في الأجياد

هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أو شيئاً منه إلى السرّاق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري، أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله؟ فعني عن الجواب قصوراً، وأحجم عن المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين. وكان يوماً مشهوداً.

حول الغناء

وقال ثمامة بن أشرس: كنت عند المأمون يوماً، فاستأذن الغلام لعمير المأموني فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية في وجهي، فقال: يا ثمامة، ما بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إذا غنانا عمير ذكرت مواطن الإبل، وكثبان الرمل، وإذا غننا فلانة انبسط أملّي، وقوي جذلي، وانشرح صدري، وذكرت الجنان والولدان، كم بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصن بان، ترنو بمقلة وسنان، كأنما خلقت من ياقوتة، أو خرطت من فضة، بشعر عكاشة العمي حيث يقول: الكامل:

من كف جارية كأن بنانها
من فضة قد طرفت عنابا
وكان يمانها إذا ضربت بها
تلقي على الكف الشمال حسابا

وبين أن يغنيك رجل كثر اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول: الطويل:

رأيت زهيراً تحت كلّل خالد
فأقبلت أسعى كالعجول أبادره

وكم بين أن يحضركَ مَنْ تشتهي النظرَ إليه، وبين من لا يقفُ طرفك عليه؟ فتبسّم المأمون، وقال: الفرق بينهما واضح، والمنهج فسيح؛ يا غلام، لا تأذنْ له، وأحضِرْ طيبَ قَيْنَاتِه، فظللنا في أمتعِ يوم.
وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصري، نقيّ الديباجة، ظريف الشعر، كان شاعراً مجيداً. وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشئ، وزاد فيه، فقال: الكامل:

وَإِذَا بَصُرْتَ بِكَفْهَا الْيُسْرَى حَكَتْ
يَدَ حَاسِبٍ تُلْقِي عَلَيْكَ صَنُوفَا
فَكَأَنَّمَا الْمَضْرَابُ فِي أَوْتَارِهِ
قَلَمٌ يُمَجِّجُ فِي الْكِتَابِ حُرُوفَا
وَيَجْسُهُ إِيهَامُهَا فَكَأَنَّمَا
فِي النِّقْرِ تَنْفِي بِهِرَجاً وَزُيُوفَا

أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلمي وذكر ناقتة: البسيط:

تَطِيرُ عَنْهَا حَصَى الظَّرَانِ مِنْ بَلَدٍ
كَمَا تُتَوَقَّدُ عِنْدَ الْجِهْدِ الْوَرَقُ
وأصله قول امرئ القيس: الطويل:

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرَوْ حِينَ تُشَدُّهُ
صَلِيلُ زَيْوْفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرَا
وقال أبو الفتح كشاجم: الكامل:

لَوْ لَمْ تَحْرِكْهُ أَنْامِلُهَا
كَانَ الْهَوَاءُ يُعِيدُهُ نَطْقَا
جَسْتُهُ عَالِمَةٌ بِحَالَتِهِ
جَسَّ الطَّبِيبِ لِمَدْنَفِ عِرْقَا
غَنَّتْ فَخِلْتُ أَظُنُّنِي طَرِبَا
أَسْمُو إِلَى الْأَفْلَاكِ أَوْ أَرْقَى
وَحَسِبْتُ يُمْنَاهَا تَحْرِكُهُ
رَعْدَا وَخِلْتُ يَسَارَهَا بَرَقَا

وأنشد الحاتمي لأبي بكر الصولي: الخفيف:

وَعَنَاءُ أَرْقٍ مِنْ دَمْعَةِ الصَّبِّ وَشَكْوَى الْمَتِيمِ الْمَهْجُورِ
يَشْغُلُ الْمَرْءَ مَنْظَرٌ ثُمَّ نَطَقُ
فَهُوَ يُصْنَعِي بِظَاهِرِ وَضْمِيرِ
صَافِحَ السَّمْعِ بِالَّذِي يَشْتَهِيهِ
وَأَذَاقَ النَّفُوسِ طَعْمَ السَّرُورِ
لَيْسَ بِالْقَائِلِ الضَّعِيفِ إِذَا مَا
رَاضَ نَغْمًا وَلَا الشَّنْبَعِ الْجَهِيرِ

وقال أبو نُوَاس: الوافر:

وَأَهْيَفَ مِثْلَ طَاقَةِ يَاسْمِينِ
لَهُ حَظَّانٌ مِنْ دُنْيَا وَدِينِ
يَحْرَكُ حِينَ يَشْدُو سَاكِنَاتِ
فَتَتَبَعُ الثَّوْبَانِ لِلْسَّكُونِ

وهذا مليح، يريد حركة الجوانح للغناء، وسكون الجوارح للاستماع. وقال الحمدوني يصف عوداً:
البسيط:

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له كأنه فخذٌ نِيطْتُ إلى قَدَمِ
يُبْدِي ضميرَ سِوَاهُ للقلوبِ كما يبدي ضميرَ سِوَاهُ منطقَ القلمِ

في صفة القيان

ومن أحسن ما قيل في صفة القيان قولُ ابن الرومي: الخفيف:

وقيان كأنها أمهاتٌ عاطفات على بَنِيهَا حَوَانِي
مُطْفَلَاتٍ وما حملنَ جنيناً مرضعات ولَسْنَ ذاتَ لَبَانِ
مَلَقِمَاتٍ أَطْفَالَهُنَّ تُدِيّاً نَاهِدَاتٍ كَأَحْسَنِ الرُّمَانِ
مفعمات كأنها حافلاتٌ وَهِيَ صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ
كل طفل يُدعى بأَسْمَاءٍ شَتَى بين عُوْدٍ ومزهرٍ وكِرَانِ
أُمُهُ دَهْرَهَا تَتَرَجِّمُ عَنْهُ وهو بادِي الغِنَى عن التَرْجَمَانِ
وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:

جاءتْ بِعُودٍ كَأَنَّ نَعْمَتَهُ صوتُ فتاةٍ تَتَشَكُّو فِرَاقَ فَتَى
مَحْفَفٌ حَفَّتِ الْعُيُونُ بِهِ كأنما الزهرُ حَوْلَهُ نَبْتَا
دارتْ مَلَاوِيهِ فِيهِ فَاخْتَلَفَتْ مثلُ اخْتِلَافِ الْعُيُونِ مَذْ ثَبْتَا
لو حركته وراءَ منهزم على بريدٍ لِعَاجٍ وَالتَقْنَا

وقال: الطويل:

يقولون تُبْ والكأس في كفٍ أُغِيدَ وصوت المثنائي والمثالث عَالِي
فقلت لهم لو كنت أزمعت توبةً وشاهدت هذا في المنام بَدَالِي

وقال: الكامل:

أَفْدِي الَّتِي كَفَّ الْفَوَادُ مِنْ أَجْلِهَا بِالْعُودِ حَتَّى شَفَنِي إِطْرَابَا
تَاهَتْ بِجَمْعِ صِنَاعَتَيْنِ، وَأُظْهِرْتُ كِبَرًا بِذَلِكَ، وَأُعْجِبْتُ إِعْجَابَا
قَالَتْ: فَضْلَتُكَ بِالْغِنَاءِ وَأَنْتَ لَا تَشْدُو، وَكُنَّا مِثْلَكُمْ كِتَابَا

فَعُنَيْتِ بِالْأُوتَارِ حَتَّى لَمْ أَدْعِ
وَأَلْفَتَهَا فَأَغَارَ ذَاكَ عَلَى يَدِي
فَجَعَلْتُ لِلْقُرْطَاسِ جَانِبَ صَدْرِهِ

وقال: البسيط:

نَغْمًا وَلَمْ أَغْفِلْ لَهُنَّ حَسَابًا
قَلَمِي وَعَاتِبَهَا عَلَيْهِ عِتَابًا
وَجَعَلْتُ جَانِبَ عَجْزِهِ مِضْرَابًا

جَاءَتْ بَعُودُ كَأَنَّ الْحَبَّ أَنْحَلَهُ
فَحَرَّكَتَهُ وَغَنَّتْ بِالثَّقِيلِ لَنَا
بِيضَاءُ يَحْضُرُ طَيْبُ اللَّهِوِ مَا حَضَرَتْ
كُلَّ اللَّبَاسِ عَلَيْهَا مَعْرُضٌ حَسَنٌ

هذا من قول ابن المعتز: المتقارب:

فَمَا يُرَى فِيهِ إِلَّا الْوَهْمُ وَالشَّبْحُ
صَوْتًا بِهِ الشَّوْقُ فِي الْأَحْشَاءِ يَنْقَدْحُ
فَإِنْ نَأَتْ عَنْكَ غَابَ اللَّهُوِ وَالْفَرَحُ
وَكُلُّ مَا تَتَغَنَّى فَهُوَ مَقْتَرَحُ

وَغَنَّتْ فَأَغْنَتْ عَنِ الْمَسْمُوعِي
مَحَاسِنَهَا نَزْهَةً لِلْعَيُونِ

وقال أيضا: الخفيف:

نِ وَارْتَجَّ بِالطَّرْبِ الْمَجْلِسُ
وَمَعْرِضُهَا كُلُّ مَا تَلْبَسُ

أَشْتَهِي فِي الْغَنَاءِ بُحَّةَ حَلْقٍ
كَأَنَّيْنِ الْمَحَبِّ أَضْعَفَهُ الشَّوْ
لَا أَحِبُّ الْأُوتَارَ تَعْلُو كَمَا لَا
وَأَحِبُّ الْمَجْنَبَاتِ كَحَبِي
كَهَبُوبِ الصَّبَا تَوْسَطَ حَالًا

نَاغِمِ الصَّوْتِ مُتَعَبٍ مَكْدُودِ
قُ فُضَاهِي بِهِ أَتَيْنَ الْعُودِ
أَشْتَهِي الضَّرْبَ لِأَزِمًا لِلْعُمُودِ
لِلْمَبَادِي مَوْصُولَةً بِالنَّشِيدِ
بَيْنَ حَالَيْنِ شِدَّةٍ وَرُكُودِ

وقال: الخفيف:

لِفَتَاةٍ مَوْصُولَةٍ الْإِيْقَاعِ
نَعْبِ الصَّوْتِ رَاحَةً الْأَسْمَاعِ

آه مِنْ بُحَّةٍ بَغِيرِ انْقِطَاعِ
أَتَعَبْتُ صَوْتَهَا وَقَدْ يُجْتَنَى مِنْ
فَعَدَّتْ تَكْثُرَ الشَّجَاجِ وَحَطَّتْ =طَبَقَاتِ الْأُوتَارِ بَعْدَ ارْتِفَاعِ
كَأَنَّيْنِ الْمَحَبِّ خَفَضَ مِنْهُ

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الحسن بن يونس: الكامل:

صَوْتِ شَكْوَاهِ شِدَّةِ الْأَوْجَاعِ

فَكَأَنَّمَا الصَّوْتَانِ صَوْتُ الْعُودِ

غَنَّتْ فَأَخَفَتْ صَوْتَهَا فِي عُودِهَا

غَيْدَاءُ تَأْمُرُ عَوْدَهَا فَيَطِيعُهَا
أُنْدَى مِنَ النُّوَارِ صُبْحاً صَوْتُهَا
فَكَأَنَّمَا الصَّوْتَانِ حِينَ تَمَازَجَا
أَبْدَاءُ، وَيَتَّبِعُهَا اتِّبَاعُ وَدُودِ
وَأَرْقُ مِنْ نَشْرِ الثَّنَا الْمَعْهُودِ
مَاءُ الْغَمَامَةِ وَابْنَةُ الْعُنُقُودِ

وأبو الحسن هذا هو: علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، صاحب عبد الله بن وهب الفقيه، وكان لأبي الحسن في الشعر مذهب حسن، وطبع صحيح، وحوك مليح، وكان عالماً بالنجوم وما يتعلق بها من علوم الأوائل، وهو القائل: الطويل:

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ اللَّوَى كُلَّمَا سَقَى
إِذَا نَشَرْتَ رِيحَ جُفَانٍ سَحَابَةٍ
بِهِ وَجَدُ رَعْدٌ لَيْسَ بَيْنَ جَوَانِحِ
إِذَا كَانَ خَدَّ الْبَرْقِ يَلْمَسُ نَبْتَهُ
بُضْرُبٍ مِنَ الْمُزْنِ الْكَتْهَوْرِ هَامِلِ
غَدَاً وَهُوَ حَلِيٌّ لِلرِّيَاضِ الْعَوَاطِلِ
وَوَسْوَاسٌ وَدَقٌّ لَيْسَ بَيْنَ مَفَاصِلِ
تَلْقَاهُ دُرُّ النُّورِ فَوْقَ الْخَمَائِلِ
وقال، وذكر غلاماً: الكامل:

يَجْرِي النَّسِيمُ عَلَى غَلَائِلِ خَدِّهِ
نَاولَتْهُ الْمَرْأَةُ يَنْظُرُ وَجْهَهُ
وقال ابن المعتز - وذكر المرأة: الطويل:
تَبَيَّنَنِي لِي كُلَّمَا رُمْتُ نَظْرَةً
يَقَابِلَنِي مِنْكَ الَّذِي لَا عَدَمَتُهُ
وناصحتي من دون كل صديق
بُلْجَهٍ مَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ غَرِيقِ
وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآةً أهداها: الخفيف:

أَخْتُ شَمْسٍ الصَّفَاءِ فِي الْحَسَنِ وَالْإِشْ
ذَاتُ طَوِّقٍ مُشْرِفٍ مِنْ لُجَيْنِ
فَهُوَ كَالِهَالَةِ الْمَحِيطَةِ بِالْبَدِ
وَعَلَى ظَهْرِهَا فَوَارِسُ تَلْهُوِ
لَكَ فِيهَا إِذَا تَأَمَّلْتَ فَالَ
لَمْ يَكُنْ قَبْلُهَا مِنَ الْمَاءِ جَرَمِ
عَدَلَتْ عَكْسَهَا الشَّعَاعَ فَمَبْدَا
وَهِيَ شَمْسٌ وَإِنْ مِثَالُكَ يَوْمًا
راق غير الإعشاء للأجفان
أُجْرِيَتْ فِيهِ صُفْرَةُ الْعَقِيَانِ
رَلَسْتُ مَضْنَ بَعْدَ ثَمَانِ
بِبُرَاةٍ تَعْدُو عَلَى غَزَلَانِ
حَسَنٌ مُخْبِرٌ بِنَبِيلِ الْأَمَانِي
حَاصِرٌ نَفْسَهُ بِغَيْرِ أَوَانِ
هَ إِلَيْهَا وَرَجَعَهُ سِيَانِ
لَا حَ فِيهَا فَإِنَّهَا شَمْسَانِ

ضِ ففِها تقابل النيران
خائف فانتشى بغير أمان

أينما قابلت مثالك من أر
فالقها منك بالذي ما رآه

ومن ألفاظ أهل العصر

في مدح الغناء

غناؤه كالغنى بعد الفقر، وهو جبر للكسر. غناؤه ييسط أسرة الوجه، ويرفع حجاب الإذن، ويأخذ بمجامع القلب، ويحرك النفوس، ويرقص الرؤوس. فلان طيب القلوب والأسماع، ومحبي موات الخواطر والطباع، يُطعمُ الآذان سروراً، ويقدح في القلوب نوراً القلوب من غنائه على خطر؛ فكيف الجيوب؟! السكر على صوبه شهادة.

كل ما يغنيه مقترح. لغنائه في القلب، موقع القطر في الجدب. نعمة نغمته تطرب، وضروب ضربه لا تضطرب. وقيل: السماع مُتعة الأسماع، وإدام المدام.

في وصف القلم

أهدى بعض الكتاب إلى أخ له أقلاماً وكتب إليه: إنه - أطال الله بقاءك! - لما كانت الكتابة قوام الخلافة، وقرينة الرياسة، وعمود المملكة، وأعظم الأمور الجليلة قدراً، وأعلاها خطراً، أحببت أن أتخفك من آلائها بما يخفف عليك محمله، وتثقل قيمته، ويكثر نفعه؛ فبعثت إليك أقلاماً من القصب النابت في الأغذاء، المغدو بماء السماء، كاللآلي المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة بالصدف، تنبؤ عن تأثير الأسنان، ولا يشبهها غمز البنان، قد كستها طباعها جوهر كالكوشى المحبر، وفرند الديباج المنير، فهي كما قال الكمي: المتقارب:

ن تسمع للبيض فيها صريرا

يكاد سناهن يعشي البصيرا

وبيض رقاق صبح المتو

مُهَنَّدَة من عتاد الملوك

وكقدح النبل في ثقل أوزانها، وقُضِب الخيزران في اعتدالها، ووشيج الخط في أطرافها، تمر في القراطيس كالبرق اللائح، وتجري في الصحف كالماء السائح، أحسن من العقيان، في نحور القيان. وكتب عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يوجه إليه بأقلام قصبية: أما بعد، فإنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوسم، فحلت محل

الأنساب، وجرت مَجْرَى الألقاب - وجدنا الأقلام القصصية أسرع في الكَوَاعِدِ، وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، والين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها، والتعلق بما ينبو من شظاياها. ونحن في بلاد قليلة القصب، رديء ما يوجد بها منه؛ فأحببت أن تتقدم في اختيار أقلام قصصية، وتتأق في انتقائها قبلك، وطلبها في منابتها، من شُطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيم باختيارك منها الشديدة المحس، الصلبة المعض، الغليظة الشحوم، المكترة الجوانب، الضيقة الأحواف، الرزينة الوزن، فلما أبقى على الكتاب، وأبعد من الحفاء، وأن تقصد بانتقائك منها للرقاق القضبان، اللطاف المنظر، المقومات الأود، الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت؛ وضمت الصافية القشور، الخفية الإبن، الحسنة الاستدارة، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهرت من أعلاها، لاستواء أصولها برؤوسها، المستكملة ييساً، القائمة على سوقها، قد تشربت الماء في لحائها، وانتهت في التضعج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها، وإبان ينعها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها؛ من خصر الشتاء، وعفن الأنداء، فإذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رقيقاً تتحرز معه أن تشعب رؤوسها، أو تنشق أطرافها، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية، وعليها الخيوط الوثيقة، ووجهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وإيصالها؛ إذ كان مثلها يتوان في، لقلة خطرها عند من لا يعرف فضل جوهرها؛ واكتب معه بعدتها وأصنافها وأجناسها وصفاتها، على الاستقصاء، من غير تأخير ولا إبطاء.

فأجابه ووجه إليه مع الأنابيب: أتاني كتاب الأمير - أعزه الله! - بما أمر به ولخصه، من البعث بما شاكل نعت، وضاهى صفته، من أجتاس الأقلام، فتيممت بغيته قاصداً لها، وانتهجتُ معالم سبله آخذاً بها، فأنفذتُ إليه حزماً أنشئت بلطيف السقيا، وحسن العهد والبقي، لم تعجل بإخراجها، ولا بُودرت قبل إدراكها؛ فهي مستوية الأنابيب معتدلتها، مثقفة الكعوب مقومتها؛ لا يرى فيها أمت زور، ولا وصم صغر ولا عوج، وقد رجوت أن يجدها الأمير عند إرادته وحسب بعيتها.

ومن كلام منصور بن عمار في صفة القلم، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب: أو ليس من عجائب الله في خلقه، وإنعامه على عباده، تعليمه إياهم الكتاب المفيد للباقيين حكم الماضي، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، بمعان مفترقة معقودة، وأحرف مقلوبة، من ألف وتاء، وجيم وباء، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، وتناجها التأليف، تخرس مفردة، وتنطق مزدوجة، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة، ولا حركات ظاهرة، بل قلم حرف باريه قطته، ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر عنه إليه، وشق في رأسه ليحتبس الاستعداد عليه، ورفع من شعبيته لتجتمع حواشي تصويره؛ فهناك روى القلم في شقه، وقف المادّة إلى صدره، فإذا علقها العيون حكّتها

الألسن، فالقلوب حينئذ راعية، والآذان واعية، لكلام سداه العقل، وأحمله اللسان، وأدته اللهوات، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، على اختلاف أنحاء، من صفات وأسماء؛ فتبارك الله أحسن الخالقين. حمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي، في القلم إلى أبي عمران بن رباح:

إنه لما كان القلم مطية الفكر والبيان، ومُخْرِجَ الضمير إلى العيان، ومستنبطاً ما تُواريه ظلمُ الجنان إلى نور البيان، ومُريحَ الفطن العواذب، وجالبَ الفكرِ الغرائب ولسان الغائب، ويز الكاتب، مكتب الكتاب، ومفرق الجلائب، وعماد السُّلم، وزناد الحرب، ويدَ الحدّثان، وخليفة اللسان، ورأس الأدوات التي خصَّ الله بها الإنسان، وشرّفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة قد تقدّمت كلُّ آلة، وحكمة سبقت في الإنسان كلَّ حكمة، وقواماً لهندسة عقلية، ومصدراً لعقل العاقل، وجهل الجاهل. الناقل إلينا حكم الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين، الحافظ علينا أمرَ الدنيا والدين، أول شيء خلقه الله بأمره وسبحه، ومجّده وحَمّده وسجّده له، فكان له فرسانٌ خلقَ لهم، وكُنْتَ عميدهم، وأقرآنٌ قُصِرَ عليهم، وأنت صنديدهم، وميدان كنت زينه، ومضمار كنت عينه، وحليّة كنت سابقها ومعجزها، وغاية كنت مآلكها ومُخْرِزها، ورمّت بي الأيام إلى معدنه الذي كلفت به وعنيت بطلبه، فانفردت منه بقدر فذّ أوّحد، فردّ في مثبته، قد ساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، مُخْتَلَفٌ يُؤَلِّفه أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها، وتؤيده بقواها وجواهرها، حتى غدّته عرقاً في الثرى معرقاً، وأرضعته ناجماً، وسقته مكعباً، وأروته مقصباً، وأظلماته مكتهلأً، ولوحته مستحصداً، وجللته بهاءها، وألقت عليه عنواها، وأودعته أعراقها، وأوراقها وأخلاقها، حتى إذا شقّ بازله، ورقّت شمائله، وابتسم من غشائه، ونادى من لحائه، وتعرى عن خز المصيف، بانقضاء الخريف، وانكشف عن لون البيض المكنون، والصدف المخزون، ودر البحار، وفتات الجمار، دعا منه نفق العاج بنقبة الديباج، وقميص الدرر بطراز النساج، فاجتمعت له زينة الأيدي البشرية، إلى الأيدي العلوية، والأنساب الأرضية، إلى الأنساب السماوية، فلما قادته السعادة إليّ، ورأيت نسيجَ وَحْدِهِ في الأقلام، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْدِهِ في الأنام، فآثرْتُك به مُؤَثِّراً للصنيعة؛ علماً أن زين الجياد فرسانها، وزين السيوف أقرانها، وزين بزة لابسها، وزين أداة ممارسها، فالآن أعطيت القوس باريها، وزناد المكارم مُوريها، والصمصامة مُصلتها، والقناة مُعلمها، وحلّة المجد لابسها.

وكان النجيرمي جيّد الروية والبديهة في نظمه ونثره، حلو التصريف، مليح التأليف، وكان يوماً عند أبي المسك كافور الإخشيدي، فدخل عليه أبو الفضل بن عياش فقال: أدام الله أيام سيدنا الأستاذ - بالحفض - فنبسّم كافور إلى أبي إسحاق، فقال ارتجالاً: البسيط:

وُغُصَّ مِنْ هَيْبَةٍ بِالرِّيقِ وَالْبَهْرِ

بَيْنَ الْبَلِيغِ وَبَيْنَ الْقَوْلِ بِالْحَصْرِ

مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ لَا مِنْ قِلَّةِ الْبَصْرِ

وَالْفَالُ مَأْثَرَةٌ عَنْ سَيِّدِ الْبَشْرِ

وَأَنْ دَوْلَتَهُ صَفْرٌ. بَلَا كَدَرٍ

لَا غَرَوَ إِنْ لَحَنَ الدَّاعِي لَسِيدِنَا

فَمَثَلُ سَيِّدِنَا حَالَتْ مَهَابَتُهُ

فَإِذَا يَكُنْ خَفَضَ الْأَيَّامَ مِنْ دَهْشٍ

فَقَدْ تَفَاعَلَتْ فِي هَذَا لَسِيدِنَا

بَأَنْ أَيْامَهُ خَفَضَ بَلَا نَصَبٍ

فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثَةِ دِينَارٍ، وَلابْنِ عِيَّاشٍ بِمِائَتَيْنِ.

وَقَالَ حَمْدَانُ الدَّمَشَقِيُّ يَصِفُ قَلَمًا: الْكَامِلُ :

وَلَهُ إِذَا لَمْ تَجْزِهِ إِطْرَاقُهُ

مِنْ حَيْثُ يَجْرِي سَمُّهُ تَرِيَّاقُهُ

لِلْأَيْمِ بَعَثَتْهُ وَشَقَّ لِسَانَهُ

كَالْحَيَّةِ النَّضْنَاضِ إِلَّا أَنَّهُ

قَالَ الْعَتَابِيُّ: سَأَلَنِي الْأَصْمَعِيُّ فَقَالَ لِي: أَيُّ الْأَنْيَابِ أَصْلَحُ لِلْكِتَابَةِ وَعَلَيْهَا أَصْبِرُ؟ فَقُلْتُ: مَا نَشِفَ بِالْمُحْجِرِ مَأْوُهُ، وَسُتِرَ عَنْ تَلْوِيحِهِ غَشَاؤُهُ، مِنَ التَّبَرُّعِ الْقَشُورِ الدَّرِيَّةِ الظُّهُورِ، الْفَضِيَّةِ الْكُسُورِ، قَالَ: فَأَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْبَرِّ أَكْتُبُ وَأُصُوبُ؟ قُلْتُ: الْبَرِيَّةُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْقَطْ، عَنْ يَمِينِ سَنِّهَا، بَرِيَّةٌ تَأْمَنُ مَعَهَا الْمِحَّةُ عِنْدَ الْمَطِّ، الْهَوَاءُ فِي مَشَقِّهَا فَتِيْقٌ، وَالرِّيحُ فِي حَوْفِهَا خَرِيْقٌ، وَالْمِدَادُ فِي خَرْطُومِهَا رَقِيْقٌ، قَالَ: فَبَقِيَ الْأَصْمَعِيُّ شَاخِصًا إِلَيَّ ضَا حَكًّا لَا يُحِيرُ مَسْأَلَةً وَلَا جَوَابًا.

العتابي

والعتابي: هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي، يُكْنَى أَبَا عَمْرٍو، قَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْجَاهِظِيُّ: كَانَ الْعَتَابِيُّ مِمَّنْ اجْتَمَعَ لَهُ الْخُطَابَةُ، وَالْبَيَانُ، وَالشَّعْرُ الْجَيِّدُ، وَالرِّسَالُ الْفَاخِرَةُ، وَعَلَى أَلْفَاظِهِ وَحَدُّوهُ يَقُولُ فِي الْبَدِيعِ جَمِيعٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّفُ ذَلِكَ مِنْ شُعَرَاءِ الْمَوْلَدِينَ كَنَحْوِ مَنْصُورِ التَّمْرِيِّ، وَمُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيِّ، وَأَشْبَاهِهِمَا، وَكَانَ الْعَتَابِيُّ يَحْتَذِي حَذْوَ بَشَّارٍ فِي الْبَدِيعِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَوْلَدِينَ أَحَدٌ بِدِيعًا مِنْ بَشَّارٍ وَابْنِ هَرَمَةَ.

والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم ابن مالك بن عتّاب بن سعد، ولذلك قال: البسيط:

وَاجْتَا حَ مَا أَبَدَتْ الْأَيَّامُ مِنْ خَطَرِي

حَيَّا رُبَيْعَةً وَالْأَحْيَاءُ مِنْ مُضَرٍ

إِنِّي أَمْرٌ هَدَمَ الْإِقْتَارَ مَأْثَرَتِي

أَنَا ابْنُ عَمْرٍو بْنِ كُلْثُومِ يَسُودُهُ

أرومة عطّلتني من مكارمها

كالقوس عطّلتها الرامي من الوتر

وكان صاحبَ بديهة في المنظوم والمنثور، حسنَ العقل والتمييز، والعربُ تقول: من تَمَنَّى رجلاً حسنَ العقل، حسنَ البيان، حسنَ العلم، تَمَنَّى شيئاً عسيراً. وقد اجتمع ذلك كله للعتابي. وعاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وكان لا يُبالي أي ثوبيه ابتذل! فقال: أَبْعَدَ اللَّهُ رجلاً مهمُّهُ أن يكون جماله في لباسه وعطره. إنما ذلك حظُّ النساء، وأهل الأهواء، حتى يرفعهُ أَكْبَرَاهُ: هِمَّتُهُ، وَلَبَّه، ويعلو به معظماه: لِسَانُهُ، وَقَلْبُهُ.

ودخل على الرشيد فقال: تَكَلِّمْ يا عتابي! فقال: الإيناس قبل الإيساس، لا يُمدَحُ المرءُ بأول صوابه، ولا يُذَمُّ بأول خطئه؛ لأنه بين كلا زَوَرِهِ، أو عِيٍّ حَصَرِهِ. وذكر أبو هفان أن الرشيد لقيَه بعد قتل جعفر بن يحيى وزوال نعمته، فقال:

ما أَحدّثتَ بَعْدُ يا عتابي؟ فأنشده ارتجالاً: الطويل :

تَلُومَ عَنى تَرَكِ الغِنى باهليّةً	طَوَى الدهرُ عنها كلَّ طَرَفٍ وتالِدِ
رَأَتْ حولها النسوان يرفلن في الكُسا	منظمةً أجيادُها بالقلائدِ
أَسْرَكَ أني نَلْتُ ما نال جعفرُ	من الملك أو ما نال يحيى بن خالدِ
وأنَّ أمير المؤمنين أَغَصَّنِي	مغصَّهما بالمرهفاتِ البواردِ
فإنَّ رفيعاتِ المعالي مشوبة	بمستودعاتٍ في بطونِ الأسودِ

وكان متحرِّفاً عن البرامكة، وفيهم يقول: البسيط:

إنَّ البرامِكَ لا تنفك أنجبةً	بصفحة الدين من نجواهم ندبُ
تجرّمت حججٌ منهم ومُنْصَلُهُم	مضرّجٌ بدم الإسلام مختضبُ

واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقعة بمنزل العتّابي، فقال: أليس هذا منزلُ كلثوم بن عمرو؟ قيل: نعم، فتَنَى رجله، ودخل إليه، فألفاه جالساً في بَيْتٍ كتبه، فحادثه وذاكره، ثم انصرف، فتحدّث الناسُ في ذلك، وقالوا: إن الأمير لم يَقْصِدْهُ، وإنما اجتاز به فأخطَر ذلك الزيارة، فكتب إليه: الكامل:

يا مَنْ أَفادَتني زيارَتُهُ	بَعَدَ الخمولِ نباهةَ الذكرِ
قالوا الزيارةُ خَطَرَةٌ خَطَرَتْ	ومجازَ خَطَرِكَ ليس بالخطرِ
فادفَعَ مقاتلهم بثالثة	تستنفدُ المجهودَ مِنْ شكري
لا تجعلَنَّ الوترَ واحدةً	إن الثلاثَ تنمّةُ الوترِ

فبعثته الأبياتُ إلى أن زارَه ثلاثاً.

وكان يميل إلى المأمون، فلما خرج المأمون إلى خراسان شيعه حتى وصل معه إلى سندان كسرى، فقال له المأمون: سألتك بالله يا عتابي إلا عملتَ على زيارتنا إن صار لنا من هذا الأمر شيء، فلما ولي المأمون الخلافة، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصل إليه العتابي، فلم يمكنه الوصول، فقال للقاضي يحيى بن اكثم: إن رأيتَ أن تُعلمَ أمير المؤمنين بمكاني! فقال: لستُ بحاجب! قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل معوان! فقال: سلكتَ بي غير طريقي! قال: إن الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، والتغيير إن كفرت، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك؛ أدعوك لما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبى ذلك؛ ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه بذله للمستعين، فدخل يحيى على المأمون فقال: أجرتني من لسان العتابي، فلها عنه، ولم يأذن له، فلما طال عليه كتب إليه: الخفيف:

ما على ذلك افترقنا بسندا

ن ولا هكذا عهدنا الإخاء

لم أكن أحسب الخلافة يزدا

د بها ذو الصفاء إلا صفاء

تضرب الناس بالمتنقة السم

ر على غدرهم وتنسى الوفاء

يعرض بقتله لأخيه على غدره، ونكته لما عقد الرشيد؛ فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يُدخل عليه. فلما سلم قال: يا عتابي، بلغني وفادتك فسررتني، وقد كانت بلغني وفائك فساءتني، وإني لحري بالغم لبعدك، والسرور بقربك! فقال: يا أمير المؤمنين، لو قسم هذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عدلاً وأعجزهم شكراً، وإن رضاك لغاية المنى، لأنه لا دين إلا بك، إلا معك، قال: سلني، قال: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة، بخمسين ألفاً.

وقال العتابي وودع جارية له: الخفيف:

ما غناء الحذار والإشفاق

وشأبيب دمّعك المهرّاق

ليس يقوى الفؤادُ منك على الض

د ولا مقلتنا طليح المآقي

غدرات الأيام منتزعات

ما غنمنا من طول هذا العناق

إن قضى الله أن يكون تلاق

بعد ما قد ترين كان تلاق

هوئي ما عليك واقني حياء

لست تبقيين لي ولست بباقي

أينا قدمت صروف المنايا

فالذي أخرت سريخ اللحاق

ويد الحادثات رهن بمرا

ت من العيش مصبرات المذاق

غُرِّ مَنْ ظَنَ أَنْ يَفُوتَ الْمَنَيا

وَعُرِّها قَلانْدُ الْأَعناقِ

كَمْ صَفِيَّينَ مُتَّعًا بِاتِّفاقِ

ثُمَّ صارا لْغُرْبَةٍ وَافْتِراقِ

قَلْتُ لِلْفِرْقَدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُلْقِ

سُودَ أَكْنافِهِ عَلَى الْأَفاقِ

ابْقِيَا مَا بَقِيْتِما سَوْفَ يُرْمَى

بَيْنَ شَخْصَيْكِما بِسَهْمِ الْفِرَاقِ

بَيْنِما المَرْءُ فِي غَضارَةٍ عَيْشِ

وَصَلاحٍ مِنْ أَمْرِهِ وَاتِّفاقِ

عَطَفْتُ شِدَّةَ الزَّمانِ فَأَدَّتْ

هُ إِلَى فاقَةٍ وَضِيقِ خِناقِ

لَا يَدُومُ البَقاءُ لِلخَلْقِ لَكَ

نَ دَوامَ البَقاءِ لِلخَلقِ

وَقَالَ فِي الرِّشيدِ: الطَّويلُ:

إِمَامٌ لَهُ كَفٌّ تَضُمُّ بَنانِها

عِصا الدِّينِ مَمْنوعاً مِنَ الْبَرِّ عودُها

وَعَيْنٌ مُحِيطٌ بِالْبَرِّيَّةِ طَرَفُها

سِواءٌ عَلَيْها قُرْبُها وَبَعِيدُها

وَقَالَ فِيهِ: الطَّويلُ:

رَعَى أُمَّةَ الْإِسْلامِ فَهُوَ إِمَامُها

وَأَدَّى إِلَيْها الْحَقَّ فَهُوَ أَمِينُها

مَقِيمٌ بِمَسْتَنِّ الْفَلَا حَيْثُ تَلْتَقِي

طَوَارِقُ أَبْكارِ الْخُطوبِ وَعُونُها

وَكَانَ مَنْصُورَ النَّمْرِ سَعَى بِهِ إِلَى الرِّشيدِ فَخافَهُ، فَهَرَبَ إِلَى بَلَدِ الرُّومِ، وَلَهُ قِصائِدُ، يَعْتَذِرُ فِيها، حَيَّةٌ

مُخْتارَةٌ، وَهُوَ مُشَبَّهٌ فِي حَسَنِ الْاعْتِذارِ بِالنَّابِغَةِ الذِّبْياني، وَمِنْ جَيِّدِ اعْتِذارِهِ قَوْلُهُ لِلرِّشيدِ، وَيُقَالُ: بَلَّ قَالِها

عَلَى لِسَانِ عِيسَى بْنِ مُوسَى الْهاشمي يَخاطِبُ الرِّشيدَ: الطَّويلُ:

جَعَلْتُ رَجاءَ الْعَفْوَ عِذاراً وَشُبُّنَةً

بِهَيْبَةٍ إِمّا غافِرٍ أَوْ مُعَاتِبِ

وَكَنتُ إِذا ما خَفْتُ حادِثُ نَبْوةٍ

جَعَلْتُكَ حِصْناً مِنْ حِذارِ النِّوائِبِ

فَأَنْزَلَ بِي هِجْرانُكَ الْيَأْسَ بَعْدَما حَلَلْتُ بَواذِ مِنْكَ رَحَبَ الْمِشارِبِ

أَظْلَ وَمَرَعايَ الْجَدِيبُ مَكانَهُ

وَآوَيْتَنِي إِلَى حافَتِ أَكْدارِ ناضِبِ

وَلَمْ يَثْنِ عَنِ نَفْسي الرَّدَى غَيْرَ أَنَّها

تَتَوَّءُ بَباقٍ مِنْ رِجائِكَ ثائِبِ

هِيَ النَفْسُ مُحَبُّوسٌ عَلَيْكَ رِجاؤُها

مَقِيدَةُ الْأَمالِ دُونَ الْمُطالبِ

وَتَحْتَ ثِيابِ الصَّبْرِ مَنِي ابْنِ لَوْعَةٍ

يُظِلُّ وَيُمْسِي مُسْتَلِينَ الْجِوانِبِ

فَتَيَ ظَفَرْتُ مِنْهُ اللَّيالي بَزَلَةٍ

فَأَقْلَعَنْ عَنْهُ دَمايِيا مِخالِبِ

بذلٌّ، وأحرزتُ المنى بالمواهبِ
عقوبةً زلّاتي وسوءِ مناقبِ
على حدِّ مصقولِ الذنّابينِ قاضِبِ
هواك مثلاً بين عيني وحاجبي

حنانِيكَ إني لم أكنُ بعثُ عِزَّةً
فقد سُمّنتي الهجرانَ حتى أدقّنتي
فها أنا مُقَصّي في رضاكَ، وقابضُ
ومنتزِعُ عما كرهتُ وجاعلُ
وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة: الطويل:

غريب الكرى بين الفجّاج السباسبِ
دُجى الليل حتى مجّ ضوء الكوكبِ
أحلّ لها أكلُ الذرى والغواربِ
وطي الحشى دون الهموم العوازبِ
صُراخاً، ولم تسمّع به أذنُ صاحبِ
بقية هندي الحسام المضاربِ
وعهد الليالي في وجوه مشاحِبِ

وأشعثَ مشتاق رَمى في جفونه
سحبّت له ذيلَ السرى وهو لابسُ
ومن فوق أكوار المهارى لبانة
وكل فتى عادته قصر شوقه
يُسِرّ الهوى لم يُبده نعت فرقة
إذا أدرع الليل أنجلي وكأنه
بركب ترى كسر الكرى في جفونهم

وقال أيضاً: الخفيف:

وذراعُ ابنة الفلاة وسادي
حُمّةُ الشوق أثّرت في فؤادي

لو رأيتي بذى المحارة فرداً
أطفئ الحزن بالدموع إذا ما

خاشع الطرف قد توشحنى الضر فلانت له قناة قيادي

حُزنَ والبؤسَ وأفياً ميلادي
س من النائراتِ والأحقادِ
ل بهوجاء فوقها أفتادي
بين سرّحي ومُنحنى أعوادي
نسُ إلا بوحدتي وانفرادي
س وأبرزتُ للزمان سَوادي
ق شأبيب مُزنة مرّعادِ

تربّ بُؤسُ أخوا هموم كأنّ ال
وكأنّي استشعرت ما لفظ النا
أتصدى الردى وأدرعُ اللي
حظّ عيني من الكرى خفقاتُ
أوحش الناسُ جانبيّ فما آ
قد رددت الذي به أتقي النا
فاستهلت عليّ تمطرني الشو

وقال: الطويل:

أَمَّا رَاعَ قَلْبَ الْعَامِرِيَةِ أَنَّنِي

غَدَوْتُ وَمَرَجَوْتُ السَّقَامَ قَرِينِي؟

وقال: الطويل:

أَكَاثِمُ لَوَاعَتِ الْهَوَى وَيُيَبِّئُهَا

تَخَلَّلَ مَاءَ الشَّوْقِ بَيْنَ جُفُونِي

وَمَطْوُوفَةُ الْإِنْسَانِ فِي كُلِّ لَوْعَةٍ

لَهَا نَظْرَةٌ مُوصُولَةٌ بِحَنِينٍ

بنو وهب: وقال الحسن بن وهب بن سعيد: السريع:

إِبْكُ فَمِنْ أَحْسَنَ مَا فِي الْبَكَاءِ

أَنَّ الْبَكَاءَ لِلْوَجْدِ تَحْلِيلُ

وَهُوَ إِذَا أَنْتَ تَأَمَّلْتَهُ

حَزَنَ عَلَى الْخَدِينِ مُحَلُولُ

وقد أعرق بنو وهب في الكتابة وأنجبوا، ولهم في هذا الكتاب ما يشهد لهم بما تُنسب إليهم، وفيهم يقول

الطائي: الخفيف:

كُلُّ شَعْبٍ كُنْتُمْ بِهِ آلَ وَهَبٍ

فَهُوَ شَعْبِي وَشَعْبُ كُلِّ أَدِيبٍ

إِنْ قَلْبِي لَكُمْ لِكَالْكَبِدِ الْحَرَّى وَقَلْبِي لِغَيْرِكُمْ كَالْقُلُوبِ

وفي هذه القصيدة يقول في مدح سليمان بن وهب:

مَا عَلَى الْوُسْجِ الرَّوَاتِكِ مِنْ عَبٍّ

بِإِذَا مَا أَتَتْ أَبَا أَيُّوبٍ

حَوْلٌ لَا فِعَالُهُ مَرَّتَعُ الدِّمِّ

مَ وَلَا عَرَضُهُ مَنَاخُ الْعُيُوبِ

وَاجِدَ بِالصَّدِيقِ مَنْ بُرَحَاءَ الشَّوْقِ وَجَدَانَ غَيْرِهِ بِالْحَبِيبِ

أَخَذَ سُلَيْمَانُ مِنْهُ هَذَا الْبَيْتَ الْأَخِيرَ، فَقَالَ فِي رِسَالَةٍ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ: ظَرَفُ الصَّدَاقَةِ، أَرَقُّ مِنْ ظَرْفِ

العلاقة، والنفس بالصديق، آنس منها بالعشيق.

فقال له أبو تمام: كلامك هذا أرق من شعري.

والحسن بن وهب حَسَّنُ الشَّعْرَ والبلاغة، جَيَّدَ اللِّسَانَ، حَلَوَ الْبَيَانَ، وَكَانَ يُحِبُّ بَنَانَ جَارِيَةَ مُحَمَّدِ بْنِ

حَمَّادٍ، وَلَهُ فِيهَا شَعْرٌ جَيِّدٌ، وَلَهَا يَقُولُ: الطويل:

أَقُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْبِيلَ كَفِّهَا

وَبِي رِعْدَةٌ أَهْتَزُّ مِنْهَا وَأُسْكِنُ

لِيَهْنَأَنَّكَ أَنِّي أَشْجَعُ النَّاسِ كُلَّهُمْ

لَدَى الْجَرْبِ إِلَّا أَنَّنِي عَنْكَ أَجْبَنُ

وَحَضَرَتْ مَجْلِسَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ فَأَمَرَتْ بِإِزَالَتِهَا، فَقَالَ: الكامل:

بِأَبِي كَرِهْتُ النَّارَ حَتَّى أَبْعَدْتُ

فَعَلِمْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْعَادِهَا

هي ضَرَّةٌ لَكَ فِي التِّمَاعِ ضِيَائِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ فِي الْقُلُوبِ صَنِيعَهَا
شَرَكْتُكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِفِعْلِهَا
وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعزّ: الخفيف:

ما هجرتُ المَدَامَ والوردَ والبَدَ
منعتني من الثلاثة مَنْ لَوْ
فالت الوردُ والمدامةُ والبَدَ
قلت بخلاً بكلِّ شيءٍ فقالت
قلت يا ليتني شبَّهْتُكَ قالت
رُضِيائِي وَلَوْنُ خَدَيَّ وَوَجْهِي
قتلتني لم أَحْكِ واللَّهِ مَنْ هِي
لا ولكن بخلت بي وبشْبَهِي
إنما يَقْتُلُ المحبَّ التَّشْبَهُي

ولما مات الحسن بن وهب - وكان موته بالشام - عَزَّى عنه أخوه سليمان، فجاء أبو العيَّاء، فقال:
أنشدني أبو سعيد الأصمعي: الطويل:

لعمري لنِعَمَ المرءُ من آلِ جعفر
لقد فقدوا عَزْماً وحزماً وسؤدداً
فإن عِشْتَ لم أملل حياتي وإن تمت
بحورانَ أَمْسَى أَعْلَقَتْهُ الحَبَائِلُ
وعِلْماً أَصِيلاً خالفتَه المَجَاهِلُ
فما في حياتي بعد مَوْتِكَ طَائِلُ

فقال سليمان: أحسن الله جزاءك، ووصل إزاءك، إن هذا لمن أحسن الشعر، وقد تمثَّل به قتيبة حين بلغه
موتُ الحجاج، ولكني أقول كما قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار: الطويل:

أخي ما أخي لا فاحشٌ عند بَيْتِهِ
حليم إذا ما سَوْرَةُ الجَهِلِ أَطْلَقَتْ
حبيب إلى الزوار غَشِيَانُ بَيْتِهِ
إذا ما تراه الرجالُ تحفظُوا
ولا وَرَعٌ عند اللقاء هَيُوبُ
حُبَى الشيب، للنفس اللُّجُوجُ غُلُوبُ
جميل المحيَّا شب وهو أَرِيبُ
فلم تُنْطَقِ العَوْرَاءُ وهو قَرِيبُ

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان، وحسن جوابه، وصحَّة تمثله.
والأبيات التي أنشدها الأصمعي للحطيئة، واسمه جرَّول بن أوس بن جُوَيَّة بن مخزوم بن مالك بن غالب.
بن قطيفة بن عَبَس بن بَغِيض، يقولها في علقمة بن عُلاثة وفيها يقول: الطويل:

فما كان بيني لو لَقَيْتُكَ سالماً
وبين الغنى إلا ليالٍ قلائلُ

قال سليمان بن وهب: لما جار علينا بالنكبة السلطان، وجفأنا من أجلها الإخوان، أنصفنا ابن أبي دؤاد بتطوُّله، وكفانا الحاجة إليهم بتفضله، فكنا وإياه كما قال الخطيئة: الكامل:

جاورتُ آلَ مقلدٍ فحمدتهم
إذ لا يكادُ أخو جوار يُحمدُ

أيامَ مَنْ يُريدُ الصنِيعَةَ يصطنعُ
فيها، ومَنْ يُريدُ الزهادةَ يزهدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه: لك أن تعتب، وشبهك أن يعذر، فهبْ أقل الأمرين لأكثرهما، وقدم فضلك على حقك، ويقينك على شكك.

ووصف رجلاً بليغاً فقال: كان والقَه واسعَ المنطق، جَزَلَ الألفاظ، ليس بالهذر في لفظه، ولا المظلم في مقصده؛ معناه إلى القلم أسرع من لفظه إلى السَّمع.

وهذا ضد قول محمد بن عبد الملك الزيات في عبيد الله بن يحيى بن خاقان: هو مهزول الألفاظ، غليظ المعاني، سخيْفُ العقل، ضعيفُ العقدة، واهي العزم، مأفونُ الرأي.

ألفاظ لأهل العصر

في ذمِّ الكتابِ والكتابِ والنثر والشعر

الخرسُ أحسنُ من كلامه، والعي أبلغُ من بيانه، خاطره يَبُو، وقلمه يَكْبُو، ويسهو ويغلط، ويخطئ ويُسقط. هو قصير باع الكتابة، قاصر سعي الخطابة، وكتبه مضطربة الألفاظ، متفاوتة الأبعاض، منتشرة الأوضاع، متباينة الأغراض. الجلمُ أولى بكفه من القلم، والطاس أليقُ بها من القرطاس. كلامُ تنبو عن قبوله الطباع، وتتحافى عن استماعه الأسماع. ألفاظُ تنبو عنها الأذان فتمجَّها، وتنكرها الطباع فتزجَّها. كلام لا يرفعُ الطبعُ له حجاباً، ولا يفتحُ السمعُ له باباً. كلام يُصدِّي الرِّيان، ويصدِّي الأفهام والأذهان. كلام قد تعمَّل فيه حتى تبذل، وتكلَّف حتى تعسَّف. طبع جاسٍ، ولفظ قاسٍ، لا مساعٍ له في سَمع، ولا وصول له مع خلو ذرع. كلام لا الروية ضربت فيه بسهم، ولا الفكرة جالت فيه بقذح. كلام تتعثرُ في حزونه، وتتجبرُّ الأفهامُ من وعورته. كلمات ضعيفةُ الإلتقان، قليلةُ الأعيان، مضمحلةٌ على الامتحان. ألفاظ تُستعارُ من الدياجي، ومعانٍ تقدر من الأثافي. كلام يمثله يتسلَّى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه، أثقل من الجنذل، وأمر من الحنظل، هو هذيان الحموم، وسوداء الهموم. كلام رثٍّ، ومعنى غثٍّ، لا طائل فيهما، ولا طلاوة عليهما. أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه، ولا من أحجال الكلام وغرره. شعر ضعيف الصنعة رديء الصبغة بغيض الصفة وقد جمع بين إقواء وإيطاء، وإبطاء وإخطاء. ما

قطع في شعره شَعْرَة ولا سقى قطرة. لو شعر بالنقص ما شعر. لا يميز بين خبيث القول وطيبه، ولا يفرق بين بكره وثيبه. هو باردُ العبارة، ثقیل الاستعارة. هو من بين الشعراء منبوذ بالعرءاء. لم يلبس شعره حلة الطلاوة. له شعر لا يطيب درسه، ولا يخف سرده، وخط مضطرب الحروف، متضاعف التضعيف والتحريف. خط يُقْذِي العين ويُشْجِي الصَّدر. خط منحط، كأنه أرجل البط، وأنامل السرطان، على الحيطان. قلمه لا يستجيب برّيه، ومداده لا يساعد جرّيه. قلمه كالولد العاق، والأخ المشاق، إذا أدركته استطال، وإذا قومتته مال، وإذا بعثته وقف، وإذا وقفته انحرف. قلم مائل الشق، مضطرب المشق، متفاوت البرّي، معدوم الجرّي، محرّف القط. قلم لم يُقَلِّمْ ظفره فهو، يخدش القرطاس، وينقش الأنقاس، ويأخذ بالأنفاس. قلم لا يُبعث إذا بعثته، ولا يقف إذا وقفته. قد وقف اضطراب برّيه، دون استمرار، جرّيه، واقتطع تفاوت قطه، عن تجويد خطه.

خير الكلام

ذكر عتبة بن أبي سفيان كلام العرب فقال: إن للعرب كلاماً هو أرقّ من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مُروّق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فُسِّرَتْ بغيرها عطلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت؛ فسهولة ألفاظهم توهّمك أنها ممكنة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت. هم اللطيف فهمهم، النافع علمهم، بلغتهم نزل القرآن، وبها يدرك البيان، وكلُّ نوع من معناه مُبَيِّن لما سواه، والناس إلى قولهم يصيرون، وبمداهم يأتّمون، أكثر الناس أحلاماً، وأكرمهم أخلاقاً. وكان يقال: خير الكلام المُطْمَع الممتنع. وأنشد إبراهيم بن العباس الصُّولي لخاله العباس بن الأحنف: السريع:

مِنْ صَدِّ هَذَا الْعَاتِبِ الْمُدْنِبِ

إِلَيْكَ أَشْكُو رَبَّ مَا حَلَّ بِي

يَبْذُلُ، وَإِنْ عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبِ

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ، وَإِنْ سِيلَ لَمْ

لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

صَبَّ بَعْصِيَانِي، وَلَوْ قَالَ لِي

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، الصعب الممتنع، العزيز النظير، القليل الشبيه، البعيد مع قرّبه، الحزن مع سهولته، فجعل الناس يقولون: هذا الكلام أحسن من الشعر. وقال أبو العباس الناشئ يصف شعرة: الكامل:

فِي حُسْنِ صَنْعَتِهِ وَفِي تَأْلِيفِهِ

يَتَحَيَّرُ الشُّعْرَاءُ إِنْ سَمِعُوا بِهِ

وَنَكُولُهُمْ فِي الْعَجْزِ عَنْ تَرْصِيفِهِ

فَكَأَنَّهُ فِي قُرْبِهِ مِنْ فَهْمِهِمْ

شجرٌ بَدَا لِلْعَيْنِ حَسَنُ نَبَاتِهِ

وَنَأَى عَنِ الْأَيْدِي جَنَى مَقْطُوفِهِ

فَإِذَا قَرَنْتَ أُبَيَّهَ بِمُطِيعِهِ

وَقَرْنَتْهُ بَغْرِيْبِهِ وَطَرِيفِهِ

أَلْفَيْتَ مَعْنَاهُ يَطَابِقُ لَفْظُهُ

وَالنَّظْمُ مِنْهُ جَلِيْلُهُ بِلَطِيفِهِ

فَأَتَاهُ مَتَّسِقًا عَلَى إِحْسَانِهِ

قَدْ نَيْطُ مِنْهُ رَزِيْنُهُ بِخَفِيفِهِ

هَذَبْتُهُ فَجَعَلْتُهُ لَكَ بَاقِيًا

وَمَنْعْتَ صَرْفَ الدَّهْرِ عَنْ تَصْرِيفِهِ

وقال الناشئ في فصل من كتابه في الشعر: الشعرُ قيْدُ الكلام، وعقل الآداب، وسُورُ البلاغة، ومعدن البراعة، ومجال الجنان، ومسرحُ البيان، وذريعة المتوسِّل، ووسيلة المتوصل، وذِمَامُ الغريب، وحرمة الأديب، وعِصْمة الهارب، وعدَّةُ الراهب، ورحلة الداني، ودَوْحَةُ الممثل، وروحة المتحمل، وحاكم الإعراب، وشاهدُ الصواب.

وقال في هذا الكتاب: الشعرُ ما كان سهْلَ المطالع، فصل المقاطع، فحلّ المديح، جَزَلَ الافتخار، شجِيَّ النسب، فكِه الغزل، سائر المثل، سليم الزلل، عديم الخلل، رائع الهجاء، موجب المَعْدرة، مُحَبَّ المعْتبة، مُطْمَع المسالك، فائت المدارك، قريب البيان، بعيد المعاني، نائي الأغوار، ضاحي القرار، نقي المستشف، قد هُرِيقَ فيه ماءُ الفصاحة، وأضاء له نورَ الزجاجة، فاهل في صادي الفهم، وأضاء في بهيم الرأي. لتأمله ترقق، ولمستشفه تألق، يروق المتوسم، ويسر المترسم؛ قد أبدت صدوره مُتُونه، وزَهَتْ في وجوهه عيونه، وانقادت كواوله لهواديهِ، وطابقت ألفاظه معانيهِ، وخالفت أجناسه مَبَانِيهِ، فاطَّرد لتصفحه، وأنار، لمستوضحه، واشبه الروضَ في وَشْيِ ألوانه، وتعقم أفنانه، وإشراق نَوَارِهِ، وابتهاج أنجاده بأغواره؛ وأشبه الوشي في اتفاق رُقُومِهِ، واتساق رُسُومِهِ، وتسطير كفوفهِ، وتخبير كفوفهِ؛ وحكى العَقْدَ في الثَّامِ فُصولهِ، وانتظام وُصولهِ، وازديان ياقوته بدُرهِ، وفريده بشَدْرِهِ، فلو اكتنف الإيجاز موارده، وصقَّلت مداوِسُ الدربة مَنَاصِلَهُ، وشحذت مدارس الأدب فَيَاصِلَهُ، جاء سليماً من المعايِب، مهذباً من الأدناس، تتحاشاه الأُبن، وتتحاماه الهُجن، مُهْدِيًا إِلَى الْأَسْمَاعِ بِهَجَّتِهِ، وَإِلَى الْعُقُولِ حِكْمَتِهِ. وقد قلت في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائليهِ، وأسلوباً لسالكيهِ، وهو: الكامل:

الشعرُ ما قَوِّمْتَ زَيْغَ صَدُورِهِ

وشدَّدْتَ بِالْتَهْذِيبِ أَسْرَ مُتُونِهِ

ورَأَيْتَ بِالْإِطْنَابِ شَعْبَ صَدُوعِهِ

وفتَحْتَ بِالْإِيجَازِ غُورَ عَيُونِهِ

وجمَعْتَ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ

ووصلَّتَ بَيْنَ مَجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ

وعقدت منه لكلَّ أمرٍ يَقتَضِي

شبهاً به فقرنَتْه بقرِيْبِهِ

فإذا بكيت به الديارَ وأهلها
 ووكلته بهمومه وغمومه
 وإذا مدحت به جواداً ماجداً
 أصفيته بنفيسه ورصينه
 فيكون جزلاً في اتفاق صنوفه
 وإذا أردت كنايةً عبى ريبه
 فجعلت سامعه يشوب شكوكه
 وإذا عتبت على أخ في زلة
 فتركته مستأنساً لدمائه
 وإذا نبذت إلى التي علقتها
 تيمتها بلطيفه ورقيقه
 وإذا اعتذرت إلى أخ في زلة
 فيحور ذنبك عند من يعتده
 والقول يحسن منه في منثوره
 ما ليس يحسن منه في مؤزونه

وقال الخليل بن أحمد: الشعراءُ أمراءُ الكلام، يصرفونه أثنى شاءوا؛ وجائز لهم ما لا يجوزُ لغيرهم، من إطلاق المعنى وتقبيده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومد مقصوره، وقصر ممدوده، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته.

وقال: الشعرُ حليةُ اللسان، ومَلَرجةُ البيان، ونظامُ الكلام، مقسومٌ غيرُ محذور، ومشاركٌ غير محصور، إلا أنه في العرب جوهري، وفي العجم صناعي.
 قال أعرابي لشاعر من أبناء فارس: الشعرُ للعرب، فكل من يقول الشعر منكم فإنما نزا على أمه رجل منا! فقال الفارسي: وكذلك من لا يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه رجل منا!.
 وقال عمارة بن عقيل: أجود الشعر ما كان أملس المتون، كثير العيون، لا يعجُّه السمع، ولا يستأذن على القلب وأنشد الجاحظ شعر أبي العتاهية فلم ير ضهه، وقال: هو أملس المتون، ليس له عيون، كأنه وعمارة تجاذبا كلاماً واحداً.

وقال ابن عقيل: الشعرُ بضاعة من بضائع العرب، ودليل من أدلة الأدب، وأثارة من أثارات الحسب. ولن يهزّ الشعرُ إلا الكريمَ المَحْتَد، الكثيرَ السُّودد، الكلِفَ بذِكْرِ اليومِ والغَد.
ومدح بشار المهدي فلم يُعطه شيئاً، فقليل له: لم تُجد في مدحه. فقال: لا والله، لقد مدحته بشعرٍ لو قلت مثله في الدهر لما خيف صرْفُه على حرٍّ، ولكني أُكذِبُ في العمل، فأُكذِبُ في الأمل.
نظمه الناجم فقال: الوافر:

ولي في أحمدٍ أملٌ بعيدٌ ومدح حين أنشده طريفٌ
مدائح لو مدحت بها الليالي لما دارت عليّ لها صروفٌ

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صف لي جريراً والفرزدق والأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما أعظمهم فخراً، وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأسيرهم مثلاً، وأقلهم غزلاً، وأحلامهم عللاً، البحر الطامي إذا زخر، والهامي إذا دعر، والسامي إذا خطر، الذي إذا هدر جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق. وأما أحسنهم نعتاً، وأمدحهم بيتاً، وأقلهم فتناً، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رقع، فالأخطل. وأما أغزرهم بحراً، وأرقهم شعراً، وأكثرهم ذكراً، الأغر الأبلق، الذي إن طلب لم يُسبق، وإن طلب لم يُلحق، فجرير. وكلهم ذكي الفؤاد، رفيع العماد، واري الزناد.
قال مسلمة بن عبد الملك، وكان حاضراً: ما سمعنا يا ابن صفوان في الأولين ولا في الآخرين، أشهد أنك أحسنهم وصفاً، وأليّهم عطفاً، وأخفهم مقالاً، وأكرمهم فعلاً. فقال خالد: أتم الله عليك نعمة، وأجزل لك قسمه. أنت والله أيها الأمير - ما علمت - كريم الغراس، عالم بالناس، جواد في المحل، بسام عند البذل، حلیم عند الطيش، في الذروة من قریش، من أشرف عبد شمس، ويومك خير من الأمس.
فضحك هشام وقال: ما رأيت مثلك يا ابن صفوان لتخلصك في مدح هؤلاء، ووصفهم، حتى أرضيتهم جميعاً وسلّمت منهم.

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تُحسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية، أمكنه خراب الأخبية، قال: ما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم، وحلماً يمنعنا من أن نظلم، قال: لكلماتك أحسن من شعرك! فما العز الذي يمنعك أن تظلم. قال: الأدب البارع، والفهم الناصع. قال: فما الحلم الذي يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرف، والطبع التالذ، قال: لقد أصبحت حكيماً. قال: وما يمنعني من ذلك وأنا نجي أمير المؤمنين؟.

قال أبو إسحاق: وليس كما قال العجاج، بل لكثير من الشعراء طباع تنبؤ عن الهجاء كالطائي وأضرابه، وأصحاب المطبوع أقدر عليه من أهل المصنوع، إذ كان الهجو كالنادرة التي إذا جرت على سجيّة قائلها،

وقربتُ من يَدِ متناولها، وكانَ واسعَ العطن، كثيرَ الفطن، قريبَ القلب من اللسان، التهبت بنارِ الإحسان.

ومما يَنحُو هذا النحو من مقامات أبي الفتح الإسكندري إنشاءً بديع الزمان قال: حدّثنا عيسى بن هشام قال: طرحني النوى مطارحها، حتى إذا وطئتُ جُرْجان الأقصى، فاستظهرتُ على الأيام بضيايح أجلتُ فيها يدَ العمارة، وأموالٍ وقفنها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورُفقة اتخذهم صحابة، وجعلتُ للدار حاشيتي النهار، والحانوت ما بينهما، فجلسنا يوماً نتذاكرُ الشعر والشعراء، وتلقانا شاب قد جلس غير بعيد، يُنصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلامُ بنا ميّله، وجَرَّ الجدلَ فينا ذيله، قال: أصبتم عُدَيْقَهُ ووافيتم جُذَيْلَهُ، ولو شئتُ للفظت فأفضت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحقّ في معرض بيان يُسمِعُ الصم، ويُنزلُ العُصم. فقلت: يا فاضل، أدُنْ فقد منّيت، وهات فقد أثّنت، فدنا وقال: سلوني أُجيبكم، واستمعوا أُعجبكم.

قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول من وقفَ بالديار وعَرَصاتها، واعتدى والطيرُ في وُكُناتها، ووصف الخيلَ بصفاتها، ولم يقل الشعرَ كاسباً، ولم يُجدِ القولَ راغباً، ففضل من تفتقَ للحيلَة لسائه، وانتجعَ للرغبة بنائه.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عَشِقَ، ويثْلُبُ إذا حَنَقَ، ويمدح إذا رَغِبَ، ويعتذر إذا رَهَبَ، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماءُ الأشعار وطينتها، وكثر القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرارُ دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه، ويدعو القولَ والسَّحْرُ يُجيبه. قلنا: فما تقول، في جرير والفرزدق. وأيهما أسبق؟ قال: جرير أرقّ شعراً، وأغزر غزراً، والفرزدق أمتنُ صخراً، وأكثر فخراً، وجرير أوجع هَجْواً، وأشرف يوماً، والفرزدق أكثر رَوْماً، وأكثر قوماً، وجرير إذا نَسب أشجى، وإذا ثَلَب أَرْدَى، وإذا مدح أَسنى، والفرزدق إذا افتخر أجْزى، وإذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثرُ في المعاني حظاً، والمتأخرون أطفُ صُنْعاً، وأرق نَسْجاً.

قلنا: فلو أريت من أشعارك، ورويتَ من أخبارك، قال: خُذْهُما في معرض واحد، أنشد: الرجز:

أَمَا تَرَوْنِي أَتَغْشَى طِمْرًا
مُنْطَوِيًّا عَلَى اللَّيَالِي غَمْرًا
أَقْصَى أَمَانِي طُلُوعُ الشَّعْرَى
وَكَانَ هَذَا الْحَرُّ أَعْلَى قَدْرًا
ضَرَبْتُ لِلْسُرُوقِ قِبَابًا خُضْرًا
فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنِ ظَهْرًا
لَمْ يَبْقَ مِنْ وَفَرِي إِلَّا ذِكْرًا
لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بُسْرٌ مَنْ رَا
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ شَرًّا
مُلْتَحِفًا فِي الضَّرِّ أَمْرًا إِمْرًا
مَلَاقِيًا مِنْهَا صُرُوفًا حُمْرًا
فَقَدْ عُنِينَا بِالْأَمَانِي دَهْرًا
وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَعْلَى سِعْرًا
فِي دَارٍ دَارًا وَإِوَانٍ كِسْرَى
وَعَادَ عُرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نُكْرًا
ثُمَّ إِلَى الْيَوْمِ هَلَمْ جَرًّا
وَأَفْرَخُ دُونَ جِبَالٍ بُصْرَى
قَتَلْتُ، يَا سَادَةَ، نَفْسِي صَبْرًا

قال عيسى بن هشام: فَنُتِلُّهُ مَا تَاحَ، وَأَعْرَضَ عَنَّا فَرَاخَ، وَجَعَلْتُ أَنْفِيهِ وَأَثْبَتَهُ، وَأُنْكَرَهُ وَكَأَنِّي أَعْرِفُهُ، ثُمَّ دَلَّتْنِي عَلَيْهِ ثَنَائِيهِ، فَقُلْتُ: الْإِسْكَندَرِيُّ وَاللَّهِ؛ فَلَقَدْ كَانَ فَارَقَنَا خَشْفًا، وَوَاثَانَا جِلْفًا، وَنَهَضْتُ عَلَى إِثْرِهِ، ثُمَّ قَبِضْتُ عَلَى خَصْرِهِ، وَقُلْتُ: أَلَسْتَ أَبَا الْفَتْحِ. أَلَمْ تَكُنْ فِينَا وَلَيْدًا، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سَنِينَ؟ فَأَيُّ عَجُوزٍ لَكَ بَسْرٌ مَنْ رَأَى؟ فَضَحِكَ وَقَالَ: مَخْلَعُ الْبَسِيطِ:

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ
غَرَقَ وَبَرَقَ وَكُلُّ وَطَرَقَ
فَلَا يَغِرُّنَّكَ الْغُرُورُ
وَاسْرِقْ وَطَلِّقْ لِمَنْ تَزُورُ
دُرُّ اللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَةَ وَلَكِنْ

وَمِنْ إِنْشَائِهِ مَقَامَةً وَلَدَهَا عَلَى لِسَانِ عَصْمَةَ وَذِي الرِّمَةِ قَالَ: حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ فِي مَجْتَمَعٍ لَنَا وَمَعَنَا يَوْمُئِذٍ رَجُلٌ الْعَرَبُ حِفْظًا وَرِوَايَةً عَصْمَةَ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ، فَأَفْضَى الْكَلَامُ إِلَى ذِكْرِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ خَصْمِهِ حِلْمًا، أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ خَصْمُهُ إِحْتِقَارًا، حَتَّى ذَكَرَ الصَّلَاتَانِ الْعَبْدِيُّ وَاللَّعِينُ الْمُنْقَرِي، وَمَا كَانَ مِنْ إِحْتِقَارِ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ لَهْمَا. فَقَالَ عَصْمَةُ: سَأَحْدِثُكُمْ بِمَا شَاهَدْتَهُ عَيْنِي، وَلَا أَحْدِثُكُمْ عَنْ غَيْرِي: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي بِلَادِ تَمِيمٍ مَرْتَحِلًا بَنِيَّةً، وَقَائِدًا جَنِيَّةً، عَنْ لِي رَاكِبٍ عَلَى أَوْرَقٍ جَعَدَ اللَّغَامُ، فَاجْتَازَ بِي رَافِعًا صَوْتَهُ بِالسَّلَامِ. فَقُلْتُ: مَنْ الرَّاكِبُ الْجَهِيْرُ الْكَلَامِ، الْحَيِي بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: أَنَا غَيْلَانُ بْنُ عَقْبَةَ. فَقُلْتُ: مَرْحَبًا بِالكَرِيمِ حَسْبُهُ، الشَّهِيرِ نَسَبُهُ، السَّائِرِ مَنْطِقُهُ. فَقَالَ: رَحْبٌ وَادِيكَ، وَعِزٌّ وَادِيكَ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: عَصْمَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ. فَقَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ، نَعَمْ الصَّدِيقُ، وَالصَّاحِبُ وَالرَّفِيقُ. وَسَرَرْنَا فَلَمَّا

هَجَرْنَا قَالَ: أَلَا نُعَوِّرُ يَا عَصْمَةَ، فَقَدْ صَهَرْنَا الشَّمْسُ؟ فَقُلْتُ: أَنْتَ وَذَاكَ، فَمَلْنَا إِلَى شَجَرَاتِ أَلَاءِ كَأَنَّهُنَّ
عَذَارَى مَتَرِّجَاتٍ، قَدْ نَشَرْنَ الْغِدَائِرَ، وَسَرَّخْنَ الضَّفَائِرَ؛ لِأَثْلَاثٍ مُتَنَاحَاتٍ؛ فَحَطَطْنَا رِحَالَنَا، وَنَلْنَا مِنْ
الطَّعَامِ، وَكَانَ ذُو الرِّمَةِ زَهِيدَ الْأَكْلِ. وَزَالَ كُلُّ مَنْأٍ إِلَى ظِلِّ أَثْلَةٍ يُرِيدُ الْقَائِلَةَ، وَاضْطَجَعَ ذُو الرِّمَةِ، وَأَرَدْتُ
أَنْ أَصْنَعَ صَنِيعَهُ، فَوَلَّيْتُ ظَهْرِي الْأَرْضَ، وَعَيْنَايَ لَا يَمْلِكُهُمَا غَمَضٌ، فَظَنَرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِلَى نَاقَةٍ كَوْمَاءَ،
ضَحِيحَتْ وَغَبِيطُهَا مُلْقَى، وَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يَكْلُوهَا كَأَنَّهُ عَسِيفٌ أَوْ أَسِيفٌ، فَلَهَيْتُ عَنْهُمَا، وَمَا أَنَا وَالسُّؤَالُ
عَمَّا لَا يَعْنِينِي! وَنَامَ ذُو الرِّمَةِ غِرَارًا، ثُمَّ انْتَبَهَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ مُهَاجَاتِهِ لِذَلِكَ الْمَرْيِّ. فَرَفَعَ عَقْرَتَهُ يَنْشُدُ
فِيهِ: الْمُتَقَارِبُ:

أَمِنْ مَيَّةَ الطَّلَلِ الدَّارِسُ	أَلْظَّ بِهِ الْعَاصِفَ الرَّامِسُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَجِيجُ الْقَذَالِ	وَمُسْتَوْقَدٌ مَا لَهُ قَابِسُ
وَجَوْضٌ تَلَّتَمَ مِنْ جَانِبَيْهِ	وَمَحْتَقَلٌ دَائِرٌ طَامِسُ
وَعَهْدِي بِهِ وَبِهِ سَكْنُهُ	وَمَيَّةٌ وَالْإِنْسُ وَالْأَنْسُ
سَتَأْتِي أَمْرًا الْقَيْسِ مَأْثُورَةٌ	يَغْنِي بِهَا الْعَابِرَ الْجَالِسُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ قَدْ	أَلْظَّ بِهِ دَاوُدُ النَّاجِسُ
هَمُّ الْقَوْمِ لَا يَأْلُمُونَ الْهَجَاءَ	وَهَلْ يَأْلَمُ الْحَجَرُ الْيَابِسُ؟
فَمَا لَهُمْ فِي الْفَلَا رَاكِبُ	وَلَا لَهُمْ فِي الْوَعَى فَارِسُ
إِذَا طَمَحَ النَّاسُ لِلْمَكْرَمَاتِ	فَطَرَفُهُمُ الْمَطْرَقُ النَّاعِسُ
تَعَافُ الْأَكَارِمُ إِصْهَارَهُمْ	فَكُلُّ نَسَائِهِمْ عَانِسُ

فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْبَيْتَ جَعَلَ ذَلِكَ النَّائِمُ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ: أَذُو الرُّمَيْمَةِ يَمْنَعُنِي النَّوْمُ بِشَعْرٍ غَيْرِ مُتَقَفٍ وَلَا
سَائِرٍ؟ فَقُلْتُ: يَا غِيلَانَ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: الْفَرِيزِدُ، يَعْنِي الْفَرَزْدَقُ، وَحَمِي ذُو الرِّمَةِ: الْمُتَقَارِبُ:

وَأَمَّا مُجَاشَعُ الْأَرْدُلُونِ	فَلَمْ يَسْقِ مَيَّتَهُمْ رَاجِسُ
سَيَعْقُلُهُمْ عَنْ مَسَاعِي الْكِرَامِ	عِقَالٌ، وَيَحْبِسُهُمْ حَابِسُ

فَقُلْتُ: الْآنَ يَشْرِقُ فَيُثَوِّرُ، وَيَعْمُ الْفَرَزْدَقُ هَذَا وَقَبِيلُهُ بِالْهَجَاءِ. فَوَاللَّهِ مَا زَادَ عَلَيَّ أَنْ قَالَ: قَبْحًا لَكَ يَا ذَا
الرُّمَيْمَةِ! أَتَعْرِضُ لِمِثْلِي بِمَقَالٍ مُنْتَحَلٍ. ثُمَّ عَادَ فِي نَوْمِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا، وَسَارَ ذُو الرِّمَةِ وَسِرَّتْ، وَإِنِّي
لَأَرَى فِيهِ انْكَسَارًا حَتَّى افْتَرَقْنَا.

قَوْلُهُ فِيمَا وَلَدَ عَلَى الْفَرَزْدَقِ بِمَقَالٍ مُنْتَحَلٍ، يُرِيدُ أَنَّ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ مَنْقُولَ مَنْ قَوْلِ جَرِيرٍ: الطَّوِيلُ:

ألم تر أن الله أخزى مجاشعاً إذا ما أفاضت في الحديث المجالسُ

وما زال معقولاً عقلاً عن الندى وما زال محبوباً عن المجد حابسُ

عقال: ابن محمد بن سعيد بن، مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وهو جد الفرزدق. وحابس: ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو أبو الأقرع بن حابس أحد المؤلفة قلوبهم.

فقر في الشعر

قيل لابن الزبعرى: لم تقصّر أشعارك؟ فقال: لأنها أغلقت بالمسامع، وأجول في حافل.

وقيل ذلك لعقيل بن علفة في أهاجيه، فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. غيره: لسان الشاعر أرض لا تخرج الزهر حتى تستسلف المطر، وما ظنك بقوم الاقتصار محمود إلا فيهم، والكذب مذموم إلا منهم. إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مئوبة، ويقرع جليسه بأدنى زلة. أبو القاسم صاحب بن عباد: النثر يتطائر كتطائر الشرر، والنظم يبقى بقاء النقش الحجر. أبو عبيدة: الزحاف في الشعر كالرخصة في الدين، لا يُقدم عليها إلا فقيه. وقال أبو فراس الحمداني: مخلع البسيط:

تتاهض الناس للمعاني لَمَّا رَأَوْا نحوها نهوضي

تكلفوا المكرمات كذا تكلف الشعر بالعروض

وقد مدح الجاحظ العروض وذمها، فقال في مدحها: العروض ميزان، ومعارض بها يعرف الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليها مدار الشعر، وبها يسلم من الأود والكسر. وقال في ذمها: هو علم مؤلّد، وأدب مستبّرّد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستنكر العقل بمستفعلن وفعل، من غير فائدة ولا محصول.

ومن مفردات الأبيات في هذا المعنى قول دعبل: الطويل:

يموت رديء الشعر من قبل أهله وجيّد يبقَى وإن مات قائله

البحثري: البسيط:

أعيا عليّ؛ فلا هيابة فرق يخشى الهجاء، ولا هش فيمتدح

آخر: الوافر:

عداوة من يُغَلَّ عن الهجاء

ومِمَّا يَقْتُلُ الشعراءَ غَمًّا

أحمد بن أبي فتن: الطويل:

يلوم على البخل اللئام، وييخلُ

وإن أحقَّ الناس باللوم شاعرٌ

وهذا كقول علي بن العباس الرومي في أبي الفياض سَوَّار بن أبي شراعة، وكان سَوَّار شاعراً مجيداً:
الكامل:

ناقضت في فعليك أيّ نقاضٍ

يا مَنْ صناعته الدعاءُ إلى العلّا

هو فيه محتاجٌ إلى حصّاضٍ

عجباً لحصّاضٍ الكرام على الذي

ورأى الجميل وفيه عنه تغاضٍ

وصف المكارم وهو فيها زاهدٌ

وأشدَّ معنبةً على الحرّاضِ

لم ألقَ كالشعراء أكثر حارضاً

لم يأتها، ومرغبٍ رفاضٍ

كم فيهم من أمرٍ برشيده

لم نفرق عنها افتراق تراضٍ

يا حسرتي لمودّة أدبية

أعيّا المشيبُ تتابع المقرّاضِ

ليس العتابُ بنافع في قاطع

ثم قال بعد هذا التبكيت والعتاب ما منعه أن يتوهّم أنه هجاه: الكامل:

لا أجعلُ الأعراض كالأغراضِ

ولمّا هجوتك، بل وعظمتك إنني

أسفته، فرمّاك بالمعرّاضِ

فاكفّف سِهامك عن أخيك فإنما

ومتى جهلتُ مُنيت بالبرّاضِ

فمتى حلمتُ وجدتُ أحنفَ دهره

أنذرت قبل الرّميّ بالإنباضِ

فاعذر أخاك على الوعيد؛ فإنما

بطرُ الغنى ومذلةُ الإبعاضِ

واعلم وقيت الجهل أن خساسةً

ثم هجاه بقوله: البسيط:

كأن فكّيك للأغراضِ مقرّاضُ

وما تكلمت إلا قلت فاحشةً

وقُوك قوسُك والأعراضِ أغراضُ

مهما تقل فسِهامٌ منك مُرسلةٌ

وابن الرومي هذا كما قال مسلم بن الوليد الأنصاري في الحكم بن قنبر المازني: الخفيف:

حكم فاشتفى بها من هجائي

عابني من معائب هُنَّ فيه

وكما قال الآخر: الطويل:

ترجمة الأحنف بن قيس وأخباره

وروى عيسى بن دأب قال: أول ما عرف الأحنف بن قيس وقُدِّم أنه وفد على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان أحدثَ القوم سناً، وأقبحهم منظراً، فتكلم كل رجل من الوفدِ بحاجته في خاصته، والأحنف ساكتٌ، فقال له عمر: قل يا فتى! فقام فقال: يا أمير المؤمنين، إن العرب نزلت بمساكن طيبة ذات ثمار وأنهار عذاب، وأكنة ظليلة، ومواضع فسيحة، وإنا نزلنا بسبخة نَشَّاشة، مأوها مِلْح، وأفنيتها ضيقة، وإنما يأتينا الماء في مثل حلق النعامة إلا تدر كنا يا أمير المؤمنين بحفَر نهر يَعْزُر مأوه، حتى تأتي الأمة فتغرف بجرّتها وإنائها أو شك أن نهلك، قال: ثم ماذا؟ قال: تزيد في صَاعِنَا ومُدْنَا، وتثبت من تلاحق في العطاء من ذُرَيْتِنَا. قال: ثم ماذا؟ قال: تخفف عن ضعيفنا، وتنصف قوينَا، وتتعاهد ثغورنا، وتجهّز بعثنا، قال: ثم ماذا؟ قال: إلى ها هنا انتهت المطالب، ووقف الكلام. قال: أنت رئيس وفدك، وخطيب مصرك، قم عن موضعك الذي أنت فيه. فأدناه حتى أقعده إلى جانبه، ثم سأله عن نسبه، فانتسب له، فقال: أنت سيدُ تميم، فبقيت له السيادة إلى أن مات.

وهو الأحنف، واسمه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن بن عبادة بن التّزال بن مرّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وقال بعض بني تميم: حضرتُ مجلس الأحنف وعنده قومٌ مجتمعون له في أمرٍ لهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الكرمَ منَعُ الحرم، ما أقربَ النعمة من أهل البغي، لا خيرَ في لذة تُعقبُ ندماً، لم يهلك من اقتصد، ولم يفتقر من زهد، رب هزل قد عاد جِداً، من أَمِن الزمانَ خانته، ومن تَعَظَّم عليه أهانه، دَعُوا المِزَاحَ فإنه يُورِثُ الضغائن، وخيرُ القول ما صدّقه الفعل، احتملوا لمن أدلَّ عليكم، واقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم، أطع أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفأك، أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك، إياكم ومشاورَةَ النساء، واعلم أن كُفراً النعمِ لؤم، وصُحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذم، ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الوُدّ، لا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل، واعلم أن لك من دُنياك ما أصلحت به مَثْوَاكَ، فأنفق في حقّ، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا كان العَدْرُ موجوداً في الناس فالثقة بكل أحد عَجْز؛ اعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تُعْدِلُ صلةَ العاقل. قال: فما سمعتُ كلاماً أبلغ منه. فقامت وقد

حفظته.

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيد بين يديه، وهو ينظر إليه إعجاباً، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أمير المؤمنين، هم عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرّة أعيننا، بهم نصولُ على أعدائنا، وهم الخلف منّا بعدنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، ولا تمنعهم رفدك فيملّوا قُربك، ويستثقلوا حياتك، ويتمنّوا وفاتك. فقال: لله درك يا أبا بحر، هم كما قلت!.

وزعمت الرواة أنهما لم تسمع للأحنف إلا هذين البيتين: المتقارب:

لَجِدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بِأَذِلَّةٍ

فَلَوْ مَدَّ سَرَوِي بِمَالٍ كَثِيرٍ

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَالُهَا فَاضِلًا

فَإِنَّ الْمَرْوَةَ لَا تَسْتَطَاعُ

وكان يُخَلِّ. وقال لبني تميم: أترعمون أي بخيل! والله إني لأشير بالرأي قيمته عشرة آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرأيك بخل. وكان الأحنف من الفضلاء الخطباء النساك، وبه يُضرب المثل في الحلم. وقد ذُكر للنبي، صلى الله عليه وسلم، فاستغفر له، فقد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، رجلاً إلى قومه بني سعد يعرض عليهم الإسلام، فقال الأحنف: إنه يدعوكم إلى خير، ولا أسمع إلا حسناً. فذكر للنبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: "اللهم اغفر للأحنف". وكان الأحنف يقول: ما شيء أرجى عندي من ذلك.

قال عبدُ الملك بن عُمر: قدم إلينا الأحنف، فما رأينا خصلةً تُذمُّ في رجل إلا رأيناها فيه، كان أصلع الرأس، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، باخق العينين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، وكانت العين تفتحُ دمامةً وقلة رواء، ولكنه إذا تكلم جَلَّى عن نفسه. وهو الذي خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء، وتنازعت القبائل؛ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأكفاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله لأزدد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، وفي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم.

وقد قام خطباء البصرة في هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا، فلما قام الأحنف أصغت القبائل إليه، وانتالت عليه، وقال الناس: هذا أبو بحر، هذا خطيب بني تميم، وحضر ذلك الجمع جارية لآل المهلب، فذهبت تروم النظر إليه، فاعتاص ذلك عليها، فأشرفت عليه من دارها، فلما رآته والأبصارُ حاشعةً لكلامه،

ورأت دمامة خلقه، وكثرة آفات جوارحه، قالت: فُقدت هذه الخلقة ولو افترت عن فصل الخطاب. وذكر المدائني أن الأحنف بن قيس وفد على معاوية، رضي الله عنه، مع أهل العراق، فخرج الآذن، فقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم ألا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافة دفت، ونازلة نزلت، ونابطة نبتت، كلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره، قال: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجه إليه بوحد أهل العراق، فبعث إليه بوحد البصرة والكوفة، فتكلمت الخطباء في يزيد، والأحنف ساكت، فلما فرغوا قال: قل يا أبا بحر، فإن العيون إليك أشرع منها إلى غيرها، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره، فإن كنت تعلمه الله رضا فلا تشاور فيه أحداً، ولا تُقيم له الخطباء والشعراء، وإن كنت تعلم بعده من الله فلا تزوده من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة، فإنك تصير إلى يوم يفر فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. قال: فكأنه أفرغ على معاوية ذنوب ماء بارد. فقال له: اقعد يا أبا بحر فإن خيرة الله تجري، وقضاء الله يمضي، وأحكام الله تنفذ، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؛ وإن يزيد فتى قد بلوناه، ولم نجد في قریش فتى هو. أجدر بأن يجتمع عليه منه. فقال: يا أمير المؤمنين، أنت تحكي عن شاهد، ونحن نتكلم على غائب، وإذا أراد الله شيئاً كان.

قال ابن الرومي: الكامل:

إن امرأ رَفَضَ المكاسبَ واغْتَدَى
يَتَعَلَّمُ الآدابَ حتى أَحْكَمَا
فكسًا وحلَّى كلَّ أَرْوَاعٍ مَاجِدٍ
من حُرٍّ ما حاكَّ القَرِيضَ ونَظْمَا
ثِقَّةً برعي الأكرمين حقوقه
لأحق ملتمسٍ بالألَّا يُحْرَمَا

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار: ومن نادر شعر أبي الحسن في هذا المعنى - قوله، ووصف إتعاب الشعراء أنفسهم بدؤوبهم في صناعتهم، وما يتصرم من أعمارهم، وأن إلحاحهم في طلب ما في أيدي من أسلفوه مديحهم لو كان رغبة منهم إلى ربهم كان أجدى عليهم، وأقرب من درك بُغيتهم، ونُجَحَ طَلِبَتِهِمْ، ثم انحرَفَ إلى توبيخ من مدحه فحرمه بأحسن عبارة، وأرضى استعارة، فقال: الكامل:

للناس فيما يكلفون مَغَارِمَ
عند الكرام لها قَضَاءُ ذَمَامِ
ومغارم الشعراء في أشعارهم
إنفاقُ أعمارٍ وهجرُ مَنَامِ
وجفاء لذاتٍ ورفضُ مكاسبٍ
لو حُولِفت حُرست من الإعدام

وَتَشَاغُلُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّ لَمْ يَزَلْ
مَنْ لَوْ بِخِدْمَتِهِ تَشَاغُلَ مَعَشَرٌ

حَسَنَ الصَّنَائِعِ سَابِغَ الْإِنْعَامِ
خَدَمُوكُمْ أَجْدَى عَلَى الْخَدَامِ

أَفَمَا لَذَلِكَ حُرْمَةُ مَرَعِيَّةٍ
لَمْ أَحْتَسِبْ فِيكَ الثَّوَابَ بِمَذْحَتِي
لَوْ كَانَ شِعْرِي حِسْبَةً لَمْ أَكْسُهُ
لَا تَقْبَلَنَّ الْمَذْحَ ثُمَّ تَعَافَهُ
وَاحْذَرْ مَعَرَّتَهُمْ إِذَا دَنَسَتْهُمْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُنْصَفُوا
وَجَنَايَةِ الْعَادِي عَلَيْهِمْ تَنْقُضِي
أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي: الْكَامِلُ:

إِنَّ الْكَرَامَ إِذَا لَغَيْرُ كِرَامٍ
إِيَّاكَ يَا ابْنَ أَكَارِمِ الْأَقْوَامِ
أَحَدًا أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْأَيْتَامِ
فَتَنَامُ وَالشَّعْرَاءُ غَيْرُ نِيَامٍ
فَلَهُمْ أَشَدُّ مَعَرَّةَ الْعُرَّامِ
حَكَمُوا لَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْحَكَّامِ
وَعِقَابُهُمْ يَبْقَى مَعَ الْأَيَّامِ

وَمَكَابِدُ السَّفَهَاءِ وَاقْعَةُ بِهِمْ

وَعَدَاوَةُ الشَّعْرَاءِ بِنُسِّ الْمُقْتَنَى

مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِالْكُوفَةِ، فَمَشَى مَصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ فِي جَنَازَتِهِ بِغَيْرِ رَدَاءٍ، وَقَالَ: الْيَوْمَ مَاتَ سِرُّ الْعَرَبِ؛ فَلَمَّا دُفِنَ امْرَأَةٌ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَتْ: لِلَّهِ دَرُكٌ مِنْ مُجَنٍّ فِي جَنَنِ، وَمُدْرَجٌ فِي كَفْنٍ، نَسَأُ الَّذِي فَجَعْنَا بِمَوْتِكَ، وَابْتَلَانَا بِفَقْدِكَ، أَنْ يَجْعَلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ، وَدَلِيلَ الرَّشْدِ دَلِيلَكَ، وَأَنْ يَوْسَعَ لَكَ فِي قَبْرِكَ، وَيَغْفِرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَافِلِ شَرِيفًا، وَعَلَى الْأَرَامِلِ عَطُوفًا، وَلَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَيِّ مُسَوِّدًا، وَإِلَى الْخَلِيفَةِ مُوَفَّدًا، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ؛ ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَتْ: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ، شُهُودٌ عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنِّي لِقَائِلَةٌ حَقًّا، وَمُثْنِيَّةٌ صِدْقًا، وَهُوَ أَهْلُ الْحُسْنِ الثَّنَاءِ، وَطِيبُ الثَّنَاءِ، أَمَا وَالَّذِي كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ، وَمِنْ الْحَيَاةِ إِلَى مَدَّةٍ، وَمِنْ الْمَقْدَارِ إِلَى غَايَةٍ، وَمِنْ الْإِيَابِ إِلَى نَهَايَةٍ، الَّذِي رَفَعَ عَمَلِكَ، لَمَّا قَضَى أَجَلَكَ، لَقَدْ عِشْتُ حَمِيدًا مَوْدُودًا، وَمُتُّ سَعِيدًا مَفْقُودًا، ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَهِيَ تَقُولُ: الْكَامِلُ:

لِلَّهِ دَرُكٌ يَا أَبَا بَحْرٍ

مَاذَا تَغِيبَ مِنْكَ فِي الْقَبْرِ؟

لِلَّهِ دَرُكٌ أَيَّ حَشْوٍ ثَرَى

أَصْبَحْتَ مِنْ عُرْفٍ وَمِنْ نُكْرٍ

إِنْ كَانَ دَهْرٌ فِيكَ جَرًّا لَنَا

حَدَّثًا بِهِ وَهَنْتُ قُوَى الصَّبْرِ

فَلَكُمْ يَدِ أَسَدِيَّتِهَا وَيَدِ

كَأَنْتَ تَرُدُّ جَرَانِ الدَّهْرِ

ثم انصرفت فسئل عنها، فإذا هي امرأته وابنة عقه. فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة قط أبليغ ولا أصدق منه.

قال: وكان الأحنف قدم الكوفة في أيام مصعب بن الزبير، فراه رجل أعور دميماً قصيراً أحنف الرجلين، فقال له: يا أبا بحر، بأي شيء بلغت في الناس ما أرى؛ فوالله ما أنت بأشرف قومك، ولا أجودهم؟! فقال: يا ابن أخي، بخلاف ما أنت فيه! قال: وما هو؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عنك من أمري ما لا تتركه.

ترجمة منصور النمري وأخباره

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم: مَنْ كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمري في أمير المؤمنين الرشيد: البسيط:

أحلك الله منها حيث تجتمع	إن المكارم والمعروف أودية
ومن وضعت من الأقوام متضع	إذا رفعت امرأ فالله رافعه
فليس بالصلوات الخمس ينتفع	من لم يكن بأمين الله معتضماً
أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع	إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله

فليدخل، فقال محمد بن وهيب: فينا من يقول خيراً منه، وأنشد: البسيط:

شمس الضحى وأبو إسحاق، والقمر	ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم
الغيث والليث والصمصامة الذكر	يحكي أفاعيله في كل نائبة

فأمر بإدخاله وأحسن صلته.

أخذ معنى البيت الأول من بيتي محمد بن وهيب أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسي: الكامل:

قلبي وطرف بابلي أخور	المدنفان من البرية كلها
الشمس والقمر المنير وجعفر	والمشركات النيرات ثلاثة؛

وبيت أبي القاسم الأول مأخوذ من قول ابن الرومي: مجزوء الرمل:

يا عليلاً جعل العلة مفتاحاً لسقمي	ليس في الأرض عليل
غير جفنيك وجسمي	

ومرّ النمرى بالعتابي مغموماً فقال: ما لك، أعزّك الله؟ فقال: امرأتى تطلق منذ ثلاث ونحن على يأسٍ منها. فقال له العتابي: وإنّ دواءها منك أقرب من وجهها، قل: هارون الرشيد، فإن الولد يخرج! فقال: شكوت إليك ما بي، فأجبني بهذا؟ فقال: ما أخذت هذا إلا من قولك: البسيط:

إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتنسج

وأبيات منصور بن سَلَمَة بن الزبرقان النمرى التي ذكرها المعتصم من قصيدة له وهي أحسن ما قيل في الشيب أولها: البسيط:

ما تنقضي حسرة ولا جزع إذا ذكرت شباباً ليس يُرتجع

بان الشباب وفانتنتي بغرته خطوب دهر وأيام لها خدع

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبغ

تعجبت أن رأيت أسراب دمعته في حلبة الخد أجراها حشى وجع

أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجى بغصته فالعذر لا يقع

لا ألحين فتاتي غير كاذبة عين الكذوب فما في ودكم طمع

ما واجه الشيب من عيب وإن ومقت إلا لها نبوة عنه ومُرتدع

إني لمعترف ما في من أرب عند الحسان فما للنفس تتخدع

قد كدت تقضي على فوّت الشباب أسى لولا تعزيك أن الأمر منقطع

وذكر أن الرشيد لما سمع هذا بكى، وقال: ما خير دنيا لا تخطر فيها بريد الشباب! وأنشد متمثلاً: الوافر:

أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً وقد صار الشباب إلى ذهاب

فليت الباقيات بكل أرض جُمعن لنا فنحن على الشباب

وكان الرشيد يقدم منصوراً النمرى بجودة شعره، ولما يُمْتُ إليه من النسب من العباس بن عبد المطلب،

رضي الله عنه، وكانت نثيلة أم العباس من النمر بن قاسط؛ ولما كان يُظهر من الميل إلى إمارة العباس

وأهله، والمنافرة لآل علي، رضي الله عنه، ويقول: الوافر:

بني حسن وقل لبني حسين عليكم بالسداد من الأمور

أميطوا عنكم كذب الأمانى وأحلاماً يعذن عداة زور

تسمون النبي أباً ويأبى من الأحزاب سطر في سطور

يريدُ قولَ الله تعالى: "ما كانَ محمدٌ أباً أحَدٍ من رِجالِكُمْ". وهذا إنما نزل في شأن زيد بن حارثة، وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، تبنّاه، فقال له الرشيد: ما عدوتَ ما في نفسي، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحب.

وكان يضمّر غير ما يظهر، ويعتقد الرّفص، وله في ذلك شعر كثير لم يَظْهَر إلا بعد موته، وبلغ الرشيد قوله: الكامل:

آلَ النبيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ
أَمِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَمَنْ
إِلَّا مَصَّالَتْ يَنْصُرُونَهُمْ
يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ
بَطْبِ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبْلِ

فأمر الرشيد بقتله وكان حينئذ برأس العين، فمضى الرسولُ فوجده قد مات فقال الرشيد: لقد هممت أن أنبش عظامه فأحرقها. وكان يُلغز في مدحه لهارون، وإنما يريد قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لعليّ، رضوان الله عليه: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى". وقال الجاحظ: وكان يذهب أولاً مذهب الشُّراة، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضي وسمع كلامه، فانتقل إلى الرّفص، وأخبرني مَنْ رآه على قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، ينشد قصيدته التي يقول فيها: الوافر:

فما وُجِدَتْ عَلَى الْأَكْتافِ مِنْهُمْ
وَلَكِنَّ الْوَجْهَ بِهَا كُلُّوْمٌ
أَرِيقُ دَمِ الْحُسَيْنِ وَلَمْ يَرَاعُوا
فَدَتُ نَفْسِي جَبِينَكَ مِنْ جَبِينِ
أَيُّخْلُو قَلْبُ ذِي وَرَعٍ وَدِينِ
وَلَا الْأَقْفَاءُ آثَارُ النَّصُولِ
وَفَوْقَ حُجُورِهِمْ مَجْرَى السَّيُولِ
وَفِي الْأَحْيَاءِ أَمْوَاتُ الْعُقُولِ
جَرَى دَمُهُ عَلَ خَدِّ أَسِيلِ
مِنْ الْأَحْزَانِ وَالْأَلَمِ الطَّوِيلِ

وَقَدْ شَرَقَتْ رِمَاحُ بَنِي زِيَادٍ
بِتَرْبَةِ كَرْبَلَاءَ لَهُمْ دِيَارُ
فَأَوْصَالَ الْحُسَيْنِ بِبَطْنِ قَاعِ
تَحِيَّاتٍ وَمَغْفِرَةٍ وَرَوْحِ
بَرْنَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّنْ
بَرِيٍّ مِنْ دِمَاءِ بَنِي الرَّسُولِ
نِيَامُ الْأَهْلِ دَارِسَةُ الطُّلُولِ
مَلَاعِبُ اللَّذْبُورِ وَلِلْقَبُولِ
عَلَى تِلْكَ الْمَحَلَّةِ وَالْحُلُولِ
أَصَابِكَ بِالْأَذْيَةِ وَالذُّحُولِ

أخبار ابني المعذل

وقال أحمد بن المعذل: الوافر:

أخو دَنَفٍ رَمَتْهُ فَأَقْصَدَتْهُ سِهَامٌ مِنْ جَفُونِكَ لَا تَطِيشُ
كُتَيْبٌ إِنْ تَرَحَّلَ عَنْهُ جَيْشٌ مِنْ الْبَلَوَى أَلَمَ بِهِ جُبُوشُ

وكان أحمد بن المعذل بن غيلان العبدي في اللغة والبيان والأدب والحلاوة غايةً. قال: دخلتُ المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصني ويُعني بي، فلما فاتحني قال: ما تحتاجُ أنتِ إلى شفيع، معك من الحذاء والسقاء ما تأكلُ به لبَّ الشجر، وتشرب صفو الماء. وكان أخوه عبد الصمد يؤذيه ويهجوّه، فكتب إليه أحمد: أما بعدُ، فإنَّ أعظمَ المكروه ما جاء من حيث يُرجى المحبوب، وقد كنتَ مؤملاً مَرَجوًّا، حتى شمل شرّك، وعمّ أذاك، فصرت فيك كأبي العاق: إن عاش نَعَصه، وإن مات نَقَصه، واعلمْ لقد خشنت صدرَ أخٍ جيئه لك ناصح، والسلام. وكان يقول له: أنت كالأصبع الزائدة: إن تُرِكَتْ شانتُ، وإن قطعت آلمتْ!. ومثّل هذا قولُ النعمان بن شمر الغساني: الطويل:

وصالٌ أبي بردٍ عَناءٌ، وتركه بلاء، فما أدري به كيف أصنعُ
إذا زُرته يومين ملّ زيارتي وإن غبت عنه ظلّت العين تدمعُ

وقول الضحاك بن همام الرقاشي: الطويل:

وأنتَ امرؤٌ منّا خلقتَ لغيرنا حياتك لا تُرجى وموتك فاجعُ
وأنتَ على ما كان منك ابنُ حرّوقٍ إنّي لما يرضى به الخصم مانعُ
وفيك خصالٌ صالحاتٌ يشينها لديك جفاءٌ عنده الودّ ضائعُ
وقال بعضُ المحدثين: الطويل:

إذا ساءني في القولِ والفعلِ جاهداً وفي كل حال من أحب وأمحضُ
فيا ليتَ شعري ما يعاملني به على كلّ ذنبٍ من أعادي وأبغضُ

وقال أبو العباس المبرد: وكان أحمد بن المعذل من الأبهة، والتمسك بالمنهاج، والتجشّب للبعث، والتعرّض للإشفاق لما في أيدي الناس، وإظهار الزهد فيه، والتباعد عنه، على غاية، حتى حُمل في فقهاء وأدباء من أهل البصرة، فأخذ الصلة غير مُمتنع ولا مُنكر. ووصله إسحاق بن إبراهيم فقبل، واستدعى اجتباؤه إياه، وتحلّى له جهده، فقال عبد الصمد: الوافر:

عذيري من أخٍ قد كان يُبدي على من لأبسر السلطان عتبه

وكان يذمهم في كل يوم

فلما أن أتته ذريهات

وقال فيه: مجزوء الخفيف:

له بالجهل والهذيان خطبة

من السلطان باع بهن ربه

سائلاً غير عاتب

للنيم المذاهب

لمس بعض الكواكب

جارية من محارب

مثل نار الحباب

لي أخ لا ترى له

أجمع الناس كلهم

دون معروف كفه

ليت لي منك يا أخي

نارها كل شتوة

ذهب إلى قول القطامي، وقول القطامي من حيث الهجاء، وكان نزل بامرأة من محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر فدم مثواه عندها، فقال: الطويل:

وإن كان ذا حق على الناس واجب

مخبر أهل أو مخبر صاحب

تضيقتها بين العذيب فراسب

إلى طرمساء غير ذات كواكب

تلفعت الظلما من كل جانب

وإني وإن كان المسافر نازلاً

فلا بد أن الضيف يخبر ما رأى

لمخبرك الأنباء عن أم منزل

تلفعت في ظل وريح تلفني

إلى حيزبون توقد النار بعدما

تخال وميض النار يبذو لراكب

تريح بمحسود من الصوت لاغب

ومن رجل عاري الأشجاع شاحب

تخزم بالأطراف شوك العقارب

إليك، فلا تدع علي ركائبي

ولكنه حق على كل جانب

كما انحاشت الأفعى مخافة ضارب

من الحي؟ قالت: معشر من محارب

تصلى بها برد العشاء ولم تكن

فما راعها إلا بغام مطيتي

فجئت فنونا من دلائل مناخة

سرى في حليك الليل حتى كأنما

تقول وقد قربت كوري وناقتي

فسلمت والتسليم ليس يسرها

فردت سلاماً كارها ثم أعرضت

فلما تنازعنا الحديث سألتها

من المشتوين القَدَّ مما تَرَاهُم جِيعاً وَرِيفُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَاضِبِ
فلَمَّا بَدَأَ حَرَمَانُهَا الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ مَبِيتُ السَّوْءِ ضَرْبَةً لَأَزْبِ
وَقُمْتُ إِلَى مَهْرِيَّةٍ قَدْ تَعَوَّدْتُ يَدَاهَا وَرَجْلَاهَا حَثِيثَ الْمَرَاقِبِ
أَلَا إِنَّمَا نِيرَانُ قَيْسٍ إِذَا شَتَّوْا لَطَارِقِ لَيْلٍ مِثْلُ نَارِ الْحُبَّاحِبِ

ومحارب: قبيلة منسوبة إلى الضعف، وقد ضربت العربُ بها المثل. قال الفرزدق لجرير: الطويل:

وما استعهدَ الأقوامُ مِنْ زَوْجِ حُرَّةٍ من النَّاسِ إِلَّا مِنْكَ أَوْ مِنْ مُحَارِبِ

أي يأخذون العَهْدَ عليه أنه ليس من كليبٍ ولا من محارب.

وقال أبو نواس في قصيدته التي فخر فيها باليمانية وهجا قبائل معد: المنسرح:

وقيسُ عَيْلَانٌ لَا أَرِيدُ لَهَا من المَخَازِي سِوَى مَحَارِبِهَا

وكانت أم عبد الصمد بن المعدل طباحةً، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه: ما عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيمَنْ
أُلْفَحَ بَيْنَ قَدَرٍ وَتُنُورٍ، وَنَشَأَ بَيْنَ زُقٍ وَطُنُورٍ؟ وعبد الصمد شاعر أهل البصرة في وقته، وهو القائل:
الطويل:

تَكَلَّفْنِي إِذْ لَالَ نَفْسِي لَعِزُّهَا وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أَهَانَ لَتَكْرِمَا

تقول: سلِّ المعروف يحيى بن أَكْثَمَ فقلت: سَلِّهِ رَبَّ يَحْيَى بِنِ أَكْثَمَا

قال أبو شُرَاعَةَ الْقَيْسِي: كُنْتُ فِي مَجْلَسٍ، الْعُتْبِيُّ مَعَ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْمَعْدِلِ، فَتَذَاكَرْنَا أَشْعَارَ الْمُؤَلِّدِينَ فِي
الرَّقِيقِ، فَقَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ: أَنَا أَشْعَرُ النَّاسِ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ، فَقُلْتُ: أَحْذِقُ مِنْكَ وَاللَّهِ بِالرَّقِيقِ الَّذِي يَقُولُ،
وهو راشد بن إسحاق أبو حُكَيْمَةَ الْكُوفِيِّ: الطويل:

وَمُسْتَوْحَشٍ لَمْ يَمْسُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ وَلَكِنَّهُ مِمَّنْ يَحِبُّ غَرِيبُ

طَوَاهُ الْهُوَى وَاسْتَشْعَرَ الْوَصْلَ غَيْرُهُ فَشَطَّتْ نَوَاهُ وَالْمَزَارُ قَرِيبُ

سَلَامٌ عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَا أَزُورُهَا وَإِنْ حَلَّهَا شَخْصٌ إِلَيَّ حَبِيبُ

وَإِنْ حَجَبْتُ عَنْ نَاضِرِي سَتُورُهَا هَوَى تَحْسُنُ الدُّنْيَا بِهِ وَتَطِيبُ

هُوَ تَضَحُّكُ اللَّذَاتِ عِنْدَ حُضُورِهِ وَيَسْخَنُ طَرْفُ اللَّهِوَ حِينَ يَغِيبُ

تَتَنَّى بِهِ الْأَعْطَافُ حَتَّى كَأَنَّهُ إِذَا اهْتَزَّ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ قَضِيبُ

أَلَمْ تَرِ صَمْتِي حِينَ يَجْرِي حَدِيثُهُ وَقَدْ كُنْتُ أَدْعَى بِاسْمِهِ فَأُجِيبُ

رَضِيتُ بِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَيْنِ فِيهِ نَصِيبُ

أحاذِرُ إنْ واصلته أن ينالني
أرى دون مَنْ أهوى عيوناً تريبني
أداري جليسي بالتجلّد في الهوى
وأخبرُ عنه بالذي لا أحبه
مخافة أن تغرَى بنا ألسنُ العدَا
كأن مجالَ الطّرف في كل ناظر
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى
وكم قد أذلّ الحب من متمنعٍ

وإياه سَهَمُ للفراقِ مُصِيبُ
ولا شك أني عندهنّ مُريبُ
ولي حين أخلو زفرةً ونَحِيبُ
فيضحك سِنِّي والفؤادُ كَنِيبُ
فيطمع فينا كاشحٌ فيعيبُ
على حركات العاشقين رقيبُ
ويصيبين عقلَ المرءِ وهو لبيبُ
فأضحى وثوبُ العز منه سَلِيبُ

وإن خضوعَ النفس في طلب الهوى
فلم ينطق بحرف.

ولأبي شُراعة يمدح بني رياح: البسيط:

بني رياح، أعاد الله نعمتكم
فكم به من فتى حلّو شمائله
لم يلبسوا نعمةً لله مُذْ خلقوا

خير المعاد وأسقى ربّكم ديمًا
يكادُ ينهلُ من أعطافه كَرَمًا
إلاّ تلبسها إخوانهم نِعما

وفي إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعدل: الخفيف:

قد تركت الرياح يا ابن رياح
نهكت مالك الحقوق فأضحى

وهي حَسَرى إنْ هبَّ منها نسيم
لك مالٍ نضوّ وفعلٌ جَسيم

وكان عبد الصمد بن المعدل متصلاً بإبراهيم ونيبه، وأفاد منهم أموالاً جلييلة، واعتقد عقداً نفيسة، فما شكر ذلك ولا أصحابه بما يجب عليه من الثناء عند بكبته، وكان الواثق عزّله عن ديوان الضياع، ودفعه إلى عمر بن فرج الرخحي، فحبسه فهجاه عبد الصمد.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: وكان عبد الصمد شديد الإقدام على رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، حيث النية، يرصد صديقه بالمكروه، تقديرًا أن يعاديه فيسوءه بأمرٍ يعرفه؛ ولا يكاد يسلم لأحد، وكان مشهوراً في ذلك الأمر، يُلبس عليه، ويحمل على معرفة، عجباً بظرف لسانه، وطيب مجلسه، وأيضاً لقبح مسبته، وشائن معرفته.

قال أبو العيناء: ولما حبس الواصل إبراهيم بن رياح، وكان لي صديقاً، صنعتُ له هذا الخبر رجاءً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به، فأخبرني زيد بن علي بن الحسين أنه كان عند الواصل حين قرئ عليه فضحك واستظرفه. وقال: ما صنع هذا كُفّه أبو العيناء إلا في سبب إبراهيم بن رياح، وأمر بتخليته، والخبر قال: لقيتُ أعرابياً من بني كلاب فقلت له: ما عندك من خبر هذا العسكر؟ فقال: قتل أرضاً عالمها، قال: فقلت: فما عندك من خبر الخليفة؟ قال: بخبّخ بعزه، وضرب بجراحه، وأخذ الدرهم من مصره، وأرهف قلم كل كاتب بجبايته. قلت: فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: عضلة لا تُطاق، وجندلة لا تُرام، ينتحي بالمدى لتحزه فيجور، وتنصب له الحبال حتى تقول: الآن، ثم يضرب ضربة الذئب، ويخرج خروج الضب، والخليفة يحنو عليه، والقرآن آخذ بضبعيه. قلت: فما عندك في عمر بن فرج؟ قال: ضخم حضجر، غضوب هزبر، قد أهدفه القوم لبغيهم، وانتضلوا له عن قسيهم، وآخر له بمثل مصرع من يصرع. قلت: فما عندك في خبر ابن الزيات؟ قال: ذلك رجلٌ وسع الورى شره، وبطن بالأمر خير. فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثرٌ ناب ولا مخلب، إلا بتسديد الرأي. قلت: فما عندك في خبر إبراهيم بن رياح؟ قال: ذاك رجل أوبقه كرمه، وإن يفز للكرام قدح، فأحر بمنجاته، ومعه دعاء لا يخلذه، ورب لا يسلمه، وفوقه خليفة لا يظلمه. قلت: فما عندك في خبر نجاح بن سلمة؟ قال: لله درّه من ناقض أوتار، يتوقّد كأنه شعله نار، له في الفينة بعد الفينة، عند الخليفة حلقة كحلقة السارق، أو كحسوة الطائر، يقوم عنها وقد أفاد نعماً، وأوقع نقماً. قلت: فما عندك في خبر ابن الوزير؟ قال: إخاله كبش الزنادقة، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله خضمّ ورّع، وإذا أمر بتقصيه أمطر فأمرع. قلت: فما عندك من خبر الحصيب أحمد؟ قال: ذاك أحق، أكل أكلة نهم، فاختلف اختلاف بشم. قلت: فما عندك في خبر المعلى بن أيوب. قال: ذاك رجل قُدّ من صخرة، فصبره صبرها، ومسّه مسّها، وكل ما فيه بعد فمناها ولها. قلت: فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل؟ قال: كتوم غرور، وجلد صبور، رجل جلده جلد نمر، كلما خرقوا له إهاباً، أنشأ الله له إهاباً. قلت: فما عندك من خبر الحسن بن وهب؟ قال: ذاك رجل اتّخذ السلطان أخصاً، فاتّخذ السلطان عبداً، قال: قلت: فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب؟ قال: شدّ ما استوفيت مسألتك أيها الرجل! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها في جريرة محرمة، ليس من القوم في ورْدٍ ولا صدر، هيهات: الخفيف:

وعلى الغانيات جرّ الذبول

كتب القتال علينا

قال: قلت: فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب؟ قال: أمواتٌ غير أحياء، وما يشعرون أيّان يبعثون.

قلت: فأين نزلت فأؤمِّك. قال: ما لي منزل تأمُّه. أنا أستر في الليل إذا عَسَّس، وأنتشر في الصباح إذا تنفَّس.

ابن راشد

ومن مליح شعر راشد بن إسحاق بن راشد، وهو أبو حُكَيْمة، وكان قَوِيَّ أَسْرِ الشعر: الطويل:

تَحِيرْتُ فِي أَمْرِي وَإِنِّي لَوَاقِفُ	أُجِيلُ وَجْوهَ الرَّأْيِ فِيكَ وَمَا أَدْرِي
أَعَزَّمُ عَزَمَ الْيَأْسِ فَالْمَوْتُ رَاحَةٌ	أَمْ أَقْنَعُ بِالْإِعْرَاضِ وَالنَّظَرِ الشَّزْرُ
وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْكَ لَمُنْطَوٍ	عَلَى حُرْقٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
إِذَا هَاجَ شَوْقِي مِثْلَتَكَ لِي الْمَنَى	فَأَلْقَاكَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سِتْرِ
فَدَيْتُكَ لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فِيكَ حِيلَةٌ	وَلَكِنْ دَعَانِي الْيَأْسُ فِيكَ إِلَى الصَّبْرِ
تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجَعٌ	كَمَا صَبَرَ الظَّمَانُ فِي الْبِلَادِ الْقَفْرِ

وقال: الوافر:

عَتَبْتُ عَلَيْكَ فِي قَطْعِ الْعِتَابِ	فَمَا عَطَفَتْكَ أَلْسِنَةُ الْعِتَابِ
وَفِيمَا صَرْتُ تَظْهَرُ لِي دَلِيلُ	عَلَى عَتَبِ الضَّمِيرِ الْمُسْتَرَابِ
وَمَا خَطَرْتُ دَوَاعِيَ الشَّوْقِ إِلَّا	هَزَزْتُ إِلَيْكَ أَجْنَحَةَ التَّصَابِي

وقال أيضاً: الطويل:

ضَحِكْتُ وَلَوْ تَدْرِيْنَ مَا بِي مِنَ الْهَوَى	بَكَيْتُ لِمَحْزُونِ الْفَوَادِ كَثِيبِ
لَمَنْ لَمْ تُرَخَّ عَيْنَاهُ مِنْ فَيْضِ عَبْرَةٍ	وَلَا قَلْبُهُ مِنْ زَفَرَةٍ وَنَحِيبِ
لِمُسْتَأْنَسٍ بِالْهَمِّ فِي دَارٍ وَحْشَةٍ	غَرِيبِ الْهَوَى بَاكِ لِكُلِّ غَرِيبِ
أَلَا بَابِي الْعَيْشُ الَّذِي بَانَ فَانْقَضَى	وَمَا كَانَ مِنْ حُسْنٍ هُنَاكَ وَطِيبِ
لِيَالِي يَدْعُونَا الصَّبَا فَنَجِيبُهُ	وَنَأْخُذُ مِنْ لَذَاتِهِ بِنَصِيبِ
نَرَدُّ مُسْتَوْرَ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا	عَلَى غَفَلَةٍ مِنْ كَاشِحِ وَرَقِيبِ
إِلَى أَنْ جَرَى صَرْفُ الْحَوَادِثِ فِي الْهَوَى	فَبُدِّلَ مِنْهَا مَشْهَدٌ بِمَغِيبِ

وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، صُنْتُ الكتاب عن ذكره.

أخبار عبد الملك بن صالح

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح - وكان معتقلاً في حبسه - فلما مثل بين يديه التفت إليه، وكان يحدث يحيى بن خالد بن برمك وزيره، فقال متمثلاً: الوافر:

أريد حياته ويريد قتلتي

عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال: يا عبد الملك، كأني أنظر إلى شؤبوها قد همع، وإلى عارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أوري، بل أدمي، فأبرز عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، فمهلاً بني هاشم، في والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت لكم الأمور أثناء أزمته، فنذار لكم نذراً قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل، فقال عبد الملك: أفذاً أتكلم أم توأماً؟ قال: بل فذاً، قال: اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، وأحفظه في رعاياك الذي استرعاك، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر، والعقاب بموضع الثواب، فقد، والله، سهلت لك الوعر، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور، وشددت أواخي ملكك بأوثق من ركني يلملم، وكنت لك كما قال أخو بني جعفر بن كلاب - يعني لبيداً -: الرمل:

ومقام ضيق فرجته

بلسان وبيان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله

زل عن مثل مقامي وزحل

فأعاده إلى محبسه، وقال: لقد نظرت إلى موضع السيف من عاتقه مراراً، فيمنعني عن قتله إبقائي على مثله.

وأراد يحيى بن خالد أن يضع من عبد الملك ليرضي الرشيد، فقال له: يا عبد الملك، بلغني أنك حقد! فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الشر والخير، إنهما لباقيان في قلبي! فقال الرشيد: تالله ما رأيت أحداً احتج للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك. وقد مدح ابن الرومي الحقد، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك، وزاد فيه، فقال لعاتب عابه بذلك: الطويل:

لئن كنت في حظي لما أنا مؤدع

من الخير والشر انتحيت على عرضي

لما عبتني إلا بفضل إبانة

ورباً امرئ يزري على خلق محض

ولا عيب أن تجزي القروض بمثلها

بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضي

وخير سحيات الرجال سجية

توفيك ما تسدي من القرض بالقرض

إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع

من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

ولولا الحقود المستكنات لم يكن

لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض

وما الحقدُ إلا توأمُ الشكر في الفتى
وبعض السجايا ينتمين إلى بعض
فحيث ترى حقدًا على ذي إساءة
فثمّ ترى شكرًا على حسن القرض
وقال يرد على نفسه، ويدمُّ ما مدح، توسعاً واقتداراً: البسيط:

يا مادح الحقد محتالاً له شبهاً
لقد سلكت إليه مسلماً وعثا
إن القبيح وإن صنعت ظاهره
يعود ما لم منه مرة شعنا
كم زخرف القول ذو زور ولبسه
على القلوب ولكن قل ما لبثنا
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً
فلن ترى سبباً منهن منتكنا
يا دافن الحقد في ضعفي جوانبه
ساء الدفين الذي أضحت له جدنا
الحقد داءٌ دويٌّ لا دواء له
يرى الصدور إذا ما جمزه حرثنا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة
فإنما يبرئ المصدور ما نفثنا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت
ولا تكن بصغير القول مكثرتنا
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم
من مجرم جرح الأكباد أو فرثنا
يكفيك في العفو أن الله قرطه
وحيّاً إلى خير من صلى ومن بُعثنا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن
تلقى أخاك حقوداً صدره شرثنا
إذا وسرك أن تلقى الذنوب معاً
وأن تصادف منه جانباً دمثنا
إني إذا خلط الأقسام صالحهم
بسيئ الفعل جداً كان أو عبثنا
جعلت قلبي كظرف السبك حينئذ
يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثنا
ولست أجعله كالخوض أمدحه
بحفظ ما طاب من ماء وما خبثنا

والبيت الذي تمثل به الرشيد هو لعمر بن معد يكرب يقوله لقيس بن المكشوح المرادي، وقد تمثل به علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لما رأى عبد الرحمن بن ملجم المرادي فقال له: أنت تخضب هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ونقرته. ف قيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تقتله؟ فقال: كيف يقتل المرء قاتله؟. وكان بين مسلمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباعد، فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه، فكتب إليه يقول: الوافر:

ألا تقنئ الحياء أبا سعيد
وتقصر عن ملاحاتي وعذلي؟
فلولا أن فرعك حين تنمى
وأصلك منتهى فرعي وأصلي

وإني إن رميتك هضت عظمي
لقد أنكرتني إنكار خوف
فكم من سورة أبطأت عنها
ومُبْهمة عييت بها فأبدى
كقول المرء عمرو في القوافي
عذيري من خليلي من مراد
ونالنتي إذا نالتك نبلي
يضم حشاك عن شتمي وأكلي
بنى لك مجدها طلبي وحفلي
عويلي عن مخارجها وفضلي
لقيس حين خالف كل عدل
أريد حياته ويريد قتلي

لم يتفق له في القافية كما قال عمرو، فغيره.

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن علي، وكان بليغاً جهوري فاضلاً عاقلاً.

وقال الجاحظ: قال لي عبد الرحمن مؤدب عبد الملك بن صالح: قال لي عبد الملك، بعد أن خصني وصيرني وزيراً بدلاً من قمامة: يا عبد الرحمن، انظر في وجهي؛ فأنا أعرف منك بنفسك ولا تُسعدني على ما يقبح؛ دع عنك كيف الأمير، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمسى؟ واجعل مكان التقريظ حُسن الاستماع مني، واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول، وإذا - حدثتك حديثاً فلا يفوتك شيء منه؛ وأرني فهمك في طرفك؛ إني اتخذتك وزيراً بعد أن كنت مُعلماً، وجعلتك جليساً مقرباً بعد أن كنت مع الصبيان مُبعداً، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجحان ما صرت إليه.

وساير الرشيد عبد الملك، فقال له قائل: طأطئ من إشرافه، واشدّد من شكائمه، وإلاّ فسد عليك، فقال له الرشيد: ما يقول هذا؟ قال: حاسد نعمة، ونافس رتبة، أغضبه رضاك عني، وباعده قُرْبك مني، وأساءه إحسانك إلي. فقال له الرشيد: انخفض القوم وعلوتهم؛ فتوقدت في قلوبهم جمرّة التأسف. فقال عبد الملك: أضرمها الله بالتزديد عندك فقال الرشيد: هذا لك وذاك لهم.

وصعد المنبر، فأرتج عليه فقال: أيها الناس، إن اللسان بضعة من الإنسان تكل بكالاه إذا كل، وتنفسح بانفساحه إذا ارتجل، إن الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وإنا لا نسكت حصرًا، ولا ننطق هذرًا؛ بل نسكت مفيدين، وننطق مُرشدين، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامنا أيام، بما فصل الخطاب، ومواقع الصواب، وسأعود فأقول، إن شاء الله تعالى.

وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حبسه، فقال: يا عبد الملك، أكفراً بالنعمة، وغدراً بالسلطان، ووثوباً على الإمام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بُوت بأعباء الندم، واستحلال التدم

واستحلال النقم، وما ذاك إلا من قولٍ حاسدٍ، ناشدتك الله والولاية، ومودة القراية. فقال الرشيد: يا عبد الملك، تَضَعُ لي لسانك، وترفعُ لي جَنَانَك، بحيث يحفظُ الله لي عليك، ويأخذ لي منك، هذا كائِبك قمامة يَنْبئُ عن غِلْكَ، فالتفت عبدُ الملك إلى قُمامة وكان قائماً، فقال: أحقاً يا قمامة؟ قال: حقاً، لقد رُمْتُ خَتَرَ أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب علي يا أمير المؤمنين في غيبي من يَهْتَنِي في حضرتي. فقال الرشيد: دَعِ قمامة، هذا ابْنُك عبد الرحمن يَنْبئُ عنك بمثل خبر قمامة، فقال عبد الملك: إنَّ عبد الرحمن مأمور أو عاقٍ؟ فإن كان مأموراً فهو معذور، وإن كان عاقاً فما أتوَّع من عقوبه أكثر.

بين الرشيد والخارجين من السجن

وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِلَ عليه يَوْسُفُ في قُيُودِهِ: ولَيْتَكَ دَمَشِقُ وهي جَنَّةٌ مَوْتِقَةٌ، تحيط بها عُذْرُ كَاللَّجِينِ، فتَكِفُ على رياضِ كَالزَّرَّابِي، وكانت بيوتُ أموالٍ فما برح بها التعدي، حتى تركتها أَجْرَدَ من الصَّخْرِ، وأوحش من الْفَقْرِ! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصدت لغير التوفيق من جهته، ولكني ولَّيتُ أقواماً ثَقُلَ على أعناقهم الحق، فتفرَّغوا في ميدان التعدي، ورأوا أن المراغمة بتركِ العِمارة أَوْفَعُ بإضرار السلطان، وأنوّه بالشنعة؛ فلا جَرَمَ أن مَوْجِدَةَ أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظِّ الأوفر من مساعي! فقال عبد الله بن مالك: هذا أَجْزَلُ كلام سَمِعَ لخائف، وهذا ما كُنَّا نسمعه عن الحكماء: "أفضل الأشياء بديهةً أَمِنْ وَرَدَتْ في مقامِ خَوْفٍ".

ولما رَضِيَ الرشيدُ عن يزيد بن مَزِيدٍ دَخَلَ عليه فقال: الحمد لله الذي سَهَّلَ لي سُبُلَ الكرامةِ بلقائك، وردَّ عليَّ النعمةَ بوجهِ الرضا منك، وجزاك الله في حال سُخْطِكَ حقَّ المشبتين المراقبين، وفي حال رضاك حقَّ المنعمين المتطولين؛ فقد جعلك الله - وله الحمد - تشبث تحرجاً عند الغضب، وتتطول ممتناً بالنعم، وتستبقي المعروف عند الصنائع تفضلاً بالعفو.

في باب الرثاء

وفي يزيد بن مزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته، وقد رُوِيَتْ له في يزيد بن أحمد السلمي: الكامل:

قَبْرٌ بَبْرَدَعَةٍ اسْتَسَرَّ ضَرِيحُهُ

خَطَرًا تَقَاصَرُ دُونُهُ الْأَخْطَارُ

نَفَضْتُ بِكَ الْأَحْلَاسُ نَفْضَ إِقَامَةٍ

وَاسْتَرْجَعْتَ نَزْاعَهَا الْأَمْصَارُ

أُثْبَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ

سَلَكْتَ بَكَ الْعَرَبُ السَّبِيلَ إِلَى الْعُلَا
حتى إذا سبق الرَّدَى بك حارُوا
وقال أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه: الكامل:

حَنَطَتْهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ
وَزَفَّتَهُ لِلْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ
هَلَّا بَبْعُضِ خِصَالِهِ حَنَطَتْهُ
فِيصُوغُ أَفْقِ مَنَازِلِ وَقُبُورِ
وَاللَّهُ لَوْ بِنَسِيمِ أَخْلَاقِ لَهُ
تُعْزَى إِلَى التَّقْدِيسِ وَالتَّطْهِيرِ
حَنَطَتْ مِنْ وَطْئِ الْحَصَى وَعَلَا الرَّبَى
لَتَزُودَ بِلِ عُدَّةٍ لِنَشُورِ
فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الشَّبَابُ فَإِنَّهُ
قَدْ كَانَ خَيْرَ مُجَاوِرٍ وَمُجِيرِ
وَإِذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الْوَفَاءُ فَإِنَّهُ
عَصَفَتْ بِهِ رِيحاً صَباً وَدُبُورِ
وَاللَّهُ مَا أَتَيْتُهُ لِأَزِيدَهُ
شَرْقاً وَلَكِنْ نَفْتَةً الْمَصْدُورِ

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثني عشر ألفاً، فلما حُمِلَ على سريرِهِ صرَّ، فقال بعضُ من حضر: الطويل:

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَعَشِ مَا تَسْمَعُونَهُ
وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصِفُ
وَلَيْسَ فَتِيقُ الْمَسْكَ مَا تَجِدُونَهُ
وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ الْمَخْلَفُ

وقال عبد الله بن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب يرثيه: الخفيف:

يَا ابْنَ وَهْبٍ بِالْكَرْهِ مَنِّي بَقِيْتُ
عَجَبِي يَوْمَ مَتَّ كَيْفَ حَيِّيتُ
إِنَّمَا طَيِّبُ الثَّنَاءِ الَّذِي خَلَفْتَ
لَا مِسْكَ نَعْتِكَ الْمَفْتُوتُ
وَإِخْتَصَرْتَ الطَّرِيقَ بَعْدَكَ لِلْمَوْتِ
تِ فَلَاقِيَتُهُ وَلَسْتُ أَفُوتُ
كَيْفَ يَبْقَى عَلَى الْحَوَادِثِ حَيٌّ
بِيدِ الدَّهْرِ عُوْدُهُ مَنَحُوتُ

وقال أيضاً: المتقارب:

ذَكَرْتُ ابْنَ وَهْبٍ فَلِلَّهِ مَا
ذَكَرْتُ وَمَا غَيَّبُوا فِي الْكَفَنِ
تَقْطُرُ أَقْلَامُهُ مِنْ دَمٍ
وَيَعْلَمُ بِالظَّنِّ مَا لَمْ يَكُنْ
وَوَظَاهِرُ أَطْرَافِهِ سَاكِنٌ
وَمَا تَحْتَهُ حَرَكَاتُ الْفَطْنِ

وقال: الطويل:

ذَكَرْتُ عَبِيدَ اللَّهِ وَالتُّرْبُ دُونَهُ
فَلَمْ تَحْبَسِ الْعَيْنَانِ مَنِّي بِكَاهُمَا

يَدَاهُ تَرَوِي قَبْرَهُ مِنْ نَدَاهُمَا

وَحَاشَاهُ مِنْ قَوْلِ سَقَى الْغَيْثُ قَبْرَهُ

وهذا مأخوذ من قول الطائي: الطويل:

وإن لم يكن فيه سحابٌ ولا قَطْرُ

سقى الغيثُ غيثاً وارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ

بِاسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ الْبَحْرُ

وكيف احْتِمَالِي للسحابِ صَنِيعَةً

وقال ابن المعتز: الخفيف:

يُبْقِي فِي الْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ ذِكْرًا

لَمْ تَمُتْ أَنْتَ، إِنَّمَا مَاتَ مَنْ لَمْ

كَيْفَ يَظْمَأُ وَقَدْ تَضَمَّنَ بَحْرًا؟

لَسْتُ مُسْتَسْقِيًا لِقَبْرِكَ غَيْثًا

والبيت الثاني من هذين من بيت الطائي: وقال: البسيط:

أُرِيقُ مَاءُ الْمَعَالِي إِذْ أُرِيقَ دَمُهُ

مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ أُخْلِقَتْ رِمَمُهُ

كَالْبَدْرِ حِينَ انْجَلَتْ عَنْ وَجْهِهِ ظِلْمُهُ

رَأَيْتُهُ بِنِجَادِ السِّيفِ مُحْتَبِيًا

أَيَقْنَتُ عِنْدَ انْتِبَاهِي أَنَّهَا نِعْمَةٌ

فِي رَوْضَةٍ حَفَهَا مِنْ حَوْلِهَا زَهْرٌ

يَجْرِي وَقَدْ خَدَّدَ الْخَدَيْنِ مَنْسَجْمُهُ:

فَقُلْتُ وَالْدمْعُ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ حُرْقٍ

فَقَالَ لِي: لَمْ يَمُتْ مَنْ لَمْ يَمُتْ كَرَمُهُ

أَلَمْ تَمُتْ يَا سَلِيلَ الْمَجْدِ مِنْ زَمَنِ؟

وقال بعض أهل العصر: البسيط:

وَمَوْتُهُ مَوْتُهُ لَا مَوْتَهُ الدَّانِي

عُمُرُ الْفَتَى ذِكْرُهُ، لَا طَوْلُ مَدَّتِهِ

تُجْمَعُ بِهِ لَكَ فِي الدُّنْيَا حَيَاتَانِ

فَأَحْيِ ذِكْرَكَ بِالْإِحْسَانِ تَزْرَعُهُ

وقال عبد السلام بن رَغْبَانِ الحِمَصِي: الطويل:

لَقَبْرُكَ فَعَهُ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالْبَدْرُ

سَقَى الْغَيْثُ أَرْضًا ضَمُنْتُكَ وَسَاحَةً

لُسُقِيَا، وَلَكِنْ مَنْ حَوَى ذَلِكَ الْقَبْرُ

وَمَا هِيَ أَهْلٌ إِذْ أَصَابَتْكَ بِالْبَلَى

أخذ هذا البيت الأول، الراضي فقال يرثي أباهُ المقتدر: الطويل:

لَقَدْ ضَمَّ مِنْكَ الْغَيْثُ وَاللَّيْثُ وَالْبَدْرُ

بِنَفْسِي ثَرَى ضَمُنْتُ فِي سَاحَةِ الْبَلَى

وَأَسْعِدْنِي الْمَقْدُورُ قَاسِمْتُكَ الْعَمْرَا

فَلَوْ أَنَّ عَمْرِي كَانَ طَوْعَ مَشِيئَتِي

لَصِيرْتُ أَحْشَاءِي لِأَعْظَمِهِ قَبْرًا

وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ قَبْرًا لَمَيِّتٍ

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبي: الكامل:

حتى أَتَوْا جَدَّتًا كَأَن ضَرِيحَهُ
في قَلْبِ كُلِّ مَوْحِدٍ مَحْفُورُ

أخبار قطر الندى

لما حُمِلَتْ قَطْرُ النَّدَى بِنْتُ خُمَارَوَيْهَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ إِلَى الْمُعْتَصِدِ كَتَبَ مَعَهَا أَبُوهَا إِلَيْهِ يَذْكُرُ جُرْمَةَ سَلَفِهَا بِسَلْفِهِ، وَيَذْكُرُ مَا تَرَدُّ عَلَيْهِ مِنْ أَتْبَهِةِ الْخِلَافَةِ، وَجَلَالَةِ الْخَلِيفَةِ، وَيَسْأَلُ إِيْنَاسَهَا وَبَسْطَهَا، فَبَلَغَتْ مِنْ قَلْبِ الْمُعْتَصِدِ لَمَّا زُفَّتْ إِلَيْهِ. مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَسُرَّ بِهَا غَايَةَ السَّرُورِ، وَأَمَرَ الْوَزِيرَ أَبَا الْقَاسِمِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ وَهْبٍ بِالْجَوَابِ عَنِ الْكِتَابِ، فَأَرَادَ أَنْ يَكْتُبَهُ بِخَطِّهِ، فَسَأَلَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ ثَوَابَةِ أَنْ يُؤَثِّرَهُ بِذَلِكَ فَفَعَلَ، وَغَابَ أَيَّامًا وَأَتَى بِنَسْخَةٍ يَقُولُ فِي فَصْلِ مِنْهَا: وَأَمَّا الْوَدِيعَةُ فَهِيَ بِمِثْلَةِ شَيْءٍ انْتَقَلَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ، عَنَايَةً بِهَا، وَحِيَاظَةً عَلَيْهَا، وَرِعَايَةً لِمُودَتِكَ فِيهَا. ثُمَّ أَقْبَلَ عُبَيْدَ اللَّهِ يُعْجَبُ مِنْ حُسْنِ مَا وَقَعَ لَهُ مِنْ هَذَا، وَقَالَ: تَسْمِيَّتِي لَهَا بِالْوَدِيعَةِ نَصْفُ الْبَلَاغَةِ، فَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: مَا أَقْبَحَ هَذَا تَفَاءَلْتَ لَامْرَأَةً زُفَّتْ إِلَى صَاحِبِهَا بِالْوَدِيعَةِ، وَالْوَدِيعَةُ مُسْتَرْدَةٌ. وَقَوْلُكَ: لَا مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ أَقْبَحُ؛ لِأَنَّكَ جَعَلْتَ أَبَاهَا الْيَمِينَ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الشِّمَالَ، وَلَوْ قُلْتَ: وَأَمَّا الْهُدْيَةُ فَقَدْ حَسَنَ مَوْقِعُهَا مَثًّا، وَجَلَّ خَطَرُهَا عِنْدَنَا! وَهِيَ وَإِنْ بَعَدَتْ عَنْكَ، بِمِثْلَةِ مَنْ قَرَبَتْ مِنْكَ؛ لِتَفْقُدِنَا لَهَا، وَأَنْسِنَا بِهَا، وَلِسُرُورِهَا بِمَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ، وَاجْتِبَاطِهَا بِمَا صَارَتْ إِلَيْهِ لَكَانَ أَحْسَنَ. فَنفذ الكتاب.

وَكَانَتْ قَطْرُ النَّدَى مَعَ جَمَاهَا مَوْصُوفَةً بِفَضْلِ الْعَقْلِ، خَلَا بِهَا الْمُعْتَصِدُ يَوْمًا لِلْأُنْسِ بِهَا فِي مَجْلِسٍ أَفْرَدَهُ لَمْ يَحْضُرْهُ غَيْرُهَا، فَأَخَذَتْ مِنْهُ الْكَأْسَ، فَنَامَ عَلَى فَخْذِهَا، فَلَمَّا اسْتَقْبَلَ وَضَعَتْ رَأْسَهُ عَلَى وَسَادَةٍ، وَخَرَجَتْ فَجَلَسَتْ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ عَلَى بَابِ الْمَجْلِسِ، فَاسْتَيْقِظَ فَلَمْ يَجِدْهَا، فَاسْتَشْطَبَ غَضَبًا، وَنَادَى بِهَا فَأَجَابَتْهُ عَلَى قَرَبٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ أَخْلَيْتِكَ إِكْرَامًا لَكَ، وَدَفَعْتُ إِلَيْكَ مَهْجَتِي دُونَ سَائِرِ حَظَايَايَ، فَتَضَعِينَ رَأْسِي عَلَى وَسَادَةٍ! فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا جَهِلْتُ قَدْرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَأَحْسَنْتَ فِيهِ إِلَيَّ، وَلَكِنْ فِيمَا أَدْبَنِي بِهِ أَبِي أَنْ قَالَ لِي: لَا تَنَامِي مَعَ الْجُلُوسِ، وَلَا تَجْلِسِي بَيْنَ النَّيَامِ.

رجع إلى الرثاء

وفي أبي الحسين بن ثوابة يقول ابن المعتز يرثيه: الخفيف:

علبَ الدهرُ حيلةَ الأقوامِ
فعلى رُوحه سَلامُ السَلامِ

ليس شيءٌ لصحةٍ ودوامِ
وتولَّى أبو الحسين حميداً

حين عاقدته على الحفظ للعنه
واصطفته على الأخلاء نفسي
كان ریحانة الندامی ومیزا
ومكان السهم الذي لا يرى الشك ولا يستغيث بالأوهام
ساحر الوحي في القراطيس لا تحبس عنه أعنة الأقلام
فإذا ما رأيت خلت في خديته صبحاً منقّباً بظلام
نفس، صبراً لا تجزعي إن هذا
خلق من خلائق الأيام

ما قالته الشعراء في ريعان الشباب

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب لرجل من بني كلاب: الطويل:

سقى الله دهرًا قد توالّت غيَاطِلُهُ
ليالي خِذني كلُّ أبيضٍ ماجِدٍ
وفى دَهرِنا والعيشُ في ذاك غِرّة
بما قد غنينا والصِّبا جُلُّ هَمِّنا
وجرّ لنا أذيالَه الدهرُ حِقْبَةً
فسقيا له من صاحبٍ خذلت بنا
أصدُّ عن البيتِ الذي فيه قاتلي
وأهجره حتى كأنّي قاتلُهُ
وفارقنا إلا الحُشاشة باطلُهُ
يُطيع هوى الصابي وتُعصى عواذِلُهُ
ألا ليت ذاك الدهرُ تنّتني أوائلُهُ
يمايلنا رِيعانُهُ ونُمائلُهُ
يطاولنا في غيّه ونُطاولُهُ
مطيئنا فيه وولّت رِواحِلُهُ
وأهجره حتى كأنّي قاتلُهُ

هذا البيت يناسب قول ذي الرمة، إن لم يكن في هذا المعنى، يصف ظبية وولدها: الطويل:

إذا استودعته صفصفاً أو صرِيمةً
حذاراً على وسنانٍ يصرعه الكرى
وتهجره إلا اختلاساً نهارها
وكم من مُحِبٍ رهبة العينِ هاجرِ
تتخت ونصت جِدها بالمناظرِ
بكل مَقِيلٍ عن ضِعافِ فِواتِرِ

وقال أبو حية النميري: الوافر:

أما وأبي الشباب لقد أراه
إذ الأيامُ مقبلةٌ علينا
جميلاً ما يراؤ به بديلُ
وظلُّ أراكَةِ الدنيا ظليلُ

وقال علي بن بسام: الوافر:

بشاطئ نهر قبرك فالمصلّى
معاهدُ لَهُونَا والعيشُ غَضٌّ
فما والأهْمَا فالقريبتينِ
وصرف الدهر مقبوضُ اليدينِ

وكان ابن بسام هذا - وهو علي بن محمد بن، منصور بن بسام، مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثه، وليس له حظ التطويل، وهو القائل: الكامل:

كم قد قَطَعْتَ إِلَيْكَ مِنْ دَيْمُومَةٍ
فِي لَيْلَةٍ فِيهَا السَّمَاءُ مُرْدَّةٌ
نُطِفَ الْمِيَاهُ بِهَا سَوَادُ النَّاضِرِ
سوداءُ مَظْلَمَةٍ كَقَلْبِ الْكَافِرِ
وَالْبَرْقُ يَخْفِقُ مِنْ خِلَالِ سَحَابِهِ
وَالْقَطَرُ مِنْهُمْ يُسْحِجُ كَأَنَّهُ
خَفَقَ الْفَوَادِ لِمَوْعِدٍ مِنْ زَائِرِ
دَمَعَ الْمَوَدِّعِ إِثْرَ الْإِفِّ سَائِرِ

وقال في العباس بن الحسين لما وَزَرَ مكتفي: السريع:

وزارة العباس من نَحْسِهَا
شَبَّهَتْهُ لَمَّا بَدَأَ مُقْبِلًا
سُتْقَلَعِ الدَّوْلَةَ مِنْ أُسْهَا
فِي خِلْعٍ يَخْجَلُ مِنْ لُبْسِهَا
جَارِيَةً رَعْنَاءَ قَدْ قَدَّرَتْ
ثِيَابَ مَوْلَاهَا عَلَى نَفْسِهَا

وقال في علي بن يحيى المنجم يرثيه: الكامل:

قد زرتُ قبرك يا علي مسلماً
ولو استطعت حملتُ عنك تُرَابَهُ
ولكَ الزَّيَارَةُ مِنْ أَقَلِّ الْوَاجِبِ
فَلَطَالَمَا عَنِي حَمَلَتْ نَوَائِبِي

وكان مولعاً بهجاء أبيه، وفيه يقول وقد ابتنى داراً: الرمل:

شَدَّتْ دَاراً خَلَّتْهَا مَكْرُمَةٌ
وَأَرَانِيكَ صَرِيحاً وَسَطَهَا
سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْغَرَقَا
وَأَرَانِيهَا صَعِيداً زَلَقَا

وقال أبو العباس بن المعتز يهجو: المجت:

مَنْ شَاءَ يَهْجُو عَلِيّاً
لَوْ أَنَّهُ لِأَبِيهِ
فَشَعْرُهُ قَدْ كَفَاهُ
مَا كَانَ يَهْجُو أَبَاهُ

من أخبار المأمون ويزيد بن معاوية

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد، وهو يخلف الحسن بن سهل، وقد أشار إليه برأي استرجحه: قد اعتل الحسن ولزم بيته، ووكل الأمر إليك، فأنا إلى راحتته وبقائه، أحوج مني إلى إتيابه وفنائه، وقد رأيت أن أستوزرك، فإن الأمر له ما دُمت أنت تقوم به، وقد طالعت رأيه في هذا الأمر، فما عداك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبني بالواجب فيها، واجعل بيني وبين الغاية ما يرجوني له ولبي، ويخافني له عدوئي، فما بعد الغايات إلا الآفات. فاستحسن كلامه، وقال: لا بُدَّ من ذلك، واستوزره. ورأى المأمون خط محمد بن داود فقال: يا محمد! إن شاركتنا في اللفظ، فقد فارقناك في الخط، فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أعظم آيات النبي، صلى اله عليه وسلم، أنه أدى عن الله سبحانه وتعالى رسالاته، وحفظ عنه وحيه، وهو أُمي لا يعرف من فنون الخط فتاً، ولا يقرأ من سائره حرفاً، فبقي عمود ذلك في أهله، فهم يشرفون بالشبه الكريم في نقص الخط، كما يشرف غيرهم بزيادته؛ وإن أمير المؤمنين أخص الناس برسول الله، صلى اله عليه وسلم، والوارث لموضعه، والمتقلد لأمره ونهيه؛ فعلقت به المشاهدة الجليلة، وتناهت إليه الفضيلة، فقال المأمون: يا محمد، لقد تركتني لا آسى على. الكتابة، ولو كنت أُمياً. وهذا شبيه بقول سعيد بن المسيب، وقد قيل له: ما بال قريش أضعف العرب شعراً، وهي أشرف العرب بيتاً؟ قال: لأن كَوْن رسول الله صلى اله عليه وسلم، منها قطع متن الشعر عنها.

وقال إبراهيم بن الحسن بن سهل: كنّا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع، فجاءته عطسة، فلوى عنقه فردّها، فراه المأمون فقال: يا عمرو، لا تفعل فإن ردّ العطسة وتحويل الوجه بها يُورثان انقطاعاً في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته! فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إنّنا نتخذ الإخوان خولاً! فالذي قال هشام أحسن مما قلته. فتمال عمرو: يا أمير المؤمنين، إنّ هشاماً يتكلّف ما طُبعت عليه، ويظلم، فيما تعدل فيه، ليس له قرابتك من رسول الله، صلى اله عليه وسلم، ولا قيامك بحقّ الله، وإنك والملوك لكما قال النابغة الذبياني: الطويل:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

لأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لما يبئُ منهم كوكبُ

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة: الطويل:

تكادُ تميد الأرض بالناس إن رأوا لعمر بن هند غصبة وهو عاتبُ

هو الشمس وافت يوم دجن فأفضلت على كل ضوءٍ والملوك كواكبُ

قار يزيد بن معاوية لجميل بن أوس، وكان أكرمه واجتباؤه: لم كرهت الإفراط في تقديمي، وتطامننت عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني؟ فقال: أيد الله سلطانك، وأعلى مكانك، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم والآداب، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منا، وأكثر للزمان صُحبة، وأكثر للأيام تجربة، وقد قال الحكيم: بقدر الثواب عند الرضا يكون العقاب عند السخط، وبقدر السمو في الرفع تكون وجبة الرفع، ولا خير فيمن لا يسمع الموعدة، ولا يقبل النصيحة، وأنا يا أمير المؤمنين، وإن كنت آمناً من التعرض لسخطك والدنو مما يقرب منه، فلست بآمن من طعن المساوي في الدرجة عندك، وحقر المشارك لي في المنزل منك، وليس من تقديمك قليل، ولا من تعظيمك يسير، فإن أقل ذلك فيه النباهة، والفخر، والثناء، والذكر، وحسي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك، وحسي من تقديمك خالص رضاك، وصفاء ضميرك.

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جعل الإسكندر في تابوت من ذهب تقدم إليه أحدهم فقال: كان الملك يحب الذهب، وقد صار الآن الذهب يحبّه، وتقدم إليه آخر، والناس يكون ويجزعون، فقال: حررنا بسكونه، أخذه أبو العتاهية فقال: الخفيف:

صاحب جَلَّ فَقْدُهُ يوم بنتنا

يا عليّ بْنَ ثابتَ بَانَ مِنِّي

تِ وَحَرَكَتْنِي لها وَسَكَنَتَا

قَدْ لَعَمْرِي حَكَيْتَ لِي غُصَصَ المَو

وتقدم إليه آخر فقال: كان الملك يعظنا في حياته، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه أبو العتاهية فقال: الوافر:

وَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظَ مِنْكَ حَيًّا

وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ

وتقدم إليه آخر فقال: قد طاف الأرضين وتملكها، ثم جعل منها في أربعة أذرع. ووقف عليه آخر فقال: ما لك لا تُثقلَ عضواً من أعضائك، وقد كنت تستقل ملك العباد؟ ووقف عليه آخر فقال: انظر إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى ظل الغمام كيف انجلى. وقال آخر: ما لك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد! وقال آخر: كان الملك غالباً فصار مغلوباً، وأكلأ فصار مأكولاً. وقال آخر: أمات هذا الميت كثيراً من الناس لئلا يموت، وقد مات الآن. وقال آخر: ما كان أقبح إفراطك في التجبر أمس، مع شدة خضوعك اليوم. وقالت بنت دارا: ما علمت أن غالب أبي يُغلب. وقال رئيس الأطباء: قد نضدت النضائد، وألقيت الوسائد، ونصبت الموائد، ولست أرى عميد المجلس!

جملة من كلام ابن المعتز

في الفصول القصار في ذكر السلطان

أَشَقَّى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النارٍ أسرعها احتراقاً. لا يُدركُ الغني بالسلطان إلا نفس خائفة، وجِسْمٌ تعب، ودينٌ متثلم. إن كان البحرُ كثيرَ الماء فإنه بعيدُ المَهْوَى، ومَنْ شارك السلطانَ في عزِّ الدنيا شاركه في ذُلِّ الآخرة. فسادُ الرعية بلا ملك كفسادِ الجسم بلا رُوح، إذا زادك السلطان تأنيساً فزدهُ إجلالاً. مَنْ صحب السلطانَ صبر على قسوته كصبرِ الغوّاص على ملوحة بحرِه. الملك بالدين ييقى، والدينُ بالملك يَقْوَى. من نصح لخدمة نصحتَه المجازاة. لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطرابِ الأمور عليه؛ فإن البحر لا يكادُ يسلم صاحبه في حالِ سكونه، فكيف عند اختلاف رياحه، واضطرابِ أمواجه؟.

ومن كلام أهل العصر

وغيرهم في هذا النحو

الأوطانُ حيث يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فلها البشرى بالعز والإمارة. آخر بالملك العادل أن يستقل سريره في سرّة الأرض، ريحُ السلطان على قوم سَمُوم، وعلى قوم نَسِيم. أخلقُ بدم المستخفّ بالجبايرة أن يكون جُبَّاراً. من غمس يده في مال السلطان فقد مشى بقدمه على دمه. الملك خليفةُ الله في عبادِه وبلادِه، ولن يستقيم أمرُ خلافته مع مخالفته. الملك مَنْ ينشرُ أثواب الفضل، ويسيطرُ أنواعَ العدل. السلطانُ كالنار: إنْ باعدتها بطل نفعُها، وإنْ قاربتها عَظُم ضررها. إقبالُ السلطان تَعَب وفِتْنَةٌ، وإعراضُه حسرة ومذلة. صاحبُ السلطان كراكب الأسد يهابُه الناسُ وهو لمركبه أهيبُ. السلطانُ إذا قال لعمّالِه: هاتوا، فقد قال لهم: خذوا ثلاثة لا أمان لهم: السلطان، والبحر، والزمان. ليكن السلطان عندك كالنار: لا تدنو منها إلا عند الحاجة إليها، وإن اقتبست منها فعلى حذر. مثل أصحاب السلطان كقوم رَفُوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم في المرقى. مثل السلطان كالجبل الصَّعْب الذي فيه كلُّ ثمرة طيبة، وكل سَبْع حَطُوم، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشدّ. لئن عزَّ الملوك في الدنيا بالجور ليدُلن في الآخرة بالعدل.

لابن عبّادِ الصاحب: الوافر:

من التعظيم واحذرهُ ورَاقِبْ

إذا ولاك سلطانَ فزده

وتربُ البحرَ مَحْدُورُ العَوَاقِبْ

فما السلطانُ إلا البحرُ عظماً

ووصف أحمد بن صالح بن شيران جاريةً كاتبةً فقال: كأنَّ خطها أشكال صورتها، وكأنَّ مدادها سوادَ شعرها، وكأنَّ قرطاسها أديمٌ وجهها، وكأنَّ قلمها بعضُ أناملها، وكأنَّ بناتها سحرٌ مقلتها، وكأنَّ سكينها غنَجٌ لحظها وكأنَّ مقطّعها قلبٌ عاشقها.
وقال بعضُ الكتّاب يصف غلاماً كاتباً: الكامل:

كبنفسج الروضِ المشوبِ بورده

انظرْ إلى أثرِ المدادِ بخده

شيباً، ولا ألفتُهُ من قده

ما أخطأتُ نوناتُهُ من صدغه

شبهاً أراكِ فرندَها كفرنده

ألقتُ أناملهُ على أقلامه

وكأنما قرطاسه من خده

وكأنما أنقاسه من شعره

وقال أحمد بن أبي سمرة الدارمي فيما ينظر إلى هذا من طرف خفي: الطويل:

وسمُّ الأفاعي مُبرئ عند صدها

سرَّابُ الفيافي صادقٌ عند وعدها

بعيني مهابةً أنحسنتني ببُعدها

رمتني ولم أسعدْ بأيام وصلها

صوالج صدغيها بتفاح خدها

فعلّقها قلبي كما تعلّقت

ودمعي لَمّا نظمته كعقدها

فقلبي لَمّا أضعفته كخصرها

وأسرّع من برق تناقض وعدها

ونيل الثريّا مكنٌ عند وصلها

من إنشاء بديع الزمان

رقعة كتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه: أين تكرم الشيخ العميد أيده الله على مولاه؟ وكيف معدله إلى سواه؟ أيقصر في النعمة، لأنني قصرت في الخدمة؟ إذن فقد أساء المعاملة، ولم يحسن المقابلة، وعثر في أذيال السهو، ولم ينعش بيد العفو، أم يقول: إن الدهر بيننا خُدع، وفيما بعد مُتسع، فقد أرف رحيلي، ولا ماء بعد الشط، ولا سطح وراء الخط؛ أم ينتظر سؤالي؟ وإنما سألته، يوم أمّلته، واستمنحتّه، يوم مدحته، واقتضيته، يوم أتيته، وانتجعت سحابه، بما قرعت بابه، وليس كل السؤال أعطني، ولا كل الردّ أعفني؛ أم يظن - أيده الله تعالى - أني أرد صلّته، ولا ألبس خلعتّه؟ وهذه فِراسة المؤمن إلا أنّها باطلة،

ومَخِيلَة العارف إلا أنها فاسدة؛ أم ليس يجد في مكاناً للنعمة يضعها، وأرضاً للمنة يزرعها؟ فلا أقل من تجربة دفعة، والمخاطرة بإنفاذ خلعة، ليخرج من ظلمة التخمين، إلى نور اليقين، وينظر أشكر أم أكفر؟ أم يتوقع - أيده الله - صاعقة تملكني، أو بائقة تهلكني، فلهذا أمل موفر؛ لأن شيخ السوء باق مُعَمَّر؛ أم يقدر - أيده الله - أني أشكره إذا اصطنع، وأعذره إذا منع، وتالله لو كنت ينبوع المعاذير ما حظي منها بجرعة، فليرحني بسُرعة.

وكتب أبو القاسم الهمداني إلى البديع: قد كتبت لسيدي حاجة إن قضائها وأمضاها، ذاق حلاوة العطاء، وإن أبأها وفل شباها لقي مرارة الاستبصاء، فأَي الجودين أخفّ عليه. أجود بالعلق، أم جود بالعرض؟ ونزول عن الطريف، أم عن الخلق الشريف؟.

فأجابه: جعلت فداك هذا طيبخ، كله توبيخ، وثرید، كله وعید، ولقم، إلا أنها نقم، ولم أر قدراً أكثر منها عظماً، ولا أكلاً أكثر مني كظماً، ولم أر شربة أمر منها طعماً، ولا شارباً أتم مني حلماً، ما هذه الحاجة؟ ولتكن حاجتك من بعد أَلين جوانب، وألطف مطالب، توافق قضاءها وترافق ارتضاءها، إن شاء الله تعالى.

وفي مقامات أبي الفتح الإسكندري من إنشائه، قال: حدّثنا عيسى بن هشام قال: أحلني جامع بخارى يوم، وقد انتظمت مع رُفقة في سِمط الثريا، وحين احتفل الجامع بأهله طلع علينا ذو طمرين، قد أرسل صوانا، واستتلى طفلاً، غريانا، يضيق بالضرّ وسعه، ويأخذه القرّ ويدّعه، لا يملك غير القشرة بُردة، ولا يلتقي لحياء رعدة، ووقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا الطفل إلا من رحم طفله، ولا يرق لهذا الضرّ إلا من لا يأمن مثله، يا أصحاب الجُدود المفروزة، والأردية المطروزة، والدور المنجدة، والقصور المشيدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً، ولن تعدموا وارثاً، فبادرُوا الخير ما أمكن، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن، فقد والله طعمنا السكّاج، وركبنا الهملاج، ولبسنا الدياج، وافترشنا الحشايا بالعشايا، فما راعنا إلا هبوب الدهر بعذره، وانقلاب الجنّ لظهره، فعاد الهملاج قطوفاً، وانقلب الدياج صُوفاً، وهلم جرّاً، إلى ما تشاهدون من حالي وزبي؛ فها نحن نرضع من الدهر تدي عقيم، ونركب من الفقر ظهر بهيم، ولا نرثو إلا بعين اليتيم، ولا نعدّ إلا يد العدم، فهل من كريم يجلو عنا غياهب هذه البؤوس، ويفلّ شبا هذه النحوس؟. ثم قعد مرتفقاً، وقال للطفل: أنت وشأنك. فقال: وما عسى أن أقول، وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه، أو الصخر لفلقه، وإن قلباً لم يُنضجْ ما قلت لنيء! قد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم، فليشغل كل منكم بالجود يده، وليذكر غده، وأقياً بي ولده، واذكروني أذكركم، وأعطوني أشكركم!.

قال عيسى بن هشام: فما آتسني في وحدتي إلا خاتم ختمت به خنصره، فلمّا تناوله أنشأ يقول: مجزوء الكامل:

وممنطقٍ من نفسه
بقلادةِ الجوزاءِ حُسنا
كمتيمٍ لقي الحبي
ب فضمّه شغفاً وحزنا
متألفٍ من غير أُس
رتّه على الأيامِ خدناً
علّق سنيّ قدره
لكنّ من أهداهُ أسنى
أقسمت لو كان الورى
في المجدِ لفظاً كنتَ معنّى

قال عيسى بن هشام: فتبعته حتى سَفَرَتِ الخَلوةُ عن وجهه، فإذا والله شيخنا الإسكندري، وإذا الصبيّ غلام له، فقلت: المتقارب:

أبا الفتح شَبَّتَ وشب الغلام
فأين الكلامُ، وأين السلام.
فقال:

غريباً إذا جمعتنا الطريق
ألِفاً إذا نظمتنا الخيام
فعلمت أنه كره لقائي، فتركته وانصرفتُ.

شعر في وصف فص وخاتم

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصاً: الكامل:

ساجِلٌ بفصّك مَنْ أرَدْتُ وباهِهِ
متألّق فيه الفِرْدُ كأنه
لو أنّ ظمأى منه عُلّتْ لارتَوَتْ
بَهَرِ العيونِ إضاءةٌ في رِقّةٍ
فكفى به كمداً لقلبِ الحاسِدِ
وجهي غداة نَدَى وضَيْفٍ قاصِدِ
من ماءِ جوهرِهِ المَعِينِ الباردِ
فكأنني مختمٌ بعُطاردِ

وقال بعضُ المحدثين يصف خاتماً: الخفيف:

ووحيدُ الكِيانِ صبيغٌ بديعاً
خَلَعَتْ خَجَلَةَ الخدودِ عليه
فإذا ما رأيتَه في بنانٍ
قلت نجمٌ هوَى من الجوّ
فإذا تمَّ صبيغٌ من جوهرينِ
خَلَعاً قد لبسَن فوق اللّجينِ
قد كساها من حُسْنِهِ حُلّتينِ
حتى صارَ مَجْرى بُرُوجه في اليَدَيْنِ

وقال البحتري يستهذي المعترّ فصّاً: الطويل:

فهل أنت يا ابن الراشدين مُخْتَمِي
 بياقوتة تَبْهَى عليَّ وتُشْرِقُ
 يغارُ احمرار الورْدِ مِنْ حُسْنِ صِبْغِهَا
 ويَحْكِيهِ جَادِي الرِّحِيقِ الْمُعْنَقِ
 إذا برزتُ والشمسُ قَلَّتْ تَجَارَتَا
 إلى أَمَدٍ أو كادتِ الشمسُ تَسْبِقُ
 إذا التَّهَبَّتْ فِي اللَّحْظِ ضَاهِي ضِيَاؤِهَا
 جبينَكَ عِنْدَ الْجُودِ إِذْ يَتَأَلَّقُ
 أُسْرِبِلُ مِنْهَا ثَوْبَ فَخْرٍ مُعْجَلٍ
 فَيَبْقَى بِهَا ذِكْرٌ عَلَى الدَّهْرِ مُخْلَقُ
 وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم: الطويل:

عَرَضَنْ فَعَرَضَنْ الْقُلُوبَ مِنَ الْهَوَى
 لَأُسْرَعَ مِنْ كَيِّ الْقُلُوبِ عَلَى الْجَمْرِ
 كَأَنَّ الشِّفَاهُ اللَّعْسَ مِنْهَا خَوَاتِمُ
 مِنَ التَّبَرِّ مَخْتُومٌ بِهِنَ عَلَى الدَّرِّ
 وقال الناظم:

يَرُوعُ مُنَاجِيهِ بِهَارُوتَ لَحْظِهِ
 وَيُؤْنِسُهُ مِنْهُ بِصُورَةِ آدَمِ
 تَرَى فِيهِ لَاماً فَرْدَةً فَوْقَ وَرْدَةٍ
 وَفَضْلاً مِنَ الْيَاقُوتِ مِنْ فَوْقِ خَاتَمِ

بين الكلام والصمت

وقال أبو تمام الطائي: تذاكرنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضله، والصمتَ ونُبِّله، فقال: ليس النّجْمُ كالقمر؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبرُ منه.

قال الجاحظ: كيف يكون الصمتُ أنْفَعَ من الكلام، ونفعُهُ لا يكادُ يجاوزُ صاحبه، ونفعُ الكلامِ يعتم ويخصّ، والرواة لم تَرَوْ سَكُوتَ الصَّامَتَيْنِ، كما روت كلامَ الناطقين؛ فبالكلام أُرسل الله تعالى أنبياءه لا بالصَّمتِ، ومواضع الصَّمتِ المحمودَةُ قليلة، ومواطنُ الكلامِ المحمودَةُ كثيرة، وبطول الصَّمتِ يَفْسُدُ البَيان. وكان يقال: محادثة الرجال تلقيحٌ لألبابها.

وذكر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال: إن مَنْ تكلّم فأحسن قَدَرَ أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ، وليس مَنْ سَكَتَ فأحسن يتكلّم فَيُحْسِنَ.

قال بعضُ النّسّاك: أسكتني كلمةُ ابن مسعود عشرين سنة؛ وهي: مَنْ كَانَ كَلَامُهُ لَا يُوَافِقُ فِعْلَهُ فَإِنَّمَا يُوَبِّخُ نَفْسَهُ.

الحنين إلى الوطن

قال أبو عمرو بن العلاء: مما يدلُّ على حرية الرجل وكرم غريزته حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى متقدم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه.
وقالوا: الكريم يحنُّ إلى جنابه، كما يحنُّ الأسدُّ إلى غايه.
وقالوا: يشواق اللبيبُ إلى وطنه، كما يشواق النقيب إلى عطنه.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن

بلد لا تُؤثر عليه بلدًا، ولا تُصبر عنه أبدًا. هو عشقه الذي فيه درج، ومنه خرج. مجمع أسرته، ومقطع سرتته. بلد أنشأته تربته، وغذاه هواؤه، ورباه نسيمه، وحلَّت عنه التمائم فيه.

قالوا: وكان الناسُ يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك، حتى أوضحها علي بن العباس الرّومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار، يعرف بابن أبي كامل، أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها، بقوله: الطويل:

ولي وطنٌ آليتُ إلا أبيعهُ	وَألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً	كنعمة قوم أصبحوا في ضلالكا
وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ	مأربُ قضائها الشبابُ هُنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ	عهودَ الصبا فيها فحنوا لذلكا
قد ألفته النفسُ حتى كأنهُ	لها جسدٌ إن بانَ غودِرَ هالكا

يقول له فيها:

وقد عزني فيها لئيمٌ وسامني	فقال لي أجهد في جهد احتبالكا
وما هو إلا نسجك الشعر ضلة	وما الشعرُ إلا ضلة من ضلالكا
بصيرٌ بتسأل الملوك، ولم يكن	بعار على الأحرار مثل سُؤالكا
وإني وإن أضحي مُدلاً بماله	لأمل أن أضحي مُدلاً بمالكا
فإن لم تُصبني من يمينك نعمة	فلا تُخطئنه نعمة من شمالكا
فكم لقي العافون بدءاً وعودةً	نوالك والعادون مرّاً نكالكا

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي: أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه، وقال: أنصفني، وقل الحق: أيهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي: الطويل:

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَيَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسٍّ جِلْدِي تَرَابُهَا

فقلت: بل قولك، لأنه ذكر الوطن ومحَبَّته، وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك.
وقال ابن الرومي أيضاً يتشوق إلى بغداد، وقد طال مقامه بسرٍّ من رأى: الكامل:

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيْبَةَ وَالصَّبَا وَلَيْسَتْ ثُوبَ الْعَيْشِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيُهُ وَعَلَيْهِ أَغْصَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

وقال أبو العباس: ولما احتفل القائل في هذا المعنى السابق إليه قال:

بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي

وقد تقدّم. وإذا كانت توائمه قطعت بأبرق العزّاف، وكان التراب الذي مَسَّ جلده ترابَ جزيرة سیراف، وجب أن يحنّ إليه حنينَ المتأسفين على غُوطَةِ دمشق، وقصور مدينة السلام، ونحف الجزيرة، ومستشرفِ الخورنق، وجَوْسِقِ سرٍّ من رأى، لَمَّا بعد عنها، وطال مقامه غيرها، كلاً، ولكن هذا الرجل علم أن الحنينَ إلى الأوطانِ لما تُذَكَّرُ من معاهد اللّهُو فيها، بجدة الشباب الذي ذكر أن غول سَكَرَتِه، يغطي على مقدار فضيلته، في قوله: الكامل:

لَا تَلَحْ مَنْ يَبْكِي شَبِيْبَتَهُ إِلَّا إِذَا لَمْ يَبْكِيهَا بَدَمُ
عَيْبُ الشَّبِيْبَةِ غَوْلُ سَكَرَتِهَا وَمَقْدَارُ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَيْهَا إِلَّا أَوَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا حَتَّى تُغَشَّى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يَبِينُهُ وَجْدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ

أخذها هذا من قول الطائي: السريع:

رَاحَتْ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِه فَارِغَةً الْأَيْدِي مِلَاءَ الْقُلُوبِ
قَدْ عَلِمْتَ مَا رُزِنْتَ، إِنَّمَا يُعْرِفُ فَقْدُ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبِ

وأخذ ابن الرومي قوله في صفة الوطن قول بشّار: الطويل:

مَتَى تَعْرِفِ الدَّارَ الَّتِي بَانَ أَهْلُهَا بِسُعْدَى فَإِنَّ الْعَهْدَ مِنْكَ قَرِيبُ

تذكرُك الأَهواء إذا أنعتَ يافعٌ

لديها فمغناها لديقك حبيبٌ

أو من قول بعض الأعراب: الطويل:

ذكرتُ بلادي فاستهلتَ مدامعي

بشوقي إلى عهدِ الصبا المتقادمِ

حنَّنتُ إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربِي

وقُطِّعَ عني قَبْلَ عقد التمامِ

وأنشد ثعلب من لرجاء بن هارون العكي: الطويل:

أحنُّ إلى وادي الأراكِ صبابَةً

لعهدِ الصَّبَا فيه وتذكاري أولِ

كأنَّ نسيمَ الرِّيحِ في جنَّباتِهِ

نسيمُ حبيبٍ أو لقاءٍ مؤمِّلِ

قال أبو بكر الصولي: ولست أشكُّ أنه من قول رجاء أخذ، وبه ألم، وعليه عول؛ لأنه في تناوله المعنى

غريبُ الأخذ، عائرُ السَّهْم، لا يعارض معنى معروفاً إذا أنشد علم الناس أنه معَدنه الذي انتحته منه.

وقد اختلس معنى قول ابن الرومي: الطويل:

فقد ألفتُهُ النفسُ حتى كأنه

لها جسدٌ إن بانَ غودِرَ هالكا

أخذه علي بن محمد الإيادي وقال فأحسن الأخذَ ولطف في السرقة: السريع:

بالجزعِ فالخبثينِ أشلاء دارُ

ذات ليالٍ قد تولَّت قصارُ

بانوا فماتت أسفا بعدهم

وإنما الناسُ نفوسُ الديارِ

وقال أعرابي: الطويل:

أيا حبذا نجدٌ وطيبٌ ترابِهِ

تصافحه أيدي الرياحِ الغرائبِ

وعهدُ صباٍ فيه يَنازِعُكُ الهوى

كذلك أترابُ عذابِ المشاربِ

تتالَى المنيَ منهنَّ في كل مطلبِ

عذابُ الثنايا وارداتُ الذوائبِ

وقال ابن ميادة يخاطبُ الوليدَ بن يزيد: الطويل:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً

بحرّة ليلي حيث ربّنتي أهلي

بلادٌ بها نبطتُ عليّ تمنامي

وقُطِّعَ عني حين أدركني عقلي

فإن كنتَ عن تلك المواطنِ مانعي

فأفشِ عليّ الرزقَ واجمعَ إذا شملِي

وقال سوار بن الصرير، ورويت لمالك بن الرب: الوافر:

سقى الله اليمامة من بلادِ

نوائحها كأرواحِ الغواني

وجواً زاهراً للريح فيه

نسيمٌ لا يروغُ الترابُ واني

به سَقَّتْ الشباب إلى زمانٍ

بقَبَّحَ عندنا حسنَ الزمانِ

وقال: أعرابي: الوافر:

أقول لصاحبي والعيسُ تَخْدي

بنا بَيْنَ المُنِيفَةِ فالضُّمارِ

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ

فما بَعَدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

ألا يا حَبْدًا نَفحاتِ نَجْدٍ

ورِيًّا رَوْضِهِ غَبَّ القِطارِ

وأهلكَ إذِ يحلُّ القومُ نَجداً

وأنتَ على زمانِكَ غيرُ زَارٍ

شهورٍ يَنْقُضِينَ وما شعرنا

بأنصافٍ لهن ولا سِرَّارِ

وهذا البيت كقول الآخر: الطويل:

سقى الله أياماً لنا قد تتابعَت

وسقياً لَعَصْرِ العامرية من عَصْرِ

ليالي أُعْطِيتُ البَطَالَةَ مِقْوَدِي

تمرُّ الليالي والشهورُ ولا أدري

وتخلفَ سليمان عن نصرته ابن الرومي، فذاك الذي هاجه على هجائه، فمن ذلك قوله، وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً: السريع:

جاء سليمانُ بني طاهرٍ

فاجتاح معتز بني المعتصمِ

كأن بغدادَ وقد أبصرتُ

طلعتَه نائحةً تلتدِمُ

مستقبلٍ منه ومستدبرٍ

وجه بخيلٍ وقفاً منهزمٍ

وقال: المنسرح:

قرن سليمان قد أضرب به

شوقاً إلى وجهه سيتلفه

كم يعدُّ القرنُ باللقاءِ وكم

يكذبُ في وعده ويخلفه

لا يعرف القرنُ وجهه ويرى

قفاه من فرسخٍ، فيعرفه

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض الخوارج، وقد قال له أبو جعفر المنصور: أخبرني أي أصحابي كان أشدَّ إقداماً في مبارزتك، فقال: ما أعرفُ وجوههم، ولكنني أعرفُ أقفاههم، فقل لهم يدبروا أعرفك. وفي هذه المنازعة يقول ابن الرومي لمواليه بني هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور: الطويل:

تَخَذْتُكُمْ دِرْعاً عليَّ لَتَدْفَعُوا

نَبالَ العِدَى عني فكنتم نصالها

وقد كنتُ أرجو منكم خيرَ ناصرٍ

على حين خذلانِ اليمينِ شمالها

ذِمَاماً فَكُونُوا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا
وخلُّوا نَبَالِي والعِدَا ونبالها

فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي
قفوا موقفَ المعذور عني بمعزل

ألفاظ لأهل العصر

في وصف الأمكنة والأزمنة

بلدة كأنها صورةُ جنةِ الخلد، منقوشة في عَرْضِ الأرض. بلدةٌ كأن محاسنَ الدنيا مجموعةٌ فيها، ومحصورةٌ في نواحيها. بلدةٌ كأن ترابها عنبر، وحصباءها عقيق، وهواءها نسيم، وماءها رَحِيق. بلدةٌ معشوقة السُّكْنَى، رَحْبَةُ المَثْوَى، كوكبها يقظان، وجوُّها غُريان، وحَصَاها جَوْهر، ونسيمُها مُعَطَّر، وترايبها مِسْكٌ أَذفر، ويومها غداةٌ، وليلها سَحَر، وطعامها هَيَّيْ، وشرابها مَرِيٌّ. بلدةٌ واسعةُ الرقعة، طيبة البقعة، كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد وسرّتها، ووجهها وغرّتها. ولهم في ضد ذلك: بلدٌ مُتَضَائِقُ الحدود والأفنية، متراكب المنازل والأبنية. بلدٌ حرُّها مؤذٍ، وماؤها غير مغذ. بلدةٌ وَسْخَةُ السماء، رَمْدَةُ الهواء، جوها غبار، وأرضها خَبَارٌ، وماؤها طين، وترايبها سِرْجِين، وحيطانها نزوز، وتشربنها تموز، فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من غَرَق. بلدةٌ ضيقة الديار، سيئة الجوار، حيطانها أَخْصَاص، وبيوتها أَقْفَاص، وحُشُوشها مسایل، وطرقها مَزَابِل. ولهم في صفات الحصون والقلاع: حصن كأنه على مَرْقَبِ النجم، يحسر دونه الناظر، ويقصر عنه العُقَابُ الكاسِرُ يَكَادُ مَنْ علاه يغرق في حوض الغمام. حصن انتطق بالجوزاء، وناجَتْ أبراجُه بُرُوجَ السماء. قلعة حلَّقت بالجو ثُنَاجِي السماء بأسرارها. قلعة بُعْدَ في السماء مُرْتَقَاهَا، حتى تساوى ثَرَاها مع ثَرِيَّاتها. قلعة تتوشح بالغيوم، وتَحَلَّى بالنجوم. قلعة عالية على المرتقى، صمَاءٌ عن الرقى، قد جاوزت الجوزاء سَمْنًا، وعزلت السماك الأعزل سَمَكًا، هي متناهية في الحصانة، موثوقة بالوثاقة، ممتعة على الطلب والطالب، منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب، لم تزدها الأيامُ إلا نبوَّ أعطاف، واستصعاب جوانب وأطراف، قد ملَّ الولاةُ حِصَارَها، ففارقوها عن طموح منها وشِمَاسٍ، وسئمت الجيوشُ ظلَّها، فغادرَتْها بعد قنوطٍ ويأسٍ، فهي حِمَى لا يُرَاغ، ومَعْقِلٌ لا يُسْتَطَاع، كأنَّ الأيامَ صالحتَها على الإعفاء من الحوادث والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع. قلعة تَحْوِي من الرُّفْعَةِ قَدْرًا لا تستهان مواقعه، وتلوي في المنعة جيدًا لا تستلان أخادعه، ليس للوهم قبل القدوم إليها مَسْرَى، ولا للفكر قبل الخطو نحوها مَجْرَى. ولهم في صفات القصور والدور: قصر كأن شُرْفَاتِه بين النَّسْرِ والعُيُوق، كأنه يُسَامِي الفَرَقْدَ، وقد اكتست

له الشّعري العُبور ثوبَ الغيور. قصر طال مَبْنَاهُ، وطاب مَعْنَاهُ؟ كأنه في الحَصَانَةِ جبلٌ مَنيعٌ، وفي الحسن ربيعٌ مَرِيعٌ. شُرُفَاتُ كَالْعِدَارِي شَدَدْنَ مَنَاطِقَهَا، وتوجَّحْنَ بِالْأَكَالِيلِ مَفَارِقَهَا. قَصْرٌ أَقَرَّتْ لَهُ الْقُصُورُ بِالْقُصُورِ، كأنه سَحَابٌ فِي بَحْرِ السَّمَاءِ. دَارُ قَوْرَاءَ تُوسِعُ الْعَيْنَ قُرَّةً، وَالنَفْسَ مَسْرَّةً. كَأَنَّ بَانِيهَا اسْتَسْلَفَ الْجَنَّةَ فَعَجَّلَتْ لَهُ. دَارٌ تَخْجُلُ مِنْهَا الدُّورُ، وَتَتَقَاصِرُ عَنْهَا الْقُصُورُ، إِنْ مَاتَ صَاحِبُهَا مَغْفُورًا لَهُ فَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ جَنَّةٍ إِلَى جَنَّةٍ. دَارٌ قَدْ اقْتَرَنَ الْيُمْنُ بِيَمْنَاهَا، وَالْيُسْرُ بِيُسْرَاهَا، الْجِسْمُ مِنْهَا فِي حَضَرٍ، وَالْعَيْنُ عَلَى سَفَرٍ. دَارٌ هِيَ دَائِرَةُ الْمِيَامِنِ، وَدَائِرَةُ الْحَاسِنِ. دَارٌ دَارٌ بِالسَّعْدِ نَجْمُهَا، وَفَازَ بِالْحَسَنِ سَهْمُهَا، دَارٌ يَخْدُمُهَا الدَّهْرُ، وَيَأْوِيهَا الْبَدْرُ، وَيَكْفِيهَا النَّصْرُ، هِيَ مَرْتَعُ النَّوَاطِرِ، وَمَتْنَفَسُ الْخَوَاطِرِ. دَارٌ قَدْ أَخَذَتْ أَدَوَاتِ الْجِنَانِ، وَضَحَكَتْ عَنِ الْعَبْقَرِيِّ الْحَسَانِ.

من أدب الميكالي نثرًا وشعرًا

فصل لأبي الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه

ما ابتدأتُ بمخاطبة سيدي حتى سَرَّتِ الْمَسْرَّةُ فِي نَفْسِي، وَقَوَّيْتُ أَرْكَانَ بَهْجَتِي وَأُنْسِي، وَحَتَّى أَقْبَلْتُ وَجْهَ الْمِيَامِنِ تَهَلَّلَ إِلَيَّ، وَبَدَرُ الْمُسَاعِدِ تَنَثَّلَ عَلَيَّ، وَكَيْفَ لَا يَمْلِكُنِي الْجَذَلُ وَالْفَرَحُ، وَكَيْفَ لَا يَهْزُنِي النَّشَاطُ وَالْمَرَحُ، وَقَدْ زَفَقْتُ وَدَّيَّ إِلَى كُفِّءِ كَرِيمٍ، وَعَرَضْتُهُ لَحْظًا مِنَ الْجَمَالِ جَسِيمٍ، وَأَرْجُو أَنْ يَرِدَ مِنْهُ عَلَى حُسْنِ قَبُولٍ وَإِقْبَالٍ، وَيَحْظَى مِنْ ارْتِيَاخِهِ لَهُ بُرْدُ اشْتِمَالٍ، وَيُصَادَفَ مِنْ اهْتِزَازِهِ وَإِنْشَائِهِ، وَعِمَارَتِهِ وَإِنْمَائِهِ، وَتَحْصِينَ أَطْرَافِهِ مِنْ شَوَائِبِ الْخُلَلِ، وَشَوَائِنِ الْوَهْنِ وَالْمِيلِ، وَمَا تَسْتَحْكُمُ بِهِ مَرَاثِرُ الْوِصَالِ، وَتَوْمَنُ عَلَى قُوَاهَا عَوَادِي الْإِتْقَاضِ وَالْإِنْخِلَالِ.

وله: إِذَا لَمْ يُؤْتَ الْمَرْءُ فِي شُكْرِ الْمَنَعِ إِلَّا مِنْ عَظَمِ قَدْرِ الْإِنْعَامِ وَالْإِصْطِنَاعِ، وَاسْتِغْرَاقِهِ مِنْهُ قُوَى الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِضْطِلَاعِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي الْقُصُورِ عَنْ كُنْهِ وَاجِبِهِ عَتَبٌ، وَلَا يَلْحَقُهُ فِيهِ نَقِيصَةٌ وَلَا عَيْبٌ. وَلَمَّا ظَهَرَ عَجْزِي عَنْ حَقِّ هَذِهِ النِّعْمَةِ فَإِنِّي أَحِيلُ بِحَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَى مَنْ لَا يُعْجِزُهُ حَمْلُهُ، وَلَا يُؤْودُهُ ثَقَلُهُ، وَلَا يَزْكُو الشُّكْرُ إِلَّا لَدَيْهِ، وَلَا تُصَرَّفُ الرِّغْبَةُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ يُبْقِيهِ لِمَجْدٍ يُقِيمُ أَعْلَامَهُ، وَفَضْلٌ يَقْضِي ذِمَامَهُ، وَعُرْفٌ يَبْثُّ أَقْسَامَهُ، وَوَلِيٌّ يُوَالِي إِكْرَامَهُ، وَعَدُوٌّ يُدْسِمُ قَمْعَهُ وَإِرْغَامَهُ.

وله: وَلَوْ وَفَيْتَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْجَسِيمَةَ حَقَّهَا لَمَشَيْتَ إِلَى حَضْرَتِهِ - أَنْسَهَا اللَّهُ تَعَالَى - حَبْوًا لَا عَلَى الْقَدَمِ، وَلَا تَرْتٌ فِيهِ خِدْمَةُ اللِّسَانِ عَلَى خِدْمَةِ الْقَلَمِ، وَلَمَّا رَضِيتَ لَهُ بِيَاعِي الْقَصِيرِ، وَعِبَارَتِي الْمَوْسُومَةَ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ، حَتَّى أَسْتَعِيرَ فِيهِ أَلْسِنَةً تَحْمِلُ شُكْرًا وَثَنَاءً، وَتُوسِعَ نَشْرًا وَدَعَاءً، ثُمَّ لَا أَكُونُ بَلِغًا كَافِيًا،

ولا أبليت عُذراً شافياً؛ إلا أنّ عدم الإذن ثبطني عن مقصود الغرض، وعاقني عن الواجب المفترض؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاءٍ أرفَعُهُ إلى الله عزَّ وجل مبتَهلاً، وأواصله مجتهداً في ليلي ونهاري محتفلاً. وله: أحقّ النعمة بالزيادة نعمة لم تنزل العيون إليها مستشفرة، والقلوب إليها متشوّفة، والأيام بها واعدة، والأقدار فيها مساعدة، حتى استقرّت في نصائبها، وألقت عصيّ اغترابها، فهي للنماء والزيادة مترشحة، وبالعز والسعادة متوشحة، وبالأدعية الصالحة مستدامة مرتّهنة، وباتفاق الكلمة والأهواء عليها مرتبطة محصنة.

وله فصل من كتاب تعزية بالأمر ناصر الدين: أقدارُ الله تعالى في خلقه لم تزل تختلف بين مكروه ومحبوب، وتتصرّف بين موهوب ومسلوب، غادية أحكامها مرّة بالمصائب والنوائب، رائحة أقسامها تارة بالعطايا والرغائب، ولكن أحسنها في العيون أثراً، وأطيبها في الأسماع خبراً، وأحرّها بأن تكسب القلوب عزاءً وتصبراً، ما إذا انطوى نُشر، وإذا انكسر جبر، وإذا أخذ بيد رد بأخرى، وإذا وهب يميني سلب بيسرى، كالمصيبة بفلان التي قرّحت الكباد، وأوهنت الأعضاد، وسودت وجوه المكارم والمعالى، وصورت الأيام في صور الليالي، وغادرت المجد وهو يلبس حدّاده، والعدل وهو يكي عمّاده، والدين وهو يندب جهاده، حتى إذا كاد اليأس يغلب الرجاء، ويردّ الظنون مظلمة النواحي والأرجاء، قيض الله تعالى من الأمير الجليل من اجتمعت عليه الأهواء، ورضيت به الدهماء، فأسى به حادث الكلم، وسد بمكانه عظيم الثلم، وردّ الآمال والنفوس قد استبدلت بالحيرة قوة وانتصاراً، وصارت للدولة المباركة أعواناً وأنصاراً.

ومن شعره في تجنيس القوافي، في معان مختلفة: المتقارب:

إذا لم تكن لمقال النصيح سميعاً ولا عاملاً أنت به
يُنْبَهُكَ الدهرُ من رقدةٍ إل ملاهي وإن قلت لا أنتبه

وقال: البسيط:

تفرّق الناس في أرزاقهم فرقاً فلايس من ثراء المال أو عاري
كذا المعاش في الدنيا وساكنها مقسومة بين أوعاث وأوعار

وقال: المتقارب:

حوى القدّ عمرًا فقلت اعتقد رضا بالقضاء ولا تحتقد
فإمّا احتقدت فضاء الإله فأقبح بمحتقد تحت قد

وقال: الكامل:

تمت محاسنه فما يُزري بها
إلا قصورُ وجوده عن جوده
انصرُ أخاك إذا اجتَدَكَ فَوَاسِه
وقال أيضاً: مخلع البسيط:

مع فضله ونمائه وكماله
لا عَوْنَ للرجل الكريم كَمَالِه
وإن استغاثك واثقاً بك مَالِه

إذا تغديتُ صدرَ يومي
فقلت إذْ مسَّنِي أذاهُ
وله في هذا الصوغ: مخلع البسيط:

ثم تأذيتُ بالغداء
أرى غدائي أراغ دائي

لنا صديقٌ يُجيدُ لَقْماً
ما ذاق من كسبه، ولكنْ
وقال يهجو رجلاً: المتقارب:

راحتنا في أذى قَفَاهُ
أذى قَفَاهُ أذاقَ فَاهُ

يريد يوسّع في بيئته
فتى سَخَطَ النَصَبَ في قَدْرِهِ
يخدرُ أوصالَ أضيافه

ويأبى له الضيقُ في صدره
كما رَضِيَ الخَفَضَ في قَدْرِهِ
ولا يُبرزُ الخُبْرَ من خِدره

وقال في غير هذا المذهب يصفُ كتاباً ورد عليه: المديد:

قد أتانا من صديقٍ كلامٌ
فسرى في القلب مني سرورٌ
مثل ما يرتاح ربُّ بنات
فرعى الله طويلاً يُرجى
وأتاه بعد يأسٍ بشير

كلال زانهنّ نظامٌ
مطربٌ يعجز عنه المُدام
حوله من جمعهنّ زحام
خلفاً من نسله لا يُدام
قال يا بشراي هذا غلامٌ

وقال يصف الشمع: الطويل:

وليلٌ كلونِ الهجر أو ظلمةِ الحبرِ
يشقّ جلايببَ الدجى فكأنما
يُحاكي رُواءَ العاشقين بلونه
خلاً أنْ جاري الدمع ينحله قوي

نصبتنا لراجيه عموداً من التبرِ
ترى بين أيدينا عموداً من الفجر
وذوب حشاه والدموع التي تجري
وعهّدي بدمع العين ينحلّ إذ يجري

تبدى لنا كالغصن قدًا وفوقه
تحمل نوراً حتفه فيه كامنٌ
إذا ما علته علة جرّ رأسه
وقال: مجزوء الرجز أو مجزوء السريع:

يا ربّ غصنٍ نوره
يظلُّ طولَ عمره
نارُ المحبِّ في الحشا
لاح لنا في مغربٍ

وقال: مجزوء الرمل:

شعاع كأنّا منه في ليلة البدرِ
وفيه حياةُ الأنسِ واللّهو لو يدري
فيختال في ثوبٍ جديدٍ من العمر

يزري بنور الشفق
يبكي بجفنٍ أرقٍ
وناره في المفرق
فردّنا في مشرقٍ

وقضيبٍ من بنات النح
يُشبهه العاشقُ في لو
كسى الباطن منه
فإذا ما أنعم الأب
فهو للشقوة منها

ل في قدّ الكعابِ
ن ودمع ذي انسكابِ
وهو عريانُ الإهابِ
دان ملبوس الثيابِ
في بلاء وعذابِ

وقال كشاحم يصف شمعاً أهدها إلى بعض الملوك: الوافر:

وصفرٍ من بناتِ النحلِ تَكسى
عذارى يُفتَضِضْنَ مِنَ الأَعالي
وأُمت تتنح الأضواء حتى
كواكب لسنّ عنك بأفلاتٍ
بعثتُ بها إلى ملكٍ كريمٍ
فأهديت الضياء بها إلى مَنْ

بواطنها وأظهرها عوّاري
إذا افتضت من السفل العذارى
تلقح في ذوائبها بنارٍ
إذا ما أشرقت شمسُ العقارِ
شريف الأصل محمود النجارِ
محاسنه تُضيء لكل ساري

وقال: الكامل:

يَشْقَى الفتى بخلافِ كلِّ معاندٍ
يقذى إذا أصغى الإناء لشربه

يؤذيه حتّى بالقذى في مائه
ويروغ عنه عند سكّب إنائه

وقال: الطويل:

أُطالِبُ أَيامي بِإِنجازِ مَوْعِدِي وَها هِيَ تَلوي بِالوفاءِ وَتَجْمَحُ
أَقولُ عساها أَنْ تَلينَ لِمَطلبي قَليلًا فبِعَضِّ الشوكِ بِالْمَنِّ يَسْمَحُ

وقال: البسيط:

أرى وَصالَكَ لا يَصِفُ لَأَمِلِهِ وَالهجرُ يَتبعُهُ رَكْضًا عَلى الأثرِ
كَالقوسِ أَقربُ سَهْمِها إِذا عَظفت عَلِيهِ أَبْعَدُها مِنْ مَنْزَعِ الوترِ

أخذ هذا من قول ابن الرومي وذكر رجلاً متلوناً: الطويل:

رَأيتُكَ بَينا أَنْتَ خَلٌّ وَصاحِبٌ إِذا بَكَ قَد وَلَيتُنا ثانياً عِطفاً
وَأنكَ إِذْ أَحْنى حَنوكَ مُوجِبٌ بَعاداً لَمَنْ بادلَتَهُ الوَدَّ وَاللُطفَا
لِكالقوسِ أَحْنى ما تَكُونُ إِذا انحنَتُ عَلى السَهمِ أَنأى ما تَكُونُ لَهُ قَذفاً

وله في نحو ذلك: الطويل:

تَوَدَدْتُ حَتى لَمْ أَجدُ مَتودِّداً وَاتَّعَبْتُ أَقلامِي عتاباً مُرَدِّداً

كَأَنِّي أَستَدعي لَكَ ابنَ حَنِيَّةٍ إِذا النَزْعُ أَدْناه مِنَ الصَدْرِ أَبْعَدَا

وذكر عمر بن علي بن محمد المطوعي أبا الفضل الميكالي في كتاب الله في منظومه ومنشوره فقال: قد أصبحتُ حضرته - لا زالت أَرْجاةُ الأَرْجاءِ بطيبِ شمائله، راضية الرضا عن صَوْبِ أنامله - مَوْسِمَ الآمالِ، ومحط الرحال؛ وَعبْدَةُ أحرارِ الكلامِ، كما خَدَمَتْهُ أحرارُ الأيامِ، وَأطاعته المعاني والمعالِي، كما أَطاعه صَرَفُ الأيامِ والليالي، فهو - أدامَ اللهُ تَمَكِينَهُ - شَهابُ المجدِ الذي لا يُجْبُو واقده، وَرَوْضُ الكرمِ الذي لا يُجِدِبُ رائدُهُ؛ إِنْ أَرَدْتَ البِلاغَةَ فهو مَالِكُ عَنانِها، وَفارسُ مِيدانِها، وَناظِمُ دُرِّها وَمِرْجانِها، وَصائِغُ لُجَيْنِها وَعِقيانِها؛ وَإِنْ أَرَدْتَ السَّماحَةَ فهو مُحَلِّها وَمَكانِها، وَتارِيخُها وَعِنوانُها، وَيُدُّها وَلِسانُها، وَحَدَقْتُها وَإِسانُها، وَحَدِيقَتُها وَبُستانُها؛ وَإِنْ أَرَدْتَ شَرَفَ الأَصْلِ والنسبِ، وَالجَمْعَ بَينَ الموروثِ مِنَ المجدِ وَالمُكتَسَبِ، فَناهِيكَ بأوائِلِهِ شَرَفاً سابِقا، وَفَضلاً باسِقا، وَمَجداً فِي فَلَكَ الفَجْرِ سامِقا، فَهَمُ الجَحاحِجَةِ العُرِّ، وَالكواكِبِ الزُّهرِ، وَمَنْ يَهمُّ يَفْتَحِرُ الفَخْرَ، وَيَتَشَرَّفُ الدَّهْرَ، زَحَمُوا مَناكِبَ الكواكِبِ مِنْ بُعْدِ أَقدارِهِم، وَصَكُوا فَرَقَ الفِرْقَدِ وَصَدَرَ البَدْرِ بِشَرَفِ أَحْطارِهِم، فَمَا فِيهِمُ إِلا قَمَرُ فَضْلِ دارٍ فِي فَلَكَ عِلْمِ، وَهالِلِ مَجْدٍ لاحٍ فِي سَماءِ فَهْمِ، تَوارَثُوا المَجْدَ كَابِراً عَنِ كَابرِ، وَباقِياً عَنِ غابِرِ، وَسافَرَتْ أَخبارُهُم فِي البُعْدِ

والقرب. وطارَت في أقاصي الشرق والغرب، وسارت مَسِيرَ الشمس في كل بلد، وهبت هبوبَ الريح في البر والبحر، فهم كما قال أبو عبادة البحرى في الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد وبلغ ما أراد:
الطويل:

ببَسَطَتِهِ وَالسَّيْفُ وَأَفِي الْحَمَائِلِ	بني أَحَوَذِي، يَغْمُرُ الطَّرْفُ مُوفِيًّا
عَلَى كُلِّ رَحْبٍ الْبَاعِ سَبَطَ الْأَنَامِ	تَضِيقُ الدَّرُوعُ التَّبَعِيَّاتُ مِنْهُمْ
عَلَى أَرْضِهِ وَالثَّغْرِ جَمُّ الزَّلَازِلِ	عُرَاعِرُ قَوْمٍ يَسْكُنُ الثَّغَرَ إِنْ مَشَوْا
بِآلَائِهِ أَوْ مُشْرِفٍ مُتَطَوِّلِ	فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ مُنْعِمٍ مُتَطَوِّلِ
نَظَائِرُ جُمُاتِ التَّلَاعِ السَّوَائِلِ	إِذَا سَأَلُوا جَادَتْ سَيُوفُ أَكْفِهِمْ
عَرَائِكُ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ الْجَلَائِلِ	خَلِيقُونَ سَرَوًّا أَنْ تُلَيْنَ أَكْفُهُمْ
إِلَى قَمَرٍ فِيهِمْ رَفِيعَ الْمَنَازِلِ	وَمَا زَالَ لِحَظُ الرَّاعِبِينَ مُعَلَّقًا

وفيه، أو في أبيه، يقول أبو سعيد أحمد بن شبيب: الكامل:

رَزَحَى الرِّكَابَ بَرَاذِحِي الرِّكَابِ	وإِلَى الْأَمِيرِ ابْنِ الْأَمِيرِ تَوَاهَقَتْ
وَأَلَذُّ مِنْ ظَفَرٍ بِعُقْبٍ ضِرَابِ	شَيْمٌ أَرَقُّ مِنَ الْهَوَاءِ بِلِ الْهَوَى
لَنَفَذْنَ فِي الْأَيَّامِ غَيْرَ نَوَابِ	وَعَزَائِمٌ لَوْ كُنَّ يَوْمًا أَسْهُمَا
نَارِيَّةُ الْإِقْدَامِ وَالْإِلَهَابِ	مَائِيَّةُ الْجُرَيَّانِ إِلَّا أَنَهَا
وَيَتَّهَنَ بَيْنَ مَثُوبَةٍ وَعِقَابِ	يَخْطُرْنَ بَيْنَ سِيَاسَةٍ وَرِيَاسَةٍ

ترجمة ابن أبي دواد وأخباره

قال أبو عبد الله بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها، ومجامع حفلها، فما رأيت أغزر أدباً من الوثائق؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي، يريد دعبلاً:
الطويل:

طَوَى الْكَشْحَ عَنِّي الْيَوْمَ وَهُوَ مَكِينُ	خَلِيلِي مَاذَا أَرْتَجِي مِنْ غَدِ امْرِئِ
يَسُدُّ بِهِ مِنْ خَلْتِي لَضَنِينَ	وَإِنْ امْرَأً قَدْ ضَنَّ عَنِّي بِمَنْطِقِ

فانبرى أحمد بن أبي دُود يسأله كأنما نَشَطَ من عَقَال في رجل من أهل اليمامة فأطنب وأسهب، وذهب في القول كل مَذْهَب؛ فقال الواصل: يا أبا عبد الله، لقد أكثرتَ في غير كبير، ولا طيب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه صديقي: الطويل:

وأهونُ ما يُعْطَى الصديقُ صديقَه من الهينِ الموجودِ أن يتكلَّمَا

فقال: وما قدر اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك؟. قال: يا أمير المؤمنين، إنه شهرني بالاستشفاع إليك، وجعلني بمرأى ومسمعٍ من الردِّ والإسعاف، فإذا لم أقم له هذا المقام أكون كما قال أمير المؤمنين آنفاً:

خليليَّ ماذا أرتجي من غنى امرئٍ طوى الكَشْحَ عني اليومَ وهوَ مكينُ

فقال الواصل: بالله يا محمدُ بنَ عبد الملكِ إلا عَجَلْتَ لأبي عبد الله حاجتَه، ليسلم من هُجَّةِ المَطْل، كما سلم من هُجَّةِ الردِّ.

وكان ابن أبي دُود من أحسن الناس تأتياً، وكان يقول: ربما أردت أن أسألَ أمير المؤمنين الحاجةَ بحضرة ابن الزيات فأؤخِّر ذلك إلى وقت مغيبه؛ لئلاً يتعلَّم حُسْنَ التلطفِ مِنِّي! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوة عظيمة، وأمر الواصلُ أصحابه أن ينهضوا قياماً لأبي جعفر إذا دَخَلَ، ولم يرخص في ذلك لأحد، فاشتدَّ الأمرُ على ابن أبي دُود، ولم يجد لخلاف الواصل سبيلاً. فوَكَّل بعض غلمانه بمراقبة موافاته، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع، فقال ابن الزيات: الكامل:

صَلَّى الضُّحَى لَمَّا اسْتَفَادَ عَدَاوَتِي وَأَرَاهُ يَنْسُكُ بَعْدَهَا وَيَصُومُ

لا تعدمنَّ عداوةَ موسومةً تركتكَ تَقَعُدُ بَعْدَهَا وَتَقُومُ

وقال الواصل يوماً لابن أبي دُود تضجُّراً بكثرة حوائجه: قد أخليت بيوت الأموال بطلباتك لللائذين بك، والمتوسلين إليك. فقال: يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متصلة بك، وذخائرها موصولة لك، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح، فقال: والله لا منعناك ما يزيدُ في عشقك، ويقوي في همتك فينا ولنا؛ وأمر فأخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم.

قال أبو العيناء: قلت لابن أبي دُود: إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى سرٍّ من رأى يداً عليّ، فقال: يدُ الله فوق أيديهم. فقلت: إن لهم مَكْرًا، فقال: "ولا يحيقُ المَكْرُ السيِّئُ إلا بأهله" فقلت: إنَّهم كثير. قال: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين"، فقلت: لله درُّ القاضي فهو كما قالت الصَّمُوتُ الكلابية: الكامل:

للهِ درُّكُ أي جُنَّةٍ خائفٍ ومتاعُ دُنْيَا أنت للحدثانِ

متخمط يَطُّ الرجالَ شهامةً

ويكبَّهم حتى تظل رؤوسهم

ويفرجُ البابَ الشديدَ رِتاَجُه

وطءَ الفنيقِ مدارجَ القردانِ

مأمومةً تتحطُّ للغربانِ

حتى يصيرَ كأنه بَابانِ

وكانت هذه المحاوبة بين أبي العيناء وبين أبي العلاء المنقري، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة.

قطعة من شعر الأعراب في الغزل

ابن ميادة: الطويل:

ألا ليت شعري هل يحلُّنَّ أهلنا

وهل تأتينَّ الريحُ تدرُّجُ موهناً

بريح خُزامى الرمل بات مُعانقاً

ألا ليتني ألقاك يا أمَّ جحدر

وأهلك روضاتِ بيطنِ اللوى خُضرا

بريّاك تعرّوري بنا بلداً قفرا

فروع الأقاحي تنضبِ الطلِّ والقطرا

قريباً، فأما الصبرُ عنك فلا صبرا

وقال: الطويل:

وما روضةً باتَ الربيعُ يجودها

بأطيبَ من ريح القرنفل موهناً

وقال آخر: الطويل:

تجالسنا بنتُ الدلالِ تعلّقتُ

وبين ما تخفى من الوجْد ردّها

جرى الدمعُ مجرى مائه فكفّفنه

وردّ التحيات الهوى من عيونها

وقال العلاء بن موسى الجهني: الطويل:

ولمّا رأنتي مخطراً شوكة العدى

جلتْ داجيَ الظلماء منها بسنة

وبالشذرِ مسبوكاً كأنّ التهابه

وجاءت كسل السيف لو مرّ مشيها

ردى النفسِ مُجتأباً إلى غير موعِد

ونحر مشوب لونهُ بالزبرجدِ

تلهبُ جمرَ الفرقدِ المتوقدِ

على البيضِ أمسى سالماً لم يُخضدِ

فَبِتْنَا وَلَمْ نَكْذِبْكَ لَوْ أَنَّ لَيْلِنَا
نَذُودُ النُّفُوسَ الصَّادِيَاتِ عَنِ الْهُوَى
فَلَمَّا بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ وَرَاعَنَا
نَهَضْنَا بِشَخْصٍ وَاحِدٍ فِي عَيُونِهِمْ
إِلَى جَنَّةٍ مِنْهُمْ وَسَلَّمَتْ غَادِيَاً
وَوَلَتْ وَأَغْبَاشَ الدُّجَى مَرَجَحْنَهُ

وقال أعرابي من طيء: الطويل:

وَأَحُورُ يُصْطَادُ الْقُلُوبَ وَمَا لَهُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى الْفَتَاكَ مِمَّنْ سِلَاحُهُ
وَأَشْنَبُ بَرَّاقِ الثَّيَا غُرُوبُهُ
خَلِيلِي بِاللَّهِ أَقْعَدَا فَتَبَيَّنَا
يَكْشِفُ أَعْرَاضَ السَّحَابِ كَأَنَّهُ
فَبِتَّ عَلَى الْأَجْيَالِ لَيْلًا أَشِيمُهُ

هذا في البرق كقول الطرماح في النور: الكامل:

يَبْدُو وَتَضْمُرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ

وقال بشار: الكامل:

أَعْدَدْتُ لِي عَتَبًا بِحَبْكُمُ
وَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِي خِيَالُكُمْ
فَشَرِبْتَ غَيْرَ مُبَاشِرٍ حَرَجًا

وقال المتنبي: الكامل:

بِتْنَا يُنَاوِلُنَا الْمُدَّامَ بِكَفِّهِ
نَجْنِي الْكَوَاكِبَ مِنْ قَلَانْدٍ جِيدِهِ

وأول شعر أبي الطيب:

لَا الْحُلْمُ جَادَ بِهِ وَلَا بِمِثَالِهِ

إِلَى الْحَوْلِ لَمْ نَمْلُ وَقَلْنَا لَهُ ازْدَدِ
ذِيَادًا وَنَسْقِيهِنَّ سَقِي الْمَصْرَدِ
مَعَ الصَّبْحِ صَوْتِ الْهَاتِفِ الْمَتَشَهِّدِ
نَطَافِي حَوَاشِي الْأَتْحَمِيِّ الْمُعْضَدِ
عَلَيْهَا سَلَامَ الْبَاكِرِ الْمُتَزَوِّدِ
تَأْطِرُ غُصْنُ الْبَانَةِ الْمُتَأَوِّدِ

من الريش إِلَّا زَعْفَرَانٌ وَإِثْمِدُ
سِوَارٌ وَخَلْخَالٌ وَطَوَّقٌ مُنْضَدُ
مِنَ الْبَرْدِ الْوَسْمِي أَصْفَى وَأَبْرَدُ
وَمِيضًا نَرَى الظُّلَمَاءَ مِنْهُ تَقَدَّدُ
صَفِيحَةُ هِنْدِيٍّ تُسَلِّ وَتُغْمَدُ
أَقُومُ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَقْعُدُ

سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلِّ وَيُغْمَدُ

يَا عَبْدَ طَالٍ بِحَبْكُمُ عَتْبِي
فِي الْقُرْطِ وَالْخُلْخَالِ وَالْقُلْبِ
بِرَضَابِ أَشْنَبٍ بَارِدٍ عَذْبِ

مَنْ لَيْسَ يَخْطُرُ أَنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ
وَنَنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خُلْخَالِهِ

لَوْ لَا اذْكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيَالِهِ

إِن الْمُعِيدَ لَنَا الْمَنَامُ خَيَالُهُ

كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ

إِنِّي لِأُبْغِضُ طَيْفَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ

إِذَا كَانَ يَهْجُرُنَا زَمَانٌ وَصَالِهِ

يقول: التمثيل والتخيل له في اليقظة أعاد خياله في المنام، فكأنَّ الخيالَ الذي في النوم تصور في اليقظة. وأظهر من هذا قول الطائي: البسيط:

زَارَ الْخِيَالَ لَهَا لَا بَلَّ أَرَارَكُهُ

فَكَرُّ إِذَا نَامَ فَكَرُّ الْخَلْقِ لَمْ يَنْمَ

ظَبِي تَقَنَّصَتْهُ لَمَّا نَصَبْتَ لَهُ

فِي آخِرِ اللَّيْلِ أَشْرَاكَأَ مِنَ الْحَلَمِ

أما بيته الأول فمن قول جميل: البسيط:

حَبِيبُ طَيْفِكَ مِنْ طَيْفِ أَلَمٍ بِهِ

حَدَّثَتْ نَفْسُكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولُ

وقال ذو إلى الرمة: الطويل:

نَأَتْ دَارَ مِيٍّ أَنْ تُزَارَ، وَزَوْرُهَا

إِذَا مَا دَجَا الْإِظْلَامُ مِنَّا وَسَاوَسُ

إِذَا نَحْنُ عَرَّسْنَا بِأَرْضِ سَرَى لَنَا

هُوًى لِبَسْتِهِ بِالْقُلُوبِ اللَّوَابِسُ

وبيته الثاني أَلَمَ فيه بقول قيس بن الملوِّح: الطويل:

وَإِنِّي لِأَسْتَعْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ

لَعَلَّ خِيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خِيَالِيَا

وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ الْجُلُوسِ لَعْنِي

أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيَا

تَقَطَّعَ أَنْفَاسِي لِذِكْرِكَ أَنْفَسًا

يَرِدُنَ فَمَا يَرْجِعُنَ إِلَّا صَوَادِيَا

وقد قال فيه قيس بن ذريح: الطويل:

وَإِنِّي لِأُهْوَى النَّوْمَ فِي غَيْرِ نَعْسَةٍ

لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ

تَخْبِرُنِي الْأَحْلَامُ أَنِّي أَرَاكُمْ

فِيَا لَيْتَ أَحْلَامَ الْمَنَامِ يَقِينُ

وكان البحثري أكثرَ الناس إبداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له خيال البحثري وفي بعض ذلك يقول: الطويل:

أَلَمَّتْ بَنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ، فَسَحَامَحَتْ

بَوَصَلٍ مَتَى تَطْلُبُهُ فِي الْجَدِّ تُنَمَّعَ

فَمَا بَرَحَتْ حَتَّى مَضَى اللَّيْلُ وَانْقَضَى

وَأَعْجَلَهَا دَاعِي الصَّبَاحِ الْمُلَمَّعَ

فَوَلَّتْ كَأَنَّ الْبَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَهَا

أَوَّانَ تَوَلَّتْ مِنْ حَشَايَ وَأَضْلَعِي

وقال: الطويل:

سقى الغيثُ أجزاءً عَهِدْتُ بِجَوْهَا

إذا ما الكرى أهدى إليَّ خياله

فلم نرِ مِثْلَنا ولا مِثْلَ شأننا

وقال: الطويل:

غزاً لا تُراعيه الجاذِرُ أغيداً

شَفَى قُرْبُهُ التبريحَ أو نَفَعَ الصدى

نُعَذِّبُ أَيْقَاضاً وَتَتَعَمُّ هُجْدَا

تَأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدِي تَعَرَّضَ يُطْمَعُ

وَتَسْمَعُ أُذُنِي رَجَعَ مَا لَيْسَ تَسْمَعُ

تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهْفِ فَتَرْجِعُ

بَلَى وَخِيَالٍ مِنْ أُثَيْلَةٍ كَلِمَا

يُرِي مَقْلَتِي مَا لَا تَرَى مِنْ لِقَائِهِ

وَيَكْفِيكَ مِنْ حَقِّ تَخِيلٍ بَاطِلٍ

قوله في البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك: المتقارب:

لِ وَالْهَجْرُ حَظُّكَ مِمَّنْ تُحِبُّ

تَمْلِيَّتُهُ بِقَنُوعِ الْمُحِبِّ

وَمَاذَا يَفِيدُكَ طَيْفُ الْخِيَا

غَنَاءٌ قَلِيلٌ، وَلَكِنِّي

وللحسين في هذا المعنى وإن لم يكن في ذِكْرِ الخيال: الخفيف:

خَلْتُ أَنِّي، وَمَا أَرَاكَ، أَرَاكَ

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى

وَإِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْغَضُّ تَوَهَّمَتْهُ نَسِيمَ جَنَّاكَ

كَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَنَكْهَةِ ذَاكَ

خُدَّعَ لِلْمُنَى تُعَلِّلَنِي فِي

وأول من طرد الخيالَ طرفة بن العبد، فقال: الطويل:

إِلَيْهَا فَإِنِّي وَاصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلَ

فَقُلْ لَخِيَالِ الْحَنْظَلِيَّةِ يَنْقَلِبُ

فتبعه جرير في قوله فقال: الكامل:

حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا

قال البحتري، ونفى هذا المعنى بقوله: الكامل:

إِذَا كَانَ مِنْكَ الصَّدُّ غِبٌّ تَنَاسَى

وَيَلِينُ قَلْبِي حِينَ قَلْبُكَ قَاسِي

تَغْشَى، وَلَا نَهْنَهْتُ حَامِلَ كَاسِي

قَدْ كَانَ مِنِّي الْوَجْدُ غِبٌّ تَذَكَّرُ

تَجْرِي دُمُوعِي حِينَ دَمْعُكَ جَامِدٌ

مَا قُلْتُ لِلطَّيْفِ الْمُسْلَمِ لَا تُعُدُّ

وقال ابن هاني الأندلسي: الطويل:

وَفِي الْحَيِّ أَيْقَاضٌ وَنَحْنُ هُجُودُ

أَلَا طَرَقْتَنَا وَالنَّجْمُ رُكُودُ

وقد أَعْجَلَ الفجرُ المَلَمْعُ خَطْوَهَا
سَرَتْ عَاطِلًا غَضَبِي عَلَى الذَّرِّ وَحْدَهُ
فَمَا بَرِحَتْ إِلَّا وَمَنْ سِلْكَ أَدْمُعِي
أَلَمْ يَأْتِهَا أَنَا كَبُرْنَا عَنِ الصَّبَا
وقال عليّ بن محمد الإيادي: الطويل:

وفي أُخْرِيَاتِ اللَّيْلِ مِنْهُ عَمُودُ
فَلَمْ يَذَرِ نَحْرًا مَا دَهَاهُ وَجِيدُ
قَلَانْدُ فِي لَبَاتِهَا وَعُقُودُ
وَأَنَا بَلَيْنَا وَالزَّمَانُ جَدِيدُ؟

أَمَا إِنَّهُ لَوْلَا الْخِيَالُ الْمَرَاغُ
لَأَشْفَقَ وَاسْتَحْيَا مِنَ النُّومِ وَالْهَ
وقال أيضاً: الكامل:

وعاصٍ يُرَى فِي النُّومِ وَهُوَ مَطَاوِغُ
يُرَى بَعْدَ رَوَعَاتِ الْهَوَى وَهُوَ هَاجِعُ

طَيْفٌ يَزُورُكَ مِنْ حَبِيبٍ هَاجِرٍ
شَقَّ الدُّجَى وَسَرَى فَأَمَعَنَ فِي السَّرَى
يَحْدُو بِهِ هَيْفُ الْقَوَامِ الْمُنْتَنِي
لِلَّهِ دَرْكٌ مِنْ خِيَالٍ وَاصِلٍ
عَلَّتْ عِلَّةُ قَلْبٍ صَبَّ هَائِمٍ
وقال عبد الكريم بن إبراهيم: البسيط:

أَهْلًا بِهِ وَبَطِيفِهِ مِنْ زَائِرٍ
حَتَّى أَلَمَّ فَبَاتَ بَيْنَ مُحَاجِرِي
نَحْوِي وَسَالَفَةُ الْغَزَالِ الْنَافِرِ
أَسْرَى فَأَنْصَفَ مِنْ حَبِيبٍ هَاجِرٍ
وَقَضَيْتَ ذِمَّةَ فَيْضِ دَمْعٍ قَاطِرٍ

لَمْ أَدْرِ مَعْنَاكَ لَوْلَا الْمَسْكُ وَالْقُطْرُ
سَرَى يِعَارِضُ أَنْفَاسَ الرِّيحِ بِمَا
يَخْفِي بِثُوبِ الدُّجَى مَسْرَاهُ مُسْتَتِرًا
كَأَنَّ أَعْيْنَ وَاشْيِهِ تُرَاقِبُهُ
قال: الكامل:

وَزَوْرَةٌ لِمُلْمٌ عَهْدُهُ عَفْرُ
تَحَمَّرَ الْوَرْدُ مِنْهُ وَانْتَشَى الزَّهْرُ
وَمَنْ تَقَنَّعَ صُبْحًا كَيْفَ يَسْتَتِرُ؟
فِيهِ فَيَدْمِجُ أَخْبَارِي فَيَخْتَصِرُ

أَهْلًا بِهِ مِنْ زَائِرٍ مَعْتَادٍ
يَتَجَاوَزُ الرِّايَاتِ يَخْفِقُ ظِلُّهَا

وَاللَّيْلُ يُرْفَلُ فِي ثِيَابِ حِدَادٍ
وَيَشِقُّ مُلْتَفَّ الْقَنَا الْمَنَادِ

أَنَّى اهْتَدَى فِي ظِلِّ أَخْضَرٍ مَغْدِفٍ
بَأَرْقٍ مَنْ كَبَدَ الْمَتِيْمَ مُقَدِّمًا

حَتَّى تَيْمَمَ بِالْعَرَاءِ وَسَادِي
فِي حَيْثُ يَنْبُو الْحَارِثُ بْنُ عُبَادِ

والحلي نَمَامٌ على العُوَادِ
متوقِّدٌ مما يُجِنُّ فُؤَايَ

معتادة أَمَنْتْ نَمَائِمَ حليها
وكأنما ياقوتُها في نَحْرِها

في مجالس المنصور

خطب صالح بن أبي جعفر المنصور في بعض الأمر فأحسن، فأراد المنصور أن يقرظه ويثني عليه، فلم يجسر أحد على ذلك لمكان المهدي، وكان مرشحاً للخلافة، وخافوا ألا يقع الثناء على أخيه بموافقته، فقام عقال بن شبة، فقال: ما رأيت أبين بياناً، ولا أفصح لساناً، ولا أحسن طريقاً، ولا أغمض عروفاً، من خطيب قام بحضرتك يا أمير المؤمنين، وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير: البسيط:

بِزَا الملوِكِ وبِزَا هذه السُّوَقَا
على تكاليفه فَمِثْلُهُ لَحِقَا
فبالذي قَدَمًا من صالحِ سَبَقَا

يَطْلُبُ شَاوِ امرَأَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا
هو الجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَاوِهِمَا
أَوْ يَسْبِقَاهُ على ما كان من مَهْلٍ

فعجب الناس من حُسن تلخيصه، فقال أبو جعفر: لا ينصرف التميمي إلا بثلاثين ألفاً. قال أبو عبد الله كاتب المهدي: ما رأيت مثل عقال قط في بلاغته؛ مدح الغلام وأرضى المنصور، وسلم من المهدي. وفي قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة المري: البسيط:

والسائلون إلى أبوابه طُرُقَا
يَلْقَى السَّمَاحَةَ منه والندَى خُلُقَا
يوماً ولا مُعْذِماً من خَابِطٍ وَرَقَا
ما الليثُ كَذِبَ عن أَقرَانِهِ صَدَقَا
ضاربَ حتى إذا ما ضَارَبُوا اعتَقَا
يُعْطِي بِذلك ممنوناً ولا نَزَقَا
وَسَطَ النديّ إذا ما ناطقٌ نَطَقَا
أَفَقَ السماءِ لَنَالَتْ كَفَهُ الأُفُقَا

قد جعلَ المُبْتَغُونَ الخَيْرَ في هَرَمٍ
من يَلْقَى يوماً على عِلَاتِهِ هَرِمًا
وليس مانعٌ ذي قُرْبَى وذو رَحِمٍ
ليثٌ بعثرَ يصطادُ الرجالَ، إذا
يَطْعَنُهُمْ ما أَرْتَمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا
فَضَلَّ الجَوَادِ على الخيلِ البِطَاءِ فلا
هذا وليس كمن يعيا بحُجَّتِهِ
لو نالَ حيٍّ من الدنيا بمكرمةٍ

وكان زهير كثير المدح لهرم، ويروى أن بنتاً لسان بن أبي حارثة رأت بنتاً لزهير بن أبي سلمى في بعض المحافل، وإذا لها شارةٌ وحالٌ حسنة، فقالت: قد سرّني ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك فقالت: إنها

منكم. فقالت: بلى والله لك الفضل، أعطيناكم ما يَفْنَى، وأعطيناكم ما يبقى!.

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال لابنة هرم بن سنان: ما وهب أبوك لزهير؟ قالت: أعطيناه مالا وأثاثاً أفناه الدهر. قال: لكن ما أعطاكموه لا تفنيه الدهور. وقد صدق عمر، رضي الله عنه، لقد أبقى زهير لهم ما لا تفنيه الدهور، ولا تُخلقه العصور، ولا يزال به ذكر الممدوح سامياً، وشرفه باقياً، فقد صار ذكرهم علماً منصوباً، ومثلاً مضروباً، قال الطائي، وذكرهم في شعره: البسيط:

مالي ومالك شِبَّةٌ حين أذكرُهُ إلا زهير وقد أصغى له هرم

وقال يوسف الجوهري يمدح الحسن بن سهل: البسيط:

لو أن عَيْنِي زهيرٍ أبصرتُ حَسَنًا وكيف يصنعُ في أمواله الكرمُ
إذن لقال زهيرٌ حين يبصرُهُ هذا الجوادُ على العلاتِ لا هَرَمُ

وقال آخر، ويدخل في باب تفضيل الشعر: البسيط:

الشعرُ يَحْفَظُ ما أودَى الزمانُ به والشعرُ أفضلُ ما يجنى من الكرمِ
لولا مقالُ زهيرٍ في قصائدهِ ما كان يعرفُ جودُ كان من هَرَمِ

وقيل: أعطى هرم العطاء الجزيل قول زهير فيه: الكامل:

تالله قد عَلِمْتَ سَرَاةَ بني ذُبْيَانَ عَامَ الْحَبَسِ وَالْأَصْرِ
أن نِعَمَ حَشَوُ الدَّرْعِ أنتِ إذا دُعِيتِ نَزَالَ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ

حامي الذِّمَارِ على مُحَافَظَةِ ال جُلَى أَمِينُ مُغَيَّبِ الصَّدْرِ
حَدَبٌ على المَوَلَى الضَّرِيكِ إذا ضاقت عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ومُرْهَقُ النيرانِ يُحَمَّدُ في ال لأواءِ غيرُ مُلَعَّنِ الْقَدْرِ
والسُّتْرُ دونَ الفاحشاتِ، وما يَلْقَاكَ دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وقال: البسيط:

إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولَ كنَّ الجوادَ على عِلَاتِهِ هَرَمُ
هو الكريمُ الذي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوَاً، وَيُظْلَمُ أحياناً فيظْلَمُ
وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ: لا غائبٌ مالي ولا حَرَمُ

الخليل: الذي أحلَّ به الفقر؛ إلى غير ذلك من مُختار مدحه فيه.

من فضائل الشعر

ولما امتدح نُصَيْبُ عبدَ الله بن جعفر، رضي الله عنه، أمر له بإبل وخيل، وثياب ودنانير ودراهم، قال له رجل: أتعطي لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء؟ فقال: إن كان أسود فإن شعره أبيض، وإن كان عبداً فإن ثنائه لحر، ولقد استحق بما قال أكثر مما أعطى وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى، ومالاً يفنى، ومطايا تنضى، وأعطانا مديحاً يروى، وثناء يبقى؟.

وقال الأخطل يعتدُّ على بني أمية بمدحه لهم: الكامل:

أبني أمية، إن أخذتُ نوالكمُ فلقد أخذتُ من مديحي أكثرُ
أبني أمية، لي مدائحُ فيكمُ تتسوّن إن طال الزمانُ وتذكرُ

ولما مدح أبو تمام الطائي محمد بن حسان الضبي بقصيدته التي أولها: الكامل:

أسقى طولولهم أجشُ هزيمُ وغدت عليهم نضرةٌ ونعيمُ

وصلّه بماد كثير، وخلع عليه خلعة نفيسة، فقال يصفها: الخفيف:

قد كسانا من كُسوةِ الصيفِ خرّقُ مكّنتُ من مكارمِ ومَساعِ
حلّةٌ سابريّةٌ وكِسَاءُ كَسَحًا القَيْضِ أو رداءِ الشجاعِ
كالسرّابِ الرقراقِ في الحُسْنِ، إلا أنه ليس مثله في الخِدَاعِ
قصيباً تسترجفُ الريحُ متّني ه بأمرٍ من الهبوبِ مطاعِ
رجفاناً كأنه الدهرُ منه كبِدُ الصبِ أو حشَا المُرْتاعِ
لازماً ما يليه تحسُّبه جز ءاً من المتّنين والأضلاعِ
كسوةٍ من أغزّ أروعِ رَحْبِ ال صَدْرِ رَحْبِ الفؤادِ رَحْبِ الذراعِ
سوف أكسوكُ ما يعفّي عليها من ثناءٍ كالبردِ بردِ الصنّاعِ
حُسْنُ هاتيكِ في العيون، وهذا حُسْنُهُ في القلوبِ والأسماعِ

فقال: لعنةُ الله عليّ إن بقي عندي ثوب أو يصل إلى أبي تمام؛ وأمر بحمل ما في خزائنه إليه.

قال إبراهيم بن العباس الصولي لأبي تمام: أمراءُ الكلام، يا أبا تمام، رعيةٌ لإحسانك، قال: ذاك لأني أستضيءُ بنورك، وأردُ شريعتك.

وكان الطائي مع جودته شعره بليغ الخطاب، حاضر الجواب، وكان يقال: ثنان قلماً يجتمعان: اللسان البليغ، والشعر الجيد.

وقال الحسن بن جُنادة الوشاء: انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان، فوقف علي، فقلت: من أين؟ فقال: كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاماً طيباً، وفاكهة فاضلة، وبُخَرنا وغُلِفْنَا؛ فخرجتُ هارباً من المجلس، نافراً إلى التسلي، وما في منزلي نبيذ فإن كان عندك منه شيء فامنحني، فقلت: ما عندي نبيذ ولكن عندي خَمْرٌ أريده لبعض الأدوية، فقال: دع اسمه، وأعطينا جِسْمَه، فليس يثنيانا عن المدام، ما هَجَّنته به من اسم الحرام.

في المواعيد

قال عبيد الله بن محمد بن صدقة: كنّا عند أبي عبيد الله، فدخل عليه أعرابي قد كان له عليه وَعْد، فقال له: أيها الشيخ السيد، إني والله أَتَسَحَّبُ على كرمك، وأستوطئ فراشَ مجدك، وأستعين على نعمك بقدرك؛ وقد مضى لي موعدان، فاجعل النُجَحَ ثالثاً، أَقْدُ لك الشُّكْرَ في العرب شادخ الغُزّة، بادي الأوضاح. فقال أبو عبيد الله: ما وعدتك تغريراً، ولا أخرتُك تقصيراً، ولكن الأشغال تقطعني، وتأخذ بأوْفَرِ الحظِّ مني، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية، ومنتهى الوُسْعِ بأوفر مأمول، وأحمد عاقبة، وأقرب أمد، إن شاء الله تعالى.

فقال الأعرابي: يا جلساء الصّدق، قد أحصرتني التطول، فهل من معين مُنجد ومساعد منشد؟ فقال بعض أحداث الكتاب لأبي عبيد الله: والله - أصلحك الله - لقد قصدك، وما قصدك حتى أَمَلَّك، وما أَمَلَّك إلا بعد أن أجال النظر، فأمن الخطر، وأيقن بالظفر، فحقق له أمله بتهيئة القليل، وتهنئة التعجيل. قال الشاعر: الطويل:

تبلّج عن بشر ليستكمل البشر

إذا ما اجتلاه المجد عن وعدٍ أمل

تصون له الحمد الموفر والأجرا

ولم يثنيه مطل العداة عن التي

فأحضر أبو عبيد الله للأعرابي عشرة آلاف درهم، وقال الأعرابي للفتى: خذها فأنت سببها. فقال: شكرُك أحبُّ إليّ منها؟ فقال له أبو عبيد الله: خذها، فقد أمرنا له بمثلها. فقال الأعرابي: الآن كملت النعمة، وتمت المنّة.

أخبار معاوية بن يسار

وكان أبو عبيد الله واسع الذرع، سابغ الذرع في الكرم والبلاغة، واسمه معاوية بن يسار. وكان يقول: إن نخوة الشرف تُناسِبُ بَطَرُ الغنى، والصبرُ على حقوق الثروة أشدُّ من الصبر على ألم الحاجة، وذُلُّ الفقر يسعى على عزِّ الصبر، وجور الولاية مانع من عدل الإنصاف، إلا من ناسب بعد المهمة، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته.

وكان يقول: لا يكسر رأسُ صناعة إلا في أحسن رثان، وأردل سلطان، ولا يعيب العلم إلا من انسلخ عنه، وخرج منه.

وكان يقول: حُسْنُ البشر علم من أعلام النجاح ورائد من رواد الفلاح، وما أحسن ما قال زهير: الطويل:

تراه إذا ماجنته مُتَهَلِّلاً كأنك تُعْطِيهِ الذي أَنْتَ سَائِلُهُ

وقال له المهدي بعد أن قتل ابنه على الزندقة: لا يمعنك ما سبق به القضاء في ولدك، من ثلج صدرِكَ وتقدِّم نُصْحِكَ؛ فإني لا أعرض لك رأياً على تُهمة، ولا أؤخر لك قدماً على رتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما كان ولدي حسنة من نبت إحسانك أرضه، ومن تفقُّدك سماؤه، وأنا طاعة أمرك، وعبدُ نهيك، وبقيّة رأيك لي أحسن الخلف عندي.

وكان يقول: العالم يمشي البراز آمناً، والجاهل يهبط الغيطان كامناً، ولله درّ زهير حيث يقول: الكامل:

الستر دون الفاحشات وما يَلْقَاكَ دون الخير من سِتْرٍ

وقال أبو عبيد الله: ذاكرني المنصور في أمر الحسين بن قحطّة، فقال: كان أوثق الناس عندي، وأقربهم من قلبي، فلما لقي أبا حنيفة انتكث، فقلت: إن فسدت نيته فسيضعه الباطل كما رفعه الحق، وتشهد مخايله عليه كما شهدت له، فتعدل في أمره من شك إلى يقين. ثم قال لي: اكتم علي ما ألقيت عليك.

قال عمران بن شهاب: استعنت على أبي عبيد الله في أمر بعض إخوانه وكان قد تقدّم سؤالي إياه فيه. فقال لي: لولا أت حقك لا يُجحد ولا يضاع، لحجبت عنك حُسن نظري؛ أظننتني أجهل الإحسان حتى أعلمه، ولا أعرف موضع المعروف حتى أعرفه؟ لو كان يُنال ما عندي إلا بغيري لكنت مثل البعير الذلول، يحمل عليه الحمل الثقيل، إن قيد انقاد، وإن أنبج برك، ما يملك من نفسه شيئاً، فقلت: معرفتك بموضع الصنائع أثبت معرفة، ولم أجعل فلاناً شفيعاً إنما جعلته مذكراً. قال: وأي إذكار أبلغ عندي في رعي حقك من مسيرك إليه وتسليمك عليه؟ إنه متى لم يتصفّح المأمول أسماء مؤمليه غدوةً ورواحاً لم يكن للأمل محلاً، وجرى عليه المقدار لمؤمليه على يديه بما قدر، وهو غير محمود على ذلك ولا مشكور، وما لي

إمامٌ بعد وردي من القرآن إلا أسماء رجال أهل التأمل، حتى أعرضهم على قلبي، فلا تستعن على شريفٍ إلا بشرّفه؛ فإنه يرى ذلك عيباً لُعرفه؛ وأنشد: الطويل:

وذاك امرؤ إن تأتته في عزيمة
إلى بابه لا تأتته بشفيع

ومن توقيعاته: الحق يُعقب فلجاً أو ظفراً، والباطل يُورث كذباً ونَدماً.
وكتب إليه رجل: والنفس مولعة بحبّ العاجل. فكتب إليه: لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماماً
وللهوى رباطاً موكل بحبّ الآجل، ومستصغرٌ لكل كثير زائل.
قال مصعب بن عبد الله الزبيري: وقد زياد الحارثي على المهدي وهو بالرّي وليّ عهد، فأقام سنتين لا
يصلُ إليه شيء من برّه، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد الله، فلمّا طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشدته: البسيط:

ما بعد حولين مرّاً من مطالبة
ولا مقامٌ لذي دين وذي حسب

لئن رحلت ولم أظفر بفائدة
من الأمير لقد أعذرت في الطلب

فوقع أبو عبيد الله: يصنع الله لك فكتب إليه: الخفيف:

ما أردت الدعاء منك لأنني
قد تيقّنت أنه لا يُجاب

أيجاب الدعاء من مستطيل
جُلّ تسبيجه الخنا والسباب؟

ألفاظ لأهل العصر

في ذكر الاستطالة والكبر

مع ما يشاكل ذلك من معانيها، ويطرق نواحيها من المساوي والمقايح.
فلان لسائه مقرّاضٌ للأعراض، لا يأكل خبزَه إلا بلحوم الناس، هو غرضٌ يرشّق بسهام الغيبة، وعلم
يقصد بالوقية، قد تناولته الألسن العاذلة، وتناقلت حديثه الأندية الحافلة. قد لزمه عار لا يُمحي رَسْمُه،
ولزمه شئار لا يزولُ وَسْمُه، فأصبح نُقْلُ كلِّ لسان، وضُحْكَة كلِّ إنسان، وصار دولة الألسن، ومُثْلَة
الأعين. وقد عرّض عرضه غرضاً لسهام الغائبين، وألسنة القاذفين، وقلّد نفسه عظيم العار والشئار،
والسبّة الخالدة على الليل والنهار. قد أسكرته خَمَرَة الكبر، واستغرقتَه عُرّة التّيه، كأن كسرى حامل
غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدَى داياته، وكأنّ يوسف لم ينظر إلا بطلعته، وداود لم ينطق إلا
بنغمته، ولقمان لم يتكلّم إلا بحكمته، والشمس لم تطلع إلا من جبينه، والغمام لم يندَ إلا من يمينه، وكأنه
امتطى السّماكين، وانتعل الفرقدين، وتناول النّيرّين بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقلين وكان
الخضراء له عرشت، والغبراء باسمه فرشت.

فلان له من الطاووس رِجلُهُ، ومن الوردِ شوْكه، ومن الماء زَبْدُهُ، ومن النار دخانُها، ومن الخمر خُمَارُها، قد هَبَّتْ سَمَائِمُ نَمَائِمِهِ، ودَبَّتْ مَكَائِدُ عَقَارِبِهِ، والنمام يضرب بِسَيْفٍ كَلِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ يَقْطَعُ، ويضرب بعضد واهنٍ إِلَّا أَنَّهُ يُوْجِعُ. هو تمثالُ الجبن، وصورةُ الخوف، ومقرّرُ الرعب؛ فلو سَمَّيْتُ له الشجاعةَ لَخَافَ لَفْظُهَا قبلَ معناها، وذَكَرُهَا قبلَ فحواها، وفزع من اسمها دون مسمائها، فهو يهلك من تخوفه أضغاثَ أحلام، فكيف بمسموعِ الكلام؟ إذا ذكرتِ السيوفَ لمسَ رأسه هل ذهبَ، ومسَ جبينه هل ثُقبَ؟ كأنه أسلِمَ في كِتَابِ الجُبْنِ صَبِيًّا، وَلَقِّنَ كِتَابَ الفشلِ أعجمياً. وَعُدُّهُ بَرَقٌ خَلْبٌ، وروغان ثعلب. غِيْمٌ وعده جَهَامٌ، وَحَدُّ سَيْفِهِ كَهَامٌ. حصلتُ منه على مواعيد عرقوبية، وأحزان يعقوبية، قد حرمني ثمرَ الوعد، وجرّني على شوْكِ المَطلِ. فتى له وعدٌ أَخَذَ مِنَ الْبَرَقِ الْخَلْبَ خَلْقًا، وقد تناول من العارض الجهام طبعًا، وتركني أرعى رياضَ رجاءٍ لَا يُنْبِتُ، وَأَجْنِي ثَمَارَ أَمَلٍ لَا يُورِقُ؛ فَأَنَا فِي ضَمَانِ الْإِنْتِظَارِ، وإِسَارِ عِدَّةٍ ضِمَارِ. هو يرسل بَرَقَهُ، وَلَا يَسِيلُ وَدَقَّهُ، ويقدم رَعْدَهُ، فَلَا يَمْطُرُ بَعْدَهُ. وَعُدُّهُ الرِّقْمُ عَلَى بَسَاطِ الْهَوَاءِ، والخط في بسيطِ الماء. حلَّ هذا من قول أبي الفضل بن العميد: الكامل:

خَلَوْا مِنَ الْأَشْجَانِ وَالْبُرَحَاءِ	لَا أَسْتَفِيقُ مِنَ الْغَرَامِ، وَلَا أُرَى
بَنَى الْخَلِيطِ وَفُرْقَةَ الْقُرْنَاءِ	وَصُرُوفُ أَيَّامٍ أَقْمَنَ قِيَامَتِي
عَوْنِي عَلَى السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ	وَجَفَاءِ خَلٍّ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ
مَتَنَقَّلُ كَتَنَقَّلِ الْأَحْيَاءِ	نَبَتَ الْعَزِيمَةِ فِي الْعُقُوقِ، وَوَدُّهُ
كَالْخَطِّ يُرْسَمُ فِي بَسِيطِ الْمَاءِ	ذِي خَلَةٍ يَأْتِيكَ أَثْبَتُ عَهْدِهِ

أردت هذا البيت.

هو صخرة خَلَقَاءُ، لَا يَسْتَجِيبُ لِلْمُرْتَقَى، وَحِيَّةٌ صَمَاءُ لَا تَسْمَعُ لِلرُّقَى، كَأَنِّي أَسْتَنْفِرُ بِالْجَوِّ رَعْدًا، وَأَهْزُ مِنْهُ بِالْإِدْعَاءِ طُودًا، هو ثابت العطف نابي العطف، عاجز القوة، قاصر المنة، يتعلّق بأذنان المعاذير، ويحيل على ذنوب المقادير. هو كالنعامة تكونُ جَمَلًا إِذَا قِيلَ لَهَا طِيرِي، وَطَائِرًا إِذَا قِيلَ لَهَا سِيرِي. يفاض له بذل، وَلَا يَفُوضُ إِلَيْهِ شَغْلٌ، وَبِمَلَأْ لَهُ وَطْبٌ، وَلَا يُدْفَعُ بِهِ خَطْبٌ، قد وفّر همّه على مطعم يجودّه، ومَلْبَسٌ يجودّه، ومَرْقَدٌ يمهده، وبنيان يشيده.

هذا كقول الحطيئة: البسيط:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعْثِهَا	واقعدُ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسي
--	---------------------------------

قَلْبٍ نَغْلٍ، وَصَدْرٌ دَغْلٌ، وَطَوْلَةٌ مَعْلُولَةٌ، وَعَقِيدَةٌ مَدْخُولَةٌ، صَفْوُهُ رَنْقٌ، وَبَرُهُ مَلَقٌ، قَدْ مُلِيَ قَلْبُهُ رَيْنًا، وَشُحِنَ صَدْرُهُ مَيْنًا يَدْعِي الْفَضْلَ وَهُوَ فِيهِ دَعْيٍ، ذَابَهُ بَثُ الْخَدَائِعِ، وَالنَفْثُ فِي عَقْدِ الْمَكَايِدِ، ضَمِيرُهُ خُبْثٌ، وَبِمَيْنِهِ حَنْثٌ، وَعَهْدُهُ نَكْثٌ. هُوَ سَحَابَةٌ صَيِّفٌ، وَطَارِقٌ ضَيِّفٌ، قُوَّتُهُ غَنِيمَةٌ، وَالظَّفَرُ بِهِ هَزِيمَةٌ. هُوَ الْعَوْدُ الْمَرْكُوبُ، وَالْوَتَرُ الْمَضْرُوبُ، يَطْوُهُ الْخَفُّ وَالْحَافِرُ، وَيَسْتَضِيئُهُ الْوَارِدُ وَالصَّادِرُ. يَغْمُضُ عَنِ الذِّكْرِ وَيَصْغُرُ عَنِ الْفِكْرِ. ذَاتُهُ لَا يَوْسَمُ أَغْفَالُهَا، وَصَفْتُهُ لَا تَنْفَرُجُ أَقْفَالُهَا. هُوَ أَقْلٌ مِنْ تَبْنَةٍ فِي لَبْنَةٍ، وَمِنْ قَلَامَةٍ فِي قُمَامَةٍ. وَهُوَ يَبْذُقُ الشُّطْرُنَجَ فِي الْقِيَمَةِ وَالْقَامَةِ، جَهْلُهُ كَثِيفٌ، وَعَقْلُهُ سَخِيفٌ، لَا يَسْتَرُّ مِنَ الْعَقْلِ بِسُجْفٍ، وَلَا يَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى سُخْفٍ. يَمْدُ يَدَ الْجَنُونِ فَيَعْرُكُ بِهَا أُذُنَ الْحَزْمِ، وَيَفْتَحُ جِرَابَ السُّخْفِ فَيَصْفَعُ بِهِ قَفَا الْعَقْلِ. لَا تَزَالُ الْأَخْبَارُ تَوْرِدُ سَفَائِحَ جَهْلِهِ وَخُرُفَهُ، وَالْأَنْبَاءُ تَنْقُلُ نَتَائِجَ سُخْفِهِ وَحُمَقِهِ، قَدْ ظَلَّ يَتَعَثَّرُ فِي فَضُولِ جَهْلِهِ، وَيَتَسَاقَطُ فِي ذِيُولِ عَقْلِهِ. هُوَ سَمِينُ الْمَالِ مَهْزُولُ النِّوَالِ. ثَرْوَةٌ فِي الثَّرِيَا وَهَمَّةٌ فِي الثَّرَى.

وَجْهُهُ كَهَوْلُ الْمَطْلَعِ، وَزَوَالُ التَّعْمَةِ، وَقَضَاءُ السُّوءِ وَمَوْتُ الْفُجَاءَةِ. هُوَ قَذَى الْعَيْنِ، وَشَجَى الصَّدْرِ، وَأَذَى الْقَلْبِ، وَحُمَى الرُّوحِ، وَجْهُهُ كَأَخْرِ الصِّكِّ، وَظَلَمُ الشُّكِّ، كَأَنَّ النُّحْسَ يَطْلُعُ مِنْ جَبِينِهِ، وَالْخُلَّ يَقْطُرُ مِنْ وَجْهِهِ. وَجْهُهُ طَلْعَةُ الْمَجَرِّ، وَلَفْظُهُ قَطْعُ الصَّخْرِ. وَجْهُهُ كَحُضُورِ الْغَرِيمِ، وَوُصُولِ الرَّقِيبِ، وَكِتَابِ الْعَزْلِ، وَفِرَاقِ الْحَبِيبِ. لَهُ مِنَ الدِّينَارِ نَضْرَتُهُ، وَمِنَ الْوَزْدِ صُفْرَتُهُ، وَمِنَ السَّحَابِ ظُلُمَتُهُ، وَمِنَ الْأَسَدِ نَكْهَتُهُ. وَهُوَ عَصَارَةٌ لَوْمْ فِي قَرَارَةٍ خَبْثٍ. أَلَامٌ مَهْجَةٌ فِي أَسْقَطِ جَثَّةٍ. حَدِيثُ النِّعْمَةِ، خَبِيثُ الطَّعْمَةِ، خَبِيثُ الْمَرْكَبِ، لَثِيمُ الْمُنْتَسَبِ، يَكَادُ مِنْ لَوْمِهِ يَعْدِي مِنْ جِلْسٍ إِلَى جَنْبِهِ، أَوْ تَسْمَى بِاسْمِهِ. قَدْ أَرْضَعَ بِلْبَانَ اللَّوْمِ، وَرُبِّي فِي حَجَرِ الشُّؤْمِ، وَطَمَ عَنْ ثَدْيِ الْخَيْرِ، وَنَشَأَ فِي عَرِصَةِ الْخَبْثِ، وَطَلَقَ الْكَرَمَ ثَلَاثًا لَمْ يَنْطِقْ فِيهِ اسْتِثْنَاءً، وَأَعْتَقَ الْمَجْدَ بَتَاتًا لَمْ يَسْتَوْجِبْ عَلَيْهِ وِلَاءً. هُوَ حِمَارٌ مَبْطُنٌ بِثُورٍ مَفْرُوزٍ بِتَيْسٍ، مَطْرُزٌ بِطَرٍّ، أَتَى مِنَ اللَّوْمِ بِنَادِرٍ، لَمْ تَهْتَدِ لَهُ قِصَّةُ مَادَرٍ. هُوَ قَصِيرُ الشَّيْرِ، صَغِيرُ الْقَدَرِ، ضَيْقُ الصَّدْرِ، رَدٌّ إِلَى قِيَمَةٍ مِثْلِهِ فِي خَبْثِ أَصْلِهِ، وَفَرْطِ جَهْلِهِ، لَا أَمْسَ لِيَوْمِهِ، وَلَا قَدِيمَ لِقَوْمِهِ، سَائِلُهُ مُحْرُومٌ، وَمَالُهُ مَكْتُومٌ، لَا يَحِينُ إِنْفَاقُهُ، وَلَا يَحِلُّ خِنَاقُهُ، خَيْرُهُ كَالْعَنْقَاءِ تَسْمَعُ بِهَا وَلَا تَرَى. خَبِزَهُ فِي حَالِقٍ، وَإِدَامَهُ فِي شَاهِقٍ، غَنَاهُ فَقْرٌ، وَمَطْبَخُهُ قَفْرٌ، يَمْلَأُ بَطْنَهُ وَالْجَارُ جَائِعٌ، وَيَحْفَظُ مَالَهُ وَالْعَرَضُ ضَائِعٌ، قَدْ أَطَاعَ سُلْطَانَ الْبُخْلِ، وَانْخَرَطَ كَيْفَ شَاءَ فِي سَلْكِهِ. هُوَ مِمَّنْ لَا يَبْضُ حَجْرَهُ، وَلَا يَثْمُرُ شَجْرَهُ، سَكَيْتَ الْحَلْبَةَ، وَسَاقَتِ الْكَنْيَةَ، وَآخِرُ الْجَرِيدَةِ. لَعْنَةُ الْعَائِبِ، وَعَرِضَةُ الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ. هُوَ عِيَّةُ الْعِيُوبِ، وَذُنُوبُ الذُّنُوبِ. وَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ الْمِيكَالِيُّ:

تَحْكِي زَوَالَ نِعْمَةٍ مَا شَكَرْتَ

وَطَلَعَةٍ بِقَبْحِهَا قَدْ شَهَرْتَ

أَقْبَحُ بِهَا صَحِيفَةً قَدْ نَشَرْتُ
يَلْعَنُهَا مَا قَدْ قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ
إِنْ سَارَ يَوْمًا فَالْجِبَالُ سَيَّرْتُ

كَأَنَّهَا عَنْ لَحْمِهَا قَدْ قَشَرْتُ
عَنَوَانُهَا إِذَا الْوَحُوشُ حُشِرَتْ
صَاحِبُهَا ذُو عَوْرَةٍ لَوْ سَتَرْتُ
أَوْ رَامَ أَكْلًا فَالْجَحِيمُ سُعِّرْتُ

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضي علي بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري القاضي ويذمه - وقد أطلت عنان الاختيار فيها لصحة مبانيتها، وارتباط ألفاظها بمعانيها:

الظُلَامَةُ - أطل الله بقاء القاضي - إذا أتت من مجلس القضاء، لم ترق إلا إلى سيد القضاة. وما كنت لأقصر سيادته على الحكام، دون سائر الأنام، لولا اتصالحهم بسببه، واتسامهم بلقبه، وهبهم مطلقين على قسمه، مغيرين على اسمه، ألهم في الصحة أدم كأديمه، أو قديم في الشرف كقديمه، أو حديث في الكرم كطريفه؟ فهنيئاً لهم الأسماء، وله المعاني، ولا زالت لهم الظواهر، وله الجواهر. ولا غزو أن يسموا قضاة، فما كل مائع ماء، ولا كل سقف سماء، ولا كل سيرة عدل العمرين، ولا كل قاض قاضي الحرمين، ويا لثارات القضاء! ما أرخص ما يبيع، وأسرع ما أضيع! والسنة الإنذار، قيل خلو الديار، وموت الخيار، ألا يغار لحلى الحسناء، على السواد، ومركب أولي السياسة، تحت الساسة، ومجلس الأنبياء، من تصدر الأغبياء، وحمى البزاة من صيد البغاث، ومرتع الذكور من تسلط الإناث؟ ويا للرجال، وأين الرجال! ولي القضاء من لا يملك من آلاته غير السبّال، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال، ولا يتوجه في أحكامه إلا إلى الاستحلال، ولا يرى التفرقة إلا في العيال ولا يحسن من الفقه غير جمع المال، ولا يتقن من الفرائض إلا قاة الاحتفال، وكثرة الافتعال، ولا يدرس من أبواب الجدال إلا قبيح الفعال، وزور المقال، ذاك أبو بكر القاضي، أضاعه الله كما أضاع أمانته، وخان خزانته، ولا حاطه من قاض في صولة جندي، وسبلة كردي... إلى أن قال: أيكفي أن يصبح المرء بين الزرق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يكمل شبابه، وتشيب أثرابه. ثم يلبس دنته، ليخلع دينته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطلق حباله، ويظهر شقاشقه، ليستر مخارقه، ويبيض لحيته، ليسود صحيفته، ويبيد رعه، ليخفي طمعه، ويغشى محرابه، ليملاً جرابه، ويكثر دعاؤه، ليحشو وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاؤه، ويعالج بالليل وجعائه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً؟ هذا إذا المجد كآلوه بقفزان وباعوه في سوق الخسران! هيهات حتى ينسى الشهوات، ويحجوب الفلوات، ويعتصد المحابر، ويحتضن الدفاتر، وينتج الخواطر، ويحالف الأسفار، ويعتاد القفار، ويصل الليلة باليوم، ويعتاض السهر من النوم، ويحمل على الروح، ويجني على العين، وينفق من العيش، ويخزن في القلب، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق، ولا

من التحقيق إلا إلى التعليق، وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائدُ التوفيق، فقد ضلَّ سواء الطريق، وهذا الحيرِيُّ رجل قد شغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلائها، وأعجله حصولُ الأمانة عن تحمل أدواتها: مجزوء كامل:

وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الْخَسَاسَةِ

وَالْكَلْبُ أَحْسَنُ حَالَةً

سَةِ قَبْلَ إِثْنِ الرِّيَاسَةِ

مِمَّنْ تَصَدَّى لِلرِّيَا

فولي المظالم وهو لا يعرف أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يدري مقدارها؛ والأمانة عند الفاسق خفيفة الحمل على العاتق، تُشَفِّقُ منها الجبال، ويحملها الجهال، وقعد مقعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين حديثه يُرَوِّى، وكتاب الله يُتْلَى، وبين البينة والدعوى، فقبحه الله تعالى من حاكم لا شاهد عنده أعدل من السَّلة والجام، يُدلى بهما إلى حكام، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحبُّ إليه من غمزات الخصوم، على الكيس المختوم، ولا كفيل أوقع بوفاقه من حبيئة الذيل، وحمال الليل، ولا وكيل أعز عليه من المنديل والطبق، في وقت الغسق والفلق، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفلس، ثم الويل للفقير إذا ظلم، فيما يغنيه موقف الحكم إلا بالقتل من الظلم، ولا يجيره مجلس القضاء بالنار من الرمضاء. وأقسم لو أن اليتيم وقف بين أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضي بين عقاريه وأقاريه؛ وما ظنُّ القاضي يقوم يحملون الأمانة على مُتُونهم، ويكألون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفأهم من مال الأيامى، وما رأيته في دار، عمارتها خرابٌ الدور، وعُطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت، وما قوله في رجل يُعَادِي الله في الفلُس، ويبيع الدين بالثمن البخس، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت، وباطن أصحاب السبت، فعله الظلمُ البَحْت، وأكله الحرام السُّحْت. وما قوله في سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام؛ وجراد لا يقع إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يُغَيِّرُ إلا على الضعاف، وليث لا يفتَرِسُ عباد الله إلا بين الركوع والسجود، وخارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود.

وذكر في هذه الرسالة فصلاً في ذكر العلم - وهو مستطرف البلاغة، مستعذب البراعة - قال: والعلم - أطل الله بقاء القاضي - شيء كما تعرفه، بعيد المرام، لا يُصَادُ بالسهام، ولا يُقَسَمُ بالأزلام؛ ولا يُرى في المنام ولا يُضْبَطُ باللجام، ولا يُورث عن الأعمام ولا يكتب للثام، وزرع لا يزكو حتى يصادف من الحزم ثرى طيباً، ومن التوفيق مطراً صيباً؛ ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً

نافعاً، والعلم عِلْقٌ لا يباع من زاد، وصَيِّدٌ لا يَأْلَفُ الأوغاد، وشيءٌ لا يُدْرِكُ إلا بتزع الروح، وعَوْنُ الملائكةِ والروح، وغَرَضٌ لا يصابُ إلا بافتراش المدر، وأتساد الحجر، وردّ الضجر، وركوب الخطر، وإدْمَانُ السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص إلا على من زكا زرعه، وخلا ذرعه، وكرم أصله وفرعه، ووَعَى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه، فكيف يناله من أنفق صباه على الفَحْشاء؛ وشبابه على الأحشاء، وشغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع، وقطع. سَلَوته بالغنى، وخلوته بالغناء، وأفرغ جدّه على الكيس، وهزله في الكأس؛ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائر لا يخدعه إلا قَنَصُ اللفظ، ولا يعلقه إلا شَرَكُ الحفظ ولا ينشب إلا في الصدر، وبَحْرٌ لا يخوضه الملاح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبلٌ لا يتسم إلا بخُطَا الفكر، وسما لا يصعد إلا بمِعْرَاجِ الفهم، ونَحْمٌ لا يلمس إلا بيدِ المجد.

ومن مفردات الأبيات

في المعاييب والمقابح

قول أبي تمام: الوافر:

لما أُمِّهْرُنْ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

مَسَاوٍ لَوْ قَسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي

آخر: البسيط:

مَنْ لُوِّمَ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا قَوْدًا

قَوْمٌ إِذَا جَرَّجَانٍ مِنْهُمْ أَمِنُوا

البحري: الطويل:

وَيَنْبُوُ الْخَبِيثُ الطَّبْحُ وَهُوَ صَقِيلٌ

نَبَا فِي يَدِي، وَابْنُ اللَّئِيمَةِ وَاجِدٌ

ابن الرومي في رجل يعرف بابن رمضان: الوافر:

وَأَنْتَ نَظِيرُ يَوْمِ الشَّكِّ فِيهِ

رَأَيْتَكَ تَدْعِي رَمْضَانَ دَعْوَى

وله في أعمى: الخفيف:

وَمَكَانُ الْحَيَاءِ مِنْهُ خَرَابٌ؟

كَيْفَ يَرْجُو الْحَيَاءُ مِنْهُ صَدِيقٌ

غيره: الطويل:

وَسُوءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِي الْكَلْبِ

هُوَ الْكَلْبُ، إِلَّا أَنْ فِيهِ مَلَالَةٌ

آخر: الطويل:

سَوَايَ فَإِنِّي فِي مَدِيحِكَ أَكْذِبُ

أَبَا ذُلْفٍ يَا أَكْذَبَ النَّاسِ كُلِّهِمْ

أبو الفضل الميكالي: الطويل:

يَدَ الدَّهْرِ إِلَّا حِينَ تَضْرِبُهُ جُلْدًا

هُوَ الشَّوْكَ لَا يُعْطِيكَ وَافِرَ مَنْةٍ

اللحن في الكلام

قال المأمون لبعض ولده وسمع منه لحنًا: ما على أحدكم أن يتعلم العربية، فيقيم بها أودّه، ويزين بها مشهده، ويفلّ حُجَجَ خَصْمِهِ، بمسّ كتاب حكمه، ويملك مجلس سُلْطَانِهِ، بظاهر بيانه؛ ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته، فلا يزال الدهر أسير كلمته.

وقال رجلٌ للحسن البصري: يا أبو سعيد، قال: كَسَبُ الدراهم شَغَلَكَ أن تقولَ يا أبا سعيد، ثم قال: تعلّموا العلم للأديان، والنحو للسان، والطمث للأبدان.

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه: والله إنه لفصيح إذا لفظ، نصيح إذا وعظ. وقيل له: يا أبا سعيد، ما نراك تلحن، قال: سَبَقْتُ اللحن. أخذه أبو العتاهية، وقيل له: إنك تخرج في شعرك عن العُرُوض، فقال: سبقت العروض.

وقال إسحاق بن خلف البهراني: الكامل:

والمراء تَعْظِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

النحو يَصْلَحُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ

فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مَقِيمُ الْأَلْسُنِ

فَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَا

وقال علي بن بسام: الطويل:

وعنوانه فانظر بماذا تُعْنَوْنَ

رَأَيْتُ لِسَانَ الْمَرءِ رَائِدَ عِلْمِهِ

يُخَبِّرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيُبَيِّنُ

وَلَا تَعْدُ إِصْلَاحَ اللِّسَانِ فَإِنَّهُ

سمعت من الأعراب. ما ليس يحسنُ

على أن للإعراب حدًّا، وربما

ولا في قبيح اللحن والقصد أزينُ

ولا خيرَ في اللفظ الكريه استماعُهُ

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو سعيد الرستمي: الطويل:

ويحرّم ما دون الرضا شاعرٌ مثلي؟

أفي الحق أن يُعطى ثلاثون شاعراً

وضُويقَ بسم الله في ألف الوصل

كما سامحوا عمراً بواو زيادةٍ

أبو الفتح البستي: الطويل:

كَأَنِّي نُونُ الْجَمْعِ حِينَ يُضَافُ

حُذِفَتْ وَغَيْرِي مَثَبَتْ فِي مَكَانِهِ

وقال: البسيط:

مُنَاطِرًا فَاجْتَبَيْتُ الشَّهَدَ مِنْ شَفَتِهِ

أَفْدِي الْغَزَالَ الَّذِي فِي النَّحْوِ كَلَّمَنِي

مَحَقَّقًا لِيرِينِي فَضَلَّ مَعْرِفَتَهُ

فَأَوْرَدَ الْحَجَجَ الْمَقْبُولَ شَاهِدُهَا

وَالرَّفْعَ مِنْ صِفَتِي وَالنَّصْبَ مِنْ صِفَتِهِ

ثُمَّ اتَّفَقْتُ عَلَى رَأْيِي رَضِيْتُ بِهِ

الحسن اللحام: الكامل:

وَمِنَ اللِّغَاتِ إِذَا تُعَدُّ الْمَهْمَلُ

أَنَا مِنْ وَجْهِ النَّحْوِ فَيَكُمُ أَفْعَلُ

التعلق بالغلام

وقال أحمد بن يوسف:

كتب غلامٌ من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان، إلى آخر منهم وكان قد علق به، وكان شديد الكلف به والمحبة له: ليس من قدرِي - أدام الله سعادتك - أن أقولَ مثلك جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لأني أراك فوق كل قيمة خطيرة وثن مُعْجَز، ولأن نفسي لا تُساوي نفسك، فتقبل في فديتك، وعلى كل حال؛ فجعلني الله فداء ساعة من أيامك، اعلم أيها السيد العليُّ المترلة، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف على حده النعت، لاجتهدنا أن يُضَعِفَ من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك، وتحنو له على الرقة به والتحفي أثناء جوانحك، ولكن الذي أمسيت وأصبحت ممتحنًا به فيه شَسَعَ على كل بيان، ونزح عن كل لسان؛ والحب أيها المالك لم يشبه قذَى ربية، ولم يختلط به قلب معاب، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحرمة نيته، والذي أتمناه، أيها المولى اللطيف، مجلس أف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وفت كبدي، فإن خف ذلك عليك ورأيت نشاطًا من نفسك إليه كنت كمن فك أسيراً وأبرأً عليلاً، ومن الخير سلك سبيلاً، يتوعر سلوكها على من كان قبله، ومن يكون بعده؛ ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبلٌ رأس، ولا فلك دائر، فرأيك أيها السيد المعتمد في الإسعاف، قبل أن يبدري الموت؛ فيحول بيني وبين ما نزعت إليه النفس مواصلاً براً إن شاء الله تعالى. فأجابه: تولى الله تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة، لا صافر تشتت، وضمنا وإياك في أوثق جبال الأنس، وأؤكد أسباب الألفة؛ وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك، وانطوى في ضميرك، من الشغف المقلق، والهوى المضرع، ولعمري لو كشفت لك عن معشار ما اشتمل عليه مضمير صدري لأيقنت أن الذي عندك إذا قستته إلى ما عندي كالملاشي البائد،

ولكنك بفضل الإنعام سَبَقْتَنَا إلى كَشَفِ ما في الضمير. وأما طاعتي لك، وذمامي إليك؟ فطاعةُ العبد المقتسَى، الطائع لما يَحْكُمُ له وعليه مولاه ومالكه، وأنا صائر إليك وَقْتَ كَذَا؛ فتأهب. لذلك بأحمد عافية، وأتم عُقْدَةً، وأسعد نجم جرى بالألفة، إن شاء الله تعالى.

وكتب بعض الكتاب: إني لأكره أن أفديك بنفسي استحياءً من التقصير في المعاوضة، ومن التخلف في الموازنة، وعلى الأحوال كلها، فقدّم الله رُوحِي عنك، وصانني عن رُؤْيَةِ المكروه فيك.

وقال المتنبي:

فَدَى لَكَ مِنْ يُقْصِرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَامِلُكَ إِذْنٌ إِلَّا فِدَاكَ
 وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ
 وَأَمَّا فِدَاكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلَكَةٍ مِلَاكَ

وقال عبيد الله بن شبيب: كتب إلي بعض إخواني من أهل البصرة كتاباً ملح فيه وأوجز، وهو: أطال الله بقاءك، كما أطال حباءك، وجعلني فداك إن كان في فداؤك: الوافر:

كَتَبْتُ وَلَوْ قَدَرْتُ هَوَى وَشَوْقاً إِلَيْكَ لَكُنْتُ سَطِراً فِي كِتَابِي

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابني المدبر، وقد أصابتهما محنة ثم أردفتها نعمة: لو قُبلت فيكما، ودانيتُ قدريكما، لقلت: جعلني الله فداكما، ولكني لا أجزي عنكما، فلا أُقبل بكما، وقد بلغتني المحنة التي لو مات إنسان غمّاً بها لكانت ثم اتصلت النعمة التي لو طار امرؤ برحابتها لكانت وكتب تحتها: الطويل:

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوَّغِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر في ترك مكاتبته بالتفدية: الله يعلم، وكفى به عليماً، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية فرأيت عيباً أن أفديك بنفس لا بدّ لها من فناء، ولا سبيل لها إلى بقاء، ومن أظهر لك شيئاً وأضرر لك خلافه فقد غشّ؛ والأمر إذا كانت الضرورة تُوجب أنه مَلَقٌ لا يحق، وإعطاء لا يتحصّل، لم يجب أن يخاطب به مثلك، وإن كان عند قوم نهاية من نهايات التعظيم، ودليلاً من دلالات الاجتهاد، وطريقاً من طرق التقرب.

قال الزبير بن أبي بكر: قال لي مسلمة بن عبد الله بن جندب الهذلي: خرجت أريدُ العقيق ومعِي زَيَّانُ السَّوَّاقِ؛ فلقينا نسوة فيهن امرأة لم أرَ أجملَ منها فأنشدت بيتين لزَيَّان: الطويل:

أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ هَذَا أَخُوكُمْ قَتِيلٌ، فَهَلْ فِيكُمْ لَهُ الْيَوْمَ ثَائِرٌ؟
 خذوا بدمي، إن متُّ، كلَّ خريدةٍ مَرِيضَةٍ جَفَنَ الْعَيْنَ وَالطَّرْفُ سَاحِرٌ

ثم قال: شأنك بما يا ابن الكرام فالطلاق له لازم إن لم يكن دم أبيك في نقابها.
فأقبلت عليّ وقالت: أنت ابن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن قتلنا لا يودى، وأسيرنا لا يفدى، فاغتنم
لنفسك، واحتسب أباك.

قال أبو عبيدة: قال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة: تعدون موتكم من الحب مزية، وإنما ذاك من
ضعف المنّة، وعجز الروية. فقال العذري: أما إنكم لو رأيتم المحاجر البلج، ترشق بالأعين الدعج، فوقها
الحواجب الزج، وتحتها المباسم الفلج، والشفاه السمر، تفتّر عن الثنايا الغر، كأنها برد الدر، لجعلتموها
اللات والعزى، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم.

وقال أعرابي: دخلت بغداد فرأيت فيها عيوناً دعجاً، وحواجب زجاً، يسحب الثياب، ويسلب الألباب.
وذكر أعرابي نساءً فقال: طعائن في سوافهن طول، غير قبيحات العطول، إذا مشين أسبلن الذيول، وإن
ركبن أثقلن الحمول.

ووصف آخر نساءً فقال: يتلثمن على السبائك، ويتشحن على النيازك، ويتزرن على العواتك، ويرتفقن
على الأرائك، ويتهادين على الدرانك، ابتسامهن وميض، عن ثغر كالإغريض، وهن إلى الصبا صور،
وعن الخنا خور.

الهوى

سئل بعض الحكماء عن الهوى، فقال: هو جليس ممتع، وأليف مؤنس، أحكامه جائزة، ملك الأبدان
وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والنفوس وآراءها، وأعطى زمام طاعتها، وقياد
مملكتها، توارى عن الأبصار مدخله، وغمض عن القلوب مسلكه.
وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت: لا متع الهوى بملكه، ولا ملّى بسلطانه، وقبض الله يده، وأوهن عضده؛
فإنه جائر لا ينصف في حكم، أعمى ما ينطق بعدل، ولا يقصر في ظلم، ولا يرعوي للوم، ولا ينقاد لحق،
ولا يبقى على عقل ولا فهم، لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها.
ووصف أعرابي الهوى فقال: هو داءٌ تدوى به النفوس الصالح، وتسيل منه الأرواح، وهو سقم مكتتم،
وجهر مضطرم؛ فالقلوب له منضجة، والعيون ساكنة.

قال أبو عبيد الله بن محمد بن عمران المرزباني: أخبرني المظفر بن يحيى، قال: أحبّ رجلٌ امرأةً دونه في
القدر، فعذله عمه، فقال: يا عمّ، لا تلم مجبراً على سقمه؛ فإن المقر على نفسه مستغنٍ عن منازعة
خصمه، وإنما يلام من اقتراف ما يقدر على تركه، وليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل
فيدبره؛ بل قدرته أغلب، وجانبه أعز من أن تنفذ فيه حيلة حازم، أو لطف محتال.

وقال بعضهم: رأيت امرأتين من أهل المدينة تعاتب إحداهما الأخرى على هوى لها، فقالت: إنه يقال في الحكمة الغابرة، والأمثال السائرة: لا تلومنَّ من أساء بك الظن إذا جعلت نفسك هدفاً للتهمة، ومن لم يكن عوناً على نفسه مع خصمه لم يكن معه شيء من عقدة الرأي، ومن أقدم على هوى وهو يعلم ما فيه من سوء المغبة سلط على نفسه لسان العذل، وضيع الحزم. فقالت المذولة: ليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيديره، وهو أغلب قدرة، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة الحازم، أو ما سمعت قول الشاعر: الخفيف:

ليس خطبُ الهوى بخطبٍ يسير
لا ينبئك عنه مثلُ خبيرٍ
ليس أمرُ الهوى يُدبّرُ بالرأى
ي ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ في الهوى خطراتٌ
محدثاتُ الأمورِ بعدَ الأمورِ؟

قال المرزباني: أخبرني الصولي أن هذه الأبيات لعلية بنت المهدي، ولها فيها وقيل لعبد الله بن المقفع: ما بالُ العاقل المميز الذهن، واللبيب الفطن، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضع الهلكة، ومصارع التلّف، وعلم ما يؤول إليه عُقباه، وترجع به أخراه على أولاه؟ فقال: زُخِرَفَ ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعي القلوب إلى ملامسّته، ومُلِّيَ بعاجل حلاوة يطّبي النفوسَ إلى ملابستّه، كظاهر زخرف الدنيا، وبهاء رونقها، ولذيد جنّ ثمرها، وقد سكرت أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر إلى قبيح عيوب أفعالها، فهم في بلائها منغمسون، وفي هلكة فتنها متورّطون، مع علمهم بسوء عواقب خطبها، وتجرع مرارة شرّها، وسرعة استرجاعها ما وهبت، وإخراجها ممّا ملكت، فليس ينجو منها إلا مَنْ حَذَرَهَا، ولا يهلك فيها إلا من أَمَنَهَا، وكذلك صورةُ الهوى؛ هما في الفتنة سواء.

العفة

وقال ابن دُرَيْد: قال بعضُ الحكماء: أغلق أبواب الشبهات بأفعال الزهادة، وافتح أبواب البر بمفاتيح العبادة فإنّ ذلك يُدْنِيكَ من السعادة، وتستوجب من الله الزيادة. وقال غيره: إنّ اللذة مشوبةٌ بالقبح؛ ففكّروا في انقطاع اللذة وبقاء ذكرِ القبح. قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة نفطويه: الكامل:

ليس الظريفُ بكامل في ظرفه
حتى يكونَ عن الحرام عفيفا
فإذا تعفّف عن محارم ربّه
فهناك يُدعى في الأنام ظريفا

وقال: البسيط:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعني
وكم خلوتُ بمن أهوى فيفنعني
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم
كذلك الحب لا إتيان معصية

وقال العباس بن الأحنف: البسيط:

أتأذنون لصب في زيارتكم
لا يبصر السوء إن طالَّت إقامته
فعندكم شهوات السمع والبصر
عفّ الضمير ولكن فاسق النظر

وقال بعض الطالبين: الطويل:

رموني وإياهم بشنّاءهم بها
بأمر تركناه وربّ محمد
أحقّ، أدال الله منهم وعجلاً
جميعاً فإما عفة أو تجملاً

وقال سعيد بن حميد: الخفيف:

زائر زارنا على غير وعد
غالب الخوف حين غالبه الشو
غضّ طرفي عنه نفى الله فاختر
ثم ولى والخوف قد هزّ عطفي
مُخْطَف الكَشْح مُنْقَل الأرداف
قُ وأخفى الهوى وليس بخافي
تُ على بذله بقاء التصافي
ه ولم يخل من لباس العفاف

وفي الحديث الشريف: "مَنْ أَحَبَّ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ".

والعفافُ مع البذل، كالأستطاعة مع الفعل، كما قال صريع الغواني: الطويل:

وما ذمي الأيام أن لست مادحاً
ألا رب يوم صادق العيش نلتُهُ
لعهد لياليها التي سلفت قبل
بها وندامي العفاة والبذل

وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني في المبرد، وكان يلزم حلّفته، وكان من الملاح وهو غلام: مجزوء

الكامل:

ماذا لقيت اليوم من
وقف الجمال بوجهه
مُتَمَجِّن خنث الكلام
فسمت له حدق الأنام
حركاته وسكونه
يُجَنَى بها ثمر الأثام

فإذا خلوتُ بمنثله
لم أغدُ أخلاقَ العفا
نَفْسِي فِذَاؤُكَ يَا أبا ال
فَارْحَمَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
وَأَنِلُهُ مَا دُونَ الحِرا
م فليس يرَغَبُ في الحرام
وعزمتُ فيه على اعتِرام
فِوِذاكَ أوكذُ للغِرام
عباس جَلَّ بك اعتِصام
نَزَرُ الكَرَى بادِي السقام
م فليس يرَغَبُ في الحرام

وكان أبو حاتم يتصدق كلَّ يوم بدرهم، ويختتم القرآن في كل أسبوع.

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُريج الشافعي، وأبو بكر بن داود العباسي، في مجلس علي بن عيسى بن الجراح الوزير، فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك: من كثرت لحظاته دامت حسراته أبصرُ منك بالكلام في الإيلاء، فقال أبو بكر: لئن قلت ذلك فإني أقول: الطويل:

أُنزَهَ في رَوْضِ المحاسنِ مُقْلَتِي
وَأَمْنَعُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ مُحَرَمًا
وَأَحْمِلُ مِنْ ثِقَلِ الهَوَى مَا لَوْ أَنَّهُ
يُصَبُّ عَلَى الصَّخْرِ الْأَصَمِّ تَهْدِمًا
وينطق طَرْفِي عن مترجم خَاطِرِي
فلولا اختلاسي رَدَّهُ لَتَكَلَّمَا
رَأَيْتُ الهَوَى دَعَايَ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
فَلَسْتُ أَرَى حَبًّا صَحِيحًا مَسْلَمًا

فقال أبو العباس: بم تفتخرُ عليّ. وأنا لو شئت لقلت: الكامل:

وَمُطَاعِمِ للشَّهْدِ مِنْ نَعَمَاتِهِ
قَدْ بَثُّ أَمْنَعُهُ لَذِيذَ سِنَاتِهِ
صَبًّا بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَكَلَامِهِ
وَأَكْرَرُ اللَّحْظَاتِ فِي وَجَنَاتِهِ
حتى إذا ما الصبحُ لاحَ عَمُودُهُ
وَلَّى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَائَتِهِ

فقال أبو بكر: أصلح الله الوزير، تحفظ عليه ما قال حتى يقيمَ شاهدين عدلين أنه ولي بخاتم ربه فقال أبو العباس: يلزمي في هذا ما يلزمك في قولك: أنزه في رَوْضِ المحاسنِ مُقْلَتِي... البيت. فضحك الوزير، وقال: لقد جَمَعْتُمَا ظَرْفًا وَلُطْفًا وَفَهْمًا وَعِلْمًا.

ألفاظ لأهل العصر

في محاسن النساء

هي روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض. هي من وجهها في صباح شامس، ومن شعرها في ليل دامس، كأنها فلقة قمر على برج فضة. بدر التم يضي تحت نقابها، وغصن البان يهتر تحت ثيابها، نعرها يجمع الضريب والضرب، كأنه نثر الدر، كما قال البحرني: البسيط:

إِذَا نَضَوْنَ شُفُوفَ الرِّيطِ آوَنَةً قَشَرْنَ عَن لَوْلُؤِ الْبَحْرَيْنِ أَصْدَافًا

قد أثبت صدرها ثمر الشباب، خرطت لها يد الشباب حقيين من عاج، كأنها البدر قرط بالثريا، ونيط بها عقد من الجوزاء، أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص منهل، لها عنق كإبريق اللجين، وسرة كمدن العاج، نطاقها مجذب، وإزارها مخصب، مطلع الشمس من وجهها، ونبت الدر من فيها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادئ الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها.

ولهم في محاسن الغلمان والمعذرين: زاد جماله، وأقمر هلاله. ترقق في وجهه ماء الحسن، شادن فاتر طرفه، ساحر لفظه. غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، ويأخذه الطرف، وترتاح إليه الروح. تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه، جرى ماء الشباب في عوده فتمايل كالغصن، واستوفى أقسام الحسن، ولبس دياحة الملاحه، كأن البدر قد ركب أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر، كاد البدر يحكيه، والشمس تشبهه وتضاهيه، صورة تجلو الأبصار، وتخلج الأقمار، شادن منتقب بالبدر، ومكتحل بالسحر. ما هو إلا نزهة الأبصار، ومخلج الأقمار، وبدعة الأمصار، غمزات طرفه تُخبر عن ظرفه، ومنطقه ينطق عن وصفه. تخال الشمس تبرقت غرته، والليل ناسب أصداعه وطرته. الحسن ما فوق أزراره، والطيب ما تحت إزاره، شادن يضحك عن الأقحوان، ويتنفس عن الريحان، كأن خده سكران من خمر طرفه، وبغداد مسروقة من حسنه وظرفه، أعجمت يد الجمال نون صدغه بخال، هذا محلول من قول ابن المعتز: الوافر:

غِلَالَةَ خَدِّهِ صَبِغْتَ بَوْرِدٍ وَنُونُ الصَّدُغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالٍ

له عيان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبي جیده، والغصن قده، والراح ريحه، والورد خده، الشكل من حرركاته، وجميع الحسن بعض صفاته. قد ملك أزيمة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بعنايته، فصاعه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، ونقبه بدائع آثاره، ورمقه بنواظر سعوته، وجعله بالجمال أحد حدوده. وقد صبغ الحياء غلالة وجهه، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده. تكاد الألفاظ تسفك من خده دم الخجل. له طرة كالعسق، على غرة كالفلق.

جاءنا في غلالة تنم على ما يستره، وتجفو مع رقتها عما يظهره. وجهه بماء الحسن مغسول، وطرف بمروء السحر مكحول. ثغر حمي حماية الثغور، وجعل ضرة لقلائد النحور. السحر في الحاظه، والشهد في ألفاظه. اختلس قامة العُصن، وتوشح بمطارف الحسن، وحكى الروض غب المزن. الأرض مشرقة بنور وجهه، وليل السرار في مثل شعره. الجنة محتنة من قربه، وماء الجمال يترقرق في خده، ومحاسن الربيع بين سحره ونجره، والقمر فضلة من حسنه. ما هو إلا خال في خد الظرف، وطراز على علم الحسن، ووردة في غصن الدهر، ونقش على خاتم الملك، وشمس في فلك اللطف. هو قمر في التصوير، شمس في التأثير. منظر يملأ العيون، ويملك النفوس، زرافين أصدغه معاليق القلوب، كأن صدغه قرط من المسك على عارض البدر. وجهه عرس، وصدغه مأتم، ووصله جنة، وهجره جهنم. أصدغه قد اتخذت شكل العقارب، وظلمت ظلم الأقارب. إن كان عقرب صدغه تلسع، فترياق ريقه ينفع. كأن شارب زئبر الحز الأخضر، وعذاره طراز المسك والعنبر الإذفر، على الورد الأحمر. إذا تكلم تكشف حجاب الزمرد والعقيق، عن سمط الدر الأنيق. قد هم أرقم الشعر على شارب، وكاد فم الحسن يقبله. كأن العذار ينقش فم وجهه، ويحرق فضة خده. طرز الجمال ديباج وجهه، وأبان عذاره العذر في حبه. لعب الربيع بخده، فأثبت البنفسج في ورده. لما احترقت فضة خده، احترق سواد القلب من حبه: المديد:

ومياه الحسن تسقيه؟

كيف لا يخضر شارب

ولهم في نقيض ذلك، في ذم خروج اللحية: قد انتقب بالدليجور، بعد النور؛ فدولة حسنه قد أعرضت أيامه، وانقرضت دولته وأحكامه. استحال خده دجا، وزمرد خده سبجا؛ وأخذت نار حسنه بعد الإيقاد، ولبس عارضه ثوب الحداد. ذبل ورد خده، وتشوكت زعفران خطه. فارقنا خشفاً، ووافانا جلفاً، وفارقنا هلالاً وغزلاً، وعاد وبلاً ونكلاً. ما لي أرى الآباط جائشة؛ والآناف معشبة، والعيون منورة، والأزرار مرعى، والأظفار حمى، واللحى لبودا، والأسنان خضراً وسوداً؟.

من إنشاء بديع الزمان

وكتب إلى بديع الزمان بعض من عزل عن ولاية حسنة يستمد وداده ويستميل فؤاده؛ فأجابه بما نسخته: وردت رقتك أطل الله بقاءك فأعزتها طرف التعزز ومددت إليها يد التقزز، وجمعت عليها ذريل التحرز، فلم تند على كبدي، ولم تحظ بناظري ويدي، ولقد خطبت من مودتي ما لم أجذك لها كفيًا، وطلبت من عشري ما لم أرك لها رضيًا؛ وقلت: هذا الذي رفع عنا أحفان طرفة، وشال بشعرات أنفه، وتاه بحسن قده، وزها بورد خده، ولم يسقنا من نوته، ولم نسر بضوئه، فالآن إذ نسخ الدهر آية حسنه،

وأقام مائل غُصْنَه، وفَلَلْ غَرْبَ عُجْبِه، وكَفَّ شَاوْ زهُوَه وانتصر لنا منه بشعرات قد كسفت هلاله،
وأكسفتْ بَالَه، ومسختْ جمالَه، وغيّرتْ حالَه، وكدّرتْ شرعته، ونكّرتْ طلّعتَه، جاء يستقي من جرفنا
جرفاً، ويغرف من طينتنا غَرْفاً، فمهلاً يا أبا الفضل مهلاً: مجزوء الكامل:

أَرِغِبْتَ فِينَا إِذْ عَلَا
كَ الشَّعْرُ فِي حَدِّ قَحْلٍ؟
وخرجتْ من حدِّ الطبّا
ءٍ وصيرتْ في حدِّ الإبلِ؟
أنشأتْ تطلبُ عِشْرَتِي
عُدُّ للعداوةِ يا خجلُ

أنسيت أيامك؛ إذ تكلمنا نَزْراً، وتنظرنا شَزْراً، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتر لكلامك،
ونحش لسلامك: الطويل:

فَمَنْ لَكَ بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتَ مَرَّةً
إِلَيْكَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَنْظُرُ؟
أيام كنت تمايل، والأعضاء تتزائل، وتتغانج، والأجسادُ تتفالج، وتتفلّت، والأكبأُ تتفتت، وتخطر
وترفل، والوَجْدُ بنا يعلو ويسفل، وتُدبِر وتُقبل، فتمنّى وتخيّل، وتصدّ، وتُعْرِض، فتضني وتمرض: الطويل:

وتبسم عن ألمي كأن منوراً
تخلّل حرّ الرمل دعص له نُدُ
فأقصر الآن فإنه سوقٌ كَسَدَ، ومتاعٌ فَسَدَ، ودولة أعرضت، وأيام انقضت: مجزوء المتقارب:

وعهد نفاق مَضَى
وخذ كأن لم يكنْ
وسوق كسادٍ نَزَلَ
وخطَّ كأن لم يزلْ

ويوم صار أَمْس، وحسرة بقيت في النفس، وثغر غاضَ ماؤُه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل
لا يعجب، وتئن لا يطرب، ووجه زال بماؤُه، ومُقلّة لا تجرح الحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها، فحتّام
تُدَلِّ، وإلَامَ نَحْتَمَلُ وَعَلَامَ. وآن أن تدعِن الآن، وقد بلغني ما أنت مُتَعَاطِيه من تمويه يجوز بعد العشاء في
العَسَق، وتشبيه يفتضح عند ذوي البصر والصدق؛ من إفتائك لتلك الشعرات جفاً وحَصّاً، وإنحائك عليه
نقصاً وقصّاً. وسيكفينا الدهرُ مؤونة الإنكار عليك، بما يزفّ من بنات الشعر وأمهاته إليك؛ فأما ما
استأذنت فيه رأيي من الاختلاف إلى مجلسي فما أقلّ إليك نشاطي؛ وأضيق عنك بساطي، وأشنع قلقي
منك، وأشدّ استغنائي عن حضورك، فإن حضرت فأنت داءٌ تُرْوِضُ عليه الحلم، ونتعلّم به الصبر،
ونتكلّف فيه الاحتمال، ونُعْضِي منه الجفنَ على قَدِي، ونَطْوِي منه الصدر على أذِي، ونجعل للقلوب
تأنيباً، وللعيون تأديباً. وما لك إلا أن تعتاض من الرغبة عَنَّا رغبةً فينا. ومن ذلك التدلل علينا تذلاًً لنا،
ومن ذلك التعالي تَبْصِيباً، ومن ذلك التغالي ترخّصاً، وما بال الدهر أعقبك من التزايد تنقصاً، ومن

التسحب على الإخوان تقمُّصاً، ولئن اعتصمت من الذهاب رجوعاً، لقد اعتضنا من التراع نزوعاً، فائاً
 برحلك وجانبك، ملقى حبلك على غاربك، لا أوتر قربك، ولا أئده سربك، والسلام.
 ومن إنشاء بديع الزمان في مقامات الإسكندري، ولعل ما فيها من الطول غير مملول. قال: حدثنا عيسى
 بن هشام قال: كان يبلغني من مقامات الإسكندري ما يُصغي له النفور، ويتفض له العصفور، ويُروى لي
 من شعره ما يمتزج بأجزاء الهواء رقة، ويعمض عن أوهام الكهنة دقة، وأنا أسأل الله بقاءه، حتى أرزق
 لقاءه، وأتعجب من قعود همته بحالته، مع حسن آله، وقد ضرب الدهر شؤونه أسداداً وهلم جراً. إلى أن
 اتفقت لي حاجة بجمص، فشحذت إليها الحرص، في صحبة أفراد كنجوم الليل، أحلاس لظهور الخيل،
 فأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته، ولم نزل نفري أسنمة التجاد بتلك الجياد، حتى صرن
 كالعصي، ورجعن كالقسي، وتآح لنا واد في سفح جبل، ذي آلاء وآثل، كالعدارى يسرحن الضفائر،
 وينشرن الغدائر، فقالت الهاجرة بنا إليها، فزلنا نُغور ونُغور، وربطنا الأفراس بالأمراس، وملنا مع الثعاس،
 فما راعنا إلا صهيل الخيول، ونظرت إلى فرسي وقد أرهف أذنيه، وطمح بعينيه، يجذ قوى الحبل
 بمشافره، ويخذ خد الأرض بحوافره، ثم اضطربت الخيل، فأرسلت الأبال، وقطعت الحبال، وصار كل منا
 إلى سلاحه، فإذا الأسد في فروة الموت، قد طلع من غابه، منتفخاً في إهابه، كاشراً عن أنيابه، بطرف قد
 ملئ صلفاً، وأنف قد حشي أنفاً، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب، فقلنا: خطب والله ملم،
 وحادث مهم، وتبادرنا إليه من سرعان الرفقة فتى: الرمل:

أخضر الجلدة من بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، فملكته سورة الأسد، فخانتته أرض قدمه، حتى سقط ليداه وفمه،
 وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، إلى مثل. ما دعاه، فسار إليه، وعقل الرعب
 يديه، فأخذ أرضه وافترس الليث صدره، ولكن شغلت بعمامتي فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجاً
 بطنه حتى هلك من خوفه، والأسد بالوجأة في جوفه، وهضنا على أثر الخيل، فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا
 ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه: الطويل:

فلما حنونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة، فهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفد الزاد، أو كاد يدركه النفاد، ولم
 نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظماً والجوع، عن لنا فارس فصمداً صمده، وقصدنا قصده،
 ولما بلغنا نزل عن حاذ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقي التراب بيديه، وعمدني من بين الجماعة، فقبل

ركابي، وتحزَم بئياي، ونظرتُ فإذا وجه يبرق برق العارض المتهلّل، وفرس متى ما ترقّ العينُ فيه تسهل،
وعارضٌ قد اخضرّ، وشاربٌ قد طرّا، وساعدٌ ملآن، وقضيب ريان، ونجار تركيٍّ، وزبي ملكي، فقلت:
ما جاء بك؟ لا أبالك! فقال: أنا عبد بعض الملوك، همّ من قتلي بهم، فهمت على وجهي إلى حيث تراني،
وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالي مالك، فقلت: بشرى لك وبك،
أذاك سيرك إلى فناء رَحْب، وعيش رَطْب، وهنأتني الجماعة، بحسب الاستطاعة، وجعل ينظرُ فتقتلنا
الحاظه، وينطقُ فتقتلنا ألفاظه، والنفس تناجيني فيه بالمحذور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: يا سادة،
إنّ في سفح هذا الجبل عيناً، وقد ركبتم فلاة عوراء، فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة، إلى حيث
أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادبُ العيدان، فقال: ألا تقيلون في هذا الظل
الرحب، على هذا الماء العذب؟ فقلنا: أنت وذاك، فتزل عن فرسه، ونحى منطقته، وحلّ قُرطقته، فما
استتر عناً إلا بغلالة تنم، على بدنه، فما شككنا أنّه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان،
وعمد إلى السروج فحطّهما، وإلى الأفراس فحشّهما، وإلى الأمكنة ففرشها، وقد حارت البصائر فيه،
ووقعت الأبصارُ عليه، ووتد كلّ منا شبقاً، وخنث اللفظ ملقاً. وقلت: يا فتى، ما ألطفك في الخدمة!
وأحسنك في الجملة! فالويل لمن فارقتَه، وطوبى لمن رافقتَه، فكيف نشكر الله على النعمة بك؟! فقال: ما
سترونّه أكثر، أتعجبكم خفّي في الخدمة، فكيف لو رأيتموني في الرُققة؟ أريكم من حدّقي طُرفاً، لتزدادوا
بي شغفاً؟ فقلنا: هات، فعمد إلى قَوْسٍ أحدنا فأوترّه؛ وفوق سَهْمًا فرماه في السماء، وأتبعه بأخر فشقه في
الهواء، وقال: سأريكم نوعاً آخر، ثم عمد إلى كناتي فأخذها، وإلى فرسي فعلاه، ورمى أحدنا بسهم
أثبتته في صدره، وآخر طيّره من ظهره، فقلت: ويحك! ما تصنع؟ قال: اسكت يا لكع، والله ليشدنّ كل
منكم يدَ رفيقه، أو لأغصنّه بريقه، فلم ندّر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسرّوجنا محبوبة، وأسلحتنا
بعيدة، وهو راكبٌ ونحن رجالة، والقوسُ في يده يرشقُ بها الظهور، ويمشّقُ بها البطونَ والصدورَ، وحين
رأينا منه الجدّ، أخذنا القدّ، فشدّد بعضنا بعضاً، وبقيت وحدي لا أجد من يشدّني، فقال: اخرج بإهابك،
عن ثيابك، ثم نزل عن فرسه، وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر، ويقول: أقمت قضيبك، فخذ نصيبك،
ونزع ثيابه، وصار إليّ وعليّ خفّان جديدان فقال: اخلعهما لا أمّ لك، فقلت: هذا خفّ لبستّه رطباً،
فليس يمكنني خلعه فقال: عليّ نزعته، ثم دنا ليرتّع الخفّ، ومددتُ يدي إلى سكّين فيه وهو مشغول، فأثبتته
في بطنه، وأثبتته من متّنه. فما زاد على فَمِ فَعَرَه، وألقمه حجره، وقُمتُ إلى أصحابي فحللتُ أيديهم،
وتوزّعنا سلب المقتولين، وأدركنا الرفيق، وقد جاد بنفسه، وصار إلى رَمْسِه، وصبرنا إلى الطريق فوردنا
حمص بعد ليال، فلما انتهينا إلى فُرْضةٍ من سُوقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وُبيّة، بحراب
وعُصيّة، وهو يقول: مجزوء الخفيف:

رَحِمَ اللهُ مَنْ حَشَا

فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ

رَحِمَ اللهُ مَنْ رَتَى

لِسَعِيدٍ وَفَاطِمَةَ

إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ

وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَةٌ

قال عيسى بن هشام: فقلت: إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعتُ به وسألتُ عنه فإذا هو هو، فدلّفتُ إليه، فقلت له: أحكمك حكمك، فقال: درهم، فقلت: مجزوء الكامل:

لَكَ دِرْهَمٌ فِي مِثْلِهِ

مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّفْسُ

فَاحْسِبْ حِسَابَكَ وَالتَّمَسْ

كَيْمَا تَتَالَ الْمَلْتَمَسُ

لك درهم في اثنين، وفي ثلاثة، وفي أربعة، في خمسة حتى بلغت العشرين، ثم قلت: كم معك؟ قال: عشرون رغيفاً، فأمرتُ له بها، وقلت: لا نصرة مع الخذلان، ولا حيلة مع الحرمان. وقال أبو فراس الحمداني: البسيط:

سَكِرْتُ مَنْ لَحَظِهِ لَا مِنْ مُدَامَتِهِ

وَمَالَ بِالنُّومِ عَنْ عَيْنِي تَمَائِلُهُ

وَمَا السُّلَافُ دَهَنَتْنِي بَلْ سَوَالِفُهُ

وَلَا الشَّمُولُ دَهَنَتْنِي بَلْ شَمَائِلُهُ

أَلْوَى بِصَبْرِي أَصْدَاغُ لُؤَيْنَ لَهُ

وَعَالَ عَقْلِي بِمَا تَحْوِي غَلَائِلُهُ

وقال ابن المعتز، وقد تقدّم عنه في هذه الألفاظ: الوافر:

وَيَوْمَ فَاخْتَنَى الدَّجَنَ مُرَخٍ

عَزَالِيَهُ بِهِطَلٍ وَانْهَمَالٍ

أَبَحْتُ سُرُورَهُ وَظَلَلْتُ فِيهِ

بِرَغَمِ الْعَاذِلَاتِ رَخِيَّ بَالٍ

وَسَاقٍ يَجْعَلُ الْمَنْدِيلَ مِنْهُ

مَكَانَ حِمَائِلِ السَّيْفِ الطَّوَالِ

غَلَالَةُ خَدِّهِ صَبِغَتْ بَوْرَدٍ

وَنُونِ الصَّدُغِ مُعْجَمَةُ بَخَالٍ

بَدَا وَالصَّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادٍ

كَطَرَفٍ أَبْلَقَ مَرْخِي الْجَلَالِ

بِكَأْسٍ مِنْ زَجَاجٍ فِيهِ أَسْدٌ

فَرَأَيْتُ أَلْبَابُ الرِّجَالِ

أَقُولُ وَقَدْ أَخَذْتُ الْكَاسَ مِنْهُ

وَقَتْنَاكَ السُّوءَ رَبَّاتُ الْحِجَالِ

وقد أحسن ما شاء في قوله:

فَرَأَيْتُ أَلْبَابُ الرِّجَالِ

وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكاس.

قال الصولي: مرّ أبو نواس بالمداخن فعدل إلى سباط، فقال بعض أصحابه: ندخل إيوان كسرى، فرأينا

آثَاراً فِي مَكَانٍ حَسَنٍ تَدُلُّ عَلَى اجْتِمَاعِ كَانَ لِقَوْمٍ قَبْلَنَا، فَأَقَمْنَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ نَشْرَبُ هُنَاكَ، وَسَأَلْنَا أَبَا نَوَاسٍ صِفَةَ الْحَالِ، فَقَالَ: الطَّوِيلُ:

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الرِّقَاقِ عَلَى الثَّرَى
وَلَمْ أَرَ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَمَعْتُ شَمْلَهُمْ
أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا ثَالِثًا
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا
فَللِرَّاحِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جَبُوبُهَا

بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسُ
بَشْرَقِي سَابَاطُ الدِّيَارِ الْبَسَابِسِ
وَإِنِّي عَلَى، أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ
وَيَوْمٌ لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ
حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ
وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْعَبَّاسِ النَّوَبَخْتِيُّ: قَالَ لِي الْبَحْثَرِيُّ: أَتَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَخَذَ الْحَسَنُ قَوْلَهُ:

وَلَمْ أَرَ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ؟

... الْبَيْتَ. فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: مِنْ قَوْلِ أَبِي خِرَاشٍ: الطَّوِيلُ:

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ
سَوَى أَنَّهُ قَدْ سَلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضٍ

فَقُلْتُ: الْمَعْنَى مُخْتَلَفٌ، فَقَالَ: أَمَا تَرَى حَذْوَ الْكَلَامِ وَاحِدًا، وَإِنْ اخْتَلَفَ الْمَعْنَى؟! قَالَ الْجَاهِظُ: نَظَرْنَا فِي الشَّعْرِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ فَوَجَدْنَا الْمَعْنَى تُقْلَبُ وَيُؤْخَذُ بِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، غَيْرَ قَوْلِ عَنَتَرَةَ فِي الْأَوَائِلِ: الْكَامِلُ:

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا يُغْنِي وَحْدَهُ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ
غَرَدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ الْمَتْرَنِمِ
قَدَحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

وَقَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ فِي الْمَحْدَثِينَ: الطَّوِيلُ:

قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا
مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

فَللِزَّاحِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جَبُوبُهَا
وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

أَخَذَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّاشِئُ فَقَالَ وَوَلَدَ مَعْنَى زَائِدًا: الْكَامِلُ:

وَمُدَامَةً لَا يَبْتَغِي مِنْ رَبِّهِ
فِي كَأْسِهَا صَوْرَ تَنْظُنٍّ لِحُسْنِهَا
أَحَدُ حَبَاهُ بِهَا لَدَيْهِ مَزِيدًا
عُرْبًا بَرَزْنَ مِنَ الْخِيَامِ وَغِيدًا

وإذا المزاج أثارها فتقسمت

ذهباً ودُرّاً تَوَأمًا وفريدا

فكأنهن لبسنَ ذاك مَجَاسِدا

وجَعَلَنَ ذا لِنَحُورِهِنَّ عُقُودا

وأبياتُ أبي خراش، وكان خراش وعروة غَزَوْا ثَمالة فَأَسْرَوْهُمَا، وأخذوهما وهَمَّوا بقتلهما، فنهاهم بنو رزام، وأبى بنو هلال إلا قَتَلَهُمَا، وأقبل رجل من بني رزام فَأَلْقَى على خراش رداءه، وشَغِلَ القومُ بِقَتْلِ عُرْوَة، وقال الرجل لخراش: انجُ، فنجا إلى أبيه، فأخبره الخبر، ولا تعرفُ العربُ رجلاً مدح مَنْ لا يعرفه غيره: الطويل:

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةِ إِذْ نَجَا

خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

فَوَاللَّهِ لَا أُنْسَى قَتِيلًا رُزْنَتُهُ

بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ

بَلَى إِنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومَ، وَإِنَّمَا

نُوكِلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ

سَوَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضٍ

وَلَمْ يَكْ مِثْلُوجَ الْفُؤَادِ مَهَبَّجًا

أَضَاعَ الشَّبَابَ فِي الرَّبِيلَةِ وَالْخَفْضِ

وَلَكِنَّهُ قَدْ لَوَّحَتْهُ مَخَامِصُ

عَلَى أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقِ النَّهْضِ

كَأَنَّهُمْ يَشْبَثُونَ بِطَائِرِ

خَفِيفِ الْمُنَاسِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي نَحْضٍ

يُبَادِرُ قَوْتَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِدُ

يَحْتُ الْجَنَاحَ بِالتَّبَسُّطِ وَالْقَبْضِ

الربيلة: الخفض والدعة، والمعابد: المجتهد في العدو والطيران.

وقال أبو خراش يرثي أخاه عروة: الطويل:

تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ غَزْوَةٍ لَاهِيَا

وَذَلِكَ رُزءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ

وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أَمِيمَ جَمِيلُ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلَنَا

خَلِيلًا صَفَاءَ مَالِكٍ وَعَقِيلُ

وَأَنِّي إِذَا مَا الصَّبْحُ أُنْسِيْتُ ضَوْءَهُ

يَعَاوِدُنِي قِطْعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

أَبَى الصَّبْرَ أَنِّي لَا أَزَالُ يَهِيْجُنِي

مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ

مالك وعقيل اللذان ذكرهما، نَدِمَا جَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ، وكانا أتياه بابينِ أخته عمرو، وكان قد استهوته الجن، فمَنَاهُمَا فَتَمَنِّيَا مُنَادِمَتَهُ، وهما اللذان عني متمم ابن نُويَرةَ في مرثية أخيه مالك: الطويل:

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حَقْبَةٍ

مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا

لَطَوَّلِ اجْتِمَاعُ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

وقول عنتره في وَصَفِ الذبابِ أَوْحَدَ فرد، ويتيم فَذٌّ، وقد تعلق ابن الرومي بذيله وزاد معنى آخر في قوله:
الطويل:

إذا رنقتُ شمسُ الأصيلِ ونَفَضْتُ	على الأفقِ الغربيِّ ورَساً مُزَعَرَا
ولاحظتِ النُّوَارَ وهي مريضةٌ	قد وضعتُ خَدًّا على الأرضِ أضرعا
كما لاحظتِ عَوَّادَهَا عَيْنُ مُدْنَفٍ	توجَّعَ من أوصابه ما توجعا
وبين إغضاءِ الفِرَاقِ عليهما	كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربتُ في خُضْرَةِ الرُّوضِ صُفْرَةً من الشمسِ فاخضرَّ اخضراراً مشعشعا	
وظلَّتْ عيونُ النورِ تخضلُ بالندى	كما اغرورقتُ عَيْنُ الشَّجِيِّ لَتَدْمَعَا
وأذكى نسيمِ الرُّوضِ ريعانُ ظلِّه	وغنَّى مُغْنِي الطيرِ فيه مُرَجَعَا
وغرَّدَ ربعي الذبابِ خلاله	كما حنَّحتَ النشوانَ صنجا مشرعا
فكانت أرائين الذبابِ هناكُم	على شدواتِ الطيرِ ضرباً موقعا

وذكر أبو نواس معنى قوله في تصاوير الكؤوس في مواضع من شعره فمن ذلك: الطويل:

بَنَيْنَا على كِسْرَى سماءَ مُدَامَةٍ	مكَلَّلَةً حافاتها بنجوم
فلَوْ رُدَّ في كِسْرَى بن ساسانَ رُوحُهُ	إذا لاصطفاني دونَ كلِّ نديم

وأول هذا الشعر: الطويل:

لِمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نسيمٍ	على طولِ ما أَقْوَتِ وَحُسْنَ رُسُومِ
تجافى البلى عنهنَّ حتى كأنما	لبِسْنَ على الإقواءِ ثوبَ نعيمِ

وهذا معنى مليح وإن أخذه من قول أعرابي: المنسرح:

شَطَّطَ بهم عَنكَ نِيَّةً قُذْفٌ	غادرتِ الشَّعْبَ غيرَ مُلْتَمِ
واستودعتِ سِرَّهَا الديارَ فما	تزدادُ طيباً إلا على القَدَمِ

وهذا ضدُّ قول محمد بن وهيب: الكامل:

طَلَّلانِ طالَ عليهما الأمدُ	دَرَسَا فلا عَلمٌ ولا قَصْدُ
لَيْسَا البلى فكأنما وَجَدَا	بعدَ الأحبَّةِ مثلَ ما وَجَدُوا

وقال الأخطل: الطويل:

قَدِيمٌ وَلَمَّا يَعْفُهُ سَالِفُ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِنْ لَيَالٍ لِلدِّيارِ وَمِنْ شَهْرٍ

لَأَسْمَاءَ مُحَنَلٍّ بِنَاضِرَةِ الْبَشْرِ
يَكَاذُ مِنَ الْعِرْفَانِ يَضْحَكُ رَسْمُهُ
هَذَا أَيْضاً كَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيِّ: الطَّوِيلُ:

وَأُخْرَى بِذَاتِ الْبَيْنِ آيَاتُهَا سَطْرُ
وَقَدْ مَرَّ لِلدَّارِينَ مِنْ بَعْدِنَا عَصْرُ

لِللَّيْلِ بِذَاتِ الْجَيْشِ دَارُ عَرَفَتُهَا
كَأَنَّهُمَا مِ الْآنَ لَمْ يَتَغَيَّرَا
وَقَدْ قَالَ مُزَاحِمُ الْقَيْلِيِّ: الطَّوِيلُ:

وَعَهْدُ الْمَغَانِي بِالْحُلُولِ قَدِيمُ
وَقَرَأَ الزَّبِيرُ بْنُ بَكَارٍ أَخْبَارَ أَبِي السَّائِبِ! الْمَخْزُومِي، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِ مَالِكِ بْنِ أَسْمَاءَ الْفَزَارِيِّ: الْكَامِلُ:

بَكَتِ الدِّيارُ لَفَقْدِ سَاكِنِهَا
أَفَعِنْدَ قَلْبِي أَتَبْتَغِي الضَّبْرَا؟
هَذَا الْبَيْتُ نَظِيرُ قَوْلِ ابْنِ وَهَيْبٍ: الْكَامِلُ:

ذَكَرُوا الْفِرَاقَ فَأَصْبَحُوا سَفْرَا
مَنْ لَا يَرَى أَمْرِي لَهُ أَمْرًا

بَيْنَا هُمْ سَكَنَ بَحِيرَتِهِمْ
فَظَلَلْتُ ذَا وَلَهْ يِعَاتِبُنِي

وَإِنْ أَبَا السَّائِبِ قَالَ عِنْدَ سَمَاعِ الْبَيْتِ الْأَوْسَطِ: مَا أَسْرَعَ هَذَا! أَمَا أَقْدَمُوا رُكَابًا؟ أَمَا وَدَّعُوا صَدِيقًا؟ فَقَالَ
الزَّبِيرُ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا السَّائِبِ فَكَيْفَ لَوْ سَمِعَ قَوْلَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ: الْخَفِيفُ:

سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ
فَقَرَّنا وَدَاعَنَا بِالسُّؤَالِ

مَا أَنْخُنَا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا فَرَّقَنَ بَيْنَ النَّزُولِ وَالْإِرْتِجَالِ؟

هَكَذَا رَوَاهُ الزَّبِيرُ بْنُ بَكَارٍ لِمَالِكِ بْنِ أَسْمَاءَ، وَرَوَاهَا غَيْرُهُ لِأَيُّوبَ بْنِ شَيْبٍ الْبَاهِلِيِّ.

ومن ألفاظ أهل العصر

في صفة الديار الخالية

دَارٌ لَبِسَتْ الْبِلَى، وَتَعَطَّلَتْ مِنَ الْحُلَى. دَارٌ قَدْ صَارَتْ مِنْ أَهْلِهَا خَالِيَةً، بَعْدَ مَا كَانَتْ بِهِمْ خَالِيَةً. دَارٌ قَدْ
أَنْفَدَ الْبَيْنَ سَكَّانَهَا، وَأَقْعَدَ حَيْطَانَهَا، شَاهِدَ الْيَأْسِ مِنْهَا يَنْطِقُ، وَحَبْلُ الرِّجَاءِ فِيهَا يَقْصُرُ كَأَنَّ غَفْرَانَهَا يُطَوِّى
وَحَرَابُهَا يُنْشَرُ، أَرْكَائُهَا قِيَامٌ وَقُعُودٌ، وَحَيْطَانُهَا رَكْعٌ وَهُجُودٌ.

يَشْبَهُ الْأَوَّلُ مِنْ قَوْلِ مَالِكِ بْنِ أَسْمَاءَ قَوْلِ مُزَاحِمِ الْعَقِيلِيِّ: الطَّوِيلُ:

بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ فَقْدِهِمْ فَتَهَلَّلَتْ
دُمُوعِي، فَأَيَّ الْجَازِ عَيْنِ الْوَمُ؟

أَمْسَتَعْبِرُ بِيَبْكِي عَلَى الْهَوْنِ وَالْبَلَى
أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي: الْكَامِلُ:

أَمْ آخِرُ يَبْكِي شَجْوَهُ فِيهِمْ

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ
يَعْلَمَنَّ ذَاكَ، وَمَا عَلِمْتُ، وَإِنَّمَا

أَقْفَرْتُ أَنْتِ وَهْنٌ مِنْكَ أَوْ أَهْلُ
أَوْ لَا كَمَا يَبْكِي عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ: الرَّمْلُ:

زَائِرُ نَمٍّ عَلَيْهِ حَسَنُهُ

كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْرًا طَلَعَا

بَأَبِي مَنْ زَارَنِي مَكْتَتَمًا

خَائِفًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَزَعَا

رَصَدَ الْغَفْلَةَ حَتَّى أَمْكَنْتَ

وَرَعَى الْحَارِسَ حَتَّى هَجَعَا

رَكِبَ الْأَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ

ثُمَّ مَا سَلِمَ حَتَّى وَدَّعَا

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ: الرَّمْلُ:

بَأَبِي زَوْرٌ تَلَفْتُ لَهُ

فَتَنَفَّسْتُ عَلَيْهِ الصُّعْدَا

بَيْنَمَا أَضْحَكُ مَسْرُورًا بِهِ

إِذَا تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَمْدَا

أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي: الْخَفِيفُ:

بَأَبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فَاغْتَرَقْنَا

وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعَا

فَاغْتَرَقْنَا حَوْلًا، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا

كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ الْوَدَاعَا

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ جَحْظَةُ: قَالَ لِي خَالِدُ الْكَاتِبِ: دَخَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الدِّيَارَاتِ فَإِذَا أَنَا بِشَابٍّ مَوْثِقٍ فِي

صِفَادِ حَسَنِ الْوَجْهِ؛ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ، وَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، فَقَالَ: صَاحِبُ

الْمَقْطَعَاتِ الرَّقِيقَةِ. قُلْتُ: نَعَمْ! فَقَالَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَفَرِّجَ عَنِّي بَعْضَ مَا تَشْدِيهِ مِنْ شَعْرِكَ فَافْعَلْ، فَأَنْشَدْتُهُ:

الْمُقَارَبُ:

تَرَشَّفْتُ مِنْ شَفَتَيْهَا عَقَارًا

وَقَبَّلْتُ مِنْ خَدَّهَا جُلْنَارَا

وَعَانَقْتُ مِنْهَا كَثِيرًا مَهِيلًا

وَعُصْنَا رَطِيبًا وَبَدْرًا أَنْارَا

وَأَبْصَرْتُ مِنْ نُورِهَا فِي الظَّلَامِ

لِكُلِّ مَكَانٍ بَلِيلٍ نَهَارَا

فَقَالَ: أَحْسَنْتَ لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكَ، ثُمَّ قَالَ: أَجِزْ لِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ: الْخَفِيفُ:

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا

شِقْ طَوْلًا قَطَعَتْهُ بَانْتِحَابِ

وَحَدِيثٍ أَلَدَّ مِنْ نَظَرِ الْوَا

مَقْ بَدَّلَتْهُ بِسُوءِ الْعِتَابِ

فوالله لقد أعملت فكري فما قدرت أن أجزيهما. ويمكن أن يجازا بهذا البيت: الخفيف:

ووصال أقل من لمحة البأ
رق عؤضت عنه طول اجتتاب

أوصاف في طول الليل والسهر

وقال ابن الرومي في طول الليل: الخفيف:

رُبَّ ليل كأنه الدهرُ طولاً
قد تناهى فليسر فيه مزيْدُ
في نجوم كأنهنَّ نجوم الشَّيبِ ليست تغيْبُ لكن تزيْدُ
وهذا من أجود ما جاء في هذا المعنى، وقد قال بشار: الطويل:

لخديك من كفيك في كل ليلة
إلى أن ترى وجَّه الصبح وسادُ
تبيت تراعي الليلَ ترجو نفاذه
وليس لليل العاشقين نفاذُ
وقال: الطويل:

خليلي ما بال الدجى لا تَرَحَّزُ
وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّحُ؟
أضلَّ النهارُ المستتيرُ سبيله
أم الدهرُ ليل كلَّه ليس يبرِّحُ؟
كأن الدجى زادت وما زادت الدجى
ولكن أطال الليل هم مبرِّحُ
وقال أيضاً: الرمل:

طال هذا الليل، بل طال السهرُ
ولقد أعرف ليلى بالقصرِ
لم يطل حتى جفاني شادِنُ
ناعم الأطراف فتانُ النظرِ
لي في ليلى منه لوعة
ملكَّت قلبي وسمعي والبصرِ
فكأن الهمَّ شخصٌ مائلُ
كلما أبصره النومُ نفرُ
وقال أيضاً: الوافر:

كأن فؤاده كُرَّةٌ تتزَّرى
حذارَ البين إن نفع الحذارُ
يُروِّعه السرارُ بكل شيءٍ
مخافة أن يكون به السرارُ
كأن جفونه سُمِلت بشوكٍ
فليس لنومه فيها قرارُ
أقول وليلتي تزدادُ طولاً:
أما لليل بعدهم نهارُ
جفت عيني عن التغميض حتى
كأن جفونها فيها قصارُ

قيل لبشار: من أين سرقت قولك:

يروّعه السرارُ بكلّ شيء؟

فقال: من قول أشعب الطمع، وقد قيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما رأيتُ اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يُريدان أن يأمرآ لي بشيء. وأخذهُ أبو نواس فقال: الخفيف:

رَاحَةُ الْمُسْتَهَامِ فِي الْإِعْلَانِ

رَاقَ جَهْدِي فَنَمَتِ الْعَيْنَانِ

نَ وَأُحْدُوثةً بِكُلِّ مَكَانِ

قُلْتُ مَا يَخْلُوانِ إِلَّا لِشَانِي

لَا تَبِيحَنَّ حُرْمَهُ الْكُتْمَانِ

قَدْ تَسْتَرْتُ بِالسَّكُوتِ وَبِالْإِطْ

تَرَكَتْنِي الْوُشَاةُ نُصَبَ الْمَشِيرِي

مَا نَرَى خَالِيَيْنِ فِي النَّاسِ إِلَّا

ومثل قول بشار:

جَفْتُ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ .

... البيت، وقول الآخر: المتقارب:

قَصِيرُ الْجَفُونِ وَلَمْ تَقْصُرْ

كَأَنَّ الْمَحَبَّ بَطُولُ السُّهَادِ

وقد تناول هذا المعنى العتابي فأفسده وقال: البسيط:

وَفِي الْجَفُونِ عَنِ الْأَمَاقِ تَقْصِيرُ

وَفِي الْمَآقِي انْقِبَاضٌ عَنِ جَفُونِهَا

وقال المتنبي: الطويل:

وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَ لَحْظُ الْحَبَائِبِ

عَلَى مُقَلَّةٍ مِنْ فَقْدِكُمْ فِي غِيَاہِ

عَقَدْتُمْ أَعَالِي كُلِّ هُدْبٍ بِحَاجِبِ

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَ عِنْدَ الْكَوَاكِبِ

كَأَنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مُدْلَهَمَةٌ

بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْجَفُونِ كَأَنَّمَا

وقال الشعبي: تشاجر الوليدُ بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابعة في طول الليل، أيهما أشعر. فقال الوليد: النابغة أشعر، وقال مسلمة: بل امرؤ القيس، فرضيا بالشعبي، فأحضره، فأنشده الوليد: الطويل:

وَلَيْلُ أَقَاسِيهِ بَطِيءُ الْكَوَاكِبِ

وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَيِّبِ

تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

كَلْبَنِي لَهْمٌ يَا أُمِيمَةُ نَاصِبِ

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضِ

وَصَدَرَ أَرَاخُ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس: الطويل:

وليل كموج البحر أرخى سُدُولَهُ
فقلتُ له لَمَّا تَمَطَّى بجَوْرِهِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي
فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
وأردفَ أعجازاً وناءً بكلّـلٍ
بصُبحٍ، وما الإصباحُ منك بأمثـلٍ
بكل مُغارِ الفتلِ شُدَّتْ بيذُبُلٍ

فطرب الوليد طرباً، فقال الشعبي: بانث القضية.

معنى قول النابغة:

وصدر أراح الليل عازب همّه

أنه جعل صدره مأوى للهموم، وجعل الهموم كالنعم السارحة الغادية، تسرحُ نهاراً ثم تأتي إلى مكانها ليلاً. وهو أول من استثار هذا المعنى، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقييد الألفاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار، واشتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر، وامرؤ القيس كره أن يقول: إن الهم يخفُّ عليه في وقت من الأوقات فقال: وما الإصباح منك بأمثل.

وقال الطرماح بن حكيم الطائي: الطويل:

ألا أيها الليل الذي طال أضح
على أن للعينين في الصُّبح راحة
بيوم، وما الإصباح فيك بأرواح
لطحهما طرفيهما كلَّ مطرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فحش السرقة وإنما تنبه عليه من قول النابغة، إلا أن النابغة لوّح، وهذا صرّح.

وقال ابن بسّام: السريع:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي
ليلي كما شأنتُ، فإن لم تَزُرْ
أن نجومَ الليلِ ليست تغُورُ
طال، وإن زارتُ فليلي قصيرُ

وإنما أغار ابنُ بسّام على قول علي بن الخليل فلم يغير إلا القافية: السريع:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي
ليلي كما شأنتُ، قصيرٌ إذا
أن نجومَ الليلِ ليست تَزولُ
جأدتُ، وإن ضنّنتُ فليلي طویلُ

وهذه السرقة كما قال البديع في التنبيه على أبي بكر الخوارزمي في بيت أخذ روته وبعض لفظه: وإن كانت قضية القطع تحب في الربع، فما أشدَّ شفقتي على جوارحه أجمع ولعمري إن هذه ليست سرقة،

وإنما هي مكابرة محضة، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، فحسبت أن ربيعة بن مكرم وعُتبية بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلان من البيت ما استحله، فإنهما كانا يأخذان جُلَّهُ، وهذا الفاضل قد أخذ كلّه، وقد أخذ علي بن الخليل من قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: البسيط:

لا أَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيرًا لَمَّا صَنَعْتُ نَامَتْ وَإِنْ أَسْهَرَتْ عَيْنِي عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطُولُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

وابن بسام في هذا الشعر كما قال الشاعر: الكامل:

وفتي يقول الشعر إلا أنه في كل حال يسرق المسروقا

ألفاظ لأهل العصر

في طول الليل والسهر

وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غَصَصِ الصَّدْرِ، وَنَقَمِ الدَّهْرِ. ليلة هموم وغموم، كما شاء الحسود، وساء الودود. ليلة قصّ جناحها، وضلّ صباحها. ليل ثابت الأطناب، طامي الغوارب، طامح الأمواج، وافي الذوائب. ليال ليست لها أسحار، وظلمات لا تتخللها أنوار. بات بليلة نابغة، يُراد قوله: الطويل:

فبت كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَنْبِيلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْبَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

بات في الصيف بليلة شتوية. سامرته الهموم، وعانقته الغموم، واكتحل السهاد، واقتشر القتاد، فاكتحل مُلْمُولِ السهر، وتلمل على فراش الفكر. قد أقض مهاده، وقلق وساده. هموم تفرق بين الجنب والمهاد، وتجمّع بين العين والسهاد. طُرف برعي النجوم مطروف، وفراش بشعار الهم محفوت. كأنه على النجوم رقيب، وللظلام نقيب.

ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذكر إقبال الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب: أقبلت عساكر الليل، وخفقت رايات الظلام. وقد أرخى الليل علينا سدوله، وسحب الظلام فينا ذيوله. توقّد الشفق في ثوب العسق. أقبلت وفود النجوم وجاءت مواكب الكواكب. تفتّحت أزاهير النجوم، وتوردت حدائق الجو،

وأذكى الفلك مصايحه. قد طفت النجوم في بحر الدجى، ولبس الظلام جلباباً من القار. ليلة كغراب الشباب. وحدق الحسان، وذوائب العذارى. ليلة كأنها في لباس بني العباس، ليلة كأنها في لباس الثكالي، وكأنها من العَبَش في مواكب الحَبَش. ليلة قد حلك إهابها، فكأن البحر يهابها. ولهم في ذكر النوم والنعاس: شرب كأس النعاس، وانتشى من خمر الكرى، قد عسكر النعاس بطرفه، وخيم بين عينيه. غرق في لجة الكرى، وتمايل في سكرة النوم. قد كحل الليل الورى بالرقاد، وشامت الأعين أجفانها في الأعماد.

وفي انتصاف الليل وتناهيته، وانتشار النور، وأقول النجوم: قد اكتمل الظلام. قد انتصفنا عمر الليل، واستغرقتنا شبابه. قد شاب رأس الليل، كاد ينم النسيم بالسحر. قد انكشف غطاء الليل. أنهتكَ ستر الدجى، وشمطت ذوائبه، وتقوس ظهره، وتهدم عمره. قوضت خيام الليل، وخلع الأفق ثوب الدجى. أعرض الظلام وتولى، وتدلّى عنقود الثريا. طرز قميص الليل بغرة الصبح، وباح الصبح بسرّه. خلع الليل ثيابه، وحدّر الصبح نقابه. لاحت تباشير الصبح، وافتتر الفجر عن نواجذه، وضرب النور في الدجى بعموده. بثّ الصبح طلائعه. تبرقع الليل بغرة الصبح. أطار بازي الصبح غراب الليل، وعزلت نوافج الليل بجامات الكافور، وانهمز جند الظلام عن عسكر النور. خلعنا خلعة الظلام، ولبسنا رداء الصباح، وملا الآذان برق الصباح، وسطع الضوء، وطلع النور، وأشرقت الدنيا، وأضاءت الآفاق. مالت الجوزاء للغروب، وولّت مواكب الكواكب، وتناثرت عقود النجوم، وفرت أسراب النجوم من حدق الأنام، ووهى نطاق الجوزاء، وانطفأ قنديل الثريا. قال بعض الأعراب: خرجنا في ليلة حنّس قد ألقت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان. قال ابن محكان السعدي: الطويل:

سواءً صحّحات العيون وغورها

وليل يقول الناس في ظلماته

مُسوحاً أعاليها وساجاً ستورها

كأنّ لنا منه بيوتاً حصينة

وهذا بارع جداً، أراد أن أعلاه أشدّ ظلاماً من جوانبه.

وقال أعرابي في صفته: خرجت حين انحدرت النجوم، وشالت أرجلها، فما زلتُ أصدع الليل حتى انصدع الفجر.

ومن بديع الشعر في صفة الليل قول الأعرابي: الكامل:

كالليل يطردّه النهار طريداً

والليل يطردّه النهار ولا ترى

هتك المقوّض ستره الممدوداً

فتراه مثل البيت مال رواقه

ومن البديع: الطويل:

على حينَ أُنْتَى القومُ خيراً عَلَى السُّرَى وطارتُ بأُخْرَى الليلِ أَجْنَحَةُ الفَجْرِ

آخر: الوافر:

وليلَ ذي غَيَاطِلَ مُدَلِّهِمْ رميتُ بَنَجْمِهِ عَرْضَ الأُفُولِ

يردُّ الطرفَ منقبضاً كَلِيلًا ويملاً هَوْلُهُ صَدْرَ الدَّلِيلِ

ابن المعتز: الكامل:

هَامَتِ رِكَائِبُنَا إِلَيْكَ بِنَا بظليلِ أَهْلِ النَّارِ والمنحِ
فكَأَنَّ أَيْدِيَهُنَّ دَائِبَةً يَفْحَصْنَ لَيْلَتَهُنَّ عَنْ صُبْحِ

وقاد كشاجم: المنسرح:

سَقِيًّا لِلَّيْلِ قَصِرَتْ مُدَّتُهُ بِدِيرِ مُرَّانَ مَرٍّ مَشْكُورَا
وَبَاتَ بَدْرُ الدَّجَى يَشْعَشَعُهَا نُورِيَّةَ تَمَلُّ الدُّجَى نُورَا
غَارَتْ عَلَى نَفْسِهَا وَقَدْ سَفَرَتْ فَعَادَ جَيْبُ الْحَبَابِ مَزْرُورَا
حَتَّى رَأَيْتَ الظَّلَامَ يَدْرَجُهُ الـ غَرَبَ وَدَرَجَ الصَّبَاحُ مَنشُورَا
فَاخْتَلَطَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ كَمَا تَخْلُطُ كَفٌّ مَسْكَاً وَكَافُورَا

وقال علي بن محمد الكوفي: الطويل:

مَتَى أُرْتَجَى يَوْمًا شِفَاءً مِنَ الضَّنَا إِذَا كَانَ جَانِيهِ عَلَيَّ طَبِيبِي
وَلِي عَائِدَاتٌ ضِفْتُهُنَّ فَجِئْنَ فِي لِبَاسِ سَوَادٍ فِي الظَّلَامِ قَشِيبِ
نَجُومٌ أُرَاعِي طُولَ لَيْلِي بِرُوجِهَا وَهَنَ لِبُعْدِ السَّيْرِ ذَاتُ لُغُوبِ
خَوَافِقُ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ كَأَنَّهَا قُلُوبٌ مَعْنَاءَ بَطُولِ وَجِيبِ
تَرَى حُوتَهَا فِي الشَّرْقِ ذَاتَ سِبَاحَةٍ وَعَقْرِبَاهَا فِي الْغَرْبِ ذَاتَ دَبِيبِ
إِذَا مَا هَوَى الْإِكْلِيلُ مِنْهَا حَسْبَتُهُ تَهْدُلُ غُصْنٍ فِي الرِّيَاضِ رَطِيبِ
كَأَنَّ اللَّيْلَ حَوْلَ الْمَجْرَةِ أَوْرَدَتْ لَتَكَرَّعَ فِي مَاءِ هُنَاكَ صَبِيبِ
كَأَنَّ رَسُولَ الصُّبْحِ يَخْلُطُ فِي الدُّجَى شَجَاعَةً مَقْدَامِ بَجِينِ هَيُوبِ

كَأَنَّ اخْضِرَّارَ الْبَحْرِ صَرَحٌ مَمَرَّدٌ

كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صُبْحِهِ

كَأَنَّ نَذِيرَ الشَّمْسِ يَحْكِي بِبَشْرِهِ

وَلَوْلَا اتَّقَائِي عَتَبَهُ قَلْتُ سَيِّدِي

جَوَادٌ بِمَا تَحْوِي يَدَاهُ مَهْدَبٌ

نَسِيبُ إِخَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ مَنَاسِبٍ

وَنَسَبَةٌ مَا بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَحِشَةٌ

وهذا البيت كقول الطائي: الطويل:

وَقُلْتُ أَخِي قَالُوا أَخٌ مِنْ فَرَابَةِ

نَسِيبِي فِي رَأْيِي وَعِزْمِي وَمَذْهَبِي

وقال عبد السلام بن رغبان، وسلك طريق الطائي فما ضلَّ عنها: الطويل:

أَخُ كُنْتُ أَبْكِيهِ دَمًا وَهُوَ حَاضِرٌ

بَكَاءَ أَخٍ لَمْ تَحْوِهِ بِقَرَابَةِ

فَمَاتَ فَمَا شَوَّقِي إِلَى الْأَجْرِ وَاقِفٌ

وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتَ نَوْرُهَا

يُبْرِدُ نِيرَانَ الْمَصَائِبِ أَنَّنِي

وفي هذه القصيدة:

تَرَشَّفْتُ أَيَّامِي وَهُنَّ كَوَالِحُ

وَدَافَعْتُ فِي كَيْدِ الزَّمَانِ وَنَحْرِهِ

وَقُلْتُ لَهُ: خَلَّ ابْنَ أُمِّي لِعُصْبَةٍ

فَوَاللَّهِ إِخْلَاصًا مِنَ الْقَوْلِ صَادِقًا

لَوْ أَنَّ يَدِي كَانَتْ شِفَاءَكَ أَوْ دَمِي

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الرِّضَا وَاتَّخَذْتُهَا

فَتًى كَانَ مِثْلَ السِّيفِ مِنْ حَيْثُ جَنَّتُهُ

وَفِيهِ لَالٌ لَمْ تُشْنُ بِنُقُوبِ

سَوَادُ شَبَابٍ فِي بَيَاضِ مَشِيبِ

عَلِيٌّ بْنُ دَاوُدَ أَخِي وَنَسِيبِي

وَلَكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِي

أَدِيبٌ غَدَا خِلًا لِكُلِّ أَدِيبِ

قَرِيبُ صَفَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبِ

إِذَا لَمْ يُؤْنَسْهَا انْتِسَابُ قُلُوبِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الشُّكُولَ أَقَارِبُ

وَإِنْ بَاعَدْتَنَّا فِي الْأَصُولِ الْمَنَاسِبُ

حِذَارًا، وَتَعْمَى مُقْلَتِي وَهُوَ غَائِبُ

بَلَى إِنَّ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ أَقَارِبُ

وَلَا أَنَا نِي عُمْرِي إِلَى اللَّهِ رَاغِبُ

كَأَنَّكَ لِلدُّنْيَا أَخٌ وَمُنَاسِبُ

أَرَى زَمَنًا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مَصَائِبُ

إِلَيْكَ، وَغَالَبْتُ الرَّدَى وَهُوَ غَالِبُ

وَأَيُّ يَدٍ لِي وَالزَّمَانُ الْمُحَارِبُ؟

وَهَا أَنَا أَوْ فَازَدْتُ فَإِنَّا عَصَائِبُ

وَإِلَّا فَحُبِّي آلَ أَحْمَدَ كَاذِبُ

دَمَ الْقَلْبِ حَتَّى يَقْضِبَ الْحَبْلَ قَاضِبُ

يَدًا لِلرَّدَى مَا حَجَّ لِلَّهِ رَاكِبُ

لِنَائِبَةِ نَائِبَتِكَ فَهُوَ مُضَارِبُ

فتى همُّه حمْدٌ على الدهر رائج

شمائلُ إن تشهَدَ فهنَّ مشاهدٌ

وقال الطائي لعلِّي بن الجهم: الكامل:

إن يُكْدِ مُطَرَّفُ الإخاءِ فإنَّنا

أو يفترقُ نَسَبٌ يُولِّفُ بيننا

أو يختلفُ ماءُ الوصالِ فمأوئنا

وإن ناب عنه مألُهُ وهو عازِبُ

عِظامُ، وإن ترحلَ فهنَ ركائبُ

نَعْدُو ونَسْرِي في إخاءِ تالدِ

أَدَبُ أَقْمَنَاهُ مُقَامَ الوالدِ

عَذْبُ تَحَدَّرَ من غمامٍ وَاحِدِ

وقال محمد بن موسى بن حماد: سمعتُ عليَّ بن الجهم، وذكر دِعْبَلًا فلغنه، وكفره، وقال: وكان يطعنُ على أبي تمام، وهو خيرٌ منه ديناً وشعراً، فقال رجلٌ: لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك له. فقال: إلا يكن أخا نَسَبٍ فهو أخو أدب، أما سمعت ما خاطبني به. وأنشد الأبيات. وقال رجل لابن المقفع: إذا لم يكن أخي صديقي لم أحبه، قال: نعم صدقت، الأخ نسيبُ الجسم، والصديق نسيبُ الروح.

وقال أبو تمام يخاطب محمد بن عبد الملك الزيات: الطويل:

أبا جعفرَ، إنَّ الجِهالَةَ أُمُّها

أرى الحشَوَ والدهماءَ أضحوا كأنهم

غدواً وكأنَّ الجهلَ يجمعهم أبا

فكن هضبةً تأوي إليها وحرَّةً

فإن الفتى في كلِّ حالٍ مناسبٌ

وقال البحترى لأبي القاسم بن خرداذبه: البسيط:

إن كنتَ من فارسٍ في بيتٍ سُوِّدَها

فلم يَصْرِنا تَتائِي المَنْصِبِينَ وَقَدْ

إذا تقاربتِ الآدابُ والتَّامَتِ

وكنتَ من بحترى البيتِ والنسبِ

رُحنا نَسِيبِينَ في عِلْمٍ وفي أدبٍ

دَنَّتْ مسافةُ بين العُجْمِ والعَرَبِ

وقد احتذى طريقه أبو القاسم محمد بن هانئ، فقال يمدحُ جعفر بن علي، وذكر النجوم، فقال الطويل:

جعلنا حشايانا ثيابَ مُدامنا

فمن كَبِدٍ تُدْنِي إلى كَبِدِ هَوَى

وقدَّتْ لنا الظلماءُ من جِلْدِها لُحفاً

ومن شَفَةِ تُوحِي إلى شَفَةِ رَشفاً

بعيشك نبّه كأسه وجفونه
وقد فكّت الظلماء بعض قيودها
وولّت نجومٌ للثريا كأنّها
ومرّ على آثارها دبرانها
وأقبلت الشعري العبور ملبة
وقد بادرتها أختها من ورائها
تخاف زئير الليث يقدّم نثره
كأنّ السماكين اللذين تظاهرا
فذا رامج يهوي إليه سنانه
كأنّ رقيب النجم أجدل مرّقب
كأنّ سهيلاً في مطالع أفقه
كأنّ بني نعش ونعشاً مطافل
كأنّ سهاها عاشق بين عود
كأنّ معلّى قطبها فارس له
كأنّ قدامى النسر والنسر واقع

كأنّ أخاه حين دَوّم طائراً
كأنّ الهزيع الأبنوسي موهناً
كأنّ ظلام الليل إذ مال ميلاً
كأنّ عمود الفجر خاقان عسكر
كأنّ لواء الشمس غرة جعفر

وقال ابن طباطبا العلوي: الطويل:

كأنّ اكتتام المشتري في سحابه
كأنّ سهيلاً والنجوم أمامه

فقد نبّه الإبريق من بعد ما أغفى
وقد قام جيش الليل للفجر فاصطفا
خواتم تبدو في بنان يد تخفى
كصاحب ردء أكمّنت خيله خلفا
بمرزَمها اليعبوب تجنّبه طرفا
لتخرق من ثني مجرتها سجفا
وبربر في الظلماء ينسفها نسفا
على لبّديته ضامنان له الحقا
وذا أعزل قد عض أنمله لهفا
يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
مفارق ألف لم يجد بعده إلّا
بوجرة قد أضلّل في مهمه خسفا
فاوتة يبدو وآونة يخفى
لواءان مركوزان قد كره الزحفا
قصصن فلم تسنم الخوافي به ضعفا

أتى دون نصف البدر فاخطف النصفاً
سرى بالنسيج الخسرواني ملثفا
صريع مدام بات يشربها صرفا
من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وديعة سرّ في ضمير مديع
يعارضها راع وراء قطيع

وقد لاحَتِ الشَّعْرَى العَبُورَ كأنَّها
وأضجعتِ الجوزاءِ في أفقِ غَرْبِها
إلى أن أجابَ الليلُ دَاعِي صُبْحِه

وقال: الخفيف:

تَقَلَّبَ طَرْفٌ بالدموعِ هموعِ
فبَاتَتْ كَنَشْوَانٍ هناكِ صَرِيحِ
وكان يُنَادِي منه غيرَ سميعِ

وكانَ الهلالَ لَمَّا تَبَدَّى
أو كَقَوْسٍ قد انحنَتْ طَرْفَاهُ
أو كَنُونٍ في مُهْرَقٍ مكتوبِ

وقال علي بن محمد العلوي يصف القمر، وقد طرح جرمه على دجلة: الكامل:

لم أنسى دِجْلَةَ والدُّجَى مُتَصَرِّمٌ
فكأنَّها فيه رداءٌ أزرقٌ
والبَدْرُ في أفقِ السماءِ مغرَّبٌ
وكأنَّه فيها طرازٌ مُذْهَبٌ

وقال الأمير تميم بن المعز، وكان يحتذي مثل ابن المعتز، ويقف في التشبيهات بجانبه، ويفرغ فيها على قلبه، ويتبعه في سلوك ألفاظ الملوك: الخفيف:

اسقِياني فِلَسْتَ أَصْغِي لَعْدَلِ
أَطِيعُ العَذُولَ في تَرْكِ ما أه
عَلَّلاني بها فقد أَقبلَ اللي
وانجَلَى الغَيْمُ بعد ما أضْحَكَ الرُّوْ
عن هلالٍ كَصَوْلجانٍ نُضارِ
ليس إِلَّا تَعَلَّةَ النفسِ شُغْلِي
وى كأني اتَّهَمْتُ رَأْيِي وَعَقْلِي؟
لُكَلَوْنِ الصَّدودِ من بعد وَصَلِ
ضَ بَكاؤِ السَّحابِ جادَ بَوْبَلِ
في سماءٍ كأنَّها جَامُ ذَبَلِ

وقال: الخفيف:

رُبَّ صَفراءَ عَلَّلَتْنِي بِصَفْرا
بين ماءٍ وروضةٍ وكُرومِ
تَتَنَّتْني به الغصونُ عَلينا
وكانَ الدُّجَى غَدائِرُ شَعْرِ
وانجَلَى الغَيْمُ عن هلالٍ تَبَدَّى
ءَ وَجُنْحُ الظَّلَامِ مُرْخَى الإزارِ
ورَوَّابِ مَنيفَةٍ وصَحاري
وتجيبُ القِيانُ فيها القَماري
وكانَ النجومُ فيها مَداري
في يَدِ الأفقِ مِثْلَ نِصْفِ سِوَارِ

وقال: الخفيف:

عَتَبْتُ فانتنَى عليها العَتَابُ
ودعا دَمْعَ مُقْلَتَيْها انْكَابُ

وضعت نحو خدّها بيديها
 رَبُّ مُبْدِي تَعْتَبِ جَعَلَ الْعَتُ
 فاسْقِنِيهَا مُدَامَةً تَصْنَعُ الْكَأُ
 ما ترى الليل كيف رَقَ دُجَاهُ
 وكأنّ الصباح في الأفق بازٍ
 وكأنّ السماء لُجَّةُ بَحْرٍ
 وكأنّ الجوزاء سَيْفٌ صَقِيلٌ
 فالتقى الياسمين والعنّابُ
 بَرِيَاءَ وَهْمِهِ الْإِعْتَابُ
 سَ كما يصبُغُ الخدودَ الشبابُ
 وبدا طيلسانه يُنجَابُ؟
 والدُّجَى بين مَخْلَبَيْهِ غُرَابُ
 وكأنّ النجوم فيها حَبَابُ
 وكأنّ الدُّجَى عليها قِرَابُ

من وصف الشراب والكؤوس والسّقاء في الليل

وقال: الطويل:

وزنجية الآباء كَرَحِيَّةِ الْجَلْبِ
 كَمَيْتَ بَزَلْنَا دَنَهَا فَتَفَجَّرَتْ
 عَبِيرِيَّةِ الْأَنْفَاسِ كَرَمِيَّةِ النَّسَبِ
 بِأَحْمَرَ قَانَ مِثْلَ مَا قَطَرَ الذَّهَبُ

فلما شربناها صَبَوْنَا كَأَنَّا
 وَلَمْ نَأْتِ شَيْئاً يُسْخِطُ الْمَجْدَ فِعْلُهُ
 كَأَن كُؤُوسِ الشَّرْبِ وَهِيَ دَوَائِرُ
 يَمْدُ بِهَا كَفّاً خَضِيباً مُدِيرُهَا
 فَبِتْنَا نُسْقَى الشَّمْسَ وَاللَّيْلَ رَاكِذُ
 وَقَدْ حَجَبَ الْغَيْمُ الْهَلَالَ كَأَنَّهُ
 كَأَنَّ الثَّرِيّاً تَحْتَ حُلْكَةِ لَوْنِهَا
 شَرِبْنَا السَّرُورَ الْمَخْضَ وَاللَّهُوَ وَالطَّرَبُ
 سَوَى أَنَّا بَعْنَا الْوَقَارَ مِنَ اللَّعِبِ
 قَطَائِعُ مَاءٍ جَامِدٍ تَحْمِلُ اللَّهَبُ
 وَلَيْسَ بِشَيْءٍ غَيْرِهَا هُوَ مَخْتَضِبُ
 وَنَقَرُبُ مِنْ بَذْرِ السَّمَاءِ وَمَا قَرَبُ
 سِتَارَةَ شَرْبٍ خَلْفَهَا وَجْهٌ مِنْ أُحِبِّ
 مَدَاهِنُ بِلُورٍ عَلَى الْأَرْضِ تَضْطَرِبُ

وقال: الطويل:

كَأَنَّ السَّحَابَ الْغُرَّ أَصْبَحْنَ أَكُؤُساً
 إِلَى أَنْ رَأَيْتُ النَّجْمَ وَهُوَ مَغْرَبُ
 كَانَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَالصَّبِيحُ طَالِعُ
 لَنَا، وَكَأَنَّ الرَّاحَ فِيهَا سَنَا الْبَرَقِ
 وَأَقْبَلَ رَايَاتُ الصَّبَاحِ مِنَ الشَّرْقِ
 بِقَايَا مَجَالِ الْكُحْلِ فِي الْأَعْيُنِ الزَّرَقِ

وقال: الطويل:

وَكَأْسٍ يُعِيدُ الْعُسْرَ يُسْرًا، وَيجتني
يُولِّدُ فِيهَا الْمَرْجُ دُرًّا مِنْضَدًّا
صغار وكبرى في الكؤوس كأنها
إِذَا حَنَّتْهَا السَّاقِي الْأَعْرَ حَسْبَتَهَا
صَبَحْتُ بِهَا صَحْبِي وَقَدْ رَنَدَجَ الدُّجَى
وَقَدْ أَزْهَرَتْ بَيْضُ النُّجُومِ كَأَنَّهَا

وقال: الطويل:

ثَمَارَ الْغِنَى لِلشَّرْبِ مِنْ شَجَرِ الْفَقْرِ
كَمَا فَتَتَتْ فَوْقَ الثَّرَى نُقْطُ الْقَطْرِ
عَلَى الرَّاحِ وَأَوَاتٌ تَجْمَعُنْ فِي سَطْرِ
نُجُومَ الثَّرِيَا لُحْنٌ فِي رَاخَةِ الْبَدْرِ
بِفَضَّةٍ لِأَلَاءِ الصَّبَاحِ سَنَا الْفَجْرِ
عَلَى الْأُفُقِ الْأَعْلَى قَلَانْدٌ مِنْ دُرٍّ

أَلَا فَاسْقِيَانِي قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً
كَأَنَّ الثَّرِيَا وَالظَّلَامُ يَخْفُهَا
كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ تَحْتَ سَوَادِهِ

وقال: الطويل:

فَقَدْ أَلْبَسَ الْأَفَاقَ جُنْحُ الدُّجَى دَعَجَ
فَصُوصُ لَجَيْنٍ قَدْ أَحَاطَ بِهَا سَبَجَ
إِذَا جَنَ، زَنْجِيٌّ تَبَسَّمَ عَنْ فُلَجَ

أَيَا دَيْرٍ مَرَحْنَاءَ سَقَتَكَ رَعُودُ
فَكَمْ وَاصِلَتْنَا فِي رَبَّاءِ أَوَانِسُ
وَكَمْ نَابَ عَنْ نُورِ الضُّحَى فَيْكَ مَبْسَمُ
وَمَاسَتْ عَلَى الْكُتُبَانِ قَضْبَانُ فِضَّةٍ
وَإِذْ لِمَتِّي لَمْ يَوْقِظِ الشَّيْبُ لَيْلَهَا
لِيَالِي أَغْدُو بَيْنَ ثَوْبِي صَبَابَةٍ

وقال: البسيط:

فَاحْمَرَّ مِنْ خَجَلٍ وَاصْفَرَ مِنْ وَجَلٍ
وَبَيْنَ مَنْعِ تِمَادَى فِيهِ بِالْعَلَلِ
وَمُبْصِرُ الْبَدْرِ لَا يَدْعُوهُ لِلْقَبْلِ

سَأَلْتَهُ قُبْلَةً مِنْهُ عَلَى عَجَلٍ
وَأَعْتَلَّ مَا بَيْنَ إِسْعَافٍ يَرْقُّهُ
وَقَالَ نَوْجَهِي بَدْرٌ لَا خَفَاءَ بِهِ

وهذا ينظرُ إلى قوله: مجزوء الوافر:

وَجَارَ عَلِيٍّ وَاقْتَدَرَا
عَلَيْهِ لَذَابَ وَانْفَطَرَا

أَبَاحَ لِمُقْلَتِي السَّهْرَا
غَزَالٌ لَوْ جَرَى نَفْسِي

وَلَكِنْ عَيْنُهُ حَشَدَتْ

وَمَنْ أَوْدَى بِهِ قَمْرٌ

كأنه ذهب إلى قول أبي نُوَاس: مجزوء الوافر:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَ

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا

بِعَيْنِي خَالَطَ التَّقَنِّي

وَوَجْهَهُ سَابِرِي لَوْ

عَلَى الْغَنَجِ وَالْحَوْرَا

فَكَيْفَ يِعَاتِبُ الْقَمْرَا؟

نَ أَرْزَارِهِ قَمْرَا

إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرَا

رُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا

تَصَوَّبَ مَأْوُهُ قَطْرَا

قيل للجاحظ: مَنْ أَنشَدُ النَّاسَ وَأَشْعَرَهُمْ؟ قال: الذي يقول، وأنشد هذه الأبيات. ونظير قوله: مجزوء الوافر:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَ

قول الحكم بن قَتِير المازني: البسيط:

وَيَلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النَّوْمَ فَامْتَعَا

وقال تميم: الخفيف:

نَقَبْتُ وَجْهَهَا بِخَزٍّ وَجَاءَتْ

فَتَأَمَّلْتُ فِي النَّقَابَيْنِ مِنْهَا

فَاسْقِيَانِي بِلَا مِرَاجٍ فَإِنِّي

وَانظُرَا الْأَفَقَ كَيْفَ بَدَّلَهُ الْإِص

وقال: البسيط:

إِذَا حَذَرْتَ زَمَانًا لَا تُسَرُّ بِهِ

فَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَعْطَاكَ مَخْتَلَطًا

خُذْهَا إِلَيْكَ، وَدَعْ لَوْمِي، مَشْعَشَعَةً

فِي كُلِّ مَعْقِدٍ حَسَنٍ فِيهِ مُعْتَرِضٌ

فَكُحِّلْ عَيْنِيهِ مَمْنُوعٌ بِخَنْجَرِهِ

لَا تَتْرِكِ الْقَدَحَ الْمَلَانَ فِي يَدِهِ

كَمْ قَدْ أَتَى سَهْلٌ دَهْرٍ بَعْدَ أَصْعَبِهِ

لَعَلَّ مُرَّكَ يَحْلُو فِي تَقْلَبِهِ

مَنْ كَفَّ أَقْنَى أَسِيلِ الْخَدِّ مُذْهَبِهِ

عَلَيْهِ يَحْمِيهِ مَنْ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِهِ

وَوَرَدُ خَدَّيْهِ مَحْمِيٌّ بِعَقْرِبِهِ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ تَلْهَبِهِ

فصُّنْهُ عَنْ سَقِينَا؛ إِنِّي أَغَارُ بِهِ
وَانْظُرْ إِلَى اللَّيْلِ كَالزَّنْجِيِّ مِنْهَزِمًا
وَالْبَدْرُ مُنْتَصِبٌ مَا بَيْنَ أَنْجُمِهِ
وَسَقَّهْ وَاسْقِنِي مِنْ فَضْلِ مَشْرَبِهِ
وَالصَّبْحُ فِي إِثْرِهِ يَعْدُو بِأَشْهُبِهِ
كَأَنَّهُ مَلَكٌ مَا بَيْنَ مَوَكِبِهِ

من المختار من شعر تميم بن المعز

وإذا أفضيت إلى ذكره، فهاك من مختار شعره، قال: البسيط:

مُسْتَقْبَلٌ بِالَّذِي يَهْوَى وَإِنْ كَثُرَتْ
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ مِنْ أَثَوَابِهِ بَرَزَتْ
مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَقْبُولٌ بِمَا صَنَعَا
مِنَ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثُمَا شَفَعَا
حُسْنًا، أَوِ الْبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا

استعارة مأخوذة من قول الآخر، وهو ابن زُرَيْقٍ: البسيط:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمْرًا
وَمِنْ قَوْلِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الْفَرَّانِ: مجزوء الوافر:

بَدَا فَكَأَنَّمَا قَمْرٌ
يَحِثُّ الْمَسَكُ مِنْ عَرَقِ الْ
وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ أَسْتَادُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ: الكامل:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِمَنْ عَصَيْتُ عَوَازِلِي
الشَّمْسُ تَظْهَرُ فِي أُسْرَةٍ وَجْهِهِ
فِي حُبِّهِ لَمْ أَخْشَ مِنْ رُقَبَائِهِ
وَالْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ خِلَالِ قَبَائِهِ

وقال تميم: الطويل:

أَعَذَلَ قَلْبِي وَهَوَى لِي غَيْرُ عَاذِلٍ
وَمَنْ لِي بِصَبْرٍ أَسْتَزِيلُ بِهِ الْجَوَى
وَأَعْصِي غَرَامِي وَهُوَ مَا بَيْنَ أَضْلَعِي؟
وَأَخْرُ صَبْرِي كَانَ أَوَّلَ أَدْمُعِي

وقال: مجزوء الكامل:

وَرَدُّ الْخُدُودِ أَرْقُ مِنْ
هَذَا تَنْشَقُّهُ الْأُنُورُ
وَرَدِّ الرِّيَاضِ وَأَنْعَمُ
فَ وَذَا يُقْبَلُهُ الْفَمُ
وَإِذَا عَدَلْتُ فَأَفْضَلُ الْ
وَرْدِينَ وَرَدُّ يُلْتَمُ

لَا وَرَدَ إِلَّا مَا تَوَلَّى صَبَغَ حُمْرَتِهِ الدَّمُ
هَذَا يُشَمُّ وَلَا يُضَمُّ وَذَا يُضَمُّ وَيُشَمُّ

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَدَوِ
وَأَعَارَهَا الْأَصْدَاغَ فَه
وَاسْتَتَقَّ الْأَجْفَانَ فَه
وَتُبِينُ لِلْمَحْبُوبِ عَنْ
وَتَشِيرُ إِنْ رَأَتْ الرِّقِي
وَأَعَارَهَا مَرَضًا تَصِحُّ بِهِ الْقُلُوبُ وَتَسْقَمُ
فَتَنُ الْعَيُونَ أَجَلَ مَنْ
فَتَنُ الْخَدُودِ وَأَعْظَمُ

وقال: السريع:

إِنْ كَانَتْ الْأَلْحَاطُ رُسُلَ الْقُلُوبِ
قَبَّلْتُ مَنْ أَهْوَى بَعِينِي وَلَمْ
لَكِنَّهُ قَدْ فَطِنْتَ عَيْنُهُ
إِنْ كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ مُسْتَخْفِيًا

وقال: مجزوء الكامل:

قَالُوا الرِّحِيلُ لَخَمْسَةِ
فَأَجَبْتَهُمْ إِنْني اتَّخَذْتُ
سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْأَسَى
وَأَعَارَ لِلْأَجْفَانِ حُسْ

وقال: الخفيف:

عَقَرَبَ الصَّدُغُ فَوْقَ تَفَاحَةِ الْخَدِّ
وَسَيُوفُ اللَّحَاطِ فِي كُلِّ حِينٍ
وَعَيُونَُ الْوَشَاةِ يُفْسِدُنَ بِالرَّقِّ
فَمَتَى يَشْتَفِي الْمَحِبُّ وَتُطْفَى
نَعِيمٌ مُطَرَّرٌ بِعَذَابٍ
مَانِعَاتُ جَنَى الثَّيَابِ الْعَذَابِ
بَةِ وَالْمَنْعِ رُؤْيَا الْأَحْبَابِ
بِالْتَدَانِي حَرَارَةُ الْاِكْتِنَابِ؟

وقال: البسيط:

ترى عذارِيَه قد قاما بِمَعذرتي
رِيمُ كَأَنَّ لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
كَأَنَّ جَوْهَرَهُ مِنْ لُطْفِهِ عَرَضُ
وَاللَّهِ مَا فَتَنَتْ عَيْنِي مُحَاسِنُهُ
مَا تُصَدِّرُ الْعَيْنُ عَنْهُ لِحْظَهَا مَلَأَ
يَا مَنْتَهَى أَمَلِي لَا تُدْنِ لِي أَجَلِي
إِنْ كَانَ وَجْهُكَ وَجْهًا صَيَغَ مِنْ قَمَرٍ
عِنْدَ الْعَذُولِ فِيَعْدُو وَهُوَ يَعْذِرُنِي
عَقْدًا مِنَ الْحُسْنِ أَوْ نَوْعًا مِنَ الْفَتَنِ
فَلَيْسَ تَحْوِيهِ إِلَّا أَعْيُنُ الْفَطَنِ
إِلَّا وَقَدْ سَحَرَتْ أَلْفَاظُهُ أَذْنِي
لَأَنَّهُ كُلُّ شَخْصٍ مَرْتَضَى حَسَنٍ
وَلَا تُعَذِّبُ ظُنُونِي فِيكَ بِالظَّنِّ
فَإِنْ قَدَّكَ قَدْ قَدْ مِنْ غُصْنٍ

وقال: الطويل:

أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ عَرَّجَ مُسَلِّمًا
وَهُبَّ عَلَى مَنْ شَفَّ جِسْمِي بَعَادُهُ
فَإِنْ قَالَ: مَا هَذَا الْحَرُورُ؟ فَقُلْ لَهُ:
عَلَى ذَلِكَ الشَّخْصِ الْبَعِيدِ الْمُودِعِ
سَمُومًا بِمَا اسْتَمَلَيْتَ مِنْ نَارِ أَضْلَعِي
تَنْفَسُ مُسْتَنَاقٍ بِحَبِّكَ مُوجِعِ

ومختار شعره كثير، وقد تفرَّق منه قطعة كافية في أعراض الكتاب.

قال صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد: الطويل:

لَقَدْ رَحَلْتُ سَعْدَى فَهَلْ لَكَ مُسْعِدٍ؟
رَعَيْتُ بِطَرْفِي النِّجْمَ لَمَّا رَأَيْتَهَا
تُنِيرُ الثَّرِيًّا وَهِيَ قَرِصٌ مُسَلْسَلٌ
وَتُعْتَرِضُ الْجُوزَاءَ وَهِيَ كَكَاعِبٌ
وَتَحْسِبُهَا طَوْرًا أَسِيرَ جِنَايَةٍ
وَلَا حَ سُهَيْلٌ وَهُوَ لِلصُّبْحِ رَاقِبٌ
أَرَدَّدُ طَرْفِي فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا
رَأَيْتُ بِهَا، وَالصُّبْحُ مَا حَانَ وَرُدُّهُ،
وَفِيهِ لَنَا مِنْ مَرْبُطِ الشَّمْسِ أَشْقَرُ
وَقَدْ أَنْجَدْتَ دَارًا فَهَلْ أَنْتَ مُنْجِدُ؟
تَبَاعَدُ بُعْدَ النِّجْمِ بَلْ هِيَ أَبْعَدُ
وَيَشْغَلُ مِنْهَا الطَّرْفُ دُرًّا مَبْدَدُ
تَمِيلُ مِنْ سَكْرِ بِهَا وَتَمِيدُ
تَرشَّحَ بَعْدَ الْمَشْيِ وَهُوَ مُفِيدُ
كَمَا سُلِّ مِنْ غَمْدٍ جُرَازٌ مُهْنَدُ
دَنَانِيرُ لَكِنَّ السَّمَاءَ زَبَرَجَدُ
قَنَادِيلُ وَالْخَضِرَاءُ صَرَخٌ مَمْرَدُ
إِذَا مَا جَرَى فَالرِّيحُ تَكْبُو وَتَرْكُدُ

وقال أبو علي الحاتمي: الطويل:

وليل أقمنا فيه نُعْمَلْ كَأَسْنَا
ونَجْمُ الثريا في السماء كأنه

البحثري: الكامل:

إلى أن بدا للصُّبْح في الليل عَسْكَرُ
على حُلَّةٍ زَرْقَاءَ جَيْبٌ مُدْنَرُ

ولقد سَرَيْتُ مع الكواكب رَاكِباً
والليلُ في لونِ الغُرَابِ كأنه
والعِيسُ تَنْصُلُ من دُجَاهِ كما انجَلَى

أعجازَها بعزيمة كالكوكبِ
هو في حُلُوكَتِهِ وإن لم يَنْعَبِ
صَبِغُ الخِضَابِ عن القَذَالِ الأشْيَبِ

حتى تَبْدَى الفَجْرُ من جَنَابَتِهِ
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الكامل:

كالماء يَلْمَعُ من خِلَالِ الطُّحْلُبِ

أهلاً بفَجْرٍ قد نَضَى ثوبَ الدُّجَى
أو غَادَةً شَقَّتْ صِدَاراً أَرْقَاً

كالسيف جُرِّدَ من سَوَادِ قِرَابِ
ما بين تُغْرَتِها إلى الأتْرَابِ

وقال رجلٌ من بني الحارث بن كعب يصف الشمس: الطويل:

مخبأةً أَمَّا إذا الليلُ جَنَّها
إذا انشَقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وانجَلَى
وألْبَسَ عرض الأرضِ لوناً كأنه
تجلَّتْ وفيها حين يَبْدُو شعاعُها
عليها كَرَدَعُ الزعفرانِ يشبُّه
فلما علَتْ وَابيضَ منها اصفرارُها
وجلَّتْ الآفاقَ ضوءاً يَنيرُها
تري الظلَّ يُطَوِّى حين تَبْدُو وتارةً
كما بدأتْ إذْ أشرقتْ في مَغْيِبِها
وتَدْنَفُ حتى ما يكادُ شعاعُها
فَأَفْنَتْ قروناً وهي في ذاك لم تزلْ

فَتَخْفَى وَأَمَّا بالنهار فتظهرُ
دُجَى الليلِ وانجابَ الحِجَابِ المسترِ
على الأفقِ الشرقي ثوبٌ مُعَصْفَرُ
ولم يعلْ للعَيْنِ القصيرةِ مَنْظَرُ
شعاعٌ تَلَالَا فهو أبيضٌ أَصْفَرُ
وجالَتْ كما جَالَ المَنِيحُ المشهرُ
بحرٍّ لها وَجْهٌ الضُّحَى تتسعر
تراه إذا زالتْ عن الأرضِ يُنْشَرُ
تعود كما عادَ الكبيرُ المعمر
يَبِينُ إذا ولَّتْ لمن يَتَبَصَّرُ
تموتُ وتحيا كل يومٍ وتُنْشَرُ

أحسن ما قالته العرب في الجاهلية

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده:
الكامل:

منع البقاء تقلُّبُ الشمسِ وطلوعُها من حيث لا تمسي
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً وغروبُها صفراءَ كالورسِ
تجري على كبدِ السماء كما يجري حمامُ الموتِ في النفسِ
اليومَ تعلَّم ما يجيء به ومضى بفصلِ قضائه أُمسِ

قال: أحسنت، فأخبرني بأمدح بيتٍ قالته العرب في الشجاعة، قال: قول كعب بن مالك الأنصاري:
الكامل:

نصلُ السيوفَ إذا قصرُنَّ بخطُونا قُدُماً، ونلحقها إذا لم تلحقِ

قال: فأخبرني بأفضل بيتٍ قيل في الجود، فأنشده لحاتم طي: الكامل:

أماوي، ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حشَرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ
ترى أن ما أبقيتُ لم أكُ رَبَّهُ وأنَّ يدي ممَّا بَخِلْتُ به صِفْرُ
ألم ترَ أن المالَ غادٍ ورائحُ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ
غنيبنا زماناً بالتصعُّك والغنى فكلاً سقَّناه بكأسيهما الدهرُ
فما زادنا بغياً على فذي قرابةٍ غناناً، ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

قال: فأخبرني عن أحسن الناس وصفاً، قال: الذي يقول: الطويل:

كأن قلوب الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكَرها العُنَّابُ والحشَفُ البالي

والذي يقول: الطويل:

كأن عيونَ الوحشِ حول خبائنا وأرحلنا الجَزَعُ الذي لم يُتَقَبِ

والذي يقوله: الطويل:

وتعرفُ فيه من أبيه شمائلًا ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجْرُ
سماحةَ ذَا، مع برٍّ ذَا، ووفاءَ ذَا ونائلَ ذَا، إذا صَحَا وإذا سَكِرُ

يريد امرأ القيس.

ومن ألفاظ أهل العصر

في طلوع الشمس وغروبها ومتوع النهار وانتصافه، وابتدائه، وانتهائه

بدا حاجِبُ الشمس، ولمَعَتْ في أجنحة الطير، وكشفتُ قِنَاعَهَا، ونثرتُ شُعَاعَهَا، وارتفع سُرادِقُهَا، وأضاءتُ مشارِقُهَا، وانتشر جناحُ الضوء في أفق الجو. طَنَبَ شعاعُ الشمس في الآفاق، وزهبتُ أطراف الجدران. أَيْنَعَ النهار وارتفع. استوى شَبَابُ النهار، وعلا رونق الضحى، وبلغت الشمسُ كبد السماء. انتعل كل شيء ظله، وقام قائمُ الهاجرة، ورمَت الشمسُ بِجَمَرَاتِ الظهر. اصفرتُ غِلَالَةُ الشمس، وصارت كأنها الدينارُ يلمعُ في قرارِ الماء، ونفضتُ تَبْرًا على الأصيل، وشَدَّتْ رَحْلَهَا للرحيل، وتصوَّبتُ الشمسُ للمغيب، وتضَيَّفتُ للغروب فأَذِنَ جَنَبُهَا للوجوب. شاب النهار، وأقبل شبابُ الليل، ووقفت الشمسُ للعيان، وشافَهَ الليلُ لسان النهار. الشمسُ قد أشرقتُ بروجُهَا، وجنحت للغروب، وشافَهتُ دَرَجَ الوجوب. الجوُّ في أطمارٍ مُنْهَجَةٍ من أصائله، وشفوت مورَّسَةٌ من غِلَالِهِ. استترَ وَجْهُ الشمسِ بالثَّقَاب، وتوارتُ بالحجاب. كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق، إلى مجتمع العَسَق. فلانٌ يركبُ في مقدمة الصُّبح، ويرجع في ساقية الشفق، ومن حين تفتحُ الشمسُ جَفَنُهَا، إلى أن تغمض طَرْفَهَا، ومن حين تسكنُ الطيرُ أوكارَهَا، إلى حين يترلُّ السَّراةُ مِنْ أَكْوَارِهَا.

مقامة لأبي الفتح الإسكندري من إنشاء البديع، اتصلتْ بذكرِ الليل والنهار.
قال عيسى بن هشام: كنت وأنا فتى السنُّ أشدُّ رَحْلِي لكلِّ عَمَايَةٍ، وأركضُ طَرْفِي لكلِّ غَوَايَةٍ، حتى شَرِبْتُ من العُمُرِ سائغَهُ، ولبستُ من الدهرِ سابعَهُ، فلما صاح النهارُ بجانب ليلي، وجمعتُ للمعادِ ذَيْلِي، وطُئْتُ ظَهَرَ المَرْوُضَةِ، لأداء المفروضة، وصَحَبَنِي في الطريق رَجُلٌ لم أنكره من سوء، فلما تخالينا، وحين تجالينا، سَفَرَتِ القِصَّةُ عن أصل كوفيٍّ ومَذْهَبِ صوفيٍّ، وسَرْنَا فلما حللنا الكوفةَ ملْنَا إلى داره ودخلناها وقد بَقَلَ وَجْهُ النهار، واحضرَ جانبُهُ، ولما اغتمض جَفَنُ الليل وطَرَّ شَارِبُهُ قُرَعَ عَلَيْنَا البابُ، فقلنا: من القارِعُ المُتَنَاب؟ فقال: وَقَدْ الليل وبريده، وَقَلَ الجوع وطريده، وأسير الضرِّ، والزمن المرِّ، وضيع طَوْهُ خفيف، وضالته رَغِيف، وجارٌ يَسْتَعِدِّي على الجوع، والجَيْبِ المَرْقُوع، وغريب أوقدت النارُ على سفره، ونبَحَ العَوَاءُ في أثره، وَبُذِتْ خَلْفَهُ الحُصِيَّاتُ، وَكُنِسَتْ بعده العَرَصَاتُ، فَنَضُّوهُ طَلِيحًا، وَعَيْشُهُ تَبْرِيحًا، ومن دون أفراخه مَهَامُهُ فيح.

قال عيسى بن هشام: فَقَبِضْتُ من كيسي قَبْضَةً اللَّيْثِ وَبَعَثْتُهَا إِلَيْهِ، وَقُلْتُ زِدْنَا سَوْالًا نَزِدَكَ نَوَالًا، فقال: ما عَرِضَ عَرَفُ العودِ، على أحرَ من نار الجُودِ، ولا لَقِيَ وَقْدَ البرِّ، بِأَحْسَنَ من بريد الشكر، ومن ملك

الْفَضْلُ فَلْيُؤاسِ، فَلَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ، وَأَمَّا أَنْتَ فَحَقَّقَ اللَّهُ أَمْلَكَ، وَجَعَلَ الْبَيْدَ الْعُلْيَا لَكَ.
قال عيسى بن هشام: ففتحنَا البابَ، فإذا شيخُنَا أبو الفتح الإسكندري، فقلْنَا: يا أبا الفتح، شدَّ ما بلغتْ
بك الخِصَاصَةُ، وهذا الزيُّ خاصَّة! فتبسَّم وأنشأ يقول: مجزوء الخفيف:

أنا فيه من الطلبِ

لا يَغْزَنَكَ الذي

أنا في بُرْدَةٍ تُشَقُّ لها بُرْدَةُ الطَّرَبِ

تُشَقَّاقًا من الذهبِ

أنا لو شئتُ لَاتَخَذَ

وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه: غضبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن ينتظرَ عُذْرًا، وإن كان في الظاهر مَهَابَةً
سَيْفٍ، إنه في الباطن سحابةٌ صَيِّفٌ، وقد رَأَيْتُ إِعْرَاضَهُ صَفْحًا؛ أَفْجَدًا قَصْدًا أَمْ مَزْحًا، ولو التبسَّ الْقَلْبَانِ
حق التباسهما ما وجد الشيطانُ بينهما مساعًا، ولا والله لا أريكَ رَدًّا، أَجْدُ مِنْهُ بَدًّا، وإن محبةً تحتل شَكًّا
لأَجْدُرُ محبةً، أَلَا تُشْتَرَى بِحَبَّةٍ، وإن كان قَصْدًا مَزْحًا فما أغناها عن مَزْحٍ يحل عُقْدَ الْفُؤَادِ حتى نقف على
المراد، ولا تسعنا إلا العافية والسلام.

وله إليه: المودة - أعزك الله - غَيْبٌ، وهو في مكان من الصَّدْرِ، لا ينفذه بصر، ولا يُدْرِكُهُ نَظَرٌ، ولكنها
تُعْرَفُ ضرورةً، وإن لم تظهر صُورَةً، ويدركها الناس، وإن لم تدركها الحواس، ويستَمْلِي المرءُ صَحِيفَتَهَا
من صدره، ويعلم حالَ غيره من نفسه، ويعلم أنها حبٌّ وراء القلب، وقلب وراء الخلب، وخب وراء
العظم، وعظم وراء اللحم، ولحم وراء الجلد، وجلد وراء البُرد، وبُرد وراء البعد. ولو كانت هذه الحُجُبُ
قواريير لم ينفذها نظر، فيستدلَّ عليها بغير هذه الحاسة بدليل إلا أن أزوره، والله لو التبست به التباساً،
يجعل رأسينا رأساً، ما زدته ودًّا، ولو حال بيني وبينه سُورُ الْأَعْرَافِ، ورُمُلُ الْأَحْقَافِ، ما نقصته حقاً.
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الخفيف:

فجازَى بالصدِّ والانتخابِ

وغَزَالَ مَنَحْتَهُ ظَهَرَ الْوَدِّ

ردني واله الفؤاد لما بي

لم أَلَمُهُ إن ردني لحجابِ

ح تَوَارَى عَنِ الْوَرَى بِحِجَابِ

هو روح وليس يُنْكَرُ لِلرُّوْ

وللبديع إلى أخيه: كتابي أطال الله بقاءك، ونحن وإن بُعِدَتِ الدَّارُ فَرَعًا نَبَّعَةً، فَلَا يَجْنِيَنَّ بُعْدِي عَلَى قُرْبِكَ،
ولا تَمَحُونَنَّ ذِكْرِي مِنْ قَلْبِكَ، فَلِأَخْوَانٍ، وإن كان أحدهما بخراسان والآخر بالحجاز، مجتمعان على
الحقيقة مفترقان على المجاز، والاثنتان، في المعنى واحد وفي اللفظ اثنتان، وما بيني وبينك إلا ستر، طوله فِتْرٌ،
وإن صاحبي رَفِيقٌ، اسمه توفيق، لنلتقيَنَّ سريعاً ولنسعدنَّ جميعاً، واللَّهُ وَلِيُّ الْمَأْمُولِ.

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه: قد قُرُبَ - أيْدك الله - محلّك على تراخيه، وتَصاقب مستقرّك على تنائيه، لأنّ الشوقَ يمثّلُك، والذكرُ يخيّلُك؛ فنحنُ في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق، وفي التسمية مُتباينون، وفي المعنى متواصلون، وإن تفرقت الأشباح، لقد تعانقت الأرواح.

جملة من كلام ابن المعتز

في الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوثبة، شنيعُ العثرة. أهلُ الدنيا كركبٍ يُسارُ بهم وهم نيام. والناسُ وفْدُ البلى، وسكّانُ الثرى، وأقرانُ الردى. المرءُ نُصبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار. الآمالُ حصائدُ الرجال. الحرصُ ينقُصُ المرءَ من قدره، ولا يزيدُ في رزقه. الكذبُ والحسدُ والنفاقُ أنافيّ الذل. التمامُ جسْرُ الشرِّ. الحاسدُ اسمه صديقٌ ومعناه عدو. الحاسدُ ساحطٌ على القدر، مغتاضٌ على من لا ذنبَ له، بخيلٌ بما لا يملكه، يشفيك منه أنه يغتمُ في وقت سرورك. الفرصةُ سريعةُ الفوتِ بطيئةُ العود. الصبرُ من ذي المصيبة مصيبةٌ على ذوي الشّمات. التواضعُ سلّمُ الشرف، والجودُ صِوانُ العرضِ من الدم. الغدرُ قاطعُ الأسرار إذا كثر خُزائها ازدادت ضياعاً. السوءُ كشجرة النار يحرقُ بعضها بعضاً. عبْدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرق. وعاء الخطأ بالصمتِ يختم، والخرقُ بالرفقِ يلحم. الوعدُ مرضُ المعروف، والإنجازُ برؤه، والمطلُ تلفه. إذا حضرَ الأجل، افتضح الأمل. لا تشنَّ وجهَ العفوِ بالتقريع. لا تنكحُ خاطبَ سرك. ومن زاد أدبه على عقله كان كالراعي الضعيف مع شاةٍ كثيرة.

قال أبو العباس الناشئ لأبي سهل بن نوبخت: الطويل:

ضروباً من الآداب يجمعها الكهلُ

زعمت أبا سهل بأنك جامعٌ

تكونُ لذي علمٍ وليس له عقلُ

وهبك تقولُ الحقَّ أي فضيلةً

والهمّ حبسُ الروح. قلوبُ العقلاءِ حصونُ الأسرار. مَنْ كُرِّمت عليه نفسه هان عليه ماله. من جرى في عنان أمله؛ عثر بأجله. ما كل من يُحسنُ وعده يحسنُ إنجازَه. ربما أوردَ الطمعُ ولم يصدر، وضمن ولم يوف. وربما شرب الماء قبل ربه. من تجاوزَ الكفافَ لم يقنعه إكثار. كلما عظم قدرُ المنافسِ فيه عظمت الفجيعةُ بفقدِه، ومن أرحلَه الحرصُ أنضاه الطلب. الأمانُ تعمي أعينَ البصائر، والحظ يأتي من لم يؤمه. وربما كان الطمعُ وعاءً حشوه المتالف، وسائفاً يدعُو إلى الندامة. ما أحلّى تلقّي البغية، وأمرٌ عاقبة الفراق. من لم يتأمل الأمرَ بعينِ عقله، لم تقعْ حيلته إلا على مَقَاتله.

من شعر أبي العباس الناشئ في التنزية

وقال أبو العباس يرثي المعتضد: الطويل:

قَضَوْا مَا قَضَوْا مِنْ أَمْرِهِمْ ثُمَّ قَدَّمُوا
وَصَلُّوا عَلَيْهِ خَاشِعِينَ كَأَنَّهُمْ

وقال يرثيه الكامل:

قالت شريرة ما لجفنك ساهراً
ما قد رأيت من الزمان أحل بي
يا نفس، صبراً للزمان وريبه
إن الذي حاز الفضائل كلها
أما السيوف فمن صنائع بأسه
وكان أحداث الزمان عبيده
يقظان من سنة المضيق قلبه
يرعى الضغائن قبل ساعة فرصة
كم فرصة تركت فصارَتْ غصةً
ولرب كيدٍ ظلَّ يسجد بعدها
وهي المنايا إن رمين بنبأها
لله درك أي ليث كتيبة
ولقد عمرت ولا حريم معاند

وقال للمعتضد يعزيه بابنه هارون: البسيط:

يا ناصر الدين إذ هُدَّتْ قِوَاعُهُ
وقائد الخيل مذ شُدَّتْ مَازَرُهُ
كأنهن قنأً ليست لها عقد
قُبَّ كطي ثياب العصب مضمرة
وسائس الملك يرعاه ويكلؤه

إماماً إمام الخلق بين يديه
صفوف قيام للسلام عليه

قلقاً، وقد هدأت عيون النوم
هذا، وتحت الصدر ما لم تعلمي
فهو المليء بما كرهت فسلمي
هو ذاك في قعر الضريح المظلم
لولاه لم يروين من سفك الدّم
فمتى يؤخرهن لا تستقدم
ومعول للمعول المتظلم
فإذا رآها أمكنت لم يحجم
تشجى بطول تلهف وتندّم
في بشر وجه مطلق متجهّم
يرمين في نفس الأجل الأعظم
والخيل تعثر بالقنا المتحطم
حرم ولا الإسلام بالمستسلم

وأصدق الناس في بؤسى وإنعام
مذللات بإسراج وإجام
يهزها الزخرف في كرف وإقدام
تقرب النار بين البيض والهام
إذا حلا الغمض في أجفان نؤام

تَمَرِّي أَنَامِلُهُ الدُّنْيَا لِصَاحِبِهَا
وَنَصْلُهُ مِنْ عِدَاهُ قَاطِرٌ دَامِي
كَالسَّهْمِ يَبْعَثُهُ الرَّامِي فصفحة
لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ إِنْ خَطَبَ أَلَمَ بِهِ
صَبْرًا فَدَيْنَاكَ إِنْ الصَّبْرَ عَادَتْنَا
إِنْ الْجَزْوَعَ صَبُورٌ بَعْدَ أَيَّامٍ

ولما ماتت دُرَيْدَةُ، وهي جاريةُ المعتضد، وكانت مَكِينَةً عنده، جزع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيد الله بن سليمان: مثلك يا أمير المؤمنين تَهُونُ عليه المصائبُ؛ لأنك تجدُ من كل فقيدٍ خَلَفاً، وتنالُ جميعَ ما تريد من العَوَضِ، والعَوَضُ لا يوجدُ منك، فلا ابتلى الله الإسلامَ بفقدك، وعمره بطولِ بقاءِ عُمرِكَ، وكأنَّ الشاعرَ عَنَى أمير المؤمنين بقوله: البسيط:

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ
لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَاداً مِنَ الْإِبْلِ

فضحك المعتضد وتسلَّى وعاد إلى عادته.

قال محمد بن داود الجراح: فلقيني عبيدُ الله فأخبرني بذلك، وقال: أردت شعراً في معنى البيت الذي أنشدته فما وجدته؛ فقلت له: قد قال البطين البجلي: الطويل:

طوى الموتُ ما بيني وبين أحبِّه
بهم كنتُ أعطي مَنْ أشاء وأمنعُ

فلا يحسب الوأشون أن قناتنا
تلين، ولا أنا من الموتِ نَجَزَعُ

ولكنَّ للألافِ لا بدَّ لوَعَةٍ إذا جعلت أقرانها تنطلعُ

فكتبه، وقال: لو حفظته لما عدلتُ عنه.

رجع إلى ابن المعتز

وقال ابن المعتز، وذكر الموتى: الطويل:

وسكَّانِ دارٍ لا تَزَاوِرَ بينهم
على قُرْبٍ بعضٍ في المحلة من بعضٍ

فليس لها حتى القيامة من فضٍّ

كأن خواتيما من الطينِ فوقهم

وقال يمدح عبيد الله بن سليمان: الطويل:

إليَّ قريباً كنتُ أو نازحَ الدارِ

أيا مُوصِلِ النُّعْمَى على كلِّ حالةٍ

كما يلحق الغيثُ البلادَ بسيلِهِ
ويا مقبلاً والدَّهْرُ عني مُعْرَضٌ
ويا مَنْ يَرَانِي حيثُ كُنتُ بِقَلْبِهِ
لقد رُمْتُ بي آمالَ نفسي كُلِّها
وكم نعمةٌ لله في صرفِ نِقْمَةٍ
وما كلُّ ما تَهْوَى النفوسُ بِنافعِ
وإن جادَ في أرضِ سِواها بِإمطارِ
يقسِّمُ لَحْمِي بينَ نابٍ وأظفارِ
وكم من أناسٍ لا يَرَوْنَ بِأَبْصَارِ
فيا لَهْفَ نفسي لو أُعِنْتَ بِمقدارِ
ورفعتِ ناري كي يرى ضوءها الساري
ترجى ومكروهٍ حَلاً بعدَ إمرارِ
ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضراً

قوله:

كما يلحق الغيثُ البلادَ بسيلِهِ
مأخوذ من قول نَهْشَل بن حري وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كسوةً ومالاً من المدينة: الطويل:
جزى الله خيراً والجزاءُ بِكَفِهِ
أَتَانِي وَأَهْلِي بِالْعِرَاقِ نَدَاهُمُ
وقال ابن المولى: الوافر:

سُرِرْتُ بِجَعْفَرٍ إِذْ حَلَّ أَرْضِي
كَمَطُورٍ بِلَدَّتِهِ فَأَضْحَى
وبعث عبدُ الله بنُ طاهرٍ إلى أبي الجنوب بن أبي حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ درْهم فقال: الطويل:
لعمري لنعم الغيثُ غيثٌ أَصابنا
ونِعَمَ الْفَتَى وَالْبَيْدُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فكُنَّا كَحَيِّ صَبَحَ الْغَيْثُ أَهْلَهُ
أتى جودُ عبدِ الله حتى كَفَتْ بِهِ
بِغْدَادَ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَابِلُهُ
بِعَشْرِينَ أَلْفاً صَبَحْتِي رَسُولُهُ
وَلَمْ تَتَجَعَ أَطْعَانُهُ وَحَمَائِلُهُ
رَوَّاحِلُنَا سِيرَ الْفَلَاةِ رَوَّاحِلُهُ

من أخبار عضد الدولة في شجاع

وكانت بنو كلاب ومن والآها من العرب بنواحي الكوفة تجتمعوا وعزموا على أخذ الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دَينَر بن لشكروز فأصلحهما، وكان أبو الطيب المتني بها فوصله وبعث إليه خلعةً وقاد إليه فرساً بسرَجٍ ثَقِيل، فقال في قصيدة: الطويل:

فلو لم يسر سرنا إليه بأنفس
وما أنا ممن يدعي الشوق قلبه
و لكن رأيت الفضل في القصد شركة فكان لك الفضلان في القصد والفضل
وليس الذي يتبع الويل رائداً كمن جاءه في داره رائد الويل

عود إلى ابن المعتز

وكان ابن المعتز يمدح أبا أحمد بن المتوكل، ويلقب بالناصر والموفق، وكانت حاله ترامت في أيام المعتضد إلى غاية لم يبلغها الخليفة، وقد ذكرها الصولي في قصيدة لصاحب المغرب، فقال وقد اقتص خلفاء بني العباس من أولهم: الطويل:

ومعتضد من بعده وموفق
موازن لهم في كل فضل وسؤدد
يردد من إرث الخلافة ما ذهب
وإن لم يكن في العد منهم لمن حسب
وقال المعتضد، أو قيل على لسانه، لما غلب الموفق على أمره: الوافر:

أليس من العجائب أن مثلي
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
يرى ما هان ممتنعاً عليه
وما من ذاك شيء في يديه
وشعر ابن المعتز فيه: الطويل:

إليك امتطينا العيس تنفخ في البرى
صدين من التهجير حتى كأنها
وللصبح طرف بالظلام كحيل
سيوف جلاها الصقل فهي تحول

فبتنا ضيوفاً للفلاة قراهم
يهر برود العصب فوق متونها
عنيق ونص دائم وذميل
نسيم كنفث الراقبات على
ولما طغى أمر الدعي رميته
وجرد من أغماده كل مرهف
جرى فوق متنيه الفرند كأنما
وأعلمته كيف التصافح بالقنا
وسريع إلى الأعداء، أما جنابه
سريع إلى الأعداء، أما جنابه

ويُقرّي السؤال العُذر من بعد ماله
أخذ معنى قوله: نسيم كنفث الراقيات عليل عبدُ الكريم بن إبراهيم، فقال: المتقارب:

سلام على طيب رَوحاتنا	إلى القصرِ والنهرِ الخضرِ
إلى مُزبدِ المَوْجِ طامي العبا	ب يقذفُ بالبَّانِ والسَّاسمِ
تخالُ به قَطماً مُقرماً	يكرّ على قَطمٍ مُقرمِ
ويَسجو فيسحب في ذائل	يَمَانِ تَسَهَّم بالأنجمِ
كأنَّ الشمال على وجهه	بها سَقَم وهي لَمْ تَسَقَمِ
ضعيفة رَشَّ كَنَفَثِ الرقي	على كبدِ المُدْنَفِ المُغرِمِ
إذا دَرَجَت فوقه دَرَجَت	ه في حَبَكِ الزَّرْدِ المحكمِ
وقد جَلَلتُهُ بأوراقها	فروعُ غَدَتِها نِطَافُ السَّمِ
علَّتْها الحمامُ بتغريدها	كما سَجَعَ النُّوحُ في مَأْتَمِ
كأن شِعاعَ الضحَى بينها	على السوسن الغُضِّ والخُرَمِ
وشائع من ذَهَب سائل	على خسروانيَّة نَعَمِ
رُباً تتفقاً من فوقها	عزالي الربيع لها المرهمِ
على كل محببة خلة	تسدَّى على جَدولٍ مفعَمِ
كما قتل الوقفَ صَوَاغُهُ	وكالأرقم أنسابَ للأرقمِ

وقول ابن المعتز: ولما طغا أمرُ الدعيّ يريد صاحب الزنج بالبصرة، وكانت شوكته قد اشتدت وظفر به بعد مواجهة كثيرة، وفي ذلك يقول ابنُ الرومي في قصيدة طويلة جداً يمدح فيها أبا أحمد الموفق بن المتوكل، وصاعد بن خالد، والعلاء بن صاعد ابنه، وهي من أجود شعره، فقال: الطويل:

أبا أحمد، أبلَّيتَ أُمَّةَ أحمدٍ	بلاءَ سيرضاهُ ابنُ عمك أحمدُ
حصرتِ عميدَ الزنج حتى تخاذلتُ	قُواه، وأودى زادُه المتزوّدُ
فضلٌ، ولم تقتله، بلفظ نفسه	وظلٌّ، ولم تأسِرْه، وهو مقيّدُ
وكانت نواحيه كثافاً فلم تزلْ	تحقيقُها شَحْداً كأنك مبرّدُ
تفرّق عنه بالمكايد جُنْدُهُ	ويزدادهم جنداً وجندك محصدُ

ولايسُ سَيْفُ الْقُرْنِ بَعْدَ اسْتِلَابِهِ
فَمَا رُمْتَهُ حَتَّى اسْتَقْلَّ بِرَأْسِهِ
هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد البسيط:
ورأس مهراق قد ركبتُ قَلَتَهُ
الطويل:

أَضْرُ لَهُ مِنْ كَاسِدِيهِ وَأَكِيدُ
مَكَانَ قَنَاةِ الظَّهْرِ أَسْمَرُ أَجْرَدُ
لَدُنَّا يَقُومُ مَقَامَ اللَّيْتِ وَالْجِيدِ

ولم تَأَلْ إِنْذَاراً لَهُ غَيْرَ أَنَّهُ
سَكَنْتَ سَكُوناً كَانَ رَهْناً بَوْتَبَةٍ
هذا مأخوذ من قول النابغة: البسيط:
وقلت يا قومُ إِنَّ اللَّيْتَ مُنْقَبِضٌ
ويقول في مدح صاعد: الطويل:

رَأَى أَنْ مَتَنَ الْبَحْرِ صَرَخَ مَمَرْدُ
عَمَاسٍ، كَذَاكَ اللَّيْتُ لِلْوَتْبِ يَلْبُدُ
على برائثه، لَوْتَبَةٍ الضاري

يَقْرَظُ إِلَّا أَنْ مَا قِيلَ دُونَهُ
أَرْقَ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي فِي حُسَامِهِ

ويوصفُ إلا أنه لا يحدُّ
طِبَاعاً، وَأَمْضَى مِنْ شِبَاهٍ وَأُنْجَدُ

لَهُ سَوْرَةٌ مُكْتَنَةٌ فِي سَكِينَةٍ
كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَاهُ صَاعِداً

كَمَا لَكُنْتُ فِي الْغَمِّ الْجُرَازُ الْمَهْنَدُ
رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي الْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

لما سمع البحري هذا البيت قال: مني أخذه، في قوله في العلاء بن صاعد: الكامل:

سَمَاهُ أَسْرَتَهُ الْعَلَاءُ وَإِنَّمَا

قَصَدُوا بِذَلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاةُ

وهذا في قوله، كما قال ابن المرزبان وقد أنشد لابن المعتز في مناقضة الطالبيين: المتقارب:

دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنُ فِي غَابِهَا

وَلَا تَدْخُلُوا بَيْنَ أَنْيَابِهَا

فَنَحْنُ وَرَثَتُنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ

فَلَمْ تَجْذُبُونَ بِهِدَابِهَا

قال: قد أخذه من أقول، بعض العباسيين: المتقارب:

دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنُ أَغْيَالِهَا

وَلَا تَقْرِبُوهَا وَأَشْبَالِهَا

ولكنه سرق ساجاً، وردَّ عاجاً، وغلَّ قطيفة، وردَّ ديباجاً.

ومن قصيدة ابن الرومي: الطويل:

تَرَاهُ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَنْزِلِ

وَأَثَارُهُ فِيهَا، وَإِنْ غَابَ، شُهُدُ

كما احتجب المقدارُ والحكمُ حكمُهُ على الخلق طُرّاً ليس عنه مُعَرِّدُ

البحثري: الكامل: وَلِيَ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِ، وَمَحَلُّهَا=مُتَقَارِبٌ، ومرامها مُتَبَاعِدُ

يَتَكَفَّلُ الْأَدْنَى، وَيَدْرِكُ رَأْيَهُ ال أَقْصَى، وَيَتَّبَعُهُ الْأَبْيُّ الْعَانِدُ

إِنْ غَارَ فَهُوَ مِنَ النَّبَاهَةِ مَنْجِدُ أَوْ غَابَ فَهُوَ مِنَ الْمَهَابَةِ شَاهِدُ

وقال أعرابي يصف رجلاً: كان إذا ولي لم يطابق بين جفونه؟ ويرسل العيون على عيوق؛ فهو غائبٌ عنهم، شاهد معهم، والمحسنُ آمن، والمسيءُ خائف: الطويل:

فتى رُوحه رُوحٌ بسيطٌ كيانه ومسكن ذاك الرُوح نورٌ مُجَسَّدُ

صفاً ونفى عنه القذى فكأنه إذا ما استشفقتَه العقولُ مصعَّدُ

كرمتُم فجاش المفحمون بمدحكم إذا رَجَزُوا فيكم أثبتُم فقصدوا

أرى مَنْ تعاطى ما بلغتم كرائم منالَ الثريِّ وهو أكمه مُقْعَدُ

كما أزهت جناتُ عدنٍ وأثمرت فأضحت وعُجمُ الطيرِ فيها يغرَّدُ

وفي هذه القصيدة يقول:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يكون بكاءُ الطفلِ ساعةً يُولَدُ

وإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنِهَا لأفسحُ ممّا كان فيه وأرغدُ

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من رداها يهددُ

قال الصولي: افتتح ابن الرومي هذه القصيدة على ما لا يلزمه من فتح ما قبل حَرْفِ الروي اقتداراً، فحمله ذلك على أن قال: الطويل:

متاحٌ له مقداره فكأنما تقوَّضَ ثَهلانٌ عليه وصنَدُ

ثهلان: اسم جبل، وهذا لا يصحّ، إنما هو صندد بكسر الدال؛ لأن فعلاً لم يجرّ إلا في أربعة أحرف: درهم، وهجرع للأحمق، وهبلع للذي يبلع كثيراً، وقلم للذي يقلع الأشياء.

وقول ابن المعتز في وصف السيف: كأنما تنفس فيه القَيْنُ وهو صَقِيلٌ "معنى بديع في وصف الفرند، وقد قال: الطويل:

ولي صارمٌ فيه المنايا كوامنٌ فما يُنتَضَى إِلَّا لِسَفْكِ دِمَاءِ

ترى فوق متنيهِ الفرندَ كأنه بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ

وقال أيضاً إسحاق بن خلف: مجزوء الكامل:

ألقى بجانب خصره

أَمْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمَتَاخِ

وَكَأَنَّمَا ذَرَّ الْهَبَا

ء عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ

ولما صار سيفُ عمرو بن معد يكرب الذي يسمَّى الصمصامة إلى الهادي، - وكان عمرو وهبه لسعيد بن العاص، فتوارثه ولده إلى أن مات المهدي، فاشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان أوسع بني العباس كفاً، وأكثرهم عطاءً - ودعا بالشعراء، وبين يديه مِكْتَل فيه بَدْرَة، فقال: قولوا في هذا السيف، فبدر ابن يامين البصري فقال: الخفيف:

حاز صمصامةَ الزَبِيدِيَّ من بي

ن جميع الأنام موسى الأمينُ

سيفَ عَمْرُو وكان فيما سمعنا

خيرَ ما أَعْمَدَتْ عليه الجفونُ

أخضر اللون بين خديه بردٌ

من دُعَا فِيمِيسُ فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعقُ ناراً

ثم شابت فيه الذعافُ القيونُ

فإذا ما سللته بهر الشم

س ضياءً فلم تكذ تستبينُ

ما يُبَالِي مَنْ انتَضاءه لحرب

أشمالٌ سَطَّتْ بهِ أو يَمِينُ؟

يستطيرُ الأبصارُ كالقَبَسِ المش

عل ما تستقرُّ فيه العيونُ

وكانَ الفرندُ والجوهرُ والجا

ري على صفحتيه ماءً معين

نِعْمَ مخراق ذي الحفيظة في الهب

جاء يَعْصَى به ونِعْمَ القرينُ

قال موسى: أصبت ما في نفسي، واستخفَّ الفرخ، فأمر له بالمِكتَل والسيف؛ فلما خرج قال للشعراء: إنما حُرِّمتم من أجلي، فشأنكم المِكتَل، وفي السيف غناي فقام موسى فاشترى منه السيف بمالٍ جليل. البحري: الكامل:

قد جُدَّتْ بِالطَّرْفِ الجِوَادِ فَتَنَهُ

لأخيك من جدوى يديك بمُنْصَلٍ

يتناولُ الرُّوحَ البعيدَ منالُهُ

عَفَوًا، وَيَفْتَحُ فِي الْفَضَاءِ الْمُقَقَّلِ

بإِنارة في كلِّ حَتَفٍ مُظْلِمٍ

وهداية في كل نفسٍ مَجْهَلٍ

يَغْشَى الوغى فالتُّرسُ ليس بجُنَّةٍ

مِنْ حَدَّةٍ، والدَّرْعُ ليس بمَعْقَلٍ

ماضٍ وإن لم تُمَضِهِ يَدُ فَارِسٍ

بَطَلٍ، وَمَصْقُولٌ وإن لم يُصَقِّلِ

مُصْنَعٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى إِذَا مَضَى

لم يَلْتَفِتْ، وَإِذَا قَضَى لم يَعْدِلِ

متوقِّدٌ يَفْرِي بأوَّلِ ضَرْبَةٍ
فكأنَّ فارسه إذا استعصى به الزَّ
فإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ
حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ القديمةُ بَقْلَةً
وقال أبو القاسم بن هاني للمعز: الكامل:

ما أدركتُ ولو أنَّها في يَدُبُلٍ
حفانٍ يَعْصِي بالسَّمَاكِ الأعْزَلِ
وإذا أُصِيبَ فما له من مَقْتَلٍ
من عَهْدٍ عادٍ غَضَّةٌ لم تَذُبُلِ

عَجَبًا لِمُنْصَلِكِ المَقْلَدِ كيفَ لم
لم يَخْلُ جَبَّارُ الملوكِ بذكرِهِ
فإذا رأيناهُ رأينا عِلَّةً
بك حُسْنُهُ مُنْقَلَدًا وبَهَاؤُهُ
فإذا غَضِبَتْ عِلَّتُهُ دونك رُبْدَةٌ
وإذا طربت إلى الرِّضَا أهدى إلى
كَتَبَ الفرندُ عليه بعضَ صفاتِكُمْ

تَسِلُ النفوسُ عليك مِنْهُ مَسِيلًا
إلا تَشَحَّطَ في الدماءِ قَتِيلًا
لِلنَّيِّرَاتِ وَنَيِّرًا مَعْلُولًا
مُتَنَكِّبًا وَمَضَاؤُهُ مَسْلُولًا
يَعْدُو بها طَرْفُ الزمانِ كحِيلًا
شمس الظهيرة عَارِضًا مصقولًا
فَعَرَفْتُ فيه التاجَ والإكْلِيلًا

وقال: الكامل:

هل يُدْثِنِي من فَنَائِكِ سَابِحٌ
ومُهَنْدٍ فيه الفرندُ كأنَّهُ

مَرَحٌ وجائِلَةُ النُّسُوعِ أُمُونُ؟
درَّ له خَلْفَ الفراتِ كمينُ

عَضْبُ المضاربِ مُقْفِرًا من أعين

لكنه من أنفُسٍ مَسْكُونِ

وأهدى الكندي إلى بعض إخوانه سيفًا، فكتب إليه: الحمد لله الذي خصَّكَ بمنافعٍ كمنافع ما أهديتَ، وجعلكَ تَهْتزُّ للمكارمِ اهتزازَ الصَّارمِ، وتمضي في الأمورِ مضاءَ حدِّه الماثورِ، وتصونُ عرضك بالإرفادِ، كما تُصانُ السيوفُ بالأغمدِ، ويطرُدُ ماءُ الحياءِ في صفحاتِ خدك المشوفِ، كما يشفُّ الرونقُ في صفائحِ السيوفِ، وتصلُّ شرفك بالعطياتِ، كما تصلُّ مُتُونُ المشرفياتِ.

من أخبار أبي جعفر المنصور

قدم على أبي جعفر المنصور وفدً من الشام بعد انهزام عبد الله بن علي، وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الغفاري، فتكلم جماعة منهم، ثم قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لَسَنَّا وفدٌ مباهاة، ولكننا وفدٌ توبة استخفَّتْ حليمنا؛ فنحن بما قدمنا معترفون، وبما سلف منا مُعْتَذِرُونَ، فإن تعاقبنا فيما أجرمنا، وإن نَعَفُ

عنا فطالما أحسنتَ إلى من أساء، فقال المنصور: أنتَ خطيب القوم، وردَّ عليه ضياعه بالعوطة.

وقاد رجلٌ من أهل الشام للمنصور: يا أمير المؤمنين، من انتقم فقد شَفَى غِيظَه وانتصف، ومن عفا تفضل، ومن أخذ حقه لم يَجِبْ شكره ولم يذكر فضله، وكَظُم الغيظُ حلم، والتشفي طَرَفٌ من الجزع، ولم يمدح أهل التقى والنهي من كان حليماً بشدة العقاب، ولكن بحُسن الصَفْح والاعتذار وشدة التغافل، وبعد، فالمعاقب مستدعٍ لعداوة أولياء المذنب، والعافي مسترعٍ لشكرهم آمِنٌ من مكافأهم، ولأن يُثنى عليك بأنَّساع الصدر خيرٌ من أن توصف بضيقة، على أن إقالتك عشرات عباد الله موجبٌ لإقالة عَشْرَتِكَ من ربِّهم، وموصول بعفو، وعقابك إياهم موصول بعقابه، قال الله عزَّ وجلَّ: "تُخَذِ الْعَفْوُ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ".

العفو عند المقدرة

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه: "إذا كنتَ لم تُرَضَ مني بالإساءة فلم رضيت من نفسك بالمكافأة؟".

وأذنب رجل من بني هاشم فقبضه المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ حملَ مثلَ دالِّي، ولَبَسَ ثَوْبَ حرمي، غُفِرَ له مثلُ زَلَّتِي، قال: صدَقْتَ وعفا عنه.

ولما دخل بعضُ الكتاب على أميرٍ بعد نكبة نالته فرأى من الأمير بعضَ الازدراء، فقال له: لا يَضْعُجُ عندك حمولُ التَّبوَّة، وزوال الثروة؛ فإنَّ السيفَ العتيق إذا مسَّه كثيرُ الصِّدْلِ أَسْتَغْنَى بِقَلِيلِ الْجَلَاءِ حَتَّى يَعُودَ حُدُّهُ، ويظهر فِرْنْدُهُ؛ ولم أَصِفْ نفسي عجباً، لكن شُكراً. وقال، صلى الله عليه وسلم: "أنا أشرفُ ولدِ آدم ولا فخر"، فجهر بالشكر، وترك الاستِطالة بالكبر.

من أخبار المعتصم

وكان تميم بن جميل السدوسي قد أقام، بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب، فعظَّم أمرُه، وبعُدَ ذكره؛ فكتب المعتصمُ إلى مالك بن طَوْقٍ في النهوض إليه، فتبدَّد جمعه، وظفر به فحملهُ مُوثَقاً إلى باب المعتصم، فقال أحمد بن أبي داود: ما رأيتُ رجلاً عاين الموت، فما هالَه ولا شغله عما كان يَجِبُ عليه أن يفعلَه إلا تميم بن جميل؛ فإنه لما مَثَلَ بين يدي المعتصم وأحضر السيفَ والنطعَ، ووقف بينهما، تأمَّله المعتصم - وكان جميلاً وسيماً - فأحبَّ أن يعلمَ أين لسانه من منظره، فقال: تكلم يا تميم، فقال: إذا أذنت يا أمير المؤمنين، فأنا أقول: الحمدُ لله الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ

طين، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءِ مَهِينٍ" أيا أمير المؤمنين: حبر الله، بك صدع الدين، ولم بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبيل الحق، وأحمد بك شهاب الباطل؛ إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة، وتُعْيِي الأفتدة الصحيحة، ولقد عظمَتِ الجريرة، وانقطعتِ الحجة وساء الظن، فلم يبق إلا عفوك وانتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إليَّ أشبههما بك، وأولاهما بكرمك، ثم قال: الطويل:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يُلاحظني من حيثما أتلفتُ

وأكبرُ ظني أنك اليوم قاتلي وأيُّ امرئٍ مما قضَى الله يفلت

وأيُّ امرئٍ يأتي بعذرٍ وحجةٍ وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلَّتُ

وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلمُ أن الموت شيءٌ موقتُ

ولكنَّ خلفي صبيبةٌ قد تركتهم وأكبأُهم من حسرةٍ تتفتتُ

فإن عشتُ عاشوا سالمين بغبطةٍ أدودُ الردى عنهم وإن متُّ موتوا

وكم قاتلٍ لا يبعد الله داره وآخر جدلانٍ يسرُّ ويشمتُ

فتبسّم المعتصم وقال: يا جميل، قد وهبتك للصبيبة، وغفرت لك الصبوة، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه، وعقد له على شاطئ الفرات.

وكتب المعتصم - حين صارت إليه الخلافة - إلى عبد الله بن طاهر: عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هناتٌ غفرها الاقتدار، وبقيت حزازاتٌ أخافُ منها عليك عند نظري إليك؛ فإن أتاكَ ألفُ كتابٍ أستقدمك فيه فلا تقدّم، وحسبك معرفة بما أنا مُنطَوٌّ لك عليه إطلاعي إياك على ما في ضميري منك، والسلام.

قال العباس بن المأمون: ولما أفضت الخلافة إلى المعتصم دخلتُ، فقال: هذا مجلسٌ كنتُ أكرهُ الناسَ لجلوسِي فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنتَ تعفو عما تيقنته، فكيف تعاقب على ما توهّمته؟ فقال: لو أردت عقابك لترك عتابك.

وكان المعتصم شهماً، شجاعاً، عاقلاً، مفوهاً، ولم يكن في خلفاء بني العباس أميٍّ غيره، وقيل: بل كان يكتبُ خطاً ضعيفاً، وكان سبب ذلك أنه رأى جنازة لبعض الخدم، فقال: ليتني مثله لأتخلص من الكتاب فقال الرشيد: والله لا عذبتك بشيء تختارُ عليه الموت.

قال أبو القاسم الزجاجي: وهذا شيء يُحكى من غير رواية صحيحة، إلا أن جملة أنه كان ضعيف البصر بالعربية.

وقرأ أحمد بن عمار المذري - وكان يتقلد العرضَ عليه في الحضرة - كتاباً فيه: ومطرنا مطراً أكثر عنه الكلاء" فقال له المعتصم: ما الكلاء؟ فقال: لا أدري. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! خليفة أُمي وكاتب أُمي! ثم قال: مَنْ يقرب منا من كتاب الدار؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات، وكان يتوكّل قَهْرَمَةَ الدار، ويُشْرِفُ على المطبخ، فأحضره، فقال: ما الكلاء؟ فقال: النبات كله رطبُه ويابسُه؛ فالرطب منه خاصة يقال له خلاً، ومنه سُميت المخلاة، واليابس يقال له حشيش؛ ثم اندفع في صفات النبات من لى ابتدائه إلى اكتماله إلى هَيْجِه، فاستحسن ذلك المعتصم، وولاه العرضَ من ذلك اليوم، فلم يزل وزيراً مدة خلافته وخلافة الوائق، حتى نكبه المتوكل بحقود حَقَدَها عليه أيام أخيه الوائق؟.

وقال الرياشي: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدّده فيه، فأمر بجوابه، فلما قرئ عليه لم يَرْضَ ما فيه، وقال لبعض الكتاب: اكتب: أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عُقِبَى الدار.

وهذا نظير قول قَطْرِي للحجاج، وقد كتب إليه كتاباً يتهدّده، فأجابه قطري: أما بعد، فالحمد لله الذي لو شاء لجمع شخصين؛ فعلمت أن مُثاقفة الرجال أقوم من تَسْطِير المَقال، والسلام.

بين المهلب والحجاج

ولما افتتح المهلبُ خراسان، ونَفَى الخوارج عنها، وتفرّقت الأزارقة، كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لي بخبر الواقعة، واشرح لي القصةَ حتى كأني شاهِدُها، فبعث إليه المهلبُ كعب بن معدان الأشعري، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتاً تقتضُ خبرهم لا يخرم منه شيئاً؛ فقال له الحجاج: أخطيب أم شاعر؟ قال له: كلاهما، أعزَّ الله الأمير! قال: أخبرني عن بني المهلب، فقال له: المغيرةُ سيدهم، وكفالك بيزيد فارساً، وما لقي الأبطال مثل حبيب، وما يستحي شجاع أن يفرَّ من مُدْرِك، وعبد الملك موتٌ دُعاف وسم نافع، وحسبك بالمفضل في التَّجْدَةِ، واستَجْهَزَ قبيصة، ومحمد ليث غاب، فقال الحجاج: ما أراك فضلت عليهم واحداً منهم؛ فأخبرني عن جملتهم ومن أفضلهم؟ فقال: هم - أعزَّ الله الأمير! - كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها، قال: إنَّ خبرَ حَرْبِكُم كان يبلغني عظيماً، أفكذلك كان؟ قال: نعم أيها الأمير، والسماع دون العيان. قال: أخبرني كيف رَضَا المهلبُ عن جنده ورضًا جنده عنه؟ قال: أعزَّ الله الأمير، له عليهم شفقة الوالد، ولهم به برُّ الولد. قال: أخبرني كيف فاتكم قَطْرِي؟ قال: كدناهُ في منزله فتحول عنه، وتوهم أنه كادنا بذلك، قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: الكلب إذا أبحر عَقَرَ، قال: المهلبُ كان أعلم بك حيث أرسلك.

وقد رُوي أنَّ المهلبَ لما فرغ من قتل عبد ربه الحروري دعا بشر بن مالك فأئذنه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل إلى الحجاج قال: ما اسمُك. قال: بشر بن مالك، فقال الحجاج: بشارة وملك! وكيف خلقت المهلب؟ قال: خلفته وقد آمن ما خاف، وأدرك ما طلب؛ قال: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كانت البداءة لهم، والعاقبة لنا، قال الحجاج: العاقبة للمتقين، ثم قال: فما حال الجند؟ قال: وسعهم الحق، وأغناهم النفل، وإنهم لمع رجل يسوسهم سياسة الملوك، ويقاتل بهم قتال الصعلوك، فلهم منه برُّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رعاة البيات حتى يؤمنوه، وحمأة السرح حتى يردوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال: وأنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبرة، قال: هم كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفها، قال: ويحك أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله.

بين أبي الصقر وصاعد بن مخلد

ودخل أبو الصقر قبل وزارته على صاعد بن مخلد، وهم الوزير حينئذ، وفي المجلس أبو العباس بن ثوبة، فسأل الوزير عن رجل، فقال: أنفي؟ يريد نفي؟ فقال ابن ثوبة: في الحرء، فتصاحك به أهل المجلس، فقام أبو الصقر مغضباً.

بين أبي العيناء وابن ثوبة

وكان أبو العيناء يُعادي ابن ثوبة لمعاداته لأبي صقر؛ فاجتمعا في مجلس صاعد في غد ذلك اليوم، فتلاحيا، فقال ابن ثوبة: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك ضيق الطعن، كثير الوسن، خاراً على الذقن، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر، وإنما حلم عنك؛ لأنه لم يجد لك عزاً فبذله، ولا علواً فيضعه، ولا مجدداً فيهدمه؛ فعاف لحمك أن يأكله، ودمك أن يسفكه، فقال ابن ثوبة: ما تساب إنسانان إلا غلب الأملهما، فقال أبو العيناء: فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر!.

مكارم أبي الصقر

ومما يُعدُّ من مكارم أبي الصقر أن ابن ثوبة دخل عليه في وزارته، فقال: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا خاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثريب عليك، يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين، فما قصّر في الإحسان إليه، والإنعام عليه، مدة وزارته.

بين أبي الصقر وأبي العيناء

ولما ولي أبو الصقر الوزارة خيّر أبا العيناء فيما يحبّه حتى يفعلّه به، فقال: أريد أن يكتب لي الوزير إلى أحمد بن محمد الطائي يعرفه مكاني، ويلزمه قضاء حق مثلي.

فكتب إليه كتاباً بخطّه، فوصله إلى الطائي، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دينار، وعاشره أجمل عشرة، فانصرف بجميع ما يحبّه.

وكتب إلى أبي الصقر كتاباً مضمّن: أنا - أعزّك الله - طليقك من الفقر، ونقيذك من البؤس، أخذت بيدي عند عشرة الدهر، وكبوة الكبر وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال والإخوان والأمثال، الذين يفهمون في غير تعب، وهم الناس الذين كانوا غيائاً للناس، فحللت عقدة الخلّة، ورددت إليّ بعد النفور النعمة، وكتبت لي كتاباً إلى الطائي، فكأنما كان منه إليك، أتيتّه وقد استصعبت عليّ الأمور، وأحاطت بي النوائب؛ فكثير من بشره؟ وبذل من يسره، وأعطى من ماله أكرمه، ومن برّه أحكمه، مكرماً لي مدة ما أقمت، ومثقلاً لي من فوائده لما ودّعت، حكمني في ماله فتحكّمت، وأنت تعرف جوري إذا تمكّنت، وزادني من طوله فشكرت؛ فأحسن الله جزاءك، وأعظم جباءك، وقدمني أمامك، وأعاذني من فقدك وحمامك؛ فقد أنفقت عليّ مما مملكك الله، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي، والله عز وجل يقول: "لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ" فالحمد لله الذي جعل لك اليد الغالبة، والرتبة الشريفة، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسط فيها من عدل، وبث فيها من رفد.

بين أبي العيناء وأحمد بن الخصيب

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذي عمله أبو العيناء في ذمّ أحمد بن الخصيب لما نكب على السنة الكتاب والقواد وأرباب الدولة في ذلك الوقت. قال: ذكره محمد بن عبد الله بن طاهر فقال: ما زال يخرق ولا يرقع، وما زلت أتوقع له الذي وقع فيه. وذكره أتامش، فقال: غدر بمن آثره، وتخطى إلى ما لا يقدره، فحل به ما يحذره. وذكره بغاء فقال: أبطرته النعمة، ففجأته النعمة، وذكره وصيف فقال: ترك العقلاء على يأس مرتبته، والحمقى على رجاء درجته! وذكره موسى بن بغاء فقال: لولا أن القدر يعشي البصر، لما نهى فينا ولا أمر. وذكره فارس بن بغاء فقال: لم تتم له نعمة؛ لأنه لم تكن له في الخير همة. وذكره الفضل بن العباس فقال: إن لم يكن تاريخ البلاء فما أعظم البلوى. وذكره هارون بن عيسى فقال: كانت دولة من دول المجانين، خرجت من الدنيا والدين. وذكره المعلى بن أيوب، فقيل له: ما

أعجب ما نكب، فقال: نعمته أعجب من نكبته! وذكره ميمون بن إبراهيم، فقال: لو تأمل فعاله فاجتنبها، لاستغنى عن الآداب أن يطلبها! وذكره محمد بن نجاح فقال: لئن كانت النعمة عظمت على قوم خرج عنهم لقد عظمت المصيبة على قوم نزل فيهم! وذكره علي بن يحيى بن المنجم، فقال: لم يكن له أول يرجع إليه، ولا آخر يعود عليه، ولا عقل فيزكو لديه! وذكره محمد بن موسى بن شاكر المنجم فقال: قبحه الله إن ذكرت ذا فضل تنقصه لما فيه من ضده، أو ذكرت ذا نقص تولاّه لما فيه من شكله. وذكره ابن ثوبة فقال: امرؤ أساء عشرة الأحرار، فأصبح مقفر الديار. وذكره حجاج بن هارون فقال: ما كان له في الشرف أسباب متان، ولا في الخير عادات حسان. وذكره أحمد بن حمدون فقال: إن منحت القدرة لقد حملته النكبة. وذكره محمد بن الفضل فقال: ما زال يستوحش بالنعمة حتى أنس بالنقمة وذكره عبد الله بن فراس فقال: كنت إذا نصحت زتاني، وإذا غششت متاني. وذكره أبو صالح بن عمار فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال: إذا أصاب أحجم، وإذا أخطأ صمم.

أخبار أبي بكر المعروف بسبيويه

وكان في هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسبيويه ناقلة البصرة يُشبهه في حضور جوابه وخطابه، وحسن عبارته، وكثرة روايته، وكان قد تناول البلاذري؛ فعرضت له منه لوثة، وكان أكثر الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول.

قال يوماً للمصريين: يا أهل مصر، أصحابنا البغداديون أحزم منكم، لا يقولون بالولد، حتى يتخذوا له العقد والعُدَد؛ فهم أبدأ يعتزلون. ولا يقولون باتخاذ العقار خوفاً أن يملكهم سوء الجوار؛ فهم أبدأ يكثرّون. ولا يقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تتوق نفسهم إلى السّراري؛ فهم أبدأ يتسرّرون. ولا يقولون أبدأ بإظهار الغنى في مكان عُرفوا بالفقر؛ فهم أبدأ يسافرون.

ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلق مأخذها، فقال: يا أهل مصر، حيطان مقابر أنفع منكم، يُستنزّه بها من التعب، ويُستدْفأ بها من الريح، ويُستظل بها من الشمس. والبهايم خير منكم تُمتطي ظهورها، وتُحتذى جلودها، وتؤكل لحومها.

وكان أبو الفضل بن خنزابه الوزير، ربّما رفع أنفه يها، فقال له سبيويه، وقد رآه فعل ذلك: أشمّ مني الوزير رائحة كريهة فشمر أنفه، فأطرق واستعمل النهوض، فخرج سبيويه، فقال له الرجل: من أين أقبلت؟ فقال: من عند الزاهي بنفسه، المدلّ بفرسه، المستطيل على أبناء جنسه.

واستأذن على مسلم بن عبيد الله العلوي، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر، فحجب عنه، فقال: قولوا له: يرجع إلى لبس العباء، ومصّ النوى، وسكنى الفلا، فهو أشبه به من نعيم الدنيا.

وكان على شرط كافور الإخشيدي أحدُ الخاصّة؛ فوجد عليه سبيويه في بعض الأمر، فعزل عن الشرطة، فولّوها ركي صاحب الراضي، فلم يحمده أيضاً، فوقف لكافور وهو ماراً إلى الصلاة يوم الجمعة، فقال: أيها الأستاذ، وليت ظالماً، وعزلت ظالماً، قليل الوفاء، كثير الجفاء، غليظ القفا. فتبسّم ابن بُرك البغدادي، وكان يسائر كافوراً، فقال: وهذا ابن بك ممن يغرّك، لن ينفعل ولن يضرّك.

وأخلى الحمام لمفلح الحسيني، فأتى سبيويه ليدخل، فمِنع، وقيل: الأمير مفلح به، فقال: لا أنقى الله مغسولَه، ولا بلّغه سؤلَه، ولا وقاه من العذاب مهوُلَه، وجلس حتى خرج، فقال: إن الحمام لا يُخلى إلّا لأحد ثلاثة: مبتلى في قبله، أو مبتلى في دُبره، أو سلطان يخاف من شرّه، فأَي الثلاثة أنت. قال: أنا المقدّم.

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال: قد بلغني بداء لسانك، وقبيحُ معاملتك للأشراف، فاحذر أن تعودَ فينالكُ مني أشدُّ العقوبة؛ فخرج متحزناً، فكان الولدان يتولّعون به ويذكرون له الخازنَ، فيشتدّ عليه ذلك، فينصرف ولا يكلمهم؛ فمرّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبي مُعيط، وغلّامٌ قد ألح عليه بذلك، فضحك المعيطي، فقال للغلام: ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبي، صلى الله عليه وسلم، عنق عقبة بن أبي معيط على الكُفر، وضرب ظهراً أباك بالسوط كما ضرب عليّ بن أبي طالب بأمر عثمان، رضي الله عنهما، ظهر الوليد بن عقبة على شُرْب الخمر، وألحقك يا صبيّ بالصبيّة، يريد قول النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد قال له عقبة لما أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، عليّاً، رضي الله عنه، بقتله: "فَمَنْ للصبيّة يا رسول الله؟" قال: "النارُ لك ولهم"، فانصرف المعيطي وبَطْنُ الأرضِ أحبُّ إليه من ظهَرِها.

رَجْعُ إِلَى أَبِي الْعِيناء

وقال أبو العيناء: أنا أولُ من أظهر العقوقَ لوالديه بالبصرة، قال لي أبي: إن الله قد قرَن طاعته بطاعتي، فقال تعالى: "أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ" فقلتُ: يا أبت، إن الله تعالى قد أمني عليك ولم يأمنك عليّ، فقال تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ". وقال أعرابي لأبيه: يا أبت، إن كبيرَ حقك لا يبطل صغير حفيّ عليك، والذي تُمُتُّ به إليّ أُمْتُ بمثله إليك، ولست أزعمُ أنا سواء، ولكن لا يحلّ لك الاعتداء. ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمّه إليه، فقال: أنا إلى ضمّ الكفاية أحوجُ مني إلى ضمّ اليدين.

وقال له مرة: أنا معك مقبوض الظاهر، مرحوم الباطن.

قال أبو الطيب المتنبّي: البسيط:

ماذا لَقِيتُ من الدنيا وأعجَبَها أني بما أنا بالكِ منه محسودُ

وقال له رجل: يا مخنثُ، فقال: "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ".

وذكر أبو العيْناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك، فقال: بأبي وأمي دَامَ الْوَجْهُ الطَّلَقُ، والقول الحقُّ، والوعد الصدق، نَبِيتُهُ أَفْضَلُ من علانيته، وفعلُهُ أَفْضَلُ من قوله. وقال له المتوكل: ما أَشَدَّ ما مرَّ عليك من فَقْدِ بصرك؟ فقال: ما حُرِّمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير! وقال لعبيد الله بن يحيى: مَسَّنَا وأهلنا الضرُّ، وبضاعتنا الحمدُ والشكر، وأنت الذي لا يَخِيبُ عنده حرٌّ. وقال له يوماً: قد اشتدَّ الحجاب، وفحش الحرمان، فقال: ارفق يا أبا عبد الله، فقال: لو رفق بي فعلك لرفق بك قولي! وقال له: أيها الوزير، إذا تغافل أهلُ التفضُّلِ هلك أهلُ التجمُّلِ. وذم رجلاً فقال: لا يعرفُ الحقَّ فينصره، ولا الباطلَ فيُنكره. وقيل له: ما أبلغ الكلام؟ فقال: ما أَسَكَّتِ المُبْطِلُ، وخَيَّرَ الحقُّ. وقيل له: مات الحسن بن سهل، فقال: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطل بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموتِه الأنام، وخرست بفقدِه الأقالِم.

باب الرثاء

قال أشجع بن عمرو السُّلَمي: الطويل:

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقُ ولا مغربٌ إلَّا له فيه مادِحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كَفِّهِ على الناسِ حتى غَيَّبَتْهُ الصَّفائِحُ
فأصبح في لَحْدٍ من الأرضِ مَيِّتاً وكانت به حياً تضيقُ الصَّحائِحُ
كأن لم يمت ميتٌ سواك ولم نَقَمْ على أحدٍ إلَّا عليك النوائِحُ
فما أنا من رُزءٍ وإن جَلَّ جازع ولا بسرورٍ بعد موتِكَ فارحُ
لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثي وذكرُها لقد حَسُنَتْ من قَبْلُ فيكَ المدايحُ
سأبكيك ما فاضت دموعي، فإن تَغَضَّ فحسبكُ مني ما تُكِنُّ الجوائِحُ

قوله: وكانت به حياً تضيقُ الصَّحائِحُ يتعلق بقول الحسين بن مطير في مَعْن بن زائدة: الطويل:

ألمَّا على مَعْنٍ وقولا لقبره: سَقَّتَكَ الغواذي مَرَبَعاً ثم مَرَبَعاً
فيا قبرَ مَعْنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ من الأرضِ خُطَّتْ للسماحة مَضْجَعاً

ويا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَا رَيْتَ جَوْدَهُ
بَلَى قَدْ وَسِعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتٌ
فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
وَلَمَّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الْجُودُ وَانْقَضَى
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتَرَعَا؟
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تَصَدَّعَا
كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا
وَأَصْبَحَ عَرْنِينُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعَا

وهذا كقول عبد الصّمد بن المعدل عمرو بن سعيد بن سَلَم الباهلي: الوافر:

أَقْبِرُ أَبِي أُمِيَّةَ لَوْ عُلَاهُ
حَوَيْتَ الْجُودَ وَالتَّقْوَى وَعَمْرًا
لَمَوْتَهُمْ أَطَقْتُ لَهُمْ ضَمَانًا
فَكَيْفَ أَطَقْتُ يَا قَبْرُ اضْطِلَاعَا؟
حَمَلْتُ إِذَا لَضِقْتُ بِهِ ذِرَاعَا
وَلَوْ لَا ذَاكَ لَمْ تُطَقِ اتِّسَاعَا

وقول أشجع: لئن حسنت فيك المراثي وذكرها من قول الخنساء: الكامل:

يَا صَخْرُ، بَعْدَكَ هَاجَنِي اسْتِعْبَارِي
كُنَّا نَعُدُّ لَكَ الْمَدَائِحَ مَدَّةً
شَانِيكَ بَاتَ بِذِلَّتِي وَصَغَارِي
فَالْيَوْمَ صَرْتُ تَتَّاحُ بِالْأَشْعَارِ

وقالت جَنُوبُ أُخْتُ عَمْرُو ذِي الْكَلْبِ: المتقارب:

سَأَلْتُ بَعْمُرَ أَخِي صَحْبَهُ
فَقَالُوا: أُتِيحَ لَهُ نَائِمًا
أُتِيحَ لَهُ نَمْرًا أَجْبُلٍ
فَأَقْسَمُ يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهَّاكَ
إِذَا نَبَّهَّا لَيْثَ عَرِيْسَةٍ
إِذَا نَبَّهَّا غَيْرَ رَعِيْدَةٍ
هَمَا مَعَ تَصْرِفِ رَيْبِ الْمَنُونِ
وَقَالُوا: قَتَلْنَاهُ فِي غَارَةٍ
فَهَلَّا إِذَا قَبَلَ رَيْبَ الْمَنُونِ
وَقَدْ عَلِمْتُ فَهْمُ عِنْدَ اللَّقَاءِ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْسُوا بِهِ
وَلَمْ يَنْزِلُوا بِمَحْوِلِ السَّنِينِ
فَأَفْظَعَنِي حِينَ رَدُّوا السُّؤَالَ
أَغْرُ السَّلَاحِ عَلَيْهِ أَجَالَا
فَنَالَا لَعْمَرَكَ عَنْهُ وَنَالَا
إِذَا نَبَّهَّا مِنْكَ دَاءَ عُضَالَا
مُبِيدًا مُفْتِيًّا نَفُوسًا وَمَالَا
وَلَا طَائِشًا دَهْشًا حِينَ صَالَا
مِنَ الدَّهْرِ رَكْنًا شَدِيدًا أَمَالَا
بَآيَةِ أَنْ قَدْ وَرَثْنَا النَّبَالَا
فَقَدْ كَانَ فَذًّا وَكُنْتُمْ رَجَالَا
بَأَنَّهُمْ لَكَ كَانُوا نِفَالَا
فِيخْلُوا نِسَاءَهُمْ وَالْحِجَالَا
بِهِ فَيَكُونُوا عَلَيْهِ عِيَالَا

وقد علم الضيفُ والمُرْمَلونَ
 وخَلَّتْ عَنْ أولادِها المرضعاتُ
 بأنَّكَ كُنْتَ الربيعَ المغيثَ
 وخرقَ تجاوزتَ مجهولَهُ
 فكنتَ النهارَ به شمسَهُ
 وحيَّ صبحتَ وحيَّ أبحتَ
 وكم من قبيل وإن لم تكن
 إذا اغبرَّ أفقٌ وهبَّتْ شمالاً
 ولم ترَ عينٌ لمزنٍ بلالاً
 لمن يَعْتَفِيكَ وكنتَ الثمَّالاً
 بوجنَّاءِ حَرْفٍ تشكي الكلالاً
 وكنتَ دجَى الليل فيه هلالاً
 غداة اللقاء منايًا عجالاً
 أرَدَتْهُمُ منك باتوا وجالاً

قال عمرو بن شبة: وكان عمرو بن عاصم هذا يَغْزُو فَهَمًّا فيصيب منهم، فوضعوا له رصداً على الماء، فأخذوه فقتلوه، ثم مرُّوا بأخته جُنُوبَ، فقالوا: أخاك؛ فقالت: لئن طلبتموه لتجدنَّه منيعاً، ولئن ضفتموه لتجدنَّه مريعاً، ولئن وعدتموه لتجدنَّه سريعاً! فقالوا: قد أخذناه فقتلناه، وهذا نبله. فقالت: والله لئن سلبتموه لا تجلون ثلثه وافية، ولا حجرته جافية، ولربّ ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه؛ ثم قالت الأبياتَ المتقدمة الذكر.

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله: الطويل:

ألا في سبيل الله ماذا تضمّنت
 بدورٍ إذا الدنيا دجّت أشرقت بهم
 بطونُ الثرى واستودعَ البلدُ الفقرُ
 وإن أجدبت يوماً فأيديهم القطرُ

فيا شامتاً بالموت لا تشمتن بهم
 أقاموا بظَهْرِ الأرض فاخضرَّ عودُها وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظهْرُ
 وقال أبو عبد الله العتي، وتوفي له بنون فجع بهم ومات في آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عمرو كان يقول الشعر؛ فقال يرثيه: الطويل:

لقد شمت الواشون بي وتغيرتْ
 تجرّى عليَّ الدهرُ لما فقدته
 أسكان بطن الأرض لو يُقبلُ الفدى
 فيا ليت مَنْ فيها عليها، وليت من
 وقاسمني دَهري بني مُشاطراً
 وجومٌ أراها بعد موت أبي عمرو
 ولو كان حيّاً لاجترأتُ على الدهرِ
 فدينا، وأعطينا بكم ساكني الظهْرِ
 عليها ثوى فيها مُقيماً إلى الحشرِ
 فلما توفّى شطره مال في شطري

فصاروا كأن لم يعرف الموت غيرهم
وقاد في ابن توفي صغيراً: مجزوء الرمل:

إِنْ يَكُنْ مَاتَ صَغِيرًا

كَانَ رِيحَانِي فَأَمْسَى

غَرَسْتَهُ فِي بَسَاتِي

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبي قوله: الطويل:

فَإِنْ تَكُ فِي قَبْرِ فَإِنَّكَ فِي الْحَشَا

وقال خلف بن خليفة الأقطع: الطويل:

أَعَاتَبْتُ نَفْسِي إِنْ تَبَسَّمْتُ خَالِيًا

وبالبدُّ أشجاني وكم من شَجٍ لَهُ

رُبِّي حَوْلَهَا أَمْثَالُهَا إِنْ أَتَيْتَهَا

كَفَى الْهَجْرَ أَنَا لَمْ يَضِحْ لَكَ أَمْرُنَا

وقال أبو عطاء السَّندي في ابن هبيرة: الطويل:

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجْدُ يَوْمَ وَاسِطٍ

عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّقَتْ

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَا فَرُبَّمَا

فَإِنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مَتْعَهْدٍ

أعرابي: الطويل:

وَمَنْ عَجِبَ أَنْ بَتَّ مَسْتَوْدَعُ الثَّرَى

فَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُكَ الْوَدَّ لَمْ أَبْتَ

سَأَحْمِي الْكَرَى عَيْنِي وَأَفْتَرِشَ الثَّرَى

وبعدك لا آسى لعظم رزية

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظماً ونثراً.

قال أبو نواس في الأمين: الطويل:

فَتَكَلَّ عَلَى تَكَلِّ وَقَبْرٍ عَلَى قَبْرِ

فَالْأَسَى غَيْرُ صَغِيرٍ

وهو رِيحَانُ الْقُبُورِ

ن الْبَلَى أَيْدِي الدَّهْورِ

وَإِنْ تَكُ طِفلاً فَالْأَسَى لَيْسَ بِالطِفْلِ

وَقَدْ يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ

دُؤَيْنَ الْمَصَلَّى وَالْبَقِيعِ، شَجُونٌ

قَرِينُكَ أَشْجَانًا وَهَنْ سَكُونٌ

وَلَمْ يَأْتِنَا عَمَّا لَدَيْكَ يَقِينٌ

عَلَيْكَ بَبَاقِي دَمْعُهَا لَجْمُودُ

جِيُوبٌ بِأَبْدَى مَاتَمٍ وَخُدُودُ

أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وَفُودُ

بَلَى كُلُّ مَا تَحْتَ التَّرَابِ بَعِيدُ

وَبَثُّ بِمَا زَوَّدْتَنِي مَتَمَّتَا

خِلَافَكَ حَتَّى نَنْطَوِيَ فِي الثَّرَى مَعَا

يَمِينِي إِذَا صَارَ الثَّرَى لَكَ مَضْجَعَا

قَضَيْتَ فَهَوَّنتِ الْمَصَائِبَ أَجْمَعَا

طَوَى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ

وليسَ لما تَطَوَّى المنيةُ ناشِرُ

لئن عَمَرْتُ دُورَ بمن لا أحبهُ

لقد عَمَرْتُ ممن أحبُّ المقابرُ

وكنْتُ عليه أَحْذَرُ الموتَ وحدهُ

فلم يَبْقَ لي شيءٌ عليه أَحْذِرُ

وقيلَ لأمِّ الهيثمِ السدوسية: ما أسرعَ ما سلوتَ عن ابنك الهيثم! قالت: أما والله لقد رُزِئتَه كالبدْرِ في بهائه، والرَّمحِ في استوائه، والسيفِ في مَضائِه؛ ولقد فَتَّتْ مصيبتُه كبدِي، وأفنى فَقْدُه جلدِي، وما اعتَضْتُ من بعده إلا أَمَنَ المصائبَ لفقدِه.

وعزَّى أبو العيْناء أحمد بن أبي دُواد عن ولدٍ له، فقال: ما أصيبَ من أثيب، والله لقد هانَ لفقدِه، جليلِ المصائبِ من بعده.

ودخلَ أعرابي من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون، فلما كان بَقَسْرَيْن ماتَ بنوه بالطاعون فقال: الطويل:

أبعدَ، بَنِيَّ، الدهرَ أَرْجُو غَضارَةً

من العيشِ أو آسى لما فات من عُمْرِي؟

غَطَارِفَةً زُهرٌ مَضَوْا لسبيلهم

فلهفي على تلك الغَطَارِفَةِ الزُّهرِ

سقى الله أجساداً ورائي تركتها

بحاضر قَنَسْرَيْن من صَيِّبِ القَطْرِ

يُذَكِّرُنِيهم كل خيرٍ رأيتهُ

وشرٌّ، فما أنْفَكُ منهم على ذِكْرِ

هذا البيت كقول الآخر: الطويل:

رعاكَ ضِمانُ الله يا أمَّ مالِك

ولله أن يِرعاكَ أُولَى وأوسَعُ

يُذَكِّرُنِيكَ الخيرُ والشرُّ والذي

أخاف وأرجو والذي أتوقَّعُ

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وإني وإسماعيل يوم وداعه

لكالغَمْدِ يوم الرُّوعِ فارقه النَصْلُ

أما والحبالات الممرَّات بيننا

رسائل أدَّتْها المودَّةُ والوصلُ

لما خنتُ عهداً من إخاءٍ ولا نأى

بذكراك نأى عن ضميري ولا شغلُ

وإني في مالي وأهلي كأنني

لفقدك لا مالٌ لدي ولا أهلُ

يُذَكِّرُنِيكَ الخيرُ والشرُّ والحجَا

وقيلُ الخنى والحلمُ والعلمُ والجهلُ

فألقاك عن مذمومها متنزهاً

وألقاك في محمودها ولك الفضلُ

وأحمدُ من إخلافِكَ البخلَ إنه
بعرَضِكَ لا بالمالِ حاشاً لك البخلُ
أمنتجاً مَرَوّاً بأثقالِ همّةٍ
دع النّقلَ واحمِلْ حاجةً ما لها ثقلُ
ثناء كَعُرفِ الطيبِ يهدي لأهله
وليس له إلاّ بني برمك أهلُ
فإن أغشَ قوماً بعدهم أو أزورهم
فكالوحش يُذْنِبُها مِنَ القنصِ المحلُ

ومن ألفاظ أهل العصر

في التعازي وما يتعلق بمعانيها

من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب: خَبِرُ عَزَّ عَلَى النفوسِ مَسْمَعُهُ، وَأَثَرُ فِي القلوبِ مَوْفِعُهُ. خَبِرُ
تصطَلُّكُ له المِسامعُ، وترتجُ به الأضالعُ، وتسقط له الجبالُ، وتَصْحُو منه السكارى. خَبِرُ كَادَتْ له القلوبُ
تَطِيرُ، والعقولُ تَطِيحُ، والنفوسُ تَطِيحُ. خَبِرُ يَخْفِضُ البصرَ وَيَقْذِيهِ، وَيَقْبِضُ الأملَ وَيَقْدَحُ فِيهِ. الخَبِرُ فِي
اثْناءِ الرِّجاءِ قد انقطع؛ وَأَصَمَّ به الناعي وقد أسمع. ناعي الفضائل قائم، وَأَنفُ المحاسنِ رَاعِم. خَبِرُ أخرج
الصَدْرَ، وأحل البكاء، وحرَّم الصبر، وأطار واقع السكون، وأثار كامنَ الوجوم، وثقلت وطأته على أجزاء
النفوس، وتأدت معرفته إلى سرِّ القلب. كتبتُ والأرضُ واجِفَةٌ، والشمسُ كاسِفَةٌ، للرزءِ العظيم، والمُصَابِ
الجسيم، فِي فلكِ الملك، ورُكْنِ المجد، وقريع الشرق والغرب، وما عسى أن يُقالَ فِي الفلكِ الأعلى إذا
انْهَارَ من جوانبه، وتهافَتَ على منابِكه. أتى الناعي، فندب المساعي، وقامت بواكي المجد، وكسفت شمسُ
الفضل، وعاد النهارُ أسودَ، والعيشُ أَنْكَدَ. غربَ لموته نجمُ الفضل، وكسدت سوقُ الأدب، وقامت
نوادب السباحة، ووقف فلكُ الكرم، ولطمت عليه المحاسنُ خدودَها، وشقَّتْ له المناقبُ جيوبَها
وَبُرودَها، وقد كانت الرزيةُ بحيث مارت السماءُ مَوْرًا، وسارت الجبالُ سِيراً، حتى شوهدت الكواكبُ
ظَهراً، ثم تهافَتَتْ شفعاً ووترًا، فارتاعت الأُمّةُ، وانبسَطت الظلمةُ؟ وارتفعت الرّحمةُ، واضطربت المِلّةُ،
وقامت نوادبُ المجد، وأصبح الناسُ من القيامةِ على وَعَد. إِنَّ المجدَ بعده لجاري الدمع، وإنَّ الفضلَ لمتزعج
النفوس، وإنَّ الكرمَ لَحَرِجُ الصدر، وإنَّ المُلْكَ لواهنُ الظُّهر. كتابي وأنا من الحياةِ متذمّم، وبالعيشِ مُتَبَرِّم،
بعدما ماد الطَّوْدُ الشامخ، وزال الجبلُ الباذخ، ونطقت نوادبُ المجد، وأقيمت مآتمُ الفضل. نُعيَ فلان
فتنكر وَجْهَ الدهر، وقبضت مُهَجَّةُ الفخر، فلا قَلْبَ إلا قد تباين صدَّعه، ولا عينَ إلا وهي ترشُّعُ بالدَّم
بعده. كتبتُ والأحشاءُ محترقة، والأجفانُ بمائها غَرِقة، والدمعُ وَاكِفٌ، والحزنُ عاكِف. مصالبُ أطلق
أَسْرَابَ الدموعِ وفرَّقَها، وأقلق أعشارَ القلوبِ وأحرقَها، مصابٌ فضَّ عقودَ الدموعِ، وشب النارَ بين

الضلوع. مصاب أذاب دموع الأحرار، فتحلبت سحائب الدموع الغزار، وانسدَّت مسالك السكون والاستقرار. كتبتُ عن عين تَدْمَع، وقلْبٍ يَجْزَع، ونفس تَهْلَع، وقد أَدْلَتْ مَصُونُ العَبْرَةِ، وحجبتُ وادَّ الحيرة، ومدَّ الهَمُّ إلى جسمي يَدَ السقم، وجرَّ الدمعُ على خذي ذيولَ الدم. لولا أن العينَ بالدمع أنطقُ من كلِّ لسانٍ وقلَم، لأخبرتُ عن بعض ما أَوْهَنَ ظَهْرِي، وأَوْهَى أَرْزِي. إِنَّ الفجیعة إذا لم تحاربُ بجيشٍ من البكاء، ولم يخفَّف من أثقالها بالاشتكاء، تضاعفَ دَاوُها، وازدادتْ أعباؤها، وعز دَوَاؤها. قد شفیتُ غليلي بما استذريته من أسراب الدموع المتحيرة، وخففتُ عني بعض البرحاء بما امتريته من أخلافها المتحدرة. إن في إسبال العَبْرَةِ، وإطلاق الزَّفَرَةِ، والإجهاش بالبكاء والنشيج، وإعلان الصباح والضحيح، تنفيساً عن بُرْحاءِ القلوب، وتخفيفاً من أثقالِ الكُروب. قد أتى الدهرُ بما هدَّ الأَصْلَاب، وأطارَ الألباب، من النازلة الهائلة؛ والفجیعة الفظیعة. رُزءُ أضعفَ العزائم القویة، وأبكى العیونَ البکیة. مصیبة زلزلتِ الأرض، وهدمتِ الكرم المَحْض، وسلبتِ الأجفان كَرَاهَا، والأبدان قُوأَهَا. فجیعة لا يُدَاوِي كَلَمَهَا آس، ولا يسدُّ ثَلَمَهَا تَنَاسٍ. مصیبة تركتِ العقولَ مُدْلَهةً، والنفوسَ مُوَلَّهةً. رُزءُ هَضَّ وهاضَ، وأطال الانخزال والانخفاض، ولم يَرُضَ بأن فضَّ الأعضاء، حتى أفاض الدماء. رُزءُ ملأَ الصدورَ ارتیاعاً، وقسم الألباب شِعاعاً، وترك الجفونَ مَقْرُوحة، والدموع مسفوحة، والقوى مهدودة، وطرق العزاء مسدودة. رُزءُ نكأَ القلوبَ وجرحها، وأحرَّ الأكبَادَ وقَرَّحها، ما لي يدُّ تخطُّ إلا بكلفة، ولا نفس تردد إلا في غصَّة، ولا عين تنظر إلا من وراء قَدَى، ولا صدر ينطوي إلا على أذى، فالدموعُ واكفة، والقلوب واجفة، والهَمُّ وارد، والأنسُ شارِد: الكامل:

في كل دار رنة وزفير

والناس ماتمهم عليه واحد

كأنِّي كِنْدَةٌ وهي تَلَهَّفُ على حُجَرٍ، والخنساء تَبْكِي على صخر، أنا بين عَبْرَةٍ وزَفَرَةٍ، وأنَّة وحسرة، وتملُّل واضطراب، واشتعال والتهاب. مصیبة أصبحت لِعَمَّتْهَا وقيداً، ولَكُرْبَتْهَا أحيذاً. كتبتُ وقد ملك الجزعُ عَزَائِي، وحصل ناظري في إَسَارِ بكائي، فالقلبُ دهش، والبنان يرتعش، وأنا من البقاء متوحَّش: قد انتهى بي الهلعُ إلى حيث لا النَّاسِي مُصْحَب، ولا التَّنَاسِي مُصَاحِب، بي انزعاج يحلُّ عُقْدَ الحَزْم، واكتئابٌ ينقضُّ شروط العَزْم. قد بلغ الحزنُ مبلغاً لم أبتدله للنوائب، وإن جلت وَقَعاً، ونالت مني منالاً لم يعتد طرق المصائب، وإن عظمت فجعاً. كتبتُ عن اضطرابِ نفسٍ، واضطرابِ صدر، والتهابِ قلب، وانتهاجِ صَبْر، فما أعظمه مفقوداً! وما أكرمه ملحوداً! إني لأنوح عليه نَوْحَ المناقب، وأرثيه مع النجوم الثواقب، وأبكيه مع المعالي والمحاسن، وأثني عليه، بثناء المساعي والمآثر. ليت يمين الزمان شَلَّتْ قبل أن

فَنَكَتْ مُنْهَجَةَ الْفَضْلِ، وَعَيَّنَ الزَّمَانَ كُفَّتْ قَبْلَ أَنْ رَأَتْ مَصْرَعَ الْفَخْرِ. لَقَدْ رُزِنَا مِنْ فَلَانٍ عَالِماً فِي شَخْصٍ، وَأُمَّةً فِي نَفْسٍ. مَضَى وَالْحَاسِنُ تَبَكَّيْهِ، وَالْمَنَاقِبُ تَعَزَّى فِيهِ. الْعَيُونُ لَمَّا قَرَّتْ بِهِ أَسْخَنَهَا فِيهِ رَيْبُ الْمَنُونِ، وَلَمَّا شَرِحَتْ بِهِ الصَّدُورُ قَبِضَهَا بِفَقْدِهِ الْمَقْدُورُ. قَدْ رَكِبَ عَلَى الْأَعْنَاقِ، بَعْدَ الْعِتَاقِ، وَعَلَى الْأَجْيَادِ بَعْدَ الْجِيَادِ، وَفَاحَ فَتِيْتُ الْمَسْكِ مِنْ مَآثِرِهِ، كَمَا يَفُوحُ الْعَنْبَرُ مِنْ مَجَامِرِهِ. كَانَ مِثْلُهُ مَأْلَفَ الْأَضْيَافِ، وَمَأْنَسَ الْأَشْرَافِ، وَمُتَنَجِّعَ الرُّكْبِ، وَمَقْصِدَ الْوَفْدِ، فَاسْتَبَدَلَ بِالْأُنْسِ وَحَشَّةً، وَبِالْغَضَارَةِ غُبْرَةً، وَبِالْبَيَاضِ ظُلْمَةً، وَاعْتَاظَ مِنْ تَزَاحُمِ الْمَرَائِكِبِ تَلَادُّمَ الْمَآتَمِ، وَمِنْ ضَجِيجِ النَّدَاءِ وَالصَّهِيلِ، عَجِيجَ الْبَكَاءِ وَالْعَوِيلِ. هَذَا الْمَكَارُمُ تَبْدِي شَجْوَهَا لِفَقْدِهِ، وَتَلْبَسُ حَدَادَهَا مِنْ بَعْدِهِ، وَهِيَ الْحَاسِنُ قَدْ قَامَتْ نَوَادِبُهَا مَعَ نَوَادِبِهِ، وَاقْتَرَنْتْ مَصَائِبُهَا بِمَصَائِبِهِ. لَوْ قَبِلَتْ الْفَدْيَةَ لَوْفَيْتُهُ بِنَفْسِي وَأَيَّامٍ عَمْرِي، عَلِماً أَنَّ الْعَيْشَ يَمَثَلُهُ مِنْ إِخْوَانِ الصِّفَا يَصْفُو، وَيَطْعُنُهُ عَنِ الدُّنْيَا يَكْدُرُ وَيَعْفُو. لَوْ وَفَى مِنَ الْمَوْتِ عَزِيزُ قَوْمٍ لِعِزَّتِهِ، أَوْ كَبِيرُ بُلُوْلَادِهِ وَأُسْرَتِهِ، أَوْ ذُو سُلْطَانٍ بِاسْتِطَالَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، أَوْ زَعِيمُ دَوْلَةٍ بِحَشْدِهِ وَعُدَّتِهِ، لَكَانَ الْمَاضِي أَحَقَّ مِنْ وَفَى وَأَوْلَى مِنْ فُدِيَ، وَكُنَّا أَقْدَرُ عَلَى دَفْعِ مَا حَدَثَ، وَذَبِّ مَا كَرِهَتْ وَأَرْهَقَتْ؛ لَكِنَّهُ الْأَمْرُ الْمَسْوِي فِيهِ بَيْنَ مَنْ عَزَّ جَانِبُهُ وَذَلَّ، وَكَثُرَ مَالُهُ وَقَلَّ، حَتَّى لِحَقِّ الْمَفْضُولِ بِالْفَاضِلِ، وَالنَّاقِصِ بِالْكَامِلِ.

وَلَهُمْ فِيمَا يَطَابِقُ هَذَا النِّحْوُ مِنْ وَصْفِ الدَّهْرِ وَذَمِّ الدُّنْيَا: هُوَ الدَّهْرُ لَا يُعْجَبُ مِنْ طَوَارِقِهِ، وَلَا يَنْكُرُ هُجُومَ بَوَائِقِهِ. عَطَاؤُهُ فِي ضَمَانِ الْارْتِجَاعِ، وَحِبَاؤُهُ فِي قِرَآنِ الْإِنْتِرَاجِ. مَنْ عَرَفَ الزَّمَانَ لَمْ يَسْتَشْعِرْ مِنْهُ الْأَمَانَ، وَتَصَرَّفَ الْحَوَادِثِ، بَيْنَ الْمَوْرُوثِ وَالْوَارِثِ. الدَّهْرُ مُشْحُونٌ بِطَوَارِقِ الْغَيْرِ، مَشُوبٌ صَفْوُ أَيَّامِهِ بِالْكَدَرِ، مَمْرُوجٌ صَابُهُ بِالْعَسَلِ، مَوْصُولَةٌ حِبَالُ الْأَمْنِ فِيهِ بِأَسْبَابِ الْأَجْلِ. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ الدُّنْيَا دَارَ قُلْعَةٍ، وَمَحَلَّ ثِقَلَةٍ، فَمَنْ رَاحِلَ لِيَوْمِهِ، وَمَنْ مُؤَخَّرَ لَغَدِهِ، وَكُلٌّ مُتَشَوِّفٌ لِأَجَلِهِ، وَجَارٍ لِأَمَدِهِ. مَا الدُّنْيَا إِلَّا دَارُ النُّقْلَةِ، وَلَا الْمَقَامَ فِيهَا إِلَّا لِلزَّحَلَةِ، إِنَّ الْمَرْءَ حَقِيقٌ إِذَا طَرَقَهُ مَا يَتَحَيَّفُ صَبْرَهُ وَيَتَطَرَّقُ صَدْرَهُ، أَنْ يَعُودَ إِلَى عِلْمِهِ بِالدُّنْيَا كَيْفَ نُصِبَتْ عَلَى النُّقْلَةِ، وَجَنِبَتْ طَوِيلَ الْمَهْلَةِ، وَابْتَدَتْ بِالنَّقَادِ، وَشَفَعَ كَوْنُهَا بِالْفُسَادِ، وَأَنَّ الثَّأْوِيَّ فِيهَا رَاحِلٌ، وَالْأَيَّامُ فِيهَا مَرَّاحِلٌ. مُوْهَبٌ الدُّنْيَا مَسْلُوبٌ وَإِنْ أَرْجَى إِلَى مَهَلٍ، وَمَمْنُوحٌهَا مَجْدُوبٌ وَإِنْ آخَرَ إِلَى أَجَلٍ. لَوْ خَلَدَ مِنْ سَبَقٍ، لَمَّا وَسِعَتْ الْأَرْضُ مَنْ لَحَقَ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَتِ الدُّنْيَا دَارَ قُلْعَةٍ، وَمَحَلَّ نَجْعَةٍ: الطَّوِيلِ.

مُنْعِنَا بِهَا مِنْ جَنَيْتَةٍ وَذُهْوبٍ

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا

وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فَرَاقَ سَلِيبٍ

تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَالِبٍ

وَقَالَ عَتَبَةُ بْنُ هَارُونَ: كُنْتُ مَعَ فَضْلِ الرَّقَاشِيِّ، فَمَرَّ بِمَقْبَرَةٍ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمَوْحِشَةِ، وَالْحَالِ الْمَقْفَرَةِ، الَّتِي نَطَقَ بِالْخَرَابِ فَنَآوَاهَا، وَشِيدَ بِالتَّرَابِ بِنَاوَاهَا، سَاكِنُهَا مُعْتَرِبٌ، وَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، أَهْلُ هَذِهِ الْمَنَازِلِ

متشاغلون، لا يتواصلون تواصلَ الإخوان، ولا يتزاورون تزاورَ الجيران، قد طحنهم بكَلْكَلِهِ البلي، وأكلهم الجندل والثرى.

وقال خاقان بن صبيح: لَوْحِشَةُ الشكِّ التمسنا أنسَ اليقين، ومن ذلَّ الجهل هربنا إلى عزِّ المعرفة، ولخوفِ الضلالة لزمنا الجادة.

وقال بعض الحكماء: كمونُ المصائب وسكونُ النوائب وبُعْتاتُ المنايا مطويّات في الساعات، متحركات في الأوقات، ورب مغتبطٍ بساعةٍ فيها انقضاءُ أجله، ومتمتع بوقت صار فيه إلى قَبْرِهِ، ومنتظر ورودَ يوم فيه منيته.

ووعظ أعرابيُّ ابنًا له أفسدَ ماله في الشراب، فقال: لا الدهر يعِظُك، ولا الأيام تنذرك، والساعات تُعدُّ عليك، والأنفاسُ تعدُّ منك، وأحبُّ أمرٍيك إليك، أردُّهما للمضرة لديك.

من إنشاء بديع الزمان

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: كنتُ في الأهواز في رُفْقة متى ما ترقَّى العينُ فيهم تسهل، ليس منا إلا أمرد بكر الآمال، بضّ الجمال، أو محتطّ حسن الإقبال، مرجو الأيام والليال؛ فأفضنا في العشرة كيف نضع قواعدها، والأخوة كيف نحكم معاقدها، والسرور في أي وقت نتعاطاه، والأنس كيف نتهاداه، وفائت الحظ كيف نتلافاه، والشراب من أين نخلصه، والمجلس كيف نرتبه؟ فقال أحدنا: على البيت والمترل، وقال آخر: على الشراب والنقل، وقال بعضنا: إلى السماع والجماع، وقمنا نجرُّ أذيال الفسوق، حتى انسلخنا من السوق، واستقبلنا رجلٌ في طمرين، في يَمَنَاه عَكَازة، وعلى كتفه جنازة؛ فتطيرنا لما رأينا الجنازة، وأعرضنا عنها صفحاً، وطوينا دونها كشحاً، فصاح بنا صيحة كادت الأرض لها تنفطر، والنجوم تنكدر، وقال: لترونها صُغراً، ولتركبنها قسراً. ما لكم تكرهون مطية ركبها أسلافكم، وسيركبها أخلافكم، وتتقدرون سريراً وطئه آباؤكم، وسيطؤه أبنائكم. أما والله لئن حملن على هذه العيdan، إلى تلکم الديدان، ولتنقلن بهذه الجياد، إلى تلکم الوهاد. ويحكم تطيرون، كأنكم مخيرون، وتكرهون، كأنكم مترهون، هل تنفع هذه الطيرة، يا فجرة؟.

قال عيسى بن هشام: فقد نقض علينا ما كنّا عقّدناه، وأبطلنا ما كنّا أردّناه؛ فلمنا إليه، وقلنا: ما أحوجنّا إلى وعظك، وأعشقنا للفظك! ولو شئت لزدت، قال: إن وراءكم موارد أنتم واردوها، وقد سرّتم إليها عشرين حجة: الطويل:

وإنَّ امرأً قد سار عشرينَ حَجَّةً

إلى منهلٍ من وِردِهِ لَقَرِيبُ

وفوقكم مَنْ يعلم أسراركم، ولو شاء لهتك أسراركم، يعاملكم في الدنيا بحِلْمٍ، وَيَقْضِي عليكم في الآخرة بعِلْمٍ، فليكن الموتُ منكم على ذكرٍ، لئلاَّ تَأْتُوا بِنُكْرٍ؛ فإنكم متى استشعرتُموه لم تَحْمَحُوا، ومتى ذكرتُموه لم تمزحوا، وإن نسيتُموه فهو ذاكِرُكم، وإن نمتُم عنه فهو ناثِرُكم، وإن كرهتُموه فهو زائرُكم قلنا: فما حاجتُك؟ قال: هي أطولُ من أن تُحدِّدَ، وأكثر من أن تُعدَّ، قلنا: فسانحُ الوقت؟ قال: ردُّ فائتِ العُمُرِ، ودَفْعُ نازلِ الأمرِ، قلنا: ما إلى ذلكَ سبيل، ولكن لك ما شئت من متاعِ الدنيا وزخرفها، قال: لا حاجةَ لي فيها.

قوله: وإن امرأً سار عشرين حجة محرف عن قول قائله: وإن امرأً قد سار خمسين حجة والبيت لأبي محمد التيمي، أنشده دعبل: الطويل:

إذا ما مضى القرنُ الذي أنتَ فيهِمُ

وخُفَّتَ في قرنٍ فأنتَ غَرِيبُ

والبيت بعده. قال دعبل: وتزعم الرواة أنه لأعرابي من بني أسد. وقال خلاد الأرقط: كنا على باب أبي عمرو بن العلاء ومعنا التيمي، فذكرنا كتابَ الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم: إني وإياك لِدَتَانِ، وإن امرأً قد سار خمسين حجة لَقَمْن أن يَرده. فأصلحنَاهُ بيتاً، فاجتَلَبه التيمي في شعره.

وكتب البديع إلى أبي القاسم الكرخي: أنا وإن لم أَلْقَ تطاولَ الإخوان إلا بالتطوّل، وتحمّل الأحرار إلا بالتحمّل، أحاسب الشيخَ على أخلاقه ضناً بما عقدت يدي عليه من الظن به، والتقدير في مذهبه، ولولا ذاك لَقُلْتُ: في الأرضِ مجالٌ إن ضاقتْ ظلالُهُ، وفي الناسِ واصلٌ إن رثتُ حبالَهُ، وأُوَاخِذُهُ بأفعاله؛ فإن أعارني أذنًا واعيَّةً، ونَفْسًا مُرَاعِيَّةً، وقلْبًا مَتَّعْطًا، ورجوعاً عن الذهاب، ونزوعاً عما يقرُّعُه من هذا الباب، فرشت لمودَّتِهِ صدرِي، وعقدت عليه جوامعَ حَصْرِي، ومجامعَ عُمُرِي؛ وإن ركب من التعلالي غَيْرَ مركب، وذهب من التعلالي في غيرِ مذهب، أقطعتُه خطةَ أخلاقه، وولَّيته جانبَ إعراضه، فكنت امرأً: المديد:

لا أدودُ الطيرَ عن شَجَرٍ

قد بلوتُ المرَّ من ثَمَرِهِ

فلاني - أطل الله بقاء الشيخ مولاي - وإن كنت في مقتبل السن والعمر، فقد حلبتُ شَطْرِي الدهر، وركبتُ ظهري البرَ والبحرَ، ولقيتُ وفدي الخيرَ والشرَّ، وصافحتُ يدي النفعَ والضرَّ، وضربتُ إبْطِي العُسرَ واليُسْرَ، وبلوتُ طعمي الحلوَ والمرَّ، ورضعتُ ثديي العُرفَ والثُّكْرَ؛ فما تكادُ الأيامُ تريني من أفعالها غريباً، وتُسَمِّعُنِي من أقوالها عجبياً، ولقيتُ الأفرادَ، وطارحتُ الأحادةَ فما رأيتُ أحداً إلا ملأتُ حافتي سمعه وبصره، وشغلتُ حيزي فكره ونظره، وأنقلتُ كَفَّهُ في الحُزن، وكفَّتْهُ في الوَزن؛ وودَّ لو بارَزَ القرنَ

بصفحتي، أو لقي الفضل بصحيفتي، فما لي صَعُرْتُ في عينه؟ وما الذي أزرَى بي عنده؟ حتى احتجب وقد قَصَدْتُهُ، ولزِمَ أرضه وقد حضرته، وأنا أحاشيه أن يجهلَ قَدْرَ الفضل، أو يَجْحَدَ فضلَ العلم، أو يمتطي ظَهْرَ التَّيِّه، على أهليه، وأسأله أن يختصني من بينهم بفضل إنعام إن زلت بي مرةً قَدَمَ رأي في قَصْدِهِ، وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المحجفة، والرتبة المتحيّفة، وهو في جنب جفائه يسير، وإن أفلح عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته في الجفاء؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عزه وتأييده.

وله إليه رقعة: يعزُّ عليّ - أطال الله بقاء الشيخ الرئيس - أن ينوبَ في خدمته قلمي، عن قَدَمي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وُصولي، ويردَّ شرعة الأُنس به كتابي، قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة: مجزوء الكامل:

وعلّي أن أسعى ولي س علي إدراك النجاح

وقد حضرتُ داره، وقبَلْتُ جداره، وما بي حبّ الجدران، ولكن شغفاً بالقُطّان، ولا عشقَ الحيّطان، ولكن شوقاً إلى السكان، وحين عَدَتِ العَوادي عنه، أملتُ ضميرَ الشوقِ على لسان القلم، معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة، عن تقصيرٍ وقع، وفُتورٍ في الخدمة عَرَضَ، ولكني أقول: المديد:

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى ألا أراك عقاباً

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد: ورد كتاب الشيخ الرئيس سيدي، فظلت وفودُ النعم تترى عليّ، ومثلتُ لذي وبين يدي، وقد أخذَ مكارمَ نفسه، فجعلها قِلَادَةً غرّسه، وتتبع المحاسن من عنده، فحلّى بها نحر عبّده وما أُشْبِهَ رائع حُلّيه، في نحر وُلّيه، إلا بالغرّة اللائحة، على الدّهْمَةِ الكالحة لا أخذَ الله الشيخ بوصف نزعه عن عرضه، وزرعه في غير أرضه، ونعت سلّحه من خلقه وخلّقه، وأهداه إلى غير مستحقّه، وفضّل استفاده من فرعه وأصله، وأوصله إلى مخير أهله. ذكر حديث الشوق ولو كان الأمر بالزيارة حتماً، أو الإذن جزماً أطلق عزمًا، لكان آخر نظري في الكتاب، أول نظري إلى الركاب، ولاستعنتُ على كُلِّ السير، بأجنحة الطير، لكنه - أدام الله عزّه - صرعتني بين يدٍ سريعة النّبذ، ورجل وشيكة الأخذ، وأراني زهداً في ابتغاء، كحسوّ في ارتغاء، ونزاعاً في نزوع، كذهاب في رجوع، ورغبة في كربة عني، وكلاماً في الغلاف، كالضرب تحت اللحاف، فلم أصرّح بالإجابة وقد عرّض بالدعاء، ولم أعلن بالزيارة وقد أسرّ بالنداء، ولو لم يدعني بلسان المُحاجة، ولم يجاهرني بفم المناجاة، لكنتُ أسرع إليه، من الكرم إلى عطفيه، وفكرتُ في مُرادِ الشيخ، فوجدته لا يتعدّى الكرم يشبّ ناره، والفضل يُدرك ناره، وإذا كان الأمر كذلك فما أولاه بترفيه مولاه، عن زفرة صاعدة، بسفرة باعدة، ونكباء جاهدة...

وقد زاد سيدي في أمرِ المخاطبة، وما أحسن الاعتدال، وقد كفانا منه الأستاذ، وأسأله ألا يزيد، وقد بدأ ويجب ألا يعيد، فلا تنفع كثرة العدّ مع قلة المعداد، والزيادة في الحدّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود، وربّ ربح أدّى إلى خُسْران، وزيادة أَفْضَتْ إلى تُقْصَان، ورأي الشيخ في تشريفه بجوابه موفق إن شاء الله تعالى.

اجتَلَبَ قوله في أول هذه الرسالة من قول أبي إسحاق الصابي في جواب كتاب لبعض إخوانه: وصل كتابك مشحوناً بلطيف برّك، موشحاً بغامر فضلك، ناطقاً بصحّة عهدك، صادقاً عن خلوص ودّك، وفهمته وشكرتُ الله تعالى على سلامتك شكرَ المخصوص بها، ووقفتُ على ما وصفته من الاعتدال بي، وتناهيتُ إليه من التقريط لي، فما زدتَ على أن أعزّيتني خلالك، ونخلّيتني خصالك، لأنّك بالفضائل أولى، وهي بكَ أحرى، ولو كنت في نفسي ممن يشتملُ على وصفه حدّي إذا حددت، أو يحيط بكَماله وصفي إذا وصفت، لشرّعت في بلوغها والقرب منها، لكن المادح لك مستنقد لك وسعه وقد بخسك، ومستغرق طوقه وقد نقصك، فأبلغ ما يأتي به المثني عليك، ويتوصّل إليه المطرّي لك، الوقوف في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومداه.

ونقل البديع ما ذكره من ترك السفر والبغية بما حضر من قول ابن الرومي: الطويل:

أما حق حامي عرضٍ مثلك أن ترى	له الرقْدَ والترفيه أوجب وأجب
أقمت لكى تزداد نِعَمًا نعمةً	وتغني بوجهٍ ناضرٍ غير شاحب
وكي لا يقول القائلون أثابه	وعاقبه والقول جمّ المساغب
وليس عجيباً أن ينوبَ تکرّم	عُدّيت به من أمل لك عائب
ذِمَامِي تَرَعَى لا ذِمَامَ سَفِينَةٍ	وَحَقِّي لا حقَّ القلاصِ النجائب

ودخل على أبي العتاهية ابنه، وقد تصوّف، فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أعود الخير، وأنشأ عليه فقال: يا بني، يحتاج المتصوّف إلى رقة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقیل الظلّ، مظلم الهواء، راكد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك؛ فإنها أعود عليك، وكان بزّازاً.

فقر من كلام المتصوّفة والزهاد والقصاص

نور الحقيقة، أحسن من نور الحديقة. الزهد قطع العلائق، وهجر الخلائق. الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة. التصوّف ترك التكلّف. قيل لمتصوّف: أتبع مُرَقَّعتك؟ قال: أرأيتم صياداً يبيع شبكته! وقيل لبعضهم: لو تزوّجت! قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها، وأنشد: الطويل:

تجرّد من الدنيا فإنك إنما

سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة، والمتوسّط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام.
ذو النون: العبد بين نعمة وذنْب، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار.
غيره: ينبغي للعبد أن يكون في الدنيا كالمريض لا بدّ له من قوت، ولا يوافقه كل طعام. ليس في الجنة
نعيمٌ أعظم من علم أهلها أنما لا تزول.
ابن المبارك: الزهد إخفاء الزهد. إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب عنه. من أطلق
طرفه كثر أسفه. من سوءِ القدر فضّل النظر. من طاولَ طرفه، تابع حَتْفَه، ومن نظر بعين الهوى حار،
ومن حَكَم على الهوى جار، ومن أطال النظر لم يدرك الغاية، وليس لناظر نهاية. ربما أبصر الأعمى
رُشْدَه، وأضلّ البصير قَصْدَه. وقيل: ربّ حربٍ جُنيت من لفظة، وربّ حبٍّ غُرِسَ من لحظة، وأنشد:
الطويل:

نظرت إليها نظرةً لو كسوتها

سراويلَ أبدانِ الحديدِ المسرّدِ

لرقت حواشيها وفُضَّ حديدُها

ولأنت كما لأنت لداودَ في اليدِ

وقال سعيد بن حميد: الطويل:

نظرتُ فقادتني إلى الحتفِ نظرة

إليّ بمضمون الضميرِ تشيرُ

فلا تصرفنَّ الطَّرفَ في كل منظرٍ

فإنَّ معاريضَ البلاءِ كثيرُ

ولم أر مثلاً الحبِّ أسقمَ ذا هوى

ولا مثلاً حُكْمَ الحبِّ كيف يجورُ

لقد صنّنتُ ما بي في الضميرِ لو أنه

يُصان لدى الطَّرفِ النُمومِ ضميرُ

غيره: البسيط:

اليومَ أيقنتُ أنَّ الحبَّ متلفٌ

وأن صاحبه منه على خطرٍ

كيف الحياةُ لمن أمسى على شرفٍ

من المنيّةِ بين الخوفِ والحذرِ

يلومُ عينيه أحياناً بذنبيهما

ويحملُ الذنْبَ أحياناً على القدرِ

إذا نأى أو دنا فالقلبُ عندكم

وقلْبُه أبداً منه على سقرٍ

ونظر محمد بن أسباط الصوفي إلى أبي المثنى الشيباني وقد نظر في وجه غلام مليح، فقال: إياك وإدْمانَ
النظر فإنّه، يكشفُ الخير، ويفضحُ البشرَ، ويطول به المكثُ في سقر.

وقال المعلى الصوفي: شكوتُ إلى بعض الزهاد فسَاداً أجدهُ في قلبي، فقال: هل نظرتَ إلى شيء فتأقتَ إليه نفسك؟ قلت: نعم، قال: احفظْ عينيك؛ فإنك إن أطلقتَهما أوقعْتَكَ في مكروه، وإن ملكْتَهُمَا ملكْتَ سائرَ جوارِحِك.

وقال مسلم الخوَّاص لمحمد بن علي الصوفي: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله في أمرِك كله، وإيثار ما يحبُّ على محبتك، وإيَّاك والنظر إلى كل ما دعاكَ إليه طَرَفُكَ، وشوقك إليه قلبك، فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك، حتى تبلغ لهما ما يطالعانك به، وإن ملكتهما كنت الداعي إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردّا لك قولاً.

قال بعض الحكماء: إن الله عز وجل جعل القلبَ أميرَ الجسدِ، ومَلِكَ الأعضاء؛ فجميعُ الجوارح تنقادُ له، وكلُّ الحواسن تُطيعُه، وهو مديرها ومصرفها، وقائدها وسائقها، وإرادته تنبعثُ، وفي طاعته تتقلب؛ ووزيره العقل، وعاضدهُ الفهم، ورائده العينان، وطييعته الأذنان. وهما في النقل سواء، لا يكتمانه أمراً، ولا يطويانِ دونه سرّاً، يريد العين والأذن.

وقيل لأفلاطون: أيهما أشدَّ ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟ فقال: هما للقلب كالجنّاحين للطائر، لا يستقل إلا بهما، ولا ينهض إلا بقوتهما، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة. قيل: فما بالُ الأعمى يعشق ولا يرى، والأصمَّ يعشق ولا يسمع؟ قال: لذلك قلت: إن الطائر قد ينهضُ بأحد جناحيه ولا يستقل بهما طيراناً، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى، وطيرانه أَوْحَى.

وقال الأسود بن طالوت الجارودي: نظر إليّ أبو الغمر الصوفي وقد أطلتُ النظرَ إلى غلام جميل، فقال: ويحك! إنَّ طَرَفَكَ لعظيم ما اجتني من البلاءِ قد عرَّضَكَ للمكروه وطول العناءِ، لقد نظرتَ إلى حَتَف قاتل للقلوب، وبلاءٍ مُظْهِر للعيوب، وعارٍ فاضح للنفوس، ومكروه مُذهِل للعقول، أكلُ هذا الاغترار بالله جرّأك عليه حتى أمنتَ مَكْرَهه، ولم تحفَ كيدَه؟ اعلم أنكَ لم تكن في وقت من أوقاتك، ولا حالة من حالاتك، أقرب إلى عقوبة الله منك في حالتك هذه، ولو أخذك لم يتخلَّصك الثقلان، ولم يَقْبَلْ فيك شفاعَةُ إنس ولا جان.

ونظر محمد بن ضوء الصوفي إلى رجل ينظرُ إلى غلام مليح، فقال: كفى بالعبد نقصاً عند الله، وضعة عند ذوي العقول، أن ينظرَ إلى كل ما سَنَحَ له من البلاءِ.

ونظر بو مسلم الخشوعي فأطال النظر، فقال: إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. ثم قال: سبحان الله! ما أهجمَ طَرَفِي على مكروه نفسه، وأدمَنه على تسخُّط سيده، وأغراه بما نهى عنه، وألْهَجَه بما حذَّر منه! لقد نظرت إلى هذا نظراً شديداً خشيتُ أنه سيفضحني عند

جميع مَنْ يعرفني في عَرَصَةِ القيامة؛ ولقد تركني نظري هذا وأنا أَسْتَحِي من الله تعالى إن غفر لي! ثم صعد.
ونظر غالبُ المضرور إلى غلام جميل على فرس رائع، فقال: لا أدري بم أدوي طَرْفي، ولا بم أعالج قلبي؟
ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه، ولا أَسْتَغْفِرُهُ من أمر إلا أتيت أعظم منه، حتى لقد استحييتُ
أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه، لعظيم حالي بالمنكر الذي أصنعه. فقال له قائل: وأي
منكر أتيت؟ فقال: أتريدُ مني أكثرَ من نظري هذا؟ والله لقد خشيت أن يطل كل عمل قدمته، وخير
أسلفته، ثم بكى حتى ألصق خدّه بالأرض.

ورأى بعضُ الزهاد صوفيًا يضحكُ إلى غلام جميل، فقال له: يا خارب القلب، ويا مفتضح الطرف؛ أما
تستحي من كرام كاتبين، وملائكة حافظين، يحفظون الأفعال، ويكتبون الأعمال، وينظرون إليك،
ويشهدون عليك، بالبلاء الظاهر، والغِلِّ الدخيل المخامر، الذي أقمت نفسك فيه مقام مَنْ لا يُبالي من
وقف عليه، ونظر من الخلق إليه.

وقال أبو حمزة بن إبراهيم: قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي - وكان سيدَ المتصوفة، وقد رأيته يماشي غلاماً
وضيئاً مدة ثم فارقه -: لِمَ هجرتَ ذلك الفتى بعد أن كنتَ له مواصلاً، وإليه مائلاً؟ فقال: والله، لقد
فارقته من غيرِ قلبي ولا مَلٍّ؛ ولقد رأيتُ قلبي يدعوني إذا خلوت به، وقربت منه، إلى أمر لو أتيتُه
لسقطت من عينِ الله عزَّ وجلَّ؛ فهجرته تزيهاً لله ولنفسي عن مصارع الفتن، وإني لأرجو أن يعقبني
سيدي من مفارقتِه ما أعقب الصابرين عن محارمِه عند صدق الوفاءِ بأحسنِ الجزاء؛ ثم بكى حتى رحمتُه.
قال أبو حمزة: ورأيتُ مع أحمد بن علي الصوفي بيت المقدس غلاماً جميلاً، فقلت: منذ كم صحبتك هذا
الغلام؟ فقال: منذ سنين، فقلت: لو سرتما إلى بعضِ المنازه فكنتما فيه كان أحمد لكما من الجلوس في
المسجد بحيث يراكما الناس؟ فقال: أخافُ احتيالَ الشيطان عليَّ به وقت خلوتي، وإني لأكره أن يراي الله
فيه على معصية فيفرق بيني وبينه يوم يظفر المحبّون بأحبائهم.
قال أبو الفتح البستي: البسيط:

تتازع الناسُ في الصوفيِّ، واختلفوا فيه وظنّوه مشتقّاً من الصوفِ

ولست أنحل هذا الاسمَ غيرَ فتى صافى فصوفي حتى لقبَ الصوفي

ورأى بقراط رجلاً من تلامذته يتفرّس في وَجْهِ أوحيا، وكانت فائقة الجمال، فقال: ما هذا الشغل الذي
منعك الرويّة والفكرة؟ فقال: التعجبُ من آثارِ حكمة الطبيعة في صورة أوحيا، فقال: لا تجعلَ نظرك
لشهوتك مركباً، فيجمع لك في الوحول الأذية؛ ولتكنْ نفسك منه على بال، إن آثار الطبيعة في وَجْهِ
أوحيا الظاهرة تمحق بصرك، وإن فكرت في صورتها الباطنة تحدّ نظرك.

وقال بعضهم: رأيت جارية حسناء الساعد، فقلت: يا جارية، ما أحسنَ ساعدك! فقالت: أجل، لكنه لم تختصَّ به، فغضَّ بصرَ جسمك عما ليس لك؛ لينفتح بصرُ عقلك فتَرى ما لك.

الرأي والهوى

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين: فضلُ ما بين الرأي والهوى أنَّ الهوى يُخَصُّ والرأي يعمُّ، وأنَّ الهوى في حيز العاجل، والرأي في حيز الآجل، والرأي يبقى على طول الزمان، والهوى سريع الدثور والاضمحلال، والهوى في حيز الحسِّ، والرأي في حيز العقل.
وقال بعضُ الحكماء: من انقاد لهوَاه عرضته الشهوات.
وقال آخر: من جرَى مع هواه طَلَقا، جعل عليه للذلّ طرقا.

وقال ابن دُرَيْد: أوصى بعضُ الحكماء رجلاً فقال: آمرك بمجاهدة هواك؛ فإنه يقال: إنَّ الهوى مفتاحُ السيئات، وخصيم الحسَنات، وكلُّ أهوائك لك عدو، وأعداهما هوَى يَكْتُمك نفسه، وأعدى منه هوَى يمثّل لك الإثم في صورة التقوى، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحَزْم لا يشوبه وهَن، وصدّق لا يطمع فيه تكذيبٌ، ومَضَاء لا يقاربه التشييط، وصبر لا يغتاله الجزع، وهمة لا يتقسمها التضييع.
وقاد أبو العتاهية: البسيط:

لا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ وفي نفسٍ	ولو تَمَنَعْتَ بالحُجَّابِ والحَرَسِ
فما تزالُ سِهَامُ الموتِ نافذةً	في جَنَبِ مَدْرَعٍ مِنَّا ومُتَرِّسِ
ما بالُ دينك تَرْضَى أن تُدْنِسَهُ	وثوبُك الدهر مَغْسُولٌ من الدَّنَسِ
ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مسالكها	إن السفينةَ لا تجري على بَيَسِ

من البد بدائه في مجالس الخلفاء

خرج شبيب بن شيبه من دار المهدي، ف قيل له: كيف رأيتَ الناس؟ قال: رأيتُ الداخل راجياً والخارج راضياً، نحاً إلى هذا المعنى ربعة الرُّقْيُ فقال: السريع:

قد بسطَ المهدي كَفَّ الندى	للناس والعفو عن الظالم
فالراحلُ الصادر عن بابهِ	مبشراً للواردِ القادم

وقال مسلم بن الوليد في نحو هذا المعنى: الطويل:

جزاء مقرّ بالصنيعة شاكر
وأرث نيران الندى للعشائر
على آمنٍ يحذو به حملٌ صادرٍ

جزيت ابن منصورٍ على نأي داره
فتى راغم الأموال واصطنع العلا
ترى الناس أرسالاً على باب داره

وقال المتنبي: الطويل:

قَرِيبٌ بِذِي الْكَفِّ الْمُفْدَاةِ عَهْدُهُ

وَأَلْقَى الْفَمَ الضَّحَّاكَ أَعْلَمُ أَنَّهُ

دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح، وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب، فقال: ما تقول في أخوالي؟ فقال: هم هامة الشرف، وعزّين الكرم، وغرس الجود، إن فيهم لخصالاً ما اجتمعت في غيرهم من قومهم؛ إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شيماً، وأطيبهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، الجمرة في الحرب، والرّفد في الجدب، والرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العجب. فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنت، فراد أخواله في الفخر فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أفخر يا خالد؟ قال: أعلى أحوال المؤمنين! قال: وأنت من أعمامه؟ قال: كيف أفخر قوماً بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابغ جلد، دلّ عليهم هدهد، وغرقهم جرد، وملكتهم أم ولد! فأشرق وجه أبي العباس. قال يموت ابن المزرع: سمعت خالي الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر في جمع معانيهم، واختصار اللفظ في مثالبهم، بعد ذلك المدح المذهب سنّة لكان قليلاً، فكيف على يديته لم يرض له فكراً.

هكذا أورد هذه الحكاية الصولي، وقد جاءت بأطول من هذا، وليس من شرطنا.

قال معن بن أوس الهذلي: الطويل:

على أيّنا تأتي المنية أول
إذا ناب خطبٌ أو نبا بك منزل
وسخطي، وما في ربيتي ما تعجل
ليعقب يوماً آخر منك مقبل
يمينك فانظر أيّ كف تبدل
وفي الأرض عن دار القلى متحوّل
على طرف الهجران إن كان يعقل
إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

لعمرك ما أدري وإني لأوجل
وإني أخوك الدائم الودّ لم أحل
كأنك تشفي منك داء مساءتي
وإن سؤتني يوماً صبرت إلى غد
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعنتي
وفي الناس إن رثت حبالك واصل
إذا أنت لم تتصف أخاك وجدته
ويركب حدّ السيف من أن تضيّمه

وبَدَّلَ سوءاً بالذي كان يفعل
عليه العهد إلا ريثما أتحوَّلُ

وكنْتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظننتي
قلبتُ له ظَهَرَ المَجَنِّ ولم أَدُمُ

عليّ بوجهٍ آخر الدهر تُقبَلُ

إذا انصرفْتَ نفسي عن الشيء لم تكْدِ

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وأنشد شعر مَعْنٍ، فقال: لمن هذا؟ فقال: لي يا أمير المؤمنين، قال: لقد شَعُرْتَ بعدي يا أبا بكر! ثم دخل عليه مَعْنٍ فأنشد الشعر بعينه، فقال: يا أبا بكر، ألم تقل إنه شعرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ظنّري فما كان له فهو لي. أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر مَعْنٍ؛ ليبلغ ما في نفسه، وليس ادّعاؤه له على حقيقة منه.

وقال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، فاستدّناي حتى كنت أقربَ الناسِ إليه، ثم تنفّس الصعداء، وقال: يا خالد، ربَّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إليّ حديثاً منك! فعلمت أنه أراد خالداً القسري، فقلت: أفلا تعيده يا أمير المؤمنين؟ فقال: هيهات؟ إن خالداً أدلّ فأملّ، وأوجف فأعجف، ولم يدعْ لراجع مرجعاً. وثمل بهذا البيت: الطويل:

عليه بوجهٍ آخر الدهر تُقبَلُ

إذا انصرفْتَ نفسي عن الشيء لم تكْدِ

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: كان عبد الملك بن مروان في سَمَرِهِ مع أهل بيته وولده وخاصته، فقال لهم: لِيَقُلْ كُلُّ واحدٍ منكم أحسن ما قيل من الشعر، وليفضّل مَنْ رأى تفضيله، فأنشدوا وفضلوا. فقال بعضهم: امرؤ القيس، وقال بعضهم: النابغة، وقال بعضهم: الأعشى، فلما فرغوا قال: أشعرُ الناس والله من هؤلاء الذي يقول، وأنشد بعض هذه الأبيات التي أنشد، وهي لمعن بن أوس: الطويل:

بحلمي عنه وهو ليس له حِلْمُ

وذي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ

وكالموتِ عندي أن يَحُلَّ به الرِّغْمُ

يحاول رَغْمِي لا يحاولُ غيرُهُ

وليس له بالصَّفْحِ عن ذنبه عِلْمُ

فإن أعفُ عنه أغضُ عيناً على قَذَى

سهامِ عدوّ يُستَهْاضُ بها العِظْمُ

وإن أنتصر منه أكنُ مثلَ رائثٍ

وما يستوي حَرْبُ الأقاربِ والسَلَمُ

صَبَرْتُ على ما كان بيني وبينه

على سهمه ما كان في كَفِّه السهم

وبادرتُ منه النَّأيَ والمرءُ قادرٌ

وليس لهُ عندي هَوَانٌ ولا شتم

ويشتم عِرضي في المغيَّبِ جَاهداً

قطيعتها، تلك السفاهةُ والإثمُ

إذا سُمْتُه وَصَلَ القِرابَةُ سامني

فإن أدعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبَ إجابتي
فلولا انقَاءُ الله والرحم التي
إذا لعلاه بارقٌ وخطمتهُ
ويسعى إذا أبني ليهدمَ صالحِي
يودُّ لو أني معدِمٌ ذو خصاصة
ويعتدُّ غنماً في الحوادثِ نكبتِي
فما زلتُ في ليني له وتعطفي
وخفضي له مني الجناحَ تألفاً
وصبري على أشياء منه تربييني
لاستلَّ منه الضغنُ حتى استلثته
رأيتُ انتلاماً بيننا فرقتهُ
وأبرتُ غلَّ الصدرِ منه توسعاً
فأطفأتُ نارَ الحربِ بيني وبينه

ويَدْعُو لحكم جائرٍ غيرُهُ الحُكمُ
رعايتها حقٌ وتعطيها ظلمُ
بوسمِ شَنارٍ لا يشابههُ وسَمُ
وليس الذي يبني كمن شأنه الهدمُ
وأكرهُ جهدي أن يخالطهُ العُدَمُ
وما إن له فيها سناءً ولا غنمُ
عليه كما تحنو على الولدِ الأمُ
لتدنيتهُ مني القرابةُ والرحمُ
وكظمي عن غيظي وقد ينفع الكظمُ
وقد كان ذا ضغنٍ يصوبه الحزمُ
برفقي أحياناً وقد يرقع الثلمُ
بحلمي كما يُشفي بالأدويةِ الكلمُ
فأصبحَ بعد الحربِ وهو لنا سَلَمُ

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

وصل كتابك فصادفني قريبَ عهدٍ بانطلاق، من عنتِ الفراق، وأوقفني مستريحَ الأعضاء والجوانح من حرِّ الاشتياق، فإنَّ الدهرَ جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأبدال، وأعتقني من مخالّتك عتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركاً ولا استثناء، ونزع من عُنقي رُبقةَ الدلِّ في إخائك بيدي جفائك، ورش على ما كان يحتدم في ضميري من نيران الشوق ماء السلو، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فالأم فطورها بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوض نفسي من التراع إليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصري، ورفع عنها غيايات ما سدَّله الشكُّ دون نظري، حتى حذر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك؛ فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستكبراً، فوليتُ منها فراراً، ومُلئتُ رُعباً، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددتُ إليك ذميماً عهدك. وفي فصل من هذه الرسالة: وأما عذرُك الذي رُمّت بسطه فانقبض، وحاولت تمهيدَه وتقريرَه فاستوفزَ

وأعرض، ورفعت بضْبَعِه فانخفض، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قبوله على رَدِّه، وتزكيتَه على جرحه، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسه، ولم يَقم عند ظنك به، أُنِّي وقد غطى التذمُّمُ وجهه، ولفَّ الحياءُ رأسه، وغلَّضَ الخجلُ طرفه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولَّى فلم تقدر على إيقافه، ومضى يعثرُ في فضول ما يغشاه من كرب حتى سَقَطَ، فقلنا: للبدِّ والفم. ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلا تأبط شرًّا، أو تَحَمَّلَ وزرًّا.

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول: الكامل:

أَقْرَ السَّلامَ على الأميرِ وقلْ لَهُ	قَدَكَ اتَّئِبْتُ أَرَبَّيْتُ فِي الغُلُوءِ
أَنْتَ الَّذِي شَنَنْتَ شَمْلَ مَسَرَّتِي	وَقَدَحْتَ نَارَ الشَّوْقِ فِي أَحْشَائِي
ورضيت بالثمن اليسير معوضةً	مني، فهلا بعنتني بغلاء
وسألتك العُتْبَى فلم ترني لها	أهلاً، فجدتُ بعِذْرَةَ شوْهَاءِ
وردتُ مموَّهةً فلم يرفع لها	طرف، ولم ترزق من الإصغاء
وأعار منطقها التذمُّمَ سكتة	فتراجعتُ تمشي على استحياء
لم تشف من كمد، ولم تبرد على	كبد، ولم تمسح جوانب داء
داوتُ جوًى بجوًى وليس بحازم	من يستكف النارَ بالحلفاء
من يشف من كمد بآخر مثله	أثرت جوارحه على الأدوية

وله إليه رسالة: أخطب الشيخ سيدي - أطال الله بقاءه - مخاطبةً مُحَرَّجٍ يروم الترويحَ عن قلبه، ويُريغ التفریحَ من كَرْبه؛ فأكتبه مكاتبةً مصدور، يريدُ أن ينفثَ بعضَ ما به، ويخففَ الشكوى من أوصابه، ولو بقيتُ في التصبُّرِ بقيةً لسكت، ولو وجدت في أثناء وجدي مخرجةً يتحللها تجلُّدُ لأمسكت؛ فقديمًا لبستُ الصديقَ على علاته، وصفحتُ له عن هَنَاتِه، ولكني مغلوب على العزاء، مأخوذٌ من عادي في الإغضاء، فقد سل من جفائك ما ترك احتمالي جفاءً، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباءً، وتوالى عليَّ من قُبْحِ فعلك في هجر يستمر على نسق، وصدَّ مطرِدٌ متَّسِقٌ، ما لو فُضَّ على الوَرَى، وأفيض على البشرِ لأمتلاتُ منه صدورهم، فهل أقدرُ على ألا أقول، وهل نكلُك إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهر حليفك على الإضرار، وعَقِيدُك على الإفساد، وأشكوه إليك؟ فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رضيعي لبان، وفي استيطاء مركب العقوق شريكي عنان، فإنه قاصرٌ عنك في دقائق مخترعة، أنتَ فيها نسيجٌ وُحْدُك، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنتَ فيها وحيدٌ عصرُك، أنتما

متفقان في ظاهرٍ يسرُّ الناظرَ، وباطنٍ يسوءُ الخابرَ، وفي تبادل الأبدال، والتحوّل من حالٍ إلى حال، وفي بث حبائل الزورِ، ونصب أشراك الغرورِ، وفي خلف الموعود، والرجوع في الموهوب، وفي فظاعة اهتضام ما يعير، وشناعة ارتجاع ما يمنح، وقصدٍ مُشارّة الأحرار، والتحامل عند ذوي الأخطار، وفي تكذيب الظنون، والميل عن النباهة للحمول، إلى كثير من شيمكما التي أسندتما إليه، وستكما التي تعاقدتما عليها، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقض عُرى العهود، ونكث قُوى العقود؟ وأنى هو عن النيمة والغيبة، ومشى الصُّراء في الغيلة، والتنفق بالنفاق في الحيلة؟ وأين هو ممن ادّعى ضروبَ الباطل، والتحلّى بما هو منه عاطل، وتنقّص العلماء والأفاضل؟ هذا إلى كثير من مساوٍ منثورة أنت ناظمُها، ومخازٍ متفرقة أنت جامعُها. أنت أيّدك الله إن سوّيته بنفسك، ووزنته بوزنك، أظلم منه لذويه، وأعق منه لبنيه، وهبّك على الجملة قد زعمت - مفترياً عليه - أنه أشدُّ منك قدرة، وأعظمُ بسطة، وأتمّ نصرة، وأطلق يداً في الإساءة، وأمضى في كل نكاية شباة، وأحد في كل عاملة شدّاة، وأعظم في كل مكروه مُتغلّلاً، وآلف إلى كل محذور متوصلاً، إن الدهر الذي ليس بمعتبٍ من يجرعُ، وإن العُتْبَى منك مأمولة، ومن جهتك مرقوبة، وهيهات! فهل توهم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً في صورة إنسان، ثم كاتبته أستعطفه على الصلة، وأستغفیه من الهجرِ، وأذكره من المودّة، وأستميل به إلى رعاية المقة، وأستعدّ على ما أشاعه الفراق في نفسي من اللوعة، وأضرّمه بالبعد في صدري من الحرقه، وكان يستحسن ما استحسنته من الاضطراب عند جوابي، ويستجيز ما استجزّته من الاستخفاف بكتابي.

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم: وهبّك أفلاطون نفسه، فأين ما سنّته من السياسة، فقد قرأناه، أجمّد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسّمته من الأخلاق؟ فقد رأينا فلم نر فيه هدايةً إلى شيء من العُقوق، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها إلا مَنْ جهل مقدار نفسه، وقدر الحقّ عليه وله؛ بل لك في رؤساء الآداب العربية منّا ريحٌ ومضطرب، ولسنا نُشاحك. لكن أتحب أن تتحقّق بالغريب من القول، دون الغريب من الفعل؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تُدفع عن حذق فيه، وبصرٍ به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قُدوة، ويرضى بك أسوة، فقلت: الغدرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوع، والصدق والحقّ وما صاحبهما مخفوض، وقد نصب الصديقُ عندك، ولكن غرضاً يرشّق بسهام الغيبة، وعَلماً يقصد بالوقية، ولست بالعروضي ذي اللّهجة فأعرف قدرَ حذقك فيه، إلا أني لا أراك تتعرّضُ لكاملٍ فيه، ولا وافرٍ، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شطّ المتقارب.

وفي فصل منها أيضاً:

وهبني سكتٌ لدعواك سُكوتٌ متعجَّب، ورضيتُ رضا متسَخِّط، أيرضى الفضل اجتذابك بأهدابه، من يدي أهليه وأصحابه، وأحسبك لم تراحِم خطابه، حتى عرفت ذلَّة نَفَره وقلة بصره، فاصدقني هل أنشدك: المنسرح:

لو بأبائينِ جاء يَخْطُبُها ضُرِّجَ ما أنْفُ خَاطِبِ بَدَمِ

وليت شعري بأي حلي تصدّيت له؛ وأنت لو تتوجت بالثريّا، وقلدت قلادة الفلك، وتمنّطت بمنطقة الجوزاء، وتوشّحت بالجرّة لم تكن إلا عُطْلاً، ولو توشّحت بأنوار الربيع الزاهر وسرّجت جبينك غرّة البدر الباهر، ما كنت إلا عُطْلاً، سيما مع قلة وفائك، وضعف إخائك، وظلمة ما تتصرّف فيه من خِصَالِك، وتراكم الدُّجَى على ضلالِك، وقد ندمتُ على ما أعرتك من ودّي، ولكن أي ساعة مندم، بعد إفناء الزمان في ابتلائك، وتصفّحي حالات الدهر في اختيارك، وبعد تضييع ما غرسته، ونقض ما أسسته، فإن الوداد غرسٌ إذا لم يوافق ثرى ثريا، وجوّاً عذياً، وماء رويّاً، لم يُرَجَ زكاؤه، ولم يجر نماؤه، ولم تفتح أزهاره، ولم تجن ثماره، وليت شعري، كيف ملك الضلالُ قيادي حتى أشكل عليّ ما يحتاجُ إليه المزوجان، ولا يستغني عنه المتآلفان، وهما ممازجة طبع، وموافقة شكلٍ وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حال تجمعنا عنى ائتلاف، وحمّتنا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدين، وبين أمرين متباعدين؛ وإذا حصّلت الأمر وجدت أقلّ ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار أقلّ ما بيننا من النضار، وأكثر ما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار.

قضاء الحاجة

قال أسد بن عبد الله لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، فرطُ الخيلاء، وهيبة العزّة، وظل الخلافة، يكفُّ عن الطلب من أمير المؤمنين إلّا عن إذنه، فقال له: قل: فقد والله أصبت مسلك الطلب؛ فسأل حوائج كثيرة فُضيت له.

وقال عمرو بن هُنيك لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، قد حضر خدامك الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم، وما عاقبة هذين لهم عندك؟ قال: عطاء يزيدهم حياءً، وإكرام يكسوهم هيبة الأبد. قال عيسى بن علي: ما زال المنصور يشاورنا في أمره حتى قال إبراهيم بن هرمة فيه: الطويل:

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره فناجى ضميراً غير مختلف العقل
ولم يُشرك الأذنين في جُل أمره إذا اختلفت بالأضعفين قوَى الحبل

فقر في ذكر المشورة

المشورة لقاح العقل، ورائد الصواب، وحزم التدبير. المشاورة قبل المساورة. والمشورة عين الهداية. ابن المعتز: من رضي بحاله استراح، والمستشير على طرف النجاح. وله: مَنْ أَكْثَرَ الْمَشُورَةَ لَمْ يَعدْ فِي الصَّوابِ مَادِحًا، وَفِي الْخَطِإِ عَاذِرًا. بشار بن برد: المشاور بين إحدَى الحسينين: صواب يفوزُ بشمرته أو خطأ يُشارك في مكروهه، وقال: الطويل:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة
وما خير كَفَّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أُخْتَهَا
وخَلَّ الهَوَيْنَى للضعيف ولا تكن
وأذن إلى القرب المقرب نفسه
فإنك لا تستطرد الغم بالمنى
بعزم نصيح أو مشورة حازم
فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم
نؤوماً فإن الحر ليس بنائم
ولا تشهد النجوى أمراً غير كاتم
ولا تبلى العُلْيَا بغير المكارم

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب في حمالات لزمته فقال: أيها الأمير، قد عظم شأنك أن يستعان بك أو يستعان عليك، ولست تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنت أكبر منه، وليس العجب من أن تفعل، بل العجب من ألا تفعل، فقضاها.

في التاريخ والنسب

استخلص القاضي أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي رجلاً للأئس به، فقال: أغير ثيابي وأعود، قال: ما أفعل، إيناسك وعد، وإيحاشك نقد، وكان أبو خليفة من جلة الحديثين، وله حلاوة معنى، وحسن عبارة، وبلاغة لفظ. قال الصولي: كاتب أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلت التاريخ منها في كتابين، فكتب إلي بعد نفوذ الثاني: وصل كتابك - أعزك الله - مبهم الألوان، مظلم المكان، فادى خيراً ما القرب فيه بأولى من البعد؛ فإذا كتبت - أكرمك الله تعالى! - فلتكن كتبك مرسومة بتاريخ؛ لأعرف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى. وقال بعض الكتاب: التاريخ عمود اليقين، ونافى الشك، به تُعرف الحقوق، وتُحفظ العهود. وقال رجل لأبي خليفة سلم عليه: ما أحسبك تعرف نسي، فقال: وجهك يدل على نسبك، والإكرام يمنع من مسألتك، فأوجد لي السبيل إلى معرفتك. وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفضي إليه الخلافة شبيب بن شيبه، فانتسب له، فعرفه أبو جعفر، فأثنى

عليه وعلى قومه، فقال له شبيب: بأبي أنت وأمي! أنا أحب المعرفة وأجلك عن المسألة، فتبسّم أبو جعفر وقال: لطف أهل العراق! أنا عبد الله بن محمد بن علي، بن عبد الله بن العباس، فقال: بأبي أنت وأمي! ما أشبهك بنسبك، وأدلك على منصبك.

فقر وأمثال يتداولها العمال

الولاية حلة الرضاع مرّة الفطام. غبارُ العمل خيرٌ من زعفران العطلة.
ابن الزيات: الإرجاف مقدمة السكون.
عبد الله بن يحيى: الإرجاف رائد الفتنة.
حامد بن العباس: غرس البلوى، يثمر الشكوى.
أبو محمد المهلي: التصرّف أعلى وأثنى، والتعطلُ أصفى وأعفى.
إبو القاسم الصاحب: وعدُّ الكريم، ألزَمُ من دين الغريم.
أبو المعتز: ذلُّ العزلِ يضحك من تيه الولاية. وقال: مجزوء الكامل:

وبعزله ركضَ البريدُ

كم تائه بولاية

وخمارها صعبٌ شديدٌ

سُكْرُ الولاية طيبٌ

وقال: من ولي ولايةً فاته فيها فأخبره أن قدره دوها. العزل طلاق الرجال وحيض العمال. وأنشدوا:
الوافر:

لحاه الله من حيضٍ بغيضٍ

وقالوا العزل للعمال حيضٌ

من اللائي يئسن من المحيض

فإن يك هكذا فأبؤ عليّ

منصور الفقيه: المحتث:

لنا الجفا وتبدّل

يا من تولّى فأبدى

من لم يمت فسيُعزل

أليس منك سمعنا

وقال أيضاً: المتقارب:

وعند الولاية أستكبرُ

إذا عَزَل المرءُ واصلته

ونفسي على الذل لا تصبرُ

لأن المولى له نخوة

أخبار منصور الفقيه

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمي، وكان يتفقه على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهو حلو المقطعات، لا تزالُ تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويُستحلى مغزاه، ويبقى ثناه، وهو القائل لما كفَّ بصره: البسيط:

مَنْ قَالَ مَاتَ وَلَمْ يَسْتَوْفِ مُدَّتَهُ لعظم نازلة نالته معذورُ
وليس في الحكم أن يحيا فتى بلغتُ به نهاية ما يخشى المقاديرُ
فقل له غيرَ مراتبٍ بغفلته أو سوءِ مذهبه: قد عاش منصورُ
وعتبَ على بعض الأشراف، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر ديناراً، فقال: المجتث:

من فانتني بأبيه لم يفتني بأمه
ورام شتمي ظلماً سكتُ عن نصفِ شتمه
وقال: المجتث:

لو قيل لي خذ أماناً ممن حادث الأزمانِ
لما أخذتُ أماناً إلا من الإخوانِ
وقال: المتقارب:

رضيت بما قسم الله لي وفوضتُ أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يُحسن فيما بقي
وقال: مجزوء الكامل:

لو كنت منتقياً بعلاً مك مع مواصلة الكبائر
ما ضرَّ شرب السمِّ واع لم أن شرب السمِّ ضائرُ
وقال: الهزج:

إذا القوتُ تأتي ل ك والصحةُ والأمن
وأصبحتُ أذا حزناً فلا فارقك الحزنُ

ورأيت له في أكثر النسخ - على أن أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدي، وهو الصحيح -: الكامل:

لولا الحياءُ وأنني مشهورُ والعيبُ يعلّقُ بالكبيرِ كبيرُ
لحللتُ منزلنا الذي نحتلهُ وكان منزلنا هو المهجورُ

وهذا كقول صاحب أبي القاسم: المتقارب:

دَعْتِي عَيْنَاكَ نَحْوَ الصَّبَا
فَلَوْلَا وَحَقُّكَ عَذْرُ الْمَشِيبِ
دَعَاءُ يَكْرُرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
لَقُلْتُ لِعَيْنَيْكَ سَمْعًا وَطَاعَةً

وقال ابن دريد في معنى البيت الأول فأحسن: البسيط:

إِذَا رَأَيْتَ امْرَأً فِي حَالِ عُسْرَتِهِ
فَلَا تَمَنَّ لَهُ أَنْ يَسْتَفِيدَ غِنًى
مُصَافِيًا لَكَ مَا فِي وَدَّهِ خَلَلُ
فَإِنَّهُ بَانْتِقَالِ الْحَالِ يَنْتَقِلُ

تَغْيِيرُ بَعْدِ عُسْرَةٍ

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديقٌ قد نالته عُسْرَةٌ، ثم وَلَّى عملاً؟، فأثابه محمد قاضياً حقاً ومسلماً عليه، فرأى منه نبوةً وتغييراً، فكتب إليه: الطويل:

لَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنْالَتُكَ ثَرَوَةً
لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ خِلَافَةً
وَأَصْبَحْتَ ذَا يُسْرٍ، وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُسْرٍ
مِنَ اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ ثَوْبٍ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أبو العتاهية في عمرو بن مسعدة، وكان له خِلاٌ قبل ارتفاع حاله، فلما عَلَتْ رتبته مع المأمون تغيّر عليه: الطويل:

غَنِيَتْ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ غَنِيَتَا
وَقَدْ كُنْتُ لِي أَيَّامَ ضَعْفٍ مِنَ الْقَوَى
وَضِيَّعَتْ عَهْدًا كَانَ لِي وَنَسِيَتَا
أَبْرٌ وَأَوْقَى مِنْكَ حِينَ قَوِيَتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَا كُنْتَ تُحَسِّنُ وَصَفَةً
وَمُتَّ عَنِ الْإِحْسَانِ حِينَ حَيَّيْتَا

وكتب بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان فيما ينخرطُ في هذا السلك:

كنتُ - أطل الله بقاء الشيخ سيدي وأدام عزّه - في قديم الزمان أتمنّى الخيرَ للإخوان، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرَّ عليهم أَخْلَافَ الرِّزْقِ، ويمدَّ لهم أَكْنَافَ الْعَيْشِ، ويؤتِيَهُمْ أَصْنَافَ الْفَضْلِ، ويوطئهم أَكْنَافَ الْعِزِّ، وينيلهم أَعْرَافَ الْجَدِّ، وقُصَارَايَ الْآنَ أن أَرْغَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَلَا يُنِيلُهُمْ فَوْقَ الْكِفَايَةِ، فَشَدَّ مَا يَطْعُونَ عِنْدَ النِّعْمَةِ يِنَالُوهَا، والدرجةِ يعلوْنَهَا، وسَرَّعَ مَا يَنْظُرُونَ مِنْ عَالٍ، ويجمعون مِنْ مَالٍ، وينسون فِي سَاعَةِ الدُّوْنَةِ أَوْقَاتَ الْخَشُونَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْعُذُوبَةِ أَيَّامَ الصَّعُوبَةِ، وَلِلْكِتَابِ مَزِيَّةٌ فِي هَذَا الْبَابِ؛ فَبَيْنَا هُمْ فِي الْغُرْبَةِ أَعْوَانٌ كَمَا انْفَرَجَ الْمَشْطُ، وَفِي الْعُطْلَةِ إِخْوَانٌ كَمَا انْتَضَمَ السَّمْطُ، حَتَّى إِذَا لَحَظَهُمُ الْجَدُّ لَحْظَةً حَمَقَاءَ بِمَنْشُورِ عِمَالَةٍ، أَوْ صَكَ جَعَالَةٍ؛ عَادَ عَامِرٌ مَوَدَّتِهِمْ خِرَابًا، وَانْقَلَبَ شَرَابُ عَهْدِهِمْ سَرَابًا، فَمَا اتَّسَعَتْ دَوْرُهُمْ إِلَّا ضَاقَتْ صَدُورُهُمْ، وَلَا عَلَتْ قُدُورُهُمْ إِلَّا خَبَتْ بِدَوْرِهِمْ، وَلَا عَلَتْ أُمُورُهُمْ إِلَّا أَسِيلَتْ

ستورهم، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم. ولا همَلجت عتاقهم إلا فظعت أخلاقهم، ولا صلحت أحوالهم، إلا فسدت أفعالهم، ولا كثر ما لهم، إلا قل جماهم، وعز معروفهم، وورمت أنوفهم، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب خطباً، وعلى الأحرار مع الزمان ألباً. قُصارى أحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تخته، وأن يوطئ استه دسته، وحسبه من الشرف دارٌ يصهرج أرضها، ويزحرف بعضها، ويزوق سقوفها، ويعلق شُفوفها، وناهيه من الشرف أن تغدو الحاشية أمامه، وتحمل الغاشية قدامه، وكفاه من الكرم ألفاظ فقاعية، وثياب قداعية، يلبسها ملوماً، ويحشوها لوماً، وهذه صفة أفاضلهم. ومنهم من يمتحك الودَّ أيام خُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزانه وكيّله، وأسنانة أكيله، وأنيسه كيسه، وأليفه رغيّفه، وأمينه يمينه، ودنانيره سَميره، وصندوقه صديقه، ومفتاحه ضجيّعه، وخاتمه خادمه، وجمع الدرّة إلى الدرّة، ووضع البدرّة على البدرّة، فلم تقع القطرّة من طرفه، ولا الدرّة من كفّه؛ ولا يخرج ماله عن عهده خاتمه، إلى يوم مآتمه، وهو يجمع لحادث حياته، أو وارث وفاته، يسلك في العذر كلَّ طريق، ويبيع بالدرهم ألف صديق؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أبي سعيد - أيده الله تعالى - أنه إذا أخصب آواناً كنفاً من ظله، وحباناً من فضله، فمن لنا الآن بعدله؟ إنه - أطال الله بقاءه - حين طارت إلى أذنه عُقاب المخاطبة بالوزير، وجلس من الديوان في صدر الإيوان افتضَّ عُذره السياسة لديّ، بتعرض بعض المختلفة إليّ، وجعل يعرضه للهلاك، ويتسبب إليه بمال الأتراك، وجعلت أكاّته مرة وأقصده أخرى، وأذكّره أن الراكب ربما استزل، والوالي ربما عُزل، ثم يحفّ ريق الخجل على لسان العذر، فتبقى الحرازة في الصدر، وما يجمعني والشيخ إن كان زاده قولي إلا علواً في تحكّمه وغلواً في تمكّمه وجعل يمشي الجَمْزى في ظلمه؛ ويرأى إليّ من علمه، فأقول - إذا رأيت ذلّة السؤال مني وعزّة الردّ منه لي - : مجزوء الكامل:

عة ما أرى يا بيّذق

قل لي متى فرزنت سرّ

وما أضيع وقتاً فيه أضعّته، وزماناً بذكره قطعته، هلمّ إلى الشيخ وشرعته، فقد نكأ القلب بقرّحه، وكيف أصِفُ حالاً لا يقرع الدهرُ مروّة حاله، ولا ينتقض عروة إجلاله؛ فما أولاني بأن أذكره مجّماً، وأتركه مفصّلاً، والسلام.

وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف:

فهمت ما ذكرت - أطال الله بقاءك - من أمر فلان أنه ولي الأشراف، فإن يصدق الطير يكن إشرافاً على الهلاك، بأيدي الأتراك، فلا تحزُنك ولايته فالحبل لا يبرم إلا للقتل، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يزين إلا للقتل، ولا يرفعك نفاقه فأرخص ما يكون النفط إذا غلا وأسفل ما يكون الأرنب إذا علا، وكأني به وقد شنّ عليه جران العود، شنّ المطر الجود، وقيد له مركبُ الفجار، من مربوط النجار، وإنما جر له

الحبل، يُصَفَعُ كما صُفِعَ من قبل، وستعودُ تلك الحالة إحالة، وينقلبُ ذلك الحبلُ حَبَالَةً، فلا يحسد الذئب على الإلية يُعْطَاهَا طعمة، ولا يحسب الحبُّ يُنْشَرُ للعصفور نعمة، وهبه وُلي إمارة البحرين أليس مرجعه ذلك العقل، ومصيره ذلك الفضل، ومنصبه ذلك الأصل، وعصارتَه ذلك النسل، وقعيدته تلك الأهل، وقوله ذلك القول، وفعله ذلك الفعل، فكان ماذا؟ أليس ما قد سلب أكثر مما أُوتِي، وما عدم أوفر مما غنم؟ ما لك تنظرُ إلى ظاهره، وتعمي عن باطنه؟ أكان يعجبك أن تكونَ قعيدته في بيتك، وبغلته من تحتك، أم كان يسرُّك أن تكونَ أخلاقه في إهابك، وبوابه على بابك؟ أم كنت تودُّ أن تكونَ وجعاًؤه في إزارك، وغلمانه في دارك؟ أم كنت تَرْضَى أن تكونَ في مربطك أفراسه، وعليك لباسه، ورأسك رأسه؟ جعلت فداك! ما عندك خير مما عنده، فاشكر الله وحده على ما آتاك، واحمده على ما أعطاك، ثم أنشد:

البسيط:

إِن الْغَنِيِّ هُوَ الرَّاضِي بِعَيْشَتِهِ لَا مَنْ يَظُلُّ عَلَى الْأَقْدَارِ مَكْتَنِبًا

بين البخل والجود

ألف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخلَ ويذمُّ الجودَ؛ ليظهر قدرته على البلاغة، وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فوقع عليه: لقد مدحت ما ذمّه الله، وحسنت ما قبح الله، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معنالك، وقد جعلنا نوالك عليه قبولَ قولك فيه.

وكان الحسنُ من كرماء الناس وعقلائهم. سئل أبو العيناء عنه، فقال: كأنما خلف آدم في ولده، فهو ينفع عيَّلتهم، ويسدُّ خلَّتَهم، ولقد رفع الله للدنيا من شأنها، إذ جعله من سكَّانها.

أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر: الكامل:

وَكأنْ أَدَمَ كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ أَوْصَاكَ وَهُوَ يَجُودُ بِالْحَوْبَاءِ
بِبَنِيهِ أَنْ تَرَاعَهُمْ فَرَعَيْتَهُمْ وَكَفَيْتَ أَدَمَ عَيْلَةَ الْأَبْنَاءِ

وأخذ أبو الطيب المتنبي آخر كلام أبي العيناء فقال: البسيط:

قَدْ شَرَفَ اللَّهُ دُنْيَا أَنْتَ سَاكِنُهَا وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا

وقيل للحسن بن سهل: لم قيل: قال الأول، وقال الحكيم؟ قال: لأنه كلام قد مرَّ على الأسماع قبْلنا، فلو كان زللاً لما نُقِلَ إلينا مستحسنًا.

ومن أمثال البخلاء

واحتجاجهم، وحكمهم:

أبو الأسود الدؤلي: لا تُجاود الله، فإنه أجود وأجمد، ولو شاء أن يوسّع على خلقه حتى لا يكون فيهم محتاج فعل. وقال: لو أطعنا المساكين في إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالاً منهم.

وقال الكندي: قول "لا" يدفع البلاء، وقول "نعم" يزيل النعم. وقال: سماع الغناء برسام حاد؛ لأن المرء يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت. وقال لابنه: يا بني، كن مع الناس كاللاعب بالقمار، إنما غرضه أخذ متاعهم، وحفظ متاعه.

وقال غيره: منع الجميع أرضى للجميع. إذا قبح السؤال حسن المنع.

وقال علي بن الجهم: من وهب في عمله فهو مخدوع، ومن وهب بعد العزل فهو أحمق، ومن وهب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يتعب فيه فهو مخدول، ومن وهب من كيسه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه وبصره.

ومن إنشادهم: الخفيف:

ليس في منع غير ذي الحق بخل

لا تجذ بالعطاء في غير حق

وقال كثير: الطويل:

حقيقة تقوى أو صديق ترافقه

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه

ولم يفتنك المال إلا حقائقه

منعت، وبعض المنع حزم وقوة

ابن المعتز: السريع:

فقام للناس مقام الذليل

يارب جود جر فقر امرئ

فالبخل خير من سؤال البخيل

فاشدد عرا مالك واستبقه

وكتب بعض البخلاء يصف بخيلاً: حضرت - أعزك الله - مائدة فلان للقدر المجلوب، والحين المتاح، والشقاء الغالب، فرأيت أواني تروق العيون محاسنها، ويونق النفوس ظاهرها وباطنها، وترهى اللحظات ببدايع غرائبها، وتستوفي الشهوات بلطائف عجائبها، مكللة بأحسن من حلي الحسان ووجوهها وزهر الرياض ونورها، كأن الشمس حلت بساحتها، والبدر يغرف من جوانبها، فمددت يداً عنتها الشراة، وغلبها القدر الغالب، وجرها الطمع الكاذب، وإذا له مع كسر كل رغيح لحظة نكر، ومع كل لقمة نظرة شزر، وفيما بين ذلك حرق قائمة، يصلى بها من حضره من الغلمان والحشم، وقام بين يديه من الولدان، والخدم، ومع ذلك فترة المغشي عليه من الموت؛ فلما وضعت الحرب أوزارها برفع الحوان،

وتخلّت عنه سمادير العَشِيان، بسط لسانَ جهله، ونصر ما كان من بخله، ونظر إلى مؤاكلة، نظر المسترقّ له بأكلته، المالك لخيّط رقبته! يظنُّ أنه أولى من والديه بنسبته، وأحقّ بماله، من ولده وعياله، يرى ذلك فضلاً، وحقاً لازماً، وأمرأً واجباً، نزل به الكتابُ والسنة، واتفقَ عليه قضاةُ الأمة، فإن دفعه ردّ حكم القضاة عليه، وإن سمّح به فغيرُ محمود عليه.

فقر لابن المعتز وغيره

في الصديق والصدق

إنما سُمِّيَ الصديقُ صديقاً لصدقه فيما يدّعيه لك، وسُمِّيَ العدوُّ عدواً لعدوّه عليك إذا ظفر بك. علامةُ الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخّر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب، لا يفسدك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوبُ الصديق أنمَحَ السرورُ به، وتسَلَّطَ التهم عليه. من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأنس أثمرت مودّته ندماً. نصّح الصديق تأديباً، ونصح العدو تأنيباً. ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد، وما جُمش الود بمثل العتاب: الكامل:

ترْكُ العتاب إذا استحقَّ أخمك العتاب ذريعةُ الهجر

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى صديق له من الحبس: نحن في الصحبة كالنسرَيْن، لكني واقع، وعلى الطائر أن يعشَى أخاه ويراجع. من قل صدقه قل صديقه. من صدقت لهجته ظهرت حُجته. الصادق بين المهابة والمحبة. من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يَجْزُ صدقه، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتمل العقول.

من إنشاء الحسن بن وهب

وكتب الحسن بن وهب إلى أبي تمام أظائي: أنت، حفظك الله، تحتذي من البيان في النظام، مثل ما نقصد نحن في النثر من الإفهام، والفضلُ لك - أعزّك الله - إذ كنت تأتي به في غاية الاقتدار، على غاية الاقتصار، في منظوم الأشعار، فتحلّ متعقده، وتربط متشرّده، وتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه في قيوده، ثم لا تأتي به مهملاً فيستبهم، ولا مشتركاً فيلتبس، ولا متعقداً فيطول، ولا متكلفاً فيحول؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال؛ فلا أعدمنا الله هداياك واردة، وفوائدك وافدة، وهي طويلة.

وفي هذه الرسالة يقول أبو تمام، وقد أرى أنه قال ذلك في غيرها: الوافر:

لقد جَلَى كتابك كلَّ بَثٍّ

فَضَضْتُ خُتَامَهُ فَتَبَلَجْتُ لِي

وكان أَعْضَّ في عَيْنِي وَأَنْدَى

وَأَحْسَنَ مَوْقِعاً مَنِيَّ وَعَنْدِي

كُتِبَتْ بِهِ بَلَا لَفْظٍ كَرِيهِ

وَضُمِّنَ صَدْرُهُ مَا لَمْ تُضَمِّنْ

فَإِنْ تَكُ مِنْ هَدَايَاكَ الصَّفَايَا

لَنْ غَرَبَتْهَا فِي الْأَرْضِ بَكْرَا

وقال البحرري في الحسن بن وهب: الكامل:

وَإِذَا تَأَلَّقَ فِي النَّدِيِّ كَلَامُهُ الـ

وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ

بِالْفَلْظِ يَتَرَبُّ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ

جَوٍّ، وَأَصَابَ شَاكِلَةَ الرَّمِيِّ

غَرَائِبُهُ عَنِ الْخَبْرِ الْجَلِيِّ

عَلَى كَبْدِي مِنَ الزَّهْرِ الْجَنِيِّ

مَنْ الْبُشْرَى أَتَتْ بَعْدَ النُّعِيِّ

عَلَى أَذْنٍ، وَلَا لَفْظٍ قَمِيٍّ

صُدُورُ الْغَانِيَاتِ مِنَ الْحَلِيِّ

فَرَبَّ هَدِيَّةٍ لَكَ كَالْهَدِيِّ

لَقَدْ زُفَّتْ إِلَى سَمْعٍ كَفِيِّ

مَصْقُولُ خِلَتِ لِسَانَهُ مِنْ عَضْبِهِ

بَرَقَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَا فِي كُتْبِهِ

مَنَا، وَيَبْعُدُ نَيْلُهُ فِي قُرْبِهِ

حِكْمَ فَسَائِحُهَا خِلَالَ بَنَانِهِ

كَالرُّوضِ مُؤْتَلَقٍ بِحَمْرَةٍ وَرْدِهِ

أَوْ كَالْبُرُودِ تُخَيَّرَتْ لِمُتَوَجِّحٍ

وَكَأَنَّهَا وَالسَّمْعُ مَعْقُودٌ بِهَا

مُتَدَفِّقٌ وَقَلْبِيهَا مِنْ قَلْبِهِ

وَأَنِيْقُ زَهْرَتِهِ وَخُضْرَةُ عُشْبِهِ

مِنْ خَالِهِ أَوْ وَشْيِهِ أَوْ عَصْبِهِ

وَجْهَ الْمَحَبِّ بَدَا لِعَيْنٍ مُحِبِّهِ

أنشد بعض الكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلباً، فاستعادها حتى فهمها، ثم قال: لو سمع الأوائل هذا ما فضّلوا عليه شعراً.

وقال بعض الكتاب: مجزوء الكامل:

ورسالة ألفاظها

جاءت إليك كأنها الـ

بأرق من شكوى وأح

لو واجهت أعمى لأص

في النظم كالدرّ النثير

توفيق في كل الأمور

سن من حياة في سرور

بح وهو ذو طرف بصير

فكأنها أمل سرى
أو كالفقيد إذا أتت
أو كالمنام لساھر
كتبت بحبر كالنوى
فكأنما هو باطل
من بعد يأس في السرور
لقدومه بشرى البشير
أو كالأمان لمستجير
أو كفر نعمى من كفور
ما بين حق مستنير

وقال أحمد بن أبي العباس بن ثوبة البسيط:

في كل يوم صدور الكتب صادرة
عن خط أقلامه يجري القضاء على
كأن أسطره في بطن مهرقه
لعابه علل والصدر ينفثها
كالنار تعطيك من نور ومن حرق
من رأيه وندى كفيه عن مثل
كل الخلائق بين البيض والأسل
نور يضاحك دمع الواكف الخصل
وربما كان فيه النفع للعلل
والدهر يعطيك من غم ومن جدل

وقال آخر: الوافر:

مداد مثل خافية الغراب
وأقلام كأرواح الجواري
ورق مثل رقرق السراب
وألفاظ كأيام الشباب

بلاغة عمرو بن مسعدة

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون، وفي يده كتاب، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه بصره ويصوبه؛ فالتفت إليّ وقد لحظني في أثناء قراءته الكتاب، فقال: أراك مُفكراً فيما تراه مني! فقلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المخاوف! قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكني قرأت كتاباً وجدته نظيراً ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة، فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه: كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من الأجناد والقواد في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أعطياهم، واختلت أحوالهم! ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه المسألة في الإخبار، وإعفائه سلطانه من الإكثار؟ ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر. وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي: المتقارب:

أَعْنِي عَلَى بَارِقٍ نَاصِبٍ
 كَأَن تَأْلُقَهُ فِي السَّمَاءِ
 فَرَوَى مَنَازِلَ تَذْكَارُهَا
 غَرِيبٌ يَحِنُّ لِأَوْطَانِهِ
 كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى
 وَصِدِّقُ الرَّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ
 عَرِيضُ الْفَنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا
 بَنَى الْمَلِكُ طَوْدَ لَهُ بَيْتُهُ
 هُوَ الْمُرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ
 جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ
 بِأَدَمِ الرِّكَابِ وَوَشْيِ الثَّنَا
 خَفِيَ كَوْحِيكَ بِالْحَاجِبِ
 يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
 يَهِيحُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
 وَيَبْكِي عَلَى عَصْرِهِ الذَّاهِبِ
 مَطَالَعَةُ الْأَمَلِ الْكَاذِبِ
 لَعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
 ء فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الثَّاقِبِ
 وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
 وَمَعْتَصِمِ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ
 عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
 ب وَالطَّرْفِ وَالطَّفَّلَةِ الْكَاعِبِ

نَوْمُهُ لِحِجَامِ الْأُمُورِ
 خَصِيبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ
 يَرَوَى الْقَنَا مِنْ نَحْوِ الْعَدَا
 إِلَيْكَ تَبَدَّتْ بِأَكْوَارِهَا
 كَأَن نَعَامًا تَمَادَى بِنَا
 يَرْدُنْ نَدَى كَفَّكَ الْمُرْتَجَى
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ جَابِرِ
 يُسَاقِي الْعَدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى
 وَكَمْ رَاغِبٌ نَلْتَهُ بِالْعَطَا
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ، وَكَسَبُ الثَّنَا
 يَقِينُكَ يَجْلُو سَتُورَ الدَّجَى
 وَنَدَعُوهُ لِلْجَلَلِ الْكَارِبِ
 بِشَيْمَتِهِ لَيْنِ الْجَانِبِ
 وَيُغْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
 حَرَّاجِيحُ فِي مَهْمَةٍ لَاحِبِ
 تَزَايِلُ مِنْ بَرْدٍ حَاصِبِ
 وَيَقْضِينَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 بِسَجَلٍ لِقَوْمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 وَيَسْبِقُ مَسْأَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ نَلْتُ بِالْحَتَفِ مِنْ هَارِبِ
 وَفَضْلٌ مِنَ الْمَانِعِ الْوَاهِبِ
 ء أَفْضَلُ مَكْسَبَةِ الْكَاسِبِ
 وَظَنُّكَ يُخْبِرُ بِالْغَائِبِ

وهذا الشعر يتدقق طبعاً وسلاسة.

بين الطبع والتكلف

قلت: والكلامُ الجيد الطبع مقبول في السمع، قريبُ المَثال، بعيدُ المَنال، أنيقُ الديباجة، رقيقُ الزجاجاة، يدنو من فَهْم سامعه، كدَنُوهُ من وهم صانعه، والمصنوع مثقف الكعوب، معتدلُ الأنبوب، يطرد ماءُ البديع على جَنَباته، ويجول رَوْنقُ الحسن في صفحاته، كما يجول السَّحر في الطَّرْف الكحيل، والأثرُ في السيف الصقيل، وحمل الصانع شعره على الإكراه في العمل وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني يُعْفي آثار صنعته، ويطفئ أنوار صيغته، ويخرجه إلى فسادِ التعسّف، وقَبْحِ التكلّف؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجسُه، وتنفّثه وساوسه، من غير إعمال النظر، وتدقيق الفكر، يخرجه إلى حدّ المشتهر الرث، وحيز الغث؛ وأحسّن ما أحرى إليه، وأعول عليه، التوسّط بين الحالين، والمتزلة بين المتزلتين، من الطبع والصنعة. وقد قال أعرابي للحسن البصري: علمني ديناً وسيطاً، لا ساقطاً سقوطاً، ولا ذاهباً فروطاً، قال الحسن: أحسنت، خيرُ الأمور أوساطها. والبحثري عن هذا القوس يتزع، وإلى هذا النحو يرجع.

ملح في باب الشعر

ومن الشعر الذي يجري مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفي؛ إذ قدم من الرقة بعد القبض على القرمطي فقال: مجزوء الكامل:

لا ورمّانِ النهودِ	فوق أغصانِ القدودِ
وعناقيدٍ منَ أصدا	غِ وورْدٍ من خُدودِ
وبدورٍ من وُجوهٍ	طالعَاتٍ بالسعودِ
ورسولٍ جاء بالمي	عاد من بَعْدِ الوعيدِ
ونعيمٍ من وِصالٍ	في قَفَا طولِ الصدودِ
ما رأت عيني كظبي	زارني في يوم عيدِ
في قَبَاءٍ فاختيّ اللون من لبس الجديد	
كلما قاتل جند	ي بسيفٍ وعمودِ
قاتل الناسَ بعي	نٍ وخَدَيْنٍ وجيدِ
قد سقاني الخمر من في	ه على رغم الحُسودِ

وتعانقنا كأننا
نقرع الشجر بثغر
مثل ما عاجل برد
سحراً من قبل أن تر
ومضى يخطر في المش
مرحباً بالملك القا
يا مدل لبغي يا قا
عش ودم في ظل عيش
فلقد أصبح أعدا
ثم قد صاروا حديثاً
جاءهم بحر حديد
فيه عقبان خيول
وركدوا الحرب فمدوا
وحسام شره الح

وهو في عقد شديد
طيب عند الورود
قطر مزن بجمود
جع أرواح الوفود
ي كجبار عنيد
دم بالجد السعيد
تل حيات الحقود
خالد باق جديد
وك كالزرع الحصيد
مثل عاد وثمرود
تحت أجيال بنود
فوقها أسد جنود
كل خطي مديد
د إلى قطع الوريد

ما لهذا الفتح يا خي
فاحمد الله فإن ال

ر إمام من نديد
حمد مفتاح المزيد

وقول علي بن الخليل، مولى يزيد بن مؤيد الشيباني، وكان يُرمى بالزندقة، قال الفضل بن الربيع: جلس الرشيد يوماً للمظالم، فجعلت أتصفح الناس، وأسمع كلامهم، فرميت بطرقي، فرأيت في آخرهم شيخاً حسن الهيئة والوجه ما رأيت أحسن منه؛ فوقف حتى تقوض المجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين، رفعتي؛ فأمر بأخذها، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بقراءتها؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطي من غيري - فقال له: اقرأ، فقال: شيخ ضعيف، ومقام صعب، ولا آمن الاضطراب؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل عنايته بأمر في الإذن بالجلوس فعل، فقال: اجلس، فجلس وأنشأ يقول: الكامل:

يا خير من وخذت بأرحله
طوي السباسب في أزمته

نُجِبُ الركاب بمهمه جلس
طي التجار عمائم البرس

لما رأتك الشمس طالعة
 خَيْرُ البرية أنت كلهم
 وكذاك لن تنفك خيرهم
 لله ما هارون من ملك
 تمت عليه لربه نعم
 من عترة طابت أرومتها
 متهللين على أسرتهم
 إني لجأت إليك من فزع
 لما استخرت الله مجتهداً
 واخترت حلمك لا أجازه
 كم قد سریت إليك مَدْرَعاً
 إن راعني من هاجس فزع
 ما ذاك إلا أنني رجل
 بيض أو انس لا قرون لها
 وأجاذب الفتیان بينهم
 للماء في حافاتها حَبَبٌ
 والله يعلم في بنيته

سجدت لوجهك طلعة الشمس
 في يومك الغادي وفي الأمس
 تمسي وتصيح فوق ما تمسي
 عف السريرة طاهر النفس
 تزداد جدتها مع اللبس
 أهل العفاف ومنتهى القدس
 ولدى الهياج مصاعب شمس
 قد كان شرذني ومن لبس
 يمت نحوك رحلة العنس
 حتى أغيب في ثرى رمسي
 ليلاً يمج كحالك النفس
 كان التوكل عنده ترسي
 أصبو إلى نفر من الإنس
 يقتلن بالتطويل والحبس
 صفراء مثل مجاجة الورس
 نظم كرقم صحائف الفرس
 ما إن أضعت إقامة الخمس

قال: ومن تكون؟ قال: علي بن الخليل، الذي يقال إنه زنديق، فقال له: أنت آمن، وأمر له بخمسة آلاف درهم.

وأنشد أبو العباس المبرّد لرجل يصف دعوة دعا بها الله عزّ وجلّ، وقد رأيته في شعر محمد بن حازم الباهلي: الطويل:

وسارية لم تسر في الأرض تبتغي
 سرت حيث لم تحذ الركاب ولم تتخ
 تمر وراء الليل والليل ضارب
 إذا وردت لم يرّد الله وفدها

محلاً، ولم يقطع بها البید قاطع
 لورد، ولم يقصر لها القيد مانع
 بجثمانه فيه سمير وهاجع
 على أهلها، والله راء وسامع

تَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ دُونَهَا
وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّنِي
إِذَا قَرَعَ الْأَبْوَابَ مِنْهُمْ قَارِعٌ
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعٌ

أخبار معن بن زائدة

ودخل رجل من شيبان، على معن بن زائدة، فقال: ما هذه الغيبة. فقال: أيها الأمير، ما غاب عن العين مَنْ يذكُرهُ القَلْبُ، وما زال شوقي إلى الأمير شديداً، وهو دون ما يَجِبُ له، وذِكْري له كثيراً، وهو دُونَ قَدْرِهِ، ولكن جفوة الحجاب، وقِلَّةُ بشر الغلمان، منعاني من الإتيان! فأمر بتسهيل إذنه، وأجزل صلته. وقال أبو جعفر المنصور لمعن بن زائدة: كبرت يا مَعْنُ! قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: إنك لجلد، قال: على أعدائك، قال: وإنَّ فيك لبقيةً، قال: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: فأبي الدولتين أحبُّ إليك؛ هذه أم دولة بني أمية. قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد بُرْكَ على برِّهم كانت دولُّك أحبَّ إليَّ.

ومعن هذا هو: معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو أخي الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن منبه بن مرة بن ذُهَلْ بن شيبان، وبنو مطر بيت شيبان، وشيiban بيت ربيعة.

وكان معن أحود الناس، وفيه يقول مَرْوَان بن أَبِي حفصة ويعم بني مطر: الطويل:

بنو مطرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ
أَسْوَدَ لَهَا فِي غَيْلِ خَفَانٍ أَشْبَلُ
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا
لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِينَ مَنْزِلُ
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ
وَأِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هَمُّ الْقَوْمِ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
جَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
أَخَذَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ ابْنُ الرُّومِيِّ، وَزَادَ فَقَالَ: الْبَسِيطُ:
تَلَقَّاهُمْ وَرِمَاحَ الْخَطِّ بَيْنَهُمْ
كَالْأَسَدِ أَلْبَسَهَا الْآجَامَ خَفَانُ

بين الجبن والحزم

أتى قوم من العرب شيخاً لهم قد أَرَبَى على الثمانين، وأهدف على التسعين، فقالوا: إِنَّ عَدُوَّنَا اسْتَأَقَ سَرَحَنَا، فَأَشْرَ عَلَيْنَا بِمَا نُنْذِرُكَ بِهِ الثَّارَ، وَنَنْفِي بِهِ الْعَارَ، فَقَالَ: الضَّعْفُ فَسَخَ هِمَّتِي، وَنَكثَ إِيرَامُ عَزِيمَتِي،

ولكن شاوروا الشجعان من ذوي العزم، والجبناء من ذوي الحزم؛ فإن الجبان لا يَأْلُو برأيه ما بقي مهجكم، والشجاع لا يَأْلُو برأيه ما يشيد ذكركم، ثم أخلصوا من الرأي بنتيجة تبعد عنكم معرفة نقص الجبان، وتَهَوَّر الشجعان، فإذا نجم الرأي على هذا كان أنفذ على عدوكم من السهم الصائب، والحسام القاضب.

بين الجهل والعقل

قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول لرجل تخصمته: والله لو صوّر الجهل لأظلم معه النهار، ولو صوّر العقل لأضاء معه الليل، وإنك من أفضلهما لمعدم، فخف الله، واعلم أن من ورائك حكماً لا يحتاج المدعى عنده إلى إحضار البيّنة.

هجاء بني كليب

قال الفرزدق يهجو كليباً: الوافر:

نجوم الليل ما وضحت لساري

ولو يرُمى بلؤم بني كليب

لدنس لؤمهم وضح النهار

ولو لبس النهار بنو كليب

أقوال الأعراب في النثر والشعر

وقاد سفيان بن عيينة: سمعت أعرابياً يقول عشية عرفة: اللهم، لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي، وإن لم تتقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيئته. وقال آخر منهم لصديق استبطأه فلامه: كانت لي إليك زلة يمنعني من ذكرها ما أملت من تجاوزك عنها، ولست أعتذر إليك منها إلا بالإقلاع عنها. وقال آخر لابن عم له: والله ما أعرف تقصيراً فأقلع، ولا ذنباً فأعتب، ولست أقول: إنك كذبت، ولا إنني أذنبت.

وقال آخر لابن عم له: سأخطي ذنبك إلى غدرك، وإن كنت من أحدهما على يقين، ومن الآخر على شك، لتتم النعمة مني إليك، وتقوم الحجة لي عليك. وأصيب أعرابي بابن له فقال - وقد قيل له: اصبر - أعلَى الله أتجلّد، أم في مصيبي أتبلّد؟ والله للجزع من أمره أحب إليّ الآن من الصبر؛ لأن الجزع استكانة، والصبر قساوة، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح

بالمزيد.

ودعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أفترقَ في غناك، أو أضلَّ في هداك، أو أذلَّ في عزِّك أو أضام في سلطانتك، أو أضطَّهد والأمر إليك.

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يعِظُ رجلاً وهو يقول: وَيَحْكُ! إِنَّ فلاناً وإن ضحكك إليك، فإنه يضحكُ منك، ولئن أظهر الشفقة عليك؟ إِنَّ عقاربه لتسري إليك؛ فإن لم تتَّخذْ عدوًّا في علانيتك، فلا تجعله صديقاً في سريرتك.

سمع أعرابي رجلاً يقع في السلطان، فقال: إنك غُفل لم تسمك التجارب، وفي النصيح لَسعُ العقارب، كأني بالضاحك إليك، وهو باك عليك.

وحذر بعضُ الحكماء صديقاً له صحبه رجل، فقال: احذر فلاناً فإنه كثيرُ المسألة، حسن البحث، لطيف الاستدراج، يحفظُ أول كلامك على آخره، ويعتبرُ ما أخرت بما قدَّمت، فلا تظهرَنَّ له المخافة فيرى أن قد تحرَّزْتَ؛ وأعلم أنَّ من يقظة الفطنة إظهارَ الغفلة مع شدة الحذر، فبائتُهُ مباءةُ الآمن، وتحفُّظ منه تحفُّظَ الخائف؛ فإنَّ البحث يظهر. الخفي الباطن، ويُبدِي المستكنَّ الكامن.

أتى أعرابي رجلاً لم يكن بينه وبينه حرمه في حاجةٍ له، فقال: إني امتطيتُ إليك الرجاء، وسرَّيتُ على الأمل، ورافقت الشكر، وتوسَّلتُ بحُسنِ الظنِّ، فحقَّق الأمل، وأحسِنِ المثوبة، وأكرمِ الصَّفد، وأقمِ الأود، وعجِّل السَّراح.

قال الأصمعي: وسمعتُ أعرابياً يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب، نطقت الألسنةُ الفروع! واللَّه يعلم أنَّ قلبي لك شاكر، ولساني ذاكر، ومحال أن يظهرَ الودَّ المستقيم، من الفؤاد السقيم. ومدح أعرابي رجلاً، فقال: إنه ليغسل من العار وجوهاً مسودَّة، ويفتح من الرأي أبواباً منسدَّة. وقال أعرابي: الكامل:

كم قد ولدتم من رئيسٍ قسورٍ	دامي الأظافر في الخميس المُمطرِ
سدَّكت أنامله بقائم مرهف	وبنشر فائدة وجذوة منبرِ
ما إن يريد إذا الرماحُ تشاجرتْ	درعاً سوى سربال طيبِ العنصرِ
يلقي السيوفَ بوجهه وبنحره	ويقيم هامته مقامَ المغفرِ
ويقول للطرفِ اصطبرِ لشبَّ القنا	فَعقرتُ ركنَ المجد إن لم تُعقرِ
وإذا تأملَ شخصَ ضيفٍ مقبلٍ	متسرَّيل سربال محلٍّ أغبرِ

أَوْمَى إِلَى الْكَوْمَاءِ هَذَا طَارِقٌ

نَحَرَّتَنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تَتَحَرِي

وقال: البسيط:

قَامَتْ تَصَدَّى لَهُ عَمْدًا لَغَفْلَتَهُ

فَلَمْ يَرَ النَّاسُ وَجْدًا كَالَّذِي وَجَدَا

جِيْدَاءَ رَبْدَاءٍ لَمْ تَعْقِدْ قَلَائِدَهَا

وَنَاهِذٌ مِثْلَ قَلْبِ الطَّبَّيِّ مَا خَضَا

فِرَاحٍ كَالْحَائِمِ الصَّدْيَانِ لَيْسَ لَهُ

صَبْرٌ وَلَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ إِنْ وَرَدَا

وقال آخر: الطويل:

وَمَكْتَمَاتٍ بَعْدَ وَهْنٍ طَرْقَنِي

بَأْرِدِيَةِ الظُّلْمَاءِ مَلْتَحَفَاتٍ

دَسَسْنَ رَسُولًا نَاصِحًا وَتَلَوْنَهُ

عَلَى رَقَبَةٍ مِنْهُمْ مَسْتَنَرَاتٍ

فَبِتُّ أَعْاطِيَهُنَّ صَرْفَ صَبَابَةٍ

وَبِتُّنَ عَلَى اللَّذَاتِ مَعْتَكِفَاتٍ

فِيَا وَجَدَ قَلْبِي يَوْمَ أَتَبَعْتُ نَاضِرِي

سَلِيمِي وَجَادَتْ بَعْدَهَا عِبْرَاتِي

وقال الأحنف بن قيس: من لم يستوحش من ذلِّ المسألة لم يأنف من الردِّ.

وقال سفيان الثوري لأخ له: هل بلغك شيء مما تكرهه عمن لا تعرف. قال: لا، قال: فأقل من تعرف.

أخذه ابن الرومي، فقال: الوافر:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٍ

فَأَقْلَلْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الصَّحَابِ

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ

يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ

فَدَعْ عَنْكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٌ

يُعَافُ، وَكَمْ قَلِيلٌ مُسْتَطَابٌ؟

وَمَا لِلْجُحِّ الْمِلَاحُ مُرَوِّياتٍ

وَيُلْفَى الرَّيُّ فِي النُّطَفِ الْعِذَابِ

باب المديح

وقال رجل لخالد القسري: والله إنك لتبذل ما جل، وتجبر ما انفل، وتكثر ما قل؛ ففضلك بديع، ورأيك جميع، تحفظ ما شد، وتؤلف ما ند.

وسئل أعرابي عن قومه، فقال: يقتلون الفقر، عند شدة القر، وأرواح الشتاء، وهبوب الجربياء، بأسنة الجزور، ومترعات القدور، تهش وجوههم عند طلب المعروف، وتعبس عند لمعان السيوف.

ووصف أعرابي قوماً فقال: لهم جودٌ كرام اتسعت أحوالها، وبأسٌ ليوث تتبعها أشبالها، وهم ملوك انفسحت آمالها، وفخرُ آباء شرفت أحوالها.

وقال خالد بن صفوان، وقد دخل على بعض الولاة: قدمت فأعطيت كلاً بقسطه من نظرك ومجلسك، وصوتك، وعلتك، حتى كأنك من كل أحد، وحتى كأنك لست من أحد.

وذكر خالد رجلاً فقال: كان والله بديع المنطق، ذلق الجرأة، جزل الألفاظ، عري اللسان، ثابت العقدة، رقيق الحواشي، خفيف الشفتين، بلبل الريق، رحب الشرف، قليل الحركات، خفي الإشارات، حلو الشمائل، حسن الطلاوة، حيياً جرياً؛ قوولاً صموتاً، يفل الحز، ويصيب المفاصل، لم يكن بالهذر في منطق، ولا بالزمر في مروءته، ولا بالخرق في خليقته، متبوعاً غير تابع، كأنه علم في رأسه نار. وقال بعض البلغاء لرئيسه: إن من النعمة على المثني عليك أنه لا يأمن التقصير، ولا يخاف الإفراط، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلا وجد في فضلك عوناً على تجاوزها. ومن سعادة جدك أن الداعي لا يعدم كثرة المشايعين، ومساعدة النية على ظاهر القول.

ألفاظ لأهل العصر

في ضروب الممادح

قد وضعت كثرة التجارب، في يده مرآة العواقب. قد نجدته صروف الدهور، وحنكته مصاير الأمور. قد أرضعته الحنكة بلبائها، وأذنته الدربة في إبانها. فلان نوازل التجارب حنكته، وفوادح الأيام عركته. هو عارف بتصاريف الأيام، آخذ برهان التجارب، نافذ في مجال التحصيل والتميز. قد صحب الأيام، وتولى، النقض والإبرام. هو ابن الدهر حنكة وتجريباً، وعوداً على الدهر صلياً، قد أدبه الليل والنهار، ودارت على رأسه الأدوار، واختلفت به الأطوار. له همة علا جناحها إلى عنان النجم. وامتد صباحها من شرق إلى غرب، لا يتعاضمه إشراف الأمر إذا أخطره بفكره، وانتساف الصخر إذا ألقاه في وهمه، همته أبعد من مناط الفرقد، وأعلى من منكب الجوزاء. أوسع من الأرض ذات العرض. هو حي القلب، منشرح الصدر، ذكي الذهن، شجاع الطبع، ليس بالنؤوم، ولا السؤوم، فذ فرد، وأسد ورد، وكأن له في كل جراحة قلباً. كأن قلبه عين، وكأن جسمه سمع. شهاب مقدم، وقذح مقوم. وهو شهيم مشدود النطاق، قائم على ساق، قد جد واجتهد، وحشر وحشد، شمر عن ساق الجد ما أطاق، قد ركب الصعب والذلول، وتحشم الحزن والسهول، وقطع البر والبحر، وأعمل السيف والرمح، وأسرج الدهم والشهب. هو مولود في طالع الكمال، وهو جملة الجمال. قد أصبح عين المكارم، وزين المحافل. هو فرد

دهره، وشمسُ عَصْرِهِ، وزَيْنُ مِصْرِهِ، وهو عَلَمُ الْفَضْلِ، وواسطةُ عِقْدِ الدَّهْرِ، ونَادِرَةُ الْفَلَكَ، ونَكْتَةُ الدُّنْيَا، وَغُرَّةُ الْعَصْرِ. قد بايعته يَدُ الْمَجْدِ، ومالت به الشورى إلى النصر. فلان يزيّدُ عليهم زيادةَ الشمس على البدر، والبحر على القَطْرِ. هو رائِشُ نَبْلِهِمْ، وَنَبْعَةُ فَضْلِهِمْ، وَجُمَّةُ وِرْدِهِمْ، وواسطةُ عِقْدِهِمْ. هو صَدْرُهُمْ وَبَدْرُهُمْ، ومن عليه يدورُ أَمْرُهُمْ، ينيف عليهم إنافةً صفحةُ الشمسِ على كُرَةِ الْأَرْضِ، كأَنَّهُمْ فَلَكَ هُوَ قُطْبُهُ، وَجَسَدُهُ هُوَ قَلْبُهُ، ومملوك هو رَبُّهُ. هو مشهور بسيادتهم، وواسطة قِلَادَتِهِمْ. موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد، وليلة التَمُّ من الشهر، بل ليلة القَدَرِ إلى مطلع الفجر. أَفْضَلُ وَأَنْعَمُ، وَأَسْدَى فِي الْإِحْسَانِ وَالْحَمْدِ، وَأَسْرَجَ فِي الْإِكْرَامِ وَالْجَمِّ، قسم من إِنْعَامِهِ مَا يَسْعُ أَمْنًا، وتلقى السعادة أَمْنًا، أعطاه عَنَانُ الْاهْتِمَامِ، حتى استولَى على قَصَبِ الْمَرَامِ. رُدَّ عَنْهُ الدَّهْرُ أَحْصَى الْجَنَاحَ، وَمَلَكَهُ مَقَادَةُ النِّجَاحِ. أولاه من معهود البرِّ ومألوفه، وَقَصَّرَتِ الْأَعْدَاءُ عَنْ مِثَالِهِ وَأُلُوفُهُ. أولاه إِسْعَافًا سَمْحًا، وَعِطَاءً سَحًّا، وَمَنَّا صَفْوًا وَعَفْوًا. أَفَاضَ عَلَيْهِ شِعَابَ الْبِرِّ وَمَسَائِلَهُ، وَجَمَعَ لَهُ شُعُوبَ الْجَمِيلِ وَقِبَائِلَهُ، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ سَحَابُ عَنَائِهِ، وَرَفَرَتْ حَوْلَهُ أَجْنَحَةُ رِعَايَتِهِ. قد فَكَّه بِكَرَمِهِ مِنْ قَيْدِ السُّؤَالِ، وَمَعَرَّةِ الْاِخْتِلَالِ. رَاشَهُ بَعْدَمَا حَضَهُ الْفَقْرُ، وَأَرْضَاهُ وَقَدْ أَسْخَطَهُ الدَّهْرُ. مَلَأَ الْعَيُونَ، وَسَهَرَ دُونَنا لِتَحْقِيقِ الظُّنُونِ. قد شِمْتُ مِنْ كَرَمِهِ أَكْرَمَ سَحَابِ، وَحَصَلْتُ مِنْ إِنْعَامِهِ فِي أَحْصَابِ جَنَابِ. قد سَدَّ ثُلُمَةُ حَالِي، وَأَدْرَجَ حُلُوبَةُ آمَالِي. ما أَخْلَوْ مِنْ طَلِّ إِحْسَانِهِ وَوَابِلِهِ، وَغَابَرِ إِنْعَامِهِ وَقَابِلِهِ. قد اسْتَمْطَرْتُ مِنْهُ بَنُوءَ غَزِيرٍ، وَسَرِيْتُ فِي ضَوْءِ قَمَرٍ مَنِيرٍ. قد كَرَعْتُ مِنْ بَرِّهِ فِي مَشَارِعِ تَغْزَرٍ وَلَا تَتَرُّرٍ، وَرَفَلْتُ مِنْ طَوْلِهِ فِي مَلَابِسٍ تَطُولُ وَلَا تَقْصُرُ. إِقَامَتُهُ فِي ظِلِّ ظَلِيلٍ، وَفَضْلُهُ جَزِيلٌ، وَرِيحُ بَلِيلٍ، وَنَسِيمُ عَلِيلٍ، وَمَاءُ رَوِيٍّ، وَمَعَادُ وَطِيٍّ، وَكُنُّ كَنِينٍ، وَمَكَانُ مَكِينٍ. أَنَا آوِي إِلَى ظِلِّهِ كَمَا يَأْوِي الطَّيْرُ الْمَذْعُورُ إِلَى الْحَرَمِ، وَأَوَاجُهُ مِنْهُ وَجْهَ الْمَجْدِ وَصُورَةُ الْكَرَمِ. أَنَا مِنْ إِنْعَامِهِ بَيْنَ خَيْرِ مُسْتَفِيضٍ، وَجَاهِ عَرِيضٍ، وَنَعَمِ بَيِضٍ. قد اسْتَظْهَرْتُ عَلَى جَوْرِ الْأَيَّامِ بَعْدَلَ، وَاسْتَتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بَظْلَهُ. مَا أَرَدْتُ فِيهِ طَرْفِي وَأَعَدَّهُ مِنْ خَالِصِ مَلَكِي مَكْتَسَبَ إِلَى عَطَائِهِ، أَوْ مَكْتَسَبُ بِجَمِيلِ آرَائِهِ. مَسَافَةُ بَصْرِي تَبْعِدُ إِنْ سَافَرْتُ فِي مَوَاهِبِهِ، وَرَكَائِبُ فِكْرِي تَطْلُحُ إِنْ أَنْضَيْتُهَا فِي اسْتِقْرَاءِ صَنَائِعِهِ. نَعْمَتُهُ نِعْمَةٌ عَمَّتِ الْأُمَمَ، وَسَبَقَتْ النِّعَمَ، وَكَشَفَتْ الْهَمُومَ وَرَفَعَتْ الْهَمَمَ، نَعْمُهُ قَدْ سَطَعَ صَبَاحُهَا مُسْتَنِيرًا، وَطَنَبَ شِعَاعُهَا مُسْتَظِيرًا، قَدْ عَرَفْتَنِي نَعْمُهُ حَتَّى اسْتَنْفَدْتُ شُكْرَ لِسَانِي وَيَدِي وَأَتَعَبْتُ ظَهْرِي، وَمَلَأْتُ صَدْرِي. نَعْمُهُ عِنْدِي مَشْرِفَةُ الْجَوْ، مَغْرَقَةُ النَّوَى، مُونِقَةُ الضَّوْءِ. تَتَابَعَتْ نَعْمُهُ تَتَابَعَ الْقَطَرُ عَلَى الْقَفْرِ، وَتَرَادَفَتْ مِنْهُ تَرَادَفَ الْغَنِيِّ إِلَى ذَوِي الْفَقْرِ. نَعْمُهُ

أَشْرَقَتْ بِهَا أَرْضِي، وَمُطِرَ بِهَا رَوْضِي، وَوَرَى لَهَا زَنْدِي، وَعَلَا مَعَهَا جَدِّي، وَأَتَانِي الزَّمَانُ يَعْتَذِرُ مِنْ إِسَاءَتِهِ، وَجَاءَنِي الدَّهْرُ يَنْتَظِرُ أَمْرِي. نَعْمُهُ أَنْعَمَتِ الْبَالُ، وَسَرَّتِ النَّفْسُ وَالْحَالُ. نَعْمُ تَعْمُ عُمُومَ الْمَطَرِ، وَتَزِيدُ عَلَيْهِ بِإِفْرَادِ النِّفَعِ عَنِ الضَّرَرِ. نَعْمُ تَضَعُفُ الْخَوَاطِرُ عَنِ التَّمَاسُهَا، وَتَصْغُرُ الْقَرَائِحُ عَنِ اقْتِرَاحِهَا. لَهُ

أيادٍ قد عمَّت الآفاق، ووسمت الأعناق، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر. مِن تَوَالَتْ
تَوَالِي القطر، واتسعت سَعَةُ البرِّ والبحر، وأثقلت كاهل الحرِّ. عندي قلادة منتظمة من مننه قد جعلتها
وَقَفًا على نحر الأيام، وجلوَّتها على أبصار الأنام. أيادٍ يقصر عن حقوقها جهد القول، وتزهر فيها
سواطع الإنعام والطول. أياديه أطواق في أجساد الأحرار، وأفلاك تدور على ذوي الأخطار. له مِن
تضعف عن تحملها عواتق الأطواد، ويتضاعف حملها على السَّيِّع الشداد، لو تحمل الثقلان ثقل هذا
الامتنان لأثقل كواهلهم وأضعف عواتقهم. أياد يفرض لها الشكر ويحتّم، ومن يتبدأ بها الذكر ويُخْتَم.
أياد تثقل الكاهل، وَمِنْ تُثْعَبُ الأنامل. مِن تضعف مُنَّ الشكر، وينشر معها قوى النشر، من هي
أحسن أثرًا من الغيث في أزاهير الربيع، وأحلى موقعًا من الأمن عند الخائف المروع. إن أتعبت نفسي في
تعداد مننه وحصرها فسأطمع في إحصاء السحاب وقطرها. أياد لا تحصى أو تحصى محاسن النجوم، ومن
لا تحصر أو تحصر أقطار الغيوم. أيادٍ كعدد الرمل والنمل، أعيت على العد، ولم تقف عند حد. زادت
أياديه حتى كادت تجهد الأعداد، وتسبق الإعداد. أياديه عندي أغزر من قطر المطر، وعوارفه لديّ أسرع
من رجع البصر. رفعتني من قعر التراب، إلى سَمَك السحاب. استنبطه من الحضيض الأوهد، إلى السناء
الأجد، وقد نبهه عن خمول، وأجرى الماء في عوده بعد ذبول، ورقاه إلى ذروة من المجد بعد نزول. فضائل
ترل أقدام النجوم لو وطئتُها، وتقصر همم الأفلاك لو طلبتها، ثبت قدمه في المحل المنيف، ومكنه من
جوامع التشريف. جذب بضبعه من المسقط المنحط، إلى المرفع المشتط.

ولهم في أدعية

من صدور الكتب تليق بهذه الأتنية والممادح

أطال الله له البقاء، كطول يده بالعطاء، ومدَّ له في العمر، كامتداد ظلّه على الحرِّ، وأدام له المواهب، كما
أفاض به الرغائب، وحرس لديه الفضائل؛ كما عوّذ به الشمائل. تولى الله عني مكافأته، وأعان على الخير
نيتّه وفعله، وأصبح بقاءه عزًّا ييسطُ يديه لأوليائه على أعدائه، وكلاءةً تذبّ عن ودائع مننه عنده، وزاد
في نعمه وإن عظمت، وبلغه آماله وإن انفسحت، ولا زال الفضل يأوي منه إلى رُكنٍ منيع، وجنابٍ
مريع. لا زالت الألسن عليه بالثناء ناطقة، والقلوب على مودّته متطابقة، والشهادات له بالفضل متناسقة.
لا زال يعطف على الصادر والوارد، عطف الأم والوالد. أبقاه الله للجميل يُعلي معالمة، ويحمي مكارمه،
ويعمر مدارجَه، ويثمر نتائجه. أدام الله أيامه التي هي أيام الفضائل ومواقيتها، وأزمان المآثر وتواريخها.

أدامه الله للمواهب، سامية الذوائب، موفية على مُنية الراحي وبغية الطالب. أبقاء الله للعطاء يفضيه بين خدمه، والجمال يُفيضه على إنشاء نعمه، والله يتابع له أيام العلاء والغبطة، والنماء والبسطة، ليرتفع أنواع الخدم في رياض فواضله، ويكرع أصناف الحشم في حياض مواهبه، والله يقيه طويل الذراع، مديد الباع، ملياً بالاتصال والاصطناع. جزاء الله عن نعمة هيأها بعد أن أسبغها، وعارفة مَلاها بعد أن سوَّغها، أفضل ما جازى به مبتدئ إحسان، ومُجبر إنسان، لا زال مكانه مصاناً للكرم، معاناً للنعم، لا تربمه المواهب، ولا ترومه النوائب، بُسِطت بالعلاء يده، وقُرِن بالسعادة جده، وجعل خير يوميه غده، ولا زالت الأيام والليالي مطاياها؛ في أمانيه وآماله وأيامه، وصرف صروف الغير عن إصابة إقباله وكمالهِ.

وقال ابن المعتز في القاسم بن عبيد الله: الطويل:

أيا حاسداً يكوي التلهف قلبه
إذا ما رآه غازياً وسط عسكر
تصفح بني الدنيا فهل فيهم له
نظير ترى ثم اجتهد وتفكر
فإن حدثتْك النفس أنك مثله
بنجوى ضلال بين جنبك مضمر
فجد، وأجد رأياً، وأقدم على العدا
وشد عن الإثم المأزر واصبر
وعاص شياطين الشباب وقارع الن
وائب وارفع صرعة الضر واجبر
فإن لم تطق ذا فاعذر الدهر واعترف
لأحكامه واستغفر الله يغفر

صناعة الكلام

قال الجاحظ: صناعة الكلام علق نفيس، وجوهر ثمين، هو الكثر الذي لا يُقنى ولا يُبلى، والصاحب الذي لا يُمل ولا يُفلى، وهو العيار على كل صناعة، والزمائم لكل عبارة، والقسطاس الذي به يستبين نقص كل شيء ورُجحانه، والراووق الذي يُعرف به صفاء كل شيء وكدره، والذي كل علم عليه عيال، وهو لكل تحصيل آلة ومثال.

وقال ابن الرومي: البسيط:

ما عذر معتزلي مؤسرٍ منعت
كفاه معتزلياً مثله صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبته
إن قال ذاك فقد حل الذي عقدا
وقال ابن الرومي: الكامل:

لذوي الجدال إذا غدوا لجدالهم
حجج تضل عن الهدى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمت
فهوت، وكل كاسر مكسور

فالقَاتِلُ المَقْتُولُ ثُمَّ لَضَعَفَهُ

وقال أبو العباس الناشئ يفتخر بالكلام الطويل:

ونحن أناس يَعْرِفُ الناسُ فَضْلَنَا

تُتِيرُ وُجُوهُ الحَقِّ عِنْدَ جَوَابِنَا

صَمَمْنَا فلم نتركْ مقالاً لصامتٍ

وقال يصفُ أصحابه: البسيط:

فلو شَهِدْتُ مقاماتي وَأُنْذِيتِي

في فتيةٍ لم يلاقِ الناسُ مَذًى وَجِدُوا

ولو هَيَّه، وَالْأَسْرُ الْمَأْسُورُ

بِالسُّنَنِ زَيْنَتْ صُدُورُ المحَافِلِ

إِذَا أَظْلَمَتْ يَوْمًا وَجُوهُ المسَائِلِ

وَقُلْنَا فلم نتركْ مقالاً لِقَائِلِ

يَوْمَ الخِصَامِ وَمَاءُ المَوْتِ يَطْرُدُ

لَهُمْ شَبِيهَا وَلَا يُلْفَوْنَ إِنْ فَقِدُوا

مجاوِرو الفضلِ أَفلاكِ العُلا سِبلِ الت

كَأَنَّهُمْ فِي صُدُورِ الناسِ أَفْنَدَةٌ

يُيَدُّونَ لِلنَّاسِ مَا تَخْفِي ضَمَائِرُهُمْ

دَلُّوا عَلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا بِظَاهِرِهَا

مَطَالَعِ الحَقِّ مَا مِنْ شَبْهَةٍ غَسَقَتْ

وقال سعيد بن حميد: الخفيف:

قالت: اكْتَمَ هَوَايَ وَاكْنِ عَن اسْمِي

قلت: لَا أُسْتَطِيعُ ذَلِكَ، قالت:

وَتَخَلَّيْتُ عَن مَقَالَةٍ بِشْرَبِ

وقال أبو القاسم بن عباد الصاحب: الخفيف:

كَنتَ دَهْرًا أَقُولُ بِالِاسْتِطَاعَةِ

فَفَقَدْتُ اسْتَطَاعَتِي فِي هَوَى ظَلَبِ

وقال أيضاً: الطويل:

ولما تَنَاعَتْ بِالْحَبِيبِ دِيَارُهُ

تَمَكَّنَ مِنِّي الشَّوْقُ غَيْرَ مُخَالِسِ

وَصَرْنَا جَمِيعًا مِنْ عِيَانٍ إِلَى وَهْمِ

كَمَعْتَزَلِيٍّ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ خَصْمِ

باب النسب

وأنشد محمد بن سلام بعضَ هذه الأبيات التي أنشدها، وزعم أنها لأبي كبير الهذلي، ورُويت ليزيد بن الطَّثَرِيَّة وغيره، والرواة يُدخلون بعض الشعر في بعض، وهي: الطويل:

عَقِيلِيَّةٌ، أَمَّا مَلَأَتْ إِزَارَهَا
فَوَعَتْ، وَأَمَّا خَصَرَهَا فَبَتِيلُ
تَقِيْظُ أَكْنَافِ الْحِمَى، وَيُظِلُّهَا
بَنَعْمَانُ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ مَقِيلُ
فِيَا خُلَّةَ النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا
لَنَا مِنْ أَخْلَاءِ الصَّفَاءِ خَلِيلُ
وَيَا مَنْ كَتَمْنَا حُبَّهُ، لَمْ يُطْعَ لَهُ
عَدُوٌّ، وَلَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِ دَخِيلُ
أَمَّا مِنْ مَقَامِ أَشْتَكِي غُرْبَةَ النَّوَى
وُخُوفَ الْعِدَا فِيهِ إِلَيْكَ سَبِيلُ؟
أَلَيْسَ قَلِيلًا نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا
إِلَيْكَ؟ وَكَلَّا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلُ
وَإِنْ عَنَاءَ النَّفْسِ مَا دَمْتُ هَكَذَا عُنُودَ النَّوَى
مَحْجُوبَةً لَطْوِيلُ

أَرَا جَعَلَتْ قَلْبِي عَلَيَّ فَرَائِحَ
مَعَ الرِّكَبِ لَمْ يَكْتَبْ عَلَيْكَ قَتِيلُ
فَلَا تَحْمِلِي وَزْرِي وَأَنْتِ ضَعِيفَةٌ
فَحَمَلْتُ دُمِي يَوْمَ الْحَسَابِ تَقِيلُ
فِيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا، وَيَا مُنْتَهَى الْمَنَى
وَيَا نُورَ عَيْنِي، هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلُ؟
فَدَيْتُكَ، أَعْدَائِي كَثِيرٌ، وَشُقَّتِي
بَعِيدٌ، وَأَشْيَاعِي لَدَيْكَ قَلِيلُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ بَعْلَةً
فَأَفْنَيْتِ عَلَاتِي، فَكَيْفَ أَقُولُ؟
فَمَا كُلَّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكَ حَاجَةٌ
وَلَا كُلَّ يَوْمٍ لِي إِلَيْكَ رَسُولُ

وأنشد ابنُ سلام لأبي كبير الهذلي: الطويل:

وَإِنِّي لِمُسْتَسْقٍ لَهَا اللَّهُ كَلَّمَا
لَوْى الدِّينَ مُعْتَلً وَشَحَّ غَرِيمُ
سَحَائِبَ لَا مِنْ صَيِّبٍ ذِي صَوَاعِقِ
وَلَا مُحْرِقَاتٍ مَأْوَهْنَ حَمِيمِ
وَلَا مَخْلَفَاتٍ حِينَ هَجْنٍ بِنَسْمَةٍ
إِلَيْهِنَّ هُوْجَاءُ الْمَهَبِّ عَقِيمِ
إِذَا مَا هَبَطْنَ الْقَاعَ قَدْ مَاتَ نَبْتُهُ
بَكَيْنَ بِهِ حَتَّى يَعِيشَ هَشِيمُ

عمران بن حطان

ولمَّا ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشاري قال: اضربوا عنقَ ابن الفاجرة، فقال عمران: لبئسما أدبَكَ أهْلُكَ يَا حَجَّاجُ! كَيْفَ أَمَنْتَ أَنْ أُجِيبَكَ بِمَثَلٍ مَا لَقَيْتَنِي بِهِ؟ أَبْعَدَ الْمَوْتِ مَثَلُهُ أَصَانِعُكَ عَلَيْهَا؟ فَأَطْرَقَ

الحجاج استحياءً، وقال: خَلُّوا عنه؛ فخرج إلى أصحابه، فتقالوا: والله ما أطلقك إلا الله، فارجع إلى حربته معنا، فقال: هيهات! غلَّ يداً مطلقها واسترقَّ قبةً مُعْتَقُها! وأنشد: الكامل:

أَفَأَقَاتِلَ الْحَجَّاجَ عَنْ سُلْطَانِهِ بيدُ تَقَرَّ بِأَنْهَا مَوَلَاتُهُ؟
إِنِّي إِذَا لِأَخُو الدِّنَاءَةِ، وَالَّذِي عَقَّتْ عَلَى عِرْفَانِهِ جَهْلَاتُهُ

ماذا أقول إذا وقفت مُوَازِيَاً في الصفِّ واحتجبتُ له فَعَلَاتُهُ؟
وتحدَّثَ الأكْفَاءُ أَنَّ صَنَائِعَاً غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنَظَلَّتْ نَخَلَاتُهُ
أَقُولُ جَارَ عَلِيٍّ؟ إِنِّي فِيكُمْ لأَحَقُّ مَنْ جَارَتْ عَلَيْهِ وُلَاتُهُ
تالله ما كدت الأمير بآلةٍ وجوارحي وسلاحها آلَاتُهُ

أخذ أبو تمام هذا فقال معتذراً إلى أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي: الطويل:

أَلَيْسَ هُجَرَ الْقَوْلِ مَنْ لَوْ هَجَوْتُهُ إِذَا لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي
كريم متى أمدحه أمدحه والورى مَعِي، وَإِذَا مَا لَمْتُهُ لَمْتُهُ وَحَلِمِي

وعمران بن حطان هو القائل: البسيط:

لم يعجز الموتَ شيءٌ دون خالفه والموتُ فَنَإِذَا مَا غَالَهُ الْأَجَلُ
وكلَّ كربٍ أمامَ الموتِ مُنْقَطِعٌ بالموتِ، والموتُ فيما بعده جَلَلٌ

وكان الفرزدقُ عمل بيتاً، وحلف بالطلاق أن جريراً لا ينقضه، وهو: الطويل:

فإِنِّي أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ

فاتصل ذلك بجرير، فقال: أنا أبو حَزْرَةَ، طَلقت امرأةَ الخبيث، وقال: الطويل:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ فَجَنَّنِي بِمَثَلِ الدَّهْرِ شَيْئاً يُطَاوِلُهُ

وإنما أشار جرير إلى قول عمران.

وهو عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَدُوسَ بْنِ سَنَانَ بْنِ ذَهْلٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ، ويكنى أبا شهاب، وكان من الشُّرَاةِ، وكان من أخطب الناس وأفصحهم، وكان إذا خطب ثارت الخوارج إلى سلاحها، وكان من أقبح الناس وَجْهًا، قالت له امرأته وكانت في الجمال مثله في القبح: إني لأرجو أن أكون وإياك في الجنة؛ لأن الله رزقك مثلي فشكرت، وابتلاني بمثلك فصبرت!.

بين أعرابي وبعض الولاة

ودخل أعرابي على بعض الولاة فقال: أصلح الله الأمير، اجعلني زماماً من أزمَّتكَ، فإني مسعر حرب، وركاب نجب، شديد على الأعداء، لئن على الأصدقاء، منطوي الحصيلة، قليل الثميلة، قليل غرار النوم، قد غدَّتني الحروب أفأويقها، وحلبت الدهر أشطره، فلا يمنحك مني الدِّمَامَة، فإن تحتها لشهامة.

الدنيا وأهلها

قال المسيح عليه السلام: الدُّنْيَا لِإِبْلِيسَ مزرعة، وأهلها له حُرَّات. وقال إبليس لعنه الله: العجب لبي آدم يحبون الله ويعصونه، ويغضونني ويطيعونني.

أربع كلمات فيهن صلاح الملك

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيتُ كالْيَوْمِ، ولا سمعتُ كأربع كلمات تكلم بهن رجلٌ عند هشام؛ دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات، فيهن صلاحُ مُلكك، واستقامة رعيّتك. قال: هاتهن؟ قال: لا تعدن عدّةً لا تثقُ من نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدرُ وعراً، واعلم أن للأعمال جزاءً فاتقِ العواقبَ، وأنّ للأمور بعثاتٍ فكنْ على حذر.

قال عيس بن دأب: فحدّثت بهذا الحديث الهادي وفي يده لُقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها، وقال: ويحك أعد عليّ! فقلت: يا أمير المؤمنين، أسغ لقمَتك، فقال: حديثك أحب إليّ.

بيعة يزيد

ولما عقد معاوية البيعة ليزيد قام الناس يخطبون؛ فقال لعمر بن سعيد: قم يا أبا أمية، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فإن يزيد بن معاوية أجلُّ تؤمونه، أملُّ تؤملونه، إن استضفتُم إلى حلمه وسِعكم، وإن احتجّتم إلى رأيه أرشدكم، وإن افتقرتم إلى ذاتِ يده أعناكم، جدّع قارح، سويق فسبّ، وموجد فمجدّ، وقورع فقرّع، وهو خلف أمير المؤمنين، ولملا خلف عنه، فقال له معاوية: اجلس، فقد أبلغت. وعمر بن سعيد هذا هو الأشدق، وإنما سُمي الأشدق لتشادقه في الكلام، وقيل: بل كان أفقم مائل الشدق، وهذا قول عوانة بن الحكم الكلبي، وهو خلاف قول الشاعر: الطويل:

وكل خَصِيبٍ لا أباً لك أشدُّ

تشادق حتى مال في القول شدقة

وكان أبوه سعيد بن العاص أحد خطباء بني أمية وبلغائهم.

ولما مات سعيد دخل عمرو على معاوية فاستنطقه فقال: إن أول كل مركب صعب، وإن مع اليوم غداً، فقال معاوية: وفي هذه العلة إلى من أوصى بك أبوك. قال: أوصى إلي ولم يُوصِ بي، فقال معاوية: إن ابن سعيد هذا لأشدق!.

تواضع الرشيد

قال ابن السماك للرشيد: يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أفضل من شرفك؛ إن رجلاً آتاه الله مالاً وجَمالاً وحَسَباً، فوأسى في ماله، وعفَّ في جماله، وتواضع في شربه، كُتب في ديوان الله عز وجل.

المتنبي يصف علة أصابته بمصر

نالت أبا الطيب المتنبي علة بمصر، فكان بعض إخوانه من المصريين يُكثر الإلمام به؛ فلمَّا أبلَّ قطعه، فكتب إليه: وصلّني، أعزك الله، مُعتلاً، وقطعتني مُبلاً، فإن رأيت ألا تُكدر الصحة عليّ، وتحبب العلة إليّ، فعَلت.

وفي هذه العلة يقول: الوافر:

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ؛ فَلَا وَرَائِي	تَخُبُّ بِي الرِّكَابُ، وَلَا أَمَامِي
عَلِيلُ الْجِسْمِ مُمْتَنِعُ الْقِيَامِ	شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمَدَامِ
وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً	فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا	فَعَاثَتْهَا، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا	فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَلْتَنِي	كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصَّبِيحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي	مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ	مُرَاقِبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصَّدْقُ شَرٌّ	إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكَرْبِ الْعِظَامِ

ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها

من ذكر التَّشَكِّي والمرض وتلوّنه، وسوء أثره، والانزعاج لعوارضه:

عرض لي مرضٌ أساء بالنجاة ظني، وكاد يصرف وجه الإفاقة عني، هو شُورى بين أمراض أربعة: صداع لا يخفّ، وحُمى لا تُغبّ، وزُكام لا يجفّ، وسُعال لا يكفّ. علّة هو في أسرها مُعتَقَل، وبقيدها مُكبِل. أمراض تلونت عليّ، وأساءت بي وإليّ، فأنا أشكرُ الله تعالى إذ جعلها عِظةً وتذكيراً، ولم يُبقِ منها الآن إلا سِيراً، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل أعضائي مرّاعها، وآلت على أن تُصير جوارحي مرابعها. علّل لا يصدر منها آت إلا لتكدير ورّد ولا يعزل منها وال إلا بولي عهد. قد كرّرت تلك العلة فعادت عللاً، وسقتني بعد نَهْلٍ عللاً. علّل برّته برّي الأخلّة، ونقصته نُقص الأهلّة، وتركته حرّضاً، وأوسّعته مرّضاً، وغادرته والخيالُ أكثفُ من جُثّة، والطيفُ أوفر منه قُوّة. عرض له من المرض ما صار معه القنوطُ يُغاديه ويُراوِحه، واليأسُ يُخاطبه ويُصافحه. قد ورّد من سوء الظنّ أوْخَمَ المناهل، وبات من حسن الرجاء على مراحِل. طالعتُ الكرم يترجّح نجمه بين الإضاءة والأفول، وتمثّل شمسُه بين الإشرار والغروب. أصبح فلانٌ لا يُقلُّ رأسه، ولا يحور ظله، ويدُّ المنية تَقَرّع بابه. ما هو للعلّة إلا عَرَض، ولِسْهَامُ المنية إلا عَرَض. شاهدتُ نفسي وهي تَخْرُج، ولقيتُ رُوحِي وهي تَعْرُج، وعَرَفْتُ كيف تكون السكرّة، وكيف تقع العَمْرَة، وكيف طَعُمُ البعد والفراق، وكيف تلتفُّ الساق بالساق. مرض لحقتني رَوْعته، وملكتني لَوْعته. وجدت في نفسي ألماً أوْحَشُهُ آنسُه، وآنسُه أوْحَشُهُ. بلغني من شكايته ما أوْحَشَ جناب الأنس، وأراني الظلمة في مَطْلَعِ الشمس. قد بلغني ما عَرَضَ لك من المرض، وألم بك من الألم، فتحامَلْ على سوداء صدري، وأقْدَى سوادَ طَرْفي، وقد استنفد القَلَقُ لعلّتك ما أعدّه الصبرُ من ذخيرة، وأضعف ما قواه العزم من بصيرة. قلبي يتقلّب على حدّ السيف إلى أن أعرف انكشافَ العارض وزِيَاله، وأتحقّق انحساره وانتقاله. أهْمِي إليّ من الخبر العارض، حسَمَ الله مادّته، وقصّر مدّته، ما أراني الأفق مُظْلِماً، والعيش مُبْهِماً.

فقر في تهوين العلّة بحسن الرجاء

وذكر المشاركة والاهتمام بحُلُولها والاستبشار بزوالها:

إنّ الذي بلغني من ضَعْفِهِ قد أضعف المنّة، وإنّ لم يُضعف الظنّ بالله والثقة. قد استشفّ العافية من ثوب رقيق. ما أكثر ما رأينا هذه العلل حلّت ثم تجلّت وتوالت ثم تولّت. خبرني فلان بعلّتك فأشركني فيها ألماً وقلّقاً، فلا أعلّ الله لك جسماً ولا حالاً، فليست نكاية الشغل في قلبي بأقلّ من نكاية الشكاية في جسمك، ولا استيلاء القَلَقِ على نفسي بأيسر من اعتراض السّقم لبदनك، ومن ذا الذي يصحّ جسمه إذا

تَأَلَّمْتُ إِحْدَى يَدَيْهِ، وَمَنْ يَحِلُّ مَحَلُّهَا فِي الْقَرَبِ إِلَيْهِ؟ أَنَا مُتَرَجِّعٌ لَشَكَاتِكَ، مُبْتَهِّجٌ بِمُعَافَاتِكَ، إِنْ كَانَتْ عَلَنَتِكَ قَدْ قَرَحَتْ وَجَرَحَتْ، فَإِنَّ صَحَّتِكَ قَدْ آسَتْ وَأَنَسَتْ. بَلَغْتَنِي شَكَاتُكَ فَارْتَوَعْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُ خَفَّتَهَا فَارْتَوَعْتُ. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى قُرْبِ الْمَدَّةِ بَيْنِ الْمِحْنَةِ وَالْمِنْحَةِ، وَالنَّقْمَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَعَلَى أَنَا لَمْ نَتَهَالِكْ بِأَيْدِي الْمَخَافَةِ حَتَّى تَدَارِكَ بِحُسْنِ الرَّأْفَةِ، وَلَمْ نَسْتَسَلِمْ لَخَطَّةِ الْحَذَرِ حَتَّى سَلِمَ مِنْ وَرْطَةِ الْقَدَرِ.

وَلَهُمْ فِي شِكَاةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالسُّؤُودِ

شِكَاؤُهُ الَّتِي تَتَأَلَّمُ مِنْهَا الْمَرْوَةُ وَالْفَضْلُ. وَيَسْقَمُ مِنْهَا الْكَرَمُ الْمُحْضُ. شِكَاؤُهُ الَّتِي غَضَّتْ بِهَا حُلُوقُ الْمَجْدِ، وَحَرَجَتْ لَهَا صُدُورُ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ، وَبَدَا الشَّحُوبُ مَعَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَرِيَّةِ، وَحَرَمَ مَعَهَا الْبِشْرُ عَلَى غُزَةِ الْمَرْوَةِ. قَدْ اعْتَلَّ بَعْلَتُهُ الْكَرَمُ، وَشَكَا بِشِكَايَتِهِ السِّيفُ وَالْقَلَمُ. شِكَاةٌ عَرَضَتْ مِنْهُ لَشَخْصِ الْكَرَمِ الْغَضُّ، وَالشَّرَفِ الْمُحْضِ. لَوْ قَبِلْتُ مَهْجَتِي فَدِيَّةً، دُونَ وَعَكَّةَ تَجَدُّهَا، لَجُدْتُ بِهَا، وَسَاعَةً أَنَسَ تَفْقِدُهَا لِبَذَلَتِهَا، عَالِمًا بِأَنِّي أَفْدِي الْكَرَمَ لَا غَيْرَ، وَالْفَضْلَ وَلَا ضَيْرَ.

وَلَهُمْ فِي تَنْسَمِ الْإِقْبَالِ وَذِكْرِ الْإِبْلَالِ

قَدْ شَمْتُ بَارِقَةَ الْعَافِيَةِ، وَشَمِمْتُ رَائِحَةَ الصَّحَّةِ. أَقْبَلَ صَنَعَ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَحْتَسِبْ، وَجَاعَنِي لَطْفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا أَرْتَقِبُ؟ وَتَدَرَّجْتُ إِلَى الْإِبْلَالِ وَقَدْ حَسِبْتُهُ حُلْمًا، وَرَضِيتُ بِهِ دُونَ الْإِسْتِقْلَالِ غُفْمًا وَقَدْ تَخَلَّصْتُ إِلَى شَطِّ الْعَافِيَةِ لَمَّا تَدَارَكَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِلَطِيفَةٍ مِنْ لَطَائِفِهِ وَجَعَلَ هَبَةَ الرُّوحِ عَارِفَةً مِنْ عَوَارِفِهِ، وَتَنَسَّمْتُ رُوحَ الْحَيَاةِ؟ بَعْدَ أَنْ أَشْفَيْتُ عَلَى الْوَفَاةِ، وَثَبَّتْ وَجْهِي إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ مُوَاجَهَتِي لِلدَّارِ الْأُخْرَى. قَدْ صَافَحَ الْإِقْبَالَ وَالْإِبْلَالَ، وَقَارَبَ النَّهْوُضَ وَالْإِسْتِقْلَالَ. سِيرِيكَ اللَّهُ مِنَ الْعَافِيَةِ الَّتِي أَذَاقَكَ وَيُسَبِّغُ. ثَوْبَهَا، وَلَا يَعِيدُ عَيْنِدَ مَكْرُوهَهَا. قَدْ اسْتَقْلَّ اسْتِقْلَالَ السِّيفِ حُودُثَ عَهْدِهِ وَأَعِيدَ فِرْنُدُهُ، وَالْقَمَرُ انْكَشَفَ سِرَارُهُ، وَذَاعَتْ أَسْرَارُهُ. حِينَ اسْتَقَلَّتْ يَدِي بِالْقَلَمِ، بِشَرْتِكَ بَانْخَسَارِ الْأَمِّ. قَدْ أَتَاكَ اللَّهُ بِالسَّلَامَةِ الْفَائِضَةِ، وَعَافَاكَ مِنْ الشِّكَاةِ الْعَارِضَةِ. أَبْلُ فَاَنْشَرَحْتَ الصَّدُورَ، وَشَمِلَ السُّرُورَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَرَسَ جِسْمَكَ وَعَافَاكَ، وَمَحَا عَنْهُ أَثَرَ السَّقَمِ وَعَفَاكَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْعَافِيَةَ عَقْبَى مَا تَشَكَّيْتُ، وَالسَّلَامَةَ عَوَضًا عَمَّا عَايَنْتَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَفَاكَ مِنْ مُعَانَاةِ الْأَمِّ. وَعَافَاكَ لِلْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، وَنَظَّمَنِي مَعَكَ فِي سِلْكِ النِّعْمَةِ، وَضَمَّنِي إِلَيْكَ فِي مُنْبَلَجِ الصَّحَّةِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ السَّلَامَةَ ثَوْبَكَ الَّذِي لَا تَنْصُوهُ، وَسَيْفَكَ فِيمَا تَأْمَلُهُ وَتَرْجُوهُ. اللَّهُ يَجْعَلُ السَّلَامَةَ أَطْوَلَ بَرْدِيكَ، وَأَشَدَّهُمَا سُبُوحًا عَلَيْكَ، وَيُدْفِعُ فِي صُدُورِهِ الْمَكَارِمَ دُونَ رُبْعِكَ، وَفِي نَحْوِ الْحَاذِيرِ قَبْلَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى ظِلِّكَ. لَا زَالَتِ الْعَافِيَةُ شِعَارَكَ، مَا وَاصِلَ لَيْلِكَ نَهَارَكَ.

فقر في أدعية العيادة والاستشفاء بكتبها

أَغْنَاكَ اللَّهُ عَنِ الطَّبِّ وَالْأَطْبَاءِ، بِالسَّلَامَةِ وَالشِّفَاءِ، وَجَعَلَهُ عَلَيْكَ تَمْحِصاً لَا تَنْغِيصاً، وَتَذَكِيراً لَا نَكِيراً، وَأَدَباً لَا غَضَباً. اللَّهُ يَدْرُ لَكَ صَوْبَ الْعَافِيَةِ، وَيُضْفِي عَلَيْكَ ثَوْبَ الْكَفَايَةِ الْوَافِيَةِ. أَوْصَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْكَ مِنْ بَرْدِ الشِّفَاءِ مَا يَكْفِيكَ حَرَّ الْأَدْوَاءِ. كِتَابُكَ قَدْ أَدَّى رَوْحَ السَّلَامَةِ فِي أَعْضَائِي، وَأَوْصَلَ بَرْدَ الْعَافِيَةِ إِلَى أَحْشَائِي. تَرَكْنِي كِتَابُكَ وَالنَّعْمَ تَنْتَبِ إِلَى صَحَّتِي، وَالْخَطُوبَ تَتَجَافَى عَنْ مُهْجَتِي، بَعْدَ أَمْرَاضٍ اكْتَسَفَتْ، وَأَسْقَامٍ اخْتَلَفَتْ. قَدْ اسْتَبَقَ كِتَابُكَ وَالْعَافِيَةَ إِلَى جِسْمِي كَأَنَّهُمَا فَرَسَا رَهَانَ تَبَارِيَا، وَرَسِيلًا مَضْمَنًا تَجَارِيَا. أَبَدَلْنِي كِتَابُكَ مِنْ حَزُونِ الشَّكَايَةِ شَهْوَلاً مَعَافَاةً، وَمِنْ شِدَّةِ التَّأَلُّمِ رَخَاءً تَنْعَمَ.

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة

العاقل يترك ما يجبُ لِيَسْتَغْنِيَ عَنِ الْعِلَاجِ. بَمَا يَكْرَهُ.
جالينوس: الْمَرَضُ هَرَمٌ عَارِضٌ، وَالْهَرَمُ مَرَضٌ طَبِيعِي.
وله: مَجَالِسَةُ الثَّقِيلِ حُمَّى الرُّوحِ.
بَحْتِيشَوْع: أَكَلُ الْقَلِيلِ مِمَّا يَضُرُّ أَصْلَحُ مِنْ أَكَلِ الْكَثِيرِ مِمَّا يَنْفَعُ.

يُحَوِّنَا بَنَ مَاسُويَه: عَلَيْكَ مِنَ الطَّعَامِ. بَمَا حَدَّثَ، وَمِنَ الشَّرَابِ. بَمَا قَدَّمَ.
وَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: مَا أَحْسَنُ مَا يُتَنَقَّلُ بِهِ عَلَى الْبَيْذِ؟ قَالَ: قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ، يَرِيدُ قَوْلَهُ: الْمُنْسَرَحُ:
الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي مَثَلٌ **خَمْرِي شَرَابِي وَنَقْلِي الْقَبْلُ**
ثَابِتُ بْنُ قُرَّةٍ: لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ بِالشَّيْخِ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَارِيَةٌ حَسَنَاءٌ، وَطَبَّاحٌ حَازِقٌ؛ لِأَنَّهُ يُكْثِرُ مِنَ الطَّعَامِ فَيَسْقَمُ، وَمِنَ الْجَمَاعِ فَيَهْرَمُ.
غَيْرُهُ: لَيْسَ لثَلَاثَ حِيلَةٍ: فَقَرٌّ يَخَالِطُهُ كَسَلٌ، وَخَصُومَةٌ يَخَامَرُهَا حَسَدٌ، وَمَرَضٌ يَمَازِجُهُ هَرَمٌ.
ثَلَاثَةٌ يَجِبُ مَدَارَقُهُمُ: السُّلْطَانُ، وَالْمَرِيضُ، وَالْمَرَأَةُ.
ثَلَاثَةٌ يُعْذَرُونَ عَلَى سُوءِ الْخَلْقِ: الْمَرِيضُ، وَالْمَسَافِرُ، وَالصَّائِمُ.

فقر في ذكر المرض والصحة والموت

والحياة لغير واحد:

شيئان لا يُعرفان إلا بعد ذهابهما: الصحة والشباب. بمرارة السقم توجد حلاوة الصحة. هذا كقول أبي تمام: الطويل:

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَذْكَرَتْ حَسَنَ فِعْلِهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا الشَّرُّ لَمْ يُعْرِفِ الشَّهْدُ
وقوله أيضا: الكامل:

وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا فَهُوَ الَّذِي أَذْرَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا
ما سلامة بدن معرض للآفات، وبقاء عمر معرض للساعات؟ قال أبو النجم: الرجز:

إِنَّ الْفَتَى يَصْبِحُ لِلْسَقَامِ كَالْغَرَضِ الْمَنْصُوبِ لِلْسَهَامِ
أَخْطَأَ رَامٌ وَأَصَابَ رَامٌ

وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة: ألا تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من، السماء بطل الدواء، وإذا قدر الرب بطل حذر المريبوب، ونعم الدواء الأمل، وبئس الداء الأجل.

بزرجمهر: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر.

غيره: خير من الحياة ما لا تطيب الحياة إلا به، وشر من الموت ما يُتمنى الموت له.
قال المتنبي في مراثية سيف الدولة: الوافر:

أَطَابَ النَّفْسُ أَنْكَ مُتَّ مَوْتًا تَمَنَّتْهُ الْبَوَاقِي وَالْخَوَالِي
وَزُلْتُ وَلَمْ تَرَيَّ يَوْمًا كَرِيهَاً تُسَرُّ النَّفْسُ فِيهِ بِالزَّوَالِ
رَوَاقُ الْعِزِّ فَوْقَكَ مُسَبِّطَرٍ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ابْنِكَ فِي كَمَالِ

الموت باب الآخرة.

الحسن: ما رأيتُ يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

ابن المعتز: الموت سَهْمٌ مُرْسَلٌ إِلَيْكَ، وعمرك بقدر سفره نحوك. أخذه بعض أهل العصر فقال: مجزوء الكامل:

لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَ الْخَوْ نَ وَخَفَ بَوَادِرَ آفَتِهِ
فَالْمَوْتُ سَهْمٌ مُرْسَلٌ وَالْعَمْرُ قَدَرٌ مَسَافَتِهِ

البسي: الخفيف:

لَا يَغْرُنْكَ أَنَّنِي لَيْنُ الْمَسِّ فَعِزَّمِي إِذَا انْتَضَيْتُ حُسَامِ

ثم فيه لآخرين زُكَّام

أنا كالورد فيه راحة قَوْمٍ

وقال آخر: الكامل:

ضرر السُّعال لمن به استسقاء

إن الجهولَ تضرَّتني أخلاقه

ولآخر، وهو البستي: البسيط:

فليس يحمد قبل النَّضجِ بَحْرَانُ

فلا تكن عَجَلًا في الأمرِ تطلبه

وقال آخر: الكامل:

إنَّ الكبارَ أطبُّ للأوجاع

لا تعتمدِ إلاَّ رئيساً فاضلاً

وقال آخر: المتقارب:

وإن كان قدماً ثَقِيلاً عَبا

وإني لأختصُّ بعضَ الرجالِ

ثَقِيلٍ وخيمٍ يُشَهِّي الطعاما

فإنَّ الجُبْنَ على أَنه

وقال المتنبي: البسيط:

وربما صحَّتِ الأجسامُ بالعللِ

لعلَّ عَذْبَكَ محمودٌ عواقبه

وقال أيضاً: البسيط:

أَنْ تحسِبَ الشَّحْمَ فيمنَ شَحْمُهُ وَرَمَ

أَعِيذُهَا نَظَرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً

الجواب المفحم

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي: كان بلال بن أبي بردة جُلُداً حين ابْتُلي، أحضره يوسف بن عمر في قيوده لبعض الأمر، وهُم بالحيرة؛ فقام خالد بن صفوان فقال ليوسف: أيها الأمير، إنَّ عدو الله بلالاً ضربني وحَبَسني ولم أفارق جماعة؛ ولا خلعتُ يداً من طاعة، ثم التفت إلى بلال فقال: الحمد لله الذي أزال سلطانك، وهَدَّ أركانك، وأزال جَمالك، وغَيَّرَ حالك، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحجاب، مستخفاً بالشريف، مظهراً للعصية! فقال بلال: يا خالد، إنما استطلت علي بثلاث معك هن عليّ: الأمير مُقْبِلٌ عليك، وهو عني مُعْرِضٌ. وأنت مُطْلَقٌ، وأنا مأسور. وأنت في طينتِكَ، وأنا غريب! فأفحمه، ويقال: إن آل الأَهم زعنفة دخت في بني منقر فانتسبت إليهم. وكان سبب ضرب بلال خالداً في ولايته أنَّ بلالاً مرَّ بخالد في موكب عظيم، فقال خالد: الطويل:

سحابة صيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ .

فسمعه بلال، فقال: والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب برد، وأمر بضربه وحَبَسَه.

ما قيل في القداح

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي قَدَحاً له انكسر: المتقارب:

عَرَانِي الزَّمَانُ بِأَحْدَاثِهِ	فبعضاً أَطَقْتُ، وبعضُ قَدَح
وعندي فَجَائِعُ لِلْحَادِثَاتِ	وليس كَفَجَعَتِنَا بِالْقَدَحِ
وعاءُ المَدَامِ، وتاجُ البنانِ	ومُدْنِي السرورِ، ومُقْصِي التَّرَحِ
ومعرض رَاحٍ متى تكسه	ويُستودع السرَّ منها يَبْحِ
وجسم هواءٍ وإن لم يكن	يُرَى للهواءِ بكفِّ شَبْحِ
يردُّ على الشَّخْصِ تَمَثَالُهُ	وإن تَتَّخِذْهُ مِرَاةً صَلَحَ
ويَعْبَقُ من نكهاتِ المَدَامِ	فتحسب منه عَيْبَرًا نَفَحَ
ورقٍ. فلو حلَّ في كِفَّةٍ	ولا شيءٍ في أختِها ما رَجَحَ
يكادُ مع الماءِ إن مسَّه	لما فيه ممن شكله يَنْفَسَحِ
هوَى من أناملِ مجدولةٍ	فيا عجباً من لطيفِ رَزَحِ
فأَفْقَدْنِيهِ على ضِنَّةٍ	به للزمانِ غَرِيمِ مَلَحِ
كأنَّ له ناظراً يَنْتَقِي	فمتى يَتَعَمَّدُ غَيْرَ المُلَحِ
أَقْلَبُ ما أَبْقَتِ الحَادِثَا	ت منه وفي العينِ دَمْعٌ يَسُحِ
وقد قدح الوجدِ مني بهِ	على القَلْبِ من ناره ما قَدَحِ
وأعجب من زمنٍ مانحِ	وآخرَ يَسْلُبُ تلكَ المِنَحِ
فلا تبعدنَ فكم من حَشَا	عليك كَلِيمِ وَقَلْبِ قَرَحِ
سيُفْقَرُ بعدك رَسَمُ الغُبُوقِ	وتُوحِشُ منك مَغَانِي الصَّبَحِ

ومن أحسن ما قيل في وصف قدح، ابن الرومي يصف قدحاً أهدها إلى علي بن يحيى المنجم: الخفيف:

وبديعٍ من البدائعِ يَسْبِي	كلَّ عقلٍ، ويَطْبِي كلَّ طَرْفِ
رَقٍّ في الحسنِ والملاحةِ حتى	ما يوفِّيهِ واصلُ حقِّ وَصْفِ

كفم الحُبِّ في الملاحه بل أش

تنفذ العينُ فيه حتى تراها

كهواء بلا هباء مشوب

صيغ من جوهر مصفى طباعاً

وسط القدرِ، لم يكبر لجرع

لا عجول على العقول جهول

فيه نون معقرب عطفته

مثل عطف الأصداع في وجنات

ما رأى الناظرون قدّاً وشكلاً

وقال أبو القاسم التنوخي: المتقارب:

وراح من الشمس مخلوقة

هواء ولكنه جامد

هى وإن كان لا يناجي بحرف

أخطأته من رقة المستشف

بضياء، أرقق بذاك وأصف

لا علاجاً بكيمياء مصف

متوال، ولم يصغر لرشف

بل حلیم عنهن في غير ضعف

حكماً القيون أحكم عطف

من حبيب يزهى بحسن وظرف

مثله فارساً على بطن كف

بدت لك في قدح من نهار

وماء ولكنه غير جار

تأملت نوراً محيطاً بنار

وهذا النهاية في الاحمرار

لفرط التنافي وبعد النفار

بسيطان فاتقفا في الجوار

إذا قام للسقي أو باليسار

له فرد كم من الجنار

إذا ما تأملتُها وهي فيه

فهذا النهاية في الابيضاض

وما كان في الحق أن يُقرنا

ولكن تجاوز شكلاهما ال

كأن المدير لها باليمين

تدرع ثوباً من الياسمين

نماذج شعرية في وصف منديل وثلج

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي منديل كم: السريع:

من يبك من وجد على هالك

جاذبنيها رشاً أغيد

بدية في نسجها، مثلها

فإنما أبكي على دسجته

فجادت النفس بها محرجه

يفقد من يحسن أن ينسجه

من رقة العشاق مُستخرجة
أيدي دبی في نسقٍ مُزوجہ
طاووسة تختال أو درجہ
لا رثه السلک ولا مُنهجہ
تُرسلُ في أثائها مُدرجہ
تُبردُ حرَّ الکبدِ المُنضجہ
تُسکنُ مني مُهجةً مُزعجہ
منها لآثارِ القذى مخرجہ
آثرتُ من کفی أن أخرجہ
كلله المازج أو توجہ
ذو همّة مُجلیة مُرهجہ
ملجمة في هجرنا مُسرجہ

كأنما رفة أشکالها
كأنما مفتولُ أهدابها
كأنما تفريقُ أعلامها
لبیسةٌ جدّدها حُسْنُها
كم رقة من عند معشوقة
أو مسحة من شفة عذبة
إلى تحياتٍ لطاف بها
كانت لمسحِ الكأس حتى ترى
وخاتمي يُعقدُ فيها إذا
وأنقي الجام بها كلما
فاستأثر الدّهر بها؛ إنه
فأصبحتُ في كمّ مُختالة

وقال أيضاً يصف سقوط الثلج: الكامل:

أمّ ذا حصا الكافور ظلّ يفرّك؟
في كل ناحية بثغرٍ تضحكُ
طوراً، وعهدي بالمشيب يُنسكُ
كالدّر في قُضْب الزبرجدِ يُسلک
عمّا قليل بالرياح تهتكُ
في لونٍ أبيض وهو أسود أحلكُ
خلعٌ تعنبرُ تارةً وتمسكُ
يتحرّك الإطراب حين تحرّكُ
سيطَلُ فيه دمُ الدنان ويُسفكُ

الثلج يسقط أم لجين يُسبك
راحت به الأرضُ الفضاء كأنها
شابت مفارقها فبين ضحكها
أربى على خضر الغصون فأصبحتُ
وتردّت الأشجارُ منه ملاءةً
كانت كعود الهند طُرّي فانكفى
والجو من أرج الهواء كأنه
فخذي من الأوتار حظك إنما
فالיום يوزن بالملاحة، إنه

وقال أيضاً: المنسرح:

واليوم يومٌ سماؤه نرّة

باكر فهذي صبيحة قرّة

تَلَجَّ وشمس وصوبُ غادية
باتتُ وقيعانها زبرجدة
كأنها والتلوجُ تضحكها
كأنَّ في الجو أيدياً نثرتُ
شابتُ فسرَّتْ بذاك وابتهجتُ
قد جليتُ بالبياض بلدتنا
وقال الصنوبري: مجزوء الكامل:

والأرضُ من كل جانب غرة
فأصبحت قد تحولت دُرّه
تُعَارُ ممن أحبه ثغره
دُرّاً علينا فأسرعت نثره
وكان عهدي بالشيب يُستكره
فاجل علينا الكؤوسَ بالحمرة

م فإنّ ذا يومٌ مفضّضُ
ض وفي حلى الكافور يُعرضُ
ورّدُ على الأغصان يُنفضُ؟
والوردُ في تشرين أبيضُ

ذهب كؤوسك يا غلا
الجوُّ يُجلى في البيا
أزعمت ذا تلجّ وذا
وردُ الربيع مورّدُ

وقال البستي: الخفيف:

وجعلنا الزمانَ للهو سلكاً
عُزل الكأسُ فيه رُشداً ونسكاً
راً علينا، ونحنُ نفْتِقُ مسكاً

كم نظمنا عقود لهو وأنسٍ
وفتقنا الدنان في يوم تلجٍ
فكان السماء تتحلّ كافو

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي يصف الحمد: الرجز:

مهتِك الأستارِ والضميرِ
كأنها صحائف البلورِ
أو قطعُ من خالص الكافورِ
لعطّلتُ قلائد النحورِ
وسميت ضرائر النغورِ
إذا قيظُه مثل حشَا المهجورِ
روحاً يُجلّي نَفْثَةَ المصدورِ

ربّ جنين من حيّا النميرِ
سللته من رحم الغديرِ
أو أكرُّ تجسّمتُ من نورِ
لو بقيت سلكاً على الدهورِ
وأخجلت جواهر البحورِ
يا حسنه في زمنِ الحرورِ
يُهدي إلى الأكبادِ والصدورِ
ويخلبُ السرورَ للمقرورِ

ألفاظ لأهل العصر

في وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

ألقى الشتاء كلَّكَلَه، وأحلَّ بنا أثقالَه. مدَّ الشتاء أرواقه، وألقى أوراقه، وحلَّ نطَاقه. ضرب الشتاء بجَرَانه، واستقلَّ بأركانَه، وأناخ بنوازله، وأرْسَى بكلاكله، وكلح بوجهه، وكشَّر عن أنيابه. قد عادت هامات، الجبال شيباً، ولبست من الثلج بُرداً قشيباً. شابت مفارق البروج لتراكم الثلوج، ألمَّ الشيب بها وابتضَّت لممَّها. قد صار البرد حجاباً، والثلج حجازاً. برَد يغيّر الألوان، وينشف الأبدان. برْد يُقَصِّضُ الأعضاء، وينفض الأحشاء. برِد يُجمد إلريق في الأشداق، والدمع في الآفاق. برْد حال بين الكلب وهريه، والأسد وزئيره، والطير وصَفيره، والماء وحريره. نحن بين لثق، ورثق، وزلق، يوم كأنَّ الأرضَ شابتَ لهولَه. يوم فضِّي الجلباب، مسكِيَّ النقاب، عبوس قَمَطَري، كشَّر عن ناب الزمهرير، وفرش الأرض بالقوارير. يوم أخذت الشَّمال زمامه، وكسا الصرَّ ثيابه. يوم كأنَّ الدنيا فيه كافورة، والسماء بلورة. يوم أرضه كالقوارير اللامعة، وهواؤه كالزنابير اللاسعة. يوم أرضه كالزجاج، وسماءه كأطراف الزَّجاج. يوم يثقل فيه الخفيف إذا هجم، ويخفَّ الثقيل إذا هجر، نحن فيه بين أطباق البرد فما نستغيث إلا بحرِّ الراح، وسورة الأقداح. ليس للبرد كالبرد، والجمر، والجمر. إذا كَلَبَ الشتاء، فترياق سمومه الصلاء، ودَرَقُ سيوفه الطلاء.

نقيض ذلك من كلامهم

في وصف القَيْظ وشدة الحرِّ

قوي سلطان الحرِّ، وبُسطَ بساط الجمر. حرَّ الصيف، كحدَّ السيف. أوقدت الشمس نارها، وأذكت أوارها. حرٌّ يلفح حرَّ الوجه. حرٌّ يشبه قلب الصَّبِّ، ويُذيب دماغ الضَّبِّ. هاجرة كأُها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفراق. هاجرة تحكي نارَ الهجر، وتذيب قلب الصخر. كأنَّ البسيطة من وقدة الحرِّ، بساط من الجمر. حرٌّ تهرب له الحرَّاء من الشمس، قد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادبُ العيدان. حرٌّ يُنضِج الجلود، ويُذيب الجلمود. أيام كأيام الفرقة امتداداً، وحرٌّ كحرِّ الوجد اشتداداً. حرٌّ لا يطيبُ معه عيش، ولا ينفع معه ثلج ولا خيش. حمارة القَيْظ، تغلي كدم ذي الغيظ. آبُ آبٍ يَجيش مَرَجْلُه، ويثور قسطلُه. هاجرة كقلب المهجور، أو التنور المسجور. هاجرة كالجحيم الجاحم، تجرُّ أذيالَ السمائم.

العجلة أم الندامة

قال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنَّ العرب كانت تَكْنِيها أمَّ الندامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويحب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يُقَدِّر، ويَحْمَدُ قبل أن يجرب، ويذمَّ قبل أن يخبِّر، ولن يصحب هذه الصفة أحدٌ إلاَّ صاحب الندامة، واعتزل السلامة.

قضاء الحاجة

ولما ولى المهدي سليمان بن وهب وزارته قام إليه رجل من ذوي حُرْمَتِهِ، فقال: أعزَّ الله الوزير، أنا خادمك المؤمل لدولتك، السعيد بأيامك. المنطوي القلب على وُدِّك، المنشور اللسان بمدحك، المرهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر: البسيط:

وفيتُ كلَّ صديقٍ ودَّني ثمناً إلاَّ المؤمل دولاتي وأيامي

فإنني ضامنٌ ألاَّ أكُفِّه إلاَّ بتسويغه فضلي وإنعامي

وإني لكما قال القيسي: ما زلت أمتطي النهار إليك، وأستدلُّ بفضلك عليك، حق إذا جني الليل فغضَّ البصر، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أُملي، والاجتهاد عُذْر، فإذا بلغتكَ فَقَدْ قال سليمان: لا عليك، فإني عارفٌ بوسيلتك، محتاجٌ إلى كفايتك واصطناعك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يحسنُ عليك أثره، ويطيب لك خبره، إن شاء الله.

وكتب محمد بن عباد إلى أبي الفضل جعفر بن محمود الإسكافي وزير المعتز بالله، وكان المعتز يُختصُّ به؛ ويتقرب إليه قبل الوزارة: ما زلت - أيدك الله تعالى - أذمَّ الدهر بدمك إياه؛ وأنتظر لنفسي ولك عُقباه، وأتمنى زوال حال من لا ذنب له إلا عاقبة محمودة تكون لك بزوال حاله، وأترك الإعذار في الطلب على الاختلال الشديد؛ ضناً بالمعروف عندي إلاَّ عن أهله، وحَبْساً لشِعْري إلاَّ عن مستحقِّه.

فوقع في كتابه: لم أؤخر ذكرك ناسياً لحَقِّك، ولا مهملاً لواجبك، ولا مرجياً لمهمِّ أمرك، ولكني ترقبت اتساع الحال، وانفساح الآمال، لأخصَّكَ بأسناها خطراً، وبأجلَّها قدراً، وأعودها بنفعٍ عليك، وأوفرها رزقاً لك، وأقربها مسافةً منك؛ فإذا كنتَ ممن يحفزُه الإعجال، ولا يتسع له الإمهال، فسأختار لك خير ما يشير إليه الوقت، وأنعم النظر فيه، وأجعله أول ما أمضيه، إن شاء الله.

ولما ولي سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الطويل:

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحبُّ ونكرمُ

فقلت له: نَعْمَاكَ فِيهِمْ أَتَمَّهَا

وَدَعَّ أَمْرَنَا؛ إِنَّ الْمَهْمَّ الْمَقْدَمُ

فعجب من لطيف شكواه في تهنئته، وقضى حوائجه.

ووقع عبيد الله في كتاب رجل اعتدَّ عنده بأثر جميل: وقفت على ما ذكرته من شكائتك، فوقع ذلك عندنا الموقع الذي أردته، وصدر جوابنا إليك بما شكرته، ولم تعدُّ ظننا، وما قدرنا فيك، ثم اعتدت الاعتداد حتى كأنك لم تكاتبنا؛ فلا تفسدن تالد إحسانك بطارف امتنانك، واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك.

التقسيم

ووقع عبيد الله في أمر رجل خرج عن الطاعة: أنا قادرٌ على إخراج هذه الثُّعْرَة من رأسه، والوَحْرَة من نفسه.

ونحو هذا التقسيم قولُ قتيبة بن مسلم بخراسان: من كان في يده شيء من مال عبد الله فلينبذه؛ أو في فمه فَلْيَلْفِظْهُ، أو في صدره فلينفثه.

وقال عبد الله بن علي، بعد قتله مَنْ قتل من بني أمية، لإسماعيل بن عمرو: أساءك ما فعلت بأصحابك؟ قال: كانوا يداً فقطعتُها، وعضداً ففتَّتها، وعقدةً فنقضتُها، وركناً فهدمتُها، وجبلاً فهضمتُها، وجناحاً فقَصَصتُها، قال: إني لخليقٌ بأن ألحقك بهم، قال: إني إذا لسعيد.

وقال المنصورُ لجرير بن عبد الله: إني لأُعِدُّكَ لأمر كبير! قال: يا أمير المؤمنين، قد أعدَّ الله لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطةً بطاعتك، وسيفاً مسلولاً على أعدائك.

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزِّيه: مدَّ الله في عمرك موفوراً غير منتَقَص، ومُنوحاً غير ممتَحَن، ومُعْطَى غير مُسْتَلَب.

ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب: إنَّ أهل النصح والرأي لا يساويهم أهلُ الأَفْنِ والغشِّ، وليس مَنْ جُمِعَ إلى الكفاية الأمانةُ كمن أضافَ إلى العَجْزِ الخيانة.

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أولاها يداً: شَكَرْتُكَ يَدُ نالِها خِصَاصَةٌ بعد ثروة، وأغناكَ الله عن يد نالِها ثروة بعد فاقة.

ومن بديع التقسيم في هذا النوع قولُ البحترى: البسيط:

كَأَنَّكَ السِّيفُ حَدَّاهُ وَرَوَّنَقُهُ

وَالْغَيْثُ وَابِلُهُ الدَّانِي وَرَيْقُهُ

هَلْ الْمَكَارِمُ إِلَّا مَا تُجْمَعُهُ

أَوِ الْمَوَاهِبُ إِلَّا مَا تَفْرُقُهُ؟

وقال الحسن بن سهل يوماً للمأمون: الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك؛ وسني ما أعطاك؛ إذ قسم لك الخلافة، ووهب لك معها الحجة، ومكنك بالسلطان، وحلّاه لك بالعدل، وأيدك بالظفر، وشفّعه لك بالعفو، وأوجب لك السعادة، وقرّنها بالسياسة، فمن فسح له في مثل عطية الله لك؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك؟ أم من ترادفت نعم الله تعالى عليه ترادفها عليك؟ أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك؟ أم أي حاجة بقيت لرعيّتك لم يجدوها عندك؟ أم أي قيم للإسلام انتهى إلى غايتك ودرجتك؟ تعالى الله! ما أعظم ما خصّ القرن الذي أنت ناصره! وسبحان الله! أية نعمة طبقت الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها، والمنعم على العباد بما؟ إن الله تعالى خلق الشمس في فلكها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق؛ فكلّ جوهر زها حسنه ونوره فهي ألبسته زينته لما اتصل به من نورها. وكذلك كل ولي من أوليائك سعد بأفعاله في دولتك، وحسنت صنائعه عند رعيّتك، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتديبيرك، وأسعدته من حسنك وتقويمك.

قينة تعشق أربعة رجال

قال بعض الظرفاء: اجتمع لقينة أربعة من عشاقها، وكلهم يُورّي عن صاحبه أمره، ويخفي عنه خبره، ويومئ إليها بحاجبه، ويناجيها بلحظه، وكان أحدهم غائباً فقدم، والآخر مقيماً قد عزم على الشخوص، والثالث قد سلفت أيامه، والرابع مستأنفة مودّته، فضحكت إلى واحد، وبكت إلى آخر، وأقصت آخر، وأطمعت آخر؛ واقترح كل واحد منهم ما يشاكل بثه وشأنه؛ فأجابته، فقال القادم: جعلت فداك، أتحسنين: الطويل:

وقول لعلّي أو عسى سيكون

ومن ينأ عن دار الهوى يُكثر البكا

ولكن مقادير لهنّ شؤون

وما اخترت نأى الدار عنك لسلوة

فقلت: أحسنه، ولا أقيم لحنه، ولكن مطارحه لتستغني به عنه، لقربه منه، وأنا به أصدق، ثم غنت: الطويل:

أومل منك العطف حين تؤوب

وما زلت مذ شطت بك الدار باكياً

عذاباً وإعراضاً وأنت قريب

فأضعفت ما بي حين أبت وزدّتي

وقال الطاعن: جعلت فداك، أتحسنين: الكامل:

ودعي العتاب فإننا سفر

أزف الفراق فأعني جزعاً

فإذا تباعد شَفَّه الذِّكْرُ

إِنَّ المحبَّ يصدِّ مقترباً

قالت: نعم، وأحسن منه ومن إيقاعه، ثم غنت: الخفيف:

ليس بعد الفراق غَيْرُ النَّحِيبِ

لأَقِيمَنَّ مَأْتِماً عن قريب

ثم لا سيما فراقُ الحبيبِ

ربما أَوْجَعَ النَّوَى للقلوب

ثم قال السالف: جعلت فداك، أتُحَسِّنِينَ: الكامل:

حُلُو المَذَاقِ وفيكُمُ مستَعْتَبُ

كُنَّا نُعَاتِبُكُمْ لِيَالِي، عُوذُكُمْ

ذهب العِتَابُ فليس عنكم مَذْهَبُ

فالآن حين بَدَأَ التَّنْكَرُ منكم

قالت: لا، ولكن أحسن منه في معناه، ثم غنت: الطويل:

وأعرضتُ لما صار نَهْياً مَقَسَماً

وصلَّتُكَ لَمَّا كان ودُّكَ خالِصاً

إذا كثر الوراءُ أن يتهدما

ولن يلبث الحوض الجديدُ بناؤه

فقال المستأنف: أتُحَسِّنِينَ، جعلت فداك: الكامل:

وإذا قرأتُ صحيفتي فنفهمي

إني لأَعْظُمُ أن أبوح بحاجتي

أحداً ولا آذنته بتكلم

وعليك عَهْدُ الله إن أبنتته

فقالت: نعم، ومن غناء صاحبه؛ ثم غنت: الطويل:

سوانا، حذاراً أن تَذِيعَ السرائرُ

لعمرك ما استودَعْتُ سِرِّي وسرَّها

فتعلم نَجْوَانَا العيونُ النواظرُ

ولا خالَطَتْها مُقَلَّتاي بنظرةٍ

رسولاً فأدَّى ما تُجِنُّ الضمائرُ

ولكن جعلت الوَهْمَ بيني وبينها

مخافةً أن يُغْزَى بِذِكْرِكَ ذاكِرُ

أُكَاتِمُ ما في النفس خوفاً من الهوى

فتفرَّقوا وكلهم قد أوماً بحاجته، وأجابته بجوابه.

من أخبار ابن المعتز وشعره

قال أبو العباس بن المعتز: كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت، فلما مرَّت في الطريق وجدت فيه حارساً فرجعت، فأرسلتُ أعاتبها فكتبت إلي: لم أتخلف عن المسير إلى سيدي في عشيّتي أمس لأرى وجهه المبارك وأُجيب دعاءه، إلا لعله قد عرَفَتْها فلانة، ثم خِفْتُ أن يسبقَ إلى قلبه

الطاهر أني قد تخلّفتُ بغير عذر؛ فأحييتُ أن تقرأ عذري بخطي، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شيء
أسر إليّ من رؤيتك، والجلوس بين يديك، وأنت، يا مولاي، جاهي وسندي، لا فقدتُ قربك، ولك
رأيك في بسط العذر موقفاً.

وكتبت في أسفل الكتاب: الطويل:

أليس من الحرمان حظٌ سلّبتُهُ وأُحوجني فيه البلاءُ إلى العُذر؟

فصبراً فما هذا بأوّل حادثٍ رَمَتني به الأقدار من حيثُ لا أدري

فأجبتها: كيف أردّ عُذر من لا تسلط التهمة عليه، ولا تهتدي الموحدة إليه! وكيف أعلمه قبول المعاذير،
ولستُ آمنُ بعضَ خواطره أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة، وإن سلّمتُ من ذلك فمن
يُجيرني من توكله على تقديم العُذر، ووقوعه مواقع التصديق في كل وقت، فتتصل أيامُ الشغل والعلّة،
وتنقضي أيامُ الفراغ والصحة، فتطول مدة الغيبة، وتدرس آثار المودّة، وكتبتُ في آخر الرقعة: الطويل:

إذا غبتُ لم تعرف مكاني لذةٌ ولم يلق نفسي لهوها وسرورها

وحدثتُ سمعاً واهناً غير ممسكٍ لقولي، وعيناً لا يراني ضميرها

وكتب إلى بعض الوزراء: ما زال الحاسدُ لنا عليك أيها الوزير ينصبُ الحبائلَ، ويطلب الغوائلَ، حتى انتهز
فرصته، وأبلغك تشنيعاً زخرفه، وكذباً زوّره، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيب، ويقول وأمسك؟
مرتصداً لا يغفل وماكراً لا يفتر، وربما استنصح الغاش، وصدق الكاذب؛ والحظوة لا تُدرِك بالحيلة، ولا
يجري أكثرها على حسب السبب والوسيلة.

فأجابه: حصول الثقة بك - أعزك الله! - تُعني عن حضورك، وصدق حالتك يحتجُ عنك، وما تقرّر عندنا
من نيتك وطويتك يُعني عن اعتذارك.

وقد قال ابن المعتز: الكامل:

أخنى عليك الدهر مقتدراً والدهرُ ألام غالب ظفراً

ما زلت تلقى كلَّ حادثَةٍ حتى حنّك وبيّض الشعرَ

فالآن هل لك في مقاربة؟ فلقد بلغت الشيب والكبرا

لله إخوان فقدتهم سكنا بطون الأرض والحفراً

أين السبيلُ إلى لقائهم؟ أم من يحدث عنهم خبراً؟

كم مورق بالبشر مُبتسم لا أجتني من غصنه ثمراً

ما زال يوليني خلائقه
وصبرت أرقبه وما صبرا
وعدو غيب طالب لدمي
لويستطيع لجاوز القدرا
يوري زنادي كي يخادعني
ويطير في أثوابي الشررا
وقال أيضاً: الطويل:

واني على إشفاق عيني من القذى
لتجمع مني نظرة ثم أطرق
كما حللت من برد ماء طريده
تمد إليه جيدها وهي تفرق
وقال: الطويل:

وما زلت مذ شدت يدي عقد منزري
ودل علي الحمد مجدي وعفتي
غناي لغيري وافتقاري على نفسي
كما دل إشراق الصباح على الشمس
وقال: البسيط:

سعى إلى الدن بالميزال ينقره
لما وجاها بدت صفراء صافية
ساق توشح بالمنديل حين وثب
كأنما قد سيرا من أديم ذهب
وقال: الخفيف:

لبست صفرة فكم فتنت من
مثل شمس الغروب تسحب ذيلاً
أعين قد رأيتها وعقول
صبغت بزعران الأصيل
والشمس عند طلوعها، وعند غروبها، تمكن الناظر إليها فيمكن التشبيه بها؛ قال قيس بن الخطيم: الكامل:
فرايت مثل الشمس عند طلوعها
في الحسن أو كدونها لغروب

جرير وأهل المدينة

ولما قدم جرير بن الخطمي المدينة اجتمع إليه أهلها، وقالوا: يا أبا حزره، أنشدنا من شعرك، قال: ما
تصنعون به؟ وفيكم من يقول: الكامل:

أنى سربت وكنت غير سرور
ما تمنعي يقظى فقد نولته
وتقرب الأحلام غير قريب
في النوم غير مصرد محسوب
كان المني يلقي بها فلقينها
فلهوت عن لهو امرئ مكذوب

فرأيتُ مثلَ الشمسِ عندَ طلوعِها في الحسنِ أو كدُنُوها لغروبِ
تخطو على بردِيتَيْنِ غَداهُما غَدَقُ بِسَاحَةِ حائِرِ يَعْبُوبِ

يزيد بن خالد الكوفي

وَقَعَ يزيد بن خالد الكوفي رقعة إلى يعقوب بن داود ضمّنها: البسيط:

قل لابن داودَ والأنبياءَ سائِرةً: لا يحرِزُ الأجرَ إلا مَنْ له عَمَلٌ
يا ذا الذي لَمْ تزلْ يُمَنّاهُ مُذْ خُلِقْتَ فيها لباعي نَدَاهُ العَلُّ والنَّهْلُ
إن كنتَ مسديّ معروفٍ إلى رجلٍ فضلُ شكرٍ فإني ذلكَ الرجلُ
فامُنْ عليّ ببرٍّ منك يَنْعَشُنِي فإنني شاكِرُ المعروفِ محتملُ

قال يعقوب: قد جربنا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا، وقد أمرتُ لك بعشرة آلاف درهم تصلح حالك، وليست آخر ما عندنا لك، فاستوفها حتى مات.

ولما سخط المهديّ على يعقوب أحضره، فقال: يا يعقوب، قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروبٍ لِمَوْجِدَتِكَ، شَرِقَ بَعْصَتُكَ، قال: ألم أرفع قَدْرَكَ وأنتَ حامل، وأسيرَ ذَكَرَكَ وأنتَ هامل، وألبسَكَ من نِعَمِ الله تعالى ونِعَمي ما لم أجدْ عندك طاقةً لحمله، ولا قياماً بشكْرِهِ؟ فكيف رأيتَ الله تعالى أظهر عليك، وردَّ كَيْدَكَ إليك؟.

قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف، وإن كان بسعاية الباغين، ونمائم المعاندين، فأنت أعلم بأكثرها؛ وأنا عائد بكرمك، وعميم شرفك. فقال: لولا الحنثُ في دَمِكَ لألبستك قميصاً لا تشدّ عليه زراً؛ ثم أمر به إلى الحبس، فتولّى وهو يقول: الوفاءُ يا أمير المؤمنين كَرَمٌ، والمودة رَحِمٌ، وما على العفو نَدَمٌ. وأنت بالعفو جَدِيرٌ، وبالحاسن خَلِيقٌ. فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد.

أخذ معنى قول المهدي: "لألبستك قميصاً لا تشدّ عليه زراً" أبو تمام فقال: المنسرح:

طَوَّقْتَهُ بِالحِسامِ طَوَّقَ رَدَى أغناه عن مَسِّ طَوَّقِهِ بِيَدِهِ

وقال ابن عمر في معنى قول الطائي: البسيط:

طَوَّقْتَهُ بِحِسامِ طَوَّقَ دَاهِيَةٍ لا يستطيعُ عليه شَدَّ أَرْزَارِ

ولما قبض المهدي على يعقوب ورأى أبو الحسن النميري مَيْلَ الناس عليه، وكان مختلطاً به قال: الكامل:

يعقوبُ لا تَبْعِدْ وَجُنُبْتَ الرَدَى فلا بُكَيْنَ كما بكى الغُصْنُ النَّدَى

عند الذين عدوا عليك لما عدَا

لو أن خيرك كان شراً كلّهُ

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين في الغزل فقال: الكامل:

مما أقاسي منك كان قليلاً

لو أن هجرك كان وصلاً كلّهُ

بين أحمد بن أبي دواد والواثق

قال أبو العيّن: قال لي أحمد بن أبي دواد: دخلت على الواثق فقال لي: ما زال اليوم قوم في ثلبك ونقصك! فقال: يا أمير المؤمنين، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، والله ولي جزائه، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه، وما ذلّ - يا أمير المؤمنين - من كنت ناصره، وما ضاق من كنت جاراً له، فما قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت: يا أبا عبد الله: الكامل:

جعل الإله خدودهنّ نعالها

وسعى إليّ بصرم عزّة معشر

قال الفتح بن خاقان: ما رأيت أظرف من ابن أبي دواد؛ كنت يوماً ألاعب المتوكل بالنرد، فاستؤذن له عليه، فلما قرب منا هممت برفعها، فمנعي المتوكل وقال: أجاهر الله وأستره من عبادته؟ فقال له المتوكل: لما دخلت أراد الفتح أن يرفع النرد! قال: خاف يا أمير المؤمنين أن أعلم عليه! فاستحليناه، وقد كنا تجهّمناه.

شبيب بن شيبه وخالد بن صفوان

قيل لبعض الأمراء: إن شبيب بن شيبه يتعمّل الكلام ويستدعيه، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح؛ فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعد به المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إن لأمر المؤمنين أشباهاً أربعة: الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر فأشبهه صولته ومضائه، وأما البحر الزاخر فأشبهه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبهه نوره وضياهه، وأما الربيع الناضر فأشبهه حسنه وبهاءه، ثم نزل.

وهذا الكلام ينسب إلى ابن عباس بقوله في علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما. وكان شبيب بن شيبه من أفصح الناس وأخطبهم، ويشبهه بخالد بن صفوان؛ غير أن خالدًا كان أعلى منه قدراً في الخاصة والعامة. وذكر خالد شبيباً فقال: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية. وكانت بينهما معارضة للنسب والحوار والصناعة، ولما قال الشاعر: الطويل:

فَنَحَّ شَبِيباً عَنْ قِرَاعِ كَتِيبَةٍ

وَأَذِنَ شَبِيباً مِنْ كَلَامِ مُلَفَّقٍ

وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل.

وقال أبو تمام لعلي بن الجهم: الكامل:

لو كنت يوماً بالنجوم مُصَدِّقاً

لزعمت أنك نلتَ شكلَ عُطَارِدٍ

أو قدمتك السنُّ خِلْتُ بأنه

من لَفْظِكَ اشتقتُ بلاغةَ خَالِدٍ

وقالت له امرأة: إنك الجميل يا أبا صفوان. قال: كيف تقولين هذا وما في عمود الجمال ولا رداؤه، ولا بُرئسه؟ عموده الطول، ولست بطويل، ورِداؤه البياض، ولست بأبيض، وبُرنسه سواد الشَّعر، وأنا أشتط! ولكن قولي: إنك للمليح.

وكان خالد حافظاً لأخبار الإسلام، وأيام الفتن، وأحاديث الخلفاء، ونوادر الرواة، وكل ما تصرف فيه أهل الأدب، وله يقول مكِّي بن سواده: الطويل:

عليم بتنزيل الكتاب ملقن

ذکور لما سداه أولَ أولَا

يَبْذُ قَرِيعَ القوم في كل محفل

ولو كان سحبان الخطيب ودغلا

تري خطباء الناس يوم ارتجاله

كأنهم الكروان صادف أجلا

أما سحبان الذي ذكره فهو خطيبُ العرب بأسرها غير منازع ولا مدافع، وكان إذا خطب لم يُعد حرفاً، ولم يتوقف، ولم يتحبس، ولم يفكر في استنباط، وكان يسيل غزياً، كأنه آذي بحر.

ويقال: إن معاوية قدم عليه وفد من خراسان وجههم سعيد بن عثمان، وطلب سحبان فلم يوجد عامة النهار، ثم اقتضب من ناحية كان فيها اقتضاباً، فدخل عليه فقال: تكلم، فقال: انظروا لي عصاً تُقيم من أودي، فقال له معاوية: ما تصنع بها؟ فقال: ما كان يصنع موسى عليه الصلاة والسلام وهو يخاطبُ ربَّه وعصاه بيده، فجاءوه بعصا فلم يرضها. فقال: جيئوني بعصاي، فأخذها، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن فاتت، صلاة العصر، ما تنحنح، ولا سعل، ولا توقف، ولا تحبس، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه إلى غيره حتى أتمه ولم يبق منه شيء، ولا سأل عن أي جنس من الكلام يخطب فيه، فما زالت تلك حاله وكل عين في السماطين شاخصة إلى أن أشار له معاوية بيده أن اسكت، فأشار سحبان بيده أن دعني لا تقطع علي كلامي، فقال له معاوية: الصلاة، فقال: هي أمامك ونحن في صلاة يتبعها تحميد وتمجيد، وعظة وتنبية وتذكير ووعد ووعيد، فقال معاوية: إنك أخطبُ العرب، فقال سحبان: والعجم، والجن، والإنس.

بعض ما قيل في عجلان بن سحبان

وكان ابنه عجلان حُلُوَ اللسان، جَيِّدَ الكلام، مليح الإشارة، يجمعُ مع خطابته شعراً جيداً، ويضرب الأمثال إذا خطب، ويتزع النادر من الشعر، والسائر من المثل، فتَحُلُو خطبته، وكان يَزُنُ كلامه وزناً.

دغفل بن حنظلة النسابة

وأما دغفل الذي ذكره مكّي بن سَوادة فهو دَغْفَل بن حَنْظَلَة بن يزيد أحد بني ذهل بن ثعلبة النسابة، وكان أعلم الناس بأنساب العرب، والآباء والأمهات، وأحفظهم لمثالبها، وأشدّهم تنقيراً وبحثاً عن معائب العرب، ومثالب النسب.

قال له معاوية يوماً: والله لئن قلت في هذا البيت من قريش ما تجد في آل حَرْبٍ مقالاً، فتبسم دَغْفَل؛ فقال له معاوية: والله لتخبرني بتبسمك، وما انضمت عليه جوائحك، أو لأضربن عنقك، وما آمن أن تكذب أو تزيد.

فقال: يا أمير المؤمنين، أنتم من بني عبد مناف كَسَنَام كَوَماء فتية، ذات مرعى خصيب، وماء عَذْب، وأكَمَة بارزة، فهل يوجد في سَنَام هذه مَدَبٌ قُرَاد من عاهة؟ فقال له معاوية: أولى لك! لو قلت غير هذا؛ أما على ذلك لو رأيت هنداً وأباها، وزوجها، وأخاها، وعمّها، وخالها، لرأيت رجالاً تحارُّ أبصارُ مَنْ رآهم فيهم، فلا تجاوزهم إلى غيرهم، جلاله وبهاء.

في ذكر العصا

وعلى ذكر العصا لقي الحجاج أعرابياً فقال: من أين أقبلت؟ قال: من البادية، قال: ما بيدك؟ قال: عصا أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوقُ بها دابّتي، وأقوى بها على سفري، وأعتَمِدُ بها في مشيتي، لِيَتَّسِعَ بها خطوِي، وأعبرُ بها النهر فتؤمّنني، وألقي عليها كسائي فتستُرّني من الحرّ، وتقيني من القُرّ، وتُدّني ما بعد مني، وهي مَحْمَلُ سُفْرِي، وعَلاَقَة إِداوِي، ومِشْجَب ثيابي، أعتَمِدُ بها عند الضراب، وأَفْرَعُ بها الأبواب، وأَتَقِي بها عَقُور الكلاب، تنوبُ عن الرُمح في الطّعان، وعن الحِرْز عند منازل الأقران، ورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تُحصى.

الخليل بن أحمد

قال النضر بن شميل: كتب سليمان بن علي إلى الخليل بن أحمد يستدعيه الخروج إليه، وبعث إليه بمال كثير، فردّه وكتب إليه: البسيط:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
يسخو بنفسي أني لا أرى أحداً
وفي غنى غير أني لستُ ذا مالٍ
يموت هزلاً ولا يبقى على حالٍ
والفقرُ في النفس لا في المال نعرفه
والمال يغشى أناساً لا خلاق لهم
كالسَّيل يغشى أصول الدُّننِ البالي
كلُّ امرئ بسبيل الموت مرتَهَنٌ
فاعمل لنفسك؛ إنني شاغلٌ بالي

أخذ هذا الطائي فقال: الكامل:

لا تتكري عطل الكريم من الغنى
وقال أيضاً يصف قوماً حصّوا بآب أبي دؤاد الخفيف:

نزلوا مركز الندى وذراه
غير أن الرُّبأ إلى سُبُل الآن
وعدتتا من دون ذاك العوادي
واء أدنى، والحظُّ حظُّ الوهادِ

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل، وكان شعره قليلاً ضعيفاً، بالإضافة إليه وهو أستاذ النحو والغريب، وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه، وعنه أخذ سيبويه، وسعيد بن مسعدة، وأئمة البصريين، وكان أوسع الناس فطنةً، وألفهم ذهنًا. قال الطائي: الوافر:

فلو نشر الخليل إذا لعفت
رزاياه على فطن الخليل

في التعزية

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل: الدنيا، أطال الله بقاء الرئيس، أقدارٌ تردُّ في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها، ولا يُردُّ منها شيءٌ عن مداه، ولا يصدُّ عن مطلبه ومنّحاه؛ فهي كالسهم التي تثبت في الأغراض؛ ولا ترجعُ بالاعتراض، ومن عرف ذلك معرفة الرئيس لم يغض من الزيادة، ولم يقنط من النقيصة، وأمن أن يستخفَّ أحد الطرفين حلمه، ويستترل أحد الأمرين حزمه، ولم يدع أن يوطن نفسه على النازلة قبل نزولها، ويأخذ الأهبة للحادثة قبل حلولها، وأن يجاور الخير بالشكر، ويساور المحنة بالصبر، فيتخير فائدة الأولى عاجلاً، ويستمرئ عائدة الأخرى آجلاً.

وقد نفذ من قضاء الله تعالى في المولى الجليل قدراً، الحديث سنًا، ما أرْمَضَ، وأومَضَ، وأقلَقَ وأقْضَ؛

ومسني من التألم له ما يحق على مثلي ممن توافَتْ أيادي الرئيس إليه، ووجبت مشاركته في الملمّ عليه، ف "إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" وعند الله نحتسبه غُصْنًا ذَوِي، وشهاباً خَبًا، وفرعاً دَلَّ على أصله، وخطياً أنبته وَشَيْجُهُ، وإياه أسأل أن يجعله للرئيس فَرَطاً صالحاً، وذُخْراً عتيداً، وأن ينفعه يوم الدين، حيث لا ينفع إلا مثله بين البنين، بجوده ومجده.

ولئن كان المصابُ عظيمًا، والحادثُ فيه جسيمًا، لقد أحسن الله إليه، وإلى الرئيس فيه؛ أما إليه فإن الله نزهه بالاحترام، عن اقتراف الآثام، وصانه بالاحتضار، عن ملابسة الأوزار، فورد دُنياء رشيداً، وصدر عنها سعيداً، نقي الصحيفة من سواد الذنوب، بري الساحة من دَرَن العيوب، لم تدنسه الجرائر، ولم تعلق به الصغائر والكبائر، قد رفع الله عنه دقيق الحساب، وأسهم له الثواب مع أهل الصواب، وألحقه بالصدّيقين الفاضلين في المعاد، وبوّأه حيث أفضلهم من غير سعي ولا اجتهد.

وأما الرئيس، فإن الله، عز وجل، لما اختار ذلك له قبضه قبل رؤيته إياه على الحالة التي تكون معها الرقة، ومعينته التي تتضاعف معها الحرقة، وحمّاه من فتنة المرافقة، ليرفعه عن جزع المفارقة، وكان هو المقي في دنياء، وهو الواحد الماضي الذخيرة لأخراه، وقد قيل: إن تسلم الجِلَّةُ فالسَّخْلُ هدر؛ وعزيز عليّ أن أقول قول المهون للأمر من بعده، وألا أوفي التوجع عليه واجب فقده، فهو له سُلالة، ومنه بضعة، ولكن ذلك طريق التسلية، وسبيل التعزية، والمنهج المسلك في مخاطبة مثله، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أغناه الاستبصار، ولا يأبى ورود الموعظة، وإن كفّاه الاعتبار، والله تعالى يقي الرئيس المصاب، ويعيذه من النوائب، ويرعاه بعينه التي لا تنام، ويجعله في حمّاه الذي لا يُرام، ويُتيقنه موفوراً غير منتقص، ويقدمنا إلى السوء أمامه، وإلى المحذور قدامه، ويبدأ بي من بينهم في هذه الدعوة، إذ كنت أراها من أسعد أحوالي، وأعدها من أبلغ آمالي وآمالي.

وكتب إلى بعض الرؤساء: قد جَرَتِ العادةُ - أطال الله بقاء الأمير! - بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحتها، وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول؛ فهو لا يلتبس فضله إلا جزاء، ولا يستدعي طوله إلا قضاء؛ والأمير بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حق الثقة به منه، والحمد لله الذي أفرد بالطرائق الشريفة، وتوحده بالخلائق المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولمعته الثاقبة المنيرة.

وكتب البديع في بابه إلى بعض أصحابه: لك، أعزك الله، عادة فضل، في كل فصل، ولنا شبهة مَقْت، في كل وقت؛ ولعمري إن ذا الحاجة مَقِيْتُ الطَّلعة، ثقيل الوطأة، ولكن ليسوا سواء؛ أولو حاجة تحتاج إليهم الأموال، وأولو حاجة تحوجهم الآمال.

والأمير أبو تمام عبد السلام بن الفضل المطيع لله أمير المؤمنين - أيده الله - إن أحوجه الزمان فطالما

خَدَمَهُ، وَإِنْ أَهَانَهُ فَكَثِيرًا مَا أَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ. وَقَدِيمًا أَقْلَهُ السَّرِيرَ، وَعَرَفَهُ الْخَوَرَتُقُ وَالسَدِيرَ. وَإِنْ نَقَصَهُ الْمَالُ فَالْعَرَضُ وَافِرٌ، وَإِنْ جَفَاهُ الْمَلِكُ فَالْفَضْلُ ظَاهِرٌ، وَإِنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ فَلْيَتَّكِلْكُمْ بِهِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَفْعَلُونَ. وَأَنْتَ تَقَابُلُ مُورَدَهُ عَلَيْكَ مِنَ الْإِعْظَامِ، بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْإِكْرَامِ، فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى ثَوْبٍ بَالٍ، فَتَحْتَهُ شَرَفٌ عَالٍ، وَلَا تَقْسَ عَلَى الْبُرْدِ، مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْمَجْدِ، وَلَكِنْ إِنْ نَظَرْتَ فِي شَاخِ أَصْلِهِ، وَرَاسِخَ عَقْلِهِ، وَشَهَادَةَ الْفِرَاسَةِ لَهُ. ثُمَّ لِيَأْتِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا هُوَ قَضِيَّةُ الْمُرُوءَةِ مَعَهُ، وَالْأُخُوَّةِ مَعِي، بِالْغَا فِي ذَلِكَ غَايَةُ جَهْدِهِ، وَالسَّيْفُ لَا يَرَى فِي غَمَدِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ.

وله إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة:

لو كانت الدنيا، أطال الله بقاء الشيخ! - على مرادي تجري، لا اخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمري، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهري، ولكن في أولاد الزنا كثرة، ولعين الزمان نظرة، وقد كنت حَظِيَّتَ من خدمة الشيخ المحسن بشريعة أنس نغصها بعض الوشاة عليّ، وذكر أبي اقميت بطوس بعد استئذاني إلى مَرَوْ وفي هذا ما يعلمه الشيخ، فإن رأى أن يحسن جَبْرِي بكتاب يطرز به مقدمي فعل إن شاء الله تعالى.

وله في هذا الباب إلى أبي نصر الميكالي: الشيخ - أعزه الله - مَلَكٌ من قلبي مكاناً فارغاً، فترله غير منزل قلعة، ومن مودتي ثوباً سابغاً، فلبسه غير لبسة خلعة، ومن نصب تلك الشمائل شبكاً، وأرسل تلك الأخلاق شركاً، فَنَصَّ الأحرار فاستحَثَّهم، وصاد الإخوان واسترقهم.

وتالله ما يُعْبَنُ إِلَّا من اشترى عبداً وهو يجد حراً بأرخص من العبد ثمناً، وأقل في البيع غبناً، ثم لا يهتبل غرة وجوده، وينتهاز فرصة امتلاكه بجوده، وأنا أتم للشيخ على مكرمة يتيمة، ونعمة وسيمة، فليعتزل من الرأي ما كان بهيماً، وليطلق من النشاط ما كان عقيماً وليحلل حَبْوَ التقصير، وليتجنب جانب التأخير، وليفتضْ غُذْرَها، وينقض حَجَّتَها وعُمْرَها، برأي يجذبُ المجد باعه، ويعمر النشاط رباعه؛ وتلك حاجة سيدي أبي فلان وقد ورد من الشيخ بحراً، وعقد به جسراً، وما عَسُرَ وَعَدُّهُ هو مستنجزه، ولا بَعْدَ أمرٍ هو منتهزه، ولا ضاعت نعمة أنا بَرِيدُ شكرها، وعزيم نشرها، وولي أمرها؛ وهذا الفاضل قرارة مائها، وعماد بنائها؛ وقد شاهدت من ظُرفه، ما أعجز عن وصفه، وعرفت من باطنه ما لم يُدرَ بظاهره، ورأيت من أوله ما نَمَّ على آخره، ثم له البيت المرموق، والنسب الموموق، والأولية القديمة، والشيمة الكريمة؛ وقد جَمَعْتُنَا فِي الْوَدِّ حَلْفَةً، وَنَظَمْتُنَا فِي السَّفَرِ رَفْقَةً، وعرفني بما أنهض له وفيه، فضمنت له عن الشيخ كَرَمًا لَا يَغْلُقُ بَابَهُ، وَغَدَقًا لَا يُخْلِفُ سَحَابَهُ؛ فليخرجني الشيخ من عهدة هذه الثقة، زادها إليه تأكيداً، وإن رأى أن أسأل الشيخ في معناه عرفني كيف المأتى له، وإنما أَطَلْتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامي، وفَرَطَ تقليدي للمنة والتزامي.

وله جواب عن صنيعه بصاحب هذه العناية: ورد فلان، سيدي، وهو عينُ بلدتنا وإنسانها، ومُقلتها
ولسانها؛ فأظهر آيات فضله لا جرم أنه وصلَ إلى الصميم، من الإيجاب الكريم، وهو الآن مقيمٌ بين رَوْح
ورِيحان وجَنَّة نعيم، تحيته فيها سلام، وآخر دعواه ذكرك وحسن الثناء عليك بما أنت أهله، وأنا أصدق
دعواه؛ وأفتخر به افتخار الخصيِّ بمتاع مولاه؟ وقد عرفته ولسنه، وكيف يَجُرُّ في البلاغة رَسَنه، فما ظنك
به، وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيون، وسلَّ صارماً من فيه، يعيدُ شكرك ويديه، وينشر ذكرك
ويطويه؛ والجماعة تمدحُ لمدحه، وتجرح بجرحه، فرأيك في تحفظ أخلاقك التي أثرت هذا الشكر، وأنتجت
هذه المآثر الغرَّ، موفقاً إن شاء الله تعالى.

ومن إنشائه في مقامات الإسكندري، قال: حدَّثنا عيسى بن هشام، قال: لما نَطَقَني الغنى بفاضل ذِله،
أُثِّمْتُ بحال سَلْبته، أو كثر أصبته، فخَفَرَنِي الليلُ، وسَرَت بي الخيلُ. وسلَّكتُ في هربي مسالكَ لم يَرْضها
السيرُ، ولا اهتَدَتْ إليها الطيرُ، حتى طويت أرضَ الرُّعْبِ وتجاوزتُ حدَّه، وصِرْتُ إلى حِمَى الأمنِ
ووجدتُ بَرْدَه، وبلغتُ أذربيجان وقد حَفِيتِ الرواحلُ، وأكلتها المراحلُ، ولما بلغتُها: الطويلُ.

نزلنا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا شهراً

فبينما أنا يوماً في بعض أسواقها إذ طلع رجل بركوة قد اعتصدها، وعصا قد اعتمدها، ودنية قد تفلَّسها،
وفوطة قد تطيَّلسها؛ فرفع عقيرته وقال: اللهم يا مبدئ الأشياء ومعيدها، ومحيي العظام ومبيدها، وخالق
المصباح ومديره، وفالق الإصباح ومنيره، وموصل الآلاء سابعة إلينا، ومُمسِك السماء أن تقع علينا،
وبارئ النَّسَم أزواجاً، وجاعل الشمس سراجاً؟ والسماء سقفاً، والأرض فراشاً، وجاعل الليل سكناً
والنهار معاشاً، ومنشئ السحاب ثقلاً، ومرسل الصواعق نكالا، وعالم ما فوق النجوم، وما تحت
التخوم. أسألك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين، وأن تعينني على الغربة أثني حبلها، وعلى
العُسرة أعدو ظلها، وأن تُسهِّل لي على يدي مَنْ فَطَرْتُهُ الفِطْرَةَ، وأطلعتَه الطُّهْرَةَ، وسعد بالدين المتين، ولم
يَعَمَّ عن الحق المبين، راحلة تطوي هذا الطريق، وزاداً يسعني والرفيق.

قال عيسى بن هشام: فناجيتُ نفسي بأن هذا الرجل أفصحُ من إسكندريِّنا أبي الفتح، والتفتُ لفتةً، فإذا
هو أبو الفتح، فقلت: يا أبا الفتح، بلغ هذه الأرضَ كيدك، وانتهى إلى هذا الشَّعبِ صيدك؟! فأنشأ يقول:
مجزوء الخفيف:

دِجَوَّابَةُ الْأُفُقِ
نِ وَعَمَّارَةُ الطُّرُقِ

أنا جَوَّالَةُ الْبَلَا
أنا خُذْرُوفَةُ الزَّما

لا تَلْمَنِي لَكَ الرَش

دُ عَلَى كُدَيْتِي وَذُقْ

وقال الطرماح بن حكيم: الطويل:

وما أنس م الأشياء لا أنس بيعةً

من الدهر إذ أهل الصفاء جميعُ

وإذ دهرنا فيه اعتزاز، وطيرنا

سواكن في أوكارهنّ وقوعُ

فهل لليالينا بنعف مليحة

وأيامهنّ الصالحات رُجوعُ؟

كأن لم يرُكَّ الظاعنون إلى بلى

ومثل فراق الظاعنين يرُوعُ

شعر في وصف الشباب والمشيبي

وقال علي بن محمد بن الحسن العلوي: مجزوء الكامل:

واهاً لأيام الشبا

ب وما لبسَنَ من الزخارفُ

وذهابهنّ بما عرفُ

نَ من المناكر والمعارِفُ

أيام ذكرك في دوا

وين الصبا صدّرَ الصحائفُ

واهاً لأيامي وأيام الشهياتِ المرَاشِفُ

باناً على كُتُبِ الروادِفُ

الغارساتِ البانِ قُضُ

والجاعلاتِ البدرِ ما

بين الحواجبِ والسوالِفُ

أيام يُظهِرنَ الخلا

فَ بغير نِيَّاتِ المخالفُ

وقف النعيم على الصبا

وزللت من تلكِ المواقِفُ

وقال ابن المعتز: الطويل:

دَعَنْتِي إِلَى عَهْدِ الصَّبَا رَبَّةُ الْخَدْرِ

وَأَلَقْتُ قِنَاعَ الْخَزْزِ عَنْ وَاضِحِ الثَّغْرِ

وَقَالَتْ وَمَاءُ الْعَيْنِ يَخْلُطُ كُحْلَهَا

بِصُفْرَةِ مَاءِ الزَّعْفَرَانِ عَلَى النَّحْرِ

لَمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ قَابِضاً

عَنانَكَ عَنْ ذَاتِ الْوِشاحِينَ وَالشَّدْرِ؟

أَرَاكَ جَعَلْتَ الشَّيْبَ لِلْهَجْرِ عِلَّةً

كَأَنَّ هَلَالَ الشَّهْرِ لَيْسَ مِنَ الشَّهْرِ

وقال أحمد بن أبي طاهر: مجزوء الكامل:

يَا مَنْ كَلَفْتُ بِحَبِّهِ

كَفَنِي بِكَاسَاتِ الْعَقَارِ

وَحَيَاةَ مَا فِي وَجْنَتِي

كَ مِنْ الشَّقَائِقِ وَالْبَهَارِ

وولوع رِدْفِكَ بالترَجِّ

ما إن رأيت لحسن وج

لما رأيت الشَّيب من

قالت غبار قد علا

هذا الذي نقل الملو

قالت ذهبت بحجَّتِي

يا هذه أرأيت لي

وقال خالد الكاتب: الكامل:

نظرتُ إليَّ بعينٍ مَنْ لم يَعْدِلْ

لما رأتُ شَيْباً أَلَمْ بمفرقي

وظللتُ أَطْلُبُ وَصَلَهَا بتملُّقٍ

وقال ابن الرومي: الطويل:

كفى حَزْناً أَنْ الشبابُ معجلٌ

وعَرَائِكَ عن ليلِ الشبابِ مَعاشِرٌ

فقلتُ: نهارُ المرءِ أَهْدَى لسعيهِ

مَحَارُ الفتى شيخوخةٌ أو منيةٌ

وقال: البسيط:

كان الشبابُ وقلبي فيه منغمسٌ

رَوْحٌ على النفسِ منه كَادَ يُبْرِدُهَا

كَأَنَّ نَفْسِي كانتْ مِنْهُ سارحةً

يمضي الشبابُ ويبقى من لبانته

ما كان أعظمَ عِنْدِي قَدْرَ نعمته

ما كان يُوزَنُ إعجابُ النساءِ بِهِ

رَجَ تَحْتَ خَصْرِكَ في الإزار

هك في البريَّة من نِجار

وجهي بما يحكي الخمار

ك فقلت ذا غير الغبار

ك إلى القبور من الديار

عني بحسن الاعتذار

لَا مَذْ خَلَقْتَ بِلَا نَهَار؟

لَمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي

صَدَّتْ صُدُودَ مُفَارِقٍ مَتَحَمِّلِ

والشَّيبُ يَغْمِزُهَا بِأَلَا تَفْعَلِي

قَصِيرُ اللَّيَالِي وَالْمَشْيَبُ مَخْلُدٌ

فَقَالُوا: نَهَارُ الشَّيبِ أَهْدَى وَأَرْشَدُ

وَلَكِنْ ظِلُّ اللَّيْلِ أُنْدَى وَأَبْرَدُ

وَمَرْجُوعٌ وَهَاجَ الْمَصَابِيحُ رَمْدُ

فِي لَذَةٍ لَسْتُ أُدْرِي مَا دَوَاعِيهَا

بَرْدُ النَّسِيمِ وَلَا يَنْفَكُ يُحْيِيهَا

فِي جَنَّةٍ بَاتَ سَاقِي الْمُرْنِ يَسْقِيهَا

شَجَوُ عَلَى النَّفْسِ لَا يَنْفَكُ يُشْجِيهَا

لِنَفْسِهِ لَا لِحَلْمٍ كَانَ يُصِيبُهَا

وَالنَّفْسُ أُوجِبَ إِعْجَاباً بِمَا فِيهَا

وقال: الطويل:

غدوتَ وطَرَفُ البِيضِ نحوكَ أَصَوْرُ
وإن كان في أحكامها ما يُجَوِّرُ
بعينيك عنك الشيبُ فالبيضُ أَعْدَرُ
فعينُ سِوَاءٍ بالشِئَاءِ أَجْدَرُ

إذا ما رأيتُك البِيضُ صَدَّتْ، ورُبَّما
وما ظَلَمْتُكَ الغانياتُ بصدِّها
أَعْرِ طَرَفَكَ المرأةَ وانظر؛ فإن نبا
إذا شئتَ عين الفتى شيبَ نفسه

وقال كشاجم: الخفيف:

وثنتُ بَعْدَ ضحْكَه بِعُبُوسٍ
وهيَ الأَبْنُوسُ بالأَبْنُوسِ

وَقَفَّتَنِي ما بين حُزْنٍ وبُوسٍ
إذْ رأَتْنِي مَشَطْتُ عَاجاً بِعَاجٍ

وقال أبو نواس: الكامل:

لا أَهتَدِي لمَذاهِبِ الأَبْرارِ
ورَمَى الزمانُ إِلَيْكَ بالأَعْذارِ
مَتَقَلَّبٌ في رَاحَةِ الإِقْتارِ
فَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إلى الإِنْكارِ

بكرت تبصّرني الرّشاد كأنني
وتقول: وَيَحْكُ قد كبرت عن الصّبا
فالِى متى تصبّو وأنت متيمّ
فأَجَبْتُها إِنِّي عَرَفْتُ مَذاهِبِي

وقال أحمد بن زياد الكاتب: الطويل:

بمَفَرِّقِ رأسي قلت: أهلاً ومرحبا
تَتَكَبَّرُ عَنِّي رُؤْمُ أَنْ يَتَكَبَّرَا
به النفسُ يوماً كان للكره أذْهَبَا

ولمّا رأيتُ الشيبَ حلَّ بياضه
ولو خِلْتُ أَنِّي إن تركت تحيتي
ولكن إذا ما حلَّ كرهٌ فسامحت
كأنّ هذا البيت ينظر إلى قول الأول: الطويل:

فَرُدَّتْ إلى معروفها فاستقرّت

وجاشت إلى النفس أول مرة

أبو الطيب: الكامل:

ثم اعترفتُ بها فصارت دَيْدَنًا

أَنكَرْتُ طارِقَةَ الحوادثِ مرّة

ابن الرومي: الخفيف:

مَرَحَ الطَّرْفِ في العِذارِ المُحَلَّى
في ميادينِ باطلي إذ تولى

لاح شَيْبِي فصرتُ أَمْرُحُ فيه
وتولى الشبابُ فازدَدْتُ غَيًّا

إِنْ مِنْ سَاءِ الزَّمَانِ شَيْءٌ

لَأَحَقُّ الْوَرَى بِأَنْ يَتَسَلَّى

المتني: الخفيف:

أَتُرَانِي أَسُوءَ نَفْسِي لَمَّا

سَاعَنِي الدَّهْرُ؟ لَا، لِعَمْرِي، كَلَّا

المتني: الكامل:

تَصِفُ الْحَيَاةَ لَجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ

عَمَّا مَضَى فِيهِمَا وَمَا يُتَوَقَّعُ

وَلَمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ

وَيَسْؤُمُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَيَطْمَعُ

البحثري: الكامل:

يَكْفِيكَ مِنْ حَقِّ تَخِيلٍ بَاطِلٍ

تَرْدِي بِهِ نَفْسُ اللَّهِيْفِ فَتَرْجِعُ

وقلما تصحّ مغالطات أهل العقول، عند أهل التحصيل، وما أحسن ما قال الطائي: الخفيف:

لَعِبَ الشَّيْبُ بِالْمَقَارِقِ، بَلْ جَدَّ فَأَبْكِي تَمَاضِرًا وَلَعُوبًا

يَا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى

حَسَنَاتِي عِنْدَ الْحَسَانِ ذُنُوبًا

لَوْ رَأَى اللَّهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ فَضْلًا

جَاوَرَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْبًا

وقد جاء في التشاغل عن الدهر وأحداثه، ونكباته، ومصائبه، وفجعاته، والتسلي عن الهموم، بماء الكروم، شعرٌ كثير؛ فمما يتعلّق منه بذكر الشيب قول ابن الرومي: الطويل:

سَأَعْرِضُ عَمَّنْ أَغْرَضَ الدَّهْرُ دُونَهُ

وَأَشْرِبُهَا صَرِفًا وَإِنْ لَمْ لَوْمُ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَأْسَ أَكْرَمَ خُلَّةً

وَقَتُّ لِي وَرَأْسِي بِالْمَشْيِبِ مُعَمَّمُ

وَصَلَّتْ فَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِوَصْلِهَا

وَقَدْ بَخِلْتُ بِالْوَصْلِ عَنِّي تَكْتُمُ

وَمَنْ صَارَ اللَّذَاتِ إِنْ خَانَ بَعْضُهَا

لِيُرْغَمَ دَهْرًا سَاءَهُ فَهُوَ أَرْغَمُ

أَمِنْ بَعْدِ مَثْوَى الْمَرْءِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ

إِلَى ضَيْقِ مَثْوَاهُ مِنَ الْقَبْرِ يَسْلَمُ

وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ الضَّيْقِ وَالضَّيْقِ فَرْجَةٌ

أَبَى اللَّهُ! إِنْ اللَّهُ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ!

وقال العَطَوِي: الخفيف:

أَعْجِبْتَنِي إِنْ أَنَاخَ بِي الدَّهْرُ

رَفَحَاكُمْتُهُ إِلَى الْأَقْدَاحِ؟

لَا تَرَدِّ الِهْمُومُ يُنْشِبْنَ أَظْفَا

رَأَّ حَدَادًا بِشُرْبِ مَاءِ قِرَاحِ

أَحْمَدُ اللَّهِ، صَارَتِ الْكَأْسُ تَأْسُو

دُونَ إِخْوَانِي الثَّقَاتِ جِرَاحِي

وقال ابن الرومي ونحله بشاراً: الطويل:

وقد كنت ذا حال أُطِيلُ أذكّارها
وإرعاءها قلبي لأهتزّ معجبا
فبذلتُ حالاً غير هاتيك، غاييتي
تتاسي ذكرها لتغرّب مغرباً
وكنتُ أدير الكأس ملاًى رويّة
لأجذل مسروراً بها ولأطرباً
وكانت مزيداً في سروري ومُتّعيتي
فأضحتُ مفرّاً من همومي ومهزّباً

وهذا كما قال في فيّنة وإن لم يكن من هذا الباب: البسيط:

شاهدت في بعض ما شاهدتُ مُسمّعةً
كأنما يومها يومان في يوم
ظلمتُ أشرب بالأرطال، لا طرباً
بذاك، بل طلباً للسُكر والنوم

ومن مليح شعره في الشيب: الطويل:

ومن نكد الدنيا إذا ما تتكرّ تأمورٌ وإن عدت صغاراً عظامُ
إذا رُمْتُ بالمنقاش نتف أشاهبي
وهُنّ لعيني طالعاتٌ نواجِمُ
يروّغُ منقاشي نجوم مسائحي
وقال أبو الفتح كشاجم: الطويل:

أخي، قُمْ فعاوني على نتف شيبية
فإني منها في عذاب وفي حربِ
إذا ما مضى المنقلاش يأتي بها أُنْتُ
وقد أخذت من دونها جارة الجنبِ
كجان على السلطان يُجزى بذنبه
تعلّق بالجيران من شدّة الرُعبِ
وقد وشّحت هذا الكتاب بقطع مختارة في الشيب والشباب، وحثت ههنا بجملة، وهذا النوع أعظم من
أن نحيط به اختياراً، أو نبلغه اختباراً.

شذور لأهل العصر

في وصف الشيب ومدحه وذمه

ذوى غُصْنُ شبابيه. بدت في رأسه طلائع المشيب، أخذ الشيب بعنان شبابيه، غزاه الشيب بجيوشه، طرّز
الشيبُ شبابيه، أقمر ليلُ شبابيه، ألجمه بلجامه، وقاده بزمامه، علاه غبارُ وقائع الدهر. وزن هذا لابن
المعتز: الكامل:

هذا غبارُ وقائع الدهرِ

بينا هو راقد في ليل الشباب، أيقظه صبحُ المشيب. طوى مراحلَ الشباب، وأنفق عمره بغير حساب. جاوز من الشباب مَراحل، ووردَ من الشَّيبِ مَناهل. فلَّ الدهرُ شَبَاً شبابه، ومَحَا محاسنَ رُوائه. قضى باكورة الشباب، وأنْفَقَ نَضَارَةَ الزمان. أخلَقَ بُرْدَةَ الصَّبَا، ونهّاه النهي عن الهوى. طار غرابُ شبابه. انتهى شبابه، وشاب أترابه. استبدل بالأدهم الأبلق، وبالغراب العَقَّع 0 انتهى إلى أَشَدِّ الكهل، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمةِ النَّسر. افتَرَّ عن نابِ القارح، وقرع نَاجِدَ الحلم، وارتاضَ بِلجامِ الدَّهرِ، وأدرك عصر الحُنْكَه وأوان المسكة. جمع قوَّةَ الشباب إلى وَقَارِ المشيب. أسفر صبح المشيب، وعَلَّتْهُ أهُمَةُ الكِبَرِ. خرج عن حد الحداثة؛ وارتفع عن غِرَّةِ الغَرَارَةِ. نَفَضَ حَبْرَةَ الصبَا، وولَّى داعيةَ الحجا. لما قام له الشيب مقام النصيح، عدل عن علائق الحداثة بتوبةِ نَصُوح. الشيب حلية العقل وشيمة الوقار. الشيب زبدَةٌ مَحْضَتُهَا الأيام، وفِضَّةٌ سبكتها التجارب. سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب. عصى شياطين الشباب، وأطاع ملائكة الشَّيبِ. الشيخ يقول عن عيان، والشاب عن سَمَاع. في الشيب استحكام الوقار وتناهي الجلال، وميسَمُ التجربة، وشاهد الحنكة. في الشيب مقدِّمة الموت والمُهرَم، والمؤذِن بالخرَف، والقائد للموت. الشيبُ رسول المنية. الشيب عنوان الفساد. والموتُ ساحل، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل. صفا فلان على طول العمر، صفاء التَّبرُّ على شغب الجمر. لقد تناهت به الأيامُ تهذيباً وتهليماً، وتناهت به السِّنُّ تجريباً وتحنيكاً. قد وعظه الشَّيبُ بوخْطِهِ، وخَبَطَهُ السِّنُّ بابنه وسبْطِهِ، قد تضاعفت عقودُ عمره، وأخذت الأيام من جسمه. وجدَّ مَسَّ الكبر، ولحقه ضَعْفُ الشيخوخة، وأساء إليه أثر السنِّ، واعتراض الوهن. هو من ذوي الأسنان العالية، والصحبة للأيام الخالية. هو هِمُّ هَرَم، قد أخذ الزمانُ من عقله، كما أخذ من عمره. تَلَمَّه الدهرُ تَلَمَّ الإناء، وتركه كذي الغارب المنكوب، والسَّنامُ المحبوب. رماه من قوسه الكِبَرِ. أريق ماءُ شبابه، واستشنَّ أدبمه. كسر الزمانُ جناحه، ونقض مِرَّتَه. طوى الدهرُ منه ما نشر، وقَيَّده الكبر، يرسف رسفان المقيّد، هو شيخ مجتث الجثَّة، واهي المُنَّة، مغلول القوة ومفلول الفتوة، ثَقَلَتْ عليه الحركة؟ واختلفت إليه رسل المنية. ما هو إلا شمسُ العصر، على القصر. أركانُه قد وهَتْ، ومدَّتْهُ قد تناهَتْ. هل بعد الغاية منزلة، أو بَعَدَ الشيب سوى الموت مرحلة؟ ما الذي يُرْجَى ممن كان مثله في تعاجز الخطأ، وتخاذل، القوَى، وتَدَايِي المدى، والتوجّه إلى الدار الأخرى، أبعد دَقَّةِ العظم، ورقَّةِ الجلد، وضَعْفِ الحسِّ، وتخاذل الأعضاء، وتفاوت الاعتدال، والقُرْبُ من الزوال. والذي بقي منه ذَمَاءُ يَرْقُبُهُ المُنون بمرْصَد، وحُشاشة هي هَامَةُ اليوم أو غد. قد خلَقَ عمره، وانطوى عيشُهُ، وبلغ ساحلَ الحياة، ووقف على نِيَّةِ الوداع، وأشرف على دار المقام، فلم يبق إلا أنفاسٌ معدودة، وحركات محصورة. نَضِبَ غديرُ شبابه.

فقر لغير واحد في المشيب

قيس بن عاصم: الشيبُ خطامُ المنية. أكتُم بن صيفي: المشيبُ عنوان الموت. الحجاج بن يوسف: الشيب نذير الآخرة. غيره: الشيبُ نومُ الموت. العتي: الشيبُ مجمع الأمراض. العتاي: الشيبُ نذير المنية. محمود الوراق: الشيبُ أحد الميتين. ابن المعتز: الشيبُ أولَ مواعدِ الفناء. وقال: عَظُمَ الكبيرُ فإنه عَرَفَ اللهَ قبلَكَ، وارحَمَ الصغيرُ فإنه أغرُّ بالدنيا منك. غيره: الشيبُ قَنَاعُ الموتِ. الشيبُ غَمَامٌ قَطَرُهُ الغوم. الشيبُ قَذَى عين الشباب.

نظر سليمان بن وهب في المرأة فرأى الشيب، فقال: عَيْبٌ لا عدمناء!.
وقيل لأبي العيناء: كيف أصبحت. فقال: في داء يتمناه الناس!.
ابن المعتز: المديد:

أَنكَرْتُ شَرَّ مَشِيبِي وَوَلَّتْ
بدموع في الرداءِ سُجُومِ
اعذري يا شرَّ شِيبَتِي بِهِمْ
إِنَّ شَيْبَ الرَّأْسِ نَوْرُ الهمومِ
مسلم بن الوليد: البسيط:

الشَّيْبُ كَرَّةٌ، وَكَرُّهُ أَنْ أَفَارُقَهُ
أَعْجِبْ لشيءٍ على البغضاءِ مَوْدُودِ
يَمْضِي الشَّبَابُ فَيَأْتِي بَعْدَهُ بَدَلٌ
والشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُوداً بِمَفْقُودِ
وقال آخر: مَخْلَعُ البسيط:

لَوْ أَنَّ عُمَرَ الْفَتَى حَسَابٌ
كَانَ لَهُ شَيْبُهُ فَذَلِكَ
وقال بعضهم: الطويل:

وَلِي صَاحِبٌ مَا كُنْتُ أَهْوَى اقْتِرَابَهُ
فَلَمَّا التَّقِينَا كَانَ أَكْرَمَ صَاحِبِ
عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يَفَارِقَ بَعْدَمَا
تَمَنَيْتُ دَهْرًا أَنْ يَبْهُونَ مُجَانِبِي

يعني الشيب، يقول: لم أكن أشتهي اقترابه، فلما حلَّ كان أكرم صاحب، عزيز عليَّ مجانبته، لأنه لا يجانبُ إلا بالموت.

أبو إسحاق الصابي: مجزوء الكامل:

والعمرُ مثْلُ الكاسِ يَرِ
سب في أواخرها القَذَى

أبو الفضل الميكالي: البسيط:

أَمْتَعِ شَبَابَكَ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ طَرَبِ
وَلَا تُصَيِّحْ لِمَلَامٍ سَمِعَ مُكْتَرَبِ

فخير عُمَرِ الْفَتَى رِيْعَانُ جَدَّتِهِ

في ذكر الخضاب: الخضاب أحد الشباين.

عبدان الأصبهاني: الخفيف:

والعمرُ من فضة والشيبُ من خَبَثِ

وهو ناعٍ مَنْعَصٌ لي حياتي

لي أَنَسٌ إلى حضور وفاتي

ما تَطَلَّبتْ خَلَّةَ الغانيات

ما تُرِينِيهِ كلَّ يومٍ مِرَاتِي

سرّه أن يرى وجوه النعاة؟

في مشيبي شِمَاتَةٌ لِعِدَاتِي

ويعيب الخِضَابَ قَوْمٌ، وفيه

لا وَمَنْ يعلم السرائرَ إني

إنما رُمْتُ أَنْ يُغَيِّبَ عَنِّي

وهو ناعٍ إلي نفسي، وَمَنْ ذا

ابن المعتز: الطويل:

رَأَتْ شَيْبَةً قَدْ كُنْتُ أَغْفَلْتُ قِصَّهَا

فَقَالَتْ: أَشَيْبٌ مَا أَرَى؟ قُلْتُ: شَامَةٌ

الأمير أبو الفضل الميكالي: الخفيف:

ولم تتعهَّدها أَكْفُ الْخَوَاضِبِ

فَقَالَتْ: لَقَدْ شَانَتْكَ عِنْدَ الْحَبَائِبِ

فيه وَجْدٌ بِكْتَمِ سِرِّي وَلَوْ غُ

ونصولُ الخِضَابِ شَيْءٌ بَدِيعٌ

قد.أبى لي خِضَابٌ شَيْبِي فَوَاد

خَافَ أَنْ يَحْدِثَ الْخِضَابُ نُصُولاً

وقالوا: الخضاب من شهود الزور، والخضاب حداثُ المشيب، إن خضب الشعر، فكيف يخضب الكبير.

الخضاب كفن الشيب.

ابن الرومي: الخفيف:

ود شَيْئاً إِذَا اسْتَشَنَّ الْأَدِيمُ

شَاهِدَ الْخَضْبِ؟ أَيْنَ ضَلَّ الْحَلِيمُ؟ !

صار إِلا التَّكْذِيبُ والتَّائِيْمُ

قد تَوَلَّى بِهِ الشَّبَابُ الْقَدِيمُ

بأَ إِذَا كَذَّبَ السَّوَادُ الصَّمِيمُ

لَيْسَ تُغْنِي شَهَادَةُ الشَّعْرِ الْأَس

أَفِيرُجُو مُسَوِّدٌ أَنْ يُزَكَّى

لا لِعَمْرِي مَا لِلْخِضَابِ لَدَى الْأَب

يَدَّعِي لِلْكَبِيرِ شَرَحَ شَبَابٍ

وَالسَّوَادُ الدَّعِيُّ أَوْجَبَ تَكْذِي

وله أيضاً في هذا المعنى: الطويل:

مَشِيْباً وَلَمْ يَأْتِ الْمَشِيْبُ تَعْذِراً

شَبَاباً إِذَا ثَوَّبَ الشَّبَابُ تَحْسِراً

كَمَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحِيلَ شَبَابَنَا

كَذَلِكَ يُعْنِينَا إِحَالَةُ شَيْبِنَا

أبى الله تدبير ابن آدم نفسه

وأنى يكون العبد إلا مُدَبَّرًا؟

وقال: الكامل:

قل للمسود حين شيب: هكذا

غش الغواني في الهوى إياكا

كذب الغواني في سوادِ عذارِه

فكذبه في ودهن كذاكا

هيهات غرك أن يُقال غرائرُ

أي الدواهي غيرهن دهاكا؟

لا تحسبن خدعتهن بحيلةٍ

بل أنتَ ويحك خادعتك مناكا

وقال أبو الطيب المتنبي: البسيط:

ومن هوى كل من ليست مموهة

تركت لون مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قولي وعادته

رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

ليت الحوادث باعتنني الذي أخذت

مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

فما الحداة من حلم بمانعةٍ

قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

غيره: البسيط:

يا خاضب الشيب بالحناء يسترهُ

سل الإله له سترًا من النار

وقد سلك أبو القاسم مسلماً طريفاً قوله: الكامل:

أفدي المغاضبة التي أتبعتهَا

نفساً يشيع عيسها إذ آبا

والله لولا إن يسفهنني الصبا

ويقول بعض القائلين تصابى

لكسرت دملجها لضيق عناقه

ولثمت من فيها البرود رضابا

بنتم فلولاً أن أغير لمّتي

عتباً وألقاكم علي غضابا

لخضبت شيباً في عذاري كامناً

ومحوت محو النّفس منه شبابا

وخلعته خلج النجاد مذمماً

واعترضت من جلبابه جلبابا

ولبست مبيض الحداد عليكم

لو أنني أجد البياض خضابا

وإذا أردت إلى المشيب وفادةً

فاجعل إليه مطيك الأحقابا

فلتأخذن من الزمان حمامة

ولتدفعن إلى الزمان غرابا

من أخبار الوليد بن يزيد

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لَمَّا غلبت عليه لذاته، وملكته شهواته: يا أمير المؤمنين، إن الرعية ضاعت بتضييعك أمرها، وتركك ما يجب عليك من مصلحتها. فقال: ما الذي أغفلناه من واجب حقها، وأسقطناه من مفروض ذمامها؟ أمَّا كرمنا دائم، ومعروفنا شامل، وسلطاننا قائم؟ وإنما لنا ما نحن فيه، بسط لنا في النعمة، ومكَّن لنا في المكرمة، وأذلت لنا الأمة، ومُدَّ لنا في الحرمة، فإن تركت ما به وسع، وامتنعت عما به أنعم، كنت أنا المزيل لنعمتي بما لا ينال الرعية ضرره، ولا يؤودهم ثقله. يا حاجب، لا تأذن لأحد في الكلام.

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد، وكان خاصاً به: يا أمير المؤمنين، أنطقتني بالأنس، وأنا أسكت بالهيبه، وأراك تأمرنا بأشياء أنا أخافها عليك، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً؟ قال: كل مقبول منك، معلوم فيه ثقتك، والله فينا علم غيب نحن صائرون إليه! وتعود فتقول: فقتل الوليد بعد ذلك بشهر.

الحجاج وأهل العراق

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إني استعملتك على العراق، فاخرج إليها كميّش الإزار، شديد الغرار، قليل العثار، منطوي الخصلة، قليل الثميلة، غرار النوم، طويل اليوم، واضغط الكوفة ضغطة تحيق منها البصرة.

وشكا الحجاج يوماً سوء طاعة أهل العراق، وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاري؛ أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شئتوك لبلدك، ولا لذات يدك، إلا لما نَقَمُوهُ من أفعالك؛ فدع ما يُعِدُّهم عنك إلى ما يدينهم منك، والتمس العافية ممن دونك تُعْطِها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعْدك ثلاثاً.

فقال له الحجاج: والله ما أرى أن أردّ بني اللّخناء إلى طاعتي إلا بالسيف. فقال جامع: أيها الأمير، إنَّ السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: الخيار يومئذ لله. قال جامع: أجل، ولكن لا ندرى لمن يجعله الله. فغضب الحجاج وقال: يا هَنَاهُ، إنك من محارب، فقال جامع: الطويل.

وللحرب سُمِينَا وكُنَّا محارباً إذا ما القْنَا أُمْسَى من الطعن أحمرأ

فقال له الحجاج: والله لقد هممتُ أن أخلع لسانك، فأضربَ به وجهك. فقال جامع: إن صدقناك أغضبتناك، وإن كذبتناك أغضبتنا الله. فقال الحجاج: أجل، وسكن سلطانه، وشغل ببعض الأمر، وخرج جامع وانسلَّ من صفوف الناس، وانحاز إلى جبل العراق.

وكان جامع لسنًا مُفَوِّهاً، وهو الذي يقول للحجاج حين بنى واسطاً: بَنَيْتَهَا فِي غَيْرِ بَلَدِكَ، وَأَوْرَثْتُهَا غَيْرَ وَلَدِكَ.

وكان الحجاجُ من الفصحاء البلغاء، ويقال: ما رُئيَ حضريٌّ أفصح من الحجاج ومن الحسن البصري.

وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة، ويؤثرهم ويقربهم.

ولما دخل أيوب بن القرية على الحجاج - وكان فيمن أُسر من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندي - قال له: ما أعددتَ لهذا الموقف؟ قال: ثلاثة حروف، كأنها ركب وقوف: دُنيا، وآخرة، ومعروف.

فقال له الحجاج: بتسما منيتَ به نفسك يا ابنَ القرية، أتراني ممن تحدُّعه بكلامك وخُطبك؟ والله لأنت أقربُ إلى الآخرة من موضع نعلي هذه.

قال: أَقْلِي عَثْرِي، وَأَسْغِي رِيقِي، فإنه لا بد للجواد من كَبْوة، والسيف من نَبْوة، والحليم من صَبْوة.

قال: أنت إلى القبر أقربُ منك إلى العفو، ألسْتَ القائل وأنت تحرض حِزْبَ الشيطان، وعدو الرحمن: تغدُّوا بالحجاج قبل أن يتعشى بكم؟ وقد رُويت هذه اللفظة للغضبان بن القبعثري. ثم قدمه فضرب عنقه.

قال الحرَّيمي لأبي دلف وأخذه من قول ابن القرية: المتقارب:

له كَلِمٌ فِيكَ مَعْقُولَةٌ إِزَاءَ الْقُلُوبِ كَرَكَبٌ وَقُوفٌ

وبعث الحجاجُ إلى عامله بالبصرة: اختر لي عشرة من عندك، فاختار رجالاً فيهم كثير بن أبي كثير، وكان عربياً فصيحاً، فقال كثير: ما أراي أفلتُ من يد الحجاج إلا باللحن، فلما دخلنا عليه دعاني فقال: ما اسمك؟ فقلت: كثير، قال: ابن مَنْ؟ فقلت في نفسي: إن قلت ابن أبي كثير لم آمن أن يتجاوزها، قلت: ابن أبا كثير، فقال: أعزب، لعنك الله ولعن مَنْ بعث معك!!.

فقر في المديح

وقال النابغة الذبياني يمدحُ آل حَفْنة: الطويل:

ولله عينا من رأى أهل قبة أضرب بمن عادى وأكثر نافعاً

وَأَعْظَمَ أَحْلَاماً وَأَكْثَرَ سَيِّدًا
مَتَى تَلَقَّهُمْ لَا تَلْقَ لِلْبَيْتِ عَوْرَةَ
وَأَفْضَلَ مَشْفُوعاً إِلَيْهِ وَشَافِعَا
فَلَا الضَّيْفَ مَمْنُوعاً وَلَا الْجَارُ ضَائِعَا

وأنشد محمد بن سلام الجمحي للنابغة الجعدي: الطويل:

فَتَى كَمَلَتْ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ
جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا
عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا
إِذَا لَمْ يَرُحْ لِلْمَجْدِ أَصْبَحْ
أَشْمَ طَوِيلِ السَّاعِدِينَ شَمَرْدَلْ
غَادِيَا

ومن حُرِّ المدح وجيّد الشعر قول الحطيئة: الطويل :

تَزُورُ امْرَأً يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ
يَرَى الْبَخْلَ لَا يُبْقِي عَلَى الْمَرْءِ مَالَهُ
وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَحَامِدِ يُحْمَدِ
كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ
وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مَخْلَدِ
مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
تَهَلَّلْ وَاهْتَزَّ اهْتَزَّازَ الْمَهْدِ
تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ
وَسَمِعَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، هَذَا الْبَيْتَ فَقَالَ: ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَقَوْلُهُ: الطَّوِيلُ:

يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنْاتُهَا
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَاً لِأَبْيَكُمُ
مِنْ اللُّومِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا
وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُواهَا وَلَا كَدُّوا
بَنَى لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدُّ
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَكَاشِفُ لِلدَّجَى
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ
وَتَعَذَّلَنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ

وقال منصور النمرى: الطويل:

تَرَى الْخَيْلَ يَوْمَ الْحَرْبِ يَظْمَأْنَ تَحْتَهُ
حَالِلٌ لِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَحْرُهُ
وَيَرَوَى الْقَنَا فِي كَفِّهِ وَالْمَنَاصِلُ
حَرَامٌ عَلَيْهَا مِنْهُ مَتْنٌ وَكَاهِلُ

وقال آخر: الطويل:

فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فِيمَا يَنْوِبُهُ
قَفِي بِأَسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرُ

فلا من بُغَاة الخير في عينه قذى ولا من زئير الحرب في أذنه وقر

الشارب

وقال بعض الظرفاء: الشارب أول الخراب، ومفتاح كل باب، يَمَحَقُ الأموال، ويُذهِبُ الجمال، وَيَهْدِمُ المروءة، وَيُوهِنُ القوة، وَيَضَعُ الشريف، وَيُهِنُ الظريف، وَيُذِلُّ العزيز، ويفلس التجار، وَيَهْتِكُ الأستار، ويورث الشنار.

وقال يزيد بن محمد المهلي: الطويل:

لعمرك ما يُحْصَى على الكأس شرُّها
مراراً تُريك الغيَّ رشداً، وتارةً
وإن كان فيها لذة ورخاء
تخيّل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الودّ مبغضٌ
وأن مديح المادحين هجاء

وجربت إخوان النبيذ فقلما
يدوم لإخوان النبيذ إخاء

التطفيل

عوتب طفيلي على التطفيل فقال: والله ما بُنيت المنازل إلا لتُدْخَلَ، ولا نصبت الموائد إلا لتُؤْكَلَ، وإني لأجمع فيها خللاً؛ أدخل مُجَالِساً، وأقعد مؤانساً، وأنبسط وإن كان ربُّ الدار عابساً؛ ولا أتكلّف مَعْرَماً، ولا أنفق درهماً، ولا أتعب خادماً.

وقال ابن الدراج الطفيلي لأصحابه: لا يهولتكم إغلاقُ الباب، ولا شدةُ الحِجاب، وسوءُ الجواب، وعبوسُ البواب، ولا تحذيرُ الغراب، ولا منابذةُ الألقاب؛ فإنَّ ذلك صائرٌ بكم إلى محمول النوال، ومُغْنٍ لكم عن ذلِّ السؤال، واحتملوا اللَّكْزَةَ المُوَهِّنة، واللَّطْمَةَ المزمّنة، في جنب الظفر بالْبُعْغَةِ؟ والدرك للأمنية، والزمو الطَوَزَجَةَ للمعاشرين، والخِفَّةَ للواردين والصادرين، والتملّق للمُلهين والمطربين، والبشاشة للخادمين والموكلين؛ فإذا وصلتكم إلى مُرَادكم فكلُّوا محتكرين، وادّخروا لغوكم مجتهدين؛ فإنكم أحقّ بالطعام ممن دعي إليه، وأولى به ممن وُضع له، فكونوا لوقته حافظين، وفي طلبه مُشَمِّرين، واذكروا قول أبي نواس: الطويل:

لنخمس مالَ الله من كلِّ فاجر
وفي بطنَةِ اللطيفاتِ أَكُولِ

هذا يقوله أبو بواس في أبيات تُسْتَنْدَرُ كلُّها، ويستظرف جلُّها، وهي

وخيمة ناطور برأس منيفة
إذا عارضتها الشمس فاعت ظلها
حططنا بها الأثقال فل هجيرة
تأنت قليلاً ثم فاعت بمذقة
كأننا لديها بين عطي نعمة
حلبت لأصحابي بها درة الصبا
إذا ما أتت دون اللهة من الفتى
فلما توافى الليل جناحاً من الدجى
وأعطيت من أهوى الحديث كما بدا
فغنى وقد وسدت يسراي خده
فأنزلت حاجاتي بحقوي مُساعدي
فأصبحت ألحى السكر والسكر محسن
كفى حزناً أن الجواد مقتراً
سأبغي الغنى إما وزير خليفة
بكل فتى لا يستطار فؤاده
لنخمس مال الله من كل فاجر
ألم تر أن المال عون على النقي

تَهُمُّ يَدَا مَنْ رَامَهَا بِزَلِيلٍ
وإن واجهتها آذنت بدخول
عبورية تذكى بغير فتيل
من الظل في رث الإناء ضئيل
جفازورها عن مبرك ومقيل
بصفراء من ماء الكروم شمول
دعا همته من صدره برحيل
تصابيت واستجملت غير جميل
وذلللت صعباً كان غير ذلول
إلا ربما طالبت غير منيل
وإن كان أدنى صاحب، و خليل
إلا رب إحسان عليك ثقل
عليه، ولا معروف عند بخل
يقوم سواء أو مخيف سبيل
إذا نوه الزحفان باسم قتيل
وذي بطنة للطيبات أكل
وليس جواد مُعَدِّم كبحيل

ألفاظ لأهل العصر

في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم

شيطان معدته رَجِيم، وسلطانها ظلوم. هو آكل من النار، وأشرب من الرمل. لو أكل الفيل ما كفاه، ولو شرب النيل ما أرواه، يجوب البلاد، حتى يقع على جفنة جواد. يرى ركوب البريد، في حضور الثريد أصابعه ألزم للشواء، من سقود الشواء وأنامله كالشبكة، في صيد السمكة. هو أجوع من ذئب مُعْتَس بين أعاريب. العيون قد تقلبت، والأكباد قد تلهبت، والأفواه قد تحلبت. امتدت إلى الخوان الأعناق، واحتدت نحوه الأحداق، وتحلبت له الأشداق.

وصف طائر

سأل المهدي صباح بن خاقان عن طائر له جاء من آفاق الغابة فقال: يا أمير المؤمنين، لو لم يَبْنُ بحسن الصفة لَبَانَ بحسن الصورة. قال: صِفْه لي. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قَدْ قَدَّ الْجَلَمُ، وَقَوْمٌ يَقْوِمُ الْقَلَمَ، يَنْظُرُ مِنْ جَمْرَتَيْنِ، وَيَلْفِظُ بَدْرَتَيْنِ، وَيَمْشِي عَلَى عَقِيقَتَيْنِ، تَكْفِيهِ الْحَبَّةُ، وَثُرْوِيهِ الْعُبَّةُ، إِنْ كَانَ فِي قَفْصِ فَلَقِهِ، أَوْ تَحْتَ ثَوْبٍ خَرَقِهِ، إِذَا أَقْبَلَ فَدَيْتَاهُ، وَإِذَا أَدْبَرَ حَمِينَاهُ.

من أخبار المهدي: ودخل عبد الله بن مصعب الزبيري على المهدي، فقال: ويحك ب زبيري؛ دخلتُ على الخيزران، فلمَّا قامت لِتُصَلِّحَ مِنْ شَأْنِهَا نظرت إلى حُسْنَةِ! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أدركك في ذلك ما أدرك المخزومي حيث قال: الخفيف: بينما نحنُ بِالْبَلَاكِثِ بِالْقَاعِ سِرَاعاً وَالْعِيسُ تَهْوِي هَوِيّاً

خَطَرْتُ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذَلِكَ رَاكِ وَهْنًا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيّاً

قُلْتُ: لَبَّيْكَ إِذْ دَعَانِي لَكَ الشَّوْ قُ وَلِلْحَادِيَيْنِ: كُرّاً الْمُطِيّاً

فأمر فرفعت الستور عن حُسْنَةِ.

ثم قال لي: يا زبيري، واسوأته من الخيزران! ثم انثنى راجعاً إليها فقلت: يا أمير المؤمنين، أدركك في هذا ما أدرك جميلاً حيث يقول: الطويل:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ شَغْباً إِلَى بَدَأِ إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِلَادٍ سِوَاهُمَا

حَلَلْتُ بِهِذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً بِهَذَا فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا

فدخل على الخيزران، فما لبث أن خرج، قال الزبيري: فدخلت، فقال: أنشدني فأنشدته لصخر بن الجعد: الطويل:

هَنِيئاً لِكَأْسِ جَذَّهَا الْحِيلَ بَعْدَمَا عَقَدْنَا لِكَأْسِ مَوْتِئاً لَا نَخُونَهَا

وإِشْمَاتُهَا الْأَعْدَاءَ لَمَّا تَأَلَّبُوا حَوَالِيَّ وَاشْتَدَّتْ عَلَيَّ ضَغُونَهَا

فَإِنْ تَصْبِحِي وَكَلَّتْ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ وَأَشْمَتْ أَعْدَائِي فَفَرَّتْ عِيُونَهَا

فَإِنْ حَرَاماً أَنْ أَخُونَكَ مَا دَعَا بِيْلِيلُ فَمُرِّي الْحَمَامَ وَجُؤْنَهَا

وَمَا طَرَدَ اللَّيْلُ النَّهَارَ، وَمَا دَعَتْ عَلَى فَنَنْ وَرَقَاءَ شَاكٍ رَيْنِيهَا

فأمر لي على كل بيت بألف دينار، وكانت الخيزران وحسنة أحظي النساء عند المهدي.

وصف الغلام

ووصف اليوسفي غلاماً فقال: كان يعرفُ المراد بالَّلَحْظ، كما يعرفه بالَّلَفْظ، ويُعَايِنُ في الناظر، ما يجري في الخاطر، أقرب إلى داعيه، من يد مُعَاطِيهِ؛ حديدُ الذهن، ثاقبُ الفهم، خفيفُ الجسم، يُغْنِيكَ عن الملامة، ولا يحوجك إلى الاستزادة.

وقال أبو نواس: الطويل:

وَمُنْتَظَرٍ رَجَعَ الْحَدِيثَ بِطَرَفِهِ إِذَا مَا انْتَشَى مِنْ لَيْنِهِ فَصَحَّ الْغُصْنَا
إِذَا جَعَلَ اللَّحْظَ الْخَفِيَّ كَلَامَهُ جَعَلَتْ لَهُ عَيْنِي لِنْفَهُمْ أُذُنَا

وقال: الطويل:

وَإِنِّي لَطَرَفٍ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ زَاجِرٍ فَقَدْ كَدْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ ضَمِيرُ

وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه من قال: المتقارب:

بَلَوْتُ أَخْلَاءَ هَذَا الزَّمَانِ فَأَقْلَلْتُ بِالْهَجْرِ مِنْهُمْ نَصِيبي
وَكُلُّهُمْ إِنْ تَصَفَحْتَهُ صَدِيقُ الْعِيَانِ عَدُوُّ الْمَغِيبِ
تَفَقَّدَ مَسَاقِطَ لَحْظِ الْمَرِيبِ فَإِنَّ الْعُيُونَ وَجوهُ الْقُلُوبِ

وهو كقول المهدي: الطويل:

وَمَطَّلَعٌ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَسْرُهُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْظِ الْخَفِيِّ دَلِيلُ
إِذَا الْقَلْبُ لَمْ يُبْدِ الَّذِي فِي ضَمِيرِهِ فَفِي اللَّحْظِ وَالْأَلْفَاظِ مِنْهُ رَسُولُ

بين خالد بن صفوان وعلي بن الجهم

ودخل خالد بن صفوان على علي بن الجهم بن أبي حذيفة، فألفاه يريد الركوب، فقرب إليه حمار ليركبه، فقال خالد: أما علمت أن العير عار، والحمار شنار، منكّر الصوت، قبيح القوت، متزلج في الضحل، مرتطم في الوحل، ليس بركوبه فحل، ولا بمطية رَحْل، راكبه مقرف، ومسايره مُشرف.

فاستوحش ابن أبي حذيفة من ركوب الحمار ونزل عنه، وركب فرساً ودفع الحمار إلى خالد فركبه، فقال له: ويحك يا خالد! أتنتهي عن شيء وتأتي مثله؟ فقال: أصلحك الله! عير من بنات الكربال، واضح السربال، مختلج القوائم، يحمل الرَّجْلَةَ، ويبلغ العقبة، ويمنعني أن أكون جباراً عنيداً، إن لم أعترف بمكاني فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين.

تنقل الزمان

قال ابن دأب: خرجت مع بعض الأمراء في سفر إلى الشام، فمرَّ بي رجل كنت أعرفه حسن الحال من أصحاب الأموال الظاهرة في حال رثّة، فسلم عليّ فقلت: ما الذي غيّر حالك. فقال: تنقل الزمان، وكثر الحداث؛ فأثرت الضرب في البلدان، والبعد عن المعارف والحلّان، وقد كان الأمير الذي أنت معه صديقاً لي فاحترت البعد من الأشكال، حين حصّني الإقلال، واستعملت قول الشاعر: الطويل:

سأعمل نصّ العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحداث
فللموت خير من حياة يرى لها على المرء في العلياء مس هوان
متى يتكلم بلغ حكم كلامه وإن لم يقل قالوا عديم بيان
كان الفتى في أهله بورك الفتى بغير لسان ناطق بلسان

قال ابن دأب: فلما اجتمعت مع الأمير في المنزل وصفت له الرجل، فقال لي: ويحك! اطلبه حتى أصلح من حاله، فطلبته فأعوزني.

باب الرثاء

وقال أبو الشيص يرثي قتيلاً: الخفيف:

خَلَّتْهُ الْمَنُونُ بَعْدَ اخْتِيَالٍ بَيْنَ صَفَيْنِ مِنْ قَنَاءٍ وَنِصَالٍ
في رداء من الصقيح صقيل وقميص من الحديد مذل

وقال حارثة بن بدر الغداني يرثي زياداً: البسيط:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى قَبْرِ وَطْهَرَهُ عِنْدَ الثَّوْبَةِ يُسْقَى فَوْقَهُ الْمَوْرُ
تهدي إليه قريش نعش سيدها فثم حلّ الندى والعزّ والخيرُ
أبا المغيرة، والدنيا مفجعة وإنّ من غرّت الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف عارفةً وكان عندك للنكراء تنكيرُ
وكنْتَ تُغْشَى فَتُعْطَى الْمَالُ مِنْ سَعَةٍ فالآن بائبك أمسى وهو مهجور
ولا تلين إذا عوشرت معتسراً وكان أمرك ما يؤسرت ميسورُ
لم يعرف الناس مذ غيبت فتيتهم ولم يجلّ ظلاماً عنهم نور
فالناس بعدك قد خفت حلومهم كأنما نفخت فيها الأعاصيرُ

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة في أخيه كليب، وكان إذا انتدى لم تحلَّ حَبَوته، ولم ينطق أحد إلا مجيئاً له، إجلالاً ومهابة: الكامل:

وَأَسْتَبَّ بِعَدِكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ

أَنْبَتَتْ أَنَّ النَّارَ بِعَدِكَ أَوْقَدَتْ

لَوْ كُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبَسُوا

وَتَحَدَّثُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ

وكان حارثة ذا بيان وجّهارة وأدب، وكان شاعراً عالماً بالأخبار والأنساب، وكان قد غلب على زياد، وكان حارثة منهوماً في الشراب، فعُوتب زياد في الاستئثار به، فقال: كيف أطرح رجلاً يُسايِرني مذ دخلت العراق، ولم يصككُ ركابه ركابي، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا أخذ عليّ الشمس في شتاء قطّ، ولا الرّوح في صيف، ولا سألتَه عن باب في العلم إلا قدّرت أنه لا يحسن غيره.

وقال له زياد: من أخطب؟ أنا أم أنت؟ فقال: الأمير أخطب إذا تَوَعَّد أو وعد، وبرق ورعد، وأنا أخطبُ في الوفاة، والثناء، والتحبير، وأنا أكذب إذا خطبت، وأحشو كلامي بزيادات مليحة، شهية، والأمير يقصد إلى الحقّ، وميزان العدل، ولا يزيد في كلامه، ولا ينقص منه. فقال له زياد: قاتلك الله، لقد أجدتَ تخليص صفتي وصفتك.

ولما مات زياد جفاه عبيدُ الله ابنه، فقال له حارثة: أيها الأمير، ما هذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبي المغيرة؟ فقال له عبيد الله: إن أبا المغيرة بلغ مبلغاً لا يلحقه فيه عيب، وأنا أنسب إلى من يغلب عليّ، وأنت تُدسّم الشراب، وأنا حديث السنّ؛ فمتى قرّبتك فظهرت منك رائحة الشراب لم آمن أن يُظنّ بي ذلك، فدع الشراب وكُنْ أول داخل وآخر خارج. فقال له حارثة: أنا لا أدعه لمن يملك ضربي ونفعي، أَدَعُهُ للحال عندك؟ ولكن صرّفتني في بعض أعمالك. فولّاه سُرّق من بلاد الأهواز.

وقال أبو الأسود الدؤلي، وكان صديقاً لحارثة: الطويل:

فَكُنْ جُرْذًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ

أَحَارِ بْنِ بَدْرِ، قَدْ وَلَيْتَ وَلَايَةً

فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقِينَ سُرْقُ

وَلَا تَدْعَنْ لِلنَّاسِ شَيْئًا تَصِيْبُهُ

يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمًّا مُصَدِّقُ

فَمَا النَّاسُ إِلَّا قَائِلٌ فَمَكْذُوبُ

فَإِنْ قِيلَ هَاتُوا حَقَّقُوا لَمْ يَحَقِّقُوا

يَقُولُونَ أَقْوَالًا بَظُنٍّ وَتَهْمَةٍ

فقال له حارثة: الطويل:

جزاك إله العرش خيرَ جزائه
أمرت بشيء لو أمرت بغيره
فقد قلت معروفاً وأوصيت كافياً
لألفيتني فيه لأمرِك عاصياً

وصف امرأة

قال الأصمعي: سمعت امرأة من العرب تصفُ امرأةً وهي تقول: سَطَعَاءَ بَضَّةٌ، بِيضَاءَ غَضَّةٌ، عَرْمَاءَ رَخْصَةٍ، قَبَاءَ طَفْلَةٍ، تنظر بعيني شادنَ ظَمَانٍ، وتبسم عن مُنَوَّرِ الأفحوان، في غبِّ التَّهْتَانِ، وتشير بأساريع الكُتْبَانِ، خلقتها عميم، وكَلَامُهَا رَخِيم، فهي كما قال الشاعر: الرجز:

كأنها في القميصِ الرقاق
أعجلها الشاوي عن الإحراق
مُخَّةٌ ساق بين كَفَيٍّ ساقٍ

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال: هي زينة في الحضور، وباب من أبواب السُرور، ولذكرها في المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب، وبها عرفت فضل الحور العين، واشتقت بها إليهن يوم الدين.

عود إلى كلام الأعراب

وسئل أعرابي عن سفر أكدي فيه، فقال: ما غنمنا إلا ما قَصَرْنَا من صلاتنا، فأما ما أكلته منا الهواجر، ولقيته منا الأباغر، فأمر استخففتنا، لما أملنا.

وقال عبد قيس بن خُفَاف البرجمي لحاتم الطائي، وقد وفد عليه في دماء حملها، قام ببعضها وعجز عن بعض: إني حملت دماء عَوَلْتُ فيها على مالي وآمالي، فأما مالي فقدَّمته، وكنت أكبر آمالي، فإن تحمَّلها فكم من حقِّ قضيت، وهمَّ كفيت، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك، ولم آيس من غدك.

وقيل لأعرابي: لم لا تُضْرِبُ في البلاد؟ فقال: يمنعني من ذلك طفل بارك، ولِصِّ سافك، ثم إني لست مع ذلك واثقاً بِنُجْحِ طَلْبِي، ولا معتقداً بقضاء حاجتي، ولا راجياً عطف قرابي؛ لأني أقدم على قوم أطعاهم الشيطان، واستمالهم السلطان، وساعدهم الزَّمان، وأسكرتهم حداثة الأسنان.

وخرج المهدي بعد هدأة من الليل يطوفُ بالبيت، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول: قوم متظلمون، نَبَتْ عنهم العيون، وفدحتهم الدُّيون؛ وعَضَّتْهم السنون، بادَ رجالهم، وذَهَبت أموالهم، وكثر عِيالهم، أبناءُ سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله، ووصية رسول الله، فهل أمرٌ بخير، كالأه الله في سفره، وخلفه في أهله.

فأمر نصرًا الخادم، فدفع إليها خمسمائة درهم.

من إنشاء بديع الزمان

ومن إنشاء البديع في مقامات أبي الفتح الإسكندري: حدثني عيسى بن هشام قال: كنت ببغداد، في وقت الأزاد؛ فخرجتُ إلى السوق أعتامُ من أنواعه، لابتياعه، فسرتُ غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواع الفواكه وصفّفها، وجمع أنواع الرطب وصفّفها؛ فقبضتُ من كل شيء أحسنه، وقرضتُ من كل نوع أجوده؛ وحين جمعت حواشي الإزار على تلك الأوزار، أخذتُ عيناَيَ رجلاً قد لفَّ رأسه ببرقع، وحياء، ونصب جسده، وبسط يده؛ واحتضنَ عياله، وتأبَّط أطفاله، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره والحرَضَ في ظهره: لرجز:

ويلي على كَفَيْن من سَوِيْق
أو شَحْمَة تُضْرَبُ بالدقيقِ
أو قصعة تَمْلَأُ من خِرْدِيق
تَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ

نُقيمنا عَن مَنَهَجِ الطريقِ
يا رازِقَ الثروة بعد الضيقِ
سَهْلٌ على كَفٍّ فَتَى لبيبِ
ذِي حَسَبٍ فِي مَجْدِهِ عريقِ
يُهدي إلينا قدم التوفيقِ
يُنْقِذُ عَيْشِي من يد الترنيقِ

قال عيسى بن هشام: فأخذت من فاضل الكيس أحمدةً وأنلته إياها، فقال: الرجز:

يا من حَبَانِي بجميل برّه
أَفْضَى إلى الله بِحُسْنِ سرّه
وَأَسْتَحْفِظُ الله جميل ستره
إن كان لا طاقةَ لي بشكره
فَاللهُ رَبِّي من وراء أمره

قال عيسى بن هشام: فقلت: إنَّ في الكيس فَضْلاً، فَأَبْرُزْ لي عن باطنك أخرج لك عن آخره، فأماط لثامه، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: ويحك! أي داهية أنت. فقال: مجزوء الوافر:

نُقْضِي العمر تشبيهاً
على الناس وتمويهاً
أرى الأيام لا تَبْقَى
عنى حال فأحكيها
فيوماً شَرُّها فيَّ
ويوماً شَرِّتي فيها

من رسائل بديع الزمان

وسأل البديع أبا نصر بن المرزبان - عاريةً - بعضَ ما يتجملُ به، فأمسك عن إجابته؛ فأعاد الكتاب إليه بما نسخته: لا أزالُ - أطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ! - لسوء الانتقاد، وحسن الاعتقاد، أُمسحُ جبينَ الخجل، وأمدُّ يمينَ العَجَل، ولضعف الحاسَّة، في الفِراسة، أحسب الورَمَ شحماً، والسرابَ شراباً، حتى إذا تجشمت موارده، لأشرب بَارده، لم أجدُ شيئاً.

وما حسبت الشيخَ سيدي ممن لعنيه هذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه، ونشرت بالسؤال جُودَه، وكاتبته أستعيره حلية جمال، سحابةً يوم أو شَطْرَه، بل مسافةً ميل أو قَدْرَه، فعَاص في الفِطْنة غوصاً عميقاً، ونظرَ في الكَيْسِ نظراً دقيقاً، وقال: هذا رجل مشحوذ المُدْيَةِ، في أبواب الكُدْيَةِ، قد جعل استعارة الأَعلاق طريقَ افتراسها، وسبب احتباسها، وقد منى ضرره، وحدثَ بالحال نفسه، ولا لطيفة في هذا الباب، أحسن من التغافل عن الجواب، فضلاً عن الإيجاب، وكلاهما في أبواب الردِّ أقبح مما قرع، ولا في شرائع البخل أوحش ممَّا شرع؛ ثم العُذر له من جهتي مبسوط إن بسطه الفضل، ومقبوك إن قبله المجد، وإنما كاتبته لأعيد الحال القديمة، وأشرط له على نفسي أن أريحه من سَوم الحاجات من بعد، فمن لم يَسْتَحْيَ من أعطيني، لم يستحيَ له من أعفني؛ وعلى حسب جوابه أجري المودَّة فيما بعد، فإن رأى أن يجيبَ فعل إن شاء الله.

وله إلى سهل بن محمد بن سليمان: أنا إذا طويت عن خِدْمَةِ مولاي - أطال الله بقاءه - يوماً لم أرفع له بصري، ولم أعدّه من عمري، وكأني بالشيخ - أعزّه الله - إذا أغفلت مفروض خِدْمَتِهِ، من قَصْدِ حضرته، والمثول في حاشيته، وجملة غاشيته، يقول: إن هذا الجائع لَمَّا شَبِعَ تَضَلَّعَ، واكتسى وتلفَّعَ، وتجلَّلَ وتبرَّعَ، وتربَّعَ وترفَّعَ، فما يطوفُ بهذا الجَناب، ولا يَظْهَرُ بهذا الباب؛ وأنا الرجل الذي آواه من قَفَرٍ، وأغناه من قَفَرٍ، وآمنه من خَوْفٍ، إذ لا حرَّ بوالي عَوفٍ؛ حتى إذا وردت عليه رقعتي هذه، وأعارها طَرْفَ كرمه، وظَرْفَ شَيْمِهِ، ونَظَرَ في عنوانها اسْمِي قال: بُعْداً وسحقاً، وسباً وتباً وحتاً ونحتاً، وطُعناً ولعنناً، فما أكذبَ سَرابَ أخلاقه، وأكثرَ أسرابِ نفاقه، فالآن انحَلَّ من عقدته، وانتبه من رَقَدَتِهِ. وكاتبني يستعيدني، كلاً لا أزوِّجُهُ الرِّضَا ولا قِلاَمَةَ، ولا أمنحه المُنَى ولا كرامة، بل أدعُهُ يركب رأسه، ويُقاسي أنفاسَه، فستأتيني به الليالي، والكيس الخالي، ثم أريه ميزانَ قَدْرِهِ، وأذيقَه وبالَ أمرِهِ، حتى إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال: مَارْبَةٌ لا حَفَاوَةَ، ووَطَر سَاقَهُ، لا نِزَاعَ شَاقَهُ، فهذا بذاً، ولا أبعد من تلك الهمم العالية، والأخلاق السامية أن يقول: مرحباً بالرقعة وكاتبها، وأهلاً بالمخاطبة وصاحبها وقضاء الحاجة بإنحائها، وإبرازها، وهي الرقعة التي سألت إلى من التمسته، كما اقترحتة بما طالبتة، فأريه فيه موفق إن شاء الله تعالى.

وله أيضاً إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس بسببه.

الشيخ - أطال الله بقاءه - إذا وصل يدي بيده لم ألمس الجوزاء، إلا قاعداً، وقد ناطها مئة في عُنُق الدهر، وصاغها إكليلاً لجبين الشكر. وما أقصر يدي عن الجزاء، ولساني عن الثناء. وهذا الجاهل قد عرف نفسه، وقلع ضرسه، ورأى ميزان قدره، وذاق وبال أمره، وجhez إليّ كتيبة عجائز عاجزات؛ فأطلقن العويل والأليل، وبعثنني شفيعاً إليّ، واستعنّ بي علي، وتوسّلن بكلمة الاستسلام، ولحمة الإسلام، في فكّ هذا الغلام؛ فإن أحبّ الشيخ أن يجمع في الطول بين الحوض والكوتر، وينظم في الفضل ما بين الروض والمطر، شفع في إطلاقه مكارمه، وشرف بذلك خادمه، وأنجزنا بالإفراج عنه، مُوفّقاً إن شاء الله تعالى.

تسامح المأمون

وقال رجل لإبراهيم بن المهدي: اشفع لي إلى أمير المؤمنين في فكّ أخي من حبسه، وكان محبوباً في عداد العُصاة، فقال للمأمون: ليس للعاصي بعد القدرة عليه ذنب، وليس للمصاب بعد الملك عذر. فقال: صدقت، فما طلبتكَ؟ قال: فلان هبّ لي. قال: هولك. وسأل أبو عبادة أحمد بن أبي خالد أن يطلق له أسارى، ففعل، فقال له: قد فكّنا أسراك. فقال: لا فكّ الله رقاب الأحرار من أياديك!.

ألفاظ لأهل العصر

في التهنئة بالإطلاق من الأسر

الحمد لله حمداً لإخلاص، على حسن الخلاص، الذي أفضى بك من ذلة رق، إلى عزة عتق، ومن تصلية جحيم، إلى جنة نعيم. خرج من العقال، خروج السيف من الصقال. خرج من إساره، خروج البدر من سرائره. الحمد لله الذي فكّ أسراً، وجعل من بعد العسر يسراً. خرج من البلاء، خروج السيف من الجلاء. قد جعل الله لك من مضايق الأمور مخرجاً نجيحاً، ومن مغالق الأهوال مسرّحاً فسيحاً.

باب المديح

مدح أبو نواس الأمين محمداً في أول خلافته بقصيدته التي يقول فيها: البسيط:

صُعِرَ الْأَزِمَّةُ مِنْ مَتْنَى وَوُحْدَانٍ

أَقُولُ وَالْعَيْسُ تَعْرَوْرَى الْفَلَاةَ بِنَا

تَقْبِيلُ رَاحَتِهِ وَالرُّكْنُ سَيَّانٍ

يَا نَاقُ، لَا تَسْأَمِي أَوْ تَبْلُغِي مَلَكاً

ولا دتان من المنصور تثنان

مقابلاً بين أملاك تفضله

تستجمعي الخلق في تمثال إنسان

متى تحطّي إليه الرّحل سالمة

قال الحسن: هذا لأنّ محمداً ولده المنصور مرتين من قبل أن أباه هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، ومن قبل أن أمه أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر، المنصور، وكان المنصور دخل عليها وهي طفلة تلعب، فقال: ما أنت إلا زبيدة، فغلب عليها هذا اللقب، ولم يل الخلافة من أبواه هاشميان غير علي بن أبي طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وابنه الحسن، وأمّه فاطمة بنت النبي، صلى الله عليه وسلم، والأمين محمد بن محمد بن الرشيد.

رجع القول - فلماً أنشده القصيدة قال: ما ينبغي أن يُسمع مدحك بعد قولك في الخصيب بن عبد الحميد: الطويل:

فأَيُّ فتى بَعَدَ الخصيبِ تزورُ؟

إذا لم تَرُزْ أرضَ الخصيبِ ركابنا

وَيَعْلَمُ أَنَّ الدائِرَاتِ تدورُ

فتى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناءِ بماله

ولكنْ يَسِيرُ الجودِ حيثْ يسيرُ

فما فاتته جودٌ، ولا حلَّ دونه

فقال: يا أمير المؤمنين، كلُّ مدح في الخصيب وغيره فمدح فيك؛ لأني أقول، ثم أرتجل: الطويل:

وجاءت لك العلياء مُقْتَبِلَ السَّنِّ

ملكْتَ على طيرِ السعادةِ واليُمنِ

بحسن وإحسان مع اليُمنِ والأمنِ

بمحيا وجود الدين تحيا مهناً

وزادت به الأيامُ حُسناً إلى حُسْنِ

لقد طابت الدنيا بطيبِ ثنائِهِ

وأسكن أهل الخوف في كَنَفِ الأمنِ

لقد فكَّ أرقاب العُفاة محمداً

فأنتَ كما نُنتي وفوق الذي نُنتي

إذا نحنُ أثْنينا عليكِ بصالحِ

لغيرك إنساناً فأنتَ الذي نَعْنِي

وإن جَرَتِ الألفاظُ يوماً بِمدْحِهِ

قال: صدقت، مدحُ عبدي مدحُ لي؛ ووَصَلَهُ وقَرَّبَهُ.

وأما قول أبي نواس:

إذا نحنُ أثْنينا عليكِ بصالحِ

فمن قول الخنساء: الطويل:

وإن أطنبوا إلا الذي فيكَ أَفْضَلُ

فما بلغ المَهْدُونُ للناسِ مِدْحَةً

من المجد إلا والذي نِلْتَ أَطُولُ

وما بلغتُ كَفُّ امرئِ متناولاً

وفد الأخطل على معاوية، فقال: إني قد امتدحْتُك بأبيات فاسمَعْها، فقال: إن كنت شَبَّهْتَنِي بالحَيَّة، أو الأسد، أو الصقر، فلا حاجةَ لي بها، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء، وأنشد البيتين، فقل. فقال الأخطل: والله لقد أَحَسَّنْتَ، وقد قلت فيك بيتين ما هما بدوئهما، ثم أنشد: الطويل:

إِذَا مِتَّ مَاتَ الْعُرْفُ وَانْقَطَعَ النَّدَى فَلَـمْ يَبْقَ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدٍ
وَرُدَّتْ أَكْفُ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا عَنِ الدِّينِ وَالْـدُنْيَا بِحُزْنٍ مُجَدِّدٍ

وقول أبي نواس:

وَإِنْ جَرَتْ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ مِنْ قَوْلِ كَثِيرٍ فِي عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مِرْوَانَ: الطويل:
مَتَى مَا أَقْلُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ مِدْحَةً فَمَا هِيَ إِلَّا لِابْنِ لَيْلَى الْمَعْظَمِ
وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ: الطويل:

وَمَا أَمَرْتَنِي النَّفْسَ فِي رِحْلَةٍ لَهَا إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِلَيْكَ ضَمِيرُهَا
وَلَمَّا أَنْشَدَ أَبُو تَمَامٍ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ قَصِيدَتَهُ: الوافر:
سَقَى عَهْدَ الْحَمَى صَوْبُ الْعِهَادِ وَانْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ إِلَّا وَمِنْ جَدِّوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي
مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي وَإِنْ قَلَقْتُ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ
قَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ: هَذَا الْمَعْنَى لَكَ أَوْ أَخَذْتَهُ؟ قَالَ: هُوَ لِي، وَقَدْ أَلَمْتُ فِيهِ بِقَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ:
وَإِنْ جَرَتْ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي
وَأَخَذَهُ الْمُتَنَبِّي فَقَالَ: الْوَافِرُ:

أَشْرَتْ أَبَا الْحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ نَزَلْتُ بِهِمْ فَرَحْتُ بِغَيْرِ زَادٍ
وِظَنُّونِي مَدَحَهُمْ قَدِيمًا وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتَهُمْ مُرَادِي
وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ: وَمَا سَافَرْتُ فِي الْآفَاقِ - الْبَيْتُ فَمِنْ قَوْلِ الْمُثَقَّبِ الْعَبْدِيِّ، وَذَكَرَ نَاقَتَهُ: الْوَافِرُ:
إِلَى عَمْرٍو بْنِ حَمْدَانَ أَبِينِي أَخِي النَّجْدَاتِ وَالْمَجْدِ الرَّصِينِ
وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ:

فَمَا فَاتَهُ جُودٌ وَلَا حَلٌّ دُونَهُ

البيت، فمن قول الشمر دل بن شريك اليربوعي: البسيط:

ما قَصَرَ المَجْدُ عَنْكُمْ يا بَنِي حَكَمٍ
ولا تَجَاوِزُكُمْ يا آلَ مَسْعُودٍ
يَحِلُّ حَيْثُ حَلَلْتُمْ لا يَرِيكُمْ
ما عاقَبَ الذَّهْرَ بَيْنَ البَيْضِ والسُّودِ
إن يَشْهَدُوا يَوجِدُ المَعْرُوفَ عِنْدَهُمْ
خِذْنًا وَلَيْسَ إِذَا غَابُوا بِمَوْجُودٍ
وقد قال الكميّ الأسلمي: المتقارب:

يسير أبان قريع السما
ح والمكرمات معاً حيث ساراً
وقول أبي نواس أيضاً:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّناء بِماله
مأخوذ من قول الراعي: الطويل:

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّناء بِماله
إذا ما اشترى المَخْزاةَ بِالمَجْدِ بَيْهَسُ

بين السفاح وأبي نخيلة

دخل أبو نُخَيْلَة على أبي العباس السفاح، فاستأذنه في الإنشاد، فقال: لعنك الله! ألسنت القائل لمسلمة بن عبد الملك: الطويل:

أَمْسَلَمَةُ يا نَجْلَ خَيْرِ خَلِيفَةٍ
ويا فارس الهَيْجَا ويا جِبِلَّ الأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إن الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التَّقَى
وما كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
وَأَقْبَيْتَ لَمَّا أَنْ أَتَيْتَكَ زائِراً
عليَّ لِحافاً سابِغَ الطَّوْلِ والعَرْضِ
ونَبَهْتَ مَنْ ذَكَرَى وما كان خاملاً
ولكن بعض، الذكر أنبأ من بعض

ثم أمره بأن ينشد، فأنشده أرجوزة يقول فيها: الرجز:

كنا أناساً نرهبُ الهَلَاكَ
ونركب الأعْجَازَ والأوراك
وكلُّ ما قد مرَّ في سواكا
زُورٌ، وقد كَفَرَ هذا ذاكا

واسم أبي نخيلة الجنيد بن الجون، وهو مولى لبني حماد، كان مقصداً راجزاً.
قيل للخنساء: لئن مدحت أخاك لقد هجوت أباك! فقالت: الكامل:

جارى أباه فأقبلاً وهما
يتعاوران ملاءة الحُضُرِ
حتى إذا جدَّ الجراء وقدَّ
ساوى هناك القدر بالقدر

وعلاً صياح الناس: أيهما؟

قال المجيب هناك: لا أندري

برقت صحيفةً وجّه والدّه

ومضى على غلوائه يجري

أولى فأولى أن يُساوِيه

لولا جلال السنّ والكبر

وهما كأنهما وقد برّزا

صقرانٍ قد حطّأ على وكر

وقيل لأبي عبيدة: ليس هذا في شعر الخنساء. فقال: العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل هذا. وقد أحسن البحري في نحو هذا؛ إذ يقول في يوسف بن أبي سعيد، ومحمد بن يوسف الطائي: الكامل:

جدُّ كجدِّ أبي سعيدٍ إنّه

ترك السّمّاك كأنه لم يشرف

قاسمته أخلاقه وهي الرّدى

للمعتدي وهي الندى للمعتقى

وإذا جرى في غايةٍ وجريت في

أخرى التقى شأوا كما في المنصف

قول الخنساء:

يتعاوران ملاءة الحُضر

أبرع استعارة، وأنصع عبارة؛ وقد قال عدي بن الرقاع: الكامل:

يتعاوران من الغُبار ملاءةً

غبراء محكمة هما نسجاها

تطوى إذا وردا مكاناً جاسياً

فإذا السنا بك أسهلت نشرها

وإلى هذا أشار الطائي في قوله: الوافر:

تُثيرُ عَجَاجَةً في كل ثغرٍ

يهيمُ بها عديُّ بنُ الرّقاعِ

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر جاهلي من بني عقيل فقال: الطويل:

ألا يا ديارَ الحيّ بالسَّبْعانِ

عَفَتَ حَجْجاً بعدي وهنّ ثمان

فلم يبق منها غيرُ نُويٍ مُهَدَّمٍ

وغيرُ أثافٍ كالرُّكِيِّ رِعَانِ

وآياتُ هابٍ أورقِ اللونِ سافرتْ

به الريحُ والأمطارُ كلَّ مكانِ

قفارٌ مروّاةٌ تحارُ بها القطا

وتمسي بها الجابان تقتربان

يثيران من نسج الغبار عليهما

قميصين أسمالاً ويرتديان

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى

وغيرهما من النساء:

قال أبو العباس أحمد بن يحيى النحوي: أنشد أبو السائب المخزومي قول الخنساء: البسيط:

وإنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةُ بِهِ
وإنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةُ بِهِ
كأنه علّم في رأسه نارُ

فقال: الطلاق لي لازم إن لم تكن قالت هذا وهي تبختر في مشيها، وتنظر في عطفها.

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولها ترثي أحاها صخرًا: البسيط:

أذهب فلا يبعدنك الله من رجل
قد كنت فينا صريحاً غير مؤتشب
منّاع ضيمٍ وطلّابٍ لأوتارٍ
فسوف أبكيك ما ناحَتْ مُطَوِّقَةٌ
مركباً في نصابٍ غير خوّارٍ
أبكي فتى الحيّ نالته منيته
وما أضاعت نجومُ الليلِ للساري
وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ بمقدارٍ

وقولها تعنيه: البسيط:

شهد أنجبة شدّاد أوهية
سُمّ العُدّة وفكّاك العُناة إذا
قطّاع أودية للوترِ طلابا
يهدّي الرّعيلَ إذا جار السبيلُ بهم
لاقى الوغى لم يكن للموت هيبا
نهّد التليل لزُرْقِ الشُمُرِ ركابا

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عُصيّة بن خُفاف بن امرئ القيس، وتكنى أم عمرو، ومصدق ذلك قول أخيها صخر: الطويل:

أرى أم عمرو لا تملُّ عيادتي
وملّت سليمى مضجعي ومكاني

سليمى: امرأته، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية، وكذلك تسميتهم الذلفاء.

والذلف: قصر في الأنف؛ وإنما يريدون به أيضاً أن ذلك من صفات الظباء، وهي أشعر نساء العرب عند كثير من الرواة؛ وكان الأصمعي يقدم ليلي الأخيلية، وهي ليلي بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرحالة بن معاوية بن عباد بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقيل لها الأخيلية لقول جدّها كعب: الكامل:

نحن الأخاييل ما يزّالُ غلامنا
حتى يدبّ على العصا مذكورا

قال أبو زيد: هذا البيت لها فسُميت به، ويلي أغزر بجرّاً، وأكثر تصرّفاً، وأقوى لفظاً؛ والخنساء أذهب في عمود الرثاء.

قال المبرد: كانت الخنساء وليلى الأخيلية في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلما رأيت امرأة تتقدم في صناعة، وإن قل ذلك، فالجملة ما قال الله تعالى: "أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". ومن أحسن المراثي ما خلط فيه مدحٌ بتفجعٍ على المراثي، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة معربة، ونظام غير متفاوت، فهو الغاية من كلام المخلوقين. واعلم أن من أجل الكلام قول الخنساء: البسيط:

يا صخرُ ورّاد ماءٍ قد تناذرَه
مَشْيَ السَّبْتَتَى إِلَى هَيْجَاءِ مُعْضَلَةٍ
وما عجولٌ على بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ
ترتع في غفلة حتى إذا اذْكَرَتْ
يوماً بأَوْجَعِ مني حين فارقتني
لم ترَه جارةٌ يَمْشِي بِسَاحَتِهَا
قال: ومن كامل قولها: الوافر:

فلولا كثرة الباكين حولي
وما ييكون مثل أخي، وَلَكِنْ
يذكرني طلوع الشمسِ صَخْرًا
يعني أنها تذكره أول النهار للغارة، ووقت المغيب للأضياف.
وقد قال ابن الرومي فيما يتعلّق بطرف من هذا المعنى: الوافر:

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَجْرَحُ ثُمَّ يَأْسُو
أَبَتْ نَفْسِي الْهَلَاعَ لِرُزْءٍ شَيْءٍ
أَتَجَزَعُ وَحْشَةً لِفِرَاقِ الْإِلْفِ
وقد أنكر على من تعلّل بالتأسي بما قال غيره، فقال في ذلك: الطويل:

خَلِيلِي قَدْ عَلَّلْتُمَانِي بِالْأَسَى
الْأَنَاسِ آثَارِي، وَإِلَّا فَمَا الْأَسَى
وما راحة المرزوء في رُزْءٍ غيرِه
فَأَنَعَمْتُ لَوْ أَنَّنِي أَتَعَلَّلُ
وَعِيشُكُمَا إِلَّا ضَلَالٌ مُضَلَّلُ
أَيَحْمِلُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَتَحَمَّلُ

وليس معينا مُثَقِّلَ الظهرِ مُثَقِّلُ
تعزيك بالمرزوء حين تأمل
بلا بَصَرَ لو أن جوركَ يَعْدِلُ

كَلَامِيَّ عِبَاءَ الرزِيَّةِ مُثَقِّلُ
وضربٌ من الظلم الخفي مكانه
لأنك يأسوك الذي هو كلمه

وقالت الخنساء: الطويل:

لتدركه: يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى صَخْرٍ
إلى القبر! ماذا يَحْمِلُونَ إلى القبر؟!
من الجود يا بُؤْسَ الحوادثِ والدهر
لتغدو على الْفَتَيَانِ بعدك أو تَسْرِي

وقائلةٍ والنعش قد فات خطوها
ألا تكلتُ أمُّ الذين غَدَوْا بهِ
وماذا يُؤَارِي القبرُ تحت ترابهِ
فشأنُ المنايا إذا أصابكَ رَبُّهَا

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة، ولم تزل الخنساء تبكي على أخويها صخر ومعاوية، حتى أدركت الإسلام؛ فأقبل بها بنو عمّها وهي عجوز كبيرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذه الخنساء، وقد قرّحت آماقها من البكاء في الجاهلية والإسلام، فلو نهيتها لرجونا أن تنتهي، فقال لها عمر رضي الله عنه: اتقي الله وأيقني بالموت، قالت: أبكي أبي وخير بني مضر صخرًا ومعاوية، وإني لموقنة بالموت، قال: أتبكين عليهم وقد صاروا جمرّة في النار؟ قالت: ذلك أشدّ لبكائي عليهم! فرق لها عمر وقال: خلّوا عن عجوزكم لا أبا لكم! فكل امرئ يبكي شجوه، ونام الخليلي عن بكاء الشجي.

وكان عمرو بن الشريد يأخذ بيد ابنه معاوية وصخر في الموسم، ويقول: أنا أبو خيرى مضر، فمن أنكر فليغيّر، فلا يغير ذلك عليه أحد، وكان يقول: من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه، فتقرّ له العرب بذلك.

وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سليم، وفي سليم شرف كثير".

وكان يقال لمعاوية: فارس الجوّن، والجوّن من الأضداد، يقال للأسود والأبيض، وقتلته بنو مرة، قتله هاشم بن حرّملة، فطلبه دُرَيْد بن الصّمة حتى قتله، وأما صخر فغزا أسد بن خزيمه فأصاب فيهم، وطعنه ثور بن ربيعة الأسدي، فأدخل في جوفه حلقاً من الدرع فاندمل عليه، فنتأت قطعة من جنبه مثل اليد، فمرض لها حولاً، ثم أشير عليه بقطعها، فأحموا له شفرة ثم قطعوها، فما عاش إلا قليلاً.

ومن جيد شعر ليلى الأحيلىة ترثي توبة بن الحمير الحفاجي، وكان لها محباً، وله فيها شعرٌ كثير، وقتله بنو عوف بن عقيل، قتله عبد الله بن سالم: الطويل:

نظرتُ ورُكُنٌ من عَمَايَةِ دوننا	وأركان جسمي أي نظرة ناظرٍ
فأنست خيلاً بالرُّقْيِ مُغِيرَةً	سَوَاقُهَا مِثْلُ الْقَطَا المِتْوَاتِرِ
فإن تَكُنِ الْقَتْلَى بَوَاءً فَإِنكُمْ	فتى ما قَتَلْتُمْ آلَ عَوْفٍ بن عامرٍ
فلا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ يَا تَوْبَ إِنَّمَا	لِقَاءُ المَنَايَا دَارِعاً مِثْلَ حَاسِرِ
أَتَتْهُ المَنَايَا بَيْنَ دِرْعِ حَصِينَةٍ	وَأَسْمَرَ خَطِيٍّ وَجَرْدَاءِ ضَامِرِ
كَأَنَّ فَتَى الْفَتَيَانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنْخَ	قَلَائِصُ يَفْحَصُنَ الْحَصَى بِالكَرَاكِرِ
وَلَمْ يُدْعَ يَوْمًا لِلْحِفَاطِ وَلِلنُّهَى	وَلِلْحَرْبِ تَرْمِي نَارُهَا بِالشَّرَائِرِ
وَلِلْبَازِلِ الْكَوْمَاءِ يَرْغُو حَوَارُهَا	وَلِلْخَيْلِ تَعْدُو بِالْكَوْمَةِ الْمَسَاعِرِ
فَتَى لَا تَخْطَأُ الرِّفَاقَ، وَلَا يَرَى	لِقَدْرِ عِيَالًا دُونَ جَارٍ مُجَاوِرِ
فَتَى كَانَ أَحْيَا مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ	وَأَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِخَفَانٍ خَادِرِ
فَتَى لَا تَرَاهُ النَّابُ إِلَّا لِسَقْبِهَا	إِذَا اخْتَلَجَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ
وَكُنْتَ إِذَا مَوْلَاهُ خَافَ ظِلَامَةَ	أَتَاكَ فَلَمْ يَقْنَعْ سِوَاكَ بِنَاصِرِ
وَقَدْ كُنْتَ مَرْهُوبَ السَّنَانِ وَبَيْنَ آلِ	لُّسَانٍ وَمَدْلَاجِ السُّرَى غَيْرِ فَاتِرِ
وَلَا تَأْخُذُ الْكُومُ الْجِلَادُ سِلَاحَهَا	لِتَوْبَةٍ فِي حَدِّ الشِّتَاءِ الصَّنَابِرِ

وقال بعض الرواة: بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً، فقال لبعض شُرطته: اتني به وإياك أن ترُوعه. فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردت، فلما دنا الراكب حذر لثامه فإذا ليلى الأحيلىة، فأنشأت تقول: الوافر:

معاوي لم أَكْذُ أَتِيكَ تَهْوِي	بِرَحْلِي نحو ساحتك الركابُ
تَجُوبُ الْأَرْضَ نَحْوَكَ مَا تَأْنَى	إِذَا مَا الْأَكْمُ قَنَعَهَا السَّرَابُ
وَكُنْتَ الْمَرْتَجَى وَبِكَ اسْتَغَاثَتْ	لِتَتَّعِشَهَا إِذَا بَخَلَ السَّحَابُ

قال: فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يَطْلُبُ إلى مثلك حاجة، فتخير أنت! فأعطاهما خمسين من الإبل؛ ثم قال: أخبريني عن مُضَرٍّ، قالت: فاحرٌّ بمضر، وحارب بقيس، وكاثرٌ بتميم، وناظرٌ بأسد، فقال: ويحك يا ليلى! أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كل الناس يقول حقاً، الناسُ

شجره بُغِي، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى مَنْ كانت؟ كان يا أمير المؤمنين سبطُ البنان، حديدَ
اللسان، شَجَى الأقران، كريمَ المخبر، عفيفِ المنزر، جميلِ النظر، وكان كما قلت، ولم أتعد الحق فيه:
الطويل:

بعيدُ الثرى لا يبلغُ القومَ قعره ألدُّ ملدٍ يغلبُ الحق باطله

فقال معاوية: ويحك يا ليلى! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً، فقالت من ساعتها مرتجلة: الطويل:

معاذَ إلهي كان والله توبةً جواداً على العلاتِ جمّاً نوافله

أغرَّ خفاجياً يرى البخل سبةً تحالف كفاه الندى وأنامله

عفيفاً بعيدَ الهم صلباً فئاته جميلاً محيياً قليةً غوائله

وكان إذا ما الضيفُ أرغى بغيره لديه أتاه نيله وفواضله

وقد علم الجوعُ الذي كان سارياً على الضيف والجيران أنك قاتله

وأنت رَحْبُ الباع يا توبُ بالقرى إذا ما لنئيمُ القوم ضاقت منازلُه

يبيت قريراً العين مَنْ كان جاره ويضحى بخيرِ ضيفه ومنازلُه

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جُرْتُ بتوبة قدره، فقالت: يا أمير المؤمنين، والله لو رأيته وخبرته
لعلمت أني مقصرة في نعمته، لا أبلغ كنهه ما هو له أهل. فقال لها معاوية: في أي سن كان؟ فقالت: يا أمير
المؤمنين: الطويل:

أنته المنايا حين تمَّ تمامه وأقصر عنه كلُّ قرنٍ يُناضله

وصار كليث الغاب يحمي عرينه فترضى به أشباله وحلائله

عطوفٌ حليمٌ حين يُطلبُ حلمه وسمٌ دُعا ف لا تصابُ مقاتله

فأمر لها بجائزة، وقال: أي ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من
خِصال الخير أكثر، ولقد أجدتُ حيث أقول: الطويل:

جزى الله خيراً والجزاء بكفه فتى من عُقيلٍ ساد غير مكلف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جمَّ التصرف

ينالُ عليّات الأمور بهونةً إذا هي أعيت كلَّ خرقٍ مسوف

هو المسك بالأرْي الضحاكي شبتُه بدرِ ياقةٍ من خمر بيسانٍ قرقف

ويقال: إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال: ويحك يا ليلي! أكما نعت توبة كان؟ قالت: أصلح الله الأمير! والله ما قلت إلا حقاً، ولقد قصرت، وما رأيت رجلاً قط كان أربط على الموت جأشاً، ولا أقل انجاشاً حين تحتدم برأكاء الحرب، ويحمي الوطيس بالطعن والضرب، كان والله كما قلت: الطويل:

فتى لم يزل يزداد خيراً لذن نشا إلى أن علاه الشيب فوق المسايح
تراه إذا ما الموت حلّ بورده ضرّوباً على أقرانه بالصفائح
شجاع لدى الهيجاء ثبت مشايخ إذا انحاز عن أقرانه كل سابع
فعاش حميداً لا ذميماً فعالة وصولاً لقرباه يرى غير كالح

فقال لها مروان: كيف يكون توبة على ما تقولين وكان خارباً؟ والخارب سارق الإبل خاصة، فقالت: والله ما كان خارباً، ولا للموت هائباً، ولكنه كان فتى له جاهلية، ولو طال عمره وأنساه الموت لارعوى قلبه، ولقضى في حب الله نحبّه، وأقصر عن لهوه، ولكنه كما قال ابن عمّه مسلمة بن زيد: الطويل:

فله قوم غادروا ابن حمير قتيلاً صريعاً للسيوف البواتر
لقد غادروا حزماً وعزماً ونائلاً وصبراً على اليوم العبوس القماطر
إذا هاب ورد الموت كل غضنفر عظيم الحوايا لبّه غير حاضر
مضى قدماً حتى يلاقي ورده وجاد بسبب في السنين القواشر

فقال لها مروان: يا ليلي، أعوذ بالله من درك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فوالله لقد مات توبة، وإن كان من فتيان العرب وأشدائهم، ولكنه أدركه الشقاء؛ فهلك على أحوال الجاهلية، وترك لقومه عداوة.

ثم بعث إلى ناس من عقيل فقال: والله لئن بلغني عنكم أمرٌ أكرهه من جهة توبة لأصلبنكم على جذوع النخل، إياكم ودعوى الجاهلية، فإن الله قد جاء بالإسلام، وهدم ذلك كله.

وروى أبو عبيدة عن محمد بن عمران المرزباني قال: قال أبو عمرو بن العلاء الشيباني: قدمت ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف وعنده وجوه أصحابه وأشرافهم، فبينما هو جالس معهم إذ أقبلت جارية فأشار إليها وأشارت إليه؛ فلم تلبث أن جاءت جارية من أجمل النساء وأكملهن، وأتمهن خلقاً، وأحسنهن محاورة؛ فلما دنت منه سلّمت؛ قالت: أتأذن أيها الأمير. قال: نعم، فأنشدت: الطويل:

أحجاج إن الله أعطاك غاية يقصر عنها من أراد مداها

أَحْجَاجُ لَا يُفَلِّ سِلَاحُكَ إِنَّمَا ال
 إِذَا وَرَدَ الْحَجَاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً
 شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعِيَاءِ الَّذِي بِهَا
 إِذَا سَمِعَ الْحَجَاجُ صَوْتَ كَتِيبَةٍ
 أَعَدَّ لَهَا مَصْقُولَةً فَارِسِيَّةً
 مَنَایَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ يَرَاهَا
 تَتَّبَعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
 غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ تَنَاهَا
 أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا
 بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاهَا

حتى أتت على آخرها. فقال الحجاج لمن عنده: أتعرفون من هذه؟ قالوا: ما نعرفها، ولكن ما رأينا امرأة أطلق لساناً منها، ولا أجمل وجهاً، ولا أحسن لفظاً، فمن هي أصلح الله الأمير؟ قال: هي ليلي الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التي يقول فيها: الطويل:

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ
 لَسَلَّمَتْ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا
 عَلِيٍّ وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ
 إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

ثم قال لها: يا ليلي، أنشدنا بعض ما قاله فيك توبة، فأنشدته: الطويل:

نَأْتُكَ بِلَيْلَى دَارُهَا لَا تَزُورُهَا
 وَكُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ لَيْلَى تَبَرَّقَعْتُ
 عَلَيَّ دِمَاءُ الْبُذْنِ إِنْ كَانَ زَوْجُهَا
 وَأَنِّي إِذَا مَا زُرْتُهَا قُلْتُ: يَا اسْلَمِي
 حَمَامَةً بَطْنُ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمِي
 أَبِينِي لَنَا لَا زَالَ رِيَشُكَ نَاعِماً
 وَقَدْ تَذْهَبُ الْحَاجَاتُ يَطْلُبُهَا الْفَتَى
 أَيَذْهَبُ رِيْعَانُ الشَّبَابِ وَلَمْ أَزُرْ
 وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى فِي ذُرَى مُتَمَنِّعٍ
 يَقْرَبُعِينِي أَنْ أَرَى الْعَيْسَ تَرْتَمِي
 وَأَشْرَفُ بِالْغُورِ الْيَقَاعِ لَعَلَّنِي
 أَرْتَنَا حِمَامَ الْمَوْتِ لَيْلَى، وَرَاقَنَا
 وَشَطَّتْ نَوَاهَا وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُهَا
 وَقَدْ رَاْبَنِي مِنْهَا الْغَدَاةُ سَفُورُهَا
 يَرَى لِي ذَنْباً غَيْرَ أَنِّي أَزُورُهَا
 فَهَلْ كَانَ فِي قَوْلِ اسْلَمِي مَا يَصِيرُهَا؟
 سَقَاكَ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا
 وَلَا زِلْتُ فِي خَضِرَاءَ دَانٍ بَرِيرُهَا
 شَعَاعاً وَتَخَشَى النَّفْسُ مَا لَا يَصِيرُهَا
 عَرَائِرَ مِنْ هَمْدَانَ بِيضاً نُحُورُهَا؟
 بَنَجْرَانَ لَالْتَقَتْ عَلَيَّ قُصُورُهَا
 بَنَا نَحْوَ لَيْلَى وَهِيَ تَجْرِي صَقُورُهَا
 أَرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بَصِيرُهَا
 عَيُونَُ نَفَيَاتُ الْحَوَاشِي تُدِيرُهَا

حتى أتت على آخرها. فقال: يا ليلي، ما رابه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير، ما رأي قط إلا متبرقة، فأرسل إلي رسولاً إنه ملثم بنا، فنظر أهل الحي رسولاً فاعذوا له وكمثوا؛ ففطنت لذلك من أمرهم، فلما

جاء ألقيت بُرقي وسَفَرْتُ فَأُنْكَرَ ذَلِكَ، فما زاد على التسليم وانصرف راجعاً. فقال لها الحجاج: لله درّك! فهل كانت بينكما ريبة قط؟ قالت: لا والذي أسأله صلاحك، إلا أني رأيت أنه قال قولاً فظننتُ أنه خضع لبعض الأمر، فقلت: الطويل:

فليس إليها ما حَيَّيتَ سبيلُ
وأنت لأخرى صاحبٌ و خليلُ

وذي حاجة قلنا له: لا تبخ بها
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونهُ

فما كلمني بشيء بعد ذلك حتى فرّق الموت بيني وبينه. فقال لها: حاجتك؟ قالت: أن تحملني إلى قتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان، فحملها فاستظرفها قتيبة ووصلها، ثم رجعت فماتت بساوة، وقبرها هناك.

وروى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات "أحجاج إن الله أعطاك"... إلى قولها: "غلام إذا هزّ القناة ثناها" قال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام، ثم قال لها: أي نسائي أحبُّ إليك أن أنزلك عندها؟ قالت: ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجلاس بنتُ سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكية. قالت: هذه أحبُّ إليّ. فلما كان الغد دخلت إليه فقال: يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، اجعلها أدمًا. قيل لها: إنما أمر لك بشيء، فقالت: الأمير أكرم من ذلك، فجعلها إبلاً أدمًا استحياء؛ وإنما كان أمر لها بشيء أولاً، والأدم أكرمها.

وأول هذا الحديث عن رجل من بني عامر بن صعصعة يقال له ورّقاء قال: كنت عند الحجاج فدخل الآذن فقال: أصلح الله الأمير! بالباب امرأة تهديرُ كما يهديرُ البعير النادّ، قال: أدخلها، فلما دخلت نسبها فانتسبت له. فقاد: ما أتى بك يا ليلي؟ قالت: إخلافُ النجوم، وقلةُ الغيوم، وكلبُ البرد، وشدةُ الجهد، وكنت لنا بعد الله الرّفْد.

قال لها: أخبريني عن الأرض. قالت: الأرض مُعْبَرَةٌ، والفجاج مَشْعَرَةٌ، وأصابتنا سنون مُجْحَفَةٌ مُظْلِمَةٌ، لم تدع لنا هُبْعاً ولا رُبْعاً، ولا عافطة ولا نافطة أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأفسدت الأموال، وأنشدت الأبيات التي مضت آنفاً، فالتفت الحجاج إلى أصحابه. وقال: هل تعرفون هذه؟ قالوا: لا. قال: هذه ليلي الأخيلية التي تقول: الكامل:

حتى يَدِبَّ على العَصَا مذكورا
حزناً وتلقانا الرِّفاقُ بحورا

نحن الأخايِلُ لا يزالُ غلامنا
تبكي الرماحُ إذا فَقَدْنَ أَكفنا

وفي آخر حديثها قال لها: أنشدنا بعض شعرك، فأنشدته: الطويل:

لَعَمْرُكَ مَا بِالمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرَ جَارِعاً
فَلَا يُبْعِدُنَكَ اللَّهُ يَا تَوْبُ هَالِكاً
فَكَلْ جَدِيدٌ أَوْ شَبَابٌ إِلَى بَلَى
وَإِذَا لَمْ تُصِبهُ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَايِرُ
فَلَا بُدَّ يَوْماً أَنْ يُرَى وَهُوَ صَابِرُ
لَدَى الْحَرْبِ إِنْ دَارَتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِرُ
وَكُلْ أَمْرٌ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرُ
وَكُلْ قَرِينِي أَلْفَةً لَتَقَرُّقُ
شَتَاتٍ وَإِنْ ضَنَّا وَطَالَ التَّعَاشُرُ
فَأَقْسَمْتُ أَبْكِي بَعْدَ تَوْبَةٍ هَالِكاً
وَأَحْقُلُ مِنْ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ

فقال الحجاج لصاحب له: اذهب بها فاقطع عني لسانها، فدعا لها بالحجّام ليقطع لسانها. فقالت له: ويحك! إنما قال لك الأمير: اقطع لساني بالعطاء، فارجع إليه فاسأله، فسأله فاستشاط غيظاً، وهم بقطع لسانه، ثم أمر بها فأدخلت فقالت: أيها الأمير، كاد يقطع مقولي، وأنشدته: البسيط:

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ
حَجَّاجُ أَنْتَ شَهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتُ
إِلَّا الْخَلِيفَةَ وَالْمُسْتَغْفِرُ الصَّمَدُ
وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نَوْرٌ فِي الدُّجَا يَقْدُ

احتذى الحجاج في قوله: "اقطع لسانها" قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لما أعطى المؤلفه قلوبهم يوم حُتِنَ مائة من الإبل، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال: المتقارب:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِي
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ
دِ بَيْنَ عُيَيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ
يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي مَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا أَمِراً مِنْهُمْ
وَمَنْ تَضَعَ الْيَوْمَ لَا يَرْفَعِ

العبيد: اسم فرسه، وحصن الذي ذكره، هو أبو عُيَيْنَةَ بن حِصْن بن حذيفة بن بدر سيد فرارة، وحابس: أبو الأقرع بن حابس، وقد تقدّم نسبه - فأمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بإحضاره، فقال: أنت القائل: المتقارب:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِي
دِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةٍ

وكان النبي، عليه الصلاة والسلام، كما قال الله، عز وجل: "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ". فقال: قم يا علي فاقطع لسانه. قال العباس: فقلت: يا علي، وإنك لقاطع لساني؟ قال: إني مُمَضِّ فيك ما أمرت، فمضى بي حتى أدخلني الحظائر، فقال: اعتدّ ما بين الأربعين إلى مائة، قلت: بأبي أنت وأمي! ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم! فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعطاك أربعين، وجعلك من المهاجرين فإن شئت فخذها، وإن شئت فخذ مائة، وكن من المؤلفه قلوبهم. فقلت: أشر علي؟ فقال: إني

آمرِك أن تأخذ ما أعطاك. فأخذتها.
 وكانت ليلي الأخيلية قد حاجَّت النابغة الجعدي فأفحمتها.
 ودخلت على عبد الملك ابن مروان وقد أسنت فقال: ما رأى توبةً فيك حتى أحبك؟ قالت: رأى في ما
 رأى الناسُ فيك حين ولّوك! فضحك عبدُ الملك حتى بدت له سن سوداء كان يُخفيها.
 وقالت هند بنت أسد الضبائية: الطويل:

لقد مات بالبيضاء من جانب الحمى فتى كان زيناً للمواكب والشرب

يلوذُ به الجاني مخافة ما جنى كما لأذتِ العصماء بالشاهقِ الصعب
 تظلُّ بناتُ العمِّ والخالِ حوله صَوَادِي لَا يَرَوَيْنَ بِالْبَارِدِ العَذْبِ
 وقالت أم خالد النميرية تشبباً بأثال الكلاي: الطويل:

إذا ما أتنّنا الريحُ من نحو أرضه أتنّنا بريّاه فطابَ هبوبُها
 أتنّنا بِمِسْكِ خالطِ المِسْكِ عَنبرُ وريح خزامى باكرتَها جنوبُها
 أحِنْ لذكره إذا ما ذكرته وتتهلّ عبراتُ تقيضُ غروبها
 حنينَ أسيرٍ نازحٍ شدَّ قيده وإِحوالَ نفسٍ غاب عنها حبيبُها
 وأنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، لأمّ الضحاك المحاربية وكانت تحبُّ رجلاً من الضُّباب حبّاً
 شديداً: البسيط:

يا أيها الراكب الغادي لطيبته عرّج أبتك عن بعض الذي أجذُ
 ما عالَجَ الناسُ من وَجْدٍ تَضَمَّنْهُمْ إلا وَجَدْتُ به فوق الذي وجدوا
 حسبي رضاه وأني في مسرّته وودّه آخر الأيام أجتهد

وقالت: الطويل:

هل القلبُ إن لاقى الضبابي خالياً لدى الرُكنِ أو عند الصفا يتحرّجُ
 وأزَعَجنا قُربُ الفراقِ، وبيننا حديثُ كتّافِيس المريضين مُزعجُ
 حديثُ لو أنّ اللحمَ يُشَوَى بحرّه غريظاً أتى أصحابه وهو منضجُ
 وأنشد الزبير بن بكار لحليمة الخضرية، وقد أنشدها المبرد لنبهان العبشمي وهو أشبه: الطويل:
 يقرُّ بعيني أن أرى من مكانه ذرى عقَداتِ الأبرع المُتَقَاودِ

سَلِّمِي وإن ملَّ السُّرى كلَّ واخِدي
وإن كان مخلوطاً بِسَمِّ الأَسَودِ

وَأَنْ أَرِدَ المَاءَ الَّذِي شَرِبْتَ بِهِ
وَأَلْصِقَ أَحْشَائِي بِبَرْدِ تَرَابِهِ

وقالت الفارعة بنت شداد ترثي أخاها مسعوداً: البسيط:

بِكَاءِ ذِي عِبْرَاتٍ شَجَّوهُ بِأَدْيِي
يَجْفُو الْعِيَالُ إِذَا مَا ضُنُّ بِالزَّادِ
يَخْشَى الرِّزْيَةَ بَيْنَ الْمَالِ وَالنَّادِي
فَتَّاحُ مُبْهَمَةٍ، حَبَّاسُ أَوْرَادِ
مَنَّاغُ مَغْلَبَةٍ، فَكَأَكُ أَقْيَادِ
حَمَّالُ مُضْلِعَةٍ، طَلَّاعُ أَنْجَادِ
شَدَّادُ أَوْهِيَةٍ، فَرَّاجُ أُسْدَادِ
زَيْنُ الْقَرِينِ وَنِكْلُ الظَّالِمِ الْعَادِي
يَوْمًا رَهِينُ صَفِيحَاتٍ وَأَعْوَادِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي كَرْبَةٍ صَادِي
يَخْلُو بِهِ الْحَيُّ أَوْ يَغْدُو بِهِ الْغَادِي
عِنْدَ الشِّتَاءِ وَقَدْ هَمُّوا بِإِخْمَادِ
مُتَعَنِّجِرًا بَعْدَ مَا تَغْلِي بِإِزْبَادِ
إِلَى ذَرَاهُ وَغَيْثُ الْمُحَوِّجِ الْغَادِي

يَا عَيْنُ بَكِي لِمَسْعُودِ بْنِ شَدَّادِ
مَنْ لَا يَذَابُ لَهُ شَحْمُ السَّدِيفِ وَلَا
وَلَا يَحِلُّ إِذَا مَا حُلَّ مُنْتَبِذًا
قَوَالُ مُحْكَمَةٍ، نَقَاضُ مُبْرَمَةٍ
قَتَالُ مَسْغَبَةٍ، وَتَّابُ مَرْقَبَةٍ
حَلَالُ مُمْرِعَةٍ، فَرَّاجُ مُفْطَعَةٍ
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ، شَهَادُ أُنْدِيَةٍ
جَمَّاعُ كُلِّ خِصَالِ الْخَيْرِ قَدْ عِلْمُوا
أَبَا زُرَّارَةَ لَا تَبْعُدُ فَكُلُّ فَتَى
هَلَا سَقِيئُكُمْ، بَنِي جَرْمٍ، أَسِيرُكُمْ
نَعَمْ الْفَتَى، وَيَمِينُ اللَّهِ، قَدْ عِلْمُوا
هُوَ الْفَتَى يَحْمَدُ الْجِيرَانُ مَشْهَدَهُ
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءُ يَتَّبَعُهَا
وَالسَّابِي الزُّرْقُ لِلْأَضْيَافِ إِنْ نَزَلُوا

والحسنيات من النساء كثير، وقد تفرَّقَ لهنَّ في أضعاف هذا الكتاب ما اختير.

دموع العاشقين

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب: الطويل:

عَلَى الْخَدِّ مِمَّا لَيْسَ يَرَقًا حَائِرُ
أَوَائِلُ أُخْرَى مَا لَهْنٍ أَوَاخِرُ
لَمَّا انْهَلَ مِنْ عَيْنَيْهِ فِي الْمَاءِ نَاضِرُ

وَمُسْتَجِدُّ بِالْحُزْنِ دَمْعًا كَأَنَّهُ
إِذَا دِيمَةً مِنْهُ اسْتَقَلَّتْ تَهَلَّلَتْ
مَلَأَ مَقْلَتَيْهِ الدَّمْعُ حَتَّى كَأَنَّهُ

وينظر من بين الدموع بمقلّة
وقال آخر - ورؤيت لقيس بن الملوّح: الطويل:

رمى الشوق في إنسانها فهو ساهر
إلى الدار من ماء الصبابة أنظر
فأعشى، وطورا تحسّر إن فابصر

نظرت كأنني من وراء زجاجة
فعيناها طورا يغرقان من البكا
وقال غيلان: الطويل:

سقى بهما ساق ولما تبلا
توهمت رعباً أو توسمت منزلاً

وما شنتا خرّقاء واهية الكلى
بأضيع من عينيك للدمع كلما
وقال آخر: الطويل:

تولت وماء الجفن في العين حائر
إلى التفاتاً أسلمته المحاجر

ومما شجاني أنها يوم ودعت
فلما أعادت من بعيد بنظرة
أبو عبادة البحتري: الوافر:

يُغالب طرفها نظرٌ قليل
تعلق لا يغيض ولا يسيل

وقفنا والعيون مشغلات
نهته رقبة الواشين حتى
وأنشد أبو الحسن جحظة: الطويل:

إذا هو أبدى من ثناياه لي برقاً
فمن أجله تجرّي لتدركه سبّاقاً

ومن طاعتي إياه أمطر ناظري
كأن دموعي تبصر الوصل هارباً
أخذ البيت الأول المتنبي فقال: المنسرح:

من مطر برق ثناياها

يبتل خدّاي كلما ابتسمت

وقال أبو الشيص، واسمه محمد بن عبيد الله، وهو ابن عمّ دعلج: الوافر:

على الخدين منحدر سكوب
قديماً ما جسرت على الذنوب
وقلبك ليس بالقلب الكئيب
عليه عشية بدم كذوب
رجمت بسوء ظنك في الغيوب

وقائلة وقد بصرت بدمع
أتكذب في البكاء وأنت جلد؟
قميصك والدموع تجول فيه
كمثل قميص يوسف حين جاءوا
فقلت لها: فذاك أبي وأمي

لسرَّكَ بالعويلِ وبالنحيبِ
بظَهْرِ الغيبِ ألسنةُ القلوبِ

أما واللهِ لو فتَّشت قلبي
دموعُ العاشقين إذا تلاقوا

من أخبار العباس بن الأحنف

وقال بشار بن برد: ما زال فتى من بني حنيفة يُدخلُ نفسه فينا ويُخرجُها مِنَّا حتى قال: الكامل:

نزف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ
عيناً لغيرك دمعُها مدِّراً
مَنْ ذا يعيرك عينه تبكي بها
أرأيت عيناً للبكاء تُعار؟!

قال: وهذا الذي عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة بن هارون بن كلدة بن خزيم بن شهاب بن سالم بن حبة بن كليب بن عدي بن عبد الله بن حنيفة، وكان كما قال بعض مَنْ وصفه: كان أحسن خلقِ الله إذا حَدَّث حديثاً، وأحسنهم إذا حَدَّث استماعاً، وأمسكهم عن مُلاحاة إذا خُولف، وكان ملوكي المذهب، ظاهر التَّعَمَّة، حسن الهيئة، وكانت فيه آلاتُ الظُّرفِ، كان جميلَ الوجه، فاره المركب، نظيف الثَّوب، حَسَنَ الألفاظ، كثير النوادر، رطيب الحديث، باقياً على الشراب، كثير المساعدة، شديد الاحتمال، ولم يكن هجاءً، ولا مداحاً، كان يتنزّه عن ذلك، ويُشَبَّه من المتقدِّمين بعمر بن أبي ربيعة.

وسُئِلَ أبو نواس عن العباس وقد ضمَّهما مجلس فقال: هو أرق من الوهم، وأحسن من الفهم.
وكان أبو الهذيل العلاف المعتزلي إذا ذكره لَعَنَهُ وزَنَاه لأجل قوله: البسيط

وضعتُ خدي لأدنى من يُطِيفُ بكم
إذا أردتُ انتصاراً كان ناصركم
حتى احتقَرْتُ وما مثلي بمحتقَرٍ
قلبي، وما أنا من قلبي بمُنتَصِرٍ
فأكثرُوا أو أقلُّوا من ملامكم
فكل ذلك محمول على القدرِ

وقوله في البيت الأوسط كقوله: السريع:

قلبي إلى ما ضرَّني داعي
لَقَلَّما أَبْقَى على ما أرى
يُكثرُ أسقامي وأوجاعي
يوشك أن ينعاني الناعي
كيف احتراسي من عدوي إذا
كان عدوي بين أضلاعي؟

وقيل لعنان جارية الناطفي: من أشعرُ الناس؟ قالت: الذي يقول: الطويل:

وأهجركم حتى يقولوا: لقد سَلَا
ولستُ بسالٍ عن هواك إلى الحشرِ

ولكن إذا كان المحبّ على الذي

يحبّ شقيقاً نازع الناس بالهجرِ

وقال العباس: الطويل:

جرى السيلُ فاستبكاني السيلُ إذ جرى

وفاضتْ له من مقلتيّ غروبُ

وما ذاك إلا أن تيقنتُ أنه

يمرُّ بوادٍ أنتِ منه قريب

يكون أجاباً دونكم فإذا انتهى

إليكم تلقى طيبكم فيطيب

فيا ساكني شرقيّ دجلة كلّمكم

إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

وقال الصولي: ناظر أبو أحمد علي بن يحيى المنجم رجلاً يُعرَف بالمتفقه الموصلِي في العباس بن الأحنف والعتابي، فعمل عليّ في ذلك رسالة أنفذهها لعلي بن عيسى؛ لأن الكلام في مجلسه جرى. وكان ممّا خاطبه به أن قال: ما أهل نفسه قطّ العتّابي لتقديمها على العباس في الشعر، ولو خاطبه مخاطبٌ لدفعه وأنكره؛ لأنه كان عالماً لا يُؤتى من قلة معرفة بالشعر، ولم أر أحداً من العلماء بالشعر مثل العتّابي والعباس، فضلاً عن تقديم العتّابي عليه لتباينهما في ذلك وإن العتّابي متكلّف، والعباس يتدفق طبعاً؛ وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذاك متعقّد كثر، وفي شعر هذا رقة وحلاوة، وفي شعر ذاك غلظ وجساوة، وشعر هذا في فنّ واحد وهو الغزل؛ وأكثر فيه وأحسن، وقد افتنّ العتّابي فلم يخرج في شيء منه عمّا وصفناه. وإن من أحسن شعر العتّابي قصيدته التي مدح بها الرشيد وأولها: البسيط:

يا ليلة لي في حوران ساهرة

حتى تكلم في الصباح العصافيرُ

وقال فيها:

أفي الأماقي انقباض عن جفونيهما

أم في الجفون عن الأماقي تقصيرُ؟

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذي أحسن فيه كل الإحسان، وهو قوله: الوافر:

جفت عيني عن التغميض حتى

كان جفونها عنها قصارُ

فمسخه العتّابي، على أن بشاراً أخذه من قول جميل: المتقارب:

كان المحبّ لطول السهاد

قصيرُ الجفون ولم تقصر

إلا أن بشاراً أحسن فيه؛ فنازعهما إياه فأساء، وإن حقّ من أخذ معنى قد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه، أو يزيد عليه، حتى يستحقّه، وأمّا إذا قصر عنه فهو مسيء معيب بالسرقة، مذموم على التقصير.

ولقد هاجى أبا قابوس النصرانيّ فُعْلَبَ عليه في كثيرٍ ممّا جرى بينهما على ضَعْفِ مُتَّةِ أبي قابوس في الشعر،
ثم قال في هذه القصيدة: البسيط:

ماذا عسى مَادِحٌ يُثْنِي عليك وقد ناداك بالوَحْيِ تقديسٌ وتطهيرُ
فُتَّ الممادِحِ إلا أنَّ ألسننا مستعلنات بما تُخفي الضمائرُ

فختم البيت فيها بأثقل لفظة لو وَقَعَتْ في البَحْرِ لكُدَّرَتْه، وهي صحيحة، وما شيء أملك بالشعر بعد
صِحَّةِ المعنى من حُسْنِ صِحَّةِ اللفظ، وهذا عمل التكلف، وسوء الطبع.
وللعباس بن الأحنف إحسان كثير، ولو لم يكن إلا قوله: الخفيف:

أنكرَ الناسُ ساطِعَ المِسْكِ من دجٍ لةٌ قد أوسَعَ المشارعَ طيبيا
فهمُ يحجبُون منه وما يدُ رُون أن قد حَلَّتْ منه قريبا
قاسميني هذا البلاءُ، وإلاَّ فاجعلي لي من التعزِّي نصيبا
إنَّ بعضَ العتابِ يدعو إلى العَتِّ ب، ويؤذي به المحبُّ الحبيبا
وإذا ما القلوبُ لم تُضمِرِ العَطُّ فَ فلن يَعْطِفَ العِتَابُ القلوبا

وقوله: الكامل:

قالت مرضتُ فَعَدْتُهَا فَنَبَرَمْتُ وَهِيَ الصحيحةُ والمريضُ العائدُ
تالله لو أنَّ القلوبَ كَقَلْبِهَا ما رَقَّ للولد الصغيرِ الوالدُ
إنَّ كانَ ذنبي في الزيارة فاعْلَمِي إني على كَسْبِ الذنوبِ لَجَاهِدُ
ألقيت بين جفون عيني فُرْقَةً فإلى متى أنا سَاهِرٌ يا راقِدُ؟
يقع البلاءُ وَيَنْقُضِي عن أهله وبلاءُ حُبِّك كل يوم زائدُ

سمّاك لي ناسٌ وقالوا: إنها لَهِيَ التي تَشْقَى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكونَ غيرك ظَنَّهُم إني ليعجبني المحبُّ الجاحِدُ

وقوله: المنسرح:

إني وإن كنتِ قد أسأتِ بيَ ال يَوْمَ لراجٍ للعَطْفِ منك غدا
أستمع الله بالرجاء وإن لم أر منكم ما أرتجي أبدا

وله: الكامل:

أَهْدَى لَهُ أَحْبَابَهُ أُتْرُجَّةً

فَبَكَى وَأَشْفَقَ مِنْ عِيَاةِ زَاكِرٍ

مُتَطَيِّرًا مِنْهَا أَتَتْهُ وَجِسْمُهَا

لُونَانَ بَاطِنُهَا خِلَافُ الظَّاهِرِ

ولئن وفى أبو أحمد العباسَ حقَّه، لقد ظلم العتَّابي ما كان مستحقَّه، من سرِّ الكلام، وجوْدَةِ رصف النظام. قال الصولي في نسب العباس - وكان من خؤولته -: هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن قدامة بن هيمان من بني هفَّان بن الحارث بن ذهل بن الديل بن حنيفة. وله يقول الصريع يهجو: البسيط:

بَنُو حَنِيفَةَ لَا يَرْضَى الدَّعِيُّ بِهِمْ

فَاتْرُكْ حَنِيفَةَ وَاطْلُبْ غَيْرَهَا نَسَبًا

اذهبْ إِلَى عَرَبٍ تَرْضَى بِنَسَبِهِمْ

إِنِّي أَرَى لَكَ لُونًا يُشَبِّهُ الْعَرَبَا

وقال أبو أحمد: قال، العباس: البسيط:

حُرُّ دَعَاهُ الْهُوَى سِرًّا فَلَبَّاهُ

طَوَّعًا فَأَضْحَكَ مَوْلَاهُ وَأَبْكَاهُ

فَشَاهَدَتْ بِالذِي يُخْفِي لَوَاحِظُهُ

وَعَدَلَتْهَا بِفَيْضِ الدَّمْعِ عَيْنَاهُ

جَازَيْتَنِي إِذَا رَعَيْتُ الْوَدَّ بَعْدَكَ أَنْ

وَكَلَّتْ طَرْفِي بِنَجْمِ اللَّيْلِ يِرْعَاهُ

اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَمْ أَخُنْكَ هُوَى

كَفَاكَ بَيِّنَةٌ أَنْ يَشْهَدَ اللَّهُ

وقال: الكامل:

يَا مَنْ يُكَاتِمُنِي تَغَيَّرَ قَلْبُهُ

سَأَكْفُ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ تَتَبَرَّ مَا

وَأُصَدِّعُكَ فِي يَدِي بَقِيَّةً

مَنْ حَبَلَ وَدَّكَ قَبْلَ أَنْ يَتَصَرَّمَا

يَا لِلرَّجَالِ لِعَاشِقِينَ تَوَاقَفَا

وَتَخَاطَبَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

حَتَّى إِذَا خَافَا الْعَيُونََ وَأَشْفَقَا

جَعَلَا الْإِشَارَةَ بِالْأَنَامِلِ سُلَّمَا

وقال: الكامل:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهِجْرَكُمْ

إِلَّا مَسَاوِرَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ

وَعَلِمْتُ أَنْ تَسْرِي وَتَبَاعِدِي

أَبْقَى لَوْصَلِكَ مِنْ دُنُوٍّ فَاضِحِ

وقال: الطويل:

يَهِيمُ بَحْرَانِ الْجَزِيرَةِ قَلْبُهُ

فِيهَا غَزَالُ فَاتِرِ الطَّرْفِ سَاحِرُهُ

يُؤَازِرُهُ قَلْبِي عَلَيَّ وَلَيْسَ لِي

يَدَانِ بِمَنْ قَلْبِي عَلَيَّ يُؤَازِرُهُ

فقر في الغزل

وقد قال سهل بن هارون: البسيط:

أعان طَرْفِي على قلبي وأعضائي
بنظرةٍ وَقَفَتْ جِسْمِي على دائي
وكنْتُ غِرًّا بما يجني على بَدَنِي
لا عِلْمَ لي أن بعضي بعضُ أعدائي

وقال النظام: الكامل:

إنَّ العيونَ على القلوبِ إذا جَنَّتْ
كانت بَلِيَّتَها على الأجسادِ

البحري: البسيط:

ولستُ أعْجَبُ من عَصِيَّانِ قلبكَ لي
حقًّا إذا كان قلبي فيكَ يَعْصِينِي

وقال الأصمعي: سمعتُ الرشيد يقول: قَلْبُ العاشقِ عليه مع مَعْشُوقِهِ. فقلت: هذا والله يا أمير المؤمنين أحسنُ من قول عُروَةَ بن حزام لَعَفْرَاءٍ في أبياته التي أنشدها: الطويل:

وإنِّي لتَعْرُوْنِي لَذِكْرَاكَ روعة
لها بين جَلْدِي والعظامِ ديبُ
وما هو إلا أن أراها فيه فُجَاءَةً
فأُبْهِتَ حتى لا أكاد أجيبُ
وأُصْرَفُ عن دائي الذي كُنْتُ أرتئي
ويقرب مِنِّي ذِكْرُهُ وَيَغِيبُ
ويضمُرُ قَلْبِي غدرها ويُعِينُها
عليَّ، وما لي في الفؤادِ نَصِيبُ

فقال الرشيد: من قال ذلك وهما، فقد قلته علماً.

باب الحكمة

قال علي بن عبيدة الرياحي: أَحْمِ وَدَكْ فإنه عَرَضُكَ، وَصُنِ الأَنْسَ بك فإنه يُعْزِرُ حَظَّكَ، ولا تستكثر من الطمأنينة إلا بعد استحكام الثقة؛ فإن الأَنْسَ سريرةُ العقل، والطمأنينة بذلةُ المتحايين، وليمس لك بعدهما تحفةٌ تَمْنَحُها صاحبُكَ، ولا حِباءٌ تُوجِبُ به الشكر على من اصطفت.

وقال: ما أنصف مَنْ عاتب أخاه بالإعراض على ذَنْبٍ كان منه، أو هجره لخلافٍ بما يكره عنده، إذا كان لا يعتدُّ في سالف أيام العشرة إلا بالرضا عنه، ومشاكلته فيما يؤنسه منه. فإن كان العاتب شَكَا جميع ما ستره من أخيه أو لا، فلقد تُتِمَّ الموافقة حظَّ الاعتذار، وإن لم يكن وفي له بكل ما استحق منه فليقتصِّ ممَّا وَجَبَ منه عليه لأخيه بقدر ذنبه، ثم العودة إلى الألفة أولى من تشَّتِ الشَّمْلُ، وأشبهُ بأهل التصافي، وأكرمُ في الأحذوثة عند الناس.

وقال: الحياءُ لِبَاسٌ سابغ، وَحِجَابٌ وَاقٍ، وَسِتْرٌ من المساوي، وَأَخُو العفاف، وَحَلِيفُ الدِّينِ، وَمُصَاحِبُ

بالصنع، ورقيب من العصمة، وعين كائلة تدوّد عن الفساد، وتنهى عن الفحشاء والأدناس.
وقال: لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جاسي الخلق، منقوص البنية، أو على خلاف تركيب الاعتدال.

وصف الهوى

ورأى سعيد بن سلم بن قتيبة ابناً له قد شرع في رقيق الشعر وروايته، فأنكر عليه، فقليل له: إنه قد عشق، فقال: دعوه فإنه يلطف، وينظف، ويظرف.

وقال الفضل بن أحمد بن أبي طاهر واسم أبي طاهر طيفور: وصف الهوى قوم وقالوا: إنه فضيلة، وإنه ينتج الحيلة، ويشجع قلب الجبان، ويسخي قلب البخيل، ويصفّي ذهن الغبي، ويطلق بالشعر لسات المفحم، ويعت حزم العاجز الضعيف، وإنه عزيز تذلل له عزّة الملوك، وتضرع فيه صولة الشجاع، وتنفاد له طاعة كل ممتنع، ويذل كل مستصعب، ويبرز كل محتجب، وهو داعية الأدب، وأول باب به تفتق به الأذهان والفظن، وتستخرج به دقائق المكاييد والحيل، وإليه تستريح الهمم، وتسكن نوافر الأخلاق والشيم، يمتّع جلسه، ويؤنس أليفه، وله سرور يحول في النفس، وفرح مستكن في القلب، وبه يتعاطف أهل المودة، ويتصل أهل الألفة، وعليه تتألف الأشكال، وله صولات على القدر، ومكاييد تبتل لطائف الحيل، وظرف يظهر في الأخلاق والخلق، وأرواح تسطع من أهلها، وتعبق من ذوبها.

وقال اليماني بن عمرو مولى ذي الرياستين. كان ذو الرياستين يبعث بي وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول: تعلّموا منه الحكمة؛ فكنا نأتيه، وإذا انصرفنا من عنده اعتراضاً ذو الرياستين يسألنا عمّا أفادنا فنخبره؛ فسرنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة، وفيكم أحداث، ولكم نعم، فهل فيكم عاشق؟ قلنا: لا، قال: اعشقوا؛ فإنّ العشق يطلق الغبي، ويفتح جبلة البليد، ويسخي كف البخيل، ويبعث على النظافة وحسن الهيئة، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وشرف الهمة وإياكم والحرام. قال: فانصرفنا، فسألنا عمّا أفادنا في يومنا؛ فهبناه أن نخبره، فعزم علينا. فقلنا له: أمرنا بكذا وكذا، قال: صدق، أتعلمون من أين أخذ هذا الأدب؟ قلنا: لا. قال: إن بهرام جور كان له ابن رشحه للملك من بعده، فنشأ ساقط الهمة، حامل المروءة، دنيء النفس، سيئ الأدب، قليل القريحة، كهام الفكر؛ فغمه ذلك، ووكل به من المؤدّيين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه، وكان يسألهم فيحكّون له ما يسوءه، إلى أن قال له بعض مؤدّبيه: قد كنّا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صرنا إلى اليأس منه، قال: وما ذلك؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان فعشّقها فغلبت عليه، فهو لا يهدي إلا بأمرها، ولا يتشاغل إلا بذكرها، فقال بهرام جور: الآن رجوت صلاحه.

ثم دعا بأبي الجارية فقال: إني مسرّ لك سرّاً فلا يَعدُوَنَّكَ. فضَمَنَ له سِتْرَه فأعلمه أن ابنَه قد عشقَ ابنته ت وأنه يريد أن يُنكِحها إياه، وأمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها، ومراسلته من غير أن يراها، أو تَقَعَ عَيْنَه عليها؛ فإذا استحكم طَمَعَه فيهما تَحَنَّتْ عليه، وهَجَرَتْه، فإذا استعبتها أعلمته أنها لا تَصْلُح إلا للملك، أو مَنْ هِمَّتْهُ همةُ ملك، وأن ذلك يمنعها من مُواصَلته، ثم ليعلمه خَبَرُها وخَبَرَه، ولا يُطْلِعها على ما أَسَرَّ إليه، فقبل ذلك أبوها منه.

ثم قال للمؤدّب: خوِّفه بي، وشجِّعه على مراسلة الجارية، ففعل ذلك، وفعلت الجارية ما أمرها به أبوها؛ فلما انتهت إلى التجنّي عليه، وعلم الفتى السببَ الذي كَرِهَتْه من أجله أخذَ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم والفروسية، ولعب الصَّوْالجلة، والرماية، حتى مَهَر في ذلك، ورُفِعَ إلى أبيه أنه يحتاجُ من المطاعم والآلات والدوابّ والملابس والوزراء فوق الذي كان له؛ فسرَّ الملك بذلك، وأمر له بما أراد، ودعا بمؤدّبه، فقال: إنّ الموضع الذي وَضَعَ ابني نفسه فيه بحبِّ هذه المرأة لا يُزِرِّي به، فتقدّم إليه أن يرفع أمرها إليّ ويسألني أن أزوّجَه إياها، ففعل، فزوَّجها منه، وأمر بتعجيل نَقْلِها إليه، وقال له: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تُحَدِّثْ شيئاً حتى أصير إليك. فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني، لا يضعنّ منها عندك مراسلتها إياك، وليست في حبالك، فأنا أمرتها بذلك، وهي من أعظم الناسِ مِنَّةً عليك، بما دَعَتْك إليه من طلب الحكمة، والتخلُّق بأخلاق الملوك، حتى بَلَغْتَ الحدَّ الذي تصلُّحُ منه للملُكِ بعدي؛ فزِدْها في التشريف والإكرام بقدرٍ ما تستحقُّ منك. ففعل الفتى ذلك، وعاش مسروراً بالجارية، وأبوه مسروراً به، وزاد في إكرام المرزبان، ورفَّع مرتبته وشرفه بصيانيته لسرّه وطاعته، وأحسن جائزته وجائزة المؤدّب بامتناله أمره، وعَقَدَ لابنه الملك من بعده. قال اليماني: وكان الشيخ الحسن بن مصعب.

ثم قال ذو الرياستين، قال علي بن بلال: الطويل:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم	إذا غاله من حادثِ الدهرِ غائله
ويُخفي لكم حبّاً شديداً ورهبة	وللناسِ أشغالاً، وحبُّك شاغله
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه،	إذا استخبروه عن حديثك، جَاهِلُه
يودُّ بأن يُمسيَ عليلاً لعلها	إذا سمعت عنه بشكوى تُرأسله
ويرتأخ للمعروف في طلب العلا	لتحمَد يوماً عند لَيْلَى شمائله

وذكر أعرابي الهوى فقال: هو أعظمُ مَسْلَكًا في القلب من الروح في الجسم، وأملك بالنفس من النفس، يَظْهَرُ ويَظُنُّ، ويَكْتُمُ ويَلْطُفُ، فامتنع عن وَصْفِهِ اللسان، وَعَيَّ عنه البيان! فهو بين السَّحْرِ والجفون، لطيفُ المسلك والكُمون. وأنشد: الطويل:

يقولون لو دبرت بالعقل حبها ولا خيرَ في حبٍّ يُدبَّر بالعقل

من إنشاء الميكالي وشعره

فصل للأمير أبي الفضل الميكالي: لا زالت الأيام تزيدُ رُبَّتَهُ ارتفاعاً، وباعه اتساعاً، وعزته غلبةً وامتناعاً، فلا يبقى مجدٌ إلا شَيْدَتْهُ معاليه ومكارمُهُ، ولا ملك إلا افترَعَتْهُ صرائِمُهُ وصوَارِمُهُ.

وله فصل: لا زالت حياة الأحرار بفضله متسمة، ووجوه المكارم بغير أيامه مبتسمة، وأهواء الصدور بخدمة ودّه مرتسمة، وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقسمة.

وله: الله يُديم راية الأمير الجليل محفوفةً بالفلج والنصر، مكنوفةً بالغلبة والقهر، حتى لا يزاول خطباً إلا تذللّت به صِعبُهُ، ولا يُمارِسُ أمراً إلا تيسّرت أسبابُهُ، ولا يرومُ حالاً إلا أذعن لهيبته وسلطانهُ، وخضع لسيفه وسنانه، وذلّ لمعقد لوائه، ومنثنى عنانه، إلى أن ينال من آماليه أقاصيها، ويملك من مَبَاغِيهِ أزمَتَها ونواصيها ويُسامي الثريا بعلو هقته ويناصيها.

وله فصل: إنما أشكو إليك زماناً سلبَ ضِعْفَ ما وهب، وفجع بأكثر مما أمتع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزع ما ألبس؛ فإنه لم يُدْفِنا حلاوة الاجتماع، حتى جرّعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء، حتى غادرنا رَهْنَ التلهّف والاشتياق، والحمدُ لله تعالى على كلّ حال يُسيء ويسر، ويحلُو ويُمِر، ولا أياس من رَوْحِ الله في إباحة صُنْعٍ يجعل رُبْعَهُ مُناخي، ويُقَصِّرُ مدّةَ البِعاد والتراخي، فألاحظ الزمان بعين راض، ويُقبلُ إليّ حظّي بعد إعراض، وأستأنف بعزته عيشاً سابغَ الذبول والأعطاف، رقيقَ المعاني والأوصاف، عذبَ المواردِ والمناهل، مأمونَ الآفاتِ والغوائل.

وله فصل: انا أسأل الله تعالى أن يردّ علي بَرْدَ العيش الذي فَقَدْتُهُ، وفسحة السرور الذي عَهَدْتُهُ؛ فيَقْصِرَ من الفراق أمدُّهُ، ويعلو للالتقاء حكمه ويَدُّهُ، وَيَرْجِعَ ذلك العهد الذي رَقَّتْ غلائله، وصفت من الأقداء مَنَاهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلّقت يوماً إلا بعيش بهيم: الطويل:

فلو ترَجعَ الأيامُ بيني وبينه بذِي الأثلِ صَيِّفاً مثل صيفي ومربعي
أشدُّ بأعناق النوى بعد هذه مرائرَ إن جاذبَتْها لم تقطع

وما على الله بعزیز أن یقرَّبَ بعيداً، ويَهَبَ طالعاً سعيداً، ويُسهِّلَ عسيراً، ويفكَّ من رقِّ الاشتياق أسيراً.
وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك الثعالبي: قرأتُ خبرَ سلامته، فسرى السرورُ في الجوانح،
واهتزَّت النفسُ له اهتزازَ الغُصنِ تحت البارح: الطويل:

أليس لأخبار الأُحبةِ فرحةٌ ولا فرحة العطشانِ فاجأهُ القطرُ

يقولون: قد أوفى لوقتِ كتابهِ فتننشرُ البشرى وينشرحُ الصدرُ

ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامته سابعةَ الملابس والمطارف، موصولة التاليد بالطارف.
وله فصل من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب: لئن كانت الرزية مُمضة مؤلمة؛ وطُرُقُ
العزاء والسلوة مُبهما، لقد حلت بساحة من لا تنتفض بأمثالها مرائره، ولا تضعف عن احتمالها بصائره،
قد يتلقاها بصدرٍ فسيح، يحمي أن يبيح الحرن جنابه، وصبرٍ مشيح، يحمي أن يحبط الجزع أجره وثوابه؛
كيف لا وآدابُ الدين من عنده تُلمس؛ وأحكامُ الشرع من لسانه ويده تُستفاد وتُقتبس، والعيون ترمقه
في هذه الحال لتجري على سننه، وتأخذ بأدابه وسننه، فإن تعرت القلوب فبحسب تماسكه عزأؤها، وإن
حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزأؤها.

من شعر الميكالي

جملة من شعره في تحسين القوافي والغزل: قال: الوافر:

عذيري من جفونِ رامياتٍ بسهم السحرِ من عيني غزالِ

غزاني طرْفُهُ حتى سباني لأنتصرن منه بمن غزالي

وله أيضاً: المتقارب:

أما حان أن يشتقي المُستهامُ بزورةِ وصلٍ وتأوي له؟

يججم عن سُؤله هَيبة ويعلم علمك تأويله

وقال أيضاً: الطويل:

شكوتُ إليه ما أُلقي فقال لي: رويداً ففي حكم الهوى أنتَ مُؤتلي

فلو كان حقاً ما ادَّعيتَ من الجوى لقل بما ألقى إذا أن تموت لي

وقال أيضاً: الطويل:

تفرق قلبي في هواه، فعنده فريقٌ وعندي شعبةٌ وفريقٌ

إِذَا ظَمَنْتَ نَفْسِي أَقُولُ لَهَا: اسْقِنِي

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَاحٌ لَدَيْكَ فَرِيقٌ

وَقَالَ أَيْضاً: مَجْزُوءُ الرَجَزِ:

شَافَهُ كَفِّي رَشَأُ

بِقُبْلَةٍ مَا شَفَتْ

فَقُلْتُ إِذْ قَبَّلَهَا

يَا لَيْتَ كَفِّي شَفْتِي

وَقَالَ: الْبَسِيطُ:

يَا شَادِنًا غَابَ نَجْمُ الْحَسَنِ لَوْلَاهُ

قَدْ كَانَ يُوسُفُ لَمَّا مَاتَ وَلَّاهُ

وَلَّاهُ رَقِيَّ ظَرْفٍ فِي شِمَائِلِهِ

فَاشْتَطَّ فِي الْحَكْمِ لَوْلَا أَنْ تَوَلَّاهُ

أَرْحَمُ فَتًى مُدْنَفًا مَا إِنْ يُخَلَّصُهُ

مِنْ غَمْرَةِ الْوَجْدِ إِلَّا أَنْتَ وَاللَّهُ

قضاء الحاجة

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: حدَّثني أبو الهيثم بن السندي بن شاهك قال: قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من أهلها لا يجفُّ قلمه ولا تستريح يده، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس، وإدخال المنافع على الضعفاء، وكان رجلاً مفوهاً: أخبرني عن الشيء الذي هوّن عليك النصب، وقوّاك على التعب، ما هو؟ قال: قد، والله، سمعتُ تغريدَ الأطيّار بالأسحارِ على أفنان الأشجار، وسمعتُ خفقَ أوتارِ العידان، وترجيحَ أصواتِ القيّان، فما طرِبْتُ من صوتٍ قطُّ طَرَبِي من ثناء حسن، على رجلٍ قد أحسن، ومن شاكر مُنعم، ومن شفاعة شفيع محتسب لطالب ذاكر.

فقال أبو الهيثم: فقلت له: لله أبوك! لقد خشيتُ كرمًا! فبأي شيء سهّلتُ عليك المعاوَدة والطلب؟ قال: لا أبلغُ المجهود، ولا أسألُ إلا ما يجوز، وليس صدق العذر بأكره إليّ من إنجاز الوعد، ولست لإكراه السائل بأكره مني لإجحاف المسؤول، ولا أرى الراغب أوجبَ حقاً عليّ للذي قدم من حُسن ظنه من المرغوب إليه للذي احتمل من كله. قال إبراهيم: ما سمعتُ كلاماً قطُّ أشدَّ مؤالفة لموضع، ولا أليق بمكانه، من هذا الكلام.

بين أسيد بن عنقاء الفزاري وعميله الفزاري

وروى أبو بكر بن شُعَيْر النحوي عن أحمد بن عبيد قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه، وأشدّهم عارضةً ولساناً، وطال عمره، ونكبته دهره؛ فاحتلت حاله، فخرج يتبقل لأهله؛ فمرَّ عليه

عُمَيْلَةُ الْفَزَارِيِّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا عَمَّ؛ مَا أَصَارَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: بُخِلْتُ مِثْلَكَ بِمَالِهِ، وَصَوْنُ وَجْهِهِ
عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ. قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَنْ بَقِيْتُ إِلَى غَدٍ لِأَغْيَرَنَ مِنْ حَالِكَ مَا أَرَى، فَرَجَعَ ابْنُ عَنَقَاءَ إِلَى أَهْلِهِ
فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ عُمَيْلَةُ، فَقَالُوا لَهُ: غَرَّكَ كَلَامُ غَلَامٍ جُنْحَ ظِلَامٍ فَكَأَنَّمَا أَلْقَمُوا فَاهُ حِجْرًا؛ فَبَاتَ مَتَمَلِّمًا
بَيْنَ رَجَاءٍ وَيَأْسٍ، فَلَقَا كَانَ السَّحَرُ سَمِعَ رُغَاءَ الْإِبِلِ، وَتُعَاءَ الشَّاءِ، وَصَهِيلَ الْخَيْلِ، وَلَجَبَ الْأَمْوَالِ، فَقَالَ:
مَا هَذَا؟ قَالُوا: عُمَيْلَةُ قَدْ سَاقَ إِلَيْكَ مَالَهُ، فَخَرَجَ ابْنُ عَنَقَاءَ لَهُ، فَقَسَمَ مَالَهُ شَطْرَيْنِ، وَسَاهَمَ عَلَيْهِ، فَأَنْشَأَ
ابْنَ عَنَقَاءَ يَقُولُ: الْكَامِلُ:

رَأْنِي عَلَى مَا بِي عُمَيْلَةُ فَاشْتَكَيْ	إِلَى مَالِهِ حَالِي، أَسْرَّ كَمَا جَهَرُ
دَعَانِي فَوَاسَانِي، وَلَوْ ضَنَّ لَمْ يُلْمَ	عَلَى حِينَ لَا بَدُوَّ يُرَجَّى وَلَا حَضَرُ
فَقُلْتُ لَهُ خَيْرًا، وَأَتْنَيْتُ فِعْلَهُ	وَأَوْفَاكَ مَا أُولَيْتَ مَنْ ذَمَّ أَوْ شَكَرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابُهُ	تَرَدَّى بَثُوبٍ سَابِغِ الذَّيْلِ وَانْتَرَرُ
غَلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَافِعًا	لَهُ سِيْمِيَاءٌ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصَرُ
كَأَنَّ الثَّرِيَا عُلَّقَتْ فِي جَبِينِهِ	وَفِي أَنْفِهِ الشَّعْرَى وَفِي خَدِّهِ الْقَمَرُ
إِذَا قِيلَتْ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ	ذَلِيلٌ بَلَا ذُلٍّ، وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرُ

كَلَابِي يَمْدَحُ غَنَوِيًا

وَأَنْشَدَ أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ لِلْعَرْنَدَسِ أَحَدِ بَنِي بَكْرِ بْنِ كَلَابٍ يَمْدَحُ بَنِي عَمْرِو الْعَنَوِيِّينَ، وَكَانَ
الْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ: هَذَا مِنَ الْحَالِ، كَلَابِيٌّ يَمْدَحُ غَنَوِيًا: الْبَسِيطُ:

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيْسَارُ ذَوُو كَرَمٍ	سُوَّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ
إِنْ يُسْأَلُوا الْعُرْفَ يُعْطُوهُ، وَإِنْ خُبِرُوا	فِي الْجَهْدِ أَدْرِكُ مِنْهُمْ طَيْبُ أَخْبَارِ
لَا يَنْطَقُونَ عَنِ الْأَهْوَاءِ إِنْ نَطَقُوا	وَلَا يُمَارُونَ إِنْ مَارَوْا بِإِكْثَارِ
مَنْ تَلَّقَ مِنْهُمْ تَقَلَّ لَاقِيَتْ سَيِّدَهُمْ	مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
مِنْهُمْ وَفِيهِمْ يُعَدُّ الْخَيْرُ مُتَلَدًا	وَلَا يُعَدُّ نَتَا خَزْيٍ وَلَا عَارِ

الدَّهْرُ لَا يَنْصِفُ

فصل لبعض الكتاب - ما تعجبك مما لقيت من الحيف! هل ضمن الدهر أن يُنصف ولا يحيف، أو يُيرم فلا ينقص، أو يُعافي فلا يُمرض، أو يصفو فلا يكدّر، أو يفي فلا يغدر. قدر أن تغذب لي مشاربته، وتلين لي جوانبه، فحكّم الدنيا لا تترك حامداً لها إلا أسكتته، ولا ضاحكاً إلا أبكتته، أقوى ما كان بها ثقة، وأشد ما كان لها مقة، وأوكد ما كان ركوناً إليها، وأعظم ما كان حرصاً عليها.

الاستخفاف بحقّ النعم

وقال بعض الكتاب يصف رجلاً بالذمّ: ما ظنك بمن يعنف بالنعم عنف من ساءته مجاورتها، ويستخف بحقها استخفاف من ثقل عليه حملها، ويطرّح الشكر عليها أطراح من لا يعلم أن الشكر يرتبطها.

فقر في المدح

وقال أبو الشيص: البسيط:

يا من تمنى على الدنيا مبالغها هلا سألت أبا بشر فتعطاها؟
ما هبت الريح إلا هب نائله ولا ارتقى غاية إلا تخطاها

غيره: الطويل:

طلابُ العُلا إلا عليك يسيرُ وباعُ الأعادي عن مَدَاك قصيرُ
إذا عدَّ أهل الفضل كنت الذي له وللفضل فيه أولٌ وأخيرُ

وقال أبو الحجناء الأصغر نصيب يصف إسحاق بن صباح: الطويل:

كأن ابن صباح، وكندة حوله إذا ما بدا، بذرّ تَوَسَّط أنجما
على أن في البدر المحاق، وإن ذا تمام فما يزداد إلا تنما
ترى المنبر الغربي يهترّ تحته إذا ما علا أَعْواده وتكلّما
فأنت ابن خير الناس إلا نبوة ومن قبلها كنت السنام المقدّما

ونصيب هو القائل في البرامكة، وكان منقطعاً إليهم: الكامل:

عند الملوك مضرّة ومنافع وأرى البرامك لا تضرّ وتنفّع
إن العروق إذا استسرّ بها الثرى أثّ النباتات بها وطاب المزرع
فإذا جهلت من امرئ أعراقه وقديمة فانظر إلى ما يصنع

أخذ هذا من قول سلم الخاسر: المنسرح:

في وجهه شاهد من الخبر

لا تسأل المرء عن خلائقه

وقال نُصَيْب في بني سليمان بن علي: البسيط:

وليس فوقكم فخر لمفتخر

بني سليمان حزنتم كل مكرمة

في وجهه شاهد ينبيك عن خبر

لا تسأل المرء يوماً عن خلائقه

وأنت سُدَّتْ جَمِيعَ الجَنِّ والبشر

حَسْبُ أمرئ شرفاً أن ساد أسرته

سأل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رجلاً حاجة، فلم يقضها، وسأل آخر، فقضاها، فقال للأول: الطويل:

تَوَلَّى سواكُم شكَرَها واصطناعها

ذُمت ولم تُحمد، وأبَّتْ بحاجة

ونَفَسٌ أضاق الله بالبخل باعها

أبى لك فعل الخير رأيٍ مقصّر

عصاها، وإن هَمَّتْ بشرٌ أطاعها

إذا ما أرادته على الخير مرّة

الجود والعطاء

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك: قد افتقرتُ يا أمير المؤمنين إلى ظهور حسن رأيك، فإن رأيت إظهاره بسرور الصديق، ورغم العدو، فعلت، قال هشام: أوجزت وملحت فيما سألت، فلا تردّ لك طلبه، فما سأله شيئاً إلا أعطاه أكثر منه.

قال حميد بن بلال: ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان، فقال له بعض أصحابه: أيها الأمير، لو كان الحياءُ يظهر سؤالاً لدعاك حيائي من كرمك في جميع أهليك إلى الإقبال عليّ بما يكثر به حسد عدوي، دون أن أسألك، فقال عمرو: لا تبغ ذلك بابتذالك ماء وجهك، ونحن نُغْنِيكَ عن إراقته في خوض السؤال، فارع ما تريده في رُقعة يصل إليك سرّاً ففعل.

وقال رجل من أهل فارس: قدم على محمد بن طيفور، وهو عامل على بلاد أصبهان لبعض أهلها: كم تقدرون صلات محمد في كل سنة للشعراء والمتوسّلين؟ قالوا: مائة ألف دينار، سوى الخلع والحُمْلان. وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه في شأن رجل استماحه له في درجه: أنت أعزّك الله تعالى أجلّ من أن يُتوسَّلَ بغيرك إليك، وأن يُستَماح جُودُك إلا بك، غير أني أذكرك بكتابي في أمر حامله، ما شرع كرمك من الشكر وزرع إحسانك من الأجر، قبل الصادرين والواردين؛ فهناك الله تعالى ذلك، ولا زالت يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك.

فقال محمد للرجل: احتكم لك وله؛ فأخذ منه ألف دينار، ولمن كتب له مثلي.
وقال رجلي لإبراهيم بن المهدي: قد أوحشني منك تردُّدُ غليلٍ في صدري أهأبك عن إظهاره، وأجلِّك
عن كَشْفِه، فقال له إبراهيم: لكني أكشف لك معروفِي، وأظهر إحساني؛ فإن يكن غير هذين في خَلَدِكَ،
فاكْتُبْ رقعة يخرج توقيعي سرّاً لتَقِفَ على ما تحب، فبلغ كلامه المهدي فقال: هذا والله غاية الكرم.
وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصته بمالٍ وصّاه به، فكتب الرجلُ إليه: قد استغوّقتُ نِعْمَتَكَ وجوهَ
الشكر لك، وغرَرَ الحمد فيما سلف منك، ولولا فَرَطُ عجزِي عن تلقّي ما يجب لك من الحمد لقبلتُ ما
أنفدته.

فكتب إليه محمد: قد صَغَرَ شُكْرُكَ لنا ما أسلفناه إليك؛ فخذُ ما أنفدناه ثواباً عن معرفتك بِشُكْرِ التافه
عندي، وإلاًّ سمح شُكْرُكَ بما رأيناك له أهلاً إلى أن يتَّسع قبول مثلك، ما يستحق به جميل الدعاء، وجزيل
الثناء، إن شاء الله تعالى.

رثاء قرد وثور

ولما مات قردٌ زُبيدة بنت جعفر ساءها ذلك، ونالها من الغمّ ما عَرَفَه الصغير والكبير من خاصَّتها، فكتب
إليها أبو هارون العبدي: أيتها السيدة الخطيرة؛ إنَّ موقعَ الحُطْبِ بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور
بنيل الكثير المفرح، ومَن جهل قَدَرَ التعزية عن التافه الخفي، عَمِيَ عن التهنتة بالجليل السنيّ، فلا نَقْصَكِ
الله الزائد في سرورك، ولا حَرَمَكَ أجزر الذاهب من صغيرك.
فأمَرَتْ له بجائزة.

وكتب أبو إسحاق الصابي عن ابن بقية في أيام وزارته إلى أبي بكر بن قريعة يعزيه عن ثور أبيض بقوله،
وجلس للعزاء عنه تَرَأُّعاً وتَحامُفاً: التعزية على المفقود أطال الله بقاء القاضي إنما تكونُ بحسب محله من
فائده، من غير أن تُراعى قيمته ولا، قَدْرُهُ، ولا ذاته ولا عينه؛ إذ كان الغرض فيها تبريد العلة، وإخماد
اللوعة، وتسكين الزفرة، وتنفيس الكربة، فربَّ وَلَدٍ عاق، وشقيق مُشاقٍّ، وذو رحم أصبح لها قاطعاً،
ولأهله فاجعاً، وقريب قوم قد قلدهم عاراً، وناط بهم شناراً، فلا لوم على ترك التعزية عنه، وآخر بما أن
تستحيل تهنتة بالراحة منه؛ وربَّ مالٍ صامت غير ناطق، قد كان صاحبه به مستظهِراً، وله مستثمرٌ،
فالفجعة به إذا فقد موضوعه موضعها، والتعزية عنه واقعة منه موقعها. وقد بلغني أن القاضي أصيب بثور
كان له، فجلس للعزاء عنه شاكياً، وأجْهَشَ عليه باكياً، والتدم عليه وآله، وحُكِيت عنه حكايات، في

التأين له، وإقامة الندبة عليه، وتعدد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وحده. فصار كما قال أبو نواس، في مثله من الناس: السريع:

ليس على الله بمستكرٍ أن يجمع العالم في واحدٍ

لأنه يكرُب الأرض مغمورة ط ويثيرها مزروعة، ويرقص في الدواليب ساقياً وفي الأرحاء طاحناً، ويحمل الغلات مستقلاً، والأثقال مستخفاً؛ فلا يؤوده عظيم، ولا يعجزه جسيم، ولا يجري في الحائط مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه، إلا كان جلدًا لا يسبق، ومبرزاً لا يلحق، وفاتناً لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهد الله أن ما ساءه ساعني، وما آلمه آلمي، ولم يجز عندي في حق ودّه استصغار خطبٍ جلّ عنده، فأرقه وأمضه وأقلقه، ولا تهوين صعب بلغ منه وأرمضه، وشفّه وأمرضه؛ فكتبت هذه الرقعة، قاضياً بما من الحق في مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له، وأسأل الله تعالى أن يخصّه من المعوضة بأفضل ما خصّ به البشر، عن البقر، وأن يُفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب، يضيفها إلى المكلفين من أهل الألباب؛ فإنها وإن لم تكن منهم، فقد استحقت إلا تُفرد عنهم، بأن مسّ القاضي سببها، وصار إليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ما وعد به عباده المؤمنين، من تمحيص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التي رضىها لهم داراً، وجعلها لجماعتهم قراراً؛ وأورد القاضي - أيده الله تعالى - موارد أهل النعيم؛ مع أهل الصراط المستقيم، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به؛ وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجري من أعواضهم، كذلك يجعل الله ثور القاضي مركباً من العنبر الشحري، وماء الورد الجوري؛ فيصير ثوراً له طورا؛ وجوثة عطر له طورا وليس ذلك بمستبعد ولا مستكر، ولا مستصعب ولا متعذر؛ إذ كانت قدرة الله بذلك محيطّة، ومواعيده لأمثاله ضامنة؛ بما أعدّه الله في الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين؛ من شهوات أنفسهم وملاذ أعينهم، وما هو سبحانه مع غامر فضله وفائض كرمه، بمانعه ذلك مع صالح مساعيه، ومحمود شيمه؛ وقلبي متعلق بمعرفة خبره، أدام الله عزه فيما ادرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إثار الآخر، ورفع إليه من السكون لأمر الله تعالى في الذي طرّقه، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفني القاضي من ذلك ما أكون ضارباً معه بسهم المساعدة عليه، وأخذاً بقسط المشاركة فيه.

فصل من جواب أبي بكر: وصل توقيع سيّدنا الوزير أطل الله بقاه، وأدام تأييده ونعماءه، وأكمل رفعته وعلاه، وحرس مهجته ووقاه، بالتعزية عن الثور الأبيض، الذي كان للحرث مثيراً، وللدواليب مديراً، وبالسبق إلى سائر المنافع شهيراً، وعلى شدائد الزمان مساعداً وظهيراً. لعمرُك لقد كان بعمله ناهضاً،

ولحماقات البقر رافضاً، وأتني لنا بمثله وشرّواه، ولا شروى له؛ فإنه كان من أعيان البقر، وأنفع أجناسه للبشر، مضاف ذلك إلى خالات لولا خوفاً من تجدد الحزن عليه، وتهيج الجزع وانصرافه إليه لعددتها؛ ليعلم - أدام الله عزّه - أنّ الحزين عليه غير مَلُوم. وكيف يُلام امرؤ فقد من ماله قطعةً يجب في مثلها الزكاة، ومن خَدم معيشته بهيمة تُعين على الصوم والصلاة، وقد احتذيتُ ما مثله الوزير من جميل الاحتساب، والصبر على المصائب؛ فقلت: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، قول من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله، وأنه لا يملك شيئاً دونه؛ إذ كان جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، هو الملك الوهاب، المرتجع ما ارتجع ممّا يعرض عليه نفيس الثواب. وقد وجدت - أيد الله الوزير - للبقر خاصة فضيلةً على سائر بهيمة الأنعام، تشهد بها العقول والأفهام، وذكر جملة من فضائلها.

وكأنّ أبا نواس في قوله: السريع:

ليس على الله بمستكر
أن يجمع العالم في واحد

نظر في هذا المعنى إلى قول جرير: الوافر:

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

رثاء الأشخاص

وقالت امرأة من العرب، يقال: إنها امرأة العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، ترثي بنيها: البسيط:

رَعَوْا من المجد أكنافاً إلى أجل
حتى إذا كملت أظماؤهم وردّوا

ميت بمصر، وميت بالعراق، ومي
ت بالحجاز، منايا بينهم بدّ

كانت لهم همّ فرقن بينهم
إذا القعاديذ عن أمثالهم قعدوا

بثّ الجميل، وتفريغ الجليل، وإع
طاء الجزيل الذي لم يعطه أحد

وقال عبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم: الطويل:

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحمّا

تحية من ألبسته منك نعمة
إذا زار عن شحط بلادك سلماً

فما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهّدا

وقيس بن عاصم هو القائل: الكامل:

إني امرؤ لا يعتري حسبي
من منقر في بيت مكرمة
خطباء حين يقول قائلهم
لا يفطنون لعيب جارهم
دنسٌ يُغيّره ولا أفنٌ
والأصل ينبت حوله الغصن
بيضُ الوجوه أفعى لسن
وهم لحسن جواره فطن

وقالت أخت الوليد بن طريف الشيباني ترثيه: الطويل:

أبا سحر الخابور ما لك مورقاً
فتى لا يعدّ الزاد إلا من التقى
عليك سلامُ الله وقفاً؛ لأنني
فقدناك فقدان الربيع، وليتنا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
ولا المال إلا من قنا وسيوف
أرى الموت وقاعاً بكل شريف
فدينّاك من فتياننا بألوف

وخرج الوليد في أيام الرشيد، فقتله يزيد بن مزيد، وفي ذلك يقول بكر بن النطاح الحنفي: الخفيف:

يا بني تغلب، لقد فجعتكم
لو سيوف سوى سيوف يزيد
واتر بعضُها يقتل بعضاً
من يزيد سيوفه بالوليد
قارعتُه لاقت خلاف السعود
لا يقل الحديد غير الحديد

عود إلى المديح

وكان بكر كثير التعصب لربيعة والمدح فيهم، وهو القائل: الطويل:

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه
ونحن وُصفنا دون كل قبيلة
وإنّا لنلهو بالسيوف كما لهت
ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
بشدة بأس في الكتاب المنزل
فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

يريد قول الله عز وجل: "ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد". جاء في بعض التفاسير أنهم بنو حنيفة قوم مُسيلمة الكذاب.

وبكر القائل أيضاً في أبي دلف: الكامل:

يا عصمة العرب الذي لو لم يكن
إنّ العيون إذا رأتك حداثها
وإذا رميت الشجر منك بعزمة
حيّاً لقد كانت بغير عماد
رجعت من الإجلال غير حداد
فتحت منه مواضع الأسداد

فكأن رمحك مُنقَعٌ في عَصْفُرٍ وكأن سيفك سُلٌّ من فِرْصَادٍ
لو صال من غَضَبٍ أبو دلف على بيض السيوف لذُبْنَ في الأعْمامِ
أذكى وأوقد للعداوة والقرى نارين؛ نارَ وغى ونار زناد

وأبو دلف هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شنج بن معاوية بن خُزاعي بن عبد
العزى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لجيم.
وقد رويت الأبيات التي مرت لأخت الوليد بن طريف لعبد الملك بن بجرة النميري.
وقال أبو هَفَّان واسمه منصور بن بجرة، قال: أنشدني دعبل لنفسه: المتقارب:

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدَّيَمِ
عليك السلام فكم من وفاء أفارق منك وكم من كرمٍ
فقلت: أحسنت، ولكن سرقت البيتين من ربيعيين: الأول من قول القطامي: البسيط:
ما للكواعب ودَّعن الحياة كما ودَّعنني واتخذن الشَّيْبَ ميعادي
والثاني من قول ابن بجرة:

فقدناك فقدان الربيع وليتنا وأنشد البيت. فقال: بلى، والله سرق الطائي من ابن بجرة بيتاً كاملاً فقال: الطويل:
عليك سلام الله وقفاً فإنني رأيت الكريم الحرَّ ليس له عُمرُ

كذا وردت الحكاية من غير وجه، وكان يجب إذا كان من ربيعيين أن يكون فقدناك فقدان الربيع لأخت
الوليد.

وقد قار السموأل في قصر العمر: الطويل:

يقربُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرَّهه آجالهم فَنَطُولُ
وقال ابن قتيبة: أخذ النميري قوله: أيا أيا شجر الخابور من قول الجن في عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
الطويل:

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له الأرض تهتزَّ العِصَاءُ بأسواقِ
وقد أنشده أبو تمام الطائي للشماخ في أبيات أولها: الطويل:
جزى الله خيراً من أميرٍ وباركت يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّقِ

ومن يَسْعَ أو يركب جناحي نعامة
ليدرك ما قدمت بالأمس يُسَبِّقِ
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها
نوافج في أكمامها لم تفتق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته
بكفي سببتي أزرق العين مطرق
تظل الحصان البكر تلقى جنيها
ننا خبر فوق المطي معلق

وقد قال بشار قريباً من قوله: ولا المال إلا من قنا وسيوف: الطويل:

على جنابات الملك منه مهابة
وفي الدرع عبّل الساعدين قرع
إذا اختزن المال البخيل فإنما
خزائنهم خطية ودروع

وهذا كقول أبي الطيب المتنبّي في فاتك الإحشيدي: الكامل:

كنا نظن دياره مملوءة
ذهباً فمات وكل دار يلقع
وإذا المكارم والصّوارم والقنا
وبنات أعوج كل شيء يجمع

ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: الطويل:

وإني لأرباب القبور لغابط
لسكنى سعيد بين أهل المقابر
وإني لمفجوع به إذ تكاثرت
عداتي ولم أهتف سواه بناصر
وكنت كلمغلوب على نصل سيفه
وقد حزّ فيه نصل حرّان باتر
أُتينا زواراً فأمجّنا قرى
من البث والداء الدخيل المخامر
وأبنا بزّرع قد نما في صدورنا
من الوجد يُسقى بالدموع البوادر
ولما حضرنا لاقتسام تراثه
أصبنا عظيمات اللهي والمآثر
أي لم نصب مالاً، ولكننا أصبنا فعلاً.

من نوادر الأعراب

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة، فوقفت بين السماطين، فقالت: أصلح الله الأمير، وأمتع به؛ حدّرتنا إليك سنّة اشتدّ بلاؤها، وانكشف غطاؤها، أقودُ صبية صغاراً، وآخرين كباراً، في بلد شاسعة، تخفّضنا خافضة، وترفعنا رافعة، لملمات من الدهر برّين عظمي، وأذهبن لحمي، وتركنني والهة أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت في أحياء العرب: من الكاملة فضائله، المعطى سائله، المكفي نائله، فدللت عليك - أصلحك الله تعالى - وأنا امرأة من هوازن؛ وقد مات الوالد،

وغاب الرَّافِد، وأنتَ بعدَ الله غياثي، ومنتَهى أَملي، فافعلْ بي إحدَى ثلاث، أما أن تردّني إلى بلدي، أو تحسن صَفدي، أو تقيم أودي فقال: بل أجمعها لك، فلم يزل يُجرى عليها كما يُجرى على عياله، حتى ماتت.

قال العتي: وقف أعرابيّ بباب عبيد الله بن زياد، فقال: يا أهل الغَضارة، حَقَبَ السحابُ، وانقشَع الرِّبابُ، واستأسدت الذُّباب، وردم الثَّمَد، وقل الحَفَد، ومات الولد، وكنت كثيرَ العَفَاة، صَحِبَ السَقَاة، عَقِمَ الدُّلَاة، لا أتُضاءُكَ للزمان، ولا أحفل بالحدَثان، حيّ حِلالٍ وعدَدٌ ومالٌ، قَتَفَرْنَا أيدي سِبا. بعد فقد الأبناء والآباء، وكنت حسنَ الشارة، خصيب الدَّارَة، سليم الجارة وكان محلي حَمي، وقومي أسي، وعزّمي جدًّا؛ قضى الله ولا رجعان لما قضى، بسوافِ المال، وشتات الرجال، وتغيّر الحال، فأغيثوا مَنْ شَخْصُهُ شاهدُهُ، ولسانُهُ وأفدُهُ، وفقرُهُ سائقُهُ وقائِدُهُ.

ومن مقامات الإسكندري، من إنشاء بديع الزمان، قال:

حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت البصرة وأنا من سيّ في فتاء، ومن الزيّ في حيرٍ ووشاء، ومن الغنى في بقرٍ وشاء؛ فأتيّت المرَبَد مع رفقة تأخذهم العيون، ودخلنا غير بعيد في بعض تلك المتزهات، ومشينا في تلك المتوجّهات، وملكتنا أرضٌ فحللناها، وعمدنا لِقَداح اللّهُو فأجلّناها، مُطَرِّحِينَ لِلْحِشْمَةِ، إذ لم يكن فينا إلا منّا، فما كان إلا بأسرَع من ارتداد الطّرف حتى عنّا لنا سَوادٌ، تخفّضهُ وهاد، وترفعه نِجاد، وعلمنا أنه يهَمُّ بنا، فأتلّعنا له، حتى انتهى إلينا سيرُهُ، ولقينا بتحية الإسلام، ورددنا عليه مقتضى السلام؛ ثم أجال فينا طَرفُهُ وقال: يا قوم، ما منكم إلا من يلحطني شَرّاً، ويوسعني زَجْراً، ولا ينبشكم عني، بأصدق مني؛ أنا رجلٌ من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية، وقد وطأ لي الفضل كَفَّهُ، ورحبت بي عبس، ونماني بيت، ثم جَعَجَعَ بي الدهرُ عن مُمِّهِ ورمِّهِ، وأثْلاني زغاليل حُمُرِ الحواصل: الرجز:

كَأَنَّهُمْ حَيَاتُ أَرْضٍ مَحَلَّةٍ فلو يَعَضُّونَ لَذَكَّى سَمُّهُمْ

إِذَا نَزَلْنَا أَرْسَلُونِي كَأَسْبَأ وَإِنْ رَحَلْنَا رَكِبُونِي كُلُّهُمْ

ونشرت علينا البيض، وشمست منا الصُّفْر، وأكلتنا السُّود، وحطمتنا الحمر، وانتابنا أبو مالك، فما تَلَقَّانا أبو جابر إلا عن عُفْر، وهذه البصرة ماؤها هَضُوم، وفقيرها مهضوم، والمرء من ضِرْسِهِ في شُغل، ومن نفسه في كلٍّ، فكيف بمن: الوافر:

يَطَوِّفُ مَا يَطَوِّفُ ثُمَّ يَأْوِي إِلَى زُغْبٍ مَحْدَدَةِ الْعُيُونِ

كَسَاهُنَّ الْبَلَى شُعْنًا فَتَمْسِي جِياعِ النَّاسِ ضَامِرَةِ الْعُيُونِ

ولقد أَصْبَحَنَ الْيَوْمَ وقد سَرَّحَنَ الطرفَ في حَيٍّ كَمَيْتٍ، وفي بيتِ كَلا بيت، وقلْبِنَ الْأَكْفَ على لَيْت، فَقَضَضَنَ عقدَ الضلوع، وَأَفْضَنَ ماءَ الدموع، وتَدَاعَيْنَ بِاسْمِ الجوع: مجزوء الكامل:

والفقر في زمن اللثا م لكل في كرم علامة

وقد اخترتكم يا سادة، ودلتني عليكم السعادة، وقلت: قسماً، إن فيهم شيماً، فهل من فتى يعشيهن، أو يغشيهن؟ وهل من حرٍّ يغذيهن، أو يرديهن؟.

قال عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على سَمْعِي كلامَ رائعٍ ابرعَ مما سمعت، لا جرمَ أنا استمَحْنَا الأوساط، ونَفَضْنَا الأكمام، وَبَحَثْنَا الجيوب؛ وأنلُّنهُ مُطَرَفِي، وأخذت الجماعةُ أَخْذِي، وقلنا له: الحقُّ بأطفالك، فأعرضَ عَنَّا بعد شكر وفاء، ونشرَ مَلاً به فاهُ.

ومن رسائله إلى بعض الرؤساء: خُلِقت - أطل الله بقاء السيد وأدام تأييده - مشروحَ جَنَانِ الصدر، جموحِ عَنَانِ الحلم، فسيح رُقعة الصدر: الطويل:

حمولاً صبوراً لو تعمَّدني الردى لسرْتُ إليه مشرقَ الوجهِ راضياً

ألوفاً وفياً لو رُدِّدت إلى الصبِّا لفارقت شَيْبِي فوجَعَ القلبَ باكياً

والله لأحيلنَّ السيدَ على الأيام، ولأكلنَّ استحالةَ رأيهِ فيَّ على الليالي؛ ولا أزال أصفيه الولاء، وأُسْنِيهِ الثناء، وأفرش له من صدري الدَّهْنَاء، وأُعِيرُهُ أذنًا صماء، حتى يعلمَ أيَّ عِلْقٍ باع، وأيَّ فتى أضاع، وليقفَ موقفَ اعتذار، وليعلمنَّ بُنْصَحَ أتَى الواشون أم بحبول، ولا أقول: يا حالف اذكر حِلاً ولكن يا عاقد اذكر حِلاً ولست كمن يشكو إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أذَى رَهْطِهِ، وَيَسْتَأْقُ إلى رمي يزيد لِسَبْطِهِ، ولكني أقول: الطويل:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزّةٍ من أعراضنا ما استَحَلَّتْ

وأنا أعلم أنَّ السَيِّدَ لا يخرج عن تلك الحلية، بهذه الرُقِيَّة، وأنَّ جوابه أحسنُ من لقائه، فإن نشط للإجابة فلتكن المخاطبةُ قرأتَ رقعتك، فهو أخفّ مؤنة، وأقلّ تَبِعة. وله إلى الشيخ العميد:

أنا - أطل الله بقاء الشيخ العميد - مع إخوان نيسابور، في ضيعة لا فيها أعان، ولا عنها أصان، وشيمة ليست بي تناط، ولا عني تَمَاط، وحرقة لا عني تَزَال، ولا فيها أَدَال، وهي الكُدِيَّة التي عليَّ تَبِعْتُهَا وليس لي منفعتها، فهل للشيخ العميد أن يلطف بصنيعته لطفاً يحيط عنه دَرَنَ العار، وشيمة التكبس بالأشعار، ليخفَّ على القلوب ظلُّه ويرتفع عن الأحرار كلُّه ولا يثقل على الأجفان شَخْصُهُ، بإتمام ما كان عَرَضَهُ عليه من أشغاله، ليعلقَ بأذياله، ويستفيدَ من خلاله؛ فيكون قد صان العلم عن ابتذاله، والفضلَ عن

إذلاله، واشترى حُسْنَ الثناء بجاهه، كما يشتريه بماله، والشيخ العميد فيما يوجهه من وعدٍ يعتمده، ووفاء يتلو ما يعده، عالٍ رأيُه إن شاء الله.

رجع إلى المديح

وقال بعضُ أهل العصر؟ وهو أبو العباس الناشئ، يمدحُ سعد الدولة أبا المعالي شريف بن سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان: البسيط:

كَأَنَّ مَرَأَةَ فَهَمِ الدَّهْرِ فِي يَدِهِ
مَا يَرْفَعُ الْفَلَكَ الْعَالِي سَمَاءَ عَلَاً
يَا مَنْ بَعَيْنِ الرِّضَا يَلْقَى مُؤَمِّلَهُ
لَوْ يَكْتُبُ الْمَلِكُ أَسْمَاءَ الْمُلُوكِ إِذَا
غَرَبَتْ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ
غَرَبَتْ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ

بيته الأول كقول القائل: الطويل:

أُطِّلَ عَلَى الْأَشْيَاءِ حَتَّى كَأَنَّمَا
وَكَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي: الْوَافِرُ:
أُطِّلَ عَلَى كِلَا الْأَفْقَيْنِ حَتَّى
وَأَفْرَطُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَقَالَ: الْمُنْسَرِحُ:
كَأَنَّمَا الْأَرْضُ فِي يَدَيْهِ كُرَةً
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَهَيْبٍ: الطَّوِيلُ:

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ، كَأَنَّمَا
وَقَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ: الْمُتَقَارِبُ:
وَقُوفُكَ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ
كَأَنَّكَ مُطَّلَعٌ فِي الْقُلُوبِ
وَقَالَ الْبَحْثَرِيُّ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ: الطَّوِيلُ:
كَأَنَّكَ عَيْنٌ فِي الْقُلُوبِ بِصِيرَةٍ
وَقَالَ فِي سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ: الْبَسِيطُ:

تَرَى مَا عَلَيْهِ مُسْتَقِيمٌ وَمَائِلٌ

ينال بالظن ما فات اليقين به
 كأن آراءه والظن يجمعها
 ما غاب عن عينه فالقلب يذكره
 وإن تتم عينه فالقلب يقطن

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير: البسيط:

إذا أبو قاسم جادت لنا يده
 وإن أضاعت لنا أنوار غرته
 وإن مضى رأيه أو حد عزمته
 من لم يبت حذراً من خوف سطوته
 ينال بالظن ما يعيا العيان به
 كأنه الدهر في نعيم وفي نعم
 كأنه وزمأم الدهر في يده
 وأصل هذا قول أوس بن حجر: المنسرح:

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وهذا المعنى قد مر في أثناء الكتاب.

قال أبو الحسن جحظة البرمكي: قلت لخالد الكاتب: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أرق الناس شعراً، قلت: أتعرف قول الأعرابي: الطويل: صُرُوف الليالي قذفت بها عاء، وخيمة ضناه وطيبه

بأعظم من وجد بليلي وجدته
 وكانت رياح تحمل الحاج بيننا
 غداة غدونا غدوة واطمأنت
 فقد بخلت تلك الرياح وضنت

فصاح خالد وقال: ويحك! ويلك يا جحظة! هذا والله أرق من شعري.

فصل لأبي العباس بن المعتز

لن تكسب - أعزك الله - المحامد، وتستوجب الشرف، إلا بالحمل على النفس والجلال، والنهوض بحمل الأثقال، وبذل الجاه والمال، ولو كانت المكارم تُنال بغير مؤونة لا شترك فيها السفلى والأحرار، وتساهمها الوضعا مع ذوي الأخطار؛ ولكن الله تعالى حصَّ الكرماء الذين جعلهم أهلها، فحَفَّفَ عليهم حملها، وسوغهم فضلها، وحَظَّرها على السَّفلة لصِغَر أقدارهم عنها، وبعُد طباعهم منها، ونفورها عنهم، واقتسعارها منهم.

وقال أبو الطيب المتنبي: البسيط:

لولا المشقة سادَ الناسُ كلُّهمُ
الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتالُ

وقال الطائي: الكامل:

والحمد شهْدُ لا يرى مشنارُه
لحملة، ويسحبهُ الذي
يجنيه إلا من نقيع الحنظلِ
لم يؤذ عاتقه خفيفَ المحملِ

آخذه الطائي من قول مسلم بن الوليد، وقيل غيره: البسيط:

الجودُ أخشنُ مساً يا بني مطرٍ
ما أعلمُ الناسَ أن الجودَ مدفَعَة
من أن تبرَّكمو كفَّ مُستلَبِ
للدمِّ لكنه يأتي على النَّسبِ

وقال بعض الأجداد: إنا لنجد كما يجد البخلاء، ولكننا نصبر ولا يصبرون.

وقال الجاحظ: قيل لأبي عبَّاد وزير المأمون، وكان أسرعَ الناس غضباً: إنَّ لقمان الحكيم قال لابنه: ما الحمل الثقيل؟ قال: الغضب. قال أبو عبَّاد: لكنه والله أخفُّ عليَّ من الريش! قيل له: إنما عني لقمان أنَّ احتمالَ الغضب ثقيل، فقال: لا، والله لا يَقْوَى على احتمال الغضب من الناس إلا الجمل!.
وغضب يوماً على بعض كتابه، فرماه بدواة كانت بين يديه فشجه فقال أبو عبَّاد: صدق الله تعالى في قوله: "والذين إذا ما غضبوا هم يَعْقِرُونَ". فبلغ ذلك المأمون فأحضره وقال له: ويحك! ما تُحسِّنُ تقرأ آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأحفظ من سورة واحدة ألف آية؛ فضحك المأمون وأمر بإخراجه.

نبذة من لطائف ابن المعتز

وفضل تحقُّقه بالبدیع والاستعارات ممَّا تتعيَّن العناية بمطالعتها:

قال أبو بكر الصولي: اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز، وكان يتحقَّق بعلم البدیع تحقُّقاً ينصُّره دعواه فيه لسانُ مذكراته، فلم يبقَ مَسَلُّك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شِعْباً

من شعابه، وأوردنا أحسن ما قيل في بابه، إلى أن قال أبو العباس ما أحسن استعارة أشتمل عليها بيت واحد من الشعر؟ قال الأسدي: قول لبيد: الكامل:

وَعْدَاةِ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقَرَّةً إِذْ أَصْبَحَتْ بَيْدِ الشَّمَالِ زَمَامَهَا

قال أبو العباس: هذا حسن، وغيره أحمد منه، وقد أخذ من قول ثعلبة بن صغيرة المازني: الكامل:

فَتَذَاكِرًا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا أَلَقْتَ ذُكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ

وقول ذي الرمة أعجب إليّ منه: الطويل:

أَلَا طَرَقْتَ مَيَّ هَيُومًا بِذِكْرِهَا وَأَيْدِي الثَّرِيَّا جُنْحَ فِي الْمَغَارِبِ

وقال بعضنا: بل قول لبيد أيضاً: الكامل:

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْخَيْلَ تَحْمِلَ شَكْتِيفُرْطُ، وَشَاحِي إِنْ غَدَوْتَ لَجَامُهَا

قال أبو العباس: هذا حسن، ولكن نعدل عن لبيد.

وقال آخر: قول الهذلي: الطويل:

وَلَوْ أَنَّنِي اسْتَوْدَعْتَهُ لَاهْتَدَتْ إِلَيْهِ الْمَنَايَا عَيْنُهَا وَرَسُولُهَا

وقال أبو العباس: هذا حسن، وأحسن منه - في استعارة لفظ الاستيداع - قول الحصين بن الحمام؛ لأنه

جمع الاستعارة والمقابلة في قوله: الطويل:

نَطَارِدُهُمْ نَسْتَوْدِعُ الْبَيْضَ هَامَهُمْ وَيَسْتَوْدِعُونَا السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوَّمَا

وقال آخر: بل قول ذي الرمة: الطويل:

أَقَامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى الْعَوْدِ فِي الثَّرَى وَسَاقَ الثَّرِيَّا فِي مَلَاعَتِهِ الْفَجْرُ

قال أبو العباس: هذا لعمرى نهاية الخيرة، وذو الرمة أبدع الناس استعارة، وأبرعهم عبارة، إلا أن الصواب

حتى ذوى العود والثرى؛ لأن العود لا يذوي ما دام في الثرى، وقد أنكره على ذي الرمة غير ابن المعتز.

قال أبو عمرو بن العلاء: كانت يدي في يد الفرزدق فأنشدته هذا البيت، فقال: أرشدك أم أدعك. قال:

فقلت: بل أرشدني، فقال: إن العود لا يذوي في الثرى، والصواب: حتى ذوى العود والثرى.

قال الصولي: وكأنه تبه على ذي الرمة؛ فقلت: بك قوله: الطويل:

وَلَمَّا رَأَيْتَ اللَّيْلَ وَالشَّمْسَ حَيَّةً حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حَشَاشَةَ نَازِعٍ

وقال أبو العباس: اقتدختَ زَندَكَ يا أبا بكر فأوَرَى، هذا بارعٌ جداً، وقد سبقه إلى هذه الاستعارة جرير حيث يقول: الكامل:

تحِيي الروامس رُبْعها وتَجِدُه بعد البلى فُتْمِيتُه الأمطارُ

وهذا بيت جمع الاستعارة والمطابقة، لأنه جاء بالإحياء والإماتة، والبلى والجِدَّة، ولكن ذو الرمة قد استوفى ذِكْرَ الإحياء والإماتة في موضع آخر فأحسَّن، وهو قوله: الطويل:

ونَشَوَانٌ من طولِ النَّعاسِ كأنه بحَبَلَيْنِ في مَشْطُونَةٍ يَتَرَجَّحُ

إذا مات فوق الرَّحْلِ أحييت روحه بذكرِكَ والعِيسُ المراسِلُ جُنْحُ

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بَحْرِ أبي العباس ما غاض معه مَعِينَة، ولم ينهض حتى زودناه من برّه ولطفه نهاية ما اتسعت له حاله.

وقال ابن المعتز: الكامل:

لما رأيت الحبَّ يفضحني ونَمَتْ عليَّ شواهدُ الصَّبِّ

ألقيتُ غيرَكَ في ظنونهم وسَتَرْتُ وَجَهَ الحبِّ بالْحُبِّ

وقال العباس بن الأحنف في هذا المعنى: البسيط:

قد جرَّ الناسُ أذيالَ الظنون بنا وفرَّقَ الناسُ فينا قولَهُمُ فِرْقاً

فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيرُكم وصادقٌ ليس يَدْرِي أَنه صدَقا

وقريب من هذا المعنى قول الفارضي رضي الله عنه، وإن لم يكن منه: الطويل:

تخالفت الأقوال فينا تبايناً برَجْمِ أصولِ بيننا ما لها أصلُ

فشنع قومٌ بالوصلِ، ولم أصل وأرَجَفَ بالسُلوانِ قومٌ ولم أسلُ

وما صدَّقَ التشنيعُ عنها لشقوتي وقد كَذَبَتْ عني الأراجيفُ والنقلُ

وقال ابن المعتز: الطويل:

لنا عَزَمَةٌ صمَاء لا تسمعُ الرُقَى تُبَيِّتُ أنوفَ الحاسدينَ على رَغَمِ

وإنَّا لنعطي الحقَّ من غيرِ حاكم علينا، ولو شِئْنَا لَمِلْنَا مع الظلمِ

وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابي الطويل:

ألا يا شفاءَ النفسِ ليس بعالمٍ بك الناسُ حتى يعلموا ليلةَ القَدْرِ

سوى رَجْمِهِم بالظنِّ والظنُّ كاذِبٌ مراراً وفيهم مَنْ يُصِيبُ ولا يَدْرِي

وقال الحسين بن مطير: الطويل:

لقد كنتُ جلدًا قبل أن تُوقِدَ النوى
ولو تُرِكَتْ نارُ الهوى لتضرمتُ
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ صبابتي
فقد جعلتُ في حبة القلبِ والحشا
بمرتجةِ الأردافِ هيفَ خُصورها
وصُفْرَ تراقيها، وحمْرَ أكفها
مُخَضَّرَةَ الأوساطِ، زانتَ عقودها
يمنِّينًا حتى تَرَفَّ قلوبنا
وفيهنَّ مِلاقِ الوشاح كأنها

وقال: الطويل:

قضى الله يا أسماءُ أن لستُ بارحاً
أحبك حتى يُغمض العينَ مُغمضُ

فحبك بلوى غير أن لا يسرني
فوا كبدًا من لوعةِ البين كلما
ومن عبرة تُذري الدموع وزفرة
فيا ليتني أفرضتُ جلدًا صبابتي
إذا أنا رُضتُ القلب في حُب غيره
وإن كان بلوى أنني لك مُبغضُ
ذكرتُ ومن رفض الهوى حين يرفض
تقصض أطراف الحشا ثم تنهض
وأقرضني صبراً على الشوق مُقرضُ
بدًا حبُّها من دونه يتعرّض

وكان الحسين قويَّ أسرِ الكلام، جَزَلَ الألفاظ، شديدَ العارِضة، وهو القائل في المهدي: الطويل:

له يومٌ بُؤس فيه للناس أبؤسُ
فيُمطر يوم الجود من كفه الندى
فلو أن يومَ البؤس خلى عقابه
ولو أن يوم الجود خلى نواله
ويومٌ نعيم فيه للناس أنعمُ
ويَقْطُرُ يومَ البؤس من كفه الدمُ
على الناس لم يصبح على الأرض مُجرمُ
على الأرض لم يصبح على الأرض مُعْدِمُ

وأنشد أبو هفان له: الخفيف:

أين أهل العتاب بالدهناء؟ أين جيراننا على الأحساء؟
 جاورونا والأرض ملبسة نوّ كل يوم بأقحوان جديد
 رَ الأقاحي تُجَادُ بالأنواء تَضْحَكُ الأرضُ من بكاء السماء
 أخذ هذا المعنى دعبل، ونقله إلى معنى آخر، فقال: الكامل:
 أين الشباب؟ وأية سلكا؟ أم أين يُطَلَب؟ ضلّ، بل هلكا
 لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
 وقال مسلم بن الوليد في هذا المعنى: السريع:
 مُستعبر يبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب
 وأنشد الزبير بن بكار: الوافر:
 أحبّ معالي الأخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
 وأصفح عن سباب الناس حلماً وشرُّ الناس من حبّ السبابا
 وأترك قائل العوراء عمداً لأهلكه وما أعيا الجوابا
 ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

رياضة النفس على الفراق

وعلى ذكر قوله: الطويل:
 إذا أنا رُضْتُ القلبَ في حُبِّ غيرها أنشد الأصمعي لغلام من بني فزارة: الطويل:
 وأعرض حتى يحسبَ الناسُ أنما بي الهجر، لا والله ما بي لها هجر
 ولكن أروضُ النفسَ أنظر هل لها إذا فارقت يوماً أحبَّتها صبر
 قال إسحاق الموصلي: قال لي الرشيد: ما أحسن ما قيل في رياضة النفس على الفراق؟ قلت: قول أعرابي:
 الطويل:
 وإنني لأستحي عيوناً، وأتقي كثيراً، وأستبقي المودة بالهجر
 فأندِرُ بالهجران نفسي أروضها لأعلم عند الهجر هل لي من صبر
 فقال الرشيد: هذا مليح، ولكني أستملح قول أعرابي آخر: الطويل:

خشيت عليها العَيْنَ من طولِ وَصْلِهَا فهاجَرْتُها يومينِ خوفاً من الهَجْرِ
وما كان هِجْراني لها عن مَلَالَةٍ ولكنني جَرَبْتُ نفسي بالصبرِ
قال الصولي: قال لي المبرد: عمك إبراهيم بن العباس أحزمُ رأياً من خاله العباس بن الأحنف في قوله:
المنسرح:

كان خُرُوجي من عندكم قَدَرًا وحادثاً من حوادثِ الزمنِ
من قبل أن أعرض الفراق على قَلْبِي، وأن أستعدَّ للحَزَنِ
وقال عمك إبراهيم: الطويل:

وناجيتُ نفسي بالفراقِ أروضُها فقالت: رُوَيْدًا لا أغرُك من صَبْرِي
فقلتُ لها: فالهَجْرُ والبَيْنُ وَاحِدٌ فقالت أُمْنَى بالفراقِ وبالهَجْرِ؟
فقلتُ له: إنه نقلَ كلامَ خاله: الطويل:

عرضتُ على قَلْبِي الفِراقَ فقال لي من الآنَ فإيَّاسُ لا أغرُك من صَبْرِي
إذا صَدَّ من أهْوَى رجوتُ وصاله وفرقةٌ منْ أهْوَى أحرُّ من الجَمْرِ
وقال العباس بن الأحنف: الطويل:

أروض على الهِجْرانِ نفسي لعلَّها تَماسكُ لي أسبابُها حينَ هَجْرِ
وأعلمُ أنَّ النفسَ تكذبُ وَعَدَها إذا صدقَ الهِجرانُ يوماً وتغدرُ
وما عرضتُ لي نظرةً مُدُّ عرفتُها فأَنْظِرُ إلا مُتَلَّتْ حينَ أَنْظِرُ
وقال المتنبي من المعنى: الطويل:

حَبَبْتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّي مَنْ نَأَى وقد كان غداراً فكن أنتَ وافيًا
وأَعْلَمُ أنَّ البَيْنَ يُشْكِيكَ بعدها فلستَ فَوَادِي إن وجدْتُكَ شاكياً
قال الحاتمي: والذي أراه وأذهب إليه أن أحسن من هذا المعنى قول أبي صخر الهذلي: الطويل:

ويمنعني من بعضِ إنكارِ ظَلَمِها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عُذْرُ
مخافةً أنِّي قد علمت لئن بَدَا لي الهَجْرُ منها ما على هَجْرِها صَبْرُ
وإني لا أدري إذا النفسُ أَشْرَفَتْ على هَجْرِها ما يَبْلُغُنْ بي الهَجْرُ
فيا حَبَّها زِدْني جوًى كل ليلةٍ ويا سَلْوةَ الأحزانِ مَوْعِدِكَ الحَشْرُ

شذور من كلام أهل العصر

في مكارم الأخلاق

ابن المعتز - العقل غريزة تزينها التجارب. وله: العاقل من عقل لسانه، والجاهل من جهل قدره. غيره: إذا تم العقل نقص الكلام، حُسن الصورة الجمال الظاهر، وحسن الخلق الجمال الباطن. ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إذا لم يُصدئها الهوى. العاقل لا يدعه ما ستر الله من عيوبه أن يفرح بما أظهر من محاسنه. بأيدي العقول تُمسك أعنة النفوس عن الهوى. أحر بمن كان عاقلاً أن يكون عمّا لا يعنيه غافلاً. التواضع من مصايد الشرف. من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره. يحيى بن معاذ - التكبر على المتكبر تواضع. الحلم حجاب الآفات. أحيوا الحياء بمجاورة من يُستحي منه. مَنْ كساه الحياء ثوبه، ستر عن الناس عيبه. الصبر تجرّع الغصص، وانتظار الفُرص. قلوب العقلاء حصون الأسرار. انفرّد بسرّك ولا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. الأناة حُسن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. من حُسن خلقه وجب حقه. إنّما يستحق اسم الإنسانية مَنْ حُسن خلقه. يكاد سيئ الخلق يُعدّ من البهائم والسباع.

أرسطاطاليس - المروءة استحياء المرء نفسه. المعروف حصن النعم من صروف الزمن. للحازم كثر في الآخرة من علمه، وفي الدنيا من معرفته. لا تستحي من القليل فإن الحرمان أقل منه. أبو بكر الخوارزمي - الطرف يجري وبه هُزال والسيف يمضي وبه انقلال، والحر يُعطي وبه إقلال. بذل الجاه أحد المالين. شفاعَةُ اللسان أفضل زكاة الإنسان. بذل الجاه رفد للمستعين. الشفيع جناح الطالب. التقوى هي العدة الباقية، والجنة الواقعة. ظاهر التقوى شرف الدنيا، وباطنها شرف الآخرة. من عفت أطرافه، حسنت أوصافه. قال أبو الطيب المتنبي الطويل:

ولا عفة في سيفه وسنانه **ولكنها في الكف والفرج والفم**

لقمان - الصمت حُكمٌ وقليل فاعله. أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُميت عن قوسٍ واحدة؛ قال كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وندمتُ على ما قلت مراراً. قيصر: أنا على ردّ ما لم أقل أقدرُ مني على ردّ ما قلت. ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتي، وإذا لم أتكلّم بها ملكتها. ملك الهند: عَجِبْتُ مَنْ يتكلّم بالكلمة إن رُفِعَتْ ضرّته، وإن لم تُرَفَع لم تنفعه. ما الدخان على النار، ولا العجاج على الريح، بأدلّ من ظاهر الرجل على باطنه، وأنشد: الكامل:

قد يُستدلّ بظاهر عن باطن **حيث الدخان فتمّ موقد نار**

مَنْ أَصْلَحَ مَالَهُ فَقَدْ صَانَ الْأَكْرَمِينَ الْمَالَ وَالْعَرِضَ. مَنْ لَمْ يَحْمَدِ فِي التَّقْدِيرِ وَلَمْ يَذْبِ فِي التَّدْبِيرِ فَهُوَ سَدِيدُ التَّدْبِيرِ. عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ، لَا مَنَعَ وَلَا إِسْرَافَ، وَلَا بَخْلَ وَلَا إِتْرَافَ. لَا تَكُنْ رَطْبًا فُتْعَصَرَ، وَلَا يَابِسًا فَتَكْسَرَ، وَلَا حُلُوءًا فَتُسْتَرَطَ، وَلَا مَرًّا فَتُلْفَظَ.

المأمون بن الرشيد - الشاء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهَذَرٌ، والتقصير عِيٌّ وَحَصَرٌ.

إِكْرَامُ الْأَضْيَافِ، مِنْ عَادَةِ الْأَشْرَافِ. وَفِي الْخَيْرِ: لَا تَتَكَلَّفُوا لِلضَّيْفِ فَتَبْغِضُوهُ؛ فَمَنْ أَبْغَضَ الضَّيْفَ أَبْغَضَهُ اللَّهُ. يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْكَرِيمِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ إِذَا جَمَعَتْهُمَا نَبْوَةُ الزَّمَانِ، فَلَيْسَ يَنْتَفِعُ بِالْجَوْهَرَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ نَفَاقَهَا.

مواظع عقلها بعض أهل العصر

تتعلق بهذا الفصل

أَغْضَى عَلَى الْقَدَى، وَإِلَّا لَمْ تَرْضَ أَبَدًا. أَجْمِلِ الطَّلِبَ فسيأتيك ما قُدِرَ لَكَ، صُنْ عَرْضَكَ، وَإِلَّا أُخْلَقَتْ وَجْهَكَ. جَاوِرِ النَّاسَ - بِالْكَفِّ عَنْ مَسَاوِيهِمْ. ائْسِرْ رِفْدَكَ، وَلَا تَنْسَ وَعْدَكَ، كَذَّبَ أَسْوَاءُ الظُّنُونِ بِأَحْسَنِهَا. أَغْنِ مِنْ وَلِيَّتِهِ عَنِ السَّرْقَةِ، فَلَيْسَ يَكْفِيكَ مَنْ لَمْ تَكْفِهِ. لَا تَتَكَلَّفْ مَا كُفِّتَ فَيُضِيعَ مَا أُولِيَتْ. ابْنُ الْمُعْتَزِ - لَا تَسْرَعْ إِلَى أَرْفَعِ مَوْضِعٍ فِي الْمَجْلِسِ، فَالْمَوْضِعُ الَّذِي تُرْفَعُ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي تُحْطُ مِنْهُ. لَا تَذْكُرِ الْمَيْتَ بِسُوءٍ فَتَكُونَ الْأَرْضُ أَكْتَمَ عَلَيْهِ مِنْكَ. يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُدَارِيَ زَمَانَهُ مَدَارَاةَ السَّابِحِ لِلْمَاءِ الْجَارِي.

العتابي - المَدَارَاةُ سِيَاسَةٌ رَفِيعَةٌ تَجْلِبُ الْمَنْفَعَةَ، وَتُدْفِعُ الْمَضَرَّةَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا مَلِكٌ وَلَا سُوقَةٌ، وَلَا يَدَعُ أَحَدٌ مِنْهَا حَظَّهُ إِلَّا غَمَرَتْهُ صُرُوفُ الْمَكَارِهِ.

أخبار العتابي

وَكُتِبَ الْعَتَابِيُّ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ: لَوْ اعْتَصَمْتُ شَوْقِي إِلَيْكَ بِمِثْلِ سُلُوكِ عَنِي لَمْ أَبْذُلْ وَجْهَ الرِّغْبَةِ إِلَيْكَ، وَلَمْ أَتَجَشَّمْ مَرَارَةَ تَمَادِيكَ، وَلَكِنْ اسْتَخَفَّتْنَا صِبَابَتُنَا، فَاحْتَمَلْنَا قَسَوَتَكَ، لِعَظِيمِ قَدْرِ مَوَدَّتِكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مِنْ اقْتِصَافِ لَصَلَّتِنَا مِنْ جَفَائِهِ، وَلَشَوْقِنَا مِنْ إِبْطَائِهِ.

وله: كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَنَفْسِي رَهِينَةٌ بِشُكْرِكَ، وَلَسَانِي عُلِقَ بِالشَّاءِ عَلَيْكَ، وَالْغَالِبُ عَلَى ضَمِيرِي لَائِمَةٌ لِنَفْسِي، وَاسْتِقْلَالٌ لِهَيْدِي فِي مَكَافَأَتِكَ، وَأَنْتَ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ! - فِي عِزِّ الْغِنَى عَنِي، وَأَنَا تَحْتَ ذُلِّ الْفَاقَةِ إِلَى عَطْفِكَ، وَلَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِكَ أَنْ تُؤَلِّيَ جَانِبَ النَّبْوَةِ مِنْكَ مَنْ هُوَ عَانٍ فِي الضَّرَاعَةِ إِلَيْكَ.

ودخل العتابي على الرشيد فقال: تكلم يا عتابي؛ فقال: الإيناس قبل الإيساس، لا يُحمدُ المرءُ بأول صوابه، ولا يُدَّمُ بأول خطئه؛ لأنه بين كلام زوره، أو عيِّ حصره. ومراً العتابي بأبي نُوَّاس وهو ينشد الناس: الخفيف:

فبكى صَبَوَةً وَلَاتِ أَوَانٍ

ذكر الكَرخَ نازح الأوطان

فلَمَّا رآه قام إليه، وسأله الجلوس، فأثنى وقال: أين أنا منك وأنت القائل، وقد أنصفك الزمان: الخفيف:

أَمْنَتْنَا طَوَارِقَ الْحَدَثَانِ

قد عَلَقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ حَبَالاً

وأنا القائل وقد جار عليّ، وأساء إليّ: الخفيف:

فَاءَ دُونِي، وَمَلَنِي جِيرَانِي

لَفْظَتْنِي الْبِلَادُ، وَانْطَوَتْ الْأَكْ

رِ فَمَا جَبْتُ بِكُلِّ وَجِرَانِ

والتَقَتْ حَلَقَةُ عَلِيٍّ مِنَ الدَّهْ

س وَهَدَّتْ خَطْوُهَا أَرْكَانِي

نازعتني أحداثها مُنِيَّةَ النَفْ

ب كَثِيبٌ لِنَائِبَاتِ الزَّمَانِ

خَاشِعٌ لِلْهَمُومِ مُعْتَرِفُ الْقَلْ

من كلام الأعراب

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي: سمعت عمِّي يحدث قال: أَرَقْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بِالْبَادِيَةِ، وَكُنْتُ نَازِلًا عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي الصَّيْدَاءِ، وَكَانَ وَاسِعَ الرَّحْلِ، كَرِيمَ الْمَحَلِّ! فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَتَيْتُ أَبَا مَثْوَايَ، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ هَلَعْتُ مِنَ الْعُرْبَةِ، وَاشْتَقْتُ إِلَى أَهْلِي، وَلَمْ أَفِدْ فِي قَدَمِي هَذِهِ كَبِيرَ عِلْمٍ. وَإِنَّمَا كُنْتُ أَغْتَفِرُ وَحْشَةَ الْغُرْبَةِ وَجَفَاءَ الْبَادِيَةِ لِلْفَائِدَةِ، فَأَظْهَرَ الْجَفَاوَةَ حَتَّى أَبْرَزَ غَدَاءَ لَهُ فَتَغَدَّيْتُ، وَأَمَرَ بِنَاقَةِ مَهْرِيَّةٍ كَأَنَّهَا سَبِيكَةُ لَجَيْنَ فَارْتَحَلَهَا وَاکْتَفَلَهَا، ثُمَّ رَكَبَ وَأَرْدَفَنِي، وَأَقْبَلَهَا مُطْلِعَ الشَّمْسِ؛ فَمَا سِرْنَا كَبِيرَ مَسِيرٍ حَتَّى لَقِينَا شَيْخًا عَلَى حِمَارٍ، لَهُ جُمَّةٌ قَدْ صَبَغَهَا بِالْوَرَسِ، كَأَنَّهَا قَنِيبُطَةٌ، وَهُوَ يَتَرَنَّمُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ صَاحِبِي، وَسَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ فَاعْتَرَى أَسَدِيًّا مِنْ بَنِي تَعْلَبَةَ. قَالَ: أَتُرَوِي أَمْ تَقُولُ؟ قَالَ: كَلَّا قَالَ: أَيْنَ تَوْؤُمُ؟ فَأَشَارَ إِلَى مَوْضِعٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ فَأَنَاخَ الشَّيْخُ، وَقَالَ لِي: خُذْ بِيَدِ عَمِّكَ فَأَنْزِلْهُ عَنْ حِمَارِهِ، فَفَعَلْتُ، وَأَلْقَى لَهُ كِسَاءً قَدْ اكْتَفَلَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْشِدْنَا، يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَتَصَدِّقْ عَلَى هَذَا الْغَرِيبِ بِأَيَّاتٍ يَشْهَنُ عَنْكَ، وَيَذْكُرُكَ بَيْنَ، فَأَنْشِدْنِي لَهُ: الطويل:

وَدُونَ الْجَدَا الْمَأْمُولِ مِنْكَ الْفِرَاقُ

لَقَدْ طَالَ يَا سَوْدَاءُ مِنْكَ الْمَوَاعِدُ

ضَبَابٌ، فَلَا صَحْوٌ، وَلَا الشَّيْمُ جَائِدٌ

تُمْنَيْنَا بِالْوَصْلِ وَعَدَاً، وَغَيْمُكُمْ

إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتَ الْغِنَى ثُمَّ لَمْ تَجِدْ
وَقَلَّ غِنَاءٌ عَنْكَ مَالٌ جَمَعْتَهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرُكْ بِجَنَبِيكَ بَعْضَ مَا
إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَغْلِبْ لَكَ الْجَهْلُ لَمْ تَزَلْ
إِذَا الْعَزْمُ لَمْ يَفْرُجْ لَكَ الشُّكُّ لَمْ تَزَلْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرَكْ طَعَاماً تُحِبُّهُ
تَجَلَّلتَ عَاراً لَا يَزَالُ يَشْبُهُ
بِفَضْلِ الْغِنَى أَلْفَيْتَ مَا لَكَ حَامِداً
إِذَا صَارَ مِيراثاً وَوَارَاكَ لَاحِداً
يَرِيبُ مِنَ الْأَدْنَى رِمَاكَ الْأَبَاعِدُ
عَلَيْكَ بُرُوقُ جَمَّةٍ وَرَوَاعِدُ
جَنِيباً كَمَا اسْتَتَلَى الْجَنِيْبَةَ قَائِداً
وَلَا مَقْعَداً تَدْعُو إِلَيْهِ الْوَلَائِدُ
عَلَيْكَ الرِّجَالُ نَثَرَهُمُ وَالْقَصَائِدُ

وَأُنشِدُنِي لِنَفْسِهِ: الطويل:

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحَرِّ أَجْمَلُ
فَلَوْ كَانَ يُغْنِي أَنْ يُرَى الْمَرْءُ جَازِعاً
لَكَانَ التَّعَزُّيُّ عِنْدَ كُلِّ مُصِيبَةٍ
فَكَيْفَ وَكُلُّ لَيْسَ يَعْدُو حِمَامَةً
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ
فَمَا لَيْتَنَتْ مِنَّا قَنَاطَةٌ صَلِيبَةٌ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوساً كَرِيمَةً
وَقَيْنَا بِحَدِّ الْعَزْمِ مِنَّا نَفُوسَنَا
وَلَيْسَ عَلَى رَيْبٍ الزَّمَانُ مُعَوَّلُ
لِنَازِلَةٍ أَوْ كَانَ يُغْنِي التَّنْذِلُ
وِنَازِلَةٍ بِالْحَرِّ أَوْلَى وَأَجْمَلُ
وَمَا لَامَرِيَّ مِمَّا قَضَى اللَّهُ مَزْحَلُ
بِنَعْمَى وَبِؤْسَى وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ
وَلَا ذَلَّلْتَنَا لِلَّذِي لَيْسَ يَجْمَلُ
تُحْمَلُ مَا لَا يَسْتَطَاعُ فَتَحْمَلُ
فَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هَزَلُ

قال: فقمتم إليه، وقد نسيت أهلي، وهان علي طول الغربة، وضنك العيش، سروراً بما سمعت، ثم قال: يا بني؛ من لم يكن الأدب والعلم أحب إليه من الأهل والولد لم ينجب.

بين قرشي وعمر بن عثمان

خاصم بعض القرشيين عمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمر، فأسرع إليه القرشي فقال: على رسلك، فإنك لسريع الإيقاد، وشيك الصريمة، وإني والله ما أنا مكافئك دون أن تبلغ غاية التعدي، فأبلغ غاية الإعذار.

الدعاء

قال عبد الله بن عبد العزيز، وكان من أفاضل أهل زمانه: قال لي موسى بن عيسى: أنهي إلى أمير المؤمنين، يعني الرشيد، أنك تشتمه، وتدعو عليه، فبأي شيء استجرت ذلك. قال: إنا شتمناه فهو والله إذا أكرم علي من نفسي، وأما الدعاء عليه فوالله ما قلت: "اللهم إنه أصبح عبثاً ثقيلاً على أكتافنا، لا تطيقه أبداننا، وقذى في عيوننا، لا تنطبق عليه أجفاننا، وشجى في حلوقنا، لا تسيغه أفواهنا؛ فاكفنا مؤنته، وفرق بيننا وبينه!" ولكني قلت: "اللهم إن كان تسمى الرشيد ليرشد فأرشد، أو أتى غير ذلك، فراجع به، اللهم إن له في الإسلام حقاً على كل مسلم، وله نبيك قرابة ورحماً، فقربه من كل خير، وباعده من كل شر، وأسعدنا به، وأصلحه لنفسه ولنا". فقال له: يغفر الله لك يا عبد العزيز، كذلك بلغنا.

من أخبار الخليفة الرشيد

ولما حج الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيى بن خالد؛ فانبرى إليه العُمري فقال: يا أمير المؤمنين، قف حتى أكلمك! فقال: أرسلوا زمام الناقة، فأرسلوه، فوقفت فكأنما أوتدت، فقال: أقول؟ قال: قل، فقال: اعزل عنا إسماعيل بن القاسم قال: ولم؟ قال: لأنه يقبل الرشوة، ويُطيل النشوة، ويضرب بالعشوة، قال: قد عزلناه عنك، ثم التفت إلى يحيى فقال: أعندك مثل هذه البديهة؟ فقال: إنه ليجب أن يحسن إليه، قال: إذا عزلنا عنه من يريد عزله فقد كافأناه.

حُرمة الكعبة

ولما وجّه عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وأوصاه بما أراد أن يوصيه، قال الأسود بن الهيثم النخعي: يا أمير المؤمنين، أوص هذا الغلام الثقفي، بالكعبة ألا يهدم أحجارها، ولا يهتك أستارها، ولا يُنفّر أطيّارها، وليأخذ على ابن الزبير شعابها، وعقابها، وأنقابها، حتى يموت فيها جوعاً، ويخرج مخلوعاً.

من أخبار عبد الله بن طاهر

وكتب عبد الله بن طاهر إلى نصير بن شبيب وقد نزل به ليحاربه في جُنْدِه، فوجده متحصناً منه، فكتب إليه: اعتصامك بالقلال قيّد عزمك عن القتال، والتجاؤك إلى الحصون ليس ينجيك من المنون، ولست بمُفْلِتٍ من أمير المؤمنين، فإما فارس مُطاعين، أو راجل مستأمن. فلما قرأه حصره الرعب عن الجواب، فلم يلبث أن خرج مستأماً.

من حكم الفرس

قال بزرجمهر بن البختكان لبعض الملوك: أنعم تُشكر، وأرهَبُ تُحذر، ولا تهازل فتحقر فجعلهنَّ الملك نَقَشَ خاتمه بدلاً من اسمه واسم أبيه.

ولما قتل أنوشروان بزرجمهر وجد في منطقته رقعةً فيها مكتوبٌ: إذا كانت الحظوظ بالجدود فما الحرص؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور؟ وإذا كانت الدنيا غرارة فما الطمأنينة؟.

قال سقراط: من كثر احتمالُه وظهر حلمُه قلَّ ظلمُه وكثر أعوانه، ومن قلَّ همُّه على ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه وطال عمره. وقال: من تعاهد نفسه بالحاسبة أمن عليها المداهنة. وقال: الأمانُ حبالُ الجهل، والعشيرةُ الحسنة وقايةٌ من الأسواء.

وشتمه بعضُ الملوك - وكان على فرس وعليه حُلٌّ وبزة - فقال له سقراط: إنما تفخر عليّ بغير جنسك، ولكن ردّ كلَّ جنس إلى جنسه وتعال الآن فلتكلم.

وقال سقراط: من أعطى الحكمة فلا يجزع لفقدِ الذهب والفضة؛ لأن من أعطى السلامة والدعة لا يجزع لفقدِ الألم والتعب؛ لأن ثمارَ الحكمة السلامة والدعة، وثمار الذهب والفضة الألم والتعب، وقال: القنية ينبوع الأحزان، فأقللوا القنية تقلَّ همومكم. وقال: القنية مخدومة، ومن خدم غير نفسه فليس بحرّ.

وقال أبو الطيب: الخفيف:

يا فيا ليت جودها كان بُخلًا

أبدًا تسترِدُّ ما تهَبُ الدن

وكفتْ كَوْنُ فَرَحَةٍ تُورِثُ الهَمَّ وَخِلٌ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلًا

من حكم الهند

وفي كتاب الهند: العاقلُ حقيقٌ أن تسخو نفسه عن الدنيا، علماً بأنه لا ينالُ أحدٌ منها شيئاً إلا قلَّ إمتاعه به وكثُرَ عناؤه فيه، ووبأله عليه، واشتدت مؤنته عند فراقه، وعلى العاقل أن يدوم ذكرُه لما بعد هذه الدار، ويتتره عمّا تسيره إليه نفسه من هذه العاجلة، ويتجنَّب عن مشاركة الكفرة والجهال في حبِّ هذه الفانية التي لا يألُفها ولا ينخدع بها إلا المغترون.

وفيه: لا يجِدَنَّ العاقلُ في صحبة الأحاب والأخلاء، ولا يحرصن على ذلك كل الحرص. فإن صُحبتهم على ما فيها من السرور كثيرة الأذى، والمؤنات، والأحزان، ثم لا يفي ذلك بعاقبة الفراق.

وفيه: ليس من شهوات الدنيا ولذاتها شيء إلا وهو مولدٌ أذى وحُزنًا، كالماء المالح الذي كلما ازداد له صاحبه شرباً ازداد عطشاً، وكالقطعة من العسل في أسفلها سم للذائق؛ فيه حلاوة عاجله، وله في أسفلها

سم دُعا، وكأحلام النائم التي تسرُّه في منامه، فإذا استيقظ انقطع السرور، وكالبرق الذي يُضيء قليلاً، ويذهب وشيكاً، ويبقى صاحبه في الظلام مُقيماً، وكدودة الإبريسم ما ازدادت عليه لفاً إلا ازدادت من الخروج بعداً.

وفيه: صاحبُ الدين قد فكر؛ فعَلَّته السكينة، وسكَن فتواضع، وقَنع فاستغنى، ورَضِيَ فلم يهتم، وخلع الدنيا فَنَجَّ من الشرور، ورفض الشهوات فصار حراً، وطرح الحسد فظهرت له المحبة، وسَخَتْ نفسه عن كل فَن، فاستكَمَل العقل، وأبصر العاقبة، فأَمِنَ الندامة، ولم يُؤذِ الناسَ فيخافهم، ولم يُذنب إليهم فيسألهم العفو.

وصية عتبة بن أبي سفيان

لمولاه سعد القصر:

وقال سعد القصر مولى عتبة بن أبي سفيان: ولأني عُتَبَ أمواله بالحجاز، فلما ودَّعته قال: يا سعد، تعاهدْ صغيرَ مالي فيكبر، ولا تحف كبيره فيصغر؛ فإنه ليس بَمَعْنِي كثير ما عندي، من إصلاح قليل ما في يدي، ولا يَمْنَعُنِي قليل ما عندي من كثير ما ينوبني. قال: فقدمت الحجازَ، فحدثت به رجالاً من قريش، ففرقوا به الكتبَ إلى الوكلاء.

من حكم يزيد بن معاوية

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد: إن أباك كَفَى أخاه عظيماً، وقد استكفيتك صغيراً، فلا تَكُنْ مني على عُدْر، فقد اتكلت منك على كفاية، ولأنَّ أقولَ لك: إياك، أحبُّ إليَّ من أن أقول: إياي؛ فإن الظنَّ إذا أخلف فيك أخلف منك، فلا تُرِحْ نفسك وأنت في أدنى حظِّك، حتى تَبْلُغَ أقصاه؛ واذكرْ في يومك أخبارَ غَدِك، واستزِدْني بإحسانك إلى أهل الطاعة، وإساءتك إلى أهل المعصية، أَرَدَك إن شاء الله تعالى.

أبو الأسود الدؤلي والعمامة

ذكرت العمامة عند أبي الأسود الدؤلي فقال: جُنَّةٌ في الحرب، ودثارٌ في البرد، وكَنَّةٌ في الحرِّ، ووَقَارٌ في النَدِيِّ، وشرفٌ في الأحداثِ، وزيادةٌ في القامة، وهي بعد عادةٌ من عادات العرب.

من إنشاء ابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري: وقفت على ما وصفت من برِّ مولانا الأمير لك، وتوفُّره بالفضل عليك، وإظهار جميل رأيهِ فيك، وما أنزله من عارفةٍ لديك؛ وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاية، وإنما العجب أن يَقْصُر شيء من مساعيهِ عن تَيْلِ المجد كله، وحيازة الفضل بأجمعه؛ وقد رجوتُ أن يكون ما يغرسه من صنيعَةٍ عندك أجدر غرس بالزكاء، وأضمنه للريِّع والنماء، فارغَ ذلك، واركب في الخدمة طريقة تُبعدك من الملال، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تَسْتَرْسِلْ إلى حسن القبول كل الاسترسال؛ فلأن تُدعى من بعيد خيرٌ من أن تُقصى من قريب، وليكن كلامك جواباً تتحرَّرَ فيه من الخطلِ ومن الإسهاب، ولا يعجبك تأتي كلمة محمودة فيلج بك الإطناب تَوْقِعاً لمثلها؛ فرمما هدمت ما بنته الأولى، وبضاعتك في الشرف مُزجاة، وبالعقل يزِمُّ اللسان، ويرام السداد، فلا يستفزتك طربُّ الكلام على ما يفسد تمييزك؛ والشفاعة لا تعرض لها فإنها مُخلَّقةٌ للجاه؛ فإن اضطرت إليها فلا تمجم عليها حتى تعرف موقعها، وتحصِّلَ وزنها، وتطالع موضعها؛ فإن وجدت النفس بالإجابة سَمَحَةً، وإلى الإسعاف هَشَّةً، فأظهر ما في نفسك غير محقق، ولا توهم أن عليك في الرد ما يُوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاقٌ وجهك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك، لينخف كلامك، ولا يثقل على سامعه منك. أقول ما أقولُ غيرَ واعظ ولا مُرشد، فقد جَمَل اللهُ خصالك، وحسَّنَ خلالك، وفضَّلَكَ في ذلك كله؛ لكني أُنَبِّهُ تنبيه المِشَارِكِ له، وأعلم أن للذكرى موضعاً منك لطيفاً.

وله أيضاً: سألتني عمن شَفَّني وَجَدِّي به، وشغفني حُبِّي له، وزعمت أني لو شئت لذهلت عنه، ولو أردت لاعتضت منه: الكامل:

زعماء، لعمرُ أبيك، ليس بمزعم

كيف أسلو عنه وأنا أراه، وأنساه وهو لي تُجاه؛ هو أغلب عليّ وأقربُ إليّ، من أن يُرخي لي عناني، أو يخيِّلني واختياري، بعد إختلاطي بملكه، ونُخرَاطي في سلكه، وبعد أن ناط حُبّه بقلبي ناطٍ وساطه بدمي سائط. وهو جارٍ مَجْرَى الرُّوح في الأعضاء، متنسِّم تنسِّم روح الهواء؛ إن ذهبَتْ عنه رجعت إليه، وإن هربَتْ منه وقَعَتْ عليه وما أَحَبَّ السلو عنه مع هَنَاتِهِ، وما أَوْثَرَ الخلوُّ منه مع مَلَاتِهِ؛ هذا على أنه إن أقبل عليّ بَهْتِي إقباله، وإن أَعْرَضَ عني لم يَطْرُقْني خياله، يبعد عني مثاله، ويقرب من غيري نواله، ويردُّ عيني حاسئة، ويثني يدي خالية، وقد بسط آفات العيون المقاربة، وصدق مرامي الظنون الكاذبة، وصله يُنذِرُ

بصدّه، وقُرْبُهُ يُؤْذِنُ ببعده، يُدْني عندما يترج، وَيَأْسُو مثل ما يجرح، محالته أحوال، وخلته خلال، وحكمه سجال، الحُسْنُ في عَوَارِفِهِ، والجَمَالُ من منائحِهِ، والبهاءُ من أصولهِ وصِفَاتِهِ، والسَّئَاءُ من نعوتِهِ وسِمَاتِهِ، اسْمُهُ مطابقٌ لمعناه، وفَحْوَاهُ موافقٌ لَنَجْوَاهُ، يتشابه حالاه، ويتضارع قُطْرَاهُ، من حيث تلقاه يستنير، ومن حيث تَنَسَّاهُ يستدير.

وباء الكوفة

وقع بالكوفة وباءٌ، فخرج الناسُ وتفرَّقوا بالنحف، فكتب شريح إلى صديق له خرج بخروج الناس: أما بعد، فإنك بالمكان الذي أنت فيه بعين من لا يُعجزه هَرَبٌ، ولا يَفُوتُهُ طلبٌ؛ وإن المكانَ الذي خلَّفتَ لا يعجِّلُ لأحد حِمَامَهُ، ولا يظلمه أَيَّامَهُ، وإنا وإياك لعلَى بساطٍ واحدٍ، وإنَّ النحف من ذي قدرة لقريب. وهرب أعراي ليلاً على حمارٍ حَذَاراً من الطاعون، فبينما هو سائر إذ سمع قائلاً يقول: الرجز:

لن يُسبقَ اللهُ على حمارٍ ولا على ذي مِيعَةٍ طيارٍ
أو يأتِيَ الحَتَفُ على مقدارٍ قد يصبح اللهُ أمامَ الساري

فكرّ راجعاً، وقال: إذا كان الله أمام الساري فلات حين مَهْرَب.

جوى الشوق

قال الأصمعي: أخبرني يونس بن حبيب قال: أتى قومٌ إلى ابن عباس بفتى محمول ضِعْفاً، فقالوا: استشفِ لهذا الغلام، فنظر إلى فتى حُلُو الوجه، عاري العظام، فقال له: ما بك؟ فقال: الطويل:

بنا من جوى الشوق المبرِّحَ لَوَعَةً تكادُ لها نفسُ الشفيقِ تَذُوبُ
ولكنما أبْقَى حُشاشَةً ما نَرَى على ما به عُوْدٌ هناك صليْبُ

فقال ابنُ عباس: أرايتم وجهاً أعتق، ولساناً أدلّق، وعُوداً أصلب، وهوى أغلب، ممّا أرايتم اليوم. هذا قتيل الحبِّ، لا قود ولا دية!

وكان ابنُ عباس، رضي الله عنهما، حَبْرَ قريش وبَحْرَها، وله يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقّههُ في الدين وعَلِّمهُ التَّوْبِيلَ". وفيه يقول حسان بن ثابت: الطويل:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلاً
شفَى وكفى ما في النفوس؛ فلم يدعْ لذي لسنٍ في القول جدّاً ولا هزلاً
سموتَ إلى العليا بغير مشقّةٍ فنلتَ ذراها لا دنياً ولا وِعلاً

من أخبار مسلم بن الوليد وشعره

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

أَعَاوِدُ مَا قَدَّمْتُهُ مِنْ رَجَائِهَا إِذَا عَاوَدْتَ بِالْيَأْسِ فِيهَا الْمَطَامِعُ
رَأَيْتَنِي غَنَى الطَّرْفِ عَنْهَا فَأَعْرَضْتُ وَهَلْ خِفْتُ إِلَّا أَنْ تَنْثِيرَ الْأَصَابِعُ؟
وَمَا زَيَّنَّتْهَا النَّفْسُ لِي عَنْ لَجَاجَةٍ وَلَكِنْ جَرَى فِيهَا الْهَوَى وَهُوَ طَائِعُ
فَأَقْسَمْتُ أَنْسَى الدَّاعِيَاتِ إِلَى الصَّبَا وَقَدْ فَاجَأَتْهَا الْعَيْنُ وَالسَّتْرُ وَاقِعُ
فَغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثِمَارَ نُحُورِهَا كَأَيْدِي الْأَسَارَى أَنْقَلَّتْهَا الْجَوَامِعُ

وكان مسلم أنصاريًا صريحًا، وشاعرًا فصيحًا، ولقب صريعًا أيضًا لقوله: الطويل:

سَأْنَقَادُ لِلذَّاتِ مُتَّبِعُ الْهَوَى لِأَمْضِيٍّ هَمًّا أَوْ أُصِيبُ فِتْنَى مِثْلِي
هَلْ الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرُوحَ مَعَ الصَّبَا صَرِيحَ حُمَيَّا الْكَأْسِ وَالْأَعْيُنِ النُّجْلِ؟

واجتلب له هذا الاسم لأجل هذا البيت؛ وقد قال القطامي: الطويل:

صَرِيحُ غَوَانٍ رَاقِهِنَّ وَرُقْنَهُ لَذُنْ شَبَّ حَتَّى شَابَ سُودُ الذَّوَائِبِ

ومسلم أول من لطف البديع، وكسا المعاني حُلل اللفظ الربيع، وعليه يعول الطائي، وعلى أبي نواس، ومن بديع شعره الذي امثله الطائي قوله: الطويل:

تُسَاقِطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وَشِمَالُهُ الرَّدَى وَعِيُونَ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَصْلُ

كَأَنَّ نَعَمَ فِي فِيهِ تَجْرِي مَكَانَهَا سُلَافَةٌ مَا مَجَّتْ لِأَفْرَاحِهَا النَّحْلُ
لَهُ هَضْبَةٌ تَأْوِي إِلَى ظِلِّ بَرْمَكٍ مَنُوطُ بِهَا الْأَمَالُ، أَطْنَابُهَا السُّبُلُ
عَجُولٌ إِلَى أَنْ يُودَعَ الْحَمْدُ مَالَهُ يَعْدُ النَّدَى غُنْمًا إِذَا اغْتَنِمَ الْبُخْلُ
وَقَدْ حَرَّمَ الْأَعْرَاضَ بِالْبَيْضِ وَالنَدَى فَأَمْوَالُهُمْ نَهَبٌ وَأَعْرَاضُهُمْ بَسْلُ
حَبًّا لَا يَطِيرُ الْجَهْلُ فِي عَرَصَاتِهَا إِذَا هِيَ حُلَّتْ لَمْ يَفْتَحْ حَلَّهَا ذَحْلُ
بِكَفِّ أَبِي الْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ الْغِنَى وَتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ النَّصْلُ
مَتَى شِئْتَ رَفَعْتَ السُّتُورَ عَنِ الْغِنَى إِذَا أَنْتَ زُرْتَ الْفَضْلَ أَوْ أَدِنَ الْفَضْلُ
وقوله أيضًا: الطويل:

إِذَا كُنْتَ ذَا نَفْسٍ جَوَادٍ ضَمِيرُهَا فَلَيْسَ يَضُرُّ الْجُودَ أَنْ كُنْتَ مُعْدِمًا

رَأْنِي بَعَيْنِ الْجُودِ فَاَنْتَهَزَ الَّذِي
ظَلَمْتُكَ إِنَّ لَمْ أَجْزَلُ الشُّكْرِ بَعْدَمَا
فَإِنَّكَ لَمْ يَتْرَكَ نَدَاكَ ذَخِيرَةً
وَقَالَ لِيَزِيدَ بَنَ مَزِيدَ: الْبَسِيطُ:

مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهَجٍ
يُنَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَعْيًا الرِّجَالُ بِهِ
لَا يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ حَجْرَتِهِ
يَقْرِي الْمَنِيَّةَ أَرْوَاحَ الْكُمَاةِ كَمَا
يَكْسُو السِّيُوفَ رُؤُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ
قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّ بِهَا
وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ.

أبيات في وصف الجيش

قال عمرو الوراق: سمعت أبا نُؤَاسٍ يَنْشُدُ قَصِيدَتَهُ الْمَدِيدَ:

أَيُّهَا الْمُتَنَابُ عُمْرُهُ
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
فَحَسَدَتَهُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ:

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عُلْقًا
رَاحَ فِي ثَنِيٍّ مُفَاضِيَتِهِ
تَتَابَى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ
تَحْتَ ظِلِّ الرَّمْحِ تَتَبَعُهُ
فَقُلْتُ: مَا تَرَكْتُ لِلنَّابِغَةِ شَيْئًا حَيْثُ يَقُولُ: الطَّوِيلُ:

عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

فقال: اسكت، فلئن أحسن الاختراع، لما أسأت الاتباع.
أخذه الطائي فقال: الطويل:

وقد ظَلَّتْ عِفْبَانُ رَايَاتِهِ ضَحَى
أَقَامَتْ عَلَى الرَايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا

بَعْقَابِنَ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلُ
مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلِ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّيُ يَصِفُ جَيْشَهُ الطَّوِيلَ:

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ
تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ
بَنَاجٍ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُتَارُ بِسَالِمٍ
تَطْلُعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً
تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وصف شعب بَوَّان

ونظير قول أبي الطيب في هذا البيت وإن لم يكن في معناه قوله يصف شعب بَوَّان، وسيأتي، وفي هذا الشعب يقول أبو العباس المبرد: كنت مع الحسن بن رجاء بفارس؛ فخرجتُ إلى شعب بَوَّان، فنظرت إلى ثُربة كأنها الكافور، ورياض كأنها الثوب الموشى وماء ينحدر كأنه سلاسلُ الفضة، على حصباء كأنها حصَى الدرّ؛ فجعلت أطوف في جنباتها، وأدور في عَرَصاتها، فإذا في بعض جدرانها مكتوب: الطويل:

إِذَا أَشْرَفَ الْمَكْرُوبُ مِنْ رَأْسِ تَلْعَةٍ
وَأَلْهَاهُ بَطْنٌ كَالْحَرِيرِ لَطَافَةً
وَطَيْبُ رِيَاضٍ فِي بِلَادٍ مَرِيْعَةٍ
يَذِيرُ عَلَيْنَا الْكَاسَ مَنْ لَوْ لَحَظَّتَهُ
فَبِاللّٰهِ يَا رِيحَ الشَّمَالِ تَحْمَلِي
عَلَى شِعْبِ بَوَّانٍ أَفَاقَ مِنَ الْكَرْبِ
وَمَطَرٌ دَجَرِيٍّ مِنَ الْبَارِدِ الْعَذْبِ
وَأَغْصَانُ أَشْجَارٍ جَنَاهَا عَلَى قُرْبِ
بَعِينِكَ مَا لُمْتَ الْمُحِبِّينَ فِي الْحَبِّ
إِلَى شِعْبِ بَوَّانٍ سَلَامَ فِتْنَى صَبٍّ

قال أبو العباس: فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت، فقال: وقد رأيت تحت هذه الأبيات: الخفيف:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ الَّذِينَ تَرَكْنَا
أَمْ يَكُونُ الْمَدَى تَطَاوَلَ حَتَّى
إِنْ جَفَوْا حَرَمَةَ الصَّقَاءِ فَإِنَّا
خَلَفْنَا بِالْعِرَاقِ هَلْ ذَكَّرُونَا؟
قَدَّمَ الْعَهْدُ بَيْنَنَا فَنَسُونَا؟
لَهُمْ فِي الْهُوَى كَمَا عَهَدُونَا

وشعر المتنبى: الوافر:

مَغَانِي الشَّعْبِ طِيباً فِي المَغَانِي

ولكنَّ الفتى العَرَبِيَّ فِيهَا

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا

طَبَّتْ فُرْسَانُنَا وَالخَيْلَ حَتَّى

غَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ

فَجِئْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الشَّمْسَ عَنِّي

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي بَنَانِي

ومنها:

يَقُولُ بِشَعْبٍ بَوَّانٍ حِصَانِي:

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ المعَاصِي

إنما أردت هذا البيت. ومنها:

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ

وَأُمُوءَاةٌ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا

بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

سَلِيمَانُ لِسَارَ بِيْتَرُجْمَانِ

خَشِيتُ وَإِنْ كَرُمْنَ مِنَ الْحِرَانِ

عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ

وَجِئْتُ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي

دَنَانِيرًا تَقْرَأُ مِنَ الْبَنَانِ

أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَانِ؟

وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ

بِأَشْرَبَةٍ وَقَفْنَ بَلَا أُوَانِي

صَلِيلَ الْحَلِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

رَجَعُ إِلَى وَصْفِ الْجَيْشِ

وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأودي في قوله: الرمل:

وَأَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا

وقال حميد بن ثور وذكر ذئباً: الطويل:

إِذَا مَا غَدَا يَوْمًا رَأَيْتُ غِيَابَهُ

فَهُمْ بِأَمْرٍ ثُمَّ أَزْمَعَ غَيْرُهُ

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي الْقُنُوعَ وَمَذْهَبِي

وَمَا كَانَ مِثْلِي يَعْتَرِيكَ رَجَاؤُهُ

وَإِنِّي وَإِشْرَافِي عَلَيْكَ بِهِمَّتِي

أَخَذَهُ أَبُو عَثْمَانَ النَّاجِمُ فَقَالَ: الْخَفِيفُ:

فَسِيحٌ وَأَقْلَى الشَّحِّ إِلَّا عَلَى عَرَضِي

ولكن أساءت نعمة من فتى محض

لكالمبتغي زُبْدًا مِنَ الْمَاءِ بِالْمَخْضِ

لَمْ تَحْصَلْ بِمَخْضِكَ الْمَاءِ إِلَّا

زَبَدًا حِينَ رَمَتْ بِالْجَهْلِ زُبْدًا

في وصف سفينة

وقال مسلم أيضاً يصف السفينة: الطويل:

كَشَفْتُ أَهْوَيلَ الدُّجَى عَنْ مَهُولِهِ
إِذَا أَقْبَلَتْ رَاعَتْ بِقَنَّةٍ قَرْهَبٍ
أُطْلَتْ بِمَجْدَافِينَ يَعْتَوِرَانِهَا
كَأَنَّ الصَّبَا تَحْكِي بِهَا حِينَ وَاجَهَتْ
بِجَارِيَةِ مَحْمُولَةٍ حَامِلٍ بِكَرٍ
وَإِنْ أَدْبَرْتَ رَاقَتْ بِقَادِمَتِي نَسْرٍ
وَقَوْمَهَا كَبُحُ اللَّجَامِ مِنَ الدُّبْرِ
نَسِيمَ الصَّبَا مَشْيَ الْعُرُوسِ إِلَى الْخَدْرِ

في وصف الأساطيل

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف أسطول المعز بالله: الطويل:

أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنَشَّاتِ الَّتِي سَرَتْ
قِبَابٌ كَمَا تُرْخَى الْقِبَابُ عَلَى الْمَهَا
وَمَا رَاعَ مَلَكُ الرُّومِ إِلَّا اِطْلَاعُهَا
وَلِلَّهِ مِمَّا لَا يَرُونَ كِتَابٌ
أَطَالَ لَهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ خَلَفَهَا
وَأَنَّ الرِّيَّاحَ الذَّارِيَاتِ كِتَابٌ
عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكَفَّهُرٌ صَبِيرُهُ
مَوَاحِرُ فِي طَامِي الْعُبَابِ كَأَنَّهَا
أَنَافَتْ بِهَا أَطَامُهَا وَسَمَا بِهَا
مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحُ
وَلَيْسَ بِأَعْلَى كَبْكَبٍ وَهُوَ شَاهِقٌ
مِنَ الرَّاسِيَّاتِ الشَّمُّ لَوْلَا انْتِقَالُهَا
مِنَ الْقَادِحَاتِ النَّارَ تُضْرَمُ لِلصَّلَى
إِذَا زَفَرَتْ غَيْظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ
لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ
وَلَكِنَّ مِنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ أُسُودُ
تُنَشَّرُ أَعْلَامُ لَهَا وَبُنُودُ
مُسَوِّمَةٌ يَجْرِي بِهَا وَجُنُودُ
فَمَنْ وَقَفَتْ خَلْفَ الصَّفُوفِ رُدُودُ
وَأَنَّ النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ سَعُودُ
لَهُ بَارَقَاتُ جَمَّةٌ وَرُعُودُ
لِعِزْمِكَ بَأْسٌ أَوْ لِكِفْكَ جُودُ
بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ الْعَرَاءِ مَشِيدُ
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسَ مَصِيدُ
وَلَيْسَ مِنَ الصَّقَّاحِ وَهُوَ صَلُودُ
فَمِنْهَا قَنَانٌ شَمَخٌ وَرِيُودُ
فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ خُمُودُ
كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ

تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ
تَرَى الْمَاءَ فِيهَا وَهُوَ قَانَ خَضَابَهُ
فَأَنْفَاسُهُنَّ الْحَامِيَّاتُ صَوَاعِقُ
يُشَبُّ لَالِ الْجَائِلِيْقِ سَعِيرُهَا
لَهَا شَعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا
وغيرُ المذاكي نَجْرُهَا غَيْرَ
فليس لها إلا الرياحُ أَعْنَى
تَرَى كُلَّ قوداءِ التَّلِيلِ كَمَا انْتَشَتْ
رَحِيبةٌ مَدَّ الباعِ وَهِيَ نَضِيجَةٌ
تَكْبَرْنَ عَنْ نَقْعٍ يُثَارُ كَأَنَّهَا
لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعَبْقَرِيِّ مَلَابِسٌ
كَمَا اشْتَمَلَتْ فَوْقَ الْأَرَائِكِ خُرْدٌ
لبوسٌ تَكْفُ الْمَوْجَ وَهُوَ غُطَامِطٌ
فمنه دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَواشِنٌ

سَلِيْطٌ لَهُ فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدٌ
كَمَا بَاشَرَتْ رَدْعَ الْخُلُوقِ جُلُودٌ
وَأَفْواهُنَّ الزَّافِرَاتُ حديدٌ
وَمَا هِيَ مِنْ آلِ الطَّرِيدِ بَعِيدٌ
دِمَاءٌ تَلْقِيْهَا مَلَاَحِفُ سُودٌ
أَنَّهَا مُسَوِّمَةٌ تَحْتَ الْفَوَارِسِ قُودٌ
وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْعُبَابُ كَدِيدٌ
سَوَالِفُ غَيْدٍ أَعْرَضَتْ وَخُدُودُ
بَغِيرِ شَوَى عِذْرَاءٍ وَهِيَ وَلُودُ
مَوَالٍ وَجُرْدُ الصَّافِنَاتِ عَبِيدٌ
مُفَوِّقَةٌ فِيهَا النُّضَارُ جَسِيدٌ
أَوْ التَّقَعَّتْ فَوْقَ الْمَنَابِرِ صِيدٌ
وَتَدْرَأُ بَاسَ الْيَمِّ وَهُوَ شَدِيدٌ
وَمِنْهَا خَفَاتَيْنُ لَهَا وَبُرُودُ

وقال علي بن محمد الإيادي يصف أسطول القائم فأجاد ما أراد: الكامل:

إِعْجَبْ لِأَسْطُولِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
لَيْسَتْ بِهِ الْأَمْوَاجُ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ
مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةٍ عَلَى مَا قَابَلَتْ
دَهْمَاءَ قَدْ لَيْسَتْ ثِيَابَ تَصْنَعُ
مِنْ كُلِّ أَبْيَضٍ فِي الْهَوَاءِ مَنْشَرٌ
كَمَلَاءَةٍ فِي الْبَرِّ يَقْطَعُ شَدَّهَا
مَحْفُوفَةٌ بِمَجَازِفٍ مَصْفُوفَةٌ
كَقَوَادِمِ النَّسْرِ الْمَرْفِرِ عُرِيَتْ
تَحْتَنُّهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا وَنَتْ

وَلَحْسَنَهُ وَزَمَانَهُ الْمُسْتَغْرَبِ
يَبْدُو لَعَيْنِ النَّاضِرِ الْمُتَعَجِّبِ
إِشْرَافِ صَدْرِ الْأَجْدَلِ الْمُتَنْصِبِ
تَسْبِيِ الْعُقُولِ عَلَى ثِيَابِ تَرَهُّبِ
مِنْهَا وَأَسْحَمَ فِي الْخَلِيجِ مُغَيَّبِ
فِي الْبَحْرِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الشَّدْبِ
فِي جَانِبَيْنِ دُوَيْنَ صُلْبِ صُلْبِ
مِنْ كَاسِيَّاتِ رِيَاشِهِ الْمُتَهَدِّبِ
بِمَصْعَدٍ مِنْهُ بُعِيدُ مُصَوَّبِ

خرقاء تذهبُ إن يدُ لم تهدها
جَوفاء تحمل موكباً في جَوفِها
ولها جناحٌ يستعار يُطيرُها
يعلو بها حدبُ العُبابِ مُطارَةً
تسمو بأجردَ في الهواءِ متوجّج
يتنزّل الملاحُ منه ذُؤابةً
فكأنما رام استراقَةَ مَقْعَدٍ
وكأنما جنُّ ابنِ داودِ هُمُ
سجّروا جِواحِمَ نارِها فتقاذفوا
من كلّ مسجورِ الحريقِ إذا انبرى
عُريان يقدمه الدخانُ كأنه
ولواحق مثلُ الأهلّةِ جُنَحُ
يذهبن فيما بينهن لَطاَفَةً
كنضائضِ الحياتِ رُحْنِ لواعباً
شرعوا جوانبها مجادِفَ أتعبتُ
تتصاع من كَثَبِ كما نفر القطَا
والبحرُ يجمع بينها فكأنه
وعلى كواكبِها أسود خِلاَفَةً
فكأنما البحرُ استعار بزيّهم

في كل أوبٍ للرياحِ ومَذْهَبِ
يومَ الرهانِ وتستقلّ بموكبِ
طوعَ الرياحِ وراحةِ المتطرّبِ
في كل لجّ زاخرٍ مُغْلُولِبِ
عريان منسوج الذُؤابةِ شوذّبِ
لو رام يركبها القَطَا لم يركبِ
للسمع إلا أنه لم يُشْهَبِ
ركبوا جوانبها بأعنفِ مَرَكَبِ
منها بألسُنِ مارجٍ متلهّبِ
من سجنه أنصَلَتِ انصَلاتِ الكوكبِ
صبحٌ يكرُّ على الظلامِ الغيْهَبِ
لحق المطالب فائتات المَهْرَبِ
ويجنن فعل الطائر المتغلّبِ
حتى يَقَعْنَ ببرك ماء الميزبِ
شأوَ الرياح لها ولما تتعبِ
طوراً، وتجتمع اجتماع الرّبْرَبِ
ليلٌ يقربُ عقرباً من عقربِ
تختالُ في عُدَدِ السلاحِ المَذْهَبِ
ثوبَ الجمال من الربيع المعجبِ

في المودة

كتب العباس بن جرير إلى الفضل بن يحيى: لا أعلم منزلةً توحشني من الأمير ولا توحشه مني، لأنني في المودة له كنفسه، وفي الطاعة كيدِه، وإنما أُلْطِفُهُ من فضله، وقد بعثت بعض ما ظننت أنه يحتاج إليه في سفره. وذكر ما بعث.

وكتب غيره في هذا المعنى: إذا كان اللَّطْفُ دليلَ مَحَبَّةٍ، ومِيسَمُ قُرْبَةٍ، كفى قليلُه عن كثيره، وناب يسيرُه عن خطيره، لا سيما إذا كان المقصودُ به ذا همةٍ لا يستعظم نفيساً، ولا يستصغر خسيساً؛ وقد حُزَّتْ من هذه الصفة أجَلٌ فضائلها، وأرفع منازلها.

وفي هذا المعنى: إن يد الأُنس طويلة بكلِّ ما بلغت، منبسطة بكلِّ ما أدركت، من حيث يدُ الحشمة قصيرة عن كلِّ ما حَوَتْ، مقبوضة دون ما أَمَلَتْ؛ لأن بابَ القول مطلقٌ لذوي الخصوص، محظور عند ذوي الهموم، ولتمكَّن ما بيننا عاطيتك من لطفِي ما لا دونه قلة، ثقةً منك بأنه يرد على ما لا فوقه كثرة.

ومن ألفاظ أهل العصر

في إقامة رسم الهدية

في المهرجان والنيروز:

لمثل هذا اليوم الحديد والأوان السعيد سنةً، وعلى مثلي فيها أن يتحف ويُلفف، وعلى مثل سيدنا، ولا مثلاً له، أن يقبل ويشرف. لليوم رسمٌ إن أحلَّ به الأولياءُ عُدَّ هفوة، وإن منع منه الرؤساءُ حُسبَ جفوة، ومولاي يسوغني الدالة فيما اقترن بالرقعة، ويكسبني بذلك الشرف والرفعة. الهدايا تكونُ من الرؤساء مكاثرةً بالفضل، ومن النظراء مقارضةً بالمثل، ومن الأولياء ملاطفةً بالقل، وقد سلكت في هذا اليوم مع مولاي سبيلَ أهل طبقته من الأرباب، وقد حملت إلى مولاي هدية الملائف، لا هدية المحتفل، والنفس له، والمال منه.

ولهم في التهنة بالنيروز والمهرجان

وفصل الربيع:

هذا اليوم غُرَّةٌ في أيام الدهر، وتاجٌ على مفرق العصر. أسعد الله مولانا بنوروزِه الوارد عليه، وأعادَه ما شاء وكيف شاء إليه. أسعد الله تعالى سيدنا بالنوروز الطالع عليه بركاته، وأيمنَ طائرَه في جميع أيامه ومتصرفاته، ولا يزال يلبس الأيام ويُلبيها وهو جديد، ويقطع مسافة نحسها وسعدها وهو سعيد. أقبل النيروزُ إلى سيدنا ناشراً حلَّه التي استعارها من شيمته، ومُبدياً حالته التي اتخذها من سجيته، ومستصحباً من أنواره ما اكتسبه من محاسن فضله وإكرامه، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه. ويؤكد الوعد بطول بقاءه حتى يمل العمر، ويستغرق الدهر. سيدنا هو الربيع الذي لا يذبل شجره، ولا يزول سحره،

ولا ينقطع ثمره، ولا يُقْلَعُ غَمَامُه، ولا تتبدّل أيامه؛ فأسعدَه اللهُ تعالى بهذا الربيع المتشبه بأخلاقه، وإن لم ينل قدرها، ولم يحمل فضّلها، ولم يجد بُدّاً من الإقرار بها.

سيدنا هو الربيع الذي يتصل مطرُه، من حيث يؤمن ضررُه، ويدومُ زهرُه، من حيث يتعجّل ثمرُه؛ فلا زال أمراً ناهياً، قاهرّاً عالياً، تنهياً الأعياد بمصادفة سلطانه، وتستفيدُ المحاسنُ من رياض إحسانه. أسعد الله سيدنا بهذا التّورّوز الحاضر، الحديد الناضر، سعادة تستمرُّ له في جميع أيامه على العموم دون الخصوص، لتكونَ متشابهات في اكتناف المواهب لها، واتصال المسار فيها، لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالي على الخالي، ويدرج الآتي على الماضي. عرّف الله سيدنا بركة هذا المهرجان، وأسعدَه فيه، وفي كل زمان وأوان، وأبقاه ما شاء في ظلال الأمان والأمان. هذا اليومُ من محاسن الدهر المشهورة، وفضائل الأزمنة المذكورة، فلقى الله تعالى سيدنا بركة وُرودِه، وأجزل حظّه من أقسام سعوده، هذا اليومُ من غرر الدهور، ومواسم السرور، معظّم في الملك الفارسي، مستظرف في الملك العربي؛ فوفر الله تعالى فيه على مولاي السعادات، وعرفه في أيامه البركات، على الساعات واللحظات.

صاحب الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف: دلّوني على رجل للشرطة، فقيل: أي رجل تريد؟ فقال: أريد رجلاً دائماً العبّوس، طويلَ الجلوس، سمينَ الأمانة، أعجفَ الخيانة، يهونُ عليه سبّال الشريف في الشفاعة! فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي، فأرسل إليه يستعمله، فقال: لست أعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدك، وأهل بيتك، وعيالك وحاشيتك، فقال: يا غلام، ناد: مَنْ طلب إليه حاجة منهم فقد برئت منه الذمّة.

وقال أشجع بن عمرو السُّلمي يمدحُ في هذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن نَهيّك صاحب شرطة الرشيد، وكان جباراً عنيداً: الكامل:

بذوي النفاق، وفيه أمنُ المسلم

مال المضيع ومُهَجّة المُستسلم

حتى استقام له الذي لم يُخطم

تَغشى البري بفضلِ ذنبِ المُجرم

والسيفُ تَقَطَّرُ شَفَرَتَاهُ من الدم

بالأمر تَكَرَّهُهُ وإن لم تَعْلَم

في سيفِ إبراهيمِ خوفٌ واقعٌ

ويبيت يكلأُ والعيونُ هواجعٌ

شدّ الخطامَ بأنفِ كلِّ مُخالفٍ

لا يُصلِحُ السلطانَ إلا شدّةٌ

ومنِ الولاةِ مُفَخَّمٌ لا يَنْتَقِي

منَعَتُ مهابتكُ النفوسَ حديثها

من كلام الأعراب

عَدَلْتُ أعرابية أباهَا في الجود وإِتْلَاف ماله، فقالت: حَبَسَ المال، أَنْفَعُ لِلْعِيَالِ، مِنْ بَذْلِ الْوَجْهِ فِي السُّؤَالِ؛ فَقَدْ قَلَّ النِّوَالُ، وَكَثُرَ الْبُخَالُ، وَقَدْ أَتْلَفْتَ الطَّارِفَ وَالتَّلَادَ، وَبَقِيتَ تَطْلُبُ مَا فِي أَيْدِي الْعِبَادِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْ مَا يَنْفَعُهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَسْعَى فِيمَا يَضُرُّهُ.

قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول: اللهم ارزُقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتتعم بترك التتعم، رجاءً لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

وقال آخر: اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد، بأعناق الولايد، وأرسخه على هامته، كرسوخ السجيل، على هام أصحاب الفيل.

وقال بعض الأعراب: نالنا وَسَمِيَّ، وخلفه وَلِيٌّ؛ فالأرضُ كأنها وَشْيٌ عبقرِيٌّ؛ ثم أَتَتْنَا غُيُومٌ جَرَادٌ، بمناجل حَدَادَةٍ فخرَّبَتِ البلادَ، وأهلكت العبادَ؛ فسبحان من يُهلك القويَّ الأَكُولَ، بالضعيف المَكُولَ.

من أخبار أبي العباس السفاح

وخالد بن صفوان:

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة، وكُسُوة وصلة، وأذن مجلسه -: وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك، فوالله لئن أردنا شكرَكَ على كُنْهِ صَلَّتِكَ، فَإِنَّ الشُّكْرَ لَيَقْصُرُ عَنْ نِعْمَتِكَ، كما قَصُرْنَا عَنْ مِزْلَتِكَ، غير أن الله تعالى جعل لك فضلاً علينا بالتقصير منّا، ولم تَحْرِمْنَا الزيادة منك لِنَقْصِ شُكْرِنَا.

وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان: كيف عَلِمْتَ بِأَخْوَالِي بني الحارث بن كعب؟ قال: يا أمير المؤمنين، هم هامة الشرف، وعزّين الكرم، وفيهم خصالٌ ليست في غيرهم من قومهم، هم أحسنهم أمماً، وأكرمهم شيماً، وأهناهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، هم الجَمَرَةُ في الحرب، والرأسُ في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العَجَب.

وعزّى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنّاه بالخلافة، فقال: الحمد لله الذي منَّ على الخَلْقِ بك، والحمد لله الذي جعل نبوتكم رَحمةً، وخلافتكم عِصمةً، ومصائبكم أُسوةً، وجعلكم قُدوةً.

وقال خالد بن صفوان لبعض الولاة: قدمت وأعطيت كلاًّ بِقِسْطِهِ من نظرك ومجلسك، في صوتك وعدلك، حتى كأنك من كل أحد، وحتى كأنك لست من أحد.

وقال رجل لخالد: إن أباك كان دميماً، ولكنه كان حليماً، وإن أمك كانت حسناء، ولكنها كانت رَعْناء، فيا جامع شرّ أبويه!

شذور في المقابح ومساوي الأخلاق

علي بن عبيدة الرياحي - أدنسُ شعارِ المرءِ جهلُهُ.
ابن المعتز: نعمَ الجاهلِ، كالرياض في المزابيل. كلما حسُنَتْ نعمةُ الجاهل ازداد فيها قُبْحاً. لسانَ الجاهل مفتاحُ حتْفه. لا ترى الجاهلَ إلا مُفْطِراً أو مُفْطِراً.
الجاحظ - البخلُ والجُبْنُ غريزةٌ واحدة، يجمعهما سوءُ الظن بالله. البخل يَهْدِمُ مباني الشرف.
وقال ابن المعتز: لما عرف أهلُ النَّقْصِ حالَهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكِبَرِ ليعظَّمُ صغيراً، ويرفعَ حقيراً، وليس ينفعُ الطمع في وثاق الذل. الغضب يصدئ العقلَ حتى لا يرى صاحبه صورةَ حَسَنٍ فيتركبه، ولا صورةَ قبيحٍ فيجتنبه. الغضبُ ينبئ عن كامن الحقد. من أطاع غضبه أضاع أديه. حدُّه الغضب تعثر المنطق، وتقطع مادةُ الحجّة، وتفرق الفهم. غضب الجاهل في قوله، وغضبُ العاقل في فعله. عقوبة الغضب تبدأ بالغضب: تقبّح صورته، وتثلم دينه، وتعجل ندمه. ما أقبح الاستطالة عند الغنى، والخضوع عند الفقر. من يهتك سِتْرَ غيره تكشّفت عورات بيته. نفاق المرء من ذلّة.
الشرير لا يظنُّ بالناس خيراً لأنه يراهم بعين طبعه. من عدد نعمه محق كرمه. خُلِفُ الوعد خُلُقُ الوغد، من أسرع كُتْرَ عثّاره.

في المفامرات

فاخر كاتبٌ نديماً، فقال الكاتب: أنا مَعُونَة، وأنت مَوْوَنَة، وأنا للجدِّ، وأنت للهزْل؛ وأنا للشدة وأنت للذّة؛ وأنا للحرب، وأنت للسلم. فقال النديم: أنا للنعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحضرة، وأنت للمهنة؛ تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مُؤانس؛ تدأب لراحتي، وتَشْقَى لسعادتي؛ فأنا شريك، وأنت معين، كما أنك تابع، وأنا قرين.
وفاخر صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم، فقال صاحبُ القلم: أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل على خطر. فقال صاحب السيف: القلمُ خادِمُ السيف إن تم مراده، وإلا فيلَى السيف مَعَاذه.
قال أبو تمام: البسيط:

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعبِ

السيفُ أصدَقُ إنباءً من الكتبِ

إبراهيم بن المهدي: البسيط:

فقد تَلَيْنُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ تَبْدُلُ
والوصل في جبل صَعَبٌ مَرَّاقِيهِ
كالخيزران مَنِيْعٌ حِينَ تَكْسِرُهُ
وقد يُرَى لَيْنًا فِي كَفٍّ لَأَوِيهِ
أبو الهيثم عامر بن عمار المَرِّي يرثي: الطويل:
سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا
فإن بها ما أدرك الوتر الوترًا
ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة
يُعَصِّرُهَا مِنْ مَاءِ مُقْلَتِهِ عَصْرًا
ولكنني أشفي فؤادي بغمرة
وإن أناس ما تقيض دموعنا
وألهب في قُطْرِي جوانبه جَمْرًا
على هالكٍ مِنَّا وإن قَصَمَ الظهْرًا

من وصايا الحكماء

لقي رجل حكيماً فقال: كيف تَرَى الدهر؟ قال: يُخْلِقُ الأبدان، ويمدِّدُ الآمال، ويقرِّبُ المنيّة، ويباعدُ الأُمْنِيّة. قال: فما حالُ أهله؟ قال: من ظفر به منهم تعب، ومن فاته نصيب. قال: فما الغنى عنه؟ قال: قَطْعُ الرِجاء منه، قال: فأَيُّ الأصحاب أبرّ وأَوْفَى؟ قال: العمل الصالح والتقوى. قال: أيهم أضرّ وأرْدَى؟ قال: النفس والهوى، قال فأين المخرج؟ قال: سلوكُ المَنَهَج. قال: وما هو؟ قال: بذلُ المجهود، وترك الراحة، ومداومة الفكرة. قال: أوصني. قال: قد فعلت.
وقال بعض الملوك لحكيم من حكمائه: عَظَمِي بِعِظَةِ تنفي عني الخِيَلَاء، وترهّدي في الدنيا. قال: فكَر في خَلْقِكَ، واذْكُر مبدأك ومصيرك، فإذا فعلت ذلك صَغُرَتْ عندك نفسُك، وعَظُمَ بصغرها عندك عَقْلُك؛ فإن العَقلَ أنفعُهُما لك عِظَمًا، والنفسَ أَرِزْنَهُما لك صِغَرًا؛ قال الملك: فإن كان شيء يُعِينُ على الأخلاق الحمودة فصفتك هذه. قال: صفني دليل، وفهْمُك محجّة، والعلم عليّة، والعمل مَطِيّة، والإخلاص زمامها، فخذْ لعقلك بما يزيّنه من العلم، وللعلم بما يَصُونُهُ من العمل، وللعمل بما يحقِّقه من الإخلاص، وأنت أنت! قال: صدقت.

باب المديح

وقال ابن الرومي: البسيط:

تَغْنُونُ عَنْ كُلِّ تَقْرِيطٍ بِمَجْدِكُمْ
غَنِىَ الطَّبَاءُ عَنْ التَّكْحِيلِ بِالْكَحْلِ
تلوح في دُولِ الأيام دولتكم
كأنها مِلَّةُ الإسلام في المِللِ

وقال أيضاً: البسيط:

كل الخصال التي فيكم محاسنكم
كأنكم شجر الأترج طاب معاً
تشابهت منكم الأخلاق والخلق
حماً ونوراً، وطاب العود والورق

وقال البستي في نحو هذا: الطويل:

فتى جمع العلياء علماً وعفة
كما جمع التفاح حسناً ونصرة
وبأساً وجوداً لا يفيق فواقاً
ورائحة محبوبه ومذاقاً

قال أبو العباس المبرد: حدثني عجل بن أبي دلف قال: امتدح رجل أبي بكلمة، فوصله بخمسمائة دينار ولم يره، وهي: البسيط:

مالي ومالك قد كلفتني شططاً
أمن رجال المنايا خلّنتي رجلاً
حمل السلاح وقول الدارين قف
أمسي وأصبح مشتاقاً إلى التلّف
أرى المنايا على غيري فأكرهها
أخلت أن سواد الليل غيرني
وأن قلبي في جنبي أبي دلف؟
فكيف أمشي إليها بارز الكتف؟

قلت: هذا كحديث الذي دخل في قوم على شراب فسقوه غير الشراب الذي يشربون، فقال: المتقارب:

نبيذان في مجلس واحد
فلو كنت تفعل فعل الكرام
لإيثار مثر على مقتر
فعلت كفعل أبي البختري
تتبع إخوانه في البلاد
فأغنى المقل عن المكثّر

فاتصل شعره بأبي البختري فأعطاه ألف دينار ولم يره.

والأبيات التي مدح بها أبو دلف هي لأحمد بن أبي فنن، وكان شاعراً مجيداً، وهو القائل: الطويل:

ولما أبت عيناى أن تملك البكى
تثاءبت كي لا ينكر الدمع منكر
وأن تحبسا سحّ الدموع السواكب
ولكن قليلاً ما بقاء الثثاوب
أعرّضتmani للهوى ونمتما
علي؟ لبئس الصاحبان لصاحب

وقال: الكامل:

وحياة هجرك غير معتمد
ما أنت أملح من رأيت ولا
إلا لقصد الحنث في الحلف
كلّفي بحبك منتهى كلّفي

وقال الصولي: كنا بحضرة أبي العباس المبرد فأنشد هذين البيتين فاستظرفهما وأنشدنا في ذلك: الكامل:

وحياة غيرك غير معتمد به
ما ينقضي طمعي وإن أطمعتني
وقال الخثعمي: الطويل:

ولم أر مثل الصدِّ أدعى إلى الهوى
والتَّ يميناً كالزجاج رقيقةً
وكان أحمد بن أبي فتن أسود، ولذلك قال: البسيط:

أَخْلَتَ أَنْ سَوَادَ اللَّيْلِ غَيْرِنِي
ولما أدخل على المعتزّ وامتدحه قال: هذا الشاعرُ الآدم، قال بعض من حضر: لا يضره سواده مع بياض
أياديك عنده، قال: أجل، ووصله.
أخذ قوله: البسيط:

أرى المنايا على غيري فأكرهها
من قول أعرابي قيل له: ألا تغزو؟ قال: أنا والله أكره الموت على فراشي، فكيف أمشي إليه ركضاً؟.

علم البديع والاستطراد

وهذا المذهب الذي سلكه أحمد ضربٌ من البديع يسمّى الاستطراد، وذلك أنّ الفارس يظهر أنه يستطرد
لشيء ويُطِنُّ غيره، فيكرُّ عليه، وكذلك هذا الشاعر يظهر أنه يذهب لمعنى فيعن له آخر فيأتي به، كأنه
على غير قصد، وعليه بناء، وإليه كان معزاه، وقد أكثر المحدثون منه فأحسنوا في ذلك.
قال الأصمعي: كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال: أنشدني من شعرك،
فأنشده: الطويل:

وأمرة بالبخل قلت لها أقصري
أرى الناس خلانَ الجوادِ، ولا أرى
ومن خير حالاتِ الفتى لو علمته
فعالي فعالُ المُكثَرين تجملاً
فليس إلى ما تأمرين سبيلُ
بخيلاً له في العالمين خليلُ
إذا نال شيئاً أن يكون منيلُ
ومالي كما قد تعلمين قليلُ
ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ
وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرمُ الغنى

فقال الرشيد: يا فضل؛ أعطه عشرين ألف درهم. ثم قال: لله أبيات تأتينا بها يا إسحاق ما أتقن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها! فقال: والله يا أمير المؤمنين، لا قبلتُ منها درهماً واحداً. قال: ولم؟ قال: لأنّ كلامك، والله، خيرٌ من شعري. فقال: يا فضل؛ ادفع إليه أربعين ألفاً. قال الأصمعي: فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك مني.

ومن ذلك قول أبي تمام يصف فرساً: البسيط:

وسابح هَطلِ التَّعداءِ هَتَّانِ
أظْمى الفُصوص ولم تَظمًا قوائمه
على الجِراءِ أمينٍ غيرِ خَوَّانٍ
فَخَلَّ عَيْنِكَ في رِيَّانِ ظَمَّانٍ
فلو تراه مُشيحاً والحصى زَيْمٌ
بين السنايك من مَتْنَى ووُحْدَانٍ
أيقنتُ إن لم تثبَّتْ أن حافرَهُمْنَ صَخْرٌ تَدْمُرُ أو من وَجْهِ عثمانٍ

وقد احتذى البحري هذا الحذو في حمدويه الأحول، وكان حمدويه هذا عدواً للممدوح، فقال: الكامل:

وأغرَفِي الزمنِ البهيمِ مُحَجَّلٍ
قد رُحْتُ منه على أغرٍ مُحَجَّلٍ
كالهيكَلِ المبنيِّ إلا أنه
في الحُسْنِ جاء كصورةٍ في هَيْكَلٍ
ملكَ العيون؛ فإنَّ بَدَا أُعْطِيَتْهُ
نَظَرَ المُحِبِّ إلى الحبيبِ المُقْبَلِ
ما إنَّ يَعَافُ قَذَى ولو أوردَتْهُ
يوماً خلَّاتُكَ حَمْدَوِيَّه الأَحُولِ

وفي قصيدته هذه يحكى أن البحري قال له أصحابه: إنك ستُعاب بهذا البيت؛ لأنك سرقتَه من أبي تمام ط قال: أعاب من أخذي من أبي تمام؟! والله ما قلتُ شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره في فكري، قال: وأسقط البيت بعد، فلا يوجد في أكثر النسخ.

وهذا معنى قد أعجب المحدثين، وتخيّلوا أنهم لم يُسبّقوا إليه، وقد تقدّم لمن قبلهم، قال الفرزدق: الطويل:

كأنَّ فِقَاحَ الأزْدِ حولَ ابنِ مِسْمَعٍ
إذا جَلَسُوا أَقْواءَ بَكْرِ بنِ وائِلٍ

قال الحاتمي: وأتى جرير بهذا النوع فحثا في وَجْهِ السابق إلى هذا المعنى فضلاً عن تلاه؛ فإنه استطرد في بيتٍ واحد، فهجا فيه ثلاثة، فقال: الكامل:

لما وضعتُ على الفرزدق مِسْمِي
وعلى البعيثِ جَدَعْتُ أنْفَ الأَخْطَلِ

وقيل هذا البيت مما يَرُدُّ على الحاتمي، وهو قوله: الكامل:

أعددتُ للشعراءِ كأساً مُرةً
فسقيتُ آخرَهُم بكأسِ الأولِ

قال أبو إسحاق: وأول من ابتكره السموأل بن عادِياء اليهودي، وكل أحد تابع له فقال: الطويل:

وإِنَّا أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً

إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسُلُولُ

يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا

وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

وقد قال طرفة في هذا المعنى: الطويل:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحتُ ذا مالٍ كثير، وعادني

بنون كرام سادة لمسود

قيس بن خالد: ذو الجدين الشيباني. وعمرو بن مرثد: سيد بني قيس بن ثعلبة، فدعا عمرو طرفة لما بلغه ذلك، فقال: أما البنون فإن الله يعطيك، ولكن لا تريم حتى تكون من أوسطنا حالاً؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة، فدفع إليه كل واحد منهم عشرة من الإبل؟ فانصرف بمائة ناقة.

وكان ابن عبدل منقطعاً إلى عبد الله بن بشر بن مروان، فتأخر عنه بره، وغاب أياماً، ثم أتاه فسأله عن غيبتة، فقال: خطبت ابنة عم لي بالسواد، فزعمت أن لها ديوناً وأسلاًفاً هناك، وأني إذا جمعتها لها صارت إلى محبتي، ففعلت ذلك، فلما استنجزتها كتبت إلي: الوافر:

سَيُخْطِئُكَ الَّذِي أَمَلْتَ مِنِّي

إِذَا انْتَقَصَتْ عَلَيْكَ قُوَى حِبَالِي

كما أخطاك معروف ابن بشر

وكنْتَ تَعُدُّ ذَلِكَ رَأْسَ مَالٍ

فقال: ما أحسن ما ألطفت بالسؤال! وأجزل صلته.

ومن بديع هذا الباب قول بشار بن برد: الطويل:

خَلِيلِي مِنْ كَعْبٍ، أَعِينَا أَخَاكَمَا

عَلَى دَهْرِهِ؛ إِنْ الْكَرِيمَ مُعِينُ

وَلَا تَبْخَلَا بُحْلَ ابْنِ قَرْعَةَ؛ إِنَّهُ

مَخَافَةٌ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ

إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ

فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ

فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تَبْلُغِ الْعُلَا

وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ

وقال بكر بن النطاح يمدح مالك بن طوق: الطويل:

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنَ الْمُنَى

لِتَرْضَى فَقَالَتْ: قُمْ فَجَنِّنِي بِكُوكَبِ

فَقُلْتُ لَهَا: هَذَا التَّعَنُّتُ كُلُّهُ

كَمَنْ يَشْتَهِي لَحْمَ عُنْقَاءِ مُغْرِبِ

سَلِّي كُلَّ أَمْرٍ يَسْتَقِيمُ طِلَابَهُ

وَلَا تَذْهَبِي يَا دُرَّ فِي كُلِّ مَذْهَبِ

فَأَقْسَمُ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي عَزِّ مَالِكِ

وَقُدِّرَتْهُ مَا رَامَ ذَلِكَ مَطْلَبِي

فَتَى شَقِيَّتْ أَمْوَالُهُ بِسَمَاحِهِ

كَمَا شَقِيَّتْ قَيْسٌ بِأَرْمَاحِ ثَعْلَبِ

واعتذر رجلٌ إلى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يُقبلَ عذره، فقال عبد الأعلى: أما والله لئن كان احتمالُ إثمِ الكذب ودناءته، وخضوعُ الاعتذارِ وذِلَّتِه، فعاقبته على الذَّنْبِ الذهاب، ولم تشكر له إنابة التائب، إنك لمن يُسيء ولا يُحسن.
وقال الحطيئة: الطويل:

يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنَاتُهَا
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبْيَكُمُ
وَأَلْئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا
وَأِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا
وَأِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٌ
وَيَعِذُّنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ
وَأِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِظَةُ وَالْجَدُّ
مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
وَأِنْ وَعَدُوا أَوْفُوا وَأِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَأِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا
مِنَ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رُدُّوا
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

من أخبار الرشيد

ووصلَ سعيدُ بن سَلَمٍ إلى الرشيد شاعراً باهلياً، فأنشده قصيدةً حسنة، فاستراهُ الرشيد، قال: أسمعك مستحسناً، وأنكركَ متهما؛ فإن كنتَ صاحبَ هذا الشعر فقلْ في هذين، وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا جالسين.

فقال: يا أمير المؤمنين، حملتني على غير الجدِّ "هيبةُ الخلافة، ووَخْشَةُ الْعُرْبَةِ، وَرَوَعَةُ الْمَفَاجَأَةِ، وَجَلَالَةُ الْمَقَامِ، وَصَعُوبَةُ الْبَدِيهَةِ، وَشُرُودُ الْقَوَائِي، عَلَى غَيْرِ الرُّوْيَةِ، فَلْيُمَهِّلْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَتَأَلَّفَ نَافِرُ الْقَوْلِ. فقال الرشيد: لا عليك ألا تقول؛ قد جعلت اعتذارك عَوْضَ امْتِحَانِكَ. فقال: يا أمير المؤمنين، نَفَسْتُ الْخِنَاقَ، وَسَهَّلْتُ مِيدَانَ السِّبَاقِ، ثُمَّ قَالَ: الطويل:

بَنَيْتَ بَعْدَ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
ذُرَى قُبَّةِ الْإِسْلَامِ فَاخْضَرَّ عَوْدُهَا
هُمَا طُنْبَاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا

فقال الرشيد: وأنت بارك الله فيك، سلْ ولا تكن مسألتك دون إحسانك، فقال: الهنيدة يا أمير المؤمنين! فأمر له بها، وبِخِلْعِ نَفِيسَةٍ، وَصِلَةٍ جَزِيلَةٍ.

من أخبار سليمان بن عبد الملك

دخل يزيد بن أبي مُسلم، كاتبُ الحجاج، على سليمان بن عبد الملك، فازدراه وتبت عينه عنه، فقال: ما رأيت عيني كالיום قط، لعن الله امرأً أجرك رسته، وحكمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل ذلك؛ فإنك رأيته والأمر عني مدبر، وعليك مُقبل، فلو رأيته والأمر عليّ مقبل، وعنك مدبر، لاستعظمت مني ما استصغرت، واستكبرت ما استقللت.

قال: عزمت عليك يا ابن أبي مُسلم لتخبرني عن الحجاج، أترأه يهوي في جهنم أم قد قرّبها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا في الحجاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأمن دولتكم، وأخاف عدوكم، وكأني به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك، ويسار أخيك، فاجعله حيث شئت.

فقال له سليمان: أعزّب إلى لعنة الله! فخرج، فالتفت سليمان إلى جلسائه فقال: قاتله الله! ما أحسن بديهته، وترفيهه لنفسه ولصاحبه! وقد أحسن المكافأة في الصنيعة، خلّوا عنه.

من أخبار إبراهيم بن العباس الموصلي

وشعره

قال إبراهيم بن العباس الموصلي: والله ما اتكّلتُ في مكاتبةٍ قطّ إلا على ما يجلبه خاطري، ويحيشُ به صدري، إلا قولي في فصل وصار ما كان يحزّهم يُبرّزهم، وما كان يعقلهم يعتقلهم. وقولي في رسالة أخرى: "فأنزلوه من معقل إلى عُقال، وبدّلوه آجالاً بآمال"، فإني أملت في هذا بقول الصريع: البسيط:

مُوفٍ على مُهجٍ في يومٍ ذي رَهَجٍ كأنه أجلٌ يسعى إلى أملٍ

وفي المعنى الأول يقول أبو تمام: الطويل:

فإنَّ بَيْنَ حَيْطَانًا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أولئك عُقالاتُهُ لَا مَعَاقِلُهُ

وكان يقول: ما تمنيت كلاماً أحدٌ أن يكون لي إلا قولٌ عبر الحميد بن يحيى: الناس أصنافٌ متباينون، وأطوار متفاوتون، منهم علق مضنة لا يُباع، وغلّ مظنة لا يبتاع.

ورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بدم رجل ومدح آخر؛ فوقع في كتابه: إذا كان للمحسن عن الجزاء ما يُقنعه، وللمسيء من النكال ما يَقْمَعُهُ، بذل الحسن الواجب عليه رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة؛ فوثب الناس يقبلون يده.

ووقع لرجل مَتَّ إليه بُحْرمة: تقدمت بحرمة مألوفة، ووسيلة معروفة، أقوم بواجبها، وأرعاها من جميع جوانبها.

وإبراهيم بن العباس هو القائل: الطويل:

لنا إيل كُومٌ يَضِيقُ بها الفضا
فمن دونها أن تُستباحَ دماؤنا
وَتَغْبَرُ منها أَرْضُها وسماؤها
ومن دُوننا أن يُسْتَدَمَّ دماؤها
حمى وقرى فالموتُ دونَ مرامها
وأيسرُ خطبٍ يومَ حَقِّ فَنّاؤها

وقاد الصولي: وجدت بخط عبد الله بن أبي سعيد إبراهيم بن العباس أنشدته لنفسه: الطويل:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته
وأعلمُ مالي عندكم فيردني
وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
هَوَايَ إلى جهلي فأرجعُ من علمي

فقلت: أسبقك إلى هذا أحد؟ فقال: العباس بن الأحنف بقوله: الطويل:

تجنبَ يَرْتَادُ السلو فلم يجدْ
فعاد إلى أن راجع الوصلَ صاغراً
له عنك في الأرض العريضة مذهباً
وعاد إلى ما تشتهين وأعتبا

قال الصولي: وأظن أن ابن أبي سعيد غلط في هذه الرواية؛ لأن الأشبه بقول ابن العباس: فعاد إلى أن راجع الوصل صاغراً قوله: البسيط:

كم قد تجرّعتُ من غَيْظٍ ومن حَزَنٍ
وكم سَخِطْتُ وما باليتُم سَخِطِي
إذا تجددَ حُزنٌ هَوَّنَ الماضي
حتى رجعتُ بقلبٍ ساخطٍ راضي

وأنشد له: الطويل:

لمن لا أرى أعرضتُ عن كلِّ من أرى
وصرّيتُ على قلبي رقيباً لقائله

أدافعه عن سلوة وأردّه
حياءً إلى أوصابه وبلايلمه

وقال في هذا النحو: المتقارب:

وأنت هوى النفس من بينهم
وما بك إن بعدوا وحدة
وأنت الحبيبُ وأنت المطاعُ
ولا معهم إن بعدت اجتماعُ

وقال الطائي: الطويل:

إذا جئتَ لم أحزنَ لبُعدِ مفارقٍ
فيا ليتني أفديك من غربة النوى
وإن غبتَ لم أفرحُ بقُربِ مقيمٍ
بكلِّ أخٍ لي واصلٍ وحميمٍ

وأصل هذا من قول مالك بن مسَمَع للأحنف بن قيس: ما أَشْتاق للغائب إذا حَضَرْتُ، ولا أَنتفع بالحاضر إذا غَبِثَ.

وقال إبراهيم بن العباس: الطويل:

تَدَانَتْ بِقَوْمٍ عَنْ تَنَاءٍ زِيَارَةٍ وَشَطَّ بَلِيلِي عَنْ دُنُو مَزَارِهَا
وَإِنْ مُقِيمَاتٍ بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى لِأَقْرَبُ مِنْ لَيْلِي وَهَاتِيكَ دَارُهَا
وَلَيْلَى كَمَثَلِ النَّارِ يَنْفَعُ ضَوْءُهَا بَعِيداً نَأَى عَنْهَا وَيُحَرِّقُ جَارُهَا
كَأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى قَوْلِ النَّظَارِ الْفَقْعَسِيِّ: الطويل:
يَقُولُونَ هَذَا أُمُّ عَمْرٍ وَقَرِيبَةٌ دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ
أَلَا إِنَّمَا بُعْدُ الْخَلِيلِ وَقُرْبُهُ إِذَا هُوَ لَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ سِوَاءُ

وقوله: وليلى كمثل النار كقول العباس بن الأحنف: المنسرح:

أَحْرَمَ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ
وقال إبراهيم بن العباس: الوافر:

أَمِيلُ مَعَ الصَّدِيقِ عَلَى ابْنِ عَمِي وَأَخْذُ لِلصَّدِيقِ مِنَ الشَّقِيقِ
وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي حُرّاً مُطَاعاً فَإِنَّكَ وَاجِدِي عَبْدَ الصَّدِيقِ
أَفَرِّقْ بَيْنَ مَعْرُوفِي وَمَنِّي وَأَجْمَعْ بَيْنَ مَالِي وَالْحَقِيقِ

في رثاء مصلوب

قال العقيلي يرثي صديقاً له أخذ في حُرْبَةٍ فقتل وصلب: الطويل:

لَعَمْرِي لئن أَصْبَحْتَ فَوْقَ مَشْدَبٍ طَوِيلٍ تُعْفِيكَ الرِّيحُ مَعَ الْقَطْرِ
لَقَدْ عَشْتُ مَبْسُوطَ الْيَدَيْنِ مَرْزَأً وَغُوفِيَتْ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ
وَأَفْلَتَ مِنْ ضَيْقِ التُّرَابِ وَغَمِّهِ وَلَمْ تَفْقِدِ الدُّنْيَا؛ فَهَلْ لَكَ مِنْ شُكْرِ؟
فَمَا تَسْتَقِي عَيْنَايَ مِنْ دَائِمِ الْبُكْيِ عَلَيْكَ، وَلَوْ أَنِّي بَكَيْتُ إِلَى الْحَشْرِ
فَطُوبَى لِمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ مُجَاهِراً وَلَكِنِّي أَبْكِي لِفَقْدِكَ فِي سِتْرِ

عود إلى أخبار الرشيد

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد: يا أمير المؤمنين، لولا حظّ كرم الفعل في مطالع السؤال؛ لألّهي المَطْلُ قلوبَ الشاكرين ولصرف عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة، فأَيّ الحالين يُعِدُّ قولك عن مجاز فعلك؟. فقال هارون الرشيد: هذا الكلام لا يحتمل الجواب؛ إذ كان الإقرار به يمنع من الاحتجاج عليه.

قضاء الحاجة

وقال يحيى بن أكتم للمأمون يذكر حاجة له قد وعده بقضائها وأغفل ذلك: أنت، يا أمير المؤمنين، أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالادّكار، وأنت شاهدي على وعدك، وأن تأمر بشيء لم تتقدّم أيامه، ولا يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن يستولي علينا صبرُ انتظارِ نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان، ولا يُعجزه كرم، فعجّل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرماً، وتردّادُ به نعماً، وتلقّاه بالشكر الدائم.

فاستحسن المأمون هذا الكلام، وأمر بقضاء حاجته.

قدم على المأمون رجل من أبناء الدهاقين وعظمائهم، من أهل الشام، على عدّة سلفت له من المأمون، من تولّيته بلده، وأن يضمّ إليه مملكته، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمرِ أمير المؤمنين بذلك، فقصد عمرو بن مسعدة وسأله إيصالَ رقعة إلى المأمون من ناحيته، فقال: أُكْتُبُ بما شئتَ فيني مُوصِلُهُ، قال: فتولّ ذلك عني، حتى تكون لك نعمتان. فكتب عمرو: إن رأى أمير المؤمنين أن يفكّ أسرَ عدته من رُبقة المَطْل، بقضاء حاجة عبده، والإذن له بالانصراف إلى بلده، فعل مُوفّقاً.

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرواً، وجعل يعجب من حُسن لفظها، وإيجازِ المرادِ فيها، فقال له عمرو: فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتابة له في هذا الوقت بما سأل، لئلا يتأخر فضلُ استحساننا كلامه، وبجائزة تنفي دناءة المَطْل.

ومن كلام عمرو بن مسعدة: أعظمُ الناسِ أجراً، وأنبههم ذكراً، من لم يرضَ بحياة العدلِ في دولته، وظهور الحجة في سلطانه، وإيصال المنافع إلى رعيته في حياته، حتى احتالَ في تخليدِ ذلك في الغابرين بعده، عنايةً بالدين، ورحمةً بالرعية، وكفايةً لهم من ذلك ما لو عتوا باستنباطه لكان يعرض أحد الأمرين، إمّا الإكداء عن إصابة الحقّ فيه لكثرة ما يعرض من الالتباس، وإمّا إصابة الرأي بعد طول الفكر، ومقاساة التجارب، واستغلاق كثير من الطرق إلى درّكه؛ وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه.

في إطالة الخطبة

وقال رجل لسويد بن منجوف، وقد أطل الخطبة بكلام افتتحه لصلح بين قوم من العرب: يا هذا، أتيت مرعى غير مرعاك، أفلا أدلك عليه. قال: نعم. قال: قل: أما بعد فإن في الصلح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتواهبوا الترات.

من أخبار الأمير أبي مسلم

قال عبد الله بن مسعود: لما أمر أبو مسلم بمحاربة عبد الله بن علي، دخلت عليه فقلت: أيها الأمير، تريد عظيماً من الأمر؟ قال: وما هو؟ قلت: عم أمير المؤمنين وهو شيخ قومه، مع نجدة، وبأس، وحزم، وحسن سياسة. فقال لي: يا ابن شبرمة، أنت بحديث تعلم معانيه، وشعر توضح قوافيه، أعلم منك بالحرب؛ إن هذه دولة قد اطردت أعلامها، وامتدت أيامها، فليس لمنائها والطامع فيها يد تنيله شيئاً من الثوب عليها، فإذا ولت أيامها فدع الوزغ بذنبه فيها.

قال بعض حكماء خراسان: لما بلغني خروج أبي مسلم أتيت عسكره لأنظر إلى تدبيره وهيئته، فأقمت فيه أياماً، فبلغني عنه شدة عجب، وكبر ظاهر، فظننت أنه تحلى بذلك لعي فيه أراد أن يستتره بالصمت، فتوصلت إليه بحديث أسمع كلامه، وأغيب عن بصره، فسلمت فرداً جميلاً، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذهم في وجه من الوجوه، وقد عقدوا لرجل منهم لواء، فنظر إليهم ساعة متأملاً لهم، وقال: افهموا عني وصيتي إياكم؟ فإنها أجدى عليكم من أكثر تدبيركم، وبالله توفيقكم. قالوا: نعم أيها السالار، ومعناه السيد بالفارسية، فسمعتهم يقول، ومترجم يحكي كلامه بالفارسية لمن عبّر له منهم بالعربية: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها سبب الظفر، وأكثروا ذكر الضعائن فإنها تبعث على الإقدام، والزمو الطاعة فإنها حصن المحارب، وعليكم بعصية الأشراف، ودعوا عصية الدناءة؛ فإن الأشراف تظهر بأفعالها، والدناءة بأقوالها.

وذكر إدريس بن معقل أبا مسلم فقال: يمثل أبي مسلم يدرك ثار، وينفى عار، ويؤكد عهد، ويبرم عقد، ويسهل وعر، ويخاض غمر، ويقلع ناب، ويفتح باب.

من أخبار أبي جعفر المنصور

وقال رجل لأبي جعفر المنصور: أين ما تحدث به في أيام بني أمية؟ إن الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين، ولم تعامل بالعدل في الرعية، وقسمة الفيء بالسوية، صار عاقبة أمرها بواراً، وحاق بولائها

سوءُ العذاب.

قال: فتنفس ثم قال: قد كان ما تقول، ولكننا يا أخي استعجلنا الفانية على الباقية، وكأن قد انقضت هذه الدار. فقال له الرجل: فانظر على أي حالة تنقضي.

وقال أبو الدوانيق وكان فصيحاً بليغاً: عجباً لمن أصار علمه غرضاً لسهام الخطايا، وهو عارفٌ بسُرعةِ المنايا، اللهم إن تقض للمسيئين صفحاً فاجعلي منهم، وإن تهب للظالمين فسحاً فلا تحرمي ما يتطول به المولى على أحسن عبيده.

من أخبار الأحنف بن قيس

سئل الأحنف بن قيس عن العقل؟ فقال: رأس الأشياء فيه قوائمها، وبه تمامها؛ لأنه سراج ما بطن، وملاك ما علن، وسائس الجسد، وزينة كل أحد، لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه.

ولما خطب زياد خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس، فقال: الفرس بشدّه، والسيف بجده، والمرء بجده، وقد بلغ بك جدك ما أرى، وإنما الثناء بعد البلاء، فإننا لا نُثني حتى نُبْلُو.

عهد الوثائق بقلم ابن الزيات

وكتب ابنُ الزيات عهدَ الوثائق على مكة بحضرة المعتصم: إذا بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلّدك مكة وزمزم، تُراثُ أبيك الأقدم، وجدك الأكرم، وركضة جبريل، وسُقيا إسماعيل، وحفر عبد المطلب، وسقاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى، والتوسعة على أهل بيته.

وكتب: لو لم يكن من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليه، وزيادة منتظرة له، ثم قال محمد بن رباح: كيف ترى؟ قال: كأنهما قُرطان بينهما وجه حسن، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمر الحرم بتعظيم وتفخيم.

ألفاظ لأهل العصر في التهنة بالحج

وتفخيم أمر، الحرم و تعظيم، أمر المناسك والمشاعر، وما يتصل بها من الأدعية:

قصد البيت العتيق، والمطاف الكرم، والملتزم النبیه، والمستلم التزيه. وقف بالمعرف العظيم، وورد زمزم والحطيم. حرم الله الذي أوسع للناس كرامة، وجعله لهم مثابة، وللخليل خُطة، وللذبيح خُلة، ولمحمد،

صلى الله عليه وسلم، قَبْلَةَ، ولأُمَّتِهِ كَعْبَةَ، ودعا إليه حتى لَبَّى من كل مكان سحيق، وأسرع نحوه من كل فج عميق، يعودُ عنه مَنْ وُفِّقَ وقد قُبِلَت تَوْبَتُهُ، وغُفِرَت حَوْبَتُهُ، وسَعِدَت سَفَرَتُهُ، وأُنْجَحَت أَوْبَتُهُ، وحُمِدَ سَعْيُهُ، وزكا حَجُّهُ، وتقبل عَجْه ونَجْه. انصرف مولاي عن الحج الذي انتضى له عَزَائِمُهُ، وأنضى فيه رَوَاحِلُهُ، وأتعب نفسه بطلب راحتها، وأنفق ذخائره بشراء سَعَةِ الْجَنَّةِ وساحتها؛ فقد زَكَتْ، إن شاء الله تعالى، أفعاله وثُقُبَلَت أعماله، وشكر سعيه، وبلغ هديه. قد أسْقَطْتَ عن ظَهْرِكَ الثقلَ العظيمَ، وشهدتَ المَوْقِفَ الكريمَ، ومحصتَ عن نفسك بالسَّعْيِ من الفَجِّ العميقِ، إلى البيت العتيق. حمداً لمن سهَّلَ عليك قضاءَ فريضة الحج، ورُؤْيَا المَشْعَرِ والمَقَامِ، وبركةَ الأدعية والموسم، وسعادةَ أفنية الحطيم وزمزم، قَصَدَ أَكْرَمَ المقاصد، وشهدَ أَشْرَفَ المشاهدِ فورِدَ مَشَارِعَ الْجَنَّةِ، وخيمَ بمنازل الرحمة. وقد جُمِعَت مواهب الله لديك: فالْحُجُّ أَذْيَتَ فرضه، وحرَّمُ الله وَطِئَتْ أرضه، والمقام الكريم قُفَّتْهُ، والحجر الأسود استَلَمَتْهُ، و زُرْتُ قَبْرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، مشافهاً لمشهده، ومشاهداً لمسجده، ومباشراً باديهِ ومَحْضَرِهِ، وماشياً بين قبره ومنبره، ومصلياً عليه حيث صَلَّى، ومتقرباً إليه بالقراءة العظمى، وعدت وسَعَيْكَ مشكور، وذَنْبُكَ مغفور، وتجارَتِكَ رابحة، والبركات عليك غَادِيَةٌ ورائحة. تَلَقَّى الله دعاءك بالإجابة، واستغفارك بالرضا، وأملك بالنجح، وجعل سَعْيِكَ مشكوراً، وحجَّكَ مبروراً. عَرَفَ الله تعالى مولاي مناهجَ ما نواه، وقَصَدَهُ وتوخاه، ما يسعده في دنياه، ويحمد عُقْبَاهُ.

قطري بن الفجاءة

قال أبو حاتم: أتيت أبا عبيدة ومعِي شعر عُرْوَةَ بن الورد، فقال لي: ما معك؟ قلت: شعر عُرْوَةَ، قال: شعر فقير، يحمله فقير، ليقرأه على فقير! قلت: ما معي شعرٌ غيره؛ فأنشدني أنت ما شئت، فأنشدني: البسيط:

يَا رَبِّ ظِلِّ عُقَابٍ قَدْ وَقِيَتْ بِهِ	مُهْرِي مِنَ الشَّمْسِ وَالْأَبْطَالِ تَجْتَلِدُ
وَرَبِّ يَوْمِ حُمَى أُرْعِيَتْ عَقَوْتُهُ	خَيْلِي اقْتَسَاراً وَأَطْرَافُ الْقَنَا قَصْدُ
وَيَوْمَ لَهْوٍ لِأَهْلِ الْخَفْضِ ظِلٌّ بِهِ	لَهْوِي اصْطِلَاءَ الْوَعْيِ وَنَارُهُ تَقْدُ
مُشْهَرّاً مَوْقِفِي وَالْحَرْبُ كَاشِفَةٌ	عَنْهَا الْقَنَاعُ وَبَحْرُ الْمَوْتِ يَطْرُدُ
وَرَبِّ هَاجِرَةٍ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا	مَخْرُتُهَا بِمَطَايَا غَارَةٍ تَخْدُ
تَجْتَابُ أَوْدِيَةَ الْأَفْزَاعِ آمِنَةٌ	كَأَنَّهَا أَسَدٌ يَصْطَادُهَا أَسَدُ
فَإِنْ أُمْتُ حَتَفَ أَنْفِي لَا أُمْتُ كَمْدًا	عَلَى الطَّعَانِ وَقَصُرُ الْعَاجِزِ الْكَمْدُ

ولم أقل لم أساق الموت شاربهُ
في كأسه والمنايا شرَّع ورُد
ثم قال: هذا والله هو الشعر، لا ما يتعلَّلون به من أشعار المخانيث.

والشعرُ لقطري بن الفجاءة المازني، وكان يُكنى في السلم أبا محمد، وفي الحرب أبا نَعَامَة، وكان أطولَ
الخوارج أياماً، وأحدَّهم شوكة، وكان شاعراً جواداً، وهو القائل أيضاً: الكامل:

لا يركنن أحدٌ إلى الإحجام
فلقد أراني للرماح دريئة
حتى خضبتُ بما تحدَّر من دمي
ثم انصرفْتُ وقد أصبت ولم أصب
يوم الوغى متهيِّباً لحمام
من عن يميني تارةً وأمامي
أكنافَ سَرَجِي أو عِنانَ لِجامي
جَذَعُ البصيرة قارح الإقدام

باب المديح

وقال المُسَيَّب بن عَلس: المتقارب:

تبيتُ الملوكُ على عَتَبِها
وكالشهد بالراح أَلْفاظُهُمْ
وكالمسك تُربُّ مقاماتهم
وشيبانُ إن غضبتُ تُعَتَّبُ
وأخلاقُهُم منهما أَعْدَبُ
وتربُّ أصولُهُم أَطيبُ

وقال آخر: الكامل:

اذكُرْ مجالسَ من بني أسد
الشرق منزلُهُمْ، ومَنزلُنا
من كل أبيض جُلُّ زينته
ومُدَجَجٌ يَسْعَى لغارته
بَعْدُوا فحنَّ إليهمُ القَلْبُ
غَزَبُ، وأين الشرق والغربُ؟
مسكٌ أحمُ وصارمُ عَضْبُ
وعقيرة بفنائهِ تَخْبُو

آخر: الوافر:

رأيتُكمُ بقيَّةَ آلِ حَرَبٍ
تُبَارون الرياحَ ندَى وجوداً
يُذَكِّرُنِي مقامي اليومَ فيكمُ
وهَضَبَتْها التي فوقَ الهَضَابِ
وتمتثلون أفعالَ السحابِ
مقامي أُمسٍ في ظلِّ الشبابِ

مكاتبات

بين سعيد بن عبد الملك وسعيد بن حميد

كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد: أكره - أطال الله بقاءك! أن أضعك ونفسي موضع العذر والقبول، فيكون أحدنا معذراً مقصراً، والآخر قابلاً متفضلاً، ولكن أذكر ما في التلاقي من الحديد البرّ، وفي التخلف من قلة الصبر، وأسأل الله تعالى أن يوفّقك وإيانا لما يكون منه عقى الشكر. فأجابه: وصل كتابك - أكرمك الله تعالى! - الحاضر سروره، للطيف موقعه، الجميل صدوره ومورده، الشاهد ظاهره على صديق باطنه، ونحن - أعزك الله - نجعل جزاءك حسن الاعتراف بفضلك، ومجاراتك التقصير دونك؛ ونرى أن لا عُذر في التخلف عنك، وإن حالت الأشغال بيننا وبينك. وإن كنت ساحت في العذر قبل الاعتذار، سبقت إلى فضيلة الاعتذار، فلا زلت على كل خير دليلاً، وإليه داعياً، وبه آمراً؛ ولقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث وطراً، وهاج شوقاً، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة ما ضاقت به الأيام؛ فتعال حظاً من محادثتك والأنس بك.

مكانة سعيد بن حميد

ولسعيد بن حميد حلاوة في منظومه ومنتوره، لكنه قليل الاختراع، كثير الإغارة على من سبقه. وكان يقال: لو رجع كلام كل أحد إلى صاحبه لبقي سعيد بن حميد ساكناً. وفيه يقول أبو علي البصير: الخفيف:

رأس من يدعي البلاغة مني ومن الناس، كلهم في حر أمة
وأخونا ولست أكنى سعيد ب ن حميد تؤرخ الكتب باسمه

هذا المعنى ينظر إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه: الطويل:

تضيق به الدنيا فينهض هارباً إذا نحن قلنا: خيرنا البازل السمح
فإن قيل: من هذا الشقي؟ أقل لهم على شرط كتمان الحديث: هو الفتخ

وكان سعيد يهوى فضل الشاعرة؛ فعزم مرة على سفر، فقالت له: البسيط:

كدبتني الود أن صافحت مرتحلاً كف الفراق بكف الصبر والجلد
لا تذكرن الهوى والشوق لو فجعته بالشوق نفسك لم تصبر على البعد

وكان سعيد عند بعض إخوانه، فنهض منصرفاً وأخذ بعضادتي الباب، وأنشأ يقول: الطويل:

سلام عليكم، حالت الكأس بيننا وولت بنا عن كل مرأى ومسمع

فلم يبقَ إلا أنْ يَصَافِحَنِي الْكَرَى

فيجمع سكرًا بين جسْمي ومَضْجعي

وقال سعيد: الطويل:

أَرَى أَلْسُنَ الشَّكْوَى إِلَيْكَ كَلِيلَةً

وفيهن عن غير النشاء فتورُ

تَقِيْمُ عَلَى الْعَتَبِ الَّذِي لَيْسَ نَافِعًا

وليس لها إلا إِلَيْكَ مَصِيرُ

وما أَنْتَ إِلَّا كَالزَّمانِ تَلَوَّنْتَ

نَوَائِبُ مِنْ أَحْدَاثِهِ وَأُمُورُ

فإنْ قَلَّ إِنْصَافُ الزَّمانِ وَجُودُهُ

فمن ذا عَلَى جَوْرِ الزَّمانِ يُجِيرُ؟

نَبْذُ فِي السَّرَقَاتِ الشَّعْرِيَّةِ

أما قوله:

تَقِيْمُ عَلَى الْعَتَبِ الَّذِي لَيْسَ نَافِعًا

فمن قول المؤمل: البسيط:

لَا تَغْضِبَنَّ عَلَى قَوْمٍ تَحَبَّهُمْ

فليس منك عليهم يَنْفَعُ الْغَضَبُ

يَا جَائِرِينَ عَلَيْنَا فِي حُكُومَتِهِمْ

وَالْجَوْرُ أَقْبَحُ مَا يُؤْتَى وَيُرْتَكَبُ

لَسْنَا إِلَى غَيْرِكُمْ مِنْكُمْ نَفَرٌ إِذَا

جُرْتُمْ، وَلَكِنْ إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ الْهَرَبُ

وأول من نبّه على هذا المعنى النابغة الذبياني في قوله للنعمان بن المنذر: الطويل:

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي

وَإِنْ خَلَّتْ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حَبَالٍ مَتِينَةٍ

تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ

سرقه أشجع السلمي فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن علي، وقد بعث إليه الرشيد من اغتاله في

المغرب: الكامل:

أَتَظُنُّ، يَا إِدْرِيسُ، أَنَّكَ مُقَلِّتٌ

كَيْدَ الْخِلَافَةِ أَوْ يَقِيكَ حَذَارُ؟

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا انْتَضَاهَا عَزَمُهُ

طَالَتْ، وَتَقْصُرُ دُونَهَا الْأَعْمَارُ

هِيَهَاتَ إِلَّا أَنْ تَحُلَّ بِبِلَدَةٍ

لَا يَهْتَدِي فِيهَا إِلَيْكَ نَهَارُ

وقال سلم الخاسر يعتذر إلى المهدي البسيط:

إِنِّي أَعَزُّ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ

وَأَنْتَ ذَاكَ لَمَّا يَأْتِي وَيَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْنُوثًا حَبَائِلُهُ
وَالدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ
وَلَوْ مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ أَصْرَفُهُ
فَلَيْسَ إِلَّا أَنْتَ ظَارِي مِنْكَ عَارِفُهُ
وقول سلم:

وَلَوْ مَلَكَتْ عَنَانَ الرِّيحِ أَصْرَفُهُ
كَأَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ لِلْحَجَّاجِ: الطَّوِيلُ:
وَلَوْ حَمَلْتَنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي
وقول علي بن جبلة لحُميد الطوسي: الطَّوِيلُ:
وَمَا لَأَمْرِي حَاوَلْتَهُ مِنْكَ مَهْرَبُ
أَخَذَهُ الْبَحْثَرِيُّ فَقَالَ: الْكَامِلُ:

سَلِّبُوا وَأَشْرِقَتْ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمْ
مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يُسَلِّبُوا
فَلَوْ أَنَّهُمْ رَكَبُوا الْكَوَاكِبَ لَمْ يَكُنْ
لِيَجِيرَهُمْ مِنْ حَدِّ بَأْسِكَ مَهْرَبُ
وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في نحو قول النابغة: الطَّوِيلُ:
وَأَنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنْنِي
لَأَنْكَ لِي مِثْلُ الْمَكَانِ الْمَحِيطِ بِي
مِنْ الْأَرْضِ لَوْلَا اسْتَنْهَضْتَنِي الْمَذَاهِبُ
وَأَمَّا قول سعيد:

وَمَا أَنْتَ إِلَّا كَالزَّمَانِ
وَالْبَيْتُ الَّذِي يَلِيهِ، فَكَأَنَّهُ أَلَمْ فِيهِ بِقَوْلِ شَمْعَلِ الثَّعْلَبِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَعْنَى بِنَفْسِهِ: الطَّوِيلُ:
أَمِنْ جَذْبَةٍ بِالرَّجْلِ مَنِّي تَبَاشَرْتُ
عُدَاتِي، وَلَا عَتَبَ عَلَيَّ وَلَا هَجَرُ
فَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلُهُ
لَكَالدَّهْرِ، لَا عَارَ بِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
وقال رجل من طيئ وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عروة بن زيد الخيل قتل رجلاً اسمه زيد فأقاد
منه السلطان، فقال الطائي يفتخر على الأسديين: الطَّوِيلُ:

عَلَا زَيْدُنَا يَوْمَ الْحَمَى رَأْسَ زَيْدِكُمْ
بِأَبْيَضَ مَشْحُودَ الْغَرَارِ يَمَانِي
فَإِنْ تَقْتُلُوا زَيْدًا بَزِيدَ فَإِنَّمَا
أَقَادَكُمْ السُّلْطَانُ بَعْدَ زَمَانٍ
وقول الثعلبي مأخوذ من قول النابغة، وهو أول من ابتكره: البسيط:

وَعَيَّرْتَنِي بَنُو ذَبِيانَ خَشِيَّتَهُ

وما عليَّ بأن أخشاك من عارٍ

ومن جيد شعر سعيد بن حميد: الطويل:

أَهَابُ وَأَسْتَحْيِي وَارْقُبْ وَعَدَهُ

فلا هو يبداني ولا أنا أسألُ

هو الشمسُ مَجْرَاهَا بَعِيدٌ وَضَوْءُهَا

قريبٌ، وقلبي بالبعيد موكلُ

وهذا المعنى وإن كان كثيراً مشهوراً فما يكاد يداني في الإحسان فيه.

وقد قال أبو عيينة: الطويل:

غَزَتْنِي جِيوشُ الْحَبِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

إذا حان من جُنْدٍ قَفُولٌ غَزَا جُنْدُ

أَقُولُ لِأَصْحَابِي: هِيَ الشَّمْسُ، ضَوْءُهَا

قريبٌ، ولكن في تناولها بُعدُ

وقال العباس بن الأحنف: المتقارب:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ

فَعَزَّ الْفَوَادَ عَزَاءً جَمِيلاً

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ

ولن تستطيع إليك النزولاً

وقال البحتري: الوافر:

دَنَوْتُ تَوَاضُعاً وَعَلَوْتُ قَدْرًا

فشأنك انحدارٌ وارتفاعُ

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تَدَانِي

ويَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال ابن الرومي: الكامل:

وَذَخَرْتُهُ لِلدَّهْرِ أَعْلَمُ أَنَّهُ

كالدهر فيه لمن يؤول مَالُ

وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ تَنْلُ

فالنور منها والضياء يُنالُ

وقال المتنبي: البسيط:

بِيضَاءُ تَطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا

وعزَّ ذلك مطلوباً لمن طلباً

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهَا

شُعاعها وتراه العينُ مقتربا

وقال سعيد بن حميد، ويروى لفضل الشاعرة: المنسرح:

مَا كُنْتُ أَيَّامَ كُنْتُ رَاضِيَةً

عني بذاك الرضا بمغتبِطٍ

عَلِمَّا بِأَنَّ الرِّضَا سَيَنْبَغُهُ

منك التجني وكثرة السَّخَطِ

فَكُلْ مَا سَاعَنِي فَعَنُ خُلُقِي

منك وما سرَّني فعن غَلَطِي

وفي هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمي من ولد عبد الصمد بن علي، ويُعرف بأبي العبر: البسيط:

أُبْكِي إِذَا غَضِبْتُ، حَتَّى إِذَا رَضِيتُ بَكَيْتُ عِنْدَ الرِّضَا خَوْفًا مِنَ الْغَضَبِ
فَالْمَوْتُ إِنْ غَضِبْتُ، وَالْمَوْتُ إِنْ رَضِيتُ إِنْ لَمْ يُرْحَنِي سَلَوٌ عَشْتُ فِي تَعَبِ

وقال العباس بن الأحنف: الطويل:

إِذَا رَضِيتُ لَمْ يَهْنِي ذَلِكَ الرِّضَا لَصْحَةٌ عَلِمِي أَنْ سَيَتْبَعُهُ عَتَبُ
وَأُبْكِي إِذَا مَا أَدْنَبْتُ خَوْفَ عَتَبِهَا فَاسْأَلْهَا مَرْضَاتِهَا وَلِهَا الذَّنْبُ
وَصَالِكُمْ هَجْرٌ، وَقُرْبُكُمْ قَلَى وَعَظْفُكُمْ صَدٌّ وَسَلْمُكُمْ حَرْبُ
وَأَنْتُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِيكُمْ فِظَاظَةٌ وَكُلَّ ذُلُولٍ مِنْ أُمُورِكُمْ صَعْبُ

وقال: المنسرح:

قَدْ كُنْتُ أُبْكِي وَأَنْتِ رَاضِيَةٌ حِذَارَ هَذَا الصَّدُودِ وَالْغَضَبِ
إِنْ تَمَّ ذَا الْهَجْرِ يَا ظَلُومٌ وَلَا تَمَّ فَمَا لِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرْبِ

وما أحسن قول القائل: الوافر:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُومَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِئًا فِي كُلِّ حِينٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
فِيْبِكِي إِنْ نَأَوْا حَذَرًا عَلَيْهِمُ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ
وَتَسَخَّنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّنَائِي وَتَسَخَّنَ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ

من كتاب الله تعالى

وقال سعيد بن حميد: إذا نزعْتُ في كتابي بآية من كتاب الله تعالى أنرت إظلامه، وزينت أحكامه، وأعذبت كلامه.

أمثال للعرب والعجم والعامة

وما يماثلها من كتاب الله تعالى:

مما هو أجلُّ منها وأعلى، أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبي.
قال علي رضي الله تعالى عنه: القتل أنفى للقتل، وفي القرآن: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ".

والعربُ تقول لمن يعيرُ غيره بما هو فيه: "عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجْرَهُ وَنَسِيَ بُجَيْرٌ خَيْرَهُ"، وفي القرآن "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ".

وفي معاودة العقوبة عند معاودة الذنب: إن عَادَتِ الْعُقُوبَةُ عُذُنَا لَهَا، وفي القرآن: "وإنْ عُذْتُمْ عُذْنَا".
"وإنْ تَعُودُوا نَعُدْ".

وفي ذوق الجاني وبال أمره: "يَذَاكَ أَوْكَنَا، وَفَوْكَ نَفَخَ". وفي القرآن: "ذلك بما قَدَّمْتَ يَدَاكَ".
وفي قُربِ الغد من اليوم قول الشاعر: الوافر:

وإن غداً لناظره قريب

وفي القرآن: "أليسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ".

وفي ظهور الأمر: قد وضح الأمرُ لذي عَيْنَيْنِ، وفي القرآن: "الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ".

وفي الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان: "أَعْطَاكَ تَمْرَةً، فَإِنْ أَبَى فَجَمْرَةً".

وفي القرآن: "وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ".

وفي فَوْتِ الأمر: "سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ"، وفي القرآن العظيم: "قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ".

وفي الوصول إلى المراد ببذلِ الرغائب: "مَنْ يَنْكَحِ الْحَسَنَاءَ يُعْطِ مَهْرَهَا"، وفي القرآن: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ".

وفي منع الرجل مُرادَه: الطويل: وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ وفي القرآن: "وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ".

وفي تَلَا فِي الإساءة: "عَادَ غَيْثٌ عَلَى مَا أَفْسَدَ"، وفي القرآن: "ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا".

وفي الاختصاص: "كل مقام بمقال"، وفي القرآن: "لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ".

العجم: "من احترق كُدْسُهُ تَمَنَّى إحراقَ أَكْدَاسِ النَّاسِ"، وفي القرآن: "وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً".

العامية: "مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بئراً وَقَعَ فِيهَا"، وفي القرآن: "وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ".

ومن الشعر: السريع:

كل امرئ يشبهه فعله

ما يفعل المرء فهو أهله

وفي القرآن: "قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ".

العامية: "كُلِّ الْبَقْلِ وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْمَبْقَلَةِ".

وفي القرآن: "لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ".
شعر: الرجز:

كم مرة حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارَةُ خَارَ لَكَ اللهُ وَأَنْتَ كَارَةٌ؟

وفي القرآن: "فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" العامة: "المأمول خيرٌ من المأكول"، وفي القرآن: "وَلَا آخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى" العامة: "لو كان في اليوم خيرٌ ما سلّم علي الصياد، وفي القرآن: "ولو عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ". المتنبّي: الطويل:

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد

وفي القرآن: "وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا" عند الخنازير تنفق العذرة، وفي القرآن: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ" العجم: "لم يردِ الله بالنملة صلاحاً إذا أنبت لها جناحاً"، وفي القرآن: "حتى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً".
العامة: الكلب لا يصيد كارهاً، وفي القرآن: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ". العجم: "كل شاة تُناط برجلها" وفي القرآن: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ".

جملة من مكاتبات بعض أهل العصر

أبو القاسم محمد بن علي الإسكافي عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه عبد الملك لأبي طاهر وشمكير بن زياد يشكره على حميد سيرته:
مَنْ حمدناه - أعزَّكَ اللهُ تعالى - من أعيانِ المِلَّةِ الذين بهم افتخارُها، وأعوانِ الدولة الذين بهم استظهارُها، بخَلَّةٍ يترع فيها من خلالِ الفضل، وخصلةٍ يكمل بها من خصالِ العدل. وإِنَّكَ - أعزَّكَ اللهُ! - من نحمده بالارتقاء في درجِ الفضائل، والاستواء في كلِّ الشواكل؛ فإنه ليس من مَحَمْدَةٍ إلا وسهمُك فيها فائز، ولا من شدةٍ إلا ومَهْلُك فيها بارز، وذلك - أعزَّكَ اللهُ تعالى! - أمرٌ قد أغنى صدقُ خبره عن العيان، وكفى بيان أثره تكلفُ الامتحان، ولو أعطينا النفوسَ مَنّاها، وسوَّغناها هَواها، لأوردنا عليك في ذرور كلِّ شارقٍ جديدٍ شُكْرَ، وجددنا لك مع اعتراض كلِّ خاطر جميلٍ ذِكرَ، لكننا للعادة في تَرْكِ الهوى، والثقة بأنك مع صالح آدابك تحلُّ الأدنى من الإحماذ محلِّ الأوفى، فيُقضى لك بأنه - وإن عظم قدره - يسير العدد، وعلى ما هو - وإن تناهى لفظُه - باقي الفخر مدى الأبد، وكان ممّا اقتضانا الآن تناولك به أخبارٌ تواترت، وأقوال تظاهرت، بإطباق سكانِ الحضرة ونيسابور من أهل عملك على شُكْرِ ما يتزايد لهم وفيهم من موادِّ عدلك، وحسن فضلك، حتى لقد ظللوا ولهم في شكر ذلك محافل تُعقد، ومشاهد تشهد،

يعجب بها السامعُ والرائي، ويقترنُ بها المؤمنُ والداعي؛ فإن هذا - أعزك الله - حال يطيب مسمعه، ويلذ موقعه، حتى لقد ملأ القلوبَ بهجاً، والصدور ثلجاً، حتى استفزها فرطُ الارتياح، وصدق الانشراح، إلى هذا الكتاب أن أعجلناه، وهذا الشكر أن أجزلناه. بعد ذكر لك اتصل كل الاتصال، وأجل كل الإجمال، وتضاعف به حظك من الرأي أضعافاً، وأشرف محلك على كل الحال إشرافاً، ونحن نهنئك - أعزك الله - على التوفيق الذي قسمه الله لك، والتيسير الذي وكله بك، ونبعثك على استدامتها بصالح النية، وبصادق البغية، لتدنو من العدل على ما ترعى، وتحسن الهدى فيما تتولى. فرأيك أبقاك الله تعالى في إحلال ذلك محله من استبشار به تستكمله، واستثمار له تعجّله إن شاء الله تعالى.

وكتب إليه يعزّيه: إن أحقّ من سلّم لأمر الله تعالى ورضي بقدره، حتى يُمحّضَ مصطنعاً، ويخلصَ مُصْطَبِراً، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر إذا وهب، والرضا إذا سلب، أنت أعزك الله تعالى؛ لمحلّك من الشكر والحجّ، وحظك من الصبر والتّهي، ثم لما ترجعُ إليه من ثبات الجنان عند النّازلة، وقوة الأركان لعزّ الدولة الفاضلة، فإن لك فيها وفي سهمك الفائز، ومهلك البارز، عوضاً عن كلّ مرزوء، ودركاً لكلّ مرجوء، ونسأل الله أن يجعلك من الشاكرين لفضله إذا أبلى، والصابرين لحكمه إذا ابتلى، وأن يجعل لك لا بك التعزية، ويقيك في نفسك وفي ذوّيك الرزّية، بمَنه وقدرته.

وله إليه: ترامى إلينا خبرُ مصابك بفلان؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممّن أطاع ووفى، وخدم ووالى، وعلمنا أن لفقدك مثله لوعة، وللمصاب به لدعة؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك، على يقيننا بأن عقلك يُعني عن عظمتك، ويهدي إلى الأوّلَى بشيئتك، والأزيد في رُبتك؟ فليحسن - أعزك الله - صبرك على ما أخذه منك، وشكرك على ما أبقي لك، ولتتمكّن في نفسك ما وفرّ لك من ثواب الصابرين، وأجزل من ذخر المحسنين، وليردّ كتابك بما أهلك الله تعالى من عزاء، وأبلاكه من جميل بلاء، إن شاء الله تعالى.

وله إليه جواب: وصل كتابك - أعزك الله تعالى - مفتتحاً بالتعزية عن فلان، وبوصف توجّعك للمصيبة، ونحن نحمد الله تعالى الذي يُنعم فضلاً، ويحكم عدلاً، ويهب إحساناً، ويسلب امتحاناً، على مجاري قضيته كيف حرّت آخذة ومعطية، ومواقع مشيئته كيف مضت سارة ومسيئة، حمّد عالمين أن لا حكم إلا له، ولا حول إلا به، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر، والمسرّة من الشكر، راجين ما أعدّه الله من الثواب للصابرين، والمزيد للشاكرين. وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وإليه ننيب، وأما وحشتك - أعزك الله - للحادث على الماضي، عفا الله عنه، فمثلك من ذوي الصفاء والوفاء اختصّ بذلك واهتمّ له، وعرف مثله فاغتنم به؛ فإن الطاعة نسب بين أوليائها، والنعمة سبب بين أبنائها، فلا

عَجَبُ أَنْ يَمْسُكَ فِي هَذَا الْعَارِضِ مَا يَمَسُّ أَوَّلَى الْمَشَارِكَةِ، وَيَخْصُّكَ مِنَ الْإِهْتِمَامِ مَا خَصَّ ذَوِي الْمَشَابِكَةِ. وَلَهُ إِلَيْهِ أَيْضاً فِي أَمْرِ غَزَاةٍ: وَرَدَ خَبْرُكَ، أَكْرَمَكَ اللَّهُ تَعَالَى، بِنَفْوَذِكَ لَوْجْهَكَ فِيمَنْ جَمَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْسَّعْيِ فِي سَبِيلِهِ إِلَى جَمَلَتِكَ؛ فَأَمَلْنَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَوْصُولاً بِأَعْظَمِ الْخَيْرَةِ، مُؤَدِياً إِلَى أَحْسَنِ الْمَغْبَةِ، إِلَّا أَنَّا أَحْسَسْنَا مِنَ الْغَزَاةِ الَّذِينَ بِهِمْ تَعْتَصِدُ، وَإِيَاهُمْ تَسْتَنْجِدُ، فَتُورَ نِيَّاتٍ، وَفَسَادَ طَوَيَّاتٍ، وَهَذَا كَمَا عَلِمْتَ بَابُ عَظِيمٍ يَجِبُ الْإِطْلَاعُ بِالْفِكْرِ وَالرَّأْيِ عَلَيْهِ، وَالْإِحْتِرَاسُ بِالْجَدِّ وَالْجَهْدِ مِنَ الْخَطَلِ فِيهِ. فَسَبِيلُكَ أَنْ تَتَأَمَّلَ أَمْرَكَ بَعِينَ اسْتِقْصَاءِ الْعَوْرَةِ، وَاسْتِدْرَاكِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ أَتَتْ وَجَدْتَ فِي عِدَّتِكَ تَمَامَ الْقُدْرَةِ، وَفِي عُدَّتِكَ مَقْدَارَ الْكِفَايَةِ، وَلَمْ تَجِدْ نِيَّاتِ أَوْلَئِكَ الْغَزَاةِ مَدْخُولَةً، وَلَا عُرَاهِمَ مَحْلُولَةً، اسْتَخَرْتَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَسِيرِ بِكُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَزْمِ فِي أَمْرِكَ، ثُمَّ إِنْ تَكُنِ الْآخِرَى، وَكَانَ الْقَوْمُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ كَلَالِ الْبَصَائِرِ، وَضَعْفِ الْمَرَاتِرِ، عَمِلْتَ عَلَى التَّلَوُّمِ لِحَدِيثٍ يَحْدِثُكَ بِهِ كِتَابُنَا هَذَا إِنْ اجْتَلَيْتَ مَا ذَكَرْتَهُ، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ بِبَلَاغَةٍ مَا اخْتَرْتَهُ، فَاعْتَلِقْ بِذَيْلِهِ.

من إنشاء بديع الزمان

وهذه المقامة من إنشاء البديع، قال عيسى بن هشام: غَزَوْتُ الثَّغَرَ بِقَرْوَيْنِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، فَمَا اجْتَرْنَا حَزْناً، إِلَّا هَبَطْنَا بَطْناً، حَتَّى وَقَفَ بَنَا الْمَسِيرُ عَلَى بَعْضِ قُرَاهَا، فَقَالَتِ الْهَاجِرَةُ بِنَا إِلَى ظِلِّ أَثْلَاثٍ فِي حِجْرِهَا عَيْنٌ كَلْسَانَ الشَّمْعَةِ، أَصْفَى مِنَ الدَّمْعَةِ، تَسِيحُ فِي الرُّضْرَاضِ، سِيحَ النَّضْنَضِ؛ فَلَنَا مِنَ الْمَأْكُلِ مَا نَلْنَا، ثُمَّ مَلْنَا إِلَى الظِّلِّ فَقَلْنَا؛ فَمَا مَلَكْنَا النَّوْمَ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتاً أَنْكَرَ مِنْ صَوْتِ الْحِمَارِ، وَرَجَعْنَا أَضْعَفَ مِنْ رَجْعِ الْحَوَارِ، يَشْفَعُهُمَا صَوْتُ طَبْلٍ كَأَنَّهُ خَارِجٌ مِنْ مَاضِغِي أُسْدٍ؛ فَذَادَ عَنِ الْقَوْمِ رَائِدُ النَّوْمِ، وَفَتَحَتِ الْعَيُونَ إِلَيْهِ وَقَدْ حَالَتِ الْأَشْجَارُ دُونَهُ، وَأَصْغَيْتُ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عَلَى إِيقَاعِ صَوْتِ الطَّبْلِ: السَّرِيعُ:

أَدْعُو إِلَى اللَّهِ فَهَلْ مِنْ مُجِيبٍ	إِلَى ذَرَى رَحْبٍ وَعَيْشٍ خَصِيبٍ
وَجَنَّةٍ عَالِيَةٍ مَا تَتِي	قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ مَا تَغِيبُ؟
يَا قَوْمُ، إِنِّي رَجُلٌ ثَائِبٌ	مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ وَأَمْرِي عَجِيبٌ
إِنْ أَكُّ أَمَنْتُ فَكَمْ لَيْلَةٍ	جَحَدْتُ فِيهِ وَعَبَدْتُ الصَّلِيبُ
يَا رَبَّ خِنْزِيرٍ تَمَشُّنْتُهُ	وَمُسْكَرٍ أَحْرَزْتُ مِنْهُ النَّصِيبُ
ثُمَّ هَدَانِي اللَّهُ، وَانْتَاشَنِي	مِنْ زَلَّةِ الْكُفْرِ اجْتِهَادُ الْمُصِيبُ
فَظَلَّتْ أَخْفَى الدِّينِ فِي أُسْرَتِي	وَأَعْبَدُ اللَّهَ بِقَلْبٍ مُنِيبُ
أَسْجُدُ لِأَلَاتٍ حِذَارِ الْعِدَى	وَلَا أَجِي الْكَعْبَةَ خَوْفَ الرَّقِيبُ

وَأَسْأَلُ اللَّهَ إِذَا جَنَّنِي
رَبِّ كَمَا أَنْكَ أَنْقَذْتَنِي
لَيْلِي وَأَضْنَانِي يَوْمَ عَصِيبٍ
فَنَجَّنِي؛ إِنِّي فِيهِمْ غَرِيبٌ
وَمَا سِوَى الْعِزْمِ أَمَامِي نَجِيبٌ
يَكَاذُ رَأْسُ الْوَلَدِ فِيهَا يَشِيبُ
إِلَى حِمَى الدِّينِ نَفَضْتُ الْوَجِيبُ
نَصَوْتُ مِنَ اللَّهِ وَفَتَحْتُ قَرِيبُ
وَقَلْتُ إِذْ لَاحَ شِعَارُ الْهَدَى

ولما بلغ هذا البيت قال: يا قوم، وطئت والله بلادكم بقلب لا العشق شاقه، ولا الفقر ساقه، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنائاً، وكواعب أتراباً، وخيلاً مُسَوِّمةً، وقناطير مُقَنْطَرةً، وعُدَّةً وعديداً، ومراكباً وعبيداً، وخرجتُ خروج الحثة من جحره، وبرزتُ بروز الطائر من وكره، مؤثراً ديني على دُنْيائي، وجامعاً يُمنّاي إلى يُسراي، واصلاً سيري بِسُراي، فلو رفعتُ النار بشررها، ورميتُ الروم بحجرها، وأعنتُموني على غزوها مساعدة وإسعاداً، ومرافدة وإرفاداً، ولا شططاً، فكل قادر على قُدْرته، وحسب ثروته. ولا أستكثر البُدرة، ولا أردّ التمرة، وأقبل الذرة، ولكل مني سهمان، سهم أذلّقه للقاء، وسهم أفوقه بالدعاء، وأرشق به أبواب السماء، عن قوس الظلماء.

قال عيسى بن هشام: فاستفزني رائع ألفاظه، وسرّوتُ جلاباب النوم، وعدوت إلى القوم، وإذا والله شيخناً أبو الفتح الإسكندري، بسيفٍ قد شهّره، وزى قد نكره؛ فلما رأني غمّزني بعينه وقال: رحم الله امرأً أحسن حدسه؛ ومملك نفسه، وأغنانا بفاضل قوله، وقسم لنا من نيله! ثم أخذ ما أخذ، فقمتُ إليه فقلت: أنت من أولاد بنات الروم؟ فقال: مجزوء الخفيف:

أَنَا حَالِي مَعَ الزَّمَا
نَسْبِي فِي يَدِ الزَّمَا
ن كَحَالِي مَعَ النِّسَبِ
ط إِذَا سَامَهُ انْقَلَبَ
أَنَا أُمْسِي مِنَ النَّبِي
ط وَأَضْحِي مِنَ الْعَرَبِ

من أخبار سليمان بن عبد الملك

قال سليمان بن عبد الملك: ما سألتني أحدٌ قط مسألة يثقلُ عليّ قضاؤها، ولا يخفُّ عليّ أدائها، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلب فهمه إلا قضيتها، وإن كانت العزيمة نفذت في منعه، وكان الصواب مستقراً في دفعه، ضناً بالصواب أن يردّ سائله، أو يحرم نائله.

من أخبار النعمان بن المنذر

والحارث الغساني

وقال أبو عبيدة: كان أبو قيس بن رفاعَة يَفِدُ سنةً إلى النعمان بن المنذر اللخمي وسنة إلى الحارث بن أبي شَمِرِ العَشاَني، فقال له الحارث يوماً وهو عنده: يا ابن رفاعَة، بلغني أنك تفضل النعمان عليّ! قال: كيف أَفضِّلُه عليك، أبيت اللعن؟ فوالله لَقَفَاكَ أَحْسَنُ من وَجْهه، ولَأَمْكُ أَشْرَفُ من أبيه، ولَأَبَاؤُكَ أَشْرَفُ من جميع قومه، ولَأَمْسُكَ أَفْضَلُ من يومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولحِرمَانُكَ أنفع من بَذْلِهِ، ولَقَلِيلُكَ أكثر من كثيره، ولشِمَاذُكَ أغزُرُ من غديره، ولكرسِيكَ أرفع من سريره، ولجذُوكُكُ أغمر من بحوره، وليومُكَ أَفْضَلُ من شَهْرِهِ، ولشَهْرُكَ أَشْرَفُ من حَوْلِهِ، ولحولُكَ خير من حَقْبِهِ، ولزَنْدُكَ أَوْرى من زَنْدِهِ، ولجندُكَ أعز من جنده، ولهزْلُكَ أَصوب من جدّه، وإنك لَمِنْ غَسَّانِ أرباب الملوك، وإنه لمن لَحْمٍ كثيرٍ النوك! فَعَلَامَ أَفضِّلُه عليك؟ وقد روى مثل هذا الكلام للناطقة الذبياني مع النعمان بن المنذر.

من أخبار المهدي

وقال المفضل الضبي: دخلت على المهدي فقال قبل أن أجلس: أنشدني أربعة أبيات لا تزد عليهنّ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعي، فأنشدته: الطويل:

وَأَشَعْتُ قَدْ قَدَّ السَّقَارُ قَمِيصَهُ	يَجْرُ شَوَاءً بِالْعَصَا غَيْرَ مُنْضَجٍ
دَعَوْتُ إِلَى مَا نَابَنِي وَأَجَابَنِي	كَرِيمٌ مِنَ الْفَتَيَانِ غَيْرِ مَزَلَجٍ
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سَنَانَهُ	وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمَدَجَجِ
فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ	وَلَا فِي بِيوتِ الْحَيِّ بِالْمَتَوَلَجِ

فقال المهدي: هذا هو، وأشار إلى عبد الله بن مالك، فلمّا انصرفتُ بعثَ إليّ بألف دينار، وبعثَ إلى عبد الله بأربعة آلاف.

من أخبار أبو الأسود الدؤلي

تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته إلى زياد في ابنهما؟ وأراد أبو الأسود أَخْذَهُ منها فَأَبَتْ وقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعأؤهُ، وحجري فناؤهُ، وثديي سقاؤهُ، أَكَلُوهُ إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فلمّا استوفى فصأله، وكملت خصأله، واستوكعت أوصأله، وأمّلتُ

نفعه، ورجوت عطفه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فآدني أيها الأمير، فقد أراد قهري، وحاول قسري.

فقال أبو الأسود: هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعتة قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أوده، وأمنحه علمي، وألممه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستكمل فتله.
ف قالت المرأة: صدق أصلحك الله؛ حملة خفّاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعتة كرهاً.
فقال زياد: اردّد على المرأة ولدها؛ فهي أحق به منك، ودعني من سجعك.

في باب الوعظ

قال الأصمعي: بلغني أنّ بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم، وإني لكثير الذنوب، مسرف على نفسي، غير حامد لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله. وقد بلوها فلم أجد لها شكراً في الرضاء، ولا صبراً على البلوى. ولو أن أحداً لا يعظ أخاه حتى يحكم أمره لترك الأمر؟... ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس، وتذكير من النسيان، واعلموا أنّ الدنيا سرورها أحزان، وإقبالها إدبار، وآخر حياتها الموت، فكم من مستقبل يوماً لا يستكملّه، ومنتظر غداً لا يبلغه؟ ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.
جمع عبد الملك أهله وولده فقال: يا بني أمية، ابذلوا ندّاكم، وكفوا أذاكم، وأجملوا إذا طلبتم، واغفروا إذا قدرتم، ولا تُلحِفُوا إذا سألتهم، ولا تبخلوا إذا سُئِلْتُمْ؛ فإن العفو بعد القدرة، والثناء بعد الخبرة، وخير المال ما أفاد حمداً ونفى دماً.

من أخبار هشام بن عبد الملك

ودخل سعيد الجعفري على هشام بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أصفك بصفتك، فإن انحرف كلامي فلهيبة الإمام، واجتماع الأقوام، وتصرف الأعوام، ولربّ جوادٍ عثر في أرسانه، وكبا في ميدانه، ورحم الله امرأ قصر من لفظه، وألصق الأرض بلحظه، ووعى قولي بحفظه، فحاف هشام أن يتكلّم فيقصّر عن جائزة مثله، فعزم عليه فسكت.

بين حاتم الطائي وعبد قيس البرجمي

قال عبد قيس بن خُفاف البُرْجُمي لحاتم الطائي وقد وفَدَ عليه في دماء تحملها وعجز عن البعض: إنه وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدمت مالي، وكُنتَ أملي، فإن تحملها فربّ حق قضيته، وهمّ قد كفيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك، ولم أياس من غدك.

بين الحمدوني وابن حرب

قال أبو علي العتاي: حدّثني الحمدوني قال: بعث إليّ أحمد بن حرب المهلي في غداة السماء فيها مغيمة، فأتيته والمائدة موضوعة مُعْطَاة؟ وقد وافَتْ عُجاب المغنية، فأكلنا جميعاً، وجلسنا على شرابنا، فما راعنا إلا داقٌ يدقّ الباب، فأتاه الغلام فقال: بالباب فلان؛ فقال لي: هو فتى من آل المهلب، ظريف، نظيف، فقلت: ما نريد غير ما نحن فيه، فأذن له، فجاءَ يتبختر وقُدّامي قَدَحُ شراب فكسره، فإذا رجُلٌ آدمٌ ضَخَم، قال: وتكلم فإذا هو أعيان الناس، فجلس بيني وبين عُجاب، قال: فدعوت بدواة وكتبت إلى أحمد بن حرب: الخفيف:

كدر الله عيشَ من كدر العي	ش! فقد كان صافياً مُستطاباً
جاءنا والسماء تهطل بالغي	ث وقد طابق السماعُ الشرابا
كسر الكاس وهي كالكوكب الدرّ	ريّ ضمّت من المدام رُضابا
قلت لما رُميتُ منه بما أك	ره والدهرُ ما أفاد أصابا
عجل الله نقمةً لابن حرب	تدعُ الدارَ بعد شهرٍ خرابا

ودفعتُ الرقعة إلى أحمد، فقال: ويحك إلا نفسْتَ فقلتَ بعد حول؟ فقلت: أردت أقول بعد يوم، فخفت أن تصيبي مضرّة ذلك، وفطن الثقيل فنهض، فقال: آذيتَه! فقلت: هو آذاني. وقال الحمدوني في طيلسان ابن حرب: الطويل:

ولي طيلسان إن تأملت شخصه	تيقنتُ أن الدهر يَفنى وينقرض
تصدّع حتى قد أمنت انصداعه	وأظهرت الأيام من عمره الغرض
كأني لإشفاقي عليه ممرّض	أخا سقم مما تَمادى به المرض
فلو أن أصحاب الكلام يروونه	لَمَارَوْك فيه وادّعوا أنه عرض

وقال فيه: البسيط:

لطيلسان ابن حرب نعمة سبقت	بها تبين فضلي فهو متصل
---------------------------	------------------------

قد كنتُ دهرًا جهولاً ثم حنّني

عليه خوفي من الأقوام إن جهلوا

أظل أجتنب الإخوان من حذر

كأنما بي جرحٌ ليس يندملُ

يا طيلساناً إذا الألاحظ جُلنَ به

فَعَلَنَ فَعَلَ سَهام فيه تَنُصِلُ

لئن بليتَ فكم أبليتَ من أمم

تَتَرَى أبادتهمُ أيامُك الأولُ

وكم رآك أخ لي ثم أنشدني: -ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ وقال فيه: الخفيف:

يا ابنَ حربٍ كَسَوْتَنِي طيلساناً

أمرَضَتُهُ الأوجاعُ فَهُوَ سَقِيمُ

فإذا ما لبستُهُ قلتُ: سُبْحَا

نَكَ مُحْيِي العظام وهي رَمِيمُ

طيلسانٌ له إذا هَبَّتِ الري

حُ عليك بمنكبي هَمِيمُ

أذكرتني بيتاً لحسان فيه

حُرْقٌ للفؤاد حين أقوم

لو يَدِبُ الحوليُّ من ولد الذرِّ

رِ عليها لَأَنْدَبَتْها الكُلوْمُ

وقال أيضاً: السريع:

يا قاتِلَ الله ابنَ حربٍ لقد

أطال إيتاعي على عَمَدِ

بطيلسانٍ خَلْتُ أَنْ البلى

يطلبه بالوترِ والحَفْدِ

أجدُّ في رَفْوي له، والبلى

يلهو به في الهَزَلِ والجِدِّ

ذكرني الجنة لما غدا

أصحابُها منها على حَرْدِ

إن أتهمَ الرِّقاء في رفوه

مضى به التمزيقُ في نَجْدِ

غنيته لما مضى راحلاً:

يا واحدي تتركني وحدي!

وقال أيضاً فيه: المجتث:

إنَّ ابنَ حربٍ كساني

ثوباً يُطِيلُ انحرافه

أظل أدفعُ عنه

وأُتَقِّي كلَّ آفه

فقد تَعَلَّمْتُ من خَش

يتي عليه الثقافه

وقال أيضاً: الخفيف:

طيلسانٌ ما زال أقدم في الده

ر من الدهر ما لِرَفْويهِ حِيلَه

رَثَّةِ الْحَالِ ذَاتِ فَقْرٍ مُعِيلَةٍ

وترى ضعفه كضعف عجوز

سكنته نَزَاعُ كُلِّ قَبِيلَةٍ

غمرته الرفاع فهو كمصرٍ

فجرير قد زان قبلي بجيله

إن أزينه يا ابن حرب بذمي

جرير: ابن عبد الله البجلي، وله صحبة رضي الله عنه وقد قال غسان في هجائه جريراً: الطويل:

جريرٌ لقد أخزى كلَّ نبيٍّ جريرُها

لعمرى لئن كانت بجيله زانها

وقال الحمدوني في معناه الأول: الخفيف:

بيتنا مثل ما كسوت جماعة

يا ابن حرب إني أرى في زوايا

طيلسان رَفَوْتُهُ ورفوت الرفو منه حتى رفوت رِقَاعَهُ

ليس يعطي الرفاء في الرفو طاعة

فأطاع البلى وصار خليعاً

ظنّ أني فتى من أهل الضياعة

فإذا سائلٌ رآني فيه

وقال فيه: مجزوء الكامل:

يتداعى لا مساساً

طيلسان، لابن حرب

وأناساً فأناساً

قد طوى قرناً فقراً

لم تدع فيه لباساً

لبس الأيام حتى

لا يرى إلا قياساً

غاب تحت الحس حتى

من رسائل ابن العميد

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري: كتابي وأنا بحالٍ لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرتق صفوها النزاعُ نحوك، فعددتُها من الأحوال الجميلة، واعتددت حظي منها في النعم الجليلة؛ فقد جمعتُ إليها بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وحظيتُ منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح، لكن ما بقي أن يصنّفوا لي عيش مع بُعدي عنك، ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظمٌ لشمل أنسي، وقد حُرمت رؤيتك، وعَدِمْتُ مشاهدتك، وهل تسكنُ نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس مُتَشَتَّت بلا نظام، وقد قرأت كتابك جعلني الله تعالى فداءك؛ فامتألتُ سروراً بملاحظة خطك، وتأملتُ تصرفك في لفظك، وما أقرظُهما فكل خصالك مقررٌ عندي، وما أمدحُهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي، وأرجو أن تكونَ

حقيقةً أملك موافقةً لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري.

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين: أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة، دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيده، وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزیده، وهناه ما اختصه به على قرب الميلاد، من توافر الأعداد، وتكثر الأمداد، وتثمر الأولاد، وأراه من النجابة في البنين والأسباط، ما أراه من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قرّة، ونفسه من مسرة، ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وفسح في أمله، حتى يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمله، ويستوفي ما بعد حسن ظنه؛ وعرفه الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما ابنتا من نوره، واستناراً من دُوره، وحفاً بسريره، وجعل وفودهما متلائمين، وورودهما توائمين، بشيرين بتظاهر النعم، وتواتر القسم، ومؤذنين بترادف بنين يغصُّ بجمعهم منخرق الفضاء، ويشرق بنورهم أفق العلاء، وينتهي بهم أمد النماء، إلى غاية تفوت غاية الإحصاء، ولا زالت السبل عامرة، والمناهل غامرة، يصافح صادرهم بالبشر الوارد، وآملهم بالنيل القاصد.

من شعر المتنبي

وقال أبو الطيب وذكر أبا دلف وأبا الفوارس ابني عضد الدولة: الوافر:

فلم أرَ قبْلَهُ شَيْلِي هَزَبَرٍ	كَشْبَلِيهِ، وَلَا فَرَسِي رَهَانٍ
فَعَاشَ عَيْشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا	بِضَوْنَهُمَا وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلَكًا لِسَوَى مُلْكِ الْأَعَادِي	وَلَا وَرَثًا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ
وَكَانَ ابْنًا عَدُوًّا كَثَرَاهُ	لَهُ يَأْيَ حُرُوفٍ أَنْيْسِيَانِ
دُعَاءُ كَالثَنَاءِ بِلَا رِيَاءٍ	يُؤَدِّيهِ الْجَنَانُ إِلَى الْجَنَانِ

وكتب أبو القاسم الإسكافي عن نوح بن نصر إلى وشمكير بن زياد في استبطاء وتهنئة: وصل كتابك ناطقاً مفتتحه بجميل العذر، فيما نقل من المكاتبة، وبعث من المطالعة، ومُعرباً مختتمه عن جملة خبر السلامة التي طبقت أعمالك، والاستقامة التي عمت أحوالك، وفهمناه، ولولا أن مواتاتك - أيديك الله تعالى - فيما تأني وتذر، وترتمي وتدير، عادة لنا أورثناها قرابة ما بين وفاقنا ووفاقك، وملاءمة حال أَلْجَأْنَا لحال استحقاقك، لكننا ربما ضايقتك في العذر الذي اعتذرت به، وإن كان واضحاً طريقه، وناقشناك فيه، وإن كان واجباً تصديقه، لفرط الأئس يخلص إلينا بكتابك، والارتياح بخطابك، اللذين لا

يؤدّيان إلا خبر سلامة توجبُ الإحماد، فنحن نأبى إلا إجراء تلك العادة، كما عودتنا، وإلا التجافي عما تريد فيه من الزيادة التي أردتها، ولا ندع مع ذلك أن يصل تسويؤك إلى الإقلال الذي اخترته بإحمادك على الكتاب إذا كتبته، توخياً لأن تكون مؤهلاً في الحالين لخلاصة التنويل، مقدماً في درج التفضيل، موفى حقائق الإيثار، موفى لواحق الاستقصار، ونستعين بالله على قضاء حقوقك، وعلى جميل النية في أمورك، فإن ذلك لا يبلغ إلا بقوّته، ولا يُدرك إلا بحوّله، وأمّا بعد فقد عفى - أعزك الله تعالى - ما أفاد كتابك بخبر السلامة من أنسه، على آثار من سبقه بخبر العلة من وحشة، فأوجبنا مقابلة موهبة الله تعالى في المحبوب صنع، والمكروه دفع، نستقبل به إخلاص المواهب لنا، ونستدبم به أخصّ المراتب بنا، فأريك - أعزك الله تعالى - في المطالعة بذكر تستمده في القوة والصحة من مزيد، والطاعة والكفاية من توفيق وتسديد، موقفاً إن شاء الله تعالى.

ألفاظ لأهل العصر في ضروب التهاني

وما ينخرط في سلكها من ذلك في التهنة بالمولود وما يجري مجراها من الأدعية، وما يختصُّ منها بالملوك أو الرؤساء:

مرحباً بالفارس المصدّق للظنون، المقرّ للعيون، المقبل بالطالع السعيد، والخير العتيد، أنجب الأبناء لأكرم الآباء. أنا مستبشّر بطلوع النجم الذي كنّا منه على أمل، ومن تطاول استسّراره الذي كنّا منه على وجل، إن يشأ الله يجعله مقدمة إخوة في نسق كالفريد المتسق. قد طلع في أفق الحرية أسعد نجم، ونجم، في حدائق المروعة أذكى نبت. يا بُشْرَاي بطلوع الفارس الميمون جدّه، المضمون سعدّه، عليه خاتم الفضل وطابعه، وله سهّم الخير وطالعُه. الحمد لله على طلوع هذا الهلال الذي نراه إن شاء الله بداراً لا يضمر السرار بهاه، ولا يبلغ المحاق سنائه وسناه، وقد بشرت قوابله بالإقبال وعلو الجدّ، واقترن قدومه بالطالع السعد. هنّاك الله تعالى بقوّة الظهر، واشتداد الأزر. الفارس المكثّر لسواد الفضل، الموفّر لحال الأهل، المستوفي شرف الأرومة، بكرم الأبوة والأمومة، وأبقاه حتى نراه كما رأينا جدّه وأباه. عرفت أنفاً ما كثر الله به عدده، وشدّ عضده: من طلوع الفارس الذي أضاء له الأفق، وطال به باع السعادة، فعظمت النعمى لديّ، وأوردت البشري غاية المنى عليّ. مرحباً بالفارس القادم، بأعظم المغام، سويّ الخلق سامي العرق يلوح عليه سيماء المجد، وتتجاذبه أطراف الملك والحمد. وردت البشري بالفارس الذي أوسع رباغ المجد تأهيلاً، ومناكب الشرف ارتفاعاً، وأعصاب العزّ اشتداداً. وأتيني بشري البشائر، والنعم المحروسة على النظائر، في سلالة العز وسليله، وابن منبر الملك وسريره،

والأمير القادِم بَعْرَةَ المكارم، الناهض إلى ذَرَوَةِ العلياء، بآباء أمراء، وملوك عظماء. مرحباً بالفارس المأمول لشد الظهور، المرجو لسدّ الثغور. الحمد لله الذي شدّ أزرَ الدولة، ونظم قلادة الإمرة، ودعم سَرِيرِ العزة، ووطد منابرَ المملكة، بالقمر السعد، وشبل الأسد الورْد. فد تنسَمَتِ المكارمُ والمعالي، وتباشرت الخُطْبُ والقوافي، بالفارس المأمول لشدّ أزرِ الملك، وسدّ ثَغْرِ الجحد، وتطاولَ السريُّ شَوْقاً إليه، واهتزت المنابرُ حرصاً عليه. قد افْتَرَحَ جَفَنُ العالَمِ عن العينِ البصيرة، واستُعْربَ مضحكُه عن اللّمة المنيرة؛ أما الأمير فالتاج لجبينه يَنْهَى، والركاب بقدمه تزهى، اللهم أَرِنِي هذا الهلالَ بدرًا قد عَلَا الأقدارُ قدراً، وبلغه الله فيه مناه، حتى نراه وأخاه، منيفين على ذَرَوَةِ الجحد، آخذين من أوفر الخطوة بأعلى الجد.

ولهم: والله يمتنع به، ويرزقُ الخيرَ منه، ويحقّقُ الأملَ فيه. عرف الله تعالى آثارَ بركة المولود المسعود، وعَضَّدَ الفضل بالزيادة في عدده، وأقرَّ عَيْنَ الجحد بالسّادة من ولده. عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه، ما يجمع الأعداء تحت قدمه. عمرك الله تعالى حتى ترى هذا الهلالَ قمراً باهراً، وبدرًا زاهراً، يكثر به عدد حَفَدَتِكَ، ويعظم معه غُصَّةُ حَسَدَتِكَ، من حيث لا تَهْتَدِي النوائبُ إلى أغراضكم، ولا تطمع الحوادثُ إلى انتقاصكم، متعك الله بالولد، وجعله من أقوى العُدَد، ووصله بإخوة متوافري العَدَد، شادّي الأزر والعَضُد. هناك الله تعالى مولده، وقرن باليَمَنِ مَوْرَدَه، وأراك من بنيه أولاداً بَرَّةً وأسباطاً وحفدة، وعرفك بركة قُدُومِه، ونجح مقدمه، وسعد طالعه، وبمن طائرِه، وعمرك الله حتى ترى زيادة الله منه كما رأيتهَا، والله يبلّغك أفضل ما تقسمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرق مع إخوته مساعي الفضل، ويشيدوا قواعدَ الفخر، ويزحموا صُدُور الدَّهر، ويضبطوا أطراف الأرض؛ والله يحرسه من نواظر الأيام أن تَرْتُوَ إليه، وأطماع الليالي أن تتوجه عليه، حتى يستقلُّ بأعباء الخدمة، وينهض بأنقال الدعوة، ويخف في الدفع عن البيضة، ويسرع في حماية الحَوْزَةِ، والله يديم لمولانا من العُمَر أكلاه، ومن العز أهناه، ليُطبق العالم بفضله وعدله، ويدبر الأرض بالنجباء من نسله.

ولهم في ذكر المولود العلوي: غُصَنَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، شجره أهل أن يحلّو ثمره، وفرع بين الرسالة والإمامة مُنْتَمَاه، خَلِيق أن يُحْمَدَ بدؤُه وعُقباه. مرحباً بالطالع بأيمن طالع، ومن هو من أشرف المناصب والمنابع، حيث الرسالة والخلافة، والإمامة والرّعاية، أبقاه الله تعالى حتى يتهنأ فيه صوانع المن، ويعد حُسْنُه من بني الحسن.

ولهم في التهنة بالإملاك والنفاس، وما يقترن به من الأدعية: من اتصل بمولاي سببه، وشرف به منصبه، كان حقيقاً بالرغبة إلى الله تعالى في توفيره وتكثيره، وزيادته وتثمينه، لتزكو منابتُ الفضل، وتنمي مغارس النبل والفخر، وتطيب معادنُ الجحد. بارك الله لمولاي في الأمر الذي عقده، وأحمده إيّاه وأسعده،

وجعله موصولاً بنماء العدد، وزكاء الولد، واتصال الحبل، وتكثير النسل، والله تعالى يَخِيرُ له في الوصلة الكريمة، ويقرنها بالحبّة الجسيمة. قد عَظَّمَ اللهُ بَهْجَتِي، وضاعف غُبْطِي، بما أتاحه من سرور مُمَهَّد، يجمع شَمْلَ مجدد، فلا زالت النعم به محفوفة، والمَسَارُّ إليه مصروفة، جعل الله هذه الوصلة أكيدة العقدة، طويلة المدّة، سابعة البركة والفضل، طيبة الذريّة والنَّسْل. وصل الله هذا الاتصال السعيد، والعقد الحميد، بأكمل المواهب، وأحمد العواقب، وجعل شَمْلَ مَسَرَّتِكَ ملتئماً، وسببَ أنسِكَ منتظماً. عرَّفَكَ اللهُ تعجيل البركات، وتوالي؛ الخيرات، ولا أخلاك الله من هذه الوصلة من التهاني بنجباء الأولاد، وكَبَتَ بكثرة عددك الحَسَاد. هناك الله مولاي الوصلة بكثرة العدد، ووفور الولد، وانبساط الباع واليد، عَالِي القدر والجدّ.

ولهم في التهنة بالولاية والأعمال، وما يتصل بها من الأدعية للوزراء والقضاة والعمال: عرفت أخبار البلد الذي أحسن الله إلى أهله، وعطف عليهم بفضله، إذ أضيف إلى ما يلاحظه مولاي بعين إيلاته، ويشفي خَلَلَه بفضل أصالته. أنا من سُرَّ بالولاية يلبس مولاي طلالها، ويسحب أذيالها، بنعم مستفادة، ورُتِبَ مستزادة، سروري بما أعلمه بكسبه الثناء في كل عمل يدبره، من أحواله جميلة، ومشوبة جزيلة، ويؤثره من إحياء عدل، وإماتة جور، وعمارة لسبل الخيرات، وإيضاح لطرق المكرمات، سيدي يوفي على الرتب التي يدعى لها مجلوله؛ فهنئها لها بتجملها بولايتها، وتحليلها بكفايتها. الأعمال إن بلغت أقصى الآمال؟ فكفاية مولاي تتجاوزها وتتخطاها، والرتب وإن جلت قدراً، وكبرت ذكراً، فصناعته تسبقها وتسبقها، غير أن للتهاني رسماً لا بد من إقامته، وشرطاً لا سبيل إلى نقض عادته. الأعمال وإن بلغت أقصى الآمال فكفاية سيدي توفي عليها إيفاء الشمس على النجوم، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم. سيدي أرفع قدراً وأنبه ذكراً من أن تُهَنِّئَ بولاية وإن جل أمرها وعظم قدرها. قد أعطيت قوس الوزارة باريها، وأضيفت إلى كفتها وكافيتها، وفسخ فيها شرط الدنيا الفاسد في إهداء حظوظها إلى أوغادها، ونقض بها حكمها الجائر في العدول بها عن نُجَبَاءِ أولادها. الدنيا أعز الله الوزير مهنةً بانحيازها إلى رأيه وتنفيذه، والممالك مغبوبةً باتصالها إلى أمره وتدييره. قد كانت الدنيا مستشرفةً لوزارته، إلى أن سعدت بما كانت الأيام عنه مخبرة، وحظيت بما كانت الظنون به مبشرة. أنا أهني الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظله إرادتها، وانحيازها من إيلاته إلى واضحة الفخر، وتوشحها من كفايته بعزة سائدة على وجه الدهر. الحمد لله الذي أقر عين الفضل، ووطأ مهاد المجد، وترك الحساد يتعثرون في ذيول الحية، ويتساقطون في فضول الحسرة؛ وأراني الوزارة وقد استكمل الشيخ إجلالها، ووفى لها جماها: المتقارب:

ولم تك يصلح إلا لها

فلم تك تصلح إلا له

والقاضي عَلمَ العلم شرقاً وغرباً، ونَجْمَ الفضل غوراً ونَجْداً، وشَمْسُ الأدبِ برّاً وبحراً، فسيبيل الأعمال أن تهنأ إذا رُدَّتْ إلى نظره الميمون، وعُصِبَتْ برأيه المأمون. أسعد الله القاضي بما جدّ، له من رأي مولانا وارتضاه، واعتمده لأجل أمر الشريعة وأمّضاه، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره إليه، وجمع زمامه في يديه. عرّف الله سيدي من سعادة عمله، أفضل ما ترقّاه بأمله، ولقاه من مناجح أمره، أفضل ما انتحاه بفكره. خار الله له فيما تولّاه، وتطوّقه، وبلّغه في كلّ حال أمله وحققه، وعرفه من يُمنّ ما باشر تديره الخير والخيرة والبركات الحاضرة والمستظرة، وجعل المناجح إليه أرسالاً، لا تملّ تواليّاً واتّصالاً. أسعده الله أفضل سعادة قُسمتْ لوالي عمل، وأسهم له أخصّ بركة أُسهمتْ لمُسامي أمل، أحضر الله السداد عزّمه، والرشاد همة، وكفه العصمة وأيده، وقرّنه بالتوفيق ولا أفرده. هنأه الله تعالى الموهبة التي ساقها إليه، ومدّ رواقها عليه؛ إذ كانت من عقائل المواهب، مُسفرة عن خصائص المراتب، وحلّت فيه محلّ الاستحباب لا الإيجاب، والاستحقاق دون الاتفاق. هنأ الله نعمته الفضل الذي الولاية أصغر آلتها، والرياسة بعض صفاتها.

ولهم في التهنئة بذكر الخلع والأجبية: أهنئ سيدي مزيد الرفعة، وجديد الخلعة، التي تخلع قلوب المنازعين، واللواء الذي يلوي أيدي المنابذين، والحظّ الذي لو امتطاه إلى الأفلاك لحازها، أو سأمى به الجوّزاء لجازها. بلغني خبر ما تطوعت به سماءُ المجد، وجادت به أنواءُ الملك، فصنّ من الخلع أسناها، ومن المراكب أبحاها، ومن السيوف أمضاها، ومن الأفراس أجراها، ومن الإقطاعات أتماها. لبس خلعتة متجلّلاً منها ملابس العز، وامتطى فرسه فارعاً به ذرّوة المجد، وتقلّد سيفه حاصداً بحدّ طلى أعدائه وغامطي نعمائه، واعتنق طوقه متطوّقاً عزّ الأبد، واعتضد بالسوارين الموديين بقوة الساعد والعَضْد، وسأس أولياءه ولواءُ العزّ عليه خافق، وهو بلسان الظفر والنّصرِ ناطق. قد لبس خلعتة التي تعتمد بها رفعة، وامتطى حملاًئه الذي واصل به إحسانه، تمنطق بحُسامه الذي ظاهر أبواب إنعامه، وتحتّم بخاتميه، اللذين بسطاً من يديه، ووقع من دواته، التي أعلّت من درجاته قد زرّرت عليه سماءُ الشرف عرى الخلعة، التي تتراءى صفحاتُ العزّ على أعطافها، وتمتري مزايا المجد من أطرافها، وركب الحُمَلان الذي نتناول قاصيتي المنى من ناصيته، والمركب الذي تُستخذى حُلَى الثريا لحليته، والسيف والمنطقة الناطقان عن نهاية الإكرام الناظران قلائد الإعظام. خلع تخلع قلوب الأعداء من مَقارّها، وتعمر نفوس الأولياء بمسارّها، وسيف كالقضاء مضاءً وحداً، ولواء يخفق قلوب المنازعين إذا خفق، وحمالات تصدع منكب الدّهر إذا انطلق. ولهم في التهنئة بالقدوم من سفر: أهنئ سيدي ونفسي بما يسره الله من قدومه سالماً، وأشكره على ذلك شكراً قائماً؛ غيبةً المكارم مقرونةً بغيبتك، وأوبةً النعم موصولةً بأوبتك، فوصل الله تعالى قدومك من

الكرامة، بأضعاف ما قرَنَ به مسيرك من السلامة. وهناك أيامك، وبلغك محابك، ما زلتَ بالنية مسافراً،
وباتصال الذكر والفكر لك ملاقياً، إلى أن جمع الله شملَ سروري بأوتيتك، وسكنَ نافرَ قلبي بعودتك،
فأسأل الله أن يسعدك بمقدمك سعادةً تكون فيها بالإقبال، مُقابلاً، وبالأمان ظافراً، ولا أوحش منه
أوطانَ الفضل، ورباعِ المجد، بمنه وكرمه.

من شعر الشعبي

قال الهيثم بن عدي: أنشدني مجالد بن سعيد شعراً أعجبي، فقلت: من أنشدك؟ قال: كنا يوماً عند
الشعبي فتناشدنا الشعر، فلما فرغنا قال: أيكم يحسن أن يقولَ مثلَ هذا، وأنشدنا: الطويل:

خليلي، مهلاً طالماً لم أقل مهلاً وما سرفاً م الآن قلت ولا جهلاً
وإن صبا ابن الأربعين سفاهاً فكيف مع اللاتي مثلتُ بها مثلاً؟
يقول لي المفتي وهنَّ عشيةً بمكة يسحبن المَهْدَبَةَ الشُحْلاً

تَقِ الله لا تنتظرُ إليهنَّ يا فتى وما خلُتُني بالحجِّ ملتَمِساً وصلاً
فوالله لا أنسى وإن شطَّتِ النوى عرائنهنَّ الشَّمَّ والأعينَ النُّجْلاً
ولا المسك في أعرافهن ولا البرى جواعل في أوساطها قصباً خذلاً
خليلي لا والله ما قلت مرحباً لأوّل شيباتٍ طلَّعن ولا أهلاً
خليلي إن الشيب داء كريهته فما أحسن المرعى وما أقبح المَحْلاً !

قال مجالد: فكتبت الشعر، ثم قلنا للشعبي: من يقوله؟ فسكت، فحسبنا أنه قائله.

باب الرثاء

قال الشَّرْقِي بن القَطَامِي: لما مات عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِي - وكان أحد من تتحاكمُ العربُ إليه - مرَّ
بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام؛ الهدمُ بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد، وهو أبو
كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، وعتيك بن قيس بن هَيْشَةَ بن أمية بن معاوية.
وحاطب بن قيس بن هَيْشَةَ ابن معاوية. وحاطب بن هَيْشَةَ الذي كانت بسببه حرب حاطب، فعَقَرُوا
رواحلهم على قبره، وقام الهدمُ فقال: الطويل:

لقد ضَمَّتِ الأثرَاءُ منك مُرَرّاً عظيمَ رَمَادِ النارِ مُشْتَرَاكَ القَدْرِ

إذا قلتَ لم تترك مقالاً لقائل
وإن صُلْتَ كنتَ اللَّيْثَ تحمي حمى الأجر
حليماً إذا ما الحِلْمُ كان حَزَامَةً
وأصبحَ لَمَّا مُتَّ يُغْضِي على الصُّغُرِ
سقى الأرضَ ذاتَ الطُّولِ والعرضِ مُنْجِمُ
أَحْمُ الذرى واهي العُرى دائِمُ القطرِ
وما بيَ سَفِيَا الأرضِ لكنْ تُرْبَةً
أضَلَّكَ في أحشائها مَلَحْدُ القبرِ
وقام عتيك بن قيس فقال: الطويل:

برغمُ العُلاّ والجودِ والمجدِ والندى
لقد غالَ صَرَفُ الدهرِ منك مرزاً
يَضُمُّ العُفَاةَ الطارقينَ فَنَاوُهُ
نَهْوُضاً بأعباءِ الأمورِ الأثاقلِ
وَيَسْرُو دُجَا الهَيْجَا مَضَاءُ عَزِيمَةٍ
كما كَشَفَ الصُّبْحُ أَطْرَاقَ الغياطلِ
وَيُسْتَهْزَمُ الجِيشُ العَرْمَرَمُ بِاسْمِهِ
وإن كان جَرَّاراً كَثِيرَ الصواهِلِ
فإِذَا تُصِيبُنَا الحَادِثَاتُ بِنَكْبَةٍ
رَمَتْكَ بِهَا إحدى الدواهي الضَّابِلِ
فلا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الحَنُوفَ مَوَارِدُ
وكلُّ فتي من صَرَفِهَا غيرُ وائلِ
وقام حاطب بن قيس فقال: الطويل:

سلامٌ على القبرِ الذي ضَمَّ أَعْظَمًا
تَحُومُ المعالي نحوه فُتُسَلِّمُ
سلامٌ عليه كَلِّمَا ذَرَّ شَارِقُ
وما امتدَّ قِطْعٌ من دُجَى الليلِ مُظْلِمُ
فيا قَبْرَ عمرو جادَ أَرْضاً تَعَطَّفَتْ
عليك مِلَتْ دائِمُ القطرِ مُرْزِمُ
تَضَمَّنَتْ جِسماً طابَ حَيًّا وَمَيِّتًا
فأنتَ بما ضَمُنْتَ في الأرضِ مُعَلِّمُ
فلو نَطَقَتْ أَرْضٌ لقالَ ترابُها
إلى قَبْرِ عَمْرٍو الأزْدِ حَلَّ التَكَرُّمُ
إلى مَرْمَسٍ قد حَلَّ بينَ تُرَابِهِ
وأحجارِهِ بَدْرٌ وَأَضْبَطُ ضِيغَمُ
فلا يُبْعَدِنَكَ اللهُ حَيًّا وَمَيِّتًا
لعمري الذي حُطَّتْ إليه على الوَنَا
فقد كنتَ نورَ الخُطْبِ والخُطْبُ مُظْلِمُ
لقد هَدَمَ العُلياءَ موتُكَ جانبًا
حدابيرُ عُوْجٍ نَبَّهَا مُتَّهَمُ
وكان قديمًا رُكْنُهَا لا يُهْدَمُ

من كلام الأعراب

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يذكر قومه فقال: كانوا إذا اصطَفُوا تحت القَتَام، مطرت بينهم السَّهَام، بشَوْبِوب الحِمَام، وإذا تصافحوا بالسيوف، فغرت أفواهها الحُتُوف، فربَّ قِرْنٍ عارِمٍ قد أحسنوا أدبه، وحَرْبٍ عبوسٍ قد أضحكتها أسنتهم، وخطَبَ مُشَمَّرٌ ذَلَّلُوا مناكبه، ويومَ عَمَّاسٍ قد كشفوا ظُلُمَتَهُ بالصبر حتى تتجلى. كانوا البحر لا يُنكش غماره، ولا يُنهته تياره.

قال العتيبي: سئل أعرابي عن حاله عند موته فقال: أجدي مأخوذاً بالنقلة، محجوجاً بالمهلة، أفرق ما جمعت، وأقدم على ما ضيَّعت، فيا حياتي من كريم قدَّم المَعْدرة، وأطال النَظِرة، إن لم يتداركني بالمغفرة، ثم قضى.

وقال بعضُ الرواة: كان يقال: الإخوان ثلاثة؛ أخ يخلصُ لك وُدّه، ويبلغ لك في مهمِّك جُهدَه، وأخ ذو نِيَّةٍ يقتصرُ بك على حسن نيته، دون رِفْدِه ومعونته، وأخ يجاملك بلسانه، ويشغل عنك بشأنه، ويوسِعُك من كذبه بأيمانه.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم، تعثر بنا الدهر، إذ قل منا الشكر، وفارقنا الغنى، وحالفنا الفقر، فرحم الله امرأ فهم بعقل، وأعطى من فضل، وواسى من كَفَاف، وأعان على عَفَاف.

سائل في مسجد الكوفة

قال أبو بكر الحنفي: حضرتُ مسجد الجماعة بالكوفة، وقام سائلٌ يتكلم عند صلاة الظهر ثم عند العصر والمغرب، فلم يُعط شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم غير معلّم، واسع غير مكلف، وأنت الذي لا يرزؤك نائل، ولا يُخفّيك سائل، ولا يبلغ مدحَتك قائل، أنت كما قال المُثَنُّون، وفوق ما يقولون، أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، ونَصراً بالهدى، وقرّة عين فيما تحب وترضى، ثم ولّى لينصرف، فابتدره الناس يعطونه، فلم يأخذ شيئاً، ثم مضى وهو يقول: الكامل:

عَوَضاً، ولو نال الغنى بسؤالٍ	ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
رجح السؤال وخف كل نوالٍ	وإذا السؤال مع النوال وزنته

من إنشاء بديع الزمان

ومن مقامات الإسكندري إنشاء البديع: حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت في بلاد الأهواز، وقصاراي لفظة شروء أصيدها، أو كلمة بليغة أستفيدها؛ فأداني السير إلى رُقعة من البلاد، فسيحة، وإذا هناك قومٌ مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخطب الأرض بعصاً على إيقاع لا يختلف، وعلمت أن مع الإيقاع لحناً، ولم أبعد لأنال من السماع حظاً، أو أسمع من البليغ لفظاً، فما زلت بالنظارة، أزحم هذا وأدفع ذاك، حتى وصلتُ إلى الرجل، وصرفت الطرف منه إلى حُرقة كالقَرنب، مكفوف في شملة من صوف، يدور كالخُذروف، مُتبرّساً بأطول منه، معتمداً على عصاً فيها جلاجل، يضربُ الأرض بها على إيقاع غنج، ولفظ هزج، من صدرٍ حرج، وهو يقول: الرجز:

يا قومُ قد أثقل ديني ظهري	وطالبتني طَلَّتِي بالمَهْرِ
أصبحتُ من بعد غنى ووفرٍ	ساكنَ قَفَرٍ وحليفَ قَفَرٍ
يا قومُ هل بينكم من حُرٍّ	يُعِينُنِي على صُرُوفِ الدهرِ
يا قومُ قد عِيلَ بفقري صبري	وانكشفتُ عني ذيولُ السَّترِ
وفضَّ ذا الدهرُ بأيدي البترِ	ما كان لي من فضةٍ وتبرِ
أوي إلى بيت كفيد الشبرِ	خاملَ قَدَرٍ وصغيرَ قَدَرِ
لو ختم الله بخيرٍ أمري	أعقبني من عُسرةٍ بيُسْرِ
هل من فتى فيكم كريم النَّجْرِ	محتسبٍ فيَّ عظيم الأجرِ؟
إن لم يكن مغتنماً للشكر	

قال عيسى بن هشام: فرقَّ له والله قلبي، واغرورقت عيني، وما لبثت أن أعطيته ديناراً كان معي، فأنشأ يقول: الرجز:

يا حُسْنَهَا فاقعةً صفراءُ	معشوقةً منقوشةً قوراءُ
يكاد أن يقطر منها الماءُ	قد أثمرتها همّةٌ علياءُ
نفسُ فتى يملكه السَّخاءُ	بصرفه فيه كما يشاءُ
يا ذا الذي يعنيه ذا التَّناءُ	ما يتقصَّى قَدْرَكَ الإطرأُ
فامضِ على الله لك الجزاءُ	

ورحم الله من شدَّها في قرَنٍ مثلها، وآنسها بأختها، فناله الناس ما نالوه، ثم فارقهم وتبعته، وعلمت أنه

متعالمٍ لسرعة ما عَرَفَ الدينار، فلَمَّا نَظَمْتَنَّا خَلْوَةً مَدَدْتُ يَمْنَايَ إِلَى يَسْرَى عَضُدِيهِ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَتَرِيَنِي سِرَّكَ، أَوْ لَا كَشْفَنَ سِرِّكَ؛ فَكَشَفَ عَن تَوَأْمِي لَوْزًا، وَحَدَرْتُ لثَامَهُ؛ فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخَنَا أَبُو الْفَتْحِ الْإِسْكَندَرِي، فَقُلْتُ: أَنْتَ أَبُو الْفَتْحِ؟ فَقَالَ: لَا: الْجَحْثُ

أَنَا أَبُو قَلَمُونٍ
اخْتَرْتُ مِنَ الْكَسْبِ دُونًا
زَجَّ الزَّمَانِ بِحُمُقٍ
لَا تُخْدَعَنَّ بِعَقْلٍ
فِي كُلِّ لَوْنٍ أَكُونُ
فَإِنْ دَهَرَكَ دُونُ
إِنْ الزَّمَانُ زَبُونُ
مَا الْعَقْلُ إِلَّا الْجَنُونُ

من شعر كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم: الكامل:

مَا زَالَ حَرُّ الشَّوْقِ يَغْلِبُ صَبْرَهَا
وَجَرَى مِنَ الْكُحْلِ السَّحِيقِ بِخَذِّهَا
فَكَأَنَّ مَجْرَى الدَّمْعِ حُلِيَّةُ فَضَّةٍ
فِي بَعْضِهِ ذَهَبٌ وَبَعْضُهُ مُحَرَّقُ
حَتَّى تَحْدَرَ دَمْعُهَا الْمَتَعَلِّقُ
خَطٌّ تُؤَثِّرُهُ الدَّمُوعُ السُّبْقُ

وقال: السريع:

مَا لَذَّةُ أَكْمَلُ فِي طَيِّبِهَا
كَأَنَّمَا تَأْثِيرُهَا لَمْعَةٌ
خَلَسَتْهَا بِالْكَرِّهِ مِنْ شَادِنٍ
يَعْشَقُ بَعْضِي بِالْمُنَى بَعْضَهُ
مِنْ قُبْلَةٍ فِي إِثْرِهَا عَضَّةٌ
مِنْ ذَهَبٍ أُجْرِي فِي فَضَّةٍ

وقال: الطويل:

وَمُسْتَهْجِنٍ مَدْحِي لَهُ إِنْ تَأَكَّدْتُ
وَيَأْبَى الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَّا تَبَيَّنَا
لَهُ عَقْدَ الْإِخْلَاصِ، وَالْحَرُّ يُمْدَحُ
وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرُشَحُ

وقال: الكامل:

وَإِذَا افْتَخَرْتَ بِأَعْظَمِ مَقْبُورَةٍ
فَأَقِمْ لِنَفْسِكَ فِي انْتِسَابِكَ شَاهِدًا
فَالنَّاسُ بَيْنَ مَكْذَبٍ وَمُصَدِّقٍ
بِحَدِيثِ مَجْدٍ لِلْقَدِيمِ مُحَقِّقٍ

وقال: البسيط:

يَا مُسْدِي الْعُرْفِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا
وَمُتَّبِعِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا

ما أَدْمَنَ الْغَيْثُ إِلَّا كَانَ طُوفَانًا

أَقْلَعَ سَحَابُكَ قَدْ غَرَّقْتَنِي نِعْمًا

هذا مولد من قول أبي نواس: الكامل:

حتى أقوم بشكرٍ ما سلفا

لا تُسَدِّينَ إِلَيَّ عَارِفَةً

البحثري: البسيط:

وربما ضرَّ في إلحاحه المطرُ

أَلَحَّ جُودًا وَلَمْ تَضُرُّ سَحَابُهُ

إن الغمامَ قَلِيبٌ ليس يُحْتَفَرُ

مواهبٌ ما تَجَسَّمْنَا السُّؤَالَ لَهَا

وقد أُخِذَ على ذي الرمة قوله: الطويل:

ولا زال مُنْهَلًا بِجَرِّ عَائِكَ الْقَطَرُ

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى

قالوا: وأحسن منه قول طرفة: الكامل:

صوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمِي

فَسَقَى دِيَارَكَ، غَيْرَ مُفْسِدِهَا،

وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه بالسلامة في أول البيت.

وقال كشاجم: الوافر:

متى تَصْحُو وَرَيْقُكَ خَنْدَرِيسُ؟

أَيَا نَشْوَانَ مِنْ خَمْرِ بَفِيهِ

أَلَحَّ عَلَيْهِ بِالْكَاسِ الْجَلِيسُ

أَرَى بِكَ مَا أَرَاهُ بِذِي انْتِشَاءٍ

تُمْرُضُهُ وَأَعْطَافُ تَمِيسُ

تَوَرَّدُ وَجَنَّةٍ وَفَتُورُ لَحْظٍ

وقال: الطويل:

وينقصه حتى نَقَصْتُ عَنْ النَقْصِ

وما زالَ يَبْرِي جَمَلَةَ الْجِسْمِ حُبُّهَا

أَمِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ يَرَى أَهْلُهَا شَخْصِي

وقد ذُبْتُ حَتَّى صِرْتُ إِنْ أَنَا زَرْتُهَا

الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره

كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء: نَبَتْ بِي غُرَّةُ الْحَدَاثَةِ، فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ التَّجَرُّبَةُ، وَقَادَتْنِي الضَّرُورَةُ، ثِقَةٌ بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ، وَقَبُولِكَ الْعَذْرَى، وَإِنْ قَصُرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ، وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي سَدَّتْ عَلَيَّ مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي، فَرَاغَ فِي مَجْدِكَ وَسُودَدَكَ، وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِفًا أَذِلَّ مِنْ مَوْقِفِي، لَوْلَا أَنَّ الْمَخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ، وَلَا خُطَّةَ أَدْنَى مِنْ خُطَّتِي، لَوْلَا أَنَّمَا فِي طَلَبِ رِضَاكَ.

وهذا المعنى الذي ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناس منه قديماً وحديثاً

وسأفيض في طرفٍ من ذلك:

وأنشد أبو عبيدة لزياد بن منقذ الحنظلي، وهو أخو المزارع العدوي، نسب إلى أمة العدوية، وهي فُكَيْهَة بنت تميم بن الدُّوَل بن جَبَلَة بن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة؛ فولدت لمالك بن حنظلة عدياً ويربوعاً؛ فهو لاء من ولده يقال لهم بنو، العدوية، وكان زيادٌ نزل بصنعاء فاجتواها ومثله بنجد، فقال في ذلك قصيدة يقول فيها وذكر قومه: البسيط:

مُخَذَّمُونَ ثَقَالٌ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي الرِّحَالِ إِذَا صَاحَبْتَهُمْ خَدَمٌ
لَمْ أَلَقَ بَعْدَهُمْ حَيًّا فَأُخْبِرَهُمْ إِلَّا يَزِيدُهُمْ حَبًّا إِلَيَّ هُمْ

وأراه أول من استشار هذا المعنى.

وكان ابنُ أبي عَرَادَة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً فتركه وصحب غيره فلم يحمده أمره، فرجع إليه، فقال: الطويل:

عَتَبْتُ عَلَى سَلَمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ وَجَرَبْتُ أَقْوَاماً بِكَيْتٍ عَلَى سَلَمٍ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ تَجْرِبٍ غَيْرِهِ فَكَانَ كَبْرُءٍ بَعْدَ طَوْلٍ مِنَ السَّقَمِ

وقال مسلم بن الوليد: الوافر:

حَيَاتُكَ يَا ابْنَ سَعْدَانَ بْنِ يَحْيَى حَيَاةٌ لِلْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي
جَلَبْتَ لَكَ التَّاءَ فَجَاءَ عَفْوًّا وَنَفْسُ الشُّكْرِ مُطْلَقَةُ الْعِقَالِ

وترجعني إليك وإن نأتُ بيدياري عنك تجربةَ الرجالِ

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحتري: الطويل:

أَخْ لَكَ عَادَاهُ الزَّمَانُ فَأَصْبَحْتَ مَذْمُومَةً فِيمَا لَدَيْهِ الْمَطَالِبُ
مَتَى مَا تَذَوَّقَهُ التَّجَارِبُ صَاحِبًا مِنَ النَّاسِ تَرَدُّدُهُ إِلَيْكَ التَّجَارِبُ

وأنشد: الطويل:

حَيَاةُ أَبِي الْعَبَّاسِ زَيْنٍ، لِقَوْمِهِ لِكُلِّ امْرِئٍ قَاسَى الْأُمُورِ وَجَرَبًا
وَنَعْتَبُ أَحْيَانًا عَلَيْهِ وَلَوْ مَضَى لَكُنَّا عَلَى الْبَاقِي مِنَ النَّاسِ أَعْتَبًا

قال الصولي: جرى ذِكْرُ المكتفي بحضرة الراضي فأطريته وأكثرُ الشاء عليه، فقال لي: يا صولي، كنت أنشدني لجرير: الطويل:

أُسَلِّيكَ عَنْ زَيْدٍ لَتَسْلَى، وَقَدْ أَرَى بَعِينِيكَ مِنْ زَيْدٍ قَذَى لَيْسَ يَبْرَحُ

فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ شكر القليل كان للكثير أشدَّ شكرًا، وأعظم ذكرًا، فأين أنا لك من المكتفي؟
فأنشدته للطائي: الكامل:

كم من وساعِ الجودِ عندي والندى لَمَّا جرى وجريت كان قَطُوفًا
أحسنْتُما صَفدي، ولكن كنتَ لي مثلَ الربيعِ حيًّا وكان خريفًا
وكلاكُما اقْتَدَ العُلاَ فركبَتْها في الذِّروة العليا وجاءَ رديفا
إن غاض ماءُ الزنِ فضتَ، وإن قَسَتْ كبِدُ الزمانِ عليَّ كنتَ رُؤُوفًا

وكان المكتفي أول من نادى بالصولي، واختلط به.
ولم يلِ الخلافة أحد اسمه عليّ إلا عليّ بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، وعليّ بن المعتضد المكتفي بالله،
وكان سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أن رجلاً يعرف بمحمد بن أحمد الماوردي نزع إلى المكتفي بالرفقة،
وكان ألعب الناس بالشطرنج، فلما تدم عليه بغداد وهو خليفة قال: يا أمير المؤمنين، أنا أعلم الناس بهذه
الصناعة، فأقطعني ما كان للرازي الشطرنجي؛ فغاض ذلك المكتفي، وندب له الصولي فلم يُر معه الماوردي
شيئاً. فقال له المكتفي: صار ماء وردك بولاً، قال الصولي: فأقبل المكتفي عليّ ورثني في المجلساء،
فحجبت يوماً عنه، واتصل بي أن خصمي شئت بي، فكتبت قصيدة للمكتفي أقول فيها: الكامل:

قد ساء ظنُّ الناس بي وتكروا لَمَّا رأوني دون غيري أُحْجَبُ
إن كان غلبه يُقَرِّبُ أمره دوني فإنني عن قريب أُغْلَبُ

فضحك، وأمر لي بمائتي دينار، واندرجت في خدمته.

ما قيل في بيعة يزيد بن معاوية

اجتمعت وفود العرب عند معاوية رحمه الله تعالى، وكان إذا أراد أن يفعل شيئاً ألقى منه ذرعاً إلى الناس،
فإذا امتنعوا كفّ، وإن رضوا أمضى، فعرض ببيعة يزيد، فقامت خطباء معدّ فشققوا الكلام، وأطنبوا في
الخطاب، فوثب شاب من غَسَّان قابضاً على قائم سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الحَيْفَ في حكم
السيف، وبعد النسيم الهيف؛ فإنَّ هؤلاء عجزوا عن الصِّال، فعولوا على المَقَال، ونحن القاتلون إذا صَلُّنا،
والمعجبون إذا قلنا، فمن مال عن القَصْدِ أقمناه، ومن قال بغير الحقِّ وقمناه، فلينظر ناظرٌ إلى موطئ قدمه،
قبل أن تدحض فيهِ هويّ الحجر من رأس النِّيق؛ فتفرق الناس عن قوله، ونسوا ما كانوا فيه من
الخطب.

الإقدام

وقال المهلب يوماً لجلسائه: أراكم تعتفونني في الإقدام، قالوا له: إي والله، إنك لسقوط بنفسك في المهالك، قال: إليكم عني! فوالله لولا أن آتي الموت مسترسلاً، لأتاني مستعجلاً؛ إني لست آتي الموت من حُبِّه، إنما آتيه من بُغْضِهِ، ثم تمثّل بقول الحُصَيْن بن الحُمَام المُرِّي: الطويل:

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ
ومن هذا أخذ أبو الطيب المتنبّي قوله: الطويل:

أَرَى كُلَّنَا يَهْوِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ
حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبّاً
فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى
وَحُبُّ الشَّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرْبَا
وقال أبو دُلف: البسيط:

الْحَرْبُ تَضْحَكُ عَنْ كَرِّي وَإِقْدَامِي
وَالْخَيْلُ تَعْرِفُ أَثَارِي وَأَيَّامِي
سَيِّفِي مُدَامِي، وَرِيحَانِي مُتَقَفْتِي،
وَقَدْ تَجَرَّدَ لِي بِالْحَسَنِ مَنفَرِداً
جَسْمِي فَأَصْبَحَ جَسْمِي رَبْعَ أَسْقَامِ
سَلَّتْ لَوْاحِظُهُ سَيْفَ السَّقَامِ عَلَى

من أخبار أبي دلف وشعره

وكان أبو دلف شاعراً مجيداً، وجواداً كريماً جامعاً لآلات الأدب والظرف، وله شعرٌ يد في كل فن، وهو القائل: الوافر:

أَحَبُّكَ يَا جَنَانُ؛ فَأَنْتِ مِنِّي
لَخِفْتُ عَلَيْكَ بِأَدْرَةِ الزَّمَانِ
لَوْ أَنِّي أَقُولُ: مَكَانَ رُوحِي
وَهَابَ كُمَاتُهَا حَرَّ الطَّعَانِ
لِإِقْدَامِي إِذْ مَا الْخَيْلُ جَالَتْ

وكان يتعشق جارية ببغداد فإذا شَخَصَ إلى الحضرة زارها، فركب في بعض قَدَمَاتِهِ إليها، فلما صار بالجرس مشى على طرف طيلسان بعض المارين، فخرقه، فأخذ بعنانه، وقال: يا أبا دلف، ليست هذه كرخك، هذه مدينة السلام، الذئب والشاة بها في مَرْبَعٍ واحد! فثنى عنانه متوجهاً إلى الكرخ، وكتب إلى الجارية: الخفيف:

قَطَعْتَ عَنْ لِقَائِكَ الْأَشْغَالُ
وَهَمُومٌ أَتَتْ عَلَيَّ تَقَالُ

في بلاد يُهَان فيها عزيزُ ال
 قوم حتى تنالَه الأندالُ
 حيث لا مدفعٌ بسيفٍ عن الضيِّ
 م ولا للكُمَاةِ فيها مجالُ
 ومقام العزيز في بلد الهو
 ن إذا أمكن الرحيلُ محالُ
 فعليك السلام يا ظبيَّةَ الكرِّ
 خ أقمتُم وحن منّا ارتحالُ

ودخل أبو دلف على المأمون بعد الرضا عنه، فسأله عن عبد الله بن طاهر، فقال: خلفته يا أمير المؤمنين أمين غيب، نصيح جيب، أسداً عاتياً، قائماً على برائته، يسعد به وليك، ويشقى به عدوك، رَحِبَ الفناء لأهل طاعتك، ذا بأس شديد لمن زاغ عن قصد محبتك، قد فقهه الحزم، وأيقظه العزم، فقام في نحر الأمور على ساق التشمير، يُرِمها بأيده وكَيْده، ويفلها بجده وجدّه؛ وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرداس: الوافر:

أكرُّ على الكتبية لا أبالي
 أحنّفي كان فيها أم سواها
 فقال قائل: ما أفصحه على جَبَلِيَّتِهِ! فقال المأمون: وإن بالجل قوماً أجماداً، كراماً أنجاداً، وإنهم ليوفون السيفَ حظه يوم التّزال، والكلام حقه يوم المقال، وإن أبا دلف منهم.

من إنشاء الميكالي

فصل لأبي الفضل الميكالي من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب: لئن كانت الرزية بمصيبة مؤلمة، وطُرقُ العزاء والسّلوة مبهمة، لقد حلّت بساحة من لا تُنتَقَضُ بأمثالها مرائرُه، ولا تُضعَفُ عن احتمالها بصائرُه، بل يتلقاها بصدرٍ فسيحٍ يحمي أن يفتح الحزنُ بابه، وصبرٍ مشيحٍ يحمي أن يُحبطَ الجزعُ أجره وثوابه، ولم لا وآدابُ الدين من عنده تُلمَس، وأحكامُ الشرع من بنانه ولسانه تستفاد وتُقتبس؟ والعيونُ ترمقه في هذه الحال لتجري على سننه، وتأخذ بأدابه وسننه، فإن تَعَزَّتْ القلوب فبحسنٍ تماسكه عزّاؤها، وإن حُسِنَت الأفعال فإلى حميدِ أفعاله ومذاهبه اعتزّاؤها. وله من تعزية إلى أبي عمرو البحتري: قدس الله رُوحَه، وسقى ضريحه؛ فلقد عاش نبيه الذكر، جليلَ القدر، عبقَ الشَّاء والنَّشْر، يتجمل به أهل بلده، ويتباهى بمكانه ذوو مودّته، ويفتخر الأثرُ وحاملوه بتراحي بقائه ومُدَّتِه، حتى إذا تسنّم ذرّوة الفضائل والمناقب، وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب، اختلطته يا المقدار، ومُحي أثره بين الآثار، فالفضل خاشعُ الطّرفِ لفقده، والكرمُ خالي الرّبع من بعده، والحديثُ يندبُ حافِظَه ودارِسَه، وحُسْنُ العهد يبيكي كافله وحارسه. وله: فأما الشكرُ الذي أعارني رداءه، وقلّدي طَوْقه وسنّاه؛ فهيها أن ينتسب إلّا إلى عادات فضله

وإفضاله، ولا يسير إلا تحت رايات عُرفه ونَوَّاله، وهو ثوب لا يحلِّي إلا بذكره طرازه، واسم له حقيقته
ولسواء مجازه، ولو أنه حين ملك رقي بأَياديهِ، وأعجز وُسعي عن حقوق مكارمه ومساعيه، خلَّى لي
مذهبَ الشكر وميدانه، ولم يجاذبني زمامه وعَنانه، لتعلَّقت عن بلوغ بعض الواجب بعُروة طَمع، ونهضت
فيه ولو على وَهن وظلَع، ولكنه يَأبئ إلا أن يستولي على أمد الفضائل، ويتسَم ذرَا الغوارب منها
والكواهل، فلا يَدَع في المجد غَايَةً إلا يسبق إليها فارطاً، ويُخَلِّفُ من سِوَاهُ عنها حسيراً ساقطاً، لتكون
المعالي بأسرها مجموعة في ملكه، منظومةً في سِلْكه، خالصةً له من دعوى القسيم وشِرْكه.
وله فصل من كتاب إلى أبي سعيد بن خلف الهمداني: فأما التُّحْفَةُ التي شَفَعها بكتابه فقد وصلت، فكانت
ضَرَّةً لزهرِ الربيع، موفيةً بِحُسْنِ الخطِّ على الوَشْيِ الصنيع، وليس يهتَدِي لمثل هذه اللطائف في مبرة
الإخوان، إلا من يُعَدُّ من أفراد الأقران، ولا يَرْضَى من نفسه في إقامة شعائر البرِّ دون القران، والله يَمْتَعه
بما مَنَحَهُ من خصائص هي في آذان الزمان شنوف، وفي جِيده عقد مرصوف.

الخريمي يعاتب الوليد بن أبان

وقاد أبو يعقوب الخريمي يعاتب الوليد بن أبان: الطويل:

وكنْتُ امرأً ذا إِرْبَةٍ متجملاً؟	أَتَعْجَبُ مِنِّي إِنْ صَبِرْتُ عَلَى الْأَذَى
رَأَيْتُ، وَلَا أَخْطَأْتُ لِلْحَقِّ مَقْصِلاً	فَأَنِي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا رَأْيَ عَاجِزٍ
سِوَى الْحِلْمِ وَالْإِغْضَاءِ خَيْراً وَأَفْضَلاً	وَلَكِنْ تَدَبَّرْتُ الْأُمُورَ؛ فَلَمْ أَجِدْ
وَعَهْدٌ أَبَتْ أَرْكَانُهُ أَنْ تَزِيلَا	وَأُقْسِمُ لَوْلَا سَالِفُ الْوَدِّ بَيْنَنَا
وَأُولَيَتَيْنِيهَا مُنْعِماً مُتَطَوِّلاً	وَأَيَّامُكَ الْغُرُّ اللَّوَاتِي تَقْدَمْتُ
إِلَى الْبَعْدِ مَا أَلْفَيْتُ فِي الْأَرْضِ مَعْمَلاً	رَحَلْتُ قُلُوصَ الْهَجْرِ ثُمَّ اقْتَعَدْتُهَا
وَلَمْ تَرْنِي لَوْلَا الْهُوَى مُتَذَلِّلاً	وَأَكْرَمْتُ نَفْسِي وَالْكَرَامَةَ حَظُّهَا
يُعِينُ إِذَا مَا الْهَمُّ بِالْمَرْءِ أَعْضَلَ	وَعَارَضْتُ أَطْرَافَ الصَّبَا أَبْتَغِي أَخَا
إِذَا الْحَرُّ بِالْمَجْدِ ارْتَدَّى وَتَسَرَّبَلاً	أَخَا كَأَبِي عَمْرٍو وَأَنْسَ بِمِثْلِهِ
جَزَى صَاحِباً جَزَلَ الْمَوَاهِبِ مُفْضِلاً	جَزَى اللَّهُ عَثْمَانَ الْخُرَيْمِيَّ خَيْرَ مَا
صَفَاءً وَإِنْ أُدْبِرْتُ حَنٌّ وَأَقْبَلاً	أَخَا كَانَ إِنْ أَقْبَلْتُ بِالْوَدِّ زَادَنِي
يَخَوْفَنِي الْأَعْدَاءُ مِنْهُ التَّنْقِلاً	أَخَا لَمْ يَخْنِي فِي الْحَيَاةِ وَلَمْ أَبْتَ

إذا حاولوه بالسعاية حاولوا
به هَضْبَة تَأْبَى بَأْنُ تَتَخَلَّلا
يحكمني في ماله ولسانه
ويركبُ دوني الزراعي المؤللا

كفى جفوة الإخوان طول حياته
وأورثَ مما كان أعطى وأجزلا
وبات حميدا لم يكدر صنيعة
ولم أقله طول الحياة وما قلا
وكننت أخاباً لو دام عهدك واصلاً
نصوراً إذا ما الشرُّ خبَّ وهرولاً
فغيرك الواشون حتى كأنما
تراني شجاعاً بين عينيك مقبلاً

أبو يعقوب الخريمي

وأبو يعقوب هذا إسحاق بن حسان، قال المبرد: كان أبو يعقوب جميل الشعر، مقبولا عند الكتاب، وله كلام قوي، ومذهب متوسط، وكان يرجع إلى نسب كريم في الصُّعد، وكان له ولا في غطفان، وكان اتصاله بمولاه أبي عثمان بن خريم المري الذي يقال له خريم الناعم، وكان أبو عثمان هذا قائداً جليلاً، وسيّداً كريماً. وسئل خريم عن لذة الدنيا، فقال: الأمنُ فإنه لا عيشَ لخائف، والعافية فإنه لا عيشَ لسقيم، والغنى فإنه لا عيشَ لفقير. وقيل له: ما بلغ من نعمتك؟ قال: لم ألبسَ جديداً في صيف، ولا خلقاً في شتاء. وفي نسبه في الصُّعد يقول: الطويل:

أبا الضُّعدِ باس أن تعيرني جُمْلُ
سفاها ومن أخلاق جارتنا البخلُ
وما ضرَّني أن لم تلدني يُحَابر
ولم تشتمل جرم علي ولا عُلُ

يقول فيها:

ودون الندى في كلِّ قلبٍ ثَيِّةٌ
لها مَصْنَعٌ حَزَنٌ ومُنْحَدَرٌ سهْلُ
وودَّ الفتى في كلِّ نيلٍ يُنِيلُهُ
إذا ما انقضى لو أن نائله جَزَلُ
وأعلمُ علماً ليس بالظنِّ أنه
لكلِّ أناسٍ من ضرائبهم شَكْلُ
وأنَّ أخلاءَ الزمانِ غناؤهم
قليلٌ إذا ما المرءُ زَلَّتْ به النَعْلُ
تزوَّد من الدنيا متاعاً لغيرها
فقد شمَّرتْ حدَّاءً وانصرم الحَبْلُ
وهل أنت إلا هامةُ اليوم أو غدٍ
لأمك من إحدى طوارقها الثَكْلُ

وقال يتشوق الحسن بن التختاخي: الطويل:

أَلَا مُبْلَغَ عَنِي خَلِيلِي وَدُونَهُ
رِسَالَةَ ثَاوٍ بِالْعِرَاقِ وَرُوحَهُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ حَنَّةً بَعْدَ رَنَّةٍ
إِلَى صَاحِبٍ لَا يُخْلِقُ النَّأْيُ عَهْدَهُ
تَخَيَّرَهُ حَرًّا نَقِيًّا ضَمِيرُهُ
هُوَ الشَّهَدُ سَلَمًا، وَالذَّعَافُ عَدَاوَةً
فِيَا حَسَنَ الْحُسَيْنِ الَّذِي عَمَّ فَضْلُهُ
إِلَيْكَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ تَطْلَعَتْ
أَرَى بَعْدَكَ الْإِخْوَانَ أَبْنَاءَ عِلَّةٍ
فَهَلْ يَرْجِعُنَّ عَيْشِي وَعَيْشَكَ مَرَّةً
لِيَالِي أُرَعَى فِي جَنَابِكَ رَوْضَةً
وَإِذْ أَنْتَ لِي كَالشَّهَدِ بِالرَّاحِ صُفْقًا
عَسَى وَلَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
مَطَا سَفَرٍ لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ طَالِبُهُ
بِفُسْطَاطِ مِصْرٍ حَيْثُ جَمَّتْ عَجَائِبُهُ
يَجِيئُ بِهَا فِي الصَّدْرِ شَوْقٌ يَغَالِبُهُ
لِنَاءٍ وَلَا يَشْقَى بِهِ مَنْ يُصَاقِبُهُ
جَمِيلًا مَحْيَاهُ كَرِيمًا ضَرَائِبُهُ
وَبَحْرٌ عَلَى الْوَرَادِ تَجْرِي غَوَارِبُهُ
وَتَمَّتْ أَيَْادِيهِ وَجَمَّتْ مَنَاقِبُهُ
نَوَازِغُ شَوْقٍ مَا تُرَدُّ عَوَازِبُهُ
لَهُمْ نَسَبٌ فِي وَدَّهِمْ لَا أَنْسَابُهُ
بِبَغْدَادٍ عَصْرٌ مُنْصِفٌ لَا نِعَائِبُهُ؟
وَأَوِي إِلَى حِصْنٍ مَنِيْعٍ مَرَاتِبُهُ
بِمَاءِ رِصَافٍ صَفْقَتُهُ جَنَائِبُهُ
كَمَا لَا عَمَتَ صَدْعُ الْإِنَاءِ مَشَاعِبُهُ

فقر وفصول في معان شتى

قال العتايي: حظ الطالبين من الدرك، بحسب ما استصحبوا من الصبر. بعض الحكماء: الحلم عُدَّةٌ للفسيفيه، وجُنَّةٌ من كَيْدِ العدو، وإنك لن تقابل سفيهاً بالإعراض عن قوله إلا أذللتَ نفسه، وفَلَلْتَ حَدَّهُ، وَسَلَلْتَ عَلَيْهِ سِيوفاً من شواهد حِلْمِكَ عنه، فتولَّوا لك الانتقامَ منه. وقال آخر: العجلة مكسبة للمذمة، مجلبة للندامة، منفرة لأهل الثقة، مانعة من سداد الرغبة.

وأتى العتايي وهو بالرِّي رجلٌ يودَّعه فقال: أين تريد؟ قال: بغداد، قال: إنك تريد بلداً اصطَلَحَ أهله على صحَّةِ العلانية، وسَقَمَ السريرة، كلُّهم يعطيك كلَّه، ويمنعك قُلَّه. وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه: ما كان خَبْرُكَ مع فلان؟ قال: قد افْتَدَيْتُ مكاشفته واشتريت مكاشرته بألف درهم، فقال يحيى: لا تبرح حتى يكتبَ الفضلُ وجعفرُ عنك هذا القول. قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يدعو، ويقول: اللهم أرزقني عملَ الخائفين، وخَوْفَ العاملين، حتى أَتَنَعَمَ

بَرَكِ التَّعَمُّ، رجاءً لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

وللعتابي: أما بعد، فإنه ليس بمستخلص غَضَارَةَ عَيْشٍ إلا من خلال مكروهه، ومن انتظر بمعالجة الدرك مُؤَاجِلَةَ الاستقصاء سلبته الأيام فرصته.

كتب بعض الكتاب إلى أخ له: إن رأيت أن تحدّد لي ميعاداً لزيارتك، أتقوّته إلى وقت رؤيتك، ويُؤنّسني إلى حين لقائك، فعلت، إن شاء الله.

فأجابه: أخاف أن أعدك وعداً يعترض دون الوفاء به ما لا أقدر على دفعه، فتكون الحسرة أعظم من الفرقة.

فأجاب المبتدئ: أنا أسرُّ بموعدك، وأكون جدلاً بانتظارك، فإن عاق عن الإنجاز عائق، كنت قد رجحت السرور بالتوقع لما أحبه، وأصبتُ أجري على الحسرة بما حرمته.

وكتب أخٌ إلى أخ له يستدعيه: أما بعد، فإنه من عانى الظماً بفُرْقَتِكَ استوجب الريّ من رؤيتك، والسلام.

وكتب آخر في بابه: يومنا يوم طاب أوّله، وحسّن مستقبله، وأتت السماء بقطارها، فحلت الأرض بأنوارها، وبك تطيب الشّمول، ويُشفي الغليل، فإن تأخرت عنا فرقت شملنا، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا.

قال إسحاق الموصلي: قال لي ثمامة بن أشرس؟ وقد أُصِبتُ بمصيبة: لمصيبة في غيرك لك ثوابها، خير من مصيبة فيك لغيرك أجرها.

ومرّ عمر بن ذر بابن عياش المنتوف، وكان سَفَهَ عليه فأعرض عنه، وتعلق بثوبه، وقال: يا هناه، إنا لم نجد لك جزاءً إذ عصيتَ الله فينا، خيراً من أن تُطيعه فيك. أخذه من قول عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تُطيع الله فيه.

وكتب بعض الكتاب إلى رئيسه: ما رجائي عدلك بزائد على تأميلي فضلك، كما أنه ليس خوفي صيالك بأكثر من خشيتي نكالك؛ لأنك لا تَرْضَى للمحسن بصغير المثوبة، كما لا تقنع للمسيء إلا بموجع العقوبة.

وقال آخر: ما عسيت أن أشكرك عليه من مَوَاعِدٍ لم تُشَبَّ بِمَطْلٍ، ومرافدٍ لم تشن بمنّ، وعهدٍ لم يمازجَه مَلَقٌ، ووُدٌّ لم يشبُه مَذَقٌ.

وقال آخر: علقت به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها بنخوة، وترامت له أحوال الصرامة غير مستعمل معها السطوة، هذا مع دَمَآةٍ في غير حَصَرٍ، ولينٍ جانبٍ من غير خَوَرٍ.

فصل لابن الرومي: إني لو كُئِلْتُ الذي لم تزل تنقادُ لك مودّته من غير طمع ولا جَزَعٍ، وإن كنتَ لذي

رغبة مَطْمَعاً، ولذي رَهْبَةٍ مهرياً.

أبو فراس الحمداني: الطويل:

كذلك الوداد المحض لا يرتجى له ثواب، ولا يُخشى عليه عقاب

حنيفة تغزو نميراً

غزّت حنيفة نميراً فانتصفوا منهم، فقليل لرجل منهم: كيف صنع قومك؟ قال: اتبعوني وقد أحقّبوا كلّ جماليّة خيفانة، فما زالوا يَخْصِفُونَ أخفاف، المطيّ بحوافر الخيل، حتى لحقوهم؛ فجعلوا المرّان أرشيّة الموت، فاشتّفوا بها أرواحهم.

دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال: اللهم إن كان رزقي نائياً فقرّبه، أو قريباً فيسرّه، أو ميسراً فعجّلّه، أو قليلاً فكثّرّه، أو كثيراً فثمرّه.

باب المراسلات

وكتب عنبسة بن إسحاق إلى المأمون وهو عامله على الرّقة، يصف خروج الأعراب بناحية سنجار وعيّنهم بها: يا أمير المؤمنين، قد قطع سبيل المجتازين، من المسلمين والمعاهدين، نفر من شذّاد الأعراب الذين لا يرقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمّة، ولا يخافون من الله حداً ولا عقوبة، ولولا ثقتي بسيف أمير المؤمنين وحصده هذه الطائفة، وبلوغه في أعداء الله ما يردّع قاصيهم ودانيهم، لأذنت بالاستنجد عليهم، ولا بتعت الخيل إليهم، وأمير المؤمنين معانٍ في أموره بالتأييد والنصر إن شاء الله. فكتب إليه المأمون: البسيط:

أُسْمَعْتَ غَيْرَ كَهَامِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ لَا يَقْطَعُ السِّيفُ إِلَّا فِي يَدِ الْحَذَرِ
سَيَصْبِحُ الْقَوْمُ مِنْ سِيفِي وَضَارِبِهِ مِثْلَ الْهَشِيمِ ذَرْتَهُ الرِّيحُ بِالْمَطَرِ

فوجّه عنبسة بالبيتين إلى الأعراب، فما بقي منهم اثنان.

وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل في رجل توسل به: طَلَبُ العافين الوسائل إلى الأمير - أعزه الله - يُنبئ عن شروع موارد إحسانه، ويدعو إلى معرفة فضله، وما أنصفه - أعزه الله تعالى - من توسّل إلى معروفه بغيره؛ فرأي الأمير - أعزه الله - في التطوّل على من قصّرت معرفته عن ذلك بما

يريد الله تعالى فيه مَوْفَقاً إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

فكتب إليه الحسن: وصلك الله بما وصلتني في صاحبك من الأجر والشكر، وأراك الإحسان في قَصْدِكَ إليَّ بأمثاله فرضاً يفيدك شكره، ويعقبك أجره، فأريك في إتمام ما ابتدأتَ به وإعلامي ذلك مشكوراً. وكان المطلب ممدحاً كريماً، وقد حسد دعبل شرفه وإنعامه، وغبط إحسانه وإكرامه، إذ يقول: البسيط:

اضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مَعْتَرِفاً
تَخْلُصْ خَزَاعَةً مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ
بَلُؤْمٍ مُطْلَبٍ فِينَا وَكُنْ حَكِماً
فَلَا تَعْدْ لَهَا لُؤْماً وَلَا كَرِماً

وأمر طلحة أعرف من أن يُوصف.

وما أبعد قول دعبل من قول البحري لصاعد بن مخلد وأهل بيته: الطويل:

بَنِي مَخْلَدٍ كُفُّوا تَدَقُّقَ جُودِكُمْ
وَلَا تَتَّصِرُوا مَجْدِي قِنَانٍ وَمَخْلَدٍ
وَلَا تَبَخَسُونَا حَظَّنَا فِي الْمَكَارِمِ
بَأَنْ تَذْهَبُوا عَنَّا بِسُمْعَةٍ حَاتِمٍ
وَكَانَ لَنَا اسْمُ الْجُودِ حَتَّى جَعَلْتُمْ
تَغْضُوتُنَا مِنَ الْخِلَالِ الْكَرَائِمِ

في الرثاء

قال الزبير بن بكار: لما مات يزيد بن مَزِيدٍ بأرمينية قام حبيب بن البراء خطيباً، فقال: أيها الناس، لا تَقْنَطُوا من مثله وإن كان قليلَ النظر، وهَبُوهُ من صالح دعائكم مثل الذي أخلص فيكم من نواله، والله ما تفعل الديمة المَهْطَلَةُ في البقعة الجَدْبِيَّة ما عملت فينا يداه من عدله ونداه. فسرق هذا أبو لبابة الشاعر فقال: البسيط:

مَا بَقْعَةٌ جَادَهَا غَيْثٌ وَقَرَّبَهَا
أَبْهَى وَأَحْسَنُ مِمَّا أَثَرَتْ يَدُهُ
فَأَزْهَرَتْ بِأَقْلَاحِي النَّبْتِ أُلُوانَا
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَعْرُوفاً وَإِحْسَانَا

في المدح

وقال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة: الكامل:

وَإِذَا تَبَاعَ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى
وَإِذَا تَوَغَّرَتِ الْمَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ
فَسْوَكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي
فِيهَا السَّبِيلُ إِلَى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ
وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَمْتَهَا
بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمَكْدَرِ

وَإِذَا هَمَمْتَ لِمُعْتَفِكَ بِنَائِلِ النَّدَى فَأَطْعَمَهُ لَكَ: أَكْثَرِ

من معدّل عنه ولا من مَقْصَرٍ

يا واحدَ العرب الذي ما إن لهم

من إنشاء بديع الزمان

كتب البديع أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن يحيى: أما أبو فلان فلا شك أن كتابي يرد منه على صَدْرٍ مَحَا اسْمِي من صحيفته، وقطع حَظِّي من وظيفته، ونَسِيَ اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرفنا في الجد والهزل، وتقلبنا في أعطاف العيش، بين الوقار والطيش، وارتضاعنا ثُدَي العشرة؛ إذ الزمان رقيقُ القشرة، وتواعدنا أن يلحق أحدنا بصاحبه، وتصافحنا من قبل ألا نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد ألا ننقض العهد، وكأني به وقد اتّخذ إخواناً فلا بأس، فإن كان للجديد لذة فللقدم حُرمة، والأخوة بُرْدَةٌ لا تضيق بين اثنين، ولو شاء لعاشرنا في البين، وكان سألني أن أرتاد له منزلاً ماؤه رَوِيٍّ، ومرعاه غَدِيٍّ، وأكاتبه لِيُنْهَضَ إليه راحلته؛ فهناك نيسابور ضالّته التي نشدتها وقد جَدَّثتها، وخراسان أمنيته التي طلبتها وقد أَصْبَتْها، وهذه الدولة بغيته التي أرادها وقد وردتها، فإن صدّقني رائداً، فليأتني قاصداً.

وله إلى بعض إخوانه يعزّيه عن أبيه: وصلتُ رَقْعَتُكَ يا سيدي والمصاب لعمر الله كبير، وأنتَ بالجزع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبرُ عن الأحبة رشد كأنه العَيُّ، وقد مات الميت فليَحْيِ الحيّ، والآل فاشدّد على مالك بالخمس، فأنتَ اليوم غيرُك بالأمس، وكان الشيخُ رحمه الله وكيلك، تضحك ويكي لك، وقد مَوَّلَكَ ما أَلَفَ في سراهِ وسيره، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره، وسيعجُمُ الشيطانُ عودك، فإن استلانك رماك بقوم يقولون: خيرُ المال ما أُتْلِفَ بين الشراب والشباب، وأنفق بين الحَبَابِ والأحباب، والعيش بين القَدَاحِ والأقْدَاحِ، ولولا الاستعمال، ما أريد المال! فإن أطعَهم فالיום من الشراب، وغداً في الخراب، واليوم وأطرباً للكّاس، وغداً وأحرباً من الإفلاس، يا مولاي ذلك الخارجُ من العود يسمّيه الجاهل نَقْراً، ويُسَمِّيه العاقل فقْراً.

وكذلك المسموع في الناي، هو في الآذان زَمْراً، وفي الأبواب سَمْراً، فإن لم يجد الشيطان مغمراً في عودك من هذا الوجه، رماك بقوم يمثّلون الفقرَ حِذاءَ عينيكَ، فتجاهد قلبك، وتحاسب بطنك، وتناقش عِرْسَكَ، وتَمْنَعُ نفسَكَ، وتتوقّى دنياكَ بوزرك، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك، لا، ولكن قَصْداً بين الطريقين، وميلاً عن الفريقين، لا مَنَعَ ولا إسراف، والبخل فقرٌ حاضر، وضرٌّ عاجل، وإنما ييخُلُ المرءُ خيفة ما هو فيه: الطويل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقر فالذي صنع الفقر

وليكن لله في مالك قسم، وللمروءة قسم؛ فصل الرحم ما استطعت، وقدر إذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب التبذير.

وله إلى رئيس عناية برجل: كتابي أطال الله بقاء الرئيس، والكاتب مجهول، والكتاب فضول، وبحسب الرأي موقعه، فإن كان جميلاً فهو تطول، وإن كان شيناً فهو تقول، وأية سلك الظنّ فله - أيده الله تعالى - المنّ، من نيسابور عن سلامة شاملة نسأل الله تعالى ألا يلهينا بسكرها، عن شكرها، والحمد لله رب العالمين. يقول الشيخ - أيده الله تعالى -: من هذا الرجل؟ وما هذا الكتاب؟ فأما الرجل فخاطبٌ ودّ أولاً، وموصل شكر ثانياً؛ وأما الكتاب فلحام أرحام الكرام؛ فإن يعن الله الكرام؛ تتصل الأرحام. هذا الشريف قد حاربته زمانُ السوء؛ فأخرجه من البيت الذي بلغ السماء مفخراً، ثم طلب فوقه مظهراً؛ وله بعدُ جلاله النسب، وطهارته الأخلاق، وكرم العهد، وحضري فسألته عما وراءه، فأشار إلى ضالة الأحرار، وهو الكرم مع اليسار، ونبه على قيد الكرام، وهو البشر مع الإنعام، وحدث عن برد الأكباد، وهو مساعدة الزمان للجواد، ودل على نزهة الأبصار، وهو الثراء، ومُتعة الأسماع، وهو الثناء، وقلما اجتماعاً، وعزّ ما وُجداً معاً. وذكر أن الشيخ الرئيس - أيده الله - جماع هذه الخيرات، وسألني الشهادة له، وبذل الخط بها، ففعلت، وسألت الله إعانته على همته؛ فرأى الشيخ - أيده الله تعالى - في الوقوف على ما كتبت، وفي الإجابة - إن نشط - الموفق إن شاء الله.

وله إلى ابن أخته: وصل كتابك بما ضمنته من تظاهر نعم الله عليك، وعلى أبويك، فسكنت إلى ذلك من حالك، وسألت الله بقاءك، وأن يرزقني لقاءك، وذكرت مصابك بأخيك، رحمه الله تعالى، فكأنما فتت عضدي، وطعنت في كبدي، فقد كنت معتضداً بمكانه، والقدر جارٍ لشانه، وكذلك المرء يدبر، والقضاء يدبر، والآمال تنقسم، والآجال تبتسم، فالله يجعله لك فرطاً، ولا يُريني فيك سوءاً أبداً، وأنت إن شاء الله تعالى وارثُ عمره، وسدادِ ثغره، ونعم العوض بقاؤك: الكامل:

إن الأشياء إذا أصاب مُشذباً

منه أنمهل ذراً وأنت أسافلاً

وأبوك سيدي أيده الله تعالى وألهمه الجميل، وهو الصبر، وأناله الجزيل، وهو الأجر، وأمتعته بك طويلاً، فما سؤت بديلاً، وأنت ولدي ما دمت والعلمُ شانك، والمدرسة مكانك، والدفتر نديمك، وإن قصرت، ولا إخالك، فغيري خالك.

وله من كتاب إلى أبي القاسم الداودي بسجستان:

كتابي - أطال الله بقاء الفقيه - كتاب من ينسى الأيام وتذكره، ويطويها وتنشره، ويبيد أبناء دهره،

وراء ظهره، ويخرج أهل زمانه، من ضمانه، فإذا تناولهم يُمنّاه، وتسلمهم بيسراه، أقسم أن صَفَقَتَه هي الراجحة، وكفته هي الراححة، وأنا - أيد الله الفقيه - على قُرب العهد، بالمهد، قد قطعت عَرْضَ الأرض، وعاشرت أجناس الناس، فما أحدٌ إلا بالجهل اتبعت، وبالخبرة بعته، وبالظن أخذته، وباليقين نبذته، وما حمدٌ وضعته في أحدٍ إلا ضيعته، ولا مدحٌ صرّفته إلى أحدٍ إلا غربته، ومن احتاج إلى الناس، وزنهم بالقِسْطاس، ومن طاف نصف الشرق، فقد لقي رُبْعَ الخلق، ومن لم يجد في النَّصْفِ لَمَحَةً دَالَّةً، لم يجد في الكل غرةً لائحة، وكان لنا صديقٌ يقول: إن عشت تسعين عاماً مت ولم أملك ديناراً؛ لأني قد عشت ثلاثين ولم أملك ثلثها، وهذا لعمرى ياس، يُوجهه قياس، وقنوط، بالحجة مَنُوط، ودُعابة ستكون جِداً، ووراء هذه الجملة مَوْجِدَةٌ على قوم، وعَرَبِدَةٌ إلى يوم، والأمير السيد واسعُ مجال الهمم، ثابتُ مكان القَدَم، وأنا في كَنَفِهِ صائبُ سَهْمِ الأمل، وأفرُّ الجذل، والحمد لله على ما يُؤليه، ويُولينا مَعَشَرَ مَوَالِيهِ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذريّته.

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل: قد أتبع قدمه، إلى الخِدْمَةِ قلمه، وأتلى لسانه، في الحاجة بَنَانَه، وقد كان استأذنه في توفير هذا اليوم في مجلس السيد الجليل فَأَذِنَ له على عادته السليمة، وشيَمَتَه القويمة، وَمَنْ وَجَدَ كَلًّا رَتَعَ، وَمَنْ صادف غِيثًا انتَجَعَ، ومن احتاج للحاجات سأل، وبقي أن يشفع الأستاذ الجليل بإزاء الحوض عَفْرَه، وينظم إلى رَوْضِ الإحسان مطره، ويطرّز أنسنا بأيّ فلان؛ فقد وُصِفَ لي حتى حننت شوقاً إليه، ووَجَدًا به، وشَغَفًا له، وغُلُوبًا فيه، ورأيه في الإصغاء إلى الكرم عالٍ، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح السكندري:

حدّثنا عيسى بن هشام قال: حدّاني إلى سجستان أرب، فاقتعدت طِبَّتَه، وامتطيت مَطِيتَه، واستخرتُ الله تعالى في العَزَمِ حَدَوْتَه أمامي، والحزم جعلته قَدَامِي، حتى هداني إليها، ووافيت دروبها، وقد وافت الشمس غروبها، واتفق المبيتُ حيثُ انتهيت؛ ولما انتُضِي نَصْلُ الصّباح، وبرز جَبِينُ المصباح، مضيتُ إلى السوق أتخذ متزلاً، فحيثُ انتهيتُ من دائرة البلد إلى نُقْطَتِها، ومن قلادة السوق إلى واسِطَتِها، خَرَقَ سَمْعِي صوتٌ له من كلِّ عِرْقٍ معني، فانتحيثُ وفَدَه، حتى وقفتُ عنده؛ فإذا رجلٌ على فرسه، محتنقٌ بِنَفْسِهِ، قد ولاني قَدَالَه وهو يقول: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا باكورة اليمن، أنا أحدى الزمن، أنا أَدْعِيَةَ الرجال، وأُحْجِيَةَ رَبّاتِ الحِجَال، سلّوا عني الجبال وحُزُونِها، والبحار وغيُونِها، والخيَلَ ومتُونِها، مَنْ الذي ملك أسوارها، وعرف أسرارها، ونهَجَ سَمَتِها، وولج حَرَّتِها؟ وسلّوا الملوك وخزائنِها، والأغلاق ومعادنِها، والعلوم وبواطنِها، والخطوبَ ومَعَالِفِها، والحروبَ ومضايِقِها، مَنْ الذي أخذ محتزَنَها، ولم يؤدِّ ثَمَنَها؟ ومن الذي ملك مفاتيحها، وعرف مصالحها؟ أنا والله فعلتُ ذلك،

وسَفَرْتُ بين الملوك الصَّيِّد، وكشفت أَسْتَارَ الخطوب السُّود. أنا والله شهدت حتى مَصَارِعَ العُشَّاق،
ومرِضْتُ حتى لِمَرَضِ الأحداق، وهَصَرْتُ الغصونَ الناعمات، وجَنَيْتُ جنى الحدود المورِّدات، ونَفَرْتُ
عن الدنيات نفورَ طبعِ الكريم عن وجوه اللثام، ونَبَوْتُ عن المحرمات نبوَّ سمع الشريف عن قبيح الكلام،
ولأن لما أسْفَرَ صُبْحُ المشيب، وعلَّني أبْهةَ الكِبَر، عَمَدْتُ لِإصلاحِ أمرِ المعادِ، بإعدادِ الزَّادِ، فلم أَرِ طريقاً
أهدى إلى الرشاد ممَّا أنا سالكه، يَراني أحدُّكم راكب فرس وهوس، فيقول: هذا أبو العجب، لا، ولكني
أبو العجائب، عاينتُها وعانيتها، وأُمُّ الكبائر قايسُها وقاسيتها، وأخو الأغلاق، صعباً أخذتها، وهوناً
أضعتها، وغالياً اشتريتها، ورخيصاً بعثها؛ فقد والله صَحِبْتُ لها المواكب، وزاحمتُ المناكب، ورَعَيْتُ
الكواكب، وأنضيتُ الركائب، ولا من عليكم، فما حصلتُها إلا لأمرِي، ولا أعددتُها إلا لنفسي، لكني
دُفِعْتُ إلى مكاره نَذَرْتُ معها ألا أدخِرَ عن المسلمين نَفْعَها، ولا بدَّ لي أن أخلع رِبْقَةَ هذه الأمانة من
عُنقي إلى أعناقكم، وأعرضَ دوائي هذا في أسواقكم، فليشتره مني من لا يتقزُّز من موقف العبيد، ولا
يأنفُ من كلمة التوحيد، ليصنَّه من أنجبَ جدوده، وسقي بالماء الطاهر عودُه.
قال عيسى بن هشام: فذرت إلى وجهه لأعلم علمه، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، وانتظرت إجحافَ
النعامة بين يديه، ثم تعرَّضت فقلت: كم يُحِلُّ دواءك هذا؟ قال: يُحِلُّ الكيسُ ما مست الحاجةُ، فانصرفت
وتركته.

ومن إنشائه في هذا الباب: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة السلام، قافلاً من البيت الحرام،
أميس ميس الرِّجْلَةَ، على شاطئ الدَّجْلَةِ، أتأمل تلك الطرائف، وأتقصي تلك الزخارف، إذ انتهيت إلى
حلقة رجال مزدحمين، يَلْوِي الطَّرَبُ أعناقهم، ويشق الضحك أشداقهم، فساقني الحرصُ إلى ما ساقهم،
حتى وَقَفْتُ. مَسْمَع صوت رجل دون مرأى وجهه، لشدة الهَجْمَةِ، وفَرَطِ الزحمة، وإذا هو قَرَّاد يُرْقِصُ
قرده، ويُضْحِك مَنْ عنده، فرقصت رَقْصَ المخرج، وسرت سير الأثرَج، فوق أعناق الناس، يلفظني عاتقُ
هذا لسرة ذاك، حتى افترشت لَحْيَةَ رجلين، وقعدت بين اثنين، وقد أشرقني الخجل بريقه، وأرهقني المكانُ
لضيقه، فلما فرغَ القَرَّادُ من شُغْلِهِ، وانتفض المجلس عن أهله، قمت وقد كساني الرِّيب حُلَّتُهُ، ووقفت
لأرى صورته، فإذا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: ما هذه الدناءة؟ ويحك! فقال: مجزوء الكامل:

فاعتَبْ على صَرَفِ اللَّيالي
ورَقَلْتُ في ثوبِ الجمالِ

الذنبُ للأيام لا لي
بالحمق أدركتُ المُنَى

ومن إنشائه في هذا الباب أيضاً: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: كنت بأصفهان أعتزِمُ المسيرَ إلى الرِّيِّ،

فحللتها حلولَ الفَيِّ، أتوقَّع الثَّقَلَةَ كلَّ لَمَحَةٍ، وأترقَّب الرَّحْلَةَ كلَّ صَبْحَةٍ؛ فلما حُمَّ ما توقعته، وأزِفَ ما ترقَّبته، نُودي للصلاة نداءً سمعته، وتعينَ فَرَضُ الإِجَابَةِ؛ فانسلَّلتُ من بين الصحابة، أغتنم الجماعةُ أذْرِكها، وأخشى فواتَ القافلة أتركها، لكي استعنتُ ببركة الصلاة، على وَعَثَاءِ الْفَلَاةِ؛ فصِرْتُ إلى أول الصفوف، ومثلْتُ للوقوف، وتقدم الإمام للمِحْرَابِ، وقرأ فاتحة الكتاب، وثني بالأحزاب، بقراءة حمزة، مدَّةً وهمزة، وأتبع الفاتحة بالواقعة، وأنا أتصلَّى بنار الصبر وأتصلَّب، وأتقلَّى على جمر الغيظ وأتقلَّب، وليس إلا السكوت والصبر، أو الكلامُ والقبر، لِمَا عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعتُ الصلاة دون السلام، فوقفْتُ بِقَدَمِ الضَّرُورِ على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة، وقد قَنَطْتُ من القافلة، وَيَسَّسْتُ من الراحلة، ثم حتى قَوَّسَهُ للركوع، بنوعٍ من الخشوع، وضربٍ من الخضوع، لم أعْهَدْهُ قبل ذلك، ثم رفع رأسه ويده، وقال: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمَدَهُ، وقام، حتى ما شَكَّكْتُ أَنَّهُ نام، ثم أَكَبَّ لوجهه، فرفعت رأسي أنتهزُ فُرْصَةً، فلم أَرِ بين الصفوف - فُرْجَةً، فعُدْتُ للسجود، حتى كَبَّرَ للقعود، وقام للركعة الثانية، وقرأ الفاتحة والقارعة، قراءةً استَوْفَى فيها عُمُرَ السَّاعَةِ، واسترق أرواح الجماعة، فلَمَّا فَرَغَ من ركعتيه، مالَ للتحية بأَخْدَعِيهِ، فقلت: قد قَرُبَ الفرج، وآن المخرج، فقام رجل فقال: مَنْ كان منكم يحبُّ الصحابة والجماعة، فليُعرِّني سَمْعُهُ ساعة.

قال عيسى بن هشام: فلزِمْتُ أرضي، صيانةً لعرضي، فقال: حقيق عليَّ ألا أقولَ على الله إلا الحق، قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكني لا أُوَدِّيها حتى يطهَّرَ اللهُ هذا المسجد من نَذَلٍ جحد نبوته، وعادى أُمته. قال عيسى بن هشام: فربطني بالقيود، وشدني بالحبال السود، ثم قال: رأيته، صلى الله عليه وسلم، في المنام كالشمس تحت الغمام، والبدر ليلة التمام، يسيرُ والنجمُ يتبعه، ويسحبُ الذيلُ والملائكة ترفعه، ثم علَّمني دعاءً، وأوصاني أن أعلمَ ذلك أُمَّتَهُ، وقد كتبتُه في هذه الأوراقِ بخلقٍ ومسكٍ، وزعفرانٍ وسُكٍّ؛ فمن استوهبه مني وهبته، ومن أعطى ثمنَ القِرطاسِ أخذته.

قال عيسى بن هشام: فاثَّالَتْ عليه الدراهم، حتى حيرته؛ ونظرت فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: كيف اهتديت إلى هذه الحيلة؟ ومتى اندرجت في هذه القبيلة؟ فأنشأ يقول: المجتث:

وَابْرَزُوا عَلَيْهِمْ وَبَرَزُوا

ما تشتهيه ففروزوا

الناسُ حُمُرٌ فَجَوَزُوا

حتى إذا نَلَتْ مِنْهُمْ

جارية تبذّر كبار الشعراء

وصفت لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه في ابتياعها، فامتنع وامتنعت، وقالت: لا أحتاج للخلافة ولا أرغب في الخليفة، والذي أنا في ملكه أحب إلي من الأرض ومن فيها. فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسراً، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلمّا وصلت إليه، وصارت في يديه، أمرها بلزوم مجلسه، والقيام على رأسه؛ فبينما هي عنده، ومعه ابنه الوليد وسليمان، قد أخلاهما للمذاكرة، فأقبل عليهما فقال: أي بيت قالته العرب أمدح؟ فقال الوليد: قول جرير فيك: الوافر:

وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ؟

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وقال سليمان: بل قول الأخطل: البسيط:

وَأَعْظُمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ

فقلت الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت: الكامل:

لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ

فأطرق، ثم قال: أي بيت قالته العرب أرق؟ فقال الوليد: قول جرير: البسيط:

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ

فقال سليمان: بل قول عمر بن أبي ربيعة: الخفيف:

مَنْ يَدِّي دِرْعُهَا تَحُلُّ الْإِزَارَا

حَبَذَا رَجَعُهَا يَدَيْهَا إِلَيْهَا

فقلت الجارية: بل بيت يقوله حسان: الخفيف:

رَّ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ

لَوْ يَدِبُ الْحَوْلِي مِنْ وَلَدِ الذِّ

فأطرق، ثم قال: أي بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عنترة: الكامل:

عنها، ولو أنني تَضَائِقَ مَقْدَمِي

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الْأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمِ

فقال سليمان: بل قوله الكامل:

فالموتُ مني سابقُ الآجَالِ

وَأَنَا الْمَنِيَّةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا

فقلت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك: الكامل:

قُدُماً وَلَحَقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

نَصِلُ السُّيُوفِ إِذَا قَصَرْنَ بِخَطُونَا

فقال عبد الملك: أحسنت، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك أبْلَغَ من رَدِّكَ إلى أهلِكَ. فأَجْمَلَ كَسَوَهَا، وأَحْسَنَ صِلَتَهَا، وَرَدَهَا إلى أهلِهَا.

ومثل قول كعب بن مالك قول نَهْشَل بن حَرِيٍّ: البسيط:

إِنَّا بَنِي نَهْشَل لَا نَدَّعِي لِأَبٍ
عَنْهُ، وَلَا هُوَ بِالْأَبْنَاءِ يَشْرِينَا
إِنْ تُبْتَدِرْ غَايَةً يَوْمًا لِمَكْرُمَةٍ
تَلْقَ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمُصْلِينَ
إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ
قَوْلُ الْكُمَاةِ: أَلَا أَيْنَ الْمَحَامُونَا؟
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا:
مَنْ فَارِسٌ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْتُونَا
إِذَا الْكُمَاةُ تَأَبَّرُوا أَنْ يَنَالَهُمْ
حَدُّ السِّیُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا
إِنَّمَا أَرَدْتَ هَذَا الْبَيْتَ.

وقوله:

لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ: الطويل:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى؟ خِلْتُ أَنَّنِي
عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ

ترجمة نهشل بن حري

وكان نهشل شاعراً ظريفاً، وهو نهشل بن حري بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم، وكان اسم جده ضمرة هذا: شقة، ورد على النعمان بن المنذر فقال: من أنت؟ فقال: أنا شقة، وكان قضيفاً نحيفاً دميماً، فقال له النعمان: تسمع بالمعيدي لا أن تراه، والمعيدي: تصغير المعدي، فذهبت مثلاً، فقال: أبيت اللعن! إن الرجال لا تُكَالُ بالقُفْزَانِ، وليست بمُسُوكٍ يَسْتَقِي بِهَا مِنَ الْعُدْرَانِ، وإنما المرءُ بأصْعَرِيهِ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ إِذَا نَطَقَ نَطَقَ بِيْبَانٍ، وَإِذَا قَاتَلَ قَاتَلَ بِجَنَانٍ، فقال: أنت ضمرة! ونهشل هو القائل: الطويل:

وَيَوْمَ كَأَنَّ الْمُصْطَلِينَ بِحَرِّهِ
وَأَمَّا بِهٖ حَتَّى تَجَلَّى، وَإِنَّمَا
وَأِنْ لَمْ يَكُنْ جَمْرٌ قِيَامٌ عَلَى الْجَمْرِ
تُقَرِّجُ أَيَّامُ الْكُرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

أمدح بيت

وكان عبدُ الملك يقول: يا بني أُمّية، أحسابُكم أعراضُكم، لا تعرضوها على الجهال، فإنَّ الذمَّ باقٍ ما بقي الدهر؛ والله ما سرّني أُنّي هُجيت بيت الأعشى، وأن لي طلاعَ الأرض ذهباً، وهو قوله في علقمة بن عُلّانة: الطويل:

يبيتون في المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا

والله ما يُبالي من مُدح بهذين البيتين ألا يُمدحَ بغيرهما، وهما قول زهير: الطويل:

هنالك إن يُستخبلوا المال يُخبلوا وإن يُسألوا يُعطوا وإن يُيسروا يُغلوا

على مُكثريهم حق من يعترِيهم وعند المُقلين السماحة والبذل

وقال ابنُ الأعرابي: أمدحُ بيتَ قاله المحدثون قولُ أبي نواس: الطويل:

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدّثانِ

تغطّيتُ من دهري بظلِّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تُسألُ الأيامُ عني ما درتُ وأين مكاني ما عرّفنَ مكاني

وهذا كقول - أعرابي، ذكر بعضُ الرواة أنَّ مالك بن طوق كان جالساً في بهوٍ مطلٍّ على رحبته ومعه جلساؤه، إذ أقبل أعرابي تحبّ به ناقته، فقال: إياي أَراد، ونحوي قصد، ولعلَّ عنده أدباً يُنتفع به. فأمر حاجبه بإدخاله، فلمّا مثل بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: الأمل في سيِّب الأمير والوجاء لنائله. قال: فهل قدّمت أمامَ رغبتك وسيلة؟ قال: نعم، أربعة أبيات قتلها بظهر البرية، فلمّا رأيت ما بباب الأمير من الأبهة والجلالة استصغرتهما، قال: فهل لك أن تنشدنا أبياتك؟ ولك أربعة آلاف درهم، فإن كانت أبياتك أحسن فقد ربحنا عليك، وإلاّ قد نلتَ مرادك وربحتَ علينا، قال: قد رضيت، فأنشده: الطويل:

ومازلتُ أخشى الدهر حتى تعلّقتُ يداي بمن لا يتّقي الدهرَ صاحبُه

فلمّا رآني الدهر تحت جناحه رأى مُرتقى صعباً منيعاً مطالبُه

وأني بحيثُ النجمُ في رأسِ باذخٍ تُظِلُّ الورى أكنافُه وجوانبُه

فتى كسماءِ الغيثِ والناسُ حولَه إذا أجذبوا جادتْ عليهم سحائبُه

قال: قد ظفرنا بك يا أعرابي، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم. قال: فإن لي صاحباً شاركته فيها ما أراه يرضى بيعي، قال: أترأك حدّثت نفسك بالنكث؟ قال: نعم، وجدتُ النكث في البيع أيسرَ من خيانة الشريك، فأمر له بها.

أنصف بيت وأصدق بيت

وأنصف بيتَ قالته العربُ قولُ حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث في جوابه عما هجا به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وروى محمد بن عمار عن أبيه قال: أنشد النبيَّ حسانُ بن ثابت قوله: الوافر:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا، فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

فقال النبيُّ عليه السلام: جزاؤك الجنة يا حسان.

فلما انتهى إلى قوله:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ عَرَضِي لِعَرَضٍ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

قال النبيُّ عليه السلام: وفاق الله حرَّ النار.

فلما قال:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّ كَمَا لَخِيرُ كَمَا الْفِدَاءُ

قال مَنْ حضر: هذا أنصفُ بيتَ قالته العرب.

وأصدقُ بيتَ قالته العرب وأمدحُه قولُ كعب بن زهير في رسول الله، صلى الله عليه وسلم: البسيط:

تَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءَ مُعْتَجِرًا بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةِ الظَّلَمِ

وَفِي عِطَافِيهِ أَوْ أَثْنَاءَ بَرْدَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمٍ

وقال الأصمعي: والجهال يروون هذا البيت لأبي دهل، واسمه وهبُ بن ربيعة، في عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والي اليمامة، والصواب ما ذكرناه، وهو بصفات النبي، صلى الله عليه وسلم، أعلَق، وممدحه أليق.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم

سليل أكرم نَبْعَةٍ، وقريع أشرف بقعة. جاب بأمتة الظلمات إلى النور، وأفاء عليهم بالظل بعد الحرور. وهو خيرةُ الله من خلقه، وحجته في أرضه. الهادي إلى حقه، والمُنْبِئ على حكمه. والداعي إلى رُشدِهِ، والآخذ بفرضه. مباركٌ مولده، سعيدةُ غرَّتِه، قاطعةُ حجَّتِه، ساميةُ درجَتِه، ساطع صباحُه، متوفد مصباحُه، مُظْفَرَةٌ حروبه، مُيسَّرَةٌ خطوبُه، قد أفردَ بالزعامة وحده، وخَتِمَ بأن لا نبيَّ بعده. يُفَصِّح بِشِعَارِهِ على المنابر، وبالصلاة عليه في المحاضر، وتعمُرُ بذكره صدورُ المساجد، وتستوي في الانقياد له حالة المقر والجاحد. آخر الأنبياء في الدنيا عمراً، وأولهم يوم القيامة ذكراً، وأرجحهم عند الله ميزاناً، وأوضحهم حجَّةً وبرهاناً. صدعَ بالرسالة، وبلغ بالدلالة، ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم. أرسله الله قمراً

للإسلام منيراً، وقدراً على أهل الضلال مبيراً. صلى الله عليه وسلم. خير من افتتحت بذكره الدعوات، واستنحت بالصلاة عليه الطلبات. خير مبعوث، وأفضل وارث وموروث. وخير مولود، دعا إلى خير معبود. صلى الله عليه وعلى كاشف الغمة عن الأمة. الناطق فيهم بالحكمة، الصادق بالحق، الداعي إلى الصدق، الذي ملك هَوَادِي الهدى، ودلَّ على ما هو خيرٌ وأبقى صلى الله عليه بشير الرحمة والثواب، ونذير السطوة والعقاب. صلى الله عليه على أتم برِّته خيراً وفضلاً، وأطيبهم فرعاً وأصلاً، وأكرمهم عوداً ونجاراً، وأعلاهم منصباً وفخاراً، وعلى أهله الذين عظمهم توقيراً، وطهرهم تطهيراً هم مقاليد السعادة ومفاتيحها، ومعارج البركة ومصاييحها. أعلام الإسلام وأيمان الإيمان. الطيبون الأخيار، الطاهرون الأبرار. الذين أذهب عنهم الأرجاس، وجعل مودتهم واجبةً على الناس. هم حبل الهدى وشجرة الإيمان، أصلها نبوة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، ورقاتها تأويل، وخدْمُها ميكال وجبريل.

ولبديع الزمان إلى بعض الأشراف في درج كلام تقدّم: إن جعلنا نُعَدُّ فخاركم، ونُحَدُّ آثاركم، نفد الحصى قبل نفوذها، وفنيت الخواطر، قبل أن تغنى المآثر، ولم لا؟ وإن ذُكر الشرف فأنتم بنو بجدته، أو العلم فأنتم عاقدو إزرتة. أو الدين فأنتم ساكنو بلدته، أو الجود فأنتم لابسو جلده، أو التواضع صبرتم لشدته، أو الرأي صُلِّتُم بجدته، وإن بيتاً تولى الله عز وجلّ بناءه، ومهدّ الرسول عليه السلام فناءه، وأقام الوصيُّ رضوان الله عليه عمّاده، وخدم جبريل عليه السلام أهله، لحقيق أن يُصانَ عن مدح لسان قصير. وذكر النبيّ، صلى الله عليه وسلم، أعرابيُّ فقال: بأبي وأمي رسول ربّ العالمين، ختمت به الدنيا، وفتحت به الآخرة، صلى الله عليه وسلم، به يبدأ الذكر الجميل ويختم.

إلى هذا المكان أمسكت العنان. والإطنابُ في هذا الكتاب يعظم ويتسع، بل يتّصل ولا ينقطع؛ إذ كان غرضي فيه أن ألمح المعنى من معانيه، ثم أنجرّ معه حيث أنجرّ، وأمرّ فيه كيف مرّ، وأخذ في معنى آخر غير موصول بشكله، ولا مقرون بمثله، وقد أخلّ نظاماً، وأفرد تقوَّماً، نشراً لبساط الانبساط، ورغبة في استدعاء النشاط. وهذا التصنيف لا تُدرك غايته، ولا تبلغ نهايته، إذ المعاني غير محصورة بعدد، ولا مقصورة إلى أمد. وقد أبرزت في الصدر، صفحة العُذر، يجولُ فرَندُها، ويثقبُ زندها، وذلك أي ما ادّعيْتُ فيما أتيتُ إلا ما لا يكون ما تركته أفضل ممّا أدركته، وأني لم أسلك مذهباً مخترعاً لم أسبق إليه، ولا قصدت غرضاً مبتدعاً لم أغلب عليه، ومن ركب مطية الاعتذار، واجتنب خطية الإصرار، فقد خرج من تَبعة التقصير، وبرئ من عهدة المعاذير.

وأما بعد، فإن أحق من احتكم إليه واقتصر عليه الاعترافُ بفضل الإنصاف، وليعلم من يُنصف أن الاختيارَ ليس يعلم ضرورة، ولا يوقف له على صورة، فيكثر الإغماض، ويقلّ الاعتراض، ويعلم أن ما لا يقع بهواه، قد يختاره سواه، وكل يعمل اقتداره، ويحسن اختياره، فلو وقع الاجتماع على ما يُرضي

وَيُسَخِّطُ، وَيَثْبُتُ وَيَسْقُطُ، لَارْتَفَعَ حِجَاغُ الْمُخْتَلَفِينَ، فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ.
وقال المتنبي: البسيط:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ
فَقِيلَ: تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ: تَشْرُكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ

الشجب: الموت، وهي لفظة معروفة، وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقد. وقد أنكرها البحري على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في مجاذبته إياه حيث يقول: الخفيف:

وَلَوْ أَنَّ الْحَكِيمَ وَازَنَ فِي ال لَفَظٍ وَاخْتَارَ لَمْ يُقَلِّ شَجَبَةً

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو ظبيان، قال: اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليهم، وناقضهم فيها، فأعياهم كثرة ما يقول ويقولون، فقال بعضهم: أمّا بعد، فإن الموت لا شك فيه، فقال الملحد: ما رأيتُ خاطباً وواعظاً وشاهداً لا يُردُّ أوجز منه، وقلما ترى معني إلا وهو يدافع أو يناقض، ويُحَارُّ به عن سواءِ المحجة. وقيل: من طلب عيباً وجده. قال أبو عمرو بن سعيد القطرُبلي: ليس من بيتٍ إلا وفيه لطاعنٌ مطعنٌ، إلا قول الحطيئة: البسيط:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وقول طرفة بن العبد: الطويل:

سُتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وقول علي بن زيد: الطويل:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْلُ وَسْلٌ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلَّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدِ

وللعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبي عيَّاش المنتوف، وقد دخل عليه وبين يديه سلة زعفران: أنشدني بيتاً لا يصارف ولا يكذب وهي لك، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطعن: الطويل:

فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُورِهَا

الفهرس

17	بعض ما قاله الرسول الكريم.....
20	بعض ما قاله أبو بكر الصديق.....
24	بعض ما قاله عمر بن الخطاب.....
24	فصول قصار من كلامه رضي الله عنه
25	ومن كلام عثمان بن عفان.....
26	رضي الله عنه:.....
27	من كلام علي بن أبي طالب
27	رضي الله عنه.....
33	من كلام الصحابة والتابعين.....
36	فقرُ لجماعة الصحابة والتابعين.....
36	رضي الله عنهم.....
38	بعض ما قاله أهل البيت.....
38	فصل لأبي عثمان عمرو بن بَحْرٍ الجاحِظِ.....
39	في ذكر قريش، وبني هاشم.....
41	ألفاظ لأهل العصر في.....
41	ذكر المصيبة بأبناء النبوة.....
41	عود إلى بعض ما قاله أهل البيت.....
52	رجع إلى ما انقطع.....
64	ألفاظ لأهل العصر في أوصاف الأشراف.....
64	لها في هذا الموضع مَوْقع.....
65	بدء الكتاب.....
66	في البلاغة.....
67	ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن.....

68	رجع إلى البلاغة
70	الإطالة والإيجاز
75	أوصاف بليغة في البلاغات
75	على ألسنة أقوام من أهل الصناعات
77	فقرٌ في وصف البلاغة لغير واحد
78	ومن كلام أهل العصر
78	في صفة البلاغة والبلغاء
80	ومن ألفاظهم
80	في وصف النظم والنثر والشعر والشعراء
82	وهذه جملة من فصول أهل العصر
82	تليق بهذا الموضع
88	وهذه مقطعات لأهل العصر
88	في وصف البلاغة
93	وصف الكتب
94	فقر في الكتب
94	جملة من ألفاظ أهل العصر في صفة الكتب
94	وتهاديها، وما يتعلّق بأسمائها ومعانيها
97	نموذج في وصف الكتب
98	في محادثة المجلس
103	رجع إلى البلاغة
105	في الظرف والمُلح والمزاح
108	ما قيل في النسيب والغزل
121	في باب الوصف
122	وصف الدور والقصور
126	ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء
126	وما يتصل به
127	ولهم في مقدمات المطر

127.....	وفي الرعد والبرق
128.....	ويتصل بهذه الأنحاء
132.....	ألفاظ لأهل العصر في ذكر التقى والزهد
133.....	في الحسد
134.....	ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد
136.....	آداب الجلوس
137.....	سير الملوك وأخبارهم
139.....	قطعة صادرة من أقوال الملوك
139.....	دالة على فضل كرمهم وبعد همهم
140.....	ومن كلام أهل العصر
140.....	ومن كلام الملوك الجاري مجرى الأمثال
146.....	فقرّ تتصل بهذه الأبيات، وفي وصف الشباب
147.....	ويتعلّق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم
147.....	في نجابة الشباب وترشحهم للمعالي
151.....	ما قيل في الثغر
155.....	وعلى ذكر التوأمين ألفاظ
155.....	لأهل العصر في التهنية بتوأمين
156.....	في الهجاء
156.....	رجع إلى ما قيل في الثغر
159.....	أملح الشعر وأرقه
172.....	في معانٍ أخرى
174.....	جملة من كلام بديع الزمان الهمداني
174.....	أبي الفضل أحمد بن الحسين
179.....	قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر
179.....	في معانٍ شتى تجري مجرى الأمثال
187.....	أبو العيناء
192.....	هروب إبراهيم بن المدبر من السجن

193.....	أخبار صاحب الزنج
193.....	رجع إلى أخبار أبي العيناء
194.....	ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام
194.....	ومقدّماته، وموائده، وآلاته
199.....	ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر
199.....	في صفات الفواكه والثمار
199.....	ما قيل في وصف الليل والصيد واللهو
201.....	وصف منبج
201.....	ألفاظ في هذا المعنى لأهل العصر
202.....	الفضل بن سهل
204.....	في وصف الخيل
214.....	ما قيل في المواعيد
216.....	في البرّ والإنعام
217.....	ألفاظ لأهل العصر
217.....	في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبرّ
219.....	أبو العتاهية
223.....	عمر بن العلاء
224.....	سبحان الخالق الكريم
225.....	ألفاظ لأهل العصر في الشكر بدلالة الحال
226.....	من أخبار نُصَيَّب وشعره
227.....	في باب المدائح
230.....	ابن أبي دُوَاد
231.....	خالد بن عبد الله القسري
232.....	أبو تمام والأفشين
232.....	أهل النفاق
233.....	ويتعلّق بهذه المقامة
233.....	فصل في غرائب التكاثر

235.....	ألفاظ لأهل العصر في التهاني بالبنات
236.....	مديح النساء
239.....	كثير عزة
241.....	في الطول والقصر
243.....	رجع إلى كثير عزة
244.....	فصول قصار
244.....	شذور لأهل الصرّ في معانٍ شتّى
245.....	شمس المعالي ابن وشمكير
247.....	البرامكة
251.....	مذهب التجنيس في الغزل
255.....	فقرّ في ذكر العلم والعلماء
256.....	استعارات فقهية تليق بهذا المكان
257.....	ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان
260.....	أبو عليّ البصير
261.....	السفر
262.....	فقر في مدح السفر
263.....	نقيض ذلك في ذمّ السفر والغربة
263.....	العزل بعد المؤانسة
264.....	جملة من شعر أبي الفتح
264.....	كشاحم في الأوصاف
267.....	وصف المرأة
270.....	ما لا ينقلب من المعاني
270.....	قطعة من شعر أهل العصر في ذكر النجوم
273.....	من أخبار الأصمعي
275.....	فقرّ من كلام الأعراب
275.....	في ضروب مختلفة
283.....	من أخبار أبي نواس

286.....	بشار بن برد
293.....	في المودة والعتاب والصدق والكذب
293.....	فقر في الكذب لغير واحد
294.....	ما قيل في الزفاف
295.....	فقر في الكتاب والقلم والسيف والخطّ
299.....	من أخبار الكاتب أحمد بن يوسف
301.....	ألفاظ لأهل العصر في ذم المغنين
302.....	رجع إلى أحمد بن يوسف
304.....	ألفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء
307.....	ما قيل في السكّين
308.....	ألفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين
308.....	الاستدعاء إلى المؤانسة والمتادمة
311.....	ومن ألفاظهم في الاستدعاء
312.....	ولهم في استدعاء الشراب
312.....	ولهم في الكتابة عن الشراب
313.....	فقر للنبيذيين
315.....	ومن ألفاظهم في صفات
315.....	محالّس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر
319.....	من إنشاء بديع الزمان الهمذاني
325.....	ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح الإسكندري
328.....	ما قيل في المزاح
328.....	فقر في هذا النحو لأهل العصر وغيرهم
328.....	الطيرة والرّجر
334.....	في موت البنت
335.....	من أخبار ابن الرومي
339.....	رجع
339.....	في العيافة والزجر

- 341.....من أخبار الجاحظ.
- 342.....من أخبار عتبة بن أبي سفّيان.
- 342.....عود إلى الجاحظ.
- 343.....من حكم علي بن أبي طالب.
- 343.....عليه الصلاة والسلام.
- 344.....الجاحظ ورجل من البرامكة في مرضه.
- 345.....المقامة الجاحظية.
- 345.....مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ.
- 346.....ما قالته الملوك.
- 347.....من إنشاء الميكالي.
- 348.....قطعة من شعره في تجنيس القوافي.
- 352.....ما قيل في الاشتياق.
- 354.....في الخط.
- 355.....صنعة الأدب.
- 356.....أدوات الورّاق.
- 357.....اللذات.
- 358.....وصف المحبرة والقلم.
- 361.....من أخبار الخليفة المأمون.
- 361.....وصف الروض والزهور.
- 363.....نبذ من النظم والنثر.
- 363.....في صفات الثّور والزهر.
- 371.....جملة من هذا النوع لأهل العصر.
- 371.....ولهم في هذا المعنى.
- 372.....ولهم فيما يتعلّق بهذا النحو.
- 372.....في وصف أيام الربيع.
- 374.....من أخبار المأمون والأمين.
- 376.....مبايعة المهدي.

- 377.....أفضل الأوقات لمخاطبة الملوك.
- 378.....من أخبار المنصور.
- 378.....من أخبار الرشيد.
- 379.....من نظم الفضل بن الربيع.
- 379.....من أخبار أبي العيناء.
- قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابي عن أبي العباس بن سابور إلى الحسين بن صبرة عن رقعة وردت منه في صفة حَمَل أَهْدَاهُ.
- 380.....من نظم الحمدوني.
- 381.....من أخبار المأمون.
- 385.....من أخبار المبرد.
- 385.....في المدح.
- 387.....بين جميل وعمر بن أبي ربيعة.
- 389.....جملة من الفصول القصار لابن المعتز.
- 390.....من إنشاء ابن العميد.
- 392.....ما قيل في العتاب.
- 393.....ما يتعلق بالأعراب.
- 394.....من إنشاء بديع الزمان الهمذاني.
- 395.....عود إلى المأمون.
- 397.....بين المأمون وإسحاق بن العباس.
- 397.....في الاستعطاف.
- 398.....عفو الملوك.
- 399.....رجع إلى إنشاء بديع الزمان.
- 401.....فَقَرَّ من كلام سهل بن هرون للمأمون.
- 401.....من ترجمة سهل بن هرون، وأخباره.
- 403.....من عِظَات الحسن البصري.
- 403.....ألفاظ لأهل العصر.
- 403.....في التهنية بإقبال شهر رمضان.

403.....	مع ما يتصل بها من الأدعية
405.....	نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر
407.....	نبذ من مفردات الأبيات
407.....	في فرائد المدح
408.....	مجالس أهل الحكم
409.....	ومن كلام بلغاء أهل العصر
409.....	في ذكر السلطان
413.....	بين اللفظ واللحن
415.....	وصف الذوائب
416.....	القصيدة والإنسان
419.....	افتتاح القصائد بالغزل
419.....	بين أبي تمام والبحثري
425.....	حول الغناء
427.....	في صفة القيان
430.....	ومن ألفاظ أهل العصر
430.....	في مدح الغناء
430.....	في وصف القلم
433.....	العتابي
440.....	ألفاظ لأهل العصر
440.....	في ذم الكتاب والكتاب والنثر والشعر
441.....	خير الكلام
448.....	فقر في الشعر
450.....	ترجمة الأحنف بن قيس وأخباره
454.....	ترجمة منصور النمري وأخباره
456.....	أخبار ابني المعدل
462.....	ابن راشد
462.....	أخبار عبد الملك بن صالح

466.....	بين الرشيد والخارجين من السجن
466.....	في باب الرثاء
469.....	أخبار قطر الندى
469.....	رجع إلى الرثاء
470.....	ما قالته الشعراء في ريعان الشباب
471.....	من أخبار المأمون ويزيد بن معاوية
473.....	مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر
474.....	جملة من كلام ابن المعتز
474.....	في الفصول القصار في ذكر السلطان
474.....	ومن كلام أهل العصر
474.....	وغيرهم في هذا النحو
475.....	من إنشاء بديع الزمان
477.....	شعر في وصف فص وخاتم
478.....	بين الكلام والصمت
478.....	الحنين إلى الوطن
479.....	ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن
483.....	ألفاظ لأهل العصر
483.....	في وصف الأمكنة والأزمنة
484.....	من أدب الميكالي نثراً وشعراً
484.....	فصل لأبي الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه
489.....	ترجمة ابن أبي دواد وأخباره
491.....	قطعة من شعر الأعراب في الغزل
496.....	في مجالس المنصور
498.....	من فضائل الشعر
499.....	في المواعيد
499.....	أخبار معاوية بن يسار
501.....	ألفاظ لأهل العصر

- 501.....في ذكر الاستطالة والكبر
- 506.....ومن مفردات الأبيات
- 506.....في المعاييب والمقايح
- 507.....اللحن في الكلام
- 508.....التعلّق بالغلام
- 510.....الهوى
- 511.....العفة
- 513.....ألفاظ لأهل العصر
- 513.....في محاسن النساء
- 515.....من إنشاء بديع الزمان
- 523.....ومن ألفاظ أهل العصر
- 523.....في صفة الديار الخالية
- 525.....أوصاف في طول الليل والسهر
- 528.....ألفاظ لأهل العصر
- 528.....في طول الليل والسهر
- 528.....وما يعرض فيه من الهموم والفكر
- 535.....من وصف الشراب والكؤوس والسُّقاة في الليل
- 538.....من المختار من شعر تميم بن المعز
- 541.....أحسن ما قالته العرب في الجاهلية
- 542.....ومن ألفاظ أهل العصر
- 543.....في طلوع الشمس وغروبها
- 543.....ومتوع النهار وانتصافه، وابتدائه، وانتهائه
- 545.....جملة من كلام ابن المعتز
- 545.....في الفصول القصار
- 545.....من شعر أبي العباس الناشئ في التعزية
- 547.....رجع إلى ابن المعتز
- 548.....من أخبار عضد الدولة في شجاع

549.....	عود إلى ابن المعتز
554.....	من أخبار أبي جعفر المنصور
555.....	العفو عند المقدرة
555.....	من أخبار المعتصم
557.....	بين المهلب والحجاج
558.....	بين أبي الصقر وصاعد بن مخلد
558.....	بين أبي العيناء وابن ثوبة
558.....	مكارم أبي الصقر
559.....	بين أبي الصقر وأبي العيناء
559.....	بين أبي العيناء وأحمد بن الخصيب
560.....	أخبار أبي بكر المعروف بسبيويه
561.....	رجع إلى أبي العيناء
562.....	باب الرثاء
567.....	ومن ألفاظ أهل العصر
567.....	في التعازي وما يتعلّق بمعانيها
570.....	من إنشاء بديع الزمان
573.....	فقر من كلام المتصوّفة والزهاد والقصاص
577.....	الرأي والهوى
577.....	من البد بدائه في مجالس الخلفاء
583.....	قضاء الحاجة
583.....	فقر في ذكر المشورة
584.....	في التاريخ والنسب
585.....	فقر وأمثال يتداولها العمال
585.....	أخبار منصور الفقيه
587.....	تغيّر بعد عسرة
589.....	بين البخل والجود
589.....	ومن أمثال البخلاء

590.....	واحتجاجهم، وحكمهم:
591.....	فقر لابن المعتز وغيره.
591.....	في الصديق والصدق
591.....	من إنشاء الحسن بن وهب
593.....	بلاغة عمرو بن مسعدة
595.....	بين الطبع والتكلف
595.....	مُلح في باب الشعر
598.....	أخبار معن بن زائدة
598.....	بين الجبن والحزم
599.....	بين الجهل والعقل
599.....	هجاء بني كليب
599.....	أقوال الأعراب في النثر والشعر
601.....	باب المديح
602.....	ألفاظ لأهل العصر
602.....	في ضروب المَمداح
604.....	ولهم في أدعية
604.....	من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والممداح
605.....	صناعة الكلام
607.....	باب النسب
607.....	عمران بن حطان
608.....	بين أعراي وبعض الولاة
609.....	الدنيا وأهلها
609.....	أربع كلمات فيهن صلاح الملك
609.....	بيعة يزيد
610.....	تواضع الرشيد
610.....	المتني يصف علّة أصابته بمصر
610.....	ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها

- 610..... من ذكر التشكي والمرض وتلوّنه، وسوء أثره، والانزعاج لعوارضه:
- 611..... فقر في تموين العلة بحسن الرجاء:
- 611..... وذكر المشاركة والاهتمام بحلّوها والاستبشار بزوالها:
- 612..... ولهم في شكاة أهل الفضل والسؤود:
- 612..... ولهم في تنسّم الإقبال وذكر الإبلال:
- 613..... فقر في أدعية العيادة والاستشفاء بكتبتها:
- 613..... قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة:
- 613..... فقر في ذكر المرض والصحة والموت:
- 613..... والحياة لغير واحد:
- 615..... الجواب المفحم:
- 616..... ما قيل في القдах:
- 617..... نماذج شعرية في وصف منديل وثلج:
- 620..... ألفاظ لأهل العصر:
- 620..... في وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية:
- 620..... نقيض ذلك من كلامهم:
- 620..... في وصف القيظ وشدة الحرّ:
- 621..... العجلة أم الندامة:
- 621..... قضاء الحاجة:
- 622..... التقسيم:
- 623..... قينة تعشق أربعة رجال:
- 624..... من أخبار ابن المعتز وشعره:
- 626..... جرير وأهل المدينة:
- 627..... يزيد بن خالد الكوفي:
- 628..... بين أحمد بن أبي دواد والواثق:
- 628..... شبيب بن شيبه وخالد بن صفوان:
- 630..... بعض ما قيل في عجّلان بن سحبان:
- 630..... دغفل بن حنظلة النسابة:

630.....	في ذكر العصا.....
630.....	الخليل بن أحمد.....
631.....	في التعزية.....
635.....	شعر في وصف الشباب والمشيب.....
639.....	شذور لأهل العصر.....
639.....	في وصف الشيب ومدحه وذمّه.....
641.....	فقر لغير واحد في المشيب.....
644.....	من أخبار الوليد بن يزيد.....
644.....	الحجاج وأهل العراق.....
645.....	فقر في المديح.....
647.....	الشارب.....
647.....	التطفيل.....
648.....	ألفاظ لأهل العصر.....
648.....	في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم.....
649.....	وصف طائر.....
649.....	وصف الغلام.....
650.....	بين خالد بن صفوان وعلي بن الجهم.....
651.....	تنقل الزمان.....
651.....	باب الرثاء.....
653.....	وصف امرأة.....
653.....	عود إلى كلام الأعراب.....
654.....	من إنشاء بديع الزمان.....
654.....	من رسائل بديع الزمان.....
656.....	تسامح المأمون.....
656.....	ألفاظ لأهل العصر.....
656.....	في التهنة بالإطلاق من الأسر.....
656.....	باب المديح.....

659.....	بين السفاح وأبي نخيلة.....
660.....	ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى.....
661.....	وغيرهما من النساء:.....
671.....	دموع العاشقين.....
673.....	من أخبار العباس بن الأحنف.....
676.....	فقر في الغزل.....
677.....	باب الحكمة.....
678.....	وصف الهوى.....
680.....	من إنشاء الميكالي وشعره.....
681.....	من شعر الميكالي.....
682.....	قضاء الحاجة.....
682.....	بين أسيد بن عنقاء الفزاري وعميله الفزاري.....
683.....	كلاي يمدح غنويًا.....
683.....	الدهر لا ينصف.....
684.....	الاستخفاف بحقّ النعم.....
684.....	فقر في المدح.....
685.....	الجود والعطاء.....
686.....	رثاء قرد وثور.....
688.....	رثاء الأشخاص.....
689.....	عود إلى المديح.....
691.....	من نوادر الأعراب.....
694.....	رجع إلى المديح.....
695.....	فصل لأبي العباس بن المعتز.....
696.....	نبذة من لطائف ابن المعتز.....
696.....	وفضل تحقيقه بالبديع والاستعارات مما تتعين العناية بمطالعتها:.....
700.....	رياضة النفس على الفراق.....
702.....	شذور من كلام أهل العصر.....

702.....	في مكارم الأخلاق
703.....	مواعظ عقلها بعض أهل العصر
703.....	تتعلق بهذا الفصل
703.....	أخبار العتالي
704.....	من كلام الأعراب
705.....	بين قرشي وعمر بن عثمان
705.....	ادعاء
706.....	من أخبار الخليفة الرشيد
706.....	حُرْمَةُ الكعبة
706.....	من أخبار عبد الله بن طاهر
707.....	من حكم الفرس
707.....	من حكم الهند
708.....	وصية عتبة بن أبي سفيان
708.....	لمولاه سعد القصر:
708.....	من حكم يزيد بن معاوية
708.....	أبو الأسود الدؤلي والعمامة
709.....	من إنشاء ابن العميد
710.....	وباء الكوفة
710.....	جوى الشوق
711.....	من أخبار مسلم بن الوليد وشعره
712.....	أبيات في وصف الجيش
713.....	وصف شعب بَوَّان
714.....	رجع إلى وصف الجيش
715.....	في وصف سفينة
715.....	في وصف الأساطيل
717.....	في المودة
718.....	ومن ألفاظ أهل العصر

718.....	في إقامة رسم الهدية.....
718.....	في المهرجان والنيروز:.....
718.....	ولهم في التهنة بالنيروز والمهرجان.....
718.....	وفصل الربيع:.....
719.....	صاحب الشرطة.....
720.....	من كلام الأعراب.....
720.....	من أخبار أبي العباس السفاح.....
720.....	وخالد بن صفوان:.....
721.....	شذور في المقابح ومساوي الأخلاق.....
721.....	في المفاحرات.....
722.....	من وصايا الحكماء.....
722.....	باب المديح.....
724.....	علم البديع والاستطراد.....
727.....	من أخبار الرشيد.....
727.....	من أخبار سليمان بن عبد الملك.....
728.....	من أخبار إبراهيم بن العباس الموصلي.....
728.....	وشعره.....
730.....	في رثاء مصلوب.....
730.....	عود إلى أخبار الرشيد.....
731.....	قضاء الحاجة.....
732.....	في إطالة الخطبة.....
732.....	من أخبار الأمير أبي مسلم.....
732.....	من أخبار أبي جعفر المنصور.....
733.....	من أخبار الأحنف بن قيس.....
733.....	عهد الواثق بقلم ابن الزيات.....
733.....	ألفاظ لأهل العصر في التهنة بالحج.....
733.....	وتفخيم أمر، الحرم و تعظيم، أمر المناسك والمشاعر، وما يتصل بها من الأدعية:.....

734.....	قَطَرِي بن الفُجَاءة.
735.....	باب المديح
735.....	مكاتبات
736.....	بين سعيد بن عبد الملك وسعيد بن حميد
736.....	مكانة سعيد بن حميد.
737.....	نبذ في السرقات الشعرية
740.....	من كتاب الله تعالى
740.....	أمثال للعرب والعجم والعامة.
740.....	وما يماثلها من كتاب الله تعالى:
742.....	جملة من مكاتبات بعض أهل العصر.
744.....	من إنشاء بديع الزمان
745.....	من أخبار سليمان بن عبد الملك.
746.....	من أخبار النعمان بن المنذر.
746.....	والحارث الغساني
746.....	من أخبار المهدي
746.....	من أخبار أبو الأسود الدؤلي
747.....	في باب الوعظ.
747.....	من أخبار هشام بن عبد الملك.
747.....	بين حاتم الطائي وعبد قيس البرجمي.
748.....	بين الحمدوني وابن حرب
750.....	من رسائل ابن العميد
751.....	من شعر المتنبي
752.....	ألفاظ لأهل العصر في ضروب التهاني
756.....	من شعر الشعبي.
756.....	باب الرثاء
757.....	من كلام الأعراب
758.....	سائل في مسجد الكوفة.

758.....	من إنشاء بديع الزمان
760.....	من شعر كشاجم
761.....	الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره
763.....	ما قيل في بيعة يزيد بن معاوية
764.....	الإقدام
764.....	من أخبار أبي دلف وشعره
765.....	من إنشاء الميكالي
766.....	الخرمي يعاتب الوليد بن أبان
767.....	أبو يعقوب الخُرُمي
768.....	فقر وفصول في معان شتى
770.....	حنيفة تغزو نميراً
770.....	دعاء أعرابي
770.....	باب المراسلات
771.....	في الرثاء
771.....	في المدح
772.....	من إنشاء بديع الزمان
776.....	جارية تبذل كبار الشعراء
778.....	ترجمة نهشل بن حرّيّ
778.....	أمدح بيت
780.....	أنصف بيت وأصدق بيت
780.....	ألفاظ لأهل العصر في ذكر النبي
783.....	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com